

الكتاب : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير

نسخة موافقة للمطبوع

المؤلف : جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري

الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

الطبعة : الخامسة، 1424هـ/2003م

مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

<http://www.raqamiya.org>

[الكتاب موافق للمطبوع ، ومعه حاشيته المسماة نهر الخير على أيسر التفاسير]

المجلد الأول

مقدمة

...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله تعالى نعمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً. أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

ثم أما بعد أيضاً فهذا تفسير موجز لكتاب الله تعالى القرآن الكريم وضعته مراعيّاً فيه حاجة المسلمين اليوم إلى فهم كلام الله تعالى الذي هو مصدر شريعتهم، وسبيل هدايتهم وهو عصمتهم من الأهواء وشفائهم من الأدواء، قال تعالى: {وُنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} وقال تعالى: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} . وقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} . ومراعيّاً فيه أيضاً رغبة المسلمين اليوم في دراسة كتاب الله وفهمه والعمل به، هي رغبة لم تكن لهم منذ قرون عدة حيث كان القرآن يقرأ على الأموات دون الأحياء ويُعتبر تفسيره خطيئة من الخطايا وذنباً من الذنوب، إذ ساد بين المسلمين القول: بأن تفسير القرآن: صوابه خطأ وخطأه كفر،

فلذا القارئ يقرأ: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} . والناس حول ضريح الولي المدفون في ناحية المسجد يدعونه بأعلى

(1/4)

أصواتهم: يا سيدي يا سيدي كذا وكذا ولا يجروا أحد أن يقول: يا إخواننا لا تدعوا السيد فإن الله تعالى يقول: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} ويقرأ القارئ {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} . ويسمعه من يسمعه، ولا يخطر على باله أن الآية تصرح بكفر من لم يحكم بما أنزل الله، وأن أكثر المسلمين مورطون في هذا الكفر حيث تركوا تحكيم الشريعة الإسلامية إلى تحكيم القوانين الملققة من قوانين الشرق والغرب وهكذا كان يقرأ القرآن على أموات الأحياء وأحياء الأموات فلا يرى له أثر في الحياة.

هذا ونظراً لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعين وضع تفسير سهل ميسر يجمع بين المعنى المراد من كلام الله، وبين اللفظ الغريب من فهم المسلم اليوم. نُبِّين فيه العقيدة السلفية المنجية. والأحكام الفقهية الضرورية. مع تربية التقوى في النفوس، بتحبيب الفضائل وتبغيض الرذائل، والحث على أداء الفرائض واتقاء المحارم. مع التجميل بالأخلاق القرآنية والتخلي بالآداب الربانية. وقد هممت بالقيام بهذا المتعين عدة مرات في ظرف سنوات، وكثيراً ما يطلب مني مستمعوا دروسي في التفسير في المسجد النبوي أن لو وضعت تفسيراً للمسلمين سهل العبارة قريب الإشارة يساعد على فهم كلام الله تعالى، وكنت أعد أحياناً وأتهرب أحياناً أخرى، حتى ختمت التفسير ثلاث مرات وقاربت الرابعة، وأنا بين الخوف والرجاء وشاء الله تعالى أن أجلس في أواخر محرم عام 1406هـ، إلى فضيلة الدكتور عبد الله بن صالح العبيد رئيس الجامعة الإسلامية ويُلهم أن يقول لي: لو أنك وضعت تفسيراً على غرار الجلالين يحل محله في المعاهد ودور الحديث تلتزم فيه العقيدة السلفية التي خلا منها تفسير الجلالين فضرّ كثيراً بقدر ما نفع، وصادف في النفس رغبتها فأجبتته بأن سأفعل إن شاء الله تعالى. وبهذا الوعد تعينت واستعنت بالله تعالى وشرعت وفي أوائل رجب من العام نفسه تم تأليف المجلد الأول الحاوي لثلث القرآن الكريم وفي أول رمضان كان المجلد الأول قد طبع والحمد لله، وواصلت التأليف والله أسأل أن يتم في أقرب وقت، وأن يتقبله مني وهو منه وله، فينتفع به كل مسلم يقرأه بنية معرفة مراد الله تعالى

(1/5)

من كلامه ليعرف ربه تكسبه خشيته ومحبته ويعرف محابه تعالى ليتقرب بفعلها إليه، ويعرف
مساخطه ليتجنبها خوفاً مما لديه.

هذا وإن مميزات هذا التفسير التي بها رجوت أن يكون تفسير كل مسلم ومسلمة لا يخلو منه بيت
من بيوت المسلمين هي:

- 1- الوسطية بين الاختصار المخل، والتطويل الممل.
- 2- اتباع منهج السلف في العقائد والأسماء والصفات.
- 3- الالتزام بعدم الخروج عن المذاهب الأربعة في الأحكام الفقهية.
- 4- إخلاؤه من الإسرائيليات صحيحها وسقيمها. إلا ما لا بد منه لفهم الآية الكريمة وكان مما تجوز روايته لحديث.. "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج".
- 5- إغفال الخلافات التفسيرية.
- 6- الالتزام بما رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره عند اختلاف المفسرين في معنى الآية، وقد لا
أخذ برأيه في بعض التوجيهات للآية.
- 7- إخلاء الكتاب من المسائل النحوية والبلاغية والشواهد العربية.
- 8- عدم التعرض للقراءات إلا نادراً جداً للضرورة حيث يتوقف معنى الآية على ذلك وبالنسبة
للأحاديث فقد اقتصر على الصحيح والحسن منها دون غيرهما، ولذا لم أعزها إلى مصادرها إلا
نادراً.
- 9- خلو هذا التفسير من ذكر الأقوال وإن كثرت والالتزام بالمعنى الراجح والذي عليه جمهور
المفسرين من السلف الصالح. حتى إن القارئ لا يفهم أن هناك معنى غير الذي فهم من كلام ربه
تعالى، وهذه ميزة جليلة وذلك لحاجة جميع المسلمين على فكر إسلامي موحد صائب سليم.
- 10- التزم في هذا التفسير بالخطة التي مثلتها هذه المميزات رجاء أن يسهل على المسلمين تناول
كتاب الله دراسة وتطبيقاً وعملاً لا هم لهم إلا مرضاة الله بفهم كلامه والعمل به، والحياة عليه عقيدة
وعبادة وخلقاً وأدباً وقضاء وحكماً، فلذا أخليته من كل ما من شأنه أن يشتت الذهن، أو يصرف عن
العمل إلى القول والجدل.

(1/6)

ولذا فقد جعلت الكتاب دروساً منظمة متسقة فقد أجعل الآية الواحدة درساً فأشرح كلماتها، ثم أبين
معناها، ثم أذكر هدايتها المقصودة منها للاعتقاد والعمل.

وقد أجعل الآيتين درساً، والثلاث آيات والأربع والخمس ولا أزيد على الخمس إلا نادراً، وذلك طلباً
لوحدة الموضوع وارتباط المعنى به.

وقد جعلت الآيات مشكولة على قراءة حفص وبخط المصحف وإني أطالب المسلم أن يقرأ أولاً الآيات حتى يحفظها، فإذا حفظها درس كلماتها حتى يفهمها، ثم يدرس معناها حتى يعيه، ثم يقرأ هدايتها للعمل بها. فيجمع بين حفظ كتاب الله تعالى وفهمه والعمل به، وبذلك يسود ويكمل ويسعد إن شاء الله تعالى. وقد جاء في الحديث 1 "أن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع آخرين" فمن قرأه بحسن نية فحفظه وفهمه وعمل به وعلمه فقد يدعى في السماء عظيماً، وفي الحديث الصحيح: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". اللهم اجعلني وسائر المؤمنين ممن يفوزون بهذه الخيرية فيتعلمون كتابك ويعملون به ويعلمونه يا حيّ يا قيوم.

وأخيراً أطلب كل مؤمن ومؤمنة يقرأ تفسيره هذا المسمى: بأيسر التفاسير لكلام الله العلي الكبير أن يستغفر لي ويترحم عليّ هذا حقي عليه اللهم وفقه لأدائه واغفر لي وله وارحمني وإياه وسائر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه الراحي عفو ربه ورضوانه
أبو بكر الجزائري
المدينة المنورة 17 رمضان 1406هـ.

1 رواه مسلم.

[تتبيه]

مراجع هذا التفسير أربعة وهي: جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري، تفسير الجلالين المحلى والسيوطي، تفسير المراغي، تفسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمهم الله أجمعين وجمعنا معهم في جنات النعيم.

(1/7)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ذي الفضل والإنعام، والصلاة والسلام على محمد خير الأنام، وآله الأماجد وصحبه الكرام، وبعد: فإنه نظراً إلى حاجة طلبة العلم إلى المزيد من المعرفة وكان "أيسر التفاسير" قد وُضِعَ وضِعاً خاصاً، إذ الباعث عليه كان تقريب معاني كتاب الله تعالى إلى أفهام عامة المسلمين، وتجلية الأحكام الشرعية لهم ليعبدوا ربهم باعتقاد الحق، وبالعامل بما شرع دون ما ابتدع مُزكّين نفوسهم بذلك

مكملين آدابهم مهذبين أخلاقهم بما أودع الله جل جلاله كتابه من مناهج التربية الروحية والأخلاقية والآداب النفسية، وهو ما صرحت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: " كان خلقه القرآن". إذ لم يقل الله تعالى -فيما علمنا- في كتاب من كتبه {تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ} إلا في القرآن الكريم، ومرة أخرى أقول: إنه نظراً إلى حاجة طلبة العلم إلى المزيد من المعرفة وضعت هذه الحاشية التي هي أشبه بتعليق على "أيسر التفاسير" وأسميتها (نهر الخير) أودعت فيها مع مراعاة الاختصار بعض ما يرغب طالب العلم في معرفته والحصول عليه من شاهد لغة، أو بيان، أو أثر جميل، أو مستند حديث جليل، أو كشف عن وجه لآية ذات وجوه، أو الوقوف على سر من أسرار القرآن أو عجيبة من عجائب القرآن، التي لا تنقضي بمرور الزمان، ولا تنتهي بتعاقب الملوان. وأهم من ذلك تصويب رأي، أو تصحيح خطأ وقع في التفسير، مع إزالة إبهام، أو إضافة بعض الأحكام.

والله تعالى أسأل أن يكون عملي فيه صالحاً، ولوجهه خالصاً، وأن ينفع بنهر الخير كما نفع بأيسر التفاسير إنه بر رحيم وعلى كل شيء قدير.

أبو بكر الجزائري

(1/8)

سورة الفاتحة

...

الجزء الأول

سورة الفاتحة

وهي مكية وآياتها 1 سبع

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)}

شرح الكلمات:

التفسير 2: لغة الشرح والبيان. واصطلاحاً: شرح كلام الله ليفهم مراده تعالى منه فيطاع في أمره ونهيه، ويؤخذ بهدايته وإرشاده. ويُعتبر بقصصه، ويتعظ بمواعظه.

السورة: السورة 3 قطعة من كتاب الله تشتمل على ثلاث آيات فأكثر. وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة أطولها "البقرة" 4 وأقصرها "الكوثر".

الفاتحة: فاتحة لكل شيء بدايته. وفاتحة القرآن الكريم الحمد لله رب العالمين

1 الآية: في اللغة العلامة. ومنه قول الشاعر:

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وإذا العام سابع

2 مصدر فسر تفسيراً أو فعله المجرد فسر كنصر فسرا إذا أبان الكلام وكشف معناه.

3 لفظ السورة مشتق إما من سور البلد لارتفاعها وعلو شأنها أو من سور الشراب وهي البقية إذ هي

بقية من كتاب الله تعالى أي قطعة منه. وكونها مشتقة من الرفعة وعلو الشأن أولى، ويشهد لذلك

قول الشاعر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب

4 أطول آية في القرآن، آية الدين في آخر البقرة، وأقصر آية فيه {مدهامتان} ، من سورة الرحمن.

(1/9)

ولذا سميت الفاتحة. ولها أسماء 1 كثيرة منها أم القرآن. والسبع 2 المثاني. وأم الكتاب 3، والصلاة - .

مكية: المكي من السور: ما نزل بمكة، والمدني منه ما نزل بالمدينة. والسور المكية غالبها يدور على بيان العقيدة وتقريرها والاحتجاج بها وضرب المثل لبيانها وتثبيتها. وأعظم أركان العقيدة: توحيد

الله تعالى في عبادته، وإثبات نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة.

والسور المدنية يكثر فيها التشريع وبيان الأحكام من حلال وحرام.

الآيات: جمع آية وهي لغة: العلامة. وفي القرآن: جملة من كلام الله تعالى تحمل الهدى للناس

بدلالاتها على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه، وعلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته. وآيات

القرآن الكريم ست آلاف ومائتا آية وزيادة 4. وآيات الفاتحة سبع 5 بدون البسمة.

الاستعاذة 6

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

شرح الكلمات:

الاستعاذة: قول العبد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أعوذ: أستجير وأتحصن

بالله: برب كل شيء والقادر على كل شيء والعليم بكل شيء وإله الأولين والآخرين.

1 بلغ بها صاحب الاتقان، نيفا وعشرين اسما، ولم يرد في السنة من ذلك سوى أربع: فاتحة الكتاب،

وأم القرآن، والسبع المثاني، وأم الكتاب.

2 سميت بالسبع المثاني لأنها تنثني أي تكرر في كل ركعة من الصلاة.

3 سميت بأم الكتاب لاشتمالها على أصول ما جاء في القرآن من العقائد والعبادات والشرائع والقصاص.

4 الزيادة تتراوح ما بين أربع آيات إلى أربعين آية على خلاف بين القراء.

5 وقيل البسملة هي الآية السابعة. وإليه ذهب الشافعي فأوجب قراءتها في الصلاة وعلى القول الراجح بأن البسملة آية، فالآية السابعة هي: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ويكون {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} الآية السادسة.

6 العياذ بالله تعالى للاستجارة بالله من المكروه، واللياذ بالله تعالى يكون لطلب المحبوب، يشهد لهذا قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أومله ... ومن أعوذ به ممن أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

- لقول النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين ولعبدني ما سأل فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي..." الحديث رواه النسائي وغيره.

(1/10)

الشیطان: إبليس لعنه الله

الرجيم: المرجوم المبعد المطرود من كل رحمة وخير.

معنى الاستعاذة: أستجير وأتحصن بالله ربي من الشيطان الرجيم أن يلبس عليّ قراءتي. أو يضلني فأهلك وأشقى.

حكم الاستعاذة: يسن لكل من يريد قراءة شيء من القرآن سورة فأكثر أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ. كما يستحب لمن غضب، أو خطر بباله خاطر سوء أن يستعيذ كذلك. البسملة

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)}

البسملة: قول العبد: بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم: لفظ جعل علامة على مُسَمَّى يعرف به ويتميز عن غيره.

الله: اسم علم على ذات الرب تبارك وتعالى يُعرف به.

الرَّحْمَنِ 3: اسم من أسماء الله تعالى مشتق من الرحمة دال على كثرتها فيه تعالى.

الرَّحِيمِ: اسم وصفة لله تعالى مشتق من الرحمة ومعناه ذو الرحمة بعباده المفيضة عليهم في الدنيا والآخرة.

معنى البسملة: ابتدئ 4 قراءتي متبركاً باسم الله الرحمن الرحيم مستعيناً به عز وجل.

-
- 1 لقول الله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} من سورة النحل.
 - 2 اسم لم يُسم به غير الله تعالى، وهل هو جامد أو مشتق من أله يأله إلهة، وألوهة إذا عبد، فالإله بمعنى المألوه أي: المعبود، فلفظ إله اسم جنس يطلق على كل معبود بباطل كسائر الألهة أو بحق كأنه جل جلاله.
 - 3 روى أن عيسى عليه السلام قال: الرحمن رحمان الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة وأعم منه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما".
 - 4 يقدر متعلق الجار والمجرور بحسب المقام، فالقارئ يقول: ابتدئ قراءتي، والكاتب يقول: ابتدئ كتابتي، والأكل يقول: ابتدئ أكلي وهكذا.

(1/11)

حكم البسمة:

مشروع للعبد مطلوب منه أن يُبسم عند قراءة كل سورة من كتاب الله تعالى إلا عند قراءة سورة التوبة فإنه لا يبسم وإن كان في الصلاة المفروضة يبسم سراً إن كانت الصلاة جهرية. ويسن للعبد أن يقول باسم الله 1. عند الأكل والشرب، ولبس الثوب، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند الركوب، وعند كل أمر 2 ذي بال. كما يجب عليه أن يقول بسم الله والله أكبر عند الذبح والنحر.

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2)}

شرح الكلمات:

{الْحَمْدُ}: الوصف بالجميل، والثناء به على المحمود ذي الفضائل والفواضل، كالمدح 4، والشكر 5. {لِلَّهِ}: اللام حرف جر ومعناها الاستحقاق أي: أن الله مستحق لجميع المحامد والله علم على ذات الرب تبارك وتعالى. الرب: السيد المالك المصلح المعبود 6 بحق جل جلاله. {الْعَالَمِينَ}: جمع عالم وهو كل ما سوى الله تعالى، كعالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الحيوان، وعالم النبات.

-
- 1 لحديث: "سم الله وكل بيمينك" وهو في الصحيح.
 - 2 لحديث: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتى" والحديث وإن كان ضعيفاً فإن العمل به لما في معناه من أحاديث صحاح.

3 الحمد لله أعظم سورة في القرآن لحديث البخاري عن أبي سعيد بن المعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، وقوله له ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها".

4 هناك فرق بين المدح والحمد، فالحمد يكون على الجميل الاختياري كما يحمد الله تعالى على لطفه ورحمته وإحسانه. وأما المدح فإنه يكون على الاختياري والاضطراري كما يمدح الإنسان على جمال وجهه وهو ليس فعله وعلى إحسانه الذي هو عمله الاختياري والثناء المدح وتكراره مرة بعد مرة.

5 الشكر: الثناء باللسان على المنعم بما أولى من النعم، فهو أخص ممن الحمد مورداً إذ مورده النعمة فقط وأعمّ متعلقاً إذ متعلقه القلب واللسان والجوارح، لقول القائل:

أفادتك النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا
والحمد يعم المدح والشكر لحديث: "الحمد رأس الشكر".

6 مما شهد لاطلاق لفظ الرب على المعبود قول الشاعر:
أرب يبول الثعلبان برأسه ...
لقد هان من بالت عليه الثعالب

(1/12)

معنى الآية: يخبر تعالى أن جميع أنواع المحامد من صفات الجلال والكمال هي له وحده دون من سواه؛ إذ هو رب كل شيء وخالقه ومالكة.
وأن علينا أن نحمده ونثني عليه بذلك.

{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(3)}

تقدم شرح هاتين الكلمتين في البسمة. وأنها اسمان وصف بهما اسم الجلالة "الله" في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ثناء على الله تعالى لاستحقاقه الحمد كله.

{مَالِكِ 2 يَوْمَ الدِّينِ(4)}

شرح الكلمات:

{مَالِكِ}: المالك: صاحب الملك المتصرف كيف يشاء.

{مَلِكِ}: الملك ذو السلطان الأمر الناهي المعطي المانع بلا ممانع ولا منازع.

{يَوْمَ الدِّينِ}: يوم الجزاء 3 وهو يوم القيامة حيث يجزي الله كل نفس ما كسبت.

معنى الآية: تمجيد الله تعالى بأنه المالك لكل ما في يوم القيامة حيث لا تملك نفس لنفس شيئاً والملك الذي لا ملك يوم القيامة سواه.

-
- 1 لأن اللفظ خبر ومعناه الانشاء أي قولوا: الحمد لله.
 - 2 قرأ حفص {مالك} باسم الفاعل، وقرأ نافع {ملك} بدون ألف وهما قراءتان سبعيتان، والله حقاً هو الملك المالك.
 - 3 صح تفسير {يوم الدين} بيوم الحساب عن السلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما كان الحساب غايته الجزاء صح إطلاق لفظ الجزاء على يوم الدين، إذ يقال: دانه يدينه بكذا دنيا وديننا، إذا حاسبه وجزاه، وفي الحديث: "الكيس من دان نفسه أي: حاسبها، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني". رواه أحمد والترمذي وغيرهما وهو صحيح.

(1/13)

هداية الآيات:

في هذه الآيات الثلاث من الهداية ما يلي:

- 1- أن الله تعالى يحب الحمد، فلذا حمد تعالى نفسه وأمر عباده به.
 - 2- أن المدح يكون لمقتضى. وإلا فهو باطل وزور، فانه تعالى لما حمد نفسه ذكر مقتضى الحمد وهو كونه رب العالمين والرحمن الرحيم ومالك يوم الدين.
- {إِيَّاكَ 2 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (5)

شرح الكلمات:

{إِيَّاكَ}: ضمير نصب يخاطب به الواحد.

{نَعْبُدُ 3}: نطيع مع غاية الذل لك والتعظيم والحب.

{نَسْتَعِينُ 4}: نطلب عونك لنا على طاعتك.

معنى الآية:

علمنا الله تعالى كيف نتوسل إليه في قبول دعائنا فقال: احمدا الله واثنوا عليه ومجدوه، والتزموا له بأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به وتستعينوه ولا تستعينوا بغيره.

هداية الآية:

من هداية هذه الآية ما يلي:

- 1- آداب الدعاء 5 حيث يقدم السائل بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه وتمجيده. وزادت

1 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من أحد أحب إليه الحمد من الله تعالى حتى إنه حمد

- نفسه". ولفظ البخاري. "لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه" وقال صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبده بنعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ". رواه البيهقي عن أنس بسند حسن.
- 2 العدول عن نعبك ونستعينك إلى {إياك نعبد وإياك نستعين} لإفادة الاختصاص والحصر، وفي {إياك نعبد وإياك نستعين} نكتة بلاغية وهي: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وهي من المحسنات البديعية.
- 3 {نعبد} مضارع عبده إذا أطاعه متذلاً له خوفاً منه وطمعاً فيما عنده فأحبه لذلك غاية الحب وعظمه غاية التعظيم وهكذا تكون عبادة المؤمن لربه تعالى.
- 4 وعلى كل ما يهم العبد من أمور دينه ودنياه.
- 5 روى أبو داود والترمذي، والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يدعو في صلاته فلم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عجل هذا، ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليدع بعد مما شاء".

(1/14)

السنة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يسأل حاجته فإنه يستجاب له.

2- أن لا يعبد غير ربه. وأن لا يستعينه إلا هو سبحانه وتعالى.

{هُدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6)}

شرح الكلمات:

{هُدَيْنَا}: أرشدنا وأدم هدايتنا.

{الصِّرَاطَ}: الطريق الموصل إلى رضاك وجنتك وهو الإسلام لك.

{الْمُسْتَقِيمَ}: الذي لا ميل فيه عن الحق ولا زيغ عن الهدى.

معنى الآية:

بتعليم من الله تعالى يقول العبد في جملة إخوانه المؤمنين سائلاً ربه بعد أن توسل إليه بحمده والثناء

عليه وتمجيده، ومعاهدته أن لا يعبد هو وإخوانه المؤمنون إلا هو، وأن لا يستعينوا إلا به. يسألونه

أن يُدِيمَ هدايتهم 3 للإسلام حتى لا ينقطعوا عنه.

من هداية الآية:

الترغيب في دعاء الله والتضرع إليه، وفي الحديث: "الدعاء 4 هو العبادة".

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (6)}

شرح الكلمات:

{الصِّرَاطُ}: تقدم بيانه.

{الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}: هم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون5، وكل من أنعم الله

1 روى أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذا نكث، قال: الله أكثر."

2 فعل الهداية يتعدى بنفسه وبحرف الجر فمن الأول قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ، ومن الثاني، قوله تعالى: {مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} .

3 الهداية نوعان: هداية بيان وإرشاد، وهذه تطلب من ذوي العلم، فهم يبينون للسائل طرق الخير ويرشدونه إليها. هداية توفيق إلى اعتقاد الحق ولزومه في الاعتقاد والقول والعمل، وهذه لا تطلب إلا من الله تعالى، ومنها هذه الدعوة: اهدنا الصراط المستقيم، ويشهد للهداية الأولى، وهي هداية البيان قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} . ويشهد للثانية قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} . فأثبت لنبيه هداية البيان ونفي عنه هداية التوفيق وهي الهداية القلبية الباطنة.

4 رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

5 ورد هذا البيان في قوله تعالى من سورة النساء {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} .

(1/15)

عليهم بالإيمان به تعالى ومعرفته، ومعرفة محابه، ومساخطه، والتوفيق لفعل المحاب وترك المكاره.
معنى الآية:

لما سأل المؤمن له وإخوانه الهداية إلى الصراط المستقيم، وكان الصراط مجملاً بينه بقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} ، وهو المنهج القويم المفضي بالعبد إلى رضوان الله تعالى والجنة، وهو الإسلام القائم على الإيمان والعمل مع اجتناب الشرك1 والمعاصي.

هداية الآية:

من هداية الآية بما يلي:

1- الاعتراف بالنعمة.

2- طلب حسن القدوة.

{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} (7)

شرح الكلمات:

{غَيْرِ}: لفظ يستثنى 2 به كإلا.

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: من غضب الله تعالى عليهم لكفرهم وفسادهم في الأرض؛ كاليهود.
الضَّالِّينَ : من أخطأوا طريق الحق فعبدوا 3 الله بما لم يشرعه؛ كالنصارى.

- 1 الشرك: عبادة غير الله مع الله تعالى، أو اعتقاد ربوبية أو ألوية كائن من كان مع الله تعالى ولو لم يعبدته إشراك المخلوق في صفات الخالق الذاتية أو الفعلية.
- 2 لفظ غير مفرد مضاف دائماً لفظاً أو معنى وإدخال أل عليه خطأ وأصله الوصف ويستثنى به.
- 3 الضلال : الانحراف والبعد عن الهدى المطلوب وهو في الشرع نوعان: ضلال في الاعتقاد، وضلال في العمل. فالضلال في الاعتقاد: هو كل اعتقاد مخالف كلاً أو بعضاً للمعتقد الإسلامي الذي بينه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. والضلال في العمل: هو عبادة الله تعالى بغير ما شرع والتقرب إليه عز وجل بما لم يشرعه قربة، ولا ينجو من هذا الضلال إلا من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(1/16)

معنى الآية:

لما سأل المؤمن ربّه الصراط المستقيم، وبينه بأنه صراط من أنعم عليهم بنعمة الإيمان 1 والعلم والعمل. ومبالغة في طلب الهداية إلى الحق، وخوفاً من الغواية استثنى كلاً من طريق المغضوب عليهم، والضالين.

هداية الآية:

من هداية الآية:

الترغيب في سلوك سبيل الصالحين، والترهيب من سلوك سبيل الغاوين.

[تنبه أول]: كلمة: آمين ليست من الفاتحة. ويستحب أن يقولها الإمام إذا قرأ الفاتحة يمد بها صوته ويقولها المأموم، والمنفرد كذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا أمن الإمام فأمنوا". أي: قولوا آمين بمعنى: الله استجب دعائنا، ويستحب الجهر بها؛ لحديث ابن ماجة: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال: " {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ". قال آمين حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد".

[تنبه ثان]: قراءة الفاتحة واجبة في كل ركعة من الصلاة، أما المنفرد والإمام فلا خلاف في ذلك، وأما المأموم فإن الجمهور من الفقهاء على أنه يسن له قراءتها في السرية دون الجهرية لحديث: "من كان له إمام فقراءة 2 الإمام له قراءة"، ويكون مخصصاً لعموم حديث: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

1 لفظ النعمة اسم جنس تحته أربعة أنواع: الأولى: نعمة الإيمان بالله وبما أوجب الإيمان به. الثانية: نعمة معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته. والثالثة: نعمة معرفة محابه ومكارهه. والرابعة: نعمة التوفيق لفعل المحاب وترك المكاره.

2 رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا آمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنوبه".

(1/17)

سورة البقرة

...

سورة البقرة 1

مدنية وآياتها مائتان وست أو سبع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ 2 بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

(1) {الم}

شرح الكلمات :

{الم}: هذه من الحروف المقطعة تكتب الم. وتقرأ هكذا:

ألف لام ميم. والصور المفتحة بالحروف المقطعة تسع وعشرون سورة أولها البقرة هذه، وآخرها القلم {ن} ومنها الأحادية مثل: {ص} ، و {ق} ، و {ن} ، ومنها الثنائية مثل: {طه} ، و {يس} ، و {حم} ، ومنها الثلاثية والرباعية والخماسية، ولم يثبت في تفسيرها عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء كونها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه أقرب إلى الصواب، ولذا يقال

1 ورد وصح في فضل سورة البقرة قوله صلى الله عليه وسلم: "اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة

وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة" أي: السحرة. وروى الترمذي، وصححه: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً وهم ذوو عدد، وقدّم عليهم أحدثهم سناً لحفظه سورة البقرة، وقال له: "أذهب فأنت أميرهم". وروى أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة".

2 قرأ نافع يؤمنون بتخفيف الهمزة جمعاً وإفراداً في كامل القرآن، وقرأها حفص مهموزة في كل القرآن.

(1/18)

فيها: ألم: الله أعلم 1 بمراده ذلك.

وقد استخرج منها بعض أهل العلم فائدتين: الأولى: أنه لما كان المشركون يمنعون سماع القرآن مخافة أن يؤثر في نفوس السامعين كان النطق بهذه الحروف حم. طس. ق. كهيعص. وهو منطق غريب عنهم يستميلهم إلى سماع القرآن، فيسمعون فيتأثرون وينجذبون فيؤمنون ويسمعون وكفى بهذه الفائدة من فائدة. والثانية: لما أنكر المشركون كون القرآن كلام الله أوحاه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كانت هذه الحروف بمثابة المتحدي لهم كأنها: أن هذا القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف فألفوا أنتم مثله. ويشهد بهذه الفائدة ذكر لفظ القرآن بعدها غالباً نحو: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} ، {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ} ، كأنها تقول: إنه من مثل هذه الحروف تألف القرآن فألفوا أنتم نظيره فإن عجزوا فسلموا أنه كلام الله ووحيه وآمنوا به تفلحوا.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} (2)

شرح الكلمات:

{ذَلِكَ}: هذا، وإنما عدل عن لفظ هذا إلى ذلك. لما تفيد الإشارة بلام البعد 3 من علو المنزلة

وارتفاع القدر والشأن.

{الْكِتَابُ} 4: القرآن الكريم الذي يقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس.

{لَا رَيْبَ} 5: لا شك أنه وحى الله وكلامه أوحاه إلى رسوله.

1 روى عن أبي بكر وعلي رضي الله عنهما وعن عامر الشعبي وسفيان الثوري إنهم قالوا: الحروف المقطعة هي سر الله في القرآن والله في كل كتاب من كتبه سر. فهي من المتشابهة الذي انفرد الله بعلمه فلا ينبغي أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها.

2 دليله قوله تعالى من سورة فصلت: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَغْلِبُونَ} .

- 3 اسم الإشارة هو: (ذا) وهو للقريب ويقال (ذاك) للمتوسط البعد (وذلك) للبعيد.
- 4 يطلق لفظ الكتاب على الفرض نحو: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} . أي فرض، وعلى العقد بين العبد وسيده نحو: {وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ} . وعلى القدر، نحو: {كِتَابَ اللَّهِ} ، أي قدره وقضاؤه، ويصح في إعراب الكتاب أن يكون بدلاً من اسم الإشارة، ويصح أن يكون خيراً له.
- 5 وريب الدهر: صروفه وخطوبه، وأصل الريب: قلق النفس لحديث الصحيح: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريب وإن الصدق طمأنينة" .

(1/19)

{فِيهِ هُدًى 1}: دلالة على الطريق الموصل إلى السعادة والكمال في الدارين.

{لِلْمُتَّقِينَ 2}: المتقين أي: عذاب الله بطاعته بفعل أوامره واجتناب نواهيه

معنى الآية:

يخبر تعالى أن ما أنزله على عبده ورسوله من قرآن يمثل كتاباً فحماً عظيماً لا يحتمل الشك، ولا يتطرق إليه احتمال، كونه غير وحي الله وكتابه بحال، وذلك لإعجازه، وما يحمله من هدى ونور لأهل الإيمان والتقوى يهتدون بهما إلى سبيل السلام والسعادة والكمال.

هداية الآية:

من هداية الآية:

- 1- تقوية الإيمان بالله تعالى وكتابه ورسوله، الحث على طلب الهداية من الكتاب الكريم.
- 2- بيان فضيلة التقوى وأهلها.

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}.

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}.

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

شرح الجمل:

{يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}: يصدقون تصديقا جازماً بكل ما هو غيب 3 لا يدرك بالحواس كالرب تبارك وتعالى ذاتاً وصفاتٍ، والملائكة والبعث، والجنة ونعيمها والنار وعذابها.

{وَيُقِيمُونَ 4 الصَّلَاةَ 5}: يُدِيمُونَ أداء الصلوات الخمس في أوقاتها مع مراعاة شرائطها وأركانها وسننها ونوافلها الراتبة وغيرها.

1 الهدي: مصدر هدى، يهدي. وهو مذكر، نحو: هذا هدى هدى، وهو من أسماء النهار. وهو على وزن السرى والبكى واللقى، من لقي الشيء، يلقاه لقياً.

2 المتقي: اسم فاعل من اتقى، الذي أصله وقى إذا حفظ. واتقى بزيادة تاء الافتعال لاتخاذها وقاية تقيه وابدلت واو وقى في اتقى تاء وزيدت فيها همزة وصل وتاء الافتعال فصارت اتقى، أي: طلب الوقاية والحفظ مما يخاف ويكره.

3 الغيب: مصدر غاب، يغيب، غيباً، إذا لم يظهر فلم يرى للعيان، ومعناه: محصل في الصدور. والإيمان. بالغيب مفتاح كل التقوى وكل خير.

4 إقام الصلاة جعلها قائمة أي: مؤداه لا تسقط ولا تهمل. نحو: {أَقِيمُوا الدِّينَ} أي: أظهره بالعمل به والدعوى إليه، والصلاة عمود الدين فمن أقامها أقام الدين ومن أقعدها فلم يقمها فقد ترك الدين وأهمله.

5 الصلاة اسم جامد وزنها فعلة، ولذا يجمع على صوات بفتح الفاء والعين واللام بمعنى الدعاء، يقال: صلى إذا دعا وهي =

(1/20)

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ 1 يُنْفِقُونَ} : من بعض ما آتاهم الله من مال ينفقون وذلك بإخراجهم لزكاة أموالهم وإبفاقهم على أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ووالديهم وتصدقهم على الفقراء والمساكين.
{يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}

: يصدقون بالوحي الذي أنزل إليك أيها الرسول وهو الكتاب والسنة.

{وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} : ويصدقون بما أنزل الله تعالى من كتب على الرسل من قبلك؛ كالتوراة والإنجيل والزيور.

{وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ 2} : وبالحياء في الدار الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب هم عالمون متيقنون لا يشكون في شيء من ذلك ولا يرتابون لكامل إيمانهم وعظم اتقائهم.

{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ} : الإشارة إلى أصحاب الصفات الخمس السابقة والإخبار عنهم بأنهم بما هداهم الله تعالى إليه من الإيمان وصالح الأعمال هم متمكنون 3 من الاستقامة على منهج الله المفضي بهم إلى الفلاح.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} : الإشارة إلى أصحاب الهداية 4 الكاملة والإخبار عنهم بأنهم هم المفلقون 5 الجديرون بالفوز الذي هو دخول الجنة بعد النجاة من النار.

في الشرع عبادة ذات ركوع وسجود وتكبير وتلاوة وتسبيح تفتح بالتكبير وتختتم بالتسليم.

= في الشرع عبادة ذات ركوع وسجود وتلاوة وتسبيح تفتح بالتكبير وتختتم بالتسليم.

1 الرزق هو: كل ما أوجده الله تعالى في الدنيا للإنسان من صنوف الأموال وضروب المأكولات

والمشروبات والملبوسات والمركوبات والمساكن، والمراد بالرزق في الآية: المال صامتاً كان أو ناطقاً.
2 اليقين: اسم فاعل من يقن الأمر وضح وثبت، والمراد به: العلم الحاصل عن نظر وتفكر موجب لعدم الشك واضطراب النفس.

3 دل على التمكن من الاستقامة حرف: (على) في قولهم: على هدى من ربهم فإن الاستعلاء، إذ الراكب على الفرس متمكن منها يصرفها كيف يشاء لعلوه عليها.

4 وهم المتقون أصحاب الصفات الخمس التي هي: الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، وإنفاق مما رزقهم الله، والإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل على من قبله، والإيمان بالآخرة.

5 الفلاح: مشتق من فلاح الأرض إذا شقها، إذ الفلاح الشق والقطع كما قال الشاعر:
إن الحديد بالحديد يفلح. أي يشق ويقطع. ومنه الفلاح، وهو الرجل يشق الأرض بالمحراث، وعليه فالمفلح: من شق طريقه بين صفوف أهل الموقف ودخل الجنة، ويطلق الفلاح على الفوز وهو السلامة من المرهوب، والظفر بالمرغوب، قال الشاعر:
لو كان حي مدرك الفلاح ...
أدركه ملاعب الرماح ...
أي فاز به.

(1/21)

معنى الآيات:

ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث صفات المتقين من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان بما أنزل الله من كتب والإيمان بالدار الآخرة وأخبر عنهم بأنهم لذلك هم على أتم هداية من ربهم، وأنهم هم الفائزون في الدنيا بالطهر والطمأنينة وفي الآخرة بدخول الجنة بعد النجاة من النار.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

دعوة المؤمنين وترغيبهم في الاتصاف بصفات أهل الهداية والفلاح، ليسلكوا سلوكهم فيهدتوا ويفلحوا في دنياهم وأخراهم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)}

شرح الكلمات:

{كَفَرُوا}: الكفر: لغة التغطية والحدود، وشرعاً: التكذيب 1 بالله وبما جاءت به رسله عنه كلاً أو

بعضاً.

{سَوَاءٌ 2} : بمعنى مُسْتَوٍ انذارهم وعدمه، إذ لا فائدة منه لحكم الله بعدم هدايتهم.
{أَنْذَرْتَهُمْ} : الإنذار التخويف بعاقبة الكفر والظلم والفساد.

1 وقد يطلق الكفر على جحود النعمة والإحسان، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "يكفرن العشير والإحسان"، لما قال: "رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء". فقيل له: بم يا رسول الله؟. قال: يكفرن، قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير -أي الزوج- ويكفرن الإحسان .
2 سواء عليهم: هذا خبر إن الذين كفروا. وسواء: اسم مصدر، إذ فعله استوى، والمصدر الاستواء، واسم المصدر سواء، ولذا فهو بمعنى مستو، أي: استوى إنذارهم وعدمه في إنهم لا يؤمنون، وهذا من العام الخاص، إذ ما كل الكافرين لا يؤمنون وإنما من كتبت عليهم الشقوة إذلالاً؛ كأبي لهب وأبي جهل وعقبة والعاصي والنضر وغيرهم.

(1/22)

{ختم 1 الله} : طبع، إذ الختم والطبع واحد وهو وضع الخاتم أو الطابع على الظرف حتى لا يعلم ما فيه، ولا يتوصل إليه فيبدل أو يغير.

الغشاوة : الغطاء يغشى به ما يراد منع وصول شيء إليه.

العذاب: الألم يزيل عذوبة الحياة ولذتها. مناسبة الآيتين لما قبلهما ومعناهما:

لما ذكر أهل الإيمان والتقوى والهداية والفلاح ذكر بعدهم أهل الكفر والضلال والخسران، فقال: [إن الذين كفروا] 2 إلخ. فأخبر بعدم استعدادهم للإيمان حتى استوى إنذارهم 3 وعدمه وذلك لمضي سنة الله فيهم بالطبع على قلوبهم حتى لا تفقه، وعلى آذانهم 4 حتى لا تسمع، ويجعل الغشاوة على أعينهم حتى لا تبصر، وذلك نتيجة مكابرتهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر. وبذلك استوجبوا العذاب العظيم فحكم به عليهم. وهذا حكم الله تعالى في أهل العناد والمكابرة والإصرار في كل زمان ومكان.
هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- بيان سنة الله تعالى في أهل العناد والمكابرة والإصرار بأن يحرمهم الله تعالى الهداية، وذلك بتعطيل حواسهم حتى لا ينتفعوا بها فلا يؤمنوا ولا يهتدوا.

2- التحذير من الإصرار على الكفر والظلم والفساد الموجب للعذاب العظيم.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} (8)

- 1 الختم: حقيقته السد على الإناء، والغلق على الكتاب بطين ونحوه، والخاتم: هو ما سد وأغلق به.
- 2 قطعت جملة: إن الذين كفروا ولم تعطف على السابق لكمال الانقطاع بينهما وهو التضاد، إذ الأولى في ذكر الهداية والمهتدين، وهذه في ذكر الكفر والكافرين.
- 3 قد يقال: ما دام قد علم الله تعالى أن بعضاً لا يؤمنون فلم يندرون، إذا إنذارهم مع العلم بأنه لا ينفعهم، تكليف بالمحال. والجواب: أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لكل أحد، وهو صلى الله عليه وسلم لم يعلم من كتب الله تعالى عليه الشقاء ممن كتب له السعادة، فلذا هو يدعو وينذر، ومن كان من أهل السعادة أجاب الدعوة، ومن لم يكن من أهلها رفضها ولم يجب.
- 4 تقديم السمع على البصر في عدة آيات من القرآن يفيد أن حاسة السمع أنفع من حاسة البصر، وهو كذلك والعقل أعظم.

(1/23)

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

شرح الكلمات:

- {وَمِنَ النَّاسِ 1}: من بعض الناس.
- {مَنْ يَقُولُ آمَنًا بِاللَّهِ 3}: صدقنا بالله ربنا وإلها لا إله غيره ولا رب سواه.
- {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}: صدقنا بالبعث والجزاء يوم القيامة.
- {يُخَادِعُونَ 4 الله}: بإظهارهم الإيمان وإخفائهم الكفر.
- {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ 5}: إذ عاقبة خداعهم تعود عليهم لا على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين.

{وَمَا يَشْعُرُونَ}: لا يعلمون أن عاقبة خداعهم عائدة عليهم.

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}: في قلوبهم شك ونفاق وألم الخوف من افتضاح أمرهم والضرب على أيديهم.

{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}: شكاً ونفاقاً وألماً وخوفاً حسب سنة الله في أن السيئة لا تعقب إلا سيئة.

{عَذَابٌ أَلِيمٌ}: موجع شديد الوقع على النفس. مناسبة الآية لما قبلها وبيان معناها:

لما ذكر تعالى المؤمنين الكاملين في إيمانهم وذكر مقابلهم وهم الكافرون البالغون في الكفر

1 لفظ الناس مشتق من الناس، ينوس إذا تحرك كذا قيل: وهل هو من النسيان، أو الإنس الكل

محتمل لأن آدم نسي ولأنه حصل له الأتس بحواء.

2 ومن الناس: خبر، والمبتدأ من يقول، والسر في تقديم الخبر هنا: هو إخفاء المخبر عنه، لأنه ذو

صفات ذميمة، وأفعال شنيعة نحو، قول: ما بال أقوام يقولون: كذا وكذا بما هو مؤذن بالتعجب من حالهم أيضاً.

3 أي اعتقدنا على علم إن الله لا إله إلا هو ولا رب سواه، إذ الإيمان: التصديق الجازم بوجود الله تعالى رباً وإلهاً موصوفاً بالكمال منزهاً عن كل نقصان، والتصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به من الملائكة والكتب، والرسل والبعث والقدر.

4 وإن قيل: ما وجه مخادعتهم الله تعالى والمؤمنين بإظهارهم الإيمان والإسلام تمويهاً في نظرهم على الله، إذ لم يعرفوا جلاله وكماله، وعلى المؤمنين ظناً منهم إنهم لا يعلمون ما يخفون في نفوسهم من الكفر والعداء. وأما مخادعة الله لهم فهي علمه تعالى بما يبطنون من الكفر والشر وعدم فضيحتهم بذلك، فلم يكشف أسرارهم ولم يذكرهم في وحيه بأسمائهم، ومخادعة المؤمنين لهم هي: علمهم بنفاقهم وعدم مؤاخذتهم ونسبتهم إليه. هذا ولو قلنا: إن صيغة المفاعلة هنا ليست على بابها فهي بمعنى خدع يخدع، وذلك نحو: عاقبت اللص وعالجت المريض فلم نحتج إلى ما ذكرنا. والله أعلم.

5 قرأ نافع والجمهور: وما يخادعون، بألف بعد الخاء، وقرأ حفص: يخدعون، بسكون الخاء.

(1/24)

منتهاه ذكر المنافقين وهم: المؤمنون في الظاهر الكافرون في الباطن، وهم شر من الكافرين البالغين في الكفر أشده.

أخبر تعالى أن فريقاً من الناس وهم المنافقون 1 يدعون الإيمان بالسنتهم ويضمرون الكفر في قلوبهم يخادعون 2 الله والمؤمنين بهذا النفاق. ولما كانت عاقبة خداعهم عائدة عليهم. كانوا بذلك خادعين أنفسهم لا غيرهم ولكنهم لا يعلمون ذلك ولا يدرون به.

كما أخبر تعالى أن في قلوبهم مرضاً وهو الشك والنفاق والخوف، وأنه زادهم مرضاً عقوبة لهم في الدنيا وتوعدهم بالعذاب الأليم في الآخرة بسبب كذبهم وكفرهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

التحذير من الكذب والنفاق والخداع، وأن عاقبة الخداع تعود على صاحبها كما أن السيئة لا يتولد عنها إلا سيئة مثلها.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

شرح الكلمات:

الفساد في الأرض : الكفر وارتكاب المعاصي فيها.

الإصلاح في الأرض: يكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، وترك الشرك والمعاصي.

{لا يشعرون} : لا يدرون ولا يعلمون.

{السفهاء} : جمع سفيه: خفيف العقل لا يحسن التصرف والتدبير.

1 المنافق: كل من يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والمذكرون كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، إنهم كانوا ثلاث مائة رجل، ومائة وسبعون امرأة، بعضهم من الأوس والخزرج وبعضهم من اليهود ورأس منافقي المشركين عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسلم من أسلم وهلك من هلك إلا ما كان من عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أوقد نار الفتنة بالتعاون مع المجوس.

2 الخدع: أصله الإخفاء والفساد، ومنه مخدع البيت الذي تخفى فيه الأشياء، والخادع والخادع بمعنى واحد: وهو أن يظهر بقوله أو فعله إنه يريد النفع وهو يريد الضر، وهو حرام إلا في الحرب فإنه جائز.

(1/25)

معنى الآيات:

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم إذا 1 قال لهم أحد المؤمنين لا تفسدوا 2 في الأرض بالنفاق وموالاتة اليهود والكافرين ردوا عليه قائلين: إنما نحن 3 مصلحون في زعمهم، فأبطل الله تعالى هذا الزعم وقرر أنهم هم وحدهم المفسدون لا من عرضوا بهم من المؤمنين، إلا أنهم لا يعلمون ذلك لاستيلاء الكفر على قلوبهم. كما أخبر تعالى عنهم بأنهم إذا قال لهم أحد المؤمنين صدقوا في إيمانكم وآمنوا إيمان فلان وفلان مثل: عبد الله بن سلام. ردوا قائلين: أنؤمن 4 إيمان السفهاء الذين لا رشد لهم ولا بصيرة 5 فرد الله تعالى عليهم دعواهم وأثبت السفه لهم ونفاه عن المؤمنين الصادقين ووصفهم بالجهل وعدم العلم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- نذم الادعاء الكاذب وهو لا يكون غالباً إلا من صفات المنافقين.

2- الإصلاح في الأرض يكون بالعمل بطاعة الله ورسوله، والإفساد فيها يكون بمعصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

العاملون بالفساد في الأرض يبررون دائماً إفسادهم بأنه إصلاح وليس بإفساد.
{وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} (14) اللَّهُ
يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ
تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} (16)

- 1 أصل الإفساد: جعل منفعة الشيء مضرّة؛ كإفساد الطعام ونحو بما يلقي فيه.
- 2 إذا: هنا ليست شرطية بل لمطلق الظرفية.
- 3 قولهم: إنما نحن مصلحون: لا ذم فيه، وإنما جاءه الذم من كونهم مفسدين وادعوا إنه مصلحون.
- 4 الاستهزام هنا: إنكاري، أي: إذا دعوا إلى الإيمان أنكروا دعوة من دعاهم طاعنين في إيمان المؤمنين، إذ نسبوهم إلى السفه، وهو خفة العقل، وقلة إدراك الأمور مبادئ وعواقب.
- 5 أي: بقوله: ألا إنهم هم السفهاء، فبرأ المؤمنين من هذا العيب ووصم به المنافقين، وهم أهله حقاً، فإنه لا سفه أكبر من الكفر بالحق والإيمان بالباطل.

(1/26)

شرح الكلمات:

- {لَفُوا} 1 : اللقاء: والملاقاة: المواجهة وجهاً لوجه.
- {آمَنُوا} : الإيمان الشرعي: التصديق بالله وبكل ما جاء به رسول الله عن الله، وأهله هم المؤمنون بحق.
- {خَلَوْا} : الخلو بالشيء 2: الانفراد به.
- {شِيَاطِينِهِمْ} 3 : الشيطان كل بعيد عن الخير قريب من الشر يفسد ولا يصلح من إنسان أو جان، والمراد بهم هنا رؤساؤهم في الشر والفساد.
- {مُسْتَهْزِئُونَ} 4 : الاستهزاء: الاستخفاف والاستسخار بالمرء.
- الطغيان : مجاوزة الحد في الأمر والإسراف فيه.
- العَمَه 5: للقلب؛ كالعَمى للبصر: عدم الرؤية وما ينتج عنه من الحيرة والضلال.
- {اشْتَرَوْا} 6 : استبدلوا بالهدى الضلالة، أي: تركوا الإيمان وأخذوا الكفر.
- {تِجَارَتُهُمْ} : التجارة: دفع رأس مال لشراء ما يربح إذا باعه، والمنافقون هنا دفعوا رأس مالهم وهو الإيمان لشراء الكفر آملين أن يربحوا عزاً وغنى في الدنيا فخسروا ولم يربحوا إذ دُلُّوا وعُذِّبوا وافتقروا بكفرهم.
- المهتدي : السالك سبيلاً قاصدة تصل به إلى ما يريده في أقرب وقت وبلا عناء، والضال خلاف

المهتدي: وهو السالك سبيلاً غير قاصدة فلا تصل به إلى مراده حتى يهلك قبل الوصول.

- 1 أصل لقوا: لقيوا نقلت الضمة إلى القاف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين، إذ فعله لقي كرضي.
- 2 عدي فعل خلوا ب إلى ولم يعد بالباء، إذ يقال خلا بكذا؛ لأن خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا.
- 3 فسر بعضهم الشياطين بالكهان وبشياطين الجن، والصحيح إنهم رؤسائهم في الكفر والشر والفساد من منافقي اليهود وغيرهم.
- 4 أي: مكذبون بما ندعي إليه ساخرون من أهله.
- 5 العمه: انطماس البصيرة والتحير في الرأي وفعله، عمه فهو عامه وأعمه.
- 6 الاشتراء: افتعال من شرى يشتري بمعنى: باع. إذ فعل شرى يكون بمعنى باع وبمعنى اشتري، فاشتري كابتاع كلاهما مطاوع فعله شرى أو باع، إذ كل من البائع والمشتري أخذ شيئاً وأعطى آخر.

(1/27)

معنى الآيات:

ما زالت الآيات تخبر عن المنافقين وتصف أحوالهم إذ أخبر تعالى عنهم في الآية الأولى (14) أنهم لنفاقهم وخبثهم إذا لقوا الذين آمنوا في مكان ما أخبروهم بأنهم مؤمنون بالله والرسول وما جاء به من الدين، وإذا انفردوا برؤسائهم في الفتنة والضلالة فلاموهم عما ادّعوه من الإيمان، قالوا لهم: إنا معكم على دينكم وما آمنة أبداً. وإنما أظهرنا الإيمان استهزاء وسخرية بمحمد وأصحابه.

كما أخبر في الآية الثانية (15) أنه تعالى يستهزئ بهم معاملة لهم بالمثل جزاء وفاقاً ويزيدهم 1 حسب سنته في أن السيئة تلد سيئة في طغيانهم لتزداد حيرتهم واضطراب نفوسهم وضلال عقولهم.

كما أخبر في الآية (16) أن أولئك البعداء في الضلال قد استبدلوا الإيمان بالكفر والإخلاص بالنفاق، فلذلك لا تريح تجارتهم 2 ولا يهتدون إلى سبيل ربح أو نُجح محال.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالمنافقين والتحذير من سلوكهم في ملاقاتهم هذا بوجه وهذا بوجه آخر وفي الحديث: "شراركم ذو الوجهين" 3.
- 2- إن من الناس 4 شياطين يدعون إلى الكفر والمعاصي 5، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.
- 3- بيان نقم الله، وإنزالها بأعدائه عز وجل.

1 تفسير لقوله تعالى: ويمدهم، إذ المد بالزيادة، يقال: مده بكذا، إذا زاده، وقيل: يستعمل أمد في الخير، نحو: {وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنٍ} ويستعمل مد في الشر، كما في هذه الآية: {وَيُمَدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} .

2 إسناد الريح إلى التجارة لكونها سبباً للريح، وإلا فالريح للتاجر لا للتجارة، وهذا الاستعمال في اللغة نحو قول الشاعر:

نهارك هائم وليك نائم ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم
إذ أسند الهيام إلى النهار، والنوم إلى الليل.

3 روى البخاري ومسلم، والشاهد في قوله صلى الله عليه وسلم: "وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

4 شياطين الإنس كشياطين الجن، إذ كل من بعد في الشر وتوغل فيه وأصبح لا يروم الخير ولا يحبه فهو شيطان يستعاذ بالله منه.

5 المعاصي: جمع معصية، وهو ترك ما أوجب الله ورسوله القيام أو فعل ما حرم الله ورسوله فعله، سواء في ذلك الاعتقاد، والقول، والعمل إذا الواجبات والمنهيات تكون في الاعتقاد والقول والعمل.

(1/28)

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} (17) صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)}

شرح الكلمات:

{مَثَلُهُمْ 1} : صفتهم 2 وحالهم.

{اسْتَوْقَدَ} : أوقد ناراً.

{صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ} : لا يسمعون ولا ينطقون ولا يبصرون.

الصيب : المطر.

الظلمات : ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر.

الرعد : الصوت القاصف يُسمع 3 حال تراكم السحاب ونزول المطر.

البرق : ما يلمع من نور حال تراكم السحاب ونزول المطر.

{الصَّوَاعِقِ} : جمع صاعقة: نار هائلة تنزل أثناء قصف الرعد ولمعان البرق يصيب الله تعالى بها

من يشاء.

- 1 القول السائر: مثل: أحشفا وسوء كيله؟ والصيف ضيعت اللبن ويعرف المثل بأنه قول شبه مضر به بمورده ومضر به في الحال المشبه ومورده هو الحال المشبه بها.
- 2 قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ} الآيات: تضمن مثلين: نارياً: وهو المثل الأول. ومائياً: هو المثل الثاني، والمثلان وقعان من السياق الأول موقع البيان والتقرير، والفضلكة، ولذا لم تعطف جملة مثلهم لكمال الاتصال بينها وبين الجمل السابقة.
- 3 ظاهرة الرعد والبرق يفسرها علماء الطبيعة؛ بأنه نتيجة اتحاد كهرباء السحاب الموجبة بالسالبة.

(1/29)

-
- {حَذَرَ الْمَوْتِ} : توقيا للموت.
- {مُحِيطٌ} : المحيط المكتنف للشيء من جميع جهاته.
- {يَكَادُ} : يقرب.
- {يَخْطَفُ} : يأخذه بسرعة.
- {وَأَبْصَارِهِمْ} : جمع بصر وهو العين المبصرة. معنى الآيات:
- مثل 1 هؤلاء المنافقين فيما يظهرون من الإيمان مع ما هم مبطنون من الكفر كمثل 2 من أوقد ناراً للاستضاءة بها فلما أضاءت لهم ما حولهم وانتفعوا بها أدنى انتفاع ذهب الله بنورهم 3 وتركهم في ظلمات لا يبصرون. لأنهم بإيمانهم الظاهر صانوا دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم من القتل والسبي، وبما يضمرون من الكفر إذا ماتوا عليه يدخلون النار فيخسرون كل شيء حتى أنفسهم. هذا المثل تضمنته الآية الأولى (17)، وأما الآية الثانية (18) فهي إخبار عن أولئك 4 المنافقين بأنهم قد فقدوا كل استعداد للاهتداء فلا آذانهم تسمع صوت الحق ولا ألسنتهم تتطرق به، ولا أعينهم تبصر آثاره، وذلك لتوغلهم في الفساد. فلذا هم لا يرجعون عن الكفر إلى الإيمان بحال من الأحوال. وأما الآية الثالثة والرابعة (19)(20) فهما تتضمنان مثلاً آخر لهؤلاء المنافقين. وصورة المثل العجيبة والمنطقية على حالهم هي مطر 5

-
- 1 المثل: متحرك الوسط، الأصل فيه أنه النظير والمشابه وفيه لغات وهي: المثل بكسر الميم، والمثيل بفتح الميم وكسر المثلية وإشباعها. ونظير المثل الشبه والبديل، ففي كل واحد ثلاث لغات ولا نظير لها في اللغة، يقال: شبه وشبهه وشبيهه وبذل وبذل وبديل.

2 قوله: {الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} . مفرد وقوله: {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ} . جمع، فهل الذي هنا بمعنى: الذين على حد قول القائل:

وإن الذي حانت دمائهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

من الجائز أن يكون الذي بمعنى الذين لوروده في فصيح اللغة، وهو من باب الالتفات لا غير.

3 عدل عن لفظ. ذهب الله بنارهم. إلى قوله: نورهم. إشارة إلى أن الإسلام نور يهدي لا نار تحرق.

4 يرى ابن كثير أن هؤلاء المنافقين كانوا قد آمنوا ثم بعد إيمانهم كفروا في الباطن مظهرين الإيمان في الظاهر، ويرى ابن جرير خلاف ذلك، وهو: ما آمنوا ثم كفروا، وإنما آمنوا في الظاهر لا غير، واحتج عليه ابن كثير بقول الله تعالى في سورة المنافقين: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا } الآيات.

5 هو الصيب في قوله: { أَوْ كَصَيِّبٍ } ، وأصل صيب: صيوب قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء، نظيره: سيد وميت؛ لأن الفعل ساد يسود، ومات يموت، فسيد أصلها يسود، وميت أصلها ميوت وقلبت الواو ياء وأدغمت واو في قوله: { أَوْ كَصَيِّبٍ } هي بمعنى الواو.

(1/30)

غزير في ظلمات مصحوب برعد قاصف وبرق خاطف، وهم في وسطه مذعورون خائفون يسدون آذانهم بأنامل أصابعهم حتى لا يسمعو صوت الصواعق حذراً أن تنخلع قلوبهم فيموتوا، ولم يحذروا مفراً ولا مهرباً لأن الله تعالى محيط بهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن البرق لشدته وسرعته يكاد يخطف أبصارهم فيعمون، فإذا أضاء لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه، وإذا انقطع ضوء البرق وقفوا حيارى خائفين، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} . هذه حال أولئك المنافقين، والقرآن ينزل بذكر الكفر، وهو: ظلمات، وبذكر الوعيد، وهو: كالصواعق والرعد، وبالحجج والبيّنات، وهي: كالبرق في قوة الإضاءة، وهم خائفون أن ينزل القرآن بكشفهم وإزاحة الستار عنهم فيؤخذوا، فإذا نزل بآية لا تشير إليهم ولا تتعرض بهم مشوا في إيمانهم الظاهر. وإذا نزل بآية فيها التنديد بباطلهم وما هم عليه وقفوا حائرين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولو شاء الله أخذ أسماعهم وأبصارهم لفاعل؛ لأنهم لذلك أهل وهو على كل شيء قدير 1.

هداية الآيات

من هداية الآيات ما يلي:

1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

2- خيبة سعي أهل الباطل وسوء عاقبة أمرهم.

3- القرآن تحيا به القلوب كما تحيا الأرض بماء المطر.

4- شر الكفار المنافقون.

رَبِّهَا 2 النَّاسُ اعْبُدُوا 3 رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ

1 القدير، والقادر، والمقتدر، بمعنى: واحد، إلا أن القدير أبلغ لأنه من أمثلة المبالغة، وقدرة الله تتعلق بالممكنات القابلة بالوجود والعدم، فلا يقولن قائل: هل يقدر الله على خلق ذات كذاته سبحانه وتعالى؟.

2 ياء: حرف نداء للبعيد وينادى بها القريب تعظيماً له نحو: يا الله، يا رب، وهو تعالى أقرب من حبل الوريد. أي: صلة للتوصل بها لنداء ما فيه أل نحو: أيها الناس. ها: حرف تنبيه أقحمت بين (أي) والمنادى.

3 أصل العبادة: الخضوع والتذلل، مشتق من قولهم: طريق معبد إذا كان موطوءاً بالأقدام، وهي في الشرع طاعة الله ورسوله بالإيمان وفعل الأمر واجتتاب النهي مع غاية الحب والتعظيم لهما والتذلل وحده.

(1/31)

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ 1 تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ 2 لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا 3 وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

شرح الكلمات:

{النَّاسُ}: لفظ جمع لا مفرد له من لفظه، واحده إنسان.

{اعْبُدُوا}: أطيعوا بالإيمان والامتثال للأمر والنهي مع غاية الحب لله والتعظيم.

{رَبِّكُمْ}: خالفكم ومالك أمركم وإلهكم الحق.

{خَلَقَكُمْ}: أوجدكم من العدم بتقدير عظيم

{تَتَّقُونَ}: تتخذون وقاية تحفظكم من عذاب الله، وذلك بالإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك والمعاصي.

{فِرَاشًا}: وطاء للجلوس عليها والنوم فوقها.

{بِنَاءً}: مبنية؛ كقبة فوقكم.

{الثَّمَرَاتِ}: جمع ثمرة 4 وهو ما تخرجه الأرض من حبوب وخضر وتخرجه الأشجار من فواكه.

{رِزْقًا لَكُمْ}: قوتاً لكم تقتاتون به فتحفظ حياتكم إلى أجلها.

1 لعل: هنا على بابها، وهو الترجي والتوقع ولكن بالنظر إلى الناس لا إلى الله تعالى، فالناس هم الذين يرجون حصول النجاة لهم؟ ويتوقعون بعبادتهم لربهم تعالى، وقد تكون لعل، بمعنى: كي،

التعليلة أي: اعبدوا ربكم كي تدفعوا عذابه، ويشهد له قول الشاعر:
وقلتم لنا كفوا الحروب لعنا ... نكف ووتقتم لنا كل موثق
إذ المعنى: كفوا. لنكف.

2 جعل هنا: بمعنى: صير؛ لأنه ناصب لمفعولين الأرض فراشاً، ويكون فعل جعل بمعنى: خلق، نحو: ما جعل الله من بحيرة.

3 وتجمع الثمرة على ثمر كشجر، وثمر كخشب.

4 أنداداً: جمع ند بكسر النون، بمعنى الكفاء والمثيل، والمراد به هنا: الشريك لله في عبادته، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح وقد سأله ابن مسعود عن أعظم الذنب: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك"، وقوله صلى الله عليه وسلم: للذي قال: ما شاء الله وشئت. "أجعلتني لله نداً، قل: ما شاء الله وحده". رواه النسائي وغيره. والند بفتح النون عود يتطيب به، وند البعير إذا هرب وفر، وندت بفلان شهره وسمع به.

(1/32)

أنداداً : جمع ندّ: النظير والمثيل تعبدونه دون الله أو مع الله تضادون به الرب تبارك وتعالى.
المناسبة ومعنى الآيتين:

وجه المناسبة: أنه تعالى لما ذكر المؤمنين المفلحين والكافرين الخاسرين ذكر المنافقين وهم بين المؤمنين الصادقين والكافرين الخاسرين، ثم على طريقة الالتفات نادى الجميع بعنوان الناس ليكون نداء عاماً للبشرية جمعاء في كل مكان وزمان وأمرهم بعبادته ليقوا أنفسهم من الخسران. معرفاً لهم نفسه ليعرفوه بصفات الجلال والكمال فيكون ذلك أدعى لاستجابتهم له فيعبدونه عبادة تتجهم من عذابه وتكسبهم رضاه وجنته، وختم نداءه لهم بتنبههم عن اتخاذ شركاء له يعبدونهم معه مع علمهم¹ أنهم لا يستحقون العبادة لعجزهم عن نفعهم أو ضرهم.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- وجوب عبادة الله تعالى، إذ هي 2 علة الحياة كلها.

2- وجوب معرفة 3 الله تعالى بأسمائه وصفاته.

3- تحريم الشرك صغيره وكبيره ظاهره وخفيه.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا⁴ شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ

1 أثبت لهم العلم الخاص بهم، وهو علمهم بأن الله هو الخالق الرازق المحي المميت. إذا كانوا

يعلمون ذلك ويعترفون به كما أنه لما عرفهم بنفسه في السياق إذ قال: { الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ... الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا } إلخ. فلما عرفوا نهاهم عن اتخاذهم أندادا له يعبدونهم معه، والحال إنهم يعلمون أنه وحده المستحق للعبادة.

2 لما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقول الله تعالى: "يا ابن آدم لقد خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي" ، أي لعبادته تعالى، وفي القرآن الكريم: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

3 إذ معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته يتوقف عليها خشيته ومحبته لقوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب عقلا وشرعاً.

4 أي ادعوهم لأمرين: الأول: ليعينوكم على الإتيان بالمطلوب. والثاني: ليحضروا إتيانكم ويشاهدوه فيشهدون لكم بذلك.

(1/33)

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)

شرح الكلمات:

الريب : الشك مع اضطراب النفس وقلقها.

{عَبْدِنَا 1} : محمد صلى الله عليه وسلم.

{مَنْ مِثْلِهِ} : مثل القرآن ومثل محمد في أميته.

{شُهَدَاءَكُمْ} : أنصاركم. وآلهتكم التي تدعون أنها تشهد لكم عند الله وتشفع.

{وَقُودُهَا} : ما تنقد به وتشتعل وهو: الكفار والأصنام المعبودة مع الله عز وجل.

{أُعِدَّتْ} : هيئت وأحضرت.

{لِلْكَافِرِينَ} : الجاحدين لحق الله تعالى في العبادة له وحده المكذبين برسوله وشرعه.

مناسبة الآية ومعناها:

لما قرر تعالى في الآية السابقة أصل الدين وهو: التوحيد الذي هو عبادة الله تعالى وحده قرر في هذه الآية أصل الدين الثاني وهو: نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك من طريق برهاني وهو: إن كنتم في شك من القرآن الذي أنزلناه على عبدنا رسولنا محمد فأتوا بسورة من مثل سورة أو من رجل أمي مثل عبدنا في أميته، فإن لم تأتوا لعجزكم فقوا أنفسكم من النار بالإيمان بالوحي الإلهي وعبادة الله تعالى بما شرع فيه.

هداية الآية:

من هداية الآية:

- 1- تقرير نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإثبات نزول القرآن عليه.
- 2- تأكيد عجز البشر عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن الكريم لمرور ألف سنة وأربعمائة

1 اسم العبد مأخوذ من التعبد والتذلل: لأن المملوك يذلل الله ماله بالخدمة ويعبده بكثرة استخدامه. ولما كانت عبادة الله أشرف الخصال كان التسمية بها أشرف الأسماء، فلذا سمى الله تعالى رسوله محمداً عبداً كما في هذه الآية وآية الإسراء وأنشدوا لهذا قول الشاعر:

يا قوم قلبي عند زهراء ... يعرفه السامع والرأي
لا تدعني إلا بيا عبداً ...
لأنه أشرف أسمائي

(34/1)

وست سنين والتحدي قائم ولم يأتوا بسورة مثل سور القرآن، لقوله تعالى: {وَلَنْ تَفْعَلُوا} .

3- النار تنقى بالإيمان والعمل الصالح، وفي الحديث الصحيح: "اتقوا النار ولو بشق تمرة" 1.

{وَيَسِّرِ 2 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ نَمْرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوبُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(25)}

شرح الكلمات:

{وَيَسِّرِ 3} : التبشير: الإخبار السار، وذلك يكون بالمحبيب للنفس.

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} : تجري الأنهار من خلال أشجارها وقصورها والأنهار هي: أنهار الماء وأنهار اللبن وأنهار الخمر وأنهار العسل 4.

{وَأَنُوبُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} : أعطوا الثمار وقدم لهم يشبه بعضه بعضاً في اللون مختلف في الطعم.

{مُطَهَّرَةٌ} : من دم الحيض 5 والنفاس وسائر المعائب والنقائص.

{خَالِدُونَ} : باقون فيها لا يخرجون منها أبداً.

المناسبة والمعنى:

لما ذكر تعالى النار وأهلها ناسب أن يذكر الجنة وأهلها ليتم الترهيب والترغيب وهما أداة الهداية والإصلاح.

في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى رسوله أن يبشر المؤمنين المستقيمين بما رزقهم من جنات تجري من تحتها الأنهار 6 لهم فيها أزواج مطهرات نقيات من كل أذى وقدر وهم فيها

1 رواه البخاري.

2 هذا من باب ذكر الترغيب بعد الترهيب وعطفه عليه، فقد أُنذر الكافرين وواعد المؤمنين ليكون ذلك مثبطاً عن الأعمال الفاسدة منشطاً على الأعمال الصالحة.

3 ويطلق لفظ التبشير على الخبر المحزن غير السار تهكماً بصاحبه نحو قوله تعالى: {قَبَسْرُهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ} .

4 المذكورة في آية سورة القتال.

5 وكذا البول والغائط.

6 أي من تحت أشجارها، وإن لم يجز للأشجار ذكر؛ لأن الجنات دالة عليها.

(1/35)

خالدون. كما أخبر عنهم بأنهم إذا قُدم لهم أنواع الثمار المختلفة قالوا هذا الذي رزقنا مثله في الدنيا. كما أخبر تعالى أنهم أوتوه متشابهاً في اللون غير متشابه في الطعم زيادة في حسنه وكماله. وعظيم الالتذاد به.

هداية الآية:

من هداية الآية:

1- فضل الإيمان والعمل الصالح إذ بهما 1 كان النعيم المذكور في الآية لأصحابهما.

2- تشويق المؤمنين إلى دار السلام، وما فيها من نعيم مقيم ليزدادوا رغبة فيها وعملاً لها. بفعل الخيرات وترك المنكرات.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)}

شرح الكلمات:

{لا يستحيي3} : لا يمنعه الحياء4 من ضرب الأمثال، وإن صغرت؛ كالبعوضة، أو أصغر منها؛ كجناحها.

1 بعد فضل الله تعالى ورحمته.

2 سميت دار السلام: لسلامتها من وجود المنغصات فيها، إذ لا مرض ولا هرم ولا ألم ولا تعب بها

أبداً.

- 3 لا يستحيي: بياعين، ويتسحي: بياء واحدة، هما قراءتان سبعيتان، والآخيرة على لغة تميم، واسم الفاعل من الأولى مستحي، ومن الثانية، مستح.
- 4 الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان عند الخوف مما يعاب به أو يذمه، والله يوصف بالحياء على الوجه اللائق به، فصفة الحياء عنده تعالى لا تشبه صفات المحدثين كسائر صفاته سبحانه وتعالى، والاستحياء والحياء بمعنى واحد، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله حيي كريم يستحي أن يرفع العبد إليه العبد يديه فيردهما صفراً"، فقد أثبت صفة الحياء لله عز وجل، وهو قطعاً حياءً واستحياءً لا يشبه حياءً، واستحياءً البشر، بحال من الأحوال.

(1/36)

-
- {أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا} : أن يجعل شيئاً مثلاً لآخر يكشف عن صفته وحاله في القبح أو الحسن.
- {مَا بَعُوضَةٌ} : ما: نكرة بمعنى: شيء. أي شيء كان يجعله مثلاً، أو زائدة. وبعوضة المفعول الثاني. والبعوضة: واحدة البعوض، وهو صغار البق.
- {الْحَقُّ} : الواجب الثبوت الذي يحيل العقل عدم وجوده.
- {الْفَاسِقِينَ} : الفسق الخروج عن الطاعة، والفاسقون: هم التاركون لأمر الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح، وبترك الشرك والمعاصي.
- {يَنْفُضُونَ} : النقض: الحل بعد الإبرام.
- {عَهْدَ اللَّهِ} : ما عهد به إلى الناس من الإيمان والطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم.
- {مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ} : من بعد إبرامه وتوثيقه بالحلف أو الإتيان عليه.
- {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} : من إدامة الإيمان والتوحيد والطاعة وصلة الأرحام.
- {وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} : الإفساد في الأرض يكون بالكفر وارتكاب المعاصي.
- {الْخَاسِرُونَ} : الكاملون في الخسران بحيث يخسرون أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة.
- سبب النزول والمعاني:
- لما ضرب الله تعالى المثليين السابقين الناري والمائي¹ قال المنافقون: الله أعلى وأجل أن يضرب هذا المثل. فأنزل الله تعالى رداً عليهم قوله {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي} الآية.
- فأخبر تعالى أنه لا يمنعه الاستحياء أن يجعل مثلاً ببعوضة² فما دونها³ فضلاً عما هو أكبر⁴. وإن الناس حيال ما يضرب الله من أمثال، قسمان: مؤمنون: فيعلمون أنه الحق من ربهم. وكافرون: فينكرونها، ويقولون؛ كالمعترضين: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟!.

كما أخبر تعالى أن ما يضرب من مثل يهدي به كثيراً من الناس ويضل به كثيراً، وأنه لا يضل به إلا الفاسقين الذين وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

1 أورده ابن جرير وارتضاه.

2 في قوله: ما بعوضة إعرابات كثيرة لا طائل تحتها فنصب بعوضة على إنها بدل من ما النكرة التي هي في محل نصب فعل يضرب بمعنى يجعل. ورفع بعوضة على إنها خبر، والمبتدأ هو: ما على إنها موصولة والتقدير: الذي هو بعوضة.

3 كالذرة.

4 كالفراشة والجرادة.

(1/37)

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}. وحكم عليهم بالخسران التام يوم القيامة فقال: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} .

هداية الآيتين

من هداية الآيتين ما يلي:

- 1- أن الحياء لا ينبغي أن يمنع فعل المعروف وقوله والأمر به.
 - 2- يستحسن ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.
 - 3- إذا أنزل الله خيراً من هدى وغيره، يزداد به المؤمنون هدى وخيراً، ويزداد به الكافرون ضلالاً وشرّاً، وذلك لاستعداد الفريقين النفسي المختلف 1.
 - 4- التحذير من الفسق 2 وما يستتبعه من نقض العهد، وقطع الخير، ومنع المعروف.
- {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)}
- شرح الكلمات:

{كَيْفَ 3 تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ}: الاستفهام هنا للتعجب مع التوبيخ، لعدم وجود مقتض للكفر. {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}: هذا برهان على بطلان كفرهم، إذ كيف يكفر العبد ربه وهو الذي خلقه بعد أن لم يك شيئاً.

1 إذا المؤمنين مستعدون للخير والكافرون مستعدون للشر.

2 الفسق: الخروج عن طاعة الله ورسوله، فإن كان الخروج على الطاعة في أصول الدين فصاحبه

كافر، وإن كان في الفروع فلا يكفر صاحبه، ولا يقال: الفاسق إلا للذي أكثر من الفسق فأصبح الفسق لازماً له لا ينفك عنه لكثرتة منه وتوغله فيه.

3 اسم استفهام مبني على الفتح يسأل به عن الحال ويضمن معنى التعجب كما هنا، إذ كيف يصح من العاقل أن ينكر خالقه وهو يعرف أنه مخلوق إذ كان عدماً فأوجده.

(1/38)

{ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}: إن إمامة الحي وإحياء الميت كلاهما دال على وجود الرب تعالى وقدرته.

{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}: يريد بعد الحياة الثانية وهو البعث الآخر.

{خَلَقَ لَكُمْ 1 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً}: أي أوجد ما أوجده من خيرات الأرض كل ذلك لأجلكم كي تنتفعوا به في حياتكم.

{ثُمَّ اسْتَوَى 2 إِلَى السَّمَاءِ}: علا وارتفع قهراً لها فكونها سبع سماوات.

{فَسَوَّاهُنَّ} أتم خلقهن سبع سماوات تامات.

{وَهُوَ 3 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}: إخبار بإحاطة علمه تعالى بكل شيء، وتدل على قدرته وعلمه ووجوب عبادته.

معنى الآيتين:

ما زال الخطاب مع الكافرين الذين سبق وصفهم بأخس الصفات وأسوأ الأحوال، حيث قال لهم على طريقة الالتفات موبخاً مقرعاً: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} الآية.

وذكر من أدلة وجوده وكرمه. ما يصبح الكفر به من أقبح الأمور وصاحبه من أخط الخلائق وأسوأهم حالاً ومالاً. فمن أدلة وجوده الإحياء بعد الموت والإمامة بعد الإحياء. ومن أدلة كرمه وقدرته أن خلق الناس في الأرض جميعاً لتوقف حياتهم عليه وخلق السموات السبع، وهو مع ذلك كله محيط بكل شيء سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- إنكار الكفر بالله تعالى.

2- إقامة البرهان على وجود الله وقدرته ورحمته.

1 لحديث: " يا ابن آدم لقد خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي: أي: من أجل أن تذكرني وتشكرني " فعلة الحياة ذكر الله تعالى وشكره.

2 ذهب ابن كثير إلى أن استوى هنا مضمن معنى قصد لتعديته بإلى: إذ يقال استوى على كذا، إذا

كان بمعنى العلو والارتفاع، واستوى إلى كذا، إذا قصده، ويكون المعنى: ثم قصد إلى السماء، أي السموات فخلقهن سبع سموات، ولفظ: السماء اسم جنس تحته أفراد لذا قال: فسواهن بالجمع. 3 قرئ في السبع بفتح الهاء: من فهو، وقرئ بإسكانها وهذا عام في كل لفظ، إذا تقدمه واو أو فاء عطف. أدخلت عليه اللام نحو: وهو كذا وهذا التسكين للتخفيف.

(1/39)

3- حلية كل 1 ما في الأرض من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب إلا ما حرمه الدليل الخاص من الكتاب أو السنة لقوله: {خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} .
{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)}

شرح الكلمات:

{الْمَلَائِكَةُ}: جمع ملاك ويخفف فيقال ملك، وهم خلق من عالم الغيب أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلقهم من نور 4.

{الْخَلِيفَةُ 5}: من يخلف غيره، والمراد به هنا آدم عليه السلام.

{يُفْسِدُ فِيهَا}: الإفساد في الأرض يكون بالكفر وارتكاب المعاصي.

{وَيَسْفِكُ 6}: يسيل الدماء بالقتل والجرح.

{نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ}: نقول سبحان الله وبحمده. والتسبيح: التنزيه عما لا يليق بالله تعالى.

{وَنُقَدِّسُ لَكَ}: فننزهك عما لا يليق بك. والتقديس: التطهير والبعد عما لا ينبغي. واللام في لك زائدة لتقوية المعنى إذ فعل قدس يتعدى بنفسه يقال قدسه.

1 ذهب بعضهم إلى أن الأصل في الأشياء الحظر حتى يأتي دليل الإباحة؛ لأن المملوكات لا تحل إلا بإذن مالكةا، فهذا مذهب ثان، حسن ذكره.

2 أي خلق لكم ما في الأرض جميعاً من أجل تتقوا به على طاعته لا على معصيته.

3 المفروض أن يقترن: (قالوا) بالفاء ولكن نظراً إلى أسلوب الحوار لم يقترن بها كما في قوله: {قَالُوا سُبْحَانَكَ} .

4 خلق الملائكة من النور، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم.

5 استدل بهذه الآية على وجوب نصب خليفة للمسلمين يحكمهم بشريعة ربه عز وجل.

6 السفك: الصب: يقال: سفك الدم إذا صبه، كما يقال: سفحه. والسفاك والسفاح بمعنى إلا أن السفاح قد يراد به كثير الكلام، وسفك الدمع كذلك، والدم المسفوح، المصبوب.

معنى الآية:

يأمر تعالى رسوله أن يذكر قوله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة يخلفه في إجراء أحكامه في الأرض، وإن الملائكة تساءلت 1 متخوفة من أن يكون هذا الخليفة ممن يسفك الدماء ويفسد في الأرض بالكفر والمعاصي قياساً على خلق من الجن حصل منهم ما تخوفوه. فأعلمهم ربهم أنه يعلم من الحكم والمصالح ما لا يعلمون.

والمراد من هذا التذكير: المزيد من ذكر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة للإيمان به تعالى ولعبادته دون غيره.

هداية الآية:

من هداية الآية:

1- سؤال من لا يعلم غيره ممن يعلم.

2- عدم انتهاز السائل وإجابته أو صرفه بلطف.

3- معرفة بدء الخلق.

4- شرف آدم وفضله.

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (31)
قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} (33)

1 إذ هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، وليس هو من باب الاعتراض على الله أبداً.

شرح الكلمات:

{آدَمَ 1} : نبي الله أبو البشر عليه السلام.

{الْأَسْمَاءُ} أسماء الأجناس كلها؛ كالماء والنبات والحيوان والإنسان.

{عَرَضَهُمْ} : عرض المسميات أمامهم، ولما كان بينهم العقلاء غلب جانبهم، وإلا لقال عرضها.

{أَنْبِئُونِي} : أخبروني.

{هَؤُلَاءِ} : المعرضين عليهم من سائر المخلوقات.

{سُبْحَانَكَ}2: تنزيهاً لك وتقديساً.

{غَيْبِ السَّمَاوَاتِ} : ما غاب عن الأنظار في السموات والأرض.

{تُبْدُونَ} تظهرون من قولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} الآية.

{تَكْتُمُونَ} : تبطنون وتخفون، يريد ما أضمره إبليس من مخالفة أمر الله تعالى وعدم طاعته.

{الْحَكِيمِ} 3 : الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه، ولا يفعل ولا يترك إلا لحكمة.

معنى الآيات:

يخبر تعالى في معرض مظاهر قدرته وعلمه وحكمته الموجبة لعبادته دون سواه أنه علم آدم أسماء

الموجودات 4 كلها، ثم عرض الموجودات على الملائكة وقال أنبئني بأسماء هؤلاء إن

1 هل آدم مشتق من الآدمية التي هي حمرة تضرب إلى بياض، أو هو اسم جامد أعجمي؛ كآزر، وعابر، ذهب إلى كل وجه قوم.

2 سبحان: اسم مصدر فعله سبح مضعفاً. اختص بتنزيهه الله تعالى فكان بذلك اسم تسييح؛ كالعلم عليه.

3 الحكيم: ذو الحكمة، وهو الذي لا يصدر عنه قول ولا فعل خال من حكمة اقتضته. والحكيم مشتق من أحكم الشيء إذا أتقنه وخلصه من الخلل والفساد، ومنه حكمة الدابة: وهي حديدة تجعل في فمها تمنعها من اختلاف سيرها، ويقال: أحكم فلاناً: أي أمنعه من فعل كذا، ومنه قول الشاعر: أبني حنيفة احكموا سفهائكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

4 ليس في المسألة ما يدعو إلى الاستغراب أو الإنكار إذ كتاب المقادير في أسماء الموجودات كلها، وكذا سائر صفاتها وأحوالها، والعرض التلفازي اليوم يسهل على المرء إدراك كيفية عرض الله تعالى الموجودات أمام الملائكة. وذكر آدم لأسمائها كما علمها بتعليم الله تعالى له.

(1/42)

كنتم صادقين في دعوى أنكم أكرم المخلوقات وأعلمهم فعجزوا وأعلنوا اعترافهم بذلك، وقالوا: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} ، ثم قال تعالى لأدم: أنبئهم بأسماء تلك المخلوقات المعروضة فأنبأهم بأسمائهم واحداً واحداً حتى القصعة، والقُصِيعَة.. وهنا ظهر شرف آدم عليهم، وعتب عليهم ربهم بقوله: {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} .

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان قدرة الله تعالى حيث علم آدم أسماء المخلوقات كلها فعلمها.
 - 2- شرف العلم وفضل العالم 1 على الجاهل.
 - 3- فضيلة الاعتراف 2 بالعجز والقصور.
 - 4- جواز العتاب على من ادعى دعوى هو غير متأهل لها.
- {وَأذِّنَّا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (34)
- شرح الكلمات:

{اسْجُدُوا}: السجود 4: هو وضع الجبهة والأنف على الأرض، وقد يكون بانحناء الرأس دون وضعه على الأرض لكن مع تذلل وخضوع.

{إِبْلِيسَ}: قيل كان اسمه الحارث، ولما تكبر عن طاعة الله أبلسه الله أي: أيأسه من كل خير ومسخه شيطاناً.

{أَبَى}: امتنع ورفض السجود لآدم.

- 1 يشهد لهذا حديث أبي داود إذ فيه: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم".
- 2 دل على هذا قولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولذا قال العلماء: الواجب على من سأل على ما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وروي عن علي رضي الله عنه، قال: "ما أبردها على الكبد!!" فقل له: وما ذلك؟ فقال: "أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم".
- 3 ذكر القرطبي في تفسيره: أن السجود الذي أمرت به الملائكة هو أن يسجدوا لله تعالى مستقبلين وجه آدم وعليه فهو كصلاتنا خلف المقام، الصلاة لله والاستقبال للمقام.
- 4 أجمع أهل الإسلام قاطبة أن السجود لا يكون إلا لله تعالى. وفي الحديث: "لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين".

(1/43)

{وَاسْتَكْبَرَ}: تعاضم في نفسه فمنعه الاستكبار 1 والحسد من الطاعة بالسجود لآدم.

{الْكَافِرِينَ}: جمع كافر. من كذب بالله تعالى أو كذب بشيء من آياته أو بواحد من رسله أو أنكر طاعته.

معنى الآية:

يذكر تعالى عباده بعلمه وحكمته وإفضاله عليهم بقوله: {وَأذِّنَّا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...} {سجود تحية وإكرام فسجدوا إلا إبليس تعاضم في نفسه وامتنع عن السجود الذي هو طاعة الله، وتحية آدم.

تكبراً وحسداً لآدم في شرفه فكان بامتناعه عن طاعة الله من الكافرين الفاسقين عن أمر الله. الأمر الذي استوجب ابلاسه² وطرده.

هداية الآية:

من هداية الآية:

- 1- التذكير بإفضال الله الأمر الذي يوجب الشكر ويرغب فيه.
 - 2- التحذير من الكبر والحسد حيث كانا سبب إبلاسه الشيطان، وامتناع اليهود من قبول الإسلام.
 - 3- تقرير عداوة إبليس، والتنبيه إلى أنه عدو تجب عداوته أبداً.
 - 4- التنبيه إلى أن من المعاصي ما يكون كفرة³ أو يقود إلى الكفر.
- {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ 4 وَزَوْجُكَ 5 الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

1 الاستكبار: طلب الكبر في النفس وتصوره فيها، وفي صحيح مسلم: "أن الله لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

2 الإبلاسه: الإيأس من كل خير، وإبلاسه إبليس كان عقوبة له على كفره وكبره وحسده، وكان قبل إبلاسه يقال له: عزازيل، وبالعربية: الحارث.

3 كترك الصلاة وقتل المؤمن لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من ترك الصلاة فقد كفر"، وقوله: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر". وقوله: "لا ترتدوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض". والكفر كفران: كفر مخرج من الملة، وكفر نعمة لا يخرج منها، ولكن صاحبه إن لم يتب منه وتقبل توبته يدخل النار به.

4 قال: {اسْكُنْ أَنتَ 4 وَزَوْجُكَ 5 الْجَنَّةَ} بعد طرد إبليس منها، والمراد من السكن الإسكان، وهو الإقامة الطويلة لا السكن النفسي، وهذوء البال، وإن كان لازماً للإقامة الطيبة، ولفظ السكن مشعر بعدم الإقامة الدائمة، لأن من سكن دار لا بد وأن يرحل منها يوماً من الأيام.

5 لفظ الزوج يطلق على كل من الرجل وامرأته، لأن كل واحد منهما صير الثاني زوجاً له، ويقال للمرأة زوجة بالتاء كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا فلان هذه زوجتي فلانة". وذلك أمناً من اللبس، وغلط الفرزدق في قوله:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساعي إلى أسد الشرى يستبليها
ولا معنى لتغليطه وقد صح الحديث بلفظ زوجة.

حَيْثُ سِتْنُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا 1 فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ 2 عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37){

شرح الكلمات:

{رَغَدًا} : العيش الهني الواسع يقال له: الرغد.

{الشَّجَرَةَ} : شجرة من أشجار الجنة وجائز أن تكون كرمًا أو نبيذًا أو غيرهما وما دام الله تعالى لم يعين نوعها فلا ينبغي السؤال عنها.

{الظَّالِمِينَ} : لأنفسهما بارتكاب ما نهى الله تعالى عنه.

{فَأَزَلَّهُمَا} : أوقعهما في الزلل، وهو مخالفتها لنهي الله تعالى لهما عن الأكل من الشجرة.

{مُسْتَقَرٌّ} : المستقر: مكان الاستقرار والإقامة.

{إِلَى حِينٍ} : الحين: الوقت مطلقاً قد يقصر أو يطول والمراد به نهاية الحياة.

{فَتَلَقَى 3 آدَمُ} : أخذ آدم ما ألقى الله تعالى إليه من كلمات التوبة.

{كَلِمَاتٍ} : هي قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

{فَتَابَ عَلَيْهِ} : وفقه للتوبة فتاب 4 وقبل توبته، لأنه تعالى تواب رحيم.

1 عن، هنا: هي كما في قوله تعالى: {إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ} بمعنى بسببها، أي أوقعهما في الزلل بسبب الأكل من الشجرة التي زينها لهما فضمير عنها عائد إلى الشجرة.

2 جملة: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} تصح أن تكون حالاً من ضمير {اهْبِطُوا} ويصح أن تكون مستأنفة استئنافاً ابتدائياً.

3 لفظ: "فتلقى" مشعر بالإكرام، والمسرة، كقوله تعالى: {وَتَلَقَّا هُمُ الْمَلَائِكَةُ} .

4 يتساءل البعض: هل آدم ارتكب بأكله من الشجرة كبيرة، وهل يجوز في حق الأنبياء ارتكاب الكبائر؟؟

والجواب: أن آدم ما نبئ إلا بعد أن هبط إلى الأرض، إذ هي دار التكليف. أما وهو في السماء فما كان قد نبئ بعد وأكله من الشجرة لم يترتب عليه عقاب أكثر من الخروج من الجنة؛ لأنها ليست دار إقامة لمن يخالف فيها أمر الله تعالى، أما الأنبياء فلا يجوز في حقهم ارتكاب الكبائر ولا الصغائر لعصمة الله تعالى لهم؛ لأنهم محل أسوة لغيرهم.

معنى الآيات:

في الآية الأولى(35) يخبر تعالى عن إكرامه لآدم وزوجه حواء حيث أباح لهما جنته يسكنانها ويأكلان من نعيمها ما شاءا إلا شجرة واحدة فقد نهاهما عن قربها 1 والأكل من ثمرها حتى لا يكونا من الظالمين.

وفي الآية الثانية(36) أخبر تعالى أن الشيطان أوقع آدم وزوجه في الخطيئة حيث زين لهما الأكل من الشجرة فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما فلم يصبحا أهلاً للبقاء في الجنة فأهبطا إلى الأرض مع عدوهما إبليس ليعيشوا بها بعضهم لبعض عدو إلى نهاية الحياة.

وفي الآية الثالثة(37) يخبر تعالى أن آدم تلقى كلمات التوبة من ربه تعالى وهو: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فقالاها توبة فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم. هداية الآية:

من هداية الآية:

1- كرامة آدم وذريته على ربهم تعالى.

2- شؤم المعصية وأثارها في تحويل النعمة إلى نقمة.

3- عداوة الشيطان للإنسان ووجوب معرفة ذلك لاتقاء وسوسوته.

4- وجوب التوبة من الذنب وهي الاستغفار بعد الاعتراف بالذنب وتركه والندم على فعله.

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (38)
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (39)

1 إذا كان الفعل قرب يقرب بالفتح فمعناه التلبس بالفعل، وإذا كان قرب بضم الراء فمعناه الدنو من الشيء. هكذا يرى بعضهم.

2 التوبة: هي الرجوع من المخالفة إلى المتابعة، أي من المعصية إلى الطاعة، هذا حددها لغة. إما شرعاً: فهي كما نص في الفائدة الرابعة من هذا التفسير.

(1/46)

شرح الكلمات:

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً} : انزلوا من الجنة 1 إلى الأرض لتعيشوا فيها متعادين 2.

{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ 3 مِنِّي هُدًى} : إن يجيئكم من ربكم هدى: شرع ضمنه كتاب وبينه رسول.

{فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ} : أخذ 4 بشرعي فلم يخالفه ولم يحد عنه.

{فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} : جواب شرط فمن اتبع هداي، ومعناه إتباع الهدى يفضي بالعبد

إلى أن لا يخاف ولا يحزن لا في الدنيا ولا في الآخرة.
{كَفَرُوا وَكَذَّبُوا}: كَفَرُوا: جحدوا شرع الله، وكذبوا رسوله.
{أَصْحَابُ النَّارِ}: أهلها الذين لا يفارقونها بحث لا يخرجون منها.
معنى الآيتين:

يخبر تعالى أنه أمر آدم وحواء 5 وإبليس بالهبوط إلى الأرض بعد أن وسوس الشيطان لهما فأكلا من الشجرة، وأعلمهم أنه إن أتاهم منه هدى فاتبعوه ولم يحددوا عنه يأمنوا ويسعدوا فلن يخافوا ولن يحزنوا، وتوعد من كفر به وكذب رسوله فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً بالخلود 6 في النار.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- المعصية تسبب الشقاء والحرمان.

1 ذهب المعتزلة -أذهب الله ريحهم- إلى أن الجنة التي هبطا منها آدم وحواء كانت بستاناً في الأرض في مرتفع منها، وهو قول باطل لا يسمع له ولا يلتفت إليه، إذ كل سياق القرآن دال على إنها الجنة دار النعيم لأولياء الله في الآخرة.

2 أي: إبليس وذريته، وآدم وذريته، وكان هذا قبل أن يوجد لكل منهما ذرية، ثم أوجدت كما أخبر تعالى، وكانت العداوة على أشدها.

3 فإما: أصلها فإن ما، فإن شرطية وأدخلت عليها ما الزائدة لتقوية الكلام وأدغمت فيها نون إن فصارت إماً.

4 هذا عام في كل أجيال بني آدم فمن جاءه هدى الله بواسطة نبي وكتاب الله فأخذ به واتبعه نجا مما يصيب غيره من الخوف والحزن في الدنيا والآخرة معاً.

5 حواء: لم تذكر باسمها في القرآن وإنما ذكرت بعنوان الزوج، ولكن ذكرت في السنة الصحيحة، إنها خلقت من ضلع آدم عليه السلام، والسر في عدم ذكرها باسمها: إن المروءة تأبى على صاحبها ذكر المرأة باسمها فلذا تذكر النساء تابعات لخطاب الرجال.

6 روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأصابتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذنت الشفاعة"، ومعناه يخرجون من النار بالشفاعة لهم.

2- العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يسبب الأمن والإسعاد والإعراض عنهما يسبب الخوف والحزن والشقاء والحرمان.

3- الكفر والتكذيب جزاء صاحبهما الخلود في النار.

لَبَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)
وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ
فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)}

شرح الكلمات:

بنو1 إسرائيل : إسرائيل: هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام وبنوه هم: اليهود؛ لأنهم يعودون في أصولهم إلى أولاد يعقوب الأثني عشر2

النعمة : النعمة هنا اسم جنس بمعنى النعم، ونعم الله تعالى على بني إسرائيل كثيرة3 ستمر أفرادها في الآيات القرآنية الآتية.

{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي} : الوفاء بالعهد: إتمامه، وعهد الله عليهم أن يبينوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به.

{أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} : أتم لكم عهدكم بإدخالكم الجنة بعد إكرامكم في الدنيا وعزكم فيها.

{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} : اخشوني ولا تخشوا غيري.

{وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ} : القرآن الكريم.

{وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي} : لا تعتاضوا على بيان الحق في أمر محمد صلى الله عليه وسلم.

1 هم يوسف عليه السلام وأخوته يهوذا، وبنيامين، وغيرهما.

2 بنو: جمع ابن ، وقيل عن الولد: الابن من البناء، لأنه مسند إليه موضوع عليه. واسرا: عبد وثيل: الله وقرئ: إسرائيلين. وهي لغة مشهورة.

3 منها: إنجائهم من فرعون، وتحررهم من سلطانه، ومنهم إهلاك عدوهم، وإنزال المن والسلوى عليهم.

4 الاشتراء هنا: بمعنى الاستبدال، ولذا جاز دخول الباء على غير المشتري به، وهو الثمن، إذ الأصل أن تدخل الباء على المشتري به. فنقول، اشتريت الثوب بدرهم.

{ثَمَنًا قَلِيلًا}: متاع الحياة الدنيا.

{وَأَيَّيَ فَاتَّقُونَ} : واتقوني وحدي في كتمانكم الحق وجددكم نبوة نبيي محمد صلى الله عليه وسلم أن أنزل بكم نعمتي.

{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} : أي لا تخطوا الحق بالباطل حتى يعلم فيعمل به، وذلك قولهم: محمد نبي ولكن مبعوث إلى العرب لا إلى بني إسرائيل.

{وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} : الركوع الشرعي: انحناء الظهر في امتداد واعتدال مع وضع الكفين على الركبتين والمراد به هنا: الخضوع لله والإسلام له عز وجل.

مناسبة الآيات ومعناها:

لما كان السياق في الآيات السابقة في شأن آدم وتكريمه، وسجود الملائكة له وامتناع إبليس لكبره وحسده، وكان هذا معلوماً لليهود؛ لأنهم أهل كتاب، ناسب أن يخاطب الله تعالى بني إسرائيل مذكراً إياهم بما يجب عليهم من الإيمان والاستقامة. فناداهم بعنوان بنوتهم لإسرائيل عليه السلام، فأمرهم ونهاهم، أمرهم بذكر نعمته عليهم ليشكروه تعالى بطاعته فيؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الهدى وأمرهم بالوفاء بما أخذ عليهم من عهد لينجز لهم ما وعدهم، وأمرهم أن يرهبوه² ولا يرهبوا غيره من خلقه وأمرهم أن يؤمنوا بالقرآن الكريم، وأن لا يكونوا أول من يكفر³ به. ونهاهم عن الاعتياض عن بيان الحق في أمر الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ثمناً قليلاً من متاع الحياة الدنيا وأمرهم بتقواه في ذلك وحذرهم أن هم كتموا الحق أن ينزل بهم عذابه. ونهاهم عن خلط الحق بالباطل دفعاً للحق وبعداً عنه حتى لا يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأمرهم بإقام⁴ الصلاة وإيتاء الزكاة والإذعان لله تعالى بقبول الإسلام والدخول فيه كسائر المسلمين.

1 وجائز أن يرد به الصلاة مع المصلين وهم: الرسول وأصحابه. إذ الخطاب لليهود المدينة بصورة خاصة، ولا منافاة بين ما شرحت به الآية، وبين ما ذكر هنا تعليقاً، إذ الإسلام لله يستلزم الصلاة وفي الآية دليل تأكيد صلاة الجماعة.

2 الرهب، والرهبية، الخوف، ويجوز في الرهب إسكان الهاء وفتحها.

3 هذه الجملة تأكيد لجملة : وأمنوا بما أنزلت.. أي: أمنوا بما أنزلت أي، من القرآن بمعنى لا تكونوا أول من يكفر به منكم يا بني إسرائيل، إذ العرب سبق أن كفروا بالقرآن قبلهم فأول كافر به، أي منهم وهو اليهود.

4 أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعد الإيمان قوله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة..". الحديث. ومعنى الخطاب أنه أمرهم بالدخول في الإسلام والخروج من اليهودية الباطلة.

هداية الايات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب ذكر النعم لشكر الله تعالى عليها.
- 2- وجوب الوفاء بالعهد لا سيما ما عاهد عليه العبد ربه تعالى.
- 3- وجوب بيان الحق وحرمة كتمانها.
- 4- حرمة خلط الحق بالباطل تضليلاً للناس وصرافهم عنه كقول اليهود: محمد نبي ولكن للعرب خاصة حتى لا يؤمن به يهود.

{التَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبَيِّنَاتِ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)}

شرح الكلمات:

البر : البر : لفظ جامع لكل خير . والمراد هنا : الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام مقابل الذكر ، وهو هنا الترك .
النسيان : مقابل الذكر ، وهو هنا الترك .
تلاوة الكتاب : قراءته ، والكتاب هنا : التوراة التي بأيدي اليهود .
العقل : قوة باطنية يميز بها المرء بين النافع والضار ، والصالح والفاقد .
الاستعانة : طلب العون للقدرة على القول والعمل .
الصبر 2 : حبس النفس على ما تكره .
الخشوع : حضور القلب وسكون الجوارح ، والمراد هنا : الخضوع لله والطاعة لأمره ونهيه .

1 مأخوذ من قوله: {وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} إذ اللبس الخلط بين المتشابهات في الصفات، يقال في الأمر لبسه: أي اشتباهه، فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق ليقبل ويضل به الناس.

2 مواطن الصبر ثلاثة: صبر على الطاعة فلا تفارق، وصبر عن المعصية فلا ترتكب، وصبر على المصائب فلا يجزع منها ولا يتسخط، ولكن يصبر، ويسترجع أي: يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

{يُظُنُّونَ} : يوقنون 1.

{مُلَافُوا رَبَّهُمْ} : بالموت، راجعون إليه يوم القيامة.

معنى الآيتين:

ينعي الحق تبارك وتعالى في الآية الأولى (44) على علماء بني إسرائيل أمرهم بعض العرب بالإيمان بالإسلام ونبيه، ويتركون أنفسهم فلا يأمرونها بذلك والحال أنهم يقرأون التوراة، وفيها بعث النبي محمد والأمر بالإيمان به واتباعه ويقرعه موبخاً لهم بقوله: أفلا تعقلون، إذ العاقل يسبق إلى الخير ثم يدعو إليه.

وفي الآيتين الثانية والثالثة (45-46) يرشد الله تعالى بني إسرائيل إلى الاستعانة بالصبر والصلاة حتى يقدروا على مواجهة الحقيقة والتصريح بها، وهي الإيمان بمحمد والدخول في دينه، ثم يعلمهم أن هذه المواجهة صعبة شاقة 2 على النفس لا يقدر عليها إلا المختبئون لربهم الموقنون بقاء الله، والرجوع إليه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- قبح 3 سلوك من يأمر غيره بالخير ولا يفعله.

2- السيئة قبيحة وكونها من 4 عالم أشد قبحاً.

3- مشروعية الاستعانة على صعاب الأمور وشاقها بالصبر والصلاة، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم إذ حزنه أمر فزع 5 إلى الصلاة.

1 يطلق الظن ويراد به اليقين، لا الظن المقابل للشك، أفاد ابن جرير في تفسيره: وأورد أن الظن من أسماء الاضطاد فيطلق على الشك واليقين، فإطلاق الصفة على الضياء والظلمة معاً.

2 الجمهور على تفسير الضمير في: {وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} بالصلاة وخالفتهم في ذلك لوجود من قال: إنها ما أمروا به ونهوا عنه، وهو أعم من الصلاة.

3 ورد الوعيد الشديد فيمن يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويرتكبه من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أسرى بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار، قلت من هؤلاء يا جبريل قال: هؤلاء خطباء أمئك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم". رواه أحمد. ومثله كثير في السنن والصحاح، إلا أن أهل العلم ممن السلف قالوا: لا يمنع العالم من أن يؤمر بالمعروف، وإن كان لا يأتيه ومن أن ينهي عن منكر وإن كان يأتيه، وهو حق، إذ لا يسلم من الذنب إلا المعصوم.

4 لأن من يعلم ليس كمن لا يعلم.

5 رواه أحمد وأبو داود.

4- فضلية الخشوع لله والنظام له، وذكر الموت، والرجوع إلى الله تعالى للحساب والجزاء.
 يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (48)
 شرح الكلمات:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} : تقدم شرح هذه الجملة.
 {فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ 1} : آتاهم من النعم الدينية والدنيوية ما لم يؤت غيرهم من الناس وذلك على عهد موسى عليه السلام وفي أزمنة صلاحهم واستقامتهم.
 {وَأَتَّقُوا يَوْمًا} : المراد باليوم: يوم القيامة بدليل ما وصف به. واتقاؤه: هو اتقاء ما يقع فيه من الأهوال والعذاب. وذلك الإيمان والعمل 2 الصالح.
 {لَا تَجْزِي نَفْسٌ} : لا تعني نفس عن نفس أخرى أي غنى. ما دامت كافرة 3.
 {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ 4} : هذه النفس الكافرة إذ هي التي لا تتفعها شفاعاة الشافعين.
 {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} : على فرض أنها تقدمت بعدل، وهو الفداء فإنه لا يؤخذ منها.
 {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} : يدفع العذاب عنهم.
 معنى الآيتين:

ينادي الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل مطالباً إياهم بذكر نعمه عليهم ليشكروها بالإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقبول ما جاء به من الدين الحق، وهو الإسلام، محذراً إياهم من عذاب يوم القيامة، أمراً لهم باتقائه بالإيمان وصلاح الأعمال. لأنه يوم عظيم لا تقبل فيه شفاعاة.

1 المراد بالعالمين: عالمو زمانهم.

2 وترك الشرك، والمعاصي.

3 لأن أهل الإيمان والتوحيد وإن دخلوا النار يخرجون منها بشفاعة شافع أو بإيمانهم. بخلاف من مات كافراً أو مشركاً.

4 الشفاعاة: ضم جاه إلى جاه ليحصل النفع للمشفوع له. والشفاعة: ضم ملك إلى ملك، والشفع: الزوج مقابل الوتر، ولا تقبل شفاعاة أحد يوم القيامة إلا بشرطين اثنين. الأول: أن يكون الشافع قد أذن الله تعالى له. في الشفاعاة. والثاني: أن يكون المشفوع له ممن رضي الله قوله وعمله وهو المؤمن الموحد.

لكافرٍ، ولا يؤخذ منه عدل أي فداء، ولا ينصره بدفع العذاب عنه أحد.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- وجوب ذكر النعم لتشكر 1 بحمد الله وطاعته.

2- وجوب اتقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك والمعاصي

3- تقرير أن الشفاعة لا تكون لنفس كافرة. وأن الفداء يوم القيامة لا يقبل 2 أبداً.

{وَإِذْ 3 نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)}

شرح الكلمات:

النجاة : الخلاص من الهلكة؛ كالخلاص من الغرق، والخلاص من العذاب.

{آلِ فِرْعَوْنَ} : اتباع 4 فرعون. وفرعون 5 ملك مصر على عهد موسى عليه السلام.

{يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} : يبيغونكم سوء العذاب وهو أشده وأفظعه ويذيقونكم إياه.

1 شكر الله على نعمة يكون بالاعتراف بالنعمة وحمداً لله تعالى عليها، وصرفها فيما فيه رضا

سبحانه وتعالى.

2 لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ} .

3 إذ ظرفية ويقدر لها العامل وهو: اذكروا إن نجيناكم. اذكروا إذ فرقنا بكم البحر..إلخ.

4 ممن هم على دين الباطل، من الأقباط المصريين وسواء كانوا أقارب له، أم أباعد ويشهد له

حديث: "آل محمد كل تقي".

5 قيل أن فرعون مصر اسمه الوليد بن مصعب بن الريان.

(1/53)

وَيَسْتَحْيُونَ 1 نِسَاءَكُمْ : يتركون ذبح البنات ليكبرن للخدمة، ويذبحون الأولاد خوفاً منهم إذا كبروا.

بلاء 2 عظيم : ابتلاء وامتحان شديد لا يطاق.

{قَرَفْنَا 3 بِكُمُ الْبَحْرَ 4} : صيرناه فرقتين، وما بينهما يبس لا ماء فيه لتسلكوه ففتجوا، والبحر هو: بحر القلزم (الأحمر).

{تَخَذْتُمُ الْعِجْلَ} : عجل من ذهب صاغه لهم السامري ودعاهم إلى عبادته فعبده أكثرهم، وذلك في غيبة موسى عنهم.

الشكر : إظهار النعمة بالاعتراف بها وحمد الله تعالى عليها وصرفها في مرضاته.

{الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ 5} : الكتاب: التوراة، والفرقان: المعجزات التي فرق الله تعالى بها بين الحق والباطل.

{تَهْتَدُونَ} : إلى معرفة الحق في كل شئونكم من أمور الدين والدنيا.

معنى الآيات:

تضمنت هذه الآيات الخمس أربع نعم عظمتها أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل، وهي التي أمرهم بذكرها ليشكروه عليها بالإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الإسلام.

فالنعمة الأولى: انجائهم من فرعون وآله بتخليصهم من حكمهم الظالم وما كانوا يصبونه عليهم من ألوان العذاب. من ذلك: نبح الذكور من أولادهم وترك البنات لاستخدامهن في المنازل كرقاقات.

1 وقيل يكشفون عن حياء المرأة: أي: فرجها لينظروا هل هي حبلى أو لا؟ ليتمكنوا من قتل الذكور وإبقاء الإناث.

2 البلاء يكون بالخير والشر، قال تعالى: {وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} الآية. وهو هنا كذلك فقد ابتلى بنو إسرائيل بالشر من قتل واستبعاد وبالخير من إنجائهم وإهلاك أعدائهم.

3 الفرق: الفصل بين الأشياء؛ كالفصل بين الحق والباطل، والفصل بين المجتمعين من كل شيء، والباء في فرقنا بكم البحر: للملابسة.

4 البحر: الماء المالح، والبلدة أيضاً، ومن الخيل الواسع الجري، فقد قال صلى الله عليه وسلم في فرس أبي طلحة: "وإن وجدناه لبحراً". يعني واسع الجري.

5 الفرقان: لفظ عام يطلق على كل ما يفرق به بين الحق والباطل؛ كالمعجزات والآيات والعلوم الصحيحة.

(1/54)

والثانية : فلق البحر لهم وإغراق عدوهم بعد نجاتهم وهم ينظرون 1.

والثالثة : عفوه تعالى عن أكبر زلة زلواها وجريمة اقترفوها، وهي اتخاذهم عجلاً 2 صناعياً إلهياً

وعبادتهم له. فعفا تعالى عنهم ولم يؤاخذهم بالعذاب لعله أن يشكروه تعالى بعبادته وحده دون سواه.

والرابعة : ما أكرم به نبيهم موسى عليه السلام من التوراة التي فيها الهدى والنور والمعجزات التي أبطلت باطل فرعون، وأحقت دعوة الحق التي جاء بها موسى عليه السلام.
هذه النعم هي محتوى الآيات الخمس، ومعرفتها معرفة لمعاني الآيات في الجملة اللهم إلا جملة ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾ في الآية الأولى فإنها: إخبار بأن الذي حصل لبني إسرائيل من عذاب على أيدي فرعون وملئه إنما كان امتحاناً من الله واختباراً عظيماً لهم. كما أن الآية الثالثة فيها ذكر مواعدة الله تعالى لموسى بعد نجاة 3 بني إسرائيل أربعين ليلة، وهي: القعدة وعشر الحجة ليعطيه التوراة يحكم 4 بها بني إسرائيل فحدث في غيابه أن جمع السامري حُلي نساء بني إسرائيل وصنع منه عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعبدوه فاستوجبوا العذاب إلا أن الله منّ عليهم بالعمو ليشكروه.
هداية الآيات:

من هداية هذه الآيات:

- 1- ذكر النعم يحمل 5 على شكرها، والشكر هو الغاية من ذكر النعمة.
- 2- أن الله تعالى يبطل عبادته لحكم عالية فلا يجوز الاعتراض على الله تعالى فيما يبطل به عبادته.
- 3- الشرك ظلم 6، لأنه وضع العبادة في غير موضعها.

- 1 جملة: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في الآيات الحالية، وإن قيل الذين تم لهم هذا الإنعام هم من كانوا مع موسى عليه السلام، فكيف يخاطب به يهود اليوم. فالجواب: أن النعم على السلف نعم على الخلف.
- 2 القوم الذين مروا بهم فوجدوهم عاكفين على أصنام لهم هم قوم من الكنعانيين، وهم الفينيقيون سكان سواحل بلاد الشام إذ كانوا يعبدون عجلاً مقدساً لهم.
- 3 كان يوم نجاة بني إسرائيل يوم عاشوراء المحرم، لما في البخاري وغيره من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة مهاجراً وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عن ذلك فقالوا: يوم صالح أنجى الله تعالى فيه بني إسرائيل. فصامه. رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه وقال: "نحن أحق بموسى منهم" أو كما قال.
- 4 ومما يؤسف ويحزن أن المسلمين لما ابتلاهم الله باستعمار النصارى لهم كانوا كلما استقل شعب أو إقليم طلب قانون الكافرين فحكم به المسلمين، وبنو إسرائيل لما استقلوا على يد موسى ذهب يأتهم بقانون الرب ليحكمهم به.
- 5 ولذا كان مبدأ الشكر: الاعتراف بالنعمة أولاً، وهو ذكرها بالقلب، واللسان.
- 6 قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

4- إرسال الرسل وإنزال الكتب الحكمة فيهما هداية الناس إلى معرفة ربهم وطريقة التقرب إليه ليعبدوه فيكملوا ويسعدوا في الحياتين.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ 1 يَا قَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَنُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)}

شرح الكلمات:

ظلم النفس 2 : تدسيته بسبب الجريمة.

{بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ} : بجعلكم العجل الذي صاغه السامري من حلي نسانكم إلهاً عبدتموه.

البارئ : الخالق عز وجل.

{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ 3} : أمرهم أن يقتل من لم يعبد العجل من 4 عبده منهم وجعل ذلك توبتهم ففعلوا

فتاب عليهم بقبول توبتهم.

{نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً 5} : نراه عياناً.

1 لفظ القوم يراد به الرجال دون النساء كما في قوله تعالى: { لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ... وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ } كقول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء

وقد يطلق على الرجال والنساء نحو قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} الآية.

2 أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومرتكب الذنب بدل أن يركب نفسه بعمل صالح دساها بعمل سيء فكان بذلك واضعاً شيئاً في غير موضعه، إذ المطلوب من العبد تركية نفسه لتتأهل للكمال والإسعاد، لا تدسيته لتخيب وتخسر.

3 قتل بعضهم بعضاً: كان عقوبة لمن عبدوا العجل، ولمن لم يعبدوه؛ لأنهم ما غيروا المنكر وقد رأوه.

4 قال بعضهم: قتل النفس هنا تذليلها بالطاعات وكفها عن الشهوات وليس بصحيح.

5 أصل الجهر: الظهور ومنه: قرأ جهراً أي أي أظهر القراءة، وجهر مصدر جهر، وقرأ بفتح الهاء وإسكانها نحو زهرة، وزهرة ومعناه: علانية أو عياناً.

{الصَّاعِقَةُ}: نار محرقة التي تكون مع السحب والأمطار والرعود.

{بِعْتْنَاكُمْ}: أحبيناكم 1 بعد موتكم.

{الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}: المن: مادة لزجة حلوة كالعسل 2، والسلوى: طائر يقال له السماني.

الطيبات: الحلال.

المناسبة ومعنى الآيات:

لما ذكر الله تعالى اليهود بما أنعم على أسلافهم مطالباً إياهم بشكرها فيؤمنوا برسوله. ذكرهم هنا ببعض ذنوب أسلافهم ليتعظوا فيؤمنوا، فذكرهم بحادثة اتخاذهم العجل إلهاً وعبادتهم له. وذلك بعد نجاتهم من آل فرعون وذهاب موسى لمناجاة الله تعالى، وتركه هارون خليفة له فيهم، فصنع السامري لهم عجلاً من ذهب وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه، فأطاعوه أكثرهم وعبدوا العجل، فكانوا مرتدين بذلك فجعل الله توبتهم من ردتهم أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده فقتلوا منهم سبعين ألفاً، فكان ذلك توبتهم فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم، كما ذكرهم بحادثة أخرى وهي: إنه لما عبدوا العجل وكانت ردة اختار موسى بأمر الله تعالى منهم سبعين رجلاً من خيارهم ممن لم يتورطوا في جريمة عبادة العجل، وذهب بهم إلى جبل الطور ليعتذروا إلى ربهم سبحانه وتعالى من عبادة إخوانهم العجل فلما وصلوا قالوا لموسى اطلب لنا ربك أن يسمعنا كلامه، فأسمعهم قوله: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ} لا إله إلا أنا أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري. ولما أعلمهم موسى بأن الله تعالى جعل توبتهم وقتلهم أنفسهم، قالوا: لن نؤمن لك، أي لن نتابعك على قولك فيما ذكرت من توبتنا بقتل بعضنا بعضاً حتى نرى الله جهرة، وكان هذا منهم ذنباً عظيماً لتكذيبهم رسولهم فغضب الله عليهم فأنزل عليهم صاعقة فأهلكتهم فماتوا واحداً واحداً وهم ينظرون ثم أحياهم تعالى بعد يوم وليلة، وذلك ليشكروه بعبادته وحده دون سواه كما ذكرهم بنعمة أخرى، وهي إكرامه لهم وإنعامه عليهم بتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن

1 إحيائهم بعد موتهم دليل على البعث الآخر، إذ كان موتهم بإخراج أرواحهم ولم يكن مجرد همود كما قيل.

2 وفي الحديث الذي رواه مسلم: الكمأ من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين.

(1/57)

والسلوى 1 أيام حادثة النيه في صحراء سيناء وفي قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ} إشارة إلى أن محنة النيه كانت عقوبة لهم على تركهم الجهاد وجرأتهم على نبيهم إذ قالوا له: {فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا}

إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} . وما ظلمهم 2 في محنة التيه، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- عبادة المؤمن غير الله وهو يعلم أنها عبادة لغير الله تعالى تعتبر ردة منه 3، وشركاً.
 - 2- مشروعية قتال المرتدين، وفي الحديث: "من بدل دينه فاقتلوه"، ولكن بعد استتابته.
 - 3- علة الحياة كلها شكر الله تعالى 4 بعبادته وحده.
 - 4- الحلال، من المطاعم والمشارب وغيرها، ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله عز وجل.
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا

1 السلوى: اسم جنس جمعي واحده: سلواه، وقيل: لا واحد له، وهو طائر بري لذيق اللحم سهل الصيد، تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء، ويسمى أيضا: السماني كالحباري.

2 وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقديم المفعول وهو أنفسهم على الفاعل وهو الضمير في يظلمون لإفادة القصر، وهو قصر ظلمهم على أنفسهم حيث لم يتجاوز إلى غيرهم لا موسى ولا ربه تعالى.

3 بدليل أمر الله بني إسرائيل بأن يقتل من لم يعبد العجل من عبده لأنه في حكم المرتد، والمرتد يقتل لحديث الصحيح: "من بدل دينه فاقتلوه" .

4 دل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أي أحييناكم بعد موتكم لعلمكم تشكرون، وأصرح قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ والعبادة هي الشكر.

5 ذهب الشيخ محمد طاهر ابن عاشور، صاحب تفسير "التحرير والتنوير" إلى أن القائل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾ الآية. هو موسى عليه السلام وأن هذا الأمر كان في بداية أمرهم لما خرجوا من مصر، وأن الذين ظلموا منهم هم: عشرة رجال من اثنا عشر بعث بهم موسى عليه السلام جواسيس يكتشفون أمر العدو ويقدرون قوته قبل إعلان الحرب عليهم، فرجعوا وهم يهولون من شأن العدو وقوته، وينشرون الفرع والرعب في بني إسرائيل ما عدا اثنين منهم، وهما: يوشع ابن نون قريب موسى، وطالب بن بقتة، الذين ذكرا في سورة المائدة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ..﴾ الآية، وخالف في هذا جمهور المفسرين، وادعى الغلط لهم، وما حمله على ذلك سوى أن السياق ما زال مع موسى وقومه مع أن الله تعالى لم يذكر موسى بل قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ والرسول صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري قال: قيل لبني إسرائيل ولم يقل قال موسى لبني إسرائيل، ونص الحديث: "قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً قولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة" . والأمر لهم حقيقة. هو الله تعالى على لسان يوشع، إذ هو الذي قاد الحملة ونصره الله، ودخل بيت المقدس، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدة.

عَبَّرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59){
شرح الكلمات:

{الْقَرْيَةَ 1} : مدينة القدس.

{رَغْدًا} : عيشاً واسعاً هنيئاً.

{سُجِّدًا} : ركعاً 2 متطامنين لله، خاضعين شكراً لله على نجاتهم من التيه.

{حِطَّةٌ} : حطة 3: فعلة مثل ردة، وحدة من ردت وحددت، أمرهم أن يقولوا حطة بمعنى أخطت عنا خطايانا ورفع (حطة) 4 على إنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دخولنا الباب سجداً حطة لذنوبنا {تُغْفَرُ} : نمحو ونستر.

{خَطَايَاكُمْ} : الخطايا: جمعة خطيئة 5: الذنب يقترفه العبد.

{قَبَّلَ} غيروا 6 القول الذي قيل لهم قولوه وهو حطة فقالوا: حبة في شعره 7.

{رِجْزاً 8} : وباء الطاعون.

{يَفْسُقُونَ} : يخرجون عن طاعة الله ورسوله إليهم، وهو يوشع عليه السلام.

معنى الآيتين:

تضمنت الآية الأولى (58) تذكير اليهود بحادثة عظيمة حدثت لأسلافهم تجلت فيها

1 سميت المدينة قرية: من التقري الذي هو التجمع مأخوذ من قريرت الماء في الحوض، إذ جمعته، ومنه قرى الضيف، وهو ما يجمع له من طعام وشراب، وفراش.

2 لأن السجود الذي هو وضع الجبهة على الأرض متعذر المشي معه، فلذا فسر السجود بانحناء الركوع في تطامن وخضوع.

3 يوجد باب حطة اليوم في المسجد الأقصى.

4 وقرأ حطة بالنصب على تقدير أخطت عنا ذنوبنا حطة.

5 المفروض أن تجمع خطيئة على خطائني، نحو حميلة وحمائل، ولكنهم استتقلوا الجمع بين همزتين فقلبو الهمزة الأولى ياء والثانية ألفاً فصارت خطايا.

6 من هذا أخذ حرمة تبديل لفظ تعبدنا الله به بلفظ آخر ولو أتى معناه مثل: الله أكبر في افتتاح الصلاة، والسلام عليكم في الخروج منها. وما لم يتعبدن الله بلفظ يجوز للعالم تبديله وذلك كرواية الحديث بالمعنى للعالم دون الجاهل وعليه جمهور الأمة.

7 و (في شعرة) كنوا بهذا عن كون فتحهم البلاد، ودخولهم إياها من المحال كالذي يحاول ربط حبة

في شعرة.

8 والرجس: بالسجين عذاب فيه نتن وعفونة وقذر.

(1/59)

نعمة الله على بني إسرائيل وهي: حال تستوجب الشكر، وذلك إنهم لما انتهت مدة التيه وكان قد مات كل من: موسى وهارون، وخلفهم في بني إسرائيل فتى موسى يوشع بن نون، وغزا بهم العمالقة وفتح الله تعالى عليهم بلاد القدس أمرهم الله تعالى أمر إكرام وإنعام فقال ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا. واشكروا لي هذه الأنعام بأن تدخلوا باب المدينة راكعين متظامنين قائلين. دخولنا الباب سجداً حطة لذنوبنا التي اقترفناها بنقولنا عن الجهاد على عهد موسى وهارون. نثبكم بمغفرة ذنوبكم ونزید المحسنين منكم ثواباً كما تضمنت الآية الثانية (59) حادثة أخرى تجلت فيها حقيقة سوء طباع اليهود وكثرة رعوناتهم وذلك بتغييرهم الفعل الذي أمروا به والقول الذي قيل لهم فدخلوا الباب زاحفين على أستاذهم قائلين: حبة في شعيرة!! ومن ثم انتقم الله منهم فانزل على الظالمين منهم طاعوناً أفنى منهم خلقاً كثيراً جزاء فسقهم عن أمر الله عز وجل. وكان فيما ذكر عظة لليهود لو كانوا يتعظون.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- تذكير الأبناء بأيام 1 الآباء للعظة والاعتبار.
- 2- ترك الجهاد إذا وجب يسبب 2 للأمة النذل والخسران.
- 3- التحذير عن عاقبة الظلم والفسق والتمرد على أوامر الشارع.
- 4- حرمة 3 تأويل النصوص الشرعية للخروج بها عن مراد الشارع منها.
- 5- فضيلة الإحسان 4 في القول والعمل.

- 1 المراد بالأيام: ما وقع فيها من خير وغيره، ثمرة كسبهم ونتاج أعمالهم بالطاعة لله تعالى، أو المعصية لله عز وجل.
- 2 يشهد له حديث أبي داود وأحمد إذ فيه وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم.
- 3 كتأويل الروافض، لفظ: بقرة بعائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبُحُوا بِقَرَّةٍ} وكتأويل بعض المعاصرين إن ربا البنوك ليس هو ربا الجاهلية الحرام.
- 4 المحسن: من صح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرضه، وكفى المسلمين

شده. هكذا عرفه بعضهم، وأقرب من هذا، المحسن: من راقب الله تعالى في نياته، ومعتقداته، وأقواله، وأفعاله فأحسن في ذلك كله ولم يسيء فيه وبذل المعروف للناس، ولم يسيء إليهم، وحسب الإحسان فضيلة أن الله يحب المحسنين، ومن أحبه الله أسعده وما أشقاه.

(1/60)

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى لَنْ نُصِيبَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)}

شرح الكلمات:

اسْتَسْقَى : طلب لهم من الله تعالى السقيا أي: الماء للشرب وغيره.

بِعَصَاكَ الْحَجَرَ : عصا موسى التي كانت معه منذ خرج من بلاد مدين. وهل هي من شجر الجنة هبط بها آدم، كذا قيل والله أعلم. والحجر هو حجر مربع الشكل من نوع الكذبان رخو كالمدر. وهل هو الذي فر بثوب موسى في حادثة 1 معروفة، كذا قيل، أو هو حجر من سائر الأحجار؟ 2؛ الله أعلم.

1 هذه الحادثة كما هي في الصحيح: أن موسى عليه السلام اتهمه قوم: بالأدرة: (انتفاخ في إحدى الخصيتين). فأراد الله تعالى أن يبرئه منها، فدخل موسى البحر يغتسل، ووضع ثوبه على حجر ففر الحجر بالثوب فلحقه موسى فمر به بني إسرائيل حتى أن علموا أن تهمة باطلة.
2 كون ال في الحجر لبيان الجنس وأن أي: حجر يضربه موسى يتفجر منه الماء أظهر في المعجزة وأدل على قدرة الله تعالى.

(1/61)

{فَإِنْفَجَرَتْ} : الانفجار: الانفلاق فانفجرت: انفلقت من العصا العيون.

{مَشْرِبَهُمْ} : موضع شربهم.

{رَزَقَ اللَّهُ}: ما رزق الله به العباد من سائر الأغذية.
 {وَلَا تَعْنُوا}: العنِّي والعنِّي: أكبر الفساد وفعله عثي كيرضي، يعثي كيرضي، وعتا يعثو، كعدا يعدو.
 {مُفْسِدِينَ}: الإفساد: العمل بغير طاعة الله ورسوله في كل مجالات الحياة.
 البقل: وجمعه البقول: سائر أنواع الخضر؛ كالجزر والخردل والبطاطس، ونحوها.
 القثاء: الخيار والقثة، ونحوهما.
 الفوم: الفوم: الحنطة، وقيل: الثوم لذكر البصل 1 بعده.
 {أَسْتَبْدِلُونَ}: الإستبدال: ترك شيء وأخذ آخر بدلاً عنه.
 {أَدْنَى}: أقل صلاحاً وخيرية ومنافع؛ كاستبدال المن والسلوى بالفوم والبقل.
 {مِصْرًا}: مدينة من 2 المدن، قيل لهم هذا وهم في التيه؛ كالتعجيز لهم والتحدي لأنهم نكلوا عن قتال الجبارين فأصيبوا بالتية وحرموا خيرات مدينة القدس وفلسطين.
 {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ}: أحاطت بهم ولازمته الذلة وهي الصغار والاحتقار.
 {وَالْمَسْكَنَةُ}: والمسكنة: وهي الفقر والمهانة.
 {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ}: رجعوا من طول عملهم وكثرة كسبهم بغضب الله وسخطه عليهم وبئس ما رجعوا به.
 {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ}: ذلك إشارة إلى ما أصابهم 3. من الذلة والمسكنة والغضب وبأنهم أي بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وعصيانهم، فالباء سببية.
 الاعتداء: مجاوزة الحق إلى الباطل، والمعروف إلى المنكر والعدل إلى الظلم.

1 لأن إبدال التاء فاء شائع.

2 هذا بناءً على صرف مصر إذ هو منون منصوب، ولو أريد به مصر التي خرجوا منها لقرئ مصر ممنوعاً من الصرف للعلمية والتأنيث.

3 هذا عام في اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية، ومن قبلهم، ومن يأتي بعدهم، لأن التعليل كان بكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، والكل موافق راب بهذه الجرائم، وعصيانهم واعتدائهم ملازم لهم ما فارقه إلى اليوم.

(1/62)

معنى الآيتين:

يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى الْيَهُودَ الْمَعَاصِرِينَ لِنَزُولِ الْقُرْآنِ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ بِأَيْدِيهِ فِي أَسْلَافِهِمْ وَأَيَّامِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ وَفِي آيَةِ الْأُولَى رَقْم (60) ذَكَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَمَّا عَطَشُوا فِي التِّيَّةِ، اسْتَسْقَى 1 مُوسَى رَبَّهُ فَسَقَاهُمْ

بأمر خارق للعادة، ليكون لهم ذلك آية ليلزموا الإيمان والطاعة وهو أن يضرب موسى عليه السلام بعصاه الحجر 2 فيتفجر الماء منه من اثنا عشر موضعاً كل موضع يمثل عيناً يشرب منها سبط 3 من أسباطهم الإثني عشر حتى لا يتزاحموا فيتضرروا، أكرمهم الله بهذه النعمة، ونهاهم عن الفساد في الأرض بارتكاب المعاصي.

وفي الآية الثانية (61) ذكرهم بسوء أخلاق كانت في سلفهم، منها: عدم الصبر، والتعنت، وسوء التدبير، والجهالة بالخير، والرعونة، وغيرها. وهذا ظاهر في قولهم يا موسى بدل يا نبي الله أو رسول الله لن نصبر على طعام واحد. وقولهم: إدع لنا ربك بدل ادع الله تعالى لنا، أو ادع لنا ربنا عز وجل. وفي مللهم اللحم والعسل وطلبهم الفوم والبصل بدلاً عنهما وفي قول موسى عليه السلام: تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير 4 ما يقرر ذلك كما ذكرهم بالعاقبة المرة التي كانت لهم نتيجة كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، واعتدائهم وعصيانهم، وهي: أن ضرب 5 الله تعالى عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم.

كل هذا وغيره مما ذكر الله تعالى اليهود به في كتابه من أجل أن يذكروا فيتعظوا ويشكروا، فيؤمنوا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويدخلوا في دينه، فيكملوا ويسعدوا بعد أن ينجوا مما حاق بهم من الذلة والمسكنة والغضب في الدنيا، ومن عذاب النار يوم القيامة.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- استحسان الوعظ والتذكير بنعم الله تعالى ونقمه في الناس.

1 في الآية مشروعية الاستسقاء وهو سنة مؤكدة في الإسلام، فقد استسقى النبي صلى الله عليه وسلم وسقى الله الأمة بدعائه غير مرة.

2 انفجار الماء من الحجر معجزة عظيمة، وانفجار الماء من بين أصابع النبي محمد صلى الله عليه وسلم معجزة أعظم، لأن انفجار الماء من الأحجار معهود معروف ولكن من أصابع هي لحم ودم غير معهود قط.

3 السبط: في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب.

4 في قوله: {أَسْتَبْدِلُونَ} إلخ. إنكار عليهم وتوبيخ لهم.

5 إحاطة الزل والمسكنة بهم ذكر في آية آل عمران مقيداً بما لم يكن لهم حبل من الله: وهو الدخول في الإسلام، وحبل من الناس: وهو حماية دولة قوية لهم؛ كبريطانيا أولاً، وأمريكا ثانياً.

2- مطالبة ذي النعمة بشكرها 1، وذلك بطاعة الله تعالى بفعل أوامره. وترك نواهيه.

3- ذم الأخلاق السيئة والتتديد بأهلها للعظة والاعتبار.

4- التتديد بكبائر الذنوب؛ كالكفر، وقتل النفس بغير الحق لا سيما قتل الأنبياء أو خلفائهم وهم العلماء الآمرون بالعدل في الأمة.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (62)

شرح الكلمات:

{الَّذِينَ آمَنُوا} 2 : هم المسلمون آمنوا بالله ووحده وآمنوا برسوله واتبعوه.

{وَالَّذِينَ هَادُوا} : هم اليهود سموا 3 يهوداً لقولهم: إنا هدنا إليك، أي: تبنا ورجعنا.

{وَالنَّصَارَى} : الصليبيون سموا نصارى: إما لأنهم يتناصرون أو لنزول مريم بولدها عيسى قرية

الناصر، والواحد: نصران 4 أو نصراني وهو الشائع على الألسنة.

{وَالصَّابِئِينَ} : أمة كانت بالموصل يقولون لا إله إلا الله. ويقرأون الزبور. ليسوا يهودا ولا نصارى،

واحدهم صابئ 5، ولذا كانت قريش تقول لمن قال لا إله إلا الله: صابئ، أي مائل عن دين آبائه إلى دين جديد وحدّ فيه الله تعالى.

1 كما قيل: من لم يشكر النعم تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها.

2 يرى بعض المفسرين أن المراد (بالذين آمنوا): المنافقون، والصحيح ما ذكرناه وهم المسلمون، وسموا بالمؤمنين لصحة إيمانهم، والفائدة من ذكره هي: ليعلم اليهود وغيرهم أن النسب والانتساب إلى الدين لا يؤهل للسعادة في الدار الآخرة، وإنما يؤهل الإيمان الصحيح والعمل الصالح، إذ بهما تزكوا النفس وتطهر فتتأهل لجوار الله تعالى في الملكوت الأعلى.

3 أو نسبة إلى يهوداً وهو أكبر أولاد يعقوب عليه السلام.

4 نصرن على وزن سكران، والجمع: نصارى؛ كسكارى.

5 قرئ بالتخفيف: الصابيين، وهي قراءة وارش عن نافع.

(1/64)

مناسبة الآية ومعناها:

لما كانت الآية في سياق دعوة اليهود إلى الإسلام ناسب أن يعلموا أن النسب لا قيمة لها وإنما العبرة بالإيمان الصحيح والعمل الصالح المزكي للروح البشرية والمطهر لها، فلذا المسلمون واليهود والنصارى والصابئون 1 وغيرهم؛ كالمجوس وسائر أهل الأديان من آمن منهم بالله واليوم الآخر حق

الإيمان وعمل صالحاً مما شرع الله تعالى من عبادات فلا خوف عليهم بعد توبتهم، ولا حزن ينتابهم عند موتهم من أجل ما تركوا من الدنيا، إذ الآخرة خير وأبقى.

والإيمان الصحيح لا يتم لأحد إلا بالإيمان بالنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح لا يكون إلا بما جاء به النبي الخاتم في كتابه وما أوحى إليه، إذ بشريعته نسخ الله سائر الشرائع قبله وبالنسخ بطل مفعولها فهي لا تزكي النفس ولا تطهرها. والسعادة الآخروية متوقفة على زكاة النفس 2 وطهارتها.

هداية الآية:

من هداية الآية:

1- العبرة بالحقائق لا بالألفاظ، فالمنافق إذا قال هو مؤمن أو مسلم، ولم يؤمن بقلبه ولم يسلم بجوارحه لا تغني النسبة عنه شيئاً، واليهودي والنصراني والصابئي، وكل ذي دين نسبته إلى دين قد نسخ وبطل العمل بما فيه فأصبح لا يزكي النفس، هذه النسبة لا تنفعه، وإنما الذي ينفع الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

2- أهل الإيمان الصحيح والإستقامة على شرع الله الحق مبشرون بنفي الخوف عنهم والحزن وإذا انتفى الخوف حصل الأمن، وإذا انتفى الحزن حصل السرور والفرح وتلك السعادة.
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ 3 وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ

- 1 عامة أهل العلم على أن الصابئة ليسوا أهل كتاب فلا تتكح نسائهم ولا تؤكل ذبائحهم؛ لأنهم وثنيون ولا كتاب لهم على الصحيح.
- 2 لقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} .
- 3 مأخوذ من وثق الشيء بالحبل إذا شده به تقوية له.

(1/65)

بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا 1 مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ 2 اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا 3 قِرْدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا 4 نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُنْتَفِعِينَ (66)

شرح الكلمات:

الميثاق : العهد المؤكد باليمين.

{الطُّورُ} : جبل. أو هو الجبل الذي ناجى الله تعالى عليه موسى عليه السلام

{بِقُوَّةٍ} : بجذ وحزم وعزم.

{تَوَلَّيْتُمْ} : رجعتم عما التزمتم القيام به من العمل بما في التوراة.
{اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} : تجاوزوا الحد فيه حيث حرم عليهم الصيد فيه فصادوا.
{قِرْدَةٌ} : القردة: جمع قرد، حيوان معروف مسخ الله تعالى المعتدين في السبت على نحوه

- 1 أي اذكروا ما تضمنه الكتاب الذي هو التوراة، اذكروا حفظاً لشرائعه وأحكامه وعملاً به، واذكروا وعد الله تعالى فيه ووعيده رجاء أن تحصل لكم التقوى فنتجوا من الخسران.
- 2 من فضل الله تعالى عليهم إنه لم يعاجلهم بالعقوبة جزاء توليهم عن الطاعة، وإعراضهم عنها بعد أخذ الميثاق عليهم، ومن رحمته أنه في أرسل فيهم الرسل فلم تنقطع سلسلتهم إلى عيسى ابن مريم عليه السلام.
- 3 الأمر هنا: كوني لا شرعي إذ لا طاقة لهم على التحول إلى قردة، وإنما تحولوا بأمره الإيرادي الكوني الذي لا يتخلف فيه مراده عز وجل.
- 4 الضمير في قوله: {فَجَعَلْنَاهَا} يعود إلى العقوبة التي هي مسخهم قردة.

(1/66)

{خَاسِيَيْنِ} : مبعدين عن الخير ذليلين مهانين.
{تَكَالَى} : عقوبة شديدة تمنع من رآها أو علمها من فعل ما كانت سبباً فيه
{لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا} : لما بين يدي العقوبة من الناس، ولمن يأتي بعدهم.
{وَمَوْعِظَةً لِّلْمُنْفِقِينَ} 1 : يتعظون 2 بها فلا يقدمون على معاصي الله عز وجل.
معنى الآيات:

يذكر الحق عز وجل اليهود بما كان لأسلافهم من أحداث لعلمهم يعتبرون فيذكروهم بحادثة امتناعهم من تحمل العمل بالتوراة، وإصرارهم على ذلك حتى رفع الله تعالى فوقهم جبلاً فأصبح كالظلة فوق رؤسهم، حينئذ أذعنوا غير أنهم تراجعوا بعد ذلك ولم يفوا بما التزموا به فاستوجبوا الخسران لولا رحمة الله بهم.

كما يذكروهم بجريمة كانت لبعض أسلافهم وهي أنه تعالى حرم عليهم الصيد يوم السبت فاحتالت طائفة منهم على الشرع واصطادوا فنكل الله تعالى بهم فمسخهم 3 قردة، وجعلهم عظة وعبرة للمعتبرين 4.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق.

- 2- يجب أخذ أحكام الشرع بحزم، وذكرها وعدم نسيانها أو تناسيها.
- 3- لا تتم التقوى لعبد إلا إذا أخذ أحكام الشرع بحزم وعزم.
- 4- حرمة 5 الاحتيال لإباحة المحرم وسوء عاقبة المحتالين المعتدين.

- 1 يمتنعون من فعل الذنب الذي كان سبباً في العقوبة.
- 2 خص المتقين بالموعظة؛ لأنهم أحياء القلوب وذووا بصائر نيرة، فيشاهدون آثار المعاصي في أصحابها فينتقونها ويبتعدون عنها.
- 3 جرت سنة الله فيمن يسمخهم إنهم لا يعيشون ثلاثاً حتى يهلكوا ولم يبق منهم أحد، كذا صح عن ابن عباس رضي الله عنه.
- 4 هم أهل البصائر من أهل الإيمان والتقوى، إذ هم أرباب العقول، والعاقل من اعتبر بغيره.
- 5 روى أحمد بسند جيد عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل".

(1/67)

لَوَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوراً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْئِهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا دَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)

شرح الكلمات:

البقرة : واحدة البقر، والذكر ثور، والأنثى بقرة.

الذبح: قطع الودجين والمارن.

الهزؤ : السخرية واللعب.

الجاهل 2 : الذي يقول أو يفعل ما لا ينبغي قوله أو فعله.

- 1 استعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين، إذ الهزوء والسخرية، من أفعال أهل الجهل فكان قول موسى هذا وصماً لهم بالجهل وفساد العقل. وسوء الأخلاق.
- 2 الجاهل الذي جهل الأمر فقال أو عمل فيه بدون علم فأفسد وأساء.

الفارض 1 : المسنة. والبكر الصغيرة التي لم تلد بعد. والعوان: النصف وسط بين المسنة والصغيرة.
فالق : يقال: أصفر فاقع شديدة الصفرة؛ كأحمر قاني، وأبيض ناصع2
الذلول : الريضة التي زالت صعوبتها فأصبحت سهلة منقادة.
{ثُبِيرُ الأَرْضِ} : تقلبها بالمحراث فيثور غبارها بمعنى: أنها لم تستعمل في الحرث ولا في سقاية
الزرع أي لم يُسَن عليها، وذلك لصغرها.
{مسلّمة} : سليمة من العيوب؛ كالعور والعرج3.
{لا شِيَةَ فِيهَا} : الشية: العلامة أي لا توجد فيها لون غير لونها4 من سواد أو بياض.
معنى الآيات:

واذكر يا رسولنا لهؤلاء اليهود عيباً آخر من عيوب أسلافهم الذين يعتزون بهم وهو سوء سلوكهم مع
أنبيائهم فيكون توبيخاً لهم لعلمهم يرجعون عن غيهم فيؤمنوا بك وبما جئت به من الهدى ودين الحق.
اذكر لهم قصة الرجل الذي قتله ابن أخيه استعجالاً لإرثه ثم ألقاه تعمية في حي غير الحي الذي هو
منه، ولما اختلفوا في القاتل، قالوا نذهب إلى موسى يدعو لنا ربه ليبين لنا من هو القاتل فجاءوه،
فقال لهم: إن الله تعالى يأمركم أن تذبحوا بقرة من أجل أن يضربوا القاتل بجزء منها فينطق مبيناً من
قتله فلما قال لهم ذلك، قالوا: أنتخذنا هزواً، فوصفوا نبي الله بالسخرية واللعب، وهذا ذنب قبيح وما
زالوا يسألونه عن البقرة ويتشددون، حتى شدد الله تعالى عليهم الأمر الذي كادوا معه لا يذبحون مع
أنهم لو تناولوا بقرة من عرض الشارع وذبحوها لكفتهم5. ولكن شددوا فشد الله عليهم فعتروا على
البقرة المطلوبة بعد جهد جهيد وغالى فيها صاحبها فباعها منهم بملء جلداه ذهباً.

- 1 الفارض: المسنة التي فرضت سنها فقطعته، لأن الفرض لغة القطع.
- 2 هذه الألفاظ يؤتي بها لتأكيد الوصف، فيقال: أخضر مدهام، وأورق خطباني "الخطباني، نبت".
- 3 استدل الجمهور بهذه الصفات المذكورة للبقرة على جواز بيع السلم في الحيوان، كما استدلوا بقول
الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "لا تتعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها" ، وخالف
أبو حنيفة بعدم صحة السلم في الحيوان.
- 4 لأن الشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين، ولذا قيل النمام واش؛ لأنه لون الكلام
بالوان من كذبه وباطله.
- 5 نقل ابن كثير عن ابن جرير الرواية التالية: إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا، شدد الله
عليهم، وأيم الله لو أنهم لم يبتئوا لما بينت لهم آخر الدهر.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان ما كان عليه قوم موسى من بني إسرائيل من العجرفة وسوء الأخلاق، ليجنب مثلها المسلمون.
 - 2- حرمة الاعتراض على الشارع ووجوب تسليم أمره أو نهيه ولو لم تعرف فائدة الأمر والنهي وعلتها.
 - 3- الندب إلى الأخذ بالمتيسر وكراهة التشدد في الأمور.
 - 4- بيان فائدة الاستثناء بقول: إن شاء الله، إذ لو لم يقل اليهود: إن شاء الله لمهتدون ما كانوا ليهتدوا إلى معرفة البقرة المطلوبة.
 - 5- ينبغي تحاشي الكلمات التي قد يفهم منها انتقاص الأنبياء مثل قولهم: الآن جئت بالحق، إذ مفهومه أنه ما جاءهم بالحق إلا في هذه المرة من عدة مرات سبقت!!.
- وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي 3 اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ 4 أَشَدُّ قَسْوَةً 5 وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ

- 1 وشاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: "يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا" ، وقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين". رواه الترمذي.
- 2 يشهد لصحة هذا أن نبي الله سليمان لما لم يبتئن لم تلد له امرأة من المائة إلا واحدة، وجاءت به نصف ولد، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو استثنى لكان دركاً لحاجته"، كما في البخاري.
- 3 لما كانت عقيدة البعث والجزاء ذات تأثير كبير في إصلاح الإنسان خلقاً وسلوكاً ذكرها تعالى في أثناء سياق القصة مع أن اليهود مؤمنون بالبعث الآخر.

4 أو: بمعنى الواو وليست لشك، وقد تكون بمعنى بل، وشاهد الأول: قول الشاعر:

أتى الخلافة أو كانت له قدراً

بمعنى وكانت وشاهد الثاني: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}. الآية: أي: بل يزيدون لاستحالة الشك على الله تعالى.

5 القسوة في عرف اللغة: اليبس والصلابة، ووصفت قلوب اليهود بذلك؛ لأنها خالية من اللطف والرحمة.

مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

شرح الكلمات:

{نَفْسًا} : نفس الرجل الذي قتله وارثه استعجالاً للإرث.

{فَادَارَأْتُمْ فِيهَا} : تدافعتم أمر قتلها كل قبيل يقول قتلها القبيل الآخر.

{مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} : من أمر القاتل سترًا عليه دفعاً للعقوبة والفضيحة.

{بِبَعْضِهَا} : ببعض أجزاء البقرة كلسانها أو رجلها مثلاً.

معنى الآيات:

يقول تعالى لليهود موبخاً لهم اذكروا إذ قتل أحد أسلافكم قريبه ليرثه، فاختصم في شأن القتل كل جماعة تنفي أن يكون القاتل منها، والحال أن الله تعالى مظهر ما تكتُمونه لا محالة إحقاقاً للحق وفضيحة للقائلين، فأمركم أن تضربوا القتل ببعض أجزاء البقرة، فيحيا ويخبر عن قاتله ففعلتم وأحيا الله القتل وأخبر بقاتله 1 فقتل به، فأراكم الله تعالى بهذه القصة آية من آياته الدالة على حلمه وعلمه وقدرته، وكان المفروض أن تعقلوا عن الله آياته فتكملوا في إيمانكم وأخلاقكم وطاعتكم، ولكن بدل هذا قست قلوبكم وتحجرت وأصبحت أشد قساوة من الحجارة فهي لا ترق ولا تلين ولا تخشع على عكس الحجارة، إذ منها ما تتفجر منه العيون، ومنها ما يلين فيهبط من خشية الله؛ كما اندك جبل الطور لما تجلى له الرب تعالى، وكما اضطرب أحد تحت قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ثم توعدكم الرب تعالى بأنه ليس بغافل عما تعملون من الذنوب والآثام، وسيجزيك به جزاء عادلاً إن لم تتوبوا إليه وتنبوا.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- صدق نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتقريرها أمام اليهود، إذ يخبرهم بأمر جرت لأسلافهم لم

1 في هذه الآية شاهد لمالك في أن الجريح إذا أخبر عن جرحه. ومات أن إخباره يعد لوثاً وتجري في الحادث القسامة، وخالفه الجمهور وقالوا: إخبار القتل لا يكفي في وجود اللوث المقتضي للقسامة، ولرأي مالك شاهد من السنة، وهي الجارية التي رض رأسها كما في البخاري.

يكن يعلمها، غيرهم وذلك إقامة الحجة عليهم.

2- الكشف عن نفسيات اليهود وإنهم يتوارثون الرعونات والمكر والخداع.

3- اليهود من أفسى البشر قلباً إلى اليوم، إذ كل عام يرمون البشرية بقاصمة الظهر وهم ضاحكون.

4- من علامات الشقاء: قساوة القلوب، وفي الحديث: "من لا يرحم لا يرحم" 1.

{أَفَنظَمُونَ} 2 أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ 3 وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)}}

شرح الكلمات:

{أَفَنظَمُونَ} : الهمزة للإنكار الاستبعادي، والطمع: تعلق النفس بالشيء رغبة فيه.

{يُؤْمِنُوا لَكُمْ} : يتابعونكم على دينكم (الإسلام).

{كَلَامَ اللَّهِ} 4 : في كتبه؛ كالتوراة والإنجيل والقرآن.

{يُحَرِّفُونَهُ} 5 : التحريف: الميل بالكلام على وجه لا يدل على معناه كما قالوا في نعت

1 متفق عليه.

2 الطمع والرجاء، وهو ترقب شيء محبوب وضدها اليأس.

3 أي: فهموه فهماً جلياً واضحاً ومع هذا يجافونه على بصيرة.

4 ويدخل في الجملة: الذين سمعوا كلام الله مع موسى عليه السلام في جبل الطور وهم السبعون

الذين اختارهم موسى وخرج بهم إلى الطور طلباً لتوبتهم.

5 التحريف: مصدر حرف الشيء إذا مال به إلى الحرف الذي هو الطرف والبعد عن وسط الجادة.

(1/72)

الرسول صلى الله عليه وسلم في التوراة: أكحل العينين ربعة، جعد الشعر، حسن الوجه، قالوا: طويل أزرق العينين، سبط الشعر.

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا} : إذا لقي منافقوا اليهود المؤمنين قالوا: آمنا بنبينا ودينكم.

{أَتُحَدِّثُونَهُمْ} : الهمزة: للإستفهام الإنكاري، وتحديثهم إخبار المؤمنين بنعوت النبي في التوراة.

{يَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} : إذا خلا مناقفوا اليهود برؤسائهم أنكروا عليهم إخبارهم المؤمنين بنعوت النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة، وهو مما فتح I الله به عليهم ولم يعلمه غيرهم.

{لِيَحْجُوكُمْ بِهِ} : يقولون لهم لا تخبروا المؤمنين بما خصكم الله به من العلم حتى لا يحتجوا عليكم به، فيغلبوكم وتقوم الحجة عليكم فيعذبكم الله.2.

{أُمِّيُّونَ} : الأمي: المنسوب إلى أمة كأنه ما زال في حجر أمه لم يفارقه، فلذا هو لم يتعلم الكتابة والقراءة.3.

{أَمَانِيَّ} : الأمانى: جمع أمنية وهي إما ما يتمناه المرء في نفسه من شيء يريد الحصول عليه، وإما القراءة من تمنى الكتاب إذا قرأه.4.

معنى الآيات:

ينكر تعالى على المؤمنين طمعهم في إيمان اليهود لهم بنبيهم ودينهم، ويذكر وجه استبعاده بما عرف به اليهود سلفاً وخلفاً من الغش والاحتيايل بتحريف الكلام وتبديله، تعمية وتضليلاً حتى لا يُهتدى إلى وجه الحق فيه، ومن كان هذا حاله يبعد جداً تخلصه من النفاق والكذب وكتمان الحق {وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} وهم كاذبون وإذا خلا بعضهم ببعض أنكروا

1 من الجائز أن يكون معنى بما فتح الله به عليهم، أي: قضى وحكم من إنزال المصائب بهم والكوارث بأسلافهم وهي كثيرة؛ لأن فتح تكون بمعنى حكم ومنه قوله تعالى: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} أي: أحكم.

2 هذا الكلام جارٍ على عقيدة اليهود في تشبيههم الرب تعالى بحكام البشر في رواج الحيل عليه، وإمكان مغالطته وأنه تعالى يوجد الشيء ثم يندم ويأسف كما هو صريح في التوراة فلذا أنكروا على بعضهم إخبار المؤمنين بصدق النبوة المحمدية مخافة أن يحتجوا عليهم يوم القيامة بذلك.

3 وجائز أن يكون منسوباً إلى الأمة فيكون بمعنى العامي المنسوب إلى العامة.

4 وشاهده قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخره لاقى حمام المقادر

أي: قرأ القرآن في أول الليل الذي قتل فيه رضي الله عنه.

(1/73)

على أنفسهم ما فاه به بعضهم للمسلمين من صدق نبوة الرسول وصحة دينه، متعللين بأن مثل هذا الاعتراف يؤدي إلى احتجاج المسلمين به عليهم وغلبهم في الحجة، وسبحان الله كيف فسد ذوق القوم وساء فهمهم حتى ظنوا أن ما يخفونه يمكن إخفاؤه على الله، قال تعالى في التنديد بهذا الموقف

الشائن: {أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}؟.

ومن جهل بعضهم بما في التوراة وعدم العلم بما فيها من الحق والهدى والنور ما دل عليه قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ} إلا مجرد قراءة فقط، أما إدراك المعاني الموجبة لمعرفة الحق والإيمان به واتباعه فليس لهم فيها نصيب، وما يقولونه ويتفوهون به لم يعد الحرص والظن الكاذب.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- أن أبعاد الناس عن قبول الحق والإذعان له اليهود.

2- قبح إنكار الحق بعد معرفته.

3- قبح الجهل بالله وبصفاته العلا وأسمائه الحسنی.

4- ما كل من يقرأ الكتاب يفهم معانيه فضلاً عن معرفة حكمه وأسراره وواقع أكثر المسلمين اليوم شاهد على هذا فإن حفظة القرآن منهم من لا يعرفون معانيه فضلاً عن غير الحافظين له.

{قَوْلٌ 1 لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ 2 ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ

1 في قوله تعالى: {قَوْلٌ لَهُمْ} إلخ. بيان سبب عذابهم وهو كذبهم على الله بكتابة شيء، ونسبته إلى الله تعالى كما هو أكلهم الحرام الذي كسبوه بالكتابة الباطلة.

2 قوله: بأيديهم. هو نحو نظرتة بعيني، وقلته بلساني، تأكيد لا غير.

(1/74)

أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81){
شرح الكلمات:

ويل : الويل 1: كلمة تقال لمن وقع في هلكة أو عذاب.

{الْكِتَابُ} : ما يكتبه علماء اليهود من أباطيل وينسبونه إلى الله تعالى ليتوصلوا به إلى أغراض دنية من متاع الدنيا القليل.

{مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} : ينسبون ما كتبوه بأيديهم إلى التوراة بوصفها 2 كتاب الله ووحيه إلى موسى عليه السلام.

{يَكْسِبُونَ} : الكسب يكون في الخير، وهو هنا في الشر فيكون من باب التهكم بهم.

{أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}: أربعين 3 يوماً وهذا من كذبهم وتضليلهم للعوام منهم ليصرفوهم عن الإسلام.
{أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا}: الهمزة للاستفهام الإنكاري، والعهد: الوعد المؤكد.
{سَيِّئَةٌ}: هذه سيئة الكفر والكذب على الله تعالى.
{وَأَخَاطَتٌ 4 بِهِ}: الإحاطة بالشيء: الالتفاف به والدوران عليه.

1 الويل: مصدر أمات، العرب فعله، ومؤنثه: الويلة، والجمع: الويلات، وإعرابه: إن أفرد ولم يضيف الرفع بالابتداء وخبره المجرور بحرف الجر، وإن أضيف إلى ضمير نصب نحو: ويالك لا تفعل كذا، وإن أضيف إلى ظاهر رفع الابتداء، نحو: ويل أمه. مسعر حرب الحديث.

2 من المعلوم إن التوراة قد أخذت من اليهود في حملة بختنصر، وفي حملة القائد الروماني، ولذا ضاع أكثرها وزيد فيها ونقص بحيث ما أصبحت صالحة لهداية البشرية، ومن هنا أصبح علماءهم يكتبون الكلمات وينسبونها إلى التوراة التي هي كتاب الله في الأصل، ويزعمون أن ما كتبه هو من كتاب الله.

3 ذكر ابن كثير في سبب نزول قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا} أن عكرمة قال: "خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها آخرون، يعنون محمداً وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رؤسهم: "بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفنكم فيها أحد" فأنزل الله عز وجل: {وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ...} الآية.
4 بين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: في رواية أحمد، فقال: "إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل".

(1/75)

{حَاطِيئُهُ}: الخطيئة: واحدة الخطايا وهي الذنوب عامة.

الخلود: البقاء الدائم الذي لا تحول معه ولا ارتحال.

معنى الآيات:

يتوعد الرب تبارك وتعالى بالعذاب الأليم أولئك المضللين من اليهود الذين يحرفون كلام الله، ويكتبون أموراً من الباطل وينسبونها إلى الله تعالى ليتوصلوا بها إلى أغراض دنيوية سافلة. وينكر عليهم تبجحهم الفارغ بأنهم لا يعذبون بالنار مهما كانت ذنوبهم ما داموا على ملة اليهود إلا أربعين يوماً ثم يخرجون، وجائز أن يتم هذا لو كان هناك عهد من الله تعالى قطعه لهم به ولكن أين العهد؟ إنما هو الإدعاء الكاذب فقط ثم يقرر العليم الحكيم سبحانه وتعالى حكمه في مصير الإنسان بدخول النار أو الجنة ذلك الحكم القائم على العدل والرحمة البعيد عن التأثير بالأنساب والأحساب،

فيقول: {بلى}، ليس الأمر كما تدعون، وإنما هي الخطايا والحسنات فمن كسب سيئة وأحاطت إبه خطيئته 2 فخبثت نفسه ولوثتها فهذا لا يلائم خبث نفسه إلا النار، ومن آمن وعمل صالحاً فزكى بالإيمان والعمل الصالح نفسه وطهرها فإنه لا يلائم طهارة روحه وزكاة نفسه إلا الجنة دار النعيم. أما الحسب والنسب والادعاءات الكاذبة فلا تأثير لها البتة.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- التحذير الشديد من الفتاوى الباطلة التي تحرم ما أحل الله أو تحلل ما حرم ليتوصل بها صاحبها إلى غرض دنيوي كمال، أو حظوة لدى ذي سلطان.
- 2- إبطال الانتفاع بالنسب والانتساب، وتقرير أن سعادة الإنسان؛ كشقائه مردهما في السعادة إلى الإيمان والعمل الصالح. وفي الشقاوة إلى الشرك والمعاصي.
- 3- التنبيه على خطر الذنوب صغيرها وكبيرها، وإلى العمل على تكفيرها بالتوبة والعمل الصالح قبل أن تحوط بالنفس فتحجبها عن التوبة. والعياذ بالله.

1 دل على هذا على أن المعلق على شرطين لا يتم بأقلهما، وهو في قوله صلى الله عليه وسلم للذي قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: "قل آمنت بالله ثم استقم" حديث حسن ذكره النووي في الأربعين.
2 قرأ نافع: خطيئته، بالجمع. وقرأ حفص: خطيئته بالإفراد.

(1/76)

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (82) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي 4 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا 5 مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ} (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} (84) ثُمَّ أَنْتُمْ 6 هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَنظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ فَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْنُونُونَ بِبَعْضِ الْكُتَابِ وَتَكَفَّرُونَ بِبَعْضِ مَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ

1 قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا...} إلخ. بعد ذكر النار وأهلها من باب ذكر الترغيب بعد التهيب كما في سنة القرآن الكريم.

- 2 قوله: {لَا تَعْبُدُونَ..} إلخ. تفسير لمضمون الميثاق. والجملّة خبرية لفظاً، إنشائية معنى، إذ هي في معنى اعبدوا الله وحده، وأحسنوا بالوالدين. وقولوا للناس حسناً. إلخ.
- 3 الوالدان: الأم، والأب. يقال: للأب، والد، ووالدة. فلذا ثنى على الوالدين، أو هو من باب التغليب؛ كالعمرين في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.
- 4 ذي: بمعنى صاحب.
- 5 فيه إنصاف واحتراز حيث استثنى من لم يثلّ عما التزم به من بنود العهد، وإن كان قليلاً.
- 6 أعرب: (أنتم) خبر مقدم، وهؤلاء مبتدأ مؤخر، وتقتلون: حال. وأعرب أيضاً: (أنتم) مبتدأ، وهؤلاء منادى، والخبر، تقتلون: أي: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون. وفيه معنى التعجب من حالهم والإنكار عليهم.

(1/77)

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ (86)

شرح الكلمات:

الميثاق : العهد 2 المؤكد باليمين.

حسناً : حسن القول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمخاطبة باللين، والكلم الطيب الخالي من البذاءة والفحش.

توليتم : رجعتم عما التزمت به مصممين على أن لا تتوبوا.

سفك الدماء 3 : إراقتها وصبها بالقتل والجراحات.

تظاهرون : قرئ تظاهرون، وتظاهرون بقاء واحدة ومعناه تتعاونون.

بالإثم والعدوان : الإثم: الضار الموجب للعقوبة، والعدوان الظلم.

أسارى : جمع أسير: من أخذ في الحرب.

الخزي : الذل والمهانة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تذكير اليهود 4 بما كان لأسلافهم من خير وغيره والمراد هدايتهم لو كانوا يهتدون، فقد ذكرهم في الآية (83) بما أخذ الله تعالى عليهم في التوراة من عهود ومواثيق على أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا في عبادته سواه. وأن يحسنوا للوالدين ولذي

1 أي: باعوا آخرتهم بدنياهم ففسدوا خسراً عظيماً بحقارة الدنيا، وعظم الآخرة، والاشتراء في الآية

بمعنى: الاستبدال، استبدلوا الآخرة فلم يعملوا لها بالدنيا حيث قصروا أعمالهم على تحصيلها.

- 2 هذا الميثاق تضمنه الوصايا العشر المنزلة على موسى عليه السلام، أو على الأقل بعضه والبعض الآخر تضمنه ما أخذ عليهم عند رفع الطور عليهم لما رفضوا الالتزام بما في التوراة.
- 3 قوله تعالى في الآية: {تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ} ، وقوله: {تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ} ليس معناه أن أحدهم يقتل نفسه ويسفك: أي يسيل دمه، وإنما لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يقتل بعضكم بعضاً؛ لأنكم أمة واحدة.
- 4 هم يهود المدينة، وهم ثلاث طوائف: بنو قينقاع، وبنو النضير، وقريظة.

(1/78)

القريب واليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس الحسن من القول وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وندد بصنيعهم حيث نقض هذا العهد والميثاق أكثرهم ولم يفوا به وفي الآية الثانية(84) ذكرهم بميثاق خاص أخذه عليهم في التوراة أيضاً وهو الإسرائيلي لا يقتل الإسرائيلي ولا يخرج من داره بغياً وعدواناً عليه، وإذا وقع في الأسر وجب فكاكه بكل وسيلة ولا يجوز تركه أسيراً بحال، أخذ عليهم بهذا ميثاقاً غليظاً وأقروا به وشهدوا عليه وفي الآية الثالثة(85) وبخهم على عدم وفائهم بما التزموا به حيث صار اليهودي يقتل 1 اليهودي ويخرجه من داره بغياً وعدواناً عليه. وفي نفس الوقت إن أتاهم يهودي أسيراً2 فدوه بالغالي والرخيص، فندد الله تعالى بصنيعهم هذا الذي هو إهمال واجب وقيام بأخر تبعاً لأهوائهم فكانوا كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ومن هنا توعدهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة. وفي الآية الرابعة(86) أخبر أنهم بصنيعهم ذلك اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فكان جزؤهم عذاب الآخرة حيث لا يخفف عنهم ولا ينصرون فيه بدفعه عنهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية تذكير الناس ووعظهم بما يكون سبباً لهدايتهم.
- 2- وجوب عبادة الله وتوحيده فيها.
- 3- وجوب الإحسان إلى الوالدين ولذوي القربى واليتامى3 والمساكين.
- 4- وجوب معاملة الناس بحسن4 الأدب.

1 حصل لهم هذا بالمدينة النبوية وذلك أن سكان المدينة كانوا يتألفون من قبيلتين: الأوس، والخزرج، وقبائل اليهود الثلاث، وكانت تتدلع الحروب بينهم لأتفه الأسباب، وكانوا بنو قينقاع وبنو النضير حلفاً للخزرج، وبنو قريظة حلفاً للأوس، فإذا اندلعت الحرب بين الأوس والخزرج قاتل اليهود مع حلفائهم، وبذلك يقتل اليهودي أخاه ويسفك دمه وإذا انتهت الحرب فادوا أسراهم طاعة لله تعالى

إذا أوجب ذلك عليهم.

2 الأسر: مأخوذ من الإسار وهو: القد الذي يشد به المحمل فيسمى أخيد الحرب: أسيراً، لأنه يشد وثاقه، وجمع: أسرى، وأسارى؛ كسكرى، وسكارى، ثم سمي كل أخيه في الحرب: أسيراً.

3 روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كافل النtim له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة" وأشار الراوي بالسبابة والوسطى. أي: من أصابعه كما روي أيضاً عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله".

4 بأن يكون اللفظ طيباً والوجه منبسطاً.

(1/79)

5- تعرض أمة الإسلام لخزي الدنيا وعذاب الآخرة بتطبيقها بعض أحكام الشريعة وإهمالها البعض الآخر.

6- كفر من يتخير أحكام الشرع فيعمل ما يوافق مصالحه وهواه، ويعمل ما لا يوافق.

7- كفر من لا يقيم دين الله إعراضاً عنه ودعم مبالاة به.

هُوَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (88) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

1 عيسى: معرب يسوع، أو يشوع؛ لأن عيسى أخف منهما.

2 قوله تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ} . إلخ. إحياء باللوم والعتاب بل هو تقريع وتوبيخ لليهود على تمردهم على رسلهم بتكذيب البعض وقتل البعض اتباعاً لأهوائهم وأغراضهم الدنية.

3 تهوى: مضارع هوى بكسر الواو، إذا أحب، ومنه حديث البخاري: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك أي حبك والقائلة عائشة رضي الله عنه. ويجمع الهوى على أهواء.

(1/80)

شرح الكلمات:

{مُوسَى}: موسى بن عمران نبي مرسل إلى بني إسرائيل.

{الْكِتَاب}: التوراة.

{وَقَفَّيْنَا}: أرسلناهم يقفون بعضهم بعضاً أي واحداً بعد واحد.

{بِالرُّسُلِ}: جمع رسول: ذكر من بني آدم أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

{الْبَيِّنَات}: المعجزات وآيات الله في الإنجيل.

{بِرُوحِ الْفُدُسِ}: جبريل عليه السلام.

{عُفْفٌ}: عليها غلاف يمنعها من الفهم لما تدعوننا إليه، أو هي أوعية للعلم فلا نحتاج معها إلى أن نتعلم عنك.

{كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}: القرآن الكريم.

{يَسْتَفْتِحُونَ 2}: يطلبون الفتح أي النصر.

{بِئْسَمَا}: بئس كلمة ذم، ضدها نعم فإنها للمدح.

{بِغِيًّا 3}: حسداً وظلماً.

{فَبَاءُوا بِغَضَبٍ 4}: رجعوا والغضب ضد الرضا، ومن غضب الله عليه أبعدته ومن رضي الله عنه قربه وأدناه.

{مُهَيِّنٌ}: عذاب فيه إهانة وصغار ونزل للمعذب به.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر إنعام الله تعالى على بني إسرائيل، وذكر معائبهم وبيان مثالبهم، لعل ذكر الإنعام يحملهم على الشكر فيؤمنوا، وذكر المعائب يحملهم على الإصلاح والتوبة فيتوبوا ويصلحوا، ففي الآية (87) يذكر تعالى منته بإعطاء موسى التوراة وإرسال

1 الروح: جوهر نوراني لطيف لا يدرك بالحواس فيطلق على نفس الإنسان دون أنفس الحيوانات، ويطلق على جبريل عليه السلام وعلى ملك عظيم من الملائكة، والقدس مصدر أو اسم مصدر بمعنى: النزاهة، والطهارة، والمقدس: معناه المطهر المنزه عما لا يليق به.

2 وذلك بإيمانهم واتباعهم للنبي المنتظر. ألا إنهم لما جاءهم كفروا به، وهذه طبيعتهم كما قيل: شنشنة أعرفا من أخزم.

3 مفعول لأجله علة لكفرهم.

4 هل تعدد الغضب لتعدد كفرهم بما أمروا بالإيمان به، إذ كفروا بعبسى فبأوا بغضب وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم فبأوا بغضب آخر، أو هو شدة الحال عليهم لكثرة كفرهم وفسقهم؟.

الرسول بعده بعضهم على أثر بعض، وإعطاء عيسى البيئات وتأييده بروح القدس جبريل عليه السلام ومع هذا فإنهم لم يستقيموا بل كانوا يقتلون الأنبياء ويكذبونهم، فوبخهم الله تعالى على ذلك بقوله: { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } . وفي الآية الثانية (88) يذكر تعالى تبجحهم بالعلم واستغناءهم به، ويبطل دعواهم وثبت علة ذلك وهي: أن الله لعنهم بكفرهم، فلذا هم لا يؤمنون، وفي الآية الثالثة (89) يذكر تعالى كفرهم بالقرآن ونبيه بعد أن كانوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يقولون للعرب إن نبياً قد أظل زمانه وسوف تؤمن به ونقاتلكم معه وننتصر 2 عليكم، فما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله 3 عليهم؛ لأنهم كافرون. وفي الآية الرابعة (89) يقبح الله تعالى سلوكهم حيث باعوا أنفسهم رخيصة، باعوها بالكفر فلم يؤمنوا بالقرآن ونبيه حسداً 4 أن يكون في العرب نبي يوحى إليه، ورسول يطاع ويتبع، فرجعوا من طول رحلتهم في الضلال بغضب عظيم سببه كفرهم بعيسى، وبغضب عظيم سببه كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ومع الغضب العذاب المهين في الدنيا والآخرة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- واجب النعمة الشكر، وواجب الذنب التوبة.
- 2- قبح رد الحق لعدم موافقته لهوى النفس
- 3- فظاعة جريمة القتل والتكذيب بالحق.
- 4- سوء عاقبة التبجح بالعلم وإدعاء عدم الحاجة إلى المزيد منه.
- 5- ذم الحسد وأنه أخو البغي وعاقبتهما الحرمان والخراب.
- 6- شر ما يخاف منه سوء الخاتمة والعياذ بالله.

1 الجمهور من النحاة: على أن همزة الاستفهام في: { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ } ونحوها مقدمة من تأخير إذ موقعها بعد الفاء العاطفة، ولما كان حرف الاستفهام وخاصة الهمزة له الصدارة، قدمت الهمزة على الفاء العاطفة فقال: { أَفَكُلَّمَا } وخلاف الجمهور يرى أن الهمزة داخلية على محذوف يقدر بحسب المقام.

2 هذا معنى قوله تعالى: { وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ } .

3 لم يقل الله تعالى: فلعنة الله عليهم، وإنما قال: { فلعنة الله على الكافرين } إشارة إلى سبب اللعنة، وهو الكفر لا الجنس، أو العرق، وليعم كل كافر أيضاً.

4 سمي الحسد: بغياً وظلماً؛ لأن البغي والظلم بمعنى، والظلم وضع الشيء في غير موضعه،

والحاسد متمني زوال النعمة عن المحسود وهو في هذا الحال ظالم متعد؛ لأنه لا يناله من زوالها نفع ولا من بقاءها ضرر.

(1/82)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ1 وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا2 لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ3 أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ4 بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا5 قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)}

شرح الكلمات:

{بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}: من القرآن.

{بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا}: التوراة.

{وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا}: القرآن الكريم مقرر لأصول الأديان الإلهية؛ كالتوحيد والنبوات والبعث والجزاء في الدار الآخرة.

البيِّنات: المعجزات.

1 أي: بما سواه وهو القرآن الكريم دل عليه السياق.

2 جملة: {وَهُوَ الْحَقُّ} حالية، {مُصَدِّقًا} حال مؤكدة، ويصح أن تكون حال مؤسسة.

3 الإتيان بالمضارع في: {تَقْتُلُونَ} مع أن القتل قد مضى لقصد استحضار الحالة الفظيعة كما في إشارة إلى استعدادهم لفعل تلك الفعلة الشنيعة وهي قتل الأنبياء والعلماء.

4 فإن قيل لقد سبق مثل هذا القصص، فما الفائدة من إعادته هنا؟ الجواب: إنه ذكر فيه ما لم يذكر هناك، وهو قوله: {وَاسْمَعُوا...}. إلخ.

5 قوله: {وَاسْمَعُوا...} ليس المراد بالسماع بالحاسة، وإنما المراد الطاعة والامتثال؛ كقول المرء: فلان

لا يسمع كلامي، فإن معناه لا يمتثل أمري ولا يطيعني كما أن قوله: {وَعَصَيْنَا} ليس معناه بلفظ

عصينا وإنما معناه إنهم لم يمتثلوا الأمر الصادر إليهم.

(1/83)

{اتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ} : يريد إليها عبدتموه في غيبة موسى عليه السلام.
{وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ} : أي حب العجل الذي عبده بدعوة السامري لهم بذلك.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بني إسرائيل وتقريعهم على سوء أفعالهم، ففي الآية الأولى (91) يخبر تعالى أن اليهود إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن يدعون أنهم في غير حاجة إلى إيمان جديد بحجة أنهم مؤمنون من قبل بما أنزل الله تعالى في التوراة وبهذا يكفرون بغير التوراة وهو القرآن، مع أن القرآن حق، والدليل أنه مصدق لما معهم من حق في التوراة، ثم أمر الله رسوله أن يبطل دعواهم موبخاً إياهم بقوله: { فَمِمَّنْ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } إذ قتل الأنبياء يتنافى مع الإيمان تمام المنافاة.

وفي الآية الثالثة (93) يذكر تعالى اليهود بما أخذه على أسلافهم من عهد وميثاق بالعمل بما جاء في التوراة عندما رفع الطور فوق رؤوسهم تهديداً لهم غير أنهم لم يفوا بما عاهدوا عليه، كأنهم قالوا سمعنا وعصينا، فعبدوا العجل وأشربوا حبه في قلوبهم بسبب كفرهم ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقبح ما ادعوه من أن إيمانهم هو الذي أمرهم بقتل الأنبياء وعبادة العجل، والتمرد والعصيان.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية توبيخ أهل الجرائم على جرائمهم إذا أظهروها.
 - 2- جرأة اليهود على قتل الأنبياء والمصلحين من الناس.
 - 3- وجوب أخذ أمور الشرع بالحزم والعزم والقوة.
 - 4- الإيمان بالحق لا يأمر صاحبه إلا بالمعروف، والإيمان بالباطل المزيف يأمر صاحبه بالمنكر.
- {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ

1 هذه الآية تحمل الرد على مزاعم أخرى لليهود وهي دعواهم إنهم أولياء الله وإن الجنة لهم دون غيرهم، ولذا فهم في غير حاجة إلى دين جديد كالإسلام الذي جاء محمد صلى الله عليه وسلم فأمر الله رسوله أن يباهلهم فطلب منهم أن يتمنوا الموت وسألوه فنكلوا ولم يباهلوا وظهر بذلك كذبهم وتمت فضيحتهم.

دُونَ النَّاسِ فَنَمَتُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ
وَمَا هُوَ بِمُرْحِزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ 2 وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98){

شرح الكلمات:

{الدَّارُ الْآخِرَةُ}: المراد منها نعيمها وما أعد الله تعالى فيها لأوليائه.

{خَالِصَةً}: خاصة لا يدخلها أحد سواكم.

{فَنَمَتُوا الْمَوْتَ}: تمنوه في نفوسكم واطلبوه بألسنتكم، فإن من كانت له الدار الآخرة لا خير له في بقائه في الدنيا.

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}: أي في دعوى أن نعيم الآخرة خاص بكم لا يشارككم فيه غيركم.

{حَيَاةٍ}: التنكير فيها لتعم كل حياة ولو كانت ذميمة.

{يَوَدُّ}: يحب.

1 روى الترمذي في سبب نزول: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ...} إلخ. أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال جبريل: قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذلك عدونا لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية إلى قوله: {لِلْكَافِرِينَ}.
2 ذكر جبريل وميكائيل بعد ذكرهم في عموم الملائكة دليل على شرفهما وعلو مقامهما.

(1/85)

{الَّذِينَ أَشْرَكُوا}: هم غير أهل الكتاب من سائر الكفار.

{بِمُرْحِزِحِهِ}: بمبعده من العذاب.

{أَنْ يُعَمَّرَ}: تعميده ألف سنة.

جبريل: روح القدس الموكل بالوحي ينزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ}: نزل جبريل القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}: القرآن مصدق لما في الكتب السابقة من نعت الرسول صلى الله عليه وسلم والبطارة به ومن التوحيد ووجوب الإسلام لله تعالى.

ميكال 1: ميكال وميكائيل: ملك من أعظم الملائكة، وقيل: معناه عبيد الله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الرد على اليهود وإبطال حججهم الواهية، ففي الآية الأولى (94) أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم مباحلاً إياهم: إن كانت الدار الآخرة خالصة لكم لا يدخل الجنة معكم أحد فتمنوا الموت لتدخلوا الجنة وتستريحوا من عناء الدنيا ومكابدة العيش فيها، فإن لم تتمنوا ظهر كذبكم وثبت كفركم وأنكم أصحاب النار، وفعلاً ما تمنوا الموت ولو تمنوه لماتوا عن آخرهم.

وفي الآية الثانية (95) أخبر تعالى أن اليهود لن يتمنوا الموت أبداً، وذلك بسبب ما قدموه من الذنوب والخطايا العظام الموجبة لهم عذاب النار بأنهم مجرمون ظلمة والله عليم بالظالمين، وسيجزئهم بظلمهم إنه حكيم عليم.

وفي الآية الثالثة (96) يخبر الله تعالى أن اليهود أحرص الناس على الحياة حتى من المشركين الذين يود الواحد منهم أن يعيش ألف سنة، فكيف يتمنون الموت إذاً وهم على هذا الحال من الحرص على الحياة، وذلك لعلمهم بسوء مصيرهم إن هم ماتوا. كما يخبر تعالى أن الكافر لا ينجيه من العذاب طول العمر ولو عاش أكثر من ألف سنة، ثم هدد الله تعالى اليهود وتوعدهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الشر والفساد وسيجزئهم به.

1 في جبريل وميكائيل لغات عدة، أشهرها: جبريل وجبرائيل وجبرين -بالنون- وميكائيل، وميكال، ميكائيل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: عبد الله، وميكائيل، عبيد الله.

(1/86)

وفي الآية الرابعة (97) يأمر تعالى رسوله أن يرد على اليهود قولهم: لو كان الملك الذي يأتيك بالوحي ميكائيل لأمنا بك، ولكن لما كان جبريل، فجبريل عدونا؛ لأنه ينزل بالعذاب، بقوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ فليمت غيظاً وحنقاً، فإن جبريل هو الذي ينزل بالقرآن بإذن ربه على قلب رسوله مصداقاً -القرآن- لما سبقه من الكتب وهدى يهتدى به وبشرى يبشر به المؤمنون الصالحون. وفي الآية الخامسة (98) يخبر تعالى أن من يعاديه عز وجل ويعادي أولياءه 1 من الملائكة والرسول وبخاصة جبريل فإنه كافر، والله عدو له ولسائر الكافرين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- صحة الإسلام، وبطلان اليهودية، وذلك لفشل اليهود في المباهاة بتمني الموت.

2- المؤمن الصالح يفضل الموت على الحياة لما يروجه من الراحة والسعادة بعد الموت.

3- صدق القرآن فيما أخبر به عن اليهود من حرصهم على الحياة ولو كانت رخيصة ذميمة، إذ هذا أمر مشاهد منهم إلى اليوم.

4- عداوة الله تعالى للكافرين. ولذا وجب على المؤمن معاداة أهل الكفر لمعاداتهم لله، ومعاداة الله تعالى لهم.

{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}3(99) أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

1 في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب".

2 ذكر الطبري أن قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ...} إلى قوله: {الْفَاسِقُونَ} نزل رداً على ابن سوريا اليهودي، حيث قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية بينة فننبعك بها.

3 كابن سوريا، وأضرابه ممن تعمدوا الخروج عن منهج الحق وهم يعلمون.

(1/87)

لا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)

شرح الكلمات:

{آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}: هي آيات القرآن الكريم الواضحة فيما تدل عليه من معان.

{يَكْفُرُ بِهَا}: يجحد بكونها كتاب الله ووحيه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

{الْفَاسِقُونَ}: الخارجون عما يجب أن يكونوا عليه من الإيمان بالله والإسلام له ظاهراً وباطناً.

{أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا}: الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة على تقديره أكفروا بالقرآن ونبيه، وكلمة عاهدوا إلخ...

العهد: الوعد الملزم.

{نَبَذَهُ}: طرحه وألقاه غير آبه به ولا ملتفت إليه.

{رَسُولٌ}: التنكير للتعظيم، والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قبله عيسى عليه السلام

{لَمَّا مَعَهُمْ}: من نعت الرسول صلى الله عليه وسلم وتقرير نبوته، وسائر أصول الدين في التوراة.

{كِتَابَ اللَّهِ}: التوراة2 لدلالاتها على نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دينه الإسلام.

{وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}: أي عرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه لمنافاته لما هم معروفون عليه من الكفر بالنبي

محمد صلى الله عليه وسلم؛ كأنهم لا يعلمون مع أنهم يعلمون حق العلم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته والرد على اليهود وإظهار

1 النبذ: الطرح والإلقاء، ولذا سمي اللقيط منبذاً، وسمي النبيذ: نبيذاً؛ لأنه طرح التمر والزبيب في الماء وعليه قول الشاعر:

نظرت إلى عنوانه فنبدته ... كنبذك نعلأ من نعالك

يكون القرآن الكريم، فقد نبذوه أيضاً بعد علمهم؛ بأنه الحق مصداقاً لما معهم.

(1/88)

ما هم عليه من الفسق والظلم في الآية الأولى (99) يرد تعالى على قول ابن سوريا اليهودي للرسول صلى الله عليه وسلم ما جئنا بشيء، بقوله: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}؛ كالأعور بن سوريا اليهودي. وفي الآية الثانية (100) ينكر الحق سبحانه وتعالى على اليهود كفرهم ونبذهم للعهد والمواثيق وليسجل عليهم عدم إيمان أكثرهم بقوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. وفي الآية الثالثة (101) ينعي البارئ عز وجل على علماء اليهود نبذهم للتوراة لما رأوا فيها من تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإثباتها فقال: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- الفسق العام ينتج الكفر، إن العبد إذا فسق3 وواصل الفسق عن أوامر الله ورسوله سيؤدي به ذلك إلى أن ينكر ما حرم الله وما أوجب فيكفر لذلك والعياذ بالله.
 - 2- اليهود لا يلتزمون بوعد ولا يفون بعهد، فيجب أن لا يوثق في عهدهم أبداً.
 - 3- التوراة أحد كتب الله عز وجل المنزلة أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام.
 - 4- قبح جريمة من تنكر للحق بعد معرفته، ويصبح وكأنه جاهل به.
- {وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرُوا}

1 قال السدي في تفسير هذه الآية: لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم، عارضوه بالتوراة فاتفقت

التوراة والقرآن فنبدوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت فلم توافق القرآن. فهذا

معنى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ...} .

- 2 الظهور: جمع ظهر ويجمع على ظهران يقال لمن أعرض عن شيء: رماه وراء ظهره.
- 3 الفسق: مشتق من فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرتها، وبه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على أهل الدار.
- 4 اشتهر بين علماء السلف أن ما تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان كان سببه: أن مرده من الشياطين كتبوا كتاباً ضمنوه الكثير من ضروب السحر والشعوذة والأباطيل ونسبوه إلى كاتب سليمان، وهو: أصف ودفنوه تحت كرسي سليمان حين ابتلي بنزع ملكه، ولما مات سليمان أخرج الكتاب شياطين الجن بالتعاون مع شياطين الإنس، وأعلنوا في الناس أن سليمان كان ساحراً، وما غلب الجن والإنس إلا بالسحر، فصدقهم أناس وكذب آخرون، ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وكفر به اليهود وتكروا للتوراة لاتفاقها مع القرآن أنزل الله تعالى قوله: {وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ} فبرأ سليمان وكفر اليهود.

(1/89)

سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ 1 وَمَا أُنزِلَ 2 عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَتُّوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)}

شرح الكلمات:

- {مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ}: الذي تتبعه وتقول به الشياطين من كلمات السحر.
- {عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}: على عهد سليمان ووقت حكمه.
- {الشَّيَاطِينُ}: جمع شيطان وهو من خبث وتمرد ولم يبق فيه قابلية للخير.

-
- 1 قيل: السحر مشتق من قولهم: سحرت الصبي، إذا خدعته أو علته بشيء ومنه قول الشاعر:
أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام والشراب
يريد أن الناس مسرعون إلى الموت وهم مخدعون بالطعام وبالشراب.
 - 2 لم يكن إنزالاً بمعنى الوحي الإلهي ولكن إلهاماً لهما فبرع فيه وتفوق على غيرهما.

(1/90)

{السَّحْرَ 1}: هو كل ما لطف مأخذه وخفي سببه مما له تأثير على أعين الناس أو نفوسهم أو أبدانهم.

{هَارُوتَ وَمَارُوتَ}: ملكان وجدا للفتنة.

{فَلَا تَكْفُرْ}: لا تتعلم منا السحر لتضر به فتكفر بذلك.

{بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ}: بين الرجل وامرأته.

{اشْتَرَاهُ}: اشترى السحر بتعلمه والعمل به.

الخلاق: النصيب 2 والحظ.

{مَا شَرَوْا}: ما باعوا به أنفسهم.

{الْمَنْتُوبَةُ}: ثواب وجزاء.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان ما عليه اليهود من الشر والفساد، ففي الآية الأولى (102) يخبر تعالى: أن اليهود لما نبذوا التوراة لتقريرها بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم وتأكيدها لصحة دينه اتبعوا الأباطيل والترهات التي جمعها شياطين الإنس والجن في صورة زُقي وعزائم وكانوا يحدثون بها، ويدعون أنها من عهد سليمان بن داود عليهما السلام، وأنها هي التي كان سليمان يحكم بها الإنس والجن، ولأزم هذا أن سليمان لم يكن رسولاً ولا نبياً وإنما كان ساحراً كافراً، فلذا نفى الله تعالى عنه ذلك بقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} وأثبتته للشياطين فقال: {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ}. كما يعلمونهم ما ألهمه الملكان هاروت وماروت 3 ببابل العراق من ضروب السحر وفنونه، وهنا أخبرنا تعالى عن ملكي الفتنة أنهما يقولان لمن جاءهما يريد تعلم السحر: إنما نحن فتنة فلا تكفر بتعلمك السحر وهذا القول منهما يفهم منه

1 حصر بعضهم أصول السحر في ثلاثة هي: 1- زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما اعتاده الساحر من التأثير النفساني في نفس المسحور الضعيف روحاً المستعد لقبول التأثير ويشهد لهذا قوله تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}. 2- استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من حيوان ومعادن؛ كالرئبق وسائر العقاقير المؤثرة ويشهد لهذا قوله تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ} 3- الشعوذة باستخدام خفايا الحركة والسرعة حين يخيل أن الجماد يتحرك. ويشهد لهذا قوله تعالى: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} الآية.

2 الحظ والنصيب من الخير خاصة لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما يلبس هذا من لاخلق له".

3 الملكان وهما: هاروت وماروت ذكرا قصتهما علماء السلف ورواها مثل: أحمد وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن جرير، وخلق كثير ولم يصح فيها حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ولكنها

مروية عن ابن عمر، وابن عباس وعلي رضي الله عنهم، ولعلمهم مروية عن كعب الأحبار، وفي الآيات عبارة وإشارة ولا مانعاً شرعاً ولا عقلاً من هذه القصة، ومفادها أن الملائكة أنكروا على بني آدم =

(1/91)

بوضوح أن أقوال الساحر وأعماله التي يؤثر بها على الناس منها ما هو كفر في حكم الله وشرعه قطعاً.

كما أخبر تعالى في هذه الآية أن ما يتعلمه الناس من الملكين إنما يتعلمونه ليفرقوا بين الرجل وامرأته، وأن ما يحدث به من ضرر هو حاصل بإذن الله تعالى حسب سنته في الأسباب والمسببات، ولو شاء الله أن يوجد مانعاً يمنع من حصول الأمر بالضرر لفعل وهو على كل شيء قدير. فهذا متعلموا السحر بسائر أنواعه إنما هم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. وفي آخر الآية يقرر تعالى علم اليهود بكفر الساحر ومتعلم السحر ومتعاطيه حيث أخبر تعالى أنهم لا نصيب لهم في الآخرة من النعيم المقيم فيها. فلذا هم كفار قطعاً.

وأخيراً يقبح تعالى ما باع به اليهود أنفسهم، ويسجل عليهم الجهل بنفي العلم إذ قال تعالى: {وَأَلْبَسُوا مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} .

وفي الآية الثانية (103) يفتح تعالى على اليهود باب التوبة فيعرض عليهم الإيمان والتقوى فيقول: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} .

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- الإعراض عن الكتاب والسنة لتحريمهما الشر والفساد والظلم يفتح أمام المعرضين أبواب الباطل من القوانين الوضعية، والبدع الدينية، والضلالات العقلية، قال تعالى: { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ [سبيل السعادة والكمال] وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}.

2- كفر 1 الساحر وحرمة تعلم السحر، وحرمة استعماله.

= ما يرتكبون من الذنوب والمعاصي ويعجبون من ذلك، فأمرهم تعالى أن يختاروا ملكين منهم ويركب فيهم غرائز بني آدم ويكلفهم وينزلهم إلى الأرض يعبدون الله كبنى آدم ثم ينظرون هل يعصون الله أو لا يعصونه، فلما نزل إلى الأرض ارتكب كبائر الذنوب، فخير بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختار عذاب الدنيا فجعل في بابل يعلمان الناس السحر فإذا آتاها من يريد ذلك

نصحاً له بأن تعلم السحر كفر، فإذا أصر وجهاه إلى شيطان فأتاه فعلمه كيفية السحر وما يصل إليها إلا بعد أن يكفر أفضح أنواع الكفر.

1 اختلف هل للسحر حقيقة أو هو مجرد خداع لا أصل له. أهل السنة والجماعة: أن له حقيقة وهو أنواع عديدة، وحكمه أن من تعاطاه إذا أضر به فأفسد عقلاً أو عضواً أو قتل فإنه يقتل بذلك وإلا فإنه يعذر حتى يتوب منه، ويشهد لمذهب الجمهور أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم، وأنزل الله تعالى سورة الفلق فرقاه بها جبريل فشفني، وقال: "إن الله شفاني". والحديث في البخاري وغيره.

(1/92)

3- الله تعالى خالق الخير والضرير، ولا ضرر ولا نفع إلا بإذنه 1 فيجب الرجوع إليه في جلب النفع، ودفع الضر بدعائه والضراعة إليه.

4- العلم المهم؛ كالظن الذي لا يقين معه لا يغير من نفسية صاحبه شيئاً فلا يحمله على فعل خير ولا على ترك شر بخلاف الرسوخ في العلم فإن صاحبه يكون لديه من صادق الرغبة وعظيم الرهبة ما يدفعه إلى الإيمان والتقوى ويجنبه الشرك والمعاصي. وهذا ظاهر في نفي الله تعالى العلم عن اليهود في هاتين الآيتين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (105)

شرح الكلمات:

{رَاعِنًا} : أمهلنا وانظرنا حتى نعي ما تقول.

{انظُرْنَا} : أمهلنا حتى نفهم ما تقول ونحفظ.

{وَالْكَافِرِينَ} : الجاحدين المكذبين لله ورسوله المستهزئين بهما أو بأحدهما.

{أَلِيمٌ} : كثير الألم شديد الإيذاء.

{مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ} : اليهود والنصارى والوثنيين من العرب وغيرهم.

{مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} : من الوحي الإلهي المشتمل على التشريع المتضمن لكل أنواع الهداية وطرق الإسعاد والإكمال في الدارين.

1 ذكر القرطبي: أن ابن بطال قال: في كتاب وهب بن منبه أن يأخذ المسحور سبع ورقات من

سدر أخضر فيدقها بين حجرين ثم يخلطها بالماء ويقراً عليها آية الكرسي ثم يحثو منها ثلاث حثيات ويغتسل به فإنه يذهب عن كل ما ألم إن شاء الله تعالى.

(1/93)

{الْفَضْلِ}: ما كان من الخير غير محتاج إليه صاحبه. والله عز وجل هو صاحب الفضل إذ كل ما يمن به ويعطيه عباده من الخير هو في غنى عنه ولا حاجة به إليه أبداً.
معنى الآيتين:

أما الآية الأولى (104) فقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يراعوا الأدب في مخاطبة نبيهم صلى الله عليه وسلم تجنباً للكلمات المشبوهة؛ ككلمة: راعنا، إذ قد تكون من الرعونة، ولما تدل عليه صيغة المفاعلة؛ إذ كأنهم يقولون: راعنا تُراعك، وهذا لا يليق أن يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم. وأرشدهم تعالى إلى كلمة سليمة من كل شبهة تنافي الأدب وهي انظرنا²، وأمرهم أن يسمعوا لنبيهم إذا خاطبهم حتى لا يضطروا إلى مراجعته، إذ الاستهزاء بالرسول والسخرية منه ومخاطبته بما يفهم الاستخفاف بحقه وعلو شأنه وعظيم منزلته كفر بواح.

وفي الآية الثانية (105) أخبر تعالى عباده المؤمنين بأن الكافرين من أهل الكتاب ومن غيرهم من المشركين الوثنيين لا يحبون أن يُنزل عليكم من خير من ربحكم وسواء كان قرآناً يحمل أسمى الآداب وأعظم الشرائع وأهدى سبل السعادة والكمال، أو كان غير ذلك من سائر أنواع الخيرات، وذلك حسداً منهم للمؤمنين كما أخبرهم أنه تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده فحسد الكافرين لكم لا يمنع فضل الله عليكم ورحمته بكم متى أرادكم بذلك.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- وجوب التأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبته بعدم استعمال أي لفظة قد تفهم غير الإجلال والإكبار له صلى الله عليه وسلم.
- 2- وجوب السماع لرسول الله بامتثال أمره واجتتاب نهيه، وعند مخاطبته لمن أكرمهم الله تعالى بمعايشته والوجود معه.

1 سبب نزول هذه الآية: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ... { إلخ. أن اليهود استغلوا كلمة: راعنا، وصاروا يقولونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم ينوون بها سب رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجود كلمة في العبرية مثلها ومعناها: السب والشتيم؛ كالرعونة. فأنزل الله هذه الآية، أرشد فيها المسلمين إلى ترك كلمة: راعنا، وإبدالها: بانظرنا، فانقطع الطريق عن اليهود لعنهم الله.

2 معنى انظرنا: هو معنى راعنا، ولكن لما استعملها اليهود وصاروا ينوون بها سب النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنها عندهم من الرعونة لذلك أرشد الله المسلمين إلى كلمة: انظر.

(1/94)

التحذير 1 من الكافرين كتابيين أو مشركين؛ لأنهم أعداء حسدة للمؤمنين فلا يحل الركون إليهم والإطمئنان إلى أقوالهم وأفعالهم، إذ الريبة لا تفارقهم.

{مَا نُنَسِّخُ} 2 مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلِ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108)

شرح الكلمات:

{نُنَسِّخُ}: نبدل أو نزيل.

{مِنْ آيَةٍ}: من آيات القرآن: جملة كلمات تحمل معنى صحيحاً؛ كالتحريم أو التحليل، أو الإباحة.

{نُنسِهَا}: نمسحها من قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

{أَلَمْ تَعْلَمْ}: الاستفهام للتقرير.

{وَلِيٍّ}: حافظ يحفظكم بتولي أموركم.

1 في هذه الآية إرشاد المسلمين إلى عدم مشابهة الكافرين في القول والعمل وحتى في الزي واللباس، ويشهد لهذه رواية أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم".

2 معرفة الناسخ والمنسوخ ضرورية للعالم. روى أن علياً رضي الله عنه أرسل إلى رجل كان يخوف الناس في المسجد فجاءه فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا، قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه. وعن ابن عباس مثله، وقال له: هلكت وأهلكت.

3 من: ابتداء الغاية والثانية وهي: {مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} صلة.

4 أم، هنا: هي المنقطعة بمعنى: بل الإضرابية.

(1/95)

{تَصْبِيرٌ} : ناصر يدفع عنكم المكروه.

{أَمْ تُرِيدُونَ} : بل أتريدون، إذ (أم) هنا للإضراب الانتقالي فهي بمعنى: بل، والهمزة، وما سئله موسى هو، قول بني إسرائيل له: (أرنا الله جهرة).

{سَوَاءَ السَّبِيلِ} : وسط الطريق الآمن من الخروج عن الطريق. معنى الآيات:

يخبر تعالى راداً على الطاعنين في تشريعه الحكيم الذين قالوا: إن محمداً يأمر أصحابه¹ اليوم بأمر وينهى عنه غداً، أنه تعالى ما ينسخ من آية تحمل حكماً شاقاً على المسلمين إلى حكم أخف؛ كنسخ الثبوت لعشرة في قتال الكافرين إلى الثبوت إلى اثنين. أو حكماً خفيفاً إلى شاق زيادة في الأجر؛ كنسخ يوم عاشوراء بصيام رمضان، أو حكماً خفيفاً إلى حكم خفيف مثله؛ كنسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، أو حكماً غير حكم آخر؛ كنسخ صدقة من أراد أن يناجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الحكم رفع ولم يشرع حكم آخر بدلاً عنه، أو نسخ الآية بإزالتها من التلاوة، ويبقى حكمها؛ كآية الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، فقد نسخ اللفظ من التلاوة وبقي الحكم. أو ينسخ الآية وحكمها. وهذا معنى قوله: {أَوْ نُنسِئُهَا} ، وهي قراءة نافع، فقد ثبت أن قرآناً نزل وقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه ثم نسخه الله تعالى لفظاً، ومعنى فمحاها من القلوب بالمرّة فلم يقدر على قراءته أحد. وهذا مظهر من مظاهر القدرة الإلهية الدال عليه قوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ، وهو أيضاً مظهر من مظاهر التصرف الحكيم الدال عليه قوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فهو تعال يتصرف فينسخ ويبقي ويأتي بخير مما نسخ أو بمثله بحسب حاجة الأمة ومتطلبات حياتها الروحية والمادية. فسبحانه من إله قدير حكيم: ينسي ما يشاء وينسخ ما يريد.

أما قوله تعالى في آية (108): {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ}2، فهو توبيخ لمن طالب

1 في الكلام إشارة إلى سبب نزول هذه الآيات، والمراد بالذين قالوا أن محمداً.. إلخ : هم اليهود، واليهود ينفون وجود النسخ في الشرائع وهم مخطئون في ذلك خطأ كبيراً، إذ قد أباح الله تعالى أن لآدم أن ينكح بناته بنيه فترة من الزمن، ثم نسخ ذلك، وأباح لنوح أكل سائر الحيوان بعد نزوله من السفينة، ثم نسخ ذلك. كما أوحى الله إلى إبراهيم أن يذبح ولده، ثم نسخ ذلك إذ فداه بذبح عظيم قبل الذبح، وهذا نسخ للأمر قبل فعله.

2 قوله تعالى: {كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ..} . معنى سؤال بني إسرائيل موسى بأن يريهم الله جهرة، أي: مواجهة بعد أن سمعوا كلامه، كما سأله غير هذا تعنتاً وجهلاً بمقام الرسول موسى عليه السلام، ولذا حذر الله المؤمنين من مثل هذه المواقف القبيحة.

الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر ليس في مكنته، وإعلام من يجري على أسلوب التعنت وسوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم قد يصاب بزيف القلب فيكفر، دلّ على هذا قوله تعالى: {وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} .

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- ثبوت النسخ في القرآن الكريم، كما هو ثابت في السنة، وهما أصل التشريع ولا نسخ في قياس ولا إجماع.

2- رافة الله تعالى بالمؤمنين في نسخ الأحكام وتبديلها بما هو نافع لهم في دنياهم وآخرتهم.

3- وجوب التسليم لله والرضا بأحكامه، وعدم الاعتراض عليه تعالى.

4- ذم التنطع في الدين وطرح الأسئلة المحرجة 1 والتحذير من ذلك.

لَوْ كَثِيرٌ 2 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا 3 مِنْ 4 عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا 5 وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ

1 روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هلك المتنتعون" وفسر بالمتعين في السؤال عن عويص المسائل التي يندر وقوعها.

2 مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما ظاهرة، وهي أنه لما حذر تعالى المؤمنين من مسلك اليهود مع أنبياءهم في الأسئلة المحرجة المتعنتة، أعلمهم أن أعدائهم من اليهود يودون لهم الكفر بعد إيمانهم حسداً لهم وعلى رأس هؤلاء كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، وأبو ياسر وغيرهم، كما أن ابن أبي، وجماعة من سكان المدينة كانوا يعملون جاهدين على صرف من آمن عن إيمانه، ولما لم يحن الوقت للقتال، أمرهم تعالى بالصفح والعفو والإعداد حتى يأتي الأمر بالقتال.

3 الحسد ثلاثة أنواع: وهي: تمني زوال نعمة عن هي به، وتمني زوالها ولو لم تحصل لتمنيها، وهذا شر وأقبح من الأول، وهما محرمان لها لما فيهما من تسفيه المنعم عز وجل، إذ الحاسد معترض على قسمة الله وعطاؤه عباده ما شاء. وتمني حصول نعمة كالتي حصلت لغيره، وهذا مباح وليس حراماً ويشهد له الحديث الصحيح: "لا حسد إلا في اثنتين" الحديث ويسمى غبضا.

4 جملة: {مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ} تأكيد لمضمون التي قبلها. ومنه قوله تعالى: {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}، {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ} .

5 فاعفوا: أصلها: فاعفوا، حذف الضمة للثقل، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فصارت: فاعفوا.

مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110).

شرح الكلمات:

{وَدَّ} : أحب.

{أَهْلَ الْكِتَابِ} : اليهود والنصارى.

{حَسَدًا} : الحسد تمنى زوال النعمة على من هي به.

{تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} : عرفوا أن محمداً رسول الله وأن دينه هو الدين الحق.

{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} : لا تؤاخذهم ولا تلوموهم، إذ العفو ترك العقاب، والصفح الإعراض عن الذنب.

{حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} : أي الإذن بقتالهم والمراد بهم يهود المدينة، وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير،

وبنو قريظة.

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} : إقامة الصلاة: أداؤها في أوقاتها مستوفاة الشروط والأركان والسنن.

{وَأَتُوا الزَّكَاةَ} : أعطوا زكاة أموالكم وافعلوا كل ما من شأنه يزكي أنفسكم من الطاعات.

معنى الآيات:

في الآية الأولى (109) يخبر تعالى المؤمنين بنفسية كثير من أهل الكتاب وهي الرغبة الملحة في أن يتخلى المسلمون عن دينهم الحق ليصبحوا كافرين، ومنشأ هذه الرغبة الحسد الناجم عن نفسية لا ترغب أن ترى المسلمين يعيشون في نور الإيمان بدل ظلمات الكفر، وبعد أن أعلم عباده المؤمنين بما يضمن لهم أعداؤهم، أمرهم بالعفو 1 والصفح؛ لأن الوقت لم يحن بعد لقتالهم فإذا حان الوقت قاتلوهم وشفوا منهم صدورهم.

وفي الآية الثانية (110) أمر الله تعالى المؤمنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل 2 الخيرات

1 هذا العفو والصفح نسخ بالإذن بقتال اليهود وإجلائهم، وبقي العفو عن المسلم والصفح عنه إذا أساء إلى أخيه المسلم لجهالة به، فإنه محمود، قال تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} ، وقال رسوله: "من غفر غفر له" .

2 فعل الخيرات هنا مستفاد من قوله تعالى في الآية: {وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ} .

تهذيباً لأخلاقهم وتركيزاً لنفوسهم وواعدهم بحسن العاقبة بقوله: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .
هداية الآيتين:

من هداية الآيات:

- 1- اليهود والنصارى يعلمون أن الإسلام حق وأن المسلمين على حق فحملهم ذلك على حسدكم ثم عداوتهم، والعمل على تكفيرهم... وهذه النفسية ما زالت طابع أهل الكتاب إزاء المسلمين إلى اليوم.
- 2- في الظرف الذي لم يكن مواتياً للجهاد على المسلمين أن يشتغلوا فيه بالإعداد للجهاد، وذلك بتهذيب الأخلاق والأرواح وتركيزاً النفوس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات إبقاء على طاقاتهم الروحية والبدنية إلى حين يؤذن لهم بالجهاد.
- 3- تقوية الشعور 2 بمراقبة الله تعالى ليحسن العبد نيته وعمله.

{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا 3 بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)}

1 مثل هذه الجملة المذيل بها الكلام تكون للترغيب كما هنا، وتكون للترهيب، أي: تصلح للوعد والوعيد.

2 هذا مستفاد من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

3 في الآية دليل على بطلان التقليد، وهو قبول قول الغير بلا دليل، وفي الآية أن من ادعى شيئاً نفيًا أو إثباتاً يطالب بالدليل بطلت دعواه.

(1/99)

شرح الكلمات:

{الْجَنَّةُ}: دار النعيم وتسمى دار السلام وهي فوق السماء السابعة.

{هُودًا 1}: يهوداً.

{نَصَارَى}: صليبيين مسيحيين.

{أَمَانِيُّهُمْ 2}: جمع أمنية ما يتمناه المرء بدون ما يعمل للفوز به، فيكون غروراً.

البرهان: الحجة الواضحة.

{بَلَى}: حرف إجابة يأتي بعد نفي مقرون باستفهام 3 غالباً نحو قوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْكُمُونَ}

الْحَاكِمِينَ}؟ بلى، أي: هو أحكم الحاكمين، ولما ادعى اليهود والنصارى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً قال تعالى: (بلى) أي ليس الأمر كما تزعمون فلا يدخل الجنة يهودي ولا نصراني ولكن يدخلها من أسلم وجهه لله وهو محسن أي: عبد آمن فصدق وعمل صالحاً فأحسن. ليست على شيء : أي: من الدين الحق. {يَتْلُونَ الْكِتَابَ} : أي: التوراة والإنجيل. الذين من قبلهم : هذا اللفظ صادق على مشركي العرب، وعلى غيرهم من أمم جاهلة سبقت. سبب نزول الآيتين ومعناهما:

لما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة التقى باليهود في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، ولعدائهم السابق تماروا فادعت اليهود أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، وادعت النصارى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان نصرانياً فرد الله تعالى عليهم وأبطل دعواهم حيث طالبهم بالبرهان عليها فلم يقدرُوا وأثبت تعالى دخول الجنة لمن زكى نفسه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح.

- 1 هود: جمع هائد، أي: متبع اليهودية، ومثله: عوذ، جمع عائد، وهي: الحديثة النتاج من الأطباء، والإبل، والخيل.
- 2 ما تمناه اليهود وأشير إليه هنا بقوله: {تَلْكَ أَمَانِيَهُمْ} هو أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربه وأن يردوهم كفاراً، وأن يدخلون الجنة وحدهم دون غيرهم.
- 3 ومن غير الغالب قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بلى} فقد أوجب بها ولم يتقدمها نفي مقرون باستفهام، ومنه هذه الآية: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} .

(1/100)

فقال: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} يريد قلبه وجوارحه 1 فأمن ووجد وعمل صالحاً فأحسن فهذا الذي يدخل الجنة وهي أجره على إيمانه وصالح أعماله، فلا هو يخاف ولا يحزن. هذا معنى الآيتين الأولى(111) والثانية(112) والثالثة(113) فقد سجلت كفر كل من اليهود والنصارى، بشهادتهم على بعضهم بعضاً فقد كفر اليهود والنصارى بقولهم: إنهم ليسوا على شيء من الدين الحق الذي يعتد به ويؤبه له، وكفر النصارى اليهود بقولهم: ليست اليهود على شيء مع أنهم يقرؤون التوراة والإنجيل، فلذا كان تكفيرهم لبعضهم لبعض حقاً وصدقاً. ثم أخبر تعالى أن ما وقع فيه اليهود والنصارى وهم أهل كتاب من الكفر والضلال قد وقع فيه أمم قبلهم دون علم منهم وذلك لجهلهم، وأخبر تعالى أنه سيحكم بينهم يوم القيامة ويجزيهم بكفرهم وضلالهم. هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- إبطال تأثير النسب2 في السعادة والشقاء، وتقرير أن السعادة بدخول الجنة مردها إلى تركية النفس بالإيمان والعمل الصالح، وإن الشقاوة بدخول النار مردها إلى الشرك، وارتكاب الذنوب فلا نسبة إلى يهودية أو نصرانية أو غيرها تُغني عن صاحبها، وإنما المغني بعد فضل الله ورحمته الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي.
- 2- كفر اليهود والنصارى وهو شر كفر؛ لأنه كان على علم.
- 3- الإسلام الصحيح القائم على أسسه الثلاثة الإيمان والإسلام والإحسان هو سبيل3 النجاة من النار والفوز بالجنة.

1 أي: ذاته، إذ طاعة الله تعالى تكون بها قلباً وجوارح، ومن إطلاق الوجه على الذات، قول الشنفرى:

- إذا قطع رأسي وفي الرأس أكثرى ... وغودر عند الملتقى ثم سائري
قوله وفي الرأس أكثرى: فيه تفصيل الرأس الذي هو بمعنى الوجه على سائر الجسد لأفضليته،
فكذلك إطلاق الوجه في الآية و إرادة الذات، لأن الوجه أشرف الذات.
- 2 ويشهد لهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم: "ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه" الحديث.
- 3 هذا مستفاد من قوله تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} الآية.

(1/101)

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(115)}

شرح الكلمات:

{وَمَنْ أَظْلَمُ}: الاستفهام للإنكار والنفي، والظلم وضع الشيء في غير محله مطلقاً.
{وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}: عمل في هدمها وتخريبها حقيقة أو يمنع الصلاة فيها وصرف الناس عن التعبد فيها إذ هذا من خرابها أيضاً.

الخزي: الذل والهوان2.

{فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}: هناك الله تعالى إذ الله عز وجل محيط بخلقه فحيثما اتجه العبد شرقاً أو غرباً شمالاً أو جنوباً وجد الله تعالى، إذ الكائنات كلها بين يديه وكيف لا يكون ذلك وقد أخبر عن نفسه

أن الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، فليس هناك جهة تخلو من علم الله تعالى وإحاطته بها وقدرته عليها. ويقرر هذا قوله: {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} ، إنه واسع الذات والعلم والفضل والجود والكرم عليم بكل شيء لأنه محيط بكل شيء.

شرح الآيتين:

ففي الآية الأولى(114) ينفي تعالى أن يكون هناك من هو أكثر ظلماً ممن منع مساجد3 الله تعالى أن يعبد الله تعالى فيها، لأن العبادة هي علة الحياة فمن منعها كان كمن أفسد

1 أصل السعي: المشي، ومنه السعي بين الصفا والمروة، وهو المشي بينهما ثم أطلق على التسبب مطلقاً يقال: سعى فلان في مصلحتك وسعى فلان في الإفساد بين فلان وفلان.

2 وقد نال صناديد قريش حيث أزلهم وأخزاهم يوم الفتح على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم.

3 المساجد: جمع مسجد بكسر الجيم على غير قياس إذ فعل بالفتح، يفعل بالضم، الاسم منه كالمصدر مفعول بالفتح، ونظير المسجد المطلع والمشرق والمسكن والمرفق. والمسجد بالفتح: جبهة المرء وأعضاء سجوده السبعة.

(1/102)

الحياة كلها وعطلها، وفي نفس الوقت ينكر تعالى هذا الظلم على فاعليه وسواء كانوا قريشاً بصددهم النبي وأصحابه عن المسجد الحرام، أو فلطيوس ملك الروم الذي خرب المسجد الأقصى1، أو غيرهم ممن فعلوا هذا الفعل أو من سيفعلونه مستقبلاً، ولذا ضمن تعالى قوله: {لَمَّا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ} ، أمر المسلمين بجهاد الكافرين وقتالهم حتى يسلموا أو تكسر شوكتهم فيذلوا ويهونوا.

وفي الآية الثانية(115) يخبر تعالى راداً على اليهود الذين انتقدوا أمر تحويل القبلة من بين المقدس إلى الكعبة، مؤذناً بجواز صلاة من جهل القبلة أو خفيت عليه إلى أي جهة كانت، فأخبر تعالى أن له المشرق والمغرب2 خلفاً وملكاً وتصرفاً، يوجه عباده إلى الوجهة التي يشاؤها شرقاً أو غرباً، جنوباً أو شمالاً، فلا اعتراض ولا إنكار وأن الله تعالى محيط بالكائنات، فحيثما توجه العبد في صلاته فهو متوجه إلى الله تعالى، إلا أنه تعالى أمر بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة بمن عرف جهتها لا يجوز له أن يتجه إلا إليها.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- عظم جريمة من يتعرض للمساجد بأي أذى3 أو إفساد.

- 2- وجوب حماية المساجد من دخول الكافرين إلا أن يدخلوها بإذن المسلمين وهم أذلاء صاغرون.
- 3- صحة صلاة 4 النافلة على المركوب في السفر إلى القبلة وإلى غيرها.
- 4- وجوب استقبال القبلة إلا عند العجز 5 فيسقط هذا الواجب.
- 5- العلم بإحاطة الله تعالى بالعوالم كلها قدرة وعلماً فلا يخفى عليه من أمر العوالم شيء ولا يعجزه آخر.

- 1 وقد خرب بيت المقدس أيضاً باختصر اليهودي البابلي قبل النصارى.
- 2 بناء على كروية الأرض، فإن الأرض كلها مشرق ومغرب، إذ كل مكان تشرق فيه هو مكان تغرب فيه.
- 3 من عظم ذنب من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أخذ المالكية أن المرأة الصرورة التي لم تحج الفرض لا تمنع من الحج وإن لم يكن معها محرم، وعدو منعها من أداء الفريضة من الصد عن المسجد عن الحرام.
- 4 إذ صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي النافلة على راحته حيثما اتجهت به القبلة وإلى غيرها.
- 5 للعجز صور منها: أن يكون مريضاً لا يقدر على التحول، ومنها: أن يكون خائفاً، ومنها: أن يكون مقاتلاً أو هارباً، ومنها: أن يكون جاهلاً بها فطلبها ولم يعرف فصلى حيث ترجح القبلة وإن لم يصبها.

(1/103)

{وَقَالُوا ۗاِنَّحَدَّ اللّٰهُ وِلْدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَهٗ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَهٗ قٰنِیْنُوْنَ (116) بَدِیْعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاِذَا قَضٰى اَمْرًا فَاِنَّمَّا یَقُوْلُ لَهٗ كُنْ فِیْکُوْنُ (117) وَقَالَ الَّذِیْنَ لَا یَعْلَمُوْنَ لَوْلَاۤ اَنْ یُّکَلِّمُنَا اللّٰهُ اَوْ تَاْتِیْنَا اٰیَةً کَذٰلِکَ قَالَ الَّذِیْنَ مِنْ قَبْلِہُمْ مِثْلَ قَوْلِہُمْ تَشٰبَهَتْ قُلُوْبُهُمْ قَدْ بَیَّنَّا الْاٰیٰتِ لِیَقُوْمَ یُوقِنُوْنَ (118) اِنَّا اَرْسَلْنَاکَ بِالْحَقِّ بَشِیْرًا وَّنَذِیْرًا وَّلَا تُسْاَلُ عَنْ اَصْحٰبِ الْجَحِیْمِ (119)}

شرح الكلمات:

سبحانه : تنزه وتقديس عن كل نقص ومنه أن يكون له ولد.

قانتون : خاضعون مطيعون تجري عليهم أقداره وتنفذ فيهم أحكامه.

بديع السموات : مبدعها أي موجدتها على غير مثال سابق.

قضى أمراً : حكم بإيجاده.

أو تأتيه آية : كآيات موسى وعيسى في العصا وإحياء الموتى.

ولا تسأل : قرئ بالتاء للمجهول، ولا نافية والفعل مرفوع، وقرئ بالبناء للمعلوم ولا ناهية والفعل مجزوم.

الجحيم : دركة من دركات النار وهي أشدها عذاباً.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر أباطيل الكافرين من أهل الكتاب والمشركين والرد عليها بما يظهر زيفها ويبطلها نهائياً ففي الآيتين الأولى(116) والثانية(117) يذكر تعالى قول

1 الضمير المرفوع في {قالوا} عائد إلى الفرق الثلاث، وهم: أهل الكتاب، ومشركوا العرب.

2 لولا: بمعنى لعل التحضيضية.

(1/104)

أهل الكتاب والمشركين في أن الله اتخذ ولداً، إذ قالت اليهود: العزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض مشركي العرب: الملائكة بنات الله، ذكر تعالى قولهم اتخذ الله ولداً ثم نزه 1 نفسه عن هذا القول الباطل والفرية 2 الممقوتة، وذكر الأدلة العقلية على بطلان الدعوى. فأولاً: ملكية الله تعالى لما في السموات والأرض، وخضوع 3 كل من فيهما لحكمه وتصريفه وتدبيره يتنافى عقلاً مع اتخاذ ولد منهم.

ثانياً: قدرة الله تعالى المتجلية في إبداعه السموات والأرض وفي قوله للشيء كن فيكون يتنافى معها احتياجه إلى الولد 4، وهو مالك كل شيء ورب كل شيء، وفي الآية الثالثة(118) يرد تعالى على قولة المشركين الجاهلين: {لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} حيث اقترحوا ذلك ليؤمنوا ويوحدا، فأخبر تعالى أن مثل هذا الطلب طلبه من قبلهم فتشابهت قلوبهم في الظلمة والانتكاس، فقد قال اليهود لموسى أرنا الله جهرة، أما رؤية الله وتكليمه إياهم غير ممكن في هذه الحياة حياة الامتحان والتكليف، لذا لم يجب إليه أحداً من قبلهم ولا من بعدهم، وأما الآيات فما أنزل الله تعالى وبينه في كتابه من الآيات الدالة على الإيمان بالله ووجوب عبادته وتوحيده فيها، وعلى صدق نبيه في رسالته ووجوب الإيمان به واتباعه كاف ومغن عن أية آية مادية يريدونها، ولكن القوم لكفرهم وعنادهم لم يروا في آيات القرآن ما يهديهم وذلك لعدم إيقانهم، والآيات يراها وينتفع بها الموقنون لا الشاكون المكذبون.

وفي الآية الرابعة(119) يخفف تعالى على نبيه همّ مطالبة المشركين بالآيات بأنه غير مكلف بهداية أحد ولا ملزم بإيمان آخر، ولا هو مسئول 5 يوم القيامة عن من يدخل النار من الناس، إذ مهمته محصورة في التبشير 6 والإنذار تبشير من آمن وعمل صالحاً بالفوز بالجنة

- 1 وذلك بقوله: {سبحانه} مصدر معناه: التبرئة والتنزيه والمحاشاة.
- 2 أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمي إياي فقولته لي: ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً".
- 3 الخضوع هنا تفسير القنوت، والقنوت يكون بمعنى الطاعة في ذلة وانكسار وخشوع، كما هو في هذا السياق ويكون بمعنى السكوت كما في الصلاة، كقوله تعالى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} أي: لا تتكلموا في صلاتكم، ويكون بمعنى الدعاء في الصلاة.
- 4 من الأدلة العقلية على إبطال فرية اتخاذ الله تعالى الولد: أن الولدية تقضي التجانس، والله تعالى ليس كمثله شيء، وهو لا يجانسه شيء، ثم الولد يتنافى مع الرق والملك والله له ملك السموات والأرض، فكيف يكون الرقيق ولداً؟!.
- 5 قرأ نافع وحده {وَلَا تَسْأَلْ} بفتح التاء وسكون اللام في قوله: {وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يا ليت شعري ما فعل أبوي" فأنزل الله تعالى هذه الآية.
- 6 البشير كالنذير فعلهما بشر، وأنذر. واسم الفاعل: مبشر ومنذر، ونقل إلى بشير ونذير للمبالغة في الفعل.

(1/105)

-
- والنجاة من النار، وإنذار من كفر وعمل سوءاً بدخول النار والعذاب الدائم فيها.
- هداية الآيات:
- من هداية الآيات:
- 1- حرمة نسبة أي شيء إلى الله تعالى بدون دليل من الوحي الإلهي، إذ أنكر تعالى نسبة الولد إليه أنكره على أهل الكتاب والمشركين معاً.
 - 2- تشابه قلوب أهل الباطل في كل زمان ومكان لاستجابتهم للشيطان وطاعتهم له.
 - 3- لا ينتفع بالآيات إلا أهل اليقين لصحة عقولهم وسلامة قلوبهم.
 - 4- على المؤمن أن يدعو إلى الله تعالى، وليس عليه أن يهدي، إذ الهداية بيد الله، وأما الدعوة فهي في قدرة الإنسان، وهو مكلف بها.

{وَلَوْ أَنَّ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ 1 قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ 2 مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ

يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)}

شرح الكلمات:

ملتهم : دينهم الذي هم عليه من يهودية ونصرانية.

قل إن الهدى هدى الله : الهدى: ما أنزل به كتابه وبعث به رسوله وهو الإسلام، لا ما ابتدعه اليهود والنصارى من بدعة اليهودية والنصرانية.

1 ملتهم: بمعنى ملتهم، إذ لكل كافر ملة، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أن الكفر ملة واحدة، وذهب أحمد في رواية له ومالك إلى أن الكفر ملل، ولذا فلا يرث اليهودي النصراني، ولا النصراني اليهودي، ولا المجوسي. إذ لكل ملة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتوارث أهل ملتين" ويبقى معنى الكفر ملة واحدة، أي: إنه ليس فيه فاضل، ومفضول.

2 روي أن أحمد استدل على كفر من قال بخلق القرآن بهذه الآية: {مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} وهو القرآن. فمن قال بخلق القرآن، قال بخلق علم الله تعالى. وهو كفر صريح.

(1/106)

من ولي ولا نصير : الولي من يتولاك ويكفيك أمرك، والنصير من ينصرك ويدفع عنك الأذى.

يتلونه حق 1 تلاوته : لا يحرفون كلمه عن مواضعه ولا يكتمون الحق الذي جاء فيه من نعت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وغيره.

أولئك هم الخاسرون : المشار إليهم كفار أهل الكتاب والخسران خسران الدنيا والآخرة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في أهل الكتاب يكشف عوارهم ويدعوهم إلى الهدى لو كانوا يهتدون، ففي الآية الأولى (120) يخبر تعالى رسوله وأُمَّته تابعة له أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم الباطلة، وهي اليهودية أو النصرانية، وفي هذا نهى عن اتباعهم ثم أمره أن يخبرهم أن الهدى هدى 2 الله الذي هو الإسلام وليس اليهودية ولا النصرانية، إذ هما بدعتان من وضع أرباب الأهواء والأطماع المادية.

ثم يحذر الله رسوله وأُمَّته من اتباع اليهود والنصارى بعد الذي جاءهم والنعمة التي أتمها عليهم وهي الإسلام فيقول: {وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} .

وفي الآية الثانية (112) يخبر تعالى أن الذين آتاهم الله الكتاب التوراة والإنجيل فكانوا يتلونه حق

تلاوته فلا يحرفون ولا يكتمون هؤلاء يؤمنون بالكتاب حق الإيمان، أما الذين يحرفون كلام الله

ويكتمون ما جاء فيه من نعت النبي صلى الله عليه وسلم فهؤلاء لا يؤمنون به وهم الخاسرون دون

غيرهم، ومن آمن 3 من أهل الكتاب بكتابه وتلاه حق تلاوته سوف يؤمن بالنبي الأمي ويدخل في دينه قطعاً.

هداية الآيات:

من هداية الآيتين:

1- لا يحصل المسلم على رضا اليهود والنصارى إلا بالكفر بالإسلام واتباع دينهم الباطل

1 هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتابعوهم بإحسان كان أحدهم إذا مر بآية رحمة سألهما الله تعالى، وإذ تعالى مر بآية عذاب تعود بالله من العذاب.

2 أن ما يهدي إليه الرب تعالى عباده المؤمنين بمعنى ما يوفقهم إليه من الإسلام ظاهراً وباطناً، فيعملون بطاعته وطاعة رسوله في المنشط والمكروه، ذلك هو هدى الله المبعد عن الضلال والموصل إلى دار السلام.

3 كعبد الله بن سلام، ومن آمن على عهد رسول الله من أحبار أهل الكتاب.

(1/107)

وهذا ما لا يكون للمسلم أبداً، فلذا طلب رضا اليهود والنصارى محرم لا يحل أبداً.

2- لا دين 1 حق إلا الإسلام فلا ينبغي أن يلتفت إلى غيره بالمرّة.

3- من يوالي اليهود والنصارى باتباعهم على باطلهم يفقد ولاية الله تعالى ويحرم نصرته.

4- طريق الهداية في تلاوة كتاب الله حق تلاوته بأن يجوده قراءة ويتدبره هداية ويؤمن بحكمه ومتشابهه، ويحلل حلاله ويحرم حرامه، ويقيم حدوده كما يقيم حروفه.

لِيَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123)}

شرح الكلمات:

إسرائيل : لقب يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام.

وبنو إسرائيل: هم اليهود.

العالمين : البشر الذين كانوا في زمانهم مطلقاً.

لا تجزي : لا تقضي ولا تغني.

العدل : الفداء.

شفاعة : وساطة أحد.

- 1 يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "والذي نفسي بيده ما يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار".
- 2 هذا النداء الثالث الذي نادى الله تعالى به بني إسرائيل يأمرهم بذكر نعمه ليشكروها بالإيمان برسوله، والدخول في دين الإسلام، لكن حالهم كما قال القائل:
لقد أسمعت لو ناديت حياً... ولكن لا حياة لمن تنادي
- 3 يلاحظ تقديم الشفاعة في النداء الثاني على أخذ العدل وتأخير الشفاعة في هذا النداء وتقديم العدل وما هو إلا تفنن في الأسلوب إذهاباً للسامة. وهذا شأن الكلام البليغ.

(1/108)

معنى الآيتين:

يعظ الرحمن عز وجل اليهود فيناديهم¹ بأشرف ألقابهم ويأمرهم نعمه تعالى عليهم وهي كثيرة، ويأمرهم أن يذكروا تفضيله تعالى لهم على عالمي زمانهم، والمراد من ذكر النعم شكرها، فهو تعالى في الحقيقة يأمرهم بشكر نعمه، وذلك بالإيمان به وبرسوله والدخول في دينه الحق (الإسلام).
كما يأمرهم باتقاء عذاب يوم القيامة حيث لا تغني نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها فداء ولا تنفعها شفاعة، وهذه هي نفس الكافر المشرك، حيث لا شفاعة تتال الكافر أو المشرك، ولا يوجد لهم ناصر ينصرهم فيدفع عنهم العذاب، إذ اتقاء عذاب يوم القيامة يكون بالإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح، بعد التخلي عن الكفر والمعاصي.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- وجوب ذكر نعم الله على العبد ليجد بذلك دافعاً نفسياً لشكوها، إذ غاية الذكر هي الشكر.
- 2- وجوب اتقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان وصلاح الأعمال بعد التخلي عن الشرك والعصيان.
- 3- استحالة الفداء يوم القيامة، وتعذر وجود شافع يشفع لمن مات على الشرك لا بإخراجه من النار، ولا بتخفيف العذاب عنه.

{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُۥٓ رَبُّهُۥٓ ٣ بِكَلِمَاتٍ ٤

- 1 بهذا النداء ختم الحجاج مع اليهود في هذه السورة، فلم يجري لهم ذكر بعد فكان من براعة المقطع. ذكر هذا صاحب التحرير والتنوير، وليس صحيحاً، بل الصحيح: أن ختم الحجاج مع اليهود انتهى عند قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} الآية 149.
- 2 أبرهم بالسريانية والعبرية أيضاً معناه: أب رحيم، ولرحمته جعلها الله تعالى كافلاً للأطفال المؤمنين

في الجنة إلى يوم القيامة إن صح الحديث بذلك.

3 ذكر الربوبية هنا تشریف لإبراهيم عليه السلام وإيدان بأن ابتلاؤه كان تربية له وإعداداً له لأمر خطير.

4 الكلمات: جمع كلمة، وهي اللفظ المفرد، وتطلق على الكلام أيضاً، والمراد بها هنا كلمات تحمل الأوامر التكليفية، ومن أبرزها ما يلي: كسر الأصنام، والهجرة، وذبح إسماعيل، وبناء البيت العتيق، والختان، والصلاة، والزكاة، وخصال الفطرة، والصدق، والصبر، وبالجملة: فقد نهض إبراهيم بكل ما عاهد إليه ربه بالقيام به من الشرائع، فلذا أكرمه بالإمامة وشرفه بها.

(1/109)

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124){

شرح الكلمات:

ابتلى : اختبره بتكليفه بأمر شاقه عليه.

بكلمات : متضمنة أوامر ونواهي.

أتمهن : قام بهن وأداهن على أكمل الوجوه وأتمها.

إماماً : قدوة صالحة يقتدى به في الخير والكمال.

الظالمين : الكافرين والمشركين والفاسقين المعتدين على الناس.

معنى الآية الكريمة:

بعد ذلك الحجاج الطويل الذي عاشه رسول الله مع طائفتي أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكذا المشركين في الآيات السابقة لهذه الآية، أمر تعالى رسوله أن يذكر ابتلاءه تعالى لنبيه وخليته إبراهيم عليه السلام بما كلفه من أوامر ونواهي، فقام بها خير قيام فأنعم عليه بأكبر إنعام، وهو أنه جعله إماماً للناس، ومن أبرز تلك التكليف ووقفه في وجه الوثنيين، وتحطيم أوثانهم، والهجرة من ديارهم والهيم بذبح ولده إسماعيل قرباناً لله، وبناء البيت، وحجة الدعوة إليه مما استحق به الإمامة للناس كافة، وفي هذا تكبير للفرق الثلاثة: العرب المشركين، واليهود، والنصارى. إذ كلهم يدعي انتماءه لإبراهيم والعيش على ملته فما هو ذا إبراهيم موحد وهم مشركون، عادل وهم ظالمون، مُتَّبِعٌ للوحي الإلهي وهم به كافرون ولصاحبه مكذبون، وفي الآية بيان رغبة إبراهيم في أن تكون الإمامة في ذريته وهي رغبة صالحة فجعلها الله تعالى في ذريته 1 2 كما رغب واستثنى تعالى الظالمين فإنهم لا يستحقونها فهي لا تكون إلا في أهل الخير والعدل و الرحمة لا تكون في الجبابرة القساة ولا الظالمين العتاة.

- 1 الذرية: مأخوذ من ذر الله الخلق ذراً، أي: خلقهم والجمع: ذراري.
2 قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} الآية من سورة العنكبوت.

(1/110)

هداية الآية:

من هداية الآية:

- 1- الإمامة لا تتال إلا بصحة اليقين¹ والصبر على سلوك سبيل المهتمدين.
2- مشروعية ولاية العهد، بشرط أن لا يعهد إلا إلى من كان على غاية من الإيمان والعلم والعمل والعدل والصبر.
3- القيام بالتكاليف الشرعية قولاً وعملاً² يؤهل لأن يكون صاحبه قدوة صالحة للناس.
{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً³ لِلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) }

شرح الكلمات:

البيت : الكعبة التي هي البيت الحرام بمكة المكرمة.

مثابة : مرجعاً يثوب إليه العمار والحجاج.

أمناً : مكاناً آمناً يأمن فيه كل من دخله

مقام إبراهيم : الحجر الذي كان قد قام عليه إبراهيم أيام كان يبني البيت وذلك أنه لما ارتفع البناء احتاج إبراهيم إلى حجر عال يرقى عليه ليواصل بناء الجدران، فجيء بهذا الحجر فقام عليه فسمي مقام إبراهيم.

1 شاهد هذا في كتاب الله تعالى إذ قال عز وجل: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا

وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} السجدة. فلذا قيل: بالصبر واليقين تتال الإمامة في الدين.

2 هذا مستفاد من قوله تعالى: {وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} .

3 مثابة: أصله: ثاب مصدر ثاب يثوب مثاباً، وزيدت فيه التاء للمبالغة كما زيدت في علامة

ونسابة، ويشهد لهذا قول الشاعر:

جعل البيت مثابة لهم ...

ليس منه الدهر يقضون الوطر

مصلى : مكاناً يصلى فيه أو عنده أو إليه.

عهدنا : وصينا وأمرنا.

تطهير البيت : تنزيهه عن الأقدار الحسية؛ كالدماء والأبوال. ومعنوية؛ كالشرك والبدع والمفاسد.

اضطره : ألجأه مكرهاً إلى العذاب.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في تذكير المشركين وأهل الكتاب معاً بأبي الأنبياء وإمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، ومآثره الطيبة الحميدة، ومواقفه الإيمانية العظيمة ليتجلى بذلك بطلان دعوى كل من أهل الكتاب والمشركين في انتسابهم إلى إبراهيم كذباً وزوراً، إذ هو موحد وهم مشركون، وهو مؤمن وهم كافرون، فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: اذكر لهم كيف جعلنا البيت مثابة للناس¹ يثوبون إليه في كل زمان حجاجاً وعماراً، وأمناً دائماً من دخله، أمن على نفسه وماله وعرض. وقلنا لمن حجوا البيت أو اعتمروا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فكان من سنة من طاف بالبيت أن يصلي خلف المقام ركعتين، كما أوصينا² من قبل إبراهيم وولده إسماعيل بتطهير البيت من كل رجز معنوية؛ كالأصنام وعبادة غير الله تعالى، أو حسياً؛ كالأقذار والأوساخ من دم أو بول حتى يتمكن الطائفون والعاكفون³ والمصلون من أداء هذه العبادات بلا أي أذى يلحقهم أو يضايقهم. هذه ما تضمنته الآية الأولى (125)، أما الآية الثانية (126) فقد تضمنت أمر الله تعالى لرسوله أن يذكر دعوة إبراهيم ربه بأن يجعل بلداً آمناً⁴ من دخله يأمن فيه⁵ على نفسه وماله وعرضه، وأن يرزق أهله وسكانه المؤمنين من الثمرات وأن الله قد استجاب لإبراهيم دعوته إلا إن الكافرين لا يحرمون الرزق في الدنيا ولكن يحرمون الجنة في الدار الآخرة حيث

1 فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام حج البيت وإن هوداً حجه من قبل، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين.

2 الآية وعهدنا: إلا إن الوعد المؤكد وقوعه يصير عهداً، فإن عدي بالي صار وصية، فلذا فسرنا: العهد، هنا بالوصية.

3 العكوف: ملازمة المسجد للصلاة والعبادة، والعاكفون الملازمون للمسجد الحرام من ساكن مكة وغريب.

4 الجمهور على أن الحدود تقام على أصحابها في الحرم، وخالف أبو حنيفة في هذا، وقول الجمهور أصح وعليه العمل. فقد روى البخاري أن عمر بن سعيد قال: "إن الحرم لا يعيذ عاصياً،

ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة".

5 هل كانت مكة حراماً قبل دعوة إبراهيم أو بعد دعوته خلاف، ويشهد لقولها ما كانت حراماً قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها.." الحديث في مسلم.

(1/112)

يلجئهم تعالى مضطراً لهم إلى عذاب النار الغليظ وبئس هذا المصير الذي يصيرون إليه - وهو النار - من مصير.

هداية الآيات:

من هداية الآيتين:

- 1- منة الله تعالى بجعل البيت مثابة للناس وأماناً توجب حمد الله على كل مؤمن.
- 2- سنة صلاة ركعتين خلف المقام لمن 1 طاف البيت.
- 3- وجوب حماية البيت والمسجد الحرام من أي ضرر يلحق من يوجد فيه من طائف وعاكف وقائم وراكع وساجد.

4- بركة دعوة إبراهيم لأهل مكة، واستجابة الله تعالى له دعوته فله الحمد والمنة.

5- الكافر لا يحرم الرزق لكفره 2 بل له الحق في الحياة إلا أن يحارب فيقتل أو يسلم.

6- مصير من مات كافراً إلى النار، لا محالة، والموت في الحرم لا يغني عن الكافر شيئاً.

{وَإِذْ يَرْفَعُ 3 إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ 4 رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ 5 لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

1 روى البخاري عن عمر رضي الله عنه إنه قال: "وافقت ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو

اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} الآية.

2 هذا مستفاد من قول الله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَعُهُ قَلِيلًا..} إلخ، إذ إبراهيم عليه السلام سأل الرزق

للمؤمنين لاغير نظراً إلى أن الله تعالى رد طلبه في سؤاله الإمامة لكافة نريته، إذ قال: {لَا يَتَّالُ

عَهْدِي الظَّالِمِينَ} فمن هنا استثنى إبراهيم غير المؤمنين فأعلمه الله أن الغداء حق الحي مؤمناً كان أو كافراً.

3 الإتيان بالمضارع هنا مع أن السياق في أمور مضت من أجل استحضر الحالة كأنها مشاهدة

وذلك إبرازاً لمواقف إمام الموحدين إبراهيم المشرفة ترغيباً في الاقتداء به.

4 إسماعيل: هو الولد البكر لإبراهيم، وأمه: هاجر الجارية المصرية، ومعنى إسماعيل: سمع الله.

5 هذا كسؤال المسلم في صلاته: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} أي: أدم هدايتنا واحفظ سيرنا عليه حتى نفوز برضاك والجنة، وكذلك سؤال إبراهيم: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ} ، أي: أدم لنا إسلامنا واحفظها علينا حتى لا نتركه؛ لأنه علة وجودنا وغاية أملنا في الحياة.

(1/113)

وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

شرح الكلمات:

وإذ : ظرف لما مضى من الزمان ويعلق بمحذوف تقديره: أذكر وقت كذا وكذا.

القواعد : جمع قاعدة ما بينى عليه الجدار من أساس ونحوه.

البيت : الكعبة حماها الله وطهرها.

إنك أنت السميع العليم : هذه الجملة وسيلة توسل بها إبراهيم وولده لقبول دعائهم.

مسلمين : منقادين لك خاضعين لأمرك ونهيك، راضين بحكمك، عابدين لك.

أرنا مناسكنا : علمنا كيف نحج بيتك، تمسكاً وتعبداً لك.

تب علينا : وفقنا للتوبة إذا زلنا وأقبلها منا.

وابعث فيهم رسولاً : هذا الدعاء استجابته الله تعالى، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو ما طلبناه.

الكتاب : القرآن.

الحكمة : السنة وأسرار الشرع والإصابة في الأمور كلها.

يزكئهم : يطهر أرواحهم ويكمل عقولهم، ويهذب أخلاقهم بما يعلمهم من الكتاب والحكمة، وما بينه

لهم من ضروب الطاعات.

العزیز الحكيم : العزيز الغالب الذي لا يغلب. الحكيم في صنعه وتدبيره بوضع كل شيء في

موضعه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر مآثر إبراهيم عليه السلام المنبئة عن مكانته السامية في كمال الإيمان

والطاعة، وعظيم الرغبة في الخير والرحمة، فقد تضمنت الآيات الثلاث ذكر إبراهيم وإسماعيل وهما

بينان البيت برفع قواعده وهما يدعوان الله تعالى بأن يتقبل 1 منهما عملهما متوسلين إليه بأسمائه

وصفاته: {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} .

1 هذه من كمال الحال إذ هو في حال البناء، والتعب، والعرق، ويسأل أن يتقبل منه عمله. هذا شأن

الكمال من الرجال. قال تعالى عنهم: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} الآية.

كما يسألانه عز وجل أن يجعلها مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة¹ له مؤمنة به موحدة له ومنقادة لأمره ونهيه مطيعة، وأن يعلمهما مناسك² حج بيته العتيق ليحجاه على علم، ويتوب عليهما، كما سألاه عز وجل أن يبعث في ذريتهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم الإيمان وصالح الأعمال، وجميل الخلال وطيب الخصال.

وقد استجاب الله تعالى دعائهما فبعث في ذريتهما من أولاد إسماعيل إمام المسلمين وقائد الغر المحجلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قرر هذا صلى الله عليه وسلم بقوله: "أنا دعوة³ أبي إبراهيم وبشارة عيسى..." عليهم جميعاً السلام.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- فضل الإسهام بالنفس في بناء المساجد.
- 2- المؤمن البصير في دينه يفعل الخير وهو خائف ألا يقبل منه فيسأل الله تعالى ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته أن يتقبله منه.
- 3- مشروعية سؤال الله للنفس وللذرية الثبات على الإسلام حتى الموت عليه.
- 4- وجوب تعلم مناسك الحج والعمرة على من أراد أن يحج أو يعتمر.
- 5- وجوب طلب تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، وتهذيب الأخلاق بالعلم والحكمة.
- 6- مشروعية التوسل إلى الله تعالى في قبول الدعاء، وذلك بأسمائه تعالى وصفاته لا بحق فلان وجاه فلان، كما هو شأن المبتدعة والضلال. ففي هذه الآيات الثلاث توسل إبراهيم وإسماعيل بالجمل التالية:

1- {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

1 هي أمة الإسلام التي أنشأها بعون الله تعالى محمد الذي بعثه الله رسولاً في ذرية إسماعيل للعالمين.

2 النسك في اللغة: الغسل بالماء، يقال: نسك ثوبه إذا غسله، وهو في الشرع: اسم للعبادة، لأن العبادة تطهر النفس وتركيها، يقال: رجل ناسك ومنتسك إذا لازم العبادة يغسل بها نفسه لتطهر وتزكو فيفلح بذلك ويفوز. ومناسك الحج: هي العبادات المشروعة فيه من إحرام وطواف وذبح الهدى وغير ذلك.

3 رواه أحمد بلفظ: "إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك. دعوة

- إبراهيم، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين".
4 وفي الحديث الصحيح: "من بنى لله مسجداً بنى الله له قصراً في الجنة".

(1/115)

2- {إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} .

3- {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

{وَمَنْ يَرْغَبْ 1 عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ 2 فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى 3 بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ 4 كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَانُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)}

شرح الكلمات :

ومن يرغب عن ملة إبراهيم : الرغبة عن الشيء عدم حبه وترك طلبه، وملة إبراهيم هي عبادة الله وحده بما شرع لعباده.

- 1 الاستفهام للنفي والإنكار، وملة إبراهيم هي عبادة الله وحده لا شريك له بما شرع الله تعالى لعباده من أنواع العبادات في كتابه وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.
- 2 الاصطفاء: مأخوذ من الصفة، وهو تخير الأصفى: أي الأكثر صفاء، واصطفى: قلبت فيه التاء طاء لتناسبها مع الصاد في الإطباق، إذ الأصل: اصطفى، أي: طلب الصفة.
- 3 وصى وأوصى، بمعنى: عهد إليه بكذا، والموصى به هنا هو كلمة: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} ، وذلك بعبادته وحده بما شرع بعد خلع الأنداد. وذي: هي ملة إبراهيم.
- 4 أم: بمعنى: بل. والهمزة هي التي للاستفهام الإنكاري وتقدير الكلام: بل أكنتم شهداء حين حضر يعقوب الموت فوصى بنيه. يوبخهم على كذبهم وينكر عليهم.

(1/116)

إلا من سفه¹ نفسه : لا يرغب عن ملة إبراهيم التي هي دين الإسلام إلا عبد جهل قدر نفسه فأزليها وأهانها بترك سبيل عزها وكمالها وإسعادها، وهي: الإسلام.
اصطفيناه : اخترناه لرسالتنا والبلاغ عنا، ومن ثم رفعنا شأنه وأعلينا مقامه.
أسلم : أنقذ لأمرنا ونهينا، فاعبدنا وحدنا ولا تلتفت إلى غيرنا.
اصطفى لكم الدين : اختار لكم الدين الإسلامي ورضيه لكم، فلا تموتن² إلا وأنتم مسلمون.
يعقوب : هو إسرائيل ابن إسحق بن إبراهيم، وبنوه هم: يوسف وأخوته.
أمة خلت : جماعة أمرها واحد. خلت: مضت إلى الدار الآخرة.
لها ما كسبت : أجر ما كسبته من الخير.
ولكم ما كسبتم : من خير³ أو غيره.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة مواقف إبراهيم السليمة الصحيحة عقيدة وإخلاصاً وعملاً صالحاً وصدقاً ووفاءً فوضح بذلك ما كان عليه إبراهيم من الدين الصحيح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ تلك الملة الحنيفية الواضحة السهلة. اللهم لا أحد يرغب عنها إلا عبد جهل قدر نفسه، ولم يعرف لها حقها في الطهارة والصفاء والإكمال والإسعاد، وضمن هذا الخبر ذكر تعالى إنعامه على إبراهيم وما تفضل به عليه من الاصطفاء في الدنيا والإسعاد في الآخرة في جملة الصالحين. وفي الآية الثانية (131) يذكر تعالى إن ذاك إلا اصطفاء تم لإبراهيم عند استجابته لأمر ربه بالإسلام، حيث أسلم ولم يتردد. وفي الآية الثالثة (132) يذكر تعالى إقامة الحجة على

1 سفه نفسه: استخف بقدرها جهلاً به. ولذا نصب نفسه لتضمن سفه معنى جهل.

2 في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ، إذ معناه: الزموا الإسلام ودموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا. وجملة: ﴿وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: مطيعون خاضعون.

3 فيه معنى: ﴿وَلَا تَرَرُّ وَازِرَّةٌ وَزَرَّ أُخْرَى﴾ ومعنى ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

(1/117)

المشركين وأهل الكتاب معاً، إذ ملة الإسلام القائمة على التوحيد وصى بها إبراهيم بنيه، كما وصى بها يعقوب بنيه وقال لهم: لا تموتن إلا على الإسلام، فأين الوثنية العربية واليهودية والنصرانية من ملة إبراهيم، إلا فليثب العقلاء إلى رشدكم.

وفي الآية الرابعة (133) يوبخ تعالى اليهود القائلين كذباً وزوراً للنبي صلى الله عليه وسلم: ألسنت

تعلم أن يعقوب وصى بنيه باليهودية، فقال تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ} أي: كنتم حاضرين لما حضر يعقوب الموت فقال لبنيه مستفهماً إياهم: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي}؟ فأجابوه بلسان واحد: {نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ 1 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا 2 وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

فإن قالوا كنا حاضرين فقد كذبوا وبهتوا ولعنوا، وإن قالوا لم نحضر بطلت دعواهم أن يعقوب وصى بنيه باليهودية، وثبت أنه وصاهم بالإسلام لا باليهودية.

وفي الآية الأخيرة (134) ينهى تعالى جدل اليهود الفارغ فيقول لهم: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} يعني إبراهيم وأولاده- لها ما كسبت من الإيمان وصالح الأعمال، ولكم أنتم معشر يهود ما اكتسبتم من الكفر والمعاصي وسوف لا تسألون يوم القيامة عن أعمال غيركم وإنما تسألون عن أعمالكم وتجزون بها، فاتركوا الجدل وأقبلوا على ما ينفعكم في آخرتكم وهو الإيمان الصحيح والعمل الصالح، ولا يتم لكم هذا إلا بالإسلام، فاسلموا.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- لا يرغب عن الإسلام بتركه أو طلب غيره من الأديان إلا سفيه لا يعرف قدر نفسه.
- 2- الإسلام دين البشرية 3 جمعاء، وما عداه فهي أديان مبتدعة باطلة.
- 3- استحباب الوصية للمريض يوصي فيها بنيه وسائر أفراد أسرته بالإسلام حتى الموت عليه.
- 4- كذب اليهود وبهتانهم وصدق من قال: اليهود قوم بهت.

1 فيه إطلاق لفظ الأب على العم؛ لأن إسماعيل عم ليعقوب وليس بأب له، وفيه إطلاق الأب على الجد أيضاً، ومن هنا ذهب من ذهب إلى أن الجد كالأب يحجب الأخوة عن الإرث؛ لأن الأب يحجب الأخوة حجب إسقاط.

2 أن نوحده بالألوهية، أي: العبادة ولا نشرك به في عبادته سواه.

3 الإسلام هو ملة سائر الأنبياء، وأن تنوعت أنواع التكليف عندهم، واختلفت مناهج العمل بينهم، إذ الإسلام هو انقياد لله وخضوع، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد".

(1/118)

5- يحسن بالمرء ترك الاعتزاز بشرف وصلاح 1 الماضين 2، والإقبال على نفسه بتركيتها وتطهيرها.

6- سنة الله في الخلق أن المرء يجزى بعمله، ولا يسأل عن عمل غيره.

7- يطلق لفظ الأب على العم تغليياً و تعظيماً.

وَقَالُوا 3 كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا
آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا 4 وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى
وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ 5 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ
مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ
اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138){
شرح الكلمات:

تهتدوا : تصيبوا طريق الحق.

1 وفي الحديث الصحيح: "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"، وفي هذا المعنى قال الشاعر
الحكيم:

لا تقل أصلي وفصلي يا فتى

إنما أصل الفتى ما قد حصل 2 ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق ابن عبد الله بن سوريا الأعور
اليهودي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد،
وقال النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: {وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا} الآية.

3 روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية
ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا
تكذبوهم وقولوا: آما بالله وما أنزل علينا، وما أنزل إليكم..".

4 الأسباط: أولاد يعقوب عليهم السلام وهم: اثنا عشر ولداً: يوسف وبنيامين وبودا ولكل واحد منهم
أمة من الناس. الواحد: سبط والجمع: أسباط، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة، وفي ولد
إسماعيل عليه السلام، وسموا الأسباط من السبط، وهو: التابع لأنهم متتابعون.
5 أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كصنيع اليهود والنصارى.

(1/119)

ملة إبراهيم : دين إبراهيم الذي كان عليه.

حنيفاً 1 : مستقيماً على دين الله موحداً فيه لا يشرك بالله شيئاً.

ما أوتي موسى : التوراة.

وما أوتي عيسى : الإنجيل.

في شقاق : خلاف وفراق وعداء لك وحرب عليك.

صبغة الله : دينه الذي طهرنا به ظاهراً وباطناً فظهرت آثاره علينا كما يظهر أثر الصبغ على الثوب

المصبوغ.

معنى الآيات:

ما زال السياق في حجاج أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام فقد قال اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه. كونوا يهوداً تهتدوا إلى الحق، وقالت النصارى من وفد نجران، كذلك كونوا نصارى تهتدوا. فحكى الله تعالى قولهم، وعلم رسوله أن يقول لهم لا تتبع يهودية ولا نصرانية بل تتبع دين إبراهيم الحنيف المفضي بصاحبه إلى السعادة والكمال.

وفي الآية الثانية(136) أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يعلنوا في وضوح عن عقيدتهم الحققة، وهي الإيمان بالله وما أنزل من القرآن، وما أنزل على الأنبياء كافة، وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل خاصة، مع عدم التفرقة بين رسول ورسول والإسلام الظاهر والباطن لله رب العالمين.

وفي الآية الثالثة(137) يقول تعالى لرسوله والمؤمنين إن آمن اليهود والنصارى إيماناً صحيحاً كمايمانكم فقد اهتدوا، وإن أبوا فتولوا وأعرضوا فأمرهم لا يعدو شقاقاً وحرماً لله ورسوله، والله تعالى سيكفيكم بما شاء وهو السميع لأقوالهم الباطلة العليم بأعمالهم الفاسدة، وقد أنجز 3 تعالى وعده لرسوله فأخرج اليهود من المدينة بل ومن الحجاز مع ما

-
- 1 أصل الحنف: الميل ومنه قولهم: رجل أحنف أي: مائل القدمين إلى بعضهما بعضاً، قالت أم الأحنف: والله لولا الحنف برجله ما كان في فتيانكم من مثله. ولما مال إبراهيم عن أديان الشرك إلى دين التوحيد قيل فيه: حنيف، وصار بمعنى مستقيم، إذ هو على منهج الحق، وغيره على الباطل.
 - 2 الآية: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ...} ، وكان ابن عباس يقرأها: "فإن آمنوا بالذي أمنتكم به" وهو تفسير لا قراءة، وعليه فمثل: زائدة نظيرها، ليس كمثل شيء، أي ليس كهو شيء.
 - 3 نعم: أنجز الله تعالى وعده لرسوله فكفاه اليهود الذين وطنوا العزم على قتله صلى الله عليه وسلم، فحاولوا وخابوا ولم يقدرُوا إذ كفاه الله تعالى إياهم.

(1/120)

جللهم به من الخزي والعار.

وفي الآية الرابعة(138) يقول تعالى لرسوله رداً على اليهود والنصارى قولوا لهم: نتبع 1 صبغة الله بها وفطرته عليها وهي الإسلام، ونحن له تعالى عابدون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- لا هداية إلا في الإسلام ولا سعادة ولا كمال إلا بالإسلام.
- 2- الكفر برسول، كفر بكل الرسل فقد كفر اليهود بعتسى، وكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بذلك كافرين، وآمن المسلمون بكل الرسل فأصبحوا بذلك مؤمنين.
- 3- لا يزال اليهود والنصارى في عداء للإسلام وحرب على المسلمين، والمسلمون يكفيهم الله تعالى شرهم إذا هم استقاموا على الإسلام عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً وحكماً.
- 4- الواجب على من دخل الإسلام أن يغتسل غسلًا كغسل الجنابة إذ هذا من صبغة 2 الله تعالى، لا المعمودية النصرانية التي هي غمس المولود يوم السابع من ولادته في ماء يقال له المعمودي وإدعاء أنه طهر بذلك ولا يحتاج إلى الختان.

قُلْ أَنْتَجُوبُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

- 1 الصبغ: الشيء يصبغ به، فالصبح بدون تاء كالفشر، فزيدت فيه التاء، فقيل: صبغة؛ كقشرة، وهي في الآية منصوبة "صبغة" إما إنها بدل من ملة المنصوبة بتقدير: نتبع ملة، وإما إنها على المفعولية المطلقة، أي: صبغنا صبغة الله، نحو: وعد الله حقاً، وفي هذا رد على اليهود والنصارى، إذ اليهود نشأت فيهم الصبغة، إذ كان الكاهن يغتسل كل عام ليكفر خطايا بني إسرائيل في يوم عيد معلوم لهم، والنصارى ما زالوا يعمدون أطفالهم يوم السابع، فيغمسونهم في الماء. هذه صبغة اليهود والنصارى، أما صبغة المسلمين، فهي اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وشتان ما بينهما.
- 2 تعمد النصارى لأطفالهم، وهو صبغهم بالماء؛ كالثوب يصبغ باللون من الألوان، فهم يرون أن الولد لما يصبغ بالماء أصبح نصرانياً لا يفارقه. أي هذا الإثم الذي هو النصراني.

(1/121)

وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ 1 أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ 2 عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)

شرح الكلمات:

- أنتجونا 3 في الله : أتجادلوننا في دينه والإيمان به ورسوله، والاستفهام للإنكار.
- له مخلصون 4 : مخلصون العبادة له، لا نشرك غيره فيها، وأنتم مشركون.
- شهادة عنده من الله : المراد بهذه الشهادة ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره.

الغافل : من لا يتقطن للأمور لعدم مبالاته بها.معنى الآيات:

يأمر تعالى رسوله أن ينكر على أهل الكتاب جدالهم في الله تعالى إذ ادعوا أنهم أولى بالله من الرسول والمؤمنين، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، فعلم الله رسوله كيف يرد عليهم منكرًا عليهم دعواهم الباطلة. كما أحمهم وقطع حجتهم في دعواهم أن إبراهيم والأنبياء بعده كانوا هوداً أو نصارى5، إذ قال له: قل لهم: {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ؟} فإن قالوا نحن أعلم، كفروا، وإن قالوا الله أعلم انقطعوا؛ لأن الله تعالى أخبر أنهم ما كانوا أبداً يهوداً ولا نصارى، ولكن كانوا مسلمين، ثم هددهم تعالى بجريمتهم الكبرى وهي كتمانهم الحق وجحودهم

1 الاستفهام.

2 قال ابن كثير، عن الحسن البصري: إن أهل الكتاب كانوا يقرأون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلام وإن محمداً رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا الله بذلك وأقروا على أنفسهم لله، فكتماوا شهادة الله عندهم من ذلك.

3 والاستفهام أيضاً للتعجب من حالهم وللتوبيخ لهم على سوء سلوكهم، ومعنى في الله، أي: في دينه وولايته ونسخ شرائعه السابقة بالإسلام وكفر من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذي هو الإسلام.

4 الإخلاص: تخليص العباد من الالتفات إلى غير الله تعالى. وعرفه الجنيد فقال: الإخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هو فيمليه.

(1/122)

نعت الرسول والأمر بالإيمان به عند ظهوره فقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

ثم أعاد لهم ما أدبهم به في الآيات السابقة مبالغة في تأديبهم وإصلاحهم لو كانوا أهلاً لذلك، فأعلمهم أن التمسح بأعتاب الماضين والتشبث بالنسب الفارغة إلى الأولين غير مجد لهم ولا نافع، فليقبلوا على إنقاذ أنفسهم من الجهل والكفر بالإيمان والإسلام والإحسان، أما من مضوا فهم أمة قد أفضوا إلى ما كسبوا وسيجزون به، وأنتم لكم ما كسبتم وستجزون به، ولا تجزون بعمل غيركم ولا تسألون عنه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- فضيلة الإخلاص وهو عدم الالتفات إلى غير الله تعالى عند القيام بالعبادات.

- 2- كل امرئ يجزى بعمله، وغير مسئول عن عمل غيره، إلا إذا كان سبباً فيه.
- 3- اليهودية والنصرانية 1 بدعة ابتدعتها اليهود والنصارى.
- 4- تفاوت الظلم بحسب الآثار المترتبة عليه.
- 5- حرمة 2 كتمان الشهادة لا سيما شهادة من الله تعالى.
- 6- عدم الاتكال على حسب الآباء والأجداد ووجوب الإقبال على النفس لتزكيتها وتطهيرها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح.

- 1 قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} آل عمران.
- 2 إذ قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ} البقرة.

(1/123)

الجزء الثاني

{سَيَقُولُ 1 السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ 2 مَا وَلاَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ 3 الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (143)}

شرح الكلمات:

السفهاء : جمع سفيه، وهو من به ضعف عقلي لتقليده وإعراضه عن النظر نجم عنه فساد خلق وسوء سلوك.

ما ولاهم : ما صرفهم عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة بمكة.

القبلة : الجهة التي يستقبلها المرء وتكون قبالته في صلاته.

أمة وسطاً: وسط كل شيء خياره، والمراد منه أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم وأعدلها.

ينقلب على عقبيه : يرجع إلى الكفر بعد الإيمان.

لكبيرة : شاقة على النفس صعبة لا تطاق إلا بجهد كبير، وهي التحويلة من قبلة مألوفة إلى قبلة حديثة.

1 هذا إخبار بما سيقوله السفهاء من المنافقين واليهود والمشركين قبل أن يقوله، وفائدته، أولاً: تقرير

النبوة المحمدية، إذ هذا إخبار بالغيب فكان كما أخبر، وثانياً: توطين نفس الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به حتى لا يضرهم عند سماعه من السفهاء، لأن مفاجأة المكروه أليمة شديدة، فإن ذهبت المفاجأة هان الأمر، وخف الألم، وهذا من باب "قبل الرمي يراش السهم". ومناسبة الآيات لما قبلها استمرار الحجاج إلى أنه كان في الأصول وأصبح في الفروع.

2 {من الناس} في محل نصب على الحال، وال فيه للجنس ليدخل في اللفظ كل سفيه.

3 هي بيت المقدس، ومن جملة ما قالوه سفهاً واستهزاءً التبس عليه أمره وتحير: قد اشتاق محمد إلى مولده.

(1/124)

إيمانكم : صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل التحول إلى الكعبة.

رؤوف رحيم : يدفع الضرر عنكم ويفيض الإحسان عليكم.

معنى الآيتين:

يخبر الله تعالى بأمر يعلمه قبل وقوعه، وحكمة الإخبار به قبل وقوعه تخفيف أثره على نفوس

المؤمنين، إذ يفقد نكدهم المرير عنصر المفاجأة فيه فلا تضطرب له نفوس المؤمنين.

فقال تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيَّهَا قُلْ} ؟ وحصل هذا لما

حول الله تعالى رسوله والمؤمنين من استقبال بيت المقدس 1 في الصلاة إلى الكعبة تحقيقاً لرغبة

رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ولعلة الاختبار 2 التي تضمنتها الآية التالية فأخبر تعالى بما

سيقوله السفهاء من اليهود والمنافقين والمشركين وعلم المؤمنين كيف يردون على السفهاء، فقال: {قُلْ

لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فلا اعتراض عليه يوجه عباده حيث يشاء،

ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفي الآية الثانية (143) يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} خياراً عدولاً 3 أي: كما هديناكم

إلى أفضل قبلة وهي الكعبة قبله إبراهيم عليه السلام جعلناكم خير أمة وأعدلها فأهلناكم بذلك

للسهادة على الأمم يوم القيامة إذا أنكروا أن رسلهم قد بلغتهم رسالات ربهم، وأنتم لذلك لا تشهد

عليكم الأمم ولكن يشهد عليكم رسولكم، وفي هذا من التكريم والإنعام ما الله به 4 عليم. ثم ذكر تعالى

العلة في تحويل القبلة فقال: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} فثبت على

إيمانه وطاعته وانقياده لله ولرسوله ممن يؤثر فيه نقد السفهاء فتضطرب نفسه ويجازي السفهاء فيهلك

بالردة معهم. ثم أخبر تعالى أن هذه التحويلة من بيت المقدس إلى الكعبة شاقّة على النفس إلا على

الذين هداهم الله

- 1 إذ صلى المؤمنون قرابة سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس من قبل تحويل الله تعالى القبلة بهذه الآيات التي نزلت في شأنها. وروى مالك أن تحويل القبلة كان قبل غزوة بدر بشهرين.
- 2 الاختبار في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾ .
- 3 في هذه الآية دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به لعدالة الأمة بشهادة ربها، فإذا أجمعت على أمر وجب الحكم به، وفي أي عصر من العصور إلى قيام الساعة.
- 4 ومن هذا التكريم أنهم إذا شهدوا على أحدهم بالخير وجبت له الجنة لحديث الصحيح: "مرت جنازة فأثنى عليها خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت وجبت" الحديث فسأل فقال: "من أثنتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض".

(1/125)

إلى معرفته ومعرفته محابه ومكارهه فهم لذلك لا يجدون أي صعوبة في الانتقال من طاعة إلى طاعة ومن قبلة إلى قبلة، ما دام ربهم قد أحب ذلك وأمر به.

وأخيراً طمأنهم تعالى على أجور صلاتهم التي صلوا إلى بيت 1 المقدس وهي صلاة قرابة سبعة عشر شهراً لا يضيعها لهم بل يجزيهم بها كاملة سواء من مات منهم وهو يصلي إلى بيت المقدس أو من حي حتى صلى إلى الكعبة، وهذا مظهر من مظاهر رأفته تعالى بعباده ورحمته.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- جواز النسخ في الإسلام فهذا نسخ إلى بدل من الصلاة إلى بيت المقدس إلى الصلاة إلى الكعبة في مكة المكرمة.

2- الأراجيف وافتعال الأزمان وتهويل الأمور شأن الكفار إزاء المسلمين طوال الحياة، فعلى المؤمنين أن يثبتوا ولا يتزعزوا حتى يظهر الباطل وينكشف والزيف وتنتهي الفتنة.

3- أفضلية أمة الإسلام على سائر الأمم لكونها أمة الوسط والوسطية شعارها.

4- جواز امتحان المؤمن وجريانه عليه.

5- صحة صلاة من صلى إلى غير القبلة وهو لا يعلم ذلك وله أجرها وليس عليه إعادتها ولو صلى شهوراً إلى غير القبلة ما دام قد اجتهد في معرفة القبلة ثم صلى إلى حيث أداه اجتهاده. ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ 2 وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ 3 شَطْرَ الْمَسْجِدِ

- 1 ورد في الحديث عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك، فأُنزل الله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ} ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه.
- 2 روى البخارى في سبب نزول هذه الآية أن البراء قال: صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس ثم علم الله هوى نبيه، أي: حبه، فنزلت: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} الآية.
- 3 تحويل وجهك: أي: تحويل وجهك ونظرك بعينك إلى السماء تطلعاً إلى نزول الوحي بذلك، لاسيما وقد نزلت الآيات الأولى: {سيقول} الآية، إذ هي موحية بذلك.

(1/126)

الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ 1 شَطْرَهُ 2 وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ 3 وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) {

شرح الكلمات:

تقلب وجهك في السماء : تردده بالنظر إليها مرة بعد أخرى انتظاراً لنزول الوحي.

فلنولينك قبلة ترضاها : فلنحولنك إلى القبلة التي تحبها وهي الكعبة.

فول وجهك شطر المسجد : حول وجهك جهة المسجد الحرام بمكة.

الحرام : بمعنى: المحرم لا يسفك فيه دم ولا يقتل فيه أحد.

الشطر : هنا الجهة واستقبال الجهة يحصل به استقبال بعض البيت في المسجد الحرام، لأن الشطر لغة: النصف أو الجزء مطلقاً.

أنه الحق من ربهم : أي تحول القبلة جاء منصوباً عليه في الكتب السابقة.

- 1 اختلف في أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى الكعبة، فقيل: الظهر، وقيل: العصر، ولم يرجح أحد القولين، وقيل: كانت صلاة الظهر في مسجد بني سلمة، المعروف بمسجد القبليتين حتى صلوا بعض الصلاة إلى بيت المقدس وبعضها إلى الكعبة، فسمي لذلك مسجد القبليتين.
- 2 اختلف في: هل الغائب عن البيت الحرام يصل إلى عين الكعبة أو إلى جهتها. الصواب أنه

يصلي إلى جهة الكعبة ناوياً استقبال البيت، لأن استقبال عين الكعبة معتذر على غير الموجود في المسجد الحرام، أما في المسجد الحرام فلا تصح صلاته إن لم يستقبل عين الكعبة.

(1/127)

آية : حجة وبرهان.

يعرفونه : الضمير عائد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي: يعلمون أنه نبي الله ورسوله لما في كتبهم من صفاته الواضحة القطعية.
من الممترين : الشاكين والامتراء: الشك وعدم التصديق.
معنى الآيات:

يعلم الله تعالى رسوله أنه كان يراه وهو يقلب وجهه في السماء انتظاراً لوحى يؤمر فيه باستقبال الكعبة بدل بيت المقدس لرغبته في مخالفة اليهود لقبلة أبيه إبراهيم، إذ هي أول قبلة وأفضلها فبناء على ذلك {قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ [الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ] ، وبهذا المر الإلهي تحولت القبلة، وروي أنه كان يصلّي الظهر في مسجد بني سلمة المعروف الآن بمسجد القبلتين فصلّى الرسول والمؤمنون وراءه ركعتين إلى بيت المقدس، وركعتين إلى الكعبة، وكلا تكون القبلة خاصة بمن كان بالمدينة، قال تعالى: {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ} أي: في نواحي البلاد وأقطار الأرض {قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} أي شطر المسجد الحرام، كما أخبر تعالى في هذه الآية أن علماء أهل الكتاب يعرفون أن تحول القبلة حق وأنه بأمر الله تعالى وما أحدثوه من التشويش والتشويه إزاء تحول القبلة، فقد علمه وسيجزئهم به إذ لم يكن تعالى بغاف عما يعملونه.

وفي الآية الثانية(145) يخبر تعالى بحقيقة ثابتة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم لو أتى 2 اليهود والنصارى بكل آية تدل على صدقه أو حقيقة القبلة إلى الكعبة ما كانوا ليتابعوه على ذلك وصلوا إلى قبلته، كما إن النصارى لم يكونوا يصلوا إلى بيت المقدس قبلة اليهود، ولا اليهود ليصلوا إلى مطلع الشمس قبلة النصارى، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لم يكونوا أبداً ليتابعوا أهل الكتاب على قبلتهم بعد أن هداهم الله إلى أفضل قبلة وأحبها إليهم.
وأخيراً يحذر الله رسوله أن يتبع أهواء اليهود فيوافقهم على بدعهم وضلالاتهم بعد الذي أعطاه من العلم وهداه إليه من الحق، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يفعل، ولو فعل لكان من الظالمين.

1 الشطر: لغة: النصف ومنه الحديث: "الطهور شطر الإيمان"، والشاطر من الناس: من أخذ في نحو غير الاستواء، وهو الذي أعيا أهله خبثاً، وهو من بعد عن طاعة الله ورسوله أيضاً.
2 قلت في التفسير: لو أتى اليهود إلخ: لأن لئن في الآية بمعنى لو، لأنها أجيببت بجواب لو، وهو

المضي والوقوع، إذ قال تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ} ، فقله: {مَا تَبِعُوا} جواب لئن، والمفروض فيها أن يجاب بالمضارع.

(1/128)

وفي الآية الثالثة(146) يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون أن الرسول حق وأن ما حاء به هو الحق معرفة تامة ك معرفتهم لأبنائهم، ولكن فريقاً كبيراً يكتمون الحق وهم يعلمون إنه الحق، وفي الآية الرابعة(147) يخبر تعالى رسوله بأن ما هو عليه من الدين الحق هو الحق الوارد إليه من ربه فلا ينبغي أن يكون من الشاكين 1 بحال من الأحوال.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب استقبال القبلة في الصلاة وفي أي مكان كان المصلي عليه أن يتجه 2 إلى جهة مكة.
 - 2- كفر كثير من أهل الكتاب كان على علم إيثاراً للعالم على الآخرة.
 - 3- حرمة موافقة المسلمين أهل الكتاب على بدعة من بدعهم الدينية مهما كانت.
 - 4- علماء أهل الكتاب المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه النبي المبشر به وأنه النبي الخاتم وأعرضوا عن الإيمان به وعن متابعتهم إيثاراً للعالم على الآخرة.
- {وَلِكُلِّ 3 وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ 4 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا

1 هذا تفسير قوله تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} يقال: امتري. فلان في كذا إذا اعتراه اليقين مرة والشك مرة أخرى فلدافع أحدهما بالآخر، ومنه الإمتراء، لأن كل واحد يشك في قول صاحبه، والإمتراء: الشك.

2 روي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي".

3 الوجهة: من المواجهة وهي الجهة والوجه كلها بمعنى واحد، ومفعول موليها محذوف أي وجهة، أو يكون موليها بمعنى متوليها وحينئذ فلا حذف ولا تقدير.

4 اختلف في الجهة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستقبلها في مكة قبل الهجرة، والراجح أنه كان يجعل الكعبة أمامه وهو متجه إلى الشام، بمعنى أنه يصلي بين الركنين اليمانيين، ولما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس حتى حول إلى الكعبة، وهل كان استقباله بيت المقدس باجتهاد منه أو بوحى، الظاهر أنه باجتهاد منه صلى الله عليه وسلم.

اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ 1 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا 2 فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَادْكُرُونِي 3 أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152){

شرح الكلمات:

ولكل وجهه هو مولياها : التتوين في (كل) دال على محذوف، هو لكل أهل ملة؛ كالإسلام، واليهودية، والنصرانية قبله يولون وجوههم لها في صلاتهم.
الخيرات : البر والطاعة لله ورسوله.

الحجة : الدليل القوي الذي يظهر صاحبه على من يخاصمه.

نعمتي : نعم الله كثيرة وأعظمها نعمة الإسلام وإتمامها بمواصلة التشريع والعمل به إلى نهاية الكمال، وكان ذلك في حجة الوداع بعرفات حيث نزلت آية: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } .

1 قال ابن كثير والقرطبي: قبلة: استدل مالك بقول الله تعالى: {قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما هو مذهب الجمهور، أبي حنيفة والشافعي وأحمد والذي أراه يحقق المطلوب من الآية هو أن ينظر المصلي أولاً أمامه امتثالاً لأمر الله تعالى، ثم بعد ذلك ينظر إلى موضع سجوده.

2 الكاف: في محل نصب على النعت لمصدر محذوف تقديره ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا وهو التشبيه نعمة استقلالكم في القبلة باستقلالكم في الرسالة.

3 أصل الذكر يكون بالقلب، ولما كان القلب باطناً جعل اللفظ باللسان دليلاً عليه، فأصبح الذكر يطلق على ذكر اللسان وإن كان المطلوب هما معاً أي ذكر القلب واللسان، والجملة أمر وجواب: فاذكروني أمر، وأذركم جواب وجزاء، وذكر الله للعبد أعظم، وقد ورد في فضل الذكر الكثير من الأحاديث منها: حديث ابن ماجه ونصه: "أن رجلاً قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأنبئني منها بشيء أشبث به. قال: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله".

رسولاً : هو محمد صلى الله عليه وسلم والتكثير فيه للتعظيم.
يزكيكم : يطهركم من الذنوب والأخلاق السيئة والملكات الرديئة.
الحكمة : السنة وهي كل قول صالح لا ينتهي صلاحه ونفعه بمرور الزمن.
الشكر : إظهار النعمة¹ بصرفها فيما من أجله وهبها الله تعالى لعباده.
والكفر : جحد النعمة وإخفائها وصرفها في غير ما يحبه الله تعالى.
معنى الآيات:

بعد تقرير تلك الحقيقة التي تضمنتها آية: {وَلَيْئِنُ اتَّيَّتِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} ... إلخ. وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم لو أتى أهل الكتاب بكل آية تدل على صدقه في أمر القبلة ما اتبعوا قبلته، وما هو بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، فلا اليهود يستقبلون مطلع الشمس، ولا النصارى يستقبلون بيت المقدس. أخبر تعالى أن لكل أمة قبلة مولية وجهها إليها في صلاتها، فتركوا أيها المسلمون أهل تلك الملل الضالة وسابقوا في الخيرات ونافسوا في الصالحات شكراً لريكم على نعمة هدايته لكم لقبلة إبراهيم فإنه تعالى جامعكم ليوم القيامة وسائلكم ومجازيكم بأعمالكم إنه على كل شيء قدير، هذا ثم أمر الله رسوله أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام حيثما كان في الحضر كان أو في السفر وأعلمه أن تحوله إلى الكعبة حق ثابت من ربه تعالى فلا يتردد فيه.
هذا ما تضمنته الآيتان (148-149) وأما الآية (150) فإنه تعالى أمر رسوله والمؤمنين بأن يولوا وجههم شطر المسجد الحرام حيثما كانوا وأينما وجدوا ويثبتوا على ذلك حتى لا يكون لأعدائهم من اليهود والمشركين حجة، إذ يقول اليهود: ينكرون ديننا ويستقبلون قبلتنا، ويقول المشركون: يدعون إنهم على ملة إبراهيم ويخالفون قبلته. هذا بالنسبة للمعتدلين منهم، أما الظالمون والمكابرون فإنه لا سبيل إلى إقناعهم إذ قالوا بالفعل: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين آبائه ويوشك أن يرجع إليه، فمثل هؤلاء ولا يبالى بهم ولا يلتفت إليهم كما قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ³ وَاحْشَوْنِي} . فاثبتوا على قبلتكم الحق

1 ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثرها عليه" .

2 قد ورد في الآيات الأمر بتولية الرسول والمؤمنين وجوههم شطر المسجد الحرام، وهو تكرار تطلبه المقام فكان من مقتضيات الحال التي يوجبها الكلام البليغ الرفيع، ومن مقتضيات الحال إسكات السفهاء وقطع الطريق عليهم ورفع معنويات المؤمنين حيث تأثر بعضهم بما أثاره اليهود والمنافقون والمشركون حول تحويل القبلة.

3 الخشية: مرادفة للخوف، والخوف هو فرع في القلب تخف له الأعضاء، ولخفة الأعضاء به سمي خوفاً.

(1/131)

لأتم نعمتي عليم بهدايتكم إلى أحسن الشرائع وأقومها، ولأهينكم لكل خير وكمال مثل ما أنعمت عليكم بإرسال رسولي، بزيككم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه من أمور الدين والدنيا معاً، وفي الآية الأخيرة (152) أمر تعالى المؤمنين بذكره وشكره، ونهاهم عن نسيانه وكفره، فقال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَنْذُرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} لما في ذكره بأسمائه وصفاته ووعده ووعدته من موجبات محبته ورضاه ولما في شكره بإقامة الصلاة وأداء سائر العبادات من مقتضيات رحمته وفضله، ولما في نسيانه وكفرانه من التعرض لغضبه وشديد عقابه وأليم عذابه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- الإعراض عن جدل المعاندين، والإقبال على الطاعات تنافساً فيها وتسابقاً إليها إذ هو أنفع وأجدى من الجدل والخصومات مع من لا يرجى رجوعه إلى الحق.
 - 2- وجوب استقبال القبلة في الصلاة وسواء كان في السفر أو في الحضر إلا أن المسافر يجوز أن يصلي النافلة حيث توجهت دابته أو طيارته أو سيارته إلى القبلة وإلى غيرها.
 - 3- حرمة خشية الناس 2 ووجوب خشية الله تعالى.
 - 4- وجوب شكر الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة.
 - 5- وجوب 3 تعلم العلم الضروري ليتمكن العبد من عبادة الله عبادة تزكي نفسه.
 - 6- وجوب 4 ذكر الله بالتهليل والتكبير والتسبيح ووجوب شكره بطاعته.
 - 7- حرمة نسيان ذكر الله، وكفران نعمه بترك شكرها.
- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } (153)

1 ورد في الصحيح أن الله تعالى يقول: " من ذكرني في نفسي ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منه" والمراد من الملاً: الخير، الملائكة، وورد: "أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه". وقال معاذ بن جبل: "ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر عز وجل".

2 في هذا إبطال للتقية التي جعلها الروافض من أصول دينهم.

3 شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" وهو حديث

صحيح الإسناد.

4 شاهده من القرآنك {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا} الأحزاب

(1/132)

{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} (154) وَلَنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ 1 مِنْ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَفْسٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالنَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ 2 الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ
مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ (157)}

شرح الكلمات:

الاستعانة : طلب المعونة والقدرة على القول أو العمل.

الصبر : حمل النفس على المكروه وتوطئتها على احتمال المكاره.

الشعور : الإحساس بالشئ المفضي إلى العلم به.

الابتلاء : الاختبار والامتحان لإظهار ما عليه الممتحن من قوة أو ضعف.

الأموال : جمع مال وقد يكون ناطقاً وهو المواشي، ويكون صامتاً وهو النقدان وغيرها.

المصيبة : ما يصيب العبد من ضرر في نفسه أو أهله أو ماله.

الصلوات : جمع صلاة وهي من الله تعالى هنا المغفرة لعطف الرحمة عليها.

ورحمة : الرحمة: الإنعام وهو جلب ما يسر، ودفع ما يضر، وأعظم ذلك دخول الجنة بعد النجاة من النار.

المهتدون : إلى طريق السعادة والكمال بإيمانهم وابتلاء الله تعالى لهم وصبرهم على ذلك.

معنى الآيات:

نادى الرب تعالى عباده المؤمنين وهم أهل ملة الإسلام المسلمون ليرشدهم إلى

1 لفظ شيء يدل على تهويل الفاجعة الدال عليها الخوف والجوع وما بعدهما كما يدل أيضاً على أن ما يبتليهم به من ذلك هو هين فلا يقاس بما يصيب به أهل عداوته من أهل الشرك والكفر والفسق إذا أخذهم بذنوبهم.

2 أسند التبشير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه متأهل له بالرسالة فغيره لا يملكه، وقد لا يصدق فيه، كما أن اللفظ دال على سمو مقامه صلى الله عليه وسلم.

(1/133)

ما يكون عوناً لهم على الثبات على قبلتهم التي اختارها لهم، وعلى ذكر ربهم وشكره وعدم نسيانه وكفره فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا} أي على ما طلب منكم من الثبات والذكر والشكر، وترك النسيان والكفر بالصبر الذي هو توطين النفس وحملها على أمر الله تعالى به وإقام الصلاة، وأعلمهم أنه مع الصابرين يمدهم بالعون والقوة، فإذا صبروا نالهم عون الله تعالى وتقويته وهذا ما تضمنته الآية الأولى (153). أما الآية الثانية (154) فقد تضمنت نهيه تعالى لهم أن يقولوا معتقدين أن من قتل في سبيل الله إذ هو حي في البرزخ وليس بميت، بل هو حي يرزق في الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم: "أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى فناديل معلقة تحت العرش". (رواه مسلم). فلذا لا يقال لمن قتل في سبيل الله: مات 1 ولكن استشهد وهو شهيد وحي عند ربه حياة لا نحسها ولا نشعر بها بمفارقتها للحياة في هذه الدار. وأما الآية الثالثة (155) فإنه يقسم 2 تعالى لعباده المؤمنين على أنه يبئليهم بشيء من الخوف 3 بواسطة أعداءه وأعدائهم وهم الكفار عندما يشنون الحروب عليهم وبالجموع لحصار العدو ولغيره من الأسباب، وينقص الأموال الماشية للحرب والقحط، وبالأنفوس؛ كموت الرجال، وفساد الثمار بالجوائح، كل ذلك لإظهار من يصبر على إيمانه وطاعة ربه بامتثال أمره واجتتاب نهيه، ومن لا يصبر فيحرم ولاية الله وأجره، ثم أمره رسوله بأن يبشر الصابرين، وبين في الآية الرابعة (156) حال الصابرين وهي أنهم إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله، فله أن يصيبنا بما شاء لأن ملكه وعبيده، وإن إليه راجعون بالموت، فلا جزع إذاً ولكن تسليم لحكمه 4 ورضاً بقضائه وقدره، وفي الآية الخامسة (157) أخبر تعالى مبشراً أولئك الصابرين بمغفرة ذنوبهم وبرحمة من ربهم، وإنهم المهنتون إلى سعادتهم وكمالهم، فقال: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} .

1 لا يقال لمن قتل في سبيل الله مات، بمعنى انقطعت عنه الحياة والشهيد لم يموت وإنما انتقل من حياة ناقصة إلى حياة كاملة دائمة، كما أن لفظ الموت مفرع للإنسان فإذا دارت المعركة وسقط الشهداء، وقيل: مات فلان وفلان يؤثر ذلك في نفس من سمع كلمة: الموت، ولذا لا يقال: مات، ولكن: استشهد.

2 دل على القسم: اللام في قوله: {وَلَنبَلِّغَنَّكُمْ} إذ هي موطنة للقسم كأنما قال: وعزتي وجلالي لنبلونكم .. إلخ.

3 من فسر الخوف بالخوف من الله، والجوع: بالصيام، ونقص من الأموال: بالزكاة لم يخطأ، ولكن ما فسرت به الآية هو الصواب الحق الذي عليه أئمة التفسير.

4 روى أحمد والترمذي عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهما أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب".

(1/134)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- فضيلة الصبر والأمر به والاستعانة بالصبر والصلاة على المصائب والتكليف في الحديث كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.
- 2- فضل الشهداء على غيرهم بحياتهم عند ربهم حياة أكمل من حياة غيرهم في الجنة.
- 3- قد يبئلى المؤمن بالمصائب في النفس والأهل والمال فيصبر فترتفع درجته ويعلو مقامه عند ربه.

4- فضيلة الاسترجاع عند المصيبة وهو قول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} وفي الصحيح يقول صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتيه وأخلف له خيراً منها" (رواه مسلم).

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)}

شرح الكلمات:

- الصفا والمروة 2: جبل مقابل البيت في الجهة الشرقية الجنوبية، والمروة: جبل آخر مقابل الصفا من الجهة الشمالية والمسافة بينهما قرابة (760) ذراعاً.
- شعائر الله: أعلام دينية جمع شعيرة، وهي العلامة على عبادة الله تعالى، فالسعي بين الصفا والمروة شعيرة لأنه دال على طاعة الله تعالى.
- الحج 3: زيارة بيت الله تعالى لأداء عبادات معينة تسمى نسكاً.

1 أخرج البخاري عن عاصم ابن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} .

2 الصفا: لغة: جمع صفاه، وتجمع على: صفي وأصفاء، مثل: أرجاء: الحجارة الملساء الصلبة البيضاء. والمروة: واحدة المرور وهي الحجارة الصغار التي فيها لين.

3 الحج: لغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وشاهد الحج القصد قول الشاعر:

فاشهد من عوف حلولاً كثيرة ... يحجون سب الزيرقان المعصفرة
الحلول: الجماعة الكثيرة، ويحجون بمعنى: يقصدون.

(1/135)

العمرة : زيارة بيت الله تعالى للطواف به والسعي بين الصفا والمروة والتحلل بخلق شعر الرأس أو تقصيره.

الجناح : الإثم وما يترتب على المخالفة بترك الواجب أو بفعل المنهي عنه.
يطوف : يسعى بينهما ذاهباً جائياً.

خيراً : الخير: اسم لكل ما يجلب المسرة، ويدفع المضرة، والمراد به هنا العمل الصالح.
معنى الآية الكريمة:

يخبر الله تعالى مقرأاً فريضة¹ السعي بين الصفا والمروة، ودافعاً ما توهمه بعض المؤمنين من وجود إثم في السعي بينهما نظراً إلى أنه كان في الجاهلية على الصفا صنم يقال له: إساف، وآخر على المروة يقال له: نائلة، يتمسح بهما من يسعى بين الصفا والمروة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمُرْوَةَ﴾ يعني السعي بينهما من شعائر الله: أي عبادة من عبادته إذ تعبد بالسعي بينهما نبينه إبراهيم وولده إسماعيل والمسلمون من ذريتهما. فمن حج البيت لأداء فريضة الحج أو اعتمر لأداء واجب العمرة فليسعى بينهما أداءً لركن الحج والعمرة ولا إثم عليه في كون المشركين كانوا يسعون بينهما لأجل الصنمين: إساف ونائلة.

ثم أخبر تعالى واعداداً عباده المؤمنين أن من يتطوع منهم بفعل خير من الخيرات يجزه به وبثبه عليه، لأنه تعالى يشكر لعباده المؤمنين أعمالهم الصالحة ويثيبهم عليها لعلمه بتلك الأعمال ونيات أصحابها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ .

هداية الآية الكريمة:

من هداية هذه الآية:

1- وجوب السعي بين الصفا² والمروة لكل من طاف بالبيت حاجاً أو معتمراً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي"³. (رواه الدارقطني، ولم يعل) وسعى

1 السعي: ركن الحج عند مالك، وأحمد والشافعي ولم يره ركناً أبو حنيفة، وما ذهب إليه الجمهور هو الذي يؤخذ به لحديث: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي" ، وكتب بمعنى: فرض لغة، وشرعاً.
2 من ترك السعي وسافر، يعود إليه محرماً فيطوف بالبيت ويسعى بحكم أنه فرض وركن، ومن قال بوجوبه دون ركنيته يجزئه ذبح شاة.

3 وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من باب الصفا بعد أن طاف بالبيت وهو يقول: "إن الصفا والمروة من شعائر الله" ثم قال: "أبدأ بما بدأ الله به" فدل هذا على وجوب البدء في السعي بالصفا قبل المروة، ودل فعلة صلى الله عليه وسلم على أن السعي سبعة أشواط لا ينقص ولا يزيد.

(1/136)

صلى الله عليه وسلم في عمرته كلها وفي حجه كذلك.

2- لا حرج في الصلاة في كنيسة حولت مسجداً، ولا يضر كونها كانت معبداً للكفار.

3- الترغيب في فعل الخيرات من غير الواجبات، وذلك من سائر النوافل؛ كالطواف والصلاة والصيام والصدقات والرياط والجهاد.

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ۚ وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا ۖ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (162)}

شرح الكلمات:

يكتُمون 2 : يخفون ويغطون حتى لا يظهر الشيء المكتوم ولا يعرف فيؤخذ به.

البيئات : جمع بيعة وهي ما يثبت به شيء المراد إثباته، والمراد به هنا ما يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من نعوت وصفات جاءت في كتاب أهل الكتاب.

الهدى : ما يدل على المطلوب الصحيح ويساعد على الوصول إليه والمراد به هنا ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين الصحيح المفضي بالأخذ به إلى الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

- 1 تابوا: أي رجعوا إلى الإيمان والدخول في الإسلام، وأصلحوا: أي ما أفسدوه من عقائد الناس، وأخلاقهم وأرواحهم، وبينوا: أي ما كتموهم من العمل الواجب بيانه والمحرم كتمانهم.
- 2 الكتمان يكون بإلغاء الحفظ المقرر، وإلغاء التدريس والتعليم للواجب بيانه وتعليمه والدعوة إليه.

(1/137)

في الكتاب : التوراة والإنجيل.

اللعنة : الطرد والبعد من كل خير ورحمة.

اللاعنون : من يصدر عنهم اللعن؛ كالملائكة والمؤمنين.

أصلحوا : ما أفسدوه من عقائد الناس وأمور دينهم بإظهار ما كتموه والإيمان بما كذبوا به وأنكروه.

ولا هم ينظرون : أي بأن يمهلوا ليعتذروا، كقوله تعالى: {وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} .

معنى الآيات:

عاد الساق بعد الإجابة عن تحرج بعض المسلمين من السعي بين الصفا والمروة عاد إلى التنديد بجرائم علماء أهل الكتاب، ودعوتهم إلى التوبة بإظهار الحق والإيمان به فأخبره تعالى أن الذين يكتُمون ما أنزله 1 من البيئات والهدى في التوراة والإنجيل من صفات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والأمر بالإيمان به وبما جاء به من الدين، هؤلاء البعداء يلعنهم الله تعالى وتلعنهم الملائكة والمؤمنون 2. هذا ما تضمنته الآية الأولى (159) وفي الآية الثانية (160) استثنى تعالى من المبعدين من رحمته من تاب من أولئك الكاتمين للحق بعد ما عرفوه فبنوا وأصلحوا فهؤلاء يتوب عليهم ويرحمهم وهو التواب الرحيم.

وفي الآية الثالثة (161) والرابعة (162) أخبر تعالى أن الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم بنبيه ودينه ولم يتوبوا فماتوا على كفرهم أن عليهم 3 لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ولذا فهم مطردون مبعدون من الرحمة الإلهية وهي الجنة خالدون في جهنم لا يخفف عنهم عذابها، ولا يمهلون فيعتذرون.

1 الآية عامة في كل من كتم علماً واجب البيان ويعم العلم المنصوص والمستتبط وما لم يكن واجب البيان فلا يدخل صاحبه في هذا الوعيد، إذ من العلم ما لا يجوز بيانه لحديث: "حدث الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله" وحديث الصحيح: "أفلا أخبر الناس؟ قال: لا إذا فبتكلوا".

2 أخرج ابن ماجة بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في اللاعنون: "دواب الأرض"، ولذا فاللفظ عام يشمل كل من يتأتى منه اللعن، ويدخل الملائكة والمؤمنون دخولاً أولياً.

3 هل يجوز لعن المؤمن العاصي المعين؟ لا يجوز لعن المؤمن العاصي المعين وذلك للحديث الصحيح: "لا تكونوا عون الشيطان على أخيك"، إذ لعنوا مؤمناً حال إقامة الحد عليه؛ حد شرب الخمر.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- حرمة كتمان العلم وفي الحديث الصحيح: "من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار" . وقال أبو هريرة رضي الله عنه في ظروف معينة: "لولا آية من كتاب الله ما حدثتكم حديثاً" وتلا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ {إِلخ...}

2- يشترط لتوبة من أفسد في ظلمه وجهله إصلاح ما أفسد ببيان ما حرف أو بدل وغيره، وإظهار ما كتم، وأداء ما أخذه بغير الحق.

3- من كفر ومات على كفره من سائر الناس يلقى في جهنم بعد موته خالداً في العذاب مخلداً لا يخفف عنه ولا ينظر فيعتذر، ولا يفتر عنه العذاب فيستريح.

4- جواز لعن 1 المجاهرين بالمعاصي؛ كشراب الخمر، والمرابين 2، والمتشبهين من الرجال بالنساء ومن النساء بالرجال.

لَوْلَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)}

شرح الكلمات:

الإله : المعبود بحق 3 أو باطل، والله سبحانه وتعالى هو الإله الحق المعبود بحق.

- 1 فإن قيل: ما كل الناس يلعنونهم. فالجواب: إما أن يكون من باب تغليب الأكثر على الأقل، وإما أن يكون يوم القيامة لقوله تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً} .
- 2 لكن لا على سبيل التعيين، وإنما على العموم؛ كلعن الله آكل الربا مثلاً.
- 3 لم يرد في القرآن لفظ الإله إلا الله سبحانه وتعالى، وأما إله بالتكثير فكثير.

(1/139)

والهكم إله واحد : في ذاته وصفاته، وفي ربوبيته فلا خالق ولا رازق ولا مدبر للكون والحياة إلا هو وفي ألوهيته أي في عبادته فلا معبود بحق سواه.

اختلاف الليل والنهار : بوجود أحدهما وغياب الثاني لمنافع العباد بحيث لا يكون النهار دائماً ولا الليل دائماً.

وبث فيها من كل دابة : وفرق في الأرض ونشر فيها من سائر أنواع الدواب.

تصريف الرياح : باختلاف مهابها مرة صبا، ومرة دبور، ومرة شمالية، ومرة غربية، أو مرة ملقحة، ومرة عقيم.

معنى الآيتين:

لما أوجب الله على العلماء بيان العلم والهدى وحرَمَ كتمانها أخبر أنه الإله الواحد الرحمن الرحيم، وأن هذا أول ما على العلماء أن يبينوه للناس وهو توحيدته تعالى في ربوبيته وعبادته، وأسمائه وصفاته، ولما سمع بعض المشركين تقرير هذه الحقيقة: والهكك إله واحد، قالوا: هل من دليل - يريدون على أنه لا إله إلا الله- فانزل الله تعالى هذه الآية: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} إلى قوله: {يَعْقِلُونَ} مشتملة على ست آيات كونية كل آية برهان ساطع ودليل قاطع على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته، وهي كلها موجبة لعبادته وحده دون من سواه.

الأولى: خلق السموات 2 الأرض وهو خلق عظيم لا يتأتى إلا للقادر الذي لا يعجزه شيء.

الثانية: اختلاف الليل والنهار بتعاقبهما وطول هذا وقصر ذلك.

الثالثة: جريان 3 الفلك -السفن- في البحر على ضخامتها وكبرها وهي تحمل مئات الأطنان من الأرزاق وما ينتفع به الناس في حياتهم.

الرابعة: إنزاله تعالى المطر من السماء لحياة الأرض بالنباتات والزرع بعد جذبها وموتها.

1 جملة لا إله إلا الله أولها كفر وآخرها إيمان، لأن أولها نفي لكل إله، وآخرها إثبات الألوهية لله سبحانه وتعالى وحده دون سواه.

2 جمع لفظ: السموات؛ لأنها أجسام متباينة، وأفرد لفظ الأرض؛ لأنها نوع واحد من تراب طبقة فوق أخرى.

3 في الآية دليل على جواز ركوب البحر للجهاد والحج والتجارة إلا في حالة غلبت الهلاك الطارئ، فإنه لا يجوز، وحديث أم حرام في الموطأ وغيره دليل على الجواز للنساء كالرجال.

(1/140)

الخامسة: تصريف الرياح 1 حارة وباردة ملقحة وغير ملقحة، شرقية وغربية وشمالية وجنوبية بحسب حاجة الناس وما تطلبه حياتهم.

السادسة: السحاب 2 المسخر بين السماء والأرض تكوينه وسوقه من بلد إلى آخر ليمطر هنا ولا يمطر هناك حسب إرادة العزيز الحكيم.

ففي هذه الآيات الست أكبر برهان وأقوى دليل على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته، وهو لذلك رب العالمين وإله الأولين والآخرين ولا رب غيره، ولا إله سواه.

إلا أن الذي يجد هذه الأدلة ويراها ماثلة في الآيات المذكورة هو العاقل، أما من لا عقل له؛ لأنه عطل عقله فلم يستعمله في التفكير والفهم والإدراك، واستعمل بدل العقل الهوى فإنه أعمى لا يبصر شيئاً وأصم لا يسمع شيئاً، وأحمق لا يعقل شيئاً، والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- لا إله إلا الله فلا تصح العبادة لغير الله تعالى، لأنه لا إله إلا هو.
 - 2- الآيات الكونية في السموات والأرض تثبت وجود الله تعالى رباً وإلهاً موصوفاً بكل كمال منزهاً عن كل نقصان.
 - 3- الآيات التنزيلية القرآنية⁴ تثبت وجود الله رباً وإلهاً وتثبت النبوة المحمدية وتقرر رسالته صلى الله عليه وسلم.
 - 4- الانتفاع بالآيات مطلقاً -آيات الكتاب أو آيات الكون- خاص بمن يستعملون عقولهم دون أوهوائهم.
- لَوْ مَنَّ النَّاسُ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

1 نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب الريح، فقد روى ابن ماجة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسبوا الريح فإنها من روح الله، تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها".

2 سمي السحاب: سحاباً لأنه يسحب من موضع إلى آخر، أي من بلد إلى بلد آخر.

3 في بعض تلبية الرسول صلى الله عليه وسلم: "لييك إله الحق لبيك".

4 الآيات الكونية: هي المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان ذلك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات والآيات التنزيلية هي المنسوبة إلى القرآن المنزل من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

(1/141)

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدَّبَرُوا مِنْهُمْ لَمَّا نَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)

شرح الكلمات:

أنداداً : جمع ند، وهو المثل والنظير، والمراد بالأنداد هنا: الشركاء يعبدونها بحبها والتقرب إليها بأنواع العبادات؛ كالدعاء والنذر لها والحلف بها.
التبرؤ : التنصل من الشيء والتباعد عنه لكرهه.
الذين اتبعوا : المعبودون والرؤساء المضلون.
الذين اتبعوا : المشركون والمقلدون لرؤسائهم في الضلال.
الأسباب : جمع سبب وهي لغة الحبل ثم استعمل في كل ما يربط بين شيئين وفي كل ما يتوصل به إلى مقصد وغرض خاص.
كرة : رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا.
الحسرات: جمع حسرة وهي الندم الشديد الذي يكاد يحسر صاحبه فيقعد به عن الحركة والعمل.
معنى الآيات:
لما تقرر في الآيتين السابقتين بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أن إله الناس أي ربهم ومعبودهم واحد وهو الله جل جلاله وعظم سلطانه أخبر تعالى أنه مع هذا البيان والوضوح

(1/142)

يوجد ناس يتخذون من دون 1 الله آلهة أصناماً ورؤساء يحبونهم 2 كحبهم 3 لله تعالى، أي يسوون 4 بين حبهم وحب الله تعالى، والمؤمنون أشد منهم حباً لله تعالى، كما أخبر تعالى أنه لو يرى المشركون عند معاينتهم العذاب يوم القيامة لرأوا أمراً فظيماً يعجز الوصف عنه، ولعلموا أن القوة لله وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ المتبعون وهم الرؤساء الظلمة دعاء الشرك والضلالة من متبوعيهم الجهلة المقلدين وعابثوا 5 العذاب أمامهم وتقطعت لك الروابط التي كانت تربط بينهم، وتمنى التابعون العودة إلى الحياة الدنيا لينتقموا من رؤسائهم في الضلالة فيتبرعوا منهم في الدنيا كما تبرعوا منهم في الآخرة، وكما أراهم الله تعالى العذاب فعابثوه، يريهم أعمالهم القبيحة من الشرك والمعاصي فتعظم حسرتهم ويشتد كربهم ويدخلون بها النار فلا يخرجونهم منها أبداً.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- وجوب حب 6 الله وحب كل ما يُحب الله عز وجل بحبه تعالى.
- 2- من الشرك الحب 7 مع الله تعالى، ومن التوحيد الحب بحب الله عز وجل.
- 3- يوم القيامة تتحل جميع الروابط من صداقة ونسب ولم تبق إلا رابطة الإيمان والأخوة فيه.
- 4- تبرؤ 8 رؤساء الشرك والضلال ودعاة الشر والفساد ممن أطاعوهم في الدنيا واتبعوهم على الظلم والشر والفساد، وليس بنافعهم ذلك شيئاً.

رَبِّهَا 9 النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا

- 1 دون: تكون بمعنى غير وسوى، ولا يطرد، إذ أصلها إنها ظرف مكان، نحو: جلست دونك، وتكون بمعنى: الرديء، تقول: هذا التمر: دون.
- 2 فالآية الكريمة تعني: المشركين عبدة الأوثان ورؤساء أهل الكتاب، لقوله: يحبونهم، وهي عامة في كل من يحب غير الله تعالى من مخلوقاته وحب الله تعالى، إذ الحب إما أن يكون لله وإلا فهو شرك في حب الله تعالى.
- 3 وذلك لأنهم كانوا يدعون الله في الشدة، ويعظمون حرمت الحرم، والأشهر الحرم، فلذا هم يحبون الله تعالى ولكن يحبون آلهتهم ورؤسائهم أكثر من حب الله تعالى لجهلهم به سبحانه وتعالى.
- 4 لحديث ابن مسعود في الصحيح: "قلت أي الذنب أعظم يا رسول الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك".
- 5 معاينة العذاب تكون عند الموت وعند العرض والمسائلة يوم القيامة.
- 6 الحديث الصحيح: "أحب الله لما يغذوكم من النعم، وأحبوني بحب الله".
- 7 الحب: حبان: حب عبادة، وهذا لا يكون إلا لله تعالى. وحب غريزة؛ كحب الطعام والشراب، وسائر الملاذ، فهذا يجب القصد فيه وعدم الإفراط فقط، وخير الحب ما كان لأجل الله تعالى.
- 8 وشواهد هذا في غير آية من القرآن كقوله تعالى: { تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } .
- 9 قيل: هذه الآية نزلت في ثقيف، وخزاعة، وبنو مدلح، إذ حرموا من الأتعام ما حرموا، وعلى كل فهي عامة في كل من حرم غير ما حرم الله تعالى.

(1/143)

حُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ 1 وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170)

شرح الكلمات:

- الحلال : ما انحلت عقدة الحظر عنه وهو ما أدن الله تعالى فيه.
- الطيب : ما كان طاهراً غير نجس، ولا مستقذر تعافه النفوس.
- خطوات الشيطان : الخطوات: جمع خطوة وهي المسافة بين قدمي الماشي، والمراد بها هنا: مسالك الشيطان، وطرقه المفضية بالعبد إلى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم.
- عدو مبين : عداوته بينة وكيف وهو الذي أخرج أبونا آدم وحواء من الجنة وأكثر الشرور والمفاسد

في الدنيا إنما هي بوسواسه وإغوائه.

السوء 2 : كل ما يسوء النفس ويصيبها بالحزن والغم ويدخل فيها سائر الذنوب.

الفحشاء 3 : كل خصلة قبيحة؛ كالزنا، واللواط، والبخل، وسائر المعاصي ذات القبح الشديد.

ألفينا : وجدنا.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض لأحوال أهل الشرك والمعاصي والنهاية المرة التي انتهوا إليها، وهي الخلود في عذاب النار نادى الرب ذو الرحمة الواسعة البشرية⁴ جمعا لِيَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي

1 لفظ الفحشاء: لم يطلق في القرآن إلا على فاحشة واللواط، اللهم إلا في آية واحدة: {الشَّيْطَانُ

يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ} ، فإن الفحشاء هنا بمعنى: البخل، بمنع الزكاة.

2 قيل: سوء ما لا حد فيه من الذنوب، والفحشاء ما فيه حد.

3 أصل الفحشاء: قبح المنظر وعليه قول الشاعر: وجيد كجيد الريم ليس بفاحش. ثم توسع فيه

فأصبح يطلق على ما قبح من المعاني.

4 أنه وإن كان سبب نزول الآية خاصاً فإن معناها عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(1/144)

الأرض} ، وهو عطاؤه وإفضاله، حلالاً طيباً¹ حيث أذن لهم فيه، وأما ما لم يأذن لهم فيه فإنه لا خير لهم في أكله لما فيه من الأذي لأبدانهم وأرواحهم معاً، ثم نهاهم عن اتباع آثار عدوه وعدوهم فإنهم إن اتبعوا خطواته قادهم إلى حيث شقاؤهم وهلاكهم، وأعلمهم وهو ربه أن الشيطان لا يأمرهم إلا بما يضر أبدانهم وأرواحهم والسوء وهو كل ما يسوء النفس والفحشاء وهي أفعال وأردى الأخلاق وأفطع من ذلك أن يأمرهم بأن يكذبوا على الله فيقولوا عليه ما لا يعلمون فيحرمون ويحللون ويشرعون باسم الله، والله في ذلك بريء ، وهذه قاصمة الظهر والعياذ بالله تعالى، حتى إذا عرضوا عن إرشاد ربهم واتبعوا خطوات الشيطان عدوهم ففعلوا السوء وارتكبوا الفواحش وحلوا وشرعوا ما لم يأذن به الله ربهم، وقال لهم رسول الله اتبعوا ما أنزل الله قالوا لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، يا سبحان الله يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان باطلاً، أيقلدون² آباءهم ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً من أمور الشرع والدين، ولا يهتدون إلى ما فيه الصلاح والخير.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- وجوب طلب الحلال والاقتصار على العيش منه ولو كان ضيقاً قليلاً.

- 2- الحلال ما أحل الله، والحرام ما حرمه الله تعالى فلا يستقل العقل بشيء من ذلك.
- 3- حرمة اتباع مسالك الشيطان وهي كل معتقد أو قول أو عمل نهى الله تعالى عنه.
- 4- وجوب الابتعاد عن كل سوء وفحش لأنهما مما يأمر بهما الشيطان.
- 5- حرمة تقليد من لا علم له ولا بصيرة في الدين.
- 6- جواز اتباع أهل العلم والأخذ بأقوالهم وآرائهم المستقاة من الوحي الإلهي الكتاب والسنة.

- 1 يصح إعراب: {حَلَالًا طَيِّبًا} على إنها حالان من {مِمَّا فِي الْأَرْضِ} ويصح أن يكون طيباً: صفة لحلال، كما يصح أن يكون حلالاً مفعول لكلوا.
- 2 استدل بهذه الآية على حرمة التقليد في العقائد مطلقاً، أما في الفروع فهو أهون، والتقليد هو قبول الحكم بلا دليل ولا حجة.

(1/145)

{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (171)

شرح الكلمات:

مثل : المثل: الصفة والحال.

ينعق : يصيح: والاسم النعيق 1 وهو الصياح ورفع الصوت.

الدعاء : طلب القريب؛ كدعاء المؤمن ربه: يارب. يارب.

النداء 2 : طلب البعيد؛ كأذان الصلاة.

الصم : جمع أصم فاقد حاسة السمع فهو لا يسمع.

البكم : جمع أبكم فاقد حاسة النطق فهو لا ينطق.

لا يعقلون : لا يدركون معنى الكلام ولا يميزون بين الأشياء لتعطل آلة الإدراك عندهم، وهي العقل. معنى الآية الكريمة:

لما نددت الآية قبل هذه (170) بالتقليد والمقلدين الذي يعطلون حواسهم ومداركهم ويفعلون ما يقول لهم رؤسائهم ويطبقون ما يأمرونهم به مسلمين به لا يعرفون لم فعلوا ولم تركوا جاءت هذه الآية بصورة عجيبة ومثل غريب للذين يعطلون قواهم العقلية ويكتفون بالتبعية في كل شيء حتى أصبحوا؛ كالشياه من الغنم يسوقها راعيها، حيث شاء فإذا نعق بها داعياً لها أجابته ولو كان دعاءه إياها لذبحها، وكذا إذا ناداها بأن كانت بعيدة أجابته وهي لا تدري لم نوديت، إذ هي لا تسمع ولا تفهم إلا مجرد الصوت الذي ألقته بالتقليد 3 الطويل والاتباع بدون دليل.

1 النعيق: دعاء الراعي، وتصويته للغنم، وعليه قول الشاعر:

فانعق بضأنك يا جرير فإنما ... منتك نفسك في الخلاء ضلالاً

2 وفي الحديث: "أن بلالاً أندى صوتاً".

3 وهناك معنى آخر للآية قاله الطبري: وهو أن المراد مثل الكافرين في دعاؤهم ألتهم؛ كمثل الذي ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل البعد فليس للناعق من ذلك إلا النداء الذي يتعبه وينصبه وما فسرناه به أصح وأمثل.

(1/146)

فقال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا} في جمودهم وتقليد آبائهم في الشرك والضلال كمثل غنم 1 ينعق بها راعيها فهو إذا صاح فيها داعياً لها أو منادياً لها سمعت الصوت وأجابت ولكن لا تدري لماذا دعيت ولا لماذا نوديت لفقدها العق. وهذا المثل صالح لكل من يدعو أهل الكفر والضلال إلى الإيمان والهداية فهو مع من يدعوهم من الكفرة والمقلدين والضلال الجامدين كمثل الذي نعق إلخ....
هداية الآية:

من هداية الآية الكريمة:

1- تسلية الدعوة إلى الله تعالى عندما يواجهون المقلدة من أهل الشرك والضلال.

2- حرمة التقليد لأهل الأهواء والبدع.

3- وجوب طلب العلم والمعرفة حتى لا يفعل المؤمن ولا يترك إلا على علم بما فعل وبما ترك.

4- لا يتابع إلا أهل العلم والبصيرة في الدين؛ لأن اتباع الجهال يعتبر تقليداً.

لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ 3 وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لِعِيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (173)}

1 يقال: نعق الغراب، ونعق بالعين، ونعق، نعق إذا صوت من غير أن يمد عنقه ويحركها، ونعق بمعناه، فإذا مد عنقه وحركها ثم صاح، قيل فيه نعق.

2 أخرج مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: لَيَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ"، وقال: لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..{ الآية. ثم ذكر الرجل يطيل الرجل، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام،

وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟! ".

3 الميت والميتة بتسكين الياء: هو مات قطعاً وانتهت حياته، والميت، والميتة بتشديد الياء: وهو ما لم يميت بعد ولكنه آيل أمره إلى الموت، هكذا يرى أرباب اللغة واستشهدوا بقول الله تعالى لرسوله: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} الآية، وهذا دليل إطلاق ميت بالتشديد على من لم يميت بعد كما استشهدوا بقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ...

إنما الميت ميت الأحياء

(1/147)

شرح الكلمات:

الطيبات : جمع طيب وهو الحلال.

واشكروا لله : اعترفوا بنعم الله عليكم واحمدوه عليها واصرفوها في مرضاته

إن كنتم إياه تعبدون : إن كنتم مطيعين لله منقادين لأمره ونهيه.

حرم : حظر ومنع.

الميتة : ما مات من الحيوان حتف أنفه بدون تذكية.

الدم : المسفوح السائل، لا المختلط باللحم.

الخنزير : حيوان خبيث معروف بأكل العذرة ولا يغار على أنثاه.

وما أهل به لغير الله : الإهلال: رفع الصوت باسم من تذبح له من الآلهة.

اضطر : ألجئ وأكره بحكم الضرر الذي لحقه من الجوع أو الضرب.

غير باغ ولا عاد : الباغي الظالم الطالب لما لا يحل له والعادي المعتدي المجاوز لما له إلى ما

ليس له.

الإثم : أثر المعصية على النفس بالظلمة والتدسية.

معنى الآيتين الكريمتين:

بعد أن بينت الآية السابقة (171) حال الكفرة المقلدة لأبائهم في الشرك وتحريم ما أحل الله من

الأنعام حيث سببوا للآلهة السوائب، وحموا لها الحامات، وبحروا لها البحائر، نادى الجبار عز وجل

عباده المؤمنين: يا أيها الذين آمنوا بالله رباً وإلهاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً كلوا من طيبات ما

رزقناكم واشكروا لله ربكم ما أنعم به عليكم من حلال اللحوم، ولا تحرموها كما حرمها مقلدة

المشركين، فإنه تعالى لم يحرم عليكم 1 إلا أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغيره تعالى.

ومع هذا من أوجته الضرورة فخاف على نفسه الهلاك فأكل فلا إثم عليه على شرط أن لا يكون في

سفره باغياً على المسلمين ولا عادياً بقطع الطريق عليهم وذلك؛ لأن الله غفور لأوليائه التائبين إليه رحيم بهم لا يتركهم في ضيق ولا حرج.

1 لما أباح تعالى لعباده المؤمنين الحلال الطيب وهو كثير لم يعدده لكثرتيه، وعدد الحرام لقلته، فذكر الميتة والدم إلخ.. كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عما يلبس المحرم فعدل عن بيان المباح لكثرتيه وذكره المحرم لقلته، فقال: "لا يلبس القميص ولا السراويل..." إلخ. وهذا من الإيجاز البليغ.

(1/148)

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- النذب إلى أكل الطيبات من رزق الله تعالى في غير إسراف.
 - 2- وجوب شكر الله تعالى بالاعتراف بالنعمة له وحمده عليها وعدم صرفها في معاصيه.
 - 3- حرمة أكل الميتة 1، والدم المسفوح، ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى.
 - 4- جواز الأكل من المذكورات عند الضرورة 2 وهي خوف الهلاك مع مراعاة الاستثناء في الآية وهو {غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} .
 - 5- أذن النبي صلى الله عليه وسلم في أكل السمك 3 والجراد وهما من الميتة، وحرم أكل كل ذي ناب 4 من السباع وذي مخلب من الطيور.
- إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفُورَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ 5 بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)}

- 1 هذه أصول المحرمات الأربعة، وأما المختنقة والموقوذة والمنردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب فهي متفرعة عن تلك الأصول وهي مذكورة في أول المائدة.
- 2 من وجد طعام لا تقطع فيه يد يأكله ولا يأكل من الميتة بإذن النبي صلى الله عليه وسلم للمحتاج أن يأكل من الثمر المعلق، فقال: "من أصاب منه من ذي حاجة بغية غير متخذ خبنة فلا شيء عليه"، وقوله من: أي من الثمر المعلق، إذ سئل عنه فقال.. إلخ.
- 3 للحديث الصحيح: "أحل لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال".

4 لحديث صحيح: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور".

5 إشارة إلى الحكم عليهم بأنهم من الخلود في النار، كما هو صالح أن يكون إشارة إلى ما تقدم من الوعيد، والمعنى متقارب.

(1/149)

شرح الكلمات:

يكتُمون : يجحدون ويخفون.

ما أنزل الله من الكتاب : الكتاب: التوراة وما أنزل الله فيه صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والأمر بالإيمان به.

لا يكلمهم الله 1 : لسخطه عليهم ولعنه لهم.

ولا يزيكهم : لا يظهرهم من ذنوبهم لعدم رضاه عليهم.

الضلالة : العماية المانعة من الهداية إلى المطلوب.

الشقاق : التنازع والعداء حتى يكون صاحبه في شق، ومنازعة في آخر.

بعيد : يصعب إنهاؤه والوفاق بعده.

معنى الآيات:

هذه الآيات الثلاث نزلت قطعاً في أحبار 2 أهل الكتاب تندد بصنيعهم وترتهم جزاء كتمانهم الحق وبيعهم العلم الذي أخذ عليهم أن يبينوه بعرض خسيس 3 من الدنيا يجحدون أمر النبي صلى الله عليه وسلم ودينه إرضاء للعوام حتى لا يقطعوا هداياهم ومساعدتهم المالية، وحتى يبقى لهم السلطان الروحي عليهم، فهذا معنى قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا} ، وأخبر تعالى أن ما يأكلونه من رشوة في بطونهم إنما هو النار إذ هو مسببها ومع النار غضب الجبار فلا يكلمهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم.

كما أخبر تعالى عنهم في الآية (175) أنهم وهم البعداء اشتروا الضلالة بالهدى أي الكفر بالإيمان، والعذاب بالمغفرة أي النار بالجنة، فما أجراً هؤلاء على معاصي الله، وعلى التقم في النار، فلذا قال تعالى: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ 4 عَلَى النَّارِ} . وكل هذا الذي تم مما توعد الله به هؤلاء

1 لا يكلمهم كلام تشريف وتكريم كما يكلم أولياؤه الصالحين. أما ما كان من كلام وتحقير نحو:

{أخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} ، فلا يدخل في هذا النفي. والله أعلم.

2 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود، كانوا يصيبون من

سفلتهم هدايا، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث من غيرهم، غيروا صفته وقالوا: هذا نعت النبي الذي يخرج آخر الزمان حتى لا يتبع محمداً صلى الله عليه وسلم.
3 هو الرشوة التي يأخذها القاضي والمفتي والعياذ بالله.
4 هذا تعجب للمؤمنين من حالهم.

(1/150)

الكفرة؛ لأن الله نزل الكتاب بالحق مبيناً فيه سبيل الهداية وما يحقق لسالكيه من النعيم المقيم ومبيناً سبيل الغواية وما يفضي بسالكيه إلى غضب الله وأليم عذابه.
وفي الآية الأخيرة (176) أخبر تعالى أن الذين اختلفوا في الكتاب التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى 1 لفي عداة واختلاف بينهم بعيد، وصدق الله فما زال اليهود والنصارى مختلفين متعادين إلى اليوم، ثمرة اختلافهم في الحق الذي أنزله الله وأمرهم بالأخذ به فتركوه وأخذوا بالباطل فأثمر لهم الشقاق البعيد.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- حرمة كتمان الحق 2، لا سيما إذا كان للحصول على منافع دنيوية مالا أو رياسة.
- 2- تحذير علماء الإسلام من سلوك مسالك علماء أهل الكتاب بكتمانهم الحق وإفتاء 3 الناس بالباطل للحصول على منافع مادية معينة.
- 3- التحذير من الاختلاف في القرآن الكريم لما يفضي إليه من العداة والشقاق البعيد بين المسلمين.
لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

- 1 ويدخل في هذا مشركو العرب فقد اختلفوا في القرآن فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: أساطير.
- 2 يدخل في كتمان الشهادة التي حرمها الله تعالى بقوله: لَوْلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ} .

3 يشهد له حديث: "من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار".

(1/151)

وَالصَّابِرِينَ 1 فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177){
شرح الكلمات:

البر : اسمٌ جامع لكل خير وطاعة لله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.
ولكن البر من آمن بالله : البر: الحق برُّ من آمن بالله واليوم الآخر إلى آخر الصفات.
وأتى المال على حبه : أعطى المال 2 حيث تعين اعطاؤه مع شدة حبه 3 له فأثر ما يحب الله على ما يحب.

ذوي القربى : أصحاب القرابات، الأقرب فالأقرب.
اليتامى : جمع يتيم وهو من مات والده وهو لم يبلغ الحنث.
ابن السبيل: المسافر البعيد الدار المنقطع عن أهله وماله.
السائلين : جمع سائل: الفقير المحتاج الذي أذن له في السؤال لدفع غائلة الحاجة عن نفسه.
في الرقاب : الرقاب: جمع رقبة والإنفاق منها معناه في عتقها.
الباساء والضراء : البأساء: شدة البؤس من الفقر، والضراء: شدة الضر أو المرض.
وحين البأس : عند القتال واشتداده في سبيل الله تعالى.
أولئك الذين صدقوا 4 : أي في دعواهم الإيمان والبر والبرور.
معنى الآية الكريمة:

في الآيات الثلاث السابقة لهذه الآية ندد الله تبارك وتعالى بأخبار أهل الكتاب وذكر ما توعدهم به من غضبه وأليم عقابه يوم القيامة كما تضمن ذلك تخويف علماء الإسلام من أن

-
- 1 نصب: {والصابرين} على المدح إذ هو معطوف على: {والموفون} وهو مرفوع، ونظيره قوله تعالى: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} والنصب على المدح شائع في كلام العرب، وهو إشارة وتنبيه على فضيلة الصبر وميزته، وقرئ: {والصابرون} بالرفع على الأصل.
 - 2 فيه دليل على أن في المال حقاً غير الزكاة وشاهده قوله صلى الله عليه وسلم: "إن في المال حقاً سوى الزكاة" رواه ابن ماجة والترمذي.
 - 3 ويصح أن يكون على حب الله لا على شيء آخر، أي أعطى المال من أعطاهم لأجل حب الله عز وجل.
 - 4 ورد في فضل الصدق قوله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الجنة يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً". في الصحيح.

يكتموا العلم على الناس طلباً لحظوظ الدنيا الفانية، وفي هذه الآية رد الله تعالى على أهل الكتاب أيضاً تبجحهم بالقبلة وادعاءهم بالإيمان والكمال فيه لمجرد أنهم يصلون إلى قبلتهم بين المقدس بالمغرب أو طلوع الشمس بالمشرق، إذ الأولى قبلة اليهود، والثانية قبلة النصارى، فقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ كُلُّ الْبِرِّ} كل البر {أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} ، وفي هذا تنبيه عظيم للمسلم الذي يقصر إسلامه على الصلاة ولا يبالي بعدها ما ترك من واجبات وما ارتكب من منهيات، بين تعالى لهم البار الحق في دعوى الإيمان والإسلام والإحسان فقال: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ} 2 أي: ذا البر أو البار حق هو {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ} وذكر أركان الإيمان إلا السادس منها "القضاء والقدر"، {الرَّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} وهما من أعظم أركان الإسلام، وأنفق المال في سبيل الله مع حبه له ورضه به ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فهو ينفق ماله على من لا يرجو منه جزاء ولا مدحاً ولا ثناء؛ كالمساكين وأبناء السبيل والسائلين من ذوي الخصاصة والمسغبة، وفي تحرير الأرقاء وفكاك الأسر وأقام الصلاة أدامها وعلى الوجه الأكمل في أدائها وأتى الزكاة المستحقين لها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم قواعد الإسلام، وذكر من صفاتهم الوفاء بالعهود والصبر في أصعب الظروف وأشد الأحوال، فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ} وهذا هو مبدأ الإحسان وهو مراقبة الله تعالى والنظر إليه وهو يزول عبادته، ومن هنا قرر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في دعوى الإيمان والإسلام، وهم المتقون بحق غضب الله وأليم عذابه، جعلنا الله منهم، فقال تعالى مشيراً لهم بلام البعد وكاف الخطاب ليعد مكانتهم وارتفاع درجاتهم {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 3.

هداية الآية الكريمة:

من هداية الآية الكريمة:

1- الاكتفاء ببعض أمور الدين دون القيام ببعض لا يعتبر صاحبه 4 مؤمناً ولا ناجياً.

1 قرأ حفص: {البر} بالنصب على إنه خبر ليس مقدماً والاسم أن وما دخلت عليه، والتقدير: تولية وجوهكم، وقرأ غيره: {البر} مرفوعاً على أنه اسم والخبر أن وما دخلت عليه.

2 وقيل هو على حذف مضاف، أي: ولكن البر بر من آمن على حد {وَأَسَأَلُ الْقُرْيَةَ} أي: أهل القرية، وما أولناه به أقرب وأيسر.

3 هذه الآية: {لَيْسَ الْبِرُّ}... إلخ. آية عظيمة تضمنت قواعد الشرع وأمهاات الأحكام لم تضمن آية غيرها ما تضمنته هي، إذ تضمنت أركان الإيمان وقاعدتي الإسلام؛ الصلاة والزكاة، والجهاد والصبر، والوفاء، والتقوى والإنفاق العام والخاص.

4 شاهده من القرآن في قوله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}.. الآية.

- 2- أركان 1 الإيمان هي المذكورة في هذه الآية، والمراد بالكتاب 2 في الآية الكتب.
 - 3- بيان وجوه الانفاق المرجو ثوابه يوم القيامة وهو نوي القربى إلخ....
 - 4- بيان عظم شأن الصلا والزكاة.
 - 5- وجوب الوفاء بالعهود.
 - 6- وجوب الصبر وخاصة عند القتال.
 - 7- التقوى هي ملاك الأمر، والغاية التي ما بعدها للعاملين غاية.
- لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179){
- شرح الكلمات:

كتب 3 عليكم القصاص 4

: كتب: فرض، والقصاص: إذا لم يرض ولي الدم بالدية ولم يعف.

في القتل

: الفاء سببية، أي بسبب القتل، والقتلى: جمع قتيل وهو الذي أزهقت روحه فمات بأي آلة.

- 1 أركان الإيمان: ستة: جاءت في حديث جبريل الذي رواه مسلم وهي: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر تؤمن والقدر خيره وشره"، ولم يذكر القدر في الآية؛ لأن الكتاب دال عليه.
- 2 إن أُل: التي في الكتاب للجنس، والجنس تحته أفراد كالإنسان، أفراده كثيرون، والكتب المطلوب الإيمان بها هي: كل ما أنزل من كتاب وأعظمها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزيور، وصحف إبراهيم عليه السلام.
- 3 قيل: كتب هنا: هو إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء ولا منافاة بين ما شرع وفرض علينا في القرآن والسنة، وما كتب في كتاب المقادير إذا الكل سبق به علم الله وأراده فكان كما أراد.
- 4 القصاص: مأخوذ من قص الأثر إذا تتبعه، ومنهم: قاص؛ لأنه يتتبع الأخبار والآثار والقاتل؛ كأنه سلك طريقاً فقص أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك.

الحر : الحر خلاف العبد 1 والعبد، هو: الرقيق المملوك.
فمن عفي له من أخيه شيء : فمن تنازل له ولي الدم عن القود إلى الدية أو العفو.
فاتباع بمعروف : فالواجب أن تكون مطالبة الدية بالمعروف بالرفق واللين.
وأداء إليه بإحسان : وأن يكون أداء الدية بإحسان خالياً من المماطلة والنقص.
ذلك تخفيف من ربكم : أي ذلك الحكم العادل الرحيم وهو جواز أخذ الدية بدلاً من القصاص تخفيف
عنكم من ربكم إذ كان في شرع من قبلكم القصاص فقط أو الدية فقط، وأنتم مخبرون بين العفو
والدية والقصاص.

فمن اعتدى بعد ذلك : يريد من أخذ الدية ثم قتل فإنه يتعين قتله 2 لا غير.
القصاص : المساواة في القتل والجراحات وفي آلة القتل أيضاً.
حياة : إبقاء شامل عميم، إذ من يريد أن يقتل، يذكر أنه سيقتل فيترك القتل فيحيا، ويحيا من أراد
قتله، ويحيا بحياتهما خلق كثير وعدد كبير.
أولي الألباب : أصحاب العقول الراجحة، واحد الألباب: لبّ: وهو في الإنسان العقل.
لعلكم تتقون : ليعدكم بهذا التشريع الحكيم لاتقاء ما يضر ولا يسر في الدنيا والآخرة.
معنى الآية الكريمة:

هذه الآية نزلت في حين من العرب كان أحد الحيين يرى أنه أشرف من الآخر، فلذا يقتل الحر
بالعبد، والرجل بالمرأة تطاولاً وكبرياء، فحدث بين الحيين قتل وهم في الإسلام، فشكوا ذلك إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية تبطل نحل 3 الجاهلية وتقرر مبدأ العدل

-
- 1 ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد مخالفاً للجمهور لعموم آية المائدة: {النَّفْسِ بِالنَّفْسِ} .
 - 2 اختلف فيمن قتل بعد أخذ الدية، فقال مالك والشافعي، وكثير من العلماء هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة، وقال آخرون عذابه أن يقتل ولا يمكن الحاكم الولي من العفو. وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام.
 - 3 نحل الجاهلية: ثأر الجاهلية وعاداتها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة، رجل قتل غير فاتلة، ورجل قتل في الحرم، ورجل أخذ بنحو الجاهلية".

والمساواة¹ في الإسلام فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ ، فلا يقتل بالرجل رجلاً، ولا بالمرأة رجلاً ولا امرأتان ولا بالعبد حر ولا عبدان.

فمن تنازل له أخوه³ وهو ولي الدم عن القصاص إلى الدية أو العفو مطلقاً فليتبع ذلك ولا يقل: لا أقبل إلا القصاص، بل عليه أن يقبل ما عفا عنه أخوه له من قصاص أو دية أو عفو، وليطلب ولي الدم الدية بالرفق والأدب، وليؤد القاتل الدية بإحسان بحيث لا يماطل ولا ينقص منه شيئاً. ثم ذكر تعالى منته على المسلمين حيث وسع عليهم في هذه المسألة فجعل ولي الدم مخيراً بين ثلاثة: العفو، أو الدية، أو القود "القصاص" في حين أن اليهود كان مفروضاً عليهم القصاص فقط، والنصارى الدية فقط، وأخبر تعالى بحكم أخير في هذه القصة، وهو أن من أخذ الدية وعفا عن القتل ثم تراجع وقتل فقال: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . واختلف في هذا العذاب الأليم هل هو عذاب الدنيا، أو هو عذاب الآخرة، ومن هنا قال مالك والشافعي: حكم هذا المعتدي كحكم القاتل ابتداء إن عفي عنه قبل، وإن طولب بالقود أو الدية أعطى، وقال آخرون: ترد منه الدية ويترك لأمر الله، وقال عمر بن العزيز -رحمه الله-: يرد أمره إلى الإمام يحكم فيه يحقق المصلحة العامة. ثم أخبر تعالى: أن في القصاص الذي شرع لنا، وكتبه علينا مع التخفيف حياة عظيمة لما فيه من الكف عن إزهاق الأرواح وسفك الدماء، فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

1- حكم القصاص في الإسلام وهو المساواة والمماثلة فيقتل⁴ الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة

1 الجمهور على أن الجماعة تقتل بالواحد، وذلك إذا باشروا القتل فقتلوا لقول عمر رضي الله عنه في قتل غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: "لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم ولم يخالفه أحد فكان إجماعاً.

2 ذهب بعض إلى أن الرجل لا يقتل بالمرأة وحالفهم الجمهور لآية المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ الآية.

3 أخوة: أي في الإسلام إذ لا يقتل المسلم بالذمي، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يقتل مسلم بكافر" ، وهو مذهب الجمهور، وذلك لعدم تكافؤ الدمين".

4 اختلف في هل يقتل الرجل بولده فذهب الجمهور إلى عدم قتله به، وذهب مالك إلى أنه إذا أضجعه يقتل به، فإذا رماه بحجر أو بعضاً أو بأي سبب فيه شبهة إنه لم يرد قتله فلا يقتل به لحديث: " إدروا الحدود بالشبهات" .

والمرأة بالرجل والرجل بالمرأة، ويقتل القاتل بما قتل به مماثلة لحديث: "المرء مقتول بما قتل به". ولما كان العبد مقوماً بالمال فإنه لا يقتل به الحر، بل يدفع إلى سيده مال. وبهذا حكم الصحابة والتابعون وعليه الأئمة الثلاثة: مالك، والشافعي، وأحمد، وخالف أبو حنيفة فرأى القود فيقتل الحر بالعبد أخذاً بظاهر هذه الآية.

2- محاسن الشرع الإسلامي وما فيه من اليسر والرحمة حيث أجاز العفو 1 والدية بدل القصاص.

3- بلاغة القرآن الكريم، إذ كان حكماء العرب في الجاهلية يقولون: القتل أنفى للقتل، فقال القرآن: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} . فلم يذكر لفظ القتل بالمرء فنفاه لفظاً وواقعاً.

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ 3 إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأِنَّمَا إِنَّهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)}

شرح الكلمات:

كتب : فرض وأثبت.

خيراً : مالا نقداً، أو عرضاً، أو عقاراً.

الوصية : الوصية ما يوصى به من مال وغيره.

1 اختلف في أخذ الدية من قاتل العمد فقال الجمهور: ولي الدم يخير بين أخذ الدية والقصاص، ولا خيار للقاتل، فلو قال: اقتصوا مني ليس له ذلك بل هو لولي الدم لأنه مخير بين ثلاثة.

2 هذه الآية: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ} إلخ. تسمى آية الوصية وذكر الفعل والوصية مؤنثة لأحد أمرين: الأول: الفصل بين الفعل والفاعل، والثاني: ما لا فرج له يذكر ويؤنث.

3 المراد من الموت هنا: أسبابه، إذا العرب إذا أحضر السبب كنت به عن المسبب، قال جرير في مهاجاته الفرزدق:

أنا الموت الذي حدثت عنه ... فليس لهارب مني نجاة

فكنى بنفسه عن الموت، إذ هو سبب مجيئه في نظره وزعمه.

المعروف : ما تعارف عليه الناس كثيراً أو قليلاً بحيث لا يزيد على الثلث.

التبديل : التغيير للشيء بآخر.

جنفاً أو إثماً : الجنف: الميل عن الحق خطأ، والإثم: تعمد الخروج عن الحق والعدل.

معنى الآيات:

بمناسبة ذكر آية القصاص وفيها أن القاتل عرضة للقتل، والمفروض فيه أن يوصي في ماله قبل قتله، ذكر تعالى آية الوصية هنا فقال تعالى: كتب عليكم أيها المسلمون إذا حضر أحدكم الموت إن ترك مالاً الوصية¹، أي: الإيصال للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية المواريث²، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلا وصية لوارث"³، ونسخ الوجوب وبقي الاستحباب ولكن لغير الوالدين والأقربين الوارثين إلا أن يجيز ذلك الورثة وأن تكون الوصية ثلثاً فأقل، فإن زادت وأجازها الورثة جازت لحديث ابن عباس عند الدارقطني لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة، ودليل استحباب الوصية حديث سعد في الصحيح حيث أن له الرسول في الوصية بالثلث، وقد تكون الوصية واجبة على المسلم وذلك إن ترك ديوناً لازمة، وحقوقاً واجبة في ذمته فيجب أن يوصي بقضائها واقتضائها بعد موته لحديث ابن عمر في الصحيح: " ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده" ، هذا ما تضمنته الآية الأولى(180)، وأما الآية الثانية⁴ (181) فيقول تعالى لعباده المؤمنين فمن بدل إيصال مؤمن أوصى به بأن زاد فيه أو نقص أو غيره أو بدلاً نوعاً بآخر فلا إثم على الموصي ولكن الإثم على من بدل وغيره، وختم هذا الحكم بقوله: أن الله سميع عليم، تهديداً ووعيداً لمن يقدم على تغيير الوصايا لغرض فاسد وهوى سيء، وفي الآية الأخيرة(182) أخر تعالى أن من خاف⁵ من موص جنفاً أو ميلاً عن الحق والعدل بأن جار في وصيته بدون تعمد الجور ولكن خطأ أو خاف إيماءً على الموصى حيث جار

1 {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا} : هذا شرط وجوبه الوصية إلا أن الشائع أن جواب الشرط يكون مقروناً بالفاء

وسقطت هنا جوازاً كما في قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها ... والشر بالشر عند الله مثلان

أي: فالله يشكره.

2 آية المواريث في النساء وهي: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...} إلى آخر الآيات إلى {حَلِيمٌ}.

3 نص الحديث: "إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث". رواه أصحاب السنن وغيرهم،

وهو صحيح الإسناد.

4 هي قوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ} إلخ.. والخطاب لسائر المسلمين، والإجماع على أن الموصي أن

يغير في وصيته ويرجع فيما شاء منها إلا ما كان من تدبير العبد فإنه لا يرجع فيه.

5 الخوف هنا: بمعنى الظن والتوقع، وقرئ: {موصٍ} ، من وصى المضاعف، أما {موصٍ} فهو من أوصى فهو موصٍ.

(1/158)

وتعدى على علم في وصيته فأصلح 1 بينهم، أي: بين الموصي والموصى لهم فلا إثم عليه في إصلاح الخطأ وتصويب الخطأ والغلط، وختم هذا الحكم بقوله: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وعداً بالمغفرة والرحمة لمن أخطأ غير عامد.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- نسخ الوصية للوارثين مطلقاً بإجازة 2 الورثة.

2- استحباب 3 الوصية بالمال لمن ترك مالا كثيراً يوصي به في وجوه البر والخير.

3- تأكد الوصية حضر 4 الموت أو لم يحضر لمن له أو عليه حقوق خشية أن يموت فتضيع الحقوق فيأثم بإضاعتها.

4- حرمة تبديل الوصية وتغييرها إلى غير 5 الصالح.

لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184){

شرح الكلمات:

كتب

: فرض وأثبت.

1 من أوصى بما لا يجوز الانتفاع به أو تناوله واستعماله كمن أوصى أو بناء قبة على ميت أو إحياء بدعة مولد ونحوه فإنه يجوز تبديله بما هو جائز ولا يصح إمضاؤه.

2 الحديث الصحيح: "فلا وصية لوارث".

3 لحديث سعد في الصحيح.

4 لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيح.

5 يجوز تبديل الوصية إذا كان فيها جور أو محرم لقوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} .

الصيام : لغة الإمساك، والمراد به هنا: الامتناع عن الأكل والشرب وغشيان النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس¹.

أياماً معدودات : تسعة وعشرون أو ثلاثون يوماً بحسب شهر رمضان.
فعدة من أيام آخر : فعل من أفطر لعذر المرض أو السفر فعليه صيام أيام آخر بعدد الأيام التي أفطر فيها.

يطيقونه : أي: يتحملونه بمشقة لكبر سن أو مرض لا يربحاً برؤءه.
فدية طعام مسكين : فالواجب على من أفطر لعذر مما ذكر أن يطعم على كل يوم مسكيناً، ولا قضاء عليه.

فمن تطوع خيراً : أي: زاد على المُدَّين² أو أطعم أكثر من مسكين فهو خير له.
وأن تصوموا خيراً : الصيام على من يطيقه ولو بمشقة خير من الإفطار مع الطعام.
معنى الآيتين:

لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبحت دار إسلام أخذ التشريع ينزل ويتوالى، ففي الآيات السابقة كان حكم القصاص والوصية ومراقبة الله في ذلك، وكان من أعظم ما يكون في المؤمن من ملكة التقوى الصيام، فأنزل الله تعالى فرض الصيام في السنة الثانية للهجرة، فناداهم بعنوان الإيمان: يا أيها الذين آمنوا. وأعلمهم أنه كتب عليهم الصيام كما كتبه على الذين من قبلهم من الأمم السابقة، فقال: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ... } علل ذلك بقوله: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي: ليعدكم به للتقوى التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، لما في الصيام من مراقبة الله تعالى، وقوله: { أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ } ذكره ليهون به عليهم كلفة الصوم ومشقته، إذ لم يجعله شهوراً ولا أعواماً. وزاد في التخفيف أن أذن للمريض والمسافر أن يفطر ويقضي بعد الصحة أو العودة من السفر فقال لهم: { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ۖ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } كما أن غير المريض والمسافر إذا

1 أي بنية امتثال أمر الله تعالى به، أو بنية التقرب إليه عز وجل.

2 هل الواجب مد أو مدان خلاف، فمن الفقهاء من يرى مدين، ومنهم من يرى مداً واحداً، والمد: الحفنة بحفنة الرجل المعتدل بين القصر والطول.

3 أي في حالة سفر فلذا لا ينبغي لمن عزم على السفر أن يفطر حتى يغادر بلده المقيم به شأن

الصيام كشأن الصلاة فلا يقصر حتى يغادر مباني البلد.
4 أي فالواجب صيام عدة من أيام أخر.

(1/160)

كان يطيق الصيام بمشقة وكلفة شديدة له أن يفطر ويطعم على كل يوم مسكيناً، وأعلمهم أن الصيام في هذه الحال خير. ثم نسخ هذا الحكم الأخير بقوله في الآية الآتية: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} وقوله: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} يريد: تعلمون فوائد الصوم الدنيوية والآخروية، وهي كثيرة أجلها مغفرة الذنوب وذهاب الأمراض.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فرضية الصيام وهو شهر رمضان.
 - 2- الصيام يربي ملكة التقوى في المؤمن.
 - 3- الصيام يكفر الذنوب لحديث: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه".
 - 4- رخصة الإفطار للمريض 1 والمسافر.
 - 5- المرأة الحامل أو المرضع دل قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} أنه يجوز لهما الإفطار مع القضاء، وكذا الشيخ الكبير فإنه يفطر ولا يقضي، والمريض مرضاً لا يرجى برؤه كذلك. إلا أن عليهما أن يطعما عن كل يوم مسكيناً بإعطائه حفنتي طعام كما أن المرأة الحامل والمرضع 2 إذا خافت على حملها أو طفلها أو على نفسها أن عليها أن تطعم مع كل صوم تصومه قضاء مسكيناً.
 - 6- في الصيام فوائد دينية واجتماعية عظيمة أشير إليها بلفظ: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.
- من هذه الفوائد:

- 1- يعود الصائم الخشية من الله تعالى في السر والعلن.
- 2- كسر حدة الشهوة، ولذا أرشد العازب 3 إلى الصوم.
- 3- يربي الشفقة والرحمة في النفس.
- 4- فيه المساواة بين الأغنياء والفقراء والأشراف 4 والأوضاع.

1 المريض له حالتان. الأولى: أن يكون مرضه شديداً فهذا يجب عليه أن يفطر. والثانية: أن يكون مرضه غير شديد فيستحب له الفطر.

2 في الكلام إجمال وهذا تفصيله: الحامل والمرضع إذا خافتا على طفليهما فعليهما القضاء والإطعام، وإن خافتا على نفسيهما فعليهما الصيام دون الإطعام.

3 لحديث: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه فإنه له وجاء" أي خصاء.

4 الأشراف: جمع شريف، والأوضاع: جمع وضيع، وهو الدنيء.

(1/161)

5- تعويد الأمة النظام والوحدة والوئام.

6- يذهب المواد المترسبة في البدن، وبذلك تتحسن 1 صحة الصائم.

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} 3 وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185){

شرح الكلمات:

{شَهْرُ رَمَضَانَ}: هو الشهر التاسع من شهور السنة القمرية، ولفظ الشهر مأخوذ من الشهرة،

ورمضان مأخوذ من رمض الصائم إذا جر جوفه من العطش 4.

{الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}: هذه آية فضله على غيره من سائر الشهور حيث أنزل فيه القرآن، وذلك في ليلة القدر منه لآية: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل نجماً بعد نجم، وابتدئ نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان أيضاً.

1 لحديث: "صوموا تصحوا وسافروا تغنموا".

2 قرئ: {شَهْرٌ} بالنصب فيكون بدلاً من قوله: {أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ} ، وقرئ بالرفع فيكون مبتدأ والخبر، {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ} . وقد يكون المبتدأ محذوفاً تقديره هي: أي الأيام المعدودات.

3 قوله صلى الله عليه وسلم: " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً" ، أوضح طريق للصوم والإفطار وبه العمل والحمد لله.

4 والرمضاء: شدة الحر، ويشهد لذلك حديث مسلم: " صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال" ، أي اشتد الحر في الأرض فلم يقوى الفصيل على الوقوف على الأرض بأخفافه فيبرك.

(1/162)

{هُدَى لِلنَّاسِ} : هادياً للناس إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدارين.
{وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} : البيّنات: جمع بينة، والهدى: الإرشاد، والمراد أن القرآن نزل هادياً للناس ومبيناً لهم سبيل الهدى موضعاً طريق الفوز والنجاة فارقاً لهم بين الحق والباطل في كل شؤون الحياة.

شهد الشهر 1 : حضر الإعلان 2 عن رؤيته.

{فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} : فعليه القضاء بعدد الأيام التي أفطرها مريضاً أو مسافراً.
{وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ} : وجب القضاء من أجل إكمال عدة الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرون يوماً.
{وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} : وذلك عند إتمام صيام رمضان من رؤية الهلال إلى العودة من صلاة العيد والتكبير مشروع وفيه أجر كبير، وصفته المشهورة: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} : فرض عليكم الصوم وندبكم إلى التكبير لتكونوا بذلك من الشاكرين لله تعالى على نعمه؛ لأن الشكر 3 هو الطاعة.

معنى الآية الكريمة:

لما ذكر تعالى أنه كتب على أمة الإسلام الصيام في الآية السابقة وأنه أيام معدودات بين في هذه الآية أن المراد من الأيام المعدودات أيام شهر رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن هادياً موضعاً طرق الهداية، وفارقاً به بين الحق والباطل، فقال تعالى: {شَهْرُ 4 رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ} يريد شهر رمضان، ومعنى: شهد، كان حاضراً غير مسافر لما أعلن عن رؤية هلال رمضان، فليصمه على سبيل الوجوب إن كان مكلفاً. ثم ذكر عذر المرض والسفر، وأن على من أفطر بهما قضاء ما

1 اختلف في قبول شهادة الواحد في هلال رمضان، والذي عليه الأكثر وهو الأحوط للدين أن الواحد إذا كان عدلاً تقبل شهادته، هذا في الصام، أما في الإفطار وهو رؤية هلال شوال فلا بد من شاهدين اثنين.

2 إذا أسلم الكافر ليلاً وبلغ الصبي وجب عليهما الصيام من الغد، أما إذا أسلم الكافر وبلغ الغلام في نهار رمضان فإنه يستحب لهما الإمساك ولا يجب.

3 يشهد له قوله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} ، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح وهو العمل، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

4 يجمع رمضان على رمضان، وأرمضاء ويجوز أن يقال شهر رمضان. ورمضان بدون شهر لحديث: "إذا كان رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة".

أفطر بعده، وأخبر تعالى أنه يريد بالإذن في الإفطار للمريض والمسافر ليس بالأمة، ولا يريد بها العسر فله الحمد وله المنة، فقال تعالى: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} .

ثم علل تعالى للقضاء بقوله ولتكملوا العدة، أي: عدة أيام رمضان، هذا أولاً، وثانياً: لتكبروا الله على ما هداكم عندما تكملون الصيام بروية هلال شوال وأخيراً ليعدكم بالصيام والذكر للشكر، وقال عز وجل: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- فضل 1 شهر رمضان وفضل القرآن.
 - 2- وجوب صيام رمضان على المكلفين، والمكلف هو: المسلم العاقل مع سلامة المرأة من دمي الحيض والنفاس.
 - 3- الرخصة للمريض الذي يخاف تأخر برئه أو زيادة مرضه، والمسافر مسافة 2 قصر.
 - 4- وجوب القضاء على من أفطر لعذر 3.
 - 5- يسر الشريعة الإسلامية وخلوها من العسر 4 والحرص.
 - 6- مشروعية التكبير ليلة العيد ويومه، وهذا التكبير جزء لشكر نعمة الهداية إلى الإسلام.
 - 7- الطاعات: هي الشكر، فمن لم يطع الله ورسوله لم يكن شاكراً فيعد مع الشاكرين.
- {وَأِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (186)

1 يكفي في بيان فضل رمضان قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين". رواه مسلم، قوله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه" في الصحيح.

2 أوسط ما قيل في مسافة القصر إنها أربعة بُرْد، وهي ثمانية وأربعون ميلاً، والميل: ألفا ذراع عند أهل الأندلس وهو يعادل الكيلو المتر المعروف الآن.

3 لقوله تعالى: {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} أي فعلية قضاء أيام أخر بعدد ما أفطر.

4 لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "دين الله يسر" ، وقوله لأصحابه: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" . في الصحيح.

(1/164)

شرح الكلمات:

الداعي : السائل ربه حاجته

{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} : أي: يجيبوا ندائي إذا دعوتهم لطاعتي وطاعة رسولي بفعل المأمور وترك المنهي والتقرب إليّ بفعل القرب وترك ما يوجب السخط.

{فِرْشُدُونَ} : بكمال القوتين العلمية والعملية، إذ الرشد: هو العلم بمحاب الله ومساخطه، وفعل

المحاب وترك المساخط، ومن لا علم له ولا عمل فهو السفيه الغاوي والضال الهالك.

معنى الآية الكريمة:

ورد أن جماعة من الصحابة سألوا النبي قائلين: أقریب ربنا فنناجیه أم بعید فننادیه فأنزل الله تعالى قوله: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ } الآية، ومعنى المناجاة: المكالمة بخفض الصوت، والمناداة برفع الصوت، وإجابة الله دعوة عبده قبول طلبه وإعطائه مطلوبه2. وما على العباد إلا أن يستجيبوا لربهم بالإيمان به وبطاعته في أمره ونهيه، وبذلك يتم رشدهم ويتأهلون للكمال والإسعاد في الدارين الدنيا والآخرة.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- قرب الله تعالى من عباده إذ العوالم كلها في قبضته وتحت سلطانه ولا يبعد عن الله شيء من خلقه إذ ما من كائن إلا والله يراه ويسمعه ويقدر عليه، وهذه حقيقة القرب.
- 2- كراهية رفع الصوت بالعبادات إلا ما كان في التلبية والأذان4 والإقامة.
- 3- وجوب الاستجابة لله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال.
- 4- الرشد في طاعة الله والغي والسفه في معصيته تعالى.

1 دل على فضل الدعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق عليه لفظ العبادة، فقال: "الدعاء هو العبادة" رواه أبو داود، ومما يحرم الإجابة: أكل الحرام، والاستعجال. وأن يقول دعوت فلم يستجب لي، ذلك لحديث مسلم.

2 على الداعي أن يعزم في دعوته ولا يقل: اللهم أعطني كذا إن شئت، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري: "إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن اللهم إن شئت فاعطني فإنه

لا مستكره له".

3 يستحب الإسرار بالدعاء لقوله تعالى: {زَكْرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا} .

4 من الأوقات التي يرجى فيه استجابة الدعاء: ما بين الأذان والإقامة، والسر، ووقت الفطر، وحال السفر، والمرض، وفي السجود، ودبر الصلوات، وعند اشتداد الكرب من ظلم وغيره، فقد ورد من الأحاديث والآثار ما يصدق هذا ويؤكد.

(1/165)

{ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)}

شرح الكلمات:

{لَيْلَةَ الصِّيَامِ 1}: الليلة التي يصبح العبد بعدها صائماً.

{الرَّفَثُ}: الجماع.

{لِيَّاسٌ لَكُمْ}: كناية عن اختلاط بعضكم ببعض؛ كاختلاط الثوب بالبدن.

{تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}: بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب بالجماع ليلة الصيام قبل أن يحل الله لكم ذلك.

{بَاشِرُوهُنَّ}: جامعوهن، أباح لهم ذلك ليلاً.

{وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}: اطلبوا بالجماع الولد إن كان قد كتب لكم 2، ولا يكن الجماع لمجرد الشهوة.

{الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ}: الفجر الكاذب وهو بياض 3 يلوح في الأفق؛ كذنب السرحان 4.

1 روي في سبب نزول هذه الآية: {أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} الآية أن عمر رضي

الله عنه بعد ما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشكى إليه ما حدث له من وقاع أهله ليلاً، فأنزل الله تعالى: {أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ} الآية.

2 ويحتمل اللفظ معاني أخرى مثل: ما أبيح لكم، وليلة القدر، والرخصة، والتوسعة.

3 لحديث مسلم: "لا يغرنكم من سحوركم آذان بلال، ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطيع هكذا وأشار بيديه يعني معترضاً.

4 السرحان: الذئب.

{الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} : سواد يأتي بعد البياض الأول فينسخه تماماً.
 {الْفَجْرِ} : انتشار الضوء أفقياً ينسخ سواد الخيط الأسود ويعم الضياء الأفق كله.
 {عَاكِفُونَ 1 فِي الْمَسَاجِدِ} : منقطعون إلى العبادة في المسجد تقرباً إلى الله تعالى.
 {حُدُودُ اللَّهِ} : جمع حد وهو ما شرع الله تعالى من الطاعات فعلاً أو تركاً.
 {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ} : أي كما بين أحكام الصيام يبين أحكام سائر العبادات من أفعال وتروك ليهيئهم للتقوى التي هي السبب المورث للجنة.
 معنى الآية الكريمة:

كان في بداية فرض الصيام أن من نام بالليل لم يأكل ولم يشرب ولم يقرب امرأته حتى الليلة الآتية. كأن الصيام يبتدئ من النوم لا من طلوع الفجر، ثم إن ناساً أتوا نسائهم وأخبروا ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة تبيح لهم الأكل والشرب والجماع طوال الليل إلى طلوع الفجر، فقال تعالى: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} أي: الاختلاط بهن، إذ لا غنى للرجل عن امرأته ولا المرأة عن زوجها {هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ}. يستترها وتستتره؛ كالثوب يستتر الجسم، وأعلمهم أنه تعالى علم منهم ما فعلوه من إتيان نسائهم ليلاً بعد النوم قبل أن ينزل حكم الله فيه بالإباحة أو المنع، فكان ذلك منهم خيانة لأنفسهم فقال تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ} . وأعلن لهم عن الإباحة بقوله: {فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} . يريد من الولد²، لأن الجماع لا يكون لمجرد قضاء الشهوة بل للإنجاب والولد. وحدد لهم الظرف الذي يصومون فيه وهو النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فقال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ 3 مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} وحرم على المعتكفين في المساجد مباشرة نسائهم فلا يحل للرجل وهو

- 1 الاعتكاف: ملازمة المسجد للعبادة وهو من سنن الإسلام فقد اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستحب أن يكون في العشر الأواخر من رمضان، وأقله يوم وليلة. ولا يصح إلا في المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة، ويفسده الجماع ويجب قضاؤه على من أفسده بجماع أهله.
- 2 تقدم ما يحتمله اللفظ من غير الولد في رقم (2) من هذا التعليق.
- 3 فلذا قيل الفجر: فجران، كاذب وصادق، وقد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: الأنف الذكر تحت رقم 3.

معتكف أن يخرج من المسجد ويغشى امرأته وإن فعل أثم وفسد اعتكافه وجب عليه قضاؤه. قال تعالى: {وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ 1 وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} وأخبرهم أن ما بينه لهم من الواجبات والمحرمات هي حدوده تعالى فلا يحل القرب منها ولا تعديها فقال عز وجل: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا} ثم قال: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} فامتنت تعالى على المسلمين بهذه النعمة وهي بيان الشرائع والأحكام والحدود بما يوحيه إلى رسوله من الكتاب والسنة ليعد بذلك المؤمنين للتقوى، إذ لا يمكن أن تكون تقوى ما لم تكن شرائع تتبع وحدود تحترم. وقد فعل فله الحمد وله المنة.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- إباحة الأكل والشرب والجماع في ليال الصيام من غروب الشمس 2 إلى طلوع الفجر.
- 2- بيان ظرف الصيام وهو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.
- 3- بيان ما يسمك عنه الصائم وهو الأكل والشرب والجماع.
- 4- مشروعية الاعتكاف وخاصة في رمضان، وأن المعتكف لا يحل له مخالطة امرأته وهو معتكف حتى تنتهي مدة اعتكافه التي عزم أن يعتكفها.
- 5- استعمال الكتابة بدل التصريح فيما يتسحي من ذكره، حيث كنى بالمباشرة عن الوطء.
- 6- حرمة انتهاك حرمت الشرع وتعدي حدوده.
- 7- بيان الغاية من إنزال الشرائع ووضع الحدود وهي تقوى الله عز وجل.
- 8- ثبت بالسنة: سنة 3 السحور واستحباب تأخيرها ما لم يخش طلوع الفجر، واستحباب تعجيل الفطر 4.

{ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ

1 المباشرة: كناية عن الجماع: إذ البشرة تمس البشرة فيه.

2 يحرم الوصال: وهو صيام يومين فأكثر بلا إفطار لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والوصال، إياكم الوصال، يحذر منه". أخرجه البخاري.

3 لحديث مسلم: "إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور".

4 لحديث: "لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور" رواه أحمد.

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَيْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)

شرح الكلمات:

الْبَاطِلَ : خلاف الحق 1.

تَدُلُّوْا : الإدلاء بالشيء، إلقاءه²، والمراد هنا: إعطاء القضاة والحكام الرشوة ليحكموا لهم بالباطل حتى يتوصلوا إلى أموال غيرهم.

{فَرِيقًا} : أي: طائفة وقطعة من المال.

{بِالْأَيْمِ} : المراد به هنا: بالرشوة وشهادة الزور، واليمين الفاجرة أي الحلف بالكذب ليقضي القاضي لكم بالباطل في صورة حق.

معنى الآية الكريمة:

لما أقر تعالى في الآية السابقة أنه يبين للناس³ أحكام دينه ليتقوه بفعل الأمور وترك المنهي بين في هذه الآية حكم أكل أموال المسلمين بالباطل، وأنه حرام فلا يحل لمسلم أن يأكل مال أخيه بغير طيب نفس منه. وذكر نوعاً هو شر أنواع أكل المال بالباطل، وهو دفع الرشوة إلى القضاة والحاكمين ليحكموا لهم بغير الحق فيورطوا القضاة في الحكم بغير الحق ليأكلوا أموال إخوانهم بشهادة الزور واليمين الغموس الفاجرة وهي التي يحلف فيها المرء كاذباً.

وقال تعالى: { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدُلُّوْا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَيْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي: وأنتم تعلمون حرمة ذلك.

هداية الآية:

من هداية الآية:

1- حرمة أكل مال المسلم بغير حق سواء كان بسرقة أو بغصب أو غش أو احتيال ومغالطة.

1 الباطل: لغة: الذهاب الزائل.

2 يقال: أدلى دلوه في البئر إذا ألقاها فيها ليخرج الماء، والحبل الذي يلقي بالدلو يقال له: الرشاء، ومنه أخذ اسم الرشوة، فالراشي يعطي الرشوة ليستخلص الحكم له.

3 إن هذه الآية وإن نزلت في سبب خاص: وهو تخاصم عبدان ابن أشوع الحضرمي مع عمرو القيس الكندي، إذ ادعى الأول مالاً على الثاني، فأنكر وأراد أن يحلف، فنزلت فإنها عامة في أمة الإسلام قاطبة، فلا يحل أكل مال أمرء مسلم بغير حق، فيدخل فيه القمار والخداع، والغصب، وجدد الحقوق وكذا ما حرّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكة، وذلك كمهر البغي، وحلوان الكاهن، وأثمان بيع الخمر وغيرها.

2- حرمة الرشوة تدفع للحاكم ليحكم 1 بغير الحق.

3- مال الكافر غير المحارب كمال المسلم في الحرمة إلا أن مال المسلم أشد حرمة لحديث: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله" 2. ولقوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ} وهو يخاطب المسلمين.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ 4 لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ 5 وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (189)

شرح الكلمات:

{الْأَهْلِيَّةُ}: جمع هلال: وهو القمر في بداية ظهوره في الثلاثة الأيام الأولى من الشهر؛ لأن الناس إذا رأوه رفعوا أصواتهم الهلال الهلال.

المواقيت: جمع ميقات: الوقت المحدد المعلوم للناس.

إتيان البيوت من ظهورها: أن يتسور الجدار ويدخل البيت تحاشياً أن يدخل من الباب.

{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى}: البر الموصل إلى رضوان الله. بر عبد: اتقى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه ليس البر دخول البيوت من ظهورها.

الفلاح: الفوز: وهو النجاة من النار ودخول الجنة.

1 حكم الحاكم لا يحل الحرام سواء أموالاً أو فروجاً لهذه الآية ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فيلحمها أو ليذرها".

2 رواه مسلم.

3 حقيقة السؤال هي: طلب أحد من آخر بذل شيء أو إخباراً عن شيء فإن كان طلب شيء تعدى الفعل بنفسه نحو: سأله مالا، وإن كان إخباراً عن شيء تعدى بعن نحو: سأله عن كذا.

4 الوقت والميقات: بمعنى واحد، إلا أن الميقات أخص من الوقت فإنه عام.

5 ذكر الحج خصوصاً لأنه يفوت بفوات وقته إذا تقدم أو تأخر، إذ الحج يوم واحد وهو تاسع الحجة، ومكان واحد وهو عرفة لحديث: "الحج عرفة".

معنى الآية الكريمة:

روى أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين: ما بال الهلال يبدوا دقيقاً، ثم يزيد حتى يعظم ويصبح بديراً، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما كان أول بدئه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ} وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: هي مواقيت للناس، وعلة بدءها صغيرة ثم تتكامل ثم تنقص حتى المحاق: هي أن يعرف الناس بها مواقيتهم التي يؤقتونها لأعمالهم 1 فبوجود القمر على هذه الأحوال تعرف عدة النساء وتعرف الشهور، فنعرف رمضان 2 ونعرف شهر الحج ووقته، كما نعرف آجال العقود في البيع والإيجار، وسداد الديون وما إلى ذلك. وكان الأنصار في الجاهلية إذا أحرم أحدهم بحج أو عمرة وخرج من بيته وأراد أن يدخل لغرض خاص لا يدخل من الباب حتى لا يظله نجف الباب فيتسور الجدار ويدخل من ظهر البيت لا من بابه وكانوا يرون هذا طاعة وبرا، فأبطل الله تعالى هذا التعبد الجاهلي بقوله عز وجل: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ} . بر أهل التقوى والصلاح. وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها فقال: {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} ، وأمرهم بتقواه عز وجل ليفلحوا في الدنيا والآخرة. فقال: { وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية:

- 1- أن يسأل المرء عما ينفعه ويترك السؤال 3 عما لا يعنيه.
- 2- فائدة الشهور القمرية عظيمة إذ بها تعرف كثير من العبادات.
- 3- حرمة الابتداء في الدين 4 ولو كان برغبة في طاعة الله تعالى وحصول الأجر.
- 4- الأمر بالتقوى المفضية إلى فلاح العبد ونجاته في الدارين.

- 1 من ذلك بيوع الأجال وبيع السلم فلا بد من تحديد الوقت بعام معين أو شهر معين.
- 2 لحديث عبد الرزاق والحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً" فإن غم في أول رمضان عدنا شعبان ثلاثين يوماً وإن غم في آخر رمضان عدنا ثلاثين يوماً.
- 3 وشاهده في السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" .
- 4 قال القرطبي في تفسير هذه الآية: بيان أن ما لم يشرعه الله قرية ولا نذب إليه لا يصير قرية يتقرب بها إلى الله تعالى واستشهد بحديث أبي إسرائيل إذ نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مروه فليتكلم وليستظل وليقعد ولتم صومه" . فأبطل ما لم يكن قرية وصح ما هو قرية.

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ¹ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)}

شرح الكلمات:

{سَبِيلِ اللَّهِ}: الطريق الموصل إلى رضوانه وهو الإسلام، والمراد إعلاء كلمة الله.

{الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}: المشركون الذين يبدؤونكم بالقتال.

{وَلَا تَعْتَدُوا}3: لا تجاوزوا الحد فتقتلوا النساء والأطفال ومن اعتزل القتال.

{تَقِفْتُمُوهُمْ}: تمكنتم من قتالهم.

{وَالْفِتْنَةُ}: الشرك⁴.

{الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}: المراد به مكة والحرم من حولها.

{وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}: بأن لم يبق من يعبد غير الله تعالى.

{فَلَا عُدْوَانَ}: أي: لا اعتداء بالقتل والمحاربة إلا على الظالمين. أما من أسلم فلا يقاتل.

معنى الآيات:

هذه الآيات الثلاث: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } من أوائل ما نزل في شأن قتال المشركين

1 يقال رجل ثقف لقف، إذا كان محكماً لما يتناوله والمراد: اقتلوهم حيث تمكنتم من ذلك غالبين لهم قاهرين.

2 لقوله صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله". في الصحيح.

3 يدخل في هذا النهي كل محرم؛ كالميتة و تحريق الأشجار وقتل الحيوان لحديث في الصحيح: " اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع".

4 يصح تفسير الآية: بأن الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجعوكم بها إلى الكفر أشد من القتل أي: من قتل المؤمن.

وهي متضمنة الأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من يقاتلهم والكف عن يكف عنهم، وقال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي: في سبيل إعلاء كلمة الله ليعبد وحده. {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} ، واقتلوهم حيث تمكنتم منه، وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم أيها المهاجرون من دياركم، ولا تخرجوا من القتل، فإن فتنتهم للمؤمنين لحملهم على الكفر بالاضطهاد والتعذيب أشد من القتل: {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ 1 عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ} فلا تكونوا البادئين فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك القتل والإخراج الواقع منكم لهم يكون جزاء كل كافر يعتدي ويظلم. فإن انتهوا عن الشرك والكفر وأسلموا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم؛ لأن الله تعالى غفور رحيم.

أما الآية الرابعة (193) وهي قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} فهي مقررة لحكم سابقاتها، إذ فيها الأمر بقتال المشركين الذين قاتلوهم قتالاً يستمر حتى لا يبقى في مكة من يضطهد في دينه ويفتن فيه ويكون الدين كله لله فلا يعبد غيره، وقوله فإن انتهوا من الشرك بأن أسلموا ووجدوا فكفوا عنهم ولا تقاتلوهم، إذ لا عدوان 2 إلا على الظالمين وهم بعد إسلامهم ما أصبحوا ظالمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب قتال من يقاتل المسلمين، والكف عن يكف عن قتالهم، وهذا قبل نسخ هذه الآية.
- 2- حرمة الاعتداء في القتال بقتل الأطفال والشيوخ والنساء إلا أن يقاتلن.
- 3- حرمة القتال عند المسجد الحرام، أي مكة والحرم إلا أن يبدأ العدو بالقتال فيه فيقاتل.
- 4- الإسلام يجب ما قبله لقوله تعالى: {فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .
- 5- وجوب الجهاد وهو فرض كفاية ما وجد مؤمن يضطهد لإسلامه أو يفتن في دينه.

1 القول بأن هذه الآية محكمة أصح لأن دلالتها على ذلك واضحة وهو أن لا يقاتل في الحرم المكي وأن لا يبدأ به فإذا بدأ المشركون بقتال المؤمنين قاتلهم المؤمنون فيه، ويشهد لهذا حديث ابن عباس في الصحيح: "إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام لحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة". الحديث.

2 قتال من قاتل المسلمين لا يسمى عدواناً إلا من باب المشاكلة نحو: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} ، إذ الأولى حقاً سيئة، أما الثانية فإنها قصاص عادل وسميت سيئة مشاكلة في اللفظ.

(1/173)

{الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ 1 قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ 2 مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (194) وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ

وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195)

شرح الكلمات:

{الشَّهْرُ الْحَرَامُ} : الشهر المحرم القتال فيه والأشهر الحرم أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد. فالثلاثة هي القعدة والحجة ومحرم، والرابع الفرد: رجب.

الحرمات : جمع حرمة؛ كالشهر الحرام، والبلد الحرام، والإحرام.

{أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} : المتقون: هم المؤمنون الذين يتقون معاصي الله تعالى ومخالفة سنته في

الحياة وكونه تعالى معهم: يسددهم ويعينهم وينصرهم.

{النَّهْلُوكَةِ} : الهلكة والهلاك مثلها.

الإحسان : اتقان الطاعة وتخليصها من شوائب الشرك، وفعل الخير 3 أيضاً.

معنى الآيتين:

الآية الأولى (194) في سياق ما قبلها تشجع المؤمنين المعتدى عليهم على قتال أعدائهم وتعلمهم أن من قاتلهم في الشهر الحرام فليقاتلوه في الشهر الحرام، ومن قاتلهم في الحرم فليقاتلوه في الحرم، ومن قاتلهم وهم محرمون فليقاتلوه وهو محرم، وهكذا الحرمات قصاص

1 الحرمات: جمع حرمة، كالظلمات: جمع ظلمة، والحرمة: ما منع العبد من انتهاكه، والقصاص بمعنى المساواة هذه الآية لا خلاف بين العلماء في أنها أصل المماثلة في القصاص، فمن جرح جرح بمثل ما جرح، ومن قتل يقتل بمثل ما قتل به، اللهم إلا من قتل بزنا أو لواط فهذا قطعاً لا مماثلة فيه ولكن يقتل بالسيف.

2 لهذا الآية نظيرها وهو قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} وقوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} ، وهي بالنسبة إلى الأمة قد نسخت بآيات الجهاد، أما بالنسبة للأفراد فالجمهور على أن الفرد لا يعاقب بنفسه ولكن بواسطة الحاكم، ولكن يرى بعضهم كالإمام الشافعي: أن الفرد إذا لم يتوصل إلى أخذ حقه إلا بالمعاقبة فليُنظر إذا كان يمكنه أن يأخذ بقدر ما أخذ منه مساواة بلا زيادة فلا بأس أن يأخذ بشرط أن يأمن من نسبته إلى السرقة حتى لا يتعرض إلى إقامة الحد عليه.

3 فعل الخير يشمل مواساة الفقراء والمساكين وصلة نو الأرحام كما يشمل عدم الإساءة إلى المسيء بالعمو والصفح عنه فهو باب واسع.

(1/174)

بينهم ومساواة. ومن اعتدى عليهم فليعتدوا عليه مثل اعتدائه عليهم، وأمرهم بتقواه عز وجل وأعلمهم أنه معهم ما اتقوه بالتسديد والعون والنصر.

وأما الآية 1(195) فقد أمرهم بإنفاق المال للجهاد لإعداد العدة وتسيير السرايا ولمقاتلين ونهاهم أن يتركوا الإنفاق في سبيل الله الذي هو الجهاد فإنهم متى تركوا الإنفاق والجهاد كانوا كمن ألقى بيده في الهلاك، وذلك أن العدو المتربص بهم إذا رآهم قعدوا عن الجهاد غزاهم وقاتلهم وانتصر عليهم فهلكوا. كما أمرهم بالإحسان في أعمالهم كافة وإحسان الأعمال إتقانها وتجويدها، وتنقيتها من الخلل والفساد، وواعدهم إن هم أحسنوا أعمالهم بتأييدهم ونصرهم، فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن أحبه الله أكرمه ونصره وما أهانه ولا خذله.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- احترام الشهر الحرام وسائر الحرمات.
 - 2- جواز المقاصة والمجازاة لمن اعتدى بحيث يعامل بما عامل به سواء بسواء.
 - 3- رد الاعتداء والنيل من المعتدي الظالم البادي 2 بالظلم والاعتداء.
 - 4- معية الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى والإحسان.
 - 5- فضيلة الإحسان لحب الله تعالى للمحسنين.
- ﴿وَأْتَمُوا الْحَجَّ 3 وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

1 روي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: هذه الآية نزلت فينا معاشر الأنصار، وذلك أنه لما نصر الله رسوله وأظهر دينه قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، والإلقاء باليد في التهلكة: أن نقيم في أموالنا.

2 هذا ليس على بابه وإنما هو في المعتدي الكافر، أما المسلم فإن العفو عنه محمود ومطلوب أيضاً، قال تعالى: ﴿رَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال رسوله صلى الله عليه وسلم: "أدي الأمانة لمن اتتمتك ولا تخن من خانك".

3 الآية دليل على مشروعية العمرة وهي كذلك سنة واجبة، أما الحج فقد فرض بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وبالنسبة في حديث ابن عمر: "بني الإسلام على خمس" إذ فيه حج البيت والإجماع أيضاً.

(1/175)

الْهَدْيِ مَحَلَّةٌ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)}

شرح الكلمات:

{وَأَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} : فإتمامهما 1 أن يحرم بهما من الميقات وأن يأتي بأركانها وواجباتها على الوجه المطلوب من الشارع، وأن يخلص فيهما لله تعالى.

{فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ} : الحصر والإحصار 2 أن يعجز الحاج أو المعتمر عن إتمام حجه أو عمرته إما بعدو يصده عن دخول مكة أو مرض شديد لا يقدر معه على مواصلة السير إلى مكة 3.

{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} : أي فالواجب على من أحصر ما تيسر له من الهدى شاة أو بقرة أو بعير.

{وَلَا تَحْلِفُوا رُؤُوسِكُمْ} : لا يتحلل المحصر من إحرامه حتى يذبح ما تيسر له من الهدى فإن ذبح تحلل بطق رأسه.

{فَفِدْيَةٌ} : فالواجب هو فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

{فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ} : فمن أحرم بعمره في أشهر الحج وتحلل وبقي في مكة ينتظر الحج وحج فعلاً فالواجب ما استيسر من الهدى.

1 ومن إتمامها أن يخرج لهما لا لتجارة ولا غيرها فيخرج لهما لا غيرهما كما قال علي رضي الله عنه: "أن تحرم بهما من دويبة أهلك، والحج تمامه عرفة، والعمرة والسعي بعد الطواف والحلق أو التقصير".

2 ذهب مالك والشافعي إلى أن المحصر بمرض لا يحل له أن يتحلل بل عليه أن يبقى على إحرامه حتى يطوف ولو بعد عام، وذهب غيرهما إلى أن المريض الشديد المرض حكمه حكم المحصر بالعدو ينحر ويتحلل، وإن كان الحج فرضاً عليه القضاء، وإن كان نفلاً فلا قضاء عليه.

3 هذا إذا لم يشترط عند إحرامه، أما إذا اشترط بقوله عند إحرامه: "مطلي حيث حبستني" فإنه يتحلل ولا شيء عليه إلا ما كان من مالك فإنه لا يرى الإشتراط وهو محجوج بحديث ضباعة: "حجي واشترطي".

(1/176)

{فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ} : فمن تمتع بالعمرة ولم يجد هدياً لعجزه عنه، فالواجب صيام عشرة أيام ثلاثة في مكة وسبعة في بلده.

{ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} : أي ما وجب من الهدى أو الصيام عند العجز وهو لغير أهل الحرم أما سكان مكة والحرم 1 حولها وهم أهل الحرم فلا يجب عليهم شيء إن تمتعوا.

معنى الآية الكريمة:

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يتموا الحج والعمرة له سبحانه وتعالى فيأتوا بها على الوجه المطلوب وأن يريدوا بهما الله تعالى، ويخبرهم أنهم إذا أحصروا فلم يتمكنوا من إتمامها، فالواجب عليهم أن يذبحوا ما تيسر لهم، فإذا ذبحوا أو نحروا حلوا من إحرامهم، وذلك بحلق شعر رؤوسهم أو تقصيره، كما أعلمهم أن من كان منهم مريضاً أو به أذى من رأسه واضطر إلى حلق شعر رأسه أو لبس ثوب أو تغطية رأس، فالواجب بعد أن يفعل ذلك فدية وهي واحد من ثلاثة على التخيير: صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين حفتان 2 من طعام، أو ذبح شاة. كما أعلمهم أن من تمتع بالعمرة إلى الحج ولم يكن من سكان الحرم أن عليه ما استيسر من الهدى شاة أو بقرة أو بعير فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في الحج من أول شهر الحجة إلى يوم التاسع منه وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده. وأمرهم بتقواه عز وجل وهي امتثال أوامره والأخذ بتشريعه و حذرهم من إهمال أمره والاستخفاف بشرعه فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}

هداية الآية:

من هداية الآية:

1- وجوب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيهما بالإحرام من الميقات، وإن كان الحج 3 تطوعاً والعمرة غير واجبة.

- 1 المكي وساكن الحرم إن حصرا بمرض لا يحل لهما التحلل بذبح الهدى بل عليهما أن يحملا على نعش ويوقف بهما بعرفة ويطاف بهما وهما على النعش.
- 2 ويجزئ اليوم كيلو رز أو بر أو تمر لكل مسكين ولا يجوز إلقاء ذلك لحمام الحرم كما يفعل الجهال.
- 3 لقول الله تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} ، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} فمن شرع في عبادة يجب أن يتمها.

(1/177)

- 2- بيان حكم الإحصار 1، وهو ذبح شاة من مكان الإحصار ثم التحلل بالحلق أو التقصير، ثم القضاء من قابل إن تيسر ذلك للعبد، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى هو وأصحابه العمرة التي صدوا فيها عن المسجد الحرام عام الحديبية.
- 3- بيان فدية الأذى: وهي أن من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام بأن حلق أو لبس مخيطاً أو غطى رأسه لعذر وجب عليه فدية وهي صيام أو إطعام أو ذبح شاة.

4- بيان حكم التمتع²، وهو أن من كان من غير سكان مكة والحرم حولها إذا أحرم بعمره في أشهر الحج وتحلل منها وبقي في مكة وحج من عامه أن عليه ذبح 3 شاة فإن عجز صام ثلاثة أيام في مكة وسبعة في بلاده.

5- الأمر بالتقوى وهي طاعة الله تعالى بامتنال أمره واجتناب نهيهِ، والتحذير من تركها لما يترتب عليه من العقاب الشديد"

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَانْقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ

1 الواجب على المحصر أن يذبح هدي في الحرم وإن عجز ذبحه في مكان الإحصار، وإن عجز ذبحه حيث أمكنه وإن لم يجده لفقر صام عشرة أيام بدله، والواجب أن لا يتحلل إلا بعد نحر الهدي إن كان ذلك في مقدوره، هذا أوسط المذاهب في هذه المسألة الشائكة الكثيرة الآراء.

2 لا خلاف في جواز الإحرام بأي نسك من أنواع النسك الثلاثة إلا أن الأفراد لمن يعتمر في غير أشهر الحج ويحج من عامه أفضلها.

3 شاه الإحصار أولاً لا بد وأن تكون سليمة؛ كشاة الأضحية في سنها وسلامتها من العور والعرج والهزال والمرض.

4 روى البخاري عن ابن عباس قال: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: {وتزودوا....} " الآية، والزداد: التمر، والسويق يومئذ وهو ما يحتاجه الحاج من سائر أنواع الزاد.

(1/178)

لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)

شرح الكلمات:

{أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}: هي شوال والقعدة وعشر 1 ليال من الحجة هذه هي الأشهر التي يحرم فيها بالحج.

{فَرَضَ}: نوى الحج وأحرم به.

{فَلَا رَفَثَ}: الرفث: الجماع ومقدماته.

{وَلَا فُسُوقَ}: الفسوق والفسوق: الخروج عن طاعة الله بترك واجب أو فعل حرام.

الجدال : المخاصمة والمنازعة.

الجناح : الإثم.

{تَبَنُّوْا فُضْلًا} : تطلبوا ربحاً في التجارة من الحج.

{أَفْضُنْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ} : الإفاضة من عرفات تكون بعد الوقوف بعرفة يوم الحج وذلك بعد غروب

الشمس من يوم التاسع من شهر الحجة.

{الْمُشْعَرِ الْحَرَامِ} : مزدلفة وذكر الله تعالى عندها: هو صلاة المغرب والعشاء جمعاً بها وصلاة

الصبح.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان أحكام الحج والعمرة فأخبر تعالى أن الحج له أشهر 3 معلومة وهي شوال والقعدة وعشر ليال من الحجة فلا يحرم بالحج إلا فيها. وأن من أحرم بالحج يجب عليه أن يتجنب الرفث والفسق 4 والجدال 5 حتى لا يفسد حجه أو ينقص أجره، وانتدب الجاج

- 1 لو أحرم ليلة العاشر وهي ليلة العيد ووصل إلى عرفة ووقف بها قبل طلوع الفجر صح حجه.
- 2 يكره أن يحرم المسلم بالحج قبل أشهره، ولو أحرم صح إحرامه وعليه المضي فيه والأفضل له أن يتحلل بعمرة وإن بقي على إفراده كره له ذلك، وصح منه، هذا أرجح المذاهب في هذه المسألة.
- 3 لم يذكر أشهر الحج في الآية بالتعيين وذلك للعلم بها ولبيان الرسول صلى الله عليه وسلم لها، وقال أشهر وهي شهران وعشر ليال من باب التغليب.
- 4 أنه بتجنب هذه الثلاثة يكون حجه مبرور لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه، الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة". قالت العلماء: الحج المبرور: الذي لم يعص الله تعالى فيه وحف بفعل الخيرات.
- 5 الجدال: مأخوذ من الجدال الذي هو الفتل للحبل ونحوه، فالمجادل يريد أن يفتل رأي من يجادله أي يثنيه عنه ويرده عليه.

(1/179)

إلى فعل الخير من صدقة وغيرها فقال: { وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ } ولازمه أنه يثيب عليه ويجزي به. وأمر الحجاج أن يتزودوا لسفرهم في الحج بطعام وشراب يكفون به وجوههم عن السؤال فقال: وتزودوا، وأرشد إلى خير الزاد، وهو التقوى، ومن التقوى عدم سؤال الناس أموالهم والعبد غير محتاج وأمرهم بتقواه عز وجل، أي بالخوف منه حتى لا يعصوه في أمره ونهيه فقال: {وَأَتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} ، والله أحق أن يتقى؛ لأنه الواحد القهار، ثم أباح لهم الاتجار أثناء وجودهم في مكة

ومنى فقال: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} يريد رزقاً حلالاً بطريق التجارة المباحة، ثم أمرهم بذكر الله تعالى في مزدلفة بصلاة المغرب والعشاء والصبح فيها وذلك بعد إفاضتهم من عرفة بعد غروب الشمس فقال عز من قائل: {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ 1 عَرَافَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} ثم ذكرهم بنعمة هدايته لهم بعد الضلال الذي كانوا فيه وانتدبهم إلى شكره وذلك بالإكثار من ذكره فقال تعالى: {وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} ثم أمرهم بالمساواة في الوقوف بعرفة والإفاضة منها فليقفوا كلهم بعرفات، وليفيضوا جميعاً منها فقال عز وجل: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} ، وذلك أن الحمس² كانوا يفيضون من أدنى عرفات حتى ينجوا من الزحمة ويسلموا الحطمة. وأخيراً أمرهم باستغفار الله أي: طلب المغفرة منه ووعدهم بالمغفرة بقوله: {وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الرفث والفسوق والجدال في الإحرام.
- 2- استحباب فعل الخيرات للحاج أثناء حجه ليعظم أجره ويبر حجه.
- 3- إباحة الاتجار والعمل للحاج طلباً للرزق على أن لا يحج لأجل ذلك.
- 4- وجوب 3 المبيت بمزدلفة لذكر الله تعالى.

1 الإجماع على أن من وقف بعرفة قبل الزوال وخرج منها قبل الزوال إنه ما حج، أما من وقف بعد الزوال وخرج قبل غروب الشمس فالجمهور على صحة حجه، وعليه ذبح شاه وقال مالك: يبطل حجه. والله أعلم.

2 الحمس: جمع أحمس، من هو أشد تحمساً وحماسة لحماية الحرم وهم قريش ومن يمت إليهم بنسب وكانوا يقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقبطان بيته.

3 القول بركنية المبيت بمزدلفة قول شاذ لا يلتفت إليه، وأما الوجوب فمتأكد بالآية والحديث، والخروج منها بعد النزول بها بعد نصف الليل للعجزة والضعفة جائز بإذن الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو ثابت في السنن.

(1/180)

5- وجوب شكر الله تعالى بذكره وطاعته على هدايته وإنعامه.

6- وجوب المساواة في أداء مناسك الحج بين سائر الحاج فلا يتميز بعضهم عن بعض في أي شعيرة من شعائر الحج.

7- الترغيب في الاستغفار 1 والإكثار منه.

{فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ 2 أَبَاعَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنُ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنُ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً 3 وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202) وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)}

شرح الكلمات:

{قَضَيْتُمْ}: أديتم وفرغتم منها.

المناسك: جمع منسك وهي عبادات الحج المختلفة.

الخلق: الحظ والنصيب.

1 يسن الاستغفار ثلاثاً بعد كل صلاة فريضة لما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سلم من صلاته قال: "استغفر الله ثلاثاً" وسيد الاستغفار هو: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبو لك بنعمتك علي وأبو بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

2 الكاف: في محل نصب، أي ذكرا كذكركم فهي بمعنى مثل، وأو هنا للإضراب الانتقالي، أي بل اذكروه ذكراً أشد من ذكركم آبائكم.

3 روي عن علي رضي الله عنه إنه كان يقول: "حسنة الدنيا: المرأة الصالحة، وحسنة الآخرة: الحور العين، وقد لا يصح هذا عن علي، وما فسرنا به أعم وأشمل وأعظم.

(1/181)

{حَسَنَةً}: حسنة الدنيا: كل ما يسر ولا يضر من زوجة صالحة وولد صالح ورزق حلال وحسنة الآخرة النجاة من النار ودخول الجنان.

{وَقِنَا}: احفظنا ونجنا من عذاب النار.

{نَصِيبٌ}: حظ وقسط من أعمالهم الصالحة ودعائهم الصالح.

الأيام المعدودات 1: أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد.

{تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ}: رمى يوم الأول والثاني وسافر.

{وَمَن تَأَخَّرَ}: رمى الأيام الثلاثة كلها.

{فَلَا إِثْمَ}: أي لا ذنب في التعجل ولا في التأخر.

{لَمَنْ اتَّقَى}: للذي اتقى ربه بعدم ترك واجب أو جبهه أو فعل حرام حرمه.
{تُحْشَرُونَ}: تجمعون للحساب والجزاء يوم القيامة.

معنى الآيات:

بهذا الآيات الأربع انتهى الكلام على أحكام الحج، ففي الآية الأولى (200) يرشد تعالى المؤمنين إذا فرغوا من مناسكهم بأن رموا جمرة العقبة ونحروا وطافوا طواف الإفاضة، واستقروا بمنى للراحة والاستجمام أن يكثروا من ذكر الله تعالى عند رمي الجمرات، وعند الخروج من الصلوات ذكراً مبالغاً في الكثرة منه على النحو الذي كانوا في الجاهلية يذكرون فيه مفاخر آبائهم² وأحساب أجدادهم. وبين تعالى حالهم وهي أن منهم من همه الدنيا فهو لا يسأل الله تعالى إلا ما يهمله منها، وهذا كان عليه أكثر الحجاج في الجاهلية، وأن منهم من يسأل الله تعالى خير الدنيا والآخرة، وهم المؤمنون الموحدون فيقولون: {رَبَّنَا آتِنَا فِي 3 الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، وهذا متضمن تعليم المؤمنين وإرشادهم إلى هذا الدعاء الجامع والقصد الصالح النافع فله الحمد والمنة، وفي الآية (202) يخبر تعالى أن لأهل الدعاء الصالح وهم المؤمنون الموحدون نصيباً من الأجر على أعمالهم التي كسبوها في الدنيا،

1 روى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأيام المعدودات: أيام التشريق، والأيام المعلومات: أيام العشر من أول الحجة.

2 قال أهل العلم: إن عادة العرب في الجاهلية إنهم إذا قضوا حجهم وقفوا عند الجمرات يفاخرون بأبائهم حتى أن الرجل ليقول اللهم إن أبي كان عظيم القبة عظيم الجفنة كثير المال فأعطني مثل ما أعطيته، فلا يذكر غير أبيه.

3 هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمت الدنيا والآخرة وفي الصحيحين أن أنس بن مالك: قال كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} .

(1/182)

وهو تعالى سريع الحساب فيعجل لهم تقديم الثواب وهو الجنة، وفي الآية (203) يأمر تعالى عباده الحجاج المؤمنين بذكره تعالى في أيام التشريق عند رمي الجمار وبعد الصلوات الخمس قائلين: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد ثلاث مرات إلى عصر اليوم الثالث في أيام التشريق¹ ثم أخبرهم الله تعالى بأنه لا حرج على من تعجل السفر إلى أهله بعد رمي اليوم الثاني، كما لا حرج على من تأخر فرمى اليوم الثالث فقال تعالى: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ 2

عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} فالأمر على التخيير وقيد نفي الإثم بتقواه عز وجل فمن ترك واجباً أو فعل محرماً فإن عليه إثم معصيته ولا يظهره منها إلا التوبة ففي الإثم مقيد بالتعجل ودعاه فقط. فكان قوله تعالى لمن اتقى قيلاً جميلاً، ولذا أمرهم بتقواه عز وجل، ونبههم إلى مصيرهم الحتمي، وهو الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى، فليستعدوا لذلك بذكره وشكره والحرص على طاعته. هداية الآيات من هداية الآيات:

- 1- وجوب الذكر بمنى عند رمس الجمرات إذ يكبر مع كل حصة قائلاً: الله أكبر.
- 2- فضيلة الذكر 3 والرغبة فيه؛ لأنه من محاب الله تعالى.
- 3- فضيلة سؤال الله تعالى الخيرين وعدم الاقتصار على أحدهما، وشره الاقتصار على طلب الدنيا وحطامها.
- 4- فضيلة دعاء: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} . فهي جامعة للخيرين معاً، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا طاف بالبيت يختم بها كل شوط.
- 5- وجوب المبيت ثلاث ليال بمنى ووجوب الحمرات إذ بها يتأتى ذكر الله في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق.
- 6- الرخصة في التعجل لمن رمى اليوم الثاني.
- 7- الأمر بتقوى الله وذكر الحشر والحساب والجزاء، إذ هذا الذكر يساعد على تقوى الله عز وجل.

- 1 لقد رخص لمن لم يجد الهدي أن يصوم أيام التشريق بلا خلاف.
- 2 قيل أن هذا التخيير ونفي الإثم على المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي لأنه حذر متحرز من كل ما يريبه فرفع الإثم حتى لا يبقى في نفسه ما يؤلمه من التقديم والتأخير وهو وجه حسن للآية.
- 3 روى أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله". وروى مسلم أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم: "لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله".

(1/183)

لَوْ مَنَّ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)

شرح الكلمات:

{يُعْجِبُكَ} 1 : يروق لك وتستحسنه.

في الدنيا : إذا تحدث في أمور الدنيا.

{أَلْدُّ 2 الْخِصَامُ} : فوي الخصومة شديدها، لذاقة لسانه.

{تَوَلَّى} : رجع وانصرف، أو كانت له ولاية.

{الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ} : الحرث: الزرع، والنسل: الحيوان.

{أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ 3 بِالْإِثْمِ} : أخذته الحمية والأنف بذنوبه فهو لا يتقي الله.

{يَشْرِي نَفْسَهُ} : يبيع نفسه لله تعالى بالجهاد في سبيله بنفسه وماله.

معنى الآيات:

يخر تعالى رسوله والمؤمنين عن حال المنافقين، والمؤمنين الصادقين، فقال تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم: ومن الناس رجل منافق يحسن القول، وإذا قال يعجبك قوله لما عليه من طلاء

1 الإعجاب: إيجاد العجب في النفس، والعجب انفعال يعرض للنفس عند مشاهدة أمر غير مألوف خفي السبب.

2 الألد: لغة الأعوج والمنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق، ولا يستقيم وفي الحديث: "إذ خاصم فجر".

3 الأخذ: أخذ الشيء باليد، ويطلق ويراد به الاستيلاء على الشيء نحو: {خذوهم واحصروهم}، وأخذته الحمى والعزة: حال نفسية يرى صاحبها أنه لا يمانع فيما يفعل ويريد، وبالإثم: الباء للمصاحبة، أي: أخذته العزة مصاحبة للإثم كائنة معه، وهو احتراز من العزة المصاحبة لما هو محمود من الفعال؛ كالغضب لله تعالى.

(1/184)

ورونق، وذلك إذا تكلم في أمور الحياة الدنيا بخلاف أمور الآخرة فإنه يجهلها وليس له دافع ليقول فيها؛ لأنه كافر، و عندما يحدث يشهد الله أنه يعتقد ما يقول، فيقول للرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الله أنني مؤمن وأني أحبك، ويشهد الله أنني كذا... وإذا قام من مجلسك وانصرف عنك: {سَعَى 1 فِي الْأَرْضِ} أي: مشى فيها بالفساد ليهلك الحرث والنسل بارتكاب عظام الجرائم فيمنع المطر وتيبس المحاصيل الزراعية، وتمحل الأرض وتموت البهائم وينقطع النسل وعمله هذا مبغوض لله تعالى فلا يحبه ولا يحب فاعله. كما أخبر تعالى أن هذا المنافق إذا أمر بمعروف أو نهى عن منكر فقيل له اتق الله لا تفعل كذا أو اترك كذا تأخذه الأنفة والحمية بسبب ذنوبه التي هو متلبس بها فلا يتقي الله ولا يتوب إليه فيكفيه جزاء على نفاقه وشره وفساده جهنم يمتهدا فراساً لا يبرح منها أبداً،

ولبئس المهاد جهنم.

كما يخبر تعالى عن المؤمن الصادق فيقول من الناس رجل مؤمن صادق الإيمان باع نفسه وماله لله تعالى طلباً لمرضاته والحياة في جواره في الجنة دار السلام فقال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } رحيم بهم.

قيل: أن الرجل المنافق الذي تضمنت الحديث عنه الآيات الثلاثة الأولى: هو الأخنس² بن شريق، وأن الرجل المؤمن الذي تضمنت الحديث عنه الآية الرابعة (207) هو: صهيب بن سنان الرومي أبو يحيى، إذ المشركون لما علموا به أنه سيهاجر إلى المدينة ليلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قالوا: لن تذهب بنفسك ومالك لمحمد، فلن نسمح لك بالهجرة إلا إذا أعطيتنا مالك كله، فأعطاهم كل ما يملك وهاجر فلما وصل المدينة، وراه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: ربح البيع أبا يحيى ربح البيع. والآيات وإن نزلت في شأن الأخنس وصهيب فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالأخنس مثل سوء لكل من يتصف بصفاته، وصيب مثل الخير والكمال لكل من يتصف بصفاته.

1 السعي: المشي الحثيث، ويطلق على الكسب والعمل، قال تعالى: { وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } .

2 أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد روى ابن كثير عن نوف البكالي قوله: إن لا أجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل، قوم يحتالون على الدنيا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر يلبسون للناس نسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: "عليّ يجترئون وبي يغترون حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. وذكر: لومن الناس... الآية.

(1/185)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التحذير من الاغترار بفصاحة¹ وبيان الرجل إذا لم يكن من أهل الإيمان والإخلاص.
- 2- شر الناس من يفسد في الأرض بارتكاب الجرائم مما يسبب فساداً وهلاكاً للناس والمواشي.
- 3- قول الرجل يعلم الله، ويشهد الله يعتبر يميناً فليحذر المؤمن أن يقول ذلك وهو يعلم من نفسه أنه كاذب.
- 4- إذا قيل للمؤمن اتق الله يجب عليه أن لا يغضب أو يكره من أمره بالنقوى بل عليه أن يعترف

بذنبه ويستغفر الله تعالى ويقطع عن المعصية فوراً.

5- الترغيب في الجهاد بالنفس² والمال وجواز أن يخرج المسلم من كل ماله في سبيل الله تعالى ولا بعد ذلك إسرافاً ولا تبذيراً إذ الإسراف والتبذير في الإنفاق في المعاصي والذنوب.

{لَيَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (210)}

شرح الكلمات:

{السَّلْمُ} : الإسلام³.

1 يشهد له حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " أن من الشعر لحكمة وأن من البيان لسحراً" .

2 تأول عمر وعلي وابن عباس هذه الآية: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} فيمن يأمر أحداً بمعروف وينهاه عن منكر فتأخذه العزة بالإثم فيقاتل الواعظ له، فيبيع لله الواعظ نفسه ويقاتله.

3 روي أن حذيفة بن اليمان قال في هذه الآية: "الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر. وقد خاب من لا سهم له في الإسلام".

(1/186)

{كَافَّةً} 1 : جميعاً لا يتخلف عن الدخول في الإسلام² أحد، ولا يترك من شرائعه ولا من أحكامه شيء.

{خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ} : مسالكة في الدعوة إلى الباطل وتزيين الشر والقبح.

{فَإِنْ زَلَلْتُمْ} : وقعتم في الزلل³ وهو الفسق والمعاصي.

{الْبَيِّنَاتُ} : الحجج والبراهين.

{هَلْ يَنْظُرُونَ} : ما ينظرون: الاستفهام للنفي.

الظل : جمع ظلة: ما يظل من سحب أو شجر ونحوهما.

{الْعَمَامِ} : السحاب الرقيق الأبيض.

معنى الآيتين:

ينادي الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين آمراً إياهم بالدخول في الإسلام دخولاً شمولياً، بحيث لا يتخيرون بين شرائعه وأحكامه ما وافق مصالحهم وأهواءهم قبلوه وعملوا به، وما لم يوافق رده أو

تركوه وأهملوه، وإنما عليهم أن يقبلوا شرائع الإسلام وأحكامه كافة، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان في تحسين القبيح وتزيين المنكر، إذ هو الذي زين لبعض مؤمني أهل الكتاب تعظيم السبت وتحريم أكل الإبل بحجة أن هذا من دين الله الذي كان عليه صلحاء بني إسرائيل فنزلت هذه الآية فيهم تأمرهم وتأمّر سائر المؤمنين بقبول كافة شرائع الإسلام وأحكامه، وتحذّره من عاقبة اتباع الشيطان فإنها الهلاك التام وهو ما يريده الشيطان بحكم عداوته للإنسان. هذا ما تضمنته الآية (208)، أما الآية الثانية (209) فقد تضمنت أعظم تهديد وأشدّ وعيد لمن أزاله الشيطان فقبل بعض شرائع الإسلام ولم يقبل البعض الآخر، وقد عرف أن الإسلام حق، وشرائعه أحق فقال تعالى: ﴿قَائِنٌ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ يحملها كتاب الله القرآن ويبينها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله سينتقم

- 1 كافة: اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به، فقله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السُّلْمِ كَافَّةً﴾ ، أي: حتى لا يبقى مشروع ما يعمل به أو لا يبقى فرد لا يدخل فيه.
- 2 اختلف في تحديد معنى السلم في الآية، والراجح أنها بمعنى الإسلام ويكون الخطاب معنياً به بعض من آمن من أهل الكتاب وبقي متمسكاً ببعض شرائع التوراة؛ كتحرير يوم السبت، وتحريم شرب لبن الإبل، أمروا بالدخول في الإسلام كافة، أي: بقبول شرائعه كلها وترك شرائع غيره وتكون بمعنى الصلح وترك الحرب والتهاجر ويكون الخطاب للمسلمين عامة بترك التهاجر بينهم والتقاتل.
- 3 أصل الزلل: الزلق، وهو اضطراب القدم وتحركها في الموضع المراد إثباتها فيه، والمراد هنا عدم الثبات على طاعة الله ورسوله بفعل الأمر وترك النهي بتزيين الشيطان ذلك للبعد حتى يقع في الضرر.

(1/187)

منكم؛ لأنه تعالى غالب على أمره حكيم في تدبيره وإنجاز وعده ووعد، وأما الآية الثالثة (210) فقد تضمنت حث المتباطئين على الدخول في الإسلام، إذ لا عذر لهم في ذلك حيث قامت الحجة وظهرت ولاحت الحجة، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينظرون 1 {إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ} وعند ذلك يؤمنون، ومثل هذا الإيمان الاضطراري لا ينفع حيث يكون العذاب لزاماً. بقضاء الله العادل، قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وانتهى الأمر إليه فحكم وانتهى كل شيء، فعلى أولئك المتباطئين المترددين في الدخول في الإسلام المعبر عنه بالسلم؛ لأن الدخول فيه حقاً سلم، والخروج منه أو عدم الدخول فيه حقاً حرب عليهم أن يدخلوا في الإسلام ألا إلى الإسلام يا عباد الله! فإن السلم خير من الحرب!.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب 2 قبول شرائع الإسلام كافة وحرمة التخير فيها.
 - 2- ما من مستحل حراماً، أو تارك واجباً إلا وهو متبع للشيطان في ذلك.
 - 3- وجوب توقع العقوبة عند ظهور المعاصي العظام لئلا يكون أمن من مكر 3 الله.
 - 4- إثبات صفة المجيء للرب تعالى: لفصل القضاء يوم القيامة.
 - 5- حرمة التسويق والمماثلة في التوبة.
- لِسَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَزُرُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212){

- 1 الكلام صالح لأن يعود إلى من يعجب قوله ويقبح عمله في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...} الآية، وصالح لأن يعود إلى المترددين من أهل الكتاب لعدم خلوصهم في الإسلام كله، وصالح لأن يكون عائداً إلى كل متردد في الإسلام غير صادق في الدخول فيه إلى يوم القيامة، وهذا من إعجاز القرآن، وكونه كتاب هداية للناس كافة وفي كل زمان ومكان.
- 2 شاهده قوله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ} الآية.
- 3 إذ حصول الأمن لازمه الاستمرار على المعاصي وعدم التوبة، والله يقول: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

(1/188)

شرح الكلمات:

- {سَلِّ}: إسأل: سقطت منه الهمزتان للتخفيف.
- {بَنِي إِسْرَائِيلَ}: ذرية يعقوب بن إسحق بن إبراهيم وإسرائيل لقب يعقوب.
- {آيَةٍ}: خارقة للعادة؛ كعصا موسى تدل على أن من أعطاه الله تلك الآيات هو رسول الله حقاً.
- وآيات بني إسرائيل التي آتاهم الله تعالى منها فلق البحر لهم، وإنزال المن والسلوى في النبيه عليهم.
- {نِعْمَةً} 1 {اللَّهِ}: ما يهبه لعباده من خير يجلب له المسرة ويدفع عنه المضرة ونعم الله كثيرة.
- {يَسْحَرُونَ}: يحتقرون ويستهنئون.
- معنى الآيتين:

يأمر الله تعالى رسوله أن يسأل بني إسرائيل عن الآيات الكثيرة التي آتاهم الله، وكيف كفروا بها فلم

تتفعهم شيئاً، والمراد تسليته صلى الله عليه وسلم من الألم النفسي الذي يحصل له من عدم إيمان أهل الكتاب والمشركين به وبما جاء به من الهدى وضمن ذلك تقرير اليهود وتأييدهم على كفرهم بآيات الله وإصرارهم على عدم الدخول في الإسلام. ثم أخبر تعالى أن من يبذل نعمة الله التي هي الإسلام بالكفر به ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم فإن عقوبة الله تعالى تنزل به لا محالة في الدنيا أو في الآخرة لأن الله شديد العقاب².

هذا ما تضمنته الآية الأولى (211)، وأما الآية الثانية (212) فقد أخبر تعالى أن الشيطان زين للذين كفروا بالله ورسوله وشرائعه الحياة الدنيا فرغبوا فيها وعملوا لها وأصبحوا لم يروا غيرها، ولذلك سخروا من المؤمنين الزاهدين فيها لعلمهم بزوالها وقلة نفعها فلم يكرسوا كل جهدهم لجمعها والحصول عليها بل أقبلوا على طاعة ربهم وأنفقوا ما في أيدهم في سبيل الله طلباً لرضاه. كما أخبر أن المؤمنين المتقين سيجازيهم يوم القيامة خير الجزاء وأوفره فيسكنهم دار السلام في علبين، ويخزي أعدائهم الساخرين منهم وبهينهم فيسكنهم الدرك الأسفل من النار.

1 فسرت نعمة الله هنا: بالإسلام، وهو كذلك فإن الإسلام أكبر نعمة لما يجلبه من السعادة والكمال وما يدفعه من العقاب في الدارين.

2 جملة: {أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} خبرية متضمنة للوعيد ذيل بها الكلام، والعقاب من العقب كأن المعاقب يمشي بالمجازاة في أثار عقبه ليجزيه به.

(1/189)

وهو تعالى المنفضل ذو الإحسان إذا رزق يرزق بغير حساب وذلك لواسع فضله وعظيم ما عنده.
هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- التحذير من كفر النعم لما يترتب على ذلك من أليم العذاب وشديد العقاب ومن أجل النعم؛ نعمة الإسلام، فمن كفر به وأعرض عنه فقد تعرض لأشد العقوبات وأقساها وما حل ببني إسرائيل من ألوان الهون والدون دهنراً طويلاً شاهد قوي وما حل بالمسلمين يوم أعرضوا عن الإسلام واستبدلوا به الخرافات ثم القوانين الوضعية شاهد أكبر أيضاً.

2- التحذير من زينة الحياة الدنيا والرغبة فيها والجمع لها نسيان الدار الآخرة وترك العمل لها. فإن أبناء الدنيا اليوم يسخرون من أبناء الآخرة، ولكن أبناء الآخرة أهل الإيمان والتقوى يكونون يوم القيامة فوقهم درجات إذ هم في أعالي الجنان والآخرون في أسافل النيران.

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ

النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213){

1 الآية: ترغيب في طلب فضل الله تعالى وفي الحديث الصحيح: " يا ابن آدم أنفق أنفق عليك " ، وقال تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} ، وفي الصحيح أيضاً: "يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأبقيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس" .

(1/190)

شرح الكلمات:

{كَانَ النَّاسُ 1 أُمَّةً وَاحِدَةً} : كانوا قبل وجود الشرك فيهم أمة 2 واحدة على الإسلام والتوحيد وذلك قبل قوم نوح.

{النَّبِيِّينَ} : جمع نبي والمراد بهم الرسل إذ كل نبي 3 رسول بدليل رسالتهم القائمة على البشارة والندارة والمستمدة من كتب الله تعالى المنزلة عليهم.

{الْكِتَابِ} : اسم جنس يدخل فيه كل الكتب الإلهية.

{وَأُوتُوهُ} : أعطوه.

{النَّبِيَّاتُ} : الحجج والبراهين تحملها الرسل إليهم وتورثها فيهم شرائع وأحكاماً وهدايات عامة.

{بَغْيًا} 4 : البغي: الظلم والحسد.

الصراط المستقيم : الإسلام المفضي بصاحبه إلى السعادة والكمال في الحياتين.

معنى الآية الكريمة:

يخبر تعالى أن الناس 5 كانوا ما بين آدم ونوح عليهما السلام في فترة طويلة أمة واحدة على دين الإسلام لم يعبد بينهم إلا الله تعالى حتى زين الشيطان لبعضهم عبادة غير الله تعالى فكان الشرك والضلال فبعث الله تعالى لهدايتهم نوحاً عليه السلام فاختلفوا إلى مؤمن وكافر وموحد ومشرك، وتوالت الرسل تحمل كتب الله تعالى المتضمنة الحكم الفصل في كل ما يختلفون فيه. ثم أخبر تعالى عن سننه في الناس وهي أن الذين يختلفون في الكتاب، أي فيما

1 أي الذين كانوا على الدين الحق وهم عشرة قرون من آدم إلى أن حدث فيهم الشرك، فبعث الله تعالى فيهم عبده الشكور نوحاً عليه السلام.

2 لفظ: الأمة: مأخوذ من أمتت كذا إذا قصدته، فسميت الجماعة مقدسهم واحد أمة، وقد يطلق

على الواحد أمة، إذ كان مقصده واحداً على خلاف غيره، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في قس بن ساعدة: "يحشر يوم القيامة أمة وحده".

- 3 عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، والرسل منهم: ثلاثمائة وثلاثة عشر، هذا قول جمهور أهل السنة والجماعة، والرسل المذكورون بالاسم العلم في القرآن: خمسة وعشرون رسولاً، وأول الأنبياء: آدم، وأول الرسل: نوح، وخاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.
- 4 منصوب على المفعول لأجله، أي: لم يختلفوا إلا للبغي الذي هو الظلم الذي صار طبعاً لهم لكثرة ممارستهم له والحسد الذي ملأ قلوبهم فأكلها أو كاد والعياذ بالله.
- 5 لفظ: الناس: اسم جمع ليس له مفرد من لفظه، وإنما واحده من غير لفظه، وهو انسان، وآل فيه للاستغراق، أي: جميع أفرادها، أي: البشر كلهم.

(1/191)

يحيوه من الشرائع والأحكام هم الذين سبق أن أوتوه وجاءتهم البيئات فهؤلاء يحملهم الحسد وحب الرئاسة، والإبقاء على مصالحهم على عدم قبول ما جاء به الكتاب، واليهود هم المثل لهذه السنة، فإنهم أوتوا التوراة فيها حكم الله تعالى وجاءتهم البيئات على أيدي العابدين من أنبيائهم ورسولهم واختلوا في كثير من الشرائع والأحكام، وكان الحامل لهم على ذلك البغي والحسد. والعياذ بالله. وهدى الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما اختلف فيه أهل الكتابين اليهود والنصارى، فقال تعالى: {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}1} لما اختلف فيه أولئك المختلفون من الحق هداهم {بإذنه}2} ولطفه وتوفيقه، فله الحمد وله المنة. ومن ذلك الحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب من قبلنا وهدانا الله تعالى إليه:

- 1- الإيمان بعبسى عبد الله ورسوله حيث كفر بن اليهود وكذبوه واتهموه بالسحر وحاولوا قتله؟ وألَّهه النصارى، وجعلوه إلهاً مع الله، وقالوا فيه: إنه ابن الله. تعالى الله عن الصاحبة والولد.
- 2- يوم الجمعة وهو أفضل الأيام. أخذ اليهود السبت، والنصارى الأحد، وهدى الله تعالى إليه أمة الإسلام.

3- القبلة قبلة أبي الأنبياء إبراهيم استقبل اليهود بيت المقدس، واستقبل النصارى مطلع الشمس، وهدى الله أمة الإسلام إلى استقبال البيت العتيق؛ قبلة إبراهيم عليه السلام. والله يهدي من شاء إلى صراط مستقيم.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- الأصل هو التوحيد، والشرك طارئ على البشرية.

-
- 1 أي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهم المسلمون هداهم للإيمان بكل الكتب وسائر الرسل ونجاهم مما اختلف فيه من قبلهم، والحمد لله.
- 2 الإذن: الخطاب بإباحة الشيء، وهو مشتق من فعل أذن إذا أصغى إذنه يستمع إلى كلام من يكلمه ثم أطلق على الخطاب بالإباحة مطلقاً.

(1/192)

-
- 2- الأصل في مهمة الرسل البشارة¹ لمن آمن واتقى؟ والندارة لمن كفر وفجر، وقد يشرع لهم قتال من يقاتلهم فيقاتلونهم كما شرع ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 3- من علامات خذلان الأمة وتعرضها للخسار والدمار أن تختلف في كتابها ودينها، فيحرفون كلام الله ويبدلون شرائعه طلباً للرئاسة وجرياً وراء الأهواء والعصبيات، وهذا الذي تعاني منه أمة الإسلام اليوم وقبل اليوم، وكان سبب دمار بني إسرائيل.
- 4- أمة الإسلام التي تعيش على الكتاب والسنة عقيدة وعبادة وقضاء هي المعنية بقوله تعالى: { فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ } .
- 5- الهداية بيد الله فليطلب العبد دائماً الهداية من الله تعالى بسؤاله المتكرر أن يهديه دائماً إلى الحق.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} (214)

شرح الكلمات:

{أَمْ حَسِبْتُمْ} : أظننتم - أم هي المنقطعة فتفسر ببل والهمزة، والاستفهام إنكاري ينكر عليهم ظنهم هذا لأنه غير واقع موقعه.

{وَلَمَّا} : بمعنى لم النافية.

{مَثَلُ} : صفة وحال الذين من قبلكم.

-
- 1 البشارة: الإعلام بخير حصل أو سيحصل للمبشر به، والندارة: إعلام بشر أو ضر حصل أو سيحصل لمن أُنذر به، والبشارة: وعد، والندارة: وعيد.
- 2 في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من

تشاء إلى صراط مستقيم". والتوسل بهذا الدعاء نافع للخروج من ظلمة الاختلاف.
3 ومن الدعاء المأثور في ذلك: اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنفضل، واجعلنا للمتقين إماماً.
4 في الآية إشارة إلى مثل قول القائل: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم، ومن طلب العلا سهر الليالي، ومن يخطب الحسنة فلا يغله المهر".

(1/193)

{الْبِأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ}: البِأْسَاءُ: الشدة، من الحاجة وغيرها والضراء: المرض والجراحات والقتل.
{مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}: الاستبطاء للاستبطاء.

معنى الآية الكريمة:

ينكر تعالى على المؤمنين¹، وهم في أيام شدة ولأواء ظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون امتحان وابتلاء في النفس والمال بل وأن يصيبهم ما أصاب غيرهم من البِأْسَاءِ² والضراء والزلازل وهو الاضطراب والقلق من الأهوال حتى يقول الرسول والمؤمنون معه - استبطاءً للنصر الذي وعدوا به: متى نصر الله؟ فيجيبهم ربهم تعالى بقوله: {أَلَا إِنَّ نَصْرَ 3 اللَّهِ قَرِيبٌ}.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية:

- 1- الابتلاء بالتكاليف الشرعية، ومنها الجهاد بالنفس والمال ضروري لدخول الجنة.
- 2- الترغيب في الإتساء بالصالحين والافتداء بهم في العمل والصبر.
- 3- جواز الأعراض البشرية على الرسل كالقلق والاستبطاء للوعد الإلهي انتظاراً له.
- 4- بيان ما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من شدة وبلاء أيام الجهاد وحصار المشركين لهم.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (215)

1 ما من شك في أن المؤمنين وعلى رأسهم وقائدهم وإمامهم ورسولهم محمد صلى الله عليه وسلم قد مستهم البِأْسَاءُ والضراء في ظروف مختلفة منها: هجرتهم وحروبهم في بدر وأحد والخندق وغيرها، والآية تعنى كل ذلك وهو من مقتضيات النزول لهذه الآية.

2 وعن السلف تفسير البِأْسَاءِ بالفقر، والضراء بالنقم، والزلازل بالخوف من الأعداء، إذ الخوف يحدث اضطراب النفس وحركة الأعضاء.

3 وفي هذا المعنى حديث أبي رزين: "عجب ربك من قنوت عباده وقرب غيئه فينظر إليهم قانطين فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب" وحديث صحيح: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون".

(1/194)

شرح الكلمات:

{مِنْ خَيْرٍ} : من مال إذ المال يطلق عليه لفظ الخير .

الأقربين : كالأخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم والأخوال والخالات وأولادهم.

{وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ 1} : ما شرطية، ومن: نيايية والخير هنا لسائر أنواع البر والإحسان.

{فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} : الجملة علة لجواب الشرط المحذوف والمقدر يثبكم عليه.

معنى الآية الكريمة:

سال عمر و بن الجموح وكان ذا مال. سأل2 رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماذا ينفق وعلى من ينفق؟. فنزلت الآية جواباً لسؤاله، فبينت أن ما ينفق هو المال وسائر الخيرات وأن الأحق بالإنفاق عليهم هم الوالدان3، والأقربون، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأعلمهم تعالى أن ما يفعله العبد من خير يعلمه الله تعالى ويجزي به فرغب بذلك في فعل الخير مطلقاً.

هداية الآية الكريمة:

من هداية الآية:

1- سؤال من لا يعلم حتى يعلم، و هذا طريق العلم، ولذا قالوا: "السؤال نصف العلم".

2- أفضلية الإنفاق على المذكورين4 في الآية إن كان المنفق غنياً وهم فقراء محتاجون.

3- الترغيب في فعل الخير والوعد من الله تعالى بالجزاء الأوفى عليه.

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

1 الآية في نفقة التطوع وقوله: {من خير} إشارة إلى أن ما ينفق يجب أن يكون طيباً لا خبيثاً، إذ

لفظ الخير يدل على ذلك ويرمز له: {من خير}.

2 وقيل الآية نزلت فيمن سألوا من المسلمين عن الوجوه التي ينفقون فيها فأجابهم الله تعالى مبيناً لهم ذلك، وما ذهبنا إليه أن السائل عمرو بن الجموح وسؤاله عما ينفق من أنواع المال، وفيما ينفق أولى وألصق.

3 لحديث صحيح في بيان من أحق بالإنفاق عليه: "أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أذنك أذنك" أي: الأقرب إليك فالأقرب.

4 روى أن ميمون بن مهران تلا هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...} الآية، وقال: هذا مواضع النفقة ما ذكر فيها طبعاً ولا مزمراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الشيطان.

(1/195)

شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)}
شرح الكلمات:

{كُتِبَ}: فرض فرضاً مؤكداً حتى لأنه مكتوب كتابة.

{الْقِتَالُ}: قال الكافرون بجهادهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

{كُرْهُ}: مكروه في نفوسكم طبعاً.

عَسَى: هذا الفعل معناه الترجي والتوقع أعني أن ما دخلت عليه مرجو الحصول متوقع لا على سبيل الجزم، إلا أنها إن كانت من الله تعالى تفيد اليقين.
معنى الآية الكريمة:

يخبر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بأنه فرض عليهم قتال المشركين والكافرين وهم يعلم أنه مكروه لهم بطبعهم لما فيه من الآلام والأتعاب وإضاعة المال والنفوس، وأخبرهم أن ما يكرهونه قد يكون خيراً، وأن ما يحبونه قد يكون شراً²، ومن ذلك الجهاد فإنه مكروه لهم وهو خير لهم لما فيه من عزتهم ونصرتهم ونصره دينهم مع حسن الثواب وعظم الجزاء في الدار الآخرة، كما أن ترك الجهاد محبوب لهم وهو شر لهم؛ لأنه يشجع عدوهم على قتالهم واستباحة بيضتهم، وانتهاك حرمان دينهم مع سوء الجزاء في الدار الآخرة. وهذا الذي أخبرهم تعالى به من حبهم لأشياء وهي شر لهم وكرهيتهم لأشياء وهي خير لهم هو كما أخبر لعلم الله به قبل خلقه، والله يعلم وهم لا يعلمون فيجب التسليم لله تعالى في أمره وشرعه مع حب ما أمر به وما شرعه واعتقاد أنه خير لا شر فيه.

1 قرئت الآية: {وكتب عليكم القتلى} وقراءة القتال أشهر وأظهر، والفرق بين القتلى والقتال ظاهر، وجاء كلا اللفظين في قول عمرو بن ربيعة:

كتب القتلى والقتال علينا ... وعلى الغنائيات جر الذبول

2 قال القرطبي: كما اتفق في بلاد الأندلس تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار فاستولى العدو على البلاد وأسر وقتل وسب واسترق فإن لله وإنا إليه راجعون. ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته، وأنشد لأبي سعيد الضرير قوله شاهداً لمعنى الآية الكريمة:
رب امرء تتقيه ... جر أمراً ترتضيه

خفي المحبوب منه ...
ويدا المكروه فيه

(1/196)

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية:

- 1- وجوب الجهاد على أمة الإسلام ما بقيت فتنة في الأرض وشرك فيها.
 - 2- جهل الإنسان بالعواقب يجعله يحب المكروه، ويكره المحبوب.
 - 3- أوامر الله كلها خير، ونواهيه كلها شر. فلذا يجب فعل أوامره واجتناب نواهيه.
- {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)}

شرح الكلمات:

{الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ}: أي المحرم: قتال بدل اشتغال من الحرام، إذ السؤال عن القتال في الشهر الحرام (رجب).

{كَبِيرٌ}: أي ذنب عظيم.

{وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}: صرف عن دين الله.

1 المراد بالأوامر: ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان رسوله من المعتقدات والعبادات والأحكام، ومن النواهي ما نهى الله عنه في كتابه وعلى لسانه رسوله من المعتقدات الباطلة والعبادات المبتدعة والأحكام الفاسدة.

(1/197)

{وَكُفْرٌ بِهِ}: كفر بالله تعالى.

{وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}: مكة والمسجد الحرام فيها.

{أَهْلِهِ} : النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون.

{أَكْبَرُ} : أعظم وزراً.

{وَأَفْتِنَتْهُ} : الشرك واضطهاد المؤمنين ليكفروا.

{حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} 1 : بطل أجرها فلا يثابون عليها لردتهم.

{هَاجَرُوا} : تركوا ديارهم خوف الفتنة والاضطهاد في ذات الله.

معنى الآيتين:

لما أخبر تعالى أنه كتب على المؤمنين القتال أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة يتعرف على أحوال الكفار. فشاء الله تعالى أن يلقي عبد الله ورجاله غيراً لقريش فقاتلوهم فقتلوا منهم رجلاً يدعى عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين وأخذوا العير وقفلوا راجعين وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الثانية، وهي أول ليلة من رجب. فتارت نائرة قريش وقالت: محمد يحل الشهر الحرام بالقتال فيه، وردد صوتها اليهود، والمنافقون بالمدينة حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف العير والأسيرين ولم يقض فيهما بشيء، وتعرض عبد الله بن جحش ورفاقه لنقد ولوم عظيمين من أكثر الناس، وما زال الأمر كذلك حتى أنزل الله تعالى هاتين الآيتين {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} أي: عن القتال فيه، أجبهم يا رسولنا وقل لهم القتال فيه وزر كبير بيد أن الصد عن دين الله والكفر به تعالى، وكذا الصد عن المسجد الحرام، وإخراج الرسول منه والمؤمنين وهم أهله وولاته بحق أعظم وزراً في حكم الله تعالى، كما أن شرك المشركين في الحرم وفتنة المؤمنين فيه لإرجاعهم عنه دينهم الحق إلى الكفر بشتى أنواع التعذيب أعظم من القتل في الشهر الحرام. مضافاً إلى كل هذا عزمهم على قتال المؤمنين إلى أن يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. ثم أخبر تعالى المؤمنين محذراً إياهم من الارتداد مهما كان العذاب أن من يرتد عن دينه ولم يتب بأن مات كافراً فإن

1 إن وفاهم الموت على ذلك أما إن تابوا وماتوا على الإسلام ففي إثباتهم على أعمالهم قبل الردة

خلاف انظره على الصفحة التالية تحت رقم 1.

2 هذا كان قبيل نسخ حرمة القتال في الشهر الحرام.

(1/198)

أعماله الصالحة كلها 1 تبطل ويصبح من أهل النار الخالدين فيها أبداً. هذا ما تضمنته الآية الأولى، أما الآية الثانية (218) {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا} فقد نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه طمأنهم الله تعالى على أنهم غير آثمين لقتالهم في الشهر الحرام كما شنع عليهم الناس

بذلك، وأنه يرجون رحمة الله أي الجنة وأنه تعالى غفور لذنوبهم رحيم بهم، وذلك لإيمانهم وهجرتهم
وجهادهم في سبيل الله، وقال تعالى فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ يَرْجُونَ 3 رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام.
- 2- نسخ القتال في الشهر الحرام بدليل قتال الرسول صلى الله عليه وسلم هوأزن وثقيف في شوال وأول القعدة وهما في الأشهر الحرم.
- 3- الكشف عن نفسية الكافرين وهي عزمهم الدائم على قتال المسلمين إلى أن يردوهم عن الإسلام ويخرجوهم منه.
- 4- الردة4 محبطة للعمل فإن تاب المرتد5 يستأنف العمل من جديد، وإن مات قبل التوبة فهو من أهل النار الخالدين فيها أبداً.
- 5- بيان فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله.

1 على هذا مالك وأبو حنيفة خلافاً للشافعي إذ يرى رحمه الله تعالى أن من ارتدد ثم تاب يعود إليه كل عمل صالح عمله قبل الردة فلا يعيد الحج إذا حج، والراجع ما قررناه في التفسير إذ أقل ما يقال عليه إعادة الحج طمعاً في مغفرة ذنوبه وعدم مؤاخذاته، أما من مات كافراً فالإجماع على خلوده في النار، ودليل الجمهور قوله تعالى: {لَنْ أَسْرُكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} الآية، وحمله الشافعي على أنه مطلق مقيد بأية الموت على الكفر فما دام لم يمت كافراً فإن أعماله قبل الردة لا تبطل، والله أعلم.

2 نقل فعل هجر الشيء إذا تركه إلى هاجر، وهي صيغة المفاعلة إما أنه للمبالغة في الترك كما قيل عافاك الله، والمعافي واحد وهو الله تعالى، وأما لأنه ترك شيئاً عن عداوة ولا تكون إلا بين اثنين، فقيل: هاجر، والمكان المهاجر منه يقال له: مهاجر.

3 الرجاء: ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله.

4 اختلف في المرتد هل يستتاب أو يقتل بالردة فوراً والجمهور على أنه يستتاب أولاً فإن أصر قتل ومالك يرى أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم لا يستتاب ويقتل واستشهد بالمرأة التي قتلت خادمها بسب النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرت الرسول صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليها، وكذلك الزنديق يقتل ولا يستتاب.

5 الأصل في قتل المرتد حديث صحيح: "من بدل دينه فاقتلوه" واختلف في قتل المرأة إذا ارتددت الجمهور إنها لا تقتل لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والأطفال في الحرب.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)}

شرح الكلمات:

{الْخَمْرُ 1}: كل ما خامر العقل وغطاه فأصبح شاربه لا يميز ولا يعقل، ويطلق لفظ الخمر على عصير العنب أو التمر أو الشعير وغيرها.

الميسر 2: القمار، وسمي ميسراً؛ لأن صاحبه ينال المال ببسر وسهولة.

الإثم 3: كل ضار فاسد يضر بالنفس أو العقل أو البدن أو المال أو العرض.

المنافع 4: جمع منفعة، وهي ما يسر ولا يضر من سائر الأقوال والأفعال والمواد.

{الْعَفْوُ}: العفو هنا: ما فضل وزاد عن حاجة الإنسان من المال.

{تَتَفَكَّرُونَ}: فتعرفون ما ينفع في كل منهما فتعملون لدينكم ما يصلحها، وتعملون لآخرتكم ما يسعدكم فيها، وينجيكم من عذابها.

{تُخَالِطُوهُمْ}: تخلطون مالمهم مع مالكم ليكون سواء.

{لَأَغْنَيْنَاكُمْ}: العنت: المشقة الشديدة، يقال: أعنته إذا كلفه مشقة شديدة.

1 الخمر: مأخوذ من خمر الشيء إذا ستره وغطاه، ومنه خمار المرأة التي يغطي رأسها، وفي الحديث: "خمروا الإناء" أي: غطوه، والخمر تطلق أساساً على ماء العنب إذا على أو طبخ ثم أطلقت على كل ما خمر العقل وغطاه من سائر المسكرات.

2 الميسر: مأخوذ من اليسر، وهو: وجوب الشيء لصاحبه، يقال: يسر لي كذا، إذا وجب شرط - والمضارع: يبسر يسراً وميسراً، وهو القمار، وسواء كان بالإزلام، أو النرد، أو الكعاب، أو الجوز، أو الكيرم.

3 والخمر كلها إثم، إذ ما فيها كله ضرر، وقد سماها العرب: الإثم، قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذلك الإثم يذهب بالعقول

4 والنفع الذي هو الربح إذ كانوا يشترونها من الشام بالرخص ويبيعونها بالغلاء في ديارهم كان في الجاهلية، إما بعد ما حرمها الله تعالى وحرم بيعها فلم يبقى فيها نفع البينة.

معنى الآيتين:

كان العرب في الجاهلية يشربون الخمر ويقامرون وجاء الإسلام فبدأ دعوتهم إلى التوحيد والإيمان بالبعث الآخر، إذ هما الباعث القوي على الاستقامة في الحياة، ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم والعديد من أصحابه وأصبحت المدينة تمثل مجتمعاً إسلامياً وأخذت الأحكام تنزل شيئاً فشيئاً فحدث يوماً أن صلى أحد الصحابة بجماعة وهو ثملان فخط في القراءة فنزلت آية النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فكانوا لا يشربونها إلا في أوقات معينة، وهنا كثرت التساؤلات حول شرب الخمر فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فترك الكثير 1 كلاً من شرب الخمر ولعب القمار لهذه الآية. وبقي آخرون فكان عمر يتطلع إلى منعها منعاً باتاً ويقول: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً" فاستجاب الله تعالى له، ونزلت آية المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال عمر: "انتهينا ربنا" وبذلك حرمت الخمر وحرم الميسر تحريماً قطعياً كاملاً، ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم حد الخمر وهو الجلد. وحذر من شربها وسماها أم الخبائث وقال: "مدمن الخمر لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكّيه" في ثلاثة نفر وهم: العاق لوالديه، ومسبل إزاره، ومدمن الخمر.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ 2 وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فهو كما قال تعالى فقد بين في سورة المائدة منشأ الإثم، وهو أنهما يسببان العداوة والبغضاء بين المسلمين ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، وأي إثم أكبر في زرع العداوة والبغضاء بين أفراد المسلمين، والإعراض عن ذكر الله، وتضييع الصلاة حقاً إن فيهما لإثماً كبيراً، وأما المنافع فهي إلى جانب هذا الإثم قليلة ومنها: الريح في تجارة الخمر وصنعها، وما تكسب شاربها من النشوة والفرح والسخاء والشجاعة، وأما الميسر فمن منافعه الحصول على المال بلا كد ولا تعب وانتفاع بعض الفقراء به، إذ كانوا يقامرون على الجزور من الإبل ثم يذبح ويعطى للفقراء والمساكين.

1 يرى كثير من المفسرين أن آية البقرة هذه نزلت قبل آية النساء وما رجحته في التفسير أولى، لأن آية البقرة تعتبر محرمة للخمر والميسر بخلاف آية النساء.

2 لما كان تحريم الخمر تدريجياً كان من الحكمة ذكر ما كانوا يرونه من المنافع في الاتجار بها وشربها وكذا منافع الميسر إذ كانوا يعطون ما يريحونه للفقراء، وحسبهم وهم المؤمنون صرفاً لهم عن الخمر والميسر قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، وإذا زادت المضرة على المنفعة بطل العمل عقلاً وشرعاً.

أما قوله تعالى في الآية: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} فهو سؤال نشأ عن استجابتهم لقول الله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فأرادوا أن يعرفوا الجزء الذي ينفقونه من أموالهم في سبيل الله. فأجابهم الله تبارك وتعالى بقوله: {قُلِ الْعَفْوَ} أي: ما زاد على حاجتكم وفضل عن نفقتكم على أنفسكم. ومن هنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى" رواه البخاري. وقوله: {كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} أي: مثل هذا البيان يبين الله لكم الشرائع والأحكام والحلال ليعدكم بذلك إلى التفكير الواعي البصير في أمر الدنيا والآخرة فتعملون لدنياكم على حسب حاجتكم إليها وتعملون لآخرتكم التي مردكم إليها وبقاؤكم فيها على حسب ذلك. وهذا ما تضمنته الآية الأولى (219)، أما الآية الثانية (220): {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} الآية، فإنه لما نزل قوله تعالى من سورة النساء: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا} خاف المؤمنون والمؤمنات من هذا الوعيد الشديد، وفصل من كان في بيته يتيم يكفله، فصل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، وحصل بذلك عنت ومشقة كبيرة وتساءلوا عن المخرج، فنزلت هذه الآية، وبيئت لهم أن المقصود هو إصلاح مال اليتامى وليس هو فصله أو خطئه، فقال تعالى: {قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ...} مع الخلط خير من الفصل مع عدم الإصلاح، ودفع الحرج في الخلط فقال: {وَأَنْ تَخَالِطُوهُمْ} 1 {فَإِخْوَانُكُمْ} ، والأخ يخالط أخاه في ماله، وأعلمهم أنه تعالى يعلم المفسد لمال اليتيم من المصلح له ليكونوا دائماً على حذر، وكل هذا حماية لمال اليتيم الذي فقد والده. ثم زاد الله في منته عليهم برفع الحرج في المخالطة فقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَاعْتَنَتَكُمْ} 2 أي: أبقاكم في المشقة المترتبة على فصل أموالكم عن أموال يتاماكم، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي غالب على ما يريد حكيم فيما يفعله ويقضي به.

1 {فإخوانكم} : الفاء واقعة في جواب إن الشرطية، وإخوانكم: خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: فهم إخوانكم.

2 مفعول المشيئة محذوف كما هو الغالب فيه، والتقدير: ولو شاء الله عننتكم لأعننتكم، أي: كلفكم ما فيه العنت والمشقة، ولكنه لم يفعل رحمة بكم ولطفاً بآلكم.

(1/202)

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- حرمة الخمر والميسر حيث نسخت هذه الآية بآية المائدة، لقوله تعالى فيها: {فاجتنبوه} وقوله {فهل أنتم منتهون} .

2- بيان أفضل صدقة التطوع وهي ما كانت عن ظهر غنى وهو 2 العفو في هذه الآية.

3- استحباب التفكير في أمر الدنيا والآخرة لإعطاء الأولى بقدر فوائدها والآخرة بحسب بقائها.

4- جواز خلط مال اليتيم بما كافله إذا كان أريح له وأوفر، وهو معنى الإصلاح في الآية.

5- حرمة مال اليتيم، والتحذير من المساس به وخطئه إذا كان يسبب نقصاً فيه أو إفساداً.

{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)}

شرح الكلمات:

{وَلَا تَنْكِحُوا} : لا تتزوجوا.

الأمّة : خلاف الحرّة.

{وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ} : أي أعجبكم حسناتها وجمالها.

{يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} : بحالهم ومقالهم وأفعالهم.

{آيَاتِهِ} : أحكام دينه ومسائل شرعه.

1 أن كل مسكر داخل في إثم الخمر، وقليله ككثيره في الحرمة سواء بإجماع الأمة، وكل أنواع

الميسر ولو اختلفت المسميات؛ كاليانصيب وغيرها محرمة.

2 شاهده حديث مسلم: "ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك فإن فضل شيء عن

أهلك فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا" أي: تصدق به على الفقراء

والمساكين.

(1/203)

معنى الآية الكريمة:

ينهى الله تعالى المؤمنين أن يتزوجوا المشركات إلا أن يؤمن بالله ورسوله، فإن أذن نكاحهن،

وأعلمهم منفراً من نكاح المشركات مرغياً في نكاح المؤمنات: ولأمة مؤمنة فضلاً عن حرة خير من

حرة مشركة، ولو أعجبكم المشركة لحسنها وجمالها، كما نهاهم محرماً عليهم أن يزوجوا المؤمنات

بالمشركين حتى يؤمنوا، فإن آمنوا جاز لهم أن ينكحوهم بناتهم ونساءهم فقال تعالى: {وَلَا تُنْكِحُوا

الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا} وقال منفراً مرغياً ولعبد مؤمن خير من حرٍ مشرك ولو أعجبهم المشرك

لشرفه أو ماله أو سلطانه، وعلل لذلك بقوله: {أولئك} أي المشركات والمشركون يدعون إلى النار فمخالطتهم مضرة ومفسدة لا سيما بالتزوج منهم، والله عز وجل يدعو إلى الجنة بالإيمان والعمل الصالح، وإلى المغفرة بالتوبة الصادقة. فاستجيبوا له وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه. كما أنه تعالى يبين آياته للناس ليعدهم للتذكر والاتعاظ فيقبلون على طاعته الموصلة إلى رضاه والجنة، ويبعدون عن معصيته المؤدية إلى سخطه والنار.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية:

- 1- حرمة نكاح المشركات، أما الكتابيات فقد أباحهن الله تعالى بآية المائدة، إذ قال: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ 1 مِنْ قَبْلِكُمْ} .
- 2- حرمة نكاح المؤمنة الكافر مطلقاً 2 مشركاً كان أو كتابياً.
- 3- شرط الولاية في نكاح المرأة لقوله تعالى: {وَلَا تُنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ} فهو هنا يخاطب أولياء النساء المؤمنات، ولذا لا يصح نكاح إلا بولي 3.
- 4- التنفير من مخالطة المشركين والترغيب في البعد عنهم؛ لأنهم يدعون إلى الكفر بحالهم ومقالهم وأعمالهم، وبذلك هم يدعون إلى النار.

- 1 الخلاف في حرمة نكاح الكتابيات ضئيل ولا وزن له، وإن كان عدم التزوج بهن أفضل وأسلم، وهذا في الذميات، أما الحريات فلا يجوز نكاحهن، وعلى هذا مالك، وقد سئل ابن عباس عن نكاح الحربية الكتابية، فقال: لا تحل.
- 2 شاهده من القرآن قوله تعالى: {لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ} الممتحنة.
- 3 لحديث: "لا نكاح إلا بولي" وحديث أبي داود: "أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل" وهو حديث صحيح. والولي: عصابة المرأة الأقرب فالأقرب فإن لم يكونوا فالسلطان ولي من لا ولي لها. ومن أركان النكاح الإشهاد عليه بشاهدين فأكثر وعليه الجمهور.

(1/204)

- 5- وجوب مولاة أهل الإيمان ومعاداة أهل الكفر والضلال؛ لأن الأولين يدعون إلى الجنة، والآخرين يدعون إلى النار.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (222) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (223)

شرح الكلمات:

{المَحِيضِ 1} : مكان الحيض وزمنه، والحيض: دم يخرج من رحم المرأة إذا خلا من الجنين.

{أذى} : ضرر يضر المجامع في أيامه.

{فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ} : اتركوا جماعهن 2 أيام الحيض.

{وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} : أي: لا تجامعهن حتى ينقطع دم 3 حيضهن.

{فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} : إي: إذا انقطع دم حيضهن واغتسلن منه.

1 يطلق على الحيض أيضاً لأنه مصدر حاضت المرأة حيضة ومحاضاً ومحيضاً، فهي حائض، وقد يقال: حائضة، وعليه قول الشاعر:

كحائضة يزني بها غير طاهر

والحيضة: المرأة الواحدة، والحيضة بكسر الحاء: الإثم، والحيضة أيضاً: الخرقه تستنفر بها الحائض. قالت عائشة: يا ليتني كنت حيضة ملقاة، واشتقاق الكلمة من السيلان ومنعه الحوض لأن الماء يسيل إليه.

2 الجمهور على أن من وطأ امرأته في الحيض لا كفارة عليه، وإنما عليه التوبة والاستغفار، وضعفوا حديث: "الكفارة بنصف دينار أو دينار" لاضطرابه، وبه قال أحمد وعمل به.

3 أجمع العلماء على أن للمرأة ثلاثة أحكام في رؤيتها الدم السائل من فرجها: فإن كان أسود غائراً تعلوه حمرة فذلك الحيض، ويحرم عليها الصوم والصلاة ويحرم وطئها، وتقضي الصوم ولا تقضي الصلاة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وأكثر الحيض خمسة عشر يوماً، وأقله لا حد له على الصحيح، وأقل الطهر أيضاً خمسة عشر يوماً ليكمل الشهر حيضاً وطهراً، وإن كان الدم زائداً على مدة الحيض فهو الاستحاضة وتصلي معه وتصوم وتوطأ أيضاً. والحكم الثالث: دم النفاس وأكثره أربعين يوماً، وأقله يوم وليلة وحكمه حكم الحيض.

(1/205)

{فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ} : أي: جامعهن في قبلهن، وهن طاهرات متطهرات 1.

{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ} : يريد مكان إنجاب الأولاد، فشبّه النساء بالحرث؛ لأن الأرض إذا حرثت أنبت الزرع، والمرأة إذا وطئت أنبت الولد بإذن الله تعالى.

{فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} : إن جماع المرأة مقبلة أو مدبرة إذا كان في القبل الذي هو منبت الزرع، وهي طاهرة من الحيض والنفاس.

{وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ} : يريد الأعمال الصالحة، ومنها إرادة تحصين النفس والزوجة بالجماع وإرادة

انجاب الأولاد الصالحين الذين يوحدون الله ويدعون لوالديهم طوال حياتهم.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى رسوله بأن بعض المؤمنين² عن الحيض هل تساكن المرأة معه وتؤاكل وتشارب أو تهجر بالكلية حتى تطهر إذ كان هذا من عادة أهل الجاهلية، وأمره أن يقول لهم: الحيض أذى يضر بالرجل المواقف فيه، وعليه فليعتزلوا النساء الحيض في الجماع فقط لا في المعاشرة والمأكلة والمشاركة، وإنما في الجماع فقط أيام سيلان الدم بل لا بأس بمباشرة الحائض في غير ما بين السرة والركبة، للحديث الصحيح في هذا كما أكد هذا المنع بقوله لهم: {وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ} 3 أي: لا تجامعوهن حتى يطهرن بإنقطاع دمهن والاعتسال بعده لقوله: {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} أي: اغتسلن، {فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} بإتيانهن وهو القبل لا الدبر فإنه محرم وأعلمهم تعالى أنه يحب التوابين من الذنوب المتطهرين من النجاسات والأقذار، فليتوبوا وليتطهروا ليفوزوا بحب مولاهم عز وجل هذا معنى الآية الأولى(222) أما الآية الثانية(223) وهي قوله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} فهي تضمنت جواب سؤال هو هل يجوز جماع المرأة مدبرة بأن يأتيها الرجل من ورائها إذ حصل هذا السؤال من بعضهم فعلاً، فأخبر تعالى

1 هل الزوجة الكتابية يحبرها زوجها أن تغتسل من الحيض والنفاس؟ أرى أن يأمرها مرغياً لها في ذلك وليس عليه إجبارها لأنه لا إكراه في الدين. وهي غير متعبدة به.

2 روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ} الآية.

3 إذا قيل لا تقرب بفتح الراء معناها لا تتلبث بالشيء، وإن قيل: لا تقرب فمعناها: لا تدنوا، ولذا جاز للزوج أن يقرب من زوجته الحائض أو النفساء ويباشرها من غير الفرج.

(1/206)

أنه لا مانع من ذلك إذا كان في القبل، وكانت المرأة طاهرة من دمي الحيض والنفاس، وسمى المرأة حرثاً؛ لأن رحمها ينبت فيه الولد كما ينبت الزرع في الأرض الطيبة وما دام الأمر كذلك فيأت الرجل امرأته كما شاء مقبلة أو مدبرة إذ المقصود حاصل وهو الإحصان وطلب الولد.

فقوله تعالى: {أَنَّىٰ سَنُتُّمُ} يريد على أي حال من إقبال أو إدبار ستنتم شرط أن يكون ذلك في القبل لا في الدبر 1. ثم وعظ تعالى عباده بقوله: {وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ} من الخير ما ينفعكم في آخرتكم واعلموا أنكم ملاقوا الله تعالى فلا تغفلوا عن ذكره وطاعته، إذ هذا هو الزاد الذي ينفعكم يوم تقفون بين يدي

ريكم. وأخيراً أمر رسوله أن يبشر المؤمنين بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما من كان إيمانه صحيحاً
مثمراً التقوى والعمل الصالح.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- حرمة الجماع أثناء الحيض والنفاس لما فيه من الضرر، ولقوله تعالى: { فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي
الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ } .

2- حرمة وطء المرأة إذا انقطع دم حيضها أو نفاسها ولم تغتسل، لقوله تعالى: { فَإِذَا تَطَهَّرْنَ
فَأْتُوهُنَّ } .

3- حرمة 2 نكاح المرأة في دبرها لقوله تعالى: { فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ } وهو القبل.

4- وجوب التطهير من الذنوب بالتوبة، والتطهير من الأقدار والنجاسات بالماء.

5- وجوب تقديم ما أمكن من العمل الصالح ليكون زاد المسلم إلى الدار الآخرة لقوله تعالى: { وَوَقِّدُوا
لِأَنْفُسِكُمْ } .

6- وجوب تقوى الله تعالى بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر.

7- بشرى الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لكل مؤمن 3 ومؤمنة.

1 وذلك لتحريم وطء المرأة في دبرها للآية الكريمة وللأحاديث الصحاح وما أكثرها ومنها قوله صلى
الله عليه وسلم: "أيها الناس إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن" ، وقوله صلى
الله عليه وسلم: "من أتى امرأة في دبرها لم ينظر الله إليه يوم القيامة" وور: تلك اللوطية الصغرى.
2 تقدمت الأحاديث المحرمة لنكاح المرأة في دبرها ذات رقم 1 في هذه الصفحة.
3 أي: صادق الإيمان كما تقدم وعلامة صدقه أن يحركه للعمل الصالح ويحملة على ترك الشرك
والمعاصي.

(1/207)

{وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً 2 لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ 3 تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224) لَا
يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ
مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ لِلَّهِ عَفْوَ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ لِلَّهِ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227)}

شرح الكلمات:

العرضة : ما يوضع مانعاً من شيء، واليمين يحلفها المؤمن أن لا يفعل خيراً.

الأيمان : جمع يمين، نحو: والله لا أفعل كذا أو والله لأفعلن كذا.

البرور : الطاعة وفعل البر.

اللغو : الباطل، وما لا خير فيه. ولغو اليمين أن يحلف العبد على الشيء يظنه كذا فيتبين خلافه،

أو ما يجري على لسانه من أيمان من غير أرادة الحلف.

{كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} : ما تعمد القلب وقصد اليمين لأجله لفعله حتماً أو منعه.

{يُؤْلُونَ} : الإيلاء4: الحلف على عدم وطء الزوجة.

التربص : الانتظار والتمهل.

{فَاعُوا} : رجعوا إلى وطء نسائهم بعد الامتناع عنه باليمين.

{الطَّلَاق} : فك رابطة الزوجية وحلها بقوله: هي طالق أو مطلقة أو طلقتك.

1 قيل نزلت الآية في أبي بكر الصديق لما حلف أن لا ينفق على ابن خالته مسطح، لأنه خاض

في الإفك، وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم خنته بشير بن النعمان.

2 العرضة: ما ينصب في الطريق مانعاً، فيعترض طريق السائرين وأصبح يطلق على كل ما يوضع

أمام الناس، يقال: فلان أصبح عرضة للناس. أي: يقعون فيه، ويقال: المرأة عرضة للنكاح، أي: إذا

بلغت فهي أمام أنظار الرجال.

3 {أن تبروا} أصلها: أن لا تبروا فحذفت لا كما حذفت في {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا} أي: أن لا

تضلوا، وحذفها للتخفيف ولظهور المعنى المراد.

4 يقال: ألى يولي إيلاء، وائتلى وائتلي يأتلي ائتلاء، وتألَى تألياً إذا حلف على كذا، والإيلاء جائز

لتأديب الأزواج ولكن لا يصل أربعة أشهر فقد ألى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه شهراً

تأديباً لهن.

(1/208)

معنى الآيات:

ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يجعلوا الحلف به مانعاً من فعل الخير، وذلك كأن يحلف

العبد أن لا يتصدق على فلان أو أن لا يكلم فلاناً أو أن لا يصلح بين اثنين فقال تعالى: {وَلَا

تَجْعَلُوا اللَّهَ يُرِيدُ الحلف به عرضة لأيمانكم1، أي: مانعاً لكم من فعل خير أو ترك إثم أو إصلاح

بين الناس. وأخبرهم أنه سميع لأقوالهم عليهم بنياتهم وأفعالهم فليتقوه عز وجل.

ثم أخبرهم أنه تعالى لا يؤاخذهم باللغو2 في أيمانهم وهو أن يحلف الرجل على الشيء يظنه كذا

فيظهر على خلاف ما ظن، أو أن يجري على لسانه ما لا يقصده من الحلف كقوله: لا، والله، بل

والله، فهذا مما عفا عنه لعباده فلا إثم فيه ولا كفارة تجب فيه. لكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم من الإثم، وذلك كأن يحلف المرء كاذباً ليأخذ حق أخيه المسلم بيمينه الكاذبة فهذه هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار وهذه لا تنفع فيها الكفارة الموضوعية لمن حلف على أن لا يفعل ثم حنث، وإنما على صاحب اليمين الغموس التوبة بتكذيب نفسه والاعتراف بذنبه ورد الحق الذي أخذه بيمينه الفاجرة إلى صاحبه وبذلك يغفر الله تعالى له ويرحمه، والله غفور رحيم. وبمناسبة ذكر اليمين ذكر تعالى حكم من يولي من امرأته أي يحلف أن لا يطأها فأخبر تعالى أن على المولي تربص أربعة أشهر، فإن فاء إلى امرأته أي رجع إلى وطنها فيها ونعمت، وعليه أن يكفر عن يمينه، وإن لم يفيء إلى وطنها وأصر على ذلك فإن على القاضي أن يوفقه أمامه ويطالبه بالفيء فإن أبى طلقها عليه.

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما ارتكبوه من الذنب في حق نسائهم ويرحمهم لتوبتهم. وإن عزموا 3 الطلاق بأن أبوا أن يفئوا طلقوا، والله سميع لأقوالهم عليهم بما في قلوبهم. فليحذروه بعدم فعل ما يكره، وترك فعل ما يجب.

- 1 الإيمان جمع يمين وهو الحلف، وسمي الحلف يميناً أخذاً من اليمين؛ لأن عادة العرب إذا حلف أحدهم للآخر وضع يده اليمنى على يده اليمنى، ويقال أعطاه يميناً إذا حلف له مؤكداً حلفه بوضع يده اليمنى على يد صاحبه اليمنى.
- 2 اللغو: مصدر لغى يلغو لغواً. إذا قال كلاماً خطأ وباطلاً، ولذا المؤمنون إذا سمعوا اللغو أعرضوا ولم يلتفتوا إليه ولم يأبهوا له ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللّٰغُوِ مُعْرِضُونَ﴾ .
- 3 عزم الطلاق: هو التصميم عليه فإن لم يفئوا فقد وجب عليهم الطلاق وعليه فالمولى بين خير النظرين، وهما الفيء أو الطلاق.

(1/209)

هداية الآيات:

- 1- كراهية منع الخير بسبب اليمين، وعليه فمن حلف أن لا يفعل خيراً فليكفر عن يمينه وليفعل الخير لحديث الصحيح: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير" .
- 2- لغو اليمين معفو عنها ولها صورتان: الأولى: أن يجري على لسانه لفظ اليمين وهو لا يريد أن يحلف نحو لا والله، وبلى والله، والثانية: أن يحلف على شيء يظنه كذا فيتبين خلافه، مثل أن يقول:

والله ما في جيبي درهم ولا دينار وهو ظان أو جازم أنه ليس في جيبه شيء من ذلك ثم يجده فهذه صورة لغو اليمين.

3- اليمين المؤاخذ عليها العبد هي: أن يحلف متعمداً الكذب قاصداً له من أجل الحصول على منفعة دنيوية وهي المقصودة بقوله تعالى: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} وتسمى باليمين الغموس، واليمين الفاجرة.

4- اليمين التي تجب فيها الكفارة هي التي يحلف فيها العبد أن يفعل كذا ويعجز فلا يفعل، أو يحلف أن لا يفعل كذا ثم يضطر ويفعل، ولم يقل أثناء حلفه إن شاء الله، والكفارة مبينة في آية المائدة وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم أو تحرير رقبة فإن لم يجد صام ثلاثة أيام.

5- بيان حكم الإيلاء، وهو أن يحلف الرجل أن لا يطأ امرأته مدة فإن كانت أقل من 1 أربعة أشهر فله أن لا يحنث نفسه ويستمر ممتنعاً عن الوطء، إلى أن تنتهي مدة الحلف إلا أن الأفضل أن يطأ ويكفر عن 2 يمينه، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر فإن عليه أن يفئ إلى زوجته أو تطلق عليه وإن كان ساخطاً غير راض.

{وَالْمُطَلَّاتُ 3 يَتَرَبَّصْنَ

1 ما السر في الأربعة أشهر؟ يبدو أنه ثلث السنة، والثلث كثير كما في حديث سعد في الوصية، ويؤيد هذا ما أجراه عمر رضي الله عنه من سؤال النساء عن مدى صبر المرأة على زوجها. فقلن شهران، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر وينفذ في أربعة أشهر. فأمر قواد الأجناد أن لا يمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر.

2 لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير".

3 {والمطلقات} الجملة خبرية ومعناها الإنشاء وهو الأمر بالتريص ثلاثة قروء، وهذا خاص بالحرائر، أما الإماء فيتريص قرأين لا غير، ثبت هذا بالسنة الصحيحة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "طلاق الأمة تطليقتان وقرءها حيضتان".

(1/210)

بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ
عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(228)

شرح الكلمات:

{وَالْمُطَلَّاتُ}: جمع مطلقه وهي المرأة تسوء عشرتها فيطلقها زوجها أو القاضي.
{يَتَرَبَّصْنَ}: ينتظرن.

{قُرُوءٍ}: القرء: إما مدة الطهر، أو مدة الحيض.

{مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}: من الأجنة فلا يحل للمطلة أن تكتم ذلك.

{وَيُعُولْتُهُنَّ}: أزواجهن واحد البعولة: بعل؛ كفحل ونخل.

{يَرُدَّهِنَّ فِي ذَلِكَ}: أي: في مدة التربص والانتظار.

{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلِيَهُنَّ}: يريد على الزوجة حقوق لزوجها، ولها حقوق على زوجها.

{وَالرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}: هي درجة القوامه¹ أن الرجل شرعاً هو القيم على المرأة.

معنى الآية الكريمة:

بمناسبة طلاق المؤلّي إن أصر على عدم الفيئة ذكر تعالى في هذه الآية: {وَالْمُطَلَّاتُ²} إلخ. أن على المطلقة التي تحيض أن تنتظر، فلا تتعرض للزواج³ مدة ثلاثة أقرء فإن انتهت المدة ولم يراجعها

زوجها فلها أن تتزوج، وهذا الانتظار يسمى عدة، وهي واجبة مفروضة عليها لحق زوجها، إذ له الحق أن يراجعها⁴ فيها، وهذا معنى قوله تعالى في الآية: {وَيُعُولْتُهُنَّ أَحَقُّ

1 لفظ الدرجة دال على علو المنزلة وهو كذلك، وهو ظاهر في أنه يحميها، ويصونها وينفق عليها وتجب طاعته عليها، كما أن هناك فضلاً الخلق والكسب والعمل؛ كالجهاد وشهود الجمعة والجماعات.

2 المطلقات: جنس يشتمل كل مطلقة ويخرج من لا تحيض لصغر سن أو كبر بدليل الكتاب من سورة الطلاق.

3 القرء: لفظ مشترك بين الحيض والطهر، ولذا ذهب مالك إلى أن القرء: الطهر، فجعل العدة ثلاثة أطهار، ورجحه قوله تعالى: {فَطَلُّوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} وهو أول الطهر، وذهب غيره إلى أن القرء: الحيض، والكل جائز وواسع والحمد لله، إلى أن الاعتداد بالإطهار أرفق بالمطلقة إذ تكون المدة أقصر لأنها تطلق في طهر لم يجامعها فيه الزوج فيبقى عليها طهران فقط.

4 جعل الله تعالى مدة العدة رحمة بالزوجين، إذ قد تحدث لهما ندامة فيتراجعان بلا كلفة، قال تعالى من سورة الطلاق: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} ، أي: المراجعة، وللرجعية النفقة على الزوج، لأنها محبوسة من أجله ولا يجوز له أن يستمتع بها لا بالنظر ولا غيره، ولو و طئها بدون نية مراجعة إثم ولا حد عليه للشبهة.

بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا}.

كما أن على المطلقة أن لا تكتنم الحيض بأن تقول: ما حضت إلا حيضة أو حيضتين وهي حاضت ثلاثاً تريد بذلك الرجعة لزوجها، ولا تقول حضت ثلاثاً وهي لم تحض من أجل أن لا ترجع إلى زوجها، ولا تكتنم الحمل كذلك حتى إذا تزوجت من آخر تنسب إليه الولد وهو ليس بولده، وهذا من كبائر الذنوب. ولذا قال تعالى: {وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ} ، يريد من حيض وحمل إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وقوله تعالى: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ} يريد الزوج أحق بزوجه المطلقة ما دامت في عدتها وعلى شرط أن لا يريد بإرجاعها المضارة بها بل لا بد وأن يريد برجعته الإصلاح وطيب العشرة بينهما وهذا ظاهر قوله تعالى: {إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} ، وعلى المطلقة أن تتوي برجوعها إلى زوجها الإصلاح أيضاً.

ثم أخبر تعالى أن للزوجة من الحقوق على زوجها، مثل ما للزوج عليها من حقوق فقال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} وأخبر أن للرجل على المرأة درجة لم ترقها المرأة ولم تكن لها وهي القيومية المفهومة من قوله تعالى من سورة النساء: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} وختمت الآية بجملة: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} إشعاراً بوجوب تنفيذ هذه التعاليم لعزة الله تعالى وحكمته فإن الغالب يجب أن يطاع والحكيم يجب أن يسلم له في شرعه؛ لأنه صالح نافع غير ضار.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- بيان عدة المطلقة إذا كانت تحيض وهو التريص ثلاثة حيض أو أطهار.
- 2- حرمة كتمان المطلقة حيضاً أو حملاً خلقه الله تعالى في رحمها، ولأي غرض كان.
- 3- أحقية الزوج بالرجعة من مطلقته إذا لم تنقض عدتها، حتى قبل الرجعية زوجة بدليل أنها لو ماتت يرثها زوجها ولو مات ترثه. وأنه لا يحل أن تخطب أو تتزوج ما دامت في عدتها.
- 4- إثبات حقوق كل من الزوجين على صاحبه.

1 معنى أحق في قوله: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ} أن المطلقة لها حق أن لا ترجع والزوج له حق أن يراجعها متى شاء فكان هناك حقان أقواهما حق الزوج. أو يقال: اسم التفضيل هنا ليس على بابه، والأول أظهر لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الأيم أحق بنفسها" .

2 من الحقوق المتبادلة بين الزوجين أن يتزين كل منهما لصاحبه بما يكون زينة عرفية لهما مما هو مباح.

5- تقرير سيادة الرجل على المرأة لما وهبه الله من ميزات 1 الرجولة المفقودة في المرأة.
{الطَّلَاقُ 2 مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)}

شرح الكلمات:

{الطَّلَاقُ 3}: الاسم من طلق وهو أن يقول لزوجته: أنت طالق أو طلقتك.
{مَرَّتَانِ 4}: يطلقها، ثم يردها، ثم يطلقها ثم يردها. أي يملك الزوج الإرجاع في طلقتين أما إن طلق الثالثة فلا يملك ذلك ولا ترجع حتى تنكح زوجاً غيره.
{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}: حسن العشرة فإن خافت المرأة أو خاف الزوج أن لا يؤدي حقوق الزوجية جاز الفداء وهو دفع مال للزوج ليخلي سبيل المرأة تذهب حيث شاءت، ويسمى هذا خلعاً.
{حُدُودَ اللَّهِ}: ما يجب أن ينتهي إليه العبد من طاعة الله ولا يتجاوزه.

- 1 تقدم ذكر بعضها في الصفحة قبل ذي تحت رقم 4.
- 2 كان الطلاق في الجاهلية وبرهة من الزمن في الإسلام ليس له حد فقد يطلق الرجل امرأته عشرات المرات حتى إن رجلاً قال لامرأته لا أويك ولا أدعك تحلين. قالت وكيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا مضي عدتك راجعتك، فشكت ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية: {الطلاق مرتان} إلخ.
- 3 الطلاق شرعاً: هو حل العصمة المنعقدة بين الزوجين بألفاظ مخصوصة منها: أنت طالق. والطلاق مباح لرفع الضرر عن أحد الزوجين أو عن كليهما.
- 4 روى الدارقطني، عن أنس: أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى: {الطلاق مرتان} فلما صار ثلاثاً؟". قال: {فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} هي الثالثة.

الظالم : المتجاوز لما حد الله تعالى، والظلم وضع الشيء في غير موضعه.
معنى الآية الكريمة:
ما زال السياق في بيان أحكام الطلاق فيقرر تعالى في هذه الآية أن الطلاق الذي يملك الزوج

الرجعة فيه هو طلقان: أولى، وثانية فقط، ومن هنا فمن طلق الثانية فهو بين خيارين؛ إما أن يمسك زوجته بمعروف، أو يطلقها بإحسان فإن يطلقها فلا تحل له حتى تتكح زوجاً غيره، هذا معنى قوله تعالى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ} لأي يحسن العشرة وهو أداء ما للزوج من حقوق، أو تسريح أي تطليق بإحسان بأن يعطيها باقي صداقها إن كان، ويمتعه بشيء من المال ولا يذكرها بسوء.

وقوله تعالى: {وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ 1 أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا} : حرم تعالى على الزوج أن يأخذ من مهر زوجته شيئاً بدون رضاها، إلا في حال واحدة وهي إذا كرهت المرأة الزوج ولم تطق البقاء معه، وهو غير ظالم لها في هذه الحال يجوز أن تعطي الزوج مالاً ويطلقها ويسمى هذا خلعاً، وهو 2 حلال على الزوج غير الظالم، وهذا معنى: {فَإِنْ خِفْتُمْ 3 أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} وهي هنا المعاشرة الحسنة فلا جناح أي لا إثم فميا فدت 3 به نفسها فلها أن تعطي المال للزوج وله أن يأخذ منها مقابل تركها وحل عصمة الزوجية بينهما.

وقوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ 4} يريد أحكام شرعه فلا يحل تجاوز الحلال إلى الحرام، ولا تجاوز الإحسان إلى الإساءة ولا المعروف إلى المنكر ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، عرضها للعذاب، وما ينبغي له ذلك.

- 1 الخطاب هنا للأزواج وفي قوله: {فَإِنْ خِفْتُمْ 3 أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} للحكام وولاية الأمور.
- 2 لا خلاف في أن المخالغ منها بائنة لا يملك الزوج رجعتها في العدة، وهل يعتبر الخلع طلاقاً أو فسخاً. الراجح أنه طلاق فتعتد المخالغ منها عدة الطلاق ثلاثة قروء.
- 3 أما ما كان من الفدية مثل المهر أو أقل فلا خلاف فيه، أي: في جوازه، وأما ما كان أكثر من المهر ففيه خلاف. والراجح على أنه جائز ولكنه منافع لمكارم الأخلاق.
- 4 القصر في جملة: {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ، قصر حقيقي. إذ كل ظالم متعد لحدود الله.

(1/214)

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- حرمة الطلاق الثلاث 1 بلفظ واحد؛ لأن الله تعالى قال: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ}.
- 2- المطلقة ثلاث طلاقات لا تحل لزوجها حتى تتكح زوجاً غيره 2 ويطلقها أو يموت عنها.
- 3- مشروعية الخلع وهو أن تكره المرأة البقاء مع زوجها فتخلع نفسها منه بمال تعطيها إياه عوضاً عما أنفق عليها في الزواج بها.

4- وجوب الوقوف عند حدود الله وحرمة تعديها.

5- تحريم الظلم وهو ثلاثة أنواع: ظلم الشرك وهذا لا يغفر للعبد إلا بالتوبة منه، وظلم العبد لأخيه الإنسان وهذا لا بد من التحلل منه، وظلم العبد لنفسه بتعدي حد من حدود الله وهذا أمره إلى الله إن شاء غفره وإن شاء واخذ به.

{فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَّخِجَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)}

شرح الكلمات:

{فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ} : الطلقة الثالثة فلا تحل له إلا بعد أن تتخج زوجاً غيره.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} : أي لا إثم ولا حرج عليهما في الزواج من جديد.

{أَنْ يَتَرَاجَعَا} : أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعقد جديد وبشرط أن يظنا إقامة حدود الله فيهما، وإلا فلا يجوز نكاحهما.

معنى الآية الكريمة:

يقول تعالى مبيناً حكم من طلق امرأته الطلقة الثالثة: فإن طلقها فلا تحل له حتى تتخج زوجاً غيره، ويكون النكاح صحيحاً ويبني بها الزوج الثاني لحديث: "حتى تدوق عسيلته

1 وهو الطلاق البدعي، والجمهور على أنه يقع ثلاثة وخلاف الجمهور يقولون: طلاق بدعي ويقع واحدة، ودليلهم الآية: {الطلاق مرتان}، {وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} والطلاق بلفظ الثلاث ليس فيه مرتان ولا إقراء، فلذا هو بدعي ولا تبين المطلقة به، بل هي مطلقة واحدة لا غير. 2 لا يحل لامرء أن يتزوج مطلقة ثلاثاً ليحلها لزوجها لعن الرسول صلى الله عليه وسلم من يفعل ذلك في قوله: "لعن الله المحلل والمحلل له". وسماه: بالتيس المستعار.

(1/215)

ويدوق عسيلتك" ، فإن طلقها الثاني بعد البناء و الخلوة والوطء أو مات عنها جاز لها أن تعود إلى الأول إن رغب هو في ذلك وعلمنا من أنفسهما أنهما يقيمان حدود الله فيهما بإعطاء كل واحد حقوق صاحبه 1 مع حسن العشرة وإلا فلا مراجعة تحل لهما. ولذا قال تعالى: {إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} ثم نوه الله تعالى بشأن تلك الحدود فقال: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} وهي شرائعه، بينهما سبحانه وتعالى لقوم يعلمون 2، إذ العالمون بها هم الذين يقفون عندها ولا يتعدونها فيسلمون من وصمه الظلم وعقوبة الظالمين.

هداية الآية

من هداية الآية:

1- المطلقة ثلاثاً لا تحل لمطلقها 3 إلا بشرطين: الأول: أن تتكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً، ويبني بها ويبطأها. والثاني: أن يغلب على ظن كل منهما أن العشرة بينهما تطيب وأن لا يتكرر ذلك الاعتداء الذي أدى إلى الطلاق ثلاث مرات.

2- موت الزوج الثاني كطلاقه تصح معه الرجعة إلى الزوج الأول بشرطه.

3- إن تزوجت المطلقة ثلاثاً بنية التمرد على الزوج حتى يطلقها لتعود إلى الأول فلا يحلها هذا النكاح لأجل التحليل، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أبطله وقال: "لعن الله المحلل والمحلل له" ويسمى بالتيس المستعار، ذلك الذي يتزوج المطلقة ثلاثاً بقصد أن يحلها لأول.

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَتَّعِنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُومًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231)}

1 ذهب بعض الفقهاء إلى أن ليس على الزوجة عمل لزوجها ولا حق له عليها إلا في الاستمتاع بها، وهو قول وإه يرده ما كان عليه بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه وأزواج أصحابه، إذ كن يطحن ويغسلن ويطبخن ويقمن بعمل المنزل ويأمرن بذلك بل ويضرن إن قصرن فيه.

2 أي الذين يفهمون الأحكام فهماً يهيئهم للعمل بها وبإدراك مصالحها فلا يتحيلون في فهمها ليتكروا العمل بها.

3 اختلف فيمن طلقت طليقة أو طلقتين ثم تزوجت ومات زوجها وطلقها ورجعت إلى زوجها الأول، فهل النكاح الجديد يهدم السابق أو تبقى على ما كانت عليه؟. الجمهور على أنها تبقى على ما كانت عليه من طليقة أو طليقتين.

(1/216)

شرح الكلمات:

{أَجَلَهُنَّ}: أجل المطلقة مقارنة 1 انتهاء أيام عدتها.

{أَوْ سَرِّحُوهُنَّ}: تسريح المطلقة تركها بلا مراجعة لها حتى تنقضي عدتها وتبين من زوجها.

{ضِرَارًا}: مضارة لها وإضراراً بها.

{لِيَتَّعِنَدُوا}: لتتجاوزوا حد الإحسان إلى الإساءة.

{هُزُومًا}: لعباً بها بعدم التزامكم بتطبيق أحكامها.

{نِعْمَتَ اللَّهِ}: هنا هي الإسلام.

{وَالْحِكْمَةُ 3}: السنة النبوية.

{يُعِظُكُمْ بِهِ}: بالذي أنزله من أحكام الحلال والحرام لتشكروه تعالى بطاعته.

معنى الآية الكريمة:

ما زال السياق في بيان أحكام الطلاق والخلع والرجعة ففي هذه الآية يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا طلق أحدهم امرأته وقاربت نهاية عدتها أن يراجعها فيمسكها 4 بمعروف، والمعروف هو حسن عشرتها أو يتركها حتى تنقضي عدتها ويسرحها بمعروف فعيطيها كامل حقوقها ولا يذكرها إلا بخير ويتركها تذهب حيث شاءت. وحرّم على أحدهم أن يراجع امرأته من أجل أن يضر بها فلا هو يحسن إليها ولا يطلقها فتستريح منه، فقال تعالى: {وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا} يريد عليهن حتى تضطر المرأة المظلومة إلى المخالعة فتفدي نفسها منه بمال وأخبر تعالى: أن من يفعل هذا الإضرار فقد عرض نفسه للعذاب الأخرى.

كما نهى تعالى المؤمنين عن التلاعب بالأحكام الشرعية، وذلك بإهمالها وعدم تنفيذها فقد قال تعالى: {وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا} وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث من

1 بالإجماع أن المراد من بلوغ الأجل هنا: مقاربة بلوغه لأنه إذا بلغ الأجل لا خيار له في الإمساك.

2 لا خلاف بين أهل العلم أن من طلق هازلاً أن الطلاق يلزمه لحديث أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة".

3 الحكمة: هي السنة المبيّنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مراد الله فيما لا نص عليه من الكتاب.

4 قال أهل العلم: إن من الإمساك بالمعروف أن الزوج إذا لم يجد ما ينفق على زوجته يطلقها، فإن لم يطلقها خرج من حد المعروف.

5 روي عن أبي الدرداء أنه قال: كان الرجل في الجاهلية يطلق ويقول: إنما طلقته وأنا لآعب. وينكح ويعتق ويقول: كنت لآعباً. فنزلت هذه الآية: {وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا}.

(1/217)

عليهم بالإسلام دين الرحمة والعدالة والإحسان، وذلك ليشكروه بامتثال أوامره واجتتاب نواهيه. كما عليهم أن يذكروا نعمة الله عليهم زيادة على الإسلام وهي نعمة إنزال الكتاب. والحكمة ليعظهم بذلك فيأمرهم بما فيه سعادتهم وكمالهم، وينهاهم عما فيه شقاؤهم وخسرانهم: ثم أمرهم بتقواه عز وجل: فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} وأعلمهم أنه أحق أن يُتقى؛ لأنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه من أمرهم

شيء فليحذروا أن يراهم على معصيته مجانين لطاعته.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- لا يحل للمطلق أن يراجع امرأته من أجل أن يضر بها ويظلمها حتى تخالعه بمال.
 - 2- حرمة التلاعب بالأحكام الشرعية بعدم مراعاتها وتنفيذها.
 - 3- وجوب ذكر نعمة الله على العبد وذلك بذكرها باللسان، والاعتراف 1 بها في الجنان.
 - 4- وجوب تقوى الله تعالى في السر والعلن.
 - 5- مراقبة الله تعالى في سائر شؤون الحياة؛ لأنه بكل شيء عليم.
- {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232)}

شرح الكلمات:

{فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} : أي انتهت عدتهن 3.

- 1 وصرفها فيما يرضي المنعم عز وجل وذلك باستعمال القوى الفعلية والبدنية في طاعة الله وإنفاق المال فيما يجب أن ينفق فيه.
- 2 {ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ} الإشارة فيه إلى حكم العضل المحرم والمخاطب به سائر المسلمين ولم يقل: ذلكم، إذ الأصل هو الإشارة إلى المذكور وهو مفرد ولو قال: ذلكم، جاز.
- 3 بلوغ الأجل في هذه الآية هو نهايته وليس كالأية السابقة، إذ بلوغ الأجل فيها المراد: قرب نهايته، إذ لو بلغ الأجل نهايته ما كان صحت مراجعتها.

(1/218)

{فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} : أي لا تمنعهن من التزوج مرة أخرى بالعودة إلى الرجل الذي طلقها ولم يراجعها حتى انقضت عدتها.

{إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ} : إذا رضي الزوج المطلق أن يردها إليه ورضيت هي بذلك.

{ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ} : أي النهي عن العضل يُكلف به أهل الإيمان إذ هم القادرون على الطاعة.

{ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ} : أي ترك العضل خير لكم من العضل وأطهر لقلوبكم؛ إذ العضل قد يسبب

ارتكاب الفاحشة.

معنى الآية الكريمة:

ينهى الله تعالى أولياء أمور النساء أن يمنعا المطلقة طليقة أو طليقتين فقط من أن تعود إلى زوجها الذي طلقها وبانت منه بانقضاء عدتها، إذا رضيت هي بالزواج منه مرة أخرى ورضي هو به وعزما على المعاشرة الحسنة بالمعروف وكانت هذه الآية استجابة لأخت معقل بن يسار رضي الله عنه حيث أرادت أن ترجع إلى زوجها 1 الذي طلقها وبانت منه بانقضاء العدة فمنعها أخوها معقل. وقوله تعالى: {ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ} أي هذا النهي عن العضل يوجه إلى أهل الإيمان بالله واليوم الآخر فهم الأحياء الذي يستجيبون لله ورسوله إذا أمروا أو نهوا. وأخيراً أخبرهم تعالى أن عدم منع المطلقة من العودة إلى زوجها خير لهم، حالاً ومآلاً، وأطهر لقلوبهم ومجتمعهم. وأعلمهم أنه يعلم عواقب الأمور وهم لا يعلمون فيجب التسليم بقبول شرعه، والانصياع لأمره ونهيه. فقال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .

هداية الآية

من هداية الآية:

1- حرمة العضل أي منع المطلقة أن ترجع إلى من طلقها.

2- وجوب 2 الولاية على المرأة؛ لأن الخطاب في الآية كان للأولياء {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} .

1 اسم هذا الزوج: (أبو البداح) وكان قد طلق أخت معقل بن يسار، ورغب في العودة إليها بنكاح جديد بعد انقضاء عدتها، فأبى معقل وقال لها: وجهي من وجهك حرام إن تزوجتيه. فنزلت هذه الآية: {وَإِذَا طَلَقْتُمْ...} إلخ.

2 دليله: أن أخت معقل كانت ثيبية ومعناها أخوها من الزواج بمن طلقها وراجعها ثم طلقها مرة ثانية وانقضت عدتها ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعقل: " إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك من أبي البداح "، فقال آمنت بالله وردها إلى أبي البداح، فهذا دليل على شرعية الولي في النكاح البكر والثيب سواء.

(1/219)

3- المواعظ تنفع أهل الإيمان لحياة قلوبهم.

4- في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه الخير كله، والطهر جميعه.

{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (233)

شرح الكلمات:

{حَوْلَيْنِ} : عامين.

{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ} : أي على الأب.

{بِالْمَعْرُوفِ} : بحسب حاله يساراً أو إعساراً.

{وَسَعَهَا} : طاقتها وما تقدر عليه.

{لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بَوْلِدِهَا} 2 : أي لا يحل أن تؤذي أم الولد بمنعها من إرضاع ولدها، أو بمنعها الأجرة على إرضاعه هذا في حال طلاقها، أو موت زوجها.

1 قوله تعالى: {كسوتهن} ، إما أن يكون المراد به المرضع غير المطلقة، فهي التي يجب لها الكسوة، أما المرضع بأجرة فلا كسوة لها وإنما لها ثمن الإرضاع، أو يكون ذكر الكسوة من باب مكارم الأخلاق، إذ نو الخلق الكريم يكرم مرضعة ولده بالكسوة وغيرها.

2 في الآية دليل على أن الأم أحق بالحضانة إذا طلقت أو مات الوالد ولا خلاف في ذلك ما لم تتزوج فإن حضانتها تسقط بذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن شكت إليه: "إنت أحق به ما لم تتكحي" . واختلف في مدة الحضانة، فمالك يرى: أنها إلى بلوغ الغلام وتزوج الجارية، ورأى الشافعي: أنها إلى ثمان سنوات ثم يخبر الولد بين أبيه وأمه، فأيهما اختار له ذلك، والبنت كذلك. فقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم خير الولد بين أبيه وأمه.

(1/220)

{وَلَا مَوْلُودَ لَهُ} : أي ولا يضار 1 الوالد كذلك بأن يجبر على إرضاع الولد من أمه المطلقة أو يطالب بأجرة لا يطيقها.

{وَعَلَى الْوَارِثِ} : الوارث هو الرضيع 2 نفسه إن كان له مال وإلا فعلى من يكفله من عصبته.

{فَصَالًا} : فطاماً للولد قبل نهاية العامين.

معنى الآية الكريمة:

بمناسبة بيان أحكام الطلاق وقد تطلق المرأة أحياناً وهي حامل ذكر تعالى أحكام الرضاع، وقال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} أي: على الأم المطلقة أن ترضع ولدها حولين كاملين إن أرادت هي وأب الرضيع إتمام الرضاعة، وأن على المولود له وهو الأب إن كان موجوداً نفقة المرضعة طعاماً وشراباً وكسوة بالمعروف بحسب حال الوالد من الغنى والفقر، إذ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها من قدرة.

ثم نبه تعالى على أنه لا يجوز أن تؤذى الوالدة بسبب ولدها بأن تمنع من إرضاع ولدها أو تكره على إرضاعه وهي لا تريد ذلك، أو تحرم النفقة مقابل الإرضاع أو يضيق عليها فيها كما لا يجوز أن يضار أي يؤذي المولود له وهو الأب: بأن يجبر على إرضاع ولده من أمه وقد طلقها ولا يأن يطالب بنفقة باهظة لا يقدر عليها. وعلى الوارث وهو الرضيع نفسه إن كان له مال. فإن لم يكن له مال فعلى عصبته الذكور الأقرب فالأقرب أي عليهم أجرة الإرضاع فإن لم يكن للولد مال وليس له عسبة وجب على الأم أن ترضعه مجاناً؛ لأنها أقرب الناس إليه، ثم ذكر تعالى رخصتين في الإرضاع: الأولى: فطام قبل عامين، فإن لهما ذلك بعد التشاور في ذلك وتقدير مصلحة الولد من هذا الفطام المبكر. فقال تعالى: ﴿فَإِنْ

1 وفي الحديث الصحيح: "لا ضرر ولا ضرار" ، ومن هنا روى في الحضانة جانب الولد فينظر فيمن يقدر على حفظه وتربيته، ولما كانت الأم أرحم به وأحن عليه أعطيته ما لم تتزوج وتشغل عنه فإن تزوجت فأما وهي جدته، وإما أم أبيه فخالته أحق به منها، والعبرة بمن يكون أرحم وأحفظ بالولد.

2 الجمهور على أن المراد بالوارث، ورثة الرضيع إذا هلك من نساء ورجال، ذكره القرطبي في تفسيره، وقال غيره: إن الوارث هو الرضيع إذا مات والده وترك مالا. أجرة المرضع من ماله، فإن كان لا مال له فمن مال ورثته هو ولا تضار هي في واجب نفقتها ولا الوالد أو وارثه في أدائها. وما فسرنا به الآية واضح ومستقيم والحمد لله رب العالمين.

3 {والوالدات} مبتدأ، وجملة: يرضعن، خبر. فالجملة خبرية، ومعناها الإنشاء. إذ ما تضمنته الجملة هو إرشاد من الله تعالى للمؤمنين في طريقة إرضاع أولادهم.

(1/221)

أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا{ أي لا تضيق ولا حرج. والثانية إن أراد المولود له أن يسترضع لولده من مرضعاً غير أمه فله ذلك إن طابت به نفسه الأم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ{ بشرط أن يسلم الأجرة 1 المنفق عليها بالمعروف بلا إجحاف ولا مماطلة، وأخيراً وعظ الله كلاً من المرضع والمرضع له بتقواه في هذه الحدود التي وضعها لهما، وأعلمهم أنه بما يعملون بصير فليحذروا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه. فسبحانه من إليه عظيم برٍ رحيم.

هداية الآية

من هداية الآية:

1- وجوب إرضاع الأم ولدها الرضعة الأولى "اللبا" إن كانت مطلقة وسائر الرضاع إن كانت غير مطلقة.

2- بيان الحد الأعلى للرضاع وهو عامان 2 تامان. ولذا فالزيادة عليهما غير معتبرة شرعاً.

3- جواز أخذ الأجرة على الإرضاع.

4- وجوب نفقة الأقارب على بعضهم في حال الفقر.

5- جواز إرضاع الوالد ولده من 3 مرضع غير والدته.

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234)} وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

1 المراد من الأجرة هي تلك التي وجبت للمطلقة بإرضاعها ولدها قبل أخذ الوالد له ليرضعه عند غيرها إن لم يكن قد سلمها لها أيام إرضاعها للولد.

2 لحديث: "لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام" رواه أبو دواد الطيالسي. عن جابر ذكره ابن كثير. وحديث ابن عباس عند البخاري: "لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين". ولذا فما كان من رضاع بعد الحولين فلا يحرم بدلالة هذا الحديث الصحيح.

3 إذا كان في ذلك مصلحة للرضيع أو لعجز الوالدة عنه.

(1/222)

وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُمْ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)}

شرح الكلمات:

{يُتَوَفَّوْنَ}: يوفيهم الله تعالى ما كتب لهم من العمر فيموتون.

{وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا}: يتركون زوجات لهم.

{يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ}: ينتظرن حتى انقضاء عدتهن، وهي أربعة أشهر وعشر ليال.

{بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}: بلغن انتهاء العدة.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}: لا حرج عليكم أيها الأولياء فيما فعلن في أنفسهن من مس الطيب والتجمل والتعرض للخطاب.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}: لا إثم عليكم في التعريض دون التصريح بالخطبة، كما لا إثم في إضمار الرغبة في النفس.

{حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ}: أي حتى تنتهي العدة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في بيان أحكام الطلاق والعدد والنفقات، ففي هذه الآية (234) أن على من مات 1 عليها زوجها أن تنتظر أربعة أشهر وعشر ليال إن كانت حرة، أو نصف المدة إن كانت أمة فلا تتجمل ولا تمس طيباً، ولا تتعرض للخطاب بحال حتى تنقضي عدتها المذكورة في الآية إلا أن تكون حاملاً فإن عدتها تنقضي 2 بوضع حملها لقوله تعالى من سورة الطلاق: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} فإذا بلغت أجلها، أي: انتهت المدة التي هي

- 1 من مات زوجها أو طلقها في غيبته عنها: هل تعتد من يوم الطلاق أو الوفاة أو من يوم يأتيها الخبر بذلك؟. الجمهور وهو الراجح أنها تعتد من يوم الوفاة أو الطلاق، وعليه فلو مات زوجها أو طلقها ولم يلقها حتى انتهت مدة العدة فلا عدة عليها بعد.
- 2 يرى بعض السلف أن تعتد المتوفى عنها زوجها بأقصى الأجلين، أي: بأطولهما، فإن كانت مدة الحمل أكثر من أربعة أشهر وعشر اعتدت به، وإلا اعتدت بوضع الحمل، وما عليه الجمهور أولى، وهو: وضع الحمل.

(1/223)

معدة فيها فلا جناح على نوي زوجها المتوفى ولا على ذويها هي فيما تفعل بنفسها من ترك الإحداد 1 والتعرض للخطاب للزوج هذا معنى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَنْزُبْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي: بما هو مباح لهن ووعظهم في ختام الآية بقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} فاحذروه فلا تعملون إلا ما أذن فيه لكم.

أما الآية الثانية (235) فقد تضمنت تحريم خطبة المرأة المعتدة من طلاق أو وفاة فلا يحل خطبتها لما في ذلك من الضرر؟ إذ قد تحمل هذه الخطبة من رجل مرغوب فيه لماله أو دينه أو نسبه أن تدعي المرأة انقضاء عدتها وهي لم تنقض، وقد تقوت على زوجها المطلق لها فرصة المراجعة، وهذا كله ضرر محرم. كما تضمنت الآية في صدرها رفع الحرج، أي: الإثم في التعريض بالخطبة دون اللفظ الصريح المحرم فقال تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} أيها المسلمون فيما عرضتم من خطبة النساء المعتدات نحو قوله: إني راغب في الزواج، أو إذا انقضت عدتك تشاوريني إن أردت الزواج. كما تضمنت الكشف عن نفسية الرجل إذ قال تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ} مبدين رغبتكم منهن فرخص لكم في التعريض دون التصريح، ولكن لا تواعدهن سراً هذا اللفظ هو الدال على تحريم

خطبة المعتدة من وفاة أو من طلاق بائن، أما الطلاق الرجعي فلا يصح الخطبة فيه تعريضاً ولا تصريحاً؛ لأنها في حكم الزوجة، وقوله: {إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا} هو الإذن بالتعريض. كما تضمنت هذه الآية حرمة عقد النكاح على المعتدة حتى تنتهي عدتها إذ قال تعالى: {وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} ، والمراد من الكتاب المدة التي كتب الله على المعتدة أن تنربص فيها. وختمت الآية بوعد الله تعالى المؤمنين حيث أمرهم أن يعلموا أن الله يعلم ما في أنفسهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم وتصرفاتهم فليحذروه غاية الحذر، فلا يخالفوه في أمره ولا نهيه. كما أعلمهم أنه تعالى غفور لمن تاب منهم بعد الذنب حلیم عليهم لا يعاجلهم بالعقوبة ليتمكنوا من التوبة.

- 1 الإحداد واجب على المتوفى عنها زوجها فقط لحديث الصحيح: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا". والإحداد: هو ترك أنواع الزينة حتى الكحل والخضاب، وعليها لزوم البيت وعدم التعرض للخطاب.
- 2 أي: لا تعقدوا على المعتدة حتى تنقضي عدتها. يقال: عزم كذا، وعزم على كذا بمعنى واحد.

(1/224)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان عدة الوفاة وهي أربعة أشهر 1 وعشر ليال، وبينت السنة أن عدة الأمة على النصف.
- 2- وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها وهو عدم التزين ومس الطيب وعدم التعرض للخطاب وملازمة المنزل الذي توفي عنها زوجها وهي فيه فلا تخرج منه إلا لضرورة قصوى.
- 3- حرمة خطبة المعتدة، وجواز التعريض لها بلفظ غير صريح.
- 4- حرمة عقد النكاح على معتدة قبل انقضاء عدتها، وهذا من باب أولى ما دام الخطبة محرمة ومن عقد على امرأة قبل انقضاء عدتها يفرق بينهما ولا تحل له بعد عقوبة لهما 2.
- 5- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن واتقاء الأسباب المفضية بالعبد إلى فعل محرم. {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ 4 النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ 5 أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَعَّرِ قَدَرُهُ 6 وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)} وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ 6 مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُو

1 قيل: الحكمة في العشر ليال بعد الأربعة أشهر، أنها التي ينفخ فيها الروح في الجنين لحديث: "إن

- أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة" . الحديث . فثلاثة أربعينات بأربعة أشهر، وفي العشر بعد ينفخ فيه الروح. والحديث هو حديث ابن مسعود في مسلم.
- 2 هذا مذهب مالك، أما الجمهور فإنه يفارقها فإذا انتهت عدتها له أن يخطبها ويتزوجها، ولا فرق في هذا بين عدة الوفاة أو الطلاق غير الرجعي.
- 3 هذا استئناف بياني كأن سائلاً سأل عن جواز الطلاق قبل البناء وعدمه، فأجاب تعالى بقوله: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} الآية. مبيناً الجواز وحكم المهر للمطلقة قبل البناء.
- 4 المطلقات أربع: مطلقة قبل البناء، ولم يسم لها مهر فلها المتعة ولا عدة عليها. المطلقة قبل البناء وسمي لها مهر فلها نصفه إلا أن يعفو، ومطلقة بعد البناء لها ما سمي من المهر، وعليها العدة، ومطلقة بعد البناء ولم يسم لها مهر فلها مهر مثيلتها.
- 5 أو هنا بمعنى الواو، أي: ولم تفرضوا.
- 6 النصف: فيه لغات، كسر النون، وضمها، ونصيف بفتح النون وإشباع الصاد، والنصيف أيضاً: قناع المرأة.

(1/225)

الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلنَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239)

شرح الكلمات:

الجناح : الإثم المترتب على المعصية.

{مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ} : ما لم تجامعوهن.

{أَوْ تَقْرِضُوا} : تقدروا لهن 1 مهراً.

{الْمُوسِعِ قَدْرُهُ} : ذو الوسع في المال، وقدره: ما يقدر عليه ويستطيعه.

{الْمُقْتَرِ} : الضيق العيش.

{الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ} : هو الزوج.

{وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} : أي المودة والإحسان.

{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ} : بأدائها في أوقاتها في جماعة مع استيفاء شروطها وأركانها وسننها.

{وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} : صلاة العصر، أو الصبح فتجب المحافظة على كل الصلوات وخاصة العصر

والصبح لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من صلى البردين -العصر والصبح- دخل الجنة".

{قَانِتِينَ} : خاشعين ساكنين 2.

{قَرَجَالًا}: مشاة على أرجلكم أو ركبانا على الدواب وغيرها مما يركب.

1 اختلف في من مات زوجها قبل البناء بها ولم يسم لها صداق هل لها مثل صداق مثيلاتها، أو لا صداق لها؟ ولكن لها الميراث وعليها العدة. فمن قال: بالقياس، لا صداق لها، ومن أخذ بحديث بروع الذي رواه الترمذي وصححه قال: لها مهر المثل وترث وتعتد. وبروع: امرأة مات زوجها قبل البناء بها ولم يسم لها مهراً فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لها بمهر المثل والميراث والعدة.

2 الخشوع في الصلاة مستلزم لترك الكلام فيها وكيف وقد سلم ابن مسعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته فلم يرد عليه، ثم اعتذر له بقوله: "إن في الصلاة لشغلا" أي: عن الكلام.

(1/226)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان أحكام الطلاق وما يتعلق به، ففي هذه الآية (236): يخبر تعالى عباده المؤمنين أنه لا إثم ولا حرج عليهم إن هم طلقوا أزواجهم قبل البناء بهن، وقبل أن يسموا لهن مهوراً أيضاً، وفي هذين الحالين يجب عليهم أن يمتعهن 1 بأن يعطوا المطلقة قبل البناء ولم تكن قد أعطيت مهراً ولا سمى لها فيعرف مقداره في هذه الحال، وقد تكون نادرة يجب على الزوج المطلق جبراً لخاطرها أن يعطيها مالاً على قدر غناه وفقره تتمتع به أياماً عوضاً عما فاتها من التمتع بالزواج، فقال تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ}.

وأما الآية الثانية (237) فإنه تعالى يخبر أن من طلق امرأته قبل البناء بها وقد سمى لها صداقاً قل أو كثر فإن عليه أن يعطيها وجوباً نصفه إلا أن تعفو عنه المطلقة فلا تأخذه تكرماً، أو يعفو المطلق تكرماً فلا يأخذ منه شيئاً فيعطيها إياه كاملاً فقال عز وجل: {وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} -أي: فالواجب نصف ما فرضتم- إلا أن يعفون -المطلقات- أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج. ثم بعد تقرير هذا الحكم العادل الرحيم دعا الطرفين 2 إلى العفو، وأن من عفا منهما كان أقرب إلى التقوى فقال عز وجل: {وَأَنْ تَعَفَّوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} ونهاهم مع هذا عن عدم نسيان المودة والإحسان بينهما فقال: {وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

وأما الآية الثانية (238) فإنه تعالى يرشد عباده المؤمنين إلى ما يساعدهم على الالتزام بهذه الواجبات الشرعية والآداب الإسلامية الرفيعة وهو المحافظة على إقامة الصلوات الخمس عامة والصلاة

الوسطى خاصة فقال تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى} ، وكانوا قبلها يتكلمون في الصلاة فمنعهم من ذلك بقوله: {وَتُؤْمَرُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} أي ساكنين خاشعين. وإن حصل خوف لا يتمكنون معه من أداء الصلاة على الوجه

1 المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء ولم يكن سمي لها مهراً ، ومستحبة لغيرها. هذا أشهر المذاهب وأقربها من الحق، ومقدار المتعة موكول إلى المطلق، فليمتع بحسب حاله غنياً وفقراً، هذا في غير المطلقة قبل البناء ولم يسم لها مهراً ؛ لأن متعتها واجبة، إذ ليس لها غيرها فقد يتولى القاضي بيان مقدارها.

2 وإن كان الخطاب صالحاً لكل من الزوج والزوجة إلا إن العفو من الزوجة أولى؛ لأن الطلاق كان منه، ولو كانت هي سببه لكان عفوها هي أولى، ولعل هذا سر قوله: {أقرب للتقوى} .

(1/227)

المطلوب من السكون والخشوع فليؤدوها وهم مشاة على أرجلهم أو راكبون على خيولهم، حتى إذا زال الخوف وحصل الأمن فليصلوا على الهيئة التي كانوا يصلون عليها من سكون وسكوت وخشوع، فقال تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ 1 كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} يريد الله تعالى بالذكر هنا إقام الصلاة أولاً، ثم الذكر العام مذكراً إياهم بنعمة العلم مطالباً إياهم بشكرها وهو أن يؤدوا الصلاة على أكمل وجوهها وأتمها؛ لأنها تساعد على سائر الطاعات وحسبها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. هذا ما تضمنته الآية الرابعة (239).

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان حكم المطلقة قبل البناء وقبل تسمية المهر، وأن لها المتعة فقط بحسب حال المطلق من غنى وفقير.

2- بيان حكم المطلقة قبل البناء وقد سمي لها صداق فإن لها نصفه وجوباً إلا أن تتنازل عنه برضاها فلها ذلك كما أن الزوج المطلق إذا تنازل عن النصف وأعطاه المسمى كاملاً فله ذلك.

3- الدعوة إلى إبقاء المودة والفضل والإحسان بين الأسرتين: أسرة المرأة المطلقة، وأسرة الزوج المطلق، حتى لا يكون الطلاق سبباً في العداوات والتقاطع.

4- وجوب المحافظة على الصلوات الخمس وخاصة صلاة العصر 2 وصلاة الصبح "الصلاة الوسطى" 3.

5- منع الكلام في الصلاة لغير إصلاحها.

6- وجوب الخشوع في الصلاة

- 1 {فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ} أي: أتموا الصلاة كما أمركم فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وجلسها كما تفعلون ذلك في حال الأمن وعدم الخوف.
- 2 اختلف في بيان الصلاة الوسطى بلغ الخلاف عشرة أقوال حتى عدت كل صلاة الصلاة الوسطى حتى يتم المحافظة على الصلوات الخمس كلها، وأقوى الأقوال إنها الصبح أو العصر، ورجح مالك: الصبح، ورجح غيره: العصر، والسنة الصحيحة شاهدة لمن قال أنها العصر، وذلك لحديث الصحيح: "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر".
- 3 الوسطى مؤنث الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله، وفي هذا المعنى قال الشاعر، يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:
يا أوسط الناس طراً في مفاخرهم ... وأكرم الناس أما برةً وأبا
وأفردت الصلاة الوسطى بالذكر تشريفاً لها.

(1/228)

- 7- بيان صلاة الخائف من عدو وغيره وأنه يجوز له أن يصلي وهو ماش أو راكب.
- 8- الأمر بملازمة ذكر الله، والشكر على نعمه وبخاصة نعمة العلم بالإسلام.
{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا 1 إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (240) {وَالْمُطَلَّاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (241) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (242)
شرح الكلمات:
{الْحَوْلُ} : العام.
{فَإِنْ خَرَجْنَ} : من بيت الزوج المتوفي قبل نهاية السنة.
{مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} : أي متعة لا مبالغة فيها، ولا تقصير.
{حَقًّا} : متعيناً على المطلقين الأتقياء.
معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان حقوق النساء المطلقات والمتوفى عنهن ففي هذه الآية (240) يخبر تعالى أن الذين يتوفون من المؤمنين ويتركون أزواجاً فإن لهن من الله تعالى وصية على ورثة الزوج المتوفى أن ينفذوها وهي أن يسمحوا لزوجته المتوفى عنها أن تبقى معهم في البيت تأكل وتشرب إلى نهاية السنة بما فيها مدة العدة وهي أربعة أشهر وعشر ليالٍ إلا إذا رغبت في الخروج بعد انقضاء العدة

فلها ذلك، هذا معنى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ 3 يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ

- 1 المراد بالمتاع هنا: هو السكنى في بيت زوجها المتوفى عنها إن كان له سكنى يملكها.
- 2 في قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} إشارة إلى وجوب تنفيذ وصية الله تعالى؛ لأنه غالب على أمره قاهر لعباده فكيف يخرجون عن طاعته، والحكيم لا يعترض عليه بل يسلم الأمر إليه رزقنا الله طاعته بالإسلام إليه ظاهراً وباطناً.
- 3 اختلف في توجيه هذه الآية فمن قائل: بنسخها وأن الناسخ لها الآية التي قبلها: {وَالَّذِينَ 3 يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَيَّنَّ بِنَفْسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} ، ومن قائل: بنسخها آية المواريث، إذ المتوفى عنها إن لم يكن للزوج ولد الربع من التركة، ومن قائل: وهو مجاهد ورجحه ابن جرير الطبري بعدم النسخ وأنه رحمة بالمؤمنة المتوفى عنها زوجها إذا أتمت عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً يسمح لها بالبقاء في بيت زوجها الهالك إلى نهاية السنة، وهذا حسب اختيارها ورغبتها فكانت هذه الوصية وصية رحمة مندوباً إليها، وهذا الذي رجحته في تفسير الآية فليتأمل.

(1/229)

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} وقوله فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن تقدم معناه، وهو أن للمعتدة إذا انقضت عدتها أن تتزين وتمس الطيب وتتعرض للخطاب لتتزوج. وما ختمت به الآية: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} إشارة إلى أن هذه الوصية قد شرعها عزيز حكيم فهي متعينة التحقيق والتنفيذ.

وأما الآية الثانية(241) {وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} ففيها حكم آخر وهو أن المطلقة المبني بها على مطلقها أن يمتعها بشيء من المال كثياب أو دابة أو خادمة، وعليه فالمطلقة قبل البناء وقبل تسمية المهر لها المتعة واجبة لها إذ ليس لها سواها، والمطلقة قبل البناء وقد سمى لها المهر فإن لها نصف المهر لا غير، والمطلقة بعد البناء وهي هذه المقصودة في هذه الآية لها متعة بالمعروف سواء قيل بالوجوب أو الاستحباب؛ لأنها لها المهر كاملاً.

وقوله تعالى في الآية الثالثة(242) {كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} معناه كهذا التبيين لأحكام الطلاق والخلع والرضاع والعدد والمنع يبين تعالى لنا آياته المتضمنة أحكام شرعه لنعقلها ونعمل بها فنكمل عليها ونسعد في الحياتين الدنيا والآخرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الإبقاء على المعتدة عدة وفاة في بيت الهالك سنة إن طابت نفسها بذلك وذلك بعد انقضاء العدة الواجبة، فالزائد وهو سبعة أشهر وعشرون يوماً في هذه الوصية إلا أن جمهور أهل العلم يقولون بنسخ هذه الوصية، وعدم القول بالنسخ أولى، لاختلافهم في النسخ لها².
- 2- حق 3 المطلقة المدخول بها في المتعة بالمعروف
- 3- منة الله على هذه الأمة ببيان الأحكام لها لتسعد بها وتكمل عليها، فله الحمد والشكر.

- 1 تقدم مثل هذا البيان في الآيات السابقة تحت رقم صفحة 227 من نهر الخير.
- 2 رجح هذا القول شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ومال إليه تلميذه: ابن القيم، ولم يفصح عنه.
- 3 أي: تقرير حق المتعة للمدخول بها على سبيل السنية والاستحباب كما تقدمت في النهر.

(1/230)

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا 1 ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)}

شرح الكلمات:

- {أَلَمْ تَرَ} : ألم ينته إلى علمك ... فالرؤية قلبية والاستفهام للتعجب.
- {أُلُوفٌ} : جمع ألف، وهي صيغة كثرة فهم إذا عشرات الألوف.
- {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} : الطريق الموصل إلى مرضاته وهو طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه ومن ذلك جهاد الكفار والظالمين حتى لا تكون فتنة.
- {يُقْرِضُ اللَّهَ} : يقتطع شيئاً من ماله وينفقه في الجهاد لشراء السلاح وتسيير المجاهدين.
- {يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ} : يضيق ويبسط يوسع، يقبض ابتلاء، ويبسط امتحاناً.
- معنى الآيات:

يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: ألم ينته إلى علمك قصة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت وهم أُلوف، وهم أهل مدينة من مدن 2 بني إسرائيل أصابها الله تعالى بمرض 3 الطاعون ففروا هاربين من الموت فأماتهم الله عن آخرهم ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل عليه السلام، فهل أنجاهم فرارهم من الموت، فكذلك من يفر من القتال هل ينجيه فراره من

1 هذا الأمر أمر تكويني لا شرعي تعبدية.

2 ذكر القرطبي أن اسم هذه القرية: "داوردان" وهي من نواحي شرق واسط بينهما فرسخ (معجم ياقوت).

3 روى الترمذي وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الطاعون فقال: "بقيت رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بني إسرائيل فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها". قلت: هذا ما يعرف الآن بالحجر الصحي.

(1/231)

الموت؟ والجواب: لا، وإذا فلم الفرار من الجهاد إذا تعين؟ وفي تأديب تلك الجماعة بإمانتها ثم بإحيائها فضل من الله عليها عظيم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون. وإذا فقاتلوا أيها المسلمون في سبيل الله ولا تتأخروا متى دعيتم إلى الجهاد بالنفوس والمال، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وأعمالكم فاحذروه، ثم فتح تعالى باب الاكتتاب المالي للجهاد فقال: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} لا شائبة شرك فيه لأحد والنفوس طيبة به فإن الله تعالى يضاعفه له أضعافاً كثيرة الدرهم بسبعمائة درهم فأنفقوا أيها المؤمنون في سبيل إعلاء كلمة الله، ولا تخافوا الفقر فإن ربحم يقبض ويبسط: يضيق على العبد ابتلاء ويوسع امتحاناً، فمنعكم الإنفاق في سبيل الله لا يغير من تدبير الله شيئاً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إذا نزل الوباء ببلد لا يجوز الخروج فراراً منه، بهذا ثبتت السنة.
 - 2- وجوب ذكر النعم وشكرها.
 - 3- وجوب القتال في سبيل الله إذا تعين.
 - 4- فضل الإنفاق في سبيل الله.
 - 5- بيان الحكمة في تضيق الله على العبد رزقه، وتوسيعه، وهو الابتلاء لأجل الصبر والامتحان لأجل الشكر، فيالخيبة من لم يصبر، عند التضيق عليه، ولم يشكر عند التوسعة له.
- { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

1 القتال في سبيل الله: هو ما كان لإعلاء كلمة الله تعالى.

2 الاستفهام هنا للتخصيص والتهيج على الإنفاق في سبيل الله.

مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247){

شرح الكلمات:

{الْمَالُ} : أشرف الناس من أهل الحل والعقد بينهم إذا نظر المرء إليهم ملأوا عينه رواء وقلبه هيبة.

عسى : كلمة توقع وترج.

{كُتِبَ} : فرض ولزم.

{مَلِكًا} : يسوسهم في السلم والحرب.

{أَنَّى يَكُونُ} : الاستفهام للإنكار بمعنى كيف يكون له الملك.

{اصْطَفَاهُ} : فضله عليكم واختاره لكم.

بسطة في الجسم : أي طولاً زائداً يعلو به من عداه.

معنى الآيات:

لقد فرض الله تعالى على المؤمنين القتال، ودارت رحى المعارك بداية من معركة بدر وكان لا بد من المال والرجال الأبطال الشجعان، فاقتضى هذا الموقف شحذ الهمم وإلهاب المشاعر لتقوى الجماعة المسلمة بالمدينة على مواجهة حرب العرب والعجم معاً، ومن هنا لمطاردة الجبن والبخل وهما من شر الصفات في الرجال ذكر تعالى حادثة الفارين من الموت

التاركين ديارهم لغيرهم كيف أماتهم الله ولم ينجيهم فرارهم، ثم أحياهم ليكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم، فالفرار من الموت لا يجدي الصبر والصمود حتى النصر، ثم أمر تعالى المؤمنين بعد أن أخذ ذلك المنظر من نفوسهم مأخذه فقال: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ، ولما كان المال المقدم في القتال فتح الله لهم اكتتاباً مالياً وضاعف لهم الريح في القرض بشرط خلوصه وطيب النفس به، ثم قدم لهم هذا العرض التفصيلي لحادثة أخرى تمثل في ثناياها العظات والعبر لمن هو في موقف المسلمين الذين يحاربهم الأبيض والأحمر وبلا هوادة وعلى طول الزمن فقال تعالى وهو يخاطبهم في شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا 1 لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا

مَلِكًا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} يريد ألم ينته إلى علمك بإخبارنا إياك قول أشراف بني إسرائيل -بعد وفادة موسى- لهم ابعد لنا 2 ملكاً نقاتل في سبيل الله فنطرد أعداءنا من بلادنا ونسترد سيادتنا ونحكم شريعة ربنا. ونظراً إلى ضعفهم الروحي والبدني والمالي تخوف النبي أن لا يكونوا صادقين فيما طالبوه به فقال: {هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} بتعيين الملك القائد أن لا تقاتلوا؟! فدفعتهم الحمية فقالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الحال أنا قد أخرجنا من ديارنا 4 وأبنائنا، وذلك أن العدو وهم البابليون لما غزوا فلسطين بعد أن فسق بنو إسرائيل فتبرجت نساؤهم واستباحوا الزنى والربا وعطلوا الكتاب وأعرضوا عن هدى أنبيائهم فسلط الله عليهم هذا العدو الجبار فشردهم فأصبحوا لاجئين. وما كان من نبي الله شمويل إلا أن بعث من تلك الجماعات الميتة موتاً معنوياً رجلاً منهم هو طالوت وقادهم فلما دنوا من المعركة جنبوا وتولى أكثرهم 5 منهزمين قبل القتال، وصدق نبيهم في فراسته إذ قال لهم: {هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا} .

- 1 هو شمويل بن بال بن علقمة، هكذا ذكره القرطبي في تفسيره، ويقال فيه: شمعون أيضاً ويعرف بابن العجوز؛ لأن أمه كانت عجوزاً فسألت الله الولد فوهبها إياه بعد عقم وكبر سن.
- 2 {ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلُ..} فيه دليل على أن الجهاد لإعلاء كلمة الله لا بد له من إمام تجتمع عليه كلمة الأمة وأيما جهاد يخلو من إمامة شرعية يقاتل تحت رايته فعاقبتها خسر، وشاهد هذا حال المسلمين اليوم فقد قاتلوا الاستعمار تحت شعار الأحزاب فلما انتصروا خسروا كل شيء حتى دينهم.
- 3 عسيتم: بكسر السين، وعسيتم بفتح السين، وهما قراءتان سبعيتان. الأولى لنافع، والثانية لحفص.
- 4 أن الخروج من الوطن صعب على النفوس البشرية، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكة قال: "إني أعلم أنك أحب البلاد إلى الله ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت"، ويقول: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أكثر".
- 5 ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته عن تمني لقاء العدو فقال: "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا".

(1/234)

هذا ما تضمنته الآية الأولى (246) من هذا القصص أما الآية الثانية (247) فقد تضمنت اعتراض ملاً بني إسرائيل على تعيين طالوت ملكاً عليهم بحجة أنه فقير من أسرة غير شريفة، وأنهم أحق بهذا المنصب منه، ورد عليهم حجتهم الباطلة بقوله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} . كان هذا رد شمويل على قول الملاً: {أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ} 2 وَلَمْ يُوْت سَعَةً مِنَ الْمَالِ} . وكانهم لما دمغتهم الحجة

وهي أن الله تعالى قد اختار طالوت وفضله عليهم بهذا الاختيار وأهله للولاية بما أعطاه وزاده من العلم وقوة الجسم، والقيادات القتالية تعتمد على غزارة العلم وقوة البدن بسلامة الحواس وشجاعة العقل والقلب أقول كأنهم لما بطل اعتراضهم ورضوا بطالوت على عادة بني إسرائيل في التعنت طالبوا بآية تدل على أن الله حقاً اختاره لقيادتهم فقال لهم إلهي وهي الآية (248) الآتية.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} (248)

شرح الكلمات:

{نَبِيُّهُمْ}: شمويل.

{آيَةَ مُلْكِهِ}: علامة أن الله تعالى ملكه عليكم.

{التَّابُوتُ}: صندوق خشبي فيه بقية من آثار آل موسى وآل هارون.

{سَكِينَةٌ}: طمأنينة القلب وهدوء نفسي.

1 في تقديم العلم على الجسم إشارة إلى أن إمامة الجاهل وقيادته لا خير فيها، والمراد من العلم علم الشرائع وهي تتناول السلم والحرب فلذا هو كامل الأهلية وحسبه اصطفاً الله تعالى واختياره له.

2 لأن الملك في سبط يهوذا والنبوة في بني لاوي، وطالوت من سبط بنيامين فما هو من سبط الملك ولا في بني لاوي أهل النبوة.

(1/235)

{وَبَقِيَّةٌ}: بقية الشيء ما تبقى منه بعد ذهاب أكثره وهي هنا رضاض من الألواح التي تكسرت، وعصا موسى وشيء من آثار أنبيائهم.

{تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ}: من أرض العمالقة فتضعه بين يدي بني إسرائيل في مخيماتهم.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ}: أي في إتيان التابوت الذي أخذه العدو بالقوة منكم في رده إليكم علامة قوية على اختيار الله تعالى لطالوت ملكاً عليكم.

معنى الآية الكريمة:

قد أصبح بشرح الكلمات معنى الآية واضحاً وخلصته أن شمويل النبي أعلمهم أن آية تمليك الله تعالى لطالوت عليهم أن يأتيهم التابوت المخصوب منهم وهو رمز تجمعهم واتحادهم ومصدر استمداد قوة معنوياتهم لما حواه من آثار آل موسى وآل هارون؛ كرضاض الألواح، وعصا موسى ونعله وعمامة هارون وشيء من المن الذي كان ينزل عليهم في التيه، فكان هذا التابوت بمثابة الراية يقاتلون تحتها فإنهم إذا خرجوا للقتال حملوه معهم إلى داخل المعركة ولا يزالون يقاتلون ما بقي

التابوت بأيديهم لم يغلبهم عليه عدوهم، ومن هنا وهم يتحفزون للقتال جعل الله تعالى لهم إتيان 1 التابوت آية على تمليك طالوت عليهم وفي نفس الوقت يحملونه معهم في قتالهم فتسكن 2 به قلوبهم وتهدأ نفوسهم فيقاتلون وينتصرون بإذن الله تعالى، "أما كيفية حمل الملائكة للتابوت فإن الأخبار تقول إن العمالة تشاءموا بالتابوت عندهم إذا ابتلوا بمرض البواسير وبآفات زراعية وغيرها ففكروا في أن يردوا هذا التابوت لنبي إسرائيل وساق الله أقداراً لأقدار، فجعلوه في عربة يجرها بقرتان أو فرسان ووجهوها إلى جهة منازل بني إسرائيل فمشت العربة فساقتها 3 الملائكة حتى وصلت بها إلى منازل بني

- 1 نسبة الإتيان إلى التابوت أسلوب عربي، نحو: "عزم الأمر". و"جدار يريد أن ينقض" وال في التابوت للعهد فهو معروف لهم معهود عندهم، وقيل: طوله ثلاثة أذرع وعرضه ذراعان، وهو من خشب تعمل منه الأمشاط يقال له الشمشار وعليه صفائح الذهب.
- 2 السكينة: قال فيها مجاهد إنها حيوان كالهر له جناحان وذنب ولعينه شعاع إلى آخر ما قال، والصحيح ما في التفسير ويؤيده قول ابن عطية، إذ قال: "والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وأثارهم فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى إلى أنه صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم أن السكينة تكون ملكاً كما في حديث مسلم: إذ كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط فغشيت سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل الفرس منها فلما أصبح أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فلما قال: "تلك السكينة نزلت للقرآن". وتكون السكينة بمعناها: وهو السكون كما في حديث مسلم: "إلا نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة". الحديث.
- 3 هكذا تقول الروايات على أن حمل الملائكة كان يدفع العربة والسير بها إلى ديار بني إسرائيل ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أن الملائكة أخذت التابوت وحملته إلى بني إسرائيل وهو الظاهر.

(1/236)

إسرائيل" فكانت آية وأعظم آية، وقبل بنو إسرائيل بقيادة طالوت، وباسم الله تعالى قادم في الآية التالية (249) بيان السير إلى ساحات القتال.

رَقَلَمَا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي 1 وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ 2 أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249){

شرح الكلمات:

{فَصَلَ طَالُوتُ} 3 : انفصل من الديار وخرج يريد العدو.

{بِالْجُنُودِ} 4 : العسكر وتعداده - كما قيل: سبعون ألف مقاتل.

{مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ} : مختبركم بنهر جار لعل هو نهر الأردن الآن.

{وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ} : لم يشرب منه.

{غُرْفَةٌ} 5 : الغرفة بالفتح المرة، وبالضم الاسم من الاغتراف.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} : هم الذين لم يشربوا من النهر، أما من شرب فقد كفر وأشرك.

1 أي: ليس من أصحابي في هذه الحرب ولا من جندي الذين أقاتل بهم ولم يرد خروجه من الإيمان وهو كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من غش فليس منا" ، "ومن رغب عن سنتي فليس مني" ، فإنه لا يعني كفره.

2 الظن هنا: بمعنى اليقين، أو يكون الظن على بابه وليس هو في لقاء الله تعالى وإنما هو في الموت في هذه الحرب هل يقتلون فيلاقون الله أو لم يقتلوا.

3 هل كان طالوت نبياً؟ يستدل على نبوته بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ} ويقوله: {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ} والله أعلم وعلى كل فهو عبد صالح.

4 لفظ الجند وجمعه: جنود وأجناد، مشتق من الجند الذي هو غليظ الأرض، إذ الجنود يعتصم بعضهم ببعض فيقومون ويغلظون على عدوهم.

5 الغرفة بالضم: اسم لا يعرف كالأكلة، اسم لما يؤكل، والغرفة أيضاً: البناء العالي، والجمع: غرف.

(1/237)

{أَتَهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ} : أي: يوم القيامة فهم يؤمنون بالبعث الآخر.

{كَمْ مِنْ فِئَةٍ} : كم للتكثير، والفئة: الجماعة يفىء بعضها إلى بعض.

{وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} : يسددهم ويعينهم وينصرهم.

معنى الآية:

إنه لما خرج طالوت بالجيش أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم في سيرهم هذا إلى قتال عدوهم بنهر ينتهون إليه وهم في حر شديد وعطش شديد، ولم يأذن لهم في الشرب منه إلا ما كان من غرفة واحدة، فمن أطاع ولم يشرب فهو المؤمن، ومن عصى وشرب بغير المأذون به فهو الكافر ولما وصلوا إلى النهر شربوا منه يكرعون؛ كالبهائم إلا قليلاً منهم. وواصل طالوت السير فجاوز النهر

وهو ومن معه، ولما كانوا على مقربة من جيش العدو وكان قرابة مائة ألف قال الكافرون والمنافقون: {لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} فأعلنوا انهزامهم، وانصرفوا فارين، وقال المؤمنون الصادقون وهم الذين قال الله فيهم: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} كانت هذه الآية في بيان سير طالوت إلى العدو، وفي الآيتين التاليتين (250 و251) بيان المعركة وما انتهت إليه من نصر حاسم للمؤمنين الصادقين قال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (250) فَهَرَمُوهُمْ 3 بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

- 1 البراز: المكان الفسيح في الأرض والمنتسح منها والمنتبز الذاهب في البراز وكانوا يخرجون لقضاء الحاجة في البراز فأطلق لفظ: البراز على ما يحل فيه، وهو: العذرة.
- 2 فيه مشروعية الدعاء في مثل هذا الموقف، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر حتى سقط رداؤه، وكان إذا لاقى العدو قال: "اللهم بك أصول وبك أجول" ويقول: "اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم". وعلم أصحابه ذلك.
- 3 الهزم: الكسر، ومنه قولهم: سقاء متهزم، إذا أتى بعضه على بعض مع الجفاف، وقيل في زرم: هزمه جبريل، أي: هزمها جبريل برجله، فتكسرت الأرض وخرج الماء.

(1/238)

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

شرح الكلمات:

- {بَرَزُوا لِجَالُوتَ}: ظهروا في ميدان المعركة وجالوت قائد قوات العمالقة.
- {أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}: أصعب الصبر في قلوبنا صباً حتى تمتلئ فلم يبق للخوف والجزع موضع.
- {وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا}: في أرض المعركة حتى لا ننهزم وذلك بتقوية قلوبنا والشد من عزائمنا.
- {دَاوُدُ}: هو نبي الله ورسوله داود، وكان يومئذ غير نبي 1 ولا رسول في جيش طالوت.
- {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ}: كان ذلك بعد موت شمويل النبي وموت طالوت الملك.
- {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}: فعلمه صنعة الدروع، وفهم منطق الطير هو وولده سليمان عليهما السلام.
- {لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ}: وذلك بغلبة أهل الشرك على أهل التوحيد، وأهل الكفر على أهل الإيمان.
- معنى الآيات:

لما التقى الجيشان جيش الإيمان وجيش الكفر طالب جالوت بالمبارزة فخرج 2 له داود من جيش طالوت فقتله والتحم الجيشان فنصر الله جيش طالوت وكان عدد أفراده ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلاً لا غير لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل بدر: "إنكم على عدة أصحاب طالوت" وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً فهزم الله جيش الباطل على كثرتهم ونصر جيش الحق على قتلته. وهنا ظهر كوكب داود في الأفق بقتله رأس الشر جالوت فمن الله عليه بالنبوة والملك بعد موت

- 1 أي: لم ينبأ بعد ولم يرسل، إذ الرسل ينبئون ويرسلون غالباً في سن الأربعين.
- 2 لم يقص الله تعالى علينا شيئاً عن كيفية قتل داود لجالوت لعدم الفائدة الكبيرة منها، وخلصتها كما يلي: كان والد داود في جيش طالوت وله ستة أبناء معه، واسمه: إيشا، وكان داود أصغرهم وكان يرعى الغنم، وكان لنبيهم درع وأوحى الله أن من استوت عليه درعه هو الذي يقا تل جالوت فاستوت على داود وقبل البراز، قال طالوت: من قتل جالوت أشاطره ملكي وأزوجه ابنتي وكان داود قد مر بحجر فناداه أن خذني يا داود وقا تل بي فجعله في مخلاته واحتفظ به، فلما برز لجالوت جعل الحجر في مقلاعه وكان رامياً فرمى جالوت فقتله. وهذه بداية أمره عليه السلام.

(1/239)

كل من النبي شمويل والملك طالوت قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ۗ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ .

وختم الله القصة ذات العبر والعظات العظيمة بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ۖ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ، لَاسْتَوَىٰ أَهْلُ الْكُفْرِ وَأَفْسَدُوا الْأَرْضَ بِالظُّلْمِ وَالشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ بِنَدْبِيرِهِ الْحَكِيمِ يَسْلُطُ بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيُدْفَعُ بَعْضًا بِبَعْضٍ مِنْهُ وَفَضْلًا. كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كُنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ .

ثم التفت إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقال له تقريراً لنبوته وعلو مكانته: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ۗ الَّتِي تَقْدَمُ فِي هَذَا السِّيَاقِ ﴿تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ صلى الله عليه وسلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الجهاد الشرعي يشترط له الإمام المبايع بيعة شرعية.
- 2- يشترط للولاية الكفاءة وأهم خصائصها العلم، وسلامة العقل والبدن.
- 3- جواز التبرك بآثار الأنبياء كعمامة النبي أو ثوبه أو نعله مثلاً.
- 4- جواز اختبار أفراد الجيش لمعرفة مدى استعدادهم للقتال والصبر عليه.

5- فضيلة الإيمان بقاء الله، وفضيلة الصبر على طاعة الله خاصة في معارك الجهاد في سبيل الله.

6- بيان الحكمة في مشروعية الجهاد، وهي دفع أهل الكفر والظلم بأهل الإيمان والعدل، لتنظيم الحياة ويعمر الكون.

1 فسر ابن كثير الحكمة بالنبوة لقريظة الملك، إذ جعله الله تعالى ملكاً نبياً؛ كولد سليمان عليهما السلام.

2 وفي صحيح الحديث: "وهل تتصرون وترزقون إلا بضعفائكم" وفيه معنى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} ، وأورد ابن كثير أحاديث في هذا المعنى وضعفها.

* في قول طالوت في رقم 1 من قتل جالوت: أشركه في ملكي وأزوجه ابنتي موجود نظيره في الإسلام. إذ للإمام أن يقول: من جاني برأس فلان فله كذا، ومن دخل حصن كذا فله كذا وكذا.

(1/240)

الجزء الثالث

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)}

شرح الكلمات:

{تِلْكَ الرُّسُلُ} : أولئك الرسل الذين قص الله تعالى على رسوله بعضاً منهم وأخبره أنه منهم في قوله: {وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} . في الآية قبل هذه.

{مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} : كموسى عليه السلام.

{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} : وهو محمد صلى الله عليه وسلم حيث فضله 2 تفضيلاً على سائر الرسل.

{الْبَيِّنَاتِ} : المعجزات الدالة على صدق عيسى في نبوته ورسالته.

{بِرُوحِ الْقُدُسِ} : جبريل عليه السلام كان يقف دائماً إلى جانب عيسى يسدده ويقويه إلى أن رفعه الله تعالى إليه.

{اقْتَتَلُوا} : قتل بعضهم بعضاً.

{أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ} : النفقة الواجبة وهي الزكاة، ونفقة التطوع المستحبة.

1 روى أحمد عن أبي ذر أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: أي الأنبياء كان أول؟ قال: "آدم" قلت: رسول ونبي كان؟ قال: "نعم نبي مكرم" ، قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: "ثلاثمائة وبضعة عشر جمماً غفيراً" .

2 شاهده قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" . ومع هذا زيادة في كماله قال: "لا تفضلوني على موسى" ، وقال على يونس بن متى: "فضلى الله عليّ ما أرفع مقامه" .

(1/241)

{لا بَيْعَ فِيهِ} 1 : لا يشتري أحد نفسه بمال يدفعه فداء لنفسه من العذاب.

{وَلَا خُلَّةٌ} : أي: صداقة تنفع صاحبها.

{وَلَا شَفَاعَةَ} : تقبل إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

{وَالْكَافِرُونَ} : بمنع الزكاة والحقوق الواجبة لله تعالى ولعباده هم الظالمون.

معنى الآيتين:

بعد أن قص الله تبارك وتعالى على رسوله قصة ملاً بني إسرائيل في طلبهم نبيهم شمويل بأن يعين لهم ملكاً يقودهم إلى الجهاد، وكانت القصة تحمل في ثناياها أحداثاً من غير الممكن أن يعلمها أمي مثل محمد صلى الله عليه وسلم بدون ما يتلقاها وحياً يوحيه الله تعالى إليه وختم القصة بتقرير نبوته ورسالته بقوله: {وَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، أخبر الله تعالى أن أولئك الرسل فضل بعضهم على بعض، منهم من فضله بتكليمه كموسى عليه السلام، ومنهم من فضله بالخلة كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من رفعه إليه وأدناه وناجاه وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم من آتاه الملك² والحكمة وعلمه صنعة الدروع كداود عليه السلام، ومنهم من آتاه الملك والحكمة وسخر له الجن وعلمه منطق الطير كسليمان عليه السلام، ومنهم من آتاه البيئات وأيده بروح القدس وهو عيسى عليه السلام. فقال

تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ 3 مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} كنبينا

محمد صلى الله عليه وسلم إذ فضله بعموم رسالته وبختم النبوات بنبوته، وبفضيل أمته، وبإدخاله الجنة في حياته قبل مماته، وبتكليمه ومناجاته مع ما خصه من الشفاعة يوم القيامة. ثم أخبر تعالى أنه لو يشاء هداية الناس لهداهم فلم يختلفوا بعد رسلهم ولم يقتتلوا من بعد ما جانتهم البيئات وذلك لعظيم قدرته، وحرية إرادته فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. هذا بعض ما أفادته الآية

الأولى (253) أما الآية الثانية (254) فقد نادى الله تعالى عباده المؤمنين وأمرهم بالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ

الله تَقْرِباً إِلَيْهِ وَتَرْوِداً لِلْقَائِهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ لَا

1 قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: {لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ} بالنصب من غير تنوين. وأنشد حسان، وهو شاهد هذه القراءة:

ألا طعان ولا فرسان عادية ... ألا تجشؤكم عند التناير

يهجو ناساً فيصنفهم بالقعود عن القتال وملازمة التنور للطعام.

2 الحكمة هنا: هي النبوة كما تقدم عن ابن كثير في: "نهر الخير".

3 هل يجوز للمسلم أن يقول مثل موسى أفضل من هارون، أو إبراهيم أفضل من عيسى مثلاً؟.

الجواب: لا. لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تخيروا بين الأنبياء ولا تفضلوا بين أنبياء الله"، أي: لا تقولون فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان. إذ نحن لا نقدر على التفضيل، وإنما يقدر عليه الله وحده، إذ هو يهب ما يشاء لمن يشاء.

(1/242)

فداء ببيع وشراء، ولا صداقة تجدي ولا شفاعاة تنفع، والكافرون بنعم الله وشرائعه هم الظالمون المستوجبون 1 للعذاب والحرمان والخسران.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- تقاضل الرسل فيما بينهم بحسب جهادهم وصبرهم وما أهلهم الله تعالى له من الكمال.

2- صفة الكلام لله تعالى حيث كلم موسى في الطور، وكلم محمداً في الملكوت الأعلى.

3- الكفر والإيمان والهداية والضلال، والحرب والسلم كل ذلك تبع لمشيئته تعالى وحكمته.

4- ذم الاختلاف في الدين وأنه مصدر شقاء وعذاب.

5- وجوب الإنفاق في سبيل الله مما رزق الله تعالى عبده.

6- التحذير من الغفلة والأخذ بأسباب النجاة يوم القيامة حيث لا فداء ولا خلة تنفع ولا شفاعاة ومن

أقوى الأسباب الإيمان والعمل الصالح وإنفاق المال تقرباً إلى الله تعالى في الجهاد وغيره.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا

الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (255)

1 قال القرطبي عند هذه الآية: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أي: فكافحهم بالقتال بالأنفس وإنفاق

المال، قال: وقال عطاء ابن دينار: الحمد لله الذي قال: الكافرون هم الظالمون، ولم يقل الظالمون

هم الكافرون.

2 صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: 'يا أبا المنذر -أبي بن كعب- أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟' قال: قلت الله لا إله إلا هو الحي القيوم. فضرب في صدري وقال: "ليهنك العلم يا أبا المنذر". وروى أحمد: "أن آية الكرسي تعدل ربع القرآن وأن الزلزلة والكافرون والنصر كل واحدة تعدل ربع القرآن، وأن الصمد تعدل ثلث القرآن".

(1/243)

شرح الكلمات:

{اللَّهُ}: علم على ذات الرب تبارك وتعالى.

{لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}: الإله المعبود، ولا معبود بحق إلا الله، إذ هو الخالق الرازق المدبر بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء، وما عداه من الآلهة فعبادتها بدون حق فهي باطلة.

{الْحَيُّ} 1: ذو الحياة العظيمة التي لا تكون لغيره تعالى وهي مستلزمة للقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام.

{الْقَيُّومُ} 2: القائم بتدبير الملكوت كله علويه وسفليه، القائم على كل نفس بما كسبت.

السنة: النعاس يسبق النوم.

{كُرْسِيُّهُ}: الكرسي: موضع القدمين، ولا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

{يُؤْوَدُهُ}: يثقله ويشق عليه.

معنى الآية الكريمة:

لما أخبر تعالى عن يوم القيامة وأنه يوم لا بيع فيه ولا شفاعة وأن الكافرين هم الظالمون، أخبر عن جلاله وكماله وعظيم سلطانه وأنه هو المعبود بحق وأن عبادته هي التي تنجي من أهوال يوم القيامة فقال: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}: أي: أنه الله المعبود بحق ولا معبود بحق سواه. {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} الدائم الحياة التي لم تسبق بموت ولم يطرأ عليها موت. القيوم: العظيم القيومية على كل شيء، لولا قيوميته على الخلائق ما استقام من أمر العوالم شيء {لا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلا نَوْمٌ} 4: إذ النعاس والنوم من صفات النقص وهو تعالى ذو الكمال المطلق. وهذه الجملة برهان على الجملة قبلها، إذ من ينعس وينام لا يتأتى له القيومية على

1 الحي: أصلها الحيي؛ كالحذر فحذفت كسرة الياء الأولى فسكنت وأدغمت في الثانية فصارت

الحي، والقيوم أصلها القيوم، فقلبت الواو الأولى ياء وأدغمت في الياء فصارت القيوم.

2 روى الترمذي وقال حديث حسن صحيح: "إن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول: " في هاتين الآيتين: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ، و {الم اللَّهُ لا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ، إن فيهما اسم الله الأعظم " ورواه أبو داود، أيضاً.
 3 هذه آية الكرسي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت" رواه النسائي وغيره.
 4 ورد في الصحيح عن أبي موسى قال: "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" .

(244/1)

الخالق ولا يسعها حفظاً ورزقاً وتدبيراً. {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} : خلقاً وملكاً وتصرفاً، {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} : ينفي تعالى وهو الذي له ما في السموات وما في الأرض ينفي أن يشفع عنده في الدنيا أو في الآخرة أحد كائن من كان بدون أن يأذن له في الشفاعة. {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} 1 : لكمال عجزهم. {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} : لكمال ذاته. {وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} : ولا يثقله أو يشق عليه حفظ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} : العلي الذي ليس فوقه شيء والقاهر الذي لا يغلبه شيء، العظيم الذي كل شيء أمام عظمته صغير حقير.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية:

1- أنها أعظم آية في كتاب الله تعالى اشتملت على ثمانية عشر إسماءً لله تعالى ما بين ظاهر ومضمّر، وكلماتها خمسون كلمة وجملها عشر جمل كلها ناطقة بربوبيته تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

2- تستحب قراءتها بعد الصلاة المكتوبة، وعند النوم، وفي البيوت لطرد الشيطان.

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (256) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (257)

1 هذا كناية عن إحاطة علم الله بكل شيء، إذ لا يعزب على علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهو بكل شيء عليم، وأما الخلق فإنهم لا يعلمون إلا ما شاء أن يعلمهم إياه.

2 أورد ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره" رواه الحاكم موقوفاً وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(1/245)

شرح الكلمات:

{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} : لا يكره المرء على الدخول في الدين 1، وإنما يعتنقه بإرادته واختياره.

{الرُّشْدُ} 2 : الهدى الموصل إلى الإسعاد والإكمال.

{الْعِي} : الضلال المفضي بالعبد إلى الشقاء والخسران.

{بِالطَّاعُوتِ} 3 : كل ما صرف عن عبادة الله تعالى من إنسان أو شيطان أو غيرهما.

{بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} 4 : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

{لا انْفِصَامَ لَهَا} : لا تنفك ولا تنحل بحال من الأحوال.

{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} : متوليهم بحفظه ونصره وتوفيجه.

{الظُّلُمَاتِ} : ظلمات الجهل والكفر.

{النُّورِ} : نور الإيمان والعلم.

{أَوْلِيَائِهِمُ الطَّاعُوتِ} : المتولون لهم الشياطين الذين زينوا لهم عبادة الأوثان فأخرجوهم من الإيمان

إلى الكفر ومن العلم إلى الجهل.

معنى الآيتين:

يخبر الله تعالى بعد ذكر صفات جلاله وكماله في آية الكرسي أنه لا إكراه في دينه، وذلك حين أراد

بعض الأنصار إكراه من تهود أو تنصر من أولادهم على الدخول في دين الإسلام، ولذا فإن أهل

الكتابين ومن شابههم تؤخذ منهم الجزية ويقرون على دينهم فلا يخرجون منه إلا باختيارهم وإرادتهم

الحرّة، أما الوثنيون والذين لا دين لهم سوى الشرك والكفر فيقاتلون حتى يدخلوا في الإسلام إنقاداً لهم

من الجهل والكفر وما لازمهم من الضلال والشقاء.

ثم أخبر تعالى أنه بإنزال كتابه وبعثه رسوله ونصر أوليائه قد تبين الهدى من الضلال والحق من

الباطل، وعليه فمن يكفر بالطاغوت وهو الشيطان الذي زين عبادة الأصنام ويؤمن بالله فيشهد أن لا

إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقد استمسك⁵ من الدين بأمتن عروة وأوثقها، ومن يصير على الكفر

بالله والإيمان بالطاغوت فقد تمسك بأوهى من خيط العنكبوت. والله

1 الإكراه: الحمل على فعل المكروه، والدين هنا: الإسلام، وجملة "لا إكراه" خبر بمعنى الإنشاء.

2 يقال: رشد يرشد رشداً، ورشد يرشد رشداً، إذا اهتدى واستقام، وغوى ضده، وألغى مصدر من

غوي يغوي، إذ ضل في معتقد أو رأي.

3 كان العرب في الجاهلية يسمون الصنم المعبود: الطاغية، وفي الحديث: "كان يهلون لمناة الطاغية".

4 الوثقى: مؤنث الأوثق، وجمع الوثقى: الوثائق، مثل: الفضلى، والفضل.

5 السين والتاء في استمسك للتأكيد كما في استجاب بمعنى: أجاب.

(1/246)

سميع لأقوال عباده عليم بنياتهم وخفيات أعمالهم وسيجزي كلاً بكسبه. ثم أخبر تعالى أنه ولي عباده المؤمنين فهو يخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان فيكملون ويسعدون، وأن الكافرين أوليائهم الطاغون من شياطين الجن والإنس الذين حسنوا لهم الباطل والشور، وزينوا لهم الكفر والفسوق والعصيان، فأخرجوهم بذلك من النور إلى الظلمات فأهلوهم لدخول النار فكانوا أصحابها الخالدين فيها.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- لا يكره أهل الكتابين ومن في حكمهم كالمجوس والصابئة على الدخول في الإسلام إلا باختيارهم وتقبل منهم الجزية فيقرون على دينهم.

2- الإسلام 3 كله رشد، وما عداه ضلال وباطل.

3- التخلي عن الرذائل مقدم على التحلي بالفضائل.

4- معنى لا إله إلا الله، وهي الإيمان بالله والكفر بالطاغون.

5- ولاية الله تعالى تتال بالإيمان والتقوى.

6- نصره الله تعالى ورعايته لأوليائه دون أعداءه.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) }

1 وحد تعالى لفظ النور، وجمع لفظ الظلمة، لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة.

2 هل هذه الآية: { لا إكراه في الدين } منسوخة بآية السيف؟ الراجح أنها محكمة غير منسوخة هل تؤخذ الجزية من غير أهل الكتاب ومن لهم شبهة كتاب؟ أما كفار قريش، الإجماع على أن لا تؤخذ منهم الجزية، ومن عداهم مذهب مالك يرى أخذ الجزية منهم، والإبقاء عليهم، ولعل هذا إن دعت

الضرورة إلى ذلك، وما ذكرته في التفسير أصح المذاهب وأعدلها.
3 جاء في صحيح البخاري ما ملخصه: أن عبد الله بن سلام رأى رؤيا كأنه في دوحة خضراء وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء في أعلاه عروة.. الحديث وفسر له النبي صلى الله عليه وسلم: "الروضة بالإسلام، والعمود عمود الإسلام، والعروة هي العروة الوثقى". أي أنت على الإسلام حتى تموت. فكان مباشرةً بالجنة رضي الله عنه.

(1/247)

شرح الكلمات:

{أَلَمْ تَرَ} : ألم ينته إلى علمك يا رسولنا، والاستفهام يفيد التعجب من الطاغية المحاج لإبراهيم.

{حَاجَّ} : جادل ومارى وخاصم.

{فِي رَبِّهِ} : في شأن ربه من وجوده تعالى وربوبيته وألوهيته للخلق كلهم.

{آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} : أعطاه الحكم والسيادة على أهل بلاده وديار قومهم.

{إِبْرَاهِيمَ} : هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان هذا الحجاج قبل هجرة إبراهيم إلى

أرض الشام.

{قُبِّهَتْ الَّذِي كَفَرَ} : انقطع عن الحجة متحيراً مدهوشاً ذاك الطاغية الكافر وهو النمرود البابلي.

معنى الآية الكريمة:

لما ذكر الله تعالى ولايته لأوليائه وأنه مؤيدهم وناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور ذكر مثلاً لذلك وهو محاجة النمرود2 البابلي لإبراهيم عليه السلام فقال تعالى مخاطباً رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} أي: لم ينته إلى علمك حجاج ذاك الطاغية الذي بطرته نعمة الملك الذي آتياه امتحاناً له فكفر وادعى الربوبية وحاج خليلنا فبين إنه لأمر عجب. إذ قال له إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، وأنت لا تحيي ولا تميت، فقال أنا أحيي3 وأميت، فرد عليه إبراهيم حجته قائلاً: ربي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب، فاندعش وتحير وانقطع وأيد الله وليه إبراهيم فانتصر4، فهذا مثال لإخراج الله تعالى أوليائه من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

1 إذ هو ملك بابل وقيل أنه أحد الأربعة الذين ملكوا المعمورة وهم مسلمان، وكافران، فالمسلمان:

سليمان، وذو القرنين عليهما السلام. والكافران: النمرود، وبختنصر عليهما لعائن الرحمن.

2 يقال له النمرود بن كوثن بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام، وفي الآية دليل على جواز إطلاق اسم الملك على الحاكم الكافر ولما حارب الله تعالى أهلكه مع جيشه بالبعوض إذ فتح عليهم

باباً من البعوض فأكلت الجيش فلم تتركه إلا عظماً، وأما النمرود فقد دخلت بعوضة في دماغه فصار يضرب على دماغه حتى هلك بذلك.

3 يريد أنه يحيي من أراد حياته، ويميت من أراد موته، وهذا مجرد تمويه وسفسطة فلذا عدل إبراهيم عنها وألزمه الحجة إن كان صادقاً في دعواه بالإتيان بالشمس من المغرب كما يأتي بها الله من المشرق.

4 يذكر أهل التفسير هنا أن إبراهيم ذهب يمتار من عند الملك كغيره فجادله الملك ومنعه الميرة فعاد بلا شيء وفي أثناء طريقه وجد رملًا أحمر فملأ منه غرارتين حتى لا يفاجئ أهله بالخبيثة ولما وصل ونام قامت زوجته سارة ففتحت الغرارة فوجدتها دقيقاً من أجود الدقيق الحواري.

(1/248)

هداية الآية:

من هداية الآية:

- 1- النعم تبطر صاحبها إذا حرم ولاية الله تعالى.
 - 2- نصره الله لأولياءه وإلهامهم الحجة لخصم أعدائهم.
 - 3- إذا ظلم العبد ووالى الظلم حتى أصبح وصفاً له يحرم هداية الله تعالى فلا يهتدي أبداً.
 - 4- جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقيدة الصحيحة السليمة.
- {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {259}

شرح الكلمات:

{قَرْيَةٌ} 1 : مدينة لم يذكر الله تعالى اسمها فلا يبحث عنها لعدم جدوى معرفتها.

{خَاوِيَةٌ} : فارغة من سكانها ساقطة 2 عروشها على مبانيها وجدرانها.

{أَنَّى يُحْيِي} : كيف يحيي 3.

1 سميت القرية قرية: لاجتماع الناس فيها، مأخوذ من قرئت الماء إذا جمعته، وهي في القرآن، المدينة الكبيرة، والمراد بها هنا بيت المقدس، وقد خربها الطاغية بختنصر ثم بعد سبعين سنة أعيد بناؤها كما كانت.

2 العريش: سقف البيت، وجمعه: عروش ، وهو كل ما يهياً ليظل أو يكن من ينزل تحته، ومنه

عريش الدالية، أي شجرة العنب، إذ يعرش لها عريش تمد عليه أغصانها لتتدلى منه عناقيدها.
3 اختلف فيمن هو المار على القرية، هل هو عزيز أو إرميا، أو الخضر، وأرجح الأقوال إنه عزيز،
وما دام الله ورسوله لم يذكر اسمها فلا داعي إلى ذكره، والتعرف إليه، ولذا لم أذكره في التفسير.

(1/249)

{بَعْدَ مَوْتِهَا} : بعد خوائها وسقوطها على عروشها.

{لَبِثَتْ} : مكثت وأقمت.

{لَمْ يَنْسَأْهُ} 1 : لم يتغير بمر السنين عليه.

{آيَةٌ} : علامة على قدرة الله على بعث الناس أحياء يوم القيامة.

{نُنَشِّرُهَا} : في قراءة ورش: ننشرها، بمعنى: نحيتها بعد موتها. وننشرها: نرفعها ونجمعها لتكون
حماراً كما كانت.

معنى الآية:

هذا مثل آخر معطوف على الأول الذي تجلت فيه على حقيقتها ولاية الله لإبراهيم حيث أیده بالحجة
القاطعة ونصره على عدوه النمرود، قال تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ} فارغة من
سكانها ساقطة سقوفها على مبانيها فقال المار بها مستبعداً حياتها مرة ثانية: كيف يحيي الله هذه
القرية بعد خرابها؟ فأماته الله مائة عام ثم أحياه، وسأله: كم لبثت؟ قال: حسب عادة من نام في يوم
واستيقظ فيه، فإنه يرى أنه نام يوماً أو بعض يوم، فأجابه مصوباً له فهمه: {بَلْ لَبِثَتْ مِائَةَ عَامٍ} ،
ولكي تفتتح بما أخبرت به، فانظر إلى طعامك وكان سلة من تين وشرابك وكان عصيراً من عنب
فإنه لم يتغير طعمه ولا لونه، وقد مر عليه قرن من الزمن، و انظر إلى حمارك فإنه هلك بمرور
الزمن ولم يبقى منه إلا عظامه تلوح بيضاء فهذا دليل قاطع على موته وفناؤه لمرور مائة سنة عليه،
وانظر إلى العظام كيف نجمعها ونكسوها لحماً فإذا هي حمارك الذي كنت تركبه من مائة سنة،
ونمت وتركته إلى جانبك يرتع، وتجلت قدرة الله تعالى في عدم تغير الذي جرت العادة أنه يتغير في
ظرف يوم واحد، وهو سلة التين وشراب العصور. وفي تغير الذي جرت العادة أنه لا يتغير إلا في
عشرات الأعوام، وهو الحمار. كما هي ظاهرة في موت صاحبهما وحياته بعد لبثه على وجه الأرض
ميتاً لم يعثر عليه أحد طيلة مائة عام. وقال له الرب تبارك وتعالى بعد أن وقفه على مظاهر قدرته
فعلنا هذا بك لنريك 2 قدرتنا على إحياء القرية متى أردنا إحياءها ولنجعلك في قصتك هذه آية
للناس،

1 مشتق من السنة لأن مر السنين يوجب التغير فتسنه تغير بمر السنين عليه، مثل تحجر الطين

صار حجراً بمرور الأيام أو الساعات عليه.

2 قوله تعالى: {وَلِنَجْعَلَكَ} قيل: الواو مقحمة، والأصل: لنجعلك، وعلى أصالة الواو وعدم إقامتها يكون المعنى، أريناك ذلك لتعلم قدرتنا ولنجعلك آية للناس، فالواو عاطفة إذا وهو وظيفتها أي: العطف.

(1/250)

تهديهم إلى الإيمان بنا وتوحيدنا في عبادتنا وقدرتنا على البعث الآخر الذي لا ريب فيه لتجزى كل نفس بما كسبت، وأخيراً لما لاحت أنوار ولاية الله في قلب هذا العبد المؤمن الذي أثار تعجبه خراب القرية فاستبعد حياتها قال: أعلم 1 أن الله على كل شيء قدير، فهذا مصداق قوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ 2 إِلَى النُّورِ} هداية الآية

من هداية الآية:

1- جواز طرود استبعاد ما يؤمن به العبد أنه حق وكائن، كما استبعد هذا المؤمن المار بالقرية حياة القرية مرة أخرى بعد ما شاهد من خرابها وخوائها.

2- عظيم قدرة الله تعالى بحيث لا يعجزه تعالى شيء وهو على كل شيء قدير.

3- ثبوت البعث الآخر وتقريره.

4- ولاية الله تعالى للعبد المؤمن التقي تجلت في إذهاب الظلمة التي ظهرت على قلب المؤمن باستبعاده قدرة الله على إحياء القرية، فأراه الله تعالى من مظاهر قدرته ما صرح في قوله: {أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)}

1 وقرئ: أعلم، والقاتل له حينئذ الله تبارك وتعالى أو ملك من ملائكته، أو هو خاطب نفسه قائلاً لها اعلمي يا نفسي هذا العلم اليقيني الذي ما كنت تعلمينه.

2 لما قرر تعالى ولايته للذين آمنوا وإنه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ذكر لذلك ثلاثة أحداث تجلى في كل واحد منها مصداق ما أخبر به، فالأول محاجة النمرود لإبراهيم وإعطاءه تعالى نور العلم الذي أسكت به المجادل الكافر النمرود. والثاني: استبعاد عزيز إحياء الله مدينة القدس بعد تدميرها وتخريبها فأراه الله من آياته ما أذهب عنه ما وجده في نفسه من استبعاد حياة تلك المدينة،

والثالث: طلب إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وقد أراه ذلك فأذهب به ما وجده إبراهيم من التطلع إلى معرفة ذلك.

(1/251)

شرح الكلمات:

{إِبْرَاهِيمُ}: هو خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه السلام.

{لِيَطْمِئِنَّ قَلْبِي}: يسكن ويهدأ من التطلع والتشوق إلى الكيفية.

{قَصْرُهُنَّ 1 إِلَيْكَ}: أملهن واضممن إليك وقطعهن أجزاء.

{سَعِيًّا}: مشياً سريعاً وطيراناً.

{عَزِيزٌ}: غالب لا يمتنع عنه ولا منه شيء أرادته بحال من الأحوال.

{حَكِيمٌ}: لا يخلق عبثاً ولا يوجد لغير حكمة، ولا يضع شيئاً في غير موضعه اللائق به.

معنى الآية الكريمة:

هذا مثل ثالث يوجه إلى الرسول والمؤمنين حيث تتجلى لهم ولايته تعالى لعباده المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور حتى مجرد ظلمة باستبعاد شيء عن قدرة الله تعالى، أو تطلع إلى كيفية إيجاد شيء ومعرفة صورته. فقال تعالى: اذكروا {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} . سأل إبراهيم ربه أن يريه طريقة الإحياء كيف تتم هل هي جارية على نواميس معينة أم هي مجرد قدرة يقول صاحبها للشيء كن فيكون، فسأله ربه وهو عليم به أتقول الذي تقول ولن تؤمن؟ قال إبراهيم: بلى أنا مؤمن بأنك على كل شيء قدير، ولكن أريد أن أرى صورة لذلك يطمئن لها قلبي ويسكن من التطلع والتشوق إلى معرفة المجهول لدي. فأمره تعالى إجابته له لأنه وليه فلم يشأ أن يتركه يتطلع إلى كيفية إحياء ربه الموتى، أمره بأخذ أربعة طيور 3 وذبحها وتقطيعها أجزاء وخلطها مع بعضها بعضاً ثم وضعها على أربعة جبال 4 على كل جبل ربع الأجزاء المخلوطة، ففعل، ثم أخذ برأس كل طير على حدة

1 فسر: {صرهن} بأملهن وقطعهن كما في التفسير، والكل صحيح، إذ إما إمالتهن أولاً ثم تقطيعهن وشاهد أملهن في قول العرب: رجل أصور إذا كان مائل العنق. وامرأة صورا، وجمع صور؛ كسوداء وسود، وعليه قول الشاعر:

الله يعلم أنا في تلفنتنا ... يوم الفراق إلى جيراننا صور

وشاهد قطعهن قوله: صار الشيء يصوره إذا قطعه، ومنه قول الشاعر:

بنهضي وقد كاد ارتقائي يصورها

2 هذا السؤال والله ما كان عن شك من إبراهيم أبداً، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"، أي لو شك إبراهيم لكنا نحن أحق بالشك لضعفنا ولكن ما شك إبراهيم، وكل ما طلبه زيادة اليقين برؤية كيفية الإحياء كيف تتم، فسلام على إبراهيم الخليل وعلى محمد في العالمين

3 يروى عن ابن عباس وبعض علماء السلف إنها كانت حمامة وديكاً وغراباً وطاووساً وليس في معرفتها كبير فائدة فلذا لم أذكرها في التفسير.

4 الجبل: قطعة عظيمة من الأرض أرسى الله تعالى بها الأرض حتى لا تضطرب وتتحرك ومنافعها كثيرة منها: أن بعض الناس يتخذونها حصوناً مانعة من وصول العدو إليهم. قال السموأل: لنا جبل يحتله من نجيره... منيع يرد الطرف وهو كليل وهو أحد جبال طيء شمال الحجاز.

(1/252)

ودعاه فاجتمعت أجزائه المفرقة المختلطة بأجزاء غيره وجاءه يسعى فقدم له رأسه فالتصق به وطار في السماء وإبراهيم ينظر ويشاهد مظاهر قدرة ربه العزيز الحكيم. سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه. هداية الآية الكريمة من هداية الآية الكريمة:

1- غريزة الإنسان في حب معرفة المجهول والتطلع إليه.

2- ولاية الله تعالى لإبراهيم حيث أراه من آياته ما اطمئن به قلبه وسكنت له نفسه.

3- ثبوت عقيدة الحياة الثانية ببعث الخلائق أحياء بالحساب والجزاء.

4- زيادة الإيمان واليقين كلما نظر العبد إلى آيات الله الكونية، أو قرأ وتدبر آيات الله القرآنية. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَمَّ لَا يُلْبِغُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أذى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ (263)﴾

1 قالت العلماء: من غرائز الإنسان التي جبل عليها حبه معرفة المجهول والآية أكبر شاهد، إذ الخليل أحب أن يعرف كيفية إحياء الموتى.

2 إذ رؤية إبراهيم لكيفية إحياء الله تعالى الموتى من الطير أكبر دليل على قدرة الله تعالى على

إحياء العباد يوم القيامة ومن هداية هذه الآية إراءه المشركين المنكرين للبعث الآخر هذه الحادثة العجيبة كأنهم يشاهدونها فتقوم بذلك الحجة عليهم وعلى كل منكر للبعث والحياة الآخرة.

(1/253)

شرح الكلمات:

{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ 1} : صفتهم المستحسنة العجيبة.

{سَبِيلِ اللَّهِ} : كل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى من الإيمان وصالح الأعمال.

{يُضَاعَفُ} : يزيد ويكثر حتى يكون الشيء أضعاف ما كان.

{مَتَا وَلَا أَدَى} : المن 2: ذكر الصدقة وتعدادها على من تصدق بها عليه على الوجه التفضل عليه.

والأدى: التناول على المتصدق عليه وإذلاله بالكلمة النابية أو التي تمس كرامته وتحط من شرفه.

{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ} : كلام طيب يقال للسائل المحتاج، نحو: الله يرزقنا وإياكم، الله كريم. الله يفتح علينا

وعليك.

{وَمَغْفِرَةٌ} : ستر على الفقير بعدم إظهار فقره، والعفو عن سوء خلقه إن كان كذلك.

{عَنِي} : غني ذاتي لا يفتقر معه إلى شيء أبداً.

{حَلِيمٌ} : لا يعاجل بالعقوبة بل يعفو ويصفح.

معنى الآيات:

يخبر تعالى مرغباً في الجهاد بالمال لتقدمه على الجهاد بالنفس؛ لأن العدة أولاً والرجال ثانياً، أن

مثل ما ينفقه المؤمن في سبيل الله وهو هنا الجهاد، في نماءه وبركته وتضاعفه، كمثل حبة 3 بر

بذرت في أرض طيبة فأنبئت سبع 4 سنابل في كل سنبله مائة حبة فأثمرت الحبة الواحدة سبعمئة

حبة، وهكذا الدرهم الواحد ينفقه المؤمن في سبيل الله يضاعف إلى سبعمئة

1 ذكر القرطبي: أنه روي أن هذه الآية: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ} نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد

الرحمن بن عوف، إذ عثمان جهز جيش العسرة في غزوة تبوك، وعبد الرحمن خرج بنصف ماله

وهو أربعة آلاف، فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم: "بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت".

2 المن: من كبائر الذنوب، إذ صاحبه أحد ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم

عذاب أليم "في صحيح مسلم" والمنان هو الذي لا يعطي شيئاً إلا منة.

3 الحب: اسم جنس لكل ما يزرعه الإنسان ويقناته وأكثر ما يراد بالحب: البر، ومنه قول المثلث:

أليت حب العراق الدهر أطعمه ... والحب يأكله في القرية السوس

والحبة بكسر الحاء: بذور البقول مما ليس بقوت، وفي حديث الشفاعة: "فينبتون كما تنب الحبة في

حميل السيل" وحبّة القلب سويدائه، والحب معروف ضد الكره.
4 في الآية: دليل على مشروعية الزراعة، وهي واجب كفاي وورد فيها: "التمسوا الرزق في خبايا الأرض". رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها.

(1/254)

ضعف، وقد يضاعف إلى أكثر لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} هذا ما تضمنته الآية الأولى(261)، وأما الآية الثانية(262) فهي تحمل بشرى الله تعالى للمنفقين في سبيله الذين لا يتبعون ما أنفقوه مناً به ولا أذى لمن أنفقوه عليه بأن لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من حياتهم ولا هم يحزنون على ما يتركون وراءهم ويخلفون. وهذه هي السعادة حيث خلت حياتهم من الخوف والحزن حل محلها الأمن والسرور. وأخيراً الآية الثالثة(263) وهي: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ...} فإن الله تعالى يخبر بأن الكلمة الطيبة تقال للفقير ينشرح لها صدره وتطيب لها نفسه خير من مال يعطاه صدقة عليه يهان به ويدل فيشعر بمرارة الفقر أكثر، وألم الحاجة أشد، ومغفرة وستر لحالته وعدم فضيخته أو عفو عن سوء خلقه؛ كالحاحه في المسألة، خير أيضاً من صدقة يفضح¹ به ويعاتب ويشنع عليه بها، وقوله في آخر الآية: {وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ} أي: مستغن عن الخلق حلیم لا يعاجل بالعقوبة من يخالف أمره.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضل النفقة في الجهاد وإنها أفضل النفقات.
 - 2- فضل الصدقات وعواقبها الحميدة.
 - 3- حرمة المن بالصدقة وفي الحديث: "ثلاثة لا يدخلون الجنة...". وذكر من بينهم المنان.
 - 4- الرد الجميل على الفقير إذا لم يوجد ما يعطاه، وكذا العفو عن سوء القول منه ومن غيره خير من الصدقة يتبعها أذى، وفي الحديث: "الكلمة الطيبة صدقة".
- لَبِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

1 وصح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "الكلمة الطيبة صدقة" وقوله: "ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"، قال: "لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه ولا منان".

(1/255)

تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)

شرح الكلمات:

إبطال الصدقة 1 : حرمان من ثوابها.

{بِالْمَنْ 2 وَالْأَذَى} : تقدم معناهما.

{رِئَاءَ النَّاسِ} : مراعاة لهم ليكسب محمديهم، أو يدفع مذمتهم.

{صَفْوَانٍ} 3 : حجر أملس.

{وَابِلٌ} 4 : مطر شديد.

{صَلْدًا} : أملس ليس عليه شيء من التراب.

{لَا يَقْدِرُونَ} : يعجزون عن الانتفاع بشيء من صدقاتهم الباطلة.

معنى الآية:

بعد أن رغب تعالى في الصدقات ونبه إلى ما يبطل أحرها وهو المن والأذى نادى عباده المؤمنين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...} ناهياً عن إفساد صدقاتهم وإبطال ثوابها فقال: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى} مشبهاً حال إبطال الصدقات بحال صدقات المرابي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر في بطلانها فقال: {وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ 5 مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} وضرب مثلاً لبطلان صدقات من يتبع صدقاته مناً أو أذى أو يرابي بها الناس أو هو كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فقال: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ}

1 قالت العلماء: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها إنه يمن أو يؤذي بها فإنها لا تقبل، وهو كما قالوا: لأن الله تعالى قال: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى} وإبطالها هو عدم قبولها وإذا لم تقبل فلا يعطي صاحبها ثواباً عليها وهو معنى لا تقبل.

2 يقال طعم الآلاء أحلى من المن، وهو أمرٌ من الآلاء عند المن. الآلاء الأول: النعم، والثاني: شجر من الورق. والمن الأول: شيء يشبه العسل، والثاني: تذكير المنعم عليه بالنعمة.

3 الصفوان: واحدة صفوانه.

4 يقال: وبلت السماء تبل والأرض مبولة، ومنه قوله تعالى: {فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْقَالًا مِمَّا كَسَبُوا} أي: شديداً.

5 إن الكافر قد يعطي المال ولكن ليراه الناس فيمدحوه ويشكروه وهذا عمل أهل الجاهلية الماضية والحاضرة أيضاً.

6 أي: إنفاقاً؛ كأنفاق الذي ينفق ماله رياء الناس طلباً لمحمدتهم أو خوفاً من مذمتهم.

أي حجر أمّلس عليه تراب 1، {فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا} أي: نزل عليه مطر شديد فأزال التراب عنه فتزكه أمّلس عارياً ليس عليه شيء، فكذاك تذهب الصدقات الباطلة ولم يبق منها لصاحبها شيء ينتفع به يوم القيامة، فقال تعالى: {لَا يَفْذِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا} أي: مما تصدقوا به، {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} إلى ما يسعدهم ويكملهم لأجل كفرانهم به تعالى.
هداية الآية:

من هداية الآية:

1- حرمة المن والأذى في الصدقات وفسادها بها.

2- بطلان صدقة المان والمؤذي والمرائي بهما.

3- حرمة الرياء وهي من الشرك لحديث: "واياكم والرياء فإنه الشرك الأصغر".

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)}

1 التراب على الصفوان: عندما يراه الفلاح يعجبه لنعومة التربة وصفائها فيبذر فيه رجاء أن يحصد ولكن إذا نزل عليه المطر الشديد وذهب به وبالبذر معه فيصاب صاحبه بخيبة الأمل، فكذاك المنفق رياء الناس.

2 هذه الجملة زيل بها الكلام لتحمل تحذيراً شديداً للمؤمنين أن يسلكوا مسالك الكافرين في إنفاقهم وأعمالهم فإنها باطلة خاسرة.

(1/257)

شرح الكلمات:

المثل : الصفة المستملحة المستغربة.

{ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} : طلباً لرضا الله تعالى.

{وَتَنْبِيئًا} 1 : تحقيقاً وتيقناً بمثوبة الله تعالى لهم على إنفاقهم في سبيله.

{جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ} 2 : بستان كثير الأشجار بمكان مرتفع.

{ضِعْفَيْنِ} : مضاعفاً مرتين، أو ضعفي ما يثمر غيرها.

الوابل : المطر الغزير الشديد.

الطل : المطر الخفيف.

{عَصَارٌ} : ريح عاصف فيها سموم.

معنى الآيتين:

لما ذكر الله تعالى خيبة المنفقين أموالهم رياء الناس محذراً المؤمنين من ذلك ذكر تعالى مرغياً في النفقة التي يريد بها العبد رضا الله وما عنده من الثواب الأخرى فقال ضارباً لذلك مثلاً: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} أي: طلباً لمرضاته {وَتَنْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ} أي: تحققاً وتيقناً منهم بأن الله تعالى سيثيبهم عليها مثلهم في الحصول ما أملوا من رضا الله وعظيم الأجر؛ كمثل جنة بمكان مرتفع عالٍ أصابها مطر غزير فأعطت ثمرها ضعفي ما يعطيه غيرها من البساتين، ولما كانت هذه الجنة بمكان عالٍ مرتفع فإنها إن لم يصبها المطر الغزير فإن الندى والمطر اللين الخفيف كافٍ في سقيها وريها حتى تؤتي ثمارها مضاعفاً مرتين، وختم تعالى هذا الكلام الشريف بقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} قواعد به المنفقين ابتغاء مرضاته وتنبئاً من أنفسهم بعظم الأجر وحسن المثوبة، وأوعد به المنفقين الذين يتبعون ما أنفقوا بالمن والأذى والمنفقين رياء الناس بالخبية والخسران.

كان هذا معنى الآية الأولى (265) وأما الآية الثانية (266) فإنه تعالى بسائل عباده تربية

- 1 لقد اختلف في معنى: {وَتَنْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ} ورجح ما فسرناه به في التفسير وهناك معنى آخر لطيف وهو: وتنبئاً لأنفسهم على الإيمان وأفعال البر لأن الحسنه تلد الحسنه، فهم ينفقون أموالهم طلباً لرضوان الله وترويضاً منهم لأنفسهم على فعل الخير والإحسان.
- 2 الربوة: مثلثة الراء: المكان المرتفع.

(1/258)

لهم وتهذيباً لأخلاقهم وسموا بهم إلى مدارج الكمال الروحي فيقول: {أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ} أي: أوجب أحدكم أيها المنفقون في غير مرضاة الله تعالى أن يكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات والحال أنه قد تقدمت به السن وأصبح شيخاً كبيراً، ومع هذا العجز فإنه له ذرية صغاراً لا يقدر على الكسب وجلب عيشهم بأنفسهم، وأصاب ذلك البستان الذي هو مصدر عيش الوالد وأولاده أصابه ريح عاتية تحمل حرارة السموم 2 فأنتت على ذلك البستان فأحرقته، كيف يكون حال الرجل 3 الكبير وأولاده؟ هكذا الذي ينفق أمواله رياء الناس يخسرهما كلها في وقت هو أحوج إليها من الرجل العجوز وأطفاله الصغار، وذلك يوم 4 القيامة، وأخيراً يمتن تعالى على عباده

بما يبين لهم من الآيات في العقائد والعبادات والمعاملات والآداب ليتفكروا فيها فيهدتوا على ضوئها إلى كمالهم وسعادتهم فقال تعالى: {كَذَلِكَ} أي: كذلك التبيين {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} 5 .

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- استحسان ضرب الأمثال تقريباً للمعاني إلى الأذهان لينتفع بها.
- 2- مضاعفة أجر الصدقة الخالية من المن والأذى ومراعاة الناس.
- 3- بطلان صدقات المان والمؤذي والمرائي وعدم الانتفاع بشيء منها.
- 4- وجوب التفكير في آيات الله لا سيما تلك التي تحمل بيان العقائد والأحكام والآداب والأخلاق.

1 الود: حب الشيء مع تمنيه.

2 ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "أبردوا بصلاتكم في الحر فإن شدة الحر من فيح جهنم" رواه البخاري وغيره.

3 روى الحاكم وذكره ابن كثير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول: "اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري".

4 روى البخاري أن عمر رضي الله عنه سأل يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: {أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ} فقالوا: الله أعلم. فقال: قولوا: نعلم ولا نعلم. فقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. فقال: ضربت مثلاً لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

5 أي: في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها، وهذا لا يتنافى مع ما فسرنا به الآية. في التفسير.

(1/259)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)}

شرح الكلمات:

{مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ}: من جيد أموالكم وأصلحها.
{وَمِمَّا أُخْرِجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}: من الحبوب وأنواع الثمار.
{وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ}: لا تقصدوا الرديء تنفقون منه.
{إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ 1}: إلا أن تغضوا أبصاركم عن النظر في رداءته فتأخذونه بتساهل منكم وتسامح.

{حَمِيدٌ}: محمود في الأرض والسماء في الأولى والأخرى لما أفاض وبفيض من النعم على خلقه.
{يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ}: يخوفكم من الفقر ليمنعكم من الإنفاق في سبيل الله.
{وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ}: يدعوكم إلى ارتكاب الفواحش ومنها البخل والشح.
{الْحِكْمَةَ}: فهم أسرار الشرع، وحفظ الكتاب والسنة.
{أُولُو الْأَلْبَابِ}: أصحاب العقول الراجحة المفكرة فيما ينفع أصحابها.

1 يقال: أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقه وتجاوز، وما في التفسير فهو مأخوذ من تغميض العين لعدم رؤية العيب والرداءة، وقراءة الجمهور تشهد للمعنيين التجاوز، وتغميض العين.

(1/260)

معنى الآيات:

بعدما رغب تعالى عباده المؤمنين في الإنفاق في سبيله في الآية السابقة ناداهم هنا بعنوان الإيمان، وأمرهم بإخراج زكاة أموالهم من جيد ما يكسبون فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ 2} وَمِمَّا أُخْرِجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ يريد الحبوب والثمار كما أن ما يكسبونه يشمل النقدين والماشية من إبل وبقر وغنم، ونهاهم عن التصدق بالرديء من أموالهم، فقال: {وَلَا تَيَمَّمُوا 3 الْخَبِيثَ مِنْهُ 4 تُنْفِقُونَ} وَأَسْتَمْتُمْ بِأَخْبِهِ {إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ} يريد لا ينبغي لكم أن تنفقوا الرديء وأنتم لو أعطيتموه في حق لكم ما كنتم لتقبلوه لولا أنكم تغمضون وتتساهلون في قبوله، وهذا منه تعالى تأديب لهم وتربية. وأعلمهم أخيراً أنه تعالى غني عن خلقه ونفقاتهم فلم يأمرهم بالزكاة والصدقات لحاجة به، وإنما أمرهم بذلك لإكمالهم وإسعادهم، وأنه تعالى حميد محمود بماله من إنعام على سائر خلقه، كان هذا معنى الآية (267) أما الآية (268) فإنه تعالى يحذر عباده من الشيطان ووسواسه فأخبرهم أن الشيطان يعدهم الفقر 5، أي: يخوفهم منه حتى لا يزكوا ولا يتصدقوا ويأمرهم بالفحشاء فينفقون أموالهم في الشر والفساد ويبخلون بها في الخير، والصالح العام، أما هو تعالى فإنه بأمره إياهم بالإنفاق يعدهم مغفرة ذنوبهم؛ لأن الصدقة تكفر الخطيئة، وفضلاً منه وهو الرزق الواسع الحسن، وهو الواسع

الفضل العليم بالخلق. فاستجيبوا أيها المؤمنون لنداء الله تعالى، وأعرضوا عن نداء الشيطان فإنه عدوكم لا يعدكم إلا بالشر، يأمركم إلا بالسوء والباطل، كان هذا ما تضمنته الآية الثانية، أما الآية الثالثة (269) فإن الله تعالى يرغب في تعلم العلم النافع الذي يحمل على العمل الصالح، ولا يكون ذلك إلا علم الكتاب والسنة حفظاً وفهماً وفقهاً فيهما فقال

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ...} إلخ. اثنتان من الله تعالى، واثنتان من الشيطان. ويفسره حديث الترمذي إذ فيه قول صلى الله عليه وسلم: "إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك: فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: {الشَّيْطَانُ...} الآية.

2 الآية في الزكاة قطعاً، والنهي عن الإنفاق من الرديء يشمل الزكاة. والتطوع معاً.

3 روى الحاكم وصححه على شرط الشيخين في سبب نزول هذه الآية عن البراء قال: هذه الآية نزلت فينا، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فيسقط من البسر والتمر فيأكل وكان أناس مما لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص فيعلقه فنزلت: {وَلَا تَبْتَغُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} الآية.

4 أي: من الخبيث الذي هو الرديء.

5 تفتح فاء الفقر، وتضم كالضعف والضعف.

(1/261)

تعالى: {يُؤْتِي} أي: هو تعالى: {الْحِكْمَةَ مَنْ 1 يَشَاءُ} من طلبها وتعرض لها رغباً فيها سائلاً الله تعالى أن يعلمه، وأخبر أخيراً أن من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً² فليطلب العاقل الحكمة قبل طلب الدنيا هذه تذكرة {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب الزكاة في المال الصامت من ذهب وفضة وما يقوم مقامهما من العمل وفي الناطق من الإبل والبقر والغنم إذ الكل داخل في قوله: {وَمَا كَسَبْتُمْ} وهذا بشرط الحول³ وبلوغ النصاب.

2- وجوب الزكاة في الحرث: الحبوب والثمار وذلك فيما بلغ نصاباً، وكذا في المعادن إذ يشملها لفظ الخارج من الأرض.

3- قبح الإنفاق من الرديء وترك الجيد.

4- التحذير من الشيطان ووجوب مجاهدته بالإعراض عن وساوسه ومخالفة أوامره.

5- إجابة نداء الله والعمل بإرشاده.

6- فضل العلم على المال.

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270) إِنَّ تَبَدُّوا
الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ

1 الحكمة: النبوة والقرآن والإصابة في الأمور بوضع كل شيء في موضعه، فأعلى الحكمة النبوة ثم القرآن والسنة. وفي الصحيح: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها". واللفظ يشمل القرآن والسنة.

2 أصل الحكمة: إحكام الشيء وإتقانه، وعليه حفظ القرآن والسنة وفهما والعمل بهما هو الحكمة، وفي الصحيح: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". وورد: رأس الحكمة مخافة الله.

3 الحول: هو مرور سنة كاملة على زكاة النقيدين والأنعام وعروض التجارة، والنصاب في الحبوب والثمار خمسة أوسق لحديث الصحيح: "ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة" والوسق: ستون صاعاً، والصاع: أربعة أمداد. وفي النقيدين: الذهب عشرون ديناراً ما يعادل سبعين غراماً، وفي الفضة: مائتا درهم: ما يعادل 460 غراماً، وفي الغنم أربعون شاة، وفي البقر ثلاثون بقرة، وفي الإبل خمس منها. 4 قوله تعالى: {فَنِعِمَّا هِيَ} ثناء على إبداء الصدقة وقوله: {وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ} حكم على أن الإخفاء خير من الإبداء، قال أحد الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره. قال دعبل الخزاعي:

إذا انتقموا أعلنوا أمرهم ...

وإن أنعموا أنعموا باكتنام

(1/262)

فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)

شرح الكلمات:

{مِنْ نَفَقَةٍ}: يريد قليلة أو كثيرة من الجيد أو الرديء.

{مِنْ نَذْرٍ}: النذر 1: التزام المؤمن بما لم يلزمه به الشارع، كأن يقول: لله عليّ أن أتصدق بألف؛ أو

أصوم شهراً أو أصلى كذا ركعة يقول: إن حصل 2 لي كذا من الخير أفعل كذا من الطاعات.

{إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ}: أي تظهروها.

{قَنِعِمَّا هِيَ} : فنعم تلك الصدقة التي أظهرتموها لُيفتدى بكم بها.
{وَيُكْفَرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ} : يكفر بمعنى: يسترها ولا يطالب بها، ومن للتبعيض إذ حقوق العباد لا تكفرها الصدقة.

معنى الآية الكريمة:

بعدما دعا تعالى عباده إلى الإنفاق في الآية السابقة أخبر تعالى أنه يعلم ما ينفقه عباده فإن كان المنفق جيداً صالحاً يعلمه ويجزي به وإن كان خبيثاً رديئاً يعلمه ويجزي به، وقال تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا}3 فما كان مبتغي به وجه الله ومن جيد المال فسوف يكفر به السيئات ويرفع به الدرجات، وما كان رديئاً ونذراً لغير الله تعالى فإن أهله ظالمون وسيغرمون أجر نفقاتهم ونذرهم لغير الله ولا يجدون من يثيبهم على شيء منها لأنهم ظالمون فيها حيث وضعوها في غير موضعها، {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} هذا ما تضمنته الآية الأولى(270).

- 1 مما يجب علمه أنه شاع في العامة بين المسلمين النذر للأولياء والصالحين وهو محرم قطعاً إذ هو من شرك العبادة فبعضهم يقول يا سيدي فلان إن قضى الله حاجتي فعلت لك كذا، وآخر يقول: إن حصل لي كذا ذبحت لك أو جددت بناء قبتك أو أنرت ضريحك، فيجب أن ينهى عن هذا كله ويعلم من يفعله عن هذا كله ويعلم من يفعله أنه أشرك بعبادة ربه.
- 2 النذر المشروط مكروه لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من مال البخيل". أو كما قال صلى الله عليه وسلم. أم النذر المطلق فهو قربة من أفضل القرب، وفي التفسير بيان لكل من المطلق والمشروط فانظره.
- 3 في الآية إيجاز بليغ إذ التقدير: وما أنفقتُم من نفقة فإن الله يعلمها، أو نذرتُم من نذر فإن الله يعلمه، فحذف من الأول لدلالة الأخير عليه تجنباً للتكرار المنافي لبلاغة الكلام .

(1/263)

أما الآية الثانية(271) فقد أعلم تعالى عباده المؤمنين أن ما ينفقونه لوجهه ومن طيب أموالهم علناً وجهراً هو مال رباح، ونفقة مقبولة يثاب عليها صاحبها، إلا أن ما يكون من تلك النفقات سراً ويوضع في أيدي الفقراء يكون خيراً لصاحبه لبعده من شائبة الرياء، ولإكرام الفقراء، وعدم تعريضهم لمذلة التصدق عليهم وإنه تعالى يكفر عن المنفقين سيئاتهم بصدقاتهم، وأخبر أنه عليم بأعمالهم فكان هذا تظميناً لهم على الحصول على أجور صدقاتهم، وسائر أعمالهم الصالحة.
هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- الترغيب في الصدقات ولو قلت والتحذير من الرياء فيها وإخراجها من رديء الأموال.
- 2- جواز إظهار الصدقة 1 عن سلامتها من الرياء.
- 3- فضل صدقة السر وعظم أجرها، وفي الحديث الصحيح: " ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" ذكر من السبعة الذين يظلمهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.
{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} (272) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

1 صدقة التطوع الإسرار بها أفضل، ففي الحديث: "صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل" ، وفي الصحيح: "سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" . والصدقة الواجبة وهي الزكاة إعلانها من أفضل إسرارها. هذا ومرد القضية إلى حال المتصدق والمتصدق عليه فإن كان المتصدق بإعلانه يتبعه غيره ويكون كمن سن سنة حسنة فالإعلان أفضل وإن كان المتصدق عليه يخجل ويستحي من الصدقة عليه فالإسرار له أفضل من غيره.

2 من قال بوجوب صدقة الفطر: منع إعطائها لفقراء أهل الذمة، ومن قال بثبوتها دون وجوبها: قال يجوز، والصحيح إنها حق لفقراء المسلمين لانشغالهم بصلاة العيد وبالعبادة في رمضان، وأهل الذمة يعملون الليل والنهار.

(1/264)

لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

شرح الكلمات:

{هُدَاهُمْ} : هدايتهم إلى الإيمان وصالح الأعمال.

{مِنْ خَيْرٍ} : من مال.

{فَلَأَنْفُسِكُمْ} : ثوابه العاجل بالبركة وحسن الذكر والأجل يوم القيامة عائد على أنفسكم.

{يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ} : يرد أجره كاملاً لا ينقص منه شيء.

{أُخْصِرُوا} : حبسوا ومنعوا من التصرف لأنهم هاجروا من بلادهم.
{ضَرْباً فِي الْأَرْضِ} : أي: سيراً فيها لطلب الرزق بالتجارة وغيرها لحصار العدو لهم.
{بِسِيمَاهُمْ} : علامات حاجتهم من رثاة الثياب وصفرة الوجه.
{مِنَ التَّعَفُّفِ} : ترك سؤال الناس والكف عنه.
{الْحَافِئاً} 2 : إلحاحاً وهو ملازمة السائل من يسأله حتى يعطيه.
معنى الآيات:

لما أمر تعالى بالصدقات ورغب فيها وسألها غير المؤمنين من الكفار واليهود فترح الرسول

1 قيل نزلت في علي، إذ كان له أربعة دراهم فأنفقها على ما ذكر في الآية، والآية عامة في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير وفي كل حالة تتطلب الإنفاق سواء بالليل أو بالنهار سراً أو علانية.

2 الإلحاح والإلحاف، والإحفاء مصادر ألح في السؤال، والحف وأحفى والإلحاف مشتق من اللحاف؛ لأنه يشتمل على الملتحق به، كذلك الإلحاف في السؤال؛ لأن المحلف يأتي أمام المسؤل ويأتي عن يمينه وعن شماله يسأله لا يفارقه حتى يعطيه أو يمنعه.

(1/265)

والمؤمنون من التصدق على الكافرين فأذهب الله تعالى عنهم هذا الحرج وأذن لهم بالتصدق على غير المؤمنين والمراد من الصدقة: صدقة التطوع لا الواجبة وهي الزكاة، فقال تعالى مخاطباً رسوله وأمه تابعة له: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} لم يوكل إليك أمر هدايتهم لعجزك عن ذلك، وإنما الموكل إليك بيان الطريق لاغير، وقد فعلت فلا عليك أن لا يهتدوا، ولو شاء الله هدايتهم لهداهم، وما تنفقوا من مال تتابوا عليه، سواء كان على مؤمن أو كافر إذا أردتم به وجه الله وابتغاء مرضاته، وأكد تعالى هذا الوعد الكريم بقوله: {وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ} والحال أنكم لا تظلمون بنقص ما أنفقتم ولو كان النقص قليلاً. كان هذا معنى الآية الأولى (272)، أما الآية الثانية وهي: {الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...} فقد بين تعالى فيها أفضل جهة ينفق فيها المال ويتصدق به عليها، وهي فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وأحصروا في المدينة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون ضرباً في الأرض للتجارة ولا للعمل، ووصفهم تعالى بصفات يعرفهم بها رسوله والمؤمنون ولولا تلك الصفات لحسبهم لعفتهم وشرف نفوسهم الجاهل بهم أغنياء غير محتاجين، فقال تعالى: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} لا يسألون 1 مجرد 2 سؤال فضلاً عن أن يلحوا ويلحفوا. ثم في نهاية الآية أعاد تعالى وعده الكريم بالمجازاة على ما ينفق في سبيله، فقال:

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ولازمه أن يثيبكم عليه أحسن ثواب فابشروا واطمأنوا.
وأما الآية الثالثة (274) في آخر آيات الدعوة إلى الإنفاق جاءت تحمل أعظم بشر للمنفقين في كل
أحوالهم بالليل والنهار سراً وعلانية بأن أجر نفقاتهم مدخر لهم عند ربهم يتسلمونه يوم يلقونه، ولا
خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا والبرزخ والآخرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- جواز التصدق على الكافر المحتاج بصدقة التطوع لا الزكاة فإنها حق 3 المؤمنين

- 1 متى تحل المسألة؟ قال أحمد: إذا لم يكن للمرء ما يغديه ويعشيه جاز له السؤال، وقال: لا يسأل
الرجل لغيره، ولكن يقول لغيره تصدقوا لقوله صلى الله عليه وسلم: "اشفعوا تؤجروا".
- 2 أي لا يسألون بإلحاح ولا بدونهم فهم لا يسألون غيرهم البتة.
- 3 شاهده قوله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم"،
وشاهده في الصحيح: "خذ الصدقة من أغنيائهم وردها على فقرائهم".

(1/266)

- 2- ثواب الصدقة عائد على المتصدق عليه فلذا لا يضر إن كان كافراً.
 - 3- وجوب الإخلاص في الصدقة أي: يجب أن يراد بها وجه الله تعالى لا غير.
 - 4- تفاضل أجر الصدقة بحسب فضل وحاجة المتصدق عليه.
 - 5- فضيلة التعفف وهو ترك السؤال مع الاحتياج¹، وذم الإلحاح في الطلب من غير الله تعالى أما
الله عز وجل فإنه يحب الملحين في دعائه.
 - 6- لا جواز التصدق بالليل والنهار وفي السر والعلن إذ الكل يثيب الله تعالى فعلية ما دام قد أريد
به وجهه لا وجهه سواه.
- بشرى الله تعالى للمؤمنين المنفقين بادخار أجرهم عنده تعالى و نفي الخوف والحزن عنهم مطلقاً.
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى
اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (275) يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)﴾

1 من أعطى شيئاً من غير طلب ولا تشوف جاز له أخذه لحديث الصحيح: "أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى عمر مالا فقال عمر أعطه أفقر إليه مني. فقال صلى الله عليه وسلم: "خذه وما جاءك من المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذهُ وما لا فلا تتبعهُ نفسك" .

(1/267)

شرح الكلمات:

{يَأْكُلُونَ الرِّبَا 1}: يأخذونه ويتصرفون فيه بالكل في بطونهم، وبغير الأكل، والربا هنا: ربا النسيئة وحقيقته أن يكون لك على المرء دين فإذا حل أجله ولم يقدر على تسديده تقول له: أخر وزد. فتؤخره أجلاً وتزيد في رأس المال قدرًا معيناً، هذا هو ربا الجاهلية والعمل به اليوم في البنوك الربوية فيسلفون المرء مبلغاً إلى أجل ويزيدون قدرًا آخر نحو العشر أو أكثر أو أقل، والربا حرام بالكتاب والسنة والإجماع وسواء كان ربا فضل 2 أو ربا نسيئة.

{لَا يَفُومُونَ}: من قيوهم يوم القيامة.

{يَتَخَبَّطُهُ 3 الشَّيْطَانُ}: يضر به الشيطان ضرباً غير منتظم.

{مِنَ الْمَسِّ 4}: المس: الجنون، يقال: بفلان مس من جنون.

{مَوْعِظَةٌ}: أمر أو نهي بترك الربا.

{قَلَهُ مَا سَلَفَ}: ليس عليه أن يرد الأموال التي سبقت توبته.

{يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا}: أي: يذهب شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى منه شيء؛ كمحاق القمر آخر الشهر.

{وَيُرِي الصَّدَقَاتِ}: يبارك في المال الذي أخرجت منه، ويزيد فيه، ويضاعف أجرها أضعافاً كثيرة.

{كَفَّارِ أَثِيمٍ}: الكفار: شديد الكفر، يكفر بكل حق وعدل وخير، أثيم: منغمس في الذنوب لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ارتكبها.

1 لغة الزيادة وشاهده الحديث: "والله ما أخذنا من لقمة إلا ربا من تحتها" أي: الطعام وعبر عن الأخذ بالأكل، لأن الأخذ يراد للأكل غالباً، وكل حرام قد يطلق عليه الربا تجوزاً.

2 ربا الفضل بيانه في حديث مسلم: "الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر والتمر بالتمر بالملح مثل بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي سواء" . وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: "فإذا اختلفت الأجناس فبييعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد" .

3 يقال: خطة وتخبطة كملكه وتملكه، وعبده وتعبدته، والتخبط: الضرب في غير استواء، ومنهم قولهم: خبط عشواء.

4 أصل المس: اللمس باليد، ومن مسه الشيطان اختلط عقله وأصبح يصيح بسبب مس الشيطان له فيقال: فلان يصرع من الجن، أي: من مس الجن له، والشيطان من الجن، فالمرابي يقوم يوم القيامة من قبره كالمجنون الذي به مس الجن يصرع صرعه.

(1/268)

معنى الآيتين:

لما حث الله على الصدقات وواعد عليها بعظيم الأجر ومضا عفو الثواب ذكر المرابين الذين يضاعفون مكاسبهم المالية بالربا وهم بذلك يسدون طرق البر، ويصدون عن سبيل المعروف فبدل أن ينمو أموالهم بالصدقات نموها بالربويات، فذكر تعالى حالهم عند القيام من قبورهم وهم يقومون، ويقعدون ويغفون¹ ويُصرعون، حالهم من حال يصرع في الدنيا بمس الجنون، علامة يعرفون بها يوم القيامة كما يعرفون بانتفاخ بطونهم وكأنها خيمة مضروبة بين أيديهم. قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}، وذكر تعالى سبب هذه النعمة عليهم فقال: {ذَلِكَ} أي: أصابهم ذلك الخزي والعذاب بأنهم ردوا علينا حكمنا بتحريم الربا، وقالوا إنما البيع مثل الربا، إذ الربا الزيادة في نهاية الأجر، والبيع في أوله، ورد تعالى عليهم، فقال: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ² وَحَرَّمَ الرِّبَا} فما دام قد حرم الربا فلا معنى للاعتراض، ونسوا أن الزيادة في البيع هي في قيمة سلعة تغلو وترخص، وهي جارية على قانون الإذن في التجار، وأما الزيادة في آخر البيع فهي زيادة في الوقت فقط. ثم قال تعالى مبيناً لعباده سبيل النجاة محذراً من طريق الهلاك: {رَفَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ} وهي تحريمه تعالى للربا ونهيه عنه فانتهى عنه فله ما سلف قبل معرفته للتحريم، أو قبل توبته منه، وأمره بعد ذلك إلى الله إن شاء ثبتته على التوبة فنجاه، وإن شاء خذله لسوء عمله، وفساد نيته فأهلكه وأرداه، وهذا معنى قوله تعالى: {اللَّهُ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. أخبر تعالى أنه بعدله يحق³ الربا، وبفضله يربي الصدقات، وأنه لا يحب كل كفار لشرع الله وحدوده، أثيم بغشيانه الذنوب وارتكابه المعاصي. كان هذا معنى الآية الأولى (275)، أما الآية الثانية (276) فهي وعد رباني صادق وبشرى إلهية سارة لكل من آمن وعمل صالحاً وأقام الصلاة على الوجه الذي تقام به وآتي الزكاة بأن له أجره، وافٍ عند ربه يتسلمه يوم الحاجة إليه في عرصات القيامة وأنه لا يخاف مما يستقبله في الحياة الدنيا والآخرة ولا يحزن أيضاً في الدنيا ولا في الآخرة.

1 قال ابن عطية: وأما ألفاظ الآية فيحتمل تشبيهه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون لأن الطمع والرغبة تستقره حتى تضطرب أعضاؤه كما يقوم المسرع في مشيه يخلط في

- هيئة حركاته حتى يقال: قد جن هذا، ولكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود، إذا كان يقرأ: لا يقومون يوم القيامة مع -تظافر أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل.
- 2 في هذا دليل على أنه لا قياس مع، النص، فالمشركون قاسوا الربا على البيع فأبطل الله قياسهم؛ لأن الربا حرام فلا يقاس على البيع الحلال.
- 3 روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قل " أي: إلى قلة ونقصان.

(1/269)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان عقوبة آكل الربا يوم القيامة لاستباحتهم وأكلهم له، وعدم التوبة منه.
 - 2- تحريم الربا وكل مال حرام لما جاء في الآية من الوعيد الشديد.
 - 3- صفة الحب لله تعالى وأنه تعالى يحب أوليائه وهم أهل الإيمان به وطاعته ويكره أعداءه وهم أهل الكفر به ومعاصيه من أكل الربا وغيره من كبائر الذنوب.
 - 4- حلية البيع إن تم على شروطه المبنية في كتب الفقه.
 - 5- من تاب من الربا تقبل توبته، ويحل له ما أفاده منه قبل التوبة بشرط سيأتي في الآيات بعد هذه.
 - 6- وعيد الله تعالى بمحق الربا ووعده بإرباء الصدقة.
 - 7- بشرى الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح مع إقامتهم للصلاة وإيتائهم للزكاة.
- رَبَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281)}

شرح الكلمات:

{اتَّقُوا اللَّهَ} : خافوا عقابه بطاعته بأن تجعلوا طاعته وقاية تقيكم غضبه وعقابه.

1 شاهده من الكتاب: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ} ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قل" ، وقوله: "إن العبد إذا تصدق من طيب يقبلها الله منه فيأخذها بيمينه

ويريها كما يري أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل يتصدق باللقمة فتربوا في يد الله -أو قال- في كف الله حتى تكون مثل أحد فتصدقوا".

(1/270)

{وَدَّرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} : اتركوا ما بقي عندكم من المعاملات الربوية.
{فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ} : اعملوا بحرب من الله ورسوله واحملوا سلاحكم ولا ينفعكم 1 سلاح فإنكم المهزومون الهالكون.
{فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ} : بعد التوبة مالكم إلا رأس المال الذي عند المدين لكم فخذوه واركوا زيادة الربا.

العسرة : الشدة والضائقة المالية.
{فَنظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ} : أي انتظار للمدين إلى أن يبسر الله عليه فيعطيك رأس مالكم الذي أخذه منكم.
{وَأَنْ تَصَدَّقُوا} : وأن تتصدقوا على المعسر بترك ما لكم عليه فذلك خير لكم.
معنى الآيات:

بمناسبة ذكر عقوبة آكل الربا في الآيات السابقة نادى الله تعالى عباده المؤمنين أمراً إياهم بتقواه تعالى، وذلك بطاعته وترك معصيته، وبالتخلي عما بقي عند بعضهم من المعاملات الربوية مذكراً إياهم بإيمانهم إذ من شأن المؤمن الاستجابة لنداء ربه فعل ما يأمره به وترك ما ينهاه عنه فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ، ثم هذه المتباطئين بقوله: فإن لم تفعلوا فاعلموا بحرب 2 قاسية ضرورية من الله ورسوله، ثم بين لهم طريق التوبة وسبيل الخلاص من محنة الربا بقوله: وإن تبتم بترك الربا فلكم رؤوس 3 أموالكم لا غير لا تظلمون بأخذ زيادة، ولا تظلمون بنقص من رأس مالكم. وإن وجد مدين لكم في حالة إفسار فالواجب انتظاره إلى ميسرته 4، وشيء آخر وهو خير لكم أن تتصدقوا بالتنازل عن ديونكم كلها تطهيراً لأموالكم التي لامسها الربا وتركية لأنفسكم من آثاره السيئة. ثم ذكر تعالى سائر عبادته يوم القيامة وافية من أهوال ومواقف

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: "من كان مقيماً على الربى لا ينزع فحق على إمام المسلمين أن يستتبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه".

2 حرمة الربا مجمع عليها، والأحاديث الواردة في تحريمه كثيرة جداً، أذكر منها، حديث مسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات" وذكر منها أكل الربا، وحديث أبي داود: "لعن الله آكل الربا وموكله و كاتبه وشاهديه".

3 استدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كل ما طرأ على البيع قبل القبض مما يوجب تحريم العقد أبطل العقد.

4 ورد في فضل إنذار المعسر أحاديث منها: "من أنظر معسراً كان له بكل يوم صدقة". وقوله: "من سره أن ينجيه من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه".

(1/271)

صعبة حيث يتم الحساب الدقيق وتجزئ في كل نفس مؤمنة أو كافرة بارة أو فاجرة ما كسبته من خير وشر وهو لا يظلمون بنقص حسناتهم أو زيادة سيئاتهم فقال تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } وهذا التوجيه الذي حملته هذه الآية ذات الرقم (280) آخر توجيه تلقته البشرية من ربها تعالى إذ هذه آخر ما نزل من السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب التوبة من الربا ومن كل المعاصي.
 - 2- المصير على المعاملات الربوية يجب على الحاكم أن يحاربه بالضرب على يديه حتى يترك الربا.
 - 3- من تاب من الربا لا يظلم بالأخذ من رأس ماله بل يعطاه وافية كاملاً إلا أن يتصدق بالتنازل عن ديونه الربوية فذلك خير له حالاً ومآلاً.
 - 4- وجوب ذكر الدار الآخرة والاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح وترك الربا والمعاصي.
- رَبَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ 3 إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيَحْسِ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ

1 قال ابن خويز مناد: "ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالاً له كانوا مرتدين، والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالاً، للإمام محاربتهم، ألا ترى أن الله تعالى قد أذن في ذلك فقال: {فَأُذِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} .

2 قال ابن عباس رضي الله عنهما: "نزلت هذه الآية في السلم خاصة، يعني: إن سلم أهل المدينة كان سبب نزولها وهي عامة في كل الديون بلا خلاف.

3 رفع بلفظ: "يدين"، الاشتراك، إذ التداين معناه: دان بعضهم بعضاً، إذا جازاه بعمله ومنه قولهم: "دناهم كما دنوا فلما قال بدين رفع المعنى العام وأصبح خاصاً بالتداين المالي.

(1/272)

أَنْ يُمَلَّ هُوَ فَلْيُمَلِّ وَلِيَّهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَابْتَغُوا الْوَالِدَ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)

شرح الكلمات:

{تَدَايَيْتُمْ 1}: دايين بعضهم بعضاً في شراء أو بيع أو سلم أو قرض.

{إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى 2}: وقت محدد بالأيام أو الشهور أو الأعوام.

{بِالْعَدْلِ}: بلا زيادة ولا نقصان ولا غش أو احتيال بالحق والإنصاف.

{وَلَا يَأْبَ}: لا يمتنع الذي يحسن الكتابة أن يكتب.

{وَلْيُمَلِّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ}: لأن إملاءه اعتراف منه وإقرار بالذي عليه من الحق.

{وَلَا يَنْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا}: لا ينقص من الدين الذي عليه شيء ولو قل كفلس وليذكره كله.

1 تداين: تفاعل من الدين، يقال: داينت الرجل، عاملته بدين معطياً أو آخذاً كما بايعته إذا بعته أو باعك.

2 ذكر الأجل المسمى يجعل الآية في بيع السلم لحديث الصحيح: "من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم". والسلم والسلف واحد. ويقال له: بيع المحاويج.

(1/273)

شرح الكلمات:

{سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا}: السفيه: الذي لا يحسن التصرفات المالية، والضعيف: العاجز عن الإملاء؛

كالأخرس، أو الشيخ الهرم.

{وَلِيَّهِ}: من يلي أمره ويتولى شؤونه لعجزه وقصوره.

{مِنْ رِجَالِكُمْ}: أي المسلمين الأحرار دون العبيد والكفار.
{أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا}: تنسى أو تخطئ لقصر إدراكها.
{وَلَا تَسْأَمُوا}: لا تضجروا أو تملوا من الكتابة ولو كان الدين صغيراً مبلغه.
{أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}: أعدل في حكم الله وشرعه.
{وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ}: أثبت لها وأكثر تقريراً؛ لأن الكتابة لا تنسى والشهادة تنسى أو يموت الشاهد أو يغيب.
{وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا1}: أقرب أن لا تشكوا بخلاف الشهادة بدون كتابة.
{تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ}: أي: تتعاطونها، البائع يعطي البضاعة والمشتري يعطي النقود فلا حاجة إلى كتابتها ولا حرج أو إثم يترتب عليها.
{وَأَشْهَدُوا إِذَا نَبَّيْتُمْ}: إذا باع أحد أحداً داراً أو بستاناً أو حيواناً يشهد على ذلك البيع.
{وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ} بأن يكلف مالا يقدر عليه بأن يدعي ليشهد في مكان بعيد يشق عليه أو يطلب إليه أن يكتب زوراً أو يشهد به.
{فَسُوقُوا بِكُمْ}: أي: خروج عن طاعة ربكم لاحق بكم إثمهم وعليكم تبعته يوم القيامة.
{وَاتَّقُوا اللَّهَ}: في أوامره فافعلوها، وفي نواهيه فاتركوها، وكما علمكم هذا يعلمكم كل ما تحتاجون فاحمدوه بالسننكم واشكروه بأعمالكم، وسيجزيكم بها وهو بكل شيء عليم.

1 روى أبو داود والترمذي أن أول من جحد آدم، إذ أراه الله تعالى ذريته فرأى رجلاً أزهر ساطع النور فسأل الله تعالى فقال: إنه داود . فقال: رب كم عمره؟ قال: ستون. قال: فزده من عمري أربعين ليكمل له مائة فزاده، وكان عمر آدم ألف سنة وكتب الله ذلك في كتاب ولما عاش آدم وحضرته الوفاة قال: رب بقي من عمري أربعون سنة. فقال الله تعالى: ألم تكن قد وهبتها لولدك داود. فجدد آدم فأخرج الكتاب قد شهد عليه الملائكة إلى أن الله تعالى وفي لآدم ألف سنة ولد داود مائة. "نقلناه بالمعنى".

(1/274)

معنى الآية الكريمة:

لما حث تعالى على الصدقات وحرّم الربا، ودعا إلى العفو على المعسر، والتصدق عليه بإسقاط الدين الأمر الذي قد يتبادر إلى الذهن أن المال لا شأن له ولا قيمة في الحياة فجاءت هذه الآية، آية الدين الكريمة لتعطي للمال حقه وترفع من شأنه فإنه قوام الحياة فقررت واجب الحفاظ عليه بكتابة الديون والإشهاد عليها بمن ترضى عدالتهم وكون الشهود رجلين مسلمين حرين، فإن انعدام رجل من

الاثنين قامت امرأتان 1 مقامه، واستحث 2 الله تعالى من يحسن الكتابة أن يكتب إذا كان في سعة من أمره، وحرّم على الشهود إذا ما دعوا لأداء الشهادة أن يتخلوا عنها، وحرّم على المتدائنين أن لا يكتبوا ديونهم ولو كانت صغيرة قليلة، فقال تعالى: {وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ} ، ورخص تعالى رحمة منه في عدم كتابة التجارة الحاضرة التي يدفع فيها السلعة في المجلس ويقبض الثمن فيه فقال: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا...} ، وأمر بالإشهاد على البيع فقال: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ...} ، ونهى عن الإضرار بالكاتب أو الشهيدين، بأن يلزم الكاتب أن يكتب إذا كان في شغله، أو الشاهد بأن يطلب منه أن يشهد وهو كذلك في شغله، أو أن يدعي إلى مسافات بعيدة تشق عليه إذ أمره تطوع وفعل خير لا غير فليطلب كاتب وشاهد غيرهما إذا تعذر ذلك منهما لانشغالهما. وحذر من كتمان الشهادة أو الحيف والجور في الكتابة والإضرار بالكاتب والشهيد فقال: {وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ...} وأكد ذلك بأمره بنقواه فقال: {وَإِنَّمَا اللَّهُ...} بامتنال أمره ونهيه لتكملوا وتسعدوا وكما علمكم هذا العلم النافع ما زال يعلمكم وهو بكل شيء عليم. هذا معنى الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...} .

هداية الآية

من هداية الآية:

1- وجوب كتابة الديون سواء كانت بيعاً، أو شراءً، أو سلفاً، أو قرضاً هذا ما قرره ابن جرير،

1 الجمهور على أن اليمين تقوم مقام شاهد، أي: أن إن عدم الشاهد الثاني قضى القاضي بالشاهد واليمين التي يخلفها المطالب بالبينة ومن هنا إن وجد من الشهود امرأتان فقط اعتبرنا شاهداً وزيدت اليمين وقضى القاضي بذلك، وهذا في الأموال خاصة.

2 نعم إذا كان في سعة من أمره فليكتب على سبيل النذب، وإن لم يوجد غيره وجب عليه أن يكتب وفي قوله. {كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ} أمر له أن يكتب الوثائق على طريقته فلا يبدل ولا يغير، وفيه تذكير له بالنعمة إذ كان لا يعرف الكتابة فعلمه الله إذًا فليشكر الله هذه النعمة بالكتابة لمن طلبها منه.

(1/275)

ورد القول بالإرشاد والنذب 1.

2- رعاية النعمة بشكرها لقوله تعالى للكاتب: كما علمه الله فليكتب إذ علمه الكتابة وحرّم غيره منها.

- 3- جواز النيابة في الإملاء لعجز عنه وعدم قدرة عليه.
 - 4- وجوب العدل والإنصاف في كل شيء لا سيما في كتابة الديون المستحقة المؤجلة.
 - 5- وجوب الإشهاد على الكتابة لتأكدها به، وعدم نسيان قدر الدين وأجله.
 - 6- شهود 2 المال لا يقلون عن رجلين عدلين من الأحرار 3 المسلمين لا غير، والمرأتان المسلمتان اللتان فرض شهادتهما تقومان مقام الرجل الواحد.
 - 7- الحرص على كتابة الديون والعزم على ذلك ولو كان الدين صغيراً تافهاً.
 - 8- الرخصة في عدم كتابة التجارة الحاضرة السلعة والتمن المدارة بين البائع والمشتري.
 - 9- وجوب الإشهاد على بيع العقارات والمزارع والمصانع مما هو ذو بال.
 - 10- حرمة الإضرار بالكاتب 4 والشهيد.
 - 11- تقوى الله تعالى بسبب العلم، وتكسب المعرفة 5 بإذن الله تعالى.
- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

- 1 الأقرب إلى الصواب أن بعض الأمور تجب فيها الكتابة كبيع الدور والمزارع وغيرها وبعضها لا تجب وإنما تندب الكتابة لا غير.
- 2 كون الشهود لا يقلون عن اثنين هذا عام في كل شهادة إلا شهادة الزنى فإنهم لا يقلون عن أربعة أبدأ.
- 3 اختلف في شهادة العبيد والصبيان والجمهور على عدم جواز شهادتهم إلا في الأمور التافهة فلا بأس بذلك.
- 4 قوله تعالى: {إِذَا مَا دُعُوا} دل على أن الشهود يأتون الحاكم ليشهدوا، ودل على أن من لم يدع ليس عليه أن يشهد، ولكن ورد في السنة الترغيب في أداء الشهادة ولو لم يدع إليها المسلم لا سيما إذا توقف على شهادته إثبات حق من الحقوق فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الشهود الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها" رواه الأئمة.
- 5 قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} هو وعد منه تعالى بأن يجعل للمتقي نوراً في قلبه يفهم به ما يلقي إليه ويفرق بين الحق والباطل يشهد لهذا قوله تعالى: {إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} الأنفال.

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284)

شرح الكلمات:

السفر : الخروج من الدار والبلد ظاهراً أو بعيداً بمسافة أربعة برد فأكثر .
{وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا} : من يكتب لكم، أو لم تجدوا أدوات الكتابة من دواة وقلم .
{فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ} : فاعتاضوا عن الكتابة الرهن فليضع المدين رهناً لدى الدائن .
{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا} : فلا حاجة إلى الرهن .
فليؤد المؤتمن أمانته : أي: فليعط الدين الذي أوتمن عليه حيث تعذرت الكتابة ولم يأخذ دائنه منه رهناً على دينه .

{إِنَّم قَلْبُهُ} : لأن الكتمان من عمل القلب فنسب الإثم إلى القلب .

{وَإِنْ تُبْدُوا} : تظهروا .

معنى الآيتين:

لما أمر تعالى بالإشهاد والكتابة في البيوع والسلم والفروض في الآيات السابقة أمر هنا -عند تعذر الكتابة لعدم وجود كاتب أو أدوات الكتابة وذلك في السفر - أمر بالاستعاضة عن الكتابة بالرهن وذلك بأن يضع المدين رهناً لدى دائنه عوضاً عن الكتابة يستوثق به دينه هذا في حال عدم ائتمانه والخوف منه، وأما إن أمن بعضهم بعضاً فلا باس بعدم الارتهان فقال تعال: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ...2} والرهان جمع رهن 3. وقال: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا} فلم تأخذوا رهناً، {فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} في ذلك. ثم

1 الرهن جائز بالكتاب وهذه الآية نص في الرهن في السفر، وأما في الحضر فهو جائز بالسنة وإجماع الأمة، فقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودي طعاماً، فطلب اليهودي رهناً فرهنه درعه صلى الله عليه وسلم، فمات ودرعه مرهونة في ثلاثين صاعاً من شعير .

2 قوله: {مَّقْبُوضَةٌ} دل على اشتراط القبض ولو بالوكالة ولو أن عدلاً من الناس وضع الرهن تحت يده جاز، إذ هو معنى القبض، ويجوز رهن ما في الذمة كأن يرهن المدين ديناً له ثابتاً في ذمة مالي معترف غير منكر، لأن الاستيثاق يحصل بذلك .

3 أصل الرهن الدوام، وشرعاً: حبس عين في دين لاستيفاء الدين من العين أو من منافعها إذا عجز المدين عن التسديد، ويجمع الرهن على رهن، ورهن .

نهى تعالى نهياً جازماً عن كتمان شهادتهم فقال: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ...} وبين تعالى عظم هذا الذنب فقال: {وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}1... وأعلم أنه عليم بما يعملونه فيجازيهم بعلمه، وهو تهديد ووعيد منه سبحانه وتعالى لكاتمي الشهادة والقائلين بالزور فيها. هذا معنى الآية الأولى (282)، أما الآية الثانية (283) فإنه تعالى قد أخبر بأن له جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض خلفاً وملكاً وتصرفاً، وبناء على ذلك فإن من يبدي ما في نفسه من خير أو شر أو يخفه يحاسب به، ثم هو تعالى بعد الحساب يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان والتقوى، ويعذب من يشاء من أهل الشرك والمعاصي، له كامل التصرف؛ لأن الجميع خلقه وملكه وعبده.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- جواز أخذ الرهن في السفر والحضر توثيقاً من الدائن لدينه.
 - 2- جواز ترك أخذ الرهن 2 إن حصل الأمن من سداد الدين وعدم الخوف منه.
 - 3- حرمة كتمان الشهادة والقول بالزور فيها وأن ذلك من أكبر الكبائر كما في الصحيح.
 - 4- محاسبة العبد بما يخفي في نفسه من الشك والشرك والنفاق وغير ذلك من بغض أولياء الله وحب لأعدائه، ومؤاخذته بذلك، والعفو عن الهم بالخطيئة والذنب دون الشك والشرك والحب والبغض من المؤمن الصادق الإيمان للحديث الصحيح الذي أخرجه الستة: "إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل".
- {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ 3 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا

1 القول محذوف، أي: يقولون: لا تفرق، وهذا الحذف للقول شائع نحو: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْهِمْ} أي: يقولون: سلام عليكم، {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} أي: يقولون: ربنا... إلخ.

2 إذا كان الرهن دابة تركب أو شاة تحلب أو داراً تسكن أو نخلاً بتمر، فعلى المرتهن نفقة علف الدابة والشاة، مقابل الركوب واللبن، وإن سكن الدار دفع أجرتها، وإن جز التمر أخذه بثمنه لحديث: "لا تغلق الرهن لصاحبه غنمه وعليه غرمه".

3 قال العلماء: "إثم القلب: سبب مسخه".

وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
اِكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ (286){

شرح الكلمات:

{أَمَّنْ} : صدق جازماً بصحة الخبر ولم يتردد أو يشك فيه قط.

{الرَّسُولُ} : نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

{كُلُّ} : كل من الرسول والمؤمنين.

{لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ 1} : نؤمن بهم جميعاً ولا نكون؛ كاليهود والنصارى نؤمن ببعض ونكفر
ببعض.

{سَمِعْنَا} : سماع فهم واستجابة طاعة.

{الْمَصِيرُ} : المرجع: أي رجوعنا إليك يا ربنا فاغفر لنا.

{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا 2} : التكليف: الإلزام مما فيه كلفة ومشقة تحتمل.

{إِلَّا وُسْعَهَا 3} : إلا ما تتسع لها طاقتها ويكون في قدرتها.

{لَهَا مَا كَسَبَتْ} : من الخير.

{وَعَلَيْهَا مَا اِكْتَسَبَتْ} : من الشر.

1 قرئ: {ورسله} بإسكان السين تخفيفاً، وهو شائع في تخفيف المتحرك للسكون نحو: عنق.

2 روى القرطبي عن أبي هريرة أنه قال: ما وددت أن أحداً ولدتني أمه إلا جعفر أبي طالب، فإني
تبعته يوماً وأنا جائع فلما بلغ منزله فلم يجد فيه سوى نحي سمن قد بقي فيه أثاره فشق بين أيدينا
فجعلنا نلحق ما فيه من السمن ونريه، وهو يقول: ما كلف الله نفساً فوق طاقتها: ولا تجود يد إلا بما
تجد. الرب بضم الراء: ما يطبخ من التمر.

3 وسواس الصدر مما لا طاقة للعبد بدفعه بحال وقد سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال، ما
رواه مسلم عن علقمة بن عبد الله قال: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة، قال:
"تلك صريح الإيمان".

(1/279)

{لَا تَأْخِذْنَا} : لا تعاقبنا.

{إِنْ نَسِينَا} : فتركنا ما أمرتنا به أو فعلنا ما نهيتنا عنه نسياناً منا غير عمد.

{أَوْ أَخْطَأْنَا} : فعلنا غير ما أمرتنا خطأ منا بدون إرادة فعل منا له ولا عزيمة.

{إِصْرًا} 1 : تكليفاً شاقاً يتقل علينا ويأسرنا فيحبسنا عن العمل.

{مَوْلَانَا} : مالكتنا وسيدنا ومتولي أمرنا لا مولى لنا سواك.

معنى الآيتين:

ورد أنه لما نزلت الآية (284) {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...} وفيها {...وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ...} اضطربت لها نفوس المؤمنين، وقالوا من ينجو منا إذا كنا نواخذ بما يخفى في أنفسنا من الهم والوسواس وحديث النفس فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرضا بحكم الله تعالى والتسليم به فقال لهم: "قولوا سمعنا وأطعنا ولا تكونوا كاليهود : {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا...} فلما قالوها صادقين أنزل الله تعالى هاتين الآيتين: {آمَنَ الرَّسُولُ...} فأخبر عن إيمانهم مقروناً بإيمان نبيهم تكريماً لهم وتطميناً فقال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...} وأخبر عنهم بقولهم الذي كان سبب استجابة الله تعالى لهم فقال عنهم: {... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} وأخبرهم تعالى أنه لرحمته بهم وحكمته في تصرفه في خلقه لا يكلف نفساً إلا ما تتسع له طاقتها وتقدر على فعله، وإن لها ما كسبت من الخير فتجزى به خيراً وعليها ما اكتسبت من الشر فتجزى به شراً إلا أن يعفو عنها ويعفر لها فقال: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...} وعلمهم كيف يدعونه ليقول لهم قد فعلت، كما صح به الخبر فقال قولوا: {رَبَّنَا لَا تُؤْخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 4 وفعلاً

1 الإصر: الأمر الغليظ الصعب أو هو الذنب الذي ليس فيه توبة ولا كفارة ويطلق الإصر على العهد ومنه: {وَأَخَذْنَاهُ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي} أي: عهدي وميثاقي، لأن الإصر يطلق على الحبل الذي تربط الأحمال ونحوها.

2 روى مسلم عن ابن عباس لما نزلت: {وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ...} الآية، قال: دخل قلوبهم منها شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا". قال: فألقى الله في قلوبهم الإيمان فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل قوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} الآية.

3 ورد في فضل خاتمة البقرة أحاديث كثيرة منها: قوله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتتهن نبي قبلي".

قد عفا عنهم في النسيان والخطأ وخفف عنهم في التشريع فما جعل عليهم في الدين من حرج، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم ونصرهم على الكافرين بالحجة والبيان وفي المعارك بالسيف والسنان فله الحمد والمنة وهو الكبير المتعال.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- تقرير أركان الإيمان وهي الإيمان وملائكته وكتبه ورسوله.
- 2- وجوب الإيمان بكافة الرسل وحرمة الإيمان ببعض وترك البعض وهو كفر والعياذ بالله تعالى،
- 3- وجوب طاعة الله ورسوله والتسليم والرضا بما شرع الله ورسوله وحرمة رد شيء من ذلك.
- 4- رفع الحرج 1 عن هذه الأمة رحمة بها.
- 5- عدم المؤاخذه بالنسيان 2 أو الخطأ فمن نسي وأكل أو شرب وهو صائم فلا إثم عليه أو أخطأ فقتل فلا إثم عليه.
- 6- العفو عن حديث النفس 3 لنزول الآية فيه ما لم يتكلم المؤمن أو يعمل.
- 7- تعليم هذا الدعاء واستحباب الدعاء به إئتساء بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد ورد من قرأ هاتين الآيتين 4 عند النوم كفتاه {أَمَّنَ الرَّسُولُ...} السورة.

1 شاهده قوله تعالى من سورة الحج: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} .
2 حديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه" . أي: رفع إثمه. أما أحكامه، ففيها تفصيل: فالغرامات لا تسقط، فمن كسر أنية خطأ أو نسياناً يغرماً لصاحبها، ومن نسي صلاة مفروضة قضاها، ومن قتل خطأ دفع الدية ويسقط القصاص بالخطأ، كما يسقط الكفر بالنطق خطأ وسهواً.

3 شاهده حديث: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل" . رواه الجماعة.

4 لحديث مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه" . أي: من قام الليل لحديث: "من قرأ بعد العشاء مرتين أجزاءه من قيام الليل، وكفتاه من شر الشيطان، فلا يكون له عليه سلطان" .

(1/281)

سورة آل عمران

...

سورة آل عمران 1

مدنية

وآياتها مائتا آية بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

1 صدر هذه السورة إلى ثلاث وثمانين آية نزلت في وفد نجران سنة تسع من الهجرة.

(1/281)

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (4) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6)

شرح الكلمات:

{الم} : تقدم الكلام على مثله من سورة البقرة فليرجع إليه هناك.

{اللَّهُ} : المعبود بحق 1.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} : لا معبود بحق سواه.

{الْحَيُّ} : ذو الحياة المستلزمة للإرادة والعلم والسمع والبصر والقدرة.

{الْقَيُّومُ} : القيم على كل مخلوقاته بالتربية والرعاية والحفظ.

{الْكِتَابَ} : القرآن.

{بِالْحَقِّ} : مثلبسا به إذ كل ما فيه حق وصدق لا باطل فيه بأي وجه من الوجوه.

{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} 2 : من الكتب السابقة لا يخالفها ولا يبطلها؛ لأن مصدر الجميع واحد هو الله

تعالى.

{التَّوْرَةَ} 3 : كتاب موسى عليه السلام ومعناه بالعبرية الشريعة 4.

1 الله: اسم علم على ذات الرب تبارك وتعالى ومعناه: الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه، ولذا فسرناه في التفسير بأنه المعبود الحق لكونه الإله الحق الذي لا يعبد بحق غيره.

2 معنى بين يديه: أنها تقدمته في النزول فكانت كأنها أمامه وهو وراءها، وهو معنى: بين يديه.

3 اختلف في لفظ التوراة هل هو مشتق من وري الزند إذا أوقد به النار فهي لنور الهداية فيما سميت

التوراة، أو هي معربة عن كلمة: "طورا" العبرية، ومعنى طورا: الهدي، وعلى كل حال فهذا علم لا

ينفع وجهالة لا تضر .

4 وهي عند اليهود: خمسة أسفار: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع.

(1/282)

{والإنجيل} 1 : كتاب عيسى عليه السلام ومعناه باليونانية: التعليم الجديد2.
{الفرقان} 3 : ما فرق الله به بين الحق والباطل من الحجج القرآنية والمعجزات الإلهية والعقول النيرة البشرية التي لم يغلب عليها التقليد والجمود والهووى.
{يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ} : التصوير إيجاد الصورة للشيء لم تكن له من قبل، والأرحام: جمع رحم: مستودع الجنين.
معنى الآيات:

أخرج ابن جرير الطبري بأسانيد صحيحة أن وفد4 نجران والمكون من ستين ركباً فيهم أشرافهم وأهل الحل والعقد منهم، وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاجونه في أمر المسيح عليه السلام، ويريدون أن يثبتوا إلهيته بالإدعاء الباطل فأنزل الله تعالى نيفاً وثمانين آية من فاتحة السورة {الم} إلى ما يقرب الثمانين. وذلك رداً لباطلهم، وإقامة للحجة عليهم، وسيلاحظ هذا المتدبر للآيات ويراها واضحة جلياً في السياق القرآني في هذه الآيات.

فقد قال تعالى: {الم، الله لا إله إلا هو} فأخبر أنه تعالى لا معبود بحق إلا هو، فأبطل عبادة المسيح عليه السلام وعبادة كل معبود سوى الله تعالى من سائر المعبودات، وقال: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} فذكر برهان استحقاقه للعبادة دون غيره، وهو كونه تعالى حياً أزلاً وأبداً وكل حي غيره مسبوق بالعدم ويلحقه الفناء. فلذا لا يستحق الألوهية إلا هو عز وجل. والمسيح عليه السلام مسبوق بالعدم ويلحقه الفناء فكيف يكون إلهاً؟ وقال تعالى القيوم أي القائم على كل الخلق بالتربية والرعاية والحفظ والتدبير والرزق، وما عداه فليس له ذلك بل هو مربوب مرزوق فكيف يكون إلهاً مع الله؟ ودليل ذلك أنه نزل عليك الكتاب: القرآن بالحق مصحوباً به ليس فيه

1 الإنجيل، قيل: معناه الأصل، إذ هو أصل العلوم والحكم، وجمعه: أنجيل، وجمع التوراة: توارٍ.

2 ويطلق الإنجيل على أربعة كتب: إنجيل يوحنا، ومرقس، ولوقا، وبرنابا.

3 وفسر الفرقان بالقرآن، وهو حق لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} ، وسمي فرقاناً لأنه فرق بين الحق والباطل.

4 كان مجيء هذا الوفد في السنة التاسعة من الهجرة التي هي عام الوفود، ولذا كان آخر السورة

متقدماً في النزول عن أولها، إذ آخرها كان في غزوة أحد، وكانت في السنة الثالثة.
5 قوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} هذه الجملة مع جملة: {وَالْهَكُّمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قيل: أن فيهما اسم الله الأعظم.

(1/283)

من الباطل شيء فأياته كلها مثبتة للألوهية لله نافية لها عما سواه، فكيف يكون المسيح إلهاً مع الله أو يكون هو الله، أو ابن الله كما يزعم نصارى نجران وغيرهم من نصارى اليونان والرومان وغيرهم نزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب التي سبقتة لا يخالفها ولا يتناقض معها، فدل ذلك أنه وحي الله، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل هدى للناس وأنزل الفرقان 1 ففرق به بين الحق والباطل في كل ما يلبس أمره على الناس فتبين أن الرب الخالق الرازق المدبر للحياة المحيي المميت الحي الذي لا يموت هو الإله الحق وما عداه مريب مخلوق لا حق له في الألوهية والعبادة وإن شفى مريضاً أو أنطق أباك أو أحيا ميتاً بإذن الله تعالى فإن ذلك لا يؤهله لأن يكون إلهاً مع الله؛ كعيسى بن مريم عليه السلام فإن ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى كان بقدرة الله وإذنه بذلك لعيسى وإلا لما قدر على شيء من ذلك شأنه شأن عباد الله تعالى، ولما رد الوفد ما حاجهم به الرسول وأقام به الحجة عليهم تأكد بذلك كفرهم فتوعدهم الرب تعالى بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} وهذا وعيد شديد لكل من كذب بآيات الله وجحد بالحق الذي تحمله من توحيد الله تعالى ووجوب طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} فلو كان هناك من يستحق الألوهية معه لعلمه وأخبر عنه، كما قرر بهذه الجملة أن عزته تعالى لا تزام وأنه على الانتقام من أهل الكفر به لتقدير. وذكر دليلاً آخر على بطلان ألوهية المسيح فقال: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} 3 وعيسى عليه السلام قد صور في رحم مريم فهو قطعاً ممن صور الله تعالى، فكيف يكون إذاً إلهاً أو إيناً لله كما زعم النصارى؟ وهنا قرر الحقيقة فقال: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فالعزة التي لا تزام والحكمة التي لا تخطئ هما مقتضيات ألوهيته الحق التي لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يجاهد فيها إلا معاند؛ كوفد نصارى نجران ومن على شاكلتهم من أهل الكفر والعناد.

1 الفرقان: وإن أطلق على القرآن لكونه فرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد، فإنه يطلق على كل ما يفرق بين الهدى والضلال؛ كالمعجزات، وما يحصل للمؤمن المتقي من نور يفرق بين الضار والنافع، والخطأ والصواب.

- 2 التتوين في عذاب: للتفخيم، والشديد هو الذي لا يقادر قدره.
3 أي: من حسن وقبح وسواد وبياض وطول وقصر، وعاهة وسلامة وسعادة وشقاء.

(1/284)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير ألوهية الله تعالى بالبراهين ونفي الألوهية¹ عن غيره من سائر خلقه.
 - 2- ثبوت رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بإنزال الله تعالى الكتاب عليه.
 - 3- إقامة الله تعالى الحجة على عباده بإنزال كتبه والفرقان فيها الحق والباطل في كل شؤون الحياة.
 - 4- بطلان ألوهية المسيح؛ لأنه مخلوق مصور في الأرحام كغيره صورته الله تعالى على ما شاء فكيف يكون بعد ذلك إلهاً مع الله² أو ابناً له تعالى عن ذلك علواً كبيراً.
- {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ 3 عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ (9)}

1 أي: بالبراهين كذلك.

2 ضلال النصارى أعظم ضلال وأسوأه، إذ كيف يعقل أن يكون عيسى إلهاً وقد قتل وصلب في اعتقادهم، وكيف يكون إلهاً وهو ابن امرأة اسمها مريم، وهم يعترفون بذلك، فسبحان الله أين تذهب عقول العقلاء؟.

3 أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ} إلى: {أُولِي الْأَلْبَابِ} ثم قال: "إذا رأيتم الذين يبتغون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله: فاحذروهم".

(1/285)

شرح الكلمات:

{مُحَكَّمَاتٌ 1}: الظاهرة الدلالة البينة المعنى التي لا تحتل إلا معنى واحداً، وذلك كآيات الأحكام من حلال وحرام وحدود، وعبادات، وعبر وعظات.

{مُتَشَابِهَاتٌ}: غير ظاهرة الدلالة محتملة لمعان يصعب على غير الراسخون في العلم القول فيها وهي كفواتح السور، وكأمور الغيب 2. ومثل قول الله تعالى في عيسى عليه السلام: {...وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ 3 وَرُوحٌ مِنْهُ...} وكقوله تعالى: {...إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ 4...} .

{فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}: الزيغ: الميل عن الحق بسبب شبهة أو شهوة أو فتنة.

{ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ}: أي: طلباً لفتنة المؤمنين في دينهم ومعتقداتهم.

{وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}: طلباً لتأويله ليوافق معتقداتهم الفاسدة.

{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}: وما يعلم ما يؤول إليه أمر المتشابه إلا الله منزله.

{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ 5}: هم أهل العلم اليقيني في نفوسهم الذين رسخت أقدامهم في معرفة الحق فلا يزلون ولا يشتطون في شبهة أو باطل.

{كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}: أي المحكم والمتشابه فنؤمن به جميعاً.

{إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}: أصحاب العقول الراجحة والفهوم السليمة.

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا 6}: أي: لا تمل قلوبنا عن الحق بعدما هديتنا إليه وعرفتنا به فعرفناه.

{وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً}: أعطنا من عندك رحمة.

- 1 قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: المحكمات، أي: في القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه.
- 2 قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.
- 3 سورة النساء: 171.
- 4 سورة الأنعام: 57.
- 5 روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل عن الراسخين في العلم: "هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه".
- 6 سئلت أم سلمة رضي الله عنها في حديث حسن رواه الترمذي عن ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فقالت: "كان أكثر دعاؤه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

معنى الآيات:

ما زال تعالى يقرر ربوبيته وألوهيته ونبوة رسوله ويبطل دعوى نصاري نجران في ألوهية المسيح عليه السلام، فيقول: هو أي: الله الحي القيوم الذي أنزل عليك الكتاب، أي: القرآن منه آيات محكمات، لا نسخ فيها ولا خفاء في معناها ولا غموض في دلالتها على ما نزلت فيه وهذه معظم أي الكتاب وهي أمة واصلة، ومنه آيات أخر متشابهات و هي قليلة والحكمة من إنزالها كذلك الامتحان والاختبار بالحلال والحرام، وبأمر الغيب ليثبت على الهداية والإيمان من شاء الله هدايته، ويزيغ في إيمانه وضل عن سبيله من شاء الله تعالى ضلاله وعدم هدايته. فقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِيبٌ...} أي: ميل عن الحق {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} للخروج به عن طريق الحق وهداية الخلق كما فعل النصارى حيث ادعوا أن الله ثالث ثلاثة؛ لأنه يقول نخلق ونحيي، ونميت، وهذا كلام جماعة فأكثر، وكما قالوا في قوله تعالى في شأن عيسى: {... وَرُوحٌ مِنْهُ}...} أنه جزء منه متحد به وكما قال الخوارج في قوله تعالى: {...إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ}...} فلا يجوز لأحد أن يحكم في شيء وكفروا علياً وخرجوا 3 عنه لتحكيمه أبا موسى الأشعري في حقيقة الخلاف بين على ومعاوية، وهكذا يقع أهل الزيغ في الضلال حيث يتبعون المتشابه ولا يردونه إلى المحكم فيظهر لهم معناه ويفهمون مراد الله تعالى منه. وأخبر تعالى أنه لا يعلم تأويله إلا هو سبحانه وتعالى، وأن الراسخين 4 في العلم يفوضون أمره إلى الله منزله فيقولون {...أَمَّا بِهِ 5 كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} 6 ، ويسألون ربهم الثبات

1 سورة النساء: 171.

2 سورة الأنعام: 57.

3 روى أن أبا أمامة رضي الله عنه مر برؤوس منصوبة عند باب مسجد دمشق فسأل عنها، فقيل: إنها رؤوس خوارج جيء بها من العراق فقال: "أولئك كلاب النار ثلاثاً شر قتلة تحت ظل السماء طوبى لمن قتلهم ثلاثاً ثم بكى، فقيل ما يبكيك. فقال: رحمة بهم إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه، ثم قرأ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ} إلى قوله: {أُولُو الْأَلْبَابِ} .

4 روى أن ابن عباس رضي الله عنه قال: "التفسير على أربعة أنحاء: تفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله". كما يروى هذا عن عائشة وغيرها.

5 الجمهور على أن الوقف على قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} ومن هنا قالوا: لا يعلم المتشابهة إلا الله، وهو مما استأثر به دون عباده ومن قال: "أن قوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} معطوف على قوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} ، قالوا: إن الراسخين في العلم قد يعلمون المتشابهة دون البعض ويدل عليه قولهم: {كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا} أي: ما علمناه وما لم نعلمه، وروى أن ابن عباس قال: "أنا ممن يعلم تأويله".

6 هذه الجملة ليست من كلام الراسخين ولكنها من كلام الله تعالى فهي تذييل للكلام السابق سيقت للثناء عليهم.

(1/287)

على الحق فيقولون: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً..} ترحمنا بها في دنيانا وأخرانا إنك أنت وحدك الوهاب، لا إله غيرك ولا رب سواك، ويقررون مبدأ المعاد والدار الآخرة فيقولون سائلين ضارعين {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم فاغفر لنا وارحمنا يومئذ حيث آما بك ورسولك و بكتابك محكم آيه ومتشابهه، إنك لا تخلف الميعاد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- في كتاب الله المحكم والمتشابه، فالمحكم يجب الإيمان به، والعمل بمقتضاه، والمتشابه يجب الإيمان به ويفوض أمر تأويله إلى الله منزله ويقال: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} .
- 2- أهل الزيغ الذين يتبعون ما تشابهه 1 يجب هجرانهم والإعراض عنهم؛ لأنهم مبتدعة وأهل أهواء.
- 3- استحباب الدعاء بطلب النجاة عند ظهور الزيغ ورؤية الفتن 2 والضلال.
- 4- تقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ (10) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

1 قال أهل العلم: التشابه يكون حقيقياً وإضافياً. فالحقيقي لا سبيل إلى فهم معناه، وهو المراد من الآية: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} ، والإضافي: ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى طلب دليل آخر، فإذا طلبه العالم وجده وهو كثير. منه قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً} فهذا يبين معناه: {وَأَنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ} .

2 روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أيام حروب الردة كان يصلي المغرب فيقرأ بالفاتحة وسورة من قصار المفصل، وفي الركعة الثالثة بأمر القرآن ويقرأ قوله تعالى سراً: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} يقنت بها. كما روي عن عائشة أنها قالت: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال: "لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك

لذنبني، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب".

(1/288)

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْبَقَرَاتِ فِتْنَةٌ يُفْتَنُ فِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (13)

شرح الكلمات:

- {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}: هم وفد نجران ويهود المدينة والمشركون والمنافقون.
{لَنْ نُعْطِيَهُمْ}: لن تجزي عنهم ولن تقيهم عذاب الله إذا حل بهم.
{وَقُودُ النَّارِ}: الوقود ما توقد به النار من حطب أو فحم حجري أو غاز.
{كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ}: كعادتهم وسننهم في كفرهم وتكذيبهم وما حل بهم من عذاب في الدنيا والآخرة.
{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا2}: هم يهود المدينة بنو قينقاع.
{آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ3}: علامة واضحة، والفتتان: المسلمون وقريش إنفتحا في بدر.
{يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ}: يقوي.
{لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}: العبرة: العظة، وما يعبر به ذو البصيرة مواضع الخطر فينجو.
معنى الآيات:

لما أصر وفد نجران على الكفر والتكذيب واتباع المتشابه من آي الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل من الحق والخروج عنه. توعدهم الرب تعالى جنس الكافرين من نصارى ويهود وعرب وعجم فقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..} بالحق لما جاءهم وعرفوه معرفة لا لبس فيها ولا

- 1 الضمير عائد على المسلمين على أسلوب الالتفات والأصل: ترونهم مثليكم، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على المشركين، ولكن الصواب أنه عائد على المؤمنين، لأن الله تعالى قلل المشركين في أعين المؤمنين ليقدموا على قتالهم.
- 2 استئناف ابتدائي للانتقال من النذارة إلى التهديد حيث تطلب المقام ذلك إذا تبجح اليهود وتناولوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مخوفين له بكلامهم السخيف.
- 3 الفئة: الجماعة من الناس، وسميت فئة لأنه يفاء إليها، أي: يرجع إليها في وقت اشتداد الحرب.

(1/289)

غموض، ولكن منعهم من قبوله الحفاظ على المناصب والمنافع هؤلاء جميعهم سيعذبهم الله تعالى في نار جهنم ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، واعلم أنهم وقود النار، التي مهدوا لها بكفرهم وبئس المهاد مهدوه لأنفسهم. ثم أخبر تعالى أنهم في كفرهم وعنادهم حتى يأتيهم العذاب كدأب آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم التي كذبت رسلها؛ كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح حتى أخذهم الله بالعذاب في الدنيا بالهلاك والدمار، وفي الآخرة بعذاب النار وبئس المهاد، وكان ذلك بذنوبهم لا بظلم الله تعالى ثم أمر الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لليهود المدينة الذين قالوا للرسول لا يغرنك أنك قاتلت من لا يحسن الحرب فانتصرت عليهم يريدون قريشاً في موقعة بدر، إنك إن قاتلتنا ستعلم أنا نحن الناس، لما قالوا قولتهم هذه يهددون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أمره أن يقول لهم 1 {سَتُعْلَبُونَ} يريد في المعركة وتتهزمون وتموتون، وبعد موتكم تحشرون إلى جهنم وبئس المهاد جهنم مهدتموها لأنفسكم بكفركم وعنادكم وجحودكم للحق بعد معرفته. وفتح أعينهم على حقيقة لو تأملوها لما تورطوا في حرب الرسول حتى هزمهم وقتل من قتل منهم وأجلى من أجلهم. وهي أن المسلمين الذين قاتلوا المشركين في بدر وانتصروا عليهم كانوا أقل عدد وأنقص عدة، ومع ذلك انتصروا؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله، والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت والشرك والظلم والطغيان، ونصر الله الفئة القليلة المسلمة 2 وهزم الفئة الكافرة الكثيرة، فلو اعتبر اليهود بهذه الحقيقة لما تورطوا في حرب مع الرسول صلى الله عليه وسلم أبداً. ولكنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور وهي البصائر. فقال تعالى لهم: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} -في بدر- جماعة- تقاتل في سبيل الله- إعلاء كلمته- وأخرى فئة كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت {يُرَوِّهُمُ 3مِثْلَهُمْ

1 فعلاً فقد جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم: "يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، وقد عرفتم إني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم".

2 إذ كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان عدد المشركين رايياً على التسعمائة مقاتل.

3 رأى المسلمون الكافرين مثليهم، أي: مثلي عدد المسلمين، وهذا معنى التقليل إذ الكافرون تسعمائة فرأوهم ستمائة وهو التقليل المذكور.

رَأْيِ الْعَيْنِ} لقريهم منهم. ومع هذا نصر الله الأقلية وهم الأكثرية الكافرة، وذلك لأن الله تعالى يؤيد بنصره من يشاء، فأيد أوليائه وهزم أعداءه، وإن في هذه الحادثة لعبرة وعظة ومتفكر ولكن لمن كان ذا بصيرة. أما من لا بصيرة له فإنه لا يرى شيئاً حتى يقع في الهاوية، قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ} المذكور لهم: {لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الكفر مورث لعذاب يوم القيامة والكافر معذب قطعاً.
 - 2- الأموال والأولاد والرجال والعتاد مهما كثروا لن يغنوا من بأس الله شيئاً إذا أَرَادَهُ بالكافرين في الدنيا والآخرة.
 - 3- الذنوب بريد العذاب العاجل والأجل.
 - 4- ذم الفخر والتعالي وسوء عاقبتهما.
 - 5- العاقل من اعتبر بغيره، ولا عبرة لغير أولي الأبصار أي البصائر.
 - 6- صدق خبر القرآن في ما أخبر به اليهود من هزيمتهم، فكان هذا دليل صدق على أن القرآن وحي الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الإسلام دين الله الحق.
- لِّزَيْنٍ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)
- شرح الكلمات:
- {لِّزَيْنٍ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} : جعل حبها مستحسناً في نفوسهم لا يرون فيه قبحاً ولا دمامة.

- 1 شاهده في كتاب الله: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}، {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}.
- 2 روى البخاري أن عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية: {لِّزَيْنٍ لِلنَّاسِ حُبُّ...} إلخ. قال: الآن يارب حين زينتها لنا. فأنزل الله تعالى: {قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ} الآية.

(1/291)

-
- {الشَّهَوَاتِ 1} : جمع شهوة بمعنى المشتهى طبعاً وغريزة؛ كالطعام والشراب اللذيذين.
- القَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ : القنطار : ألف ومائة أوقية فضة، والمقنطرة: الكثيرة بعضها فوق بعض.
- الخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ 2 : ذات السمات الحسان والمعدة للركوب عليها للغزو والجهاد.
- الأنعام : الإبل والبقر والغنم وهي الماشية.
- الحَرْثِ 3 الزروع والحقول وسائر النباتات النافعة.

{ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: ذلك المذكور من النساء والبنين إلخ. متاع الحياة الدنيا يريد يستمتع به فيها ويموت صاحبها ويتركها.
معنى الآية الكريمة:

لما ذكر تعالى عناد من كفر من النصارى، واليهود، والمشركين، وجحودهم، وكفرهم، ذكر علة الكفر وبين سببه ألا وهو ما زينه تعالى لبني البشر عامة ليفتتهم فيه ويمتحنهم به وهو حب الشهوات، أي: المشتهيات بالطبع البشري من النساء⁴، والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسمومة والأنعام والحرث وهو كل ما يحرق من سائر الحبوب والنباتات الغذائية والعطرية وغيرها. هذا الذي جعل تلك الجماعات ترفض الحق وتدفعه؛ لأنه يحول بينهم وبين هذه المشتهيات غالباً فلا يحصلون عليها، ولم يعلموا أنها مجرد متاع زائل فلا يبيعوا بها الجنة دار الخلد والسلام، ولذا قال تعالى ذلك أي ما ذكر من أصناف المحبوبات متاع الحياة الدنيا لا غير إما الآخرة فلا ينفع فيها شيء من ذلك بل لا ينفع فيها إلا الزهد فيه والإعراض عنه إلا ما لا بد منه للبلغة به إلى عمل الدار الآخرة وهو الإيمان وصالح الأعمال، والتخلي عن الكفر والشرك وسائر الذنوب والمعاصي.

- 1 في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات"، ومعناه: أن الجنة لا تتال إلا بقطع مغاور المكاره والصبر عليها، وأن النار لا ينجي منها إلا ترك الشهوات وطاقم النفس عنها.
- 2 ما ذكرناه مأخوذ من السومة وهي: السمة، أي: العلامة، وقد تكون المسومة مأخوذ من السوم، وهي: الرعي في المرعى، يقال: أسام الماشية إذا رعى بها في المرعى. والخيل مؤنثة.
- 3 الحرف: مصدر أطلق على المحروثات نفسها من المزارع الحدائق.
- 4 روى الشيخان عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء". وفي حديث آخر: "اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء" رواه مسلم.

(1/292)

وختم تعالى الآية بقوله مرغياً في العمل للدار الآخرة داعياً عباده إلى الزهد في المتاع الفاني للتعلق قلوبهم بالنعيم الباقي فقال: {وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}، أي: المرجع الحسن، والنزول الكريم والجوار الطيب السعيد.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- يزين الله تعالى بمعنى يجعل الشيء زيناً محبوباً للناس للإبتلاء والاختبار قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ويزين الشيطان للإضلال والإغواء، فالله يزين الزين ويقبح القبيح، والشيطان يزين القبيح، ويقبح الزين. فانظر الفرق وتأمل.
- 2- المزيينات في هذه الآية من تزيين الله تعالى للإبتلاء، وكلها زينة في الواقع وليس فيها قبيح إلا إذا طلبت من غير حلها وأخذت بشره ونهم فأفسدت أخلاق آخذها أو طغت عليه محبتها فأنسته لقاء الله وما عنده فهلك بها كاليهود والنصارى والمشركين.
- 3- كل ما في الدنيا مجرد متاع، والمتاع دائماً قليل وزائل فعلى العاقل أن ينظر إليه كما هو فلا يطلبه بما يحرمه حسن 2 المآب عند الله. اللهم لا تحرمنا حسن مآبك يا الله يا رحمن يا رحيم.
- {قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ دَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17)}

1 سورة الكهف: 7.

- 2 المآب: المرجع، يقال: آب يؤب أوباً، ومآباً إذا رجع، ومنه قول امرؤ القيس:
وقد طفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب
والمراد بالمآب: ما أعده الله تعالى لأوليائه من النعيم المقيم في دار السلام.

(1/293)

شرح الكلمات:

- {أُوْنِبْتُكُمْ 1}: أخبركم بنبأ عظيم لأن النبأ لا يكون إلا بالأمر العظيم.
{بِخَيْرٍ مِنْ دَلِكُمْ}: أي: المذكور في الآية السابقة من النساء والبنين. إلخ.
{اتَّقَوْا}: خافوا ربهم فتركوا الشرك به ومعصيته ومعصية رسوله.
{مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}: من خلال قصورها وأشجارها أنهار 2 الماء، وأنهار اللبن وأنهار العسل وأنهار الخمر.
{خَالِدِينَ فِيهَا}: مقيمين فيها إقامة لا يرحلون بعدها أبداً.
{أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}: زوجات: هي الحور العين نقيات من دم الحيض واليوم وكل أذى وقذر.
{الصَّابِرِينَ}: على الطاعات لا يفارقونها وعلى المكروه لا يتسخطون، وعن المعاصي لا يقارفونها.
{الصَّادِقِينَ}: في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم.
{القَانِتِينَ}: العابدين المحسنين الداعين الضارعين.

الْمُنْفِقِينَ: المؤدين للزكاة المتصدقين بفضول أموالهم.

الْمُسْتَعْفِرِينَ 3 بِالْأَسْحَارِ : السائلين ربهم المغفرة في آخر الليل وقت السحور.

معنى الآيات:

لما بين الله تعالى ما زينه للناس من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة إلى آخر ما ذكر تعالى، وبين أن حسن المآب عنده سبحانه وتعالى فليطلب منه بالإيمان والصالحات أمر رسوله أن يقول للناس كافة أُوْنبئكم بخير من ذلك المذكور لكم. وبينه بقوله:
{ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

1 يصح أن يكون منتهى الاستفهام قوله تعالى: {مِنْ ذَلِكَكُمْ} و {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا} خبر مقدم، وجنات:

المبتدأ، ويصح أن يكون منتهى الاستفهام: {عِنْدَ رَبِّهِمْ} و{جَنَّاتٌ} : خبر، والمبتدأ محذوف.

2 شاهد هذا في قوله تعالى من سورة محمد صلى الله عليه وسلم: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} .

3 المختار من ألفاظ الاستغفار ما رواه الطبراني: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبو لك بنعمتك عليّ، وأبو بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" . وقول العبد: "اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" .

(1/294)

وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ...} وهو رضاه عز 1 وجل عنهم وهو أكبر من النعيم المذكور قبله، قال تعالى في آية أخرى 2: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ...} .

ثم أخبر تعالى أنه بصير بعباده يعلم المؤمن الصادق والمنافق الكاذب، والعامل المحسن والعامل المسيء وسيجزى كلا بعدله وفضله، ثم ذكر صفات المتقين التي ورثوا بها ما وصف من النعيم فقال: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} فذكر صفة الإيمان والخشية والضراعة والدعاء لهم ثم كر باقي الصفات الكمالية فقال: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} ، يتهجدون آخر الليل وقبل طلوع الفجر يكثرون من الاستغفار وهو طلب المغفرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا مهما كان.
- 2- نعيم الآخرة خاص بالمتقين الأبرار، ونعيم الدنيا غالباً ما يكون للفجار.
- 3- التقوى وهي ترك الشرك والمعاصي هي العامل الوراثي لدار السلام.
- 4- استحباب الصراعة والدعاء والاستغفار 3 في آخر الليل.
- 5- الصفات المذكورة لأهل التقوى هنا كلها واجبة لا يحل أن لا يتصف بها مؤمن ولا مؤمنة في الحياة.

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ}

- 1 في قوله تعالى من سورة التوبة: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.
- 2 أخرج مسلم عنه صلى الله عليه وسلم: "أن أهل الجنة إذ أدخلوها يقول الله تعالى لهم: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً".
- 3 شاهده ما رواه الأئمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: "أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرنى فأغفر له. فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر" . رواه مسلم
- 4 روى الكلبي، ونقل ذلك القرطبي فقال: "لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم عليه حبران من أحبار الشام فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعمة، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها أمنا بك. وصدقناك. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسألاني: فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله؟ فأنزل الله تعالى على نبيه: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} الآية.
- 5 في عطف شهادة أولي العلم على شهادة الله تعالى شرف كبير لأولي العلم، وفي الحديث: "أن العلماء ورثة الأنبياء" ، "العلماء أمناء الله على خلقه" .

(1/295)

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ 1 عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)

شرح الكلمات:

{شَهْدَ}: أخبر عن علم بحضوره الأمر المشهود به.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}: لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلا الله تبارك وتعالى.

{وَأُولُو الْعِلْمِ}: أصحاب العلم الصحيح المطابق للواقع وهم الأنبياء والعلماء.

القسط: العدل في الحكم والقول والعمل.

{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}: الغالب ذو العزة التي لا تغلب، الحكيم في خلقه وفعله وسائر تصرفاته.

{الَّذِينَ}: ما يدين الله تعالى به أي: يطاع فيه ويخضع له به من الشرائع والعبادات.

{لِلْإِسْلَامِ 2}: الانقياد لله بالطاعة والخلوص من الشرك، والمراد به هنا ملة الإسلام.

{بَغِيًّا}: ظلماً وحسداً.

{حَاجُّوكَ}: جادلوك وخاصموك بحجج باطلة واهية.

1 {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} صيغة حصر، أي: حصر المسند إليه الذي هو الدين في المسند الذي هو الإسلام، أي: لا دين إلا الإسلام، وقد أكد هذا الحصر بحرف التوكيد: إن، والمعنى: إن الدين الصحيح هو الإسلام لا غيره.

2 حقيقة الإسلام الشرعية: إنه اعتقاد الحق والنطق به، والعمل بموجبه، عبادة وخلقاً وحكماً حتى تكون حياة المسلم كلها وفق مراد الله تعالى منه وما دعاه إليه وخلقته من أجله.

(1/296)

{أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ}: أخلصت كل أعمالي القلبية والبدنية لله وحده لا شريك له.

{وَمَنْ اتَّبَعَنِي}: كذلك أخلصوا لله كل أعماله له وحده لا شريك له.

{وَأُوتُوا الْكِتَابَ}: اليهود والنصارى.

الأميين: العرب المشركين سمو بالأميين لقلة من يقرأ ويكتب فيهم.

{أَسْلَمْتُمْ}: الهمزة الأولى للاستفهام والمراد به الأمر أي: أسلموا خيراً لكم لظهور الحق وانبلاج نوره بينكم بواسطة كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{فَإِنْ أَسْلَمُوا}: فإن أجابوك وأسلموا فقد اهتدوا إلى سبيل النجاة.

{وَإِنْ تَوَلَّوْا}: أدبروا عن الحق بعد رؤيته وأعرضوا عنه بعد معرفته فلا يضرك أمرهم إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت.

معنى الآيات:

يخبر الجبار عز وجل أنه 1 شهد أنه لا إله إلا هو وأن الملائكة وأولي العلم يشهدون كذلك شهادة علم وحق قامت على مبدأ الحضور الذاتي، والفعلي وأنه تعالى قائم في الملكوت كله، علويه وسفليه، بالعدل، فلا رب غيره ولا إله سواه، العزيز في ملكه وخلقه الحكيم في تدبيره وتصريفه فلا يضع شيئاً في غير موضعه اللائق به. فرد بهذه الشهادة على باطل نصارى نجران، ومكر اليهود، وشرك العرب، وأبطل كل باطلهم سبحانه وتعالى، ثم أخبر أيضاً أن الدين الحق الذي لا يقبل تعالى ديناً سواه، هو الإسلام، القائم على مبدأ الانقياد الكامل لله تعالى بالطاعة، والخلوص التام من سائر أنواع الشرك فقال: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ} في حكمه وقضائه الإسلام، وما عداه فلا يقبله 2 ولا يرضاه. ثم أخبر تعالى عن حال نصارى نجران، المجادلين لرسوله، في شأن تأليه عيسى بالباطل فقال: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} يريد أن خلاف أهل الكتاب لم يكن عن جهل منهم بالحق ومعرفته 3 و لكن كان عن علم حقيقي وإنما حملهم على الخلاف المسبب للفتن

- 1 ورد أن من قال عند تلاوة هذه الآية: {شَهِدَ اللَّهُ} إلخ. وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة -يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول عز وجل: "عبدني عهد إليّ وأنا أحق من وفي بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة".
- 2 روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أهل النار".
- 3 يشهد لهذه الحقيقة ما رواه البخاري: " أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي صلى الله عليه وسلم وضوءه ويناوله لعنه فمرض فاتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وأبوه قائم عند رأسه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا فلان قل لا إله إلا الله فنظر إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم. فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد لله الذي أخرجني من النار".

(1/297)

والحروب وضياع الدين، البغي والحسد إذ كل فرقة تريد الرئاسة والسلطة الدينية والدينية لها دون غيرها، وبذلك يفسد أمر الدين والدنيا، وهذه سنة بشرية تورط فيها المسلمون 1 بعد القرون المفضلة أيضاً، والتاريخ شاهد. ثم قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} يتوعد تعالى ويهدد كل من يكفر بآياته الحاملة لشرائعه فيجدها ويعرض عنها فإنه تعالى يحصي عليه ذنوب كفره وسيئات عصيانه ويحاسبه بها ويجزيه وأنه سريع الحساب؛ لأنه لا يشغله شيء عن آخر ولا

يعيبه إحصاء ولا عدد، ثم يلتفت بالخطاب إلى رسوله قائلاً له: {فَإِنْ حَاجُّوكَ} يريد وفد نجران النصراني فاختصر الحجاج معهم بإظهار موقفك المؤيس لهم داعياً إياهم إلى الإسلام الذي عرفوه وأنكروه حفاظاً على الرئاسة والمنافع بينهم فقل لهم: {أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} أيضاً أسلم وجهه لله فليس فينا شيء لغير الله وقلوبنا وأعمالنا وحياتنا كلها فأسلموا2 أنتم يا أهل الكتاب ويا أميون {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا} وإن تولوا وأعرضوا فلا يضررك إعراضهم، إذ ما كلفت إلا البلاغ وقد بلغت، أما الحساب والجزاء فهو إلى الله تعالى البصير بأعمال عباده العليم بنياتهم وسوف يجزيهم بعلمه ويقضي بينهم بحكمه وهو العزيز الحكيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- اعتبار الشهادة والأخذ بها إن كانت قائمة على العلم وكان الشاهد أهلاً لذلك بأن كان مسلماً عدلاً .

2- شهادة الله أعظم شهادة تثبت بها الشرائع والأحكام وتليها شهادة الملائكة وأولي العلم.

3- بطلان كل دين بعد الإسلام و كل ملة غير ملته لشهادة الله تعالى بذلك وقوله: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الآية(85) من هذه السورة والآتي تفسيرها إن شاء الله تعالى.

4- الخلاف بين أهل العلم والدين يتم عندما يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فيتورطون في

1 وما زال المسلمون متفرقين إلى اليوم، بل تفرقهم اليوم أسوأ من الأول، ودولهم دويلات، وشريعتهم التي يسوسون بها الأمة المسلمة شرائع.

2 روى محمد بن إسحاق أن وفد نجران لما دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم منهم السيد والعاقب، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسلما" . قالوا: قد أسلمنا قبلك. فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: "كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب" .

(1/298)

المطاعم والمشارب، ويتشوقون إلى الكراسي والمناصب، ويرغبون في الشرف يومئذ يختلفون بغياً بينهم وحسداً لبعضهم بعضاً.

5- من أسلم قلبه لله وجوارحه وأصبح وفقاً في حياته على الله فقد اهتدى إلى سبيل النجاة والسلام.

6- من علق قلبه بالحياة الدنيا وأعرض عما يصرفه عنها من العبادات ضل في حياته وسعيه

وحسابه على الله وسيلقى جزاءه.

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(22)}

شرح الكلمات:

{يَكْفُرُونَ} : يجحدون ويكذبون.

{النَّبِيِّنَّ} : جمع نبي وهو نكر من بنى آدم أوحى إليه الله تعالى.

القسط : العدل والحق والخير والمعروف.

{بَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} : أخبرهم إخباراً يظهر أثره على بشرة وجوههم ألماً وحسرة.

{حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} : بطلت وذهبت لم ينجوا منها شيئاً ينفعهم، ويهلكون بذلك ويعدمون الناصر لهم؛ لأن الله خذلهم وأراد إهلاكهم وعذابهم في جهنم.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في هنك أستار الكفرة من أهل الكتابيين اليهود والنصارى، فذكر تعالى هنا أن الذين يكفرون 1 بآيات الله وهي حججه وأعلام دينه، وما بعث بها رسله، ويقتلون مع

1 جيء بالأفعال المضارعة في صلاة الذين يكفرون يقتلون النبيين ويقتلون إلخ. لأجل استحضار الحالة الفطرية من جهة، ومن جهة أخرى عن نيات اليهود فإنهم ما زالوا مصرين على قتل الأنبياء، وكيف وقد حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة.

(1/299)

ذلك النبيين بغير حق 1 ولا موجب للقتل، ويقتلون الذين يأمرهم 2 من أتباع الأنبياء المؤمنين الصالحين، هذه جرائم بعض أهل الكتاب فبشرهم بعذاب أليم، ثم أخبر أن أولئك البعداء في مهاوي الشر والفساد والظلم والعدا حبطت أعمالهم في الدنيا فلا ينجون منها عاقبة حسنة ولا مدحاً ولا ثناء بل سُجِلت لهم بها عليهم لعنات في الحياة والممات، والآخرة كذلك وليس لهم فيها من ناصرين ينصرونهم فيخلصونهم من عذاب الله وهيئات هيئات أن يوجد من دون الله ولي أو نصير.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- الكفر والظلم من موجبات هلاك الدنيا ولزوم عذاب الآخرة.

2- قتل الأمرين بالمعروف 3 والناهين عن المنكر كقتل الأنبياء في عظم الحرم.

3- الشرك محبط للأعمال مفسد لها في الدنيا والآخرة.

4- من خذله الله تعالى لا ينصره أحد، ومن ينصره الله لا يغلبه أحد.
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ

- 1 بغير حق: حال مؤكدة إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير حق، فقتلهم الأنبياء متأكد وهو قبيح، وكونه بغير حق هو أشد قبحاً، والآية تشنيع لأفعالهم القبيحة.
- 2 روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: "رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم قرأ الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ الخ. ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعون نبياً أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوه عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله تعالى " .
- 3 ذكر القرطبي في تفسيره الرواية التالية: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمام عادل لا يظلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرسون على طلب العلم والقرآن ونسأؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. وأخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: "إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم من قبلكم" قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: "الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم" . الرذالة: كالحسالة. ومعناه: فيمن لا خير فيهم.

(1/300)

لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (25)
شرح الكلمات:

﴿أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ : اعطوا حظاً وقسطاً من التوراة.
﴿يُدْعَوْنَ﴾ : يُطلب إليهم أن يتحاكموا فيما اختلفوا فيه من الحق إلى كتابهم الذي يؤمنون به وهو التوراة فيأبون ويعرضون.
﴿يَتَوَلَّى﴾ : يرجع وهو مصمم على عدم العودة إلى الحق.
﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ : هذا قول اليهود ويعنون بالأيام الأربعين يوماً تلك التي عبدوا فيها العجل بع غياب موسى عليه السلام عنهم.

{يَفْتَرُونَ} : يكذبون.

{الْيَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ} : هو يوم القيامة.

{مَا كَسَبَتْ} : ما عملت من خير أو شر.

{لَا يُظْلَمُونَ} : بأن يعذبوا بدون المقتضي لعذابهم من الشرك والكفر والمعاصي.

معنى الآيات:

ما زال السياق في فضح أهل الكتاب بذكر ذنوبهم وجرائمهم، فيقول تعالى لرسوله حاملاً له على التعجب من حال اليهود ألم تر يا رسولنا إلى الذين أوتوا نصيباً² من الكتاب، أي ألم ينته إلى علمك أمرهم حيث يدعون إلى التحاكم³ إلى كتاب الله تعالى فيما انكروه⁴ واختلفوا فيه من صفاتك وشأن نبوتك ورسالتك، ثم يتولى عدد منهم وهم مصممون على عدم العودة وطلب الحق والإقرار به إنها حال تدعو إلى التعجب حقاً، وصارفهم عن قبول الحق

1 قال ابن عباس: "هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على يهود في بيت المدراس فدعاهم إلى الإسلام فقالوا له: على أي دين أنت؟ فقال: " على ملة إبراهيم"، فقالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم". فأبوا عليه. فنزلت هذه الآية".

2 التتكير للتقليل وليس للتعظيم بأن السياق في ذمهم وتقبيح سلوكهم.

3 الآية دليل على وجوب من دعا إلى التحاكم إلى شرع الله أن يجيب إلى ذلك ولا يمتنع وإلا يقدح في إيمانه.

4 أي من كون إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً، حيث زعموا إنه كان يهودياً كما تقدم في سبب نزول الآية: {ألم ترى الذين...}.

(1/301)

ومراجعته هو اعتقادهم الفاسد بأن النار لا تمسهم إذا ألقوا فيها إلا مدة أربعين يوماً، وهي المدة التي عبد فيها أسلافهم العجل يوم غاب موسى عنهم لمناجاته ربه تعالى في جبل الطور. وهذه الدعوى باطلة لا أساس لها من الصحة بل يُخلدون في النار لا بعبادة أسلافهم العجل أربعين يوماً بل بكفرهم وظلمهم وجحودهم وعنادهم، ويبين تعالى الحقيقة لرسوله والمؤمنين وهي أن هذه الدعوى اليهودية ما هي إلا فرية¹ افتراها علماءهم ليهونوا عليهم ارتكاب الجرائم وغثيان عظام الذنوب. كما حصل للمسلمين في القرون المظلمة من تاريخ الإسلام حيث أصبح مشايخ التصوف يدجلون على المريدين بأنه يستغفرون لهم ويغفر لهم. ثم قال تعالى معظماً حالهم مهولاً موقفهم: فكيف² أي:

حالمهم. إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، وهو يوم القيامة كيف تكون حالهم أنها حال يعجز الوصف عنها، {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} من خير أو شر وهم لا يظلمون بنقص حسناتهم إن كانت لهم حسنات، ولا بالزيادة في سيئاتهم وما لهم إلا السيئات.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- من الإعراض عن الدين والكفر به رفض التحاكم إليه قال قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [سورة النساء: 65].

2- أفسد شيء للاديان بعقائدها وشرائعها وعباداتها الافتراء فيها والابتداع عليها والقول فيها بغير علم.

3- مضرة الاغترار بما يقوله بعض المفسرين والمحشيين على الكتب الدينية من الحكايات والأباطيل بحجة الترغيب أو الترهيب فيغتر بها الناس فيضلوا ويهلكوا.

4- فضيلة ذكر أهوال يوم القيامة وما يلاقي فيها أهل الظلم والفساد وفي القرآن: {إِنَّا أَخْلَصْنَاكُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ} [سورة ص: 46]

1 من جملة افتراءاتهم قولهم: أن الله وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه.

2 هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمه على جهة التوقيف والتعجيب.

(1/302)

{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ نُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ وَنَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَنُعْزِزُ مَنْ نَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ بِبَيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (26) نُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَنُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (27)

شرح الكلمات:

{اللَّهُمَّ}: يا الله حذف حرف النداء "يا" و عوض عنه الميم المشددة وهو خاص بنداء الله تعالى.

{مَالِكِ}: المالك: الحاكم المتصرف يفعل في الملك ما يشاء ويحكم ما يريد لعظم سلطانه وقوة إرادته.

{الْمُلْكِ}: المملوك: والمقصود به ما سوى المالك عز وجل، من سائر الكائنات.

{نُؤْتِي الْمُلْكَ}: السلطان والتصرف في بعض الملكوت.

{نُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}: تدخل الليل في النهار فلا يبقى ليل، و تولج النهار في الليل فلا يبقى

نهار.

{وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} : أي تخرج جسماً حياً من جسم ميت في المحسوسات؛ كالدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، ومن المعنويات تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.
{بِغَيْرِ حِسَابٍ} 1 : بغير عدد ولا حد لواسع فضله وغناه عما سواه.

1 الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام على اختلافه من حب وتمر ولحم وعلى كل ما يحتاج إليه الإنسان في حفظ دنيته صالحة للعبادة.

(1/303)

معنى الآيتين:

من المناسبات التي قيلت في نزول هاتين الآيتين: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أخبر أصحابه أن ملك أمته سيبلغ كذا وكذا في أحاديث صحاح سخر اليهود والمنافقون من إخبار الرسول بذلك مستبشرين له غاية البعد لجهلهم وكفرهم فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين ضمن الرد على نصارى نجران فأمره أن يقول: {اللَّهُمَّ 1 مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...} إلخ.. أمره أن يقول ذلك ليعطيه ما وعده بن من اتساع ملك أمته حتى تشمل ملك فارس والروم، وليرد على ضلال النصارى في تأليه عيسى عليه السلام، إذ المعبود بحق المستحق للعبادة والتأليه دون سواه من هو مالك الملك كله، ويتصرف فيه وحده يؤتي منه ما يشاء لمن يشاء، وينزع عن أعطاهم ما شاء ومتى شاء لا يحول دون تصرفه حائل، ولا يقف دون إعطائه أو نزعه واقف. يعز الذليل متى شاء ويذل العزيز متى شاء، بيده الخير 2 لا بيد غيره يُفِيضُه على من يشاء، ويمنعه عن يشاء وهو على كل شيء قدير. يولج النهار في الليل فلا يبقى نهار، ويولج الليل في النهار فلا يبقى ليل، مظهر من مظاهر القدرة الموجبة لألوهيته وطاعته ومحبته، ويدخل ساعات من الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار، ويدخل ساعات من النهار في الليل فيطول، مظهر من مظاهر الحكمة والقدرة والرحمة، يخرج الحي من الميت؛ الإنسان من النطفة، والنبته من الحبة. ويخرج الميت من الحي؛ النطفة من الإنسان الحي، والبيضة من الدجاجة، والكافر من المؤمن الحي، والعكس كذلك، هذه مظاهر ربوبيته المستلزمة لألوهيته تقرر أنه الإله الحق، لا رب غيره ولا إله سواه، وبذلك تأكد أمران: الأول: أن الله قادر على إعطاء رسوله ما وعده لأمته، وقد فعل. والثاني: أن عيسى لم يكن إلا عبداً مريباً لله بالعبودية وشرفه بالرسالة وأيده، بالمعجزات.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- فضل الدعاء 3 بهاتين الآيتين بأن يقرأهما العبد ثم يقول: "رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما

- 1 ذكر القرطبي: أن النصر بن شميل، قال: من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسماؤه كلها، وقال الحسن البصري: "اللهم: تجمع الدعاء".
- 2 والشر بيده أيضاً، وحذف للتطلب المقام ذلك نحو: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} أي: والبرد.
- 3 أخرج أبو نعيم في الحلية أن معاذاً حبس يوماً عن صلاة الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عما حبسه فقال: كان على دين =

(1/304)

تعطي منهما من تشاء، وتمنع من تشاء اقض عني الدين، فإنه يقضى بإذن الله تعالى ويعطى إن سأل حاجة له من حوائج الدنيا والآخرة.

2- استجابة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وإنجازه I ما وعده في أمته.

3- بطلان ألوهية عيسى عليه السلام وثبوت عبوديته ورسالته وكرامته.

{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تَخُفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)}

شرح الكلمات:

{لَا يَتَّخِذِ}: لا يجعل.

{أَوْلِيَاءَ}: جمع ولي يتولونهم بالنصر والمحبة والتأييد.

{فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ 2}: أي: بريء الله تعالى منه، ومن برئ الله منه هلك.

= ليحنا اليهودي، فوقف عند بابي يرصدني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أتحب أن يقضي عنك ربك؟" قال: قلت: نعم. قال: اقرأ كل يوم {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ} إلى قوله: {بِعِزِّ حِسَابٍ} ثم قل: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منها من تشاء وتمنع من تشاء، اقضي عني ديني. فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداها عنك".

1 إذ لم يقبض الرسول صلى الله عليه وسلم حتى دانت الجزيرة كلها بالإسلام ولم يمضي ربع قرن حتى بلغ ملك أمته من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، ومن جملة ذلك دولة فارس والروم.

2 هذا نحو: {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ} أي: أهل القرية على حذف مضاف كذلك: {فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} أي: ليس في ولاية الله وحزبه في شيء.

(1/305)

{نُقَاةٌ1}: وقاية باللسان وهما الكلمة المليئة للجانب، المبعدة للبغضاء.

{مُحْضَرًا}: حاضراً يوم القيامة.

{أَمَدًا بَعِيدًا}: مدى وغاية بعيدة.

{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}: أي: يخوفكم عقابه إن عصيتموه.

معنى الآيات:

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي: أعواناً وأنصاراً يبادلونهم المحبة والمناصرة على إخوانهم المؤمنين، وأعلمهم تعالى أن من يفعل ذلك فقد برئ الله تعالى منه، وذلك لكفره وردته، حيث والى أعداء الله وعادى أولياءه، فقال تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} أي: برئ الله تعالى منه وانقطعت صلته وانبت حبل الولاية بينه وبين الله تعالى، وبها هلكه، ثم رخص تعالى للمؤمنين المستضعفين الذين يعيشون تحت سلطان الكافرين في أن يعطوهم حلاوة لسانهم دون قلوبهم وأعمالهم³ فينقون بذلك شرهم وأذاهم، وذلك بكلمة المصانعة والمجاملة، قال تعالى: {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً...} ولما كان أمر البراء والولاء ذا خطر عظيم، قال تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} أي: في أن تتخذوا أعداءه أولياء ضد أوليائه وأخبرهم أن المصير إليه لا إلى غيره فليحذر العصاة من وقوفهم بين يدي الله، فقال: {وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ}.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (28)، وأما الآية الثانية (29) فقد أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس مؤمنهم وكافرهم {... إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ...} من حب أو بغض، من رضى أو سخط فلا تنطقوا به ولا تظهروه بحال من الأحوال، أو أن تظهروه بقول أو عمل أو حال فإنه تعالى يعلمه ويعلم ما في السموات والأرض، ويحاسب به ويجزي عليه وهو

1 قال ابن عباس: "النقاة هي: أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي مأثماً، وقرئ: {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} ، وقالوا في النقية: أن يكون المؤمن في دار الكفار قائماً بينهم فله أن يداريهم بلسانه إذا كان خائفاً على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان. وأصل نقاة: وقى على وزن فعلة، كتودة، فقلبت الواو تاء وقلبت الياء ألفاً فصارت نقاة.

2 {مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} ، حرف الجر: {مِنْ} لتأكيد الظرفية، وهو تقييد للنهي في الظاهر فيكون

المنهى عنه اتخاذ الكافرين أولياء دون المؤمنين، وهو المراد من الآية، ولذلك صور منها: أن يتخذ المسلم أو المسلمون جماعة الكفر أولياء لهم ميلاً إلى كفرهم ومناوئة للمسلمين وهذه كفر بلا خلاف، ومنها أن يوالي الكفار لأجل الإضرار بالمسلمين، وهذه كالأولى، ومنها: ما أذن فيها، وهي التقية. 3 روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم: "إنا لنكشر في أقوام وقلوبنا تلعنهم" يريد المنافقين. والتكشير: كالاتسام إلا أنه متكلف فيه.

(1/306)

على كل شيء قدير. ألا فليراقب الله العاقل وليتقه، فلا يقدم على معاصيه، وخاصة موالاته أعدائه على أوليائه. وأما الآية الثالثة (30) {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ...} ففيها يذكر تعالى عباده بيوم القيامة ليقتصروا عن الشر ويرعوا من الظلم والفساد فيقول أذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، أي: حاضراً تجزى به، وما عملت من سوء وشر حاضراً أيضاً ويسوءها مرآة فتود بكل قلبها لو أن بينها وبينه غاية من المسافة لا تدرك وينهي تعالى تذكيره وإرشاده سبحانه وتعالى بقوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} مؤكداً التحذير الأول به، ويختم الآية بقوله: {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} ، ونعم ما ختم به إذ لولاه لطارت قلوب العالمين فزعاً وخوفاً فذو الرأفة بعباده ولا يواس من رحمته.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة موالاته الكافرين 1 مطلقاً.
 - 2- موالاته الكافرين على المؤمنين ردة وكفر وبراءة من الله تعالى.
 - 3- جواز التقية في حال ضعف المؤمنين وقوة الكافرين .
 - 4- وجوب الحذر من عذاب الله تعالى وذلك بطاعته تعالى.
 - 5- خطورة الموقف يوم القيامة ووجوب الاستعداد له بالإيمان والتقوى.
- {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} (32)

شرح الكلمات:

{تُحِبُّونَ اللَّهَ} : لكمال ذاته وإنعامه عليكم.

1 أي: وإن لم يكن فيها ضرر للمسلمين، وما أذن فيه للتقية فإنه مؤقت ولا يجوز الاستمرار فيه إلا حال العجز عن الهجرة خشية أن يولد للمسلم أولاد فيوالون الكافرين، وهم لا يعلمون أن ما كان عليه أبائهم كان تقية لا غير.

{يُحِبُّكُمْ اللَّهُ} : لطاعتكم إياه وطهارة أرواحكم بتقواه.
{وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} : يسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها.
{فَإِنْ تَوَلَّوْا} : أعرضوا عن الإيمان والطاعة.

معنى الآيتين:

لما ادعى وفد نصارى نجران أن تعظيمهم المسيح وتقديسهم له ولأمه إنما هو من باب طلب حب الله تعالى بحب ما يحب وتعظيم ما يعظم، أمر الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يقول لهم: إن كنتم تحبون الله تعالى ليحبكم فاتبعوني على ما جئت به من التوحيد والعبادة يحبكم الله تعالى، ويغفر لكم ذنوبكم أيضاً وهو الغفور الرحيم. وبهذا أبطل دعواهم في أنهم ما ألهاوا المسيح عليه السلام إلا طلباً لحب الله تعالى والحصول عليه. وأرشدهم إلى أمثل طريق على حب الله تعالى وهو متابعة الرسول على ما جاء به من الإيمان والتوحيد والعبادة المزكية بالروح المورثة لحب الله تعالى وهذا ما تضمنته الآية الأولى (31)، وأما الآية الثانية (32) فقد أمر تعالى رسوله أن يأمر وفد نصارى نجران وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين بطاعته وطاعة رسوله إذ هما طريق الكمال والإسعاد في الدنيا والآخرة. فإن أبوا وأعرضوا أو تولوا فقد باعوا بغضب الله وسخطه عليهم؛ لأنهم كافرون والله لا يحب الكافرين هذا معنى قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} .

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- محبة العبد للرب تعالى واجب وإيمان لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من النعم وأحبوني بحب3 الله تعالى" ، وقوله صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله

1 الحب: المحبة، والحب بالكسر: كالحب، والحب أيضاً: المحبوب، ومنه الأثر: أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه: أي: زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وورد حبه يحب ولم يأت اسم الفاعل منه: حاب كما لم يأت اسم المفعول من أحب محب وإنما أتى محبوب.
2 روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه. فيحبه أهل السماء ، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل

فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض".

3 الحب: الميل إلى ما في إدراكه لذة روحية؛ كحب الله ورسوله وحب ما يحب الله ورسوله، ويستلزم الحب طاعة المحبوب، قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأعطته ...
إن المحب لمن يحب مطيع

(1/308)

أحب إليه مما سواهما".

2- محبة الله تعالى للعبد هي غاية ما يسعى إليه أولوا العلم في الحياة.

3- طريق الحصول على محبة الله تعالى للعبد هو اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالإيمان بما جاء به واتباع شرعه وطاعته في المنشط والمكروه، للآية: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} إذ ليس الشأن أن يحب العبد، وإنما الشأن أن يحب!.

4- دعوى محبة الله ورسوله مع مخالفة أمرهما ونهيهما دعوى باطلة وصاحبها خاسر لا محالة. {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ۙ وَنُوحًا ۙ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ۙ وَآلَ عِمْرَانَ ۙ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)}

شرح الكلمات:

{اصْطَفَىٰ آدَمَ}: اختار وآدم هو أبو البشر عليه السلام.

1 اصطفاء آدم كان بالوحي إليه وإكرام له بأن خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته واصطفاء نوح بإرساله وجعله أبا للبشر بعد الطوفان، وبإطالة عمره وأهلاك الظالمين بدعوته، وآل إبراهيم بأن جعل النبوة بعد إبراهيم فيهم وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فخرهم وسيد أولهم وآخرهم. واصطفى آل عمران ومنهم: حنا ومريم، وعيسى اصطفاهم بكلمات لم تكن لأحد في أيامهم سواهم.

{آل إبراهيم}: آل الرجل: أهله واتباعه على دينه الحق.
{عمران}: رجل صالح من صلحاء بني إسرائيل في عهدهم الأخير: هو زوج حنة وأبو مريم عليهم السلام.
{العالمين}: هم الناس المعاصرون لهم.
امرات عمران: حنة 1.
{ندرت لك ما في بطني}: ألزمت نفسها أن تجعله الله يعبده ويخدم بيته الذي هو بيت المقدس.
{محرراً 2}: خالصاً لا شركة فيه لأحد غير الله بحيث لا تنتفع به أبداً.
{مريم}: خادمة الرب تعالى.
{إني أعيدوها}: أحصنها وأحفظها بجنابك من الشيطان.
{وكفلها زكرياً}: زكريا أبو يحيى عليهما السلام وكانت امرأته أختاً لحنة.
{المحزاب}: مقصورة ملاصقة للمسجد.
{أتى لك هذا؟}: من أين لك هذا، أي من أين جاءك.
معنى الآيات:

لما ادعى نصارى وفد نجران ما ادعوه في المسيح عليه السلام من تأليهه وتأليه أمه أنزل الله تعالى هذه الآيات يبين فيها مبدأ أمر عيسى وأمه وحقيقة أمرهما فأخبر تعالى أنه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران اصطفاهم لدينه واختارهم لعبادته فضلهم بذلك على الناس وأخبر أنهم ذرية 3 بعضهم من بعض لم تختلف عقائدهم، ولم تتباين فضائلهم وكمالاتهم الروحية، وذلك لحفظ الله تعالى لهم وعنايته بهم. وأخبر تعالى أنه سميع عليم، أي سميع لقول امرأة عمران عليم بحالها لما قالت: {... رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً..} وذلك أنها كانت لا تلد، فرأت في حديقة منزلها طائراً يطعم أفراده فحنت إلى الولد وسألت ربها أن يرزقها ولداً وتجعله له يعبده ويخدم بيته، فاستجاب الله تعالى لها فحملت ومات زوجها وهي

- 1 هي حنة بنت ماقودة، مات زوجها وهي حبلى.
- 2 أي خالصاً لعبادة الله لا تبقى بها أنسا لها ولا خدمة.
- 3 ذرية: منصوب على الحال في الآية الكريمة، ولفظ ذرية يطلق على الواحد، وعلى الجمع، ويطلق على الولد والوالد، وهو مشتق من الذر الذي هو الخلق، فذراً بمعنى خلق.

حبلي، وقالت ما قص الله تعالى عنها في قوله: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ، وحان وقت الولادة فولدت ولكن أنثى لا ذكراً فتحسرت لذلك، وقالت: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ} وكيف لا يعلم وهو الخلاق العليم. وقالت: {.. وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ..} في باب الخدمة في بيت المقدس، فلذا هي آسفة جداً، وأسمت مولودتها: مريم، أي خادمة الله، وسألت ربها أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم، واستجاب الله تعالى لها، فحفظها وحفظ2 ولدها عيسى عليه السلام، فلم يقربه شيطان قط. وتقبل3 الله تعالى ما نذرت له وهو مريم، فأنبثها نباتاً حسناً فكانت تنمو نماء عجيباً على خلاف المواليد، وكفلها زكريا فتربت في بيت خالتها وذلك أن حنة لما وضعتها أرضعتها ولفتها في قماطها وبعثت بها إلى صلحاء بني إسرائيل يسندونها إلى من يرون تربيته في بيته، لأن أمها نذرتها لله تعالى، فلا يصح منها أن تبقىها في بيتها ووالدها مات أيضاً، فأحب كل واحد أن يكفلها فكفلها زكريا وأصبحت في بيت خالتها4 بتدبير الله تعالى لها، ولما كبرت أدخلها المحراب لتتعبد فيه، وكان يأتيها بطعامها، فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيعجب لذلك ويسألها قائلاً: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا؟ فتجيبه قائلة: {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} وتعلل لذلك فتقول: {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إفضال الله تعالى وإنعامه على من يشاء.
- 2- بيان أن عيسى عليه السلام ليس بابن الله ولا هو الله، ولا ثالث ثلاثة، بل هو عبد الله ورسوله أمه مريم، وجدته حنة، وجدته عمران، من بيت شرف وصلاح في بني إسرائيل.
- 3- استجابة الله تعالى لدعاء أولياؤه كما استجاب لحنة ورزقها الولد وأعاد بنتها وولدها من الشيطان الرجيم.

1 جرياً على سنتهم في نذر أولادهم الذكور لخدمة بيت المقدس.

2 أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه، ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: {وَأَنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}" .

3 أي: رضيعها منها وقبلها كالشيء يهدى للكريم فيقبله ويثيب عليه.

4 روى عن ابن عباس أن زكريا استأجر لها بنتاً فأرضعتها حولين كاملين.

5 تريد أنه يحصل لها بغير طريقة الأسباب المعروفة وإنما يوضع بين يديها كرامة لها والله هو الرازق لها سبحانه وتعالى.

(1/311)

- 4- مشروعية 1 النذر لله تعالى وهو التزام المؤمن الطاعة تقرباً إلى الله تعالى.
 - 5- بيان فضل الذكر على الأنثى في باب النهوض بالأعمال والواجبات.
 - 6- جواز التحسر والتأسف لما يفوت العبد من الخير الذي كان يأمله.
 - 7- ثبوت كرامات الأولياء كما تم لمريم في محرابها.
 - 8- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ مثل هذه القصص لا يتأتى لأمي أن يقصه إلا أن يكون رسولاً يوحى إليه. ولهذا ختمه بقوله: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ} .
- {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكَّرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبَّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}

شرح الكلمات:

- {هُنَالِكَ} : ثم عندما رأى كرامة الله لمريم عليها السلام.
- {زَكَرِيَّا} : أحد أنبياء بني إسرائيل ورسولهم.
- {هَبْ لِي} : أعطني.

1 ذكر القرطبي: أن ولداً قال لأمه: يا أمة ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم له. فقالت: نعم. فسار يتعبد ويطلب العلم فلما كمل في علمه وحاله آتاها فطرق الباب. فقالت: من؟ فقال: ابنك فلان، فقالت: قد تركتك لله فلا نعود فيك.

2 أي: في ذلك المكان، وهو المحراب. تنبه إلى الدعاء لما شاهد من خوارق العادات فدعا طالباً الولد فاستجاب الله تعالى له، ولا يقال: كيف يأخذ الرسول على من دونه ومن امرأة بالذات؟ فإن الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها النقطة، وأهل الكمال من الناس يعتبرون دائماً بما يرون ويسمعون.

(1/312)

{مِنْ لَدُنْكَ} : من عندك.

{ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} : أولاداً أطهاراً صالحين.

{بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ} : هي: عيسى عليه السلام؛ لأنها كان بكلمة الله تعالى: "كن".

{وَسَيِّدًا 1 وَحَصُورًا 2} : شريفاً ذا علم وحلم، ولا رغبة له في النساء لقلة مائه.

{غُلَامٌ} : ولد ذكر.

{عَاقِرٌ 3} : عقيم لا تلد لعقهما وعقرها.

{آيَةً} : علامة أستدل بها على بداية الحمل لأشكر نعمتك.

{إِلَّا رَمَزًا} : إلى إشارة بالرأس أو باليد يفهم منها ما يفهم من الكلام.

{الْإِبْكَارِ} : أول النهار، والعشي: آخره.

معنى الآيات:

لما شاهد زكريا من كرامات الله لمريم أنها تؤتى بفاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ذكر أن الله تعالى قد يعطي ما شاء لمن يشاء على غير نظام السنن الكونية، فكبر سنه وعقم امرأته لا يمنعان أن يعطيه الله تعالى ولداً، فسأل ربه الولد فاستجاب 4 له ربه فبشرته الملائكة بالولد وهو قائم يصلي في محرابه قائلة: أن الله يبشرك بولد اسمه يحيي 5 مصدقاً بكلمة من الله يريد أنه يصدق بعيسى بن مريم ويكون على نهجه، لأن عيسى هو الكلمة إذا قال بقول تعالى له: "كن" فكان، ووصفه بأنه سيد ذو علم وحلم ونقى وحصور لا يأتي 6 النساء، ونبي من الصالحين، فلما سمع البشارة من الملائكة جاءه الشيطان وقال له: إن الذي سمعته من البشرى هو من الشيطان ولو كان من الرحمن لأوحاه إليك وحياً، وهنا أراد زكريا أن يتثبت من الخبر فقال: { رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي }

1 السيد في عرف الشرع: من يقوم بإصلاح حال الناس في دنياهم وآخرهم معاً، وشاهده قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" وقوله في الحسن: "إن ابني هذا سيد".

2 قال المفسرون في الحصور أقوالاً كثيرة: أمثلها أنه كان معصوماً من الفواحش والقاذورات، وغير مانعة ذلك من تزويج النساء الحلال وغشيانهم وإيلادهن، إذ يفهم من دعاء زكريا المتقدم أنه يكون له أولاد طيبون صالحون.

3 مأخوذ من عقرت المرأة رحمها، أي: قطعنها فلم تحبل ولم تلد، وهو وصف خاص بالنساء، فلذا يقال: عاقر ولا يلبس، إذ لا يوجد في الرجال عاقر حتى يفرق بينهما بالتاء.

4 الفاء في قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ} هي للترتيب، أي: فور دعاؤه استجاب الله تعالى له، وفيها معنى السببية أيضاً: أي: بسبب دعاؤه أعطاه الله على ما يشاء قدير.

5 يحي: معرب يوحنا بالعبرانية نطق بها العرب على صيغة المضارع.
6 هذا قول الجمهور وقد تقدم في النهر ما هو أمثل ما قيل في الحصور مراعاة لكمال الأنبياء وعلو مقاماتهم.

(1/313)

عَاقِرٌ} فأوحى إليه: أن هذا فعل الله والله يفعل ما يشاء. وهنا قال زكريا: رب اجعل لي آية يريد علامة يستدل بها على وجود الحمل ليستقبل النعمة بالشكر فأجابه ربه قائلاً: {آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ} يريد أنك تصبح وأنت عاجز عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، فلا تقدر أن تخاطب أحداً إلا بالإشارة وهي الرمز فيفهم عنك، وأمره تعالى أن يقابل هذا الإنعام بالشكر التام فقال له: {وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ} يريد صل بالعشي آخر النهار والإبكار أوله.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الاعتبار بالغير، إذ زكريا دعا بالولد لما رأى كرامة الله تعالى لمريم.
- 2- مشروعية الدعاء وكونه سراً أقرب إلى الإجابة، وكونه في الصلاة كذلك.
- 3- جواز تلبيس إبليس على المؤمن، ولكن الله تعالى يذهب كيده ووسوسته.
- 4- جواز سؤال الولد الصالح.
- 5- كرامات الله تعالى لأوليائه -استجابة دعاؤهم.
- 6- فضل الإكثار من الذكر، وفضيلة صلاتي الصبح والعصر وفي الحديث: "من صلى البردين دخل الجنة".

{وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ} يريد أنك تصبح وأنت عاجز عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، فلا تقدر أن تخاطب أحداً إلا بالإشارة وهي الرمز فيفهم عنك، وأمره تعالى أن يقابل هذا الإنعام بالشكر التام فقال له: {وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ} يريد صل بالعشي آخر النهار والإبكار أوله.
هداية الآيات

1 روى عن كعب القرظي قوله: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا إذ جعل له آية الولد له ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، ولم يعفه من الذكر بل أمره بقوله: {وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} ولرخص للرجل في الحرب، إذ قال تعالى: {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}.

(1/314)

شرح الكلمات:

{وَأُذِ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ}: اذكر لوفد نصارى نجران ما قالت الملائكة فإن ذلك دليل على صحة نبوتك، وصدقك في أمر التوحيد، وعدم ألوهية عيسى.

{اصْطَفَاكَ}: اختارك لعبادته وحسن طاعته.

{وَطَهَّرَكَ}: من الذنوب وسائر النقائص المخلة بالولاية لله تعالى.

{وَأَصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ 1}: أي فضلك على نساء العالمين بما أهلك له من كرامة ولادة عيسى من غير أب.

{أَقْنَيْتِي 2}: أطيعي ربك وأقنتي له واخشعي.

{وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}: اشهدي صلاة الجماعة في بيت المقدس.

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ}: أي ما ذكرت من قصة مريم وزكريا من أخبار الغيب.

{لَدَيْهِمْ}: عندهم وبينهم.

{إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ 3}: جمع قلم وهو ما يكتب به وإلقاءها لأجل الاقتراع بها على كفالة مريم.

{يَخْتَصِمُونَ}: في شأن كفالة مريم عليها و عليهم السلام.

معنى الآيات:

يقول تعالى لنبيه اذكر لوفد نجران الذين يحاجونك في ألوهية المسيح، إذ قالت الملائكة مخاطبة مريم أم المسيح بما أهلها الله تعالى له وأكرمها به من اصطفاء4 الله تعالى لها لتكون من صالح عبادته، وتطهيره إياها من سائر الذنوب والنقائص والعيوب مفضلاً على نساء عالمها حيث برأها وأكرمها وأظهر آية قدرته فيها فولدت عيسى بكلمة الله وليس على سنته

1 قيل في سبب لقبها بالصدّيقة، أنها لم تسأل الآية عندما بشرت بالولد كما سألتها زكريا عليه

السلام، وأنتى عليها تعالى بقوله: {وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِنِينَ} .

2 روى عن الأوزاعي أنه قال: لما أمر تعالى مريم بالقنوت قامت في الصلاة حتى ورمت قدمها، وسألت دماً وقبحاً.

3 ألقوها في نهر الأردن، وهو نهر جار وأفادت هذه الآية مشروعية القرعة وأنها وإن كانت في شرع من قبلنا إلا أنها شرعت لنا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها وكذا حديث: "لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا" .

4 اختلف في نبوة النساء، ورجح كثيرون نبوة مريم لخطاب الملائكة لها وإخبارهم باصطفاء الله

تعالى لها وهذا يرجح نبوتها. أما الرسالة فلا لأن الرسالة تتطلب الاتصال بالرجال، وهذا يتنافى مع كمال النساء وما خلقن له من الستر والحجاب.

(1/315)

تعالى في تناسل البشر من ذكر وأنثى، وأمرها بمواصلة الطاعة والإخبات والخشوع لله تعالى فقال: **يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي** 1 **وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** 2، وخص الصلاة بالذكر لأهميتها وذكرها بأعظم أركانها وهو السجود والركوع وفي بيت المقدس مع الراكعين.

هذا معنى الآيتين الأولى (42) والثانية (42)، أما الآية الثالثة (44) فقد خاطب الرب تبارك وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى ما سبق في هذا القصص المتعلق بآل عمران حنة ومريم وزكريا ويحيى، ومريم أخيراً بأنه كله من أنباء الغيب، وإخباره يوحيه تعالى إليه فهو بذلك نبيه ورسوله، وما جاء به من الدين هو الحق، وما عداه فهو باطل، وبذلك تقرر مبدأ التوحيد، وأنه لا إله إلا الله، وبطل باطل أهل الكتاب فلا عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا هو إله مع الله، وإنما هو عبد الله ورسول الله. ثم تقريراً لمبدأ الوحي وتأكيداً له قال تعالى لرسوله أيضاً، وما كنت لديهم أي عند علماء بني إسرائيل وصلحائهم وفي حضرتهم، وهم يقتربون على النذيرة: "مريم" من يكفلها فرموا بأقلامهم في النهر فمن وقف قلمه في الماء كان كافلها بإذن الله، فالفقوا أقلامهم تلك الأقلام التي كانت تكتب الحق والهدى لا الباطل والضلال كما هي أغلب أقلام أرباب الصحف والمجلات اليوم، فوقف قلم زكريا ففاز بكفالتها 3 بإذن الله تعالى وقد تقدم قول الله تعالى: فكفلها زكريا، بهذا قامت الحجة على أهل الكتاب وغيرهم بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الدين الحق هو الإسلام وما عداه فباطل وضلال!.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فضل مريم عليها السلام وأنها ولية صديقة، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه من كمل النساء ففي

1 قدم السجود على الركوع في الذكر وإن كان مؤخرًا في الفعل؛ لأنه ألصق بالشكر والمقام مقام شكر.

2 فيه دليل على صلاة المرأة في الجماعة، وقد سن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل قوله: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" وإن كان قوله {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} لا يستلزم الصلاة في

جماعة إذ هو أمر بالركوع فقد تركع وحدها أو مع غيرها.
3 قال القرطبي دلت هذه الآية: {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة. وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابنة حمزة "أمة الله" لجعفر لأن خالتها كانت تحته. وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما الخالة بمنزلة الأم".

(1/316)

الصحيح: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل النساء 1 إلا آسيا امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".
2- أهل القرب من الله هم أهل طاعته القانتون له.
3- الصلاة سلم العروج إلى الملكوت الأعلى.
4- ثبوت الوحي المحمدي وتقديره.
5- مشروعة الاقتراع عند الاختلاف وهذه وإن كانت في شرع من قبلنا إلا أنها مقررة في شرعنا والحمد لله.

{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)}

شرح الكلمات:

{يُبَشِّرُكِ}: يخبرك بخبر سار مفرح لك.

{بِكَلِمَةٍ مِنْهُ 3}: هو المسيح عليه السلام وسمي كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى: {كن}

{الْمَسِيحُ 4}: لقب عيسى عليه السلام ومن معانيه الصديق.

الوجيه: ذو الجاه والقدر والشرف بين الناس.

1 وفي رواية أخرى: "خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم".

2 ذهب القرطبي إلى أن كلمة: رب، تعني سيدي، أي: جبريل، وهو خطأ واضح بل المراد به الرب تبارك وتعالى، فهي تخاطب ربه طالبة معرفة سبب الولد، إذ الأسباب المعتادة لم تكن، فكيف يكون الولد؟.

3 المراد بكلمة: هو، كلمة التكوين، ووصف عيسى بكلمة، مراد به: كلمة خاصة، وهي كلمة: {كن}.

4 اختلف في سبب تلقب عيسى بالمسيح، والمشهور أنه لقب تشريف؛ كالفاروق مثلاً، أو الملك، أو

الصديق، وأما عيسى فهو: معرب، أيشوع، ومعناه السيد، وهل المسيح مشتق من المسح؟ وهل هو بمعنى الماسح، أو الممسوح خلاف.

(1/317)

{فِي الْمَهْدِ}: المهد: مضجع الصبي وهو رضيع.

{وَكَهْلًا}: الكهولة: سن ما بين الشباب والشيخوخة.

{وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا}: تريد لم يقربها ذكر لا للوقاع ولا لغيره، وذلك لعقمها وبعدها عن الرجال الأجانب.

{قَضَى أَمْرًا}: أَرَادَهُ وَحَكَمَ بِوُجُودِهِ.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في حجاج وفد نصارى نجران إذ قال الله تعالى لرسوله واذكر لهم: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} الآية، حيث أخبرتها الملائكة، أي: جبريل عليه السلام بأن الله تعالى يبشرها بولد يكون بكلمة الله تعالى اسمه المسيح عيسى بن مريم، وأنه ذو جاه وشرف في الدنيا وفي الآخرة ومن المقربين، وأنه يكلم الناس وهو في مهده وقت رضاعه، كما يكلمهم في شبابه وكهولته²، وأنه من الصالحين الذين يؤدون حقوق الله تعالى وحقوق عباده وافية غير منقوصة، فردت مريم قائلة: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ} أي: كيف يكون لي ولد ولم يغشني بشر بجماع وسنة الله في خلق الولد الغشيان. فأجابها جبريل قائلاً: الأمر هكذا سيخلق الله تعالى منك ولداً من غير أب، وهو سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء، وإذا حكم بوجود شيء من غير ذوات الأسباب فإنما يقول له: {كُنْ} فهو يكون، كما قضى الله تعالى وأراد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان شرف مريم وكرامتها على ربها إذا كلمها جبريل وبشرها بعد أن تمثل لها بشراً.
- 2- بيان شرف عيسى عليه السلام ووجاهته في الدنيا والآخرة وأنه من المقربين والصالحين.
- 3- تكلم عيسى في المهد³ أي من آيات الله تعالى حيث لم تجر العادة أن الرضيع يتكلم في زمان رضاعه.

1 إذ الظرفية هنا بدل من نظيراتها السابقة، وهي معمولة لفعل محذوف، أي: أذكر.

2 ذكر الكهولة هنا تطمين لأمه أنه لا يموت صغيراً وتكليمه في الكهولة يكون بعد نزوله من السماء؛ لأنه عليه السلام رفع مع نهاية سن الشباب، وهو ثلاث وثلاثون سنة لا غير.

3 لقد تكلم في المهد غير واحد، منهم شاهد يوسف، وصاحب جريج، وكلام عيسى في المهد هو قوله: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابُ} الآية في سورة مريم.

(318/1)

4- جواز طلب الاستفسار 1 عما يكون مخالفاً للعادة لمعرفة سر ذلك أو علته أو حكمته.
{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ} (48) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَانقُذُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)}

شرح الكلمات:

{الْكِتَابُ} : الخط والكتابة.

{وَالْحِكْمَةُ} : العلم الصحيح والإصابة في الأمور وفهم أسرار التشريع الإلهي.

{وَرَسُولًا} : أي وابعثه رسولا.

آية : علامة دالة على رسالته وصدق نبوته.

{أَخْلُقُ لَكُمْ} : أي أصور لكم، لا الخلق الذي هو الإنشاء والاختراع إذ ذاك لله تعالى.

{كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} 2 : كصورة الطير.

1 هذا من قولها: {رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَوَلَدًا} الآية.

2 قيل: اليهود هم الذين طلبوا أن يخلق لهم خفاشاً؛ لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ويولد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور وله لبن يرضع به أولاده ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل وإنما يبصر في ساعتين؛ بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة.

(1/319)

{الْأَكْمَةُ} : الذي ولد أعمى.

الأبرص : ذو البرص وهو مرض عياء عجز عنه الطب القديم والحديث، والبرص: بياض يصيب

الجلد البشري.

{تَدَّخِرُونَ} : تحبسونه وتخفونه عن أطفالكم من الطعام وغيره.

{لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّ} : من قبلي.

{إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ} : إلهي وإلهكم فاعبدوه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان حقيقة عيسى عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله وليس بابن الله ولا بإله مع الله فأخبر تعالى أنه يخلقه بكلمة كن ويعلمه الكتاب والإنجيل والتوراة والإنجيل، وقد فعل، وأهـ يبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وقد فعل فأخبرهم عيسى أنه قد جاءهم بآية من ربهم تدل على صدق رسالته وهذه الآية 1 هي أنه يخلق لهم من الطين على صور الطير وينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، و أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، فعلاً كان يمسح على ذي العاهة المستعصاة كالبرص فيبرأ صاحبها فوراً، وطلبوا منه أن يحي لهم سام بن نوح 2 فأحياه بإذن الله، وأنه يخبرهم بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون، فما يخطئ أبداً، ثم قال لهم: إن في ذلك المذكور لآية لكم دالة على صدقي إن كنتم مؤمنين فأمنوا بي ولا تكذبوني وقد جئتمكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم 3 عليكم، وفي ذلكم خير لكم ورحمة فأمنوا بي، فكذبوه فقال لهم: اتقوا الله وأطيعوني تنجوا وتسعدوا وأعلمهم أخيراً أن الله تعالى هو ربه وربهم وأن عليهم أن يعبدوه ليكلموا ويسعدوا وأن عبادة الله تعالى وحده وبما شرع هي الصراط المستقيم المفضي بالسالكين إلى الكمال والإسعاد في الحياتين.

1 قوله تعالى: {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} وحد آية وهي آيات لأنها جنس كنعمة بمعنى جنس النعم، والمراد من الآية ما تقدم في قوله: {رَأَيْتُمْ أَنِّي فَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} إلخ.

2 روى أنه أحيا لهم أربعة وهم: سام بن نوح، والعاذر، وكان صديقاً له. وابن العجوز، وابنة العاشر.

3 هو ما حرمه الله عليهم على عهد موسى من أكل الشحوم ونحوها، أما ما كان محرماً أصلاً لضرورة فلا يحله لهم ذلك؛ كالسرقة والقتل والزنا والربا، فإنه لا يحله لهم أبداً.

(1/320)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- شرف الكتابة وفضلها.

- 2- فضل الحكمة 1 وهي الفقه في أسرار الشرع والإصابة في الأمور .
- 3- الغيب لله، ويعلم أنبياءه منه ما يشاء .
- 4- ثبوت معجزات عيسى عليه السلام .
- 5- لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله، وعيسى كلمة الله وروح منه ورسول إلى بني إسرائيل .
- 6- الأمر بالتقوى وطاعة الرسول لتوقف السعادة والكمال عليهما .
- {قَلَمًا أَحْسَىٰ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ
وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ} (52) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (53) وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ
اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ إِلَيْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَفَرْتُمْ
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ} (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (56) وَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

1 يكفي الحكمة شرفاً وفضلاً قول الله تعالى: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" .

(1/321)

الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (57) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ} (58)

شرح الكلمات:

- {أَحْسَى 1 عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} : علم منهم الكفر به وبما جاء به، وهمهم بأذيته .
- {الْحَوَارِيُّونَ 2} : جمع حواري، والمراد بهم أصفياؤه وأصحابه .
- {مُسْلِمُونَ} : منقادون لأمر الله ورسوله مطيعون .
- {الشَّاهِدِينَ} : الذين يشهدون أن لا إله إلا الله، ويعبدونه بما يجب أن يعبد به .
- مكروا : دبروا القتل للمسيح عليه السلام .
- {وَمَكْرَ اللَّهِ} : دبر تعالى لإنجائهم وخيبتهم فيما عزموا عليه .
- {خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} : أحسن المدبرين لإنقاذ أوليائه وإهلاك أعدائه .
- {مُنْتَوِّفِكَ} : متمم لك ما كتب لك من أيام بقاءك مع قومك .
- {وَرَأْفَعُكَ إِلَيْنَا} : إلي جوارحي في الملكوت الأعلى .
- {وَمُطَهِّرُكَ} : منزحك ومبعدك من رجسهم وكفرهم .

{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ}: ذلك المذكور من أمر عيسى نقرؤه عليك من جملة آيات القرآن الحكيم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحجاج مع وفد نصارى نجران فذكر تعالى من شأنه أنه لما علم عيسى بكفر قومه وهمهم بقتله غيلة استصرخ المؤمنين قائلاً: {مَنْ أَنْصَارِي 3 إِلَى اللَّهِ} فأجابه الحواريون وهم أصفياؤه وأحبأؤه قائلين: {نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} آمنا بالله واشهد يا روح الله بأنا مسلمون: { رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ 4 فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} لك بالوحدانية

1 أحس بالشيء: عرفه وعلمه بواسطة الحاسة والحواس: السمع والبصر واللسان والبدن والشم، والإحساس: العلم بالشيء، والحس: القتل يقال حسه إذا قتله.

2 كانوا اثني عشر رجلاً، وسمى الناصر للنبي حواريا لبياض قلبه وصفاء روحه، وفي الحديث "لكل نبي حوارى وجوارى الزبير"، والهور لغة: البياض، والحواري: الخبز الأبيض.

3 هل (إلى) هنا بمعنى مع، أي: من أنصاري مع الله نظيره: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} أي: مع أموالكم، أو هي على بابها، ويكون الكلام "من أنصاري" في الطريق إلى الله؟.

4 أي: عيسى عليه السلام.

(1/322)

ولرسلك بالرسالة. قال تعالى: ونفذ اليهود مكرهم في محاصرتهم لمنزل عيسى ليأخذوه ويصلبوه، ومكر الله تعالى وهو خير الماكرين إذ قال لعبدته ورسوله عيسى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} أي: قابضك ورافعك إلى جوارى، فقبضه تعالى فأخرجه من روزنة 1 المنزل ورفعته 2 إليه وألقى الشبه على رئيس شرطة المهاجمين فظنوه هو المسيح فقتلوه وصلبوه فسبحان المدبر الحكيم، وهكذا: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ 3} ، وقوله له: {وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يريد منزله من تهم اليهود الباطلة، إذ قالوا ساحر وابن زنا، ومبعده من ساحة مجتمعهم الذي تعفن بكفرهم والخبث والشر والفساد وواعده بأنه سيجعل الذين اتبعوه فيما جاء به من الإيمان والإسلام والإحسان فوق الذين كفروا بذلك إلى يوم القيامة وقد أنجز الله تعالى وعده فأعز أهل الإسلام ونصرهم، وأزل اليهود والكفار وأخزاهم. كما واعده أيضاً أن يرد الجميع إليه يوم القيامة ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه في الدنيا من الإيمان والكفر، والصالح والفساد ويجزي كل فريق بما كسب من خير أو شر فقال: {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} في الدنيا بالقتل والسبأ والذلة والمسكنة، وفي الآخرة بعذاب النار، وما لهم من ناصرين يخلصهم من عذابنا، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجور إيمانهم وصالح أعمالهم في الدنيا نصراً وتمكيناً وفي الآخرة جنات

ونعياً، والله عز وجل لا يحب الظالمين فكيف يظلم عباده إذ جزاهم بأعمالهم؟ إنه لا يظلم أحداً من عباده مؤمنهم وكافرهم مثقال ذرة بل يجزي بعدله ويرحم بفضلهم
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- قيام الحجة على نصارى نجران، إذ أخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالوحي فقرر به بطلان ألوهية عيسى عليه السلام بذكر أوصافه وأحواله مع قومه، وكرامة الله تعالى له، ولاتباعه معه ومن بعده في الدنيا والآخرة.

1 الروزنة: الكوة في السقف أو الجدار .

2 لم أر داعياً إلى استئصال الكافرين رفع عيسى حياً إلى الملكوت الأعلى وإبقائه هناك إلى أن ينزله في آخر أيام هذه الدنيا، حيث صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى بما لا مجال للشك فيه، إن السنن الكونية خلقها الله تعالى فهو قدير على تبديل ما شاء منها أليس الله على كل شيء قديراً؟ بلى. فلم إذا يرتبك المؤمنون في شأن رفع عيسى حياً وإبقائه في دار السلام حياً حتى ينزل في آخر الدنيا؟.

3 ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: "اللهم امكر لي ولا تمكر عليّ" ومما يجب أن يعلم أن أفعال الله لا تشبه أفعال العباد لأن ذاته لا تشبه ذواتهم.

(1/323)

2- الإسلام دين الأنبياء وسائر الأمم البشرية ولا دين 1 حق غيره فكل دين غيره باطل.

3- تقرير حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في أن لكل نبي حواريين 2 وأنصاراً.

4- فضل أهل لا إله إلا الله إذ هم شاهدون بالحق والناطقون به.

5- تقرير قبض الله تعالى لعيسى ورفعته إليه حياً. ونزوله في آخر الدنيا ليحكم زمناً ثم ليموت الموتة التي كتب الله على كل إنسان، فلم يجمع الله تعالى له بين موتتين. هذا دليل أنه رفع إلى السماء حياً لا ميتاً.

6- صادق وعد الله تعالى بعزة أهل الإسلام، وذلة اليهود على مدى الحياة.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبِّئْهُمْ فَتُبَيِّنْ لَهُمْ لَعَنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِالْمُفْسِدِينَ (63)

شرح الكلمات:

المثل 3 : الصفة المستعربة البديعة.

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} : أي ما قصصناه عليك في شأن عيسى 4 هو الحق الثابت من ربك.

1 تقدم شاهده في قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} .

2 تقدم الحديث أنفاً، وهو حديث صحيح.

3 المماثلة الحاصلة بين آدم وعيسى عليهما السلام في شيء واحد وهو: أن كلا منهما خلق من غير أب وخلق بكلمة التكوين وهي: {كن}.

4 وهو أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام فنفخ في كم درع مريم فسرت النفخة فيها فحملت بعيسى وولدتها في ساعة من نهار، وتكلم بعد وضعها له، وطمان والدته وأرشدتها إلى ما تقوله لمن يتصدى لها يعيبيها. وحاصله أنه كان بكلمة التكوين وهي: {كن} كما كان آدم بها فلا أب له ولا أم.

(1/324)

{الْمُمْتَرِينَ} : الشاكين، إذ الامتراء: الشك.

{حَاجَّكَ} : جادلَكَ بالحجج.

{تَبْتَهَلُ} : نلتعن أي: نلعن الكاذب منا.

{الْفَصَّصُ الْحَقُّ} : ما قصه الله تعالى هو القصص الحق الثابت الذي لا شك فيه.

المفسدون : الذين يعملون بمعاصي الله تعالى في الأرض من الشرك وكبائر الذنوب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عبودية عيسى ورسالته دون ربوبيته وألوهيته، فقد روي أن وفد نجران قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم فيما قالوا: كل آدمي له أب فما شأن عيسى لا أب له؟ فأنزل الله تعالى على رسوله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فإِذَا هُوَ كَائِنٌ،

فأي داع لاتخاذ عيسى إلهاً، ألكونه خلقه الله من غير أب فآدم كذلك خلق بدون أب ولا أم، وإنما كان بكلمة الله، فكذلك عيسى خلق بكلمة الله التي هي: {كُنْ} فكان، هذا هو الحق الثابت من الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام فلا تكونن من الشاكين فيه، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن

يشك 1 ولما أكثروا عليه صلى الله عليه وسلم من التردد والمجادلة أرشده ربه تعالى إلى طريق

التخلص منهم وهو المباهلة بأن يجتمعوا ويقول كل فريق: اللهم العن الكاذب منا، ومن كان كاذباً منهم يهلك على الفور، فقال له ربه تعالى: فإن حاجوك {فَقُلْ: تَعَالَوْا} "هلموا" {تَدْعُ أَبْنَاءَنَا 2 وَأَبْنَاكُمْ

وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبِّئَهُمْ فَنجعل لعنت الله على الكاذبين} وخرج في الغد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم 3 أجمعين إلا أن النصارى عرفوا الحق وخافوا إن لاعنوا هلكوا فهربوا 4 من الملاعنة، ودعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأبوا ورضوا بالكفر إبقاء على زعامتهم ودنياهم ورضوا بالمصالحة فالتزموا بأداء الجزية للمسلمين والبقاء على دينهم الباطل. ثم قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ 5 الْحَقُّ} فالذي قصصناه عليك في شأن عيسى عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته

- 1 أن الخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن المراد غيره من سائر الناس الذين يتأتى لهم الشك، أما هو فإنه المعصوم مما هو أقل من الشك الذي هو كفر.
- 2 في هذا دليل على أن أبناء البنات يطلق عليهم أبناء فيسمون بذلك.
- 3 أنه قال لهم، أي: لعلي وفاطمة والحسن والحسين: "إن أنا دعوت فأمنوا"، أي: قولوا بعدي آمين.
- 4 في هروب نصارى نجران "وهم علماء" من الملاعنة دليل قاطع على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله وأن دينه هو الدين الحق وما عداه باطل.
- 5 القصص: اسم لما يقص، وهو الإخبار بما فيه طول وتفصيل، مشتق من قص الأثر، إذا تتبعته.

(1/325)

ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا هو تعالى، وأن الله لهو العزيز الغالب الذي لا يمانع في شيء أراد، الحكيم في خلقه وتدبيره ثم توعده نصارى نجران وغيرهم من أهل الفساد في الأرض بأنه عليم بهم وسوف يحل نعمته بهم، وينزل لعنته عليهم وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ولاية الله تعالى لرسوله بإرشاده إلى الطريقة التي أنهى بها جدال النصارى الذي ألمه وأتعبه.
 - 2- مشروعية المباهلة غير أنها تكون في الصالحين الذين يستجاب لهم.
 - 3- تقرير ألوهية الله تعالى دون سواه وبطلان دعوى النصارى في تأليه عيسى عليه السلام.
 - 4- تهديد الله تعالى لأهل الفساد في الأرض وهم الذين يعملون بالشرك والمعاصي.
- { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ

فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

(1/326)

شرح الكلمات:

{أَهْلُ الْكِتَابِ}: اليهود والنصارى لأن اليهود عندهم التوراة، والنصارى عندهم الإنجيل.
{إِلَى كَلِمَةٍ سِوَايَ 1}: الكلمة السواء: هي العادلة وهي أن نعبد الله وحده لا شريك له ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

{أَرْبَابًا 2}: الأرباب: جمع رب، وهو المألوه المطاع بغير طاعة الله تعالى.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا}: أعرضوا عن التوحيد.

{أَشْهَدُوا}: اعلموا علم رؤيا ومشاهدة بأنا مسلمون.

{تُحَاجُّونَ}: تجادلون بحجج باطلة.

{يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا}: لم يكن إبراهيم على ملة اليهود، ولا على ملة النصارى.

{كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}: مائلاً عن الملل الباطلة إلى ملة الحق وهي الإسلام.

{أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ}: أحق بالنسبة إلى إبراهيم ومولاته الذين اتبعوه على التوحيد.

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}: متولي أمرهم وناصرهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في إبطال باطل أهل الكتابين إذا قال تعالى لرسوله قل لهم يا أهل الكتاب من يهود ونصارى تعالوا ارتفعوا من وهدة الباطل التي أنتم واقعون فيها إلى كلمة سواء كلمة عدل نصف بيننا وهي أن نعبد الله وحده لا نشرك به سواه وأن لا يتخذ بعضنا 4 بعضاً أرباباً من دون الله فيفرض طاعته على غيره 5 ويلزمه بالسجود له تعظيماً وتقديساً فإن أبوا عليك ذلك

1 كلمة: سوى، وسوى، وسواء: بمعنى واحد إلى أن السين إذا فتحت مدت.

2 نظيرها قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} معناه: أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحلله، وسجدوا لهم أيضاً.

3 المجادلة بالتى هي أحسن والقائمة على أساس العلم الصحيح ممدوحة غير مذمومة، وهذه صورة لها: أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما لونها؟ قال: حمر. قال:

هل فيها من أورك؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزعته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعل عرقاً نزعته".

4 وقد راسل النبي صلى الله عليه وسلم ملوك الروم بمضمون هذه الآية، إذ كتب إلى هرقل قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك اثم الأريسيين (الأكارين) (وهم الفلاحون) {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ... إلى قوله {مسلمون} ". رواه مسلم.

5 وذلك بأن يحرم عليه ما أحل الله ويحل له ما حرم الله ويلزمه بقبول ذلك والإذعان له.

(1/327)

وتولوا عنه فقولوا أيها المؤمنون: اشهدوا أيها المتولون عن الحق بأننا مسلمون. وفي هذا تعريض بل تصريح بأن غيرهم ليسوا مسلمين.

هذا معنى الآية الأولى (64) أما الآية الثانية (65) فيأمر تعالى رسوله أيضاً أن يقول للمتولين عن الحق يا أهل الكتاب لم تحاجون في شأن إبراهيم وتدعي كل طائفة منكم أن إبراهيم كان على دينها مع أن اليهودية ما كانت إلا بعد نزول التوراة، والنصرانية ما كانت إلا بعد نزول الإنجيل، وإبراهيم كان قبل نزول الكنايين بمئات السنين، مالكم تقولون بما لا يقبل ولا يعقل أفلا تعقلون؟ ثم وبخهم بما هم أهله قائلاً لهم: اسمعوا يا هؤلاء أنتم جادلتم فيما لكم به علم في شأن دينكم وكتابكم فلم تجادلون فيما ليس لكم به علم في شأن إبراهيم وملته الحنيفية التي قامت على مبدأ التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، والله يعلم من شأن إبراهيم ودينه ما لا تعلمون أنتم فليس من حَقِّكم القول فيما لا تعلمونه. ثم أكذبهم بعد أن وبخهم فقال: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا } وإنما كان حنيفاً موحداً مطيعاً لربه مسلماً له ولم يكن من المشركين. وبعد أن وبخ تعالى المجادلين لرسوله وكذبهم في دعواهم أن إبراهيم على دينهم قرر حقيقة كبرى ينبغي أن يعلموها ويقروا بها وهي أن أحق الناس بالنسبة لإبراهيم والانتماء إليه هم الذين اتبعوه على ملة التوحيد وعبادة الله تعالى بما شرع وهذا النبي الكريم العظيم محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه واتبعوا الهدى الذي جاء به، والله تعالى ولي المؤمنين، وعدو الكافرين والمشركين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- لا يصلح حال البشرية ولا يستقيم أمرها إلا إذا أخذت بمبدأ: الكلمة السواء وهي أن تعبد ربها وحده لا تشرك به سواه، وألا يعلو بعضها على بعض تحت أي قانون أو شعار.

2- حجية التاريخ وبيان الحاجة إليه، إذ رد الله تعالى على أهل الكتاب في دعواهم أن إبراهيم كان على دينهم بأن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد وفاته فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً.

1 روى أن ابن عباس قال: "قال رؤساء اليهود: والله يا محمد لقد علمت إنا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا...﴾ -إلى قوله :- والله ولي المؤمنين}.

(1/328)

3- ذم من يجادل 1 فيما لا علم له به، ولا شأن له فيه.

4- اليهودية كالنصرانية لم تكن دين الله تعالى، وإنما هما بدعتان لا غير.

5- المؤمنون بعضهم أولياء بعض وإن تناعت ديارهم وتباعدت أقطارهم والله ولي المؤمنين.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (69) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ (70) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)﴾

شرح الكلمات:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ 2﴾ : أحببت فرقة وهم الأحرار والرؤساء فيهم.

﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ 3﴾ : أي: تمنوا إيقاعكم في الضلال لتشفوا وتهلكوا مثلهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ : أي: وما يدرون ولا يعلمون بأنهم بمحاولة إضلال المؤمنين إنما هم يضلون أنفسهم حيث يتوغلون في الشر فيضاعف لهم العذاب.

لبس الحق بالباطل : خلطه به كأنما كسا الباطل ثوب الحق وكسا الحق ثوب الباطل حتى لا يُعرف فيؤخذ به، ويهتدي عليه.

معنى الآيات:

يخبر تعالى عباده المؤمنين أن فرقة من أهل الكتاب تمنوا لو توقعكم في الضلال لتهلكوا والغالب أن هذه الطائفة تكون في رؤسائهم من أحرار وقسس وإن كان أغلب اليهود

1 قال القرطبي: "نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم يهود من بني النضير وقريضة وبني قينقاع إلى دينهم والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

2 الإضلال: يكون بمعنى الهلاك كما هو هنا وعليه قول الشاعر:

كنت القذى في موج أكرر مزيد ... قذف الأوتي به فضل ضلالاً

أي: هلك هلاكاً، والأوتي: السيل يأتي من حيث لا يعلم.
3 تقدم أنهم من يهود المدينة وأن العبرة بعموم اللفظ، لذا فإن هذا النوع ما زال إلى اليوم يود إضلال المسلمين.

(1/329)

والنصارى يودون إضلال المسلمين حسداً لهم على الحق الذي هم عليه، وأخبر تعالى أنهم بتمنيهم هلاك المسلمين إنما يهلكون أنفسهم وما يدرون ذلك ولا يعلمون به وقال عز وجل: {وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} .

هذا معنى الآية (69) أما الآية (70) فقد نادى الرب تعالى أهل الكتاب ليوبخهم وينعي عليهم ضلالهم فقال: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ 1 بآياتِ اللَّهِ} أي: لم تجحدون الآيات التي بها نعت الرسول وصفته لله في التوراة والإنجيل والحال أنكم تشهدون أنها صفات الرسول ونعوته وإنها منطبقة عليه؟ أليس هذا قبحاً منكم وشرّاً تعود عاقبته عليكم؟.

وفي الآية (71) وبخهم أيضاً على خلطهم الحق بالباطل حتى لا يعرف ويؤخذ به ويهتدي عليه فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ 2 لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} وشنع عليهم بكتمانهم الحق الذي هو نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المبينة في كتبهم وعلى السنة رسلهم فقال: {وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أنه الحق من الله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان رغبة كثير من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين وإهلاكهم.
 - 2- عاقبة الشر والفساد تعود على صاحبها في نهاية الأمر.
 - 3- قبح من يكتم الحق وهو يعرفه.
 - 4- حرمة التدليس والتلبيس في كل شيء لا سيما في دين الله تعالى لإبعاد الناس عنه.
 - 5- حرمة كتمان الحق في الشهادة وغيرها.
- {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاءَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ

1 الاستفهام إنكاري، والآيات هي المشتمة على صفات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ونعوته، ومن الآيات المعجزات التي تجلت على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

2 إعادة النداء مرة ثانية: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} لأجل توبيخهم وتسجيل باطلهم عليهم.

الهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73)}

شرح الكلمات:

وجه النهار 1 وآخره : أوله: وهو الصباح، وآخره: وهو المساء.

{وَلَا تُؤْمِنُوا 2 إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ بَيْنَكُمْ} : أي: لا تصدقوا إلا ما كان على ملتكم.

{الهُدَى هُدَى اللَّهِ} : البيان الحق والتوفيق الكامل بيان الله وهدايه لا ما يخطط اليهود ويلبسون تضليلاً للناس.

{أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} : أن يعطى أحد نبوة وديناً وفضلاً.

{أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} : يخاصموكم يوم القيامة عند ربكم.

{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ} : قل إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام بيد الله لا بيد غيره.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} : ذو سعة بفضله، عليم بمن يستحق فضله فيمن عليه. معنى الآيات:

خيبر تعالى عن كيد اليهود ومكرهم بالمسلمين فيقول: {وَقَالَتْ 3 طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} وذلك أن كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف عليهما لعائن الله قال لبعض إخوانهم صلوا مع المسلمين صلاة الصبح إلى الكعبة، وصلوا العصر إلى الصخرة بيت المقدس فإن قيل لكم: لم عدلتم

1 سمي أول النهار: وجهاً: لأنه أحسنه، وأول ما يواجهه، ومنه قال الشاعر:

وتضيء في وجه النهار منيرة ... كجمانة البحرية سل نظامها

2 هذا نهي من يهود خيبر إلى إخوانهم من يهود المدينة.

3 عطف على: {ودت طائفة} ، فالطائفة الأولى ودت إضلال المسلمين جهراً وعلناً، وهذه حاولته

بالخداع والتضليل بأساليب المكر والإحتيال.

عن الكعبة بعد ما صليتم إليها؟ قولوا لهم قد تبين لنا أن الحق هو استقبال الصخرة لا الكعبة.

هذا معنى قوله تعالى فيهم: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ 1 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا}

يعني في شأن القبلة، {وَجَهَ النَّهَارِ} أي: صباحاً {وَأَكْفَرُوا آخِرَهُ} أي: واجحدوا به مساءً، {لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ} أي: إلى استقبال الصخرة بدلاً عن الكعبة، والغرض هو بلبلة أفكار المسلمين وإدخال الشك عليهم 3 وقوله تعالى عنهم: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} يريد أنهم قالوا لبعضهم بعضاً لا تصدقوا أحداً إلا لمن تبع دينكم من أهل ملتكم وهذا صرف من رؤسائهم لليهود عن الإسلام وقبوله، أي لا تصدقوا المسلمين فيما يقولون لكم، وهنا رد تعالى عليهم بقوله قل يا رسولنا: {إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ}، لا ما يحتكره اليهود من الضلال ويزعمون أنه الحق والهدى وهو البدعة اليهودية، وقوله تعالى: {أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ} هو قول اليهود معطوف على قولهم: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} ، أما قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى...} فهو كلام معترض بين كلام اليهود الذي قدم تعجباً للرد عليهم، ومعنى قولهم: {أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ...} إلخ. أي: كراهة أن يعترف من قبلكم بأن محمداً نبي حق وأن دينه حق فيتابعه اليهود والمشركون عليه فيسلمون، أو على الأقل يثبت المسلمون عليه، ونحن نريد زلزلتهم وتشكيكهم حتى يعودوا إلى دين آبائهم، أو يحاجوكم عند ربكم يوم القيامة وتكون لهم الحجة عليكم إن أنتم اعترفتهم لهم اليوم بأن نبيهم حق ودينهم حق، فلذا واصلوا الإصرار أنه لا دين حق إلا اليهودية وأن ما عداها باطل وهنا أمر تعالى رسوله أن يقول لهم مبكثاً لهم: {إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ} ، لا بيد اليهود {يُؤْتِيهِ} أي: الفضل الذي هو النبوة والهدى والتوفيق وما يتبع ذلك من خير الدنيا والآخرة، {مَنْ يَشَاءُ} من عباده ويحرمه من يشاء، وهو الواسع الفضل العليم بمن يستأهله ويحق له {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} .

1 الطائفة: الجماعة، وسميت بها؛ لأنها يسوى بها حلقة يطاف حولها.

2 ولا مانع أن يكون مراداً من الآية أنهم قالوا لسفلتهم أظهروا الإيمان بمحمد ودينه في أول النهار ثم أكفروا به آخراً فإنكم إن فعلتم ذلك ارتاب من يتبعه في دينه فيرجع عن دينه إلى دينكم إلا أن ما فسرنا به الآية أظهر.

3 وهذا لا يمنع أن يكون قولهم: {آمِنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ} إظهاراً منهم للدخول في الإسلام والاعتراف به في أول النهار، مكرراً وخديعة، فإذا ولي النهار أظهروا رجوعهم عنه لظن من رآهم أنهم يريدون الحق، ولذلك أسلموا، فلما تبين لهم بطلان الإسلام وعدم صحته رجعوا عنه.

(1/332)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تسجيل المكر والخداع على اليهود وأنه صفة من صفاتهم اللازمة لهم إلى يوم القيامة.

2- الكشف عن التعصب اليهودي وأساليب التمويه والتضليل، والإعلام العالمي اليوم مظهر من

مظاهر التضليل اليهودي.

3- سذاجة اليهود المتناهية في فهم مسائل الدين والاعتقاد توارثوها إلى اليوم، وإلا فأبي مؤمن بالله واليوم الآخر يقول: لا تعترفوا للمسلمين بأنهم على حق حتى لا يحتجوا عليكم باعترافكم يوم القيامة؟.

إن الله تعالى يعلم أن اليهود يجحدون الإسلام وهو الحق ويكفرون به وهو الحق من ربهم وسيعذبهم في نار جهنم يخلدون فيها، وكونهم لا يصرحون للمسلمين بأنهم على حق وهم يعلمون أنهم على الحق في دينهم ينجيهم هذا من عذاب الله على كفرهم بالإسلام؟.

اللهم لا. فما معنى قولهم لا تعترفوا بالإسلام حتى لا يحتج عليكم المسلمون باعترافكم يوم القيامة؟؟ إنه الجهل والسذاجة في الفهم. وسبحان الله ماذا في الخلق من عجائب!!.

{وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدَّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدَّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77)}

(1/333)

شرح الكلمات:

{إِنْ تَأْمَنَهُ}: ائتمنه على كذا وضعه عنده أمانة وأمنه عليه فلم يخفه.

{بِقِنطَارٍ}: وزن معروف، والمراد هنا أنه من ذهب بدليل الدينار.

{إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا}: أي ملازمًا له تطالبه 1 به ليل نهار.

{الْأُمِّيِّينَ}: العرب والمشركين.

{سَبِيلٌ}: أي: لا يؤاخذنا الله إن نحن أكلنا أموالهم؛ لأنهم مشركون.

{بَلَىٰ}: أي: ليس الأمر كما يقول اليهود من أنه ليس عليهم حرج ولا إثم في أكل أموال العرب

المشركين بل عليهم الإثم والمؤاخذه2.

{لَا خَلَاقَ لَهُمْ}: أي: لا حظ ولا نصيب لهم في خيرات الآخرة ونعيم الجنان.

{وَلَا يُرَكِّبُهُمْ}: لا يطهرهم من ذنوبهم ولا يكفرها عنهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هتك أستار أهل الكتاب وبيان نفسياتهم المريضة وصفاتهم الذميمة ففي هذه

الآية (75) يخبر تعالى أن في اليهود من إن أمنته على أكبر مال أداه إليك وأفياً كاملاً، ومنهم من

إذا أمنت على دينار فأقل خانك فيه وأنكره عليك فلا يؤدبه إليك إلا بمقاضاتك له وملازمتك إياه...
فقال تعالى في خطاب رسوله: {وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ
بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} ، ويعلل الرب تعالى سلوكهم هذا بأنهم يقولون: {لَيْسَ
عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} أي: لا حرج علينا ولا إثم في أكل أموال العرب لأنهم مشركون فلا نؤاخذ
بأكل أموالهم وكذبهم الله تعالى في هذه الدعوة الباطلة فقال تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ} أي: أنه كذب على الله ولكن يكذبون ليسوغوا كذبهم وخيانتهم.
وفي الآية الثانية(76) يقول تعالى: {بَلَى} أي: ليس الأمر كما يدعون بل عليهم الإثم

- 1 استدل أبو حنيفة بقوله تعالى: {إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} ، على جواز ملازمة الغريم، ولم يرضه العلماء واستدل بعض العلماء على حبس المدين بهذه الآية.
- 2 قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: "إنا نصيف في العمد من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ونقول ليس علينا في ذلك بأس. فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل، إنهم إذا أدوا الجزية لا تحل لكم أموالهم إلا عن طيب أنفسهم.
- 3 ما دام في أهل الكتاب الأمين والخائن والتمييز بينهم متعذر، إذا تعين اجتنابهم جميعاً.

(1/334)

والحرج والمؤاخذه، وإنما لا إثم ولا حرج ولا مؤاخذه على من أوفى بعهد الله تعالى فأمن برسوله وبما جاء به، واتقى الشرك والمعاصي فهذا الذي يحبه الله فلا يعذبه؛ لأنه عز وجل يحب المتقين. وأما الآية الأخيرة(77) فيتوعد الرب تعالى بأشد أنواع العقوبات أولئك الذين يعاهدون ويخونون ويحلفون ويكذبون من أجل حطام الدنيا ومتاعها القليل فيقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ 1 نَمَنًا قَلِيلًا 1 وَأُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ} أي: لا حظ ولا نصيب لهم في نعيم الدار الآخرة ولا يكلمهم تشريفاً لهم وإكراماً، ولا يذكهم بالثناء عليهم ولا بتطهيرهم من ذنوبهم، ولهم عذاب مؤلم في دار الشقاء وهو عذاب دائم مقيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- يجب أن لا يغتر باليهود ولا يوثق فيهم لما عرفوا به من الخيانة.
- 2- من كذب على الله أحرى به أن يكذب على الناس.
- 3- بيان اعتقاد اليهود في أن البشرية غير اليهود نجس وأن أموالهم وأعراضهم مباحة لليهود حلال لهم، لأنهم المؤمنون في نظرهم وغيرهم الكفار.

4- عظم ذنب من يخون عهده من أجل المال، وكذا من يحلف كاذباً لأجل المال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين يستحق بها مالاً وهو فيها فاجر لقي 2 الله وهو عليه غضبان".

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)}

شرح الكلمات:

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا} : طائفة من اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة النبوية.

- 1 أخرج أهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع حق امرء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان".
- 2 رواه أحمد وله شواهد في الصحاح، وروى الأئمة عنه صلى الله عليه وسلم قوله: من اقتطع حق امرء مسلم بيمينه فقد أوجب له النار وحرّم عليه النار" فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: "وإن كان قضيباً من أراك".

(1/335)

{يَلُؤُونَ 1 أَلْسِنَتَهُمْ} : يحرفون السننهم بالكلام كأنهم يقرأون الكتاب.

{وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} : وليس هو من الكتاب.

{وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ} : أي: يكذبون على الله لأغراض مادية.

معنى الآية:

ما زال السياق في اليهود وبيان فضائحهم فأخبر تعالى أن طائفة منهم يلوون ألسنتهم بمعنى يحرفون نطقهم بالكلام تمويهاً على السامعين كأنهم يقرأون التوراة وما أنزل الله فيها، ولي هو من الكتاب المنزل في شيء بل هو الكذب البحت، ويقولون لكم إنه من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب لأجل الحفاظ على الحطام الخسيس والرئاسة الكاذبة.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- بيان مكر اليهود وتضليلهم وخداعهم لهم باسم الدين والعلم.
- 2- جرأة اليهود على الكذب على الناس وعلى الله مع علمهم بأنهم يكذبون وهو قبح أشد وظلم أعظم.
- 3- التحذير للمسلم من سلوك اليهود في التضليل والقول على الله والرسول لأجل الأغراض الدنيوية

الفاسدة.

{مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)}

1 قرئ: {يلوون} على التكرير، والمعنى يحرفون الكلم عن القصد، وأصل اللي، الميل. يقال: لوى رأسه، إذا أماله، ومنه قوله تعالى: {لياً بالسنتهم} أي: ميلاً عن الحق، واللي: المطل أيضاً لحديث: "لي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته" في الصحيح.

(1/336)

شرح الكلمات:

{مَا كَانَ لِيَشْرَ 1}: لم يكن من شأن الإنسان 2 الذي يؤتاه الله الكتاب والحكمة والنبوّة.
{الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ}: الكتاب: وحي الله المكتوب والحكم: بمعنى الحكمة وهي الفقه في أسرار الشرع، والنبوّة: ما يشرف الله تعالى به عبده من إنباءه بالغيب وتكليمه بالوحي.
{رَبَّانِيِّينَ 3}: جمع رباني: من ينسب إلى الرب لكثرة عبادته وجزارة علمه، أو إلى الربان وهو الذي يرب الناس فيصلح أمورهم ويقوم عليها.
{أَرْبَاباً}: جمع رب بمعنى السيد المعبود.
{أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ}: الاستفهام للإنكار، والكفر هنا: الردة عن الإسلام.
معنى الآيتين:

ما زال السياق في الرد على أهل الكتاب وفي هذه الآية (79) الرد على وفد نصارى نجران خاصة وهم الذين يؤلهون المسيح عليه السلام. قال تعالى: ليس من شأن أي إنسان يعطيه الله الكتاب أن ينزل عليه كتاباً ويعطيه الحكم فيه وهو الفهم والفقه في أسرار فيشرفه بالنبوّة فيوحي إليه، ويجعله في ذمة أنبيائه، ثم هو 4 يدعو الناس إلى عبادة نفسه فيقول للناس: {كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ}. إن هذا ما كان ولن يكون أبداً. لا مما هو متصور الوقوع أيضاً فما لكم أنتم يا معشر النصارى تعتقدون هذا في المسيح عليه السلام؟ إن من أوتى مثل هذا الكمال لا يقول للناس كونوا عباداً لي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين تصلحون الناس وتهدونهم إلى ربهم ليكملوا بطاعته ويسعدوا عليها، وذلك بتعليمهم الكتاب وتدريبه ودراسته.

هذا معنى الآية (79) أما الآية (80) فإن الله تعالى يخبر عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمر الناس بعبادة غير ربه تعالى سواء كان ذلك الغير ملكاً مكرماً أو نبياً مرسلأً، وينكر على

- 1 لفظ: البشر: يطلق على الواحد، والجمع؛ لأنه كالمصدر، والمراد به هنا: عيسى عليه السلام.
- 2 أي: لا يجتمع لنبي إتيان النبوة مع قوله: {كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ} ، وإنما الذي يجتمع له مع إتيان النبوة هو قوله: {كُونُوا رَبَّانِينَ} .
- 3 الرباني: والجمع: ربانيين، مشتق من: ربه يربه، فهو ربان له إذا دبره وأصلحه.
- 4 قالت اليهود يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً: أتريد أن نتخذك يا محمد رباً؟ فأَنْزَلَ اللهُ تعالى قوله: {مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية.

(1/337)

نسبوا ذلك إليه صلى الله عليه وسلم فيقول: {أَيُّمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} فهذا لا يصح منه ولا يصدر بحال.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- لم يكن من الممكن لمن آتاه الله الكتاب والحكمة وشرفه بالنبوة أن يدعو الناس لعبادة نفسه فضلاً عن عبادة غيره.
 - 2- سادات الناس هم الربانيون الذين يربون الناس بالعلم والحكمة فيصلحونهم ويهدونهم.
 - 3- عظماء الناس 2 من يعلمون الناس الخير ويهدونهم إليه.
 - 4- السجود لغير الله تعالى كفر لما ورد أن الآية نزلت رداً على من أرادوا أن يسجدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: {أَيُّمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}!؟.
- {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)}

شرح الكلمات:

الميثاق : العهد المؤكد باليمين.

- 1 الاستفهام إنكاري، وفيه معنى التعجب، إذ ليس من شأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ

الناس عباداً يتأله لهم، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: "لا يقولون أحدكم عبدي وأمّتي، وليقل: فتاي وفتاتي. وليقل أحدكم ربي وليقل سيدي".
2 روى ابن عبد البر عن علي رضي الله عنه قوله: "من علم وعمل وعلم دعي في ملكوت السموات عظيماً" وهو مروى عن عيسى عليه السلام.

(1/338)

{لَمَّا آتَيْنُكُمْ 2}: مهما آتيتكم.
{لَتُؤْمِنَنَّ 3}: لتصدقن برسالته
{أَفَرَأَيْتُمْ}: الهمة الأولى للاستفهام التقرير، وأقررتم: بمعنى اعترفتم.
{إِصْرِي}: عهدي وميثاقي.
{فَمَنْ تَوَلَّى}: رجع عما اعترف به وأقر.
{الْفَاسِقُونَ}: الخارجون عن طاعة الله ورسوله.
{أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ}: الاستفهام للإنكار، ويبغون: بمعنى يطلبون.
{وَلَهُ أَسْلَمَ}: انقاد وخضع لمجاري أقدار الله وأحكامه عليه.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الرد على نصارى نجران فيقول تعالى لرسوله اذكر لهم ما أخذ الله على النبيين وأمّمهم من ميثاق أنه مهما آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءهم رسول مصدق لما معهم من النور والهدى ليؤمنن به ولينصرنه على أعداءه ومناوئيه من أهل الكفر وأنه تعالى قرّهم فأقروا واعترفوا ثم استشهدهم على ذلك فشهدوا وشهد تعالى فقال: {وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} ثم أكد تعالى ذلك مرة أخرى بأن من يعرض عن هذا الميثاق ولم يف به يعتبر فاسقاً ويلقى جزاء الفاسقين فقال تعالى: {فَمَنْ تَوَلَّى 4 بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} .

وقد نقض هذا الميثاق كل من اليهود والنصارى، إذ لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به وقد أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به، وينصره، فكفروا به، وخذلوه، فكانوا بذلك الفاسقين المستوجبين لعذاب الله.

1 قرأ نافع: {لما آتيناكم} بنون العظمة، وقرأ حفص: {لما آتيتكم} ببناء المتلحم وصيغة الميثاق هي: {لَمَّا آتَيْنُكُمْ} إلى قوله: {ولنتصرنه} .
2 قرأ أهل الكوفة: {لَمَّا آتَيْنُكُمْ} بكسر لام لما، أي: لأجل ما آتيتكم من كتاب... إلخ. وتكون: {ما} موصولة بمعنى الذي، أي: للذي آتيتكم... إلخ.

3 روى ابن كثير عن علي وابن عباس رضي الله عنهم، أنهما قالوا: "ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لأن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرننه، وهذا غير مناف لما قال قتادة وغيره: أن الله أخذ من النبيين ميثاقهم أن يصدق بعضهم بعضاً.

4 التولي والفسق مستحيل في حق أنبياء الله ورسله، ولذا فالمأخوذ عليهم: العهد والميثاق، هم أتباع الأنبياء والرسول، وإنما قال: ميثاق النبيين؛ لأنهم هم المبلغون أممهم لما أخذ عليهم، ويوضح هذا قوله: {فأشهدوا} أي: على أممكم.

(1/339)

ثم وبخ تعالى أهل الكتاب قائلاً: { أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ 1 - يريد الإسلام - يَبْعُونَ } أي يطلبون، والله أسلم، أي: انقاد وخضع من في السموات من الملائكة والأرض من سائر المخلوقات الأرضية طوعاً أو كرهاً 2: طائعين أو مكرهين وفوق هذا أنكم ترجعون إليه فيحاسبكم، ويجزيكم بأعمالكم.

هذا ما تضمنته الآية الأخيرة (83) إذ قال تعالى: { أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله تعالى في الأنبياء السابقين وهي أن يؤمن بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضاً.
- 2- كفر أهل الكتاب وفسقهم بنقضهم الميثاق وتوليهم عن الإسلام وإعراضهم عنه بعد كفرهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وقد أخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا به ويتبعوه.
- 3- بيان عظم شأن العهود والمواثيق عند الله تعالى.
- 4- الإنكار على من يعرض عن دين الله الإسلام. مع أن الكون كله خاضع منقاد لأمر الله ومجاري أقداره مسلم له.

{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (84) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (85)

1 الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وروى عن الكلبى أن كعب بن الأشرف اليهودي وأصحابه اختصموا مع النصرارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "كلا الفريقين بريء من دينه" فقالوا: ما نرضى ولا نأخذ بدينك. فنزل قوله تعالى: { أَفَعَيَّرَ دِينَ

اللَّهُ يَبْتَغُونَ { الآية.}

2 طوعاً وكرهاً: مصدران في موضع الحال، أي: طائعين ومكرهين، إذ كل مخلوق منقاد مستسلم لما جبله الله عليه وقضاه وقدره له لا يخرج عنه بحال.

(1/340)

شرح الكلمات:

{الْأَسْبَاطِ}: جمع سبط والسبط الحفيد، والمراد بالأسباط هنا أولاد يعقوب الاثنا عشر والأسباط في اليهود كالقبائل في العرب.

{يَبْتَغِ}: يطلب ويريد ديناً غير الدين الإسلامي.

{الْخَاسِرِينَ}: المهالكين بالخلد في نار جهنم والذين خسروا كل شيء حتى أنفسهم. معنى الآيتين: ما زال السياق في حجاج أهل الكتاب فبعد أن وبخهم تعالى بقوله في الآيات السابقة: أغير دين الله تبتغون يا معشر اليهود والنصارى؟ فإن قالوا: نعم. فقل أنت يا رسولنا: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ وَحْيٍ وَشَرَعْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ وَمَا أُنزِلَ عَلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى يَعْقُوبَ وَأَوْلَادِهِ الْأَسْبَاطِ، وَأَمَّا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنَ التَّوْرَةِ وَعِيسَى مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ بَلْ نُوْمِنُ بِهِمْ وَبِمَا جَاؤَا بِهِ فَلَا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ كَمَا هِيَ حَالِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وَنَحْنُ اللَّهُ تَعَالَى مُسْلِمُونَ، أَي: مُنْقَادُونَ مُطِيعُونَ لَا نَعْبُدُهُ بِغَيْرِ مَا شَرَعَ وَلَا نَعْبُدُ مَعَهُ سِوَاهُ. هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ الْأُولَى (84) أَمَا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ (85) فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْرُرُ أَنَّ كُلَّ دِينٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ بَاطِلٌ، وَأَنَّ مَنْ يَطْلُبُ دِينًا غَيْرَ الْإِسْلَامِ لَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ بِحَالٍ وَيَخْسِرُ فِي الْآخِرَةِ خَسْرَانًا كَبِيرًا فَقَالَ تَعَالَى: { وَمَنْ 2 يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الَّذِينَ يَخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله ويكفر ببعض.

1 في الآية تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عقيدة الإيمان الصحيحة التي أحبها الله لهم ليكملوا بها ويسعدوا عليها بإذن الله تعالى.

2 روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " تجيء

الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول يا رب أنا الصلاة فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة. فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أن الصيام. فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال كل ذلك ويقول الله تعالى إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام. فيقول الله تعالى: إنك على خير اليوم بك آخذ وبك أعطي، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. " تفرد به أحمد.

(1/341)

2- الإسلام: هو الانقياد والخضوع لله تعالى، وهو يتنافى مع التخيير بين رسل الله ووحية إليهم.
3- بطلان سائر الأديان والملل سوى الدين الإسلامي وملة محمد صلى الله عليه وسلم.
﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (86) أولئك جزأؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (87) خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون (88) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (89)

شرح الكلمات:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ : الاستفهام هنا للاستبعاد¹، والهداية: الخروج من الضلال.
﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ : الحجج من معجزات الرسل وآيات القرآن المبينة للحق في المعتقد والعمل.
﴿الظَّالِمِينَ﴾ : المتجاوزين الحد في الظلم المسرفين فيه حتى أصبح الظلم وصفاً لازماً لهم.
﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ : طرد الله لهم من كل خير، ولعنة الملائكة والناس: دعائم عليهم بذلك.
﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ : ولا هم يمهلون من أنظره إذا أمهله ولم يعجل بعذابه.
﴿أَصْلَحُوا﴾ : أصلحوا ما أفسدوه من أنفسهم ومن غيرهم.

1 الاستفهام للنفي والاستبعاد، إذ هو بمعنى: لا يهدي الله قوماً.. إلخ. ومنه قول الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولما ...

يشمل القوم غارة شعواء

(1/342)

معنى الآيات:

ما زال السياق في أهل الكتاب 1 وإن تناولت غيرهم ممن ارتد عن الإسلام من بعض الأنصار ثم عاد إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه ففي كل هؤلاء يقول تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} فقد كفر اليهود بعبسى عليه السلام، وشهدوا أن الرسول محمداً حق وجاءتهم الحجج والبراهين على صدق نبوته وصحة ما جاء به من الدين الحق، والله حسب سنته في خلقه لا يهدي من أسرف في الظلم وتجاوز الحد فيه فأصبح الظلم طبعاً من طباعه، فلهذا كانت هداية من هذه حاله مستبعدة للغاية، وإن لم تكن مستحيلة ثم أخبر تعالى عنهم متوعداً لهم فقال: {أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: في تلك اللعنة الموجبة لهم عذاب النار {لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} أي: ولا يمهلون ليعتذروا، أو لا يخفف عنهم العذاب. ثم لما لم تكن توبتهم مستحيلة ولأن الله تعالى يحب توبة عباده ويقبلها منهم قال تعالى فاتحاً باب رحمته لعباده مهما كانت ذنوبهم {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا 2 مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} الكفر والظلم، {وَأَصْلَحُوا} نفوسهم بالإيمان وصالح الأعمال {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فكان هذا كالوعد منه سبحانه وتعالى بأن يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم بدخول الجنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التوغل في الشر والفساد أو الظلم والكفر قد يمنع 3 العبد من التوبة. ولذا وجب على العبد إذا أذنب ذنباً أن يتوب منه فوراً، ولا يواصله مصراً عليه خشية أن يحال بنيه وبين التوبة.
- 2- التوبة مقبولة متى قامت على أسسها واستوفت شروطها ومن ذلك الإقلاع عن الذنب فوراً، والندم على ارتكابه، والاستغفار والعزم على عدم العودة إلى الذنب الذي تاب منه وإصلاح ما أفسده مما يمكن إصلاحه.

1 روى عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن الآية نزلت في رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم راسل قومه ليسألوا له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له توبة فجاء قومه وسألوا له فأنزل الله هذه الآية: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا} إلى {غفور رحيم}، و الآية تتناول اليهود من باب أولى وتنطبق عليهم تماماً فتشمل من تاب منهم ومن لم يتب على حد سواء".

2 روى ابن كثير والقرطبي أن الحارث بن سويد آخا الجلاس بن سويد الأنصاري قد ارتد بعد إسلامه مع اثني عشر رجلاً والتحقوا بمكة ثم تاب الحارث فأسلم وحسن إسلامه.

3 أورد هنا القرطبي سؤالاً، وهو: أن ظاهر الآية: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} دال على أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله وكثيراً من الظالمين تابوا من الظلم؟. وأجاب بقوله إن معنى لا يهديهم ما داموا مقبمين على كفرهم وظلمهم ولا يقبلون على الإسلام فأما إن أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك. والله أعلم. أ.ه. كلامه.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)}

شرح الكلمات:

الكفر : الجحود لله تعالى والتكذيب لرسوله وما جاء به من الدين والشرع.

{بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} : أي: ارتدوا عن الإسلام إلى الكفر.

{الضَّالُّونَ} : المخطئون طريق الهدى.

{مِلءُ الْأَرْضِ} : ما يملأها من الذهب.

{لَوْ افْتَدَى بِهِ} : ولو قدموا فداءً لنفسه من النار ما قبل منه.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في أهل الكتاب وهو هنا في اليهود خاصة إذ أخبر تعالى عنهم أنهم كفروا بعد إيمانهم كفروا بعباسي والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة. ثم ازدادوا كفرًا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، فلن تقبل توبتهم إلا إذا تابوا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن لكنهم مصررون على الكفر بهما فكيف تقبل توبتهم، إذًا مع إصرارهم على الكفر، ولذا أخبر تعالى أنهم هم الضالون البالغون أبعد الحدود في الضلال ومن كانت هذه حاله فلا يتوب ولا تقبل توبته، ثم قرر مصيرهم بقوله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا} يريد يوم القيامة مع أنه لا مال يومئذ ولكن من باب الفرض والتقدير لا غير. فلو أن لأحدهم ملء الأرض ذهباً وقبل منه فداءً لنفسه من عذاب الله لافتدى، ولكن

1 أورد القرطبي إشكالاً عن قوله تعالى: {لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ} مع العلم أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرر، كما صح في الخبر، وكيف وهو القائل: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} ، وذكر ثلاثة أجوبة: الأول: أنه لا يقبل توبتهم عند الموت، كما هو نص الآية: {حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ...} . الثاني: أنها لا تقبل توبتهم التي كانت قبل كفرهم إن الكفر محبط للعمل. والثالث: أنها لا تقبل وهم مصررون على الكفر. قلت: وهذا أمثلها وهو ما ذكرته في تفسير الآية. والله أعلم.

هيهات هيهات 1 إنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولكن من جاء ربه بقلب سليم من الشرك والشك وسائر أمراض القلوب نجا من النار ودخل الجنة بإذن الله تعالى.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- سنة الله فيمن توغل في الكفر أو الظلم أو الفسق وبلغ حداً بعيداً أنه لا يتوب.

2- اليأس من نجاة من مات كافراً يوم القيامة.

3- لا فدية تقبل يوم القيامة من أحد ولا فداء لأحد فيه.

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (92)

شرح الكلمات:

{لَنْ تَنَالُوا} : لن تحصلوا عليه وتظفروا به.

{الْبِرِّ} : كلمة جامعة لكل خير، والمراد به هنا ثوابه وهو الجنة.

{تُنْفِقُوا} : تتصدقوا.

{مِمَّا تُحِبُّونَ} : من المال الذي تحبونه لأنفسكم وهو أفضل أموالكم عندكم.

{مِنْ شَيْءٍ} : يريد قل أو كثر.

{فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} : لازمه أنه يجزيكم به بحسب كثرتة أو قلته.

معنى الآية الكريمة:

يخبر تعالى عباده المؤمنين الراغبين في بره 2 تعالى وإفضاله بأن ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة بأنهم لن يظفروا بمطلوبهم من بر ربهم حتى ينفقوا من أطيب أموالهم وأنفسها عندهم وأحبها إليهم. ثم أخبرهم مطمئناً لهم على إنفاقهم أفضل أموالهم بأن ما ينفقونه من قليل

1 روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: كذبت، قد سئلت ما هو أيسر من ذلك فلم تفعل".

2 يطلق لفظ البر على العمل الصالح أو هو جماعه وثوابه، وفي الصحيح، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً".

أو كثير نفيس أو خسيس هو به عليم وسيجزئهم به، وبهذا حُب إليهم الإنفاق ورغبتهم فيه فجاء أبو طلحة رضي الله عنه يقول يا رسول الله: أن الله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، وإن من أحب أموالي إليّ ببيرحا "حديقة" فأجعلها حيث أراك الله يا رسول الله، فقال له صلى الله عليه وسلم: "مال رايح أو رائج اجعلها في أقربائك" فجعلها في أقربائه حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- البر وهو فعل الخير يهدي إلى الجنة.
- 2- لن يبلغ العبد بر الله وما عنده من نعيم الآخرة حتى ينفق من أحب أمواله إليه.
- 3- لا يضيع المعروف عند الله تعالى قل أو كثر طالما أريد وجهه تعالى.

1 لما نزلت هذه الآية: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} بادر الأصحاب رضي الله عنهم بالتصدق بأحب أموالهم إليها فأعتق عمر جارية له من أحب الجواري إليه، وأعتق ولده مولاه نافعاً، وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كانت أحب ما يملك، وتصدق أبو طلحة ببستانه "بيرحا" فدل هذا على فقه الصحابة ومدى استجابتهم لما هو خير عند الله وأعظم أجراً. فرضى الله عنهم وأرضاهم ولا حرمانا حبهم وجوارهم.

(1/346)

الجزء الرابع

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ النُّورَةُ قُلْ فَأُتُوا بِالنُّورَةِ فَأْتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (93) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنْ أَوْلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)

شرح الكلمات:

{الطَّعَامِ} 1 : اسم لكل ما يطعم من أنواع المأكولات.

حل : الحل: الحلال، وسمى حلالاً لانحلال عقدة الحظ عنه.

بني إسرائيل : أولاد يعقوب الملقب بإسرائيل المنحدرون من أبنائه الاثني عشر إلى يومنا هذا.
{حَرَمٌ} : حظر ومنع.

{التَّوْرَةُ} : كتاب أنزل على موسى عليه السلام وهو من ذرية إسرائيل.

{فَاتَلَوْهَا} : أقرأوها على رؤوس الملائكة لنتبين صحة دعواكم من بطلانها.

افتري 2 الكذب : اختلقه وزوره وقاله.

{مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} : دينه وهي عبادة الله تعالى بما شرع، ونبذ الشرك والبدع.

{حَنِيفًا3} : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد.

1 الطعام: "أل" للجنس، ولفظ: كل، للتصيص على العموم.

2 الافتراء: كالاختلاق سواء، والافتراء مأخوذ من الفري، وهو قطع الجلد قطعاً ليصلح بها قرية وحذاء ونحوهما.

3 حنيفاً منصوب على الحال وصاحبها إبراهيم المجرور بالإضافة.

(1/347)

بَيْكَةٌ : مكة.

لِلْعَالَمِينَ : للناس أجمعين.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ 1 : آية من الآيات وهو الحجر الذي قام عليه أثناء بناء البيت فارتسمت قدماه وهو صخر فكان هذا آية.

مَنْ دَخَلَهُ : الحرم الذي حول البيت يحدوده المعروفة.

أَمِنًا : لا يخاف على نفس ولا مال ولا عرض.

الحج : قصد البيت للطواف به وأداء بقية المناسك.

سَبِيلًا : طريقاً والمراد القدرة على السير إلى البيت والقيام بالمناسك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحجاج مع أهل الكتاب فقد قال يهود للنبي صلى الله عليه وسلم: كيف تدعي أنك على دين إبراهيم، وتأكل ما هو محرم في دينه من لحوم الإبل وألبانها، فرد الله تعالى على هذا الزعم الكاذب بقوله: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا} أي حلالاً لبني إسرائيل، وهم ذرية يعقوب الملقب بإسرائيل، ولم يكن هناك شيء محرم عليهم في دين إبراهيم اللهم إلا ما حرم إسرائيل "يعقوب" على نفسه خاصة وهو لحوم الإبل وألبانها لنذر نذره وهو أنه مرض 2 مرضاً آلمه فنذر 3 لله تعالى إن شفاه ترك أحب الطعام والشراب إليه، وكانت لحوم الإبل وألبانها من أحب الأطعمة والأشربة إليه

فتركها لله تعالى، هذا معنى قوله تعالى: { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ } من قبل أن تنزل التوراة، إذ التوراة نزلت على موسى بعد إبراهيم ويعقوب بقرون عدة، فكيف تدعون أن إبراهيم كان لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها فأتوا بالتوراة فاقروها فسوف تجدون أن ما حرم الله تعالى على اليهود إنما كان لظلمهم واعتدائهم فحرم عليهم أنواعاً من الأطعمة، وذلك بعد إبراهيم ويعقوب

1 مقام إبراهيم من جملة الآيات، إذ أثر قدمي إبراهيم باقية على المقام الذي هو صخرة، وفيه قال أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل
وأمر تعالى بالصلاة خلفه في قوله: { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ } فمن طاف بالبيت يختم طوافه بصلاة ركعتين خلفه.

2 أكثر الروايات على أن مرض يعقوب كان بعرق النساء، وأن ما نذره من ترك أحب الطعام والشراب إليه كان باجتهاد منه وليس شرعاً عنده، إذ هو من المباح، وللعبد أن يترك مباحاً متى شاء لاسيما إن تركه الله تقرباً إليه وتوسلاً لقضاء حاجته؛ كشفاء من مرض مثلاً.

3 روى ابن ماجة في سننه عن أنس ابن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "شفاء عرق النساء إلية شاه (عربية)"، تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق كل يوم جزء". قال أنس فوصفته لأكثر من مائة فبراً بإذن الله تعالى.

(348/1)

بقرون طويلة. قال تعالى في سورة النساء: { قَبِضْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا "اليهود" حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } وقال في سورة الأنعام: { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرِ 1 وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا } الآية.

ولما طولبوا بالإتيان بالتوراة وقراءتها بهتوا ولم يفعلوا فقامت الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم.

وقوله تعالى: { فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ } بعد قيام الحجة بأن الله تعالى لم يحرم على إبراهيم ولا على بني إسرائيل شيئاً من الطعام والشراب إلا بعد نزول التوراة باستثناء ما حرم إسرائيل على نفسه من لحمان الإبل وألبانها فأؤلئك هم الظالمون بكذبهم على الله تعالى وعلى الناس. ومن هنا أمر الله تعالى رسوله أن يقول: صدق الله فيما أخبر به رسوله ويخبره به وهو الحق من الله، إذأ فاتبعوا يا معشر اليهود ملة إبراهيم الحنيف الذي لم يكن أبداً من المشركين.

هذا ما تضمنته الآيات الثلاث: 93-94-95، وأما قوله تعالى: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } فإنه متضمن الرد3 على اليهود الذين قالوا إن بيت المقدس هو أول قبلة شرع للناس استقبالها فلم يعدل محمد وأصحابه عنها إلى استقبال الكعبة؟ وهي متأخرة الوجود فأخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس هو الكعبة لا بيت المقدس وأنه جعله مباركاً يدوم بدوام الدنيا والبركة لا تفارقه، فكل من يلتمسها بزيارته وحجه والطواف به يجدها ويحظى بها، كما جعله هدى للعالمين، فالمؤمنون يأتون حجاجاً وعماراً فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية، والمصلون في مشارق الأرض ومغاربها يستقبلونه في صلاتهم، وفي ذلك من الهداية للحصول على الثواب وذكر الله والتقرب إليه أكبر هداية، وقوله تعالى في آيات بينات يريد: في المسجد الحرام دلائل واضحة منها: مقام إبراهيم وهو الحجر الذي كان يقوم عليه أثناء بناء البيت حيث بقي أثر قدميه عليه مع إنه صخرة من الصخور ومنها زمزم والحجر والصفة والمروة وسائر المشاعر كلها آيات ومنها: الأمن التام لمن دخله فلا

1 راجع تفسير هذه الآية في موضعها من سورة الأنعام.

2 أخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم جعلت الأرض لك مسجداً فحيثما أدركتك الصلاة فصل".

3 ذكر القرطبي عن مجاهد قوله: تفاخر المسلمون واليهود. فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء في الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل. فأنزل الله تعالى هذه الآية: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ.. } الآية.

(1/349)

يخاف غير الله تعالى. قال تعالى: { وَمَنْ دَخَلَهُۥٓ كَانَ آمِنًا } ثم هذا الأمن له والعرب يعيشون في جاهلية جهلاء وفوضى لا حد لها، ولكن الله جعل في قلوبهم حرمة الحرم وقديسيته ووجوب أمن كل من يدخله ليحججه أو يعتمره، وقوله تعالى: { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِۥٓ سَبِيلًا } ، لما ذكر تعالى البيت الحرام وما فيه من بركات وهدايات وآيات ألزم عباده المؤمنين به وبرسوله بحجه ليحصل لهم الخير والبركة والهداية، ففرضه بصيغة: { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ } وهي أبلغ صيغ الإيجاب، واستثنى العاجزين عن حجه واعتماره بسبب مرض أو خوف قلة نفقة للركوب والإنفاق على النفس والأهل أيام السفر.

وقوله تعالى في آخر الآية: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} فإنه خير منه تعالى بأن من كفر بالله ورسوله وحج بيته بعد ما ذكر من الآيات والدلائل الواضحات فإنه لا يضر إلا نفسه، أما الله تعالى فلا يضره شيء وكيف وهو القاهر فوق عباده والغني عنهم أجمعين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ثبوت النسخ في الشرائع الإلهية، إذ حرم الله تعالى على اليهود بعض ما كان حلالاً لهم.
- 2- إبطال دعوى دعوى اليهود أن إبراهيم كان محرماً عليه الإبل والبانها.
- 3- تقرير النبوة المحمدية لتحدي اليهود وعجزهم عن دفع الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.
- 4- البيت الحرام كان قبل بيت المقدس وأن البيت الحرام أول بيت وضع للتعبد بالطواف به.
- 5- مشروعية طلب البركة لزيارة البيت وحجه والطواف به والتعبد حوله.
- 6- وجوب الحج على الفور لمن لم يكن له مانع يمنعه من ذلك.
- 7- الإشارة إلى كفر من يترك الحج وهو قادر عليه، ولا مانع يمنعه منه غير 4 عدم المبالاة.

- 1 سورة اللفظ خير، ومعناه الإنشاء، أي: الأمر بمعنى: فمن دخله فأمنوه، هكذا قال بعضهم ولا منافاة بين القولين، فإن الحرم كان آمناً في عهد الجاهلية قرناً بما ألقى الله في قلوب العرب من حرمة الحرم إن بيت المقدس تسلط عليه الجبابرة، فخربوه غير مرة، ومكة رد الله الطغاة عنها.
- 2 تواردت طرق حديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السبيل في قوله تعالى: {مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} فقال: "الزاد والرحلة". وهو كذلك.
- 3 مما يدل على فورية الحج إذا توفرت النفقة وأمن الطريق وزالت الموانع، قوله صلى الله عليه وسلم: "تعجلوا إلى الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له". رواه أحمد. فما دنا مأمورين بالتعجل كان الفور ألزم والتراخي أبعد. والله أعلم وأعز وأحكم.
- 4 الإجماع على أن الحج مرة واحدة في العمر لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا، ولو قلت نعم لوجبت" إذ سأل سائل قائلاً: أفي كل عام يا رسول الله، وذلك لما نزلت: {ولله على الناس حج البيت...}. ومما يؤكد فرضيته وهي مؤكدة بخطاب الله تعالى أن عمر رضي الله عنه قال: "من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً" قال ابن كثير اسناده صحيح.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

شرح الكلمات:

الكفر : الجحود.

آيات الله : ما أنزل تعالى من الحجج والبيّنات في القرآن المقررة لنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزله تعالى في التوراة والإنجيل من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ونعوته الموجبة للإيمان به واتباعه على دين الحق الذي جاء به وهو الإسلام.

{شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ1} : عليم به مطلع عليه، وما يعملونه هو الكفر والشر والفساد.

{تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ2} : تصرفون الناس ممن آمن منكم ومن العرب عن الإسلام الذي هو سبيل الله تعالى المفضي بأهله إلى سعادة الدارين.

{تَبْغُونَهَا عِوَجًا3} : تطلبون لها العوج حتى تخرجوا بها عن الحق والهدى فيصل سالكها وذلك بالتحريف والتضليل.

{وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ} : بعلمكم بأن الإسلام حق، وأن ما تبغونه له من من الإضلال لأهله والتضليل هو كفر وباطل.

معنى الآيتين:

بعد دحض الله تعالى شبه أهل الكتاب وأبطلها في الآيات السابقة أمر تعالى رسوله

1 هذا دال على أن أهل الكتاب يؤمنون بعموم علم الله وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلهذا كان توبيخهم أشد.

2 قرئ: {يصدون} من صد، إذ يقال: صدّه وأصدّه عن كذا، صرفه عنه.

3 أصلها تبغون لها فحذفت اللام، نحو: {كالوهم} أي: كالوا لهم.

(1/351)

أن يقول لهم موبخاً مسجلاً عليهم الكفر يا أهل الكتاب لم تكفروا بحجج الله تعالى وبراهينه المثبتة لنبوّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الإسلام تلك الحجج والبراهين التي جاء بها القرآن والتوراة والإنجيل معاً؟ والله جل جلاله مطلع على كفركم عليم به، أما تخافون عقابه أما تخشون عذابه؟.

كما أمر تعالى رسوله أيضاً أن يقول لهم مؤنباً موبخاً لهم على صرفهم المؤمنين عن الإسلام بأنواع الحيل والتضليل: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ1} أي: يا أهل العلم الأول لم تصرفون المؤمنين عن الإسلام الذي

هو سبيل الله بما تثيرونه بينهم من الشكوك والأوهام تطلبون للإسلام العوج لينصرف المؤمنون عنه، مع علمكم التام بصحة الإسلام وصدق نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أما تخافون الله، أما تخشونه تعالى وهو مطلع على سوء تدبيركم غير غافل عن مكركم وغشكم وخداعكم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- شدة قبح كفر وظلم من كان عالماً من أهل الكتاب بالحق ثم كفره وجده بغياً وحسداً.

2- حرمة صرف الناس عن الحق والمعروف بأنواع الحيل وضروب الكذب والخداع.

3- علم الله تعالى بكل أعمال عباده من خير وشر وسيجزئهم بها فضلاً منه وعدلاً.

لَيَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ نَظِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

1 أخرج ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآية: {لَيَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...} إن شماس بن قيس اليهودي رأى جماعة من المسلمين من الأوس والخزرج بادياً عليهم الوثام "المحبة" فعاظه ذلك، فأمر أحد اليهود أن يجلس بينهم ويذكرهم بحرب بعاث، وفعل فحدث نزاع بينهم أدى إلى الخروج إلى الحرة للقتال وفعلاً خرجوا وسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وهدأهم بقوله: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم"، وما زال يعظهم حتى ألقوا السلاح وتعانقوا وهم يبكون وعرفوا أنها مكره يهود وخدعتهم عليهم لعائن الله وأنزل تعالى هذه الآية والتي قبلها.

(352/1)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

شرح الكلمات:

{قَرِيبًا}: طائفة 1 من الحاقدين على الإسلام العاملين على الكيد له والمكر به وبأهله.
{يَرُدُّوكُمْ}: يرجعوكم إلى الكفر بعد إيمانكم.

{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ}: الاستفهام للإنكار والتعجب من كفرهم بعد إيمانهم.

{آيَاتُ اللَّهِ}: آيات القرآن الكريم.

{يَعْتَصِمُ}: يتمسك بشدة.

{حَقَّ تَقَاتِهِ}: باستفراغ الوسع في إمتثال أمره، واجتتاب نهيه، وتقافته 2 هي تقواه.
{يَحْبِلُ اللَّهُ}: كتابه القرآن ودينه الإسلام، لأن الكتاب والدين هما الصلة التي تربط المسلم بربه، وكل ما يربط ويشد شيئاً بآخر هو سبب وحبل.
{قَالَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ}: جمعها على أخوة الإيمان ووجد بينها بعد الاختلاف والنفرة.
{شَفَا حُفْرَةً}: شفا الحفرة: حافتها وطرفها بحيث لو غفل الواقف عليها وقع فيها.

1 قالوا هم: شاس اليهودي وأصحابه الذين أثاروا الفتنة بين الأوس والخزرج ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فطاعة أعداء الإسلام من اليهود والنصارى كانت وما زالت سبب دمار أمة الإسلام.
2 التقاء اسم مصدر اتقى يتقى إتقاءً، وأصلها: وقى فتحرك حرف العلة فانفتح ما قبله فقلبه واواً، فصارت وقاه، وأبدلت الواو تاء فصارت تقاة.

(1/353)

أنتذركم منها : بهدائيتكم إلى الإسلام وبذلك أنجاكم من النار .معنى الآيات:
بعد أن وبخ تعالى اليهود على خداعهم ومكرهم وتضليلهم للمؤمنين وتوعدهم على ذلك، نادى المؤمنين محذراً إياهم من الوقوع في شباك المضللين من اليهود فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} ، وذلك أن نفراً من الأوس والخزرج كانوا جالسين في مجلس يسودهم الود والتصافي ببركة الإسلام الذي هداهم الله تعالى إليه فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فألمه ذلك التصافي والتحابب وأحزنه بعد أن كان اليهود يعيشون في منجاة من الخوف من جيرانهم الأوس والخزرج لما كان بينهم من الدمار والخراب، فأمر شاس شاباً أن يذكرهم بيوم بعثت فذكروه وتناشدوا الشعر فنارت الحمية القبلية بينهم فتسابوا وتشاتموا حتى هموا بالقتال فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وذكرهم بالله تعالى وبمقامه فهدأوا، وذهب الشر ونزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} فحذرهم من مكر أهل المكر من اليهود والنصارى، وأنكر عليهم ما حدث منهم حاملاً لهم على التعجب من حالهم أو كفروا بعد إيمانهم فقال عز وجل: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنذَرُونَ} أي: بكتابه وسنة نبيه {فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ثم كرر تعالى نداءه 2 لهم بعنوان الإيمان تأكيداً لهم به وأمرهم بأن يبذلوا وسعهم في تقوى الله عز وجل وذلك بطاعته كامل الطاعة بامتثال أمره واجتتاب نهيه حاضاً لهم

على الثبات على دين الله حتى يموتوا عليه فلا يبدلوا ولا يغيروا فقال: لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ 3 وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} وأمرهم بالتمسك بالإسلام عقيدة وشريعة، ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأرشدهم إلى ذكر نعمته تعالى عليهم بالألفة

- 1 عصمة هذه الأمة من الذنوب والسقوط في هذين الأمرين الكتاب والسنة، فمهما تمسكت أمة الإسلام بهما فإنها لا تضل ولا تسقط ولو كادها أهل الأرض أجمعون، ومهما أعرضت عنهما سقطت وهانت ولو دعمها أهل الأرض أجمعون.
- 2 من مظاهر إكرام الله تعالى للمؤمنين أن ناداهم مباشرة بيا أيها الذين آمنوا بخلاف أهل الكتاب فإنه أمر رسوله أن يناديهم إشعاراً لهم بعدم رضاه عنهم وغضبه عليهم.
- 3 روى أن تقوى الله حق تقاته تتمثل في أن يطاع تعالى ولا يعصى ويشكر ولا يكفر، ويذكر ولا ينسى، وخصصها آية التغابن: {فاتقوا الله ما استطعتم} ، إذ لا تكليف مع العجز عن القيام به.

(1/354)

والمحبة التي كانت ثمرة هدايتهم للإيمان والإسلام، بعد أن كانوا أعداء متناحرين مختلفين فألف بين قلوبهم فأصبحوا بها إخواناً متحابين متعاونين، كما كانوا قبل نعمة الهداية إلى الإيمان على شفا جهنم لو مات أحدهم يومئذ لوقع فيها خالداً أبداً، وكما أنعم عليهم وأنقذهم من النار ما زال يبين لهم الآيات الدالة على طريق الهداية الداعية إليه ليثبتهم على الهداية ويكملهم فيها فقال تعالى: **لَوْ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا 1 وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ 2 لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- طاعة كثير من علماء اليهود والنصارى بالأخذ بنصائحهم وتوجيهاتهم وما يشيرون به على المسلم تؤدي بالمسلم إلى الكفر شعر بذلك أم لم يشعر، فلذا وجب الحذر كل الحذر منهم.
- 2- العصمة في التمسك بكتاب الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن تمسك بهما لم يضل.
- 3- الأخذ بالإسلام جملة والتمسك به عقيدة وشريعة أمان من الزيغ والضلال، وأخيراً من الهلاك والخسران.
- 4- وجوب التمسك بشدة بالدين الإسلامي وحرمة 3 الفرقة والاختلاف فيه.
- 5- وجوب ذكر النعم لأجل شكر الله تعالى عليها بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

6- القيام على الشرك والمعاصي وقوف على شفير جهنم فمن مات على ذلك وقع في جهنم حتماً بقضاء الله وحكمه.

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (104) وَلَا

- 1 في الآية حرمة التفرق في الدين، ومنه التفرق في الحكم، فكلاهما محرم، لما يفضي بالمتفرقين إلى الهلاك والخسران، عرف هذا أعداء الإسلام فعملوا على تفرقة أمة الإسلام، وفرقوها مذاهب وطوائف ثم دويلات وحكومات، ثم أذلوها وأهانوها.
- 2 وهذه نعمة أخرى مواصلة إنزال القرآن بالأحكام والشرائع والآداب والمواعظ والعبر، لئتم لهم كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فله الحمد والمنة.
- 3 في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: "أن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً. يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تتاصحوا من ولاد الله أمركم. ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال".

(1/355)

تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

شرح الكلمات:

الأمة: أفراد من البشر أو غيرهم تربطهم رابطة جنس أو لغة أو دين ويكون أمرهم واحداً، والمراد بالأمة هنا المجاهدون وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

{الْخَيْرِ}: الإسلام وكل ما ينفع الإنسان في حياته الأولى والآخرة من الإيمان والعمل الصالح.

المعروف: المعروف كل ما عرفه الشرع فأمر به لنفعه وصلاحه للفرد أو الجماعة.

{الْمُنْكَرِ}: ضد المعروف، وهو ما نهى عنه الشرع لضرر وإفساد، للفرد أو الجماعة.

الذين تفرقوا: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ 2}: هذا يوم القيامة.

{فِي رَحْمَةِ اللَّهِ}: رحمة الله هنا: الجنة جعلنا الله تعالى من أهلها، آمين.

1 وقيل هم: الحرورية، وقيل: المبتدعة من هذه الأمة، وكونهم اليهود والنصارى، هذا الراجح والحق وعليه جمهور المفسرين.

2 تبيض وجوه المؤمنين المتقين وتسود وجوه الكافرين والمبتدعين من أصحاب الأهواء.

(1/356)

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق: هذه آياتنا نقرأها عليك مثلنسة بالحق، لا باطل فيها أبداً. وإلى الله ترجع الأمور: إلى الله تصير الأمور فيقضي فيها بما يشاء ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً.
معنى الآيات:

بعدما أمر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين بتقواه والتمسك بدينه ونهاهم عن الفرقة والاختلاف وحضهم على ذكر نعمه ليشكروها بطاعته أمرهم في هذه الآية (104) بأن يوجدوا من أنفسهم جماعة تدعو إلى الإسلام وذلك بعرضه على الأمم والشعوب ودعوتهم إلى الدخول فيه، كما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في ديار الإسلام وبين أهله فقال تعالى مخاطباً إياهم: ولتكن منكم 1 أي: يجب أن تكون منكم طائفة يدعون إلى الخير، أي: الإسلام، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويشرهم بأن الأمة التي تنهض بهذا الواجب هي الفائزة بسعادة الدنيا والآخرة فقال: فأولئك هم المفلحون الفائزون بالنجاة من العار والنار، وبدخول الجنة مع الأبرار.

وفي الآيات (105)(107) نهاهم أن يسلكوا أهل الكتاب في التفرق في السياسة والاختلاف في الدين فيهلكوا هلاكهم فقال تعالى: مخاطباً إياهم: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيَّاتُ} فلا ينبغي أن يكون العلم والمعرفة بشرائع الله سبباً في الفرقة والخلاف²، وهما أداة الوحدة والائتلاف، وأعلمهم بجزء المختلفين من أهل الكتاب ليعتبروا ولا يتفرقوا فقال تعالى: {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} لا يغادر قدره ولا يعرف مداه، وأخبرهم عن موعد حاول هذا العذاب العظيم بهم، وأنه يوم القيامة حينما تبيض وجوه المؤمنين القائمين على الكتاب والسنة، وتسود وجوه الكافرين المختلفين القائمين على البدع والأهواء، فقال تعالى: {لِيَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ³

1 من: للتبويض، وعليه فسرنا الآية، وقلنا بوجود طائفة لا كل الأمة، إذ لا بد من العلم لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والعلم لا يتوفر لكل فرد أبداً، ولذا فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية.

2 نهاهم تعالى عن التفرق والاختلاف، وقد وقع ما نهاهم عنه، وثبت ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال: "تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، النصارى

مثل ذلك، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة". رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح، وفعلاً وقد وجدت ست فرق، وهي: الحرورية والقدرية والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية. انقسمت كل فرقة من هذه إلى اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلى أهل السنة والجماعة.

3 روى ابن القاسم عن مالك في العتبية أنه قال ما آية في كتاب الله أشد على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} ، قال مالك: إنما هذه الآية لأهل القبلة بدليل قوله تعالى: {أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...} .

(1/357)

وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} وبين جزاء الفريقين فقال: فأما الذين اسودت وجوههم من سوء ما عاينوه من أهل الموقف وما أيقنوا أنهم صائرون إليه من عذاب النار فيقال لهم تفريراً وتوبيخاً: {أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} إذ هذه وجوه من تلك حالهم، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بالله وشرائعه. وأما الذين ابيضت وجوههم فلم يطل في الهول موقفهم حتى يدخلوا جنة ربهم قال تعالى: {فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

وفي الآية (108) شرف الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بخطابه والوحي إليه فقال: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} أي: هذه الآيات المتضمنة للهدى والخير نقرأها عليك بالحق الثابت الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه فبلغها عنا وادع بها إلينا فمن استجاب لك نجا ومن أعرض هلك، وما الله يريد ظملاً للعالمين. فلا يعذب إلا بعد الإعلام والإنذار.

وفي الآية الأخيرة (109) يخبر تعالى أنه له ملك السموات والأرض خلقاً وتصرفاً وتدبيراً، وأن مصير الأمور إليه وسيجزى المحسن بالحسنى و المسيء بالسوأى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب وجود طائفة من أمة الإسلام تدعو الأمم والشعوب إلى الإسلام و تعرضه عليهم وتقاتلهم إن قاتلوا عليه، ووجوب وجود هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مدن وقرى المسلمين.

2- حرمة الفرقة بين المسلمين والاختلاف في دين الله.

3- أهل البدع والأهواء يعرفون في عرصات القيامة بأسوداد وجوههم.

4- أهل السنة والجماعة وهم الذين يعيشون عقيدة وعبادة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعرفون يوم العرض بابيضاض وجوههم.

1 التلاوة: كالقراءة، إلا أن القراءة عادة تكون لكلام مكتوب، وأما التلاوة فهي مجرد حكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظه.

2 " افتترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافتترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الملة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة، وقيل من هم يا رسول الله. فقال: هم الذين يكونون على ما أنا عليه وأصحابي".

(358/1)

5- كرامة الرسول على ربه وتقرير نبوته. وشرف من آمن به واتبع ما جاء به.
6- مرد الأمور إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة فيجب على عقلاء العباد أن يتخذوا لهم عند الله عهداً بالإيمان به وتوحيده في عبادته بتحقيق لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يَفَاتِكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112)}

شرح الكلمات:

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}: وجدتم أفضل وأبرك أمة وجدت على الأرض.

{أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}: أظهرت وأبرزت لهداية الناس ونفعهم.

{أَدَىٰ}: الضرر اليسير.

{يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ}: يهزمون فيفرون من المعركة مولينكم أديارهم، أي: ظهورهم.

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ}: أحاطت بهم المذلة ولصقت بهم حتى لا تفارقهم.

{وَبَاءُوا بِغَضَبٍ}: رجعوا من رحلتهم الطويلة في الكفر وعمل الشر بغضب الله.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ... الخ.: ذلك إشارة إلى ما لصق بهم من الذلة والمسكنة وما عادوا به من غضب الله

تعالى وما تبعه من عذاب "قالباء" في بأنهم

(1/359)

سببه، أي: بسبب فعلهم كذا وكذا والمسكنة هي ذلة الفاقة والفقير.

{يَعْتَدُونَ} : الاعتداء مجاوزة الحد في الظلم والفساد.

معنى الآيات:

لما أمر الله تعالى المؤمنين بتقواه والاعتصام بحبله فامتثلوا وأمرهم بتكوين جماعة منهم يدعون إلى الإسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فامتثلوا ذكرهم بخير عظيم فقال لهم: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} كما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كنتم خير الناس للناس..". ووصفهم بما كانوا به خير أمة فقال تأمرون بالمعروف وهو الإسلام وشرائع الهدى التي جاء بها نبيه صلى الله عليه وسلم وتنهون عن المنكر وهو الكفر والشرك وكبائر الإثم والفواحش، وتؤمنون بالله. وبما يتضمنه الإيمان بالله من الإيمان بكل ما أمر تعالى بالإيمان به من الملائكة والكتب والرسل والبعث الآخر والقدر. ثم دعا تعالى أهل الكتاب إلى الإيمان الصحيح المنجي من عذاب الله، فقال عز وجل، ولو آمن أهل الكتاب بالنبي محمد وما جاء به من الإسلام لكان خيراً لهم من دعوى الإيمان الكاذبة التي يدعونها. وأخبر تعالى عنهم بأن منهم المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ كعبد الله بن سلام وأخيه، وثعلبة بن سعيد وأخيه، وأكثرهم الفاسقون الذين لم يعملوا بما جاء في كتابهم من العقائد والشرائع من ذلك أمر الله تعالى بالإيمان بالنبي الأمي واتباعه على ما يجيء به من الإسلام ثم أخبر المسلمين أن فساق أهل الكتاب لن يضروهم إلا أذى يسيراً كما سمعهم الباطل وقولهم الكذب. وأنهم لو قاتلوهم يهزمون أمامهم مولينهم ظهورهم فارين من القتال ثم لا ينصرون على المسلمين في أي قتال يقع بين الجانبين.

كما أخبر تعالى في الآية (112) أنه تعالى ضرب عليهم الذلة والمسكنة أينما تقفوا وفي يا البلاد وجدوا لن تفارقهم الذلة والمسكنة في حال من الأحوال إلا في حال دخولهم في الإسلام وهو حبل الله، أو معاهدة وارتباط بدولة قوية وذلك هو حبل 2 الناس. كما أخبر تعالى عنهم

- 1 هذه الآية مخصصة لعموم آية الأعراف: {وَأُذِّنْ تَأْذِينَ رَبِّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} إلا في حال إسلامهم أو ارتباطهم بمعاهدة دولة قوية كما هي الحال اليوم.
- 2 الحبل مستعار هنا للعهد، أي: المعاهدة التي تربطهم بدولة قوية كبريطانيا وأمريكا الآن.

(1/360)

أنهم رجعوا من عنادهم وكفرهم بغضب الله، وما يستتبعه من عذاب في الدنيا بحالة الفاقة والفقير المعبر عنها بالمسكنة، وفي الآخرة بعذاب جهنم كما ذكر تعالى علة عقوبتهم، وأنها الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم المستمر واعتداؤهم الذي لا ينقطع فقال تعالى {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

وَكَاثُوا يَعْتَدُونَ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إثبات خيرية أمة الإسلام وفي الحديث: "أنتم تتمون 1 سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله" .
- 2- بيان علة خيرية أمة 2 الإسلام، وهي الإيمان بالله والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- 3- وعد الله تعالى لأمة الإسلام -ما تمسكت به- بالنصر على اليهود في أي قتال بينهم .
- 4- صدق القرآن في إخباره عن اليهود بلزوم الذلة والمسكنة لهم أينما كانوا .
- 5- بيان جرائم اليهود التي كانت سبباً في ذلتهم ومسكنتهم وهي الكفر المستمر، وقتل الأنبياء بغير حق والعصيان والاعتداء على حدود الشرع .

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} (113) {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ

- 1 ومن هنا فعصر الصحابة أفضل ممن بعدهم، وذلك لتحقيق الصفات التي كانت بها الخيرية، ويشهد لهذا الحديث الصحيح: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . فالخيرية العامة لهذه الأمة لا جدال فيها، والخيرية الخاصة فهي: تتوفر لأهل الصفات الثلاث: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان التام في كل زمان ومكان .
- 2 يوضح هذا قول عمر في حجه، وقد رأى في الناس دعة فقال، بعد أن قرأ هذه الآية: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} . من سره أن يكون في هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها .

(1/361)

فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} (115) شرح الكلمات:

{لَيْسُوا سَوَاءً} : غير متساوين .

{أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} : جماعة قائمة ثابتة على الإيمان والعمل الصالح .

{يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ} : يقرأون القرآن .

{آنَاءَ اللَّيْلِ} : ساعات الليل جمع إني وإني .

{وَهُمْ يَسْجُدُونَ} : يصلون .

{وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} : يستدرونها خشية الفوات .

{فَلَنْ يُكْفَرُوهُ} : فلن يجحدوه بل يعترف لهم به ويجزون به وأفياً .

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى حال أهل الكتاب وأنهم فريقان مؤمن صالح، وكافر فاسد. ذكر هنا في هذا الآيات الثلاث: (113-114-115) أن أهل الكتاب ليسوا سواء¹، أي: غير متساوين في الحال، وأثنى على أهل الصلاح منهم فقال جل ذكره ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ²﴾، أي: على الإيمان الحق والدين الصحيح وهم الذين أسلموا. يتلون آيات الله يقرأونها في صلاتهم آناء الليل، أي: ساعات الليل في صلاة العشاء وقيام الليل وهم يسجدون، وهذا ثناء عليهم بالسجود، إذ هو أعظم مظاهر الخشوع لله تعالى كما أثنى تعالى عليهم بالإيمان الصادق والأمر بالمعروف وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى بعد الإيمان به والإسلام الظاهر والباطن له. وينهون عن المنكر وهو الشرك بعبادة الله تعالى والكفر به وبرسوله فقال عز وجل: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إليها قبل فواتها، والخيرات هي كل قول وعمل صالح من سائر القربات. وشهد

-
- 1 يرى بعضهم أن الكلام تم عند قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليس المسلمون و أهل الكتاب سواء، ثم استأنف فقال: ﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلخ. وما ذكرته في التفسير أصح وأوضح.
 - 2 المراد بهم: عبد الله بن سلام، وأخوه، وعمته، وسعيه أو سنعة بن غريض، وثعلبة بن سعية، وأسد القرظي، وغيرهم ممن أسلموا وحسن إسلامهم في دنيا الإسلام والمسلمين إلى اليوم.

(1/362)

تعالى لهم بالصلاح فقال: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .
وأخيراً في الآية الأخيرة (115) أن ما يفعلونه من الصالحات وما يأتونه من الخيرات لن يجحدوه بل يعترف لهم به ويجزون عليه أتم الجزاء، لأنهم متقون والله عليهم بالمتقين فلن يضيع أجرهم.
هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- فضل الثبات على الحق والقيام على الطاعات.
- 2- فضل تلاوة القرآن الكريم في صلاة الليل.
- 3- فضل الإيمان والدعوة إلى الإسلام.
- 4- فضل المسابقة في الخيرات والمبادرة إلى الصالحات.
- 5- فضيلة الكتابي إذا أسلم وحسن إسلامه، وفي الصحيحين يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ثلاثه يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأمن

به واتبعه وصدقه فله أجران " الحديث.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) مَثَلٌ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (117) }

شرح الكلمات:

{كَفَرُوا} : كذبوا بالله ورسوله وشرعه ودينه.

{لَنْ تُغْنِيَّ عَنْهُمْ} : لن تجزي عنهم يوم القيامة أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، إذ لا مال يومئذ ينفق، ولا بنون.

1 {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} اسم إن، والخبر {لَنْ تُغْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً} .

(1/363)

{مَثَلٌ} : أي: صفة وحال ما ينفقونه لإبطال دعوة الإسلام، أو للتصدق به.

الصر 1 : الريح الباردة الشديدة البرد التي تقتل الزرع وتفسده.

الحرت : ما تحرت له الأرض وهو الزرع.

{ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} : حيث دنسوها بالشرك والمعاصي فعرضوها للهلاك والخسار .

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال مؤمني أهل الكتاب وأثنى عليهم بما وهبهم من صفات الكمال ذكر هنا في هاتين الآيتين ما توعد به أهل الكفر من الكتابيين وغيرهم من المشركين على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ليهتدي من هياه الله تعالى للهداية فقال: إن الذين كفروا أي كذبوا الله ورسوله فلم يؤمنوا ولم يوحداوا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم2 أي: في الدنيا والآخرة مما أراد الله تعالى بهم شيئاً من الإغناء؛ لأن الله تعالى غالب على أمره وعزيز ذو انتقام، وقوله تعالى: {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} . فيه بيان حكم الله تعالى فيهم وهو أن أولئك البعداء في الكفر والضلال المتوغلين في الشر والفساد هم أصحاب النار الذين يعيشون فيها لا يفارقونها أبداً ولن تغني عنهم أموالهم التي كانوا يفاخرن بها، ولا أولادهم الذين كانوا يعتزون بهم ويستتصرون، إذ يوم القيامة لا ينفق فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم: سليم من الشك والشرك والكبر والعجب والنفاق. هذا ما تضمنته الآية: (116) أما الآية(117) فقد ضرب تعالى فيها مثلاً لبطلان نفقات الكفار والمشركين وأعمالهم التي يرون أنها نافعة لهم في الدنيا والآخرة ضرب لها مثلاً: ريحاً باردة شديدة البرودة أصابت زرع أناس كاد يُحصد وهم به فرحون وفيه مؤملون فأفسدته تلك الريح وقضت عليه

نهائياً فلم ينتفعوا بشيء منه، قال تعالى في هذا المثل: مثل ما ينفقون، أي: أولئك الكفار في هذه الحياة الدنيا، أي: مما يرونه نافعا لهم من بعض أنواع البر. {كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ 3 أَصَابَتْ} أي تلك الريح الباردة حرث قوم، أي: زرعهم النابت

- 1 الصر: مأخوذ من الصرير الذي هو الصوت، وفي الحديث: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل الجراد الذي الذي قتله الصر" أي: البرد الشديد.
- 2 كرر حرف النفي: {ولا أولادهم} لتأكيد عدم إغناء الأولاد عنهم شيئاً مع أن العرف: أن الأولاد يذبون عن آبائهم ويدفعون عنهم.
- 3 {فيها صر} هذا التعبير أفاد شدة برد هذا الريح، إذ جعل الصر مطروفاً فيها.

(1/364)

فأهلكته، أي: أفسدته. فحرموا من حرثهم ما كانوا يؤملون، وما ظلمهم I حيث أرسل عليهم الريح فأهلكت زرعهم، إذ لم يفعل الله تعالى هذا بهم إلا لأنهم ظلموا بالكفر والشرك والفساد فجزاهم الله بالحرمان وبذلك كانوا هم الظالمين لأنفسهم. قال تعالى: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ} .

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- لن يغني عن المرء مال ولا ولد متى ظلم وتعرض لنقمة الله تعالى.
 - 2- الكفر هم أهل النار وخلودهم فيها محكوم به مقدر عليهم لا نجاة منه.
 - 3- ان العمل الصالح بالشرك والموت على الكفر.
 - 4- حسان ضرب الأمثال في الكلام لتقريب المعاني إلى الأذهان.
- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَتَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)}

1 نفي تعالى عن نفسه ظلم هؤلاء المنفقين في الباطل والشر والفساد فلم يجنوا خيراً من إنفاقهم وأثبت الظلم منهم لأنفسهم لسوء إنفاقهم وفساده.

شرح الكلمات:

{بِطَانَةٌ}: بطانة الرجل 1 الذين يطلعهم على باطن 2 أمره الذي يخفيه على الناس للمصلحة.

{مِنْ تُونُكُمْ}: من غيركم، أي: من غير المسلمين؛ كالكفار وأهل الكتاب.

{لَا يَأْلُونَكُمْ}: لا يقصرون في إفساد الأمور عليكم.

{خَبَالًا3}: فساداً في أمور دينكم ودنياكم.

{وَدُّوا مَا عَنَّتُمْ}: أحبوا عنتكم، أي: مشقتكم.

{بَدَّتِ الْبَغْضَاءُ}: ظهرت شدة بغضهم لكم.

{أَوْلَاءٌ}: هؤلاء حذفوا منه هاء التنبيه لوجودها في ها أنتم قبلها.

{بِالْكِتَابِ كُلِّهِ}: أي: بالكتب الإلهية كلها.

{عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَثَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ}: من شدة الغيظ عليكم؛ لأن المغتاظ إذا اشتد به الغيظ بعض

أصبغه على عادة البشر، والغيظ: شدة الغضب.

{حَسَنَةً}: ما يحسن من أنواع الخير؛ كالنصر والتأييد والقوة والخير.

{سَيِّئَةً}: ما يسوءكم؛ كالهزيمة أو الموت أو المجاعة.

{كَيْدُهُمْ}: مكرهم بكم وتببييت الشر لكم.

{بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}: علماً به وقدرة عليه، إذ هم واقعون تحت قهره وعظيم سلطانه.

معنى الآيات:

لما أخبر تعالى عن مصير الكافرين في الآخرة، وأن ذلك المصير المظلم كان نتيجة كفرهم وظلمهم حذر المؤمنين من مولاتهم دون المؤمنين وخاصة أولئك الذين يحملون في صدورهم الغيظ والبغضاء للمسلمين الذين لا يقصرون في العمل على إفساد أحوال المسلمين والذين

1 أصل البطانة: بطانة الثوب شبه بها بطانة الرجل ووليجه، وهم من يطلعهم على أسراره ثقة فيهم، ومثل البطانة الشعار وهو الثوب الذي يلي الجسد، وفي الحديث: "الأئصار شعار والناس دثار".
2 روى البخاري تعليقاً، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه. والمعصوم من عصمه الله".

3 الخبال: الخبل، وهو الفساد، وفي الحديث: "من أصيب بدم أو خبل" أي: جرح يفسد العضو، ويقال: رجل خبل، وخبله الحب: أفسده.

يسوءهم أن يروا المسلمين متآلفين متحابين أقوياء ظاهرين متصورين على أهل الشرك والكفر، ويسرهم أيضاً أن يروا المسلمين مختلفين أو ضعفاء منكسرين مغلوبين. فقال تعالى -وقوله الحق- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أي: بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً. {لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً} أي: أفراداً من دونكم 1 أي: من غير أهل دينكم؛ كاليهود والنصارى والمنافقين والمشركين تستشيرونهم وتطلعونهم على أسراركم وبواطن أموركم، ووصفهم تعالى تعريفاً بهم فقال: {لَا يَأْلُونَكُمْ 2 حَبَالاً} ، يعني: لا يقصرون في إفساد أموركم الدينية والدنيوية.

{وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} أي: أحبوا عنتكم ومشقتكم، فلذا هم لا يشيرون عليكم إلا بما يفسد عليكم أموركم ويسبب لكم الكوارث والمصائب في حياتكم وقوله تعالى: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} وصف آخر مشخص لهؤلاء الأعداء المحرم اتخاذهم بطانة، ألا وهو ظهور البغضاء من أفواههم 3 بما تنطق به ألسنتهم من كلمات الكفر والعداء للإسلام وأهله، وما يخفونه من ذلك في صدورهم 4 هو أكبر مما ينفلت من ألسنتهم. ويؤكد عز وجل تحذيره للمؤمنين فيقول: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ الْمِتْمَنَةَ لِبَيَانِ أَعْدَائِكُمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ لِتَعْتَبِرُوا} {إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} أي: الخطاب وما يتلى عليهم ويقال لكم. ثم يقول تعالى معلماً محذراً ها أنتم أيها المسلمون تحبونهم ولا يحبونكم. قد علم الله أن من بين المؤمنين من يحب بعض الكافرين لعلاقة الإحسان الظاهرة بينهم فأخبر تعالى عن هؤلاء كما أن رحمة المؤمن وشفقته قد تتعدى حتى لأعدائه فلذا ذكر تعالى هذا وأخبر به وهو الحق، وقال: {وَتُؤْمِنُونَ} أي: وهم لا يؤمنون بكتابتكم فانظروا إلى الفرق بينكم وبينهم فكيف إذا تتخذونهم بطانة تفضون إليهم بأسراركم. وأخبر تعالى عن المنافقين أنهم إذا لقوا المؤمنين قالوا إنا مؤمنون وإذا تفرقوا عنهم وخلوا بأنفسهم ذكروهم وتغيظوا عليهم حتى يعضوا

- 1 قيل لعمر رضي الله عنه: إن ها هنا رجل من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك؟ فقال: "لا أخذ بطانة من دون المؤمنين" وجاء أبو موسى الأشعري بحساب نصارى لعمر فانتهره وقال: "لا تدنهم، وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم، ولا تأمنهم وقد خونهم الله".
- 2 هذه الجملة وإن كانت صفة لكلمة بطانة، فهي معنى العلة للنهي السابق.
- 3 خصت الأفواه بالذكر دون الألسن إشارة إلى أنهم يتشددون بالكلام إيهاماً وتضليلاً.
- 4 استدل أهل العلم بهذه الآية على أن شهادة العدو لا تصح على عدوه، وكيف به إذا كان كافراً؟.

أطراف أصابعهم¹ من شدة الغيظ. فقال تعالى: {وَإِذَا لَقُّوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأُتْمِلَ 2 مِنَ الْغَيْظِ} وهنا أمر رسوله أن يدعو عليهم بالهلاك فقال له: قل يا رسولنا لهم {مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} فلذا أخبر عنهم كاشفاً الغطاء عما تكنه نفوسهم ويخفونه في صدورهم.

هذا ما تضمنته الآيات الأولى (118) والثانية (119) وأما الآية الثالثة (120) فقد تضمنت أيضاً بيان صفة نفسية للكافرين المنهي عن اتخاذهم بطانة وهو استيائهم وتألمهم لما يرونه من حسن حال المسلمين كائتلافهم واجتماع كلمتهم ونصرهم وعزتهم وقوتهم وسعة رزقهم، كما هو أيضاً فرحهم وسرورهم بما قد يشاهدونه من خلاف بين المسلمين أو وقوع هزيمة لجيش من جيوشهم، أو تغير حال عليهم بما يضر ولا يسر وهذه نهاية العداوة وشدة البغضاء، فهل مثل هؤلاء يتخذون أولياء؟. فقال تعالى: {إِنْ تَمَسَسْكُمُ حَسَنَةٌ 3 تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا} . ولما وصف تعالى هؤلاء الكفرة بصفات مهيلة مخيفة، قال لعباده المؤمنين مبعداً الخوف عنهم: {وَإِنْ تَصَبَّرُوا} على ما يصيبكم وتتقوا الله تعالى في أمره ونهيه وفي سننه في خلقه لا يضركم⁴ كيدهم شيئاً، لأن الله تعالى وليكم مطلع على تحركاتهم وسائر تصرفاتهم وسيحبطها كلها، دل على هذا المعنى قوله في الجملة التذليلية {إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة اتخاذ مستشارين وأصدقاء من أهل الكفر عامة وحرمة إطلاعهم على أسرار الدولة الإسلامية، والأمور التي يخفيها المسلمون على أعدائهم لما في ذلك من الضرر الكبير.
- 2- بيان رحمة المؤمنين وفضلهم على الكافرين.
- 3- بيان نفسيات الكافرين وما يحملونه من إرادة الشر والفساد للمسلمين.
- 4- الوقاية من كيد الكفار ومكرهم تكمن في الصبر والتجلد وعدم إظهار الخوف للكافرين

1 العض: مصدر عض، عض يعض عضاً وعضيضاً، إذا أخذ الشيء بأسنانه، والعض بضم العين: علف الدواب.

2 الأتامل: جمع أنملة، وهي طرف الأصبع الأعلى.

3 هذا من شدة حسدهم للمسلمين، ولقد أحسن من قال:

كل العداوة قد ترجى إفاقتها ... إلا عداوة من عداك من حسد

4 قرئ: {لا يضركم} من ضاره يضيره ضيراً، ومن قوله تعالى: {لا ضير} ، والضير، والضرر: بمعنى واحد.

ثم تقوى الله تعالى بإقامة دينه ولزوم شرعه والتوكل عليه، والأخذ بسننه في القوة والصبر .
 ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نَبِئِىُّ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (121) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123){

شرح الكلمات:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ : أي: واذكر إذ غدوت، والغدو: الذهاب أول النهار.
 ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ : أهل الرجل وزوجه وأولاده. ومن لايتداء الغاية إذ خرج صلى الله عليه وسلم صباح السبت من بيته إلى أحد حيث نزل المشركون به 1 يوم الأربعاء.
 ﴿نَبِئِىُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : تنزل المجاهدين الأماكن التي رأيتها صالحة للنزول فيها من ساحة المعركة.
 ﴿هَمَّتْ﴾ : حدثت نفسها بالرجوع إلى المدينة وتوجهت إرادتها إلى ذلك.
 ﴿طَائِفَتَانِ﴾ : هما بنو سلمة، وبنو حارثة من الأنصار.
 ﴿تَفْشَلَا﴾ : تضعفا وتعودا إلى ديارهما تاركين الرسول ومن معه يخوضون المعركة وحدهم.
 ﴿وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا﴾ : متولي أمرهما وناصرهما ولذا عصمهما من ترك السير إلى المعركة.
 ﴿بِبدْرٍ﴾ : بدر اسم رجل وسمي المكان به؛ لأنه كان له فيه ماء وهو الآن قرية تبعد عن المدينة النبوية بنحو من مائة وخمسين ميلاً "كيلو متر".
 ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ : لقلّة عددكم وعُدُكم وتفوق العدو عليكم.

1 الموافق للثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة: "وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا فرأى أن في سيفه ثلثة، وأن بقرأ له تذبج، وأنه أدخل يده في درع حصينه، فتأولها أن نفراً من أصحابه يقتلون وأن رجلاً من أهل بيته يصاب وأن الدرع الحصينة: المدينة". أخرجه مسلم.

معنى الآيات:

لما حذر الله تعالى المؤمنين من اتخاذ بطانة من أهل الكفر والنفاق، وأخبرهم أنهم متى صبروا واتقوا لا يضرهم كيد أعدائهم شيئاً ذكرهم بموقفين: أحدهما لم يصبروا فيه ولم يتقوا فأصابتهم الهزيمة وهو غزوة أحد، والثاني صبروا فيه واتقوا فانتصروا وهزموا عدوهم وهو غزوة بدر، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ

غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ { أي: اذكر يا رسولنا لهم غدوك صباحاً من بيتك إلى ساحة المعركة بأحد، تبوء المؤمنين مقاعد للقتال، أي: تنزلهم الأماكن الصالحة للقتال الملائمة لخوض المعركة، والله سميع لكل الأقوال التي دارت بينكم في شأن الخروج إلى العدو، أو عدمه و قتاله داخل 1 المدينة عليم بنياتكم وأعمالكم ومن ذلك هم بنى سلمه وبنى حارثة بالرجوع من الطريق لولا أن الله سلم فعصمهما من الرجوع لأنه وليهما .هذا معنى قوله تعالى: { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا } أي تجبنا وتحجما عن ملاقاته العدو ،والله وليهما فعصمهما من ذنب 2 الرجوع وترك الرسول صلى الله عليه وسلم يخوض المعركة بدون جناحيها وهما بنو حارثة وبنو سلمة { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } فتوكلت الطائفتان على الله وواصلتا سيرهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمهما الله من شر ذنب وأقبحه. والحمد لله.

هذا موقف والمقصود منه التذكير بعدم الصبر وترك التقوى فيه حيث أصاب المؤمنين فيه شر هزيمة واستشهد من الأنصار سبعون ومن المهاجرين أربعة وشج رأس صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته واستشهد عمه حمزة 4 رضى الله عنه.

والموقف الثاني هو غزوة بدر حيث صير فيها المؤمنون وانتقوا أسباب الهزيمة فنصرهم الله وأنجز لهم ما وعدهم لأنهم صبروا وانتقوا، فقتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين وغنموا غنائم طائلة قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ 5 أَذِلَّةٌ} فاتقوا الله بالعمل بطاعته، ومن ذلك

1 خرج الرسول صلى الله عليه وسلم بألف رجل من المدينة وفي أثناء مسيره، رجع ابن أبي بثلاثمائة رجع غاضباً، إذ كان يرى عدم قتال العدو خارج المدينة، فلم يطع في ذلك فغضب، ورجوعه هو الذي سبب الهم بالرجوع لني حارثة وبنى سلمة.

2 روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال فينا نزلت: { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا } قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة. وما أحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: { وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا }.

3 الذي رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشج وجهه: هو ابن قميئة، أقماه الله ولعنه. والذي أدمى شفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسر رباعيته: هو عتبة ابن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص.

4 وقتل حمزة: وحشي، كانت تحرضه على قتل حمزة: هند بنت عتبة، وتقول له: إيها أبا دسمة أشف واستشف (والدسمة: غبرة في سواد).

5 كانت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان يوم الجمعة، وكان جيش العدو بها ما بين التسعمائة إلى الألف، وجيش المسلمين ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، وغزوة بدر أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ترك اتخاذ بطانة من أعدائكم لتكونوا بذلك شاكرين نعم الله عليكم فيزيدكم، فذكر تعالى في هذا الموقف النصر؛ لأنه خير، فقال ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، ولم يقل في الموقف الأول، ولقد هزمكم الله بأحد وأنتم أعزة؛ لأنه تعالى حيي كريم فاكتفى بتذكيرهم بالغزوة فقط وهم يذكرون هزيمتهم فيها ويعلمون أسبابها وهي عدم الطاعة وقلة الصبر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فضيلة الصبر والتقوى وأنهما عدة الجهاد في الحياة.

2- استحسان التذكير بالنعم والنقم للعبارة والاعتاظ.

3- ولاية الله تعالى للعبد تقيه مصارع السوء، وتجنبه الأخطار.

4- تقوى الله تعالى بالعمل بأوامره واجتتاب نواهيه هي الشكر الواجب على العبد.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (124) بَلَىٰ إِنَّ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127)﴾

شرح الكلمات:

﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ : الاستفهام انكاري 1، أي: ينكر عدم الكفاية. ومعنى يكفيكم يسد حاجتكم.

1 ذهب بعض إلى أن الاستفهام هنا: تقريري؛ لأنه مجاب ببلى، وجائر أن يكون للاستفهام معنيان في آن واحد لدلالة اللفظ عليهما معاً. فتأمل!!.

﴿أَنْ يُدْعَكُمْ﴾ : أي: بالملائكة عوناً على قتال أعدائكم المتفوقين عليكم بالعدد والعتاد.
﴿الْمَلَائِكَةِ﴾ : واحداهم ملاك وهم عباد الله مكرمون مخلقون من نور لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿بَلَىٰ﴾ : حرف إجابة، أي: يكفيكم.

﴿مِن فُورِهِمْ 1 هَذَا﴾ : أي: من وجههم في وقتهم هذا.

{مُسَوِّمِينَ} : معلمين بعلامات تعرفونهم بها.
 {إِلَّا بُشِّرَى لَكُمْ} : البشرى: الخبر السار الذي يتهلل له الوجه بالبشر والطلاقة.
 {وَلِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ} : اطمئنان القلوب سكونها وذهاب الحروف والقلق عنها.
 {لِيَقْطَعَ طَرَفًا} : الطرف الطائفة، يريد ليهلك من جيش العدو طائفة.
 {أَوْ يَكْبِتَهُمْ} : أي: يخزيهم ويذلهم.
 {فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} : يرجعوا إلى ديارهم خائبين لم يحرزوا النصر الذي أملوه.
 معنى الآيات:

ما زال السياق في تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما تم لهم من النصر في موقف الصبر والتقوى في بدر فقال: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ 2} عندما بلغهم وهم حول المعركة أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين برجاله يقاتلون معهم فشق ذلك على أصحابه فقلت: {الآن يكفبكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين} أي: يكفيكم. {إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم 3 مِنْ قَوْرِهِمْ هَذَا} أي: من وجههم ووقتهم هذا {يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} بعلامات وإشارات خاصة بهم، ولما انهزم كرز قبل تحركه وقعد عن إمداد قريش بالمقاتلين لم يمد الله تعالى رسوله والمؤمنين بما ذكر من الملائكة فلم يزداهم على الألف التي أمداهم بها لما استغاثوه في أول المعركة جاء ذلك في سورة

1 الفور: مصدر فارت القدر فوراً واستعير للأولية مع السرعة في الحال بدون ببطء أو تأخر أو تراخ.

2 ذهب بعض المفسرين؛ كمجاهد، وعكرمة، وغيرهما أن قوله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} إلخ، كان يوم أحد فهو وعد لهم بالمدد المذكور من الملائكة على شرط الصبر والتقوى، فلما لم يصبروا ولم ينتقوا كما هو معلوم لم يمداهم بالعدد المذكور من الملائكة، وما ذهبنا إليه في التفسير أقرب إلى الواقع، والله أعلم.

3 أي: المشركون من أصحاب كرز.

(1/372)

الأنفال في قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبُّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} فهذه الألف هي التي نزلت فعلاً وقاتلت مع المؤمنين وشوهد ذلك وعلم به يقيناً، أما الوعد بالإمداد الأخير فلم يتم؛ لأنه كان مشروطاً بإمداد كرز لقريش فلما لم يمداهم، لم يمد الله تعالى المؤمنين، فقال تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ} أي: الإمداد المذكور {إِلَّا بُشِّرَى} للمؤمنين تطمئن له قلوبهم وتسكن له نفوسهم

فيزول القلق والاضطراب الناتج عن الخوف من إمداد كرز المشركين بالمقاتلين، ولذا قال تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [1] العزيز أي: الغالب، الحكيم الذي يضع النصر في موضعه فيعطيته مستحقه من أهل الصبر والتقوى {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} وقد فعل فأهلك من المشركين سبعين، أو يكتبهم أي: يخزيهم ويذلهم إذ أسر منهم سبعون، وانقلبوا خائبين لم يحققوا النصر الذي أرادوه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سبب هزيمة المسلمين في أحد وهو عدم صبرهم وإخلالهم بمبدأ التقوى إذ عصى الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلوا من الجبل يجرون وراء الغنيمة هذا على تفسير أن الوعد بالثلاثة آلاف وبالخمسة كان بأحد2، وكان الوعد مشروطاً بالصبر والتقوى فلما لم يصبروا ولم يتقوا لم يمددهم بالملائكة الذين ذكر لهم.

2- النصر وإن كانت له عوامله من كثرة العدد وقوة العدة فإنه بيد الله تعالى فقد ينصر الضعيف ويخذل القوى، فلذا وجب تحقيق ولاية الله تعالى أولاً قبل إعداد العدد. وتحقيق الولاية يكون بالإيمان والصبر والطاعة التامة لله ولرسوله ثم التوكل على الله عز وجل.

3- ثبوت قتال الملائكة مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر قتالاً حقيقياً؛ لأنهم نزلوا في صورة بشر يقاتلون على خيول، وعليهم شاراتهم وعلاماتهم. ولا يقولن قائل3: الملك الواحد يقدر على أن يهزم ملايين البشر، فكيف يعقل اشتراك ألف ملك في قتال المشركين وهم لا يزيدون عن الألف رجل، وذلك أن الله تعالى أنزلهم في صورة بشر4 فأصبحت صورتهم وقوتهم قوة

1 الحكيم: الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل دائماً على ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله.

2 وهو الراجح من قولي المفسرين: كابن جرير، وغيره.

3 قاله الأصم، كأنه فعلاً أصم فلم يسمع كلام الله تعالى، واسم هذا الأصم أبو بكر، وهو من أهل الاعتزال، وإذا فلا غرابة في إنكاره.

4 بدل لذلك قوله تعالى: {مُسُومِينَ} ، فالمسوم: ذو السمّة، أي: العلامة، و ذلك أن البطل المقاتل يجعل على رأسه أو على رأس فرسه ريشاً ملوناً يرمز به إلى أنه لا يخاف أن يعرفه عدوه حتى لا يسدد إليه سهامه.

البشر، ويدل على ذلك ويشهد له أن ملك الموت لما جاء موسى في صورة رجل يريد أن يقبض روحه ضربه موسى عليه السلام ففقأ عينه، وعاد إلى ربه تعالى ولم يقبض روح موسى عليهما معاً السلام. من رواية البخاري.

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132){

شرح الكلمات:

{الأمْرِ} : الشأن والمراد هنا توبة الله على الكافرين أو تعذيبهم.
رشيءٌ : شيء نكرة متوغلة في الإيهام. وأصل الشيء: ما يعلم ويخبر به.
{أو} : هنا بمعنى حتى، أي: فاصبر حتى يتوب عليهم أو يعذبهم.
{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} : أي: مالكاً وخلقاً وعبيداً يتصرف كيف يشاء ويحكم كما يريد.
{لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا} : لا مفهوم للأكل بل كل تصرف بالربا حرام سواء كان أكلاً أو شرباً أو لباساً.
{الرِّبَا 1} : لغة: الزيادة، وفي الشرع نوعان: ربا فضل وربا نسيئة، ربا الفضل: يكون في الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح فإذا بيع الجنس بمثله يحرم الفضل أي الزيادة ويحرم التأخير،

1 ربا البنوك اليوم شر من ربا الجاهلية هو: أن يبيع الرجل أخاه شيئاً إلى أجل فإذا حلَّ الأجل ولم يد سداداً قال له آخر وزد، أما ربا البنوك فإنه يبيعه نقداً بنقد إلى أجل بزيادة فورية يسجلها عليه.

(1/374)

وربا النسيئة: هو أن يكون على المرء دين إلى أجل فيحل الأجل ولم يجد سداداً لدينه فيقول له أخربي وزد في الدين.

{أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً} : لا مفهوم لهذا؛ لأنه خرج مخرج الغالب، إذ الدرهم الواحد حرام كالألف، وإنما كانوا في الجاهلية يؤخرون الدين ويزيدون مقابل التأخير حتى يتضاعف الدين فيصبح أضعافاً كثيرة.
{تُفْلِحُونَ} : تتجون من العذاب وتظفرون بالنعيم المقيم في الجنة.

{أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} : هيئت وأحضرت للمكذبين لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} : لترحموا فلا تُعذبوا بما صدر منكم من ذنب المعصية. معنى الآيات:

صح 1 أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد دعا على أفراد من المشركين بالعذاب، وقال يوم أحد لما شج رأسه وكسرت ربا عيته: "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيه م؟" فأنزل الله تعالى عليه قوله:

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} أي: فاصبر حتى يتوب² الله تعالى عليهم أو يعذبهم بظلمهم فإنهم ظالمون والله ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً يتصرف كيف يشاء ويحكم ما يريد فإن عذب فبعده، وإن رحم فبفضله، وهو الغفور لمن تاب الرحيم بمن أناب.

هذا ما تضمنته الآيات الأولى (128) والثانية (129) وأما الآية الثالثة (130) فإن الله تعالى نادى عباده المؤمنين بعد أن خرجوا من الجاهلية ودخلوا في الإسلام بأن يتركوا أكل الربا وكل تعامل به فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أي: بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً {لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا} إذ كان الرجل يكون عليه دين ويحل أجله ولم يجد ما يسدد به فيأتي إلى دائنه ويقول آخر ديني³ وزد عليّ وهكذا للمرة الثانية والثالثة حتى يصبح الدين بعد ما كان عشرًا عشرين وثلاثين. وهذا معنى قوله: {أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً} ، ثم أمرهم بتقواه عز وجل

- 1 رواه مسلم، وهذا نص الحديث: "لما كسرت رباعية الرسول صلى اله عليه وسلم وشج في رأسه فجعل يسלט الدم عنه، ويقول كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته "سنة الأمامية" وهو يدعوهم إلى الله تعالى فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} الآية.
- 2 لما نزلت الآية وفيها: {أو يتوب عليهم} وهي تحمل إطماعه صلى الله عليه وسلم في إسلامهم قال: " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" ، روى مسلم عن ابن مسعود قوله: "كأنني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".
- 3 هذا إن كان الطالب التاجر المدين أما إن كان المطالب هو الدائن فإنه يقول له: أتقضي أم تُربي؟.

(1/375)

وواعدهم بالفلاح فقال عز وجل: {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي: كي تفلحوا بالنجاة من العذاب والحصول على الثواب وهو الجنة.

وفي الآية الرابعة (131) أمرهم تعالى باتقاء النار التي أعدها للكافرين فهي مهينة محضرة لهم، واتقواها يكون بطاعته تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} ، أي: المكذبين بالله ورسوله فلذا لم يعلموا بطاعتهما لأن التكذيب مانع من الطاعة، وفي الآية الأخيرة (132) أمرهم تعالى بطاعته وطاعة رسوله وودعهم على ذلك بالرحمة في الدنيا والآخرة وكأنه يشير² إلى الذين عصوا رسول الله في أحد وهم الرماة الذين تخلوا عن مراكزهم الدفاعية فتسبب عن ذلك هزيمة المؤمنين أسوأ هزيمة فقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ} أي: كي يرحمكم فيتوب عليكم ويغفر لكم ويدخلكم دار السلام والنعيم المقيم.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- استنقال الرب تعالى بالأمر كله فليس لأحد من خلقه تصرف في شيء إلا ما أذن فيه للعبد.
- 2- الظلم مستوجب للعذاب ما لم يتدارك الرب العبد بتوبة فيتوب ويغفر له ويعفو عنه.
- 3- حرمة أكل الربا مطلقاً مضاعفاً كان أو غير مضاعف.
- 4- بيان الجاهلية إذ هو هذا الذي نهى الله تعالى عنه بقوله: {لا تَأْكُلُوا الرِّبَا} .
- 5- وجوب التقوى لمن أراد الفلاح في الدنيا والآخرة.
- 6- وجوب اتقاء النار ولو بشق تمرة3.
- 7- وجوب طاعة الله ورسوله للحصول على الرحمة الإلهية وهي العفو والمغفرة ودخول الجنة.

- 1 في الآية إشارة واضحة إلى أن مستحل الربا يكفر به ويستحق عذاب النار.
- 2 وعليه فآية تحريم الربا هي: معترضة في سياق الحديث عن غزوة بدر وأحد وفي هذا الاعتراض جماله وحسن وقعه في النفوس، ومن فوائده دفع السامة عن السامع، إذا استمر الكلام في موضوع واحد.
- 3 حديث: "اتقوا النار ولو بشق تمرة" رواه البخاري في صحيحه ورواه غيره.

(1/376)

لَوْ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ فَلَا يَمُوتُ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتُوبُونَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (135) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)

شرح الكلمات:

- {لَوْ سَارِعُوا} : المسارعة إلى الشيء المبادرة إليه بدون توانٍ ولا تراخ.
- {إِلَى مَغْفِرَةٍ} : المغفرة: ستر الذنوب وعدم المؤاخذه بها. والمراد هنا: المسارعة إلى التوبة بترك الذنوب، وكثرة الاستغفار وفي الحديث: "ما من رجل يذنب ذنباً ثم يتوضأ ثم يصلي ويستغفر الله إلا غفر له" 2.

{وَجَنَّةٍ} : الجنة دار النعيم فوق السموات، والمسارعة إليها تكون بالإكثار من الصالحات.

{أَعَدَّتْ}: هيئت وأحضرت فهي موجودة الآن مهياً.

{الْمُتَّقِينَ}: المتقون هم الذين اتقوا الله تعالى فلم يعصوه بترك واجب ولا

- 1 قرئ في السبع: {سارعوا} بدون واو، وهي قراءة ورش عن نافع.
- 2 أخرجه الطبراني عن علي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

(1/377)

بفعل محرم، وإن حدث منهم ذنب تابوا منه فوراً.

{فِي السَّرَّاءِ 1 وَالضَّرَّاءِ}: السراء: الحال المسرة وهي اليسر والغنى، والضراء: الحال المضرة وهي الفقر.

{وَالْكَاطِمِينَ 2 الْغَيْظِ}: كظم الغيظ: حبسه، والغيظ: ألم نفسي يحدث إذا أؤذي المرء في بدنه أو عرضه أو ماله، وحبس الغيظ: عدم إظهاره على الجوارح بسبب أو ضرب ونحوهما للتشفي والانتقام.

{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}: العفو عدم المؤاخظة للمسيء مع القدرة على ذلك.

{يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}: المحسنون هم الذين يبرون ولا يسيئون في قول أو عمل.

{فَاقِحَةً}: الفاحشة: الفعلة القبيحة الشديدة القبح؛ كالزنى وكبائر الذنوب.

{أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}: بترك واجب أو فعل محرم فدنسوها بذلك فكان هذا ظلماً لها.

{وَلَمْ يُصِرُّوا 3}: أي: يسارعون إلى التوبة، لأن الإصرار هو الشد على الشيء والربط عليه مأخوذ من الصر، والصرة معروفة.

{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}: أي: أنهم مخالفون للشرع بتركهم ما أوجب، أو بفعلهم ما حرم.

{وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}: الذي هو الجنة.

معنى الآيات:

لما نادى الله تعالى المؤمنين ناهياً لهم عن أكل الربا أمراً لهم بتقواه عز وجل، وابتقاء النار وذلك بترك الربا وترك سائر المعاصي الموجبة لعذاب الله تعالى، ودعاهم إلى طاعته وطاعة رسوله كي يرحموا في دنياهم وأخراهم. أمرهم في الآية الأولى (133) بالمسارعة إلى شئئين

- 1 قيل في السراء والضراء: الرخاء والشدة، وقيل، في السراء: العرس والولائم، والضراء: النوائب والمآتم. وما فسرنا به الآية أعم وأحسن.
- 2 يقول كضمت السقاء، أي: ملأته وسدت عليه، والكضامة: ما يسد به السقاء.
- 3 ذكر القرطبي هنا مسألة، وهي: من وطن نفسه على فعل ذنب فإنه يؤاخذ به، ولو لم يفعله لعجز

قام به وهو مصر على فعله، واستشهد بقوله تعالى: {وَعَدُوا عَلَىٰ حَزْدٍ قَادِرِينَ} يعني: أصحاب الجنة الذين عزموا على قطع ثمارها، دون إعطاء المساكين منها، كما استشهد بحديث: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". وكلامه في الجملة صحيح ولكن من ترك ما أصر عليه خوفاً من الله تعالى سيكتب له حسنة لحديث: "من هم بسيئة فلم يعملها كتب له عند الله حسنة".

(1/378)

الأول مغفرة ذنوبهم وذلك بالتوبة النصوح، والثاني دخول الجنة التي وصفها لهم، وقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} أي: أحضرت وهيت للمتقين والمساورة إلى الجنة هي المساورة إلى موجبات دخولها، وهي الإيمان والعمل الصالح إذ بهما تزكوا الروح وتطيب فتكون أهلاً لدخول الجنة.

هذا ما تضمنته الآية الأولى، وأما الآيتان الثانية والثالثة (135) فقد تضمنتا صفات المتقين الذين أعدت لهم الجنة دار السلام فقوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ} هذا وصف لهم بكثرة الإنفاق في سبيل الله، وفي كل أحايينهم من غنى وفقر وعسر ويسر، وقوله: {وَالكَاظِمِينَ 2 العِيظُ} وصف لهم بالحلم والكرم النفسي، وقوله: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} وصف لهم بالصفح والتجاوز عن زلات الآخرين تكراً، وفعلهم هذا إحسان ظاهر ومن هنا بشرنا بحب الله تعالى لهم فقال تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} كما هو تشجيع على الإحسان وملازمته في القول والعمل وقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} وصف لهم بملازمة ذكر الله وعدم الغفلة، ولذا إذا فعلوا فاحشة ذنباً كبيراً أو ظلموا أنفسهم بذنب⁴ دون الفاحش ذكروا وعيد الله تعالى ونهيه علماً فعلوا، فبادروا إلى التوبة وهي الإقلاع عن الذنب والندم عن الفعل والعزم على عدم العودة إليه، واستغفار الله تعالى منه. وقوله تعالى: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ 5} وصف لهم بعدم الإصرار، أي: المواظبة على الذنب وعدم تركه وهم يعلمون أنه ذنب ناتج عن تركهم لواجب أو فعلهم محرماً، وأما الآية الرابعة (136) فقد تضمنت بأن جزائهم على إيمانهم وتقواهم وما اتصفوا به من كمالات نفسية، وطهارة روحية ألا وهو مغفرة ذنوبهم، كل ذنوبهم

1 ذكر العرض ولم يذكر الطول لأن الطول لا يدل على العرض، أما العرض فإنه يدل على الطول: فطول كل شيء بحسب عرضه، وعرض السموات معناه بعرض السموات، فلو أخذت السموات سماء بعد سماء، والأرضون وألصقت ببعضها كان عرض الجنة كذلك، هذا الذي عليه أهل التفسير من السلف. قال الزهري: "أما طولها فلا يعلمه إلا الله".

2 ورد في كظم الغيظ أحاديث منها: "ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند

الغضب" .

3 ورد في فضل العفو أحاديث كثيرة منها: "من سر أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعفو عن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه" . رواه الحاكم وصححه. ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله" .

4 في الصحيحين، قال عثمان: أنه توضع لهم وضوء النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من توضع نحو وضوئي هذا ثم لا صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه" .

5 أي: أن من تاب تاب الله عليه. هكذا روي عن مجاهد ولا يتنافى مع ما فسرنا به الآية، وورد "ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة" .

(1/379)

وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومدح المنان عز وجل ما جازاهم به من المغفرة والخلود في الجنة ذات النعيم المقيم، فقال: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب تعجيل التوبة وعدم التسويف فيها لقوله تعالى: {وَسَارِعُوا} .
- 2- سعة الجنة، وأنها مخلوقة الآن لقوله تعالى: {أُعِدَّتْ} .
- 3- المتقون هم أهل الجنة وورثتها بحق.
- 4- فضل استمرار الإنفاق في سبيل الله، ولو بالقليل.
- 5- فضيلة خلة كظم الغيظ بترك المبادرة إلى التثفي والانتقام.
- 6- فضل العفو عن الناس مطلقاً مؤمنهم وكافرهم، بارهم وفاجرهم.
- 7- فضيلة الاستغفار وترك الإصرار على المعصية للآية والحديث: " ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة" . رواه الترمذي وأبو داود وحسنه ابن كثير.

إِذْ خَلَقْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141){

1 روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ما دامت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فأجاب قائلاً: "سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار". قال حيث شاء الله تعالى. قال: "وكذلك النار تكون حيث شاء الله تعالى". رواه البزار مرفوعاً، وما دل عليه الكتاب والسنة: أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن، وأن النار في أسفل سافلين ولا منافاة بينهما أبداً.

(1/380)

شرح الكلمات:

{قَدْ خَلَتْ} : خلت: مضت.

{سُنُّنٌ 1} : جمع سنة، وهي السيرة والطريقة التي يكون عليها الفرد أو الجماعة، وسنن الله تعالى في خلقه قانونه الماضي في الخلق.

{فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} : الأمر للإرشاد، للوقوف على ديار الهالكين الغابرين لتعتبروا.

{عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} : عاقبة أمرهم، وهي ما حل بهم من الدمار والخسار كعاد وثمرود.

{هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ} : أي: ما ذكر في الآيات بيان للناس به يتبينون الهدى من الضلال وما لزمهما من الفلاح، والخسران.

{وَمَوْعِظَةٌ} : الموعظة: الحال التي يتعظ بها المؤمن فيسلك سبيل النجاة.

{وَلَا تَهِنُوا} : لا تضعفوا.

{اقْرَحْ} : القرح: أثر السلاح في الجسم؛ كالجرح، وتضم القاف فيكون بمعنى الألم.

{الْأَيَّامُ 2} : جمع يوم والليالي معها، والمراد بها ما يجريه الله من تصاريف الحياة من خير وغيره، وإعزاز وإذلال.

{شُهُدَاءُ 3} : جمع شهيد وهو المقتول في سبيل الله، وشاهد: وهو من يشهد على غيره.

{وَلِيْمِحَّصٌ} : ليخلص المؤمنين من أدران المخالفات وأوضار الذنوب.

{وَيَمْحَقُ} : يمحو 4 ويذهب آثار الكفر والكافرين. معنى الآيات:

لما حدث ما حدث من انكسار المؤمنين بسبب عدم الصبر، والطاعة اللازمة للقيادة ذكر تعالى تلك الأحداث مقرونة بفتحها لتبقى هدى موعظة للمتقين من المؤمنين وبدأها بقوله:

1 السنة: الطريق المستقيم، يقال: فلان على السنة، أي: على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء، وكل من يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على الطريق المستقيم الذي لا يميل بصاحبه إلا الأهواء والمبتدعات.

2 تداولها بين الناس فرح وغم وصحة وسقم وفقر وانتصار وانكسار والدولة الكرة ومنه قول الشاعر:

فيوم لنا ويوم علينا ... ويوماً نساءً ويوماً نسر

3 سمي القتل في سبيل الله: شهيداً؛ لأنه الحاضر للجنة ومشهود له بها، ومن فضل الشهيد أن لا يجد من ألم القتل إلا كما يجده الإنسان في القرحة لا غير.

4 قال ابن كثير في: {ويمحق الكافرين} أي: فإنهم إذا ظفروا بغواً ويطروا ويكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحققهم وفنائهم.

(1/381)

قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} فأخبر تعالى المؤمنين بأن سننه قد مضت فيمن قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، فقد أرسل الله تعالى إليهم رسله فكذبوهم فأمضى تعالى سننه فيهم فأهلك المكذبين وأنجى المؤمنين بعد ما نالهم من أذى المكذبين ، وستمضي سننه اليوم كذلك، فينجيكم وينصركم ويهلك المكذبين أعداءكم. وإن ارتبتم فسيروا في الأرض وقفوا على آثار الهالكين، وانظروا كيف كانت عاقبتهم، ثم قال تعالى: هذا الذي ذكرت في هذه الآيات بيان للناس يتبينون به الحق من الباطل والهدى من الضلال، وهدى يهتدون به إلى سبيل السلام وموعظة يتعظ بها المتقون لاستعدادهم بإيمانهم وتقواهم للاتعاظ فيطيعون الله ورسوله فينجون ويفلحون هذا ما تضمنته الآيات الأولى (137) والثانية (138) وأما الآيات الثالثة (139) والرابعة (140) فقد تضمنتا تعزية الرب تعالى للمؤمنين فيما أصابهم يوم أحد، إذ قال تعالى مخاطباً لهم {وَلَا تَهِنُوا} أي: لا تضعفوا فتعدوا عن الجهاد والعمل، ولا تحزنوا على ما فاتكم من رجالكم، {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} أي: الغالبون لأعدائكم المنتصرون عليهم، وذلك فيما مضى وفيما هو آتٍ مستقبلاً بشرط إيمانكم وتقواكم واعلموا أنه إن يمسسكم قرح بموت أو جراحات لا ينبغي أن يكون ذلك موهناً لكم قاعداً بكم عن مواصلة الجهاد فإن عدوكم قد مسه قرح مثله، وذلك في معركة بدر، والحرب سجال يوم لكم ويوم عليكم وهي سنة من سنن ربكم في الحياة. هذا معنى قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} ، ثم بعد هذا العزاء الكريم الحكيم ذكر تعالى لهم علة هذا الحدث الجلل، والسر فيه وقال: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} أي: ليظهر بهذا الحادث المؤلم إيمان المؤمنين وفعالاً فالمنافقون رجعوا من الطريق بزعامة رئيسهم المنافق الأكبر عبد الله بن أبي بن سلول، والمؤمنون واصلوا سيرهم وخاضوا معركتهم فظهر إيمانكم واتخذ الله منهم شهداء، وكانوا نحواً من سبعين شهيداً منهم أربعة من المهاجرين وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومصعب بن عمير 2 والباقيون من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين. وقوله تعالى: {وَلِيُمَحِّصَ 3 اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: أوجد هذا الذي أوجده في أحد من جهاد وانكسار تخليصاً

- 1 أي: بإقدامكم أو بأفهامكم، وعقولكم.
- 2 وعبد الله بن جحش ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعثمان بن شماس.
- 3 اصل التمحيص: تخليص الشيء من كل عيب، يقال: محصت الذهب؛ إذا أزلت خبثه.

(1/382)

للمؤمنين من ذنوبهم وتطهيراً لهم ليصفوا الصفاء الكامل، ويمحق الكافرين بإذهابهم وإنهاء وجودهم. إن هذا الدرس نفع المؤمنين فيما بعد فلم يخرجوا من طاعة نبيهم، وبذلك توالى انتصاراتهم حتى أذهبوا ريح الكفر والكافرين من كل أرض الجزيرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عاقبة المكذابين بدعوة الحق الخسار والوبال.
 - 2- في آي القرآن الهدى والبيان والمواعظ لمن كان من أهل الإيمان والتقوى.
 - 3- أهل الإيمان هم الأعلون في الدنيا والآخرة.
 - 4- الحياة دول وتارات فليقابلها المؤمن بالشكر والصبر.
 - 5- الفتن تمحص الرجال، وتودي بحياة العاجزين الجزعين.
- {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ

1 وخارج الجزيرة، فالفتوحات التي فتحها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغرب والشرق لم يفتحها غيرهم ممن جاء بعدهم من التابعين ولا من غيرهم، وهو إنجاز وعد الله تعالى في قوله: {وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ} أي: الغالبون القاهرون.

(1/383)

ثَوَابِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)}

شرح الكلمات:

{أَمْ حَسِبْتُمْ} : بل أظننتم فلا ينبغي أن تظنوا هذا الظن فالاستفهام إنكاري.
{وَلَمَّا يَعْلَم} : ولم يبتلكم بالجهاد حتى يعلم علم ظهور 1 من يجاهد منكم ممن لا يجاهد كما هو عالم به في باطن الأمر وخفيه.

{خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ} : أي مضت من قبله الرسل بلغوا رسالتهم وماتوا.
{أَفَإِنْ مَاتَ 2 أَوْ قُتِلَ} : ينكر تعالى على من قال عندما أشيع أن النبي قتل: "هيا بنا نرجع إلى دين قومنا"، فالاستفهام منصب على قوله: { انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ} لا على فإن مات أو قتل، وإن دخل عليها.

{انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ} : رجعتم عن الإسلام إلى الكفر.
{كِتَابًا مُّوجَّلاً 3} : كتب تعالى آجل الناس مؤقتة يموأقيتها فلا تتقدم ولا تتأخر.
{ثَوَابَ الدُّنْيَا} : الثواب: الجزاء على النية والعمل معاً، وثواب الدنيا الرزق و ثواب الآخرة الجنة.
{الشَّاكِرِينَ} : الذين ثبتوا على إسلامهم فاعتبر ثباتهم شكراً لله، وما يجزيهم به هو الجنة ذات النعيم المقيم، وذلك بعد موتهم.

1 أي: علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء بحسب الظاهر المشاهد للناس.
2 مات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين في وقت دخوله المدينة مهاجراً وذلك ضحى حين اشتد الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء أول ليلة الأربعاء، قال أنس: لما كان اليوم الذي دخل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، ولما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من دفن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا.
3 {كِتَابًا} : منصوب على المصدر، أي: كتب ذلك كتاباً، ومؤجلاً: نعت.

(1/384)

معنى الآيات:

ما زال السياق متعلقاً بغزوة أحد فأنكر تعالى على المؤمنين ظنهم أنهم بمجرد إيمانهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا بالجهاد والشدائد تمحيصاً لهم وإظهاراً للصادقين منهم في دعوى الإيمان والكاذبين فيها، كما يظهر الصابرين الثابتين والجزعين المرتدين فقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} ثم عابهم تعالى على قلة صبرهم وانهزامهم في المعركة مذكراً إياهم بتمنيات الذين لم يحضروا وقعة بدر، وفاتهم فيها ما حازه من حضرها من الأجر والغنيمة بأنهم إذا قُدر لهم قتال في يوم ما من الأيام يبيلون فيه البلاء الحسن فلما قدر تعالى ذلك لهم في وقعة أحد جزعوا وما صبروا وفروا منهزمين فقال تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ 1 مِنْ قَبْلِ

أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} أي: فلما انهزمتم وما وفيتم ما واعدتم أنفسكم به؟ هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (142) والثانية (143)، وأما الآية الثالثة (144) فقد تضمنت عتاباً شديداً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما اشتدت المعركة وحمي وطيسها واستحر القتل في المؤمنين نتيجة خلو ظهورهم من الرماة الذين كانوا يحمونهم من ورائهم وضرب ابن قميئة -أقماه الله- رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر في وجهه فشجه وكسر رباعيته، وأعلن أنه قتل محمداً فانكشف المسلمون وانهزموا، وقال من قال منهم لم نقاتل وقد مات رسول الله، وقال بعض المنافقين نبعت إلى ابن أبي رئيس المنافقين يأتي يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان، ونعود إلى دين قومنا!! فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وما دام رسولاً كغيره من الرسل، وقد مات الرسل قبله فلم ينكر موته، أو يندهش له إذا؟ بعد تقرير هذه الحقيقة العلمية الثابتة أنكر تعالى بشدة على أولئك الذين سمعوا صرخة إبليس في المعركة "قتل محمد" ففروا هاربين إلى المدينة، ومنهم من أعلن رده في صراحة وهم المنافقون، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فعاتبهم

1 وكان منهم من وفي بما وعد وقاتل حتى استشهد، وهو: أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، فإنه لما رأى المسلمين قد انكشوا قال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء" وياشر القتال وهو يقول: إني لأجد ريح الجنة، ولما قتل وجد به أكثر من ثمانين ضربة وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

2 لما قبض صلى الله عليه وسلم قام عمر في الناس وقال: "أن الرسول لم يموت ولن يموت حتى يقطع أيدي وأرجل أقوام" وكان في دهشة عظيمة حتى جاء أبو بكر من العوالي فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجي فكشف الغطاء عن وجهه وقبلة بين عينيه ثم خرج فسمع ما قال عمر فرقي المبرر وقال: "من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" وقرئ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية. فرجع عمر إلى رشده واعترف بموت نبيه وبكاه.

(1/385)

منكراً على المنهزمين والمرتدين من المنافقين ردتهم، وأعلمهم أن ارتداد من ارتد أو يرتد لن يضر الله تعالى شيئاً، فالله غني عن إيمانهم ونصرهم، وأنه تعالى سيجزي الثابتين على إيمانهم وطاعة ربهم ورسوله صلى الله عليه وسلم وسيجزئهم دنيا وآخرة بأعظم الأجور وأحسن المثوبات. هذا ما تضمنته الآية الثالثة أما الرابعة (145) فقد تضمنت حقيقتين علميتين:

الأولى: أن موت الإنسان متوقف حصوله على إذن الله خالقه ومالكة فلا يموت أحد بدون علم الله تعالى بذلك فلم يكن لملك الموت أن يقبض روح إنسان قبل إذن الله تعالى له بذلك، وشي آخر وهو أن موت كل إنسان قد ضبط تاريخ وفاته باللحظة فضلاً عن اليوم والساعة، وذلك في كتاب 1 خاص، فليس من الممكن أن يتقدم أجل إنسان أو يتأخر بحال من الأحوال، هذه حقيقة يجب أن تعلم، من قول الله تعالى: { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا }.
والثانية: أن من دخل المعركة يقاتل باسم الله فإن كان يريد بقتاله ثواب الدنيا فالله عز وجل يؤتيه من الدنيا ما قدره له، وليس له من ثواب الآخرة شيء، وإن كان يريد ثواب الآخرة لا غير، فالله عز وجل يعطيه في الدنيا ما كتب له ويعطيه ثواب الآخرة وهو الجنة وما فيها من نعيم مقيم وأن الله تعالى سيجزي الشاكرين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذه الحقيقة التي تضمنها قوله تعالى: { وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الابتلاء بالتكاليف الشرعية الصعبة منها والسهلة من ضروريات الإيمان.
- 2- تقرير رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبشريته المفضلة، وموته المؤلمة 2 لكل مؤمن 3.

1 هو كتاب المقادير: اللوح المحفوظ.

2 رثت صفة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الله بآيات دلت على مدى ما أصاب

المؤمنين من حزن وألم بفرار نبيهم نذكر منها ثلاث أبيات، وهي:

أفطم صلى الله رب محمد ... على حدث أمسى بيثرب ثاوريا

فدى لرسول الله أمني وخالتي ... وعمي وآبائي ونفسي وماليا

قلو أن رب الناس أبقى نبياً ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا

3 إن قيل لم تأخر دفن النبي صلى الله عليه وسلم يومين، وهو القائل: "عجلوا دفن جيفتكم ولا

تؤخرهوها". والجواب كان ذلك لأمر: أولاً: اختلافهم في المكان الذي يدفنه فيه، حتى أخبرهم

الصديق بأنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما دفن نبي إلا حيث يموت". ثانياً: اختلافهم في تعيين

ال خليفة للأهمية

3- الجهاد وخوض المعارك لا يقدم أجل العبد، والفرار من الجهاد لا يؤخره أيضاً.

4- ثواب الأعمال موقوف على نية العاملين وحسن قصدهم.

5- فضيلة الشكر بالثبات على الإيمان والطاعة لله ورسوله في الأمر والنهي.

{وَكَايِّنُ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (146) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (147) فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (148)

شرح الكلمات:

{وَكَايِّنُ 1 مِنْ نَبِيِّ} : كثير من الأنبياء. وتفسر: كأين بكم وتكون حينئذ للتكثير.

{رَبِّيُونَ 2} : ربايون علماء وصلحاء وأتقياء عابدون.

{فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ} : ما ضعفوا عن القتال ولا انهزموا لأجل ما أصابهم من قتل وجراحات.

{وَمَا اسْتَكَانُوا} : ما خضعوا ولا ذلوا لعدوهم.

الإسراف : مجاوزة الحد في الأمور ذات الحدود التي أن يوقف عندها.

{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا} : أعطاهم الله تعالى ثواب الدنيا النصر والغنيمة.

{الْمُحْسِنِينَ} : الذين يحسنون نياتهم فيخلصون أعمالهم لله، ويحسنون أعمالهم فيأتون بها موافقة لما

شرعت عليه في كفياتها وأعدادها وأوقاتها.

1 قال الخليل: "وكأين أصلها، أي: دخلت عليها كاف التشبيه، وبنيت معها فصارت مثل: كم للدلالة على التكثير، وفيها لغات منها: كائن، وقرأ بها ابن كثير، وكئن، وقرأ بها ابن محيصن، وكأين، وبها قرأ الجمهور.

2 في الربيين ثلاث لغات: كسر الراء وضمها وفتحها، وهم الجماعة الكثيرة. والواحد: ربي، بكسر

الراء وضمها أيضاً، وما ذكرناه في التفسير هو الحق.

(1/387)

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أحداث غزوة أحد فذكر تعالى هنا ما هو في تمام عتابه للمؤمنين في الآيات السابقة عن عدم صبرهم وانهزامهم وتخليهم عن نبيهم في وسط المعركة وحده حتى ناداهم: إليّ عباد الله إليّ عباد الله فتاب إليه رجال. فقال تعالى مخبراً بما يكون عظة للمؤمنين وعبرة لهم: {وَكَايِّنُ مِنْ نَبِيِّ} أي: وكم من نبي من الأنبياء السابقين قاتل معه جموع كثيرة من العلماء والأتقياء

والصالحين فما وهنوا، أي: ما ضعفوا، ولا ذلوا لعدوهم ولا خضعوا له كما هم بعضهم أن يفعل أيها المؤمنون، فصبروا على القتال مع أنبيائهم متحملين آلام القتل والجرح فأحبهم ربهم تعالى لذلك لأنه يحب الصابرين.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (146) ونصها: ﴿وَكَايِّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ و أما الآية الثانية فأخبر تعالى فيها عن موقف أولئك الربييين وحالهم أثناء الجهاد في سبيله تعالى فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ . ولازم هذا كأنه تعالى يقول للمؤمنين لم لا تكونوا أنتم مثلهم وتقولوا قولتهم الحسنة الكريمة وهي الضراعة لله تعالى بدعائه واستغفاره لذنوبهم الصغيرة والكبيرة والتي كثيراً ما تكون سبباً للهزائم والانتكاسات كما حصل لكم أيها المؤمنون فلم يكن لأولئك الربيانيين من قول سوى قولهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فسألوا الله مغفرة ذنوبهم وتثبيتهم أقدامهم في أرض المعركة حتى لا يتزلزلوا فينهزموا، والنصرة على القوم الكافرين أعداء الله وأعدائهم فاستجاب لهم ربهم فأعطاهم ما سألوا وهو ثواب الدنيا بالنصر والتمكين وحسن ثواب الآخرة وهو رضوانه الذي أحله عليهم وهم في الجنة دار المتقين والأبرار، هذا ما دلت عليه الآية الأخيرة (148) ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

- 1 استكان: مشتق من السكون لأن الذليل العاجز يسكن لمن خضع له، ولا يتحرك ليدفع عنه الأذى وما ناله من عدوه الغالب له.
- 2 أخرج مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهذا الدعاء: "اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني" وهو دعاء تواضع منه عظيم.
- 3 في حسن الثواب والمحسنين جناس تام، والجملة تذييلية تحمل البشرى للقوم المحسنين في قتالهم ولقاء أعدائهم مع إحسانهم في عبادة ربهم وسواء منها القلبية والبدنية.

(1/388)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الترغيب في الاتساء 1 بالصالحين في إيمانهم وجهادهم وصبرهم وحسن أقوالهم.
- 2- فضيلة الصبر والإحسان، يحب الله تعالى الصابرين والمحسنين.

3- فضيلة الاشتغال بالذكر 2 والدعاء عند المصائب والشدائد بدل التأوهات وإبداء التحسرات والتمنيات، وشر من ذلك التصخت والتضجر والبكاء والعيول.

4- كرم الله تعالى المتجلي في استجابة دعاء عباده الصابرين المحسنين.

لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150) سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151){

شرح الكلمات:

{إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا}: المراد من طاعة الكافرين قبول قولهم والأخذ بإرشاداتهم.

{يُرَدُّكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ}: يرجعوكم إلى الكفر بعد الإيمان.

{خَاسِرِينَ}: فاقدين لكل خير في الدنيا، ولأنفسكم وأهلكم يوم القيامة.

1 شاهده أن الله تعالى جعل لنا رسوله بعد أن كمله وعصمه، جعله لنا أسوة يأتسي بفعاله وأخلاقه وأحواله المؤمنون المتقون والعالمون الصابرون.

2 شاهده ما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، الصلاة أكبر مظهر لذكر الله تعالى، ومن الذكر المشروع عند المصائب قول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(1/389)

{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ}: بل أطيعوا الله ربكم ووليكم ومولاكم فإنه خير من يطاع وأحق من يطاع.

{الرُّعْبَ}: شدة الخوف من توقع الهزيمة والمكروه.

{وَمَاوَاهُمْ}: مقر إيوائهم ونزولهم.

{مَثْوَى}: المثنوى مكان الثوى، وهو الإقامة والاستقرار.

{الظَّالِمِينَ}: المشركين الذين أطاعوا غير الله تعالى وعبدوا سواه. معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث 1 غزوة أحد، فقد روى أن بعض المنافقين لما رأى هزيمة المؤمنين في

أحد، قال في المؤمنين ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم، ولو كان محمد نبياً لما قتل إلى آخر ما من شأنه

أن يقال في تلك الساعة الصعبة من الاقتراحات التي قد كشف عنها هذا النداء الإلهي للمؤمنين،

وهو يحذرهم من طاعة الكافرين بقوله عز وجل: لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّكُمْ

عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانقَلِبُوا خَاسِرِينَ} فلا شك أن الكافرين قد طالبوا المؤمنين بطاعته بتنفيذ بعض

الاقتراحات التي ظاهرها النصح وباطنها الغش والخديعة، فنهاهم الله تعالى عن طاعتهم في ذلك

وهذا النهي وإن نزل في حالة خاصة، فإنه عام في المسلمين على مدى الحياة، فلا يحل طاعة

الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم وفي كل ما يأمر به أو يقترحونه، ومن أطاعهم ردوه عن دينه إلى دينهم فينقلب: يرجع خاسراً في دنياه وآخرته، والعياذ بالله. هذا ما تضمنته الأولى (149) وأما الآية الثانية (150) فقد تضمنت الأمر بطاعته تعالى، إذ هو أولى بذلك لأنه ربهم ووليهم ومولاهم، فهو أحق بطاعتهم من الكافرين، فقال تعالى: {بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ} فأتبعوه، ولا تطيعوا أعداءه وإن أردتم أن تطلبوا النصر بطاعة الكافرين فإن الله تعالى خير الناصرين فاطلبوا النصر منه بطاعته فإنه ينصركم، وفي الآية الثالثة (151) لما امتثل المؤمنون أمر ربهم فلم يطيعوا

- 1 لفظ الكافرين شامل لكل ما أولت الآية به من المشركين والمنافقين واليهود، وهذا أمر لا ينكر فإن طاعة الكافرين لا تقضي بمن أطاعهم إلا إلى الخيبة والخسران في الدارين.
- 2 وجه المناسبة هو أنه لما أمر تعالى المؤمنين بالإقتداء بالصالحين من أتباع الأنبياء، وذلك بالصبر والاحتساب حذرهم في هذه الآيات من اتباع الكافرين وقبول ما يطلبون ويقترحونه عليه فإنه مفضي بهم إلى الكفر أولاً ثم إلى الإثم والخسران ثانياً.
- 3 قرئ بنصب اسم الجلالة، ويكون معمولاً لفعل مقدر وتقديره: بل أطيعوا الله مولاكم فهو أحق بطاعته من الكافرين والمنافقين، وفي هذا رد على من قال ساعة الهزيمة: لو كلمنا ابن أبي يأخذ لنا أمناً من أبي سفيان.

(1/390)

الكافرين وعدهم ربهم سبحانه وتعالى بأنه سيلقي في قلوب الكافرين الرعب 1 وهو الخوف والفرع والهلع حتى تتمكنوا من قتالهم والتغلب عليهم وذلك هو النصر المنشود منكم، وعلل تعالى فعله ذلك بالكافرين بأنهم أشركوا به تعالى آلهة عبدها معه لم ينزل بعبادتها حجة ولا سلطاناً، وقال تعالى: {سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا} وأخيراً ماوهم النار، أي: محل إقامتهم النار، ودم تعالى الإقامة في النار فقال: {وَمَا أُوهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} ، يريد النار بئس المقام للظالمين وهم المشركون 2.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تحريم طاعة الكافرين في حال الاختيار 3.
- 2- بيان السر في تحريم طاعة الكافرين، وهو أنه يترتب عليها الردة. والعياذ بالله.
- 3- بيان قاعدة من طلب النصر من غير الله أدله الله.
- 4- وعد الله المؤمنين بنصرهم بعد إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، إذ هم أبو سفيان بالعودة إلى

المدينة بعد انصرافه من أحد ليقضي عمن بقى في المدينة من الرجال، كذا سولت له نفسه، ثم ألقى الله تعالى في قلبه الرعب فعدل عن الموضوع بتدبير الله تعالى.

5- بطلان كل دعوى ما لم يكن لأصحابها حجة وهي المعبر عنها بالسلطان4 في الآية إذ الحجة يثبت بها الحق وبناله صاحبه بواسطتها.

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أُرَاكُمُ

1 الرعب بإسكان العين وطمسها الخوف الذي يملأ النفس خوفاً، لأن مادة الرعب مأخوذة من الماء، يقال: سيل راعب يملأ الوادي، وكانت هذه الآية رداً على أبي سفيان لما فكر في العودة إلى المدينة بعد انصرافه من أحد، إلا أن الله تعالى هزمه لما ألقى في نفسه من الرعب، فعاد إلى مكة، كما هي بشرى للمؤمنين متى أطاعوا ربهم وثبتهم فإنه يلقي الرعب في قلوب أعدائهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالرعب مسيرة شهر.

2 لقوله تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ، والكافرون مشركون بلا شك.

3 أما في حال الإكراه فإن من لم يطق العذاب يرخص له في إعطائهم ما طلبوا منه على شرط أن يكون كارهاً بقلبه ساخطاً في نفسه غير راضٍ عنهم ولا عن صنيعهم وذلك للآية: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} .

4 السلطان: الحجة لأن الحق يؤخذ بالحجة ويؤخذ بالسلطان، وهل السلطان مأخوذ من السليط، وهو ما يضاء السراج، وهو دهن السمسم، وسمي الحاكم سلطاناً للاستضاءة به في إظهار الحق وقمع الباطل؟ نعم، وجائز.

(1/391)

مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعِمُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153)

شرح الكلمات:

{صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ1}: أنجزكم ما وعدكم على لسان رسوله بقوله للرماة اثبتوا أماكنكم فإننا لا نزال غالبيين ما ثبتم مكانكم.

{تَحُسُّونَهُمْ}: تقتلونهم إذ، الحس: القتل. يقال: حسه، إذا قتله فأبطل حسه.

{بِإِذْنِهِ}: بإذنه لكم في قتالهم وبإيعانته لكم على ذلك.

{قَسِلْتُمْ} : ضعفتم وجبنتم عن القتال.

{تُصْعِدُونَ} 2 : تذهبون في الأرض فارين من المعركة، يقال: أصدع إذا ذهب في صعيد الأرض.

{وَلَا تَلُؤُونَ عَلَى أَحَدٍ} : لا تلون رؤوسكم على أحد تلتفتون إليه.

{وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} : أي: يناديكم من خلفكم إليّ عباد الله ارجعوا إليّ عباد الله ارجعوا.

1 صدق الوعد: تحقيقه والوفاء به، لأن الصدق هو مطابقة الخبر للواقع، وهذا الوعد كان لهم على

لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أخبرهم به وهو يهيئ صفوفهم للقتال.

2 صعد يصعد، إذا طلع المنبر أو سطحاً، وأصعد يصعد إصعاداً، إذا سار في بطن الأرض أو

الوادي جرياً على صعيد الأرض فكان الإصعاد إبعاداً في الأرض.

(1/392)

{فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بَعْمًا} 1 : جزاكم على معصيتكم وفراركم غمّاً على غم. والغم: ألم النفس وضيق الصدر.

{مَا فَاتَكُمْ} : من الغنائم.

{وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} : من الموت والجراحات والآلام والأتعاب.معنى الآيتين:

ما زال السياق في أحداث أحد، فقد تقدم في السياق قريباً نهى الله تعالى المؤمنين عن طاعة

الكافرين في كل ما يقترحون، ويشيرون به عليهم. ووعدهم بأنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين،

وقد فعل فله الحمد حيث عزم أبو سفيان على أن يرجع إلى المدينة ليقتل من بها ويستأصل شأفتهم،

فأنزل الله تعالى في قلبه وقلوب أتباعه الرعب فعدلوا عن غزو المدينة مرة ثانية، وذهبوا إلى مكة.

ورجع الرسول والمؤمنون من حمراء الأسد، ولم يلقوا أبا سفيان وجيشه. وفي هاتين الآيتين يخبرهم

تعالى بمنته عليهم حيث أنجزهم ما وعدهم من النصر، فقال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ

تَحْسَبُونَهُمْ بِأَذْنِهِ} ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بوأ الرماة مقاعدهم. وكانوا ثلاثين رامياً

وجعل عليهم عبد الله بن جبير أمرهم بأن لا يبرحوا أماكنهم كيفما كانت الحال، وقال لهم: إنا لا نزال

غالبين ما بقيتم في أماكنكم ترمون العدو فتحمون ظهورنا بذلك، وفعلاً دارت المعركة وأنجز الله

تعالى لهم وعده ففر المشركون أمامهم تاركين كل شيء هاربين بأنفسهم والمؤمنون يحسونهم حساً،

أي: يقتلونهم قتلاً بإذن الله وتأبيده لهم، ولما رأى الرماة هزيمة المشركين والمؤمنون يجمعون الغنائم،

قالوا: ما قيمة بقاعنا هنا، والناس يغنمون فهيا بنا نزل إلى ساحة المعركة لنغنم، فذكرهم عبد الله بن

جبير قائدهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأولوه ونزلوا إلى ساحة المعركة يطلبون الغنائم،

وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد، فما رأى الرماة أدخلوا مراكزهم إلا قليلاً منهم كر بخيله

عليهم فاحتل أماكنهم وقتل من بقي فيها، ورمى المسلمين من ظهورهم فتضعضوا لذلك، فعاد

المشركون إليهم ووقعوا بين الرماة الناقمين والمقاتلين الهاجئين، قوَّعت الكارثة فقتل سبعون من المؤمنين ومن

1 الباء قد تكون هنا للمصاحبة، أي أصابكم غماً مصحوباً بغم. والغم الأول: القتل والجراح، والثاني: الإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا بأس أن يكون الغم الأول هو الذي أغموا به الرسول بمخالفتهم إياه وأصابهم غم الهزيمة.
2 في هذه الآية عود إلى التسلية على ما أصابهم وإظهار لاستمرار عناية الله تعالى بهم.

(1/393)

بينهم حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وجرح رسول الله في وجهه، وكسرت رباعيته، وصاح الشيطان قائلاً: إن محمداً قد مات، وفر المؤمنون من ميدان المعركة إلا قليلاً منهم، وفي هذا يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ 1} يريد تنازع الرماة مع قائدهم عبد الله بن جبير، حيث نهاهم عن ترك مقاعدهم وذكرهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنازعوه في فهمه وخالفوا الأمر ونزلوا، وكان ذلك بعد أن رأوا إخوانهم قد انتصروا وأعدائهم قد انهزموا²، وهو معنى قوله تعالى: {وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} أي: من النصر {مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ 3 الدُّنْيَا} وهم الذين نزلوا إلى الميدان يجمعون الغنائم، {وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ 4 الْآخِرَةَ} وهم: عبد الله بن جبير والذين صبروا معه في مراكزهم حتى استشهدوا فيها، وقوله تعالى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} وذلك إخبار عن ترك القتال لما أصابهم من الضعف حينما رأوا أنفسهم محصورين بين رماة المشركين ومقاتليهم فأصعدوا في الوادي هاربين بأنفسهم، وحصل هذا بعلم الله تعالى وتدبيره، والحكمة فيه أشار إليها تعالى بقوله: {لِيَبْتَلِيَكُمْ} أي: يختبركم فيرى المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، والصابر من الجزع، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ} يريد أنه لو شاء يؤاخذهم بمعصيتهم أمر رسوله، فسلط عليهم المشركين فقتلوهم أجمعين، ولم يبقوا منهم أحداً إذ تمكنوا منهم تماماً ولكن الله سلم. هذا معنى: {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} هذا ما تضمنته الآية الأولى (152)، أما الآية الثانية (153) فهي تصور الحال التي كان عليها المؤمنون بعد حصول الانكسار والهزيمة⁴ فيقول تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ} أي: عفا عنكم في الوقت الذي فررتم في المصعدين في الأودية هاربين من المعركة والرسول يدعوكم من ورائكم إليَّ عباد الله ارجعوا، وأنتم فارون لا تلوون على أحد، أي: لا تلتفتوا إليه. وقوله تعالى: {فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ} يريد جزاكم على معصيتكم غمماً، والغم: ألم النفس لضيق الصدر وصعوبة

1 آل في الأمر: نائبة عن المضاف، إذ التقدير في أمركم وشأنكم.

2 نعم انهزم المشركون في أول المعركة حتى شوهدت نسائهم عن سوقهن هاربات في أعلى الجبل خوفاً من الأسر، ومن بينهم هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان.

3 إرادة الدنيا وحدها غير معصية ولكن ما ترتبت عنها من ترك طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطالب الدنيا إذا طلبها من حلها ولم يخل طلبه بواجب ولم يحمله على فعل حرام لا يَأْتُم ولا يلام.

4 لما تمت الهزيمة جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه على صخرة من سفح أحد فجاء أبو سفيان فارتفع على نشز من الأرض، وقال: أفي القوم محمد؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تجيبوه" ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تجيبوه". ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فقال له عمر: كذبت يا عدوا الله، فقد أبقى لك الله من يخزيك به. فقال: أعل هبل. مرتين. فأجابوه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين. الله أعلى وأجل. فقال: لنا العزة ولا عزة لكم. فقالوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله مولانا ولا مولى لكم.

(1/394)

الحال، وقوله: {بِعَمَّ} أي: على غم، وسبب الغم الأول فوات النصر والغنيمة، والثاني: القتل والجراحات، وخاصة جراحات نبيهم وإذاعة قتله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: {لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} أي: ما أصابكم بالغم الثاني الذي هو خبر قتل الرسول صلى الله عليه وسلم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على ما أصابكم من القتل والجراحات فأنساكم الغم الثاني ما غمكم به الغم الأول الذي هو فوات النصر والغنيمة. وقوله: {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} يخبرهم تعالى أنه بكل ما حصل منهم من معصية وتنازع وفرار، وترك للنبي صلى الله عليه وسلم في المعركة وحده وانهزامهم وحزنهم خبير مطلع عليه عليم به وسيجزي به المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يعفو عنه، والله عفو كريم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- مخالفة القيادة الرشيدة والتنازع في حال الحرب يسبب الهزيمة المنكرة.
- 2- معصية الله ورسوله والاختلافات بين أفراد الأمة تعقب أثاراً سيئة أخفها عقوبة الدنيا بالهزائم وذهاب الدولة والسلطان.
- 3- ما من مصيبة تصيب العبد إلا وعند الله ما هو أعظم منها، فلذا يجب حمد الله تعالى على أنها

لم تكن أعظم.

- 4- ظاهر هزيمة أحد النعمة وباطنها النعمة، وبيان ذلك أن علم المؤمنون أن النصر والهزيمة يتمان حسب سنن إلهية فما أصبحوا بعد هذه الحادثة المؤلمة يغفلون تلك السنن أو يهملونها.
- 5- بيان حقيقة كبرى وهي أن معصية الرسول صلى الله عليه وسلم مرة واحدة وفي شيء واحد ترتب عليها ألم وجراحات وقتل وهزائم وفوات خير كبير وكثير، فكيف بالذين يعصون رسول الله طوال حياتهم وفي كل أوامره ونواهيه، وهم يضحكون ولا يبكون، وأمنون غير خائفين³.

- 1 الخلاف كله شر ولكنه في ساحة الحرب أشد، ولهذا قال تعالى: {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} إلى أن قال: {وَلَا تَتَّزِعُوا فَتَنَّفَسُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}. الآية من سورة الأنفال.
- 2 شاهد هذا حال المسلمين اليوم، وقبل اليوم أنهم بعد أن عصوا الله ورسوله بالإعراض عن شرع الله وإهمال أحكامه والتعصب للمذاهب والرضا بالانقسام والخلاف حل بهم ما حل من الذل والهون والدون.
- 3 هذه حال أكثر المسلمين اليوم ومنذ قرون عدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكذا لم يبرحوا أدلاء تابعين للكافرين لا يستقلون في عمل أو تدبير.

(1/395)

إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْبَقْعَةِ الْجَمْعَانَ إِتْمَا اسْتَرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155)}

شرح الكلمات:

- {أَمْنَةً نُعَاسًا1}: الأمانة: الأمن، والنعاس: استرخاء يصيب الجسم قبل النوم.
- {يَغْشَى2 طَائِفَةً مِنْكُمْ}: يصيب المؤمنين ليستريحوا ولا يصيب المنافقين.
- {أَهَمَّتْهُمْ3 أَنْفُسُهُمْ}: أي: لا يفكرون إلا في نجات أنفسهم غير مكترئين بما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
- {ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ4}: هو اعتقادهم: أن النبي قُتل أو أنه لا ينصر.
- {هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ}: أي: ما لنا من الأمر من شيء.

1 الأمانة: وقيل: إن الأمانة تكون عند الخوف والأمن يكون مع الخوف وعدمه، وقرئ الأمانة بإسكان الميم.

2 قرئ: يغشى بالياء، وهو عائد إلى النعاس، وقرئ: تغشى بالتاء ويعود على الأمانة.

3 من أفراد هذه الطائفة: معتب بن قشير وأصحابه خرجوا طمعاً للغنيمة لا غير.

4 قال ابن عباس: وهو تكذيبهم بالقدر.

(1/396)

{مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ} : أي: ما لا يظهرون لك.

{الْبَرَزَ الَّذِينَ} : لخرجوا من المدينة ظاهرين ليلقوا مصارعهم هناك.

{كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ} : يريد كتب في كتاب المقادير، أي: اللوح المحفوظ.

{مَضَاجِعِهِمْ} : جمع مضجع، وهو مكان النوم، والاضطجاع والمراد المكان الذي صرعوا في قتلى.

{وَلِيَبْتَلِيَ} : ليختبر.

{وَلِيُمَحِّصَ} : التمهيص: التمييز وهو إظهار شيء من شيء كإظهار الإيمان من النفاق، والحب

من الكره.

{اسْتَنْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ} : أوقعهم في الزلل وهو الخطيئة والتي كانت الفرار من الجهاد.

معنى الآيتين:

ما زال الساق في الحديث عن غزوة أحد فأخبر تعالى في الآية الأولى (153) عن أمور عظام:

الأول: أنه تعالى بعد الغم الذي أصاب به المؤمنين أنزل على أهل اليقين خاصة أمناً كاملاً فذهب

الخوف عنهم حتى أن أحدهم2 لينا والسيف في يده فيسقط من يده ثم يتناوله، قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْعَمِّ أَمَنَةً تُعَاسَىٰ يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ} ، والثاني: أن أهل الشرك والنفاق حرمهم الله

تعالى من تلك الأمانة فما زال الخوف يقطع قلوبهم، والغم يسيطر على أنفسهم وهم لا يفكرون إلا في

أنفسهم كيف ينجون من الموت، وهم المعنيون بقوله تعالى: {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ 3 أَنْفُسُهُمْ} ،

والثالث: أن الله تعالى قد كشف عن سرائرهم، فقال: {يَبْطُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} ، والمراد

من ظنهم بالله غير الحق ظن المشركين أنهم يعتقدون أن الإسلام باطل وأن محمداً ليس رسولاً، وأن

المؤمنين سيهزمون ويموتون وينتهي الإسلام ومن يدعو إليه. والرابع: أن الله تعالى قد كشف سرهم

فقال عنهم: {يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ 4 شَيْءٍ} هذا القول قالوه سرّاً فيما بينهم، ومعناه ليس لنا

من الأمر من شيء

- 1 أي: لا يعاملهم معاملة المختبر لهم وليصبح ما كان غيباً لله مشاهدة لهم.
- 2 قال أبو طلحة والزبير وأنس: غشينا النعاس حتى إن السيف ليسقط من يد أحدنا فيتناوله من الأرض.
- 3 حدثهم أنفسهم بما يدخل الهم عليهم، وهو تكذيبهم بالقدر والحرص على نجاتهم وحرصهم على ما فاتهم من الغنيمة، وهذه كلها موجبات الهم والغم.
- 4 هذه الجملة بدل اشتمال من جملة: {يظنون بالله غير الحق} . لأن ظنهم مشتمل على قولهم: {هل لنا من الأمر من شيء} أي: ليس لنا من الأمر من شيء. وهذا القول قاله: ابن أبي بما سمع باستشهاد من استشهد من الخزرج.

(1/397)

ولو كان لنا ما خرجنا ولا قاتلنا ولا أصابنا الذي أصابنا فأطلع الله تعالى على سرهم، وقال له: رد عليهم بقولك: إن الأمر كله لله. ثم هنك تعالى مرة أخرى سترهم وكشف سرهم فقال: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ} أي: يخفون في أنفسهم من الكفر والبغض والعداء لك ولأصحابك ما لا يظهره لك. والرابع: لما تحدث المنافقون 1 في سرهم، وقالوا: {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} : يريدون لو كان الأمر بأيديهم ما خرجوا لقتال المشركين لأنهم إخوانهم في الشرك والكفر، ولو قتلوا مع من قتل في أحد فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ} بالمدينة لبرز، أي: ظهر {الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} وصرعوا فيها وماتوا، لأن ما قدره الله نافذ على كل حال، ولا حذر مع 2 القدر، ولا بد أن يتم خروجكم إلى أحد بتدبير الله تعالى ليبتلي الله، أي: يمتحن ما في صدوركم ويميز ما في قلوبكم فيظهر ما كان غيباً لا يعلمه إلا هو إلى عالم المشاهدة ليعلمه ويراه على حقيقته رسوله والمؤمنون، وهذا لعلم الله تعالى بذات الصدور. هذا معنى قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

هذا ما تضمنته الآية الأولى، أما الآية الثانية (154) فقد تضمنت إخبار الله تعالى عن حقيقة واحدة ينبغي أن تعلم وهي أن الذين فروا من المعركة لما اشتد القتال وعظم الكرب، الشيطان هو الذي أوقعهم في هذه الزلة، وهي توليهم عن القتال بسبب 3 بعض الذنوب كانت لهم، ولذا عفا الله عنهم ولم يؤاخذهم بهذه الزلة، وذلك لأن الله غفور حلِيم، فلذا يمهل عبده حتى يتوب فيتوب عليه ويغفر له، ولو لم يكن حلِيماً لكان يؤاخذ لأول الذنب والزلة فلا يمكن أحداً من التوبة والنجاة. هذا معنى قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ} أي: عن القتال، يوم التقى الجمعان، أي: جمع المؤمنين وجمع الكافرين بأحد. {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا

- 1 تقدم آنفاً أن هذا قاله: رئيس المنافقين: ابن أبي، وقد عاد من الطريق مع ثلاثمائة رجل ممن استجاب لدعوته المثبطة عن القتال، ولا مانع أن يقوله غير واحد من المنافقين، وهو كذلك.
- 2 أي: بنافع، ولكن طلب الحذر من جملة الأسباب المطلوب اتخاذها طاعة لله، والله يقول: {خُذُوا حِذْرَكُمْ} ، وإنما لما يقع ما قدره الله تعالى ولم ينفع في رده حذر وجب الرضا به والتسليم لله في إجراءه على مقتضى مراده، وعليه فلا أسف ولا حزن ولا سخط، إذ ما قضاه الله هو الخير والخير كله.
- 3 في هذه الآية بيان بسبب الهزيمة الخفي، وهو مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تركوا مواقعهم ونزلوا لطلب الغنيمة، والمراد إلقاء تبعه الهزيمة عليهم، إذ هم السبب فيها.
- 4 استزلهم: أي: أزلهم بمعنى جعلهم زالين، والزلل: إن كان معناه: انزلاق القدم وسقوط صاحبها، فإن معناها هنا: الوقوع في الذلة التي هي الخطيئة، والسين والتاء في استزلهم للتأكيد، مثل: استفاد كذا واستنشق الماء أو الهواء: {وَاسْتَنْعَى اللَّهُ} .

(1/398)

كَسَبُوا} ، {وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} فلم يؤاخذهم {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} .

هداية الايتين

من هداية الأيتين:

- 1- إكرام الله تعالى لأوليائه بالأمان الذي أنزله في قلوبهم.
 - 2- إهانة الله تعالى لأعدائه بحرمانهم مما أكرم به أوليائه وهم في مكان واحد.
 - 3- تقرير مبدأ القضاء والقدر، وأن من كتب موته في مكان لا بد وأن يموت فيه.
 - 4- أفعال الله تعالى لا تخلو أبداً من حكم عالية فيجب التسليم لله تعالى والرضا بأفعاله في خلقه.
 - 5- الذنب يولد الذنب، والسيئة تتولد عنها سيئة أخرى، فلذا وجبت التوبة من الذنب فوراً.
- لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَلَى اللَّهُ تُحْشَرُونَ (158)}

شرح الكلمات:

{آمَنُوا} : صدقوا الله ورسوله فيما أخبرا به من وعد ووعد.

{لِإِخْوَانِهِمْ} : هذه أخوة العقيدة لا أخوة النسب، وهي هنا أخوة النفاق.

{ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ}: ضربوا في الأرض بأقدامهم مسافرين 1 للتجارة غالباً.

1 وقد يكون السفر لمصالح المسلمين.

(1/399)

{عُزِّيَ1}: جمع غاز وهو من يخرج لقتال ونحوه من شؤون الحرب.

الحسرة 2: ألم يأخذ بخناق النفس بسبب فوت مرغوب أو فقد محبوب. معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة أحد ونتائجها المختلفة، ففي هذه الآية (156) ينادي الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالله ورسوله ووعده الله تعالى ووعده يناديهم 3 لينهاهم عن الاتصاف بصفات الكافرين النفسية وهو من ذلك قول الكافرين لإخوانهم في الكفر: إذ هم ضربوا في الأرض لتجارة أو لغزو فمات من مات منهم أو قتل من قتل بقضاء الله وقدره، لو كانوا عندنا، أي: ما فارقونا وبقوا في ديارنا ما ماتوا وما قتلوا وهذا دال على نفسية الجهل ومرض الكفر، وحسب سنة الله تعالى فإن هذا القول منهم يتولد، لهم عنه بإذنه تعالى غم نفسي وحسرات قلبية تمرقهم، وقد تودي بحياتهم، وما درى أولئك الكفرة الجهال أن الله يحيي ويميت، فلا السفر ولا القتال يميّتان، ولا القعود في البيت جنباً وخوراً يحيي، هذا معنى قوله تعالى في هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} وقوله تعالى في ختام هذه الآية: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} في وعد للمؤمنين إن انتهوا عما نهاهم عنه في الآية ووعيد إن لم ينتهوا فيجزيهم بالخير خيراً، وبالشر إن لم يعفوا شراً. أما الآية الثانية (157) فإن الله تعالى يبشر عباده المؤمنين مخبراً إياهم بأنهم إن قتلوا في سبيل الله أو ماتوا فيه يغفر لهم ويرحمهم وذلك خير مما يجمع الكفار من حطام الدنيا ذلك الجمع للحطام الذي جعلهم يجبنون على القتال والخروج في سبيل الله فقال تعالى: {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ 5 لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} 6، وفي الآية الثالثة (158) يؤكد تلك الخيرية التي تضمنتها الآية السابقة فيقول: {وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ}

1 الغزو: قصد الشيء، والمغزى: المقصد، والمغزىة: المرأة التي غزا زوجها، والنسبة إلى الغزو، غزي.

2 والحسرة: شدة الأسف على الحزن.

3 في نداء الله المؤمنين بعنوان الإيمان، وهي صفة جامعة لهم فيه تلطف بعد تقرير فريق منهم، وهم الذين تولوا عن القتال يوم التقى الجمعان.

4 اللام موطنة للقسم: أي: مؤذنة بأن قبلها قسماً مقدراً، واللام: {المَغْفِرَة} هي في جواب القسم الذي هو المغفرة.

5 أهل الحجاز يقولون: متم بكسر الميم، نحو: نمت من نام ومات وغيرهم يقولون: مُتم بضم الميم في متم، ونمتم، نحو: كنتم وقلتم.

6 قرئ: {تَجْمَعُونَ} بالتاء، أي: أنتم أيها المؤمنون: {وَيَجْمَعُونَ} بالياء، أي: الكافرون والمنافقون.

(1/400)

في سبيلنا {إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ}1] حتما، وثم يتم لكم جزاؤنا على استشهدكم وموتكم في سبيلنا، ولنعم ما تجزون به في جوارنا الكريم.
هداية الآيات:

1- حرمة التشبه بالكفار ظاهراً وباطناً.

2- الندم يولد الحسران والحسرة غم وكرب عظيم، والمؤمن يدفع ذلك بذكره القضاء والقدر فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه من حطام الدنيا.

3- موتة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها.

{قِيمًا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)}

شرح الكلمات:

{لَئِنَّ لَهُمْ}: كنت رقيقاً بهم، تعاملهم بالرفق واللطف.

{فَظًّا}: خشناً في معاملتك شرساً في اختلافك وحاشاه2 صلى الله عليه وسلم.

{لَانْفَضُّوا}: تفرقوا وذهبوا تاركينك وشأنك.

{فَاعْفُ عَنْهُمْ}: يريد إن زلوا أو أساءوا.

{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}: اطلب مشورتهم في الأمر ذي الأهمية؛ كمسائل الحرب والسلام.

1 فيه وعظ وعظهم الله به حيث أعلمهم أنهم سواء ماتوا حتف أنوفهم، أو قتلوا فإن رجوعهم إلى الله وسيجزئهم على قتالهم وموتهم في سبيل الله.

2 ومن صفاته صلى الله عليه وسلم في التوراة كما في رواية البخاري أنه صلى الله عليه وسلم: ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق. والغليظ القلب: من قلت شفقتة وعزت رحمته، كما قال

الشاعر:

يبكى علينا ولا نبكي على أحد ...
لنحزن أغظ أكباداً من الإبل

(1/401)

معنى الآيتين:

ما زال السياق في الآداب و النتائج المترتبة على غزوة أحد، ففي هذه الآية (119) يخبر تعالى عما وهب رسوله من الكمال الخلقى الذي هو قوام الأمر فيقول: {فَبِمَا 1 رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ} أي: فبرحمة من عندنا رحمتهم بها لنت 2 لهم، {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا} أي: قاسياً جافاً جافياً قاسي القلب غليظة {لَانْفَضُّوا مِنْ 3 حَوْلِكَ} أي: تفرقوا عنك، وحرموا بذلك سعادة الدارين. وبناء على هذا فاعف 4 عن مسيئهم، واستغفر لمذنبهم، و شاور ذي الرأي منهم، وإذا بدا لك رأي راجح المصلحة فاعزم على تنفيذه متوكلاً على ربك فإنه يحب المتوكلين، والتوكل: الإقدام على فعل ما أمر الله تعالى به أو أذن فيه بعد إحضار الأسباب الضرورية له. وعدم التفكير فيما يترتب عليه بل يفوض أمر النتائج إليه تعالى.

هذا ما تضمنته الآية الأولى، أما الآية الثانية (160) فقد تضمنت حقيقة كبرى يجب العلم بها والعمل دائماً بمقتضاها، وهي أن النصر بيد الله، والخذلان كذلك فلا يطلب نصر إلا منه تعالى، ولا يرهب خذلان إلا منه عز وجل، وطلب نصره هو إنفاذ أمره بعد إعداد الأسباب اللازمة له، وتحاشي خذلانه تعالى يكون بطاعته والتوكل عليه هذا ما دل عليه قوله تعالى في هذه الآية: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلقى.
- 2- فضل الصحابة رضوان الله عليهم وكرامتهم على ربه سبحانه وتعالى.
- 3- تقرير مبدأ المشورة بين 5 الحاكم وأهل الحل والعقد في الأمة.

1 الميم: صلة، أي مزيدة لتوكيد الكلام وتقويته، نحو: قوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} ، وقوله: {عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ} وجند ما هنالك.

2 وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لم يعنف الذين تولوا يوم أحد بل رفق بهم. فأخبر تعالى أن ذلك كان بتوفيق منه عز وجل لرسوله.

3 قيل: يمنعهم الحياء والاحتشام والهيبة من القرب منك بعد ما كان من توليهم، وهذا شأن أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

4 هذا الترتيب مقصود فأولاً: يعفو عنهم لما كان بينه وبينهم. وثانياً: يتستغفر الله لهم لم كان بينهم وبين ربهم من تبعات. وبعد هذا الإعداد يصبحون أهلاً للمشورة فيشاورهم.

5 الاستشارة مأخوذة من شرت الدابة، إذا علمت خبرها كجري ونحوه، ويقال للموضع الذي تركض فيه المشوار، قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام. من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. وقد قيل: ما ندم من استشار ومن أعجب برأيه ضل. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما ندم من استشار ولا خاب من استخار ولا عال من اقتصد".

(1/402)

4- فضل العزيمة الصادقة مقرونة بالتوكل على الله تعالى.

5- طلب النصر من غير الله خذلان، والمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله الله عز وجل.

{وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ مَمَّنَّ يَعْلَلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (161) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (163) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)}

شرح الكلمات:

{أَنْ يَعْلَلَّ}: أي: يأخذ من الغنيمة خفية، إذ الغل والغلول بمعنى السرقة من الغنائم قبل قسمتها.

{تُوَفَّى}: تجزى ما كسبته في الدنيا وإفياً تاماً يوم القيامة.

{رِضْوَانَ اللَّهِ}: المراد به ما يوجب رضوانه من الإيمان والصدق والجهاد.

وسخط الله: غضبه الشديد على الفاسقين عن أمره المؤذنين لرسوله صلى الله عليه وسلم.

1 من الحزم المشورة، والحزم: جودة النظر في الأمر وتلقيحه، والحذر من الخطأ فيه والعزم قصد الإمضاء فيما حزم فيه ومن مظاهر الحزم والعزم للرسول صلى الله عليه وسلم: أنه استشار أصحابه في الخروج إلى قتال المشركين خارج المدينة أو البقاء فيها. والقتال داخلها. ورأى عدم الخروج أصلح، ورأى أكثر الأصحاب الخروج فوافقهم فدخل بيته فلبس آلات حربه وخرج فلما رأوا كذلك تراجعوا واعتذروا ولكنه أبى أن يتراجع، فتلجى حزمه وعزمه، وقال: "لا ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه".

{مَنْ} : أنعم ونفضل.

{رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} : هو محمد صلى الله عليه وسلم.

{وَيُرَكِّبُهُمْ} : بما يرشدهم إليه من الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والآداب العالية.

{وَالْحِكْمَةَ} : كل قول صالح نافع أبداً ومنه السنة النبوية. معنى الآيات:

الغل والغلول 1 والإغلال بمعنى واحد، وهو أخذ المرء شيئاً من الغنائم قبل قسمتها وما دام السياق في غزوة أحد، فالمناسبة قائمة بين الآيات وهذه، ففي الآية الأولى (161) ينفي تعالى أن يكون من شأن الأنبياء أو مما يتأتى صدوره عنهم الإغلال وضمن تلك أن أتباع الأنبياء يحرم عليهم أن يغلوا، ولذا قرئ في السبع أن يُغَل بضم 2 الياء وفتح الغين، أي: يفعله أتباعه بأخذهم من الغنائم بدون إذنه. هذا معنى قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ} ثم ذكر تعالى جزاء وعقوبة من يفعل وقال: {وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} فأخبرهم تعالى أن من أغل شيئاً يأت به يوم القيامة يحمله حتى البقرة والشاة كما يبين ذلك في الحديث 3، ثم يحاسب عليه كغيره ويجزي به، كما تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ولا تظلم نفس شيئاً لغنى الرب تعالى عن الظلم وعدله. هذا مضمون الآية الأولى، أما الثانية (162) ينفي تعالى أن تكون حال المتبع لرضوان الله تعالى بالإيمان به ورسوله وطاعتهما بفعل الأمر واجتتاب النهي، كحال المتبع لسخط الله تعالى بتكذيبه تعالى وتكذيب رسوله ومعصيتهما بترك الواجبات وفعل المحرمات فكانت جهنم مأواه، وبئس المصير جهنم. هذا معنى قوله تعالى: {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} ثم ذكر تعالى أن كلاً من

1 سمي الغلول: غلولاً، لأن الأيدي فيها مغلولة، أي: ممنوعة، كأن فيها غلاً، وهو الحديد التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.

2 فتح الياء قراءة حفص، وهي رد على من تصور أن النبي في إمكانه أن يأخذ شيئاً من الغنيمة قبل قسمتها فأخبر تعالى أنه من غير الممكن أن يغل النبي لعصمة الله تعالى لأنبيائه، وقراءة الضم قراءة نافع، وهي: تحرم على اتباع النبي الغلول بصيغة بليغة، إذ تجعل غلولهم من قبيل المعتذر الذي لا يحدث.

3 في صحيح مسلم أن أبا هريرة قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: "لا ألقين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا

رسول الله أعنى، فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبغلتك، ثم ذكر الفرس والشاة والنفس والرقاع" . والرقاع: جمع رقعة وهي ما يكتب عليها.

(1/404)

أهل الرضوان، وأصحاب السخط متفاوتون في درجاتهم 1 عند الله، بحسب أثر أعمالهم في نفوسهم قوة وضعفاً فقال: {هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ} ، فدل ذلك على عدالة العليم الحكيم. هذا ما دلت الآية (163)، أما الآية الأخيرة (164) فقد تضمنت امتنان الله تعالى على المؤمنين من العرب ببعثه رسوله فيهم، يتلو عليهم آيات الله ويدعوهم إليه فيؤمنون ويكملون في إيمانهم ويزكيهم من أضرار الشرك وظلمة الكفر بما يهديهم به، ويدعوهم إليه من الإيمان وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق وسامي الآداب، ويعلمهم الكتاب المتضمن للشرائع والهدايات والحكمة التي هي فهم أسرار الكتاب، والسنة، وتتجلي هذه النعمة أكثر لمن يذكر حال العرب في جاهليتهم قبل هذه النعمة العظيمة عليهم، هذا معنى قوله تعالى في الآية الأخيرة: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ 3 يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تحريم 4 الغلول، وأنه من كبائر الذنوب 5.
- 2- طلب رضوان الله واجب، وتجنب سخطه واجب كذلك، والأول يكون بالإيمان وصالح الأعمال والثاني يكون بترك الشرك والمعاصي.
- 3- الإسلام أكبر نعمة وأجلها على المسلمين فيجب شكرها بالعمل به والتقيد بشرائعه وأحكامه.
- 4- فضل العلم بالكتاب والسنة.

- 1 المشهور: أن أهل النار في درجات متفاوتة كما أن أهل الجنة في درجات متفاوتة، فالدرجة: ما أريد بها الارتفاع، والدركة: ما أريد بها السفل والهبوط.
- 2 من هنا: بمعنى أسدى النعمة للمؤمنين، ببعثة الرسول فيهم، وليس هو من المن المذموم الذي هو تعداد النعمة إلى أن الله تعالى له أن يمن وهو أمن من كل من، من وأعطى.
- 3 قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هذه للعرب خاصة: إذ فهمت من كلمة: {مِنْ أَنْفُسِهِمْ} إنها تعنى من جنسهم العربي، وبعضهم يرى العموم فيها لكل مؤمن ومؤمنة وهو كذلك، إذ هو بشر مثلهم.

4 شاهده قوله صلى الله عليه وسلم في الذي غل الشملة يوم خيبر: "والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذ يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم تشتعل عليها ناراً". ولما سمع هذا الوعيد أحد الأصحاب جاء بشراك أو شركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شراك أو شركين من نار" رواه مالك في الموطأ.

5 الإجماع على أن الغال لا تقطع يده ولكن يعذر، والغلول لا يكون إلا في الغنائم وسمى الرسول صلى الله عليه وسلم هدايا العمال غلولاً ويفضحون بها يوم القيامة، لحديث مسلم في قصة ابن اللتبية.

(1/405)

{أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168)}

شرح الكلمات:

المصيبة: إحدى المصائب: ما يصيب الإنسان من سوء وأسوأها مصيبة الموت.

{مِثْلَيْهَا}: ضعفيها إذ قتلوا في بدر سبعين من المشركين وأسروا 1 سبعين.

{أَنَّى هَذَا}: أي: من أين أتانا الذي أتانا من القتل والهزيمة.

{فَبِإِذْنِ اللَّهِ}: أي: بإرادته تعالى وتقديره يربط المسببات بأسبابها.

{نَافَقُوا}: أظهروا من الإيمان ما لا يبطنون من الكفر.

{أَوْ ادْفَعُوا}: أي: ادفعوا العدو عن دياركم وأهليكم وأولادكم، إن لم تريدوا ثواب الأخرة.

{فَادْرَأُوا}: أي: ادفعوا

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}: في دفع المكروه بالحرز.

1 اعتبر الأسير قتيلاً؛ لأن الأسر له يملك قتله متى شاء، فلذا قال تعالى: {قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا} .

(1/406)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في أحدث غزوة أحد ففي الآية الأولى: ينكر الله تعالى على المؤمنين قولهم بعد أن أصابته مصيبة القتل والجراحات والهزيمة: {أَنْتَى 1 هَذَا} أي: من أي وجه جاءت هذه المصيبة ونحن مسلمون ونقاتل في سبيل الله ومع رسوله؟ فقال تعالى: {وَأَوْلَمَّا 2 أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} بأحد قد أصبتم مثلها ببدر، لأن ما قتل من المؤمنين بأحد كان سبعين، وما قتل المشركين ببدر كان سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً، وأمر رسوله صلى الله عليه و سلم أن يحييهم: قل هو من عند أنفسكم، وذلك بمعصيتكم لرسول الله خالف الرماة أمره، وبعدم صبركم إذ فررتم من المعركة تاركين القتال. وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} إشعار بأن الله تعالى أصابهم بما أصابهم به عقوبة لهم حيث لم يطيعوا رسوله ولم يصبروا على قتال أعدائه. هذا ما تضمنته الآية الأولى (165)، أما الآيات الثلاث بعدها فقوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} يخبر تعالى المؤمنين أن ما أصابهم يوم أحد عند النقاء جمع المؤمنين وجمع المشركين في ساحة المعركة كان بقضاء الله وتدبيره، وعلته إظهار المؤمنين على صورتهم الباطنية الحقة وأنهم صادقون في إيمانهم، ولذا قال تعالى: وليعلم المؤمنين علم انكشاف وظهور كما هو معلوم له في الغيب وباطن الأمور هذا أولاً، وثانياً: ليعلم الذين نافقوا فأظهروا الإيمان والولاء لله ولرسوله والمؤمنين ثم أبطنوا الكفر والعداء لله ورسوله والمؤمنين، فقال عنهم في الآيتين الثالثة (167) والرابعة (168) {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} وهم عبد الله إبي بن سلول رئيس المنافقين وعصابته الذين رجعوا من الطريق قبل الوصول إلى ساحة المعركة، وقد قال عبد الله بن حرام والد جابر تعالوا قاتلوا في سبيل الله رجاء ثواب الآخرة، وإن لم تريدوا ثواب الآخرة فادفعوا عن أنفسكم وأهليكم معرة جيش غاز يريد قتلكم إذ وقوفكم معنا يكثر سوادنا ويدفع عنا خطر العدو الداهم. فأجابوا قائلين: لو نعلم قتالاً سيتم لاتبعناكم، فأخبر تعالى عنهم بأنهم في هذه الحال: {هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ} إذ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} حتى من أنفسهم يعلم أنهم يكتُمون عداوة الله ورسوله والمؤمنين وإرادة السوء بالمؤمنين، وأن قلوبهم

1 أنى: هذه جملة اسمية، فإني بمعنى أي وهو الخبر مقدم، وهذا مبتدأ مؤخر.

2 الاستفهام هنا للإنكار والتعجب لأن قولهم: {أَنْتَى هَذَا} مما ينكر ويتعجب منه، وذلك أن سبب المصيبة غير خاف ولا غامض فهو ظاهر مكشوف وهو عصيانهم للقيادة بمخالفة أمرهم، ولما: اسم زمان مضمن معنى الشرط، و قلتم: هو الجزاء.

مع الكافرين الغازين. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قعدوا عن الجهاد في أحد وقالوا لإخوانهم في النفاق -وهم في مجالسهم الخاصة-: لو أنهم قعدوا فلم يخرجوا كما لم نخرج نحن ما قتلوا. فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم قائلاً: {قَادِرُوا} أي: ادفعوا 1 عن أنفسكم الموت إذا حضر أجلكم إن كنتم صادقين في دعوكم أنهم لو قعدوا ما قتلوا.

من هداية الآيات:

1- المصائب 2 ثمرة الذنوب.

2- كل الأحداث التي تتم في العالم سبق بها علم الله، ولا تحدث إلا بإذنه.

3- قد يقول المرء قولاً أو يظن ظناً يصبح به على حافة هاوية الكفر.

4- الحذر لا يدفع 3 القدر.

{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ} (169) {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (170) {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} (171)

شرح الكلمات:

{وَلَا تَحْسَبَنَّ}: ولا تظنن.

{قُتِلُوا}: استشهدوا.

{أحيَاءٌ}: يحسون ويتنعمون في نعيم الجنة بالطعام والشراب.

1 هذا رد على ابن أبي كبير المنافقين، وسيدهم الذي قال: لو أطاعونا ما قتلوا.

2 قال تعالى من سورة الشورى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} أي: من الذنوب والمعاصي.

3 ومع أنه لا يدفع القدر فإن استعماله واجب لقوله تعالى: {خُذُوا حِذْرَكُمْ} .

(1/408)

{فَرِحِينَ}: مسرورين.

{أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}: لما وجدوا من الأمن التام عند ربهم.

{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}: على ما خلفوا وراءهم في الدنيا لما نالهم من كرامة في الجنة.

{يَسْتَبْشِرُونَ}: يفرحون.

{وَفَضْلٍ}: وزيادة .

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن غزوة أحد فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ} 1 أي: لا تظنن الذين استشهدوا من المؤمنين في أحد وغيرها أمواتاً لا يحسون ولا يتتعمون بطيب الرزق ولذيذ العيش بل هم أحياء عند ربهم يرزقون أرواحهم في حواصل طير خضر يأكلون من ثمار الجنة ويأوون إلى قناديل معلقة بالعرش. إنهم فرحون بما أكرمهم 2 الله تعالى به، ويستبشرون بإخوانهم المؤمنين الذين خلفوهم في الدنيا على الإيمان والجهاد بأنهم إذا لحقوا بهم لم يخافوا ولم يحزنوا لأجل ما يصيرون إليه من نعيم الجنة وكرامة الله تعالى لهم فيها. إن الشهداء جميعاً مستبشرون فرحون بما ينعم 3 الله عليهم ويزيدهم وبأنه تعالى لا يضيع أجر المؤمنين شهداء وغير شهداء بل يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الشهداء أحياء والمؤمنون أحياء في الجنة غير أن حياة الشهداء أكمل.
- 2- الشهداء 4 يستبشرون بالمؤمنين الذين خلفوهم على الإيمان والجهاد بأنهم إذا لحقوا بهم نالهم من الكرامة والنعيم ما نالهم هم قبلهم.

1 روى أبي داود بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقامهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا، إنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينقلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله: {وَلَا تَحْسَبَنَّ} . الآية.

2 مما ورد في فضل الشهيد: أن الله تعالى يغفر له كل ذنب أذنبه إلا الدين، لقوله صلى الله عليه وسلم: "القتيل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين، كذلك قال لي جبريل عليه السلام آنفاً". قال العلماء: الدين يشمل كل الحقوق المتعلقة بالذمة.

3 روى الترمذي وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "للشهيد عند الله ست خصال. يغفر له في دفعه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتي وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه".

4 الإجماع على أن شهيد المعركة بين الكفار والمسلمين: أنه لا يغسل ولا يصلى عليه لحديث البخاري: "وإدفنوهم بدمائهم" يعنى شهداء أحد ولا يغسلهم، والعلة في عدم غسلهم: أن دمائهم يوم القيامة كريح المسك.

3- لا خوف ينال المؤمن الصالح إذا مات ولا حزن يصيبه.

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} (172)
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ} (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ} (174) إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (175)

شرح الكلمات:

{اسْتَجَابُوا 1}: اجابوا الدعوة وقبلوا الأمر.

{الْقَرْحُ 2}: ألم الجراحات.

{أَحْسَنُوا}: أعمالهم وأقوالهم أتوا بها وفق الشرع وأحسنوا إلى غيرهم.

{وَاتَّقُوا}: ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه فيما أمرهم به أو نهاهم عنه.

{جَمَعُوا لَكُمْ}: جمعوا الجيوش لقتالكم.

{حَسْبُنَا اللَّهُ}: يكفينا الله ما أرادونا به من الأذى.

{وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}: نعم الوكيل الله توكل إليه أمورنا ونفوضها إليه.

انقلبوا: رجعوا من حمراء الأسد إلى المدينة.

أولياء الشيطان: أهل طاعته والاستجابة إليه فيما يدعوهم إليه من الشر والفساد.

- 1 قيل: أن هذه الآية: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا} إلخ. نزلت في رجلين من بني الأشهل كانا متخنين بالجراح وخرجا إلى حمراء الأسد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوكأ أحدهما على صاحبه.
- 2 أخرج أصحاب الصحاح عن عروة بن الزبير أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قال له: كان أبواك من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح. وتعني بأبويه: الزبير وأبا بكر الصديق رضي الله عنهما.

(1/410)

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة أحد وما لابسها من أمور وأحوال والآيات الأربع كلها في المؤمنين الذين حضروا غزوة أحد يوم السبت وخرجوا في طلب أبي سفيان يوم الأحد وعلى رأسهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أن يرفع معنويات أصحابه الذين

كلموا وهزموا يوم السبت بأحد، وأن يرهب أعداءه فأمر مؤذناً يؤذن بالخروج في طلب أبي سفيان وجيشه، فاستجاب المؤمنون وخرجوا وإن منهم للمكلم والمجروح، وإن أخوين جريحين كان أحدهما يحمل أخاه على ظهره فإذا تعب و ضعه فمشى قليلاً، ثم حملة حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد، وألقى الله تعالى الرعب في قلب أبي سفيان فارتحل هارباً إلى مكة، وقد حدث هنا أن معبد الخزاعي¹ مر بمعسكر أبي سفيان فسأله عن الرسول فأخبره أنه خرج في طلبكم وخرج معه جيش كبير وكلهم تعيظ عليكم، أنصح لك أن ترحل فهرب برجاله خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأقام الرسول صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد برجاله كذا ليلة ثم عادوا لم يمسههم سوء وفيهم نزلت هذه الآيات الأربع وهذا نصها:

الآية (172) {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} يريد في أحد واستجابوا: لبوا نداء الرسول صلى الله عليه وسلم وخرجوا معه في ملاحقة أبي سفيان، {الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} ولكل من أحسن واتقى أجر عظيم، إلا وهو الجنة الآية الثانية (173) {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} . المراد من الناس القائلين هم: نفر من عبد القيس مروا بأبي سفيان وهو عازم على العودة إلى المدينة لتصفية المؤمنين بها في نظره فقال له أبو سفيان أخبر محمداً وأصحابه أنني ندمت على تركهم أحياء بعدما انتصرت عليهم وإني جامع جيوشي وقادم عليهم، والمراد من الناس الذين جمعوا هم: أبو سفيان، فلما بلغ هذا الخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه زادهم³ إيماناً فوق إيمانهم بنصر الله تعالى وولايته لهم، وقالوا: حسبنا الله، أي: يكفينا الله شرهم، ونعم الوكيل الذي يكفينا ما أهمنا

1 لأن خزاعة كانت حلفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعيبت نصحه، أي: موضع سره.
2 روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} إلى: {وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} .

3 الذي زادهم إيماناً: هو قول الناس: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} وهل الإيمان يزيد وينقص: الخلاف قديم في هذه القضية، والقول الذي تشهد له نصوص الكتاب والسنة، هو: أن الإيمان يقوى ويضعف، فإذا قوي زاد عمل المؤمن في الطاعات بفعل الحسنات وترك السيئات، وإذا ضعف قل عمله الصالح وزاد عمله الطالح، فيستدل على الإيمان قوة وضعفاً بمتعلقه وهو الطاعة والمعصية.

ونفوض أمرنا إلى الله. الآية الثالثة (174) {فَأَنْقَلِبُوا} أي: رجعوا من حمراء الأسد؛ لأن أبا سفيان ألقى الله الرعب في قلبه فانهزم وهرب، رجعوا مع نبيهم سالمين في نعمة الإيمان والإسلام والنصر، {وَفَضَّلِ} حيث أصابوا تجارة في طريق عودتهم {لَمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ} أي: أذى، {وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ} بالاستجابة لما دعاهم الله ورسوله وهو الخروج في سبيل الله لملاحقة أبي سفيان وجيشه. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} وما أفاضه على رسوله كاف في التدليل عليه الآية الرابعة (175) {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} 1 فلا تخافوهم وتخافون إن كنتم مؤمنين} ، وذلك أن وفد عبد القيس آجره أبو سفيان بكذا حمل من زبيب إن هو خوف المؤمنين منه فبعثه كأنه "طابور" يخذل له المؤمنين إلا أن المؤمنين عرفوا أنها مكيدة، {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ، فنزلت الآية: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ} الناطق على لسان النفر من عبد القيس يخوف المؤمنين من أوليائه أبي سفيان وجمعه، فلا تخافوهم فنهاهم عن الخوف منهم وأمرهم أن يخافوه 2 تعالى، فلا يجبنوا ويخرجوا إلى قتال أبي سفيان وكذلك فعلوا لأنهم المؤمنون بحق رضي الله عنهم أجمعين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضل الإحسان والتقوى وأنها مفتاح كل خير .
- 2- فضل أصحاب رسول الله على غيرهم، وكرامتهم على ربهم.
- 3- فضل كلمة: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} 3 ، قالها رسول الله وقالها إبراهيم من قبل فصلى الله عليهما وسلم.
- 4- بيان أن الشيطان يخوف 4 المؤمنين من أوليائه، فعلى المؤمنين أن لا يخافوا غير ربهم تعالى في الحياة، فيطيعونه ويعبدونه ويتوكلون عليه، وهو حسبهم ونعم الوكيل لهم.

1 معنى يخوف أوليائه: أنه يخوف المؤمنين بأوليائه، وهم المشركون، وذلك على لسان نعيم ابن مسعود الذي آجره أبو سفيان ليخوف المؤمنين بعزم أبي سفيان على الكر عليهم لاستئصالهم وإبادتهم.

2 الخوف من الله تعالى أمر الله به، وهو واجب على كل مؤمن، وحقيقته: أن يترك العبد ما يخاف أن يعذب عليه، وقيل: الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، وإنما من يترك ما يخاف أن يعذب به.

3 الوكيل: فعيل، بمعنى: مفعول، أي: الموكول إليه الأمر.

4 الشيطان: يكون من الجن ومن الإنس، فإن كان من الجن فتخويفه يكون بواسطة الواسوس، وإن كان من شياطين الإنس فتخويفه يكون بالكلام الشفوي الذي ظاهره النصح، وباطنه الخداع والغش.

{وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي
الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(176) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ(177) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهَا تُؤْتِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ(178)}

شرح الكلمات:

الحزن : غم يصيب النفس لرؤية أو سماع ما يسوءه ويكرهه.

{الْكُفْرِ} : الكفر: تكذيب الله تعالى ورسوله فيما جاء به الرسول وأخبر به.

{يُسَارِعُونَ} : يبادرون.

{حِطًّا} : نصيباً.

{اشْتَرُوا الْكُفْرَ} : اعتاضوا الكفر عن الإيمان.

{نُمَلِّي لَهُمْ} : الإملاء: الإمهال والإرخاء بعدم البطش وترك الضرب على أيديهم بكفرهم.

{إِثْمًا} : الإثم: كل ضار قبيح ورأسه: الكفر والشرك.معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة أحد، ففي هذه الآيات الثلاث -وقد كشفت الأحداث عن أمور خطيرة، حيث ظهر النفاق مكشوفاً لا ستار عليه، وحصل من ذلك ألم شديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين- يخاطب الله تعالى رسوله قائلاً له: لا يحزنك إمسارعة هؤلاء المنافقين في

1 قرأ نافع: يحزنك، بضم الياء وكسر الزاي، من أحزن يحزن في كل القرآن إلا قوله تعالى: {لا

يَحْزُنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ} ، وقرأ الجمهور {يحزنك} بفتح الياء وضم الزاي.

2 قيل في هؤلاء المسارعين في الكفر: إنهم المنافقون، وقيل: هم كفار قريش، وقيل: هم اليهود،

واللفظ يشمل على ذلك، إذ الفئات الثلاث كلها كانت تسارع في الكفر بنصرته والعمل فيه وبه.

(1/413)

الكفر، وقال في الكفر ولم يقل إلى الكفر إشارة إلى أنهم ما خرجوا منه؛ لأن إسلامهم كان نفاقاً فقط،
{إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً} ، والله يريد أن لا يجعل لهم نصيباً من نعيم الآخرة. فلذا تركهم في كفرهم
كلما خرجوا منه عادوا إليه، وحكم عليهم بالعذاب العظيم فقال: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} . هذا ما
تضمنته الآية الأولى(176). أما الآية الثانية (177) فقد تضمنت حكم الله تعالى على الذين يرتدون
بعد إيمانهم فيبيعون الإيمان بالكفر، ويشترون الضلالة بالهدى حكم عليهم بأنهم لن يضرروا الله

شيئاً من الضرر، ولهم عذاب أليم فقال تعالى: ﴿لِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب الأليم هو عذاب النار إذ لا آلم ولا أشد إيجاعاً منه.
وأما الآية الثالثة (178) فقد تضمنت بطلان حسابان الكافرين أن الله تعالى عندما يمهلهم ويمد في أعمارهم ولم يعاجلهم بالعذاب أن ذلك خيرٌ لهم، لا، بل هو شر لهم، إذ كلما تأخروا يوماً اكتسبوا فيه إثماً فيقدر ما تطول حياتهم بعظم ذنبهم وتكثر آثامهم، وحينئذ يوبقون ويهلكون هلاكاً لا نظير له قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: ذو إهانة، لأنهم كانوا ذوي كبر وعلو في الأرض وفساد، فلذا ناسب أن يكون عذابهم اهانات لهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا ينبغي للمؤمن أن يحزنه كفر كافر ولا فسق فاسق، لأن ذلك لا يضر الله تعالى شيئاً، وسيجزى الله الكافر والفاسق بعدله.
- 2- لا ينبغي للعبد أن يغره إهمال الله له، وعليه أن يبادر بالتوبة من كل ذنب إذ ليس هناك إهمال وإنما هو إهمال.
- 3- الموت للعبد خير من الحياة؛ لأنه إذا كان صالحاً فالآخرة خير له من الدنيا وإن كان غير

1 ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ من الضرر لا في ذاته، ولا في دينه في ملكه، وسلطانه، ولا رسوله، وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم: "لا يعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني".

2 كرر لفظ: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ لأجل التأكيد والتقرير حتى يبأس المنافقون والكافرون من إلحاق أي ضرر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبدعوته، وشيئاً: منصوب على المصدرية، أي: لن يضرروا الله ضرراً قليلاً ولا كثيراً.

3 فسر الإملاء بطول العمر ورغد العيش وهو كذلك مع إضافة عدم معاجلتهم بالعقوبة إنظاراً لهم.
4 شاهده قول ابن مسعود رضي الله عنه: "ما من أحد بر ولا فاجر إلا والموت خير له لأنه إن كان براً فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، وإن كان فاجراً فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾". وروي مثله عن ابن عباس، أخرجه رزين.

ذلك حتى لا يزداد إثماً فيوبق بكثرة ذنوبه.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (179) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180)﴾

شرح الكلمات:

{لِيَذَرَ}: ليجتر.

{يَمِيزُ}: يميز ويبين.

{الْخَبِيثُ}: من خبثت نفسه بالشرك والمعاصي.

{الطَّيِّبُ}: من طهرت نفسه بالإيمان والعمل الصالح.

{الْغَيْبُ}: ما غاب فلم يدرك بالحواس.

{يَجْتَبِي}: يختار ويصطفي.

{يَبْخُلُونَ 1}: يمنعون ويضنون.

يطوقون به : يجعل طوقاً في عنق أحدهم.معنى الآيتين:

ما زال السياق في أحداث وقعة أحد، وما لازمها من ظروف وأحوال، فأخبر تعالى في هذه الآية (179) أنه ليس من شأنه تعالى أن يترك المؤمنين على ما هم عليه فيهم المؤمن الصادق

1 البخل بضم الباء وإسكان الخاء، والبخل بفتح الباء والخاء معاً هو أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه من زكاة أو ضيافة أو إطعام جائع وستر عارٍ، ولم يوجد من يقوم به سواه، وما لا يقال فيه بخيل شرعاً.

(1/415)

في إيمانه، والكاذب فيه وهو المنافق. بل لا بد من الابتلاء بالتكاليف الشاقة منها؛ كالجهد والهجرة والصلاة والزكاة، وغير الشاقة من سائر العبادات حتى يميز المؤمن الصادق وهو الطيب الروح، من المؤمن الكاذب وهو المنافق الخبيث الروح، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ 1 اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وذلك أن الله لم يكن من سننه في خلقه أن يطلعهم على الغيب فيميز المؤمن من المنافق، و البار من الفاجر، وإنما يبتلي بالتكاليف ويظهر بها المؤمن من الكافر والصالح من الفاسد. إلا أنه تعالى قد يجتبي من رسله من يشاء فيطلعهم على الغيب، ويظهره على مواطن الأمور وبناء على هذا 2 فآمنوا بالله ورسله حق الإيمان، فإنكم إن آمنتم صادق الإيمان

واتقيتم معاصي الرحمان كان لكم بذلك أعظم الأجر وهو الجنة دار الحبور والسرور هذا ما دلت عليه الآية (179)، أما الآية الثانية (180) فإن الله تعالى يخبر عن خط البخلاء الذين يملكون المال ويبخلون به فيقول: ولا يحسن أي ولا يظن الذين يبخلون بما آتاهم الله من المال الذي تفضل الله به عليهم أن بخلهم به خير لأنفسهم كما يظنون بل هو أي البخل شر لهم، وذلك لسببين الأول: ما يلحقهم في الدنيا من معرفة البخل وآثاره السيئة على النفس، والثاني: أن الله تعالى سيعذبهم به بحيث يجعله طوقاً من نار في أعناقهم، أو بصورة ثعبان فيطوقهم³، ويقول لصاحبه: "أنا مالك أنا كنزك" كما جاء في الحديث. فعلى من يظن هذا الظن الباطل أن يعدل عنه، ويعلم أن الخير في الإنفاق لا في البخل. وأن ما يبخل به هو مال الله، وسيرته، ولم يجن البخلاء إلا المعرفة في الدنيا والعذاب في الآخرة. قال تعالى: {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فاتقوه فيما آتاكم فاتوا زكاته وتطوعوا بالفضل فإن ذلك خير لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

- 1 روي أن الآية نزلت إجابة لمن طالبوا بعلامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من شأنه أن يترك المؤمنين على ما هم عليه في اختلاطهم مع المنافقين حتى ينزل من الشرائع والتكاليف وما يميز بفعله وتركه المؤمن من المنافق.
- 2 إذ العبرة ليست بمعرفة الغيب، وإنما العبرة بالنجاة من النار والفوز بالجنة، وعليه فأعرضوا عن المطالبة بمعرفة الغيب وأقبلوا على ما يحقق لكم نجاتكم وسعادتكم.
- 3 روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يؤخذ بلهزمته -يعني شديقه- ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ...} الآية.

(1/416)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- من حكم التكليف إظهار المؤمن الصادق من المؤمن الكاذب.
- 2- استنثار الرب تعالى بعلم الغيب دون خلقه إلا ما يطلع عليه رسله لحكمة اقتضت ذلك.
- 3- ثمن الجنة الإيمان والتقوى.
- 4- البخل بالمال شر لصاحبه، وليس بخير له كما يظن البخلاء.
- 5- من أوتي مالاً ومنع حق الله فيه عذب به يوم القيامة دلت على ذلك هذه الآية وآية 1 التوبة وحديث البخاري: "من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة

فياخذ بلهزمتيه - أي شذقيه - يقول أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ...﴾ الآية".
 ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
 وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (181) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (182) الَّذِينَ قَالُوا
 إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
 وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ
 وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184)﴾

1 هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *
 يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا
 كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

(1/417)

شرح الكلمات:

﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ 1 : هو عذاب النار المحرقة تحرق أجسادهم.
 ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ : أي: ذلك العذاب بسبب ما قدمته أيديكم من الجرائم.
 ﴿عَهْدٌ إِلَيْنَا﴾ : أمرنا ووصانا في كتابنا "التوراة".
 ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ : أي: لا نتابعه، على ما جاء به ولا نصدقه في نبوته.
 ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ : القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من حيوان وغيره يوضع في مكان فتنتزل
 عليه نار بيضاء من السماء فتحرقه.
 ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ : الآيات والمعجزات.
 ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ : أي: من القربان.
 ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ : الاستفهام للتوبيخ، ومن قتلوا من الأنبياء: زكريا ويحيى عليهما السلام.
 ﴿وَالزُّبُرِ﴾ : جمع زبور وهو الكتاب؛ كصحف إبراهيم.
 ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ : الواضح البين؛ كالتوراة والزبور والإنجيل.
 معنى الآيات:

لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ﴾ ودخل أبو بكر الصديق
 رضي الله عنه بيت "المدراس²" واليهود به وهم يستمعون لأكبر علمائهم وأجل أبحارهم فنحاص
 فدعاه أبو بكر إلى الإسلام، فقال فنحاص: إن رباً يستقرض، نحن أغنى منه! ينهانا صاحبك عن
 الربا ويقبله فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب اليهودي، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم فشكا أبا بكر فسأل الرسول أبا بكر قائلاً: "ما حملك على ما صنعت" ؟ فقال إنه قال: إن الله فقير ونحن أغنياء. فأنكر اليهودي فأنزل 3 الله تعالى الآية {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} ، أي: نكتبه أيضاً، ونقول لهم: {ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} ، وقولنا ذلك بسبب ما

1 الحريق: اسم للمتهبة من النار، إذ النار تشمل المتهبة وغير المتهبة.

2 بيت المعلم من بني إسرائيل.

3 إن من نزلت فيهم الآية لم يقتلوا الأنبياء وإنما قتلهم سلفهم ولكن برضاهم عن أسلافهم، وما صنعوا كان حكمهم حكم من قتل، لأن الرضا بالمعصية معصية. روى أن رجلاً حسن قتل عثمان عند الشعبي، فقال له الشعبي: "شاركت في دمه فجعل الرضا بالقتل قتلاً".

(1/418)

قدمته أيديكم من الشر والفساد وأن الله ليس بظلام للعبيد، فلم يكن جزاؤهم مجافياً للعدل ولا مباحداً له أبداً لنزله الرب تعالى عن الظلم لعباده، هذا ما تضمنته الآية الأولى (181) {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} ، والآية الثانية (182) {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ، وأما الآية الثالثة (183) وهي قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فقد تضمنت دعوى يهودية كاذبة بطالة لا صحة لها البتة، والرد عليها، فالدعوى هي قولهم إن الله قد أمرنا موصياً لنا أن لا نؤمن لرسول فنصدقه ونتابعه على ما جاء به، حتى يأتينا بقربان تأكله النار، يريدون صدقة من حيوان أو غيره توضع أمامهم فتنزل عليها نار من السماء فتحرقها، فذلك آية نبوته، وأنت يا محمد ما أتيتنا بذلك فلا نؤمن بك ولا نتابعك على دينك، وأما الرد فهو قول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل يا رسولنا: {قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ} وهي المعجزات، {وَبِالَّذِي قُلْتُمْ} وهو قربان تأكله النار فلم قتلتموهم، إذ قتلوا زكريا ويحي وحاولوا قتل عيسى، إن كنتم صادقين في دعواكم؟، وأما الآية الرابعة (184) فإنها تحمل العزاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول له ربه تعالى: {قَالُوا كَذَّبُواكَ} فلم يؤمنوا بك، فلا تحزن ولا تأسى لأنك لست وحدك الذي كذبت، فقد كذبت رسل كثير كرام، جاءوا أقوامهم بالبينات، أي: المعجزات، وبالزبر، والكتاب المنير؛ كاللورا والإنجيل وصحف إبراهيم وكذبته أممهم كما كذبك هؤلاء اليهود والمشركين معهم فاصبر ولا تحزن.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كفر اليهود وسوء أدبهم مع الله تعالى ومع أنبيائهم ومع الناس أجمعين.
- 2- تقرير جريمة قتل اليهود للأنبياء وهي من أبشع الجرائم.

1 روى القرطبي عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت رداً على كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وفنحاص بن عزريا أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له: أنتزم إن الله أرسلك إلينا وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقران تأكله النار فإن جئتنا به صدقناك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(1/419)

3- بيان كذب اليهود في دعواهم أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا بالرسول حتى 1 يأتيتهم بقران تأكله النار.

4- تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر والثبات أمام ترهات اليهود وأباطيلهم.
{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185) لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)}
شرح الكلمات:

{ذَائِقَةُ الْمَوْتِ 2}: أي: ذائقة موت جسدها، أما هي فإنها لا تموت.

{تُوَفَّقُونَ}: تعطون جزاء أعمالكم خيراً أو شراً وافية لا نقص فيها.

{زُحِرَ}: نجي وأبعد.

{فَازَ}: نجا من مرهوبه وهو النار، وظفر بمرغوبه وهو الجنة.

{مَتَاعُ الْغُرُورِ 3}: المتاع: كل ما يستمتع به، والغرور: الخداع، فشبهت الدنيا بمتاع خادع غار

صاحبه، لا يلبث أن يضمحل ويذهب.

1 وإن صحت دعواهم في التوراة فإن فيها استثناء عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أو هي منسوخة في الإنجيل ولكن ما رد الله تعالى به عليهم لا يتطلب مزيد حجج فإنه قاطع مفحم مسكت، ونص التوراة تامه: "حتى يأتيتكما المسيح ومحمد فإذا أتياكما فأمنوا بهما من غير قران".

2 قرئ: {ذائقة الموت} بالإضافة، و {ذائقة الموت} بدونها، والأولى قراءة العامة، وهذا مما لا

محيص للإنسان عنه. قال أمية بن الصلت:

من لم يمت عبطة يمت هرماً ... للموت كأس والمرء ذائقها

ومعنى: عبطة: شاباً، وللموت علامات من أبرزها عرق الجبين، وفي الحديث: "المؤمن يموت بعرق

الجبين". فإذا شوهدت لقن الميت لقوله صلى الله عليه وسلم: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله".

3 يوضح معنى متاع الغرور: قوله صلى الله عليه وسلم: "والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس

أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما ترجع إليه"، والغرور مصدر أضيف إليه المتاع، فالمتاع: ما

يتمتع به ثم يضمحل، وكونه للغرور زاد في التحذير منه، فلذا قال فيها قتادة: "الدنيا متاع متروك

يوشك أن تضمحل بأهلها".

(1/420)

{التَّبَلُّوْهُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}: لتختبرن في أموالكم بأداء الحقوق الواجبة فيها، أو بذهابها وأنفسكم

بالتكاليف الشاقة؛ كالجهاد والحج، أو المرض والموت.

{أَوْتُوا الْكِتَابَ}: لليهود والنصارى.

{الَّذِينَ أَشْرَكُوا}: العرب.

{فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}: يريد أن الصبر والتقوى من الأمور الواجبة التي هي عزائم وليس فيها

رخص ولا ترخيص بحال من الأحوال.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لقد جاء في الآية السابقة تسليية

الرسول صلى الله عليه وسلم عما آلمه من تكذيب اليهود والمشركين له، وفي هذه الآية أعظم تسليية

وعزاء، إذ أخبر تعالى فيها بأن كل نفس مهما علت أو سفلت ذائقة الموت 1 لا محالة، وإن الدنيا

ليست دار جزاء وإنما هي دار كسب وعمل، ولذا قد يجرم فيها المجرمون ويظلم الظالمون، ولا ينالهم

مكروه، وقد يحسن فيها المحسنون ويصلح المصلحون ولا ينالهم محبوب، وفي هذا تسليية عظيمة

وأخرى: العلم بأن الحياة الدنيا بكل ما فيها لا تعدو كونها متاع الغرور، أي: متاع زائل غار ببهرجه

وجمال منظره، ثم لا يلبث أن يذهب ويزول. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (185)، أما الآية

الثانية (186) ففيها يخبر تعالى رسوله والمؤمنين بأنهم لا محالة مختبرون في أموالهم وفي أنفسهم.

في أموالهم بالحوادث، وبالواجبات، وفي أنفسهم بالمرض والموت والتكاليف الشاقة؛ كالجهاد والحج

والصيام، وإنهم لا بد وأن يسمعوا من أهل الكتاب والمشركين أذى كبيراً كما قال فنحاص: الله فقير 2

ونحن أغنياء أو كما قال النصارى: المسيح ابن الله، وكما قال المشركون: اللات والعزى ومناة آلهة

مع الله. حثهم تعالى على الصبر

1 من أحكام الاحتضار: تلقين لا إله الا الله وقراءة يس، لتخفيف سكرات الموت لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما من ميت يقرأ عنده يس إلا هون الله عليه"، وفي حديث أبي داود: "اقرأوا يس على موتاكم"، ومن أحكام الموت: تغميض العينين، وغسل، وكفنه، والصلاة عليه، ودفنه في مقابر المسلمين، وتعجيل دفنه، والإسراع في المشي به، لحديث: "اسرعوا بالجنائز، فإن تك صالحاً فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم".

2 قال ابن أبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى رحلك لا تؤذنا في مجالسنا. وكان كعب بن الأشرف ينظم القصائد يسب فيها المسلمون ويؤلب فيها عليهم الكافرين، بل كان يتشيب بنساء المؤمنين، ولذا أذن الرسول في اغتياله فقتله غيلة: محمد بن مسلمة، وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين

(1/421)

والتقوى، فقال: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا} فَإِنْ صَبِرْكُمْ وَتَقَوَّكُمْ مِمَّا أَوْجِبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ بَابِ النَّدْبِ وَالِاسْتِحْبَابِ بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ الْفَرْضِ وَالْوَجُوبِ.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- ليست الدار الدنيا بدار جزاء وإنما هي دار عمل.

2- تعريف الفوز الحق وهو الزحزحة عن النار ودخول الجنة.

3- بيان حقيقة هذه الحياة وأنها كمتاع خادع لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

4- الابتلاء ضروري فيجب الصبر والتقوى فإنهما من عزائم الأمور لا من رخصها.

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْنُومُنَّهُ فَنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون (187) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189)}

شرح الكلمات:

الميثاق : العهد المؤكد باليمين.

{أُوتُوا الْكِتَابَ} : اليهود والنصارى.

الكتمان : إخفاء الشيء وجوده حتى لا يرى ولا يعلم.

{فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} : ألقوه وطرحوه ولم يلتفتوا إليه، وهو ما أخذ عليهم العهد والميثاق فيه من

الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الإسلام.

1 الضمير عائد إلى الكتاب، أي: أقسم عليكم بجلالي وكمالي لتظهرن جميع ما في الكتاب من الأحكام والأخبار، ومنها: نعوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته.

(1/422)

{وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} : اعتاضوا عنه حطام الدنيا ومتاعها الزائل إذ كتموه. إبقاء على منافعهم الدنيوية.

{أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا} : أي: يثني عليهم وينكروا بخير وهم لم يفعلوا ما يوجب لهم ذلك.
{بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ} : بمنجاة من العذاب في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم.
معنى الآيات:

ما زال السياق في اليهود فيقول تعالى لنبيه، واذكر لهم إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى أخذ على علمائهم العهد المؤكد بأن يبينوا للناس نعوت النبي صلى الله عليه وسلم في كتابهم، وأن يؤمنوا به ويتابعوه على ما جاء به من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، ولكنهم كتموه ونذوه وراء ظهورهم فلم يلتفتوا إليه واستبدلوا بذلك ثمنًا قليلاً وهو الجاه والمنصب والمال، قال تعالى: {وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} وذم الله تعالى ذلك الثمن القليل فقال: {فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} ، هذا ما تضمنته الآية الأولى (187)، وأما الآية الثانية (188) {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} . فإن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: لا تحسبن يا رسولنا الذين يفرحون بما أتوا من الشر والفساد بتحريف كلامنا وتبديل أوامرنا وتغيير شرائعنا وهم مع ذلك يحبون أن يحمدهم الناس أي يشكروهم ويثنوا عليهم، ما لم يفعلوا من الخير والإصلاح إذ عملهم كان العكس وهو الشر والفساد من اليهود، ولا تحسبنهم بمفازة، أي: بمنجاة من العذاب، ولهم عذاب أليم يوم القيامة. وأما الآية الثالثة (189) فقد أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير فدل ذلك على قدرته على البطش بالقوم والانتقام منهم، وأنه منجز وعيده لهم وهو عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة فقال: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

1 روى البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين كانوا إذا خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، فنزلت

هذه الآية. وروي في سبب نزولها الخبر الآتي: إن مروان بعث بأحد رجاله إلى ابن عباس يسأله قائلاً: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعدين أجمعين؟ فقال ابن عباس: "ما لكم وهذه إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا هذه الآية: {وَأَذِ اللَّهُ مِيثَاقَ} إلى قوله: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

(1/423)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- أخذ الله الميثاق على علماء أهل الكتاب ببيان الحق يتناول علماء 1 الإسلام فإن عليهم أن يبثوا الحق ويجهروا به، ويحرم عليهم كتمانهم² أو تأويله إرضاء للناس ليحوزوا على مكسب دنيوي مالا أو جاهاً أو سلطاناً.

2- لا يجوز للمسلم أن يحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والمعروف، بل من الكمال أن لا يرغب المسلم في مدح الناس وثنائهم وهو فاعل لما يستوجب ذلك فكيف بمن لم يفعل ثم يحب أن يحمد. بل بمن يفعل الشر والفساد ويحب أن يحمد عليه بالتصفيق³ له وكلمة يحي فلان...
3- ملك الله تعالى لكل شيء وقدرته على كل شيء توجب الخوف منه والرغبة إليه وأكثر الناس عن هذا غافلون، وبه جاهلون.

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ

1 قال محمد بن كعب لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ولا لجاهل أن يسكت على جهله، قال الله تعالى: {وَأَذِ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} الآية، وقال: {فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ، وقال على رضي الله عنه: "ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا".

2 شاهده ما جاء من طرق متعددة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سئل عن عمل فكتمه أجم يوم القيامة بلجام من نار" . وشاهده أيضاً: حديث البخاري: "من كتم علماً أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة" .

3 هذا حال الكثير من زعماء أمة الإسلام في عصور انحطاطها وفساد عقائدها وأخلاقها وانحراف سلوكها نتيجة كيد المجوس لها واليهود والنصارى كذلك.

(1/424)

أَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)

شرح الكلمات:

{فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} : أي: في وجودهما من العدم.

{وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} : تعاقبهما هذا يجيء وذاك يذهب، هذا مظلم وذاك مضيء.

{لآيَاتٍ} : دلائل واضحة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته.

{لأُولِي الْأَلْبَابِ} : أصحاب العقول التي تُدرك بها الأشياء وتفهم بها الأدلة.

{رَبَّنَا} : يقولون: ربنا إلخ...

{بِاطِلًا} : لا لشيء مقصود منه، وإنما هو من باب اللعب.

{سُبْحَانَكَ} 1 : تنزيهاً لك عن العبث واللعب، وعن الشريك والولد.

{فَقِنَّا عَذَابَ النَّارِ} : أجزنا واحفظنا من عذاب النار بتوفيقك لنا للأعمال الصالحة وتجنينا الأعمال

الفاصلة الموجبة لعذاب النار.

{أَخْرَجْنَاهُ} : أذللته وأشقيته

1 روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن معنى: سبحان الله، فقال: "تنزيه الله عن السوء".

(1/425)

{وَكَفَّرَ عَنَّا} : استر وامح.

{الْأَبْرَارِ} : جمع بر أو بار، وهم المتمسكون بالشرعية.

{عَلَى رُسُلِكَ} : على السنة رسلك من النصر والتأييد.

{الميعاد}: الوعد.

{هاجروا}: تركوا بلادهم وديارهم وأموالهم وأهليهم فراراً بدينهم.

{وأودنوا في سبيلي}: أذاهم المشركون من أجل الإيمان بي ورسولي وطاعتنا.

{ثواباً من عند الله}: أي: أجراً جزاء كائناً من عند الله، وهو الجنات بعد تكفير السيئات.

معنى الآيات:

لما قال اليهود تلك المقالة السيئة: إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء، وحرفوا الكتاب وبدلوا وغيروا ويحبون أن يحمدا على باطلهم كانت مواقفهم هذه دالة على عمى في بصائرهم، وضلال في عقولهم، فذكر تعالى من الآيات الكونية ما يدل على غناء، وافتقار عباده إليه، كما يدل على ربوبيته على خلقه، وتدبيره لحياتهم وتصرفه في أمورهم، وأنه ربهم لا رب لهم غيره وإلههم الذي لا إله لهم سواه إلا أن هذا لا يدركه إلا أرباب العقول الحسنة والبصائر النيرة، فقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} نعم إن في إيجاد السموات والأرض من العدم وفي اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والظلام والضياء، والتعاقب بذهاب هذا ومجيء ذلك دلائل واضحات على غنى الله وافتقار عباده وبراهين ساطعة على ربوبيته لخلقهم وألوهيته لهم. هذا ما تضمنته الآية الأولى (190)، وأما الآيات الأربع بعدها فقد تضمنت وصفاً لأولي الأبواب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض فيهتدون إلى معرفة الرب تعالى فيذكرونه ويشكرونه. فقال تعالى عنهم: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا² وَرُكُوعًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} وهذا شامل لحالهم في الصلاة³

1 صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل قرأ هذه الآيات العشر، فلذا استحب لمن قام من ليله ليتجهد أن يقرأها ويتفكر فيها، وورد عن عثمان: من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة".

2 شاهد هذا قول عائشة في الصحيح: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيائه". ومن الأدب أن يستثنى من هذا لعموم حالة التبول وقضاء الحاجة في الكنف.

3 لحديث عمران بن حصين رضي الله عنهما إذ قال: "كان بي البواسير فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: صلي قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب" رواه الأئمة، وفي مسلم: "أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى النافلة قاعداً وذلك قبل موته بعام".

وخارج الصلاة. وقال عنهم: {وَيَتَفَكَّرُونَ 1 فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ، أي: في إيجادهما وتكوينهما وإبداعهما، وعظيم خلقهما، وما أودع فيهما من مخلوقات. فلا يلبثون أن يقولوا: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} ، أي: لا لحكمة مقصودة ولا لهدف مطلوب، بل خلقته بالحق، وحاشاك أن تكون من اللاعبين العابثين سبحانهك تنزيها لك عن العبث واللعب بل خلقت ما خلقت لحكم عالية لأجل أن تذكر وتشكر، فنكرم الشاكرين الذاكرين، في دار كرامتك وتهين الكافرين في دار عذابك، ولذا قالوا: في الآية(192) {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} . والظالمون هم الكافرون، ولذا يعدمون النصير ويخزون بالعذاب المهين، وقال عنهم في الآية(193) {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} ، والمنادي هو القرآن الكريم والرسول2 صلى الله عليه وسلم وتوسلوا بإيمانهم لربهم طالبين أشرف المطالب وأسماها مغفرة ذنوبهم ووفائهم مع الأبرار فقالوا {رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ 3} وهو ما جاء في الآية(193)، وأما الآية الخامسة(194) فقد سألو ربهم أن يعطيهم ما وعدهم على السنة رسله من النصر والتمكين في الأرض، هذا في الدنيا، وأن لا يخزيهم يوم القيامة بتعذيبهم في النار، فقالوا: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ، أي: وعدك الحق، وفي الآية السادسة(195) ذكر تعالى استجابته لهم فقال لهم: {أَتَى لَا أَضِيعُ عَمَلًا عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى} بل أجازي الكل بعمله لا أنقصه له ذكراً كان أو أنثى لأن بعضكم من بعض الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر فلا معنى للفرقة بينكم، وذكر تعالى بعض أعمالهم الصالحة التي استوجبوا بها هذا الإنعام فقال: {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا} ، وواعدهم قائلاً: {لَاكُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ، وكان ذلك ثواباً منه تعالى على أعمالهم الصالحة، والله عنده حسن الثواب، فليرغب إليه، وليطمع فيه، فإنه البر الرحيم.

1 الفكرة: تردد القلب في الشيء، والتفكر ممدوح ما كان في خلق السموات والأرض، وفي أحوال القيامة والمعاد والجزاء والدار الآخرة، وورد النهي عن التفكير في ذات الله، إذ قال صلى الله عليه وسلم: "تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرُونَ قدره" .

2 أي: محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن مسعود، وابن عباس، وأكثر المفسرين، وقال قتادة وغيره: هو القرآن. والكل صحيح، والرسول نادی، والقرآن نادی إلى اليوم.

3 لم ما قالوا: وتوفنا مع الأبرار؟ إنهم هضماً لأنفسهم وتواضعاً لربهم وإعلاناً عن رغبتهم في الالتحاق بربهم حباً في لقاءه، والحياة إلى جواره في الملكوت الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب التفكير في خلق السموات والأرض للحصول على المزيد من الإيمان والإيقان.
- 2- استحباب تلاوة هذه الآيات: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ...} إلى آخر السورة، وذلك عند القيام للتهجد آخر الليل لثبوت ذلك في الصحيح 1 عنه صلى الله عليه وسلم.
- 3- استحباب ذكر الله في كل حال 2 من قيام أو قعود أو اضطجاع.
- 4- استحباب التعوذ من النار بل وجوبه ولو مرة في العمر.
- 5- مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال.
- 6- فضل الهجرة والجهاد في سبيل الله.
- 7- المساواة بين المؤمنين والمؤمنات في العمل والجزاء.
- 8- استحباب الوفاة بين الأبرار وهم أهل الطاعة لله ولرسوله والصدق فيها وذلك بالحياة معهم والعيش بينهم لتكون الوفاة بإذن الله معهم.

{لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ

1 روى الشيخان عن ابن عباس: أنه نام ليلة عند خالته ميمونة، قال: فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر في السماء فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ} الآيات، ثم قام فتوضأ، واستن ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال، فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

2 شاهده حديث عائشة الصحيح: "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله على كل أحيانه".

(1/428)

سَرِيْعُ الْحِسَابِ (199) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)}
شرح الكلمات:

{لَا يَغُرَّتْكَ} : لا يكن منك اغترار، المخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد أصحابه وأتباعه.

{تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ} : تصرفهم فيها بالتجارة والزراعة والأموال والمآكل والمشارب.
 {مَتَاعٌ قَلِيلٌ} : تصرفهم ذلك هو متاع قليل يتمتعون به أعواماً وينتهي.
 {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} : مآلهم بعد التمتع القليل إلى جهنم يأوون إليها فيخلدون فيها أبداً.
 {نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} : النزل: ما يعد للضعيف من قرى: طعام وشراب وفرش.
 الأبرار : جمع بار، وهو المطيع لله ولرسوله الصادق في طاعته.
 {وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ} : القرآن والسنة، وما أنزل إليهم؛ التوراة والإنجيل.
 {خَاشِعِينَ لِلَّهِ} : مطيعين مخبتين له عز وجل.
 {لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} : لا يجحدون أحكام الله وما أمر ببيانه للناس مقابل منافع تحصل لهم.
 {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا}1 : الصبر: حبس النفس على طاعة الله ورسولهن والمصابرة: الثبات والصمود أمام العدو.
 {وَرَابِطُوا} : المرابطة: لزوم الثغور منعاً للعدو من التسرب إلى ديار المسلمين.
 {تُفْلِحُونَ} : تفوزون بالظفر المرغوب، والسلامة من المرهوب في الدنيا والآخرة.

1 الصبر المأمور به له مواطن ثلاثة: وهي صبر على الطاعات، وصبر دون المعاصي، وصبر على البلاء. فلا جزع ولا تسخط، ولكن رضاً وتسليماً.

(1/429)

معنى الآيات:

ينهى الله تبارك وتعالى دعاة الحق من هذه الأمة في شخصية نبيهم صلى الله عليه وسلم أن يغرهم1، أي: يخدعهم ما يتصرف فيه أهل الكفر والشرك والفساد من مكاسب وأرباح وما يتمتعون به من مطاعم ومشارب ومراكب، فيظنون أنهم على هدى أو أن الله تعالى راضٍ عنهم وغير ساخط عليهم، لا، لا، إنما هو متاع في الدنيا قليل، ثم يردون إلى أسوأ مأوى وشر قرار إنه جهنم التي طالما مهدوا لدخولها بالشرك والمعاصي، وبئس المهاد مهدوه لأنفسهم الخلود في جهنم. هذا معنى الآيتين الأولى والثانية وهما قوله تعالى: {لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ 2 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} ، أما الآية الثالثة (198)، وهي قوله تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ 3 لِلْأَبْرَارِ} فإنها قد تضمنت استدراكاً حسناً وهو لما ذكر في الآية قبلها مآل الكافرين وهو شر مآل جهنم وبئس المهاد، ذكر في هذه الآية مآل المؤمنين وهو خير مآل: {جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} ، وما عند الله تعالى من النعيم المقيم في دار السلام خير لأهل الإيمان والتقوى من الدنيا وما فيها فلا يضرهم أن يكونوا فقراء، وأهل الكفر أغنياء موسرين، أما الآية الرابعة (199) وهي قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ} الآية فإنها تضمنت الرد الإلهي على بعض المنافقين الذين أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين صلاتهم على النجاشي بعد موته، إذ قال بعضهم انظروا إلى محمد وأصحابه يصلون على علق مات في غير ديارهم وعلى غير ملتهم، وهم يريدون بهذا الطعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فرد الله تعالى عليهم بقوله: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} أي: اليهود والنصارى لمن يؤمن بالله، وما أنزل إليكم أيها المؤمنون، وما أنزل

- 1 أي: خير مما يتقلب فيه الكفار من متاع في الدنيا في الدنيا.
- 2 روى في سبب نزول هذه الآية: أن بعضاً من المسلمين قالوا: هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال، واضطراب في البلاد، وقد هلكتنا نحن من الجوع. فنزلت الآية.
- 3 الغر، والغرور: هو الإطماع في أمر محبوب على نية عدم وقوعه لمن يطمع به، ويغرر. وهو أيضاً: إظهار الأمر المضر في صورة النافع، وهو مشتق من الغرة، وهي الغفلة. يقال: رجل غر، إذا كان ينخدع لمن يخدعه. وفي الحديث: "المؤمن غر كريم".
- 4 ثبت في الصحيحين: "أن النجاشي لما مات نعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال: "إن أحمأ لكم بالحبشة قد مات، فصلوا عليه"، فخرجوا إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه". وروى غير واحد عن أنس بن مالك أنه قال: "لما توفى النجاشي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفروا لأخيكم. فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...} الآية.

(1/430)

إليهم في التوراة والإنجيل خاشعين لله، أي: خاضعين له عابدين، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً كسائر اليهود والنصارى حيث يحرفون كلام الله ويخفون منه ما يجب أن يظهره ويبينوه حفاظاً على منصب أو سمعة أو منفعة مادية، أما هؤلاء وهم: عبد الله بن سلام من اليهود وأصحمة النجاشي من النصارى، وكل من أسلم من أهل الكتاب فإنهم المؤمنون حقاً المستحقون للتكريم والإنعام قال تعالى فيهم أولئك لهم أجرهم عند ربهم يوفيهم إياه يوم القيامة إن اله سريع الحساب، إذ يتم حساب الخلائق كلهم في مثل نصف يوم من أيام الدنيا.

هذا ما تضمنته الآية الرابعة (199)، أما الآية الخامسة والأخيرة (200) وهي قوله تعالى: يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا صَبَرُوا وَصَابِرُوا 1 وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} فإنها تضمنت دعوة كريمة ونصيحة
غالية ثمينة للأمة الرحيمة بأن تصبر على الطاعات وعلى الشدائد والملامات فتصابر أعداءها حتى
يُسلموا أو يسلموا القياد لها. وترابط بخيولها وآلات حربها في حدودها وثغورها مرهبة عدوها حتى لا
يطمع في غزوها ودخول ديارها. ولتتق الله تقوى تكون سبباً في فوزها وفلاحها بهذه الرحمة الربانية
ختمن سورة آل عمران المباركة ذات الحكم والأحكام وتليها سورة النساء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تنبيه المؤمنين وتحذيره من الاغترار بما يكون عليه الكافرون من سعة الرزق وهناءة العيش فإن
ذلك لم يكن عن رضى الله تعالى عنهم، وإنما هو متاع في الدنيا حصل لهم بحسب سنة الله تعالى
في الكسب والعمل ينتج لصاحبه بحسب كده وحسن تصرفه.
- 2- ما أعد لأهل الإيمان والتقوى وهم الأبرار من نعيم مقيم في جوار ربهم خير من الدنيا وما فيها.
- 3- شرف مؤمني أهل الكتاب وبشارة القرآن لهم بالجنة وعلى رأسهم عبد الله بن سلام وأصحمة
النجاشي.

1 المصابرة: هي الصبر في وجه العدو الصابر، ومن هنا كانت المصابرة أشد من الصبر؛ لأنها
صبر في وجه عدو صابر، فأيهما لم يثبت على صبره هلك، وأصبح النجاح لأطولهما صبراً. قال
زفر بن الحارث في اعتذاره عن الانهزام:
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ...
ولكنهم كانوا على الموت أصبراً

(1/431)

-
- 4- وجوب الصبر والمصابرة والتقوى والمرابطة 1 للحصول على الفلاح الذي هو الفوز المرغوب
والسلامة من المرهوب في الدنيا والآخرة.

1 المرابطة: مصدر رباط رباطاً إذا حبس نفسه في ثغر من ثغور المسلمين يحرسها من مداهمة
العدو الكافر لها، وفضل الرباط عظيم، ووردت فيه أحاديث كثيرة، نكتفي منها بما يلي حديث
البخاري: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها". وحديث مسلم: "رباط يوم وليلة خير من
صيام شهر وقيامه"، وإن مات مرابطاً جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن
الفتان.

سورة النساء

...

سورة النساء

مدنية 2

وآياتها 176 آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)}

شرح الكلمات:

{النَّاسُ} : البشر، واحد الناس من غير لفظه وهو إنسان.

{اتَّقُوا رَبَّكُمُ} : خافوه إن يعذبكم فامنتلوا أمره واجتنبوا نهيه.

{مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} 3 : هي آدم عليه السلام.

{وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} : خلق حواء من آدم من ضلعه 4.

{وَبَثَّ} : نشر وفرق في الأرض من آدم وزوجه رجالاً ونساء كثيراً.

{تَسَاءَلُونَ بِهِ} : كقول الرجل لأخيه: أسألك بالله أن تفعل لي كذا.

{وَالْأَرْحَامَ} : الأرحام: جمع رحم، والمراد من اتقاء الأرحام صلتها وعدم قطعها.

{رَقِيبًا} : الرقيب: الحفيظ العليم.

2 الآية: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا} فإنها مكية، فإنها نزلت يوم الفتح في مكة في

شأن عثمان بن طلحة الحجي.

3 لفظ النفس: مؤنث قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا} أي: النفس، ولذا وصفت هنا بواحدة لا بواحد.

4 قال قتادة: "خلقت حواء من قصيراء آدم، وفي الحديث: "المرأة من ضلع...".

معنى الآية الكريمة:

ينادي الرب تبارك وتعالى عباده بلفظ عام يشمل مؤمنهم وكافرهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} ويأمرهم بتقواه عز

وجل وهي اتقاء عذابه في الدنيا والآخرة بالإسلام التام إليه ظاهراً وباطناً. واصفاً نفسه تعالى بأنه ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة وهي آدم الذي خلقه من طين، وخلق من تلك النفس زوجها 1 وهي حواء، وأنه تعالى بث منهما أي: نشر منهما في الأرض رجالاً كثيراً ونساء كذلك ثم كرر الأمر بالتقوى، إذ هي ملاك الأمر، فلا كمال ولا سعادة بدون الالتزام بها قائلاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ 2 الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ 3﴾ أي: اتقوا الله ربكم الذي آمنت به قلوبكم فكنتم إذا أراد أحدكم من أخيه شيئاً قال له أسألك بالله إلا أعطيتني كذا... واتقوا الأرحام 4 أن تقطعوا فإن في قطعها فساداً كبيراً وخطراً عظيماً يصيب حياتكم فيفسدها عليكم، وتوعدهم تعالى إن لم يمتثلوا أمره بتقواه ولم يصلوا أرحامهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ مراعيّاً لأعمالكم محصياً لها حافظاً يجزيكم بها ألا أيها الناس فاتقوه. هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

- 1- فضل هذه الآي إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حاجة تلا آية آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. وتلا هذه الآية، ثم آية الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤَلُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، ثم يقول: أما بعد ويذكر حاجته.
- 2- أهمية الأمر بتقوى الله تعالى إذا كررت في آية واحدة مرتين في أولها وفي آخرها.
- 3- وجوب صلة الأرحام وحرمة قطعها.
- 4- مراعاة الأخوة البشرية بين الناس واعتبارها في المعاملات.

-
- 1 الفصيح هو: لفظ زوج، ولذا لم يرد في القرآن بالتاء قط، وتساهل فيه الفقهاء لأجل التفرقة بين الرجل والمرأة، ولهذا يقولون للزوج كذا، وللزوجة كذا.
 - 2 الإتيان باسم الجلالة هنا: ﴿واتقوا الله﴾ بدل: اتقوا ربكم من أجل تربية المهابة في نفس السامعين لأن المقام مقام تشريع فلا بد من إعداد النفوس لقبوله والنهوض به.
 - 3 الأرحام: معطوف على اسم الجلالة منصوب، أي: اتقوا الله أن تعصوه، والأرحام أن تعطوها. وقرئ: الأرحام بالجر عطفاً على الضمير في به، وهو قبيح. إذ لا يعطف على الضمير المجرور إلا إذا أعيد حرف الجر إلا ما كان ضرورة الشعر؛ كقول القائل:
فاليوم قريت تهجونا وتشتننا ... فاذهب فما بك والأيام من عجب
وعظم القبح؛ لأن في ذلك حلف بالرحم، والحلف بغير الله حرام.
 - 4 الأرحام: اسم لكل الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، وصلة الرحم واجبة إجماعاً، وفي الحديث: "صلي أمك" أمر لأسماء، وأمها كانت يومئذ كافرة. وقال صلى الله عليه وسلم: "من ملك ذا رحم محرم فقد عتق عليه".

{وَأَتْوَا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} (2)
وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا} (3) وَأَتْوَا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ
عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} (4)

شرح الكلمات:

{الْيَتَامَى}: جمع يتيم ذكراً كان أو أنثى، وهو من مات والده وهو غير بالغ اللحم.

{وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ}: الخبيث: الحرام، والطيب: الحلال، والمراد بها هنا الرديء والجيد.

{حُوبًا كَبِيرًا}: الحوب: الإثم العظيم.

{أَلَّا تُفْسِدُوا}1: أن لا تعدلوا.

{مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ}: أي: اثنتين أو ثلاث، أو أربع إذ لاتحل الزيادة على الأربع.

{أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا}: أقرب أن لا تجوروا بترك العدل بين الزوجات.

{صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً}3: جمع صدقة، وهي الصداق والمهر، ونحلة بمعنى فريضة واجبة.

{هَنِيئًا}: الهنيء: ما يستلذ به عند أكله.

{مَرِيئًا}: المريء: ما تحسن عاقبته بأن لا يعقب آثاراً سيئة.

1 روى مسلم عن عائشة في قوله تعالى: {وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا} إلى قوله: {وَرُبَاعَ}، قالت لعروة:
"يا ابن أخي: هي اليتيمة، تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه ماله وجمالها فيريد وليها
أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن
يقسطوا ويبلغوا بهن سنتهن من الصداق، وأمره أن ينكحوا ما طاب لهم" الحديث.

2 استنبط من إباحة أربع أن الزوج عليه أن يبيت مع زوجته ليلة من أربع، ولا يجوز التقصير في
ذلك إلا برضاها.

3 وبنو تميم، يقولون: صدقة بضم الصاد، والجمع: صدقات. والنحلة: بكسر النون وضمها، أصلها:
العتاء، يقال: نحله كذا أعطاه. فالصداق عطية من الله للمرأة، وما دام عطية الله، فهي إذاً
فريضة واجبة.

معنى الآيات:

لما أمر تعالى بصلة الأرحام وحرمة قطعها في الآية السابقة أمر في هذه الآية أوصياء اليتامى أن يعطوا اليتامى 1 أموالهم إذا هم بلغوا سن الرشد وآنسوا منهم الرشد، فقال تعالى: {وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ} . ونهاهم محرماً عليهم أن يستبدلوا أموال اليتامى الجيدة بأموالهم الرديئة فقال تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ} ، أي: الرديء من أموالكم بالطيب من أموالهم، ملا في ذلك من أذية اليتيم في ماله، ونهاهم أيضاً أن يأكلوا أموال يتاماهم مخلوطة مع أموالهم لما في ذلك من أكل مال اليتيم بغير حق فقال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ 2 إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ} ، وعلل ذلك بأنه إثم عظيم فقال عز وجل: {إنه} أي: الأكل {كَانَ حُبًّا كَبِيرًا} والحب الإثم. هذا معنى الآية الأولى (2) {وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ 3 أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا} ، وأما الآية الثانية (3) فقد أرشد الله تعالى أولياء اليتيمات أن هم خافوا أن لا يعدلوا معهن إذا تزوج أحدهم وليته أرشدهم أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء غير ولياتهم مثني، وثلاث ورباع 5. يريد اثنتين أو ثلاث أو أربع كل بحسب قدرته، فهذا خير من الزواج بالولية فيهضم حقها وحقها أكد لقرابتها. هذا معنى قوله تعالى: {وَأَنْ خِفْتُمْ 4 أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} . وقوله: {فَإِنْ خِفْتُمْ 5 أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} يريد تعالى وإن خاف المؤمن ألا يعدل بين زوجاته لضعفه فليكتف بواحدة ولا يزد عليها غيرها أو يتسرى بمملوكته إن كان له مملوكة فإن هذا أقرب إلى أن لا يجور المؤمن ويظلم نساءه. هذا معنى قوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ 6 أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ 7 أَدْنَىٰ 8 أَلَّا تَعُولُوا} . وفي الآية الرابعة والأخيرة يأمر تعالى بأن يعطوا النساء مهورهن فريضة منه تعالى فرضها على

1 هذا باعتبار ما كانوا عليه، أما اليوم فليسوا يتامى، إذ لا يتم مع البلوغ.

2 قيل: إلى هنا بمعنى مع، وهو سائغ إلى أنها على بابها أولى والتقدير ولا تأكلوا أمواله مضافة إلى أموالكم.

3 أي: أعطوا، يقال: أتاه كذا، أعطاه إياه والإيتاء مصدر الإعطاء، ويقال لفلان: أتوا، أي: عطاء، ويقال: أتوت الرجل أتوه إيتاؤه وهي الرشوة، وإيتاء اليتامى أموالهم صورتان: الأولى: غذائهم وكساؤهم ما داموا تحت الولاية، والثانية: دفع أموالهم إليهم، وذلك عند البلوغ والرشد.

4 الحوب: الإثم، وفيه لغات: الحوب بضم الحاء، والحوب بفتحها، والحيابة والحاب أيضاً، وهو مصدر كالقال من قال: قولاً وقالاً، ويكون الحوب بالضم بمعنى الوحشة، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب: "إن طلاق أم أيوب لحوب"، والحوبة: الإثم ومنه: اللهم اغفر حوبتي، والحوبة: الحاجة، ومنه: إليك أرفع حوبتي، أي: حاجتي. هذا في الدعاء.

5 الإجماع على أن المراد من قوله تعالى: {مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} أن ينكح الرجل اثنتين أو ثلاثاً أو

أربعاً على التخيير، وليس معناه الجمع بين تسع نساء، ومن فعل وهو عالم يحد بالرجم، وإن كان جاهلاً يحد بالجد.

(1/435)

الرجل لامرأته، فلا يحل له ولا لغيره أن يأخذ منها شيئاً إلا يرضى الزوجة فإن هي رضيت فلا حرج في الأكل من الصداق لقوله تعالى: {فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} .
هداية الآيات:
من هداية الآيات:

- 1- كل مال حرام فهو خبيث، وكل حلال فهو طيب.
 - 2- لا يحل للرجل أن يستبدل جيداً من مال يتيمه بمال رديء من ماله؛ كأن يأخذ شاة سمينية ويعطيه هزيلة أو يأخذ تمراً جيداً ويعطيه رديئاً خسيئاً.
 - 3- لا يحل خلط مال اليتيم مع مال الوصي ويؤكلان جميعاً لما في ذلك من أكل مال اليتيم ظلماً.
 - 4- جواز نكاح أكثر من واحدة إلى أربع مع الأمن من الحيف والجور.
 - 5- وجوب مهر النساء وحرمة الأكل منها بغير طيب نفس صاحبة المهر وسواء في ذلك الزوج، وهو المقصود في الآية أو الأب والأقارب.
- {وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (5)
وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا
وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} (6)

شرح الكلمات:

{وَلَا تَوْتُوا1} : لا تعطوا.

1 في الآية دليل على مشروعية الحجر على السفیه، وسواء كان السفه لصغر أو لخفة عقل أو عدم رشيد.

(1/436)

{السُّفَهَاءُ} : جمع سفیه، وهو من لا يحسن التصرف في المال.
{قِيَامًا1} : القيام: ما يقوم به الشيء، فالأموال جعلها الله تعالى قياماً، أي: تقوم عليها معاش الناس ومصالحهم الدنيوية والدينية أيضاً.
{قَوْلًا مَعْرُوفًا} : أي: قولاً تطيب2 به نفسه فلا يغضب ولا يحزن.
{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى} : أي: اختبروهم كي تعرفوا هل أصبحوا يحسنون التصرف في المال.
{بَلَّغُوا النَّكَاحَ} : أي: سن الزواج، وهي البلوغ.
{أَنْسَأْتُمْ} : أبصرتم الرشد في تصرفاتهم3.
{إِسْرَافًا وَبِدَارًا} : الإسراف: الإنفاق في غير الحاجة الضرورية، والبدار: المبادرة والمصارعة إلى الأكل منه قبل أن ينقل إلى اليتيم بعد رشده.
{فَلْيَسْتَعْفِفْ} : أي: يعف بمعنى يكف عن الأكل من مال يتيمه.
{فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} : أي: بقدر الحاجة الضرورية.
{وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} : شاهداً لقرينة فأشهدوا عليهم.
معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في إرشاد الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا، ونجاتهم وفلاحهم في الآخرة فقال تعالى في الآية الأولى (5) {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ4 فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} ، فنهاهم تعالى أن يعطوا أموالهم التي هي قوام معاشهم السفهاء من امرأة وولد أو رجل قام به وصف السفه، وهو قلة البصيرة بالأمر المالية، والجهل بطرق التصرف الناجحة مخافة أن ينفقوها في غير وجوها، أو يفسدوها بأي نوع من الإفساد، كالإسراف ونحوه، وأمرهم أن يرزقوهم فيها ويكسوهم، وقال فيها ولم يقل منها إشارة إلى أن المال ينبغي في تجارة أو صناعة أو

-
- 1 قياماً: أصلها: قواماً، فكسر ما قبل الواو فقلبت ألفاً قياماً وقواماً بمعنى واحد، والقيام والقوام ما يقيم غيره، فالأموال بها يتقوم المعاش، ولذا قيل: ا لأموال قوام الأعمال.
 - 2 كقوله لولد: مالي إليك صائر، وكأن يدعو لهم: بارك الله فيكم، أو يقول: هذا مالكم احفظه لكم لتأخذوه يوم ترشدون.
 - 3 دفع مال اليتيم إليه يتم بشرطين: الرشد والبلوغ. فإن وجد أحدهما دون الآخر فلا يتم تسليم المال.
 - 4 في هذه الآية دليل على مشروعية الوصاية والولاية والكفالة على الأيتام وبها دليل على وجوب النفقة على الزوجة والأولاد، وفي الصحيح: "إفضل الصدقة ما ترك غني، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول" وهم الزوجة والولد والعبد.

زراعة فيبقى رأس المال والكل يكون من الریح فقط، كما أمرهم أن يقولوا لسفائهم الذين منعوهم المال أن يقولوا لهم قولاً معروفاً؛ كالعدة الحسنة والكلمة الطيبة، هذا ما تضمنته الآية الأولى، أما الثانية (6) فقد أمرهم تعالى باختبار 1 اليتامى إذا بلغوا سن الرشد أو ناهزوا البلوغ 2 بأن يعطوا شيئاً من المال ويطلبوا منهم أن يبيعوا أو يشتروا فإذا وجدوا منهم حسن تصرف دفعوا إليهم أموالهم وأشهدوا عليهم، حتى لا يقول أحدهم في يوم من الأيام ما أعطيتني مالي، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ أي: شاهداً ورقبياً حفيظاً. ونهاهم عز وجل أن يأكلوا أموال اليتامى إسرافاً وبداراً أن يكبروا ويريد لا تأكلوا أموال يتامكم أيها الولاة والأوصياء 3 بطريق الإسراف، وهو الإنفاق الزائد على قدر الحاجة، والمبادرة هي المسارعة قبل أن يرشد السفیه وينقل إليه المال. ثم أرشدهم إلى أقوم الطرق وأسدها في ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيُكْفِ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئاً، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيْرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وذلك بأن يستقرض منه ثم يرده إليه بعد الميسرة، وإن كان الولي فقيراً جاز له أن يعمل بأجر كسائر العمال، وإن كان غنياً فليعمل مجاناً احتساباً وأجره على الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- مشروعية الحجر على السفیه لمصلحته.
- 2- استحباب تنمية الأموال في الأوجه الحلال لقرينة ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ .
- 3- وجوب اختبار السفیه قبل دفع ماله إليه، إذ لا يدفع إليه المال إلا بعد وجود الرشد.
- 4- وجوب الإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعد بلوغه ورشده.
- 5- حرمة أكل مال اليتيم والسفیه مطلقاً.
- 6- الوالي على اليتيم إن كان غنياً فلا يأكل من مال اليتيم شيئاً، وإن كان فقيراً استقرض ورد عند الوجد واليسار، وإن كان مال اليتيم يحتاج إلى أجبر للعمل فيه جاز للوفي أن يعمل بأجرة المثل.

1 هذا الآية نزلت في ثابت بن رفاعه، وفي عمه، وذلك أن رفاعه توفى وترك ابنه وهو صغير، فأتى عم ثابت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابن أخي في حجري، فما يحل لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

2 يعرف البلوغ بالاحتلام وإنبات شعر العانة، أو بلوغ ثمانية عشر سنة، هذا للغلام. أما الجارية فتزيد بعلامة أخرى هي الحيض والحمل.

3 العاجز عن الوصاية لجهل أو عدم قدرته أو ضعف أرادته ينبغي له أن لا يلي مال يتيم أو قاصر لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي نر: " يا أبا نر إنني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لاتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم" رواه مسلم.

{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ
أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} (7) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8) وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا
قَوْلًا سَدِيدًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا
{(10)}

شرح الكلمات:

{نَصِيبٌ} : الحظ المقدر 1 في كتاب الله.

{الْوَالِدَانِ} : الأب والأم.

{وَالْأَقْرَبُونَ} : جمع قريب، وهو هنا الوارث بنسب أو مصاهرة أو ولاء.

{نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} : قدرًا واجبًا لازمًا.

{أُولُو الْقُرْبَىٰ} : أصحاب القربات الذين لا يرثون لبعدهم عن عمودي النسب.

{فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} : أعطوهم شيئاً يرزقونه.

{قَوْلًا مَعْرُوفًا} : لا إهانة فيه ولا عتاب، ولا تأفيف.

الخشية : الخوف في موضع الأمن.

{قَوْلًا سَدِيدًا} : عدلاً 2 صائباً.

{ظُلْمًا} : بغير حق يخول لهم أكل مال اليتيم.

1 هذا النصيب الذي أوجبه الله للورثة مجمل وسيأتي تفصيله في آية: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ} الآية.

2 القول السديد هو قول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد ابن أبي وقاص، وقد مرض مرضاً شديداً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فقال سعد: يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفأتصدق بثلاث مالي؟ قال: "لا" قال: فشطره؟ قال: "لا" قال: فالتلت؟ قال: "التلت والثلاث كثير". ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس".

{وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا}: سيدخلون سعيراً ناراً مستعرة يشوون فيها ويحرقون بها.

معنى الآيات:

لقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الأطفال بحجة أن الطفل كالمراة لا تركب فرساً ولا تحمل كلاً ولا تنكي عدواً، يكسب 1 ولا تكسب، وحدث وحدث أن امرأة يقال لها: أم كحة، مات زوجها وترك لها بنتين فمنعهما أخو الهالك من الإرث فشكت: أم كحة إلى 2 رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية الكريمة: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ} ، ومن ثم أصبحت المراة؛ كالطفل الصغير يرثان كالرجال، وقوله تعالى: {مِمَّا قَلَّ مِنْهُ} أي: من المال المتروك {أَوْ كَثُرَ} حال كون ذلك نصيباً مفروضاً لا بد من إعطائه الوارث ذكراً كان أو أنثى صغيراً أو كبيراً. والمراد من الوالدين: الأب والأم، الأقربون 3؛ كالأبناء والإخوان والبنات والأخوات، والزوج والزوجات، هذا ما تضمنته 4 الآية الأولى (7)، وأما الآية الثانية (8) فقد تضمنت فضيلة جميلة غفل عنها المؤمنون وهي أن من البر والصلة والمعروف إذا هلك هالك، وقدمت تركته للقسمة بين الورثة، وحضر قريب غير وارث لحجبه أو بعده أو حضر يتيم أو مسكين من المعروف أن يعطوا شيئاً من تلك التركة قبل قسمتها وإن تعذر العطاء؛ لأن الورثة يتامى أو غير عقلاء يصرف أولئك الراغبون من قريب ویتيم ومسكين بكلمة طيبة كاعتذار جميل تطيب به نفوسهم هذا ما تضمنته الآية الثانية وهي قوله تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ 5 الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} أي: من المال المتروك {وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} إن تعذر إعطاؤهم لمانع يتم أو عقل. أما الآية الثالثة

1 يكسب، أي: الرجل، ولا تكسب، أي: المراة.

2 فقال صلى الله عليه وسلم: "انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن". فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم وإبطالاً لقولهم وتصرفهم الجاهلي، إذا المفروض أن الصغير والمراة أولى بالإرث لحاجتهما وخوفهما.

3 لفظ الأقربون مجمل، ومن هنا أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سويد وعرفجة: "ألا يفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله جعل لبناته نصيباً ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل ربنا". فنزلت: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ} الآية، فأرسل إليهما أن أعطي أم حمة الثمن مما ترك أوس، ولبناته الثلثين ولكما بقية المال.

4 قوله تعالى: {مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً} اختلف أهل العلم في الشيء يتركه الموروث، وهو لا يقبل كالدراة الصغيرة، والجوهرة الواحدة، وما إلى ذلك، فذهب بعض إلى إنه لا بد من القسمة، وذهب آخرون، وهو الحق إن شاء الله تعالى: أن مالاً يقبل القسمة لفساده يباع ويقسم ثمنه على الورثة ولا شفعة فيه لأنه لا تأتي فيه الحدود، والشفعة فيما يقسم وتوقع فيه الحدود، وهذا ليس كذلك لتعذر قسمته، ويشهد لهذا الرأي حديث الدارقطني، ونصه: "لا تعضيه" أي: لا تفرقه على أهل

الميراث إلا ما حمل القسم، فقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالا يقبل القسم لا يحوز تعضيته أي: تفرقه على الورثة لأنه يفسد بالقسمة فتعين أن يباع ويقسم ثمنه.
5 الجمهور على أن هذه الآية منسوخة بأية: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ} الآية، وقال ابن عباس: "إنها محكمة" وعلى إنها غير منسوخة شرحناها في التفسير، فليتأمل.

(1/440)

وهي قوله تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} ، فقد تضمنت إرشاد الله تعالى للمؤمن الذي يحضر مريضاً على فراش الموت بأن لا يسمح له أن يحيف في الوصية بأن يوصي لوارث أو يوصي بأكثر من الثلث أو يذكر ديناً ليس عليه، وإنما يريد حرمان الورثة. فقال تعالى أمراً عباده المؤمنين {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ} أي: من بعد موتهم، {ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ} ، أي: فليخشوا هذه الحال على أولاد غيرهم ممن حضروا وفاته. كما يخشونها على أولادهم. إذا فعلهم أن يتقوا الله في أولاد غيرهم. وليقولوا لمن حضروا وفاته ووصيته قولاً سديداً: صائباً لا حيف فيه ولا جور معه. هذا ما تضمنته الآية الثالثة (9)، أما الآية الرابعة (10) فقد تضمنت وعيداً شديداً لمن يأكل مال اليتيم ظلماً، إذ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ 2 سَعِيرًا} . والمراد من الظلم أنهم أكلوها بغير حق أباح لهم ذلك كأجرة عمل ونحوه، ومعنى: {يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} إنهم يأكلون النار يوم القيامة، فقله إنما يأكلون في بطونهم ناراً هو باعتبار ما يؤول إليه أمر أكلهم اليوم، والعياذ بالله من نار السعير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ التوارث في الإسلام.
- 2- استحباب إعطاء من حضر قسمة التركة من قريب أو يتيم ومسكين وإن تعذر إعطاؤهم صرفوا بالكلمة الطيبة، وفي الحديث: "الكلمة الطيبة صدقة" .
- 3- وجوب النصح والإرشاد للمحتضر حتى لا يجور في وصيته عند موته.
- 4- على من يخاف على أطفاله بعد موته أن يحسن إلى أطفال غيره فإن الله تعالى يكفيه فيهم.
- 5- حرمة أكل مال اليتامى ظلماً، والوعيد الشديد فيه.

1 الآية دليل على أن أكل مال اليتيم بدون حق من كبائر الذنوب بل هو من الموبقات السبع لحديث الصحيح: "اجتنبوا السبع الموبقات" وذكر الشرك، وعقوق الوالدين، والربا، وأكل مال اليتيم، والتولي

يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

2 قرأ أبو حيوه: {وَيُصَلُّونَ} بضم الياء وتشديد اللام من التصلية التي هي كثرة الفعل مرة بعد أخرى ومنه: {ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ} ، أي: مرة بعد مرة، وعليه قول الشاعر:
وقد تصليت حر حريمهم ... كما تصلى المقرور من قرنين
يريد أنه اكتوى بنار حريمهم مرة بعد مرة كما يفعل من به البرد الشديد فإنه يستدفئ مرة بعد مرة.

(1/441)

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمُ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(11)}

شرح الكلمات:

{يُوصِيكُمُ} : يعهد إليكم.

{فِي أَوْلَادِكُمْ} : في شأن أولادكم والولد يطلق على الذكر والأنثى.

{حَظٌّ} : الحظ: الحصة أو النصيب.

{نِسَاءً} : بنات كبيرات أو صغيرات.

{ثُلُثَا مَا تَرَكَ} : الثلث: واحد من ثلاثة، والثلثان: اثنان من ثلاثة.

{السُّدُسُ} : واحد من ستة.

{إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ} : ذكراً كان أو أنثى، أو كان له ولد ولد أيضاً ذكراً أو أنثى، فالحكم واحد.

{إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} : اثنان فأكثر.

{مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ} : أي يُخْرَجُ الدين 1 ثم الوصية ويقسم الباقي على الورثة.

{لَا تَدْرُونَ} : لا تعلمون.

{فَرِيضَةٌ 2} : فرض الله ذلك عليكم فريضة.

1 يرى الإمام الشافعي أن من مات وعليه زكاة أو حج الفرض أن يخرج ذلك من ماله قبل قسمة التركة، وقال مالك: إن أوصى به تنفذ وصيته، وإن لم يوص فالمال للورثة، وهو أمره إلى الله تعالى.

2 الفرائض ست: وهي النصف، والرابع، والثلثان، والثلث، والسدس.

{عَلِيمًا حَكِيمًا}: عليماً بخلقه وما يصلح لهم، حكيماً في تصرفه في شؤون خلقه وتدبيره لهم.
معنى الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة (11) {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ} إلخ. والتي بعدها (12) وهي قوله تعالى: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ} إلخ. نزلت لتفصيل حكم الآية (7) والتي تضمنت شرعية التوارث بين الأقارب المسلمين فالآية الأولى (11) بين تعالى فيها توارث الأبناء مع الآباء، فقال تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ} أي: في شأن أولادكم {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ} يريد إذا مات الرجل وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً فإن التركة تقسم على أساس للذكر مثل نصيب الأنثيين، فلو ترك ولداً وبناتاً وثلاثة ذنابير فإن الولد يأخذ دينارين، والبنات تأخذ ديناراً، وإن ترك بنات اثنتين أو أكثر ولم يترك معهن ذكراً فإن للبنتين فأكثر الثلثين، والباقي للعصبة، إذ قال تعالى: {فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}. وإن ترك بنتاً واحدة فإن لها النصف والباقي للعصبة، وهو معنى قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ}، وإن كان الميت قد ترك أبويه، أي: أمه وأباه وترك أولاداً ذكوراً أو إناثاً فإن لكل واحد من أبويه السدس والباقي للأولاد، وهو معنى قوله تعالى: {وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ}، يريد ذكراً كان أو أنثى 3. فإن لم يكن للمالك ولد ولا ولدٍ فلأمه الثلث 4 وإن كان له أخوة اثنان فأكثر فلأمه السدس 5، هذا معنى قوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ}. أي: تسقط من الثلث 6 إلى السدس وهذا

1 هذه الآية مبينة لما أجمل في آية: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ} وتسمى آية الموارث وهي من أعظم الآيات قدراً؛ لأن علم الفرائض يعتبر ثلث العلم لقوله صلى الله عليه وسلم في رواية أبي داود وغيره: "العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة". ومعنى محكمة غير منسوخة، ومعنى قائمة ثابتة صحيحة، ومعنى عادلة لم يخرج بها عن مراد الله تعالى منها، وذلك بإعطاء الوارث ما كتب الله له.

2 خرج من لفظ: الأولاد الكافر لأنه لا حق له في الإرث؛ لأن الكفر مانع، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم". كما خرج ميراث النبي صلى الله عليه وسلم لقوله: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة".

3 إذا كان الولد خنثى فإنه يورث من حيث يبول، إن بال من حيث يبول الرجال يورث إرث الذكر، وإن بال من حيث تبول النساء يورث إرث النساء، وإن أشكل ذلك يعطي نصف ميراث ذكر ونصف ميراث أنثى. على هذا الجمهور.

4 هناك ما يعرف بالثلث الباقي، وهو أن تهلك هالكة وتترك زوجها وأبويها؛ فللزوجة النصف، والباقي ثلثه للأم، والثلثان للأب، قرر هذا ابن عباس، وزيد بن ثابت، وقرره كافة الأصحاب، وعليه الأئمة، وحتى لا تأخذ المرأة أكثر من الرجل.

5 قيل في سر حجب الأخوة لأهم من الثلث إلى السدس: أن والدهم هو الذي يلي نكاحهم وهو الذي ينفق عليهم دون أهم. وهو رأي حسن.

6 الجدة ترث السدس ولا ترث الثلث، كما ترثه الأم إجماعاً.

(1/443)

يسمى بالحجب فحجبها إخوة ابنها الميت من الثلث إلى السدس. وقوله تعالى: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ} يريد أن قسمة التركة على النحو الذي بين تعالى يكون بعد قضاء دين الميت وإخراج ما أوصى به إن كان الثلث فأقل وهو معنى قوله تعالى: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}. وقوله تعالى: {أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا} معناه: نفذوا هذه الوصية المفروضة كما علمكم الله ولا تحاولوا أن تفضلوا أحداً على أحد فإن هؤلاء الوارثين آباؤكم وأبناؤكم ولا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً في الدنيا والآخرة، ولذا فاقسموا التركة كما علمكم بلا محاباة فإن الله تعالى هو القاسم والمعطي عليم بخلقه وبما ينفعهم أو يضرهم حكيم في تدبيره لشؤونهم فليفوض الأمر إليه، وليرض بقسمته فإنها قسمة عليم حكيم.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

1- أن الله تعالى تولى قسمة التركات بنفسه فلا يحل لأحد أن يغر منها شيئاً.

2- الاثنان يعتبران جمعاً.

3- ولد الولد1 حكمه حكم الولد نفسه في الحجب.

4- الأب عاصب فقد يأخذ فرضه مع أصحاب الفرائض وما بقي يرثه بالتعصيب لقوله صلى الله عليه وسلم: "الحقوا الفرائض بأهلها فما أبقيت الفرائض فالأولى رجل ذكر.

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ

1 لفظ: الولد، يشمل المولود فعلاً، والجنين في بطن أمه دنيا أو بعيداً من الذكور أو الإناث على حد

سواء.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَايَةَ أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)

شرح الكلمات:

{أَزْوَاجُكُمْ}: الأزواج هنا: الزوجات.

{وَلَدٌ}: المراد هنا بالولد: ابن الصلب ذكراً كان أو أنثى، وولد الولد مثله.

{الرُّبْعُ}: واحد من أربعة.

{كِلَايَةَ 1}: الكلاية أن يهلك هالك ولا يترك ولداً ولا والداً ويرثه إخوته لأمه.

{وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتٌ 2}: أي: من الأم.

{غَيْرِ مُضَارٍّ}: بهما - أي: الوصية والدين - أحداً من الورثة.

{حَلِيمٌ}: لا يعاجل بالعقوبة على المعصية. معنى الآية الكريمة:

كانت الآية قبل هذه في بيان الورثة بالنسب وجاءت هذه في بيان الورثة بالمصاهرة، والوارثون بالمصاهرة: الزوج والزوجات، قال تعالى: {لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ} ، فمن ماتت وتركت مالا ولم تترك ولداً ولا ولد ذكراً كان أو أنثى فإن لزوجها من تركتها النصف، وإن تركت ولداً أو ولد ذكراً كان أو أنثى فإن لزوجها من تركتها الربع لا غير لقول الله تعالى: {فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ}. وهذا من بعد سداد الدين إن كان على الهالكة دين، وبعد إخراج الوصية إن أوصت الهالكة بشيء، لقوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيْنَ

1 من يكله النسب إذا أحاط به وبه سمي الإكليل؛ لإحاطته بالرأس، وسمي القرابة: كلاله؛

لإحاطتهم بالميت من جوانبه، وليسوا منه، ولا هو منهم.

2 أخ: أصله أخو بدليل تشبيته على أخوين نصباً وجرراً وأخوان رفعاً.

بِهَا أَوْ دَيْنٍ}. هذا ميراث الزوجة من زوجها فهو الربع إن لم يترك الزوج ولداً ولا ولد ذكراً كان أو أنثى فإن ترك ولداً أو ولد ذكراً كان أو ولد فللزوجة الثمن، وهذا معنى قوله تعالى: {لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ}. هذا وإن

كان للزوج الهالك زوجتان أو أكثر فإنهن يشتركن في الربع بالتساوي إن لم يكن للهالك ولد، وإن كان له ولد فلهن الثمن يشتركن فيه بالتساوي وقوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ أَوْ امْرَأَةٌ تُوْرَثُ كَلَالَةً أَيْضًا، والموروث كلاله وهو من ليس له والد ولا ولد، وإنما يرثه إخوته لأمه كما في هذه الآية أو إخوته لأبيه وأمه كما في أي الكلاله في آخر هذه السورة، فإن كان له أخ من أمه فله السدس، وكذا إن كانت له أخت فلها السدس، وإن كانوا اثنين فأكثر فلهم الثلث 1 لقوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ مِنْ بَعْدِ 2 وَصِيَّةٌ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضَارٍّ 3} بأن يوصى بأكثر من الثلث، أو يقر بدين وليس عليه دين وإنما حسد للورثة أو بغضاً لهم لا غير، فإن تبين ذلك فلا تنفذ الوصية ولا يسدد الدين وتقسم التركة كلها على الورثة، وقوله تعالى: { وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ } أي: وصاكم أيها المؤمنون بهذا وصية فهي جديرة بالإحترام والامتنال. والله عليم بنياتكم وأحوالكم وما يضركم وما ينفعكم فسلموا قسمته وأطيعوه فيها وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة فلا يغركم حلمه أن بطشه شديد وعذابه أليم.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- بيان ميراث الزوج من زوجته، والزوجة والزوجات من زوجهن.
- 2- بيان ميراث الكلاله وهو من لا يترك والداً ولا ولداً فيرثه إخوته فقط 4 يحوطون به إحاطة

1 وهو ما يعرف بالحجرية، أو الحمارية، أو المشتركة وهي: أن تموت امرأة وتترك زوجها وأنها وأخوة لأمها وأخاً لأبيها وأمها، فلزوج النصف، والأم السدس، والباقي للأخوة للأم، ولا شيء للأخ للأب، أو لهما معاً. وسميت بالحمارية: لأنهم لما منعوا قالوا للقاضي بينهم: هب أبانا حماراً أليست أمنا واحدة، وقالوا هب أبانا حجراً أليست أمنا واحدة، وطالبوا بتشريكتهم في الإرث فسميت المشتركة. 2 ذكرت الوصية قبل الدين، والإجماع على تقديم الدين على الوصية لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقيل في السر في ذلك: أن تقديم الوصية في اللفظ كان بسبب أنه لا يوجد من يطالب بها فقد تنسى، وأما الدين فأهله يطالبون به فلا ينسى ولا يترك. 3 مضار: اسم فاعل، أي: مضارر، فأدغمت الراء في الراء فصارت مضار، أي: حال كون الموصي غير مريد الإضرار بالورثة.

4 أي: لأمه، ولهذا خالف أخوة الأم الورثة في ثلاث مسائل: الأولى: أنهم يرثون مع من يدلون به وهو أمهم. والثانية: إن ذكورهم وإنائهم في الميراث سواء. والثالثة: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلاله.

الإكليل بالرأس فلذا سُميت الكلالة.

3- إهمال الوصية أو الدين إن علم إن الغرض منها الإضرار بالورثة فقط.

4- عظم شأن المواريث فيجب معرفة ذلك وتنفيذه كما وصى الله تعالى.

{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14){
شرح الكلمات:

{تِلْكَ حُدُودُ 1 اللَّهِ} : تلك اسم إشارة أشير به إلى سائر ما تقدم من أحكام النكاح وكفالة اليتامى وتحريم أكل مال اليتيم، وقسمة التركات. وحدود الله هي ما حده لنا وبينه من طاعته وحرمة علينا الخروج عنه والتعدي له.

{الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} : هو النجاة من النار ودخول الجنة.

العذاب المهين : ما كان فيه إهانة للمعذب بالتقريع والتوبيخ ونحو ذلك.
معنى الآيتين:

لما بين تعالى ما شاء من أحكام الشرع وحدود الدين أشار إلى ذلك بقوله: {تِلْكَ 2 حُدُودُ اللَّهِ} قد بينها لكم وأمرتكم بالترامها، {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} فيها وفي غيرها من الشرائع والأحكام فجزاؤه أنه يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، أنهار العسل واللبن والخمر والماء، وهذا هو الفوز العظيم، حيث نجاه من النار وأدخله الجنة يخلد فيها أبداً. {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} بتعد تلك الحدود وغيرها من الشرائع والأحكام ومات على ذلك فجزاؤه أن

1 الحدود: جمع حد، وهو ظرف مكان يميز عن مكان آخر يمنع تجاوزه. هذا هو الحد لغة وشرعاً، ما منع الله تجاوزه مما أحل إلى ما حرم فأحكام الشرع هي حدوده.

2 يرى بعضهم أن الإشارة لأقرب مذكور، وهو قسمة المواريث وما فسرنا به أولى لأنه أعم يشمل كما تقدم من أحكام الشريعة.

(1/447)

يدخله ناراً يخلد فيها 1 وله عذاب مهين. والعياذ بالله من عذابه وشر عقابه.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- بيان حرمة تعدي حدود الله تعالى.

2- بيان ثواب طاعة الله ورسوله وهو الخلود في الجنة.

3- بيان جزاء معصية الله ورسوله وهو الخلود في النار والعذاب المهين فيها.

{وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا} (15) وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا} (16) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (18)

- 1 إن أريد بالعصيان هنا: الكفر، فالخلود على بابه. وإن أريد بها الكبائر: فالخلود مستعار لمدة ما كقولنا: خلد الله ملكك. وكقول زهير: ولا أرى خالداً إلا الجبال الرواسيا.
- 2 هذا الخلود لمن كانت معصيته مكفرة له، أما من لم يكفر بمعصيته فإنه لا يخلد في النار، بل يخرج منها بإيمانه كما بينت ذلك السنة الصحيحة.

(1/448)

شرح الكلمات:

- {وَاللَّاتِي 1}: جمع التي، اسم موصول للمؤنث المفرد، واللاتي للجمع المؤنث.
- {الْفَاحِشَةُ 2}: المراد بها هنا: الزنا.
- {مِنْ نِسَائِكُمْ 3}: المحصنات.
- {سَبِيلًا}: طريقاً للخروج من سجن البيوت.
- {يَأْتِيَانِيهَا}: الضمير عائد إلى الفاحشة المتقدم ذكرها.
- {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا}: اتركوا أذيتهما بعد أن ظهرت توبتهما.
- {التَّوْبَةُ}: أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح مع تركه، والعزم على عدم العودة إليه.
- {السُّوءَ}: كل ما أساء إلى النفس والمراد به هنا: السيئات.
- {بِجَهَالَةٍ}: لا مع العمد والإصرار وعدم المبالاة.
- {أَعْتَدْنَا}: أعدنا وهيأنا.
- {الْأَلِيمًا}: موجعاً شديداً للإيجاع.
- معنى الآيات:

لما ذكر تعالى بحدوده وذكر جزاء متعديها، ذكر هنا معصية من معاصيه وهي فاحشة الزنا، ووضع لها حداً في البيوت حتى الموت أو إلى أن ينزل حكماً آخر يخرجهن من الحبس وهذا بالنسبة إلى المحصنات. فقال تعالى: {وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ} 4 {أي: من المسلمين بشهدون بأن فلانة زنت بفلانة

1 ومثل اللاتي: اللاتي، وجمع اللاتي، اللواتي، وجمع اللاتي: اللواتي.

2 سمي الزنا: فاحشة لأنه تجاوز الحد في الفساد، إذ به يفسد الخلق والعرض والنسب والدين والمجتمع، وكفى بهذا فساداً عظيماً.

3 النساء: اسم جمع واحدة من غير لفظ: "امرأة" والمحصنات: جمع محصنة وهي التي تزوجت زواجاً شرعياً، وسواء بقيت عليه أو تأيمت بموت أو طلاق.

4 منكم: أي من المسلمين، إذ لا بد من أربعة شهود من المسلمين يشهدون بأنهم رأوا الفرج في الفرج. مثل: الميل في المكحلة، لحديث أبي داود عن جابر قال: "جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ي بأعلم رجل منكم، فأتوه بابن صوريا، فناشدهما: كيف تجدان أمر هذين في التوراة. قالوا: نجد في التوراة إذا شاهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها، مثل الميل في المكحلة رجماً. قال: فما يمنعكما أن ترجموهما؟ قالوا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل. فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم الشهود فحضرُوا وشهدوا فأمر برجمهما فرجماً".

(1/449)

فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن 1 أو يجعل الله لهن سبيلاً. أما غير المحصنات وهن الأباكار فقد قال تعالى في شأنهن، {وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ} فأدوها، أي: بالضرب الخفيف والتقريع والعتاب، مع الحبس للنساء، أما الرجال فلا يحبسون وإنما يكتفى بأذاهم إلى أن يتوبوا ويصلحوا فحين إذ يعفو عنهم ويكفوا عن أذيتهم هذا معنى قوله تعالى: {وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَدُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً} .

ولم يمض على هذين الحدين إلا القليل من الزمن حتى أنجز الرحمن ما وعد وجعل لهن سبيلاً، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان جالساً بين أصحابه حتى أنزل الله تعالى عليه الحكم النهائي في جريمة الزنا فقال صلى الله عليه وسلم: " خذوا عني، خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام" . والمراد من الثيب بالثيب، أي: إذا ثيب بثيب، وكذا البكر بالبكر. وبهذا أوقف الحد الأول من النساء والرجال معاً ومضى الثاني، أما جلد البكرين فقد نزل فيه آية النور: {الرَّانِيَّةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} ، وأما رجم

المحصنين فقد مضت فيه السنة، فقد رجم ماعز، والغامدية بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حد قائم إلى يوم القيامة. هذا ما دلت عليه الآياتن الأولى(15) والثانية(16)، وأما الآيتان بعدهما وهما(17)و(18) فقد أخبر تعالى أن الذين يستحقون التوبة وثبتت لهم من الله تعالى هم المذنبون الذين يرتكبون المعصية بسب جهالة منهم، ثم يتوبون من قريب لا يسوفون التوبة ولا يؤخرونها أما الذين يجترحون السيئات مع علم منهم وإصرار، ولا يتوبون إثر غشيان الذنب فلا توبة تضمن لهم فقد يموتون بلا توبة شأنهم شأن الذين يعملون السيئات ولا يتوبون حتى إذا مرض أحدهما وظهرت عليه علامات الموت وأيقن إنه ميت لا محالة قال إنه تائب كشأن الكافرين إذا تابوا عند3 معاينة الموت فلا تقبل

1 يتوفاهن: يتفاضهن. يقال: توفى فلان حقه من فلان بمعنى استوفاه، أي: أخذه كاملاً لم يبق منه شيئاً ولما كان العمر أياماً تمر يوماً بعد يوم حتى ينقضي العمر ويموت الإنسان، قيل في الموت: الوفاة، ويقال: توفى فلان؛ لأن أيامه أخذت يوماً فيوماً حتى انقضت على طريقة تسديد الدين جزءاً فجزءاً حتى كمل. قال الشاعر:

إذ ما تقاضى المرء يوم وليلة ... تقاضاه شيء لا يمل التقضيا

2 المراد من هذان: الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل؛ لأن الرجل يعمل فلا يحبس، فلذا غلب جانب النساء في قوله: {واللاتي يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ}، وغلب الرجل على المرأة في قوله: {وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ} لأن الأذى صالح للمرأة والرجل معاً، وهو عبارة عن السب والجفاء والتوبيخ باللسان لاغير .
3 وعليه، فقوله تعالى: {وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} ليس على ظاهره، وإنما معناه يشرفون على الموت، ومن أشرف على الموت، وحضره، فحكمه حكم من مات وهو سائغ في اللغة.

(1/450)

منهم توبة أبدأ. هذا معنى الآيتين الكريمتين الأولى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} أي: يقبل توبتهم لأنه عليهم بضعف عباده حكيم يضع كل شيء في موضعه اللائق به، ومن ذلك قبول توبة من عصوه بجهالة لا بعناد ومكابرة وتحدي، ثم تابوا من قريب لم يطيلوا1 مدة المعاصي، والثانية: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} ، كما هي ليست للذين يعيشون على الكفر فإذا جاء أحدهم الموت قال تبت كفرعون فإنه لما عاين الموت بالغرق {قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} . فرد الله تعالى عليه: { الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} . وقوله تعالى: {أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} . إشارة إلى كل من مات على غير توبة بارتكابه كبائر

الذنوب أو بكفر وشرك إلى أن المؤمن الموحد يخرج من النار بإيمانه والكافر يخلد فيها. نعوذ بالله من النار وحال أهلها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- عظم قبح فاحشة الزنى.

2- بيان حد الزنى قبل نسخه بآية سورة النور، وحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في رجم

المحصن والمحصنة.

3- التوبة التي تفضل الله بها هي ما كان صاحبها أتى ما أتى من الذنوب بجهالة لا يعلم وإصرار ثم تاب من قريب زمن.

4- الذين يسوفون التوبة ويؤخرونها يخشى عليهم أن لا يتوبوا حتى يدركهم الموت وهم على ذلك فيكونون من أهل النار، وقد يتوب أحدهما، لكن بندرة وقلة وتقبل توبته إذا لم يعاين أمارات الموت لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر". رواه الترمذي وأحمد وغيرهما وإسناده حسن.

5- لا تقبل توبة من حشرجت نفسه وظهرت عليه علامات الموت، وكذا الكافر من باب أولى لا تقبل له توبة بالإيمان إذا عاين علامات الموت كما لم تقبل توبة فرعون.

1 لأن سنة الله تعالى: أن المرء إذا أدمن على معصية بطول فعلها يشربها قلبه فتحسن في نظره وتجمل في طبعه، فلا يقوى على تركها، وليس أدل على ذلك من فاحشة اللواط، فهي من أقبح الفواحش، ومع هذا من زينت له لا يقدر على تركها.

(1/451)

لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلْ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21) {

شرح الكلمات:

{كَرِهًا}: بدون رضاهن.

العضل: المنع بشدة كأنه إمساك بالعضلات أو من العضلات.

{بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ}: أي: من المهور.

الفاحشة : الخصلة القبيحة الشديدة القبح؛ كالزنا.
{مُبَيَّنَةٌ 1} : ظاهرة واضحة ليست مجرد تهمة أو مقالة سوء.
{بِالْمَعْرُوفِ 2} : ما عرفه الشرع واجباً أو مندوباً أو مباحاً.
{فِنْطَارًا} : أي: من الذهب أو الفضة مهراً وصداقاً.

1 قرئت: {مبينة} بفتح الياء، وقرئت بكسرهما {مبينة}، وقرأ ابن عباس {مبينة} بكسر الباء، اسم فاعل من أبان يبين، فهو مبين، وهي مبينة. والمعنى واحد.
2 من المعاشرة بالمعروف: أن لا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقاً في القول لا فظاً ولا غليظاً، ولا مظهرأ ميلاً إلى غيرها.

(1/452)

{بُهْتَانًا وَإِثْمًا} : أي: كذباً وافتراء، وإثماً حراماً لا شك في حرمة؛ لأنه ظلم.
{أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} : أي: خلص الزوج إلى عورة زوجته والزوجة كذلك.
{مِيثَاقًا غَلِيظًا} : هو العقد وقول الزوج: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.
معنى الآيات:
تضمنت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا 1 النِّسَاءَ كَرِهًا} إبطال ما كان شائعاً بين الناس قبل الإسلام من الظلم اللاحق بالنساء، فقد كان الرجل إذا مات والده على زوجته ورثها أكبر أولاده من غيرها فإن شاء زوجها وأخذ مهرها وإن شاء استبقاها حتى تعطيه ما يطلب منها من مال فأنزل الله تعالى قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا} . فبطل ذلك الحكم الجاهلي بهذه الآية الكريمة وأصبحت المرأة إذا مات زوجها اعتدت في بيت زوجها فإذا انقضت عدتها ذهبت حيث شاءت ولها ما لها وما ورثته من زوجها أيضاً وقوله تعالى: {وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ 2 لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ} . فهذا حكم آخر وهو أن يحرم على الزوج إذا كرهه 3 زوجته أن يضايقها ويضارها حتى تفندي منه ببعض مهرها، إذ من معاني العضل المضايقة والمضارة، هذا ما لم ترتكب الزوجة فاحشة الزنا أو تترفع عن الزوج وتتمرد عليه وتبخسه حقه في الطاعة والمعاشرة بالمعروف أما إن أنت بفاحشة مبينة لا شك فيها أو أنشزت نشوزاً بيناً فحينئذ للزوج أن يضايقها حتى تفندي منه بمهرها أو بأكثر حتى يطلقها، وذلك لقوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ} ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بمعاشرة الزوجات بالمعروف وهو العدل والإحسان، فقال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} ، وإن فرض أن أحداً منكم كره زوجته وهي لم تأتي بفاحشة مبينة فليصبر عليها ولا يطلقها فلعل الله تعالى يجعل في بقائها في عصمته خيراً كثيراً له

نتيجة الصبر عليها وتقوى الله تعالى فيها وفي غيرها، فقد يرزق منها ولداً ينفعه، وقد يذهب من نفسه ذلك الكره ويحل محله الحب والمودة. والمراد أن الله تعالى أرشد المؤمن

- 1 روى البخاري في سند نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن لم يشاءوا لم يزوجها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ} ... إلخ."
- 2 جائز أن يكون فعل: {وَتَعْضَلُوهُنَّ} في محل نصب على تقدير ولا تعضلون كما هي قراءة ابن مسعود، وجائز أن يكون في محل جزم على أن لا ناهية.
- 3 كرها: لدمامة، أو سوء خلق أو سلاطة لسان على ذلك، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر". رواه مسلم.

(1/453)

إن كره زوجته أن يصبر ولا يطلق لما في ذلك من العاقبة الحسنة، لأن الطلاق بغير موجب غير صالح ولا مرغوب للشارع وكم من أمر يكرهه العبد ويصبر عليه فيجعل الله تعالى فيه الخير الكثير. هذا ما تضمنته الآية الأولى (19)، أما الآيتان بعدها فقد تضمنتا: تحريم أخذ شيء من مهر المرأة إذا طلقها الزوج لا لإتيانها بفاحشة ولا لنشوزها، ولكن لرغبة منه في طلاقها ليتزوج غيرها في هذه الحال لا يحل له أن يضارها لتفتدي منه بشيء ولو قل، ولو كان قد أمهرها قنطاراً فلا يحل أن يأخذ منه فلساً فضلاً عن دينار أو درهم هذا معنى قوله تعالى: {وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا} تأخذونه بهتاناً، أي: ظلماً بغير حق وكذباً وافترافاً وإثماً، أي: ذنباً عظيماً، ثم قال تعالى منكرًا على من يفعل ذلك: وكيف تأخذونه أي: بأي وجه يحل لكم ذلك، والحال أنه قد أفضى 2 بعضهم إلى بعض أي: بالجماع، إذ ما استحل الزوج فرجها إلا بذلك المهر فكيف إذا يسترده أو شيئاً منه بهتاناً وإثماً مبيهاً، فقال تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}؟ وقوله تعالى: {وَأَخْذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} يعني: عقد النكاح فهو عهد مؤكد يقول: الزوج نكحتها على مبدأ: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فأين التسريح بإحسان إذا كان يضايقها حتى تتنازل عن مهرها أو عن شيء منه، هذا ما أنكره تعالى بقوله: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ} إذ هو استفهام إنكاري 3.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- إبطال قانون الجاهلية القائم على أن ابن الزوج يرث امرأة أبيه.

2- حرمة العضل من أجل الافتداء بالمهر وغيره.

3- الترغيب في الصبر.

1 روى أصحاب السنن، وصححه الترمذي: أن عمر بن الخطاب كان يخطب فقال: "ألا لا تغالوا في صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ما أصدق قط امرأة من نساؤه ولا بناته فوق اثنتي عشر أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت له يا عمر: أيعطينا الله وتحرمنا؟ أليس الله سبحانه وتعالى يقول: {وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا}؟ قال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر".

2 اختلف في الإفضاء الذي يجب به المهر، قال عمر: "إن أغلق باباً وأرعى سترًا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة، ولها الميراث وهو قول فصل. أما الإفضاء الذي تحل به المطلقة ثلاثاً من الوطء لحديث: "حتى تنوق عسيلته ويدوق عسيلتك" والإفضاء في هذه الآية: الجماع أيضاً. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

3 نعم إنكاره، وفيه معنى التعجب أيضاً؛ لأنه أمر مستنكر ومتعجب منه لفظاعته وخروجه عن اللياقة والأدب.

(1/454)

4- جواز أخذ الفدية من الزوجة بالمهر أو أكثر أو أقل إن هي أتت بفاحشة ظاهرة لا شك فيها؛ كالزنى أو النشوز.

5- جواز غلاء المهر فقد يبلغ القنطار 1 غير أن التيسير فيه أكثر بركة.

6- وجوب مراعاة العهود والوفاء بها.

{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا(22) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(23)}

شرح الكلمات:

{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ}: لا تتزوجوا امرأة الأب أو الجد.

{إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ}: إلا ما قد مضى قبل هذا التحريم.

1 لا خلاف في أن أكثر الصداق لا حد له، وإنما الخلاف في أقله، والذي عليه أكثر أهل العلم: أنه لا يقل عن ربع دينار أو ما يعادله دارهم قياساً على ما تقطع فيه يد السارق لأن الفرج محرم كاليد.

(1/455)

{إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً}: أي: زواج نساء الآباء فاحشة شديدة القبح.
{وَمَقْتًا 1}: ممقوتاً مبغوضاً للشارع، ولكل ذي فطرة سليمة.
{وَسَاءَ سَبِيلًا}: أي: قبح نكاح أزواج الآباء طريقاً يسلك.
{أُمَّهَاتِكُمْ}: جمع 2 أم، فالأم محرمة ومثلها الجدة وإن علت.
{وَرَبَائِبِكُمْ}: الربايب: جمع ربيبة هي بنت الزوجة.
{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ}: الحلائل 3: جمع حليلة وهي امرأة الابن من الصلب.
معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالإرث والنكاح وعشرة النساء. وفي هاتين الآيتين ذكر تعالى محرمات النكاح من النسب والرضاع والمصاهرة، فبدأ بتحريم امرأة الأب وإن علا فقال: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ}، ولم يقل من ليشمل التحريم منكوحة الأب والطريقة التي كانت متبعة عندهم في الجاهلية. ولذا قال إلا ما قد سلف في الجاهلية فإنه معفو عنه بالإسلام بعد التخلي عنه وعدم المقام عليه، وبهذه اللفظ حرمت امرأة الأب والجد على الابن وابن الابن ولو لم يدخل بها الأب، ثم ذكر محرمات النسب فذكر الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ، وبنات الأخت فهؤلاء سبع محرمات من النسب 5 قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ}، ثم ذكر المحرمات بالرضاع فقال: {وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ} فمن رضع من امرأة خمس 6 رضعات وهو في سن الحولين، تحرم عليه ويحرم عليه أمهاتها وبناتها وأخواتها وكذا بنات زوجها وأمهاته حتى

1 سأل ابن الأعرابي عن نكاح المقت، فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، ويقال لمن تزوج امرأة أبيه: الضيزن.

2 الصواب: جمع أمهه، الأم تجمع على: أمات وأقل ما يقول به. والآية نص في تحريم كل انثى لها على الرجل ولادة فتدخل الأم فيه، وأمها، وجداتها.

3 سميت امرأة الابن: حليلة؛ لأنها تحل معه حيث حل فهي فعيلة بمعنى فاعلة، وقيل: سميت حليلة؛ لأنها محللة له.

4 روي أن أبا قيس توفى وكان من صالحى الأنصار فخطب ابنة قيس امرأة أبيه، فقالت له: إني

أعدك ولداً، ولكنني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستمره، فأنته فأخبرته، فأنزل الله تعالى هذه الآية: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} .

5 وحرمة بالسنة المتواترة: الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها.

6 خالف مالك رحمه الله تعالى ومن وافقه، فقالوا: لا فرق بين قليل الرضاع وكثيره، إذا وصل اللبن إلى الأمعاء ولو مصة واحدة مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا تحرم المصاة ولا المصتان" رواه مسلم.

(1/456)

قيل: يحرم 1 من الرضاة ما يحرم من النسب، ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة، فقال: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ} ، فأم امرأة الرجل محرمة عليه بمجرد أن يعقد على بنتها تصبح أمها حراماً. وقال: {وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ} ، فالربيبة: هي بنت الزوجة إذا نكح الرجل امرأة وبنى بها لا يحل له الزواج من ابنتها، أما إذا عقد فقط ولم يبين فإن البنت تحل له لقوله: { مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} ، أي: لا إثم ولا حرج 2.

ومن المحرمات بالمصاهرة امرأة الابن بنى بها أم لا يبين، لقوله تعالى: {وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ} أي: ليس ابناً بالتبني، أما الابن من الرضاع فزوجته كزوجة الابن من الصلب؛ لأن اللبن الذي تغذ به هو السبب فكان إذا كالولد للصلبن، ومن المحرمات بالمصاهرة أيضاً: أخت الزوجة، فمن تزوج امرأة لا يحل له أن يتزوج أختها حتى تموت أو يفارقها وتنتهي عدتها لقوله تعالى: {وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} في الجاهلية فإنه عفو بشرط عدم الإقامة عليه.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- تحريم مناحح الجاهلية إلا ما وافق الإسلام منها، وخاصة أزواج الآباء، فزوجة الأب محرمة على الابن ولو لم يدخل بها الأب وطلقها أو مات عنها.
- 2- بيان المحرمات من النسب وهن سبع: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.
- 3- بيان المحرمات من الرضاع وهن: المحرمات من النسب؛ فالرضيع يحرم عليه 3 أمه المرضع له وبناته، وأخواتها، وعماته وخالاته، وبنات أخيه، وبنات أخته.
- 4- بيان المحرمات من المصاهرة، وهن سبع أيضاً: زوجة الأب بنى بها أو لم يبين، أم امرأته بنى بابنتها أو لم يبين، و بنت امرأته وهي الربيبة إذا دخل بأمرها، وامرأة الولد من الصلب

- 1 القائل: هو الرسول صلى الله عليه وسلم، والحديث متفق عليه.
- 2 ولحديث الصحيحين: "إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنات أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج البنات".
- 3 هذا إذا كان الرضاع في الحولين، أما بعدهما فلا يحل إجماعاً.

(1/457)

بنى بها الولد أو لم يبن 1، وكذا ابنه 2 من الرضاع، وأخت امرأته ما دامت اختها تحته لم يفارقها بطلاق أو وفاة. والمحصنات 3 من النساء، أي: المتزوجات قبل طلاقهن أو وفاة أزواجهن وانقضاء عدتهن.

- 1 حكى القرطبي: الإجماع على أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وعلى ابنه وعلى أجداده وأحفاده.
- 2 في عد المحصنات من المحرمات بالصهر تجوزاً.
- 3 لحديث: "حرم من الرضاع ما يحرم من النسب" وهو دليل الجمهور على أن امرأة الابن من الرضاع تحرم كما تحرم امرأة الابن من الصلب.

(1/458)

الجزء الخامس

{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجِّلْ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ بَفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)}

شرح الكلمات:

{وَالْمُحْصَنَاتُ}: جمع محصنة 1، والمراد بها هنا: المتزوجة.

{إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} : المملوكة بالسبي والشراء، ونحوهما.
{مَا وَرَاءَ ذَلِكَ} : أي: ما عداه، أي: ما عدا ما حرم عليكم.
{غَيْرَ مُسَافِحِينَ} : المسافح: الزاني، لأن السفاح هو الزني.

1 وسميت المتزوجة: محصنة لأن الرجل، أي: الزوج قد أحصنها، أي: حفظها باستقلاله بها عن غيره.

(1/459)

{أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} : مهورهن نحلة.

{طَوَّالًا} : سعة وقدرة على المهر.

{الْمُحْصَنَاتِ} : العفيفات.

{أَجُورَهُنَّ} : مهورهن.

{وَلَا تُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ} : الخدين: الخليل الذي يفجر بالمرأة سراً تحت شعار الصداقة.

{فَإِذَا أَحْصِينَ} : بأن أسلمن أو تزوجن، إذ الإحصان يكون بهما.

{الْعَنْتِ} : العنت: الضرر في الدين والبدن.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في بيان ما يحرم من النكاح وما يجوز، ففي الآية الأولى (24) عطف تعالى على المحرمات في المصاهرة المرأة المتزوجة فقال: {وَالْمُحْصَنَاتِ} أي: ذوات الأزواج، فلا يحل نكاحهن إلا بعد مفارقة الزوج بطلاق أو وفاة، وبعد انقضاء العدة أيضاً واستثنى تعالى من المتزوجات المملوكة باليمين، وهي: المرأة تسبى في الحرب الشرعية، وهي الجهاد في سبيل الله، فهذه من الجائز أن يكون زوجها لم يمّت في الحرب وبما أن صلّتها قد انقطعت بدار الحرب وبزوجها وأهلها وأصبحت مملوكة، أذن الله تعالى رحمة بها في نكاحها ممن ملكها من المؤمنين. ولذا ورد أن الآية نزلت في سبايا أوطاس وهي وقعة كانت بعد موقعة حنين فسبى فيها المسلمون النساء والذري، فتخرج المؤمنون في غشيان أولئك النسوة، ومنهم المتزوجات، فأذن لهم في غشيانهن بعد أن تسلم إحداهن وتستبرأ بحيضة، أما قبل إسلامها فلا تحل؛ لأنها مشركة، هذا معنى قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} ، وقوله: {كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} ، يريد ما حرّمه تعالى من المناكح، قد كتبه على المسلمين كتاباً وفرضه فرضاً لا يجوز إهماله أو التهاون به. فكتاب الله منصوب على المصدرية².

وقوله تعالى: {وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ}4 ، أي: ما بعد الذي حرّمه من المحرمات بالنسب

1 الطول: مصدر طال يطول طولاً، بمعنى: قدر على التناول من بعد، ولذا فسر: بالقدرة على المهر.

2 ويجوز الرفع نحو: هذا كتاب الله وفرضه.

3 قرئ: أحل، بالبناء للمفعول، وأحل: للبناء للفاعل.

4 لابد من مراعاة ما حرم بالسنة، وهو الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة خالتها، ولا الالتفات إلى مذهب الخوارج: إذ يبيحون ذلك كما يبيحون الجمع بين الأختين، وعلة المنع هي: أن الجمع يسبب قطعية الرحم.

(1/460)

وبالرضاع، وبالمصاهرة على شرط أن لا يزيد المرء على أربع كما هو ظاهر قوله تعالى في أول السورة: {مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} ، وقوله تعالى: {أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} ، أي: لا حرج عليكم أن تطلبوا بأموالكم من النساء غير ما حرم عليكم فتتزوجوا ما طاب لكم حال كونكم محصنين غير مسافحين، وذلك بأن يتم النكاح بشروطه من الولي والصداق والصيغة والشهود، إذ أن نكاحاً بغير هذه الشروط فهو السفاح، أي: الزنا، وقوله تعالى: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} يريد تعالى: أيما رجل تزوج امرأة فأفضى إليها، أي: وطئها إلا وجب لها المهر كاملاً، أما التي لم يتم الاستمتاع بها بأن طلقها قبل البناء فليس لها إلا نصف المهر المسمى، وإن لم يكن قد سمي لها إلا المتعة، فالمراد من قوله: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ} 2 أي: بنيتم بهن ودخلتم عليهن. وقوله تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ} يريد إذا أعطى الرجل زوجته ما استحل به فرجها، وهو المهر كاملاً فليس عليهما بعد ذلك من حرج في أن تسقط المرأة من مهرها لزوجها، أو تؤجله أو تهبه كله له أو بعضه إذ ذاك لها وهي صاحبه كما تقدم {فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء/4].

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} المراد به إلهام المؤمنين بأن الله تعالى عليم بأحوالهم حكيم في تشريعه فليأخذوا بشرعة ورضاه وعزائمه، فإنه مراعى فيه الرحمة والعدل، ولنعم تشريع يقوم على أساس الرحمة والعدل.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (24)، أما الآية الثانية (25) وهي قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً... 3} فقد تضمنت بيان رحمة الله بعباده المؤمنين إذ رخص لمن لم يستطع نكاح الحرائر لقلّة ذات يده، مع خوفه العنت الذي هو الضرر في دينه بالزنى، أو في بدنه

1 استدلال الروافض بهذه الآية: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ} على جواز نكاح المتعة، وهو استدلال فاسد وباطل، ويكفي في بطلانه؛ إجماع أهل السنة والجماعة على بطلانه، وإنه زنا إلى أنه لا يقام على صاحبه حد الرجم بالشبهة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "ادرعوا الحدود بالشبهات". ونكاح المتعة رخص فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مرة ثم أعلن عن حرمة. أعلن ذلك في حجة الوداع ليعلم كل إنسان ذلك، ومن الأدلة على حرمة المتعة: أن المتمتع بها لا ترث، والزوجة الشرعية ترث الربع والثلث.

2 الاستمتاع: التلذذ، والأجور: هي المهور، وسمي المهر: أجراً؛ لأنه أجر الاستمتاع، وهذا دليل على أنه في مقابلة البضع، إذ كل ما يقابل المنفعة يسمى أجراً.

3 اختلف في تحديد معنى الطول وأرجح الأقوال أنه: سعة المال، وعليه فلا يباح نكاح الأمة إلا بشرطين: عدم السعة في المال، وخوف العنت. فلا يصح نكاح الأمة إلا باجتماعهما، ومن كانت تحت حرة لا يجوز أن ينكح عليها أمة؛ لأن الحرة تدفع الحرة تدفع العنت عنه. وحكى الإجماع على من كانت له أمة لا يحل له أن يتزوجها، بل يطئها بملك اليمين، وذلك لتعارض حق الملك مع حق الزوجية، وإذا أعتقها فأصبحت حرة فله؛ حينئذ أن يتزوجها.

(1/461)

بإقامة الحد عليه، رخص له أن يتزوج المملوكة بشرط أن تكون مؤمنة، وأن يتزوجها بإذن 1 مالكتها، وأن يؤتيها صداقها وأن يتم ذلك على مبدأ الإحصان الذي هو الزواج بشروطه لا السفاح، الذي هو الزنى العلني المشار إليه بكلمة: {غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ}، ولا الخفي المشار إليه بكلمة: {وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ} أي: أخلاء، هذا معنى قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَنْطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً}، أي: قدرة مالية أن ينكح المحصنات، أي: العفائف من {فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}، أي: من إمائكم المؤمنات لا الكافرات بحسب الظاهر، أما الباطن فعلمه إلى الله، ولذا قال: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ}، وقوله: {بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} فيه تطيب لفسس المؤمن إذ تزوج للضرورة الأمة فإن الإيمان أذهب الفوارق بين المؤمنين، وقوله: {فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ} فيه بيان الشروط التي لا بد منها وقد ذكرناها آنفاً.

وقوله تعالى: {فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ} -أي: الإمام- بالزواج وبالإسلام {فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَاحِشَةٍ} أي: زنين فعليين حد هو نصف ما على المحصنات من العذاب وهو جلد خمسين جلدة وتغريب ستة أشهر؛ لأن الحرة إن زنت 2 وهي بكر تجلد مائة جلدة وتغرب سنة. أما الرجم والذي هو الموت فإنه لا ينصف، فلذا فهم المؤمنون في تصفيف العذاب أنه الجلد لا الرجم وهو إجماع لا خلاف فيه وقوله: {ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ} يريد أبحث لكم ذلك لم خاف على نفسه الزنى، إذا لم يقدر على الزواج من الحرة

لفقره واحتياجه وقوله تعالى: {وَأَنْ تَصْبِرُوا...} أي: على العزوبة خير لك من نكاح الإماء. وقوله {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين، ولذا رخص لهم في نكاح الإماء عند خوف العنت، وأرشدهم إلى ما هو خير منه وهو الصبر 3. فله الحمد وله المنة.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- تحريم المرأة المتزوجة حتى يفارقها زوجها بطلاق أو موت وحتى تنقضي عدتها.

1 وأجمعوا على أنه لا يجوز للملوك أن يتزوج بغير إذن سيده، وإن تزوج فسخ زواجه، وهل عليه الحد؟ خلاف.

2 دليل حد الأمة إن زنت قوله صلى الله عليه وسلم: " إذا زنت أمة أحدكم فليحدها الحد " ، وقال علي في خطبته: "أيها الناس أقيموا على أرقامكم الحد، من أحسن منهن ومن لم يحسن" . الحديث رواه مسلم.

3 قال أبو هريرة: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لحرائر صلاح البيت، والإيماء هلاك البيت" أو قال: " فساد البيت".

(1/462)

2- جواز نكاح المملوكة باليمين وإن كان زوجها حياً في دار الحرب إذا أسلمت؛ لأن الإسلام فصل بينهما.

3- وجوب المهور، وجواز إعطاء المرأة مهرها لزوجها شيئاً.

4- جواز التزوج من المملوكات لمن خاف العنت وهو عادم للقدرة على الزواج من الحرائر.

5- وجوب إقامة الحد على من زنت من الإماء إن أحسن بالزواج والإسلام.

6- الصبر على العزوبة خير من 1 الزواج بالإماء لإرشاد الله تعالى إلى ذلك.

{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)}

شرح الكلمات:

{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ 2} : يريد الله أن يبين لكم بما حرم عليكم وأحل لكم ما يكملكم ويسعدكم في دنياكم وأخراكم.

{سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ 3} : طرائق الذين من قبلكم من الأنبياء والصالحين لتتجهوا نهجهم فتطهروا

وتكملوا وتفلحوا مثلهم.

{وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} : يرجع بكم عما كنتم عليه من ضلال الجاهلية إلى هداية الإسلام.
{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ 4} : من اليهود والنصارى والمجوس والزناة.

- 1 يشهد لذلك قول عمر رضي الله عنه: "أيا رجل تزوج أمة فقد أرق نصفه، يعني يصير ولده رقيقاً، فالصبر على عدم التزوج بالإماء أفضل، لكي لا يرق الولد.
- 2 الأصل: يريد أن يبين لكم فحذفت أن ودخلت اللام على الفعل والتقدير يريد الله البيان لكم، والهدى والتوبة، فاللام إذن لتوكيد معنى الفعل، ومثلها في قوله: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ} في آية، وفي آية أخرى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ} ، قال النحاس: سمي بعضهم هذه اللام: لام "أن".
- 3 فيكون معنى هذه الآية، كما في قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحٌ} .
- 4 أي: تغلبهم شهواتهم مع مخالفة شرع الله لعباده من أمور الدين التي عليها مدار سعادة الإنسان وكماله.

(1/463)

{أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا} : تحيدوا عن طريق الطهر والصفاء إلى طريق الخبث والكدر بارتكاب المحرمات من المناكح وغيرها فتبتعدوا عن الرشد بعداً عظيماً.
{وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} : لا يصبر عن النساء، فلذا رخص تعالى لهم في الزواج من الفتيات المؤمنات.

معنى الآيات:

لما حرم تعالى ما حرم من المناكح وأباح ما أباح منها علل لذلك بقوله: {يُرِيدُ اللَّهُ} أي: بما شرع ليبيين ما هو نافع لكم مما هو ضار بكم فتأخذوا النافع وتتركوا الضار، كما يريد أن يهديكم طرائق الصالحين من قبلكم من أنبياء ومؤمنين صالحين لتسلكوها فتكملوا وتسعدوا في الحياتين، كما يريد بما بين لكم أن {وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} أي: يرجع بكم من ضلال الجاهلية إلى هداية الإسلام فتعيشوا على الطهر والصلاح، وهو تعالى عليم بما ينفعكم وبضرركم حكيم في تدبيره لكم فاشكروه بلزوم طاعته، والبعد عن معصيته.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (26)، أما الآية الثانية (27) فقد تضمنت الإخبار بأن الله تعالى يريد بما بينه من الحلال والحرام في المناكح وغيرها أن يرجع بالمؤمنين من حياة الخبث والفساد التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام إلى حياة الطهر والصلاح في ظل تشريع عادل رحيم. وأن الذين يتبعون الشهوات من الزناة والنصارى وسائر المنحرفين عن سنن الهدى فإنهم يريدون من المؤمنين أن

ينحرفوا مثلهم فينغمسوا في الملاذ والشهوات البهيمية حتى يصبحوا مثلهم لا فضل لهم عليهم،
وحينئذ لا حق لهم في قيادتهم أو هدايتهم.

هذا معنى الآية الثانية، أما الآية الثالثة (28) فقد أخبر تعالى أنه بإباحته للمؤمنين العاجزين عن
نكاح الحرائر نكاح الفتيات المؤمنات يريد بذلك التخفيف والتيسير 2 عن المؤمنين رحمة بهم وشفقة
عليهم لما يعلم تعالى من ضعف الإنسان وعدم صبره عن النساء بما غرز فيه من غريزة

- 1 سيقت هذه الآية تذييلاً لما سبقها لغرض استئناس المسلمين واستئزال نفوسهم إلى امتثال أوامر الله
تعالى المتقدمة في أول السورة، وهي إحكام النكاح والإرث والمعاشرة.
- 2 شاهده الكتاب في قوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} ، ومن السنة: قوله صلى الله
عليه وسلم: "إن هذا الدين يسر ولا يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه" ، وقوله لمعاذ وأبي موسى: "يسر
ولا تعسر" ، وبذا كان التيسير من أصول الشريعة الإسلامية ويشهد لهذا وجود الرخص في مسائل
الدين.

(1/464)

الميل إلى أنثاه لحفظ النوع ولحكم عالية، وقال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ 1 عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
ضَعِيفاً} 2 .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- منة الله تعالى علينا في تعليقه الأحكام لنا لتطمئن نفوسنا ويأتي العمل بانسراح صدر وطيب
خاطر.
- 2- منة الله على المؤمنين بهدايتهم إلى طرق الصالحين وسبيل المفلحين ممن كانوا قبلهم.
- 3- منته تعالى في تطهير المؤمنين من الأخباث وضلال الجاهليات.
- 4- الكشف عن نفسية الإنسان، إذ الزناة يرغبون في كون الناس كلهم زناة، والمنحرفون يودون أن
ينحرف الناس مثلهم، وهكذا كل منغمس في خبث أو شر أو فساد يود أن يكون كل الناس مثله، كما
أن الطاهر يود أن يطهر ويصلح كل الناس.
- 5- ضعف الإنسان أمام غرائزه لا سيما غريزة الجنس.

لَبِئْسَ أَهْلُ الدِّينِ أَمْنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا (30)

1 أي: في جميع الأحكام، وبخاصة في نكاح الإماء، لما علم من ضعف الإنسان في أمر النساء.
2 معنى: ضعيفاً، أن هواه يستميله وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف، ولذا احتاج إلى التخفيف، فخفف الله عنه والحمد لله.

(1/465)

شرح الكلمات:

{آمَنُوا} : صدقوا الله والرسول.

{بِالْبَاطِلِ} : بغير حق يبيح أكلها.

{تِجَارَةً} : بيعاً وشراءً فيحل لصاحب البضاعة أن يأخذ النقود ويحل لصاحب النقود أخذ البضاعة، إذا لا باطل.

{تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} : أي: تزهقوا أرواح بعضكم بعضاً.

{عُدْوَانًا وَظُلْمًا} : اعتداء يكون فيه ظالماً.

{نُضْلِيهِ نَارًا} : ندخله نار جهنم يحترق فيها. معنى الآيتين:

ما زال السياق في بيان ما يحل وما يحرم من الأموال والأعراض والأنفس ففي هذه الآية (29) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين بعنوان الإيمان فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} وينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل بالسرقة أو العث أو القمار أو الربا وما إلى ذلك من وجوه التحريم 2 العديدة فيقول: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} ، أي: بغير عوض مباح، أو طيب نفس، ثم يستثنى ما كان حاصلًا عن تجارة قائمة على مبدأ التراضي بين البيعين لحديث: "إنما البيع عن تراض" و "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا" فقال تعالى: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} فلا بأس بأكله فإنه حلال لكم. هذا ما تضمنته الآية كما قد تضمنت حرمة قتل المؤمنين لبعضهم بعضاً، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} والنهي شامل لقتل الإنسان نفسه وقتله أخاه المسلم؛ لأن المسلمين كجسم واحد، فالذي يتقل مسلماً منهم كأنما قتل نفسه. وعلل تعالى هذا التحريم لنا فقال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} ، فلذا حرم عليكم قتل بعضكم بعضاً.

1 كل معاوضة في مباح فهي تجارة حتى إن الله تعالى سمى ثمن طاعته وطاعة رسوله تجارة في قوله تعالى: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ...} الآية.

2 كبيع العربون بأن يقول لأخيه: خذ هذه العشرة دنانير إن أخذت السلعة، وإلا فهي لك. هذا بيع باطل؛ لأنه لاحق له في أخذ العربون إن عجز أخوه عن أخذ السلعة له.

3 لم يختلف في بيع الخيار، وذلك بأن يقول المسلم لأخيه: بعني كذا، أو بعث كذا، أو اعطني مهلة يوم أو يومين أفكر فيها. فهذا البيع جائز إن تم وإن لم يتم واختلف في معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا". هل التفرق بالأبدان، أو بالكلام؟ والصحيح: أنه بالأبدان، فلكل منهما الفسخ والإمضاء ماداما في المجلس فإن تفرقا مضى البيع.

(1/466)

هذا ما تضمنته الآية الأولى (29)، أما الآية الثانية (30) فقد تضمنت وعيدا شديداً بالإصلاء بالنار والإحراق فيها كل من يقتل مؤمناً عدواناً وظلماً، أي: بالعمد والإصرار والظلم المحض، فقال تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ} أي: القتل {عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ} أي: الإصلاء والإحراق في النار {عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} لكمال قدرته بهذا العذاب إذا لا يستطيع أن يدفع ذلك عن نفسه بحال من الأحوال.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة مال المسلم، وكل مال حرام وسواء حازه بسرقة أو غش أو قمار أو ربا.
- 2- إباحة التجارة والترغيب فيها والرد على جهلة المتصوفة الذين يمنعون الكسب بحجة التوكل.
- 3- تقرير مبدأ "إنما البيع عن تراض"، و "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا".
- 4- حرمة قتل المسلم نفسه أو غيره من المسلمين؛ لأنهم أمة واحدة.
- 5- الوعيد الشديد لقاتل النفس 3 عدواناً وظلماً بالإصلاء بالنار.
- 6- إن كان القتل غير عدوان بأن كان خطأ، أو كان غير ظلم بأن كان عمداً ولكن بحق كقتل من قتل والده وابنه أو أخاه فلا يستوجب هذا الوعيد الشديد.

{إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا(31)}

شرح الكلمات:

{إِنْ تَجَنَّبُوا}: تبتعدوا لأن الاجتناب ترك الشيء عن جنب بعيداً عنه لا يقبل عليه ولا يقربه.

- 1 أي: لم يكن سهواً منه ولا خطأ، وهو معنى: {عدواناً}، ولا بحق؛ كقصاص وهو معنى: {ظلماً}.
- 2 يكفي في الرد عليهم ثناء الرسول صلى الله عليه وسلم على التاجر الأمين في قوله: "التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة". إلى أنه يحرم على التاجر أن يروج سلعته بالإيمان الكاذبة كما يكره أن يصلي على النبي عند عرض سلعته؛ كقوله: صلي على محمد، ما أجود هذا، كما يكره له أن تشغله التجارة عن صلاة الجماعة.

3 ورد الوعيد الشديد في قاتل نفسه من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة". رواه الجماعة. وقوله صلى الله عليه وسلم: "من قتل نفسه بحديدة فحديته في يده يجأ بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً".

(1/467)

{كَبَائِرَ مَا تُثْهَوْنَ عَنْهُ} : الكبائر: ضد الصغائر، والكبيرة تعرف بالحد لا بالعد، فالكبيرة ما توعدها الله ورسوله عليهما، أو لعن الله ورسوله فاعلها أو شرع لها حد يقام على صاحبها، وقد جاء في الحديث الصحيح بيان العديد من الكبائر، وعلى المؤمن أن يعلم ذلك ليجتنبه.

{تُكْفَرُ} : نغطي ونستر فلا نطالب بها ولا نؤاخذ عليها.

{مُدْخَلًا كَرِيمًا} : المدخل الكريم هنا: الجنة دار المتقين.

معنى الآية الكريمة:

يتفضل الجبار جل جلاله وعظم إنعامه وسلطانه فيمن على المؤمنين من هذه الأمة المسلمة بأن وعدها وعد الصدق بأن من اجتنب منها كبائر الذنوب كفر عنه صغائرها وأدخله الجنة دار السلام وخلق عليه حل الرضوان فقال تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُثْهَوْنَ 1 عَنْهُ} ، ما أنهاكم عنه أنا ورسولي {تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} التي هي دون الكبائر 2 وهي الصغائر، {وَوُدَّخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا} الذي هو الجنة، والله الحمد والمنة. لهذا كانت هذه الآية مبشرات القرآن لهذه الأمة.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- وجوب الابتعاد عن سائر الكبائر، والصبر على ذلك حتى الموت.
- 2- الذنوب قسمان: كبائر، وصغائر. ولذا وجب العلم بها لاجتناب كبائرها وصغائرها ما أمكن ذلك، ومن زل فليتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له3.
- 3- الجنة لا يدخلها إلا ذوو النفوس الزكية الطاهرة باجتنابهم المدنسات لها من كبائر الذنوب والآثام والفواحش4.

1 اجتناب الكبائر إن كان المراد به: كبائر الذنوب فلا بد من ضميعة أداء الفرائض، فإن اجتناب الكبائر مع تضييع الفرائض غير مجد، وإن أريد باجتناب الكبائر تحاشي ترك الفرائض والاحتماء من فعل الكبائر فذاك ويشهد لهذا حديث الصحيح: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى

رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر " .

2 اختلف في تحديد الكبيرة وفي عددها: أما العدد فقد قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: "هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع" وقد ورد النص في بعضها كحديث مسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات" فعد منها ستاً. وفي أحاديث صحاح أخرى ذكر عدداً آخر، والذي عليه أهل العلم أنها لا تعد ولكن تحد كما في التفسير، وأما الصغيرة: فهي نسبية فالنظرة إلى اللمة صغيرة، واللمة إلى القبلة صغيرة وهكذا.

3 شاهده في حديث ابن عباس رضي الله عنهما غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار، بعد قوله: "هي إلى السبعمئة أقرب".

4 أهل الكبائر الذين ماتوا يزاولونها ولم يغفر لهم ويشفع لهم فإنهم يطهرون وتزكوا نفوسهم بعذاب النار ثم يغسلون أيضاً في نهر عند باب الجنة، يقال له: نهر الحيوان، فيدخلون الجنة بنفوس زكية وأرواح طاهرة نقية.

(1/468)

{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ ۗ وَنَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32) وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَأَنْتُمْ أَنْصِبُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)}

شرح الكلمات:

{وَلَا تَتَمَنَّوْا}: التمني: التشهي والرغبة في حصول الشيء، وأداته: ليت، ولو، فإن كان مع زوال المرغوب فيه عن شخص ليحصل للمتمني فهو الحسد.

{مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ}: أي: ما فضل الله به أحداً منكم فأعطاه علماً أو مالاً أو جاهاً أو سلطاناً.

{نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا}: أي: حصة وحظ من الثواب والعقاب بحسب الطاعة والمعصية.

{مَوَالِي}: الموالي: من يلون التركة ويرثون الميت من أقارب.

{عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ}: أي: حالفتموهم وتأخيتهم معهم مؤكدين ذلك بالمصافحة واليمين.

{فَأَنْتُمْ أَنْصِبُهُمْ}: من الرفادة والوصية والنصرة لأنهم ليسوا ورثة.

معنى الآيتين:

صح أو لم يصح أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال فإن الله سميع عليم، والذين يتمنون 1 حسداً وغير حسد ما أكثرهم ومن هنا نهى

1 التمني: نوع إرادة يتعلق بالمستقبل، وعلى خلافه التلief؛ لأنه يتعلق بالماضي، وسر النهي عنه: أن فيه تعلق البال بالتمني ونسيان الأجل، ولذا حرم التمني الذي هو الحسد، وهو نوعان: تمنى زوال النعمة من غيره لتحصل له، وتمنى زوال النعمة من غيره ولو لم تحصل له، وهو شر الحسد. وهل الغبطة من الحسد؟ والجواب: لا. والغبطة هي: أن يرى العبد نعمة علم أو مال لأحد فيغتنب ويسأل الله تعالى أن يكون له ذلك العلم ليعلمه ويعمل به، أو يكون له ذلك المال ليتصدق به. فهذه الغبطة محمودة لحديث البخاري: "لا حسد إلا في اثنتين، رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، فيقول الرجل: لو أن لي مثل مال فلان لعملت مثله فهم في الأجر سواء".

(1/469)

الله تعالى في هذه الآية الكريمة (32) عباده المؤمنين عن تمنى ما فضل الله تعالى به بعضهم على بعض فأعطى هذا وحرّم ذلك لحكم اقتضت ذلك، ومن أظهرها الابتلاء بالشكر والصبر، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ﴾ - من علم أو مال. أو صحة أو جاه أو سلطان - ﴿بِعِضِّكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وأخبر تعالى أن سنته في الثواب والعقاب الكسب والعمل، فليعمل من أراد الأجر والثوبة بموجبات ذلك من الإيمان والعمل الصالح، ولا يتمنى ذلك تمنياً، وليكف عن الشرك والمعاصي من خاف العذاب والحرمان ولا يتمنى النجاة تمنياً كما على من أراد المال والجاه فليعمل له بسنته المنوطة به، ولا يتمنى فقط فإن التمني كما قيل بضائع النوكى، أي: الحمقى، فلذا قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ ، فرد القضية إلى سنته فيها وهي كسب الإنسان. كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ثم بين تعالى سنة أخرى في الحصول على المرغوب: وهي دعاء الله تعالى فقال: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فمن سأل ربه وألح 1 عليه موقناً بالإجابة أعطاه فيوفقه للإتيان بالأسباب، ويصرف عنه الموانع، ويعطيه بغير سب إن شاء، وهو على كل شيء قدير، بل ومن الأسباب المشروعة الدعاء والإخلاص فيه.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (33) فإن الله تعالى يخبر مقررًا حكماً شرعياً قد تقدم في السياق، وهو أن لكل من الرجال والنساء ورثة يرثون إذا مات فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا﴾ أي: أقارب يرثونه إذا مات، وذلك من النساء والرجال، أما الذين هم موالى بالحلف أو الإخاء فقط، أي: ليسوا من أولي الأرحام، فالواجب إعطاؤهم نصيبهم من النصرة والرفادة. والوصية لهم بشيء إذ لاحظ لهم في الإرث، لقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ، ولما كان توزيع المال وقسمته تتشوق له النفوس وقد يقع فيه حيف أو ظلم أخبر تعالى أنه على كل شيء شهيد فلا يخفى عليه من أمر الناس شيء فليتق ولا يُعص.

1 لحديث الترمذي وغيره، قال صلى الله عليه وسلم: "سلوا الله من فضله، فإنه يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج" أي: من الله تعالى، وهو تعلق القلب بالرب تعالى.

2 هذه الآية ناسخة لكل من الإرث بالتحالف والمؤاخاة، وهي كقوله تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} ، وهو المقصود بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ} فقد كان الرجل في الجاهلية يقوله لمن أراد محالفته: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حريك، وسلمي سلمك، وترثي وأرثك. وأما المؤاخاة: فقد كانت بين المهاجرين والأنصار بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوارثوا بها حتى نسخت بهذه الآية، وآية الأنفال: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} .

(1/470)

فقال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} لا يخفى عليه من أمركم شيء فأتقوه وأطيعوه ولا تعصوه.

هداية الآيتين
من هداية الآيتين:

- 1- قبح التمني وترك العمل.
- 2- حرمة الحسد.
- 3- فضل الدعاء وأنه من الأسباب التي يحصل بها المراد.
- 4- تقرير مبدأ التوارث في الإسلام.
- 5- من عاقد أحداً على حلف أو آخى أحداً وجب عليه أن يعطيه حق النصرة والمساعدة وله أن يوصي له بما دون الثلث 1، أما الإرث فلا حق له لنسخ ذلك.
- 6- وجوب مراقبة الله تعالى؛ لأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد.

{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً(34) وَإِنِ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً(35)}

1 يدخل في هذا المتبني فإن لمن تبناه بمعنى: رباه أن يوصي له بما دون الثلث، أما أن ينسبه إليه فلا لأنه محرم بالكتاب والسنة.

شرح الكلمات:

- {قَوَامُونَ} : جمع قوام1: وهو من يقوم على الشيء رعاية وحماية وإصلاحاً.
 {بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ} : بأن جعل الرجل أكمل في عقله ودينه وبدنه فصلح للقوامة.
 {وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}2: وهذا عامل آخر مما ثبتت به القوامة للرجال على النساء فإن الرجل بدفعه المهر وقيامه بالنفقة على المرأة كان أحق بالقوامة التي هي الرئاسة.
 {فَالصَّالِحَاتُ}3: جمع صالحة: وهي المؤدية لحقوق الله تعالى وحقوق زوجها.
 {قَانِتَاتٌ} : مطيعات لله ولأزواجهن.
 {حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ} : حافظات لفروجهن وأموال أزواجهن.
 {تَشْوِزُهُنَّ} : التشوز: الترفع عن الزوج وعدم طاعته.
 {فِعْظُوهُنَّ} : بالترغيب في الطاعة والتنفير من المعصية.
 {فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} : أي: لا تطلبوا لهن طريقاً تتوصلون به إلى ضربهن بعد أن أظعنكم.
 {شِقَاقٌ بَيْنَهُمَا} : الشقاق: المنازعة والخصومة حتى يصبح كل واحد في شق مقابل.
 {حَكَمًا} : الحكم: الحاكم، والمحكوم في القضايا للنظر والحكم فيها. معنى الآيتين:
 يروى في سبب نزول هذه الآية أن: سعد4 بن الربيع رضي الله عنه أغضبته امرأته فلطمها، فشكاها
 وليها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه يريد القصاص فأنزل الله تعالى هذه الآية: {الرِّجَالُ
 قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} . فقال ولي المرأة:
 أردنا أمراً وأراد الله غيره، وما أراد الله خيراً. ورضي بحكم الله تعالى وهو أن الرجل

- 1 قوام: ومثله، قيام، وقيام، وقيم. كلها بمعنى واحد مشتقة من القيام؛ لأن من شأن من يهتم بالشيء وتدبيره أن يقف عليه ويقوم.
 2 أخذ من هذه الجملة الفقهاء: أن من عجز عن النفقة كان للزوجة فسخ النكاح لانعدام القوامة لها، التي بها استحق الرجل العصمة، وخالف أبو حنيفة: فلم يرَ الطلاق بالإعسار.
 3 أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هؤلاء الصالحات بقوله: "خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتك أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك" . وهو تفسير لقوله تعالى: {حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ...}.
 4 ذكر في سبب نزولها عدة أسباب. وما ذكرناه أولى بالصحة والقبول.

ما دام قواماً على المرأة يرعاها ويربيها ويصلحها بما أوتى من عقل أكمل من عقلها، وعلمه أغرز من علمها غالباً، وبعد نظر في مبادئ الأمور ونهايتها أبعد من نظرها يضاف إلى ذلك أنه دفع مهراً لم تدفعه، والتزم بنفقات لم تلتزم هي بشيء منها فلما وجبت له الرئاسة عليها، وهي رئاسة شرعية كان له الحق أن يضربها بما لا يشين جارحة أو كيسر عضواً فيكون ضربه لها؛ كضرب المؤدب لمن يؤدبه ويربيه، وبعد تقرير هذا السلطان للزوج على زوجته أمر الله تعالى بإكرام المرأة والإحسان إليها والرفق بها لضعفها وأتى عليها فقال: {قَالَصَالِحَاتُ} ، وهن: اللاتي يؤدين حقوق الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وحقوق أزواجهن من الطاعة والتقدير والاحترام {قَانِتَاتٌ} : أي: مطيعات لله تعالى، وللزوج، {حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ} أي: حافظات مال الزوج وعرضه لحديث: "وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله"1 {بِمَا حَفِظَ اللَّهُ} أي: بحفظ الله تعالى لها وإعانتة لها إذ لو وكلت إلى نفسها لا تستطيع حفظ شيء وإن قل. وفي سياق الكلام ما يشير إلى محذوف يفهم ضمناً، وذلك أن الثناء عليهن من قبل الله تعالى يستوجب من الرجل إكرام المرأة الصالحة والإحسان إليها والرفق بها لضعفها، وهذا ما ذكرته أولاً نيته عليه هنا ليعلم أنه من دلالة الآية الكريمة، وقد ذكره غير واحد من السلف.

وقوله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} . فإنه تعالى يرشد الأزواج إلى كيفية علاج الزوجة إذا نشزت، أي: ترفعت على زوجها ولم تؤدي إليه حقوقه الواجبة له بمقتضى العقد بينهما، فيقول: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ} أي: ترفعهن بما ظهر لكم من علامات ودلائل كأن يأمرها فلا تطيع ويدعوها فلا تجيب وينهاها فلا تنتهي، فاسلكوا معهن السبيل الآتي: {فَعِظُوهُنَّ} أولاً، والوعظ تذكيرها بما للزوج عليها من حق يجب أدائه وما يترتب على إضاعته من سخط الله تعالى وعذابه، وبما قد ينجم من إهمالها في ضربها أو طلاقها، فالوعظ ترغيب بأجر الصالحات القانتات، وترهيب من عقوبة المفسدات العاصيات فإن نفع الوعظ فيها وإلا فالثانية وهي: أن يهجرها2 الزوج في الفراش فلا يكلمها وهو نائم معها على فراش واحد وقد

1 رواه أبو داود الطيالسي، وقد تقدم في النهر آنفاً، وهو حديث صحيح.

2 هذا الهجر في الفراش شهر فلا يزيد عليه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين أسر إلى حفصة فأفشته لعائشة، ولا يكون كالإيلاء أربعة أشهر.

أعطاهما ظهره فلا يكلمها ولا يجامعها وليصبر على ذلك حتى تؤوب إلى طاعته وطاعة الله ربهما معاً، وإن أصرت ولم يجد معها الهجران في الفراش، فالثالثة وهي: أن يضربها 1 ضرباً غير مبرح لا يشين جارحة ولا يكسر 2 عضواً. وأخيراً فإن هي أطاعت زوجها فلا يحل بعد ذلك أن يطلب الزوج طريقاً إلى أذيتها لا يضرب ولا بهجران لقوله تعالى: {فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ} أي: الأزواج {فَلَا تَبْغُوا} أي: تطلبوا {عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} لأذيتهم باختلاف الأسباب وإيجاد العلل والمبررات لأذيتهم. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً} تذييل الكلام بما يشعر من أراد أن يعلو 3 على غيره بما أوتي من قدرة بأن الله أعلى منه وأكبر فليخش الله وليترك من علوه وكبريائه.

هذا ما تضمنته هذه الآية العظيمة (34)، أما الآية الثانية (35) فقد تضمنت حكماً اجتماعياً آخر وهو إن حصل شقاق بين زوج وامرأته فأصبح الرجل في شق والمرأة في شق آخر فلا تلاقي بينهما ولا وفاق ولا وئام ذلك لصعوبة الحال، فالطريق إلى حل هذا المشكل ما أرشد الله تعالى إليه، وهو أن يبعث ولي الزوجة حكماً من قبله، وبعث ولي الزوج حكماً من قبله، أو يبعث الزوج نفسه حكماً وتبعث الزوجة أيضاً حكماً من قبلها، أو يبعث القاضي كذلك، الكل جائز لقوله تعالى: {فَأَبْعَثُوا} وهو يخاطب المسلمين على شرط أن يكون الحكم عدلاً عالماً بصيراً حتى يمكنه الحكم والقضاء بالعدل. فيدرس الحكمان القضية أولاً مع طرفي النزاع ويتعرفان إلى أسباب الشقاق وبما في نفس الزوج من رضى وحب، وكراهية وسخط ثم يجتمعان على إصلاح ذات البين، فإن أمكن ذلك فيها وإلا فرقا بينهما برضى الزوجين. مع العلم أنهما إذا ثبت لهما ظلم أحدهما فإن عليهما أن يطالبا برفع الظلم، فإن كان الزوج هو الظالم فليرفع ظلمه وليؤد ما و جب عليه، وإن كانت المرأة هي الظالمة فإنها ترفع ظلمها أو تفدي نفسها بمال فيخالعها به زوجها، هذا معنى قوله تعالى: {وَأِنْ

1 لم يصرح الله تعالى بالضرب في كتابه إلا في الحدود، وهنا في ضرب الناشر، وهذا دليل على أن عصيان الزوجة لزوجها حرام، ويشهد لهذا حديث: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح". رواه مسلم.

2 لحديث مسلم في خطبة الوداع، إذ فيه: "واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوام ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف".

3 روى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، أنه لما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تضربوا إماء الله". فجاء عمر وقال: يا رسول الله ذئرت النساء على أزواجهن فرخص صلى الله عليه وسلم في ضربهن، فأطاف بأل رسول الله نساء كثير يشتكين أزواجهن. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد طاف بأل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم" ومعنى ذئرت النساء: أي: نشزت وتغير خلقهن، أي: نشزن وأجتزأن، والإجتزاء هنا أولى بالمعنى.

خَفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا} ، و الخوف هنا بمعنى: التوقع الأكيد بما ظهر من علامات ولاح من دلائل فيعالج الموقف قبل التأزم الشديد {فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} ، لأنهما أعرف بحال الزوجين من غيرهما وقوله تعالى: {إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا} فإنه يعني الحكيمين، {يُوقِقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا} ، أي: إن كان قصدهما الإصلاح والجمع بين الزوجين وإزالة الشقاق والخلاف بينهما فإن الله تعالى يعينهما على مهمتهما وبيارك في مسعاهما ويكلله بالنجاح. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} . ذكر تعليلاً لما واعد به تعالى من التوفيق بين الحكيمين، إذ لو لم يكن عليماً خبيراً ما عرف نيات الحكيمين وما يجري في صدورهما من إرادة الإصلاح أو الإفساد.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- تقرير مبدأ القيومية للرجال على النساء وبخاصة الزوج على زوجته.

2- وجوب إكرام الصالحات والإحسان إليهن.

3- بيان علاج مشكلة نشوز I الزوجة وذلك بوعظها أولاً ثم هجرانها في الفراش ثانياً.

4- لا يحل اختلاف الأسباب وإيجاد مبررات لأذية المرأة بضرب وبغيره.

5- مشروعية التحكيم في الشقاق بين الزوجين وبيان ذلك.

{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} (36) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ

1 النشوز: العصيان، مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع من الأرض، ويقال: نشز الرجل ينشز إذا كان قاعداً فنهض قائماً. ومنه قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا} ، أي: ارتفعوا وقوموا. فنشوز المرأة: ترفعها عن طاعة الزوج.

النَّاسِ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39) {

شرح الكلمات:

{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ 1} : الخطاب للمؤمنين ومعنى: اعبدوا: أطيعوه في أمره ونهيه مع غاية الذل والحب والتعظيم له عز وجل.

{وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ 2 شَيْئاً} : أي: لا تعبدوا معه غيره بأي نوع من أنواع العبادات التي تعبد الله تعالى بها عباده من دعاء وخشية وذبح ونذر وركوع وسجود وغيرها.

{وَبِذِي الْقُرْبَى} : أصحاب القرابات.

{وَأَبْنِ السَّبِيلِ} : المسافر استضاف أو لم يستضف.

{وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى 3} : أي: القريب لنسب أو مصاهرة.

{وَالْجَارِ الْجُنُبِ} : أي: الأجنبي مؤمناً كان أو كافراً.

{وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ} : الزوجة، والصدیق الملازم؛ كالتلميذ والرفیق في السفر.

{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} : من الأرقاء العبيد فتيان وفتيات.

{مُخْتَلًا فَخُورًا} : الاختيال: الزهو في المشي، والفخر والافتخار بالحسب والنسب والمال بتعداد ذلك وذكره.

1 هذه الآية محكمة إجمالاً لا نسخ فيها البتة، وتسمى آية الحقوق العشرة.

2 الشرك ثلاثة أنواع: شرك في ربوبية الله تعالى للعالمين. شرك في أسماؤه تعالى وصفاته. وشرك في عبادته تعالى. والشرك بأنواعه الثلاثة من الذنب الذي لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة الصادقة منه. ومن شرك العبادة: الرياء.

3 قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن لي جارين فألى أيهما أهدي. فقال: "إلى أقربهما منك باباً" والجيران الثلاثة: جار له ثلاثة حقوق. وجار له حقان. وجار له حق واحد. فالجار الذي له ثلاثة حقوق: فالجار المسلم القريب؛ حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. والجار الذي له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار، وحق الإسلام. والجار الذي له حق واحد: هو الكافر له حق الجواز.

(1/476)

{يَبْخُلُونَ} : يمنعون الواجب بذله من المعروف مطلقاً.

{وَيَكْتُمُونَ} : يجحدون ما أعطاهم الله من علم ومال تفضلاً منه عليهم.

{قَرِينًا} : القرين: الملازم الذي لا يفارق صاحبه مشدود معه بقرن، أي بحبل.

{وَمَاذَا عَلَيْهِمْ 1} : أي: أي شيء يضرهم أو ينالهم بمكروه إذا هم آمنوا؟.معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هداية المؤمنين، وبيان الأحكام الشرعية لهم ليعملوا بها فيكملوا ويسعدوا،

ففي الآية الأولى (36) يأمر تعالى المؤمنين بعبادته وتوحيده² فيها وبالإحسان³ إلى الوالدين وذلك بطاعتهم في المعروف وإسداء الجميل لهم، ودفع الأذى عنهم، وكذا الأقرباء، واليتامى، والمساكين، والجيران⁴ مطلقاً أقرباء أو أجانِب، والصاحب الملازم الذي لا يفارق؛ كالزوجة والمرافق في السفر والعمل والتلمذة والطلب، ونحو ذلك من الملازمة التي لا تفارق إلا نادراً، إذ الكل يصدق عليه لفظ الصاحب بالجنب. وكذا ابن السبيل وما ملكت اليمين من أمة أو عبد والمذكورون الإحسان إليهم أكد وإلا فالإحسان معروف ببذل لكل الناس كما قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ، وقال ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ دال على أن منع الإحسان الذي هو كف الأذى وبذل المعروف ناتج عن خلق البخل والكبر وهما من شر الأخلاق هذا ما دلت عليه الآية الأولى (36).

وأما الآية الثانية (37) وقد تضمنت بمناسبة ذم البخل والكبر والتنديد ببخل بعض أهل الكتاب وكتمانهم الحق وهو ناتج عن بخلهم أيضاً قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من مال وعلم وقد كتّموا نُعوت النبي

1 تفهام هنا إنكاري توبيخي.

2 التوحيد ضد الشرك، وقد ورد في الشرك تحذيراً منه أحاديث صحاح منها حديث مسلم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

3 قرن تعالى في غير آية عبادته بالإحسان إلى الوالدين نظراً إلى أن الله تعالى خلق ورزق فهو أحق بالطاعة، وأن الوالدين تكون الولد منهما وربياه في صغره، فكانت المنة لهما بعد الله تعالى. 4 صح في الإحسان إلى الجار العديد من الأحاديث منها: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"، ومنها: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيكرم جاره"، ومنها: "والله لا يؤمن. فقيل من: قال: من لا يؤمن جاره بوائقه".

5 البخل المذموم شرعاً: هو الامتناع من أداء الحقوق الواجبة. والشح: بخل مع حرص، وهو شر من مجرد البخل.

(1/477)

صلى الله عليه وسلم وصفاته الدالة عليه في التوراة والإنجيل، وبخلوا بأموالهم وأمروا بالبخل بها، إذ كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم على محمد فإننا نخشى عليكم الفقر، وخبر الموصول الذين محذوف تقديره هم الكافرون حقاً دل عليه قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ . هذا ما جاء في

هذه الآية الثانية.

أما الآيتان الثالثة (38) والرابعة (39) فإن الأولى منهما قد تضمنت بيان حال أناس آخرين غير اليهود وهم المنافقون فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ} أي: مراعاة لهم ليتقوا بذلك المذمة ويحصلوا على المحمدة. {وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} . لأنهم كفار مشركون وإنما أظهروا الإسلام تقية فقط، ولذا كان إنفاقهم رياء لا غير. وقوله: {وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا} أي: بسئ القرين له الشيطان وهذه الجملة: {وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ...} دالة على خبر الموصول المحذوف اكتفى بها عن ذكره كما في الموصول الأول وقد يقدر بمثل: الشيطان 2 قرينهم، هو الذي زين لهم الكفر بالله واليوم الآخر.

هذا ما تضمنته الآية الثانية (39) وهي قوله تعالى {وَمَادَا عَلَيْهِمْ 3 لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ} فقد تضمنت الإنكار والتوبيخ لأولئك المنافقين الذين ينفقون رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بسبب فتنة الشيطان لهم وملازمته إياهم، فقال تعالى: {وَمَادَا عَلَيْهِمْ} أي: أي شيء يضرهم أو أي أذى يلحقهم في العاجل أو الآجل، لو صدقوا الله ورسوله وأنفقوا في سبيل الله مما رزقهم الله، وفي الخطاب دعوة ربانية لهم لتصحيح إيمانهم واستقامتهم بالخروج من دائرة النفاق التي أوقعهم فيها القرين عليه لعائن الله، فلذا لم يذكر تعالى وعيداً لهم، وإنما قال: {وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا} وفي هذه تخويف لهم من سوء حالهم إذا استمروا على نفاقهم فإن علم الله بهم يستوجب الضرب على أيديهم إن لم يتوبوا.

- 1 أصل: {اعتدن} أعددن، أبدلت الدال الأولى تاء لثقل الدالين عند فك الإدغام، أما مع الإدغام فلا إبدال، نحو: أعد، ومنه العتاد الحربي، وهو عدة السلاح.
- 2 أو فقرينهم الشيطان.
- 3 ماذا: اسم استفهام بمعنى: أي شيء، ويجوز أن تكون ما مبتدأ، وذا خبره، وهو بمعنى: الذي.

(1/478)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عشرة حقوق والأمر بأدائها فوراً وهي عبادة الله وحده والإحسان بالوالدين، وإلى كل المذكورين 1 في الآية الأولى.
- 2- ذم الاختيال 2 الناجم عن الكبر وذم الفخر وبيان كره الله تعالى لهما.
- 3- حرمة البخل 3 والأمر به وحرمة كتمان العلم وخاصة الشرعي منه.

4- حرمة الرياء وذم صاحبها.

5- ذم قرناء السوء لما يأمرهم به ويدعون إليه قرنائهم حتى قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} (40) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (42){

شرح الكلمات:

الظلم : وضع شيء في غير موضعه.

- 1 أخص المملوك بذكر ما ورد فيه، ففي مسلم يقول صلى الله عليه وسلم: "للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق" ، وقال: "لا يقل أحدكم: عبدي، وأمتي. بل يقل: فتاي، وفتاتي" ، وفي هذا مراعاة لجانب التوحيد، ومراعاة لشعور المملوك حتى لا يرى أنه مهان مستضعف. وقال صلى الله عليه وسلم في فضل العبد الصالح: " للعبد المملوك المصلح أجران"
- 2 الاختيال من أكبر الذنوب، وفي الحديث الصحيح: "أن الله لا ينظر إلى من جر ثوبه خيلاء."
- 3 شاهده قوله صلى الله عليه وسلم: " وأي داء أودأ من البخل" ، وقال: "إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا" ، وفي رواية: " حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم" .
- 4 نصب {مِثْقَالٌ} على المفعولية المطلقة، إذ التقدير: "لا يظلمون ظلماً مقدراً بمتقال ذرة، والمتقال: ما يظهر به الثقل، فهو كاسم الإله "مفعال" والمراد به المقدار، والذرة بيضة النملة."

(1/479)

{مِثْقَالٌ ذَرَّةٌ}: المنقال: الوزن مأخوذ من الثقل فكل ما يوزن فيه ثقل، والذرة أصغر حجم في الكون حتى قيل إنه الهباء أو رأس النملة.

الحسنة : الفعلة الجميلة من المعروف.

{يُضَاعِفْهَا}: يريد فيها ضعفها.

{مِنْ لَدُنْهُ}: من عنده.

{أَجْرًا عَظِيمًا}: جزاء كبيراً وثواباً عظيماً.

الشهيد : الشاهد على الشيء لعلمه به.

{يَوَدُّ}: يحب.

{تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ}: يكونون تراباً مثلها.
{وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}: أي: لا يخفون كلاماً.

معنى الآيات:

لما أمر تعالى في الآيات السابقة بعبادته والإحسان إلى من ذكر من عباده. وأمر بالإنفاق في سبيله، وندد بالبخل والكبر والفخر، وكتمان العلم، وكان هذا يتطلب الجزاء بحسبه خيراً أو شراً ذكر في هذه الآية(40) {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ 1 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} ، ذكر عدله في المجازاة ورحمته، فأخبر أنه عند الحساب لا يظلم عبده وزن ذرة وهي أصغر شيء وذلك بأن لا ينقص من حسناته حسنة، ولا يزيد في سيئاته سيئة، وإن توجد لدى مؤمن حسنة واحدة يضاعفها بأضعاف يعلمها هو ويعط من عنده بدون مقابل أجراً عظيماً لا يقادر قدره، فله الحمد والمنة. هذا ما تضمنته الآية الأولى(40)، أما الآية الثانية(41) فإنه تعالى لما ذكر الجزاء والحساب الدال عليه السياق ذكر ما يدل على هول يوم الحساب وفضاعة الأمر فيه، فخطب رسوله صلى الله عليه وسلم قائلاً: { فَكَيْفَ 2 إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا }؟ ومعنى الآية: فكيف تكون حال أهل الكفر والشر والفساد إذا جاء الله تعالى بشهيد من كل أمة ليشهد 3 عليهما فيما أطاعت وفيما عصت

- 1 روى عن ابن مسعود، وابن عباس: "أن هذه الآية إحداهن آيات هي خير مما طلعت عليه الشمس" ووجه ذلك في حديث الشفاعة في صحيح مسلم، إذ فيه: "ثم يقول لهم ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرَجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا، -أي: النار - خيراً".
- 2 كيف فتحت فؤوها لالتقاء الساكنين، إذ المفروض فيها أنها ساكنة وهي هنا في محل نصب، إذ التقدير: تكون حالهم كيف.
- 3 هو رسولها الذي أرسل إليها.

(1/480)

ليتم الحساب بحسب البيئات والشهود والجزاء بحسب الكفر والإيمان والمعاصي والطاعات، وجئنا بك أيها الرسول الخليل صلى الله عليه وسلم شهيداً على هؤلاء، أي: على أمته صلى الله عليه وسلم من آمن به ومن كفر، إذ يشهد أنه بلغ رسالته وأدى أمانته صلى الله عليه وسلم. هذا ما تضمنته الآية الثانية، أما الآية الثالثة(42) فإنه تعالى لما ذكر ما يدل على هول يوم القيامة في الآية(41) ذكر مثلاً لذلك الهول وهو أن الذين كفروا يودون وقد عصوا الرسول لو يسوون بالأرض فيكونون تراباً حتى لا يحاسبوا ولا يجزوا بهنم. وأنهم في ذلك اليوم لا يكتُمون الله كلاماً؛ إذ جوارحهم تنطق

فتشهد عليهم. قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ} أي: يوم يؤتى من كل أمة بشهيد {يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ نَسَوَى 1 بِهِمُ الْأَرْضُ} فيكونون تراباً مثلها2. مرادهم أن يسواهم بالأرض فيكونون تراباً وخرج الكلام على معنى: أدخلت رأسي في القلنسوة، والأصل: أدخلت القلنسوة في رأسي، وقوله {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} إخبار عن عجزهم عن كتمان شيء عن الله تعالى؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم بعد أن يختم على أفواههم، كما قال تعالى من سورة يس {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- بيان عدالة الله تعالى ورحمته ومزيد فضله.

2- بيان هول يوم القيامة حتى إن الكافر ليود أن لو سويت به الأرض فكان تراباً.

3- معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بآثار الشهادة على العبد بيوم القيامة إذ أخبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً: "اقرأ عليّ القرآن، فقلت اقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: أحب أن أسمع من غيري. قال: فقرأت: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ} حتى وصلت هذه الآية: {فَكَيْفَ 3 إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ} الآية، وإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرّفان الدموع4 وهو يقول: حسبك. أي: كفاك ما قرأت عليّ".

1 قرئت: {تَسْوَى} بتشديد كل من السين والواو مع فتح التاء في السبع، وقرئت أيضاً: {تَسْوَى} بفتح التاء وتخفيف السين وتشديد الواو، وبضم التاء وتشديد الواو.

2 أي: تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها فتكون الباء بمعنى: على، أي: لو تسوى عليهم، أي: تتشق فتسوى عليهم.

3 الاستفهام للتعجب من حال الناس في عرصات القيامة، وقد جيء بالشهود: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْقِبِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} .

4 إن بكاء الرسول صلى الله عليه وسلم هنا لسببين: الأول: المسرة التي نالته بتشريف الله تعالى له في هذا المشهد العظيم، حيث يؤتى به شهيداً على أمته، لا يعرف عدد أفرادها إلا الله خالقها، ويدخل الجنة بشهادته عدد لا يحصى. والثاني: الأسى والأسف الذي يلحقه من رؤيته أعداداً هائلة من أمته يدخلون النار بشهادته عليهم. واليكاء: يكون للمسرة والحزن معاً.

لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُؤُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)

شرح الكلمات:

{لا تَقْرُؤُوا}: لا تندوا كناية عن الدخول فيها، أو لا تندوا من مساجدها.

{سُكَارَى}: جمع سكران، وهو من شرب مسكراً فستر عقله وغطاه.

{تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}: لزوال السكر عنكم ببعد شربه عن قوت الصلاة، وهذا كان قبل تحريم الخمر وسائر المسكرات.

{وَلَا جُنُبًا 1}: الجنب: من به جنابة وللجنابة سببان جماع، أو احتلام.

{عَابِرِي 2 سَبِيلٍ}: مارين بالمسجد مروراً بدون جلوس فيه.

{الْغَائِطِ}: المكان المنخفض للتغوط: أي: التبرز فيه.

{لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ}: جامعتموهن.

{فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا}: اقصدوا تراباً طاهراً.

{عَفُوًّا غَفُورًا}: عفواً: لا يؤاخذ على كل ذنب، غفوراً: كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين إليه.

معنى الآية الكريمة:

لا شك أن لهذه الآية سبباً نزلت بمقتضاه، وهو أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

1 {وَلَا جُنُبًا} هذا معطوف على محل جملة: {حَتَّى تَعْلَمُوا} أي: لا تصلوا، وقد أجنبتم، لفظ: الجنب، لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع؛ لأنه على وزن المصدر؛ كالقرب والبعد، يقال: هو جنب، وهي جنب، وهم جنب، وهن جنب، بلا فرق.

2 يقال: عبرت الطريق. إذا قطعت من جانب إلى جانب آخر، وعبرت النهر كذلك، والمعبر: ما يعبر عليه من سفينة ونحوها، وناقية عبر أسفار، لا يزال يسافر عليها ويقطع بها الفلاة، والهاجرة: لسرعة مشيها.

(1/482)

حسب رواية الترمذي أقام مآدبة لبعض الأصحاب فأكلوا وشربوا وحضرت الصلاة فقاموا لها وتقدم أحدهم يصلي بهم، فقرأ بسورة الكافرون، وكان ثملان فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وهذا باطل قراءته بحذف حروف النفي فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...} أي: يا من صدقتكم بالله ورسوله، {لا تَقْرُؤُوا الصَّلَاةَ} أي: لا تدخلوا فيها، والحال أنكم سكارى من الخمر إذ كانت يومئذ حلالاً

غير حرام، حتى تكون عقولكم تامة تميزون بها الخطأ من الصواب فتعلموا ما تقولون في صلاتكم. ولا تقربوا مساجد الصلاة للجلوس فيها، وأنتم جنب حتى تغتسلوا اللهم إلا من كان منكم عابر سبيل، إذ كانت طرق بعضهم إلى منازلهم على المسجد النبوي. {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ} بجراحات يضرها الماء أو مرضى مرضاً لا تقدرين معه على استعمال الماء للوضوء أو الغسل، أو كنتم {عَلَىٰ سَفَرٍ ۚ} أو جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} بمضاجعتهم أو مستموهن بقصد الشهوة {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} تغتسلون به إن كنتم جنباً أو تتوضؤون به إن كنتم محدثين حدثاً أصغر {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} أي: اقصدوا تراباً طاهراً {فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} مرة واحدة فإن ذلك مجزئ لكم عن الغسل والوضوء، فإن صح المريض أو وجد الماء فاغتسلوا أو توضأوا ولا تيمموا لانتفاء الرخصة بزوال المرض أو وجود الماء. وقوله تعالى في ختام الآية {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} يخبر تعالى عن كماله المطلق فيصف نفسه بالعفو عن عباده المؤمنين إذا خالفوا أمره، وبالمغفرة لذنوبهم إذا هم تابوا إليه، ولذا هو عز وجل لم يؤاخذهم لما صلوا وهم سكارى لم يعرفوا ما يقولون، وغفر لهم وأنزل هذا القرآن تعليماً لهم وهداية لهم.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

1- تقرير مبدأ النسخ للأحكام الشرعية في القرآن والسنة.

2- حرمة مكث 3 الجنب في المسجد، وجواز العبور والاجتياز بدون مكث.

1 روى أبو داود في سننه: "أنه لما نزلت أية البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، ولما نزلت هذه الآية من النساء قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، ولما نزلت آية المائدة: {قَهْلُ أَنْتُمْ مُنْتَهَوْنَ} قال: انتهيينا يا ربنا".

2 هل السفر مبيح للتيمم، وإن وجد الماء؟ الجواب: لا. وإنما ذكر السفر؛ لأن الغالب فيه أنه لا يوجد ماء. أما الحضر: فالماء فيه قلما ينقطع ولا يوجد.

3 يحرم قراءة القرآن على الجنب لحديث ابن ماجة وغيره: "لا يقرأ الجنب والحائض شيئاً من القرآن"، وحديث الدارقطني: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جنباً".

(1/483)

3- وجوب الغسل على الجنب وهو من قامت به جنابة بأن احتلم فرأى الماء، أ جامع أهله فأولج ذكره 1 في فرج امرأته ولم ينزل ماء.

وكيفية الغسل: أن يغسل كفيه قائلاً: بسم الله ناوياً رفع الحدث الأكبر ثم يستنحي فيغسل فرجيه وما حولهما، ثم يتوضأ فيغسل كفيه ثلاثاً، ثم يتمضمض ويستنشق الماء، ويستنثره ثلاثاً، ثم يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه وأذنيه مرة واحدة ثم يغسل رجليه إلى الكعبين ثم يغمس كفيه في الماء ثم يخلل أصول شعر رأسه، ثم يحثو الماء على رأسه بغسله بكل حثوة، ثم يفيض الماء على شقه الأيمن يغسله، ثم على شقه الأيسر يغسله. من أعلاه إلى أسفله، ويتعهد بالماء إبطيه وكل مكان من جسمه ينبو عنه الماء كالسرة وتحت الركبتين 2.

4- إذا لم يجد المرء التراب لمطر ونحوه تيمم بكل أجزاء الأرض 3 من رمل وسبخة وحجارة والتيمم هو أن يضرب بكفه الأرض ثم يمسح وجهه وكفيه بهما لحديث عمار رضي الله عنه في الصحيح. 5- بيان عفو الله وغفرانه لعدم مؤاخذه من صلوا وهم سكارى.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ} (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ

1 لحديث مسلم: " إذا جلس شعبها الأربع ومس الختان الختان فقد وجب الغسل " ، أما حديث مسلم: " إنما الماء من الماء " فمنسوخ بالحديث المذكور أعلاه، وعلى هذا جماهير الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة.

2 لحديث: "تحت كل شعرة جنابة اغسلوا الشعر وأنفقوا البشرة" . قال ابن عيينة: "المراد وأنفقوا البشرة: غسل الفرجين وتنظيفهما".

3 الإجماع على جواز التيمم بالتراب المنبت الطاهر غير المنقول ولا المغصوب. والإجماع على عدم الجواز على الذهب والفضة والياقوت والزمرد والأطعمة؛ كالخبز واللحم وغيرهما. وكذا النجاسات واختلف فيه غير ما ذكر؛ كالحجارة والسبخة والرمل وما إلى ذلك.

(1/484)

وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46){
شرح الكلمات:

{أَلَمْ تَرَ} : ألم تبصر، أي: بقلبك، أي: تعلم.

{نَصِيحاً} : حظاً وقسطاً.

{يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ} : أي: الكفر بالإيمان.

{الأعداء} : جمع عدو، وهو يقف بعيداً عنك يود ضرك ويكره نفعك.
{هَادُوا} : أي: اليهود، قيل لهم ذلك لقولهم: {إِنَّا هَدْنَا إِلَيْكَ} ، أي: تبنا ورجعنا.
{يُحَرِّفُونَ} : التحريف: الميل بالكلام عن معناه إلى معنى باطل للتضليل.
{الْكَلِمَ} : الكلام، وهو كلام الله تعالى في التوراة.
{وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ} : أي: اسمع ما تقول لا أسمعك الله. وهذا كفر منهم صريح.
{وَطَعْنَا فِي الدِّينِ} : سبهم للرسول صلى الله عليه وسلم هو الطعن الأعظم في الدين.
{وَأَنْظَرْنَا} : وأمهلنا حتى تسمع فتفهم.
{وَأَقْوَمَ} : أعدل وأصوب.
{عَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} : طردهم من رحمته وأبعدهم من هداه بسبب كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم.

معنى الآيات:

روي أن هذه الآيات نزلت في رفاة بن زيد بن تابوت أحد عظماء اليهود بالمدينة، كان إذا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه، وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعليه فأنزل الله تعالى هذه الآيات الثلاث إلى قوله {فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} ، وهذا شرحها: قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ

1 جملة: {يَشْتُرُونَ} في محل نصب حالية، وهي بضميمة جملة: {وَأُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ} فيكون مثار العجب في نفس السامع لأن اشتراء العالم الضلالة أمر عجب بلا شك.

(1/485)

تَضِلُّوا السَّبِيلَ} أي: ألم ينته إلى علمك وإلى علم أصحابك ما يحملكم على التعجب: العلم بالذين أتوا نصيباً من الكتاب وهم: رفاة بن زيد وإخوانه من اليهود، أعطوا حظاً من التوراة فعرفوا صحة الدين الإسلامي، وصدق نبيه صلى الله عليه وسلم {يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ} وهو الكفر يشترونها بالإيمان، حيث جحدوا نعوت النبي وصفاته في التوراة للإبقاء على مركزهم بين قومهم يسودون ويفضلون، ويريدون مع ذلك أن تضلوا أيها المؤمنون السبيل سبيل الحق والرشد، وهو الإيمان بالله ورسوله والعمل بطاعتها للإسعاد والإكمال. { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ} الذين يودون ضركم ولا يودون نفعكم، ولذا أخبركم بهم لتعرفوهم وتجنبوهم فتجوا من مكرهم وتضليلهم. {وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا} لكم تعتمدون عليه وتفوضون أموركم إليه {وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا} ينصركم عليهم وعلى غيرهم فاعبدوه وتوكلوا عليه. {مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} أي: هم من اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه،

والكلام هو كلام الله تعالى في التوراة، وتحريفه بالميل به عن القصد، أو بتبديله وتغييره تضليلاً للناس وإبعاداً لهم عن الحق المطلوب منهم الإيمان به والنطق والعمل به. ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم كفرةً وعناداً {سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا 3 وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ 4} ، أي: لا أسمعك الله {وراعنا} وهي كلمة ظاهرها أنها من المراعاة وباطنها الطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ اليهود يعدونها من الرعونة يقولونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم سباً وشتماً له قبحهم الله ولعنهم وقطع دابريهم، وقوله تعالى: {لَيَأْتِيَنَّكُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ} أي: يلون ألسنتهم بالكلمة التي يسبون بها حتى لا تظهر عليهم، ويطعنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا} أي: انتظرنا بدل راعنا لكان خيراً لهم وأقوم، أي: أعدل وأكثر لياقة وأدباً، ولكن لا يقولون هذا؛ لأن الله تعالى لعنهم وحرّمهم من كل توفيق بسبب كفرهم فهم لا يؤمنون إلا قليلاً. أي: إيماناً لا ينفعهم لقلته فهو لا يصلح أخلاقهم ولا يظهر نفوسهم ولا يهيئهم للكمال في الدنيا ولا في الآخرة.

1 جملة إعتراضية، وهي تحمل التعريض بأن إرادة اليهود تضليل المسلمين ناجمة عن عداوة وحسد للمسلمين.

2 {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا} خبر لمبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا، جماعة يحرفون الكلم عن مواضعه، و"من" تبعية.

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إنهم كانوا يقولون: سمعنا قولك وعصينا أمرك".

4 وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن مرادهم من قولهم: {وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ} اسمع لا سمعت".

(1/486)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان مكر اليهود بالمؤمنين بالعمل على إضلالهم في عهد النبوة وإلى اليوم.

2- في كفاية الله للمؤمنين ونصرته ما يغنيهم أن يطلبوا ذلك من أحد غير ربهم عز وجل.

3- الإيمان القليل لا يجدي صاحبه ولا ينفعه بحال.

لَيَأْتِيَنَّكُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47)

شرح الكلمات:

{أَوْتُوا الْكِتَابَ} : اليهود والنصارى، والمراد بهم هنا اليهود لا غير.

{بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا} : القرآن.

{نَطْمَسَ وَجُوهَهَا} : نذهب آثارها بطمس الأعين وإذهاب أحداقها.

{فَنَزَدَهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} : نجعل الوجه قفاً، واللقفاً وجهاً.

{كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} : لعنهم: مسخهم قرده خزيماً لهم وعذاباً مهيناً.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} : أمر الله: مأموره كائن لا محالة لأنه تعالى لا يعجزه شيء. معنى الآية الكريمة:

ما زال السياق في اليهود المجاورين للرسول صلى الله عليه وسلم، ففي هذه الآية ناداهم الله تبارك

1 شاهده قوله تعالى: {فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} هذا يصح إن كانت الجملة دالة على شيء من الإيمان، أما على رأي من يرى أن الكلام دال على نفي الإيمان بالكلية فلا دليل في الآية على أن قليل الإيمان لا ينفع.

2 قال القرطبي: قال ابن إسحاق: كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحرار يهود منهم: عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، وقال لهم: "يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جنتكم به الحق". قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد. وجددوا ما عرفوا وأصرروا على الكفر. فأنزل الله تعالى هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}.

(1/487)

وتعالى بعنوان العلم والمعرفة وهو نسبتهم إلى الكتاب الذي هو التوراة أمراً بإيهم بالإيمان بكتابه، أي: القرآن الكريم وبمن أنزله عليه محمد صلى الله عليه وسلم، إذ الإيمان بالمنزل إيمان بالمنزل عليه ضمناً. فقال: {آمنوا} بالفرقان المصدق لما معكم من أصول الدين ونعوت الرسول والأمر بالإيمان به ونصرته خفوا إلى الإيمان واتركوا التردد من قبل أن يحل بكم ما حل ببعض أسلافكم حيث مسخوا قرده وخنازير {مَنْ قِيلَ أَنْ نَطْمَسَ وَجُوهَهَا} فنذهب حدقة أعينها وشاخص أنوفها وتُغلق أفواهها فتصبح الوجوه أقفاء، والأقفاء وجوهاً يمشون القهقراء وهو معنى قوله: {فَنَزَدَهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} أو نلَعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ} أي: الذين اعتدوا منكم في السبت حيث صادوا فيه، وهو محرم عليهم فمسخهم قرده خاسئين. {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ} أي: مأموره {مَفْعُولًا} ناجزاً، لا يتخلف ولا يتأخر لأن الله تعالى لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

هداية الآية

من هداية الآية:

1- المفروض أن ذا العلم يكون أقرب إلى الهداية، ولكن من سبقت شقوته لما يعلم الله تعالى من

اختياره الشر والإصرار عليه لا ينفعه العلم، ولا يهتدي به هؤلاء اليهود الذين دعاهم الله تعالى إلى الإيمان فلم يؤمنوا.

2- وجوب تعجيل التوبة قبل نزول العذاب وحلول ما لا يحب الإنسان من عذاب ونكال.

3- قد يكون المسخ في الوجه بمسخ الأفكار والعقول فتفسد حياة المرء وتسوء، وهذا الذي حصل ليهود المدينة. فنقضوا عهودهم فهلك من هلك منهم وأجلى من أجلى نتيجة إصرارهم على الكفر وعداء الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}

- 1 قال مالك رحمه الله تعالى: "كان أول إسلام كعب الأحبار أنه مر برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...} إلخ. فوضع كفيه على وجهه ورجع القهقري إلى بيته فأسلم مكانه، وقال: والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي".
- 2 روى الترمذي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، قال هذا حديث حسن غريب.

(1/488)

شرح الكلمات:

{لَا يَغْفِرُ}: لا يمحو ولا يترك للمؤاخذه.

{أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}: أي: يعبد معه غيره تأليها له بحبه وتعظيمه وتقديم القرابين له، وصرف العبادات له كدعائه والاستعانة به والذبح والنذر له.

{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ}: أي ما دون الشرك والكفر من سائر الذنوب والمعاصي التي ليست شركاً ولا كفراً.

{لِمَنْ يَشَاءُ}: أي: لمن يشاء المغفرة له من سائر المذنبين بغير الشرك والكفر.

{افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}: اختلق وكذب كذباً بنسبته العبادة إلى غير الرب تعالى، والإثم: الذنب العظيم الكبير.

معنى الآية الكريمة:

يروى أنه لما نزل قول الله تعالى من سورة الزمر: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} قام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} ، فأخبر تعالى عن نفسه بأنه لا يغفر الذنب المعروف بالشرك والكفر، وأما سائر الذنوب كبيرها وصغيرها فتحت المشيئة إن شاء غفرها لمرتكبها فلم يعذبه بها، وإن شاء أخذها بها وعذبه، وأن من يشرك به تعالى فقد اختلق الكذب العظيم إذ عبد من لا يستحق العبادة وأنه من لا حق له في التأليه فلذا هو قائل بالزور وعامل بالباطل، ومن هنا كان ذنبه عظيماً.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية:

1- عظم ذنب 2 الشرك والكفر وأن كل الذنوب دونهما.

2- الشرك ذنب 3 لا يغفر لمن مات بدون توبة منه.

1 ومع ظهور سبب النزول فإن الآية تحمل تهديداً ووعيداً للناس شديدين يفهم ذلك من حرف التعليل، وهو: {إن الله} كأنه يقول: يا أيها الناس ادخلوا في الإسلام إن الله لا يغفر أن يشرك به. 2 وجه عظم ذنب الشرك يدرك بما يلي: أولاً: أنه ذنب لا يغفر إلا لمن تاب منه. ثانياً: إنه محبط للعمل مهما كثر وعظم لقوله تعالى: {لَنْ أَشْرُكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} . 3 يعرف الشرك: بأنه عبادة غير الله مع الله. ومن أنواع العبادة: التعظيم، والرغبة، والرغبة، والدعاء، والذبح، والنذر، والرکوع، والسجود، والصيام، والحلف، وهو من التعظيم.

(1/489)

3- سائر الذنوب دون الشرك والكفر لا يبيأس فاعلها من مغفرة الله تعالى له وإنما يخاف.

4- الشرك زور وفاعله قائل بالزور فاعل به.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرَكَّبُونَ أَنْفُسَهُمْ 1 بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50)}

شرح الكلمات:

تركيبية النفس : تبرئتها من الذنوب والآثام.

{يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ} : يطهر من الذنوب من يشاء من عباده بتوفيقه للعمل بما يزكي النفس، وإعانتته عليه.

الفتيل : الخيط الأبيض يكون في وسط النواة، أو ما يفتله المرء بأصبعيه من الوسخ في كفه أو جسمه وهو أقل الأشياء وأتفهها.

{الْكَذِبَ} : عدم مطابقة الخير للواقع.

معنى الآيتين:

عاد السياق إلى الحديث عن أهل الكتاب فقال تعالى لرسوله والمؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وهو أمر يحمل على العجب والاستغراب إذ المفروض أن المرء لا يزكي نفسه حتى يزكيه غيره، فاليهود والنصارى قالوا: ﴿تَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ . وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ . وقالت اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ 2 إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ ، إلى غير ذلك من الدعاوي الباطلة، ولما أنكر تعالى عليهم هذا الباطل الذي يعيشون عليه فعاقهم عن الإيمان والدخول في الإسلام وأخبر تعالى أنه عز وجل هو الذي يزكي من يشاء من عباده، وذلك بتوقيفه إلى الإيمان وصالح العمال التي تزكو عليها النفس البشرية، فقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: أقل قليل فلا يزداد

1 لا خلاف في أن المراد بالذين يزكون أنفسهم في هذه الآية هم اليهود.

2 ومن جملة أقوالهم في تزكية نفوسهم بأفواههم قولهم: "لا ذنب لنا وما فعلناه نهاراً يغفر لنا ليلاً"، وما فعلناه ليلاً يغفر لنا نهاراً" وقولهم: "نحن كالأطفال في عدم الذنوب". وتشاء بعضهم على بعض.

(1/490)

في ذنوب العبد ولا ينقص من حسناته. ثم أمر الله تعالى رسوله أن يتعجب من حال هؤلاء اليهود والنصارى وهم يكذبون على الله تعالى، ويختلقون الكذب بتلك الدعاوي التي تقدمت آنفاً. وكفى بالكذب إثماً مبيناً. يغمس صاحبه في النار.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة تزكية المرء نفسه بلسانه والتفاخر بذلك، إما طلباً للرئاسة، وإما تخلياً عن العبادة والطاعة بحجة أنه في غير حاجة إلى ذلك لطهارته، ورضى الله تعالى عنه.
 - 2- الله يزكي عبده بالثناء عليه في المأ الأعلى، ويزكيه بتوقيفه وإيمانه للعمل بما يزكي من صلاة وصدقات وسائر الطاعات المشروعة لتزكية النفس البشرية وتطهيرها.
 - 3- عدالة الحساب والجزاء يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ .
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (51) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** (52) **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا** (53) **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ 2 إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُكًا عَظِيمًا** (54)

1 روى مسلم عن عمر بن عطاء، قال: سميت ابنتي: برة. فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسميت برة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتزكون أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم". فقالوا: بما نسميها؟. فقال: "سموها زينب". قال الدارقطني: فدل الكتاب والسنة على المنع من تركية الإنسان نفسه. ويجري هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية. من نعت أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التركية: كركي الدين، ومحي الدين، وما أشبه ذلك، لكن لما كثرت قبائح المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها فصارت لا تفيد شيئاً.

2 آل إبراهيم هم: ذريته من أولاد وأحفاد وما تتاسل منهم؛ كداود وسليمان ومن بعدهم.

(1/491)

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)

شرح الكلمات:

{بِالْحَبِيبِ وَالطَّاعُوتِ}: الجبب 1: اسم لكل ما عبد من دون الله وكذا الطاغون سواء كانا صنمين أو رجلين.

أهدى سبيلا: أكثر هداية في حياتهما وسلوكهما.

{تَقْبِيرًا}: النقير: نقرة في ظهر النواة يضرب بها المثل في صغرها.

الحسد: تمنى زال النعمة عن الغير والحرص على ذلك.

{وَالْحِكْمَةَ}: السداد في القول والعمل مع الفقه في أسرار التشريع الإلهي.

معنى الآيات:

روي أن جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ذهبوا إلى مكة يحزبون الأحزاب لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نزلوا مكة قالت قريش: نسألهم فإنهم أهل كتاب عن ديننا ودين محمد أيهما خير؟ فسألوهم فقالوا لهم دينكم خير من دين محمد وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله تعالى هذه الآيات إلى قوله {عَظِيمًا}. وهذا شرحها: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ 2 وَالطَّاعُوتِ} ألم ينته إلى علمك أيها الرسول: أن الذين أوتوا حظاً من العلم بالتوراة يصدقون بصحة عبادة الجبب والطاغوت ويقرون عليها ويحكمون بأفضلية عبادتها على عبادة الله تعالى {وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا} وهم مشركوا قريش: دينكم خير من دين محمد وأنتم أهدى طريقاً في حياتكم الدينية والاجتماعية ألم يك موقف هؤلاء اليهود مثار الدهشة والاستغراب والتعجب لأهل العلم والمعرفة بالدين الحق، إذ يقرون الباطل ويصدقون به؟ {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ} أولئك

الهابطون في حمأة الرذيلة، البعيدون في أغوار الكفر والشر والفساد لعنهم الله فأبعدهم عن ساحة الخير والهدى، ﴿وَمَنْ

1 وقيل: الجبت: الساحر بلغة الحبشة، والطاغوت: الكاهن. عن ابن عباس وأبي جبير وأبي العالية، وقال عمر رضي الله عنه: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. وقال مالك: الطاغوت ما عبد من دون الله. وقيل: هما كل ما عبد من دون الله أو مطاع في معصية الله. وهذا حسن وهو ما ذكرناه في التفسير.

2 أخرج أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الطرق والطيرة والعيثة من الجبت" والمراد من الطرق: الخط بخط في الأرض للبحث عن معرفة ما يحدث للإنسان. والعيثة: زجر الطير للتشاؤم والتيمين، والطيرة: التطير. وأصل الجبت: الجبس، وهو ما لا خير فيه.

(1/492)

يَلْعَنُ اللَّهُ لَنْ تَجِدَ لَهُ} يا رسولنا {نَصِيرًا} ينصره من الخذلان الذي وقع فيه والهزيمة الروحية التي حلت به فأصبح وهو العالم ببارك الشرك ويفضله على التوحيد.

ثم قال تعالى في الآية(53) {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتِيهِمُ النَّاسُ تَوْبًا} . أي: ليس لهم نصيب من الملك كما يدعون، فالاستفهام للإنكار عليهم دعوة أن الملك يؤول إليهم، وهم لشدة بخلهم لو آل الملك لهم لما أعطوا أحداً أحقر الأشياء وأنفها ولو مقدار نواة، وهذا ذم لهم بالبخل بعد ذمهم بلازم الجهل، وهو تفضيلهم الشرك على التوحيد.

وقوله تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} أم بمعنى بل كسابقتها للإضراب -الانتقال من حال سيئة إلى أخرى، والهمزة للإنكار ينكر تعالى عليهم حسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على النبوة والدولة، وهو المراد من الناس وقوله تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ} ؛ كصحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل، والحكمة التي هي السنة التي كانت لأولئك الأنبياء يتلقونها وحياً من الله تعالى، وكلها علم نافع وحكم صائب سديد، والملك العظيم هو ما كان لداود وسليمان عليهما السلام كل هذا يعرفه اليهود فلم لا يحسدون محمداً والمسلمين، والمراد من السياق ذم اليهود بالحسد كما سبق ذمهم بالبخل والجهل مع العلم.

وقوله تعالى في الآية(55): {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ} يريد أن من اليهود المعاهدين للنبي صلى الله عليه وسلم من آمن بالنبي 3 محمد ورسالته، وهم القليل، { وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ} أي: انصرف وصرف الناس عنهم وهم الأكثرون {وَوَكَّفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} لمن كفر حسداً وصد عن سبيل

الله بخلاً ومكراً، أي: حسب جهنم ذات السعير جزاء له على الكفر والحسد والبخل، والعياذ بالله تعالى.

- 1 إذا هنا: ملغاة، فلم تنصب المضارع بعدها، وذلك لدخول فاء العطف عليها، لو نصب وكان في غير القرآن بها لجاز النصب. قال سيبويه: "إذا في عوامل الأفعال بمنزلة: ظن في عوامل الأسماء، أي: تلغى ولا تعمل. إذا لم يكن الكلام معتمداً عليها".
- 2 الحسد: كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه اعتراض على الله فيما قسمه بين عباده وورد فيه أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. قيل فيه: إنه أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي الله به في الأرض. إذ حسد إبليس آدم في السماء. وحسد قابيل هابيل في الأرض.
- 3 وجائز أن يكون الضمير عائداً إلى إبراهيم عليه السلام أو إلى الكتاب. وما ذكرناه في التفسير هو الحق.

(1/493)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الكفر بالجبت والطاغوت.
 - 2- بيان مكر اليهود وغشهم وأنهم لا يتورعون عن الغش والكذب والتضليل.
 - 3- ذم الحسد والبخل.
 - 4- إيمان بعض اليهود بالإسلام، وكفر أكثرهم مع علمهم بصحة الإسلام ووجوب الإيمان به والدخول فيه.
- {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} (57)

شرح الكلمات:

- {نُصَلِّيهِمْ نَارًا} 1 : ندخلهم ناراً يحترقون بها.
- {تَضِجَتْ جُلُودُهُمْ} 2 : اشتوت فتهرت وتساقطت.
- {لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} : ليستمر لهم العذاب مؤلماً.
- {عَزِيزًا حَكِيمًا} : غالباً، يعذب من يستحق العذاب.
- {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} : تجري من خلال أشجارها وقصورها الأنهار.

{مُطَهَّرَةٌ}: من الأذى والقذى مطلقاً.

{ظِلًّا ظَلِيلًا3}: الظل الظليل: الوارف الدائم لا حر فيه ولا برد به.

1 يقال: صلاه يصلية صلياً، وأصله إصلاح، أي: اللحم إذا شواه على النار، ويقال: فلان نضج الرأي، أي: محقه.

2 يقال: نضج الشواء، إذا بلغ حد الشوي.

3 صفة مؤكدة؛ كيوم أيوم، وليل أليل، والظليل هو: السجسج الذي لا حر فيه ولا قر.

(1/494)

معنى الآيتين:

على ذكر الإيمان والكفر في الآية السابقة ذكر تعالى في هاتين الآيتين الوعيد والوعد الوعيد لأهل الكفر والوعد لهل الإيمان فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا} يريد يدخلهم نار جهنم يحترقون فيها ويصطلون بها {كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ} تهرت وسقطت بدلهم 1 الله تعالى فوراً جلوداً غيرها ليتجدد ذوقهم للعذاب وإحساسهم به، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} تذييل المقصود منه إنفاذ الوعيد فيهم؛ لأن العزيز الغالب لا يعجز عن إنفاذ ما توعد به أعداءه، كما أن الحكيم في تدبيره يعذب أهل الكفر به والخروج عن طاعته، هذا ما تضمنته الآية الأولى (56) من وعيد لأهل الكفر.

وأما الآية الثانية (57) فقد تضمنت البشرى السارة لأهل الإيمان وصالح الأعمال، مع اجتناب الشرك والمعاصي فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: بعد تركهم الشرك والمعاصي {سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ} يريد نساء من الحور العين مطهرات من كل ما يؤدي أو يُخل بحسنةن وجمالهن نقيات من البول والغائض ودم الحيض. وقوله تعالى: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} وارفاً كنيئاً يقيههم الحر والبرد. وحدث يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "في الجنة شجرة تسمى 3 شجرة الخلد يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطع ظلها".

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الكفر والمعاصي موجبات 4 للعذاب الآخروي.
- 2- بيان الحكمة في تبديل الجلود لأهل النار وهي أن يدوم إحساسهم بالعذاب.
- 3- الإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي موجبات للنعيم الآخروي.

- 1 روي أن جلودهم تبدل في الساعة مائة مرة، وروي أن هذه الآية تليت عند عمر رضي الله عنه فقال عمر للقارئ: أعدها فأعادها عليه. وعنده كعب فقال: يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير لها. فذكر أنه تبدل في الساعة الواحدة مائة وعشرين مرة.
- 2 ذكر هذا الخلود إعظماً للمنة، و {خالدین} منصوب على الحال المقدره، أي: حال كون خلودهم مقدرًا فيها قبل دخولهم إياها.
- 3 ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية.
- 4 وذلك لأن الكفر والشرك والمعاصي التي هي ترك الواجبات وفعل المحرمات تدنس النفس فلا تصبح أهلاً لدخول الجنة لقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} .

(1/495)

4- الجنة دار النعيم خالية من كدرات الصفو والسعادة فيها.

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا(58) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(59)}

شرح الكلمات:

{أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ 1}: أداء الأمانة: تسليمها إلى المؤتمن، والأمانات جمع أمانة وهي ما يؤتمن عليه المرء من قول أو عمل أو متاع.

{الْعَدْلِ 2}: ضد الجور والانحراف بنقص أو زيادة.

{نِعِمَّا يَعِظُكُمْ}: نعم شيء يعظكم، أي: يأمركم به أداء الأمانات والحكم بالعدل.

{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}: أولوا الأمر: هم الأمراء والعلماء من المسلمين.

{تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ}: اختلفتم فيه كل فريق يريد أن ينتزع الشيء من يد الفريق الآخر.

{فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

{وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}: أحسن عاقبة، لأن تأويل الشيء ما يؤول إليه في آخر الأمر.

معنى الآيتين:

روي أن الآية الأولى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ 3 أَنْ تُؤَدُّوا 4 الْأَمَانَاتِ} نزلت في شأن عثمان بن

1 الإجماع على وجوب رد الأمانات لأصحابها كفاراً أو مؤمنين، فجاراً أو أبراراً.

- 2 العدل وسط بين طرفي، فإن مال لأحد الجانبين فقد جار وظلم ولم يعدل.
- 3 إن هنا لمجرد الاهتمام بالخبر، إذ مثل هذا الخبر لا يتطرق إليه الشك حتى يؤكد لإزالته؛ لأنه إخبار عن إيجاد شيء لا عن وجوده فهو خبر كالإنشاء.
- 4 الأداء: مصدر أدى المخفف المستغنى عنه بالمضعف، أدى يؤدي تأدية. إذا أوصل الشيء إلى طلبه، ويتجاوز فيه فيطلق على الاعتراف بالشيء والوفاء به، وذلك كقول الحق، وتبليغ العلم الشرعي، والمراد به هنا: إيصال الشيء إلى صاحبه.

(1/496)

طلحة الحجابي 1، حيث كان مفتاح الكعبة عنده بوصفه سادناً²، فطلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه صبيحة يوم الفتح، فصلى في البيت ركعتين وخرج، فقال العباس رضي الله عنه أعطيني يا رسول الله، ليجمع بين السقاية والسدانة، فانزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية على الناس، ودعا عثمان بن طلحة وأعطاه المفتاح. غير أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا فالآية في كل أمانة فعلى كل مؤتمن على شيء أن يحفظه ويرعاه حتى يؤديه³ إلى صاحبه، والآية تتناول حكام المسلمين أولاً بقرينة {وَأِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} الذي هو القسط، وضد الجور ومعناه: إيصال الحقوق إلى مستحقيها من أفراد الرعايا. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ} يريد أن أمره تعالى أمة الإسلام حكماً ومحكومين بأداء الأمانات والحكم بالعدل هو شيء حسن، وهو كذلك إذ قوام الحياة الكريمة هو النهوض بأداء الأمانات والحكم بالعدل وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} فيه الحث على الأمور به بإيجاد ملكة مراقبة الله تعالى في النفس، فإن من ذكر أن الله تعالى يسمع أقواله ويبصر أعماله استقام في قوله فلم يكذب وفي عمله فلم يفرط. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (58).

أما الآية الثانية (59)، فإن الله تعالى لما أمر ولاية أمور المسلمين بأداء الأمانات التي هي حقوق الرعية، وبالحكم بينهم بالعدل أمر المؤمنين المولي عليهم بطاعته وطاعة رسوله أولاً، ثم بطاعة ولاية الأمور ثانياً، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، والطاعة لأولي الأمر مقيد بما كان معروفاً للشرع، أما في غير المعروف فلا طاعة في الاختيار لحديث: "إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

وقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} فهو خطاب عام للولاية والرعية، فمتى حصل خلاف في أمر من أمور الدين والدنيا وجب رد ذلك إلى كتاب الله⁵ وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكما فيه وجب قبوله حلواً كان أو مرأً، وقوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ

- 1 المؤمن إذا لم يفرط وضاعت الأمانة منه فلا ضمان عليه إجماعاً لقوله صلى الله عليه وسلم: " لا ضمان على مؤتمن" رواه الدارقطني. والعارية مؤداة أيضاً. لحديث خطبة الوداع: "العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدين مقضي، والزعيم غارم" أي: ضامن.
- 2 أصل: نعمًا: نعم وكتبت معها ما بعد كسر عين نعم وتسكين ميمها وإدغامها في ما: هي إما موصولة أو نكرة موصوفة أو نكرة تامة وأما الجملة بعد نعم فهي تجري حسب ما يناسب معنى "ما".
- 3 الحجبي: نسبة إلى حجابة البيت على غير قياس.
- 4 السادن: الخادم للبيت، وتسمى هذه المهنة: السدانة.
- 5 وذلك يستلزم الرد إلى العلماء الفقهاء إذ هم الذين يعرفون الأحكام ويحسنون استنباطها من الكتاب والسنة .

(1/497)

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فيه أن الإيمان يستلزم الإذعان لقضاء الله ورسوله، وهو يفيد أن رد الأمور المتنازع فيها إلى غير الشرع قاذح في إيمان المؤمن وقوله: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} ، يريد ذلك الرد والرجوع بالمسائل والقضايا المختلف فيها إلى الكتاب والسنة هو خير حالاً ومآلاً، لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة متحابية متعاونة.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- وجوب رد الأمانات بعد المحافظة عليها.
- 2- وجوب العدل في الحكم وحرمة الحيف والجور فيه.
- 3- وجوب طاعة الله وطاعة الرسول وولاية المسلمين من حكام وعلماء 1 فقهاء، لأن طاعة الرسول من طاعة الله، وطاعة الوالي من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لحديث: "2من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميرى فقط أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أمرى فقد عصاني" 3.
- 4- وجوب رد المتنازع فيه عقيدة أو عبادة أو قضاء إلى الكتاب والسنة ووجوب الرضا بقضائهما.
- 5- العاقبة الحميدة والحال الحسنة السعيدة في رد أمة الإسلام ما تنازع فيه إلى كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم.

إِلَّا تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيَّ
الطَّاعُونَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا(60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
إِلَى مَا أَنْزَلَ

- 1 قال سهل بن عبد الله: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء فإن عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وأن استخفوا بهذين فسدت دنياهم وأخراهم.
- 2 رواه الشيخان وكذا حديث: "إنما الطاعة في المعروف" . إلخ.
- 3 روي في الصحيح أن عبد الله بن حذافة الأنصاري البديري، وكان به دعاية، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية فأمرهم يوماً أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً ففعلوا ثم أمرهم أن يدخلوها محتجاً عليهم بقوله صلى الله عليه وسلم: "من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني" فلم يستجيبوا له، وقالوا له: إنما أمنا وأسلمنا لننجو من النار فكيف نعذب أنفسنا بها؟ وذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف" .

(1/498)

اللَّهُ وَالِي الرُّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (61) فَكَيْفَ 1 إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63)

شرح الكلمات:

{يَزْعُمُونَ} : يقولون كاذبين.

{بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} : القرآن، وما أنزل من قبلك: التوراة.

{الطَّاغُوتِ} : كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة، والمراد به هنا: كعب بن الأشرف اليهودي أو كاهن من كهان العرب.

{الْمُتَافِقِينَ} : جمع منافق: وهو من يبطن الكفر، ويظهر الإيمان خوفاً من المسلمين.

{يَصُدُّونَ} : يعرضون عنك ويصرفون غيرهم كذلك.

{مُصِيبَةٌ} : عقوبة بسبب كفرهم ونفاقهم.

إن يريدون : أي: ما يريدون.

{إِلَّا إِحْسَانًا} : أي: صلحاً بين المتخاصمين.

{وَتَوْفِيقًا} : جمعاً وتأليفاً بين المختلفين.

{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ 2} : أي: اصفح عنهم فلا تؤاخذهم.

{وَعِظْهُمْ} : مرهم بما ينبغي لهم ويجب عليهم.

{قَوْلًا بَلِيغًا} : كلاماً قوياً يبلغ شغاف قلوبهم لبلاغته وفصاحته.

1 فكيف: خبر مبتدأ محذوف تقديره حالهم، كيف تكون حين تصيبهم مصيبة، أي: تكون عجباً لفرط حزنهم وبكاءهم وندمهم.

2 الإعراض: عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه مشتق من العرض بضم العين، وهو الجانب ولعله مأخوذ من إعراض في الشيء إذ دخل فيه؛ كأصبح في الصباح فأعرض فلان عن فلان، أي: تنحى عنه جانباً، أو أعطاه عرضه مدبراً عنه.

(1/499)

معنى الآيات:

روي أن منافقاً ويهودياً 1 اختلفا في شيء فقال اليهودي نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم لعلمه أنه يحكم بالعدل ولا يأخذ رشوة، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي، فتحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففضى لليهودي فنزلت 2 فيهما هذه الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ} والمراد بهذا المنافق، {وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ}، والمراد به اليهودي، والاستفهام للتعجب. ألم ينته إلى علمك موقف هذين الرجلين {يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} "كعب 3 بن الأشرف" أو الكاهن الجهنوي، وقد أمرهم الله أن يكفروا به {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}، حيث زين لهم لهم التحاكم عند الكاهن أو كعب اليهودي. {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ} ليحكم بينكم رأيت ياللعجب المنافقين يعرضون عنك اعراضاً هاربين من حكمك غير راضين بالتحاكم إليك لكفرهم بك وتكذيبهم لك {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ} وحلت بهم بسبب ذنوبهم أيقون معرضين عنك؟ أم ماذا؟ {ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ} قائلين 4، ما أردنا إلا الإحسان في عملنا ذلك والتوفيق بين المتخاصمين. هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث، وأما الرابعة وهو قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} فإن الله تعالى يشير إليهم بأولئك لبعدهم في الخسة والانحطاط، فيقول: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي: من النفاق والزيغ فهم عرضة للنقمة وسوء العذاب، {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} فلا تؤاخذهم 5، {وَعِظْهُمْ} أمراً إياهم بتقوى الله والإسلام له ظاهراً وباطناً، مخوفاً إياهم من عاقبة سوء أفعالهم بترك التحاكم إليك وتحاكمهم إلى الطاغوت، وقل لهم في خاصة أنفسهم قولاً بليغاً ينفذ إلى قلوبهم فيحركها ويذهب عنها غفلتها عليهم يرجعون.

1 صيغة جمع الواردة في الآية مثل: {يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا} تشير إلى كثرة المنافقين، ومن أمثال اليهودي والمنافق صاحبي القصة التي نزلت الآية فيها.

2 روي أن المنافق لم يرض بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهب باليهودي إلى أبي بكر

فحكم بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض المنافق فذهب بخصمه اليهودي إلى عمر، فذكر له اليهودي القصة، فقال عمر للمنافق وهو يشير: أكذا هو؟ قال: نعم. قال: رويدكما حتى أخرج إليكما. فدخل وأخذ السيف ثم ضرب به المنافق حتى برد، وقال هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله. وهرب اليهودي ونزلت هذه الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: "أنت الفاروق".

3 قيل فيه: طاغوت لأنه ذو طغيان زائد في الظلم والشر والفساد.

4 هؤلاء هم: قوم القتل المنافق جاؤا يطالبون بدية أخيه في النفاق، وقالوا: الكثير أكثر مما ذكر في الآية، وكل أقوالهم باطلة أملاها النفاق، ولذا أمر الرسول بالإعراض عنهم.

5 أي: لا تؤاخذهم فيما يبطنونه من الكفر ما داموا لم يظهره علناً.

(1/500)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- حرمة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إذا وُجد عالم بهما.

2- وجوب الكفر بالطاغوت أيًا كان نوعه.

3- وجوب الدعوة إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة ووجوب قبولها.

4- استحباب الإعراض عن نوي الجهالات، ووعظهم بالقول البليغ الذي يصل إلى قلوبهم فيهبها.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} (64)

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (65)

شرح الكلمات:

{بِإِذْنِ اللَّهِ}: إذن الله: إعلامه بالشيء وأمره به.

{ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ}: بالتحاكم إلى الطاغوت وتركهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ}: طلبوا منه أن يغفر لهم بلفظ اللهم اغفر لنا، أو استغفروا الله.

{يُحَكِّمُوكَ}: يجعلونك حكماً بينهم ويفوضون الأمر إليك.

{فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}: أي: اختلفوا لاختلاط وجه الحق والصواب فيه بالخطأ والباطل.

{حَرَجًا}: ضيفاً وتحرجاً.

{مِمَّا قَضَيْتَ}: حكمت فيه.

{وَيُسَلِّمُوا}: أي: يذعنوا لقبول حكمك ويسلمون به تسليماً تاماً.

1 شجر: اختلط واختلف، ومنه سمي الشجر شجراً لاختلاط أغصانه، قال طرفة:

وهم الحكام أرباب الهدى ...

وسعاة الناس في الأمر الشجر

(1/501)

معنى الآيتين:

بعد تقرير خطأ وضلال من أراد أن يتحاكما إلى الطاغوت، كعب بن الأشرف اليهودي، وهما: اليهودي والمنافق في الآيات السابقة أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل رسولا¹ من رسله المئات إلا وأمر المرسل إليهم بطاعته واتباعه والتحاكم إليه وتحكيمه في كل ما يختلفون فيه، وذلك أمره وقضاؤه وتقديره فيما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن كما أخبر تعالى أن أولئك الظالمين لأنفسهم يتحاكمهم² إلى الطاغوت وصدودهم عن التحاكم إليك أيها الرسول لو جاءوك متتصلين من خطيئتهم مستغفرين الله من ذنوبهم واستغفرت لهم أنت أيها الرسول، أي: سألت الله تعالى لهم المغفرة لو حصل منهم هذا لدل ذلك على توبتهم وتاب الله تعالى عليهم فوجدوه عز وجل {تَوَاباً رَحِيماً}. هذا معنى الآية (64) {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَاباً رَحِيماً}.
وأما الآية الثانية (65) {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} فإن الله تعالى يقول {فلا} أي: ليس الأمر كما يزعمون، ثم يقسم تعالى فيقول: {وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ} أيها الرسول، أي: يطلبون حكمك فيما اختلفوا فيه واختلط عليهم من أمورهم ثم بعد حكمك لا يجدون في صدورهم أدنى شك في صحة حكمك وعدالتهم، في التسليم له والرضا به وهو معنى الحرج المتبقي في قوله، {ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه.

2- بطلان من يزعم أن في الآية دليلاً على جواز طلب الاستغفار⁴ من الرسول صلى الله عليه

وسلم؛ لأن

1 من هذه الآية: {وما أرسلنا من رسول} مزيدة لتقوية الكلام وإفادة العموم.

- 2 تقدم أن الخطاب بصيغة الجمع وإن كان المتحاكمان اثنين فقط، فإن الحكم فيهم وفي غيرهم، فكل من يصدر عنه هذا النوع من الذنب فتوبته هي: ما ذكر تعالى في هذه الآية.
- 3 قيل أن هذه الآية: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} نزلت في الزبير والأنصاري في قضية سقي البستان، إذا اختلفا وأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: "اسقي يا زبير أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك". أي: الأول، فقال الأنصاري: أراك تحابي ابن عمك. فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال للزبير: "اسق ثم أحبس الماء حتى يبلغ الجدر"، فنزلت الآية. والحديث في صحيح البخاري.
- 4 وذلك أنه لو كان كل مذنّب لا يغفر له إلا إذا أتى الرسول صلى الله عليه وسلم واستغفر له لما تاب أحد، وللذم أن يبقى الرسول حياً ليستغفر للمذنبين بمثل هذا الذنب، ولا قائل بها ولا يعقل ولم يشرع أبداً، وكل حكاية ذكرت في هذه المسألة فهي باطلة.

(1/502)

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ} الآية نزلت في الرجلين اللذين أرادا التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي وإعراضهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتراط توبتهما إتيانهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفارهما الله تعالى، واستغفار الرسول لهما، وبذلك تقبل توبتهما، وإلا فلا توبة لهما، أما من عداهما فتوبته لا تتوقف على إتيانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لاستغفاره له وهذا محل إجماع بين المسلمين.

3- كل ذنب كبير أو صغر يعتبر ظلماً للنفس وتجب التوبة منه بالاستغفار والندم والعزم على عدم مراجعته بحال من الأحوال.

4- وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة وحرمة التحاكم إلى غيرهما.

5- وجوب الرضا 1 بحكم الله ورسوله والتسليم به.

{وَلَوْ 2 أَنَّا كَتَبْنَا 3 عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (66) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ 4 أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا (70)}

1 قضى أهل العلم أن السيل إذا كان بسبب مطر فإن الأعلى يقدم على الأسفل، فيسقي من وصل إليه السيل حتى يبلغ الماء الكعبين في أرضه، ثم يرسل السيل كله إلى من تحته فيسقي، ثم يرسل إلى من تحته، وهكذا. وهو قول المالكية مأخوذ من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قضية

الزبير والأنصاري وهو الحق.

2 لو حرف امتناع لامتناع أي امتناع شيء لامتناع غيره، إذ امتنع القتل لامتناع الكتب له.

3 روي أنه لما نزلت هذه الآية: {وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا} قال أبو بكر الصديق: "لو أمرنا لفعلنا"، فبلغ ذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إن من أمتي رجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال

الرواسي".

4 "حسن" مضمن معنى التعجب، فهو كنعمة المدح، أي: مدح الحسن فيه، وأولئك فاعلة، ورفيqa:

منصوب على التمييز.

(1/503)

شرح الكلمات:

{كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ} : فرضنا عليهم وأوحينا.

{أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} : أي: قتل أنفسهم.

{مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} : أي: ما فعل القتل إلا قليل منهم.

{مَا يُوعَظُونَ بِهِ} : أي: ما يؤمرون به وينهون عنه.

{وَأَشَدُّ تَنْبِيْئًا} : أي: للإيمان في قلوبهم.

{وَالصَّادِقِينَ} : جمع صديق: وهو من غلب عليه الصدق في أقواله وأحواله لكثرة ما يصدق ويتحرى

الصدق.

{وَالشَّهَادَاءِ} : جمع شهيد: من مات في المعركة ومثله من شهد بصحة الإسلام بالحجة والبرهان.

{وَالصَّالِحِينَ} : جمع صالح: من أدى حقوق الله تعالى وأدى حقوق العباد، وصلحت نفسه وصلح

عمله وغلب صلاحه على فساد.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أولئك النفر الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن

يكفروا به فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} أي: يقتل بعضكم بعضاً كما حصل

ذلك لبني إسرائيل لما فعلوا كما أنا لو كتبنا عليهم أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين في سبيلنا {مَا

فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ} منهم. ثم قال تعالى داعياً لهم مرغباً لهم في الهداية: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ}

أي: ما يذكرون به ترغيباً وترهيباً من أوامر الله تعالى لهم بالطاعة والتسليم لكان ذلك خيراً في الحال

والمآل، {وَأَشَدُّ تَنْبِيْئًا} للإيمان في قلوبهم وللطاعة على جوارحهم، لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص

بالمعصية، والحسنة تنتج حسنة، والسيئة تتولد عنها سيئة. ويقول تعالى: {وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ دُونِ آبَائِهِمْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ}

عظيماً} يريد لو أنهم استجابوا لنا وفعلوا ما أمرنا به من الطاعات، وتركوا ما نهيناهم عنه من

المعاصي لأعطيناهم من لدنا أجراً يوم يلقوننا ولهديناهم في الدنيا {صِرَاطاً مُسْتَقِيماً} ألا وهو الإسلام الذي هو طريق الكمال والإسعاد في الحياتين وهدايتهم إليه هي توفيقهم للسير فيه

1 قرئ: {إلا قليلاً} بالنصب، و {إن لا قليلاً} بالرفع، وقراءة الرفع مراعى فيها اللفظ وهو أولى، ولذا هي أكثر وأشهر.

(1/504)

وعدم الخروج عنه. هذا ما دلت عليه الآيات: (66-67-68).
أما الآية (69) وهي قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ 1 وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} فقد روى ابن جرير في تفسيره: أنها نزلت حين قال بعض الصحابة يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا فلم نرك فأنزل الله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ} الآية. وما أنعم الله تعالى عليه هو الإيمان بالله تعالى ومعرفة عز وجل ومعرفة محابه ومساخطه والتوفيق لفعل المحاب وترك المساخط هذا في الدنيا، وأما ما أنعم به عليهم في الآخرة فهو الجوار الكريم في دار النعيم. والصدّيقين هم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبر به والشهداء: جمع شهيد، وهو من قتل في سبيل الله. والصالحون: جمع صالح، وهو من أدى حقوق الله تعالى وحقوق عباده كاملة غير منقوصة، وقوله تعالى: {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} 3 يريد وحسن أولئك رفقاء في الجنة يستمتعون برؤيتهم والحضور في مجالسهم، لأنهم ينزلون إليهم، ثم يعودون إلى منازلهم العالية ودرجاتهم الرفيعة، وقوله تعالى: {ذَلِكَ 4 الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ} يريد أن ذلك الالتقاء مع من ذكرتم لهم بفضل الله تعالى، لا بطاعتهم. وقوله: {وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً} أي: بأهل طاعته وأهل معصيته وبطاعة المطيعين ومعصية العاصين، ولذلك يتم الجزاء عادلاً رحيماً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- قد يكلف الله تعالى بالشاق للامتحان والابتلاء؛ كقتل النفس والهجرة من البلد ولكن لا يكلف بما لا يطاق.

2- الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعصيات.

1 في هذه الآية إشارة أصرح من عبارة: على خلافة أبي بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ ذكر الله تعالى الأنبياء ثم ثنى بالصدّيقين، وقد أجمع المسلمون على تسمية أبي بكر بالصدّيق، كما

أجمعوا على تسمية محمد صلى الله عليه وسلم بالنبى، فدل على تعيين خلافة أبى بكر، إذ لم يقدم عليه أحد في الذكر سوى الأنبياء.

2 من بين القائلين: ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن زيد بن عبد ربه الذي أرى الآذان في المنام.

3 روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من نبي يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة" ولما كان في مرضه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول: "مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ". الآية فعلت أنه خير وكان يقول: "اللهم الرفيق الأعلى"، وهو يعاني سكرات الموت، فصلى الله عليه وسلم.

4 في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ}، رد على المعتزلة، إذ قالوا: إنما ينال العبد ما يناله بعمله، والله قدر رد ذلك الإكرام والإنعام لفضله، وهو كذلك عقلاً وشرعاً، ويلزم اعتقاداً.

(1/505)

5- الطاعات تنمر قوة الإيمان وتوهل لدخول الجنان.

4- مواكبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة ثمرة من ثمار طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

لَبِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُمْصِيَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورٌ فَوَزاً عَظِيماً (73)

شرح الكلمات:

{خُذُوا حِذْرَكُمْ}: الحذر والحذر: الاحتراس والاستعداد لدفع المكروه بحسبه.

{فانفِرُوا تُبَاتٍ 1}: النفور: الخروج في اندفاع وانزعاج، والثبات: جمع ثبت، وهي: الجماعة.

{لَيُبَطِّئَنَّ 2}: أي: يتباطأ في الخروج فلا يخرج.

{مُمْصِيَةٌ}: قتل أو جراحات وهزيمة.

{شَهِيداً}: أي: حاضراً الغزوة معهم.

{فَضْلٌ}: نصر وغنيمة.

{مَوَدَّةٌ 3}: صحبة ومعرفة مستلزمة للمودة.

{فَوَزاً عَظِيماً}: نجاه من معرة التخلف عن الجهاد، والظفر بالسلامة والغنيمة.

1 أصل ثبة، ثبي أو ثبوة بالباء والواو، وقد تصغر على ثبية، وهل اشتقاقها من ثبة الحوض، أي

- محل اجتماع الماء فيه؛ لأن الثبة: الجماعة، وثاب الماء يثوب إذا اجتمع.
- 2 حمل مجاهد وقتادة وابن جريج الآية على المنافقين، وحملها بعضهم على ضعفة الإيمان، وحملها على الجميع أقرب إلى الصحة والصواب، والله أعلم.
- 3 إذا كان صاحب من ضعفة الإيمان فهو كذلك، وإن كان منافقاً فإن المودة هنا بمعنى: مجرد الصحبة لا غير لأن المنافق لا يحب المؤمن إلا نادراً.

(1/506)

معنى الآيات:

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ¹ فَانْفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعاً²} ينادي الله تعالى عباده المؤمنين، وهم في فترة يستعدون فيها لفتح مكة وإدخاله في حظيرة الإسلام، خذوا الأهبة والاستعداد حتى لا تلاقوا عدوكم وأنتم ضعفاء، قوته أشد من قوتكم {فانفروا تباتٍ} عصابة بعد عصابة وجماعة بعد أخرى {أو انفروا جميعاً} بقيادتكم المحمدية وذلك بحسب ما يتطلبه الموقف وتراه³ القيادة ثم أخبرهم وهو العليم أن منهم، أي: من عدادهم وأفراد مواطنيهم لمن والله ليبطن عن الخروج إلى الجهاد نفسه وغيره معاً؛ لأنه لا يريد لكم نصراً لأنه منافق كافر الباطن وإن كان مسلم الظاهر ويكشف عن حال هذا النوع من الرجال الرخيص فيقول: {قَاتِنُ أَصَابَتُكُمْ} أيها المؤمنون الصادقون {مُصِيبَةٌ} قتل أو جراح أو هزيمة قال في فرح بما أصابكم وما نجا منه: لقد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم حاضراً فيصيبني ما أصابهم، {وَلَئِنِ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ} أي: نصر وغنيمة {لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ} أي: معرفة ولا صلة يا ليتني متمنياً حاسداً -كنت معهم في الغزاة {فَأَقُورَ فَوْزاً عَظِيماً} بالنجاة من معرة التخلف والظفر بالغنائم والعودة سالماً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب أخذ الأهبة والاستعداد التام على أمة الإسلام في السلم والحرب سواء.
- 2- وجوب وجود خبرة عسكرية كاملة وقيادة رشيدة مؤمنة حكيمة عليمه.
- 3- وجود منهزمين روحياً مبطنين حسدة بين المسلمين وهم ضعاف الإيمان فلا يؤبه لهم ولا يلتفت إليهم.

1 أخذ الحذر هو توقي المكروه بالأسباب الممكنة المشروعة، وجملة: {فانفروا تباتٍ} إلخ. تفرع

بذكر بعض أسباب توقي المحذور.

2 أخذ الحذر واجب لأنه سبب شرعه الله تعالى لتوقي المكروه، ولكنه لا يمنع المقدور، وأخطأت

القدرية إذا قالوا: الحذر يرد القدر، ولولا أنه كذلك ما أمروا به، وهو خطأ اعتقادي، فالأسباب تؤتي طاعة الله تعالى، وأما دفع المقدور، أي: ما قدره الله على الإنسان فلا بد من وقوعه، وفائدة الأخذ بالأسباب: إبعاد الخوف عن النفس وحصول شعور بالفوز والنجاة.

3 هل هذه الآية وهي متقدمة في النزول على آية التوبة: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا} منسوخة بها؟
والجواب: أن فرض الجهاد على الكفاية، ولذا فلا نسخ، وإنما هذه في حال وتلك في أخرى، وهي: أن يرى الإمام النفير العام لا غير.

(1/507)

{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)}

شرح الكلمات:

{سَبِيلِ اللَّهِ}: الطريق الموصلة إلى إعلاء كلمة الله تعالى بأن يعبد وحده، ولا يضطهد مسلم في دينه، ولا من أجل دينه.

{يَشْرُونَ}: يبيعون، إذ يطلق الشراء على البيع أيضاً.

{وَالْمُسْتَضْعَفِينَ}: المستضعف الذي قام به عجز فاستضعفه غيره فأذاه لضعفه.

{الْقَرْيَةِ}: القرية في عرف القرآن: المدينة الكبيرة والجامعة والمراد بها هنا مكة المكرمة.

{فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}: أي: في نصرة الشرك ومساندة الظلم والعدوان، ونشر الفساد.

معنى الآيتين:

بعد ما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم وهو الأهبة للقتال أمرهم أن يقاتلوا فقال: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} أي: يبيعون الدنيا ليفوزوا بالآخرة وهم المؤمنون حقاً فيقدمون أموالهم وأرواحهم طلباً للفوز بالدار الآخرة يقاتلون من لا يؤمن بالله ولا بقلائه بعد أن يدعوهم إلى الإيمان بربه والتوبة إليه، ثم أخبرهم.

(1/508)

أن من يقاتل استجابة لأمره تعالى فيقتل، أي: يستشهد أو يغلب وينتصر على كلا الحالين فسوف يؤتيه 1 الله تعالى أجراً عظيماً، وهو النجاة من النار ودخول الجنة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى(74).

أما الآية الثانية(75) فإن الله تعالى بعدما أمر عباده بالجهاد استحثهم على المبادرة وخوض المعركة بقوله: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ 2 فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ليعبد وحده ويعز أوليائه {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ 3 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} الذين يضطهدون من قبل المشركين ويعذبون من أجل دينهم حتى صرخوا وجاروا بالدعاء إلى ربهم قائلين: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا} بلى أمرنا ويكفينا ما أهمنا، {وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} ينصرونا على أعدائنا، أي: شيء يمنعكم أيها المؤمنون من قتال في سبيل الله، ليعبد وحده، وليتخلص 4 المستضعفون من فتنة المشركين لهم من أجل دينهم؟

ثم في الآية الثالثة(75) أخبر تعالى عباده المؤمنين حاضاً لهم على جهاد أعدائه وأعدائهم بقوله: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} لأنهم يؤمنون به وبوعده ووعدته {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} وهو الكفر 5 والظلم لأنهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا بما عنده من نعيم، ولا بما لديه من عذاب ونكال {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ} وهم الكفار، ولا ترهبوهم {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ} وما زال {ضَعِيفًا}، فلا يثبت هو وأوليائه من الكفرة، أمام جيش الإيمان أولياء الرحمن.

1 ظاهر الآية: التسوية بين من قتل شهيداً، وبين من انتصر ورجع بنفسه وهناك حديثان: أحدهما يقتضي التسوية وآخر ينفىها. فالأول: حديث أبي هريرة "تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسولي فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر وغنيمة" رواه مسلم. والثاني: "ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصبوا غنيمة تم لهم أجرهم" والجمع بينهما أن من غزا نواياً الأجر والغنيمة ثم غنم وسلم نقص أجره في الآخرة، فلم تكن درجته كالذي استشهد ولم يغنم، ولا كالذي نوى الأجر دون الغنيمة أيضاً. والسبب الفارق: هو اشتراك النية وعدم خلوصها.

2 الاستفهام إنكاري؛ أي ينكر عليهم قعودهم على القتال في سبيل الله، أي: لانقاذ المؤمنين من فتنة المشركين وإنقاذ أولادهم من أن يشبوا ويكبروا على أحوال الكفر جاهلين بالإيمان والإسلام.

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كنت أنا وأمي من المستضعفين". وفي رواية البخاري قال: "كنت أنا وأمي ممن عذر الله وأنا من الولدان وأمي من النساء"، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقنت لهم فيقول: "اللهم أنجي الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة المستضعفين من المؤمنين".

4 الإجماع على وجوب تخليص الأسرى من المسلمين بالقتال أو بالمال، ولا يحل تركهم تحت الكفر

يضطهدهم ويعذبهم من أجل دينهم. وفي الحديث الصحيح: "فكوا العاني" وهو الأسير، وسمي العاني لما يعانية من آلام وأتعب. والمسلمون اليوم أسرى تحت اليهود في فلسطين، والمسلمون تاركون لهم غير مهتمين بهم، وهو ذنب عظيم.

5 يطلق الطاغوت على ما عبد من دون الله، ويطلق على من دعا إلى عبادة غير الله؛ كالشيطان وغيره من الجن والإنس الذين يدعون إلى عبادة الأصنام والأشخاص وغيرها، وفي هذه الآية يناسب أن يكون الطاغوت هو الشيطان، لقوله: بعد أولياء الشيطان، وإطلاقنا: الطاغوت على الكفر والظلم مراعاة لحال الناس، فإن أكثرهم يقاتل نصرا للكفر الذي هو عليه أو لإبقاء ظلمه واستعلاؤه في الأرض.

(1/509)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فرضية القتال في سبيل الله ولأجل انقاذ المستضعفين من المؤمنين نصرة للحق وإبطالا للباطل.
 - 2- المقاتل في سبيل الله باع دنياه واعتاض عنها الآخرة، ولنعم البيع.
 - 3- المجاهد يؤوب بأعظم صفقة سواء قتل، أو انتصر وغلب وهي الجنة.
 - 4- لا يمنع المؤمنين من الجهاد خوف أعدائهم، لأن قوتهم من قوة الشيطان وكيد الشيطان ضعيف.
- { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْأَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيِنَّمَا تُكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79) }

شرح الكلمات:

{كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ} : أي: عن القتال وذلك قبل أن يفرض.

{كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ} : فرض عليهم.

(1/510)

{يَخْشَوْنَ} : يخافون .

{لَوْلَا أَخَّرْتَنَا} : هلا أخرتنا 1.

{فَتَيْلًا} : الفتيل: خيط يكو في وسط النواة.

{بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} : حصون مشيدة بالشيد، وهو الجص .

{مِنْ حَسَنَةٍ} : الحسنه: ما سر، والسيئة: ما ضر .

معنى الآيات:

روى أن بعضاً من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم طالبوا بالإذن لهم بالقتال ولم يؤذن لهم لعدم توفر أسباب القتال، فكانوا يؤمرون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ريثما يأذن الله تعالى لرسوله بقتال المشركين، ولما شرع القتال جبن فريق منهم عن القتال وقالوا: {لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} متعللين² بعلل واهية، فأنزل الله تعالى فيهم هاتين الآيتين (77) و(78) { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأْتُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } ريثما يأذن الله بالقتال عندما تتوفر إمكانياته، فلما فرض القتال ونزل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِنَاهِمُ ظَلَمُوا} جبنوا ولم يخرجوا للقتال، وقالوا: {لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} يريدون أن يدافعوا الأيام حتى يموتوا ولم يلقوا عدواً خوراً، فأمر تعالى الرسول أن يقول لهم: { مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى } فعيشكم في الدنيا مهما طابت لكم الحياة هو قليل {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} الله بفعل أمره وترك نهيه بعد الإيمان به ورسوله، وسوف تحاسبون على أعمالكم وتجزون بها {وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا} لا ينقص حسنة ولا بزيادة سيئة. هذا ما تضمنته الآية الأولى.

أما الآية الثانية فقد قال تعالى لهم ولغيرهم ممن يخشون القتال ويجبنون عن الخروج للجهاد: {إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ} ، إذ الموت طال بكم ولا بد أن يدرككم، كما قال تعالى لأمثالهم: { قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} ، ولو دخلتم حصوناً⁴ ما فيها كوة ولا نافذة

1 المراد من التأخير إلى أجل قريب: هو أن يتم استعدادهم للقتال لتوفر المال والرجال والعتاد لا إلى أجل الموت فإنه غير وارد في قولهم: هذا ولا معنى له، وهل قولهم كان في أنفسهم أو صرحوا به؟ كلاهما وارد وجائز الوقوع.

2 اختلف هل هذه الآية نزلت في المؤمنين أو المنافقين؟ والصواب أنها نزلت في بعض المؤمنين ممن ضعف إيمانهم، أما كونها نزلت في اليهود فلا معنى له، وكونها شملت المنافقين فهذا حق بدليل سياق الآيات.

3 يبين قلة متاع الدنيا قوله صلى الله عليه وسلم: "مثلي ومثل الدنيا كراكب قال قيلولة تحت شجرة ثم راح وتركها" .

4 تفسير لقوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} إذ البرج: البناء المرتفع والقصر العظيم. قال طرفه، يصف ناقه:

كأنها برج رمي يكفها ... بانٍ بشيدٍ وأجرٍ وأحجار
وفي الآية رد على القدرية القائلين: المقتول لو لم يقتله عاش.

(1/511)

فإن الموت يدخلها عليكم ويقبض أرواحكم، ولما ذكر تعالى جنبهم وخوفهم ذكر تعالى سوء فهمهم وفساد ذوقهم فقال: {وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} يعني أنه إذا أصابهم خير من غنيمة أخصب ورخاء، قالوا: {هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} لا شكراً لله وإنما لا يريدون أن ينسبوا إلى رسول الله شيئاً من خير كان ببركته وحسن قيادته، وإن تصبهم سيئة ففر أو مرض أو هزيمة يقولون: {هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} 1، أي: أنت السبب فيها. قال تعالى لرسوله: قل لهم {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} الحسنة والسيئة، هو الخالق والواضع السنن لوجودها وحصولها. ثم عليهم في نفسياتهم الهابطة، فقال: {فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} هذا ما دلت عليه الآية الثانية. أما الآية الثالثة والأخيرة في هذا السياق، وهي قوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} 3 الآية، فإن الله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم فيخبره بأن الحسنة من الله تعالى، إذ هو الأمر بقولها أو فعلها وموجد أسبابها الموفق للحصول عليها، أما السيئة فمن النفس، إذ هي التي تأمر بها، وتباشرها مخالفة فيها أمر الله أو نهيه، فلذا لا يصح نسبتها إلى الله تعالى. وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} يُسلي به رسوله عما يلاقه من أذى الناس وما يصادفه من سوء أخلاق بعضهم؛ كالذين ينسبون إليه السيئة تطيراً به فيخبره بأن مهمته أداء الرسالة، وقد أداها والله شاهد على ذلك ويجزيك عليه بما أنت أهله وسيجزي من رد رسالتك وخرج عن طاعتك وكفى بالله شهيداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- قبح الاستعجال والجبن وسوء عاقبتهم.

2- الآخرة خير لمن اتقى من الدنيا.

1 لقد شارك يهود في هذا القول، فقد روى أنهم لما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً، قالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا، ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه!!.

2 إن الخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو عام في كل إنسان لاسيما المؤمن، أو هو من باب: إياك أعني، واسمعي يا جارة، وكونه خاصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم، ومعناه عام هو الصحيح.

3 زاد بعضهم جملة: وإنا كتبنا عليك، وهي ليست قرآناً إجماعاً، وإنما هي تفسير من بعض الصحابة، ولا التفات لمن طعن في القرآن بمثل هذه الزيادة التفسيرية.
4 وما أحسن ما قيل في معنى الآية شعراً:
ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيب
فإن تعجب الدنيا رجالاً فإنها ...
متاع قليل والزوال قريب

(1/512)

3- لا مفر من الموت ولا مهرب منه بحال 1 من الأحوال.
4- الخير والشر كلاهما بتقدير الله تعالى.
5- الحسنه من الله والسيئة من النفس، إذ الحسنه أمر الله بأسبابها بعد أن أوجدها وأعان عليها، وأبعد الموانع عنها، والسيئة من النفس؛ لأن الله نهى عنها وتوعد على فعلها، ولم يوفق إليها ولم يعن عليها فهي من النفس 2 لا من الله تعالى.
{مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} (81) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (82) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} (83)
شرح الكلمات:

{حَفِيظًا} : تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها.

{طَاعَةٌ} : أي: أمرنا طاعة لك.

{بَرَرُوا} : خرجوا.

1 قال زهير بن سلمة:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

2 قال قتادة: رواية لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر، وفي الحديث الصحيح: "والذي نفسه بيده لا يصيب هم ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها" فهو دال على حديث قتادة الضعيف.

{أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} : تدبر القرآن، قراءة الآية أو الآيات وإعادتها المرة بعد المرة ليفقه مراد الله تعالى منها.

{أَدَّاعُوا بِهِ} : أفشوه معلنيته للناس.

{يَسْتَنْبِطُونَهُ} : يستخرجون معناه الصحيح.

معنى الآيات:

في قوله تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ} [1] إنذار إلى الناس كافة في أن من لم يطع الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم ما أطاع الله تعالى، إن أمر الرسول من أمر الله ونهيه من نهى الله تعالى فلا عذر لأحد في عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: {وَمَنْ تَوَلَّى} أي: عن طاعتك فيما تأمر به وتنهى عنه، فدعه ولا تلتفت إليه إذ لم نرسلك لتحصي عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتجزيمهم بها، إن عليك إلا البلاغ، وقد بلغت فاعذرت. وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ} أي: ويقول أولئك المنافقون المنطرون بك السيئو الفهم لما تقول: طاعة أي: أمرنا طاعة لك، أي: ليس لنا ما نقول إذا قلت ولا ما نأمر به إذا أمرت، فنحن مطيعون لك {فَإِذَا بَرَأُوا} أي: خرجوا من مجلسك بدل طائفة منهم غير الذي تقول واعتزموه دون الذي وافقوا عليه أمامك، وفي مجلسك، والله تعالى يكتب بواسطة ملائكته الكرام الكاتبين ما يبيئونه² من الشر والباطل. وعليه {فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} ولا تبال بهم {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} فهو حسبك وكافيك ما يبيئونه من الشر لك.

وقوله تعالى في الآية الثانية (82) {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} 3 القرآن {يؤتيهم بإعراضهم وجهلهم وسوء فهمهم، إذ لو تدبروا القرآن وهو يُتلى عليهم وسمعوه صباح مساء لعرفوا أن الرسول حق وأن ما جاء به حق فأمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وانتهى نفاقهم الذي أفسد قلوبهم وعفن آرائهم، إن تدبر القرآن بالتأمل فيه وتكرار آياته مرة بعد أخرى يهدي إلى معرفة الحق

1 مصداقه في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: " من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني ".

2 بيتوا: زوروا وبدلوا، إن التبييت: هو تدبر الأمر بالليل حيث اتساع الوقت والفراغ من العمل وقلة العيون، وبيتوا العدو: أتوه ليلاً، قال الشاعر:
أجمعوا أمرهم بليل فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

3 في هذه الآية: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} مع آية سورة القتال: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} القرآن أم على قلوب أقفالها} دليل على وجوب تدبر القرآن لفهم معانيه، لاعتقاد الحق والعمل به، وفيه رد على من زعم

أنه لا يؤخذ من القرآن إلا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسيره، ودليل على وجوب النظر والاستدلال وإبطال التقليد.

(1/514)

من الباطل وأقرب ما يفهمونه لو تدبروا القرآن كلام الله تعالى وليس كلام بشر، إذ لو كان كلام بشر لوجد فيه التناقض والاختلاف والتضاد، ولكنه كلام خالق البشر، فلذا هو متسق الكلم متآلف الألفاظ والمعاني محكم الآي هادٍ إلى الإسعاد والكمال، فهو بذلك كلام الله حقاً ومن شرف بإنزاله عليه رسول حق ولا معنى أبداً للكفر بعد هذا والإصرار عليه، ومناقضة المسلمين فيه. هذا معنى قوله تعالى: { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } .

وقوله: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ} وهي الآية الرابعة (83) فإن الله تعالى يخبر عن أولئك المرضى بمرض النفاق ناعياً عليهم إرجافهم وهزائمهم المعنوية فيقول {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ} أي: إذا وصل من سرايا الجهاد خبر بنصر أو هزيمة سارعوا بإفشائه وإذاعته، وذلك عائد إلى مرض قلوبهم لأن الخبر وأطلق عليه لفظ الأمر؛ لأن حالة الحرب غير حالة السلم إذا كان بالنصر المعبر عنه بالأمن فهم يعلنونه حسداً أو طمعاً، وإذا كان بالهزيمة المعبر عنها بالخوف يعلنونه فزعاً وخوفاً؛ لأنهم جبناء كما تقدم وصفهم، قال تعالى في تعليمهم وتعليم غيرهم ما ينبغي أن يكون عليه المجاهدون في حال الحرب. {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ} القائد الأعلى، {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ} وهم أمراء السرايا المجاهدة {الْعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} أي: لاستخرجوا سر الخبر وعرفوا ما يترتب عليه فإن كان نافعاً أذاعوه، وإن كان ضاراً أخوفه. ثم قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أيها المؤمنون {لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ} في قبول تلك الإشاعات المغرضة والإذاعات المثبطة {إِلَّا قَلِيلًا} منكم من ذوي الآراء الصائبة والحصافة العقلية، إذ مثلهم لا تنثيرهم الدعاوى، ولا تغيرهم الأراجيف، ككبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لا يطاع لذاته وإنما يطاع لذات الله عز وجل.

1 الاستنباط مأخوذ من: استنبط الماء، إذا استخرجه من الأرض، والنبط: الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أو ما يحفر. وسمي النبط نبطاً؛ لأنهم يستخرجون ما في الأرض، والاستنباط لغة الاستخراج، وفي هذه الآية دليل على الاجتهاد.

2 ما فسرنا به الآية أصح مما فسرت به، ولا التفات إلى ما أورد القرطبي من آراء عدة لا طائل تحتها.

(1/515)

- 2- وجوب تدبر القرآن لتقوية الإيمان 1.
 - 3- آية أن القرآن وحي الله وكلامه سلامته من التناقض والتضاد في الألفاظ والمعاني.
 - 4- تقرير مبدأ أن أخبار الحرب لا تذاخ إلا من قبل القيادة العليا حتى لا يقع الاضطراب في صفوف المجاهدين والأمة كذلك.
 - 5- أكثر الناس يتأثرون بما يسمعون إلا القليل من ذوي الحصافة العقلية والوعي السياسي.
- {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} (84) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)}

شرح الكلمات:

- {وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} : حثهم على الجهاد وحرصهم على القتال.
- {بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا} : قوتهم الحربية.
- رَوَّأَشَدُّ تَنْكِيلًا} : أقوى تنكيلاً، والتنكيل: ضرب الظالم بقوة حتى يكون عبرة لمثله فينكل عن الظلم.
- الشفاعة 2 : الوساطة في الخير أو في الشر فإن كانت في الخير فهي الحسنة وإن كانت في الشر فهي السيئة.

- 1 واستنباط الأحكام واستخراج أنواع الهدايات فيه، إذ هو كتاب هداية للمؤمنين به، يهتدون إلى ما يكملهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة.
- 2 الشفاعة من الشفع، وهو الزوج ضد الفرد، وسميت شفاعة؛ لأن الشفيع يصير مع المشفوع له شفعا، أي: زوجاً، والشفعة: ضم ملك إلى ملك.

(1/516)

{كِفْلٌ مِنْهَا} : نصيب منها.

{مُقَيَّبًا}1 : مقتدرًا عليه وشاهدًا عليه حافظًا له.

{بِتَحِيَّةٍ} : تحية الإسلام، هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

{أَوْ رُؤُوسًا} : أي: يقول: وعليكم السلام.

{حَسْبِيًّا} : محاسبًا على العمل مجازياً به خيراً كان أو شراً.

معنى الآيات:

ما زال السياق في السياسة الحربية، ففي هذه الآية: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} يأمر تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقاتل المشركين لأجل إعلاء كلمة الله تعالى بأن يعبد وحده وينتهي اضطهاد المشركين للمؤمنين وهو المراد من قوله {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} وقوله: {لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ}3 أي: لا يكلفك ربك إلا نفسك وحدها، أما من عداك فليس عليك تكليفه، ولكن حرص المؤمنين على القتال معك فحثهم على ذلك ورغبهم فيه. وقوله: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، وهذا وعد من عند الله تعالى بأن يكف بأس الذين كفروا فيسلط عليهم رسوله والمؤمنين فيبددوا قوتهم ويهزموهم فلا يبقى لهم بأس ولا قوة وقد فعل4، وله الحمد والمنة، وهو تعالى {أَشَدُّ بِأَسًا} م كل ذي بأس {وَأَشَدُّ تَنكِيلًا} من غيره بالظالمين من أعدائه.

هذا ما دلت عليه الآية(84)، أما الآية(85) وهي قوله تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَيَّبًا} فهو إخبار منه تعالى بأن من يشفع شفاعة حسنة بأن يضم صوته مع مطالب بحق أو يضم نفسه إلى سرية تقاتل في سبيل الله، أو يتوسط لأحد في قضاء حاجته فإن للشافع

1 شاهده قول الزبير بن عبد المطلب:

وذي صغن كفت النفس عنه ... وكنت على مساعته مقيناً

أي: مقتدرًا

2 هذه الفاء هي الفصيحة، والتقدير: إذا كان الأمر كما علمت من وجود المثبتين والخائفين

والمرجوفين فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك.

3 في الآية دليل على شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم الخارقة للعادة، إذ كلفه الله به على

انفراد وأمره بتحريض المؤمنين على القتال، ومعنى هذا: أنه أمره بالجهاد ولو كان وحده، ولذا قال

صلى الله عليه وسلم: "والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي" ، أي: حتى أموت. وتحريض المؤمنين هو

أمرهم بالقتال وحثهم عليه لا على سبيل الإلزام، كما ألزم به هو صلى الله عليه وسلم.

4 فلم يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دانت الجزيرة كلها بالإسلام، ولم يمض أكثر من

ربع قرن حتى دخلت دولتا: الفرس والروم في الإسلام؛ لأن "عسى" من الله تعالى تفيد وجوب الوقوع.

قسطاً من الأجر والمثوبة، كما أن {وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً} بأن يؤيد باطلاً أو يتوسط في فعل شر أو ترك معروف يكون عليه نصيب من الوزر، لأن الله تعالى على كل شيء مقتدر وحفيظ عليم. هذا ما دلت عليه الآية المذكورة.

أما الآية الأخيرة(86) فإن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين بأن يردوا تحية من يحييهم بأحسن منها فإن لم يكن بأحسن فبالمثل، فمن قال: السلام عليكم، فليقل الرد: وعليكم السلام ورحمة الله، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله. فليرد عليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}1 فيه تطمين للمؤمنين على أن الله تعالى يثيبهم على إحسانهم ويجزيهم به.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم بدليل أنه كلف بالقتال وحده وفعل.
 - 2- ليس من حق الحاكم أن يجند المواطنين تجنيداً إجبارياً، وإنما عليه أن يحضهم على التجنيد ويرغبهم فيه بوسائل الترغيب.
 - 3- فضل الشفاعة في الخير، وقبح الشفاعة في الشر.
 - 4- تأكيد سنة التحية، ووجوب ردها بأحسن أو بمثل.
 - 5- تقرير ما جاء في السنة بأن السلام عليكم: يعطي عليها المسلم عشر حسنات ورحمة الله: عشر حسنات. وبركاته: عشر كذلك.
- { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ

1 حسيب، هنا: بمعنى محاسب، وحفيظ فلا يضيع حسنات العبد.

2 شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "اشفَعُوا تَوْجَرُوا" ، وليقضي الله على لسان نبيه ما أحب.

3 في الآية سنية إلقاء السلام ووجوب رده وقد بينت السنة أن القليل يسلم على الكثير، والقائم على القاعد، والراكب على الماشي، وأن الرد يكون بزيادة: ورحمة الله وبركاته. وأنه لا يسلم على المرأة الصغيرة خشية الفتنة. وأن المصلي إن سلم عليه رد السلام بالإشارة إن شاء الله.

أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءً وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91) }

شرح الكلمات:

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ 1} : لا معبود بحق إلا هو .

{فَتَنَيْنِ 2} : جماعتين الواحدة فنة، أي: جماعة.

{أُرْكَسَهُمْ} : الارتكاس: التحول من حال حسنة إلى حال سيئة؛ كالكفر بعد الإيمان، أو الغدر بعد الأمان وهو المراد هنا.

{سَبِيلًا} : أي: طريقاً إلى هدايتهم.

1 اسم الجلالة: {الله} مبتدأ، و{لا إله إلا الله} جملة معترضة، وجملة القسم واقعة موقع الخبر .

2 الفنة: الطائفة، اشتق لفظها من الفياء الذي هو الرجوع، إذ أفرادها يرجع بعضهم إلى بعض، وأصلها فيء، فحذفت الياء من وسطها لكثرة الاستعمال فصارت: فنة، بعد زيادة هاء التأنيث عوضاً عن الياء المحذوفة.

(1/519)

{وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} : الولي: من يلي أمرك، والنصير: من ينصرك على عدوك.

{يَصِلُونَ} : أي: يتصلون بهم بموجب عقد معاهدة بينهم.

{ميثاق} : عهد.

{حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ} : ضاقت.

{السَّلْمَ} : الاستسلام والانقياد.

{الْفِتْنَةِ} : الشرك.

{تَقِفْتُمُوهُمْ} : وجدتموهم متمكنين منهم.

{سُلْطَانًا مُّبِينًا}: حجة بين على جواز قتالهم.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى الآيات قبل هذه أنه تعالى المقيت والحسيب، أي: القادر على الحساب والجزاء، أخبر عز وجل أنه الله الذي لا إله إلا هو، أي: المعبود دون سواه لربوبيته على خلقه، إذ الإله الحق ما كان رباً خالقاً رازقاً مدبراً بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء، وأنه جامع الناس ليوم لا ريب في إتيانه وهو يوم القيامة.

هذا ما دلت عليه الآية الكريمة: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}، ولما كان هذا خبراً يتضمن وعداً ووعداً أكد تعالى إنجازَه، فقال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} اللهم إنه لا أحد أصدق منك.

أما الآيات الأربع الباقية، وهي (88) و(89) و(90) و(91) فقد نزلت لسبب معين وتعالج مسائل حربية معينة، أما السبب الذي نزلت فيه فهو اختلاف المؤمنين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في طائفة من المنافقين أظهروا الإسلام وهم ضليعون في موالاة الكافرين، وقد يكونون في مكة²، وقد يكونون في المدينة، فرأى بعض الأصحاب أن من الحزم الضرب على أيديهم وإنهاء نفاقهم، ورأى آخرون تركهم والصبر عليهم ما داموا يدعون الإيمان لعلمهم

1 قوله تعالى: {ليجمعنكم} جواب قسم، وهذا الجمع دلالة اللفظ أنه في القبور تحت الأرض ليعثهم يوم القيامة، وقد تكون {إلى} صلة، ويكون الجمع هو جمع يوم القيامة.

2 السياق الكريم صالح لأن تكون الفتان المختلف فيهما من مكة أو من المدينة، وقد ورد في الصحيح اختلاف المؤمنين في ابن أبي، ومن وافقه، ورجع من أحد دون قتال حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما يفني الكير خبث الحديد" كما ورد في غير الصحيح: أن جماعة في مكة تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين، وأبوا أن يهاجروا فاختلف في شأنهم المؤمنون، ولا مانع من أن تعنى الآيات منافقي المدينة، ومنافقي مكة. إذ الخلاف وقع في كل منافقي مكة ومنافقي المدينة، ويرجح هذا الرأي صحة الخبر الأول وذكر الهجرة في الثاني.

(1/520)

بمرور الأيام يتوبون. فلما اختلفوا واشتد الخلاف في شأنهم أنزل الله تعالى هذه الآيات فقال: {قَمَّا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ¹ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ² أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} ومعنى الآية، أي: شيء صيركم في شأن المنافقين فئتين؟ والله تعالى قد أركسهم في الكفر بسبب ما كسبوه من الذنوب العظام. أتريدون أيها المسلمون أن تهدوا من أضل الله، وهل يقدر

أحد على هداية من أضله الله؟ وكيف، ومن يضل الله حسب سنته في إضلال البشر لا يوجد له هادٍ، ولا سبيل لهديته بحال من الأحوال.

ثم أخبر تعالى عن نفسية أولئك المنافقين المختلف فيهم فقال وهي الآية الثالثة (89) ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: أحبوا من قلوبهم كفركم لتكونوا مثلهم، وفيه لازم وهو انتهاء الإسلام، وظهور الكفر وانتصاره.

ومن هنا قال تعالى محرماً موالاتهم إلى أن يهاجروا فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ تعولون عليهم في نصرتكم على إخوانهم في الكفر. ظاهر هذا السياق أن هؤلاء المنافقين هم بمكة وهو كذلك. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾³، لأن الهجرة إلى المدينة تقطع صلاتهم بدار الكفر فيفتروا عزمهم ويراجعوا الصدق في إيمانهم فيؤمنوا فإن هاجروا ثم تولوا عن الإيمان الصحيح إلى النفاق الكفر فأعلنوا الحرب عليهم ﴿فَخَذُواهُمْ وَأَقْتَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءً وَلَا نَصِيرًا﴾؛ لأنهم بارتكاسهم لا خير فيهم ولا يعول عليهم.

ثم في الآية (90) استثنى لهم الرب تعالى صنفين من المنافقين المذكورين فلا يأخذونهم أسرى ولا يقاتلونهم، الصنف الأول الذين ذكرهم تعالى بقوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ أي: يلجأون ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فبحكم استجارتهم بهم طالبين الأمان منهم فأمنوهم أنتم حتى لا تنقضوا عهدكم. والصنف الثاني قوم ضاقت صدورهم بقتالكم،

1 جملة: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ حالية.

2 الاستفهام إنكاري، وهو دال على جملة محذوفة تقديرها: أنهم قد أضلهم الله.

3 الهجرة: هجرتان، هي لمناقي المدينة. الخروج إلى الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهجرة لمناقي مكة، وهي إلى المدينة للإقامة بها. والهجرة أنواع: منها ترك المعاصي، لحديث: "المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ورسوله" ومنها هجرة الفساق وأهل البدع ليتوبوا من ذنوبهم.

4 قد اختلف في هؤلاء الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق وما دامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا طائل تحت معرفتهم الآن، إذ العبرة أن في الآية دليل على جواز المودعة بين أهل الحرب والمسلمين للضرورة.

(1/521)

وقتل قومهم فهؤلاء الذين يلم يستسيغوا قتالكم ولا قتال قومهم إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم واصبروا عليهم، إذ لو شاء الله تعالى لسلطهم عليكم فلقاتلوكم هذا الصنف هو المعنى بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ

فَلَقَاتِلُوهُمْ} فما دام الله تعالى قد كفهم عنكم فكفوا أنتم عنهم. هذا معنى قوله تعالى: {فَإِنْ اعْتَرَلْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ} . أي: المسالمة والمهادنة {فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}1. لأخذهم وقتالهم. هذا وهناك صنف آخر ذكر تعالى حكم معاملته في الآية الخامسة والأخيرة(91)، وهي قوله تعالى: ستجدون قوماً آخرين 2 غير الصنفين السابقين {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا دِينَكُمْ وَيُسْرِفُوا فِيهِمْ} فهم إذاً يلعبون على الحبلين كما يقال {كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ} أي: إلى الشرك {أُرْكِسُوا فِيهَا} أي: وقعوا فيها منتكسين، إذ هم منافقون، إذ كانوا معكم عبدوا الله وحده، وإذا كانوا مع قومهم عبدوا الأوثان لمجرد دعوة يدعونها يلعبون فيرتدون إلى الشرك، وهو معنى قوله تعالى: {كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا} ، وقوله تعالى: {فَإِنْ اعْتَرَلْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ} أي: إن لم يعتزلوا قتالكم ويلقوا إليكم السلام، وهو الإذعان والانقياد لكم، ويكفوا أيديهم فعلاً عن قتالكم {فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} أي: حجة واضحة على جواز أخذهم وقتلهم حيثما تمكنتم منهم وعلى أي حال. هذا ما دلت عليه الآيات الخمس مع العلم أن الكف عن قتال المشركين قد نسخ بآيات براءة إلا أن لإمام المسلمين أن يأخذ بهذا النظام عند الحاجة إليه فإنه نظام رباني ما أخذ به أحد وخاب أو خسر، ولكن خارج جزيرة العرب إذ لا ينبغي أن يجتمع فيها دينان.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب توحيد الله تعالى في عبادته.

2- الإيمان بالبعث والجزاء.

1 {سبيلاً} : أي: إننا بقتالهم بعد أن أمركم بقتال غيرهم، حيث وجدتموهم ممكنين منهم.

2 {سَتَجِدُونَ} الوجدان هنا، بمعنى الإطلاع والعثور، أي: ستطلعون على قوم آخرين وصفهم كذا أو كذا.

3 أي: لا هم لهم إلا حظوظ أنفسهم، ولا سعي لهم إلا في خوبيصيتهم، فهم يظهرون المودة للمسلمين ليأمنوهم ويظهروها لقومهم ليؤمنوا أيضاً، قيل: هم غطفان وبنو أسد، قبل أن يحسن إسلامهم، وبنو عبد الدار بمكة أيضاً. إذ كانوا يأتون المدينة مظهرين الإسلام، ثم إذا عادوا إلى مكة عبدوا الأصنام.

(1/522)

3- خطة حكيمة لمعاملة المنافقين بحسب الظروف والأحوال.

4- تقرير النسخ في القرآن.

لَوْ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93){

شرح الكلمات:

{إِلَّا خَطَأً}: أي: إلا قتلاً خطأ، وهو أن لا يتعمد قتله؛ كأن يرمي صيداً فيصيب إنساناً.

{رَقَبَةٍ}: أي: مملوك عبداً كان أو أمة 1.

{مُسَلَّمَةٌ}: موداة وافية 2.

{إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا}: أي: يتصدقوا بها على القاتل فلا يطالبوا بها ولا يأخذوها منه.

- 1 لا بد أن تكون الرقبة مؤمنة، وهل يجب أن تكون بالغة؟ إذ الإيمان يتم بالبلوغ، والذي عليه مالك: أنها تجزئ إذا كانت سليمة الأعضاء ولو لم تكن بالغة، وهو الراجح.
- 2 لقد بينت السنة أن دية الخطأ على العاقلة ولا خلاف فيها.

(1/523)

{مِيثَاقٌ}: عهداً مؤكداً بالإيمان.

{مُتَعَمِّدًا}: مريداً قتله وهو ظالم له.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة قتال المنافقين متى يجوز ومتى لا يجوز ناسب ذكر قتل المؤمن الصادق في إيمانه خطأ وعمداً وبيان حكم ذلك، فذكر تعالى في الآية الأولى (92) أنه لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا في حال الخطأ، أما في حال العمد فلا يكون ذلك منه ولا يتأتى له وهو مؤمن؛ لن الإيمان نور يكشف عن مدى قبح جريمة قتل المؤمن وما وراءها من غضب الله تعالى وعذابه فلا يقدم على ذلك اللهم إلا في حال الخطأ، فهذا وارد وواقع، وحكم من قتل خطأ أن يعنق رقبة ذكراً كانت أو أنثى مؤمنة وأن يدفع الدية لأولياء القتيل إلا أن يتصدقوا بها فلا يطالبوا بها ولا يقبلونها والدية مائة من 2 الإبل، أو ألف دينار ذهب، أو اثنا عشر ألف درهم فضة. هذا معنى قوله تعالى: {لَوْ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً} وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا} فإن كان القتيل مؤمناً ولكن من قوم هم عدو للمسلمين محاربين، فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، إذ لا تعطى الدية لعدو يستعين بها على حرب

المسلمين وإن كان القاتل من قوم كافرين وهو مؤمن أو كافر ولكن بيننا وبين قومه معاهدة، على القاتل تحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهله، فمن لم يجد الرقبة فصيام شهرين متتابعين، فذلك توبته لقوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} عليمًا بما يحقق المصلحة لعباده

1 فالنفي في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَفْتُلَ مُؤْمِنًا} ليس نفي الفعل حتى يقال: ما نفاه الله لا يجوز وجوده، وإنما هو نفي الحال والشأن لا الفعل، فليتأمل.

2 ومن الغنم: ألف شاة، وهل الإبل خمس خلاف، ومذهب الشافعي ومالك أنها خمس؛ فعشرون حقه، وعشرون جزعه، وعشرون بنات مخاص، وعشرون بنات لبون، وعشرون بنو لبون ذكور. وتغلظ دية العمد، بأن يكون أربعون منها في بطونها أولاده، وشبه العمد: ما كان بأداة لا تقتل عادة؛ كالعصا ونحوها لحديث: "ألا أن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها".

3 قيل: نزلت هذه الآية في عياش ابن أبي ربيعة، إذ قتل الحارث بن زيد العامري، لإحنة كانت بينهما، وكان الحارث قد أسلم، ولم يعلم عياش بإسلامه فكان قتله خطأ، وقوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} أي: فعلية تحرير رقبة.

4 أكثر أهل العلم: أن دية المرأة على نصف دية الرجل، وإن دية الجنين إذا سقط حياً دية كاملة، وإذا سقط ميتاً فديته غرة عبد أو أمة، ومعنى: غرة: أن يكون أبيض لا أسود فيقوم العبد وتعطي قيمته دية.

5 {توبة} منصوب على المصدر، أي: تاب الله عليه توبة، أي: مشروعية الكفارة في قتل الخطأ كانت توبة من الله على العبد القاتل خطأ. وعلة الكفارة أنه لم يتحرز ولم يتحفظ فلذا وقع منه القتل، فكان لا بد من مكفر لما لحقه من الإثم بالتفريط، أما القاتل عمداً فلا كفارة تجزئه. وهل له من توبة؟ عليه أن يتوب، ومن توبته أن يعتق أو يتصدق ويصوم رجاء أن يتوب الله عليه.

(1/524)

حكيماً في تشريعه فلا يشرع إلا ما كان نافعاً ومحققاً غير ضار، ومحققاً للخير في الحال والمآل. هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الآية الثانية (93) فإنها بينت حكم من قتل مؤمناً عمداً عدواناً، وهو أن الكفارة لا تغني عنه شيئاً لما قضى الله تعالى له باللعن والخلود في جهنم إذ قال تعالى: {وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مَّتَعَمَدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} إلا أن الدية أو القصاص لازمان ما لم يعف أولياء الدم فإن عفوا عن القصاص ورضوا بالدية أعطوها

وإن طالبوا بالقصاص اقتصوا، إذ هذا حقهم وأما حق الله تعالى: فإن القتل عبده خلقه ليعبده، فمن قتله، فالله تعالى رب العبد خصمه وقد توعد بأشد العقوبات وأقطعها، والعياذ بالله تعالى وذلك حقه قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} .

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان أن المؤمن الحق لا يقع منه القتل العمد للمؤمن.
- 2- بيان جزاء القتل الخطأ وهو تحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهله.
- 3- إذا كان القتل مؤمناً وكان من قوم كافرين محاربين، فالجزء تحرير رقبة ولا دية.
- 4- إذا كان القتل من قوم بين المسلمين ميثاق، فالواجب الدية وتحرير رقبة.
- 5- من لم يجد الرقبة صام شهرين متتابعين 1.
- 6- القتل العمد العدوان يجب له أحد شيئين: القصاص. أو الدية حسب رغبة أولياء الدم وإن عفوا فلهم ذلك وأجرهم على الله تعالى، وعذاب الآخرة وعيد إن شاء الله أنجزه وإن شاء عفا عنه. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ

1 يسقط التتابع بالمرض والحيض، لا بالسفر. ومعنى التتابع: ألا يستأنف من أفطر لمرض، وإنما يبني على ما صامه ويواصل حتى يكمل الشهرين.

(1/525)

عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(94){

شرح الكلمات:

{إِذَا ضَرَبْتُمْ}: خرجتم تضربون الأرض بأرجلكم غزاة ومسافرين.

{فَتَبَيَّنُوا}: فتبينوا حتى لا تقتلوا مسلماً تحسبونه كافراً.

{السَّلَامَ 1}: الاستسلام والانقياد.

{تَبْتَغُونَ}: تطلبون.

{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}: بالهداية فاهتديتم وأصبحتم مسلمين.

معنى الآية الكريمة:

روي أن نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا فلقوا رجلاً يسوق غنماً من بني سليم، فلما رآهم سلم عليهم قائلاً: السلام عليكم. فقالوا له: ما قلتها إلا تقيةً لتحفظ نفسك ومالك وقتلوه. فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد خرجتم مسافرين للغزو والجهاد {فَتَبَيَّنُوا} ممن تلقونهم في طريقكم هل هم مسلمون فتكفوا عنهم، أو كافرين فتقاتلوهم {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ} أعلن إسلامه لكم بالشهادة أو بالسلام {لَسْتُمْ مُؤْمِنًا} فتكذبونه في دعواه الإسلام لتتالوا منه: {تَبْتَغُونَ} بذلك {عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} 3 أي: متاعها الزائل فإن كان قصدكم الغنيمة فإن عند الله مغانم كثيرة فأطيعوه وأخلصوا له النية والعمل يرزقكم ويغنمكم خير ما تأملون وترجون وقوله: {كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ} أي: مثل هذا الرجل الذي قتلتموه رغبة في غنمه كنتم تستخفون بإيمانكم خوفاً من قومكم {فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} بأن أظهر دينه ونصركم فلم تعودوا تخفون دينكم. وعليه فتبينوا

1 السلم: بكسر السين، والسلم: بفتح السين واللام، والسلام واحد. والسلم بالكسر هنا أولى؛ لأنه بمعنى: الانقياد والطاعة.

2 روى أن النبي صلى الله عليه وسلم حمل ديبته إلى أهله ورد غنمه وهو كذلك.

3 مي متاع الدنيا: عرضاً؛ لأنه عارض زائل، ويطلق العرض بفتح الراء على الدراهم والدنانير، وبإسكان الراء على المتاع من أثاث وغيره، فلذا كل عرض بإسكان الراء، عرض بفتحها ولا ينعكس، وفي الحديث الصحيح: "ليس الغني عن كثرة العرض، إنما الغني غني النفس". رواه مسلم.

(1/526)

مستقبلاً، ولا تقتلوا أحداً حتى تتأكدوا من كفره 1 وقوله: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} تذييل يحمل الوعد والوعيد، الوعد لمن أطاع، والوعيد لمن عصى، إذ لازم كونه تعالى خبيراً بالأعمال أنه يحاسب عليه ويجزي بها، وهو على كل شيء قدير.

هداية الآية

من هداية الآية:

1- مشروعية السير في سبيل الله غزواً وجهاداً.

2- وجوب التثبت والتبين في الأمور التي يترتب على الخطأ فيها ضرر بالغ.

3- ذم الرغبة في الدنيا لا سيما إذا كانت تتعارض مع التقوى.

4- الاتعاض بحال الغير والاعتبار بالأحداث المماثلة.

{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}

فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96){
شرح الكلمات:

{أُولِي الضَّرَرِ} : هم العميان والعرج والمرضى.

{دَرَجَةٌ} : منزلة عالية في الجنة.

{الْحُسْنَى} : الجنة.

- 1 لأن قتل النفس عظيم، ولذا لما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بمن قتل: من قال لا إله إلا الله طائفاً أنه قالها تقيها، قال: "هلا شققت عن قلبه"، قاله ثلاثاً. ولذا لو أن كافراً صلى معنا ولم يقل: لا إله إلا الله لم نقتله حتى نطلب إليه قولها، فإن قالها وإلا قتل حينئذ، هذا الكافر المحارب لا المعاهد والمستثمن.
- 2 بل فضيلة السير في سبيل الله سواء للجهاد أو لطلب علم أو صلة رحم أو حج أو عمرة أو إبلاغ دعوة وتعليم علم، أو زيارة مؤمن لما ورد في ذلك من الأجر العظيم.

(1/527)

معنى الآيتين:

روى أن ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه لما نزلت هذه الآية بهذه الصيغة: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...} الآية. أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كيف وأنا أعمى يا رسول الله فما برح حتى نزلت {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} فأدخلت بين جملتي {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...} ، ومعنى الآية: إن الله تعالى ينفى أن يستوي في الأجر والمنزلة عنده تعالى من يجاهد بماله ونفسه ومن لا يجاهد بخلاً بماله. وضناً بنفسه، واستثنى تعالى أولي الأعذار من مرض ونحوه فإن لهم أجر المجاهدين وإن لم يجاهدوا لحسن نياتهم، وعدم استطاعتهم، فلذا قال: {وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} التي هي: الجنة، وقوله: {فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً} أي: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين لعذر درجة، وإن كان الجميع لهم الجنة، وهي الحسنَى. وقوله تعالى: {وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ} لغير عذر {أَجْرًا عَظِيمًا} وهو الدرجات 2 العالية مع المغفرة والرحمة، وذلك لأن الله تعالى كان أزلاً وأبداً غفوراً رحيمًا، ولذا غفر لهم ورحمهم، اللهم اغفر لنا وارحمنا معهم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان فضل المجاهدين على غيرهم من المؤمنين الذين لا يجاهدون.
- 2- أصحاب الأعدار الشرعية ينالون أجر المجاهدين إن كانت لهم رغبة في الجهاد ولم يقدرُوا عليه لما قام بهم من 3 أعدار وللمجاهدين فعلاً درجة تخصهم دون ذوي الأعدار.

1 قرئ: {غير} بالرفع على أنه نعت لل {قاعدون} ، وقرئ: بالنصب على الإستثناء، ويصح أيضاً على الحال.

- 2 روي في الصحاح أن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وقال صلى الله عليه وسلم: "من رمى بسهم فله أجره درجة". فقال رجل يا رسول الله: وما الدرجة. قال: "إما إنها ليست بعتبة بابك ما بين الدرجتين مائة عام".
- 3 روى البخاري تعليقاً، وغير و احد أن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قفل عائداً من إحدى غزواته، قال: "إن بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سريماً مسيراً إلا كانوا معكم، أولئك قوم حبسهم العذر".

(1/528)

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا(98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا(99) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(100)}

شرح الكلمات:

{تَوَفَّاهُمْ} : تفيض أرواحهم عند نهاية آجالهم.

{ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} : بتركهم الهجرة وقد وجبت عليهم.

{فِيمَ كُنْتُمْ} : في أي شيء كنتم من دينكم؟

{مَصِيرًا} : مأوى ومسكناً.

{حِيلَةً} : قدرة على التحول.

{مُرَاعِمًا} : مكاناً وداراً لهجرته يرغب ويذل به من كان يؤذيه في داره.

{وَسَعَةً} : في رزقه.

{وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} : وجب أجره في هجرته على الله تعالى.

معنى الآيات:

لما كانت الهجرة من آثار الجهاد ناسب ذكر القاعدين عنها لضرورة ولغير ضرورة فذكر

1 ظلم النفس: أن يفعل العبد فعلاً يؤول إلى مضرتة، فهو بذلك ظالم لنفسه، والمراد به هنا: ترك الهجرة إذ يترتب عليها ترك العبادة فتخبث النفس، وذلك ظلم لها.

(1/529)

تعالى في هذه الآيات الهجرة وأحكامها، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ 1 الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} حيث تركوا الهجرة ومكثوا في دار الهون يضطهدهم العدو ويمنعهم من دينهم ويحول بينهم وبين عبادة ربهم. هؤلاء الظالمون لأنفسهم تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم {فِيمَ كُنْتُمْ} 2؟ تسألهم هذا السؤال؛ لأن أرواحهم مدساة مظلمة لأنها لم تترك على الصالحات، فيقولون متعذرين: {كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ} فلم نتمكن من تطهير أرواحنا بالإيمان وصالح الأعمال، فنرد عليهم الملائكة قولهم: {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} وتعبدوا ربكم؟ ثم يعلن الله عن الحكم فيهم بقوله: {قُلْ أُولَئِكَ} البعداء {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} وساعت جهنم مصيراً يصيرون إليه ومأوى ينزلون فيه. ثم استثنى تعالى أصحاب الأعداء كما استثناهم في القعود عن الجهاد في الآيات قبل هذه فقال عز من قائل: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ 3 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ} ، واستضعاف الرجال يكون بالعلل 4، والنساء والولدان بالضعف الملازم لهم، هؤلاء الذين لا يستطيعون حيلة، أي: لا قدرة لهم على التحول والانتقال لضعفهم، {وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} إلى دار الهجرة لعدم خبرتهم بالدروب والمسالك فطمعهم تعالى ورجاهم بقوله: {قُلْ أُولَئِكَ} المذكورون {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ} فلا يؤاخذهم ويغفر لهم بعض ما قصروا فيه ويرجمهم لضعفهم وكان الله غفوراً رحيماً.

هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث.

أما الآية الرابعة (100) فقد أخبر تعالى فيها أن من يهاجر في سبيله تعالى لا في سبيل دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها يجد بإذن الله تعالى في الأرض مذهباً يذهب إليه وداراً ينزل بها ورزقاً واسعاً يراغم به عدوه الذي اضطهده حتى هاجر من بلاده، فقال تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} ثم أخبر تعالى أن من خرج مهاجراً

1 روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على محمد صلى الله عليه وسلم، يأتي السهم فيرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو

يضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ...} الآية.

2 الاستفهام للتوبيخ والتفريع.

3 قال ابن عباس: "كنت أنا وأمي من عنى الله بهذه الآية". وأم ابن عباس هي: لبابة، وتكنى أم

الفضل، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنهما.

4 وهي الزمانة، وتكون بالعرج والعمي والشلل ونحوها.

(1/530)

في سبيل الله، أي: لأجل عبادته ونصرة دينه ثم مات في طريق هجرته وإن لم يصل إلى دار الهجرة فقد وجب أجره على الله تعالى، وسيوفاه كاملاً غير منقوص، ويغفر الله تعالى له ما كان من تقصير سابق ويرحمه ويدخله جنته. إذ قال تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ 1 بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب الهجرة 2 عندما يحال بين المؤمن وعبادة ربه تعالى إذ لم يخلق إلا لها.

2- ترك الهجرة كبيرة من كبائر الذنوب يستوجب صاحبها دخول النار.

3- أصحاب الأعدار كما سقط عنهم واجب الجهاد يسقط عنهم واجب الهجرة.

4- فضل الهجرة في سبيل الله تعالى.

5- من مات في طريق هجرته أعطى أجر المهاجر كاملاً غير منقوص وهو الجنة.

{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (01)} وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ

1 روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي تعالى عنهما: "أن ضمرة بن جندب خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت هذه الآية: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ} .

2 الهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وهي فريضة من فرائض الإسلام، وهي هجر متعددة، منها: الهجرة من بلاد البدعة، قال مالك: "لا يحل لمؤمن أن يقيم بأرض يسب فيها السلف الصالح"، ومنها: الخروج من أرض غلب عليها الحرام، إذ طلب الحلال فريضة، ومنها: أن يؤذى

المسلم في دينه أو عرضه أو ماله، ومنها: الخوف من المرض ما لم يكن طاعوناً فإنه يحرم الفرار منه، ومنها: ألا يكون في بلده من يعرف أحكام الشريعة فيها جر لطلب ذلك.

(1/531)

كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا (103) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

شرح الكلمات:

{ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ}: أي: مسافرين مسافة قصر، وهي: أربعة برد، أي: ثمانية وأربعون ميلاً.

{أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ}: بأن تصلوا الظهرين ركعتين ركعتين، والعشاء ركعتين لطولها.

{إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ}: هذا خرج مخرج الغالب، فليس الخوف بشرط في القصر وإنما الشرط

السفر 1.

{حِذْرُهُمْ}: الحيطه والأهبة لما عسى أن يحدث من العدو.

{أَسْلِحَتِكُمْ}: جمع سلاح ما يقا تل به من أنواع الأسلحة.

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}: أي: لا تضيق عليكم ولا حرج في وضع الأسلحة للضرورة.

1 من أحكام صلاة السفر: أن المسافر لا يشرع في التقصير حتى يتجاوز مباني المدينة التي يسكنها، وأن المسافر إذا صلى وراء مقيم يتم معه، وأن المسافر إذا أم غيره قصر والمقيم يتم، وأنه يشرع له الجمع بين الظهرين، والعشاءين تقديماً أو تأخيراً.

(1/532)

{قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ}: أدبتموها وفرغتم منها.

{فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ}: أي: ذهب الخوف فحصلت الطمأنينة بالأمن.

{كِتَابًا مَوْفُوتًا}: فرضاً ذات وقت معين تؤدي فيه لا تتقدمه ولا تتأخر عنه.

{وَلَا تَهِنُوا}: أي: لا تضعفوا.

{تَأْمُونَ} : تتألمون.

معنى الآيات:

بمناسبة الهجرة والسفر من لوازمها ذكر تعالى رخصة قصر الصلاة في السفر وذلك بتقصير الرباعية إلى ركعتين فقال تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ} أي: سرتم فيها 1 مسافرين {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ} أي: حرج وإثم في {أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَتِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا} وبينت السنة أن المسافر يقصر ولو أمن فهذا القيد غالي فقط، وقال تعالى: {إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا} تذييل أريد به تقرير عداوة الكفار للمؤمنين، فلذا شرع لهم هذه الرخصة.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (101)، أما الآيتان بعدها فقد بينت صلاة الخوف وصورتها: أن ينقسم الجيش قسمين قسم يقف تجاه العدو وقسم يصلي مع القائد ركعة، ويقف الإمام مكانه فيتمون لأنفسهم ركعة، ويسلمون ويقفون تجاه العدو، ويأتي القسم الذي كان واقفاً تجاه العدو فيصلي بهم الإمام القائد ركعة ويسلم ويتمون لأنفسهم ركعة ويسلمون، وفي كلا الحالين هم آخذون أسلحتهم لا يضعونها على الأرض خشية أن يميل عليهم العدو وهم عزل فيكبدهم خسائر فادحة، هذا معنى قوله تعالى: {وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ

1 اختلف في المسافة التي تقصر فيها الصلاة والجمهور على أنها أربعة برد، واختلفوا في مسافة الميل الذي هو جزء البريد، فالذي رجحه علماء المالكية، هو أن الميل ألفا ذراعاً، وعليه فمسافة القصر ثمانية وأربعون ميلاً، أي: كيلو متر، وهذا قول وسط بين قول من قال لا يقصر في أقل من سبعين ميلاً، وبين من قال كل سفر تقصر فيه الصلاة طال أو قصر ولو كان ثلاثة أميال.

2 شذ أبو يوسف الحنفي فقال: "صلاة الخوف لا تصلى إلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ناظراً إلى قوله تعالى: {وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ} ، وعليه ما لم يكن فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تصلى صلاة الخوف. ورد هذا علماء السلف والخلف وقالوا: بمشروعية صلاة الخوف ما وجد خوف.

(1/533)

{وَرَأَيْكُمْ} يريد الطائفة الواقعة تجاه العدو لتحميهم منه {وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ 1 أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ} وليأخذوا جذرهم وأسليحتهم} ، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ 2 فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً} سبق هذا الكلام لبيان علة الصلاة طائفة بعد أخرى والأمر بالأخذ بالحدز وحمل الأسلحة في الصلاة، ومن هنا رخص تعالى لهم إن كانوا مرضى وبهم جراحات أو

كان هناك مطر فيشق عليهم حمل السلاح أن يضعوا أسلحتهم فقال عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ 3، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ تذييل لكلام محذوف ودل عليه السياق قد يكون تقديره فإن الكفار فجرة لا يؤمن جانبهم، ولذا أعد الله لهم عذاباً مهيناً، وإنما وضع الظاهر مكان المضمرة إشارة إلى علة الشر والفساد التي هي الكفر.

وقوله تعالى في آية (103) ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فإنه تعالى يأمر المؤمنين بذكره في كل الأحيان لا سيما في وقت لقاء العدو لما في ذلك من القوة الروحية التي تقهر القوى المادية وتهزمها، فلا يكتفي المجاهدون بذكر الله في الصلاة فقط بل إذا قضاوا الصلاة لا يتركون ذكر الله في كل حال وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يريد إذا ذهب الخوف وحل الأمن واطمأنت النفوس أقيموا الصلاة بحدودها وشرائطها وأركانها تامة كاملة، لا تخفيف فيها كما كانت في حال الخوف إذ قد تصلي ركعة واحد، وقد تصلي إيماء وإشارة فقط وذلك إذا التحم المجاهدون بأعدائهم. وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ تعليل للأمر بإقام الصلاة فأخبر أن الصلاة مفروضة على المؤمنين وأنها موقوتة بأوقات لا تؤدى إلا فيها. وقوله تعالى في آية (104) ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب العدو

1 قد اختلفت الروايات في صلاة الخوف، واختلف لذلك العلماء، إذ صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة. قال الإمام أحمد وهو إمام أهل الحديث: لا أعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث صحيح ثابت، وهو صحاح ثابتة، فعلى أي حديث صلى منها المصلي صلاة الخوف أجزاء إن شاء الله. وذهب مالك إلى حديث سهل بن أبي حنمة، وهو الذي ذكرته في التفسير فهو واضح سهل.

2 الأمتعة: جمع متاع؛ كالأثاث والعروض وماله علاقة بالسلاح في حالة الحرب.

3 في طلب الحذر التشريع للأمة بأن تأخذ بأسباب النصر ولا تهملها بحال، فإن الله تعالى ربط المسببات بأسبابها، فمن طلب النصر عليه بإعداد ما يمكنه من العدد والعتاد.

4 يرى جمهور المفسرين أن هذا الذكر المطلوب يكون بعد صلاة الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ تقوية للقلوب وتوسلاً لحصول النصر على العدو المرهوب.

(1/534)

لإنزال الهزيمة به. ولا تتعللوا في عدم طلبهم بأنكم تألمون لجراحتكم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ من النصر والثبوت العظيمة ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ فأنتم أحق بالصبر والجلد

والمطالبة بقتالهم حتى النصر عليهم، وقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} فيه تشجيع للمؤمنين على مواصلة الجهاد، لأن علمهم بأن الله تعالى عليهم بأحوالهم والظروف الملائمة لهم وحكيم في شرعه بالأمر والنهي لهم يطمئنهم على حسن العافية لهم بالنصر على أعدائهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- مشروعية صلاة القصر، وهي رخصة 1 أكدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله فأصبحت سنة مؤكدة لا ينبغي تركها.

2- مشروعية صلاة الخوف وبيان كيفيةها.

3- تأكيد صلاة الجماعة بحيث لا تترك حتى في ساعة الخوف والقتال.

4- استحباب ذكر الله تعالى بعد الصلاة وعلى كل حال من قيام وعود واضطجاع.

5- تقرير فريضة الصلاة ووجوب أدائها في أوقاتها الموقوتة لها.

6- حرمة الوهن والضعف إزاء حرب العدو والاستعانة على قتاله بذكر الله ورجائه.

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} (105)
وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ

1 كونها رخصه دل عليه قوله تعالى: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ} كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: "تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته"، هذا وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً هل القصر واجب أم سنة؟ فمن قال بالوجوب: استدل بحديث عائشة: "فرضت الصلاة ركعتين ركعتين"، ومن قال بالسنية وهم الجمهور ووهنوا حديثها لمخالفتها له. حيث كانت تتم في السفر وذهب بعضهم إلى أن المسافر مخير بين القصر والإتمام. والراجح أنها سنة مؤكدة وذلك لكون النبي صلى الله عليه وسلم ما ترك القصر في أسفاره أبداً.

(1/535)

مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَا أَنْتُمْ
هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكَيْلًا (109) {

شرح الكلمات:

{بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}: أي: بما علمه بواسطة الوحي.

{حَصِيماً} : أي: مخاصماً بالغاً في الخصومة مبلغاً عظيماً.

{تُجَادِلُ} : تخاصم.

{يُخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} : يحاولون خيانة أنفسهم.

{يَسْتَخْفُونَ} : يطلبون إخفاء أنفسهم عن الناس.

{وَهُوَ مَعَهُمْ} : بعلمه تعالى وقدرته.

{يَبِيئُونَ} : يدبرون الأمر في خفاء ومكر وخديعة.

{وَكَيْلًا} : الوكيل: من ينوب عن آخر في تحقيق غرض من الأغراض.

معنى الآيات:

روي أن هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق وإخوته¹، وكان قد سرق درعاً من دار جارٍ له يقال له قتادة وودعها عند يهودي، يقال له: يزيد بن السمين، ولما اتهم طعمة وخاف هو وإخوته المعرة رموا بها اليهودي، وقالوا هو السارق، وأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلفوا على براءة أخيهم فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بقطع يد اليهودي لشهادة بني أبيرق عليه وإذا بالآيات تنزل ببراءة اليهودي وإدانة طعمة، ولما افتضح طعمة وكان منافقاً أعلن عن رده وهرب إلى مكة المكرمة ونقب جدار منزل ليسرق فسقط عليه الجدار فمات تحته كافراً.. وهذا تفسير لآيات قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} أي: القرآن، أيها الرسول {لِتَحْكُمَ بَيْنَ 2

1 هم ثلاثة أنفار: بشر، وبشير، ومبشر. يقال لهم: بنو أبيرق.

2 يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن حجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار" .

(1/536)

النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ 1 اللَّهُ} أي: بما أعلمك وعرفك به لا بمجرد رأيٍ رأي غيرك من الخائنين وعاتبه ربه تعالى بقوله: {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ حَصِيماً} أي: مجادلاً عنهم، فوصم تعالى بني أبيرق بالخيانة، لأنهم خانوا أنفسهم بدفعهم التهمة عنهم بأيمانهم الكاذبة. {وَأَسْتَغْفِرُ 2 اللَّهُ} من أجل ما هممت به من عقوبة اليهودي، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً} فيغفر لك ما هممت به ويرحمك {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} حيث اتهموا اليهودي كذباً وزوراً، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً} كطعمة بن أبيرق {يَسْتَخْفُونَ 3 مِنَ النَّاسِ} حياء منهم، {وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ} ولا يستحيون منه، وهو تعالى معهم في الوقت الذي كانوا يدبرون كيف يخرجون من التهمة بإلصاقها باليهودي البريء، وعزموا أن

يحلّفوا على براءة أخيهم واتهام اليهودي هذا القول مما لا يرضاه الله تعالى.. وقوله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فما قام به طعمة من سرقة الدرع ووضعها لدى اليهودي ثم اتهامهم اليهودي، وحلفهم على براءة أخيهم كل ذلك جرى تحت علم الله تعالى، والله به محيط، فسبحانه من إله عظيم. وقوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ هذا الخطاب موجه إلى الذين وقفوا إلى جنب بني أبيرق يدفعون عنهم التهمة فعاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾، اليوم في هذه الحياة الدنيا لتدفعوا عنهم تهمة السرقة ﴿فَمَنْ 4 يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يتولى الدفاع عنهم في يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئاً والأمر كله لله فتضمنت الآية تقريباً شديداً لا يقف أحد بعد موقفاً مخزياً كهذا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

2- لا يجوز الوقوف إلى جنب الخونة الظالمين نصرة لهم

1 ﴿يَمَّا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ معناه: على قوانين الشرع، إما بوحى ونص، أو بنظر جار على سنن الوحي.
2 فيه إرشاد للأمة وتعليم لها، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقارف ذنباً، وكل ما في الأمر أنه هم على ظن منه، ودفع الله عنه ما هم به بنزول الآية، أو استغفاره لما هم به، هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

3 أي: يستترون.

4 الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

(1/537)

3- وجوب الاستغفار من الذنب كبيراً كان أو صغيراً.

4- وجوب بغض الخوان الأثيم أياً كان.

5- استحباب الوعظ والتذكير بأحوال يوم القيامة.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)

شرح الكلمات:

{سُوءاً}: السوء: ما يسيء إلى النفس أو إلى الغير.

{أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ}: ظلم النفس: بغشيان الذنوب وارتكاب الخطايا.

{إِثْمًا}: الإثم: ما كان ضاراً بالنفس فاسداً.

{بَرِيئًا}: البريء: من لم يجن جناية قد اتهم بها.

{اِحْتَمَلَ بُهْتَانًا}: تحمل بهتاناً: وهو الكذب المحير لمن رمي به.

{الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ}: الكتاب: القرآن والحكمة السنة.

معنى الآيات:

هذا السياق معطوف على سابقه في حادثة طعمة بن أبيرق، وهو يحمل الرحمة الإلهية لأولئك الذين تورطوا في الوقوف إلى جنب الخائن ابن أبيرق فأخبرهم تعالى أن من يعمل

(1/538)

سوءاً يؤذي به غيره أو يظلم نفسه بارتكاب ذنب من الذنوب ثم يتوب إلى الله تعالى باستغفاره والإنابة إليه يتب الله تعالى عليه ويقبل توبته وهو معنى قوله تعالى في الآية (110) {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً} يغفر له ويرحمه. قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا} أي: ذنباً من الذنوب صغيرها وكبيرها {فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ} إذ هي التي تتدسى به وتؤاخذ بمقتضاه إن لم يغفر لها. ولا يؤاخذ به غيرها وكان الله عليماً، أي: بذنوب عباده حكيماً، أي: في مجازاتهم بذنوبهم فلا يؤاخذ نفساً بغير ما اكتسب ويترك نفساً قد اكتسبت (112) يخبر تعالى أن من يرتكب خطيئة ضد أحد، أو يكسب إثماً ويرمي به أحداً بريئاً منه قد تحمل تبعة عظيمة قد تصلية نار جهنم وهو معنى قوله: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} .

وفي الآية (113) يواجه الله تعالى رسوله بالخطاب ممتناً عليه بما حباه به من الفضل والرحمة فيقول: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِفُونَكَ مِنْ شَيْءٍ} ، والمراد بالطائفة التي ذكر الله تعالى هم بنو أبيرق أخوة طعمة وقوله: { وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ }3 ، فهو كما قال عز وجل ضلالهم عائد عليهم أما الرسول فلن يضره ذلك وقوله تعالى: { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } امتنان من الله تعالى على رسوله بأنه أنزل عليه القرآن أعظم الكتب وأهداها وعلمه الحكمة وهي ما كشف له من أسرار الكتاب الكريم، وما أوحى إليه من العلوم والمعارف التي كلها نور وهدى مبين،

وعلمه من المعارف الربانية ما لم يكن يعلم قبل ذلك وبهذا كان فضله على رسوله عظيماً، فله الحمد والمنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ التوبة تجب ما قبلها، ومن تاب تاب الله عليه.
- 2- عظم ذنب من يكذب على البراء، ويتهم الأمانة بالخيانة.

1 المراد بالاستغفار: التوبة وطلب العفو من الله تعالى عما مضى من الذنوب قبل التوبة.

2 أي: ينسبه إليه.

3 إذ نتائج الضلال وعوائده وهي الخسران عائدة عليهم لا على الرسول صلى الله عليه وسلم.

(1/539)

3- تأثير الكلام على النفوس حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كاد يضلله بنو أبيرق فيبرئ الخائن ويدين البريء إلا أن الله عصمه.

4- عاقبة الظلم عائدة على الظالم.

{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(114) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(115)}

شرح الكلمات:

{نَجْوَاهُمْ 1} : النجوى: المسارة بالكلام، وجواهم: أحاديثهم التي يسرها بعضهم إلى بعض.

{أَوْ مَعْرُوفٍ 2} : المعروف: ما عرفه الشرع فأباحه، أو استحبه أو أوجبه.

{ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} : أي: طلباً لمرضاة الله، أي: للحصول على رضا الله عز وجل.

{نُؤْتِيهِ} : نعطيهِ والأجر العظيم: الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

{يُشَاقِقِ الرَّسُولَ} : يحاده ويقاطعه ويعاديه. كمن يقف في شق، والآخر في شق.

{ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } : أي: يخرج عن إجماع المسلمين.

{نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى} : نخذله فنتركه وما تولاه من الباطل والشر والضلال حتى: يهلك فيه.

1 النجوى: مشتقة من نجوت الشيء، أنجوه، إذا خلصته وأفردته، والنجوي من الأرض ما ارتفع منها

دون ما حواليه، ومن ناجى أحداً فقد خلصه وأفرده له. وتسمى الجماعة: نجوى نحوهم، عدل. قال

تعالى: {وَإِذْ هُمْ نَجْوَى} .

2 المعروف لفظ يعم جميع ألفاظ البر، أمر الله تعالى في كتابه فقال: {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} أي: المعروف. قال الحطيئة:

(1/540)

ونصله نار جهنم : أي: ندخله النار ونحرقه فيها.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في بني أبيرق ففي الآية الأولى(114) يخبر تعالى أنه لا خير في كثير من أولئك المتتاجين ولا في نجواهم لنفاقهم وسوء طواياهم اللهم إلا في نجوى أمر أصحابها بصدقة تعطى لمحتاج إليها من المسلمين، أو معروف¹ استحبه الشارع أو أوجبه من البر والإحسان أو إصلاح بين الناس للإبقاء على الألفة والمودة بين المسلمين. ثم أخبر تعالى أن من يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح² بين الناس طلباً لمرضاة الله تعالى فسوف يثيبه بأحسن الثواب ألا وهو الجنة دار السلام إذ لا أجر أعظم من أجر يكون الجنة.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الثانية(115) فإن الله تعالى يتوعد أمثال طعمة بن أبيرق، فيقول جل ذكره: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ} أي: يخالفه ويعاديه {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى} أي: من بعد ما عرف أنه رسول الله حقاً جاء بالهدى ودين الحق، ثم هو مع معاداته للرسول يخرج من جماعة المسلمين ويتبع غير سبيلهم³ هذا الشقي الخاسر {تَوَلَّى} أي: نتركه لكفره وضلاله خذلاناً له في الدنيا ثم نصله نار جهنم يحترف فيها، وبئس المصير جهنم يصير إليها المرء ويخلد فيها.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة تتاجي اثنين دون الثالث لثبوت ذلك في السنة.
- 2- الاجتماعات السرية لا خير فيها إلا اجماعاً كان لجمع صدقة، أو لأمر بمعروف أو إصلاح بين متنازعين من المسلمين مختلفين.
- 3- حرمة الخروج عن أهل السنة والجماعة، واتباع الفرق الضالة التي لا تمثل الإسلام إلا في دوائر ضيقة كالروافض ونحوهم.

1 قيل لحكيم ما أعظم المصائب؟ قال: أن تقدر على المعروف فلا تصنعه، حتى يفوت، وقال في هذا المعنى الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتمها ... فإن لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

2 ورد في إصلاح ذات البين الكثير من الأحاديث، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟" قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "إصلاح ذات البين" رواه الترمذي وصححه وقال: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيراً أو يقول خيراً".
3 هذه الآية هي دليل حرمة الخروج على جماعة المسلمين، روي أن الشافعي طلب دليلاً على صحة الإجماع، فقرأ القرآن مرات حتى عثر على هذه الآية، وقرر أنها دليل الإجماع، وهو كذلك.

(1/541)

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (116) {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} (117) {لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} (118) {وَأُضِلَّتْهُمْ وَاْمَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرْئِيَّتْهُمْ فَلَيُبَيِّنَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيَّتْهُمْ فَلَيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا} (119) {يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيَّتْهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} (120) {أُولَئِكَ مَاوَأَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} (121)

شرح الكلمات:

{أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}: أن يعبد معه غيره من مخلوقاته بأي عبادة كانت.

{إِنْ يَدْعُونَ}: أي: ما يدعون.

{إِلَّا إِنَاتًا}: جمع أنثى لأن الآلهة مؤنثة، أو أمواتاً لأن الميت يطلق عليه لفظ أنثى بجامع عدم النفع.

{مَرِيدًا}: بمعنى ما رد على الشر والإغواء للفساد.

{نَصِيبًا مَفْرُوضًا}: حظاً معيناً. أو حصة معلومة.

{فَلَيُبَيِّنَنَّ 1}: فليقطعن.

{خَلَقَ اللَّهُ}: مخلوق الله: أي: ما خلقه الله تعالى.

{الشَّيْطَانُ}: الخبيث الماكر الداعي إلى الشر سواء كان جنياً أو إنسياً.

1 البتة: القطع، يقال: سيف باتك.

(1/542)

{وَيُؤْمِنُ بِهِمْ}: يجعلهم يتمنون كذا وكذا ليلهيهم عن العمل الصالح.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} إخبار منه تعالى عن طعمة بن أبيرق بأنه لا يغفر له وذلك لموته على الشرك، أما إخوته الذين لم يموتوا مشركين فإن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء غفر لهم وإن شاء أخذهم كسائر مرتكبي الذنوب غير الشرك والفكر. وقوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} أي: ضل عن طريق النجاة والسعادة ببعده عن الحق بعداً كبيراً وذلك بإشراكه بربه تعالى غيره من مخلوقاته.

وقوله تعالى {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً} هذا بيان لقبح الشرك وسوء حال أهله، فأخبر تعالى أن المشركين ما يعبدون إلا أمواتاً لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون ولا يعقلون. إذ أوثانهم ميتة وكل ميت فهو مؤنث زيادة على أن أسماءها مؤنثة كالكالات والعزى ومناة ونائلة، كما هم في واقع الأمر يدعون شيطناً مريداً، إذ هو الذي دعاهم إلى عبادة الأصنام فعبدها فهم إذاً عابدون للشيطان في باطن الأمر لا الأوثان، ولذا قال تعالى: {وَأَنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا}2 لعنه الله وأبلسه عن إباته السجود لآدم، {وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا}3 أي: عدداً كبيراً منهم يعبدونني ولا يعبدونك وهم معلومون معروفون بمعصيتهم إياك، وطاعتهم لي. وواصل العدو تبجحه قائلاً: {وَلَا ضِلَّائُهُمْ} يريد عن طريق الهدى {وَلَا مُنِيئُهُمْ} يريد أعوقهم عن طاعتك بالأمانى الكاذبة بأنهم لا يلقون عذاباً أو أنه سيغفر لهم. {وَلَا مَرْتَهُمْ} فيطيعوني {قَلْبَيْنِئِكَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ}4 أي: ليجعلون آلتهنم نصيباً مما رزقنهم ويعلمونها بقطع آذانها لتعرف أنها للآلهة؛ كالبحائر والسوائب التي يجعلونها للآلهة، {وَلَا مَرْتَهُمْ} أيضاً فيطيعونني فيغيرون خلق الله بالبدع

1 في هذه الآية رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب دون الشرك، ويوجبون الخلود في النار لمن مات على كبيرة، قال علي رضي الله عنه: "ما في القرآن أحب إلي من هذه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}" رواه الترمذي.

2 أطلق الدعاء وأريد به العبادة، وهو إطلاق شائع في القرآن الكريم؛ لأن الدعاء هو العبادة. إذ طاعتهم للشيطان عبادة في حد ذاتها، إذا المطاع في معصية الله معبود، قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، أي: آلهة، وذلك لما أطاعوهم في معصية الله تعالى.

3 قيل: كان نصيبه من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، لحديث مسلم: "أبعث بعث النار فيقول وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين". المخاطب: آدم عليه السلام.

4 أجاز الجمهور خصاء الغنم لفائدة اللحم، وحرموا خصاء غيرها، وخاصة الأدمي، وأجازوا الوسم في غير الوجه للحيوان ليعرف به، وهو كذلك. أما الوشم: فحرام للأحاديث الصحاح فيه.

والشرك، والمعاصي كالوشم والخصي. هذا ما قاله الشيطان ذكره تعالى لنا فله الحمد. ثم قال تعالى
{وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا} لأن من والى الشيطان عادى
الرحمن، ومن عادى الرحمن تم له والله أعظم الخسران يدل على ذلك قوله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ}
فيعقوبهم عن طلب النجاة والسعادة {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} إذ هو لا يملك من الأمر شيئاً
فكيف يحقق لهم نجاته أو سعادته إذا؟.

وهذا حكم الله تعالى يعلن في صراحة ووضوح فليسمعوه: {أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا
مَحِيصًا} أي: معدلاً أو مهرباً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- سائر الذنوب كبائرهما وصغائرهما قد يغفرها الله تعالى لمن شاء إلا الشرك فلا يغفر لصاحبه.
2- عبدة الأصنام والأوهام والشهوات والأهواء هم في الباطن عبدة الشيطان إذ هو الذي أمرهم
فأطاعوه.

3- من مظاهر طاعة الشيطان المعاصي كبيرها وصغيرها إذ هو الذي أمر بها وأطيع فيها.

4- حرمة الوشم والوسم والخصاء إلا ما أذن فيه الشارع1.

5- سلاح الشيطان العدة الكاذبة والأمنية الباطلة، والزينة الخادعة.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ
حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا(122)}

شرح الكلمات:

{آمَنُوا} : صدقوا بالله ورسوله2.

{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} : الطاعات إذ كل طاعة لله ورسوله هي عمل صالح.

1 أذن الشارع في وشم الماشية، ولكن في غير الوجه، كما أذن وخصي الغنم ضائناً أو ما عزاً
لمصلحة إصلاح لحومها.

2 وصدقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله في شأن الغيب؛ كالملائكة، والبعث، والجزاء في الدار
الآخرة.

{قِيلاً1} : أي: قولاً.

معنى الآية الكريمة:

لما بين تعالى جزاء الشرك والمشركين عبدة الشيطان بين في2 هذه الآية جزاء التوحيد والموحدين عبدة الرحمن عز وجل، وأنه تعالى سيدخلهم بعد موتهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار وأن خلودهم مقدر فيها بإذن الله ربهم فلا يخرجون منها أبداً وعدهم ربهم بهذا وعد الصدق، وليس هناك من هو أصدق وعداً ولا قولاً من الله تعالى.

هداية الآية

من هداية الآية:

1- الإيمان الصادق والعمل الصحيح الصالح هما مفتاح الجنة وسبب3 دخولها.

2- صدق وعد الله تعالى، وصدق قوله عز وجل.

3- وجوب صدق الوعد من العبد لأن خلف الوعد من النفاق لحديث4: "إذا واعد أخلف".

4- وجوب صدق القول والحديث لأن الكذب من النفاق لحديث وإذا حدث كذب.

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ تَقِيرًا(124) وَمَنْ

1 القيل، والقول، والقال: بمعنى واحد.

2 هذا من منهج القرآن الخاص به، وهو الجمع بين الترهيب والترغيب؛ لأنه كتاب هداية وتربية فلذا يجمع بين الوعد والوعيد، وذكر الشيء وضده.

3 لأنه بالإيمان والعمل الصالح تزكو النفس البشرية وتطهر، وإذا زكت وطهرت تأهلت لدخول الجنة؛ إذ هي دار الأبرار ودار المتقين.

4 رواه البخاري وغيره: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا واعد أخلف، وإذا أؤتمن خان".

(1/545)

أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا(125)
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا(126){

شرح الكلمات:

{بِأَمَانِيكُمْ} : جمع أمنية: وهي ما يقدره المرء في نفسه ويشتهيها مما يتعذر غالباً تحقيقه.

{أَهْلِ الْكِتَابِ} : اليهود والنصارى.

{سوءاً} : كل ما يسيء من الذنوب والخطايا.

{ولياً} : يتولى أمره فيدفع عنه المكروه.

{تقيراً} : النكير: نكرة في ظهر النواة.

{مِلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ} : عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه الله تعالى.

{خَلِيلًا} : الخليل: المحب الذي تخلل حبه مسالك النفس فهو أكبر من الحبيب.

{مُحِيطًا} : علماً وقدرة إذ الكون كله تحت قهره ومدار بقدرته وعلمه.

معنى الآيات:

روي أن هذه الآية نزلت 1 لما تلاهى مسلم ويهودي وتفاخرا، فزعم اليهودي أن نبيهم وكتابتهم ودينهم وجد قبل كتاب ونبي المسلمين ودينهم فهم أفضل، ورد عليه المسلم بما هو الحق فحكم الله تعالى بينهما بقوله: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ} أيها المسلمون {وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ} من يهود ونصارى، أي: ليس الأمر والشأن بالأمانى العذاب، وإنما الأمر والشأن في هذه القضية أنه سنة الله تعالى في تأثير الكسب الإرادي على النفس بالتزكية أو التديسية فمن عمل 2 سوءاً من الشرك والمعاصي، كمن عمل صالحاً من التوحيد والطاعات يجز بحسبه،

1 روي أيضاً عن قتادة أنه قال: تفاخرا و المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابتنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم. وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين، وكتابتنا يقضي على سائر الكتب. فنزلت، ولا تعارض بين الرأيين.

2 هذه الآية عامة في الكافر والمؤمن، ويؤكد عمومها رواية مسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت وبلغت من المسلمين مبلغاً، قال: "قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها" ، ويفسرها لنا أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم في رواية أحمد لأبي بكر، وقد قال لما نزلت كيف الفلاح يا رسول الله، بعد هذه الآية؟ فكل سوء عملناه جزينا به. "غفر الله لك يا أبا بكر، ألسنت تمرض؟ ألسنت تتصب؟ ألسنت تحزن؟ ألسنت تصيبك اللأواء؟" قال: بلى. قال: "فهو مما تجزون".

(1/546)

فالسوء يخبث النفس فيحرمها من مجاورة الأبرار والتوحيد والعمل الصالح يزكياها فيؤهلها لمجاورة الأبرار، ويبعدها عن مجاورة الفجار. وقوله تعالى: {وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} لأن سنن الله؛ كأحكامه لا يقدر أحد على تغييرها أو تبديلها بل تمضي كما هي فلا ينفع صاحب السوء أحد، ولا يضر صاحب الحسنات آخر. وقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا{ فإنه تقرير لسنته تعالى في تأثير الكسب على النفس والجزاء بحسب حال النفس زكاة وطهراً وتدسية وخبثاً، فإنه من يعمل الصالحات وهو مؤمن تطهر نفسه ذكراً كان أو أنثى ويتأهل بذلك لدخول الجنة، ولا يظلم مقدار نقير فضلاً عما هو أكثر وأكبر وقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} إشادة منه تعالى وتفضيل للدين الإسلامي على سائر الأديان غز هو قائم على أساس إسلام الوجه² لله وكل الجوارح تابعة له تدور في فلك طاعة الله تعالى مع الإحسان الكامل، وهو إتقان العبادة وأداؤها على نحو ما شرعها الله تعالى واتباع ملة إبراهيم بعبادة الله تعالى وحده والكفر بما سواه من سائر الآلهة. وقوله {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} فيه زيادة تقرير فضل الإسلام الذي هو دين إبراهيم الذي اتخذه ربه خليلاً وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً} زيادة على أنه إخبار بسعة ملك الله تعالى وسعة علمه وقدرته وفضله فإنه رفع لما قد يتوهم من خلة إبراهيم أن الله تعالى مفتقر إلى إبراهيم أو له حاجة إليه، فأخبر تعالى أن له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً، وإبراهيم في جملة ذلك فكيف يفتقر إليه أو يحتاج إلى مثله وهو رب كل شيء وملكه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ما عند الله لا ينال بالتمني ولكن بالإيمان والعمل الصالح أو التقوى والصبر والإحسان.
- 2- الجزاء أثر طبيعي للعمل وهو معنى {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ

1 الاستفهام إنكاري، أي: ينكر أن يوجد من هو أحسن ديناً منه.

2 أفادت هذه الآية حكماً عظيماً، وهو أنه: لا يصح عمل بدونه أبداً. وهو الإخلاص والمتابعة، وهو أن يكون العمل خالصاً لله، وأن يكون صواباً، أي: وفق ما شرع الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

(1/547)

الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ{.

3- فضل الإسلام على سائر الأديان.

4- شرف إبراهيم عليه السلام باتخاذ ربه¹ خليلاً.

5- غنى الله تعالى عن سائر مخلوقاته، وافتقار سائر مخلوقاته إليه عز وجل.

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُنلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا

تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127) وَإِنَّ امْرَأَةً حَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ
الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129) وَإِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَغْنِ اللَّهُ كُلَّ
مَنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)

1 وقد شرف بالخلة محمد صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم خطبهم
آخر خطبة، فقال: "أما بعد أيها الناس: فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت أبا بكر ابن
أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله".

(1/548)

شرح الكلمات:

{وَيَسْتَفْتُونَكَ 1}: يطلبون منك الفتيا في شأن النساء وميراثهن.

{وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}: يقرأ عليكم في القرآن.

{مَا كُتِبَ لَهُنَّ}: ما فرض لهن من المهور والميراث.

{بِالْقِسْطِ}: بالعدل.

{نُشُورًا}: ترفعاً وعدم طاعة.

{وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ}: جلبت النفوس على الشح فلا يفارقها أبداً.

{فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}: فتركتموها كالمعلقة ما هي بالمزوجة ولا المطلقة.

{مَنْ سَعَتِهِ}: من رزقه الواسع.

{وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}: واسع الفضل حكيماً يعطي فضله حسب علمه وحكمته.

معنى الآيات:

هذه الآيات الأربع كل آية منها تحمل حكماً شرعياً خاصاً فالأولى (127) نزلت إجابة لتساؤلات من
بعض الأصحاب حول حقوق النساء ما لهن وما عليهن لن العرف الذي كان سائداً في الجاهلية كان
يمنع النساء والأطفال من الميراث بالمر، وكان اليتامى لا يراعى لهم جانب ولا يحفظ لهم حق كامل،
فلذا نزلت الآيات الأولى من هذه السورة وقررت حق المرأة والطفل في الإرث وحضت على
المحافظة على مال اليتيم وكثرت التساؤلات لعل قرآناً ينزل إجابة لهم حيث اضطربت نفوسهم لما
نزل فنزلت هذه الآية الكريمة تردهم إلى ما في أول السورة وأنه الحكم النهائي في القضية فلا

مراجعة بعد هذه، فقال تعالى وهو يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ} أي: وما زالوا يستفتونك في النساء، أي: في شأن مالهن وما عليهن من حقوق؛ كالإرث والمهر وما إلى ذلك. قل لهم أيها الرسول {اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ} وقد أفتاكم فيهن وبين لكم مالهن وما عليهن. وقوله تعالى: {وَمَا يُنَلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ} أي: وما ينلى عليكم في يتامى النساء في أول السورة كافٍ لا تحتاجون معه إلى من يفتيكم أيضاً، إذ بين لكم أن من كانت تحته يتيمة دميمة لا يرغب في نكاحها فليعطها مالها وليزوجها غيره وليتزوج هو من

1 روى أشهب عن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسأل فلا يجيب حتى ينزل عليه الوحي.

(1/549)

شاء، ولا يحل له أن يحبسها في بيته لأجل مالها، وإن كانت جميلة وأراد أن يتزوجها فليعطها مهر مثيلاتها ولا يبخسها حقها من مهرها شيئاً. وقوله: {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ} أي: وقد أفتاكم بما ينلى عليكم من الآيات في أول السورة في المستضعفين من الولدان حيث قد أعطاهم حقهم وافيأ في آية {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ} الآية. فلم هذه المراجعات والاستفتاءات؟ وقوله تعالى: {وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ} أي: وما تلى عليكم في أول السورة كان أمراً إياكم بالقسط لليتامى والعدل في أموالهم فارجعوا إليه في قوله: {وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً} ، وقوله تعالى في ختام الآية {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا} حث لهم على فعل الخير بالإحسان إلى الضعيفين المرأة واليتيم زيادة على توفيتهما حقوقهما وعدم المساس بها. هذا ما دلت عليه الآية الكريمة: {وَيَسْتَفْتُونَكَ...} إلخ.

أما الآية الثانية (128) {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً} فقد تضمنت حكماً عادلاً رحيماً وإرشاداً ريانياً سديداً وهو أن الزوجة إذا توقعت من زوجها نشوزاً، أي: ترفعاً أو إعراضاً عنها، وذلك لكبر سنها أو لقلّة جمالها، وقد تزوج غيرها في هذا الحال في الإمكان أن تجري مع زوجها صلحاً يحفظ لها بقاءها في بيتها عزيزة محترمة فتتنازل له عن بعض حقها في الفراش وعن بعض ما كان واجباً لها وهذا خير لها من الفراق. ولذا قال تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} وقوله تعالى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسَ الشُّحَّ}3 يريد أن الشح ملازم للنفس البشرية لا يفارقها والمرأة كالرجل في هذا إلا أن المرأة أضمن وأشح بنصيبيها في الفراش وبباقي حقها من زوجها. إذا فليراع الزوج هذا، ولذا قال تعالى: {وَإِن تَحْسَبُوا أَن يَدْرَسُوا مِنكُمْ فَرَاغُوا} الله

1 خافت، أي: توقعت وليس بمعنى تيقنت.

2 روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: {وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} ، قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول له: أجعلك من شأني في حل. فنزلت هذه الآية. كما روي أن الآية نزلت في سودة أم المؤمنين لما أسنت، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلقها فأثرت الكون معه. فقالت له: امسكني واجعل يومي لعائشة. ففعل صلى الله عليه وسلم، وماتت وهي من أزواجه. رواه الترمذي. قالوا في الفرق بين النشوز والإعراض: أن النشوز هو: التباعد عنها. وأن الإعراض: أن لا يكلمها ولا يأنس بها.

3 الشح: هو البخل، ومنه الحديث: "أن تتصدق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى" ، غير أن الشح يطلق على حرص النفس على الحقوق وقلة التسامح فيها.

(1/550)

فيهن فلا تحرمون مالهن من حق في الفراش وغيره فإن الله تعالى يجزيكم بالإحسان إحساناً وبالخير خيراً فإنه تعالى {بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا} .

هذا ما دلت عليه الآية (128) وأما الآية الثالثة (129) وهي قوله تعالى: {وَلَنْ نَسْتَبِيْعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۚ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِنْ نُصَلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} فقد تضمنت حقيقة كبرى وهي عجز الزوج عن العدل بين زوجاته اللاتي في عصمته، فمهما حرص على العدل وتوخاه فإنه لن يصل إلى منتهاه أبداً، والمراد بالعدل هنا في الحب والجماع. أما في القسمة والكساء والغذاء والعشرة بالمعروف فهذا مستطاع له، ولما علم تعالى هذا من عبده رخص له في ذلك ولم يؤاخذه بميلة النفس، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم هذا قسمي 2 فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" والمحرم على الزوج هو الميل 3 الكامل إلى إحدى زوجاته عن باقيهن، لأن ذلك يؤدي أن تبقى المؤمنة في وضع لا هي متزوجة تتمتع بالحقوق الزوجية ولا هي مطلقة يمكنها أن تتزوج من رجل آخر تسعد بحقوقها معه، وهذا معنى قوله تعالى: {فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ} ، وقوله تعالى: {وَإِنْ نُصَلِحُوا} أي: أيها الأزواج في أعمالكم وفي القسم بين زوجاتكم وتتقوا الله تعالى في ذلك فلا تميلوا كل الميل، ولا تجوروا فيما تطبقون العدل فيه فإنه تعالى يغفر لكم ما عجزتم عن القيام به لضعفكم ويرحمكم في دنياكم وأخراكم لأن الله تعالى كان وما زال عفواً للتائبين رحيماً بالمؤمنين.

هذا ما دلت عليه الآية الثالثة، أما الآية الرابعة (130) وهي قوله تعالى: { وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا

مِنْ سَعَتِهِ 4 وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيمًا} فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعِدُ الزَّوْجِينَ الَّذِينَ لَمْ يُوْفَقَا لِلإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا لِشَحْكِ كُلِّ مِنْهُمَا بِمَالِهِ وَعَدَمِ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ يَعْدهمَا رَبَهُمَا إِنْ هُم تَفَرَّقَا بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يَغْنِي كُلَا مِنْ سَعَتِهِ، وَهُوَ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ. فَالْمَرْأَةُ يَرْزُقُهَا زَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهَا الَّذِي فَارَقْتَهُ، وَالرَّجُلُ يَرْزُقُهُ كَذَلِكَ امْرَأَةً خَيْراً مِمَّنْ فَارَقَهَا لِتَعْذُرِ الصَّلْحَ بَيْنَهُمَا.

- 1 هذا دال على أن المحبة أمر قهري، يعجز الإنسان عن جلبها، كما يعجز عن دفعها، وإن كانت لها أسباب لا يملك توفيرها، فلذا عفي عن هذا الحب القهري وجوداً وعدمًا.
- 2 رواه أبو داود بإسناد صحيح، ورواه غيره. والمراد بقوله: "فيما تملك ولا أملك". القلب؛ لأن القلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء.
- 3 ورد في ذنب الميل إلى إحدى الزوجات وعيد شديد، وذلك فيما رواه أحمد وأصحاب السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من كانت له امرأتان فمال إحداها جاء يوم القيامة وإحدى شقيه ساقط".
- 4 هناك إشارة إلى أن هذا الوعد الإلهي مشروط بمحاولة الصلح أولاً فإن لم يتم وتفرقا على طاعة الله تعالى، أنجز الله تعالى لهما ما وعد.

(1/551)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ إرث النساء والأطفال، والمحافظة على مال اليتامى وحرمة أكلها.
 - 2- استحباب الصلح بين الزوجين عند تعذر البقاء مع بعضهما إلا به.
 - 3- تعذر العدل بين الزوجين في الحب والوطء استلزم عدم المؤاخذه به واكتفى الشارع بالعدل في الفراش، والطعام والشراب والكسوة والمعاشرة بالمعروف.
 - 4- الترغيب في الإصلاح والتقوى وفعل الخيرات.
 - 5- الفرقة بين الزوجين إن كانت على مبدأ الإصلاح والتقوى أعقبت خيراً عاجلاً أجلاً.
- لَوْلِ اللَّهِ 1 مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِبْرَاهِيمَ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)}

1 إن قيل ما وجه تكرار جملة: {لله ما في السموات وما في الأرض} ثلاث مرات؟ فالجواب: أنه تعالى لما ذكر أن الزوجين إذا تفرقا بعد مصالحة، وعلى تقوى يغنيهما الله. برهن على ذلك بأن له ما في السموات وما في الأرض، ومن كان كذلك فهو قادر على إغنائهما، ولما وصى عباده بتقواه وهي طاعته بفعل الأمر وترك النهي، أعلم أنه قادر على عقوبة من عصاه، وأنه لم يوص بالتقوى لحاجة به، إنه يملك ما في السموات وما في الأرض، ومن كان كذلك فلا حاجة به إلى أحد، ولما ذكر غناه وحمده دلت عليهما بأن له ما في السموات ما في الأرض وأنه الحفيظ لعباده المدبر لهم.

(1/552)

شرح الكلمات:

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} : أي: خلقاً وملكاً وتصرفاً وتدبيراً.

{وَصَيَّنَّا} : عهدنا إليهم بذلك أي: التقوى.

{أوتُوا الْكِتَابَ} : اليهود والنصارى.

الوكيل : من يفوض إليه الأمر كله ويقوم بتدبيره على أحسن الوجوه.

{ثَوَابُ الدُّنْيَا} : جزاء العمل لها.

ثواب الآخرة : جزاء العمل لها، وهو الجنة.

{سَمِعَآً بَصِيرَآً} : سمعياً: لأقوال العباد بصيراً: بأعمالهم وسيجزئهم بها خيراً أو شراً.

معنى الآيتين:

لما وعد تبارك وتعالى كلا من الزوجين المتفرقين بالإغناء عن صاحبه ذكر أنه يملك ما في السموات وما في الأرض، ولذا فهو قادر على إنائهما لسعة ملكه وعظيم فضله، ثم واجه بالخطاب الكريم الأمة جمعاً ومن بينها بني أبيرق فقال: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} يريد من اليهود والنصارى وغيرهم أوصاهم بتقواه عز وجل فلا يقدموا على مشاقته ولا يخرجوا عن طاعته بترك ما أوجب أو بفعل ما حرم، ثم أعلمهم أنهم وإن كفروا كما كفر طعمة وارتد فإن ذلك غير ضائره شيئاً، لأنه ذو الغنى والحمد، وكيف وله جميع ما في السموات وما في الأرض من كائنات ومخلوقات وهو ربها ومالكها والمتصرف فيها.

هذا ما تضمنته الآية الأولى(131)، أما الآية الثانية(132) فقد كرر تعالى فيها الإعلان عن استحقاقه الحمد والغنى، وذلك لملكه جميع ما في السموات وما في الأرض ولقيوميته عليهما، وكفى به تعالى حافظاً ووكيلاً. وفي الآية الثالثة(133) يخبر تعالى أنه قادر على إذهاب كافة الجنس البشري واستبداله بغيره وهو على كل ذلك قدير، فقال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ۖ وَيَأْتِ

بِأَخْرِينِ} وذلك لعظيم قدرته وكفاية وكالته. وفي الآية الرابعة والأخيرة في هذا السياق (134) يقول تعالى مرغباً عباده فيما عنده من خير الدنيا والآخرة من كان يريد

1 الآية تحمل تخويفاً إيماً تخويف لكل من يقصر في واجبه من أمير، ومأمور، وعالم، وجاهل، وغني، وفقير، إذ لكل واجبات يجب أن يقوم بها كل بحسب ما طولب به وفرض عليه. فالأمير عليه العدل، والعالم أن يعلم، والجاهل أن يتعلم، وهكذا.

(1/553)

بعمله ثواب 1 الدنيا {فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} فلم يقصر العبد عمله على ثواب الدنيا، وهو يعلم أن ثواب الآخرة عند الله أيضاً، فليطلب الثوابين معاً من الله تعالى، وذلك بالإيمان والتقوى والإحسان، وسيجزيه تعالى بعمله ولا ينقصه له وذلك لعلمه تعالى وقدرته، لَوْ كَانَ اللَّهُ سَمِيحاً بَصِيرًا} 2، ومن كان كذلك فلا يخاف معه ضياع الأعمال.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الوصية بالتقوى، وذلك بترك الشرك والمعاصي بعد الإيمان وعمل الصالحات.
 - 2- غنى الله تعالى عن سائر خلقه.
 - 3- قدرة الله تعالى على إذهاب الناس كلهم والإتيان بغيرهم.
 - 4- وجوب الإخلاص في العمل لله تعالى وحرمة طلب الآخرة بطلب الدنيا.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (136) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا

1 في هذه الآية إرشاد عظيم للعباد، لقد علم تعالى أن الإنسان بحكم وجوده في هذه الحياة ورغبته في السعادة فيها، هو يعمل لها جهده غافلاً عن الحياة الآخرة التي هي أعظم لبقائها وكبر شأنها، فلفت نظره إليها معلماً إياه أنه لديه تعالى ثواب كل من الحياتين، فليطلب ذلك منه بالإيمان به، وطاعته كما طلب الدنيا بالأعمال الموصلة إلى تحقيق السعادة فيها، وفوق ذلك أن ثواب العاملين بديه تعالى لا بيد غيره.

2 هذا التذييل يربي ملكة مراقبة الله تعالى، إذ من علم أن الله سميع لأقواله عليم بأعماله. راقبه واتقاه.

(1/554)

ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137){
شرح الكلمات:

{قَوَامِينَ} : جمع قوام: وهو كثير القيام بالعدل.

{بِالْقِسْطِ} : بالعدل وهو الاستقامة والتسوية بين الخصوم.

{شُهَدَاءَ} : جمع شهيد: بمعنى شاهد.

{الهُوَى} : ميل النفس إلى الشيء ورغبتها فيه.

{تَلَوُوا} : أي: ألسنتكم باللفظ تحريفاً له حتى لا تتم الشهادة على وجهها.

{تُعْرَضُوا} : تتركوا الشهادة أو بعض كلماتها ليبطل الحكم.

معنى الآيات:

قوله تعالى في هذه الآية(135): {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ} أي: بالعدل {شُهَدَاءَ لِلَّهِ}

إذ بشهادتكم ينتقل الحق من شخص إلى آخر حيث أقامكم الله ريكماً شهداء له في الأرض تؤدي

بواسطة حقوق إلى أهلها، وبناء على هذا فأقيموا الشهادة لله ولو شهادتكم على أنفسكم¹ أو

والديكم أو أقرب الناس إليكم وسواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلا يحملنكم غنى الغنى ولا فقر

الفقر على تحريف الشهادة أو كتمانها، فالله تعالى ربهما أولى بهما وهو يعطي ويمنع بشهادتكم

فأقيموها وحسبكم ذلك واعلموا أنكم إن تلوا² ألسنتكم بالشهادة تحريفاً لها وخروجاً بها عن أداء ما

يترتب عليها أو تعرضوا عنها فتركوها أو تتركوا بعض كلماتها فيفسد معناها ويبطل مفعولها فإن الله

بعملكم ذلك وبغيره خبير وسوف يجزيكم به فيعاقبكم في الدنيا أو في الآخرة ألا فاحذروا.

هذه الآية الكريمة يدخل فيها دخولاً أولاً من شهدوا لأبناء أبيرق بالإسلام والصلاح كما هي

1 القاعدة العامة منذ عهد بعيد: أن القريب لا يشهد لقريبه، ولكن يشهد عليه. فلا يشهد الأب لابنه،

ولا الابن لأبيه، لوجود تهمة المحاباة للقرباة، وكذا لا يجوز شهادة على عدوه، وهذا مذهب عامة

الفقهاء، وحتى الخادم في البيت لا يجوز شهادته لأهل البيت، إذ قد يحابيهم لمنفعتهم.

2 وفسر ابن عباس: {تلوا} بقوله: هو في الخصمين يجلسان بين يدي القاضي فيكون لي القاضي

وإعراضه لأحدهما على الآخر، فلي على هذا هو مطل الكلام وجره حتى يفوت فصل القضاء

وإنفاذه للذي يميل القاضي عليه، ويشهد لهذا الحديث: "لي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته". ولا تنافي بين تفسير ابن عباس وما ذكرناه في التفسير.

(1/555)

خطاب للمؤمنين إلى يوم القيامة وهي أعظم آية في هذا الباب فليتق الله المؤمنون في شهاداتهم. أما الآية الثانية(136): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ فهي في خطاب أهل الكتاب خاصة وفي سائر المؤمنين عامة، فالمؤمنون تدعوهم إلى تقوية إيمانهم ليلبغوا فيه مستوى اليقين، أما أهل الكتاب فهي دعوة لهم للإيمان الصحيح، لأن إيمانهم الذي هم عليه غير سليم، فلذا دعوا إلى الإيمان الصحيح فقيل لهم: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهو القرآن الكريم، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو التوراة والإنجيل، لأن اليهود لا يؤمنون بالإنجيل، ثم أخبرهم محذراً لهم أن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ طَرِيقَ الْهَدْيِ وَالسَّعَادَةِ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لا ترجى هدايته، وعليه فسوف يهلك ويخسر خسراناً أبدياً. ثم أخبرهم تعالى في الآية بعد هذه(137) مقررًا الحكم بالخسران الذي تضمنته الآية قبلها فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ 1 بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكتابه وبما جاء به ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ﴾ أي: لم يكن في سنة الله أن يغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ينجون به ويسعدون فيه إلا فليحذر اليهود والنصارى هذا وليذكروه، وإلا فالخلود في نار جهنم لازم لهم ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب العدل في القضاء والشهادة.
- 2- حرمة شهادة الزور وحرمة التخلي 2 عن الشهادة لمن تعينت عليه.
- 3- وجوب الاستمرار على الإيمان وتقويته حتى الموت عليه.
- 4- بيان أركان الإيمان وهي الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر 3.

1 في هذه الآية: أن الكافر إذا آمن غفر له كفره، وإذا ارتد يؤخذ بكفره الأول والأخير سواء. وشاهده حديث مسلم: إذ قال أناس: يا رسول الله أتأخذنا بما عملنا في الجاهلية. قال: "أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤخذ بها، ومن أساء -كفر- أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام". وفي رواية: "ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والأخير".

2 شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر" قلنا بلى يا

رسول الله. قال: "الشرك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، وقال: "ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور" وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. أو كما قال.

3 وبقي ركن: وهو القضاء والقدر، جاء ذكره في قوله تعالى من سورة القمر: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} .

(1/556)

5- المرتد يستتاب ثلاثة أيام وإلا قتل كفراً أخذاً من قوله: {ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} .
{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَّتَهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً} (139) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً} (140) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} (141)

شرح الكلمات:

{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ}: البشارة: الخير الذي تتأثر به بشرة من يلقي عليه خيراً كان أو شراً. والمنافق: من يبطن الكفر ويظهر الإيمان تقيةً ليحفظ دمه وماله.
{أَوْلِيَاءَ}: يوالونهم محبةً ونصرةً لهم على المؤمنين.
{الْعِزَّةُ}: الغلبة والمنعة.
{وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا}: يذكونها استخفافاً بها وإنكاراً وجحوداً لها.
{يَخُوضُوا}: يتكلموا في موضوع آخر من موضوعات الكلام.
{مِثْلُهُمْ}: أي: في الكفر والإثم.
{يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ}: ينتظرون متى يحصل لكم انهزام أو إنكسار: فيعلنون عن كفرهم.
{نَصِيبٌ}: أي: من النصر وعبر عنه بالنصيب القليل لأن انتصارهم على المؤمنين نادر.

(1/557)

{نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ}: أي: نستول عليكم ونمنعكم من المؤمنين إن قاتلوكم.
{سَبِيلاً}: أي: طريقاً إلى إزلالهم واستعبادهم والتسلط عليهم.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر المنافقين بلفظ البشارة؛ لأن المخبر به يسوء وجوههم وهو العذاب الأليم، وقد يكون في الدنيا بالذل والمهانة والقتل، وأما في الآخرة فهو أسوأ العذاب وأشدّه، وهو لازم لهم لخبث نفوسهم وظلمة أرواحهم، ثم وصفهم تعالى بأخس صفاتهم وشرها فقال: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ 1 مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} فيعطون محبتهم ونصرتهم وولاءهم للكافرين ويمنعون ذلك المؤمنين وذلك لأن قلوبهم كافرة آثمة لم يدخلها إيمان ولم يُنرّها عمل الإسلام، ثم وبخهم تعالى ناعياً عليهم جهلهم فقال: {أَبْيَتْنَاهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ} أي: يطلبون العزة، أي: المنعة والغلبة من الكافرين أجهلوا أم عموا فلم يعرفوا أن {الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} فمن أعزه الله عز ومن أذله ذل، والعزة تطلب الإيمان وصالح الأعمال لا بالكفر والنشر والفساد. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (138) والثانية (139).

أما الآية الرابعة (140) فإن الله تعالى يؤدّب المؤمنين فيذكرهم بما أنزل عليهم في سورة الأنعام حيث نهاهم عن مجالسة أهل الباطل إذا خاضوا في الطعن في آيات الله ودينه فقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} هذا الأدب أخذ الله تعالى به رسوله والمؤمنين، وهم في مكة قبل الهجرة لأن سورة الأنعام مكية ولما هاجروا إلى المدينة، وبدأ النفاق وأصبح للمنافقين مجالس خاصة ينتقدون فيها المؤمنين ويخوضون فيها في آيات الله تعالى واستهزاء وسخرية ذكر الله تعالى المؤمنين بما أنزل عليهم في مكة فقال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ 3 حَتَّى

- 1 في الآية دليل على حرمة موالاته الكافرين وأنها من صفات المنافقين، ومن مظاهر الموالاته المحرمة الاستعانة بهم على أمور الدين وعلى أذية المسلمين. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لحق به مشرك ليقاتل معه، فقال له: "ارجع فإننا لا نستعين بمشرك". في الصحيح.
- 2 أوقع السماع على الآيات، والمراد سماع الكفر، والاستهزاء بها، كما يقال: سمعت فلاناً يلام، أي: سمعت اللوم فيه.
- 3 قوله: {في حديث غيره} أي: في غير الكفر والاستهزاء بالآيات.

(1/558)

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا} أي: إذا رضيتم بالجلوس معهم، وهم يخوضون في آيات الله {مِثْلَهُمْ} في الإثم والجريمة 1، والجزاء أيضاً، {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} فهل

ترضون أن تكونوا معهم في جهنم، وإن قلتم لا إذا فلا تجالسوهم. ثم ذكر تعالى وصفاً آخر للمنافقين يحمل التفسير منهم والكراهية والبغض لهم فقال: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ} أي: ينتظرون بكم الدوائر ويتحينون الفرص {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ} أي: نصر وغنيمة قالوا: {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} فأشركونا في الغنيمة، {وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ} في النصر، قالوا لهم: {أَلَمْ نَسْتَحْوِذْكُمْ} أي: نستول عليكم {وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} أن يقاتلوكم، فأعطونا مما غنمتم، وهكذا المنافقون يمسكون العصا من الوسط، فأبي جانب غلب كانوا معه. ألا لعنة الله على المنافقين وما على المؤمنين إلا الصبر لأن مشكلة المنافقين عويصة الحل، فالله يحكم بينهم يوم القيامة. أما الكافرون الظاهرون فلن يجعل الله تعالى لهم على المؤمنين سبيلاً لا لاستئصالهم وإبادتهم، ولا لاذلالهم والتسلط عليهم ما داموا مؤمنين صادقين في إيمانهم³. وهذا ما ختم الله تعالى به الآية الكريمة إذ قال: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.
- 2- الباعث للناس على اتخاذ الكافرين أولياء هو الرغبة في العزة ورفع المذلة وهذا باطل، فالعزة لله ولا تطلب إلا منه تعالى بالإيمان واتباع منهجه.
- 3- حرمة مجالسة أهل الباطل إذا كانوا يخوضون في آيات الله نقداً واستهزاء وسخرية.
- 4- الرضا بالكفر كفر، والرضا بالإثم إثم.
- 5- تكفل الله تعالى بعزة المؤمنين الصادقين ومنعتهم فلا يسلط عليهم أعداءه

1 في الآية دليل على حرمة الجلوس في مجالس المعاصي وغشيان الذنوب إلى أن ينكر ذلك على أصحابها؛ لأن الرضا بالمعصية معيضية، بل الرضا بالكفر كفر بالإجماع. ويدخل في هذا مجالس أرباب الأهواء وأصحاب البدع، والآية محكمة لا نسخ فيها.

2 أصل الاستحواذ: الحوط، يقال: حاذه يحذه حوذاً، إذ أحاطه، فمعنى: استحوذ: أحاط واستولى وغلب.

3 يشهد لهذا حديث مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: "إني سألت ربي ألا يهلكها -أي: أمته- بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً" . وهو معنى قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ} .

فيستأصلونهم، أو يذلونهم ويتحكمون فيهم.

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)}{

شرح الكلمات:

{يُخَادِعُونَ اللَّهَ}: بإظهارهم ما يحب وهو الإيمان والطاعات، وإخفائهم الكفر والمعاصي.

{وَهُوَ خَادِعُهُمْ}: بالستر عليهم وعدم فضيحتهم، وعدم إنزال العقوبة بهم.

{يُرَاؤُونَ}: أي: يظهرن الطاعات للمؤمنين كأنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين.

{مُدْبِئِينَ}: أي: يترددون بين المؤمنين والكافرين فأبي جانب عز كانوا معه.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى أن المنافقين في سلوكهم الخاص يخادعون الله تعالى بإظهارهم الإيمان به وبرسوله وهم غير مؤمنين إذ الخداع أن تري من تخادعه ما يحبه منك وتستر عليه ما يكرهه والله تعالى عاملهم بالمثل فهو تعالى أراهم ما يحبونه وستر عليهم ما يكرهونه منه وهو العذاب 1 المعد لهم عاجلاً أو آجلاً، كما أخبر تعالى إذا قاموا إلى أداء الصلاة قاموا كسالى 2 متباطئين؛ لأنهم لا يؤمنون بالثواب الأخروي، فلذا هم يراعون بالأعمال الصالحة المؤمنين حتى لا يتهمونهم بالكفر، كما أنهم لا يذكرون الله تعالى إلا ذكراً قليلاً في الصلاة 3 وخارج الصلاة،

1 قال الحسن البصري في الآية: يعطي كل إنسان من مؤمن ومنافق نوراً يوم القيامة، فيفرح

المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا فإذا جاءوا إلى السراط طفاً نور كل منافق. فسر به قوله تعالى:

{وَهُوَ خَادِعُهُمْ} ، وما ذكرناه في التفسير أولى، وإن كان هذا حاصل لقوله تعالى: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} .

2 شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة -

العشاء - والصبح" ؛ لأن الصلاة تقعان في الظلام، ولأن العتمة يكون المرء فيها تعباً مرهقاً من

أعمال النهار، وأما الصبح فإن غلبة النوم أشد على العبد، ولولا الخوف من السيف ما شاهدوا

الصلاتين.

3 روى مالك في الموطأ: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تلك صلاة المنافقين - ثلاثاً - يجلس

أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان أو على قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر

الله فيها إلا قليلاً". وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع

والسجود". صححه الترمذي.

وذلك لعدم إيمانهم بالله تعالى وعدم حبههم له كما أخبر عنهم بأنهم مذبذبون بين الكفر والإيمان والمؤمنين والكافرين فلا إلى الإيمان والمؤمنين يسكنون، ولا إلى الكفر والمنافقين يسكنون فهم في تردد وحسرة دائمون، وهذه حال من يضلله الله فإن من يضل الله لا يوجد لهدايته سبيل.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان صفات المنافقين.
- 2- قبح الرياء وذنم المرأئين.
- 3- ذم ترك الذكر والتقليل منه لأمر الله تعالى بالإكثار منه في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ .

4- ذم الحيرة والتردد في الأمور كلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (144) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)﴾

شرح الكلمات:

﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ : حجة واضحة لتعذيبكم.

1 وفي صحيح مسلم وصف بحال المنافقين في تذبذبهم وحيرتهم، إذ قال صلى الله عليه وسلم: "مثل المنافق؛ كمثل الشاة العائرة -المتردة بين قطيعين من الغنم- بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى".

﴿الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ﴾ : الدرك: كالتطابق، والدركة كالدرجة.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ : ما كانوا قد أفسدوه من العقائد والأعمال.

﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ : تمسكوا بدينه وتوكلوا عليه.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ : تخلوا عن النفاق والشرك.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في إرشاد الله تعالى المؤمنين إلى ما يعزهم ويكملهم ويسعدهم ففي هذه الآية (144) يناديهم تعالى بعنوان الإيمان، وهو الروح الذي به الحياة وينهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} ومعنى اتخاذهم أولياء موادتهم ومناصرتهم والثقة فيهم والركون إليهم والتعاون معهم، ولما كان الأمر ذا خطورة كاملة عليهم هددهم تعالى بقوله: {أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} فيتخلى عنكم ويسلط عليكم أعداءه الكافرين فيستأصلوكم، أو يقهروكم ويستذلوكم ويتحكموا فيكم. ثم حذرهم من النفاق أن يتسرب إلى قلوبهم فأسمعهم حكمه العادل في المنافقين الذين هم رؤوس الفتنة بينهم فقال: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} ، فأسفل طبقة في جهنم هي مأوى المنافقين يوم القيامة، ولن يوجد لهم ولي ولا نصير أبداً ثم رحمة بعباده تبارك وتعالى يفتح باب التوبة للمنافقين على مصراعيه ويقول لهم: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} إلى ربهم فأمنوا به وبرسوله حق الإيمان {وَأَصْلَحُوا} أعمالهم {وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ} ونفصوا أيديهم من أيدي الكافرين، {وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ} فلم يبقوا يراعون أحداً بأعمالهم. فأولئك الذين ارتفعوا إلى هذا المستوى من الكمال هم مع المؤمنين جزاؤهم واحد، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً وهو كرامة الدنيا وسعادة الآخرة.

- 1 قال القرطبي في تفسيره: {سلطاناً مبيناً} أي: في تعذيبه إياكم وإقامة الحجة عليكم إذ قد نهاكم.
- 2 الدرك بالإسكان والفتح، والنار سبع دركات، يقال فيمن تعالى وارتفع: درجة، وفيما سفلى ونزل: دركة. والدركات: هي كالتالي: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى جميعها باسم الطبقة الأولى: جهنم.
- 3 روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون تصديق ذلك في كتاب الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} ، وقال في أصحاب المائدة: {قَائِلِي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} ، وقال في آل فرعون: {ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

(1/562)

وأخيراً في الآية (147) يقرر تعالى غناه عن خلقه وتنتزه عن الرغبة في حب الانتقام فإن عبده مهما جنى وأساء، وكفر وظلم إذا تاب وأصلح فأمن وشكر. لا يعذبه أدنى عذاب إذا لا حاجة إلى تعذيب عباده فقال عز وجل هو يخاطب عباده {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} لا يضيع المعروف عنده. لقد شكر لبغي 1 سفيهاً كلباً عطشان فغفر لها وأدخلها الجنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.
- 2- إذا عصى المؤمنون ربهم فاتخذوا الكافرين أولياء سلب الله عليهم أعداءهم فساموهم الخسف.
- 3- التوبة تجب ما قبلها حتى إن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له ومهما كان الذنب الذي غشيه.
- 4- لا يعذب الله تعالى المؤمن الشاكر لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالإيمان والشكر أمان للإنسان.

1 هذا مقتبس من حديث الصحيحين، ونصه: روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ مثل الذي بلغ بي، فمأأخفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له" والشاهد في فضل الشكر والإيمان.

(1/563)

الجزء السادس

{لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً} (148) {إِنْ تُبَدُّوا خَيْراً أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} (149)

شرح الكلمات:

{بِالسُّوءِ} 1: ما يسوء إلى من قيل فيه أو فعل به.

{سَمِيعاً عَلِيماً}: سمياً للأقوال عليماً بالأعمال.

{إِنْ تُبَدُّوا}: تظهروا ولا تخفوا.

{تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ}: أي: لا تؤاخذوا به.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء، ولأزم هذا أن عباده المؤمنين يجب أن يكرهوا ما يكره ربهم ويحبوا ما يحب وهذا شرط الولاية وهي الموافقة وعدم المخالفة، ولما حرم تعالى على عباده الجهر بالسوء بأبلغ عبارة وأجمل أسلوب، استثنى المظلوم فإن له أن يجهر 2 بمظلمته لدى الحاكم ليرفع عنه الظلم فقال تعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ -وما زال- سَمِيعاً عَلِيماً} ألا فليتنق فلا يعصى بفعل السوء ولا بقوله. ثم انتدب عباده المؤمنين إلى فعل الخير في السر أو العلن، وإلى العفو عن صاحب السوء فقال: {إِنْ تُبَدُّوا خَيْراً أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} فسيكسب فاعل الخير خيراً أبداً أو أخفاه وسيعفو عن صاحب العفو حينما

تزل قدمه فيجني بيده أو بلسانه ما يستوجب به المؤاخذه فيشكر الله تعالى له عفوه السابق فيعفو عنه
{كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا} .

- 1 كاللسب والشتم والغيبة والنميمة، والدعاء بالشر، وألفاظ البذاءة وكلمات الفحش.
- 2 روى ابن جرير عن مجاهد أن رجلاً استضاف قومًا، فلم يضيفوه، أي: طلب منهم أن يطعموه فاشتكاهم فعوتب عليه، فنزلت هذه الآية: { لَا يُحِبُّ... } إلخ. ودلت على إن إطعام الضيف وإيواءه ليلة واجب، لقوله صلى الله عليه وسلم: "ليلة الضيف واجبة". رواه أحمد.
- 3 {مِنَ الْقَوْلِ} في محل نصب على الحال.
- 4 في الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم ممن ظلمه، وجواز رد الشتم والسب بمثله إلا أن ترك ذلك أفضل.
- 5 شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، ومن تواضع لله رفعه" .

(1/564)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة الجهر بالسوء والسر به كذلك فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن ينطق بما يسوء إلى القلوب والنفوس إلا في حالة الشكوى وإظهار الظلم لا غير.
- 2- استحباب فعل الخير وسره كجهره لا ينقص أجره بالجهر ولا يزيد بالسر.
- 3- استحباب العفو عن المؤمن إذا بدا منه سوء، ومن يعف الله عنه.
{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا(150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا(151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(152)}

شرح الكلمات:

{وَرُسُلِهِ} : الرسل: جمع رسول وهم جم غفير، قيل: عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رسولاً.
{سَبِيلًا} : أي: طريقاً بين الكفر والإيمان، وليس ثم إلا طريق واحد وهو الإيمان أو الكفر فمن آمن بكل الرسل فهو المؤمن، ومن آمن ببعض وكفر بالبعض فهو الكافر كمن لم يؤمن بأحد منهم.

1 المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها ينظر إليها من حيث أن القرآن كتاب هداية للبشرية، فلذا لما ذكر حال المنافقين مبيناً لهم طريق توبتهم إن أرادوا ذلك ذكر بعض بيان حكم حرمة النطق بالسوء سرّاً وجهراً إلا ما رخص فيه ذكر حال اليهود والنصارى مبيناً كفرهم، وما أعد لهم من العذاب إن أصروا على كفرهم وضلالهم.

2 جاء ذكر هذا العدد في حديث أبي ذر الغفاري، إذ قال فيه: "قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء، وكم كانوا المرسلون؟ قال: كانت الأنبياء مائة ألف نبي، وأربعة وعشرون ألف نبي. وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر". والحديث ضعيف. ولما لم يوجد غيره قال به أهل العلم قديماً وحديثاً.

(1/565)

{وَلَمْ يُفَرِّقُوا}: كما فرق اليهود فأمنوا بموسى وكفروا بعبسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وكما فرق النصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم فهم لذلك كفار. {أَجْرُهُمْ}: أجر إيمانهم برسول الله وعملهم الصالح، وهو الجنة دار النعيم. معنى الآيات:

يخبر تعالى مقررأً حكمه على اليهود والنصارى بالكفر الحق الذي لا مرية فيه، فيقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ} أي: بين الكفر بالبعض والإيمان بالبعض سبيلاً، أي: طريقاً يتوصلون به إلى مذهب باطل فاسد وهو التخير بين رسل الله فمن شاعوا الإيمان به آمنوا، ومن لم يشاعوا الإيمان به كفروا به ولم يؤمنوا وبهذا كفروا كفراً لا ريب فيه، ولهم بذلك العذاب المهين الذي يهانون به ويدلون جزاء كبريائهم وسوء فعالهم، قال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} 2 فسجل عليهم الكفر ثلاث مرات: فالمرّة الأولى بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}. والثانية: بقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}. والثالثة، بقوله: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} حيث لم يقل واعتدنا لهم فأظهر في موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم وللإشارة إلى علة الحكم، وهي الكفر. هذا ما تضمنته الآية الأولى (151)، أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا 3 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} فإنها مقابلة في ألفاظها ومدلولها للآية قبلها، فالأولى تضمنت الحكم بالكفر على اليهود والنصارى، وبالعذاب المهين لهم، والثانية تضمنت الحكم بإيمان المسلمين بالنعيم المقيم لهم وهو ما وعدهم به ربه بقوله: لهم ذنوبهم ورحمهم بأن أدخلهم دار كرامته في جملة أوليائه. {أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}. فغفر

1 نسبهم تعالى إلى الكفر به؛ لأن إيمانهم بالله تعالى باطل، وذلك أن اليهود يصفون الله تعالى

بصفات المحدثين، ونسبوا إليه الولد، وكثير من صفات تنزه الله عنها. وأن النصارى يكفهم كفرًا قولهم: أن الله ثالث ثلاثة وهو الكفر بعينه، حسبهم بعد ذلك كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به.

2 توعدوا بالعذاب المهين مقابل ما كانوا يرتكبونه من إهانة المؤمنين وإذلالهم، والجزاء من جنس العمل: و {حقًا} في الآية: منصوب على المصدرية، أي: حقه لهم أيها السامع حقًا.
3 هذا أسلوب القرآن الكريم، فإنه بعد أن ذكر الكافرين حقًا، وبين جزاءهم ذكر المؤمنين حقًا وبين جزاءهم، وهذا أسلوب الترغيب والترهيب الذي عليه مدار الهداية والإصلاح بإذن الله تعالى.

(1/566)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- تقرير كفر اليهود والنصارى لفساد عقيدتهم وبطلان أعمالهم.
 - 2- كفر من كذب بالله ورسوله ولو في شيء واحد مما وجب الإيمان به.
 - 3- بطلان إيمان من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض.
 - 4- صحة الدين الإسلامي وبطلان اليهودية 1 والنصرانية حيث أوعد تعالى اليهود والنصارى بالعذاب المهين، ووعد المؤمنين بتوفية أجورهم والمغفرة والرحمة لهم.
- {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ حَبِّ بَدْرٍ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154)}

شرح الكلمات:

- {جَهْرَةً} : عياناً نشاهده ونراه بأبصارنا.
{الصَّاعِقَةُ} : صوت حاد ورجفة عنيفة صعقوا بها.
{بِظُلْمِهِمْ} : بسبب ظلمهم بطلبهم ما لا ينبغي.
{اتَّخَذُوا الْعِجْلَ} : أي: إليها فعبدوه.
{فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ} : أي: لم يؤاخذهم به.
{سُلْطَانًا مُبِينًا} : حجة واضحة وقدرة كاملة قهر بها أعداءه.

1 وسائر الأديان؛ كالمجوسية والصابئة وغيرهما من سائر الملل والنحل، إذا لا دين حق إلا الإسلام. قال الإسلام تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} .

(1/567)

{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ} : أي: جبل الطور بسيناء.

{ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} : أي: راكعون متواضعين خاشعين لله شكراً لنعمه عليهم.

{لا تَعْدُوا1} : لا تعتدوا، أي: لا تتجاوزوا ما حد لكم فيه من ترك العمل إلى العمل فيه.

{مِيثَاقًا غَلِيظًا} : عهداً مؤكداً بالآيمان.

معنى الآيتين:

لما نعى الرب تعالى على أهل الكتاب قولهم نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض حيث آمن اليهود بموسى وكفروا بعبسى وآمن النصارى بعبسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما كفر به اليهود أيضاً ذكر تعالى لرسوله أن اليهود إذا سألك أن تنزل عليهم 2 كتاباً من السماء فلا تعجب من قولهم، ولا تحفل به إذ هذه سننهم وهذا دأبهم، فإنهم قد سألو موسى قبلك أعظم من هذا، فقالوا له: أرنا الله جهرة، فأغضبوا الله تعالى، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون واتخذوا العجل إلهاً يعبدونه في غياب موسى عليهم، وكان ذلك منهم بعد مشاهداتهم البيئات حيث فلق الله لهم البحر وأنجاهم وأغرق عدوهم ومع هذا فقد عفا الله عنهم، وآتى نبيهم سلطاناً مبيناً، ولم يؤثر ذلك في طباعهم هذا ما تضمنته الآية الأولى (153) وهي قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً3 فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ4 ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ5 مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} . أما الآية الثانية (154) فقد أخبر تعالى أنه رفع فوقهم الطور تهديداً لهم ووعيداً وذلك ما امتنعوا أن يتعهدوا بالعمل بما في التوراة، فلما رفع الجبل فوقهم خافوا فتعهدوا معطين بذلك ميثاقاً غير أنهم نقضوه كما سيأتي الإخبار بذلك. هذا

1 قرأ ورش: {لا تعدوا} بتشديد الدال وهو إدغام التاء في الدال لتقاربهما في المخرج، والأصل: لا تعدتوا من الاعتداء الذي هو العدوان.

2 ذكر القرطبي بغير إسناد أن اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يصعد إلى السماء وهم يرونه، فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالألواح تعنتاً منهم فأنزل الله تعالى الآية.

3 {جَهْرَةً} نعت لمصدر محذوف تقديره: رؤية جهرة، ويصح أن يكون حالا، أي: مجاهرة بلا حجاب

ساتر .

4 {يُظْلَمُهُمْ} : الباء سببية، أي: سبب ظلمهم، وليس المراد من ظلمهم طلب رؤية الله تعالى. إذ هذا طلبه موسى أيضاً، ولكن ظلمهم: كونهم اشتروا لإيمانهم بموسى حتى يريهم الله جهرة.
5 العطف بثم هنا: هو للتراخي الرتبي لا لإفادة الترتيب الزمني، إذ اتخاذهم العجل كان قبل طلبهم رؤية الله جهرة، إذ المراد من البيئات التي جاءتهم انفلاق البحر، وقبله آية العصا، وغيرها من التسع آيات التي أتى الله موسى عليه السلام.

(568/1)

معنى قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ} ، وقوله تعالى: {وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} كان هذا عندما دخل يوشع بن نون فتى موسى مدينة القدس فاتحاً أوحى الله تعالى إليه أن يأمر بني إسرائيل أن يدخلوا باب المدينة خاضعين متطامنين شكراً لله تعالى على نعمة الفتح فبدل أن يطيعوا ويدخلوا الباب راكعين متطامنين دخلوه زحفاً على استاهم مكرراً وعناداً والعياذ بالله. وقوله: {وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} أي: ونهيناهم عن الصيد في السبت فتعدوا نهينا وصادوا عصياناً وتمرداً، وقوله تعالى: {وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} أي: على أن يعملوا بما شرعنا لهم تحليلاً وتحريماً في التوراة، ومع هذا فقد عصوا وتمردوا وفسقوا، إذاً فلا غرابة في سؤالهم إياك على رسالتك وليؤمنوا بك أ تنزل عليهم كتاباً من السماء. هذا معنى قوله تعالى في الآية (154) {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ} وقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} أي: لا تتجاوزوا ما أحللنا لكم إلى ما حرمنا عليكم {وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} 1.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

- 1- تعنت أهل الكتاب إزاء الدعوة الإسلامية وكفرهم بها على علم إنها دعوة حق.
- 2- بيان قبائح اليهود وخبثهم الملازم لهم طوال حياتهم.
- 3- نفص اليهود للعهد والمواثيق أصبح طبعاً لهم لا يفارقهم أبداً، ولذا وجب عدم الثقة في عهودهم ومواثيقهم.

{فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعِيرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} (155) وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ

1 كل ما ذكر في هذه الآيات هو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتخفيفاً على نفسه، مما يلاقي من تعنت اليهود، وصلفهم، وقساوة قلوبهم ومعاملاتهم.

(1/569)

اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَئِي شَكُّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا (159)

شرح الكلمات:

{قِيمًا نَقَضِهِمْ}: الباء سببية: أي: فبسبب نقضهم ميثاقهم، والنقض: الحل بعد الإبرام.

{بِعَيْرِ حَقٍّ}: أي: بدون موجب لقتلهم، ولا موجب لقتل الأنبياء قط.

{عُفٌّ 1}: جمع عُفٍّ، وهو ما عليه غلاف يمنع من وصول المعرفة والعلم إليه.

{بُهْتَانًا عَظِيمًا}: البهتان: الكذب الذي يحير من قبل فيه، والمراد هنا رميهم لها بالزنى.

{وَمَا صَلَّبُوهُ}: أي: لم يصلبوه، والصلب شدة على خشبة وقتله عليها.

{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}: أي: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن عند حضور الموت أن عيسى

عبد الله ورسوله فما هو ابن زنى ولا ساحر كما يقول اليهود، ولا هو الله ولا ابن الله كما يقول

النصارى.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن اليهود وبيان الجرائم التي كانت سبباً في لعنهم وذلمهم، وغضب الله تعالى عليهم، وهذا تعداد تلك الجرائم الواردة في الآيات الثلاث الأولى في هذا السياق وهي: (155-156-157).

1 {عُفٌّ}: قد يكون جمع عُفٍّ، ومعناه حينئذ: أن قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة بهم إلى علم سوى ما عندهم ولا منافاة بين المعنيين في النهر وأيسر التفاسير.

(1/570)

1- نقضهم العهود والمواثيق وخاصة عهدهم بالعمل بها في التوراة.

2- كفرهم بآيات الله والمنزلة على عبد الله عيسى ورسوله والمنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم.

- 3- قتلهم الأنبياء؛ كزكريا ويحي وغيرهم وهو كثير في عهود متباينة.
- 4- قولهم قلوبنا غلف حتى لا يقبلوا دعوة الإسلام، وما أراد الرسول إعلامهم به وكذبهم الله تعالى في هذه الدعوى، وأخبر أن لا أعطية على قلوبهم، ولكن طبع الله تعالى عليها بسبب ذنوبهم فران عليها الران فمنعها من قبول الحق اعتقاداً وقولاً وعملاً، هذا ما تضمنته الآية الأولى، وهي قوله تعالى: {قَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} والباء سببية والميم صلة والأصل، فبنقضهم، أي: بسبب نقضهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم. {قَلَّا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أي: إيماناً قليلاً؛ كإيمانهم بموسى وهارون والتوراة والزيور مثلاً.
- 5- كفرهم: أي: بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أيضاً.
- 6- قولهم على مريم بهتاناً عظيماً¹ حيث رموها بالفاحشة، وقالوا عيسى ابن مريم ابن زنى لعنهم الله.

7- قولهم متبجحين متفاخرين أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو رسول الله، وأكذبهم الله تعالى في ذلك بقوله: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} أي: برجل آخر ظنوه أنه هو فصلبوه وقتلوه، وأما المسيح فقد رفعه الله تعالى إليه وهو عنده في السماء كما قال تعالى في الآية (158) {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} أي: غالباً على أمره حكيماً في فعله وتدبيره.

وأما قوله تعالى: {وَرَأَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ لَبِي شَكٌّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} ، هذا إخبار من الله تعالى بحقيقة أخرى وهي أن الذين طوقوا منزل المسيح وهجموا عليه ليلقوا عليه القبض من أجل أن يقتلوه هؤلاء اختلفوا² في هل الرجل الذي ألقى عليه شبه عيسى هو عيسى أو غيره إنهم لم يجزموا أبداً بأن من ألقوا عليه القبض وأخرجوه فصلبوه وقتلوه هو المسيح عليه السلام، ولذا قال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ

- 1 البهتان العظيم الذي قالوه على مريم، هو: رميهم لها بالزنى مع يوسف النجار، وهو عبد صالح.
- 2 ذكر القرطبي للاختلاف عدة وجوه، كلها سائغة، وما ذكرناه في التفسير أولى، من بين الوجوه قولهم: إن كان صاحبنا فأين عيسى؟ وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟.
- 3 ما زال الخلاف قائماً إلى اليوم، فالجمهور منهم يقولون: صلب عيسى وقتل وبعد ثلاثة أيام رفع. وخلاف الجمهور يقولون: لم يصلب عيسى ولم يقتل.

(1/571)

{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}1.

أما الآية الأخيرة في هذا السياق(159) فإن الله تعالى أخبر أنه ما من يهودي ولا نصراني يحضره

الموت ويكون في انقطاع عن الدنيا إلا آمن بأن عيسى عبد الله ورسوله، وليس هو ابن زنى ولا ساحر كما يعتقد اليهود، ولا هو الله ولا ابن الله كما يعتقد النصارى، ولكن هذا الإيمان لا نيفع صاحبه لأن حصل عند معاينة الموت قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} هذا ما دلت عليه الآية الكريمة: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} أي: يشهد على كفرهم به وبما جاءهم به، ووصاهم عليه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ودين الحق الذي جاء به.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان جرائم اليهود.

2- بطلان اعتقاد النصارى في أن عيسى صلب وقتل، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى فهم

مؤاخذون على قصدهم حيث صلبوا وقتلوا من ظنوه أنه عيسى عليه السلام.

3- تقرير رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله في آخر أيام الدنيا.

4- الإيمان؛ كالتوبة عند معاينة ملك الموت لا تنفع ولا تقبل وجودها كعدمها.

{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} (160) وَأَخَذَهُمُ

الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (161) لَكِنَّ

الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

1 عزة الله يتنافى معها تسلط اليهود على عبده ورسوله عيسى وقتلهم له وحكمته تتجلى في رفعه

إليه وإنزاله آخر أيام الدنيا.

(1/572)

أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} (162)

شرح الكلمات:

{فَبِظُلْمٍ}: الباء سببية، أي: فبسبب ظلمهم.

{هَادُوا}: اليهود إذ قالوا: أنا هدنا إليك.

{طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}: هي كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم.

{وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا}: قبوله والتعامل به وأكله.

{الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}: أصحاب القدم الثابتة في معرفة الله وشرائعه ممن علومهم راسخة في نفوسهم

ليست لنيات بل هي يقينات.

معنى الآيات:

ما زال السياق في اليهود من أهل الكتاب يبين جرائمهم ويكشف الستار عن عظام ذنوبهم، ففي الآية الأولى (160) سجل عليهم الظلم العظيم والذي به استوجبوا عقاب الله تعالى حيث حرم عليهم طبيبات كثيرة كانت حلالاً لهم، كما سجل عليهم أقبح الجرائم، وهي صدهم أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله تعالى، وذلك بجحودهم الحق وتحريفهم كلام الله، وقبولهم الرشوة في إبطال الأحكام الشرعية. هذا ما تضمنته الآية الأولى، أما الثانية (161) فقد تضمنت تسجيل جرائم أخرى على اليهود وهي أولاً استباحتهم للربا وهو حرام، وقد نهوا عنه، وثانياً أكلهم أموال الناس بالباطل؛ كالرشوة والفتاوى الباطلة التي كانوا يأكلون بها. وأما قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ فهو زيادة على عاقبتهم به في الدنيا أعد لمن كفر منهم ومات على كفره عذاباً أليماً موجعاً يعذبون به يوم القيامة. وأما الآية الثالثة (162) فقد نزلت في عبد الله بن سلام وبعض العلماء من يهود المدينة فذكر تعالى؛ كالاستثناء من أولئك الموصوفين بأقبح الصفات وهي صفات جرائم

1 أورد القرطبي هنا سؤالاً وهو مع علمنا: أن اليهود يأكلون الربا والسحت وجميع ما حرم الله تعالى، فهل يجوز التعامل معهم؟ وأجاب بالجواز استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَالاً لَكُمْ﴾ ويتعامل الرسول صلى الله عليه وسلم معهم، فقد رهن درعه عند يهودي.

(1/573)

اكتسبوا، وعظام من الذنوب اقترفوها لجهلهم وعمى بصائرهم. إن الراسخين 1 في العلم الثابتين فيه الذين علومهم الشرعية يقينية لا ظنية هؤلاء شأنهم في النجاة من العذاب والفوز بالنعيم في دار السلام شأن المؤمنين من هذه الأمة يؤمنون بما أنزل إليك أيها الرسول وما أنزل من قبلك، وخاصة المقيمين 2 للصلاة، وكذا المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر هؤلاء جميعاً وعدهم الله تعالى بالأجر العظيم الذي لا يقادر قدره ولا يعرف كنهه فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾ .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- المعاصي تورث الحرمان من خير الدنيا والآخرة.

2- حرمة الصد عن الإسلام ولو بالسلوك الشائن والمعاملة الباطلة.

3- حرمة الربا وأنه موجب للعقوبة في الدنيا والآخرة .

4- حرمة أكل أموال الناس بالباطل؛ كالسرقة والغش والرشوة.

5- من أهل الكتاب صلحاء ربايون وذلك؛ كعبد الله بن سلام وآخرين.

6- الرسوخ في العلم يأمن صاحبه الزلات والوقوع في المهلكات.

7- فضل إقام الصلاة لنصب والمقيمي الصلاة في الآية على المدح والتخصيص.

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (163)} وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ

1 روي أنه لما نزلت آية: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا} الآية. قالت يهود منكراً ما أخبر به تعالى عنهم: أن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل وأنت تحلها ولم تكن حرمت بظلمنا، فنزل: {لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} ، وهم: عبد الله بن سلام، وأخبار اليهود المسلمون.

2 قرأه الجمهور بنصب المقيمين على المدح، أي: وأمدح المقيمين، أو أعني المقيمين. والنصب على المدح جائز في كلام فصحاء العرب وبلغائهم، ومن ذلك قول شاعرهم: وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم ... إلا نمييراً أطاعت أمر غاويها

(1/574)

مَنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)}

شرح الكلمات:

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} : الوحي 2: الإعلام السريع الخفي، ووحى الله تعالى إلى أنبيائه: إعلامهم بما يريد أن يعلمهم به من أمور الدين وغيره.

{وَالْأَسْبَاطِ} : أولاد يعقوب عليه السلام.

{زَبُورًا} 3: الزبور: أحد الكتب الإلهية أنزله على نبيه داود عليه السلام.

{قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ} : ورد منهم في سورة الأنعام ثمانية عشر رسولاً وسبعة ذكروا في سور أخرى

وهم: محمد صلى الله عليه وسلم، وهو، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وإدريس، وآدم.

{حُجَّةٌ} : عذر يعتذر به إلى ربه عز وجل.

معنى الآيات:

روى أن اليهود لما سمعوا ما أنزل الله تعالى فيهم في الآية السابقة أنكروا أن يكون هذا وحياً، وقالوا

لم يوح الله تعالى إلى غير موسى فرد الله تعالى قولهم بقوله: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ 4

وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} فذكر عدداً من الأنبياء، ثم قال: ورسلاً، أي: وأرسلنا رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، أي: قص عليه أسماءهم وبعض 5 ما جرى لهم مع أممهم وهم

1 هذا التوقيت بأن تطلبه إنكار اليهود الوحي إلى نبينا صلى الله عليه وسلم كما تطلبه بهذا الخبر العظيم.

2 الوحي: مصدر وحى يحي وحيًا؛ كرمى يرمى رمياً إليه بكذا أعلمه، وأوحى يوحى إيحاء إليه بكذا أعلمه به بطريق خفي.

3 في قوله تعالى: {وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} وهي جملة معطوفة على جملة: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} إشارة إلى أن الزبور كتاب، وهو كذلك. إذ هو أحد الكتب الأربعة، ولو لم يرد ذلك لعطف اسمه على من سبقه فقط، كأن يقول: وهارن وسليمان وداود.

4 قدم نوح في الذكر باعتباره أول رسول حارب الشرك، إذ لم يظهر الشرك على عهد من سبقه؛ كإدريس وشيث من قبله، فلما ظهر الشرك أرسل الله تعالى نوحًا عليه السلام، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ، بن أخنوخ.

5 قوله: {قَصَصْنَاكَ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} يعني في القرآن الكريم، وهم: هود وصالح وشعيب ويحي والياس واليسع ولوط.

(1/575)

يبلغون دعوة ربهم، وأرسل رسلاً لم يقصصهم عليه، وفوق ذلك أنه كلم موسى تكليماً، فأسمعه كلاماً بلا واسطة، فكيف ينكر اليهود ذلك ويزعمون أنه ما أنزل الله على بشر من شيء، وقد أرسلهم تعالى رسلاً مبشرين من آمن وعمل صالحاً بالجنة، ومنذرين من كفر وأشرك وعمل سوء بالنار وما فعل ذلك إلا لقطع حجة الناس يوم القيامة حتى لا يقولوا ربنا ما أرسلت إلينا رسلاً هذا معنى قوله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} أي: بعد إرسالهم، {وَوَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا} غالباً لا يمانع في شيء أرادته {حَكِيمًا} في أفعاله وتدبيره، هذا بعض ما تضمنته الآيات الثلاث (163-164-165)، أما الآية الرابعة (166) وهي قوله تعالى: {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} .

فقد روي أن يهوداً جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأبلغهم أنه رسول الله صدقاً وحقاً ودعاهم إلى الإيمان وبما جاء به من الدين الحق فقالوا: من يشهد لك بالرسالة إذ كانت الأنبياء توجد في وقت واحد فيشهد بعضهم لبعض، وأنت من يشهد لك فأنزل الله تعالى قوله: {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} يريد إنزال الكتاب إليك شهادة منه لك بالنبوة والرسالة، أنزله بعلمه بأنك أهل للاصطفاء

والإرسال، وبكل ما تحتاج إليه البشرية في إكمالها وإسعادها، إذ حوى أعظم تشريع تعجز البشرية لو اجتمعت أن تأتي بمثله، أليس هذا كافياً في الشهادة لك بالنبوة والرسالة، بلى، والملائكة أيضاً يشهدون {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} فلا تطلب شهادة بعد شهادته تعالى لو كانوا يعقلون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير مبدأ الوحي الإلهي.

2- أول الرسل 2 نوح عليه السلام وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم.

1 توضيح هذا الاستدراك الذي هو رفع ما يتوهم ثبوته أو نفيه هو إذا رفض اليهود الشهادة لك بالرسالة وطالبوا من يشهد لك. فالله يشهد لك بما أنزله إليك، والملائكة يشهدون كذلك.
2 ذكر صاحب تفسير التحرير والتنوير: الإمام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى، عند تفسير هذه الآية تاريخ المذكورين من الرسل نقلاً عن أهل الكتاب قطعاً فلإطلاع لا غير. نذكر ذلك كما ذكره، وأما علم صحته فهو إلى الله تعالى لا غير: نوح عليه السلام ولد سنة 3974 قبل الهجرة النبوية. وإبراهيم توفى ببلدة الخليل سنة 2719 قبل الهجرة. وإسماعيل توفى بمكة سنة 2676 قبل الهجرة تقريباً. وإسحاق بن إبراهيم توفى سنة 2613 قبل الهجرة. ويعقوب إسرائيل توفى سنة 2586 قبل الهجرة. وعيسى بن مريم ولد سنة 622 قبل الهجرة، ورفع إلى السماء قبلها سنة 589. وأيوب كان بعد إبراهيم وقبل موسى في القرن الخامس عشر قبل المسيح. وهارون توفى سنة 1972 قبل الهجرة. وداود توفى سنة 1626 قبل الهجرة. وسليمان توفى سنة 1597 قبل الهجرة.

(1/576)

3- إثبات صفة الكلام لله تعالى.

4- بيان الحكمة في إرسال الرسل، وهي الحجّة على الناس يوم القيامة.

5- شهادة الرب تبارك وتعالى والملائكة بنبوة خاتم الأنبياء ورسالته صلى الله عليه وسلم.

6- ما حواه القرآن من تشريع وما ضمه بين دفتيه من معارف وعلوم أكبر شهادة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا(167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا(168) إِلَّا طَرِيقَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(169) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(170)}

شرح الكلمات:

{كَفَرُوا وَصَدُّوا}: كفروا: جحدوا بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم، وصدوا: صرفوا الناس عن الإيمان به صلى الله عليه وسلم بما يبذرون من بذور الشك.

{كَفَرُوا وَظَلَمُوا}: جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وظلموا ببقائهم على جحودهم بغياً منهم وحسداً للعرب أن يكون فيهم رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور.

{الرَّسُولُ}: هو محمد صلى الله عليه وسلم الكامل في رسالته الصادق في دعوته.

{فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ}: أي يكون إيمانكم خيراً لكم.

معنى الآيات:

بعد أن أقام الله تعالى الحجة على رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بشهادته له بالرسالة وشهادة ملائكته، وشهادة القرآن لما فيه من العلوم والمعارف الإلهية بعد هذا أخبر تعالى أن الذين

(1/577)

كفروا وصدوا عن سبيل الله وهم اليهود2 قد ضلوا ضلالاً بعيداً قد يتعذر معه الرجوع إلى الحق، وهذا ما تضمنته الآية الأولى(167) كما أخبر في الآية الثانية(168) أن الذين كفروا وظلموا هم أيضاً اليهود لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً، اللهم إلا طريق جهنم، وهذا قائم على سنته في خلقه وهي أن المرء إذا كفر كفر عناد وجحود وأضاف إلى الكفر الظلم لم يبق له أي استعداد لقبول الهداية الإلهية، لم يبق له من طريق يرجى له سلوكه إلا طريق جهنم يخلد فيها خلوداً أبدياً، وقوله تعالى: {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} في ختام الآية يقرر فيه أن دخول أصحاب هذه الصفات من اليهود جهنم وخلودهم فيها ليس بالأمر الصعب على الله المتعذر عليه فعله بل هو من السهل اليسير، أما الآية الأخيرة(170) فهي تتضمن إعلاناً إليها موجهاً إلى الناس كافة مشركين وأهل كتاب: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ}3 الكامل الخاتم جاءكم بالدين الحق من ربكم فأمنوا بخ خيراً لكم، وإن أبيتم وأعرضتم إثارة للشر على الخير والضلال على الهدى فاعلموا أن الله ما في السموات4 والأرض خلقاً وملاكاً وتصرفاً وسيجزيك بما اخترتم من الكفر والضلال جهنم وساءت مصيراً فإنه عليم بمن استجاب لندائه فأمن وأطاع، وبمن أعرض فكفر وعصى حكيم في وضع الجزاء في موضعه اللائق به. فلا يجزي المحسن بالسوء، ولا المسيء بالإحسان.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- شر الكفر ما كان مع الصد عن سبيل الله والظلم، وهذا كفر اليهود، العياذ بالله.

2- سنة الله تعالى في أن العبد إذا أبعد في الضلال، وتوغل في الشر والفساد يتعذر عليه التوبة

فيموت على ذلك ويهلك.

- 1 صدوا عن سبيل الله بقولهم: إنا لا نجد صفة محمد في كتابنا وإنما النبوة في ولد هارون وداود، وأن في التوراة أن شرع موسى لا ينسخ.
- 2 اللفظ يتناول اليهود أولاً ويعم كل من كفر بالله ورسوله وصد عن سبيله الذي هو الإسلام.
- 3 التعريف في الرسول للعهد، إذ هو معهود بين المخاطبين معروف لهم، وكونه للعهد لا ينافي ما ذكر في التفسير من أنه الكامل في رسالته؛ كأنه فرد فيها لا نظير له.
- 4 إنه لم يدعم إلى الإيمان لحاجة به إنه عزيز إنه سبحانه وتعالى يملك الكائنات كلها حيا وميتا ظاهرا وباطنا ويتصرف بها كما يشاء وهو الغني الحميد.

(1/578)

3- الرسالة المحمدية عامة لسار الناس أبيضهم وأصفرهم.

إثبات صفتي العلم والحكمة لله تعالى. وبموجبهما يتم الجزاء العادل الرحيم.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173)}

شرح الكلمات:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} : المراد بهم 1 هنا: النصارى.

{لَا تَغْلُوا 2} : الغلو: تجاوز الحد للشيء، فعيسى عليه السلام عبد الله ورسوله فغلوا فيه فقالوا هو الله.

1 النصارى غلوا في عيسى فتجاوزوا حد الإفراط حيث أهوه، أي: جعلوه إلهًا وعبده، واليهود غلوا في التفريط في عيسى، إذ قالوا: ساحر وابن زنا والعياذ بالله.

2 الغلو مشتق من غلوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، ويطلق الغلو في الشرع على الزيادة على المطلوب في الاعتقاد والقول والعمل.

{المسيح}: هو عيسى عليه السلام ولقب بالمسيح لأنه ممسوح من الذنوب، أي: لا ذنب له قط.
{وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها}: أي: قول الله تعالى له {كن} فكان -ألقاها إلى مريم: أوصلها لها وأبلغها إياها وهي قول الملائكة لها إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم.
{وَرُوحٌ مِنْهُ}: أي: عيسى كان بنفخة جبريل روح الله في كم درعها.
{وَكَيْلًا}: حفيظاً وشاهداً عليماً.
{لَنْ يَسْتَنْكِفَ}: لا يرفض عبوديته لله تعالى أنفة وكبراً.
{وَيَسْتَكْبِرُ}: يرى نفسه كبيرة فوق ما طلب منه أن يقوله أو يفعله إعجاباً وغروراً.
{وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}: أي: لا يجدون يوم القيامة ولياً يتولى الدفاع عنهم ولا نصيراً ينصرهم حتى لا يدخلوا النار ويعذبوا فيها.
معنى الآيات:

ما زال السياق مع أهل الكتاب، ففي الآية الأولى (171) نادى الرب تبارك وتعالى النصارى بلقب الكتاب الذي هو الإنجيل ونهاهم عن الغلو في دينهم من التمتع والتكلف؛ كالترهب واعتزال النساء وما إلى ذلك من البدع التي حمل عليها الغلو، كما نهاهم عن قولهم على الله تبارك وتعالى غير الحق، وذلك بنسبة الولد إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وأخبرهم بأن عيسى لم يكن 1 أبداً غير رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم²، حيث بعث إليها جبريل فيبشرها بأن الله تعالى قد يهبها غلاماً زكياً، ونفخ وهو روح الله في كم درعها فكان عيسى بكلمة التكوين وهي {كن} وبسبب تلك النفخة من روح الله جبريل عليه السلام فلم يكن عيسى الله ولا ابن الله فارجعوا إلى الحق وآمنوا بالله ورسله جبريل وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، ولا تقولوا زوراً وباطلاً: الله ثالث ثلاثة آلهة³. انتهوا عن القول الكذب يكن

1 لأن: إنما أداة قصر فمن هنا قصر عيسى عليه السلام على ثلاث صفات، وهي: الرسالة، والكلمة، والروح، أي: هو لم يكن غير رسول الله وكلمته وروح منه، والقصر إضافي كما هو ظاهر.

2 لم يذكر الله تعالى امرأة في القرآن باسمها العلم سوى مريم، إذ ذكرها في القرآن في نحو من ثلاثين موضعاً، وسر هذا أن العرب يتحاشون أن يذكروا أسماء نساؤهم إنما يكونون عنهن بالعرس والأهل والعائلة. وأما الإماء فيذكرونهن بأسمائهن، لذا ذكر تعالى مريم وهي أمته باسمها العلم ثلاثين مرة.

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد من التثليث: الله تعالى وصاحبه وابنه. والأقانيم عند بعضهم هي: الأب والابن وروح القدس. وعند بعضهم هو: الوجود والحياة والعلم.

(1/580)

انتهواؤكم خيراً لكم حالاً ومآلاً، إنما الله سبحانه وتعالى إله واحد له ولا ند ولا ولد. سبحانه تنزهه وعلا وجل وعظم أن يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، ولم يكن ذا حاجة وله ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وحكماً وتديراً، وكفى به سبحانه وتعالى وكياً شاهداً عليماً فحسبكم الله تعالى رباً وإلهاً فإنه يكفيكم كل ما يهكم فلا تلتفتون إلى غيره ولا تطلبون سواه.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (171)، وأما الآيتان الثانية (172) والثالثة (173) فقد أخبر تعالى أن عبده ورسوله المسيح عليه السلام لن يستكف أبداً أن يعبد الله وينسب إليه بعنوان العبودية فيقال عبد الله ورسوله، حتى الملائكة المقربون منهم فضلاً عن غيرهم لا يستكفون عن عبادة الله تعالى وعن لقب العبودية فهم عباد الله وملائكته، ثم توعد تعالى كل من يستكف عن عبادته عنها من سائر الناس بأنه سيحشرهم جميعاً ويحاسبهم على أعمالهم فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات آمنوا بألوهيته تعالى وحده وعبوده وحده بما شرع لهم من أنواع العبادات وهي الأعمال الصالحة فهؤلاء يوفيهم أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله الحسنة بعشر أمثالها، وقد يضاعف إلى سبعمائة ضعف.

وأما الذين استكفوا واستكبروا، أي: حملتهم الأنفة والكبر على عدم قبول الحق والرجوع إليه فأصروا على الاعتقاد الباطل والعمل الفاسد فيعذبهم تعالى عذاباً أليماً، أي: موجعاً لا يجدون لهم من دونه ولياً ولا ناصرراً فينتهي أمرهم إلى عذاب الخلد جزاء بما كانوا يعملون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الغلو في الدين إذ هي من الأسباب الموجبة للابتداع I والضلال.
- 2- حرمة القول على الله تعالى بدون علم مطلقاً والقول عليه بغير الحق بصورة خاصة.
- 3- بيان المعتقد الحق في عيسى 2 عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله كان بكلمة الله ونفخة

1 قال مطرف بن عبيد الله: والعدل حسنة بين سيئتين: الأولى: الإفراط. والثانية: التقريط. فالغلو: إفراط. والتقصير: تقريط. كلاهما مذموم. قال الشاعر:

وأوف ولا تستوف حقه كله ... وسامح فلم يستوف قط كريم

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

2 ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية قصة طويلة في سب فساد دين المسيح عليه السلام، وأن الذي

أفسده هو بولس اليهودي ولعنا نذكرها في تفسير آية المائدة: { فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ } إن شاء الله تعالى.

(581/1)

جبريل 1 عليه السلام.

4- حرمة الاستكفاف عن الحق والاستكبار عن قبوله.

5- بيان الجزاء الأخروي وهو إما نعيم وإما جحيم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَعَتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَقَضَلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} (175)

شرح الكلمات:

{بُرْهَانٌ} : البرهان: الحجة، والمراد به هنا: محمد 2 صلى الله عليه وسلم.

{نُورًا مُبِينًا} : هو القرآن الكريم.

{وَأَعْتَصَمُوا} : أي: تمسكوا بالقرآن وبما يحمله من الشرائع.

{فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ} : الجنة.

{صِرَاطًا} : طريقاً يفضي بهم إلى جوار ربهم في دار الكرامة.

معنى الآيتين:

ينادي 3 الرب تبارك وتعالى سائر الناس مشركين ويهود ونصارى مخبراً إياهم قاطعاً للحجة عليهم بأنه أرسل إليهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو البرهان الساطع والدليل القاطع على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته ووجوب الإيمان به وبرسوله ولزوم عبادته بطاعته وطاعة رسوله وأنه أنزل عليه كتابه شافياً كافياً هادياً نوراً مبيناً يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجه من الظلمات إلى النور. بهذا قد أعذر الله تعالى إلى الناس كافة وقطع عليهم كل معذرة

1 قال أبي بن كعب رضي الله عنه: "خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد خلقه أرسل ملك الروح إلى مريم فكان منه عيسى. فلذا قال: {وَرُوحٌ مِنْهُ} ". هذا الأثر أحسن ما يقال في قوله تعالى: {وَرُوحٌ مِنْهُ} ".

2 هذا الذي قرره ابن جرير وأن البرهان في هذه الآية هو: النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

3 هذا النداء وما بعده؛ كالفدلكة لما تقدم من دعوة أهل الكتابين إلى الدخول في الإسلام لإقامة الحجة على الجميع. إذ وجه نداءه العام لكل البشر، وهو يتناول أهل الكتابين والمشركين وغيرهم لإقامة الحجة على الجميع.

وحجة ثم هم صنفان مؤمن وكافر، فالذين آمنوا بالله رباً وإلهاً وبرسوله نبياً ورسولاً واعتصموا بالقرآن فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه وصدقوا أنباءه والتزموا آدابه فهؤلاء سيدخلهم في رحمة الله منه وفضل وذلك بأن ينجيهم من النار ويدخلهم الجنان، وذلك هو الفوز العظيم كما قال تعالى: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} . وأما الذين كفروا به وبرسوله وكتابه فمصيرهم معروف وجزاءهم معلوم فلا حاجة إلى ذكره: إنه الحرمان والخسران.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الدعوة الإسلامية دعوة عامة فهي للأبيض والأصفر على حد سواء.
 - 2- إطلاق لفظ البرهان على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بأمره وكماله الذي لا مطمع لبشري أن يساميه فيه برهان على وجود الله وعلمه ورحمته.
 - 3- القرآن نور لما يحصل به من الإهداء إلى سبيل النجاة وطرق السعادة والكمال.
- ثمن السعادة ودخول الجنة الإيمان بالله ورسوله ولقائه والعمل الصالح وهو التمسك بالكتاب والسنة المعبر عنه بالاعتصام.

{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176)}

شرح الكلمات:

{يَسْتَفْتُونَكَ} 2 : يطلبون فتياك في كذا.

- 1 الرحمة: الجنة بعد النجاة من النار. والفضل: ما ينعم به عليهم في دار السلام، وأعظمه النظر إلى وجه الكريم، وقوله تعالى: {وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا} أي: يهديهم إلى ما يصل بهم إلى رضاه وجواره، وهو: الإسلام، وذلك بأن يثبتهم عليه حتى الموت.
- 2 روي أن هذه الآية وتسمى آية الكلاله نزلت في آخر ما نزل، وسبب نزولها: أن جابر بن عبد الله مرض فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فأغمى على عبد الله فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صب عليه من فضل وضوءه فأفاق، فقال يا رسول الله: كيف أفضي في مالي؟ وكان له تسع أخوات، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية.

{يُفْتِيكُمْ}: يبين لكم ما أشكل عليكم من أمر الملائكة.

{الْكَالَةِ}: أن يهلك الرجل ولا يترك ولداً ولا يترك ولد ولد، وإنما يترك أختاً أو أختاً.

الحظ: النصيب.

{أَنْ تَضِلُّوا}: كيلا تضلوا، أي: تخطئوا في قسمة التركة.

معنى الآية الكريمة:

هذه الآية تسمى آية الكلالة¹، وآيات الموارث أربع: الأولى في شأن الولد والوالد: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ²} . والثانية: في شأن الزوج والزوجة: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِيَّاهُنَّ... وفي شأن الإخوة لأم: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ إِيَّاهُنَّ... وهاتان الآيتان تقدمتا في أول سورة النساء. والثالثة، هي هذه: {يَسْتَفْتُونَكَ إِيَّاهُنَّ... وهي في شأن ميراث الأخوة والأخوات عند موت أحدهم ولم يترك ولداً ولا ولد ولد.. وهو معنى الكلالة. والرابعة: في آخر سورة الأنفال وهي في شأن ذوي الأرحام، وهي قوله تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}. .

وهذه الآية نزلت عند سؤال بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الكلالة، فقال تعالى: يسألونك أيها الرسول عن الكلالة. قل للسائلين: {اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَالَةِ} ، وهذه فتواه: إن هلك امرؤ ذكراً كان أو أنثى، وليس له ولد ولا ولد ولد وله أخت شقيقة أو لأب فلها نصف ما ترك، وهو يرثها أيضاً إن لم يكن لها ولد ولا ولد ولد. فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء، أي: ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل حظ الأنثيين وبعد أن بين تعالى كيف يورث من مات كلاله قال مبيناً حكمة هذا البيان: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا} أي: كيلا 3 تضلوا في قسمة التركات فتخطئوا الحق وتجوروا في قسمة أموالكم. {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ⁴} فلا

1 وتسمى آية الصيف لأنها نزلت في زمن الصيف، وقال عمر رضي الله عنه: "إني والله لا أدع شيئاً أهم إليّ من أمر الكلالة، وقد سألت رسول الله عنها فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها حتى طعن في جنبي أو صدري وقال: "يا عمر ألا تكفيك آية الصيف.

2 الجمهور ما عدا ابن عباس والظاهرية على أن الأخوات عصبية مع البنات، فلو هلك هالك وترك أختاً له وبناتاً فإن المال بينهما نصفين، وإن ترك ثلاثاً فالمال بينهما أثلاثاً، وهكذا الأخوات عصبية مع البنات. قضى بهذا معاذ رضي الله عنه.

3 بعضهم يقدر كراهة أن تضلوا، ولما كان الحذف لازماً للتخفيف فتقدير: كيلا، أفضل من لفظ: الكراهة. وهو ما ذكرته في التفسير ولم أذكر غيره.

4 من جملة الأشياء العليم بها: أحوالكم، وما تتطلبه حياتكم في الدنيا والآخرة، وهذا يقتضي الثقة والطمأنينة فيما شرع لكم وتنفيذه في إخلاص وحسن أداء.

(1/584)

يجهل شيئاً ولا يخفى عليه آخر، وكيف وقد أحاط بكل شيء علماً سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.
هداية الآية
من هداية الآية الكريمة:

- 1- جواز 1 سؤال من لا يعلم من يعلم للحصول على العلم المطلوب له.
- 2- إثبات وجود الله تعالى عليمًا قديرًا سميعًا بصيرًا، وتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ سؤال الأصحاب وإجابة الرب تعالى بواسطة وحيه المنزل على رسوله يقرر ذلك ويثبته.
- 3- بيان قسمة تركة من يرث كلاله من رجل أو امرأة؛ فالأخت الواحدة لها من أخيها نصف ما ترك، والاختان لهما الثلثان، والأخوة مع الأخوات للذكر مثل حظ الأنثيين، والأخ يرث أخته إن لم يكن لها ولد ولا ولد ولد، والإخوة والأخوات يرثون أختهم للذكر مثل حظ الأنثيين إذا لم تترك ولداً ولا ولد ولد.

1 بل الواجب أن يسأل كل من لا يعلم حتى يعلم لقول الله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .

(1/585)

سورة المائدة

...

سورة المائدة 2

مدنية

وآياتها مائة وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

لِيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُجِلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُجَلِّي الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدْيَ وَلَا

2 سورة المائة من آخر ما نزل من السور في القرآن وأحكامها كلها محكمة ما عدا قوله تعالى: {وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ...} الآية. وهو قول الشعبي رحمه الله تعالى، وفيها أحكام لم توجد في غيرها من السور، من ذلك حكم: المنخقة، وما بعدها {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} ، والوضوء، وحكم السرقة.

(1/585)

الْحَرَامَ يَبْتِغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)

شرح الكلمات:

{أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}: العقود: هي العهود التي بين العبد والرب تعالى وبين العبد وأخيه والوفاء بها: عدم نكثها والإخلال بمقتضاها.

{بِهِيْمَةَ الْأَنْعَامِ 1}: هي الإبل والبقر والغنم.

{وَأَنْتُمْ حُرْمٌ}: أي: محرمون بحج أو عمرة.

{شَعَائِرَ اللَّهِ}: جمع شعيرة، وهي هنا مناسك الحج والعمرة وسائر أعلام دين الله تعالى.

{الشَّهْرَ الْحَرَامَ}: رجب وهو شهر مضر الذي كانت تعظمه.

{الْهَدْيِ}: ما يُهدى للبيت والحرم من بهيمة الأنعام.

{الْقَلَائِدَ}: جمع قلادة ما يقلد الهدى، وما ينقلده الرجل من لحاء شجر الحرم ليأمن.

{آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ}: قاصديه يطلبون ربح تجارة أو رضوان الله تعالى.

{وَإِذَا حَلَلْتُمْ 2}: أي: من إحرامكم.

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ}: أي: لا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا عليهم.

{أَنْ صَدُّوكُمْ}: أي: لأجل أن صدوكم.

{الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ}: البر: كل طاعة لله ورسوله. والتقوى: فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى عنه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

1 سميت البهيمة: بهيمة؛ لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها، ومنه باب مبهم، أي: مغلق، وليل بهيم: لا يميز ما فيه من الظلام. وقولهم في الشجاع من الرجال: بهيمة؛ لأنه

لا يدري من أين يؤتى.

2 قوله تعالى: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} الإجماع على أن الأمر هنا للإباحة وليس للوجوب، وهذه قاعدة أصولية كل أمر بعد حظر، فهو للإباحة.

(1/586)

{الْإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ} : الإثم: سائر الذنوب، والعدوان: الظلم وتجاوز الحدود.
{شَدِيدُ الْعِقَابِ} : أي: عقابه شديد لا يطاق ولا يحتمل.
معنى الآيتين:

ينادي الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين بعنوان الإيمان فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أي: يا من آمنتم بي وبرسولي ووعدي ووعيدي {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}1 فلا تحلوها وبالعهود فلا تتكثروها، فلا تتركوا واجباً ولا تتركبوا منهياً، ولا تحرموا حلالاً ولا تحلو حراماً أطلت لكم بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم إلا ما يتلى عليكم وهي الآتية في آية: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ...}2 فلا تحرموها وحرمت عليكم الصيد وأنتم حرم3 فلا تحلوه. وسلموا الأمر لي فلا تتنازعا فيما أحل وأحرم فإني أحكم ما أريد. هذا ما تضمنته الآية الأولى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}4 .
أما الآية الثانية فقد تضمنت أحكاماً بعضها نسخ العمل به وبعضها محكم يعمل به إلى يوم الدين، فمن المحكم والواجب العمل به تحريم شعائر الله، وهي أعلام دينه من سائر ما فرض وأوجب، ونهى وحرم. فلا تستحل بترك واجب، ولا بفعل محرم، ومن ذلك مناسك الحج والعمرة. ومن المنسوخ الشهر الحرام فإن القتال كان محرماً في الأشهر الحرم ثم نسخ بقول الله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} الآية، ومن المنسوخ أيضاً: هدي المشركين وقلاندهم والمشركون أنفسهم فلا يسمح لهم بدخول الحرم ولا يقبل منهم هدي، ولا يجبرهم من القتل تقليد أنفسهم بلحاء شجر الحرم ولو تقلدوا شجر الحرم كله. هذا معنى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ5 وَلَا الْفُلَاثِدَ6 وَلَا آمِينَ

- 1 قال الحسن: يعني عقود الدين، وهو ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة كراء، ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتدبير، وكذلك ما عاهد عليه الله تعالى من نذر وسائر التكاليف الشرعية وما خرج من عقد على شريعة الله رد وحل، ولا وفاء فيه.
- 2 وما حرم بالسنة، وهو كل ذي ناب من السباع، وذي مخلب من الطيور لثبوت ذلك في الصحاح.
- 3 أما إذا حلوا من إحرامهم فالصيد حلال، كما هو في غير الإحرام إلا ما كان من صيد الحرم فإنه

حرام في الإحرام والإحلال.

- 4 هذه الجملة تقتضي تسليم الأمر لله، فلا اعتراض عليه فيما يحل ويحرم وهو كذلك.
- 5 الهدى: ما يهدى إلى الحرم، ومن خصائصه: أنه يشعر وذلك يجرح سنامه من الجهة اليمنى حتى يسيل الدم، وبذلك يعلم أنه هدي، وقال: بالإشعار كافة الفقهاء إلا أبا حنيفة، ولاموه وعنفوا عليه لتركه السنة الصحيحة في الإشعار.
- 6 يحرم بيع الهدى إذا أشعر وقلت لأنه أصبح كالوقف لله تعالى، ومعنى التقليد: أن يوضع في عنقه قلادة يعلم بها أنه هدي، وهذا يكون في الغنم لأنها لا تشعر.

(1/587)

النَّبِيَّتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً}. والمراد بالفضل: الرزق بالتجارة في الحج، والمراد بالرضوان: ما كان المشركون يطلبونه بحجهم من رضى الله ليبارك لهم في أرزاقهم ويحفظهم في حياتهم.

وقوله تعالى: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} خطاب للمؤمنين أذن لهم في الاصطياد الذي كان محرماً وهم محرمون إذن لهم فيه بعد تحللهم من إحرامهم. وقوله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} ينهي عباده المؤمنين أن يحملهم بغض قوم صدورهم يوم الحديبية عن دخول المسجد الحرام أن يعتدوا عليهم بغير ما أذن الله تعالى لهم فيه، وهو قتالهم إن قاتلوا وتركهم إن تركوا. ثم أمرهم تعالى بالتعاون على البر والتقوى، أي: على أداء الواجبات والفضائل، وترك المحرمات والرذائل، ونهاهم عن التعاون عن ضدها، فقال عز وجل: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ ۗ وَالنَّفْقَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ ۗ وَالْعُدْوَانِ} . ولما كانت التقوى تعم الدين كله فعلاً وتركاً أمرهم بها، فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} بالإيمان به ورسوله وبطاعتهما في الفعل والترك، وحذرهم من إهمال أمره بقوله: {إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} فاحذروه بلزوم التقوى.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- وجوب الوفاء بالعهود التي بين الله تعالى وبين العبد والمحافظة على العقود التي بين العبد وأخيه العبد لشمول الآية ذلك.
- 2- إباحة أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلا الميتة منها.
- 3- تحريم الصيد في حال الإحرام وحليته بعد التحلل من الإحرام وهو صيد البر لا البحر.
- 4- وجوب احترام شعائر الدين كلها أداء لما وجب أدائه، وتركاً لما وجب تركه.
- 5- حرمة الاعتداء مطلقاً على الكافر.

6- وجوب التعاون بين المؤمنين على إقامة الدين، ورحمة تعاونهم على المساس به.

- 1 في البر، وهو فعل الخير رضا الناس وفي التقوى رضا الله، ومن جمع بين رضا الناس ورضا الله فقد جمع الخير كله وتمت سعادته في دنياه وآخرته.
- 2 أي: ولا تعاونوا على فعل الإثم من سائر كبائر الذنوب والفواحش ولا على الظلم والاعتداء إذ كلاهما مما حرم الله تعالى.
- 3 لأن صيد البحر حلال في الإحرام وغيره لقوله تعالى: {وَأَجَلٌ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا} الآية من آخر هذه السورة.

(1/588)

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)}

شرح الكلمات:

- {الْمَيْتَةُ}: ما مات من بهيمة الأنعام حتف أنفه، أي: بدون تذكية 1.
- {وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}: أي: ما ذكر عليه اسم غير اسم الله تعالى، مثل المسيح، أو الولي، أو صنم.
- {وَالْمُنْخَنِقَةُ}: أي: بحبل ونحوه فماتت.
- {وَالْمَوْقُوذَةُ 2}: أي: المضروبة بعصا أو حجر فماتت به.
- {وَالْمُتَرَدِّيَةُ}: الساقطة من عال إلى أسفل، مثل: السطح والجدار والجبل فماتت.
- {وَالنَّطِيحَةُ 3}: ما ماتت بسبب نطح أختها لها بقرونها أو رأسها.
- {وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ}: أي: ما أكلها الذئب وغيره من الحيوانات المفترسة.
- {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ 4}: أي: أدركتم فيه الروح مستقرة فذكيتموه 5 بذبحه أو نحره.
- {وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ}: أي: ما ذبح على الأصنام المنصوبة التي تمثل إلهاً أو زعيماً أو عظيماً، و مثلها ما ذبح على أضرحة الأولياء وقبورهم وعلى الجان.

1 ومن غيرها من مأكول اللحم؛ كالضياء، والأرانب، وأنواع الصيد باستثناء ما ذكر عليه اسم الله حال صيده، فإن ما مات منه يؤكل ولو لم يذك، ولا يقال فيه ميتة.

2 يقال: وقذة، يقذة، وقذا؛ إذا ضربه بحجر ونحوها، والوكذ: شدة الضرب.

3 فهي فعيلة بمعنى: مفعولة، فالنطيحة: هي المنطوحة.

4 ما ذبح من قفاه لا يؤكل إجماعاً، واختلف فيما إذا رفع المذكي يده قبل إنهاء الذكاة ثم ردها فوراً، الصحيح أنها تؤكل ولا خلاف في جواز أكل البعير إذا ند أو وقع في بئر فإنه كيفما ذُكي جاز أكله للحديث الصحيح.

5 الاستثناء متصل، وهو راجع على كل ما أدرك زكاته من المذكورات وفيه حياة ولا الالتفات إلى الخلاف في هذه المسألة.

(1/589)

{وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا}: أي: وحرّم عليكم ما تحصلون عليه بالاستقسام بالأزلام ومثله ما يأخذه صاحب الكهانة والشواقة وقرعة الأنبياء، والحروز الباطلة التي فيها طلاس وأسماء الجن والعماريت. {ذَلِكُمْ فِسْقٌ}: أي: ما ذكر من أكل الميتة إلى الاستقسام بالأزلام خروج عن طاعة الله تعالى ومعصية له سبحانه وتعالى.

{فَمَنْ اضْطُرَّ}: أي: من أُلجأته ضرورة الجوع فخاف على نفسه الموت فلا بأس أن يأكل مما ذكر. {فِي مَخْمَصَةٍ}: المخمصة: شدة الجوع حتى يضر البطن لقلّة الغذاء به. {غَيْرِ مُتَجَانِفٍ}: غير مائل لإثم يريد غير راغب في المعصية بأكل ما أكل من الميتة، وذلك بأن يأكل أكثر مما يسد به رمقه ويدفع به غائلة الجوع المهلك. معنى الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة هي تفسير وتفصيل لقوله تعالى في الآية الأولى من هذه السورة، وهو قوله: {إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} حيث ذكر في هذه الآية سائر المحرمات من اللحوم وهي عشر كما يلي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذبح على النصب¹.

وقوله تعالى: {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ²} يريد ما أدركتم فيه الروح مستقرة. بحيث إذا ذبحتموه اضطرب للذبح وركض برجليه فإن هذا علامة أنه كان حياً وأنه مات بالذبح³.

وقوله: {وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ} يريد ولا يحل لكم الاستقسام بالأزلام، ولا أكل ما يعطى عليها وحقيقتها أنهم كانوا في الجاهلية يضعون القداح المعبر عنها بالأزلام جمع زلم وهو رمح صغير لا زج له ولا ريش فيه، يضعونها في خريطة كالكيس، وقد كتب على واحد أمرني

1 ما ذبح على النصب، وما أهل لغير الله به: هما كشيء واحد إلى أن ما أهل لغير الله به غالباً

يكون مذبوحةً لغير الأصنام؛ كالأنبياء والأولياء.

- 2 الذكاة في لغة العرب: الذبح كقوله تعالى: {إِلا ما ذَكَيْتُمْ} ، أي: ذبحتم ما ذكر اسم الله عليها، وفي الحديث: "ذكاة الجنين ذكاة أمه" ، والذكاة: سرعة الفطنة، والتذكية: مأخوذة من التطيب، فذكاها بمعنى: طيبها بالذبح، ومنه رائحة ذكية: أي: طيبة.
- 3 والذكاة تقع بكل حاد ينهر الدم، ويفري الأوداج ما عدا العظم والسن، لقوله صلى الله عليه وسلم: "ليس السن والظفر" ، لأن السن عظم، والظفر مدى الحبشة.

(1/590)

ربي، وآخر: نهاني ثم يحيلها المستقسم بها في الخريطة ويخرج زلماً منها فإن وجدته مكتوباً عليه: أمرني ربي، مضى في عمله سفراً أو زواجاً ، أو بيعاً أو شراءً، وإن وجدته مكتوباً عليه: نهاني ربي، ترك ما عزم على فعله 1 فجاء الإسلام فحرم الاستقسام بالأزلام، وسن الاستخارة وهي: أن يصلي المؤمن ركعتين من غير الفريضة ويقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، ويسمي حاجته. ويفعل أو يترك ما عزم عليه، والذي يأتيه هو الخير بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ فِسْقٌ} يريد ما ذكرت لكم مما حرمت عليكم إتيانه هو الفسق فاتركوه.

وقوله تعالى: {الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ} يخبر تعالى عباده المؤمنين: أن الكافرين من المشركين وغيرهم قد يبسوا من أن يردوكم عن دينكم كما كان ذلك قبل فتح مكة ودخول ثقيف وهوازن في الإسلام، وظهوركم عليهم في كل معركة دارت بينكم وبينهم إذاً فلا تخشوهم بعد الآن أن يتمكنوا من قهركم وردكم إلى الكفر واخشوني أنا بدلهم، وذلك بطاعتي وطاعة رسولي ولزوم حدودي والأخذ بسنتي في كوني حتى لا تتعرضوا لنفمتي بسلب عطائي فإن نصرتي لأهل طاعتي وإذلالتي لأهل معصيتي.

وقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} 2 فهو إخبار منه تعالى لعباده المؤمنين بما هو إنعام عليهم منه وامتنان فأولاً: إكمال الدين 3 بجميع عقائده وعباداته وأحكامه وآدابه حتى قيل أن هذه الآية نزلت عشية يوم عرفة عام

1 هي ثلاثة أزلام كتب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث: مهمل لم يكتب

عليه شيء ويجعلها في خريطته، فإذا خرج أمرني مضى في عمله ، وإذا خرج نهائي ترك ما أراد فعله، وإذا خرج المهمل أعاد الضرب في الخريطة، وهناك نوعان من الاستقسام غير ما ذكرنا. 2 هذه الآية: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...} نزلت بعرفة يوم الجمعة في حجة الوداع بعد العصر، والرسول صلى الله عليه وسلم على ناقته: العضاء، كما هو واضح في رواية مسلم في صحيحه. 3 ووجه إكمال الدين أنه كان قبل الهجرة مقصوراً على الشهادتين، والصلاة ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أخذ التشريع ينزل يوماً بعد يوم حتى كمل وأعلن عنه الرب تعالى في حجة الوداع بقوله: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ... } إلخ.

(1/591)

حجة الوداع، ولم يعيش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إحدى وثمانين ليلة ثم توفاه الله تعالى. وثانياً: إتمام نعمته تعالى عليهم فآمنهم بعد الخوف وقواهم بعد ضعف، ونصرهم وأعزهم بعد قهر وذل وسودهم وفتح البلاد لهم وأظهر دينهم، وأبعد الكفر والكفار عنهم، فعلمهم بعد جهل وهداهم بعد ضلال فهذه من النعمة التي أتمها عليهم. وثالثاً: رضاه بالإسلام ديناً لهم حيث بعث رسوله به وأنزل كتابه فيه فين عقائده وشرائعه فأبعدهم عن الأديان الباطلة؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وأغناهم عنها بما رضىه لهم ألا وهو الإسلام القائم على الاستسلام لله تعالى ظاهراً وباطناً، وذلك سلم العروج إلى الكمالات ومرقى كل الفواضل والفضائل والسعادات، فله الحمد وله المنة.

وقوله تعالى: {فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يريد تعالى من اضطر، أي: ألجأته الضرورة وهي شدة الجوع وهي المخمصة¹ والمسغبة إلى أكل ما حرمت عليكم من الميتة وأنواعها فأكل فلا إثم عليه فإني غفور لعبادي المؤمنين رحيم بهم إلا أن يكون قد أكل من الميتة وأنواعها متعمداً المعصية مائلاً إليها غير مبال بتحريمي لها، فذاك الذي عصاني وتعرض لنقمتي وعذابي فإن تاب فإني غفور رحيم، وإن أصر فإن عذابي أليم شديد.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- حرمة الميتة وما ذكر معها وهي عشر من المحرمات.
- 2- حرمة الاستقسام بالأزلام ومثلها قرعة الأنبياء وخط الرمل والكهانة وما أشبه ذلك.
- 3- حرمة الذبح على القبور والقباب والنصب التذكارية وهي من الشرك.
- 4- جواز أكل ما أدركه المسلم حياً من الحيوان المأكول فذكاه وإن كان قد جرح أو كسر أو أشرف على الموت بأي سبب مميت².

1 الممخصة: لغة الجوع، وخلاء البطن من الطعام. والخصم: ضمور البطن، ومنه الحديث: "إن الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا". وفي الحديث أيضًا: "خماص البطون خفاف الظهر".
والخميسة: ثوب، وجمعها: خمائص، ثياب خز وصوف، وفي الحديث: "تعس عبد الخميسة".
2 من آداب التذكية: الرفق بالحيوان، إحداد الشفرة، إن يوجهها إلى القبلة، تركها حتى تبرد قبل أن يشرع في سلقها، إحضار نية الإباحة قبل الشروع في الذبح، بأن يقول: بسم الله الله اكبر. والاعتراف بالمنة لله؛ حيث سخر لنا هذا الحيوان، ولو شاء لسلطه علينا، وأباح لنا ما لو شاء لحرمه علينا. وكل هذه الآداب جاءت في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح". الذبح.

(1/592)

- 5- وجوب خشية الله تعالى وحرمة خشية الكفار.
6- حرمة الابتداع في الدين وحرمة التشريع المنافي للشرع الإسلامي.
7- جواز أكل الميتة للمضطر، وهو من لحقه ضرر من شدة الجوع فخاف على نفسه الهلاك على شرط أن لا يكون قاصداً المعصية مائلاً إلى الإثم.
{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)}
- شرح الكلمات:

- {الطَّيِّبَاتُ} : ما أذن الله تعالى في أكله وأباحه لعباده المؤمنين.
{الْجَوَارِحِ} : جمع جارحة بمعنى كاسية تخرج بمعنى تكسب.
{مُكَلِّبِينَ} : أي: مرسلين الجارحة على الصيد سواء كانت الجارحة كلباً أو طيراً.
{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} : ذبائح اليهود والنصارى.
{وَالْمُحْصَنَاتُ} : جمع محصنة وهي العفيفة الحرة من النساء.

1 المكلب: هو معلم الكلاب، ومدربها على الصيد، ويقال للصائد: مكلب، وعليه فقوله: {مُكَلِّبِينَ} يكون بمعنى: صائدين.

2 يكتفي في الطير بأن تطيع إذا أمرت، إذ هي دون الكلاب في الاستعداد للفهم والاستجابة،

ومثلها: سباع الوحوش، فإنها دون الكلاب أيضاً، إلى أن الجمهور يشترط فيها ما يشترط في الكلاب.

(1/593)

{أَجُورُهُنَّ} : مهورهن وصدقاتهن.

{غَيْرُ مُسَافِحِينَ} : غير مجاهرين بالزنى.

{أَخْدَانٍ} : جمع خدن وهو الخليل والصاحب السري.

{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ} : أي: يرتد عن الإيمان، فالباء بمعنى عن إذ يقال: ارتد عن كذا...

{حَبِطَ عَمَلُهُ} : بطل عمله ما قدمه من الصالحات فلا يثاب عليه.

معنى الآيتين:

ورد أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى أن يدخل لوجود كلب صغير في البيت فقال: "إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب". فأمر النبي بعدها بقتل الكلاب، فقتلت ثم جاء بعضهم يسأل عما يحل لهم من أمة الكلاب، فأنزل الله تعالى هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ 1 مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ} وهي كل ما لذ وطاب مما أباحه الله تعالى ولم ينه عنه، وأحل لكم كذلك صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب الخاصة بالاصطياد والفهود والنمور والطيور؛ كالصور ونحوها. مكبلين، أي: مرسلين لها على الصيد لتمسكه لكم، {تَعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ} . أي: تؤدبون تلك الجوارح بالأدب الذي أدبكم الله تعالى به، وحد الجارحة المؤدبة أنها إذا اشليت، أي: أرسلت على الصيد ذهبت إليه وإذا رُجرت انزجرت، وإذا دعيت أجابت. وقوله تعالى: {فَقُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ 2 وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} يفيد شرطين لحلية الصيد زيادة على كون الجارحة معلمة وهما: أولاً: أن يذكر اسم الله عند إرسال الجارحة بأن يقول: بسم الله هاته مثلاً، والثاني: 3: أن لا تأكل الجارحة منه فإن أكلت منه فقد أمسكت لنفسها ولم تمسك لمن أرسلها، اللهم إلا إذا أدركت حية لم تمت

1 ذكر القرطبي أن الآية: {يَسْأَلُونَكَ...} نزلت بسبب عدي بن حاتم، وزيد الخيل الذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم: "زيد الخير"، إذ قالوا يا رسول الله: إنا قوم نصيد بالكلاب والبذاة، وإن الكلاب تأخذ البقر والحمير والظباء فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما نقلته فلا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا؟ فنزلت الآية: {يَسْأَلُونَكَ...} إلخ. ولا منافاة بين ما ذكر في التفسير وبين هذا، إذ يسأل السائل فيقرأ عليه الرسول بالآية فيرى أنها نزلت فيه.

2 {مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ} : على هنا بمعنى اللام، أي: مما أمسكن لكم ولأجلكم؛ كقولهم: سجن على

كذا وضرب الصبي على قوله كذا.

3 ذكر القرطبي الإجماع على أن الكلب إذا لم يكن أسود وعلمه مسلم فيشلي إذا أشلى، ويجب إذا دُعي، وينزجر بعد ظفره بالصيد إذا زجر وأن يكون لا يأكل من صيده الذي صاده، وأثر فيه بجرح أو تنيب وصاد به مسلم وذكر اسم الله عند إرساله أن صيده صحيح. هذه الشروط داخلة في الشرطين اللذين ذكرتهما الآية، كما في التفسير إلا اشتراط ألا يكون الكلب أسود، وهذا الشرط فيه خلاف.

(1/594)

ثم ذكيت فعند ذلك تحل بالتنكية لا بالاصطياد¹، وقوله تعالى: {وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} وعيد لمن لم يتق الله في أكل ما حرم أكله من الميتة وأنواعها، ومن صيد صاده غير معلم من الجوارح، أو صاده معلم ولكنه أكل منه فمات قبل التنكية. فلننق عقوبة الله في ذلك فإن الله سريع الحساب.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (4)، أما الآية الثانية (5) وهي قوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} ، أي: في هذا اليوم الذي أكمل الله تعالى لكم فيه الدين أحل لكم ما سألتكم عنه وهو سائر الطيبات، وكذا طعام الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى خاصة فطعامهم، أي: ذبائحهم حل لكم، وطعامكم حل لهم، أي: لا بأس أن تطعموهم من طعامكم فإن ذلك جائز لكم ولهم. وأحل لكم أيضاً نكاح المحصنات، أي: العفاف من المؤمنات، والمحصنات من نساء الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهن اليهوديات والنصرانيات، على شرط إتيانهن أجورهن، أي: مهورهن حال كونكم محصنين، أي: عاقدين عليهن عقدة النكاح المتوقفة على المهر والولي والشهود وصيغة الإيجاب والقبول، لا مسافحين بإعطاء المرأة أجرة وطئها فقط بدون عقد مستوف لشروطه، ولا متخذين أيضاً بأن تتكوهن سراً بحكم الصحبة والصدقة والمحبة إذ ذلك هو الزنى فلا يحل بأجرة ولا بغير أجرة، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ 2 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فيه إشارة إلى أن استباحة المحرمات والجرأة على ذلك قد تؤدي إلى الكفر، ومن يكفر بعد إيمانه فقد حبط عمله، أي: بطل ثواب ما عمله في إسلامه، حتى ولو رجع للإسلام فليس له إلا ما عمله بعد رجوعه إلى الإسلام، وإن مات قبل العودة إلى الإسلام فهو قطعاً في الآخرة من الخاسرين وبالقائهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- مشروعية سؤال من لا يعلم عما ينبغي له أن يعلمه.

2- حلية الصيد إن توفرت شروطه، وهي: أن يكون الجارح معلماً وأن يذكر اسم الله تعالى عند

1 قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل" دال على أن الصائد يتعين عليه أن يقصد عند إرسال الكلب والطير التذكية والإباحة إذا الأعمال بالنيات ولكل أمره ما نوى.

2 لفظ الإيمان مصدر آمن يؤمن إيماناً، أطلق وأريد به الإسلام؛ لأن الإسلام والإيمان متلازمان ما أسلم من لم يؤمن، وما آمن من لم يسلم، ومعنى الآية: {وَمَنْ يَزِدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ} .

(1/595)

إرساله وأن لا يأكل منه الجارح، ويجوز أكل ما صيد برصاص أو بألة حادة 1 بشرط ذكر اسم الله عند رميه ولو وجد ميتاً فلم يذك.

3- إباحة طعام وذبائح أهل الكتاب.

4- إباحة نكاح الكتابيات بشرط أن تكون حرة 2 عفيفة، وأن يعقد عليها العقد الشرعي وهو القائم على الولي والشهود والمهر، والصيغة بأن يقول الخاطب لمن يخطبه من ولي ووكيل: زوجني فلانة. فيقول له: قد زوجتكها.

5- حرمة نكاح المتعة ونكاح الخلة والصحة الخاصة.

6- المعاصي قد تقود إلى الكفر.

7- المرتد عن الإسلام يحبط عمله فلو راجع الإسلام لا يثاب على ما فعله قبل الردة وإن مات قبل العودة إلى الإسلام خسر نفسه وأهله يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين.

لَبِئْسَ أَهْلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)

1 لفظ: حادة، احتراز من غير الحادة؛ كالعصا، وعض المعراض، والحجر، ونحوها، لحديث: "إذا ضربت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد فلا تأكله". إذ المعراض: سهم بلا ريش غليظ الوسط يصيب بحدة وعرضة معاً، فإن أصاب بحدة جاز أكل ما أصابه، وإن أصاب بعرضة فهو كالموقوذة فلا يؤكل.

2 لأن الأمة الكافرة لا تحل للمؤمن لقول الله تعالى: {مَنْ فَنَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} أي: لا الكافرات. الآية من سورة النساء.

(1/596)

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)

شرح الكلمات:

إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ : أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون 1، أي: على غير وضوء. فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ : أي: بعد غسل الكفين ثلاثاً، والمضمضة والاستنشاق والاستنثار ثلاثاً ثلاثاً لبيان رسول 2 الله صلى الله عليه وسلم ذلك.

وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ : أي: واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين إلا أن يكون عليها خف ساتر فإنه يجوز المسح عليه دون حاجة إلى نزعها وغسل الرجلين، وذلك إن لبسه بعد وضوء ولم يمض على لبسه أكثر من يوم وليلة إن كان مقيماً، أو ثلاثة أيام إن كان مسافراً بهذا جاءت السنة 3. وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا : الجنب: من قامت به جنابة، وهي شيئان: غياب رأس الذكر في الفرج، وخروج المنى بلذة في نوم أو يقظة.

فَاطَّهَرُوا : يعني: فاغتسلوا، والغسل: هو غسل سائر الجسد بالماء.

الْعَائِطُ : كناية عن الخارج من أحد السبيلين من عذرة أو فساء أو ضراط، أو بول أو مذي. أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ : ملامسة النساء كناية عن الجماع، كما أن من لامس امرأة ليلتذ بها

1 إن خلافاً طويلاً عريضاً ف تأويل هذه الآية، وهو يدور على هل الوضوء واجب لكل صلاة أو هو مستحب أو واجب على المحدث لا غير، ومستحب لغيره، وهل في الآية تقديم وتأخير؟ والذي عليه جمهور الأمة: أن الوضوء واجب على المحدث لا غير ومستحب لغيره، وأن تأويل الآية هو كان في التفسير، ومما ينبغي الإشارة إليه أن الوضوء والغسل والتيمم كلها كانت مشروعة قبل نزول هذه الآية، إذ ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بغير وضوء، ومشروعية التيمم نزلت في غزوة المريسيع، وكانت سنة خمس أو ست من الهجرة، وعليه فالآية شملت الطهارة بأنواعها مؤكدة لها لتبقى خالدة تتلى في كتاب الله تتعبد بتلاوتها ويعمل بمضمونها علماً وعملاً، إذ سورة المائدة من آخر ما نزلت من القرآن كما تقدم.

2 ورد هذا في حديث عثمان في الصحيح، إذ فيه: "ثم تميمض واستنشق واستنثر".

3 حديث مسلم عن علي رضي الله عنه أنه قال: جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم. يعني في المسح على الخفين.

(1/597)

أو لامسها لغير قصد اللذة ووجد اللذة فقد انتقض وضوءه، ومن هذا مس الفرج باليد لأنه مظنة اللذة، لذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "من أفضى منكم بيده إلى فرجه فليتوضأ".
{فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً} : اقصدا تراباً أو حجراً أو رملاً أو سبخة مما صعد على وجه الأرض.
الحرج: المشقة والعسر والضيق.

{وَمِثَاقَهُ} : أي: ميثاق الله تعالى، وهو عهده المؤكد، والمراد به هنا: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إذ بها وجب الالتزام بسائر التكاليف الشرعية.
معنى الآيتين:

نادى الرب تعالى عباده المؤمنين به وبرسوله ووعدته ووعيده ليأمرهم بالطهارة، إذا هم أرادوا الصلاة، وهي مناجاة العبد لربه لحديث المصلى يناجي ربه، وبين لهم الطهارة الصغرى منها وهي الوضوء، والكبرى وهي الغسل، وبين لهم ما ينوب عنها إذا تعذر وجود الماء الذي به الطهارة أو عجزوا عن استعماله، وهو التيمم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ} وحد الوجه طولاً من منبت الشعر أعلى الجبهة إلى منتهى الذقن أسفل الوجه وحده عرضاً من وتد الأذن اليمنى إلى وتد الأذن اليسرى {وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} فيشمل الغسل الكفين والذراعين إلى بداية العضدين، فيدخل في الغسل المرفقان {وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ} واللفظ محتمل للكل والبعض، والسنة بينت أن الماسح يقبل بيديه ويدبر بهما فيمسح جميع رأسه، وهو أكمل وذلك ببلل يكون في كفيه، كما بينت السنة مسح الأذنين ظاهراً وباطناً بعد مسح الرأس {وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ} ، أي: واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، وهما العظامان النائتان عند بداية الساق، وبينت السنة رخصة المسح³ على الخفين بدلاً من غسل الرجلين، كما بينت غسل الكفين والمضمضة والاستنشاق والاستنثار، وكون

1 نص الحديث: "إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه" ، وفي رواية البخاري: " إذا كان أحدكم في الصلاة فإن ربه بينه وبين القبلة" .

2 وكل ما ذكر في التفسير من صفة الوضوء والغسل والتيمم هو ثابت في الصحاح والسنن، وليس فيه ما هو ضعيف قط.

3 وضلت الرافضة فأخذوا بقراءة: {وَأَرْجُلَكُمْ} بالكسر ومسحوا أرجلهم في كل وضوء وتركوا غسل

الرجلين أبدأً، والحامل لهم على ذلك أن رؤسائهم زينوا لهم ذلك وأوجبه عليهم لعله أن يبقوا بعيدين عن الإسلام والمسلمين ليستغلوهم مادياً، وليعدوهم لقتال المسلمين لإعادة دولة المجوس التي يحلمون بها، وأما أهل السنة والجماعة فإنهم عملوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم فغسلوا أرجلهم؛ لأن نبيهم لم يمسح رجله بدون خف قط، ومسحوا على الخفين كما مسح نبيهم فأخذوا بالقراءتين معاً.

(1/598)

الغسل ثلاثاً ثلاثاً على وجه الاستحباب، وقول بسم الله عند الشروع، أي: البدء في الوضوء. كما بينت السنة وجوب الترتيب بين الأعضاء المغسولة الأول فالأول، ووجوب الفور بحيث لا يفصل بزمن بين أعضاء الوضوء حال غسلها بل يفعلها في وقت واحد إن أمكن ذلك وأكدت وجوب النية حتى لكأنه شرط في صحة الوضوء 1.

وقال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا 2} أي: وإن أصابت أحدكم جنابة وهي الجماع والاحتلام فمن جامع زوجته فأولج ذكره في فرجها ولو لم ينزل، أي: لم يخرج منه المنى فقد أجنب، كما أن من احتلم فخرج منه منى فقد أجنب بل كل من خرج منه منى بلذة في نوم أو يقظة فقد أجنب وانقطاع دم حيض المرأة، ودم نفاسها؛ كالجنابة يجب منه الغسل، وقوله: {فَاطَّهَّرُوا} يريد فاعتسلوا وقد بينت السنة كيفية الغسل وهي: أن ينوي المرء رفع الحدث الأكبر بقلبه ويغسل كفيه قائلاً: بسم الله ويغسل فرجه وا حولهما، ثم يتوضأ الوضوء الأصغر المعروف، ثم يخلل أصول شعر رأسه بببل يديه، ثم يغسل رأسه 3 ثلاث مرات، ثم يقبض الماء على شق جسده الأيمن كله من أعلاه إلى أسفله، ثم الأيسر، ويتعاهد الأماكن التي قد ينبو عنها الماء فلا يمسه؛ كالسرة وتحت الإبطين، والرققين وهما أصل الفخذين، وقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} ذكر تعالى في هذه الجملة الكريمة نواقض الوضوء وموجب الانتقال منه إلى التيمم فقال: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ} ، فالمرضى قد يعجز عن الوضوء لضعف جسمه بعدم القدرة على التحرك، وقد تكون به جراحات أو دمايل يتعذر معها استعمال الماء حيث يزداد المرض بمس الماء، وقوله: {أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ} إذ السفر مظنة عدم وجود الماء هذه موجبات الانتقال من الوضوء إلى التيمم، وقوله عز وجل: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} .

1 بعض الفقهاء يعدون النية فرضاً من فروض الوضوء، وبعضهم يعدها شرطاً، وما دام المشروط يتوقف على شرطه صحة وبطلاناً، والفرض إذا ترك بطل الوضوء فإنه خلاف لفظي لا غير.

2 {فأطهروا} : أصلها فتطهروا، فأدغمت التاء في الطاء لاتحاد مخرجيهما، ومعنى: اطهروا: اغتسلوا، وفي الحديث الصحيح: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور...".

3 مع أذنيه ظاهراً وباطناً.

4 أصل الغائط: أنه المكان المنخفض، ولما كان من يريد قضاء حاجته يأتي المكان المنخفض ليستتر عن أعين الناس، أطلق لفظ الغائط على ما يحل فيه من بول وعذرة.

(1/599)

ذكر في الجملة الأولى نواقض الوضوء إجمالاً وهو الخارج من السبيلين من عذرة وفساء وضراط وبول ومذي كنى عنه بقوله: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ} وهو مكان التغوط والتبول، وذكر موجب الغسل وهو الجماع، وكنى عنه بالملامسة، تعليماً لعباده المؤمنين الآداب الرفيعة في مخاطباتهم، وقوله: {قَلَّمْ تَجِدُوا مَاءً} للوضوء أو الغسل بعد أن طلبتموه فلم تجدوه فتيتموا، اقصدوا من أم الشيء إذا قصده صعيداً طيباً يريد ما صعد على وجه الأرض من أجزائها؛ كالتراب والرمل والسبخة والحجارة، وقوله: {طَيِّباً} يريد به طاهراً من النجاسة والقذر، وقوله: {فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ} بين فيه كيفية التيمم، وهي أن يقصد المرء التراب الطاهر وإن تعذر ذلك فما تيسر له من أجزاء الأرض فيضرب بكفيه الأرض فيمسح بهما وجهه وكفيه طاهراً أو باطناً مرة واحدة وقوله تعالى: {مِنْهُ} أي: من ذلك الصعيد، وبهذا بين تعالى كيفية التيمم، وهي التي علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر¹ رضي الله عنه وقوله تعالى: {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} يخبر تعالى أنه يأمرنا بالطهارة بقسميها الصغرى وهي الوضوء، والكبرى وهي الغسل، وما ينوب عنهما عند العجز، وهو التيمم، ما يريد بذلك إيقاعنا في الضيق والعنت، ولكنه تعالى يريد بذلك تطهيرنا من الأحداث والذنوب، لأن الوضوء كفارة لذنوب المتوضى كما جاء بيانه في السنة 2 وهو قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} أي: بهدايتكم إلى الإسلام وتعليمكم شرائعه فيعديكم بذلك لشكره وهو طاعته بالعمل بما جاء به الإسلام من الأعمال الباطنة والظاهرة، وهو معنى قوله: {الْعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (6)، أما الآية الأخيرة (7) وه قوله تعالى: {وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} فإنه تعالى يأمر عباده المؤمنين أن يذكروا نعمته عليهم بهدايتهم إلى الإيمان ليذكروه بالإسلام، كما يذكروا ميثاقه الذي واثقهم به، وهو العهد الذي قطعه المؤمن على نفسه لربه تعالى بالتزامه بطاعته وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم عندما تعهد أن لا إله إلا الله وأن

1 إذ قال له: "إنما يكفيك أن تقول هكذا ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين، وظاهر كفيه ووجه" متفق عليه. وورد أنه يضرب الأرض فيمسح وجهه ثم يكررها مرة أخرى

فيمسح كفيه، وورد عن ابن عمر مسحهما إلى المرفقين.

2 ورد في فضل الوضوء أحاديث صحيحة كثيرة منها: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره وبيديه ورجليه"، ومنها: "ما من مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يرفع طرفه إلى السماء ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية".

(1/600)

محمداً رسول الله. وأما قوله: {إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} قد قالها الصحابة بلسان الحال عندما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وقد قالها كل مسلم بلسان الحال لما شهد الله بالوحدانية وللنبي بالرسالة. وقوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} أمر بالتقوى التي هي لزوم الشريعة والقيام بها عقيدة وعبادة وقضاء وأدباً وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} يذكرهم بعلم الله تعالى بخفايا أمورهم حتى يراقبوه ويخشوه في السر والعلن، وهذا من باب تربية الله تعالى لعباده المؤمنين لإكمالهم وإسعادهم فله الحمد وله المنة.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- الأمر بالطهارة 1 وبيان كيفية الوضوء وكيفية الغسل، وكيفية التيمم.
 - 2- بيان الأعدار الناقلة للمؤمن من الوضوء إلى التيمم.
 - 3- بيان موجبات الوضوء والغسل.
 - 4- الشكر هو علة الإنعام.
 - 5- ذكر العهود يساعد على التزامها والمحافظة عليها.
- لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

1 في الحديث الصحيح: "الطهور شرط الإيمان". رواه مسلم.

2 وكيفية المسح على الخفين هي: أن يبيل يده بالماء ثم يمسخ ظاهر رجله اليمنى، ثم يمسخ ظاهر اليسرى دون باطنها. حديث علي: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه". ويشترط في المسح أن يلبس خفيه على طهارة.

الْجَحِيمِ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أُنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)}

شرح الكلمات:

{قَوَّامِينَ لِلَّهِ}: جمع قوام، وهو كثير القيام لله تعالى بحقوقه وما وجب له تعالى، وبحقوق الغير أيضاً لا يفرط في شيء من ذلك.

{شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ}: جمع شهيد بمعنى: شاهد، والقسط: العدل.

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ}: أي: لا يحملنكم.

{شَتَّانُ}: بغض وعداوة.

العدل: خلاف الجور، وهو المساواة بلا حيف ولا جور.

{هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}: أي: العدل أقرب للتقوى من الجور.

{هَمَّ قَوْمٌ}: أرادوا وعزموا على إنفاذ إرادتهم والقوم هم يهود بني النضير.

{يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ}: أي: ليقتلوا نبيكم صلى الله عليه وسلم.

{فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ}: لم يمكنهم مما أرادوه من قتل النبي صلى الله عليه وسلم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في توجيه المؤمنين وإرشادهم إلى ما يكملهم ويسعدهم¹، ففي الآية (8) أمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا قوامين لله تعالى بسائر حقوقه عليهم من الطاعات، وأن يكونوا شهداء بالعدل لا يحيفون ولا يجورون في شيء سواه كان المشهد عليه ولياً أو عدواً، ونهاهم أن يحملهم بغض قوم أو عداوتهم على ترك العدل وقد أمروا به، ثم أمرهم بالعدل وأعلمهم أن أهل العدل هم أقرب الناس إلى التقوى²، لأن من كانت ملكة العدل

1 لما ذكرهم تعالى في الآيات السابقة بنعمه العظيمة، طلب إليهم في هذه الآية أن يشكروا تلك النعم، وذلك بالوفاء له بالعهد، فقال لهم: {كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ}.

2 المراد من التقوى: التقوى الكاملة التامة التي هي ملك الأمر، إذ بها تتحقق لهم ولاية ربهم ما داموا مؤمنين متقين.

صفة له كان أقدر على أداء الحقوق والواجبات، وعلى ترك الظلم واجتتاب المنهيات، ثم أمرهم بالتقوى مؤكداً شأنها؛ لأنها ملاك الأمر، وأعلمهم بأنه خبير بما يعملون لتزداد ملكة مراقبة الله تعالى في نفوسهم فيفوزون بالعدل والتقوى معاً، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (8) أما الآية (9) فقد تضمنت بشرى سارة لهم، وهي أن ربهم قد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة لذنوبهم والأجر العظيم لهم وهو الجنة، وقلت بشرى سارة لهم، لأنهم هم أهل الإيمان وصالح الأعمال رضي الله عنهم وأرضاهم، أما الآية الثالثة (10) فقد تضمنت وعيداً شديداً للكافرين المكذبين بآيات الله وحججه التي أرسل بها رسله وأيدهم بها، ولازم لكذبهم وكفرهم خبت أرواحهم، ولذا فهم لا يلائمهم إلا عذاب النار فكانوا بذلك أصحاب الجحيم 2 الذين لا يفارقونها أبداً، وأما الآية الرابعة (11) فقد ذكرهم تعالى بنعمة عظيمة من نعمه، هي نجاتهم محمد صلى الله عليه وسلم من قتل أعدائه وأعدائهم وهم اليهود إذ ورد في سبب نزول هذه الآية ما خلاصته:

أن أولياء العامريين الذين قتلوا خطأ من قبل مسلم حيث ظنهما كافرين فقتلتهما، جاءوا يطالبون بدية قتلهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الخلفاء الراشدون الأربعة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين إلى بني النضير يطالبونهم بتحمل شيء من هذه الدية بموجب عقد المعاهدة، إذ من جملة موادها: تحمل أحد الطرفين معونة الطرف الآخر في مثل هذه الحالة المالية، فلما وصلوا إلى ديارهم شرق المدينة استقبلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحفاوة والتكريم وأجلسوه مكاناً لائقاً تحت جدار منزل من منازلهم وأفهموه أنهم يعدون الطعام والنقود، وقد خلوا ببعضهم وتأمروا على قتله صلى الله عليه وسلم، وقالوا فرصة متاحة فلا نفوتها أبداً وأمروا أحدهم أن يطلق من سطح المنزل حجر رحي كبيرة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم فقتله، وما زالوا يدبرون مكيدتهم حتى أوحى الله إلى رسوله بالمؤامرة الدنيئة، فقام صلى الله عليه وسلم وتبعه أصحابه ودخلوا إلى المدينة وفاتت فرصة اليهود واستوجبوا بذلك اللعن وإلغاء المعاهدة وإجلانهم من المدينة، وقصتهم في سورة الحشر، والمقصود من هذا بيان المراد من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

1 لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} .

2 في الآية قصر إدعائي، وهو قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} ، أي: لا غيرهم؛ كأنهم المتأهلون للعذاب والخلود فيه دون غيرهم، وذلك لعظم جرمهم بالكفر والتكذيب.

آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَشْكُرُونَ 1 اَلَيْسَ اِيْدِيَهُمْ} اَي: بِالْقَتْلِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ} حَيْثُ اُوْحِيَ اِلَى رَسُوْلِهِ مَا دَبَّرَهُ الْيَهُودُ فَاَنْصَرَفَ وَتَرَكَهُمْ لَمْ يَظْفُرُوا بِمَا اَرَادُوا، وَهُوَ مَعْنَى: {فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ 2 عَنْكُمْ}.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بتقواه، إذ هي سلم كمالهم وسبيل نجاحهم، وهي عبارة عن امتثال أمره وأمر رسوله واجتناب نهيهما وأرشداهم إلى التوكل عليه تعالى في جميع أمورهم بقوله: {وَعَلَى 3 اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب القيام بحق الله تعالى على العبد، وهو ذكره وشكره بطاعته.
 - 2- وجوب العدل في الحكم والقول والشهادة والفعل ومع الولي والعدو سواء.
 - 3- تأكيد الأمر بتقوى الله عز وجل.
 - 4- الترغيب والترهيب بذكر الوعد والوعيد كما في الآيتين (9) و(10).
 - 5- وجوب ذكر النعمة حتى يؤدي شكرها.
 - 6- وجوب التوكل على الله تعالى والمضي في أداء ما أوجب الله تعالى.
- {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّٰهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّٰهُ قَرْضًا حَسَنًا لَّا تُكْفِرْنَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا تَدْخِلْنَكُمْ

1 ولهذه الحادثة نظيرتها، فقد تعددت مؤامرات اليهود والمشركين على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ففي الحديبية حصل مثل هذا، وحادثة غورث، وعثور كذلك، إذ الكل همه فيها ببسط أيديهم بالأذى، ولكن الله كف أيديهم فله الحمد وله المنة.

2 كف اليد: كناية عن عدم القتل والقتال. وبسطها: كناية عن السوء والأذى الحاصل بها.

3 في الآية قصر حقيقي، وهو أن التوكل لا يكون إلا على الله، إذ لا كافي إلا هو سبحانه وتعالى.

(1/604)

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12)

شرح الكلمات:

الميثاق : العهد المؤكد بالإيمان.

{بَنِي إِسْرَائِيلَ} : اليهود.

{نَقِيبًا 1} : نقيب القوم: من ينقب عنهم ويبحث عن شؤونهم ويتولى أمورهم.

{وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} 2 : أي: نصرتموهم ودافعتم عنهم معظمين لهم.
{وَأَفْرَضْنُمُ اللَّهَ} : أي: أنفقتم في سبيله ترجون الجزاء منه تعالى على نفقاتكم في سبيله.
{لَأُكْفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} : أسترها ولم أؤخذكم بها.
{فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} : أخطأ طريق الهدى الذي يفلح سالكه بالفوز بالمحبوب والنجاة من
المرهوب.
معنى الآية الكريمة:

لما طالب تعالى المؤمنين بالوفاء بعهودهم والالتزام بمواثيقهم ذكرهم في هذه الآية بما أخذ على بني إسرائيل من ميثاق فنقضوه فاستوجبوا خزي الدنيا وعذاب الآخرة ليكون هذا عبرة للمؤمنين حتى لا ينكثوا عهدهم ولا ينقضوا ميثاقهم كما هو إبطال لاستعظام من استعظم غدر اليهود وهمهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} وهو قوله إني معكم الآتي، {وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} 3 أي: من كل قبيلة من قبائلهم الاثنى عشرة قبيلة نقيباً يرعاهم ويفتش على أحوالهم كرئيس فيهم، وهم الذين بعثهم موسى عليه

- 1 النقب، والنقب بفتح القاف وضمها: الطريق في الجبل. والنقيب: الأمين على القوم، وجمعه نقباء، وهو من ينقب عن أمور القوم ومصالحهم ليرعاهم لهم. وقالوا النقيب أكبر من العريف، وفي البخاري: "ارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاتكم أمركم".
- 2 التعزير: التعظيم. والتوقير والنصرة والدفاع عن المعزr. والتعزير في الشرع: الضرب دون الحد لرد المخالف إلى الحق وسبيل الرشاد.
- 3 من بين النقباء الاثنى عشر: يوشع، وكالب، وهما رجلان صالحان، والباقون هلكوا فلا خير فيهم.

(1/605)

السلام إلى فلسطين لتعرفوا على أحوال الكنعانيين 1 قبل قتالهم. وقال الله تعالى: {إِنِّي مَعَكُمْ} ، وهذا بند الميثاق {لئن أقمتم الصلاة} أي: وعزتي وجلالي {لئن أقمتم الصلاة وآتيتهم الزكاة وأمنتم برُسلي} صدقتموهم فيما جاءوكم به {وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} بنصرتهم وتعظيمهم، {وَأَفْرَضْنُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً} أي: زيادة على الزكاة الواجبة والعامية في الإنفاق، وفي تركية النفس بالإيمان وصالح الأعمال {لَأُكْفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} 2 بإذهاب آثارها من نفوسكم حتى تطيب وتطهر {وَأَدْخِلْنَكُمْ} بعد ذلك التطهير {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا} ، أي: من تحت أشجارها وقصورها {الأنهار} هذا جزاء الوفاء بالميثاق {فَمَنْ كَفَرَ} فنقض وأهمل ما فيه فكفر بعده {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} أي: أخطأ طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، أي: خرج عن الطريق المفضي بسالكة إلى النجاة والسعادة.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- الحث على الوفاء بالالتزامات الشرعية.
- 2- إبطال استغراب واستعظام من يستغرب من اليهود مكرهم ونقضهم وخبثهم ويستعظم ذلك منهم.
- 3- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله تعبد الله بها 3 من قبل هذه الأمة.
- 4- وجوب تعظيم 4 الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرته في أمته ودينه.

1 في الآية دليل على قبول خبر الواحد فيما يحتاج إليه من الاطلاع على حاجة من الحاجات الدينية والدنيوية، وفيها دليل على اتخاذ العين، أي: الجاسوس، وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بسببسة" عيناً في غزوة بدر بعثه لتقصي أخبار أبي سفيان. رواه مسلم.

2 هذا جواب القسم في قوله: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ...} إلخ. وأما قوله تعالى: {إِنِّي مَعَكُمْ} فهو إخبار بوعد الله تعالى لبني إسرائيل، وهي معية نصره وتأييد إن هم وفوا الله بما أخذ عليهم من عهد وميثاق وجملة: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ} جملة مستأنفة ولا علاقة لها بجملة الوعد: {إِنِّي مَعَكُمْ}.

3 ليس هذا من خصائص أمة الإسلام؛ لأن هذه العبادات شرعت لإسعاد وإكمال الإنسان، لذا هي مشروعة لكل الأمم لتوقف الكمال والسعادة على مثلها من مزايا النفوس ومهذبات الأخلاق.

4 لأن مقام الرسل شريف، وكيف وهم رسول الله تعالى، ثم لولا وجوب ذلك لهم مع وجوب محبتهم لما أطاعهم من بعثوا فيهم وأرسلوا إليهم.

(1/606)

{فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13)}

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14)}

شرح الكلمات:

- نقض الميثاق : حله بعدم الالتزام بما تضمنه من أمر ونهي.
- {لَعَنَّاهُمْ} : طردناهم من موجبات الرحمة ومقتضيات العز والكمال.
- {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ} : يبدلون الكلام ويؤولون معانيه لأغراض فاسدة، والكلم من الكلام.
- وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا : تركوا قسطاً كبيراً مما ذكرهم الله تعالى به، أي: أمرهم به في كتابهم.
- {خَائِنَةٍ} : خيانة أو طائفة خائنة منهم.

{قَاعُفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ}: أي: لا تؤاخذهم واصرف وجهك عنهم محسناً إليهم بذلك.
{إِنَّا نَصَارَى}: أي: ابتدعوها بدعة النصرانية، فقالوا: إنا نصارى.
{فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ}: الإغراء: التحريش، والمراد أوجدنا لهم أسباب الفرقة والخلاف إلى يوم
القيامة بتدبيرنا الخاص فهم أعداء لبعضهم البعض أبداً.
معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان خبث اليهود و غدرهم، فقد أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة

(1/607)

(13) أن اليهود الذين أخذ الله ميثاقهم على عهد موسى عليه السلام بأن يعملوا بما في التوراة وأن يقابلوا الكنعانيين ويخرجوهم من أرض القدس وبعث منهم اثني عشر نقيباً قد نكثوا عهدهم ونقضوا ميثاقهم، وأنه لذلك لعنهم وجعل قلوبهم قاسية فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فقال تعالى: {فَبِمَا نَقَضْتُمْ} أي: فبنقضهم ميثاقهم الذي أخذ عليهم بأن يعملوا بما في التوراة ويطيعوا رسولهم {لَعَنَّاهُمْ} أي: أبعدناهم من دائرة الرحمة وأفناء الخير والسلام {وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} شديدة غليظة لا ترق لموعظة، ولا تلين لقبول هدى {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} فيقدمون ويؤخرون ويحذفون بعض الكلام ويؤولون معانيه لتوافق أهواءهم، ومن ذلك تأويلهم الآيات الدالة على نبوة كل من عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم في التوراة {وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ} وتركوا كثيراً مما أمروا به من الشرائع والأحكام معرضين عنها متناسين لها كأنهم لم يؤمروا بها، فهل يستغرب ممن كان هذا حالهم الغدر والنقض والخيانة، ولا تزال يا رسولنا {تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ} أي: على طائفة خائنة منهم كخيانة بني النضير {إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ} فإنهم لا يخونون؛ كعبد الله بن سلام وغيره، وبناء على هذا {قَاعُفُ 4 عَنْهُمْ} فلا تؤاخذهم بالقتل، {وَاصْفَحْ} عنهم فلا تتعرض لمكروهم فأحسن إليهم بذلك {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} .

هذا ما دلت عليها الآية الأولى(13)، أما الآية الثانية(14) في هذا السياق فقد أخبر تعالى عن النصارى5 وأن حالهم كحال اليهود لا تختلف كثيراً عنهم، فقد أخذنا ميثاقهم على الإيمان بي وبرسلي وبالعامل بشرعي فتركوا متناسين كثيراً مما أخذ عليهم العهد والميثاق فيه، فكان أن أغرينا بينهم6 العداوة والبغضاء كثمرة لنقضهم الميثاق فتعصبت كل طائفة لرأيها فثارت

1 الميم في قوله تعالى: {فَبِمَا نَقَضْتُمْ} زائدة لتقوية الكلام وتأكيديه ولفت النظر إليه ليتأمل وتفهيم معانيه.

2 قرئت: {قَاسِيَةً} يقال: عام قسي، أي: شديد لا مطر فيه، فالمادة مأخوذة من الشدة والقساوة.

3 لفظ: خائنة، صالح لأن يكون صفة لطائفة محذوفة كما في التفسير، وجائز أن تكون خائنة بمعنى خيانة؛ كقولهم في القيلولة: قاتلة، والخيانة: هي المعصية، يحدثونها؛ كالكذب والفجور، وأصل الخيانة: عدم الوفاء بالعهد.

4 هذا حمل له صلى الله عليه وسلم على مكارم الأخلاق؛ لأن أذاهم كان منصباً عليه صلى الله عليه وسلم، فأمره بعدم مقابلة الأذى بالأذى، بل بالعفو والصفح ليعظم مقامه أمامه ويكبر في أعينهم.

5 التعبير بلفظ: النصارى، فيه إشارات مهمتان: الأولى: أن النصرانية بدعة ابتدعوها وليست مما شرع الله تعالى، فهو ينفي عنهم ذلك. والثانية: بما أنهم راعوا في هذه البدعة نصرته الدين والحق وأهله أخذاً من قول عيسى: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} ، فَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ: {نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} إذا لم تتصرون الحق وهو الإسلام وأهله، وهم المسلمون؟.

6 من الجائز أن يقال: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ} هو عائد على اليهود والنصارى؛ لأن العداوة بينهم ثابتة، إلى أن السياق هو في النصارى فظوائفهم متعددة ومتعدية متباغضة، كما أخبر تعالى، والفرق بين العداوة والبغضاء: أن العداوة من العدوان فقد ينتج عنها أذى بالضرب أو القتل. وأما البغضاء: فهي من البغض القلبي فلا يتوقع من صاحبها أذى.

(1/608)

بينهم الخصومات وكثر الجدل فنشأ عن ذلك العداوات والبغضاء وستستمر إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله تعالى بما كانوا يصنعون من الباطل والشر والفساد ويجازيهم به الجزاء الموافق لخبث أرواحهم وسوء أعمالهم فإن ربك عزيز حكيم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة نقض المواثيق ونكث العهود ولا سيما ما كان بين العبد وربه.
 - 2- الخيانة وصف لازم لأكثر اليهود فقل من سلم منهم من هذا الوصف.
 - 3- استحباب العفو عند القدرة، وهو من خلال الصالحين.
 - 4- حال النصارى 1 لا تختلف كثيراً عن حال اليهود كأنهم شربوا من ماء واحد. وعليه فلا يستغرب منهم الشر ولا يؤمنون على سر، فهم على عداوة الإسلام والحرب عليه متعاونون متواصون.
- لَبَّيْنا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16){

شرح الكلمات:

{أَهْلَ الْكِتَابِ} 2 : هنا هم اليهود والنصارى معاً.

1 جازئ أن يكون النصارى: جمع نصارى منسوب إلى النصر، كما قالوا: شعراني، ولحياني، منسوب إلى الشعر واللحية.

2 الكتاب: اسم جنس، يصدق على الواحد والاثنتين والأكثر، والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، ونداءه لهم بعنوان الكتاب فيه معنى العيب عليهم سلوكهم الشائن وإنحرافهم الخطير حيث بعدوا عن كل خير.

(1/609)

{قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا} : محمد صلى الله عليه وسلم.

{تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} : الكتاب: التوراة والإنجيل، وما يخفونه صفات النبي محمد صلى الله عليه

وسلم وبعض الأحكام، المخالفين لها يجحدونها خوف المعرفة؛ كالرجم مثلاً.

{وَيَعْفُوا 1 عَنْ كَثِيرٍ} : لا يذكرها لكم لعدم الفائدة من ذكرها.

{نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} : النور: محمد صلى الله عليه وسلم، والكتاب: القرآن الكريم.

{إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} : الإسلام: وهو الدين الحق الذي لا نجاة إلا به. والمستقيم: الذي لا اعوجاج

فيه.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في أهل الكتاب فبعد أن بين تعالى باطلهم وما هم عليه من شر وسوء دعاهم، وهو

رهبهم وأرحم بهم من أنفسهم إلى سبيل نجاتهم وكمالهم دعاهم إلى الإيمان رسوله وكتابه ذلك الرسول

الذي ما اتبعه أحد وندم وخزي، والكتاب الذي ما ائتم به أحد وضل أو شقين فقال: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا} أي: محمد صلى الله عليه وسلم {يُبَيِّنُ لَكُمْ} بوحينا {كَثِيرًا} من مسائل الشرع والدين

التي تخفونها خشية الفضيحة لأنها حق جحدتموه، وذلك كنعوت النبي الأمي وصفاته حتى لا يؤمن

به الناس، وكحكم الرجم في التوراة وما إلى ذلك. {وَيَعْفُوا} يترك كثيراً لم يذكر لعدم الداعي إلى ذكره

يا أهل الكتاب {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ} ريكم {نُورٌ} هو رسولنا محمد2 صلى الله عليه وسلم {وَكِتَابٌ

مُبِينٌ} وهو القرآن، إذ بين كل شيء من أمور الدين والدنيا وكل ما تتوقف سعادة الإنسان وكمال

عليه دنيا وأخرى {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ} تعالى {مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ}، وذلك بالرغبة الصادقة في الحصول على

رضا الله عز وجل بواسطة فعل محابه وترك مساخطه عن كل معتقد وقول وعمل يهديه به {سُبُلَ

السَّلَامِ} أي: طريق السعادة والكمال، {وَيُخْرِجُهُمْ} أي: المتبعين رضوان الله {مِنَ الظُّلُمَاتِ} وهي

ظلمات الكفر والشرك والشك، إلى نور الإيمان الصحيح والعبادة الصحيحة المزكية للنفس المهذبة للشعور بتوفيقه وعونه تعالى ويهديهم، أي: أولئك الراغبين حقاً في رضا الله لِيُؤَيِّدَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ

1 {يُغْفِرُ} معناه: يعرض ولا يظهر، يقال: عفا الرسم، إذا لم يظهر، فعفا عن كذا، أعرض عنه ولم يظهره

2 واللفظ صالح لأن يكون المراد بالنور: الإسلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم نور الإسلام، نور إذ كل منهما يهدي إلى دار السلام في الآخرة وإلى الطهر والصفاء والكمال في دار الدنيا.

(1/610)

مُسْتَقِيمٍ} لا يضلون معه ولا يشقون أبداً، وهو دينه الحق الإسلام الذي لا يقبل ديناً غيره 1، والذي ما اهتدى من جانبه ولا سعد ولا كمل من تركه.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

1- نصح الله تعالى لأهل الكتاب بدعوتهم إلى سبل السلام بالدخول في الإسلام.

2- بيان جحود اليهود والنصارى لكثير من الأحكام الشرعية ودلائل النبوة المحمدية مكرراً وحسداً حتى لا يؤمن الناس بالإسلام ويدخلوا فيه.

3- اتباع السنة المحمدية يهدي صاحبه إلى سعاده وكماله.

4- القرآن حجة على الناس كافة لبيانه الحق في كل شيء.

5- طالب رضا 2 الله بصدق يفوز بكل خير وينجو من كل ضير.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ

1 شاهده قوله تعالى، من سورة آل عمران: لَوْ مَنَّ بِيَتَّعِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} .

2 لأنه يطلبه عن طريق الإسلام، والإسلام قائد أهله إلى النجاة من كل مرهوب، وإلى الفوز بكل محبوب مرغوب.

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

شرح الكلمات:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ}: لأنهم جحدوا الحق، وقالوا كذباً: الله هو المسيح بن مريم.

{الْمَسِيحُ}: لقب لعيسى بن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام.

{مَرْيَمَ}: بنت عمران، من صلحاء بني إسرائيل، والدة عيسى عليه السلام.

{يُهْلِكُ}: يميت ويبيد.

{قَدِيرٌ}: قادر على إيجاد وإعدام كل شيء أراد إيجاداً أو إعدامه.

الأحباء: واحده: حبيب، كما أن الأبناء واحده: ابن.

{عَلَى فِتْرَةٍ}: الفترة: زمن انقطاع الوحي لعدم إرسال الله تعالى رسولاً.

{بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ}: البشير: المبشر بالخير، والنذير: المنذر من الشر، وهو رسول الله صلى الله عليه

وسلم يبشر المؤمنين وينذر الكافرين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن أهل الكتاب، ففي الآية الأولى (17) أخبر تعالى مؤكداً الخبر بالقسم المحذوف الدالة عليه اللام الواقعة في جواب القسم، فقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} ووجه كفرهم أنهم جعلوا المخلوف المربوب هو الله الخالق الرب لكل شيء، وهو كفر من أقبح أنواع الكفر، وهذا وإن لم يكن قول أكثر النصارى فإنهم بانتمائهم إلى النصرانية وقولهم بها وانخراطهم في سلك مبادئها وتعاليمها يؤاخذون به، لأن الرضا بالكفر كفر.

1 المراد من ذكر هذا الخبر: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} هو بيان كفرهم بهذه المقالة، لا أنه تقرير لضلالتهم ونقضهم الميثاق.

2 هذا عائد إلى قول بعضهم: إن المسيح لاهوت ناسوت، أي: إله وإنسان. وهو خلط وخبط لا نظير لهما، وأشهر طوائفهم، وهم: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية، ينكرون أن يكون الله هو المسيح، ولكن يقولون: إن عيسى ابن الله، وأنه إله. وهو كذب صراح، وكفر بواح.

وقوله تعالى: { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } يعلم رسوله كيف يتحج على أهل هذا الباطل فيقول له: قل لهم: فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه عليهما السلام {وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} ، والجواب قطعاً: لا أحد، إذاً فكيف يكون عبد الله هو الله أو إلهاً مع الله؟ أليس هذا هو الضلال بعينه وذهاب العقول بكماله؟ ثم أخبر تعالى أنه له {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} خلقاً وتصرفاً، وأنه {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} خلقه بلا حبر عليه ولا حذر، و هو على كل شيء قدير خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق حواء من آدم، وخلق عيسى من مريم بلا أب، وبخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير فكون المسيح عليه السلام خلقه بكلمة كن بلا أب لا تستلزم عقلاً ولا شرعاً أن يكون هو الله، ولا ابن الله، ولا ثالث مع الله، كما هي عقيدة أكثر النصارى، والعجب من إصرارهم على هذا الباطل، هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الآية الثانية (18) فقد تضمنت بيان ضلال اليهود والنصارى معاً، وهو دعواهم أنهم {أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} ، إذ قال تعالى عنهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} وهو تبجح وسفه وضلال، فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم بقوله: قل لهم يا رسولنا: {قَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} فهل الأب يعذب أبناءه، والحبیب يعذب محبيه، وأنتم تقولون نعذب في النار أربعين يوماً بسب خطيئة عبادة أسلافهم العجل أربعين يوماً، كما جاء ذلك في قوله تعالى حكاية عنهم: {وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً} ، والحقيقة أن هذا القول منكم من جملة الترهات والأباطيل التي تعيشون عليها، وأما أنتم فإنكم بشر ممن خلق الله فنسبتم إليه تعالى نسبة مخلوق إلى خالق، وعبد إلى مالك من آمن منكم وعمل صالحاً غفر له وأكرمه، ومن كفر منكم وعمل سوء عذبه، كما هي سنته في سائر عبادته، ولا اعتراض عليه فإن له ملك السموات والأرض وما بينهما وأنتم من جملة مملوكيه، وإليه المصير فسوف ترجعون إليه ويجزيكم بوصفكم إنه حكيم عليم.

هذا ما دلت عليه الآية الثانية، أما الآية الثالثة (19) فقد تضمنت إقامة الحجة على أهل

1 الفاء: للعطف على جملة محذوفة متضمنة كذبهم في قولهم، والتقدير: كل كذبتم فمن يملك... إلخ.

2 التعبير بالأبوة والبنوة المنسوبة إلى الله تعالى تفيض بها التوراة والإنجيل، وهو من التحريف الذي حصل لكتابتهم، وأما قول من قال: هذه الأبوة والبنوة كانت تعني التشريف فاغتر بها المتأخرون واعتقدوا حقيقتها. هذا القول فيه مجازفة لا تقبل.

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: "خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً من اليهود في العقاب فقالوا: لا نخاف فإننا أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية.

الكتاب، فقد ناداهم الرب تبارك وتعالى بقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} وأعلمهم أنه قد جاءهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يبين لهم الطريق المنجي والمسعد في وقت واحد على حين فترة من 1 الرسل، إذ انقطع الوحي منذ رفع عيسى إلى السماء وقد مضى على ذلك قرابة خمسمائة وسبعين سنة أرسلنا رسولنا إليكم حتى لا تقولوا معذرين عن شرككم وكفركم وشركم وفسادكم: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}2} فيها هو ذا البشير محمد3 صلى الله عليه وسلم قد جاءكم4 فأمنوا به واتبعوه تنجوا وتسعدوا، وإلا؛ فالعذاب لازم لكم، والله على تعذيبكم قدير كما هو على كل شيء قدير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كفر من ينسب إلى الله تعالى ما هو منزّه عنه من سائر النقائص.
- 2- بطلان دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه بالدليل العقلي.
- 3- نسبة المخلوقات لله تعالى لا تتجاوز كونها مخلوقة له مملوكة يتصرف فيها كما شاء ويحكم فيها بما يريد.

4- قطع عن أهل الكتاب بإرسال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل. {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ

1 الفترة: مشتقة من فتر عن عمله، يفتر فتورًا، إذا سكن. والأصل فيها الانقطاع عما كان عليه من الجد عليه. والمراد بها في الشرع: هي انقطاع ما بين الرسولين.

2 {مَنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} من زائدة وزيادتها لغرض المبالغة في نفي المجيء وتكثير بشير ونذير للتقليل، أي: ما جاءنا أقل بشير وأقل نذير.

3 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب قالوا لليهود: يا معشر يهود اتقوا الله فإنكم والله لتعلمون أن محمدًا رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه بصفته فقالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعد من بشير ولا نذير فنزلت هذه الآية.

4 قوله تعالى: {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ...} الآية. الفاء: هي الفاء الفصيحة، فقد أفصحت عن محذوف ما بعدها يكون علة له، وتقديره هنا: لا تعتذروا فقد جاءكم... إلخ.

فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانكِمُوا عَلَيْهِمُ الْعُقَابَ إِنَّكُمْ عَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمُ وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)

شرح الكلمات:

{نِعْمَةٌ 1} اللَّهُ عَلَيْكُمْ : منها نجاتهم من فرعون وملائه.
{إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ 2} : منهم موسى وهارون عليهما السلام.
{وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} : أي: مالكين أمر أنفسكم بعد الاستعباد الفرعوني لكم.
{الْعَالَمِينَ} : المعاصرين لهم والسابقين لهم.
{الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ} : المطهرة التي فرض الله عليكم دخولها والسكن فيها بعد طرد الكفار منها.
{وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ} : أي: ترجعوا منهزمين إلى الوراء.
{قَوْمًا جَبَّارِينَ} : عظام الأجسام أقوياء الأبدان يجبرون على طاعتهم من شاءوا.
{يَخَافُونَ} : مخالفة أمر الله تعالى ومعصية رسوله.
{أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} : أي: بنعمة العصمة حيث لم يفشوا سر ما شاهدوه لما دخلوا أرض الجبارين لكشف أحوال العدو بها، وهما يوشع وكالب من النقباء الاثنى عشر.
معنى الآيات:

ما زال السياق مع أهل الكتاب، وهو هنا في اليهود خاصة، إذ قال الله تعالى لرسوله محمد

-
- 1 النعمة: اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد؛ كقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} فهو دال على العدد الذي لا يحصى.
 - 2 أنبياء: جمع نبي، ولم يصرف لأن فيه ألف التأنيث الممدودة.

(1/615)

صلى الله عليه وسلم واذكر 1 {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ} كموسى وهارون عليهما السلام {وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} 2} تملكون أنفسكم لا سلطان لأمة عليكم إلا سلطان ربكم عز وجل 3 {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} للسكن فيها والاستقرار بها فافتحوا باب المدينة وباغثوا العدو فإنكم تغلبون {وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ} أي: ولا ترجعوا إلى الوراء منهزمين فتقلبوا بذلك خاسرين، لا أمر الله بالجهاد أطعتم، ولا المدينة المقدسة دخلتم وسكنتم، واسمع يا رسولنا جواب القوم ليزول استعظامك بكفرهم بك وهمهم بقتلك، ولتعلم أنهم قوم بهت سفلة لا خير لهم، إذ قالوا في جوابهم لنبيهم موسى عليه السلام: {يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} 4 وَإِنَّا لَن

نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} !! وكان سبب هذه الهزيمة الروحية ما أذاعه النقباء من أخبار مهيلة مخيفة تصف العمالقة الكنعانيين بصفات لا تكاد تتصور في العقول، اللهم إلا اثنين منهم، وهما: يوشع بن نون، وكالب بن يوحنا، وهما اللذان قال تعالى عنهما: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} أي: أمر الله تعالى {أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} فعصمهما من إفشاء سر ما رأوا من قوة الكنعانيين إلا لموسى عليه السلام قالاً للقوم: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ} أي: باب المدينة {فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} ، وذلك لعنصر المباغطة، وهو عنصر مهم في الحروب، {وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ} وهاجموا القوم واقتحموا عليهم المدينة {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} بما أوجب الله عليكم من جهاد وكتب لكم من الاستقرار بهذه البلاد والعيش بها، لأنها أرض 5 القدس والطهر. هذا ما تضمنته الآيات الأربع، وسنسمع رد اليهود على الرجلين في الآيات التالية.

- 1 في هذه الآيات تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلاقي من عنت وعناد له بالمدينة، لذا أعلمهم بما لاقى موسى منهم من غلظة وجفاء وتعنت وعناد.
- 2 روي عن الحسن وزيد ابن أسلم: "أن من كانت له دار وزوجة وخادم فهو ملك". وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص، كما في صحيح مسلم، إذ سأله رجل قائلاً: "ألستا من فقراء المهاجرين". فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها. قال: نعم. قال: ألك منزل تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإن لي خادماً. قال: فأنت ملك".
- 3 سقطت هذه الآية من التفسير: {وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} وهو قول موسى لقومه، وما آتاهم منه: المن والسلوى والغمام. وكون الأنبياء في بني إسرائيل في هذا المذكور تبدوا الخصوصية المذكورة في قوله: {مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} .
- 4 {جَبَّارِينَ} أي: عظام الأجسام طوالها، والجبار من الناس: المتعظم الممتنع من الذل والفقر، أو هو من يجبر الناس على مراده لقوته عليهم وقهره لهم، وذكر القرطبي هنا حديثاً مسهباً، عن عوج بن عناق، وهو حديث خرافة لما فيه من التهاويل الباطلة.
- 5 هي أرض فلسطين الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين نهر الأردن والبحر الميت، فتنتهي إلى حماة شمالاً وغزة وحررون جنوباً "تقلاً عن التنوير".

(1/616)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بإعلامه تعالى بخبث اليهود وشدة ضعفهم ومرض قلوبهم.

- 2- فضح اليهود بكشف الآيات عن مخازيهم مع أنبيائهم.
- 3- بيان الأثر السيئ الذي تركه إذاعة النقيب للأخبار الكاذبة المهولة، وقد استعملت ألمانيا النازية هذا الأسلوب ونجحت نجاحاً كبيراً حيث اجتاحت نصف أوربا في مدة قصيرة جداً.
- 4- بيان سنة الله تعالى من أنه لا يخلو زمان ولا مكان من عبد صالح تقوم به الحجة على الناس.
- 5- فائدة عنصر المباغثة في الحرب وأنه عنصر فعال في كسب الانتصار.
- {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} (26)
- شرح الكلمات:

{لَن نَدْخُلُهَا} : أي: المدينة 1 التي أمروا بمهاجمة أهلها والدخول عليهم فيها.

{الْفَاسِقِينَ} : أي: عن أمر الله ورسوله بتركهم الجهاد جنباً وخوفاً.

{مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ} : أي: تحريماً كونياً قضائياً لا شرعياً تعديماً.

{يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} : أي: في أرض سيناء متحيرين فيها لا يدرون أين يذهبون مدة أربعين سنة.

{فَلَا تَأْسَ} : أي: لا تحزن ولا تأسف.

1 إلیا أو أریحا لا تعدو واحدة منها عند أكثر المفسرين والمؤرخین.

(1/617)

معنى الآيات:

هذا هو جواب القوم على طالب الرجلين الصالحين باقتحام المدينة على العدو، إذ قالوا بكل وقاحة ودناء وخسة: يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا} أي: المدينة {أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا} أي: ما دام أهلها فيها يدافعون عنها ولو لم يدافعوا 1، {فَادْهَبْ أَنْتَ 2 وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} أهل المدينة، أما نحن ف {هَاهُنَا قَاعِدُونَ} . أي تمرد وعصيان أكثر من هذا؟ وأي جبن وخور أعظم من هذا؟ وأي سوء أدب أحط من هذا؟ وهنا قال موسى متبرئاً من القوم الفاسقين: رب: أي يا رب {إِنِّي لَا أَمْلِكُ 3 إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} يريد هارون {فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} فطلب بهذا البراءة منهم 4 ومن صنعهم، إذ قد استوجبوا العذاب قطعاً، فأجابه ربه تعالى بقوله في الآية الثالثة (26) {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ} أي: الأرض المقدسة أربعين سنة لا يدخلونها وفعلاً ما دخلوها إلا بعد مضي الفترة المذكورة "أربعين سنة" وكيف كانوا فيها؟ يتيهون 5 في أرض سيناء متحيرين لا يدرون أين يذهبون ولا من أين يأتون، وعليه فلا تحزن يا رسولنا ولا تأسف على القوم الفاسقين، إذ هذا جزاؤهم من العذاب عجل لهم فليذوقوه!!

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان جبن اليهود وسوء أدبهم مع ربهم وأنبيائهم.
- 2- وجوب البراءة من أهل الفسق بيبغض عملهم وتركهم لنقمة الله تعالى تنزل بهم.
- 3- حرمة الحزن والتأسف على الفاسقين والظالمين إذا حلت بهم العقوبة الإلهية جزاء فسقهم وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم.

- 1 هذا الجبن والخور الذي أصاب القوم سببه: ما أذاعه النقباء فيهم، ما عدا يوشع وكالب؛ من أن العمالقة قوم جبارون، أجسامهم كذا وكذا في طولها وعرضها، وقوتهم كذا وكذا...
- 2 هذه العبارة تدل على جهل القوم بالله تعالى وبما يجب له من العظيم والوقار، وهي كلمة كفر إن لم يعذر صاحبها بجهل بالله تعالى وصفاته
- 3 ليس معنى الملك أن يملكه كعبد لا. أنه أخوه فكيف يملكه وإنما مراده: إني لا أملك إلا نفسي وأخي لا يملك لا نفسه أيضاً لا قدرة لي ولا له على بني إسرائيل.
- 4 أراد مفاصلتهم لما ظهر منهم من التمرد والعصيان والبعد عنهم حتى لا يصيبهما ما يصيبهم من العقاب.
- 5 التيه في اللغة: الحيرة. يقال: تاه يتيه تيهًا، إذا تحير، والأرض التيهاء التي لا يهتدي فيها، وتاه المرء في الأرض ذهب فيها متحيرًا لا يدري، أين يذهب أو يجيء.

(1/618)

{وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)}

شرح الكلمات:

- {وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ}: وأقرأ على اليهود الذين هموا بقتلك وقتل أصحابك.
- {نَبَأَ ابْنِي آدَمَ}: خبر ابني آدم هابيل وقابيل.
- {قُرْبَانًا}: القربان: ما يتقرب I به إلى الله تعالى؛ كالصلاة والصدقات.

{بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ} : مددت إلي يدك.

{أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} : ترجع إلى الله يوم القيامة بإثم قتلك إياي، وإثمك في معاصيك.

{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ} : شجعت على القتل وزينته حتى فعله.

{غُرَابًا} : طائراً أسود معروف يضرب به المثل في السواد2.

1 قيل كان قريان قبايل: حزمة من سنبل؛ لأنه صاحب زرع فاخترها من أردئ زرع، حيث إنه وجد فيها سنبله طيبة ففركها وأكلها، وأما قريان هابيل: فكان كبشاً؛ لأنه صاحب غنم واختره من أجود غنمه.

2 يقال: أسود غريب، وقال الشاعر: حتى إذا شاب الغراب أتيت أهلي.

(1/619)

{يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ} : يستر بالتراب جسد أخيه، وقيل: فيه سوءة، لأن النظر إلي الميت تكرهه

النفوس، والسوءة: ما يكره النظر إليها.

معنى الآيات:

ما زال السياق القرآني الكريم في الحديث عن يهود بني النضير الذين هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فאלله تعالى يقول لرسوله: واقرأ عليهم قصة ابني آدم هابيل وقابيل ليعلموا بذلك عاقبة جريمة القتل الذي هموا به، توبيخاً لهم، وإظهاراً لموقفك الشريف منهم حيث عفوت عنهم، فلم تقتلهم بعد تمكنك منهم، وكنت معهم كخير ابني آدم، {إِذْ قَرَّبْنَا قُورَيْنَا}1 ، أي: قرب كل منهما قرباناً لله تعالى فتقبل الله قريان2 أحدهما لأنه كان من أحسن ماله وكانت نفسه به طيبة، {وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخِرِ} وهو قابيل؛ لأنه كان من أردأ ماله، ونفسه به متعلقة، فقال لأخيه هابيل لأقتلنك حسداً له - كما حسدتك اليهود وحسدوا قومك في نبوتك ورسالتك - فقال له أخوه إن عدم قبول قربانك عائد إلى نفسك لا إلى غيرك {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}3 للشرك، فلو انتقت الشرك لتقبل منك قربانك لأن الله تعالى لا يتقبل إلا ما كان خالصاً له، وأنت أشركت نفسك وهواك في قربانك، فلم يتقبل منك.

ووالله قسماً به. {لَنْ يَسْطُرَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ} ، وعلل ذلك بقوله:

{إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} ، أي: أن ألقاه بدم أرقته ظلماً. وإن أبيت إلا قتلي فإني لا أقتلك لأنني

أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، أي: ترجع إلى ربنا يوم القيامة بإثم قتلك إياي، وإثمك الذي فارقت في

حياتك كلها، فتكون بسبب ذلك من أصحاب النار الخالدين فيها الذين لا يفارقونها أبداً، قال تعالى:

{وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} ، {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ} أي شجعت عليه وزينته له فقتله {فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ}4 النادمين لأنه لم يدر ما يصنع به

1 القربان: اسم جنس يطلق على الواحد، والمتعدد، إذ لكل منهما قربان وليس قرباناً واحداً اشتراكاً فيه.

2 إن قيل كيف عرف القبول من عدمه؟ فالجواب: إن سنة الله تعالى فيمن سبق أن من قرب الله تعالى فقبله أرسل عليه ناراً من السماء فأحرقته ومن لم يتقبله لم يفعل به ذلك. ويشهد له حديث الصحيح في غنائم بني إسرائيل إذ كانت محرمة عليهم ولم تحل إلا لإمة الإسلام، إذ أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: " إن ناراً تنزل من السماء على الغنائم فتحرقها".

3 فيه دلالة على أن قابيل لم يكن تقياً، وقابيل في لغة بني إسرائيل بالنوب: قابين، وكذا هابيل، وقوله: {إنما يتقبل الله...} إلخ. مسبوق بكلام دل عليه السياق، وهو مثل قوله: لم تقتلني ولم أجني شيئاً ولا ذنب لي في قبول الله قرباني وكونه تقبل مني لا يستوجب قتلي {إنما يتقبل الله من المؤمنين}. .

4 لما كان أول من سن القتل فإنه لا تقتل نفساً ظلماً إلا وعليه كفل منها لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل من دمه؛ لأنه أول من سن القتل". وفي الحديث الآخر: "من سن سيئة فعلية وزرّها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة".

(1/620)

فكان يحمله على عاتقه ويمشي به حتى عفن، وعندئذ بعث الله غراباً يبحث في الأرض، أي: ينبش الأرض برجليه ومنقاره وينشر التراب على ميت معه حتى وراه: أي بعث الله الغراب ليريه كيف يوارى، أي: يستر سوءة أخيه، أي جيفته، فلما رأى قابيل ما صنع الغراب بأخيه الغراب الميت قال متندماً متحسراً يا ويلنا، أي: يا ويلتي احضري فهذا أوان حضورك، ثم ويخ نفسه قائلاً: {أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي} ، كما وارى الغراب سوءة أخيه، وأصبح من النادمين على حمله أو على قتله وعدم دفنه وبمجرد الندم لا يكون توبة مع أن توبة القاتل عمداً لا تتجيه من النار.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية التقرب إلى الله تعالى بما يجب أن يتقرب به إليه تعالى.
- 2- عظم جريمة الحسد وما يترتب عليها من الآثار السيئة.
- 3- قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها لله تعالى.
- 4- بيان أول من سن جريمة القتل، وهو قابيل، ولذا ورد: ما من نفس تقتل نفساً ظلماً إلا كان على

ابن آدم الأول كفل "نصيب" ذلك بأنه أول من سن القتل.
5- مشروعية الدفن 1 وبيان زمنه.

6- خير ابني آدم المقتول ظلماً، وشرهما القاتل ظلماً 2.

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

1 يستحب توسعة القبر لقوله صلى الله عليه وسلم: "احفروا وأوسعوا وأحسنوا للحد". والحد أفضل
من الشق لقوله صلى الله عليه وسلم: "الحد لنا والشق لغيرنا". ويستحب لمن يضع الميت في قبره
أن يقول: بسم الله وعلى ملة رسول الله، ولمن حضر الدفن أن يحثو على القبر من قبل رأسه ثلاثاً.
2 وإن قيل ما تصنع بحديث الصحيح: "إذ التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". قلت
هذا الحديث فيمن يقاتل في غير حق استوجب القتل والقتال. أما من ظلم فدافع عن نفسه فقتل فهو
شهيد بنص الحديث الصحيح. وكذا من بغى على المسلمين فقتاله واجب، ومن قاتله فهو مجاهد
ومن قتل فهو شهيد.

(1/621)

جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)

شرح الكلمات:

{من أجل ذلك}: أي بسبب ذلك القتل.

{كتبنا}: أوحينا.

{أو فساد في الأرض}: بحلابة الله ورسوله والمؤمنين.

{ومن أحياها}: قدر على قتلها وهي مستوحية له فتركها.

{بالبينات}: الآيات والواضحات حاملة للشرائع والدلائل.

{لمسرفون}: مكثرون من المعاصي والذنوب.

معنى الآية الكريمة:

يقول تعالى: إنه من أجل قبح جريمة القتل وما يترتب عليها من مفسد ومضار لا يقادر قدرها،
أوحينا على بني إسرائيل لكثرة ما شاع بينهم من القتل وسفك الدماء، فقد قتلوا الأنبياء والآمرين
بالقسط من الناس لأجل هذه الضراوة على القتل، فقد قتلوا رسولين: زكريا ويحيى، وهموا بقتل
المرسلين العظميين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، من أجل ذلك 1 شددنا 2 عليهم في العقوبة،
إذ من قتل منهم نفساً بغير نفس أي ظلماً وعدواناً، أو قتلها بغير فساد قامت به في الأرض، وهو

حرب الله ورسوله والمؤمنين {فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} بمعنى يعذب عذاب قتل الناس جميعاً يوم القيامة، {وَمَنْ أَحْيَاهَا} بأن استوجب القتل فعفا عنها وتركها لله إبقاءً عليها {فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} يعني يُعطى أجر من أحيا الناس 4 جميعاً، كل هذا شرعه الله تعالى لهم تنفيراً

- 1 قوله: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ}: تعليل لقوله: {كَتَبْنَا} ومن: ابتدائية، والأجل: الجراء والسبب، وهو مصدر أجل يؤجل ويأجل بمعنى: جنى واكتسب. فلذا هو يقال في الخير كما يقال في الشر، تقول: أكرمته لأجل علمه. كما تقول: أهنته لأجل فسقه. أما الجراء في قولك: فعلت كذا من جراء كذا. فهو مأخوذ من جر إذا سبب تقول: فعليّ كذا، جرى لي كذا، أي: سببه.
- 2 خص بني إسرائيل بهذا دون من سبقهم من الأمم تغليظاً عليهم لجرأتهم على القتل علمهم يكفون من سفك الدماء، إذ قتلوا حتى الأنبياء والأميرين بالقسط من الناس.
- 3 كأن للتشبيه، ومن هنا يكون معنى الكلام: كتبنا مشابهة قتل نفس بغير نفس... إلخ. بقتل الناس أجمعين، أي: في عظم الجرم ومشابهة من أحيا الناس جميعاً في عظم الأجر.
- 4 من أحياها: معناه: من استنقذها من الموت، بأن عفى عنها بعد تعين القصاص عليها، أو دافع عنها حتى أنقذها ممن أراد قتلها لأن الإحياء بعد الموت ليس في مقدور الإنسان وإنما قد يهيم المرء بالقتل ويعفو فيكون كمن أحياها.

(1/622)

لهم من القتل الذي أصروا عليه، وترغيباً لهم في العفو الذي جافوه وبعدوا عنه فلم يعرفوه، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ 1 رُسُلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ} يخبر تعالى عن حالهم مسلماً رسولاً محمداً عما يحملة من همّ منهم، وهم الذين تآمروا على قتله أن الشر الذي لازم اليهود والفساد الذي أصبح وصفاً لازماً لهم وخاصة المؤامرات بالقتل وإيقاد نار الحروب لم يكن عن جهل وعدم معرفة منهم لا أبداً، بل جاءتهم رسلم بالآيات البينات والشرائع القويمة والآداب الرفيعة، ولكنهم قوم بهت متمردون على الشرائع مسرفون في الشر والفساد، ولذا فإن كثيراً منهم والله لمسرفون في الشر والفساد، وبنهاية هذه الآية ومن قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } وهي الآية (11) انتهى الحديث عن اليهود المتعلق بحادثة همهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد ذكر تسليية لرسول الله وأصحابه، كما هو تسليية لكل مؤمن يتعرض لمكر اليهود عليهم لعائن الله.

هداية الآية

من هداية الآية:

- 1- تأديب الرب تعالى لبني إسرائيل، ومع الأسف لم ينتفعوا به.
 - 2- فساد بني إسرائيل لم ينشأ عن الجهل وقلة العلم، بل كان اتباعاً للأهواء وجرياً وراء عارض الدنيا. فلذا غضب الله عليهم ولعنهم؛ لأنهم عالمون.
 - 3- بالرغم من تضعيف جزاء الجريمة على اليهود، ومضاعفة أجر الحسنة لهم فإنهم أكثر الناس إسرافاً في الشر والفساد في الأرض.
- {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ

1 هذه الجملة: تذييل لما سبق من حكم الله تعالى فيهم، حيث شرع لهم وأعلمهم بأن من يقتل نفساً ظلماً وعدواناً يعتبر شرعاً كأنما قتل الناس جميعاً، ذكر فيه أنه لا عذر لهم فيما عوقبوا به، إذ لم يكونوا جاهلين لمجيئتهم رسلهم بالآيات البينات تحمل الشرائع والهدايات، ومع هذا فإن كثير منهم مسرفون في المعاصي والجرائم العظام؛ كالقتل في الأرض.

2 شاهده من القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} من الممتحنة، و {غير المغضوب عليهم} من الفاتحة.

(1/623)

وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34){

شرح الكلمات:

{يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}: بالخروج عن طاعتها وحمل السلاح على المؤمنين وقتلهم وسلب أموالهم والاعتداء على حرمتهم.

{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا}: بإخافة الناس وقطع طرقهم وسلب أموالهم والاعتداء على أعراضهم.
{أَوْ يُصَلَّبُوا}: يشدون على أعواد الخشب ويقتلون، أو بعد أن يقتلوا.

{مِنْ خِلَافٍ}: بأن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس.

{أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}: أي من أرض الإسلام.

{خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا}: ذل ومهانة.

{عَذَابٌ عَظِيمٌ}: عذاب جهنم.

{أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}: أي: تتمكنوا منهم بأن فروا بعيداً ثم جاءوا مسلمين.

معنى الآيتين:

لما ذكر تعالى ما أوجبه على اليهود من شدة العقوبة وعلى جريمة القتل والفساد في الأرض كسراً لحدة جرعتهم على القتل والفساد، ذكر هنا حكم وجزاء من يحارب المسلمين ويسعى بالفساد في ديارهم فقال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} بالكفر 2 بعد الإيمان

1 الجمهور على أن سبب نزول هذه الآية: {إِنَّمَا جَزَاءُ...} إلخ. هو العرنيون الذين نزلوا المدينة وادعوا أنهم اجتووها، أي: أمرضهم مناخها فأمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بلقاح وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها فخرجوا خارج المدينة، ولما شفوا وصحوا قتلوا الراعي ومثلوا به، وذهبوا بالإبل فلحقتهم خيل المسلمين فردتهم ونزلت هذه الآية ببيان حكم الله فيهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فبقى هذا تشريعاً يطبق على مثلهم إلى يوم القيامة.

2 لأن العرنيين وكانوا سبعة ثلاثة من عُكُل، وأربعة من عرينة كفروا بعد إيمانهم الذي أظهرها بالمدينة، ثم ادعوا أنهم استوخموا المدينة فسادهم الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة منه بما يشفيهم، فلما شفوا وصحوا كفروا وقتلوا الراعي وساقوا الإبل، والآية عامة في المرتد وغيره، والحكم ما بين الله تعالى في هذه الآية لا غيره، وصيغة الحصر فيها إنما ظاهرة.

(1/624)

والقتل والسلب بعد الأمان، {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا} بتخويف المسلمين، وقطع طرقهم وأخذ أموالهم، والاعتداء على حرمتهم وأعراضهم، هو ما أذكره لكم لا غيره فاعلموه أنه {أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} ، ومعنى: يقتلوا: واحداً بعد واحد نكاية لهم وإرهاباً وتعزيراً لغيرهم، ومعنى: يصلبوا: بعد ما يقتل الواحد منهم يشد على خشبة مدة ثلاثة أيام، ومعنى: ينفوا من الأرض: يخرجوا من دار الإسلام، أو إلى مكان ناءٍ كجزيرة في بحر أو يحبسوا حتى ينجو المسلمون من شرهم وأذاهم، ويكون ذلك الجزاء المذكور خزيماً وذلاً لهم 1 في الدنيا {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} وهو عذاب النار، وقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} فهذا استثناء متصل من أولئك المحاربين بأن من عجزنا عنه فلم نتمكن من القبض عليه، وبعد فترة جاءنا تائباً فإن حكمه يختلف عن قبله، وقوله تعالى: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} يحمل إشارة واضحة إلى تخفيف الحكم عليه، وذلك فإن كان كافراً وأسلم فإن الإسلام يجب ما قبله، فيسقط عنه كل ما ذكر في الآية من عقوبات.. وإن كان مسلماً فيسقط بالصلب ويجب عليه، رد المال الذي أخذه إن بقي في يده، وإن قتل أو فجر وطالب بإقامة الحد عليه أقيم عليه الحد، وإلا ترك لله والله غفور رحيم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- بيان حكم الحربة 2 وحققتها: خروج جماعة اثنان فأكثر ويكون بأيديها سلاح ولهم شوكة، خروجهم إلى الصحراء بعيداً عن المدن والقرى، يشنون هجمات على المسلمين فيقتلون ويسلبون ويعتدون على الأعراس، هذه هي الحربة وأهلها، يقال لهم: المحاربون وحكمهم ما ذكر تعالى في الآية الأولى(33).

1 إن كان المحاربون مسلمين؛ فالخزي لهم هو نزول العقوبة بهم في الدنيا من القتل والصلب والنفي، وفي الآخرة ينجون من عذابها، إن تابوا قبل موتهم. وإن كان المحاربون كافرين؛ فالخزي عذاب الدنيا والعذاب العظيم لهم في الآخرة. وفرقنا بين المسلمين والكافرين؛ لأن المسلمين إقامة الحد عليهم يكفر ذنب الجريمة، للحديث الصحيح في البيعة: "فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له". فقلوه: {فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} دليل على سقوط عذاب الآخرة بالحد.

2 الجمهور على أن اللص كالمحارب يناشد بالله تعالى أن يكف وينصرف وإن أبى يُفانل ويقتل، ومن قتله اللص فهو في الجنة، وإن قتل اللص فهو النار، لحديث الصحيح، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أرأيت يا رسول الله إن جاء يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطيه مالك". قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: "قاتله". قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: "قأنت شهيد". قال: فإن قتلته؟ قال: "فهو في النار".

(1/625)

2- الإمام مخير في إنزال العقوبة التي يرى أنها مناسبة 1 لاستتباب الأمن، إن قلنا أو في الآية للتخبير، وإلا فمن قتل وأخذ المال وأخاف الناس قتل وصلب، ومن قتل ولم يأخذ مالاً قتل، ومن قتل وأخذ مالاً قطعت 2 يده ورجله من خلاف فتقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، ومن لم يقتل ولم يأخذ مالاً يُنفي 3.

3- من تاب من المحاربين قبل التمكن منه يعفى عنه إلا أن يكون بيده مال سلبه فإنه يرده على ذنوبه أو يطلب بنفسه إقامة الحد عليه فيجاب لذلك.

4- عظم عفو الله ورحمته بعباده لمغفرته لمن تاب ورحمته له.

لَبِاْ أَيْهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35) إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّمْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقْبِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (37){

شرح الكلمات:

{انْفُوا اللَّهَ} : خافوا عذابه فامتلوا أمره وأمر رسوله واجتنبوا نهيهما.

{وَابْتَغُوا} : اطلبوا.

1 هذا مذهب الجمهور من الأئمة، وهو أرفق وأصلح وأكثر تمثيلاً للآية وانسجاماً معها.
2 مذهب الجمهور، وهو الحق لا تقطع يد المحارب إلا في مال تقطع فيه يد السارق، وهو زنة: ربع دينار ذهب فأكثر.

3 إن تعذر النفي فالسجن يقوم مقامه، إذ هو نفي من ظاهر الأرض إلى باطنها. كما قال الشاعر:
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة ...
عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

(1/626)

{الْوَسِيلَةَ 1} : تقربوا إليه بفعل محابه وترك مساخطه تظفروا بالقرب 2 منه.

{وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ} : أنفسكم بحملها على أن تتعلم وتعمل وتعليم، وأعداءه بدعوتهم إلى الإسلام وقتالهم على ذلك.

{تُفْلِحُونَ} : تتجون من النار وتدخلون الجنة.

{عَذَابٌ مُّقِيمٌ} : دائم لا يبرح ولا يزول.

معنى الآيتين:

ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين به وبرسوله ووعدته ووعدته ليرشدهم إلى ما ينجيهم من العذاب فيجتنبوه، وإلى ما يدينهم من الرحمة فيعملوه فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ 3 الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ومعنى اتقوا الله خافوا عذابه فأطيعوه بفعل أوامره وأوامر رسوله واجتنبوا نواهيها فإن عذاب الله لا يتقى إلا بالتقوى. ومعنى {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} : اطلبوا إليه القرية، أي: تقربوا إليه بفعل ما يحب وترك ما يكره تفوزوا بالقرب منه. ومعنى {وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ} : جاهدوا أنفسكم في طاعته، والشيطان في معصيته، والكفار في الإسلام إليه والدخول في دينه باذلين كل ما في وسعكم من جهد وطاقة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (35)، أما الآية الثانية (36) وهي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ} فإنها علة لما دعت إليه الآية الأولى من الأمر بالتقوى وطلب القرب من الله تعالى وذلك بالإيمان وصالح الأعمال، لأن العذاب الذي أمروا باتقائه بالتقوى عذاب لا يطاق أبداً ناهيكم أن الذين كفروا {لَوْ أَنَّ

لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ 4 جَمِيعاً} من مال صامت وناطق {وَمِثْلَهُ مَعَهُ} وقبل منهم

- 1 الوسيلة: لغة: القرية، والجمع: قرب، وهي فيعلة، بمعنى: مفعولة، أي: متقرب بها. من توسل إلى فلان تقرب إليه بكذا. وشاهده من قول العرب، قول عنتره:
إن الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلي وتخضبي
والوسيلة: تجمع على وسائل، ومنه قول القائل:
إذ غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل
- 2 فكل قرية: هي وسيلة تقرب من رضا الله والزلفى إليه. وعليه فكل الأعمال الصالحة هي وسيلة، وفي الحديث الصحيح: "ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما أفترضت عليه".
- 3 تقديم الجار والمجرور على المفعول والمطلوب، في قوله تعالى: {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} مؤذن بتوحيد الله تعالى بالعبادات التي يتقرب بها إليه فلا يصح صرف شيء منها إلى غيره مهما كان.
- 4 أي: لو ثبت لهم ما في الأرض ومثله معه أيضاً لأجل الافتداء به لا لأجل أن يكنزوه في وجوه الإنفاق المحبوبة لهم لافتدوا به ولكن أنى يكون لهم ذلك.

(1/627)

فداء لأنفسهم من ذلك العذاب لقدموه سخية به نفوسهم، إنه عذاب أليم موجع أشد الوجع ومؤلم أشد الألم إنهم يتمنون بكل قلوبهم أن يخرجوا من النار {وَمَا هُمْ 1 بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ} دائم لا يبرح ولا يزول.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القرية إليه والجهاد في سبيله.
 - 2- مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال.
 - 3- عظم عذاب يوم القيامة وشدته غير المتناهية.
 - 4- لا فدية يوم القيامة ولا شفاعة تنفع الكافر فيخرج بها من النار.
 - 5- حسن التعليل للأمر والنهي بما يشجع على الامتثال والترك.
- {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} (39) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (40)

شرح الكلمات:

{وَالسَّارِقُ}: الذي أخذ مالا من حرز خفية يقدر بربع دينار فأكثر.
{وَالسَّارِقَةُ}: التي أخذت مالا من حرز خفية يقدر بربع دينار فأكثر.

- 1 ذكر القرطبي: أن يزيد الفقير قال: قيل لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: إنكم يا أصحاب محمد تقولون أن قوماً يخرجون من النار والله تعالى يقول: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا}. فقال جابر: إنكم تجعلون العام خاصاً، والخاص عاماً. إنما هذه في الكفار خاصة. فقرئت الآية كلها من أولها إلى آخرها فإذا هي في الكفار خاصة.
- 2 لذا وجب معرفة محاب الله تعالى ومكارهه من الاعتقادات والأقوال والأعمال والصفات ليتوسل بها إلى الله تعالى، فعلاً وتركاً للحصول على رضاه والفوز بالجنة والنجاة من النار.

(1/628)

{فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}: أي: اقطعوا من سرق منهما يده من الكوع.
{تَكَالًا}: عقوبة من 1 الله تجعل غيره ينكل أن يسرق.
{عَزِيزٌ حَكِيمٌ}: عزيز: غالب لا يحال بينه وبين مراده، حكيم: في تدبيره وقضائه.
{بَعْدَ ظَلْمِهِ}: بعد ظلمه لنفسه بمعصية الله تعالى بأخذ أموال الناس.
{وَأَصْلَحَ}: أي: نفسه بتزكيتها بالتوبة والعمل الصالح.
{إِنِ اللّٰهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ}: أي: يقبل توبته، ويغفر له ويرحمه إن شاء.
{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}: خلقاً وملكاً وتدبيراً.
{يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}: أي: تعذيبه لأنه مات عاصياً لأمره كافراً بحقه.
{وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ}: ممن تاب من ذنبه وأتاب إليه سبحانه وتعالى.
معنى الآيات:

يخبر تعالى مقرراً حكماً من 2 أحكام شرعه، وهو أن الذي يسرق مالا يقدر بربع دينار فأكثر من حرز مثله 3 خفية وهو عاقل بالغ، ورفع إلى الحاكم، والسارقة كذلك فالحكم أن تقطع يد السارق اليمنى من الكوع، وكذا يد السارقة مجازاة لهما على ظلمهما بالاعتداء على أموال غيرهما، {تَكَالًا} مِنَ اللّٰهِ أي: عقوبة من الله تعالى لهما تجعل غيرهما لا يقدم على أخذ أموال الناس بطريق السرقة المحرمة، {وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} غالب على أمره حكيم في قضائه وحكمه. هذا معنى قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ} 4 {وَالسَّارِقَةُ} فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا} 5 من الإثم {تَكَالًا} مِنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. وقوله تعالى في الآية الثانية (39) {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظَلْمِهِ} أي: تاب من السرقة بعد

- 1 هل يكون غرم مع القطع؟ مالك يرى: إن وجد المال عنده أخذ وإن كان موسراً أخذ من ماله، وإن معسراً يكتفي بالقطع، وهذا أرحم وأحكم. وتعلق يد السارق في عنقه لحديث الترمذي وأبي داود والنسائي.
- 2 لما ذكر تعالى حكم المحاربيين ذكر حكم السارق والسارقة وما ذكر بينها من دعوة المؤمنين إلى التقوى والتقرب إلى الله تعالى للحصول على رضاه هو من باب تنويع الأسلوب وتلوين الكلام إذهاباً للسامة والملل عن القارئ والسماع.
- 3 السارق عن العرب: هو من جاء مستتراً إلى حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب، فإن تمنع بما أخذ فهو غاصب.
- 4 قرئ: والسارق: بالنصب على تقدير: اقطعوا السارق والسارقة. وقرئ: بالرفع، وهو أشهر، والإعراب فيما فرض عليكم: السارق والسارقة فاقطعوا، وأحسن من أن يكون السارق والسارقة مبتدأ، وجملة: فاقطعوا، خبر.
- 5 أول سارق قطعت يده في الإسلام، هو: الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف. وأول سارقة في الإسلام هي: مرة بنت سفيان المخزومية.

(1/629)

أن ظلم نفسه بذلك {وَأَصْلَحَ} نفسه بالتوبة، ومن ذلك رد المال المسروق {فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ} ؛ لأنه تعالى غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين، وقوله تعالى في الآية الثالثة (40) {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يخاطب تعالى رسوله وكل من هو أهل للتلقي والفهم من الله تعالى فيقول مقررًا المخاطب: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ، والجواب: بلى، وإذا فالحكم له تعالى لا ينزع فيه، فلذا هو يعذب ويقطع يد السارق والسارقة ويغفر لمن تاب من السرقة وأصلح. وهو {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان حكم حد السرقة، وهو قطع يد السارق والسارقة .
 - 2- بيان أن التائب من السارق إذا أصلح يتوب الله عليه، أي: يقبل توبته.
 - 3- إذا لم يرفع السارق إلى الحاكم تصح توبته ولو لم تقطع يده، وإن رفع فلا توبة له إلا بالقطع، فإذا قطعت يده خرج من ذنبه كأن لم يذنب.
 - 4- وجوب التسليم لقضاء الله تعالى والرضا بحكمه لأنه عزيز حكيم.
- لَبَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمِ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا

1 الإجماع على أن الوالد لا تقطع يده إذا سرق مال ولده، لقوله صلى الله عليه وسلم: "أنت ومالك لأبيك" واختلف في العكس. والراجح: أنه لا قطع عليه. وهل تقطع اليد في السفر؟ وفي دار الحرب خلاف: مالك يرى: إقامة الحدود في دار الحرب. واليد تقطع من الرسخ، والرجل من المفصل، ولا قطع على الصبي والمجنون والعبد إن سرق من مال سيده، ولا السيد من مال عبده.

(1/630)

وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا
خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ
أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ (43)

شرح الكلمات:

{لا يَحْرَفُونَكَ}: الحزن: ألم نفسي يسببه خوف فوات محبوب.

{يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}: بمعنى: يسرعون فيه إذ ما خرجوا منه كلما سنحت فرصة للكفر أظهروه.

{قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ}: هؤلاء هم المنافقون.

{وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا}: أي: اليهود.

{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ}: أي: كثيرو الاستماع للكذب.

{يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ}: يبدلون الكلام ويغيرونه ليوافق أهواءهم.

{إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا}: أي: أعطيتكم.

{فِتْنَتَهُ}: أي: ضلالة لما سبق له من موجبات الضلال.

{أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ}: من الكفر والنفاق.

{خِزْيٌ}: ذل.

(1/631)

{أَكَاوَنَ لِلسُّحْتِ} : كثيروا الأكل للحرام؛ كالرشوة والربا.

{أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} : أي: لا تحكم بينهم.

{بِالْقِسْطِ} : أي: بالعدل.

{وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} : أي: صدقاً وحقاً وإن ادعوه نطقاً.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ 1 لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} إلى قوله: {عَذَابٌ عَظِيمٌ} في نهاية الآية نزل تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتخفيفاً مما كان يجده صلى الله عليه وسلم من ألم نفسي من جراء ما يسمع ويرى من المنافقين واليهود فناده ربه تعالى بعنوان الرسالة التي كذب بها المنافقون واليهود معاً: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ} الحق، لينهاه عن الحزن الذي يضاعف ألمه: {لَا يَحْزُنُكَ} حال الذين {يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} بتكذيبك فإنهم ما خرجوا من الكفر، بل هم فيه منغمسون، فإذا سمعت منهم قول الكفر لا تحفل به حتى لا يسبب لك حزناً في نفسك. {مَنْ الَّذِينَ 2 قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا} أي: لا يحزنك كذلك حال اليهود الذين يكذبون بنبؤتك ويجحدون رسالتك، {سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ} سماعون ليهود آخرين لم يأتوك؛ كيهود خيبر وفدك، أي: كثيروا السمع للكذب الذي يقوله أبحارهم لما فيه من الإساءة إليك سماعون لأهمل قوم آخرين ينقلون إليهم أخبارك كوسائط، وهم لم يأتوك، وهم يهود خيبر إذ أوعزوا إليهم أن يسألوا لهم النبي صلى الله عليه وسلم عن حد الزنى {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} ، أي: يغيرون حكم الله الذي تضمنه الكلام، يقولون لهم إن أفتاكم في الزانين المحصنين بالجلد والتحميم بالفحم، فاقبلوا ذلك وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك. هذا معنى تعالى في هذه الآية: {وَكَيْفَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا} ، وقال تعالى لرسوله: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ

1 هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، خاطبه ربه بعنوان الرسالة تشريعاً له وتعطيماً وإشعاراً له بعدم داعي الحزن، إذ من كان في مقامه لا يحزن مهما كانت المصائب، والآية نزلت في حادثة زنا اليهوديين، إذ روى في الصحيحين، أن جابراً قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة، أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه. فسألوه. فدعا ابن صوريا، وكان عالمهم، وكان أعور. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنشدك الله كيف تجدون حد الزنا في كتابكم"؟ فقال ابن صوريا: فأما إذ نشادتني الله فإننا نجد في التوراة: النظر: زنية، والاعتناق: زنية، والقبلة: زنية. فإن شهد أربعة بأنهم رأوا ذكره في فرجها. مثل الميل في المكحلة فقد وجب الرجم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هو ذاك".

2 من: بيانية، أي: بينت أن المسارعين في الكفر: هم من المنافقين.

فَنَتْنَةُ{ أي: إضلاله عن الحق لما اقترف ن عظام الذنوب وكبائر الأثام {فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً} إذا أراد الله إضلاله، إذا فلا يحزنك مسارعته في الكفر، {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} من الحسد والشرك والنفاق لسوابق الشر التي كانت لهم فحالت دون قبول الإيمان ولاحق، {لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} أي: ذل وعار، {وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} جزاء كفرهم وبغيهم. هذا ما دلت عليه الآية(41)، أما الآية الثانية(42) فقد تضمنت وصف أولئك اليهود بصفة كثرة استماع الكذب مضافاً إليه كثرة أكلهم للسحت، وهو المال الحرام أشد حرمة؛ كالرشوة والربا¹، فقال تعالى عنهم: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ 2 فَإِنْ جَاءُوكَ} أي: للتحاكم عندك فأنت مخير بين أن تحكم بحكم الله³. أو تعرض عنهم وتتركهم لأخبارهم يحكمون بينهم كما شاءوا وإن تعرض عنهم فلم تحكم بينهم لن يضروك شيئاً، أي: من الضرر ولو قل، لأن الله تعالى وليك وناصرك، وإن حكمت بينهم فاحكم بينهم بالقسط أي: العدل، لأن الله تبارك وتعالى يحب ذلك فافعله لأجله إنه يحب القسط والمقسطين، وقوله تعالى في الآية الثالثة(43): {وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ}. أي: إنه مما يتعجب منه أن يحكموك فتحكم بينهم برجم الزناة، وعندهم التوراة فيها نفس الحكم فرفضوه معرضين عنه اتباعاً لأهوائهم، {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} لا بك ولا بحكمك ولا بحكم التوراة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- استحاب ترك الحزن باجتئاب أسبابه ومثيراته.
- 2- حرمة سماع الكذب لغير حاجة تدعو إلى ذلك.
- 3- حرمة تحريف الكلام وتشويهه للإفساد.

1 الرشوة مشتقة من الرشى الذي هو الحبل الذي يستخرج به الماء من البئر بضميمة الدلو، وعليه فكل مال أعطى لحاكم ليؤخذ به الراشي حق امرء فهو رشوة وسحت محرمان بلا خلاف. وكذا ما يدفعه الواسطة لحاكم ليسقط عنه حقاً وجب عليه فهو رشوة. أما ما كان ليدفع به عن نفسه أو ماله أو عرضه أو دينه فلا يحرم، وليس هو من الرشوة، قال السمرقندي الفقيه، وبهذا نأخذ.

2 أصل السحت: الهلاك، والشدة. قال تعالى: {فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ} ، وقال الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحاً أو مجلف

وسمي المال الحرام كالربا والرشوة: سحتاً؛ لأنه يسحت الطاعات ويبطل ثوابها، ويسحت البركة ويزيلها.

3 يرى مالك والشافعي أن اليهود إذا رفعوا للإمام قضية دم أو مال أو عرض حكم بينهم بما أنزل

الله، وإن كان ما رفعوه لا يتعلق بالمال أو الدم أو العرض تركهم معرضاً عنهم، وأبي حنيفة يرى الحكم بينهم مطلقاً.

(1/633)

4- الحاكم المسلم مخير في الحكم بين أهل الكتاب إن شاء حكم بينهم وإن شاء أحالهم على علمائهم.

5- وجوب العدل في الحكم ولو كان المحكوم عليه غير مسلم.

6- تقرير كفر اليهود وعدم إيمانهم.

{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلِيَحْكُمَ

1 قالت العلماء: إن من طلب غير حكم الله تعالى من حيث لم يرض به فهو كافر، وهذه حالة اليهود وحال أكثر المسلمين اليوم حيث لم يرضوا بحكم الله تعالى وحكموا شرائع الباطل وقوانين الكفر.

(1/634)

أَهْلِ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47)}
شرح الكلمات:

{التَّوْرَةُ}: كتاب موسى عليه السلام.

{هُدًى وَنُورٌ}: الهدى: ما يوصل إلى المقصود، والنور: ما يهدي السائر إلى غرضه.

{هَادُوا}: اليهود.

{الرَّبَّانِيُّونَ}: جمع رباني: العالم المرابي الحكيم.

{وَالْأَخْبَارُ 1} : جمع حبر: العالم من أهل الكتاب.

{وَكَتَبْنَا} : فرضنا عليهم وأوحينا.

{قِصَاصٌ} : مساواة.

{وَقَفَّيْنَا} : أتبعناهم بعبسى بن مريم.

{الْفَاسِقُونَ} : الخارجون عن طاعة الله ورسله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث على بني إسرائيل، إذ قال تعالى مخبراً عما أتى بني إسرائيل: { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ هَدَىٰ مِنْ كُلِّ ضَلَالَةٍ وَنُورٌ مَبِينٌ لِلْأَحْكَامِ مُخْرَجٌ مِنْ ظِلْمَاتِ الْجَهْلِ {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ} من بني إسرائيل {النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} لله قلوبهم ووجوههم فانقادوا لله ظاهراً وباطناً، {الَّذِينَ هَادُوا}2، ويحكم بها الريانيون من أهل العلم والحكمة من بني إسرائيل {يَمَا اسْتُخْفِطُوا} بسبب استحفاظ الله تعالى إياهم كتابه التوراة فلا يبدلونه ولا يغيرون فيه، {وَكَاثُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ} بأحقيته وسلامته من النقص والزيادة بخلافكم أيها اليهود، فقد حرفتم الكلم عن مواضعه وتركتم الحكم به فما لكم؟ فأظهروا الحق من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والأمر بالإيمان به، ومن ثبوت الرجم وإنفاذه في الزناة ولا تخشوا

1 قالوا: الحبر بالفتح: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه.

2 قد تكون اللام هنا بمعنى على، أي: على الذين هادوا، وقد تكون على بابها، ويكون لفظ: عليهم، محذوفاً، أي: يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا. وعليهم فحذف: "عليهم".

(1/635)

الناس في ذلك واخشوا الله تعالى فهو أحق أن يخشى، ولا تشتروا بآيات الله التي هي أحكامه فتعطلوها مقابل ثمن قليل تأخذونه ممن تجاملونهم وتداهنونهم على حساب دين الله وكتابه. { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } 1 فكيف ترضون بالكفر بدل الإيمان. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (44)، أما الآية الثانية (45): {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ 2} فقد أخبر تعالى أنه فرض على بني إسرائيل في التوراة القود في النفس والقصاص في الجراحات؛ فالنفس تقتل بالنفس، العين تفتق بالعين 3 والأنف يجده بالأنف، والأذن 4 تقطع بالأذن والسن تكسر إن كسرت 5 بالسن، وتقلع به إن قلع، والجروح 6 بمثلها قصاص ومساواة، وأخبر تعالى: أن من تصدق على الجاني بالعمو عنه وعدم المؤاخذه فإن ذلك يكون كفارة لذنوبه 7، وإن لم يتصدق عليه واقتص منه يكون ذلك كفارة لجنايته بشرط وذلك بأن يقدم نفسه للقصاص تائباً، أي: نادماً على فعله

مستغفراً ربه. وقوله تعالى في ختام الآية: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ، وذلك بأن قتل غير القاتل أو قتل بالواحد اثنين أو فقا بالعين عيين، كما كان بنو النضير يعاملون به قريظة بدعوى الشرف عليهم.

هذا ما دلت عليه الآية الثالثة(46) وهي قوله تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} فقد أخبر تعالى أنه أتبع أولئك الأنبياء السابقين من بني إسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام، أي: أرسله بعدهم مباشرة {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ} لم ينكرها أو يتجاهلها، {وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ} ، أي: وأعطيناه الإنجيل وحياً أوحيناه إليه، وهو كتاب مقدس أنزله الله تعالى عليه فيه، أي: في الإنجيل هدى من الضلال ونور لبيان الأحكام من الحلال

- 1 القول الذي لا خلاف فيه: هو أن المسلم لا يكفر لمجرد عدم حكمه بما أنزل الله تعالى، وإنما يفسق ويصبح في عداد الفاسقين من أمة الإسلام. أما الكفر فلا يكفر ولا يكفر إلا بشرط أن ينكر هداية القرآن وصلاحيته ويعرض عنه مستخفاً به مفضلاً عليه غيره.
- 2 الذي عليه أكثر الفقهاء: أن المسلم لا يقتل بالذمي. لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المؤمنون تتكافأ دمائهم وهم يدُ على من سواهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده" رواه أبو داود والترمذي.
- 3 لا خلاف أن في العينين دية، وفي العين الواحدة نصف دية، وفي عين الأعور دية كاملة، وفي الأنف إذا جدد دية كاملة.
- 4 الدية في ذهاب السمع، إما مع بقاء السمع ففيه حكومة.
- 5 في السن خمس من الإبل لحديث الصحيح في ذلك.
- 6 وفي الشفتين الدية، وفي الواحدة نصف الدية، وفي اللسان إذا قطع الدية.
- 7 اختلف في دية المرأة الأكثرين على أن أصبعها كأصبع الرجل وسنها كسنة، وموضوحتها كموضوحته، ومنقلتها كمنقلته، فإذا بلغت ثلث الدية كانت على النصف من دية الرجل. وقالت طائفة: دية المرأة فيما ذكر على النصف من دية الرجل.

(1/636)

والحرام، {وَمُصَدِّقًا} ، أي: الإنجيل لما قبله من التوراة، أي: مقررراً أحكامها مثبتاً لها إلا ما نسخه الله تعالى منها بالإنجيل، {وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} أي: يجد فيه أهل التقوى الهداية الكافية للسير في طريقهم إلى الله تعالى والموعظة التامة للاتعاظ بها في الحياة. هذا ما دلت عليه الآية الثالثة، أما الآية(47) وهي قوله تعالى: {وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ} أي: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل،

يريد وأمرنا أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام، وأخبرناهم أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} عن أمره الخارجون عن طاعته وقد يكون الفسق ظلماً وكفراً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب خشية الله بأداء ما أوجب وترك ما حرم.
 - 2- كفر من جحد أحكام الله فعطلها أو تلاعب بها فحكم بالبعض دون البعض.
 - 3- وجوب القود في النفس والقصاص في الجراحات؛ لأن ما كتب على بني إسرائيل كتب على هذه الأمة.
 - 4- من الظلم أن يعتدى في القصاص بأن يقتل الواحد اثنان أو يقتل غير القاتل أو يفتأ بالعين الواحدة عينان مثلاً، وهو كفر مع الاستحلال وظلم في نفس الوقت.
 - 5- مشروعية القصاص في الإنجيل وإلزام أهله بتطبيقه وتقرير فسقهم إن عطلوا تلك الأحكام وهم مؤمنون بها.
- {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

1 إلا إن يرضى المظلوم بالدية فإنه يعطاها على نحو ما تقدم آنفاً.

(1/637)

آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)

شرح الكلمات:

{الْكِتَابَ} : القرآن الكريم.

{مِنَ الْكِتَابِ} : اسم جنس بمعنى الكتب السابقة قبله؛ كالتوراة والإنجيل.

{وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ} : حاكماً عليه، أي: محققاً للحق الذي فيه، مبطلاً للباطل الذي التصق به.

{شِرْعَةً} : شريعة تعملون بها وسبيلاً تسلكونه لسعادتكم وكمالكم من سنن الهدى.

{أُمَّةً وَاحِدَةً} : لا اختلاف بينكم في عقيدة ولا في عبادة ولا قضاء.

{فَاسْتَبِقُوا}: أي: بادروا فعل الخيرات ليفوز السابقون.

{أَنْ يَفْتَنُوكَ}: يضلوك عن الحق.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا}: أعرضوا عن قبول الحق الذي دعوتهم إليه وأردت حكمهم به.

{حكم الجاهلية}: هو ما عليه أهل الجاهلية من الأحكام القبلية التي لا تقوم على وحي الله تعالى وإنما على الآراء والأهواء.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى إنزاله التوراة وأن فيها الهدى والنور وذكر الإنجيل وأنه أيضاً فيه الهدى والنور ناسب ذكر القرآن الكريم، فقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}، أي: القرآن {بِالْحَقِّ} متلبساً به لا يفارقه الحق والصدق لخلوه من الزيادة والنقصان حال كونه {مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} من

1 أصل الشريعة في اللغة: الطريقة التي يتوصل بها إلى الماء، وهي هنا: ما شرع الله لعباده من الدين الشامل من العقائد والعبادات والأحكام القضائية يتوصل بها إلى سعادة الدارين.

(1/638)

الكتب السابقة، ومهيماً 1 عليها حفيظاً حاكماً، فالحق ما أحقه منها والباطل ما أبطله منها. وعليه {فَأَحْكُمْ} يا رسولنا بين اليهود والمتحاكمين إليك {بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} إليك بقتل القاتل ورجم الزاني لا كما يريد اليهود {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} في ذلك وترك ما جاءك من الحق، واعلم أنا جعلنا لكل أمة شرعة ومنهاجاً، أي: شرعاً وسبيلاً خاصاً يسلكونه في إسعادهم وإكمالهم، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} على شريعة واحدة لا تختلف في قضاياها وأحكامها لفعل، ولكن نوع الشرائع فأوجب وأحل ونهى وحرم في شريعة ولم يفعل ذلك في شريعة أخرى من أجل أن يبتليكم فيما أعطاكم وأنزل عليكم ليتبين المطيع من العاصي والمهتدي من الضال، وعليه فهلم {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} 2 {أي: بادروا الأعمال الصالحة، وليجتهد كل واحد أن يكن سابقاً، فإن مرجعكم إليه تعالى {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، ثم يجزيكم الخير بمثله والشر إن شاء كذلك. هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الآية الثانية (49) فقد أمر الله تعالى فيها رسوله ونهاه وحذره وأعلمه وندد بأعدائه أمره أن يحكم بين من يتحاكمون إليه بما أنزل عليه من القرآن فقال: {وَأَنْ أَحْكَمْ 3 بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، ونهاه أن يتبع أهواء اليهود فقال: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} وحذره من أن يتبع بعض آرائهم فيترك بعض ما أنزل عليه ولا يعمل به ويعمل بما اقترحوه عليه فقال: {وَاحْذَرُهُمْ 4 أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} وأعلمه أن اليهود إن تولوا، أي: أعرضوا عن قبول حكمه وهو الحكم الحق العادل فإنما يريد الله تعالى أن ينزل بهم عقوبة نتيجة ما قارفوا من الذنوب، وما ارتكبوا من الخطايا فقال: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُصِيبُهُمْ 5 بِبَعْضِ دُنُوبِهِمْ} . وندد بأعدائه حيث أخبر أن أكثرهم فاسقون، أي: عصاة خارجون عن طاعة الله تعالى ورسله، فقال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} . فسلاه بذلك وهون عليه ما قد يجده

1 فسر: {مهيمناً} بعالم مرتفع عليه وبمؤتمن عليه، ويعود اللفظان إلى ما فسرناه به؛ لأن المرتفع العالي هو الحاكم. والمؤتمن هو الحافظ.

2 فيه دليل على تقديم الواجبات وعدم تأخيرها لاسيما الصلوات الخمس، وخالف أبو حنيفة في الصلاة، والآية حجة عليه.

3 هل هذه الآية ناسخة للتخيير السابق، أو لا نسخ ويقدر بعدها جملة -إن شئت- لتقدم ذكر التخيير وما تقدم من توجيهه في آية: {فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} ، يحدد معنى هذه الآية.

4 روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن قومًا من الأبحار اجتمعوا، منهم: ابن صوريا، وكعب، وشاس، وقالوا: إذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه وقالوا: قد عرفت يا محمد إنا أبحار اليهود وإن اتبعناك لم يحالفنا أحد من اليهود، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك. فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية. 5 وقد أصابهم فأجلوا من الحجاز وقتل بنو قريظة وضربت عليهم الجزية في ديار الإسلام.

(1/639)

من ألم ترمذ اليهود والمنافقين وإعراضهم عن الحق الذي جاءهم به ودعاهم إليه. هذا ما دلت عليه الآية الثانية، أما الآية الثالثة (50) فقد أنكر تعالى فيها على اليهود طلبهم حكم أهل الجاهلية حيث لا وحي ولا تشريع إلهي وإنما العادات والأهواء والشهوات معرضين عن حكم الكتاب والسنة حيث العدل والرحمة، فقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ 1 يَبْغُونَ} . ثم أخبر تعالى نافية أن يكون هناك حكم أعدل أو أرحم من حكم الله تعالى للمؤمنين به الموقنين بعدله تعالى ورحمته فقال: {وَمَنْ أَحْسَنُ 2 مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} .؟

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الحكم وفي كل القضايا بالكتاب والسنة.
- 2- لا يحوز تحكيم أية شريعة أو قانون غير الوحي الإلهي الكتاب والسنة.
- 3- التحذير من اتباع أهواء الناس خشية الإضلال عن الحق.
- 4- بيان الحكمة من اختلاف الشرائع، وهو الابتلاء.
- 5- أكثر المصائب في الدنيا ناتجة عن بعض الذنوب.

6- حكم الشريعة الإسلامية أحسن الأحكام عدلاً ورحمة.

{لَيَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} (52)

- 1 {أفحكم} منصوب ببيغون، أي: أيبغون حكم الجاهلية، إذ أهل الجاهلية من العرب يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضع. واليهود يقيمون الحدود على الضعفاء والفقراء دون الأقوياء والأغنياء.
- 2 الاستفهام إنكاري، أي: ينكر أن يكون هناك حكم أحسن من الله تعالى.

(1/640)

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} (53)

شرح الكلمات:

{آمَنُوا} : صدقوا بالله ورسوله ووعده.

{أَوْلِيَاءَ} : لكم توالونهم بالنصرة والمحبة.

{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} : أي: اليهودي ولي أخيه اليهودي، والنصراني ولي أخيه النصراني.

{الظَّالِمِينَ} : الذين يوالون أعداء الله ورسوله ويتركون موالاة الله ورسوله والمؤمنين.

{مَرَضٌ} : نفاق وشك وشرك.

{يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} : أي: في البقاء على موالاتهم، أي: موالاة اليهود والنصارى.

{دَائِرَةٌ 1} : تدور علينا من جذب، أو انتهاء أمر الإسلام.

{بِالْفَتْحِ} : نصر المؤمنين على الكافرين والقضاء لهم بذلك؛ كفتح مكة.

{جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} : أقصاها وأبلغها.

{حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} : بطلت وفسدت فلم ينتفعوا منها بشيء؛ لأنها ما كانت لله تعالى.

معنى الآيات:

ورد في سبب نزول هذه الآية عن عبادة بن الصامت الأنصاري، وعبد الله بن أبي كان لكل منهما

حلفاء من يهود المدينة، ولما انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون في بدر اغتاز

اليهود وأعلنوا سوء نياتهم فنتبرأ عبادة بن الصامت من حلفائه ورضي بموالاة الله ورسوله والمؤمنين

وأبي بن أبي، ذلك وقال بعض ما جاء في هذه الآيات فأنزل الله تعالى قوله: {لَيَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ} أي: لكم من دون المؤمنين، وقوله تعالى: {يَعِضُّهُمْ

- 1 الدائرة: اسم فاعل من دار يبدو فهو دائر، إذا عكس سيره فالدائرة تغير الحال، وغلبت في الخير والشر، أي: من خير إلى شر. ودوائر الدهر: نوبه ودوله.
- 2 حقيقة الجهد: التعب والمشقة، ومنتهى الطاقة، والمراد به في الآية: أكد الإيمان وأغلظها، وفعل الجهد: جهد؛ كمنع يجهد كيمنع جهداً كمنع.

(1/641)

أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ} تعليل لتحريم موالاتهم 1، لأن اليهودي ولي لليهودي والنصراني ولي للنصراني على المسلمين فكيف تجوز إذا موالاتهم، وكيف يصدقون أيضاً فيها فهل من المعقول أن يحبك النصراني ويكره أخاه، وهل ينصرك على أخيه؟ وقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ} أي: أيها المؤمنون {فَأِنَّهُمْ مِنْهُمْ} 2. لأنه بحكم موالاتهم سيكون حرباً على الله ورسوله والمؤمنين، وبذلك يصبح منهم قطعاً وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} جملة تعليلية تفيد أن من والى اليهود والنصارى من المؤمنين أصبح مثلهم فيحرم هداية الله تعالى لأن الله لا يهدي القوم الظالمين. والظلم وضع الشيء في غير محله، وهذا الموالي لليهود قد ظلم بوضع الموالات في غير محلها حيث عادى الله ورسوله والمؤمنين ووالى اليهود والنصارى أعداء الله ورسوله والمؤمنين. هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الآية الثانية (52) فقد تضمنت بعض ما قال ابن أبي مبرراً موقفه المخزي وهو الإبقاء على موالاته لليهود، إذ قال تعالى لرسوله وهو يخبره بحالهم: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} كابين أبي، والمرض مرض النفاق {يُؤَسِّرُونَ فِيهِمْ} أي: في موالاتهم ولم يقل يسارعون إليهم لأنهم ما خرجوا من دائرة موالاتهم حتى يعودوا إليها بل هم في داخلها يسارعون، يقولون كالمعتزين {نَخْشَى أَنْ نُصِيبَ دَائِرَةً} من تقلب الأحوال فنجد أنفسنا مع أحلافنا ننتفع بهم. وقوله تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} وعسى من الله تعبد تحقيق الوقوع، فهي بشرى لرسول الله والمؤمنين بقرب النصر والفتح 3 {أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ} 4 {فَيُصِيبُكُمْ} أي: أولئك الموالات لليهود {عَلَى مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} من النفاق وبغض المؤمنين وحب الكافرين {تَادِمِينَ} حيث لا ينفعم ندم. هذا ما تضمنته الآية الثانية، أما الآية الثالثة (53) وهي قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا} عندما يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فيه نصره المؤمنين وهزيمة الكافرين، ويصبح المنافقون نادمين، يقول المؤمنون مشيرين إلى المنافقين: {أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ} أغلظ الإيمان {إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} لأنها لم تكن لله {فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} .

- 1 الموالاة حقيقتها: المودة والنصرة، فمن والى اليهود والنصارى فأحبهم ونصرهم على المسلمين لازمه أن أبغض المؤمنين وخذلهم، وبهذا يصبح كافراً.
- 2 هذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة، وهو حرمة موالاة الكافرين، ومن الالهم تحرم موالاته كما تحرم موالاتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم.
- 3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: أتى الله بالفتح فقتلت مقاتلة بني قريضة، وسببت ذراريهم، وأجلى بنو النضير.
- 4 فسر الحسن قوله تعالى: {أو أمر من عنده} بأنه إظهار أمر المنافقين والإخبار بأسمائهم، والأمر بقتلهم، وهو تفسير عظيم عليه نور.

(1/642)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة موالاة اليهود والنصارى 1 وسائر الكافرين.
 - 2- موالاة الكافر على المؤمن تعتبر ردة عن الإسلام.
 - 3- موالاة الكافرين ناجمة عن ضعف الإيمان، فلذا تؤدي إلى الكفر.
 - 4- عاقبة النفاق سيئة ونهاية الكفر مريرة.
- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)}

شرح الكلمات:

{مَنْ يَرْتَدَّ2}: أي: يرجع إلى الكفر بعد إيمانه.

{أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}: أرقاء عليهم رحماء بهم.

{أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ3}: أشداء غلاظ عليهم.

{لَوْمَةُ لَائِمٍ}: عدل عادل.

{حِزْبَ اللَّهِ}: أنصار الله تعالى.

- 1 لا يعد موالاة استعمال اليهودي أو النصراني في عمل تجاري أو عمراني أو مهني، إذا دعت الحاجة إليه، ولا يصح اسبتطانهم ولا الاستعانة بهم في الجهاد.

2 قرئ: {يرتد} بالفتح وهي قراءة أهل المدينة والشام.

3 قال ابن عباس: هم للمؤمنين كالوالد للولد، والسيد للعبد، وهم في الغلظة على الكفار؛ كالسبع على فريسته.

(1/643)

معنى الآيات:

هذه الآية الكريمة (54): {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ} تضمنت خبراً من أخبار الغيب التي يخبر بها القرآن فتم طبق ما أخبر به فتكون آية أنه كلام الله حقاً وأن المنزل على رسوله صدقاً، فقد أخبر تعالى أنه من يرتد من المؤمنين سوف يأتي الله عز وجل بخير منه ممن يحبون الله ويحبهم الله تعالى رحماً بالمؤمنين أشداء على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوم من يلوم، ولا عتاب من يعتب عليهم. وما إن مات الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ارتد فئات 1 من أجلاف العراف ومنعوا الزكاة وقاتلهم أبو بكر مع الصحابة رضوان الله عليهم حتى أخضعوهم للإسلام وحسن إسلامهم فكان أبو بكر وأصحابه ممن وصف الله تعالى يحبون الله ويحبهم الله يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم، وقد روي بل وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية وتلاها صلى الله عليه وسلم وأبو موسى الأشعري أمامه فأشار إليه وقال قوم هذا، وفعلاً بعد وفاة الرسول جاء الأشعريون وظهرت الآية وتمت المعجزة وصدق الله العظيم. وقوله تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ} الإشارة إلى ما أولى 2 أولئك المؤمنين من أبي بكر الصديق والصحابة والأشعريين من تلك الصفات الجليلة من حب الله والرقّة والرأفة على المؤمنين والشدة على الكافرين، والجهاد في سبيل الله، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي: واسع الفضل عليم بمن يستحقه. هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الثانية 3 (55) فقد تضمنت طمأننة الرب تعالى لعباده بن الصامت وعبد الله بن سلام ومن تبرأ من حلف اليهود ووالى الله ورسوله فأخبرهم تعالى أنه هو وليهم ورسوله والذين آمنوا {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} 4 أي: خاشعون متظامنون، وأما ولاية اليهود والنصارى فلا خير لهم فيها وهم منها براء فقصرهم تعالى على ولايته وولاية رسوله والمؤمنين الصادقين، وفي الآية الثالثة أخبرهم تعالى أن من يتول الله ورسوله والذين آمنوا ينصره الله ويكفه ما يهيمه، لأنه أصبح من حزب الله، وحزب الله أي أولياؤه وأنصاره هم الغالبون، هذا ما دلت عليه الآية الكريمة وهي قوله

1 قال ابن إسحاق لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب إلى ثلاثة مساجد: مسجد المدينة، ومسجد مكة، ومسجد جوثي. جوثي: اسم حصن بالبحرين، وكان المرتدون على قسمين:

- قسم منعوا الزكاة واعترفوا بباقي الشريعة، وقسم نبذوا الشريعة.
- 2 أي: ما وهبهم وأعطاهم من الصفات الحميدة الجليلة.
- 3 هي قوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...} إلخ.
- 4 يروى أن علياً رضي الله عنه كان يصلي نافلة في المسجد فسأله أحد فرمى إليه بالخاتم وهو يصلي فاستدل الفقهاء بهذا أن العمل اليسير لا يبطل الصلاة.

(1/644)

تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إخبار القرآن الكريم بالغيب وصدقه في ذلك فكان آية أنه كلام الله.
 - 2- فضيلة أبي بكر والصحابة والأشعريين قوم أبي موسى الأشعري وهم من أهل اليمن.
 - 3- فضل حب الله والتواضع للمؤمنين وإظهار العزة على الكافرين، وفضل الجهاد في سبيل الله وقول الحق والثبات عليه وعدم المبالاة بمن يلوم ويعذل في ذلك.
 - 4- فضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشوع والتواضع.
 - 5- ولاية الله ورسوله والمؤمنين الصادقين توجب لصاحبها النصر والغلبة على أعدائه.
- لَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِمَّا إِلَّا أَنْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (60){

- 1 الحزب: الصنف من الناس، وأصله من النائبة مأخوذ من قولهم: حزبه كذا، أي: نابه؛ كأن المحترزين مجتمعون اجتماع أهل النائبة عليها.
- 2 روى أنه لما نزلت آية: {قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ...} إلخ. قال المسلمون لهم يا أخوة القردة والخنازير نكسوا رؤسهم افتضاحا، وفيهم يقول الشاعر:
فلعنة الله على اليهود ...
إن اليهود أخوة القردة

شرح الكلمات:

{هُزُواً وَلَعِباً} : الهزء: ما يُهزأ به ويسخر منه. واللعب: ما يلعب به.

{أوثوا الكتاب} : هم اليهود في هذا السياق.

{والكفار} : المشركون.

{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} : أدنتم بها.

{هَلْ تَنْفَعُونَ مِثًّا} : أي: ما تنقمون منا، ومعنى تنقمون هنا تنكرون منا وتعيبون علينا.

{مَثُوبَةً} : جزاء.

{فَاسِقُونَ} : خارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر والمعاصي.

{الْفَرْدَةِ} : جمع فرد حيوان معروف مجبول على التقليد والمحاكاة.

{وَالْحَنَازِيرِ} : جمع خنزير حيوان خبيث معروف محرم الأكل.

{شَرًّا مَكَانًا} : أي: منزلة يوم القيامة في نار جهنم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تحذير المؤمنين من موالاة اليهود وأعداء الله ورسوله، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً {لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ} الإسلامي {هُزُواً} شيئاً يهزءون به، ولعباً، أي: شيئاً يلعبون به {مَنْ الَّذِينَ أوثوا الكتاب} يعني اليهود، والكفار 1، وهم المنافقون والمشركون {أولياء} أنصاراً وأحلافاً 2 {وَاتَّقُوا اللَّهَ} في ذلك، أي: في اتخاذهم أولياء {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} صادقين في إيمانكم فإن حب الله ورسوله والمؤمنين يتنافى معه حب أعداء الله ورسوله والمؤمنين. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (57)، أما الآية الثانية (58) فقد تضمنت إخبار الله تعالى بما يؤكد وجوب معاداة من يتخذ دين المؤمنين هزواً ولعباً وهم أولئك الذين إذا سمعوا الأذان ينادى 3 للصلاة اتخذوه هزواً ولعباً، فهذا يقول ما هذا الصوت وآخر يقول

1 قرئ: والكفار بالجبر، وقرئ: بالنصب، قال مكي: لولا اتفاق الجماعة على قراءة النصب لاخترت

قراءة الجر لقوته في الإعراب، وفي التفسير والقرب من المعطوف عليه.

2 هذه الآية فيها دليل على عدم جواز التأييد والاستنصار بالمشركين، وقد روي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج إلى أحد جاء قوم من اليهود فقالوا: نسير معك. فقال صلى الله عليه وسلم: "إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين".

3 لم يكن بمكة الأذان وإنما كان ينادي للصلاة باللفظ: "الصلاة جامعة" ولما هاجر رسول الله صلى

الله عليه وسلم وصرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالآذان، وبقيت: "الصلاة جامعة" والأمر بعرض، ولما همهم أمر الآذان رأى عبد الله بن زيد الأنصاري الآذان في المنام، وكذا رآه عمر.

(1/646)

هذا نهيق حمار، قبح الله قولهم وأقماهم. فقال تعالى عنهم: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} . حقاً إنهم لا يعقلون، فلو كانوا يعقلون الكلام لكان النداء إلى الصلاة من أطيب ما يسمع العقلاء لأنه نداء إلى الطهر والصفاء وإلى الخير والمحبة والألفة، نداء إلى ذكر الله وعبادته، ولكن القوم كما أخبر تعالى عنهم: {لَا يَعْقِلُونَ} شأنهم شأن البهائم والبهائم أفضل منهم. هذا ما دلت عليه الآية الثانية، أما الآية الثالثة (59) فقد تضمنت تعليم الله تعالى لرسوله أن يقول لأولئك اليهود والكفرة الفجرة: يا أهل الكتاب إنكم بمعاداتكم لنا وحرركم علينا ما تتقون منا أي ما تكرهون منا ولا تعيينون علينا إلا إيماننا بالله وما أنزل علينا من هذا القرآن الكريم وما أنزل من قبل من التوراة والإنجيل، وكون أكثركم فاسقين فهل مثل هذا ينكر من صاحبه ويعاب عليه؟ اللهم لا، ولكنكم قوم لا تعقلون، هذا معنى قوله تعالى في هذه الآية: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} ، أما الآية الرابعة في هذا السياق (60) فقد تضمنت تعليم الله لرسوله كيف يرد على أولئك اليهود إخوان القردة والخنازير قولهم: لا نعلم ديناً شراً من دينكم، وذلك أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: بمن تؤمن؟ فقال: أؤمن بالله وبما أنزل إلينا وما أنزل على موسى وما أنزل على عيسى، فلما قال هذا، قالوا: لا نعلم ديناً شراً من دينكم بغضاً لعيسى عليه السلام وكرهاً له، فأنزل الله تعالى: {قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثْوِيَةٌ} أي: ثواباً وجزاء {عِنْدَ اللَّهِ} أنه {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ} إذ مسخ طائفة منهم قردة، وأخرى خنازير على عهد داود عليه السلام، وقوله: {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} 2 أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت وهو الشيطان، و ذلك بطاعته والانقياد لما يجلبه عليه ويزينه له من الشر والفساد، إنه أنتم يا معشر يهود، إنكم لشر مكاناً يوم القيامة وأضل سبيلاً اليوم في هذه الحياة الدنيا.

1 الآذان فرض في المدن والقرى، وسن لجماعة تطلب غيرها ومستحب لمن لا يطلب غيره، والسفر والحضر سواء إلا أنه في السفر أعظم أجراً لحديث الموطأ: "لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة" . وهذا الثواب عام لمن أذن في السفر والحضر والإقامة سنة مؤكدة لكل صلاة، ومن أذن أقام ولو أقام غير المؤذن جازت.

2 قرئ: هذا اللفظ: {عبد الطاغوت} بعدة قراءات، منها: {عبد} اسما؛ كفضل، و {عبد الطاغوت} أي: جمع عبد، وعبد الطاغوت: جمع عابد؛ كشاهد وشهد.

(1/647)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة اتخاذ اليهود والنصارى والمشركين أولياء لا سيما أهل الظلم منهم.
 - 2- سوء أخلاق اليهود وفساد عقولهم.
 - 3- شعور اليهود بفسقهم وبعد ضلالهم جعلهم يعملون على إضلال المسلمين.
 - 4- تقرير وجود مسخ في اليهود قرده وخنازير.
 - 5- اليهود شر الناس مكاناً يوم القيامة، وأضل الناس في هذه الدنيا.
- ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (61) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63)﴾

شرح الكلمات:

- {يَكْتُمُونَ} : أي: يضمرون في نفوسهم ويخفونه فيها.
- {فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} : الإثم: كل ضار وفساد وهو ما حرمه الله تعالى من اعتقاد أو قول أو عمل، والعدوان، والعدوان: الظلم.
- {السُّحْتِ} : المال الحرام؛ كالرشوة والربا، وما يأخذه من مال مقابل تحريف الكلم وتأويله.
- {الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} : الربانيون هنا العباد المرابون؛ كمشايخ التصوف عندنا. والأحبار: العلماء.
- معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في فضح اليهود وبيان خبيثهم زيادة في التنفير من موالاتهم فأخبر

1 مشايخ الطرق -والحق يقال- لقد ربوا كثيراً من الجهال على الإيمان والتقوى ولكن لعدم علمهم بالكتاب والسنة ضلوا وأضلوا في المجالات كثيرة، وخاصة في العقيدة. لذا لا يجوز إقرارهم ولا التربى على أيديهم.

(1/648)

تعالى في الآية الأولى عن منافقيهم فقال: {وَإِذَا جَاءُوكُمْ}1 يريد: غشوكم في مجالسكم، {قَالُوا آمَنَّا} وما آمنوا ولكنهم ينافقون لا غير فقد دخلوا بالكفر 2 في قلوبهم وخرجوا به، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ} من الكفر والكيد لكم. هذا معنى قوله تعالى في الآية الأولى (61) {وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ} ، وأما الآية الثانية (62) فقد أخبر تعالى رسوله أنهم لكثرة ما يرتكبون من الذنوب ويغشون من المعاصي ترى كثيراً منهم 3 يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت علناً لا يستترون به ولا يخفونه ثم ذمهم الله تعالى ذلك وقبح فعلهم فقال: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} . وفي الآية الأخيرة: أنكر على عبادهم وعلماهم سكوتهم عن جرائم عوامهم ورضوا بها مصانعة لهم ومداهنة ، فقال تعالى: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} أي: لم لا ينهاهم عن قولهم الإثم، أي: الكذب، وأكلهم السحت. الرشوة والربا، ثم ذم تعالى سكوت العلماء عنهم بقوله: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} أي: وعزتي وجلالي لبئس صنيع هؤلاء من صنيع حيث أصبح السكوت المتعمد لمنافع خاصة يحصلون عليها صنعة لهم أتقنوها وحذقوها. والعياذ بالله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجود منافقين من اليهود على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة.
- 2- بيان استهتار اليهود وعدم مبالاتهم بارتكابهم الجرائم علانية.
- 3- قبح سكوت العلماء على المنكر وإغضائهم على فاعليه، ولذا قال كثير من السلف في هذه الآية أشد آية وأخطرها على العلماء.

1 هذا الآيات معطوفة على قوله تعالى: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} السابقة، وخص بهذه الصفات: منافقوا اليهود، وهم من جملة: من اتخذوا الدين هزوا ولعبا.

2 أي: أنهم ما آمنوا قط، ولم يخالط الإيمان قلوبهم طرفة عين، فهم دخلوا كافرين وخرجوا كافرين.

3 الرؤيا هنا: بصرية، والخطاب عام لكل من يسمع ويرى، والمعنى: أن حالهم لا تخفى على أحد ذي بصر.

4 قال ابن عباس رضي الله عنه: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية. {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} ، والآية وإن نزلت في يهود المدينة، فقد ذكرت النصارى لأن حالهم سواء. والآية تنطبق اليوم على علماء المسلمين حيث تركوا الأمر والنهي، والعياذ بالله تعالى من عاقبة ذلك. فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده". الترمذي وصححه. ولولا هنا: أداة تحظيظ، والمراد: توبيخ علماؤهم وعابديهم على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

5 قال الزجاج: اللام في قوله تعالى: {لَبِئْسَ} للقسم والتأكيد.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا النَّوْزَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)}

شرح الكلمات:

{يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ1}: يريدون أنه تعالى ضيق عليهم الرزق ولم يوسع عليهم.

{غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ}: دعاء عليهم بأن يحرّموا الإنفاق في الخير وفيما ينفعهم.

{وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا}: طردوا من رحمة الله بسبب وصفهم الرب تعالى بالبخل.

{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}: لا كما قالوا لعنهم الله: يد الله مغلولة، أي: ممسكة عن الإنفاق.

{طُغْيَانًا}: تجاوزاً لحد الاعتدال في قولهم الكاذب وعملهم الفاسد.

{وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ}: أي: بين اليهود والنصارى.

{أَوْقَدُوا نَارًا}: أي: نار الفتنة والتحريش والإغراء والعداوات للحرب.

1 القائل: فخاص اليهودي عليه لعائن الله وهو يعنى: بمغلولة: بخيلة لا تنفق، وهو كاذب، بل يمين الله ملأى لا يغيظها نفقة سحاء الليل والنهار: "أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه" حديث الشيخين.

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ}: اليهود والنصارى.

{مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}: كناية عن بسط الرزق عليهم.

{أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ}: معتدلة لا غالبية مفرطة، ولا جافية مفرطة.

معنى الآيات:

يحبر تعالى عن كفر اليهود وجرأتهم على الله تعالى بباطل القول وسيء العمل، فيقول: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} يريدون أنه تعالى أمسك عنهم الرزق وضيقه عليهم، فرد الله تعالى عليهم

بقوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} هو دعاء عليهم بأن لا يوفقوا للإِنفاق فيما ينفَعهم {ولعنوا بما قالوا} . ولعنهم تعالى ولعنهم كل صالح في الأرض والسماء بسبب قولهم الخبيث الفاسد. وأكذبهم تعالى في قولهم {يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ} فقال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} كما قال عنه رسوله في الصحيح:

"يمين الله سحاء 2 تتفق الليل والنهار" ثم أخبر تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليسله ويخفف عنه ما يجد في نفسه من جراء كفر اليهود وخبثهم فقال: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ} أي: من اليهود {مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} من الآيات التي تبين خبثهم وتكشف النقاب عن سوء أفعالهم المخزية لهم. {طُغْيَانًا وَكُفْرًا} أي: إبعاداً في الظلم والشر وكفراً بتكذيبك وتكذيب ما أنزل إليك وذلك دفعاً للحق ليبرروا باطلهم وما هم عليه من الاعتقاد الفاسد والعمل السيء، ثم أخبر تعالى رسوله بتدبيره فيهم انتقاماً منهم فقال عز وجل من قائل: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ 3 وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: أن العداوة بين اليهود والنصارى لا تنتهي إلى يوم القيامة، ثم أخبر عن اليهود أنهم {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ} وذلك بالتحريش بين الأفراد والجماعات وحتى الشعوب والأمم، وبالإغراء، وقالة السوء، {أَطْفَأَهَا اللَّهُ} تعالى فلم يفلحوا فيما أرادوه، وقد أذلهم الله على يد رسوله والمؤمنين وأخزاهم وعن دار الإيمان أجلاهم وأخبر تعالى أنهم يسعون دائماً وأبداً في الأرض بالفساد، فلذا أبغضهم الله وغضب عليهم، لأنه تعالى لا يحب المفسدين، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (64)، أما الآية الثانية (65) وهي قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ} من يهود ونصارى {آمَنُوا} بالله ورسوله وبما

1 إنه وإن القائل: فنحاص بن عازوراء فإن رضي اليهود بمقاتلته سلكهم في سلكه واعتبروا كلهم قائلون، إذ الرضى بالكفر كفر.

2 هذا اللفظ معنى للحديث لا لفظه، وقد تقدم قريباً لفظه كما في الصحيحين.

3 الكلام صالح لأن يكون: {بينهم} المراد بهم اليهود أنفسهم كقوله تعالى: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} ، وأن يكون المراد بين اليهود والنصارى لتقدم ذكرهم معاً في قوله تعالى: {لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ} ، والواقع شاهد.

(1/651)

جاء من الدين الحق وعملوا به، {وَاتَّقُوا} الكفر والشرك وكبائر الذنوب الفواحش، لكفر الله عنهم سيئاتهم فلم يؤاخذهم ولم يفضحهم بها ولأدخلهم جنات النعيم. وهذا وعد الله تعالى اليهود والنصارى فلو أنهم آمنوا واتقوا لأنجزه لهم قطعاً. وهو لا يخلف الميعاد.

أما الآية الأخيرة (66) في هذا السياق فهي تتضمن وعداً إلهياً آخر وهو أن اليهود والنصارى لو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ومن ذلك القرآن الكريم، ومعنى أقاموا ذلك آمنوا

بالعقائد الصحيحة الواردة في تلك الكتب وعملوا بالشرائع السليمة والآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة التي تضمنتها تلك الكتب لو فعلوا ذلك لبسط الله تعالى عليهم الرزق وأسبغ عليهم النعم ولأصبحوا في خيرات وبركات تحوطهم من كل جانب هذا ما وعدهم الله به. ثم أخبر تعالى عن واقعهم المرير فقال: {مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ} لم تغل ولم تحف فلم تغل في عيسى أنه ابن الله ولا هو ابن زنى، ولكن قالت عبد الله ورسوله، ولذا لما جاء النبي الأُمِّي بشارة عيسى 1 عليه السلام آمنوا به وصدقوا بما جاء به من الهدى والدين الحق وهم عبد الله بن سلام وبعض اليهود، والنجاشي من النصارى وخلق كثير لا يحصون عدداً. وكثير من أهل الكتاب ساء 2، أي: قبح ما يعلمون من أعمال الكفر والشرك والشر والفساد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- أفتح وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله وكماله.
- 2- ثبوت صفة اليبدين لله تعالى ووجوب الإيمان بها على مراد الله تعالى، وعلى ما يليق بجلاله وكماله.
- 3- تقرير ما هو موجود بين اليهود والنصارى من عداوة وبغضاء 3 وهو من تدبير الله تعالى.
- 4- سعى اليهود الدائم في الفساد في الأرض فقد ضربوا البشرية بالذهب المادي الإلحادي الشيعوي، وضربوها أيضاً بالإباحة ومكائد الماسونية.

- 1 بشارة عيسى بدل من النبي الأُمِّي، وقلنا: بشارة عيسى؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى عليهم السلام ".
- 2 أي: بئس: شيء عملوه، إذ كذبوا الرسل وحرفوا الكتب وأكلوا السحت.
- 3 وإن قيل: إن التعاون القائم اليوم بين اليهود والنصارى يرد ما في الآية، قلنا: إن اليهود احتالوا على النصارى فضربوهم بالإلحاد، فلما قضى على العقيدة الدينية فيهم أصبحوا سخرة لهم يتحكمون فيهم، وبذلك فرضوا عليهم حبههم وعدم عداوتهم.

(1/652)

- 5- وعد الله لأهل الكتاب على ما كانوا عليه لو آمنوا واتقوا لأدخلهم الجنة.
- 6- وعده تعالى لأهل الكتاب ببسط الرزق وسعته لو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، أي: لو أنهم أخذوا بما في التوراة والإنجيل من دعوتهم إلى الإيمان بالنبي الأُمِّي والدخول في الإسلام لحصل لهم ذلك كما حصل للمسلمين طيلة ثلاثة قرون وزيادة. وما زال العرض كما هو 1

لكل الأمم والشعوب أيضاً.

لَبِئْسَ أَهْلُ الرَّسُولِ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسُنَّمُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (68) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلَ صَالِحًا فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (69){

شرح الكلمات:

{الرَّسُولُ}: ذكر من بني آدم أوحى إليه شرع وأمر بتبليغه وهو هنا محمد صلى الله عليه وسلم.
{بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ 2}: من التوحيد والشرائع والأحكام.
{يَعْصِمُكَ}: يحفظك حفظاً لا يصل إليك معه أحد بسوء.

1 الوعد: هو ما عرضه الله تعالى عليهم، وهو في قوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا...} الآية.

2 روى مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: {لَبِئْسَ أَهْلُ الرَّسُولِ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ...} الآية.

(1/653)

{فَلَا تَأْسَ}: لا تأسف ولا تحزن.

{وَالصَّابِئُونَ}: اليهود.

{وَالصَّابِئُونَ}: جمع صابئ، وهم فرقة من أهل الكتاب.

معنى الآيات:

في الآية الأولى (67) ينادي الرب تبارك وتعالى رسوله معظماً له بقوله: {لَبِئْسَ أَهْلُ الرَّسُولِ} المبجل ليأمره بإبلاغ ما أوحاه إليه من العقائد والشرائع والأحكام فيقول: {لَبِئْسَ أَهْلُ الرَّسُولِ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}. ويقول له: {وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ} أي: إن قصرت في شيء لم تبلغه لأي اعتبار من الاعتبارات {فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ} أي: فكأنك لم تبلغ 1 شيئاً، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ 2 مِنَ النَّاسِ} أي: يمنعك من أن يمسوك بشيء من الأذى، ولذا فلا عذر لك في ترك إبلاغ أي شيء سواء كان مما يتعلق بأهل الكتاب أو بغيرهم، ولذا فلم يكتف رسول الله شيئاً مما أمر بإبلاغه البتة. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} تقرير لوعده تعالى بعصمة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ هو تعالى لا يوفق

الكافرين لما يريدون ويرغبون فيه من أذية رسوله صلى الله عليه وسلم، ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم: " لا تحرسوني فإن الله قد عصمني " هذا ما دلت عليه الآية الأولى، أما الآية الثانية (68) وهي قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ 3 رِكْمٍ} لقد تقدم هذا السياق وأعيد هنا تقريراً له وتأكيداً وهو إعلام من الله تعالى أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء من الدين الحق ولا من ولاية الله تعالى حتى يقيموا ما أمروا به وما نهوا عنه وما انتدبوا إليه من الخيرات والصالحات مما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن أيضاً. وقوله تعالى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} هذا إخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن كثيراً من اليهود والنصارى يزيدهم ما يوحي الله تعالى إلى رسوله وما ينزله عليه في كتابه من أخبار

- 1 في الآية رد على الرافضة القائلين: بأن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً مما أمر بإبلاغه تقية وكذبوا ورب الكعبة قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لو كان في إيمان الرسول أن يكتم شيئاً لکتم: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} إذ هي عتاب له صلى الله عليه وسلم.
- 2 روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال: " ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة " قالت: فبينما كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال: " من هذا " قال سعد بن أبي وقاص. فقال له: " ما جاء بك " فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجننت أحرسه . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ونزلت هذه الآية.
- 3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء جماعة من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ألسنت تقر أن التوراة حق من عند الله. قال: " بلى " فقالوا: إنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها. فنزلت الآية: { لستم على شيء... } الخ.

(1/654)

أهل الكتاب مما هو بيان لذنوبهم وضلالهم. ومما هو أمر لهم بالإيمان بالنبي الأمي واتباعه على الدين الحق الذي ارسل به يزيدهم ذلك طغياناً، أي: علواً وعتواً وكفراً فوق كفرهم. ولذا فلا تأس، أي: لا تحزن 1 على عدم إيمانهم بك وبما جننت به لأنهم قوم كافرون. أما الآية الثالثة (69) وهي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ 3 وَالنَّصَارَى} فالذين آمنوا هم المسلمون، واليهود والنصارى والصابغون وهم فرقة منهم هم أهل الكتاب فجميع هذه الطوائف من آمن منهم الإيمان الحق بالله وباليوم الآخر وأتى بلانزم الإيمان وهو التقوى وهي ترك الشرك والمعاصي أفعالاً وتروكاً

فلا خوف عليه في الدنيا ولا في البرزخ ولا يوم القيامة ولا حزن يلحقه في الحيات الثلاث وعد الله حقاً ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ !.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب البلاغ على الرسل ونهوض رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الواجب على أكمل وجه وأتمه.

2- عصمة الرسول المطلقة.

3- كفر أهل الكتاب إلا من آمن منهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم واتبع ما جاء به من الدين الحق.

4- أهل العناد والمكابرة لا تزيدهم الأدلة والبراهين إلا عتواً ونفوراً وطغياناً وكفراً.

5- العبرة بالإيمان والعمل الصالح وترك الشرك و المعاصي لا بالانتساب إلى دين من الأديان.
﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا

1 في هذا الإرشاد الإلهي تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وليس بنهي عن الحزن إذ لا يقدر المرء على دفع الحزن وإنما يقدر على ترك مثيراته، فإنه متى ترك العرض لها لم يوجد في نفسه حزن.

2 في ذكر المؤمنين، وهم: المسلمون، مع اليهود، والصائبين، والنصارى، إشارة أبلغ من عبارة، وهي: أن العبرة ليست بالأنساب ولا الانتساب ولا بزمان أو مكان. وإنما النجاة من النار ودخول الجنة متوقفان على الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر والعمل الصالح الذي جاء به كتاب الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

3 اختلف في إعراب {والصائبون} على أقوال نكتفي بقول منها: وهو أن تكون مبتدأ وخبرها محذوف تقديره: والصائبون كذلك على حد قول الشاعر:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب

أي: كذلك، وتقدير الكلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والصائبون كذلك.

(1/655)

لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72)

شرح الكلمات:

الميثاق : العهد المؤكد باليمين.

{بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ} : بما لا يحبونه ولا تميل إليه أنفسهم المريضة.

{قَرِيبًا كَذَّبُوا} : أي: كذبوا طائفة من الرسل وقتلوا طائفة أخرى.

{أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً} : أي: أن لا يبتلوا بذنوبهم بالشدائد والمحن.

{فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا} : عموا عن العبر، وصموا عن سماع المواعظ.

{مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ} : أي: يشرك بالله غيره تعالى من سائر الكائنات فيعبده مع الله بأي نوع من أنواع العبادات.

{حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ} : حكم بمنعه من دخولها أبداً إلا أن يتوب من الشرك.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن أهل الكتاب فقد أقسم تعالى على أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل، وذلك في التوراة بأن يعبدوا الله وحده بما شرع لهم فيطيعوه في أمره ونهيه وأرسل

1 إن: هي المخففة من الثقيلة، وحسبانهم ذلك هو الذي جعلهم يواصلون جرائمهم، ولم يرتدعوا عنها.

(1/656)

إليهم رسله 1 تنرا كلما جاءهم 2 رسول بما لا يوافق أهواءهم 3 كذبوه فيما جاءهم به ودعاهم إليه. أو قتلوه. وحسبوا أن لا يؤاخذوا بذنوبهم فعموا عن الحق صموا عن سماع المواعظ فابتلاهم ربهم وسلط عليهم من سامهم سوء العذاب، ثم تاب الله عليهم فتابوا واستقام أمرهم وصلحت أحوالهم ثم عموا وصموا مرة أخرى إلا قليلاً منهم فسلط عليهم من سامهم 4 سوء العذاب أيضاً، وهاهم أولاء في عمى وصمم والله بصير بما يعملون وسوف ينزل بهم بأساه إن لم يتوبوا فيؤمنوا بالله ورسوله ويدينوا بالدين الحق الذي هو الإسلام.

هذا ما تضمنته الآيتان الأولى والثانية (70-71)، أما الآية الثالثة (72) وهو قوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} فقد أخبر تعالى مقررًا حكمه بالكفر على من افتري عليه وعلى رسوله فادعى أن الله جل جلاله وعظم سلطانه هو المسيح بن مريم تعالى الله أن يكون عبداً من عباده، وحاشا عيسى عبد الله ورسوله أن يرضى أن يقال له أنت الله. وكيف وهو القائل: يَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ { فهل مثل هذا القول يصدر عن يدعي أنه الله أو ابن الله؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان تاريخ بني إسرائيل، والكشف عن مختبئات جرائمهم من الكفر والقتل.
- 2- إكرام الله تعالى لبني إسرائيل ولطفه بهم مع تمردهم عليه ورفض ميثاقه وقتل أنبيائه وتكذيبهم، والمكر بهم.

- 1 كموسى، وهارون، ومن جاء بعدهم، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام.
- 2 كلما: نصبت على الظرفية، وهي لاستغراق الزمان الذي أنت فيه الرسل وأشربت معنى الشرطية، فكان العامل فيها بمنزلة الجواب.
- 3 {أهوائهم} جمع: هوى، وهو المحبوب، وفعله: هوى يهوى؛ كرضي يرضى، إذا أحب ومالته نفسه إلى ملابسة شيء.
- 4 إشارة إلى تاريخ بني إسرائيل، فقد استقام أمرهم وقامت دولتهم في فلسطين على عهد يوشع بن نون فتى موسى، ثم دالت دولتهم بجرائمهم على عهد البابليين ثم اجتمعت كلمتهم وقامت دولتهم على عهد داود وسليمان، ثم دالت دولتهم بجرائمهم التي نعاها الله تعالى عليهم في هذه الآية على يد الرومان.
- 5 هذا استئناف ابتدائي لاباطال باطل النصارى بعد إبطال باطل اليهود، فالمناسبة جد قوية لأنهما خصم الإسلام والمسلمين.
- 6 هذا قول اليعقوبية، وهم: فرقة من النصارى، لأنهم قالوا: باتحاد الابن والأب؛ فكأن المسيح هو الله في اعتقادهم الباطل الفاسد.

(1/657)

- 3- تقرير كفر النصارى بقولهم المسيح هو الله.
 - 4- تقرير عبودية عيسى عليه السلام لربه تعالى.
 - 5- تحريم الجنة على من لقي ربه وهو يشرك به سواه.
- {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَوَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ

ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
الآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76){

شرح الكلمات:

{ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ 1}: الثلاثة: هي الأب والابن وروح القدس: وكلها إله واحد.

{خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}: مضت قبله رسل كثيرون.

{وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}: أي: مريم كانت صديقة كثيرة الصدق في قولها وعملها.

{أَنِّي يُؤْفِكُونَ}: أي: كيف يصرفون عن الحق وقد ظهر واضحاً.

معنى الآيات

ما زال السياق في بيان كفر النصارى، ففي السياق الأول ورد كفر من قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وفي هذا السياق كفر من قالوا إن الله ثالث ثلاثة، إذ قال تعالى في هذه

1 أي: أحد ثلاثة، وهو قول الملكانية، والنصطورية، واليعقوبية، ولا يقولون: ثلاثة آلهة، ويتمنعون من ذلك، وهو لازمهم.

(1/658)

الآية (73) {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} يعنون الأب والابن وروح القدس، وبعضهم يقول الأب والابن والأم، والثلاثة إله واحد فأكذبهم تعالى في قيلهم هذا، فقال رداً باطلهم، {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي: وليس الأمر كما يكذبون، وإنما الله إله واحد، وأما جبريل فأحد ملائكته، وعيسى عبده ورسوله، ومريم أمته، فالكل عبد الله وحده الذي لا إله غيره ولا رب سواه. ثم قال تعالى متوعداً هؤلاء الكفرة الكذبة: {وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا 1 مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، فأقسم تعالى أنهم إن لم ينتهوا عن قولهم الباطل وهو كفر ليمسهم عذاب أليم موجه غاية الإيلاج. ثم لكمال رحمته عز وجل دعاهم في الآية الثانية (74) إلى التوبة ليتوب عليهم ويغفر لهم وهو الغفور الرحيم، فقال عز وجل: {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ} بترك هذا الكفر والباطل ويستغفرون الله منه، والله غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين، وفي الآية الثالثة (75) أخبر تعالى معلماً رسوله الاحتجاج على باطل النصارى، فقال: {وَمَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ 2} فلم يكن رباً ولا إلهاً وإنما هو رسول مفضل قد خلت من قبله رسل مفضلون كثيرون وأمه مريم لم تكن أيضاً إلهاً كما يزعمون، وإنما هي امرأة من نساء بني إسرائيل صديقة 3 كثيرة الصدق في حياتها لا تعرف الكذب ولا الباطل وأنها ولدها عيسى عليهما السلام بشران كسائر البشر يدل على ذلك أنهما يأكلان الطعام 4 احتياجاً إليه لأن بنيتهما لا تقوم إلا

عليه فهل أكل الطعام افتقاراً إليه، ثم يفرز فضلاته، يصلح أن يكون إلهاً. اللهم لا. وهنا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: انظر يا رسولنا كيف نبين لهم الآيات الدالة بوضوح على بطلان كفرهم، ثم انظر كيف يؤفكون 5 عن الحق، أي: كيف يصرفون عنه وهو واضح بين. وفي الآية الأخيرة (76) أمر رسوله أن يقول لأولئك المأفوكين عن الحق المصروفين عن دلائله لا ينظرون فيها أمره أن يقول لهم موبخاً لهم: {أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

- 1 الآية نص في أن من يقول بقول النصارى كافر مستوجب للعذاب الأليم.
- 2 فيه قصر موصوف على صفة أي، قصر عيسى على الرسالة لا يتجاوزها إلى الألوهية، ولذا فهو قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في أنه الله.
- 3 صديقة: كثيرة الصدق في قولها وعملها، وفي تصديقها بآيات ربها، وفي تصديقها لابنها، وقد ناداها ساعة ولادته وفي رضاعه، وهل هي مع الصديقة نبية؟ في نداء الملائكة لها ما يرجح نبوتها، والله أعلم.
- 4 إن من يأكل الطعام وولده امرأة كيف لا يكون مخلوقاً مريباً محدثاً كسائر المخلوقين لم يستطع دفع هذا نصراني مهما أوتى من العلم إلى أنهم يهربون من مواجهة الحق فيقولون تضليلاً لعقولهم وخداعاً لنفوسهم إنه يأكل الطعام بناسوته لا بلاهوته، ومعناه: أن الإنسان اختلط بالإله، وهذه هي الحلولية الباطلة الفاسدة عقلاً وشرعاً وواقعاً.
- 5 يقال: أفكه يأفكه أفكاً، إذا صرفه صرفاً، وهو من باب ضرب.

(1/659)

اللَّهُ مَا لَا يَمَلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} وهو عيسى وأمه، وتتركون عبادة من يملك ذلك، وهو الله السميع العليم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إبطال التثليث في عقيدة النصارى وتقرير التوحيد.
- 2- إبراء عيسى ووالدته عليهما السلام من دعوى الألوهية للناس.
- 3- فتح باب التوبة في وجه النصارى لو أنهم يتوبون.
- 4- تقرير بشرية عيسى ومريم عليهما السلام بدليل احتياجهما إلى الطعام بنيتهما، ومن كان مفتقراً لا تصح ألوهيته عقلاً وشرعاً.
- 5- ذم كل من يعبد غير الله إذ كل الخلائق مفتقرة لا تملك لنفسها ولا لعابدها ضراً ولا نفعاً، لا

تسمع دعاء من يدعوها، ولا تعلم عن حاله شيئاً، والله وحده السميع لأقوال كل عباده العليم بسائر أحوالهم وأعمالهم، فهو المعبود بحق وما عداه باطل.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80)}

(1/660)

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81){
شرح الكلمات:

{لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ 1}: الغلو: الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد فيه، فمثلاً أمرنا بغسل اليدين في الوضوء إلى المرفقين فغسلهما إلى الكتفين غلو، أمرنا بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم فدعاؤه غلو في الدين.

{أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا}: جمع هوى، وصاحب الهوى هو الذي يعتقد ويقول ويعمل بما يهواه لا بما قامت به الحجة وأقره الدليل من دين الله تعالى.

{وَأَضَلُّوا كَثِيرًا}: أي: أضلوا عدداً كثيراً من الناس بأهوائهم وأباطيلهم.

{عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ 2}: سواء السبيل: وسط الطريق العدل لا ميل فيه إلى يمين ولا إلى يسار.

{لُعِنَ}: دعى عليهم باللعنة التي هي الإبعاد من الخير والرحمة وموجباتها.

{بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}: أي: بسبب عصيانهم لرسولهم، واعتدائهم في دينهم.

{لَا يَتَنَاهَوْنَ}: أي: لا نهى بعضهم بعضاً عن ترك المنكر.

{لَبِئْسَ 3 مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}: قبح عملهم من عمل وهو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

{يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}: يوادونهم ويتعاونون معهم دن المؤمنين.

{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ}: أي: لو كانوا صادقين في إيمانهم بالله والنبي محمد صلى الله عليه وسلم ما اتخذوا المشركين في مكة والمدينة من المنافقين أولياء.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أهل الكتاب يهوداً ونصارى فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه

وسلم: {قُلْ يَا رَسُولَنَا: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} ، والمراد بهم هنا النصارى: {لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ

- 1 الغلو: مصدر غلا يغلو غلواً في الأمر، إذا جاوز حده المعروف.
- 2 سواء السبيل هنا المراد به: الإسلام؛ لأنهم ضلوا في دينهم قبل مجيء الإسلام ثم ضلوا عن الإسلام بعد مجيئه.
- 3 اللام: لام القسم، جيئ بها لتدل عليه، وتؤكد الدم بصورة فظيعة.

(1/661)

غَيْرَ الْحَقِّ} ، أي: لا تتشددوا في غير ما هو حق شرعه الله تعالى لكم، فتبتدعوا البدع وتتغالوا في التمسك بها والدفاع عنها، التشدد محمود في الحق الذي أمر الله به اعتقاداً وقولاً وعملاً لا في المحدثات الباطلة، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وهم اليهود، إذ قالوا في عيسى وأمه بأهوائهم فقالوا في عيسى ساحر، وقالوا في أمه بغي وأضلوا كثيراً من الناس بأهوائهم المتولدة عن شهواتهم، وضلوا، أي: وهم اليوم ضالون بعيدون عن جادة الحق والعدل في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم. هذا ما تضمنته الآية الأولى (77)، أما الآيات بعد فقد أخبر تعالى في الآية الثانية أن بني إسرائيل لعن منهم الذين كفروا على لسان كل من داود في الزبور، وعلى لسان عيسى بن مريم في الإنجيل وعلى لسان محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن فقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ}. فقد مسخ منهم طائفة قردة، {وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} حيث مسخ منهم خنازير كما لعنوا على لسان محمد صلى الله عليه وسلم في غير آية من القرآن الكريم، وهذا اللعن هو إبعاد من كل خير ورحمة ومن موجبات ذلك في الدنيا والآخرة سببه ما ذكر تعالى بقوله: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} . أي: بسبب عصيانهم لله تعالى ورسله بترك الواجبات وفعل المحرمات، واعتدائهم في الدين بالغلو والابتداع، ويقتل الأنبياء والصالحين منهم: وأخبر تعالى في الآية الثالثة بذكر نوع عصيانهم واعتدائهم الذي لعنوا بسببه فقال: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ ۖ فَعَلُوهُ} . أي: كانوا عندما استوجبوا اللعن يفعلون المنكر العظيم ولا ينهاي بعضهم بعضاً كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده". فلما فعلوا ذلك ضرب الله على قلوبهم بعضهم ببعض ثم قال صلى الله عليه وسلم: "لعن الذين كفروا -إلى قوله- فاسقون". ثم قال: "كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على ليد الظالم ولتأطرنه (تعطفنه) على الحق أطراً ولتقرسنه على الحق قسراً أو ليضرين الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم³" وفي آخر الآية قبح الله تعالى

1 في الآية دليل على جواز لعن الكافر، وإن كان من أولاد الأنبياء، وإن شرف النسب لا يمنع

إطلاق اللعنة في حقه: "قرطبي".

2 نقل القرطبي عن ابن عطية رحمهما الله تعالى: أن الإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه، وعلى غيره من المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه، ويهجر صاحب المنكر ولا يخالطه.

3 أخرجه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(1/662)

عملهم فقال: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ} ، أي: اليهود في المدينة يتولون الذين كفروا يعني من المشركين والمنافقين في مكة والمدينة يصاحبونهم ويوادونهم وينصرونهم وهم يعلمون أنهم كفار تحرم موالاتهم في دينهم وكتابهم، ثم قبح تعالى عملهم فقال: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ} نتيجة ما حملتهم عليه من الشر والكفر والفساد، وهو سخط الله تعالى عليهم وخلودهم في العذاب من موتهم إلى ما لا نهاية له فقال تعالى: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ} لا يخرجون منه أبداً. ثم زاد تعالى تقرير كفرهم وباطلهم وشرهم وفسادهم فقال: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} كما يجب الإيمان به وبالنبي محمد وبما جاء به من الهدى ودين الحق وما أنزل إليه من القرآن والآيات البينات ما اتخذوا الكفار المشركين والمنافقين أولياء، ولكن علة ذلك أنهم فاسقون إلا قليلاً منهم، والفاسق عن أمر الله الخارج عن طاعته لا يقف في الفساد عند حد أبداً، هذا معنى قوله تعالى: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ 2 أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ 3}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الغلو والابتداع في الدين، واتباع أهل الأهواء.
- 2- العصيان والاعتداء ينتجان لصاحبهما الحرمان والخسران.
- 3- حرمة السكوت عن المنكر ووخامة عاقبته على المجتمع.
- 4- حرمة موالات أهل الكفر والشر والفساد.
- 5- موالات أهل الكفر بالمودة والنصرة دون المؤمنين آية الكفر وعلامته في صاحبه.

1 أن: في موضع رفع على الابتداء، والتقدير: لبئس ما قدمت لهم أنفسهم، وهو سخط الله عليهم.
2 في الآية دليل واضح على أن من اتخذ الكافر ولياً لا يكون مؤمناً، إذ يجره ذلك الولاء إلى قول ما يقول، وفعل ما يفعل، وحتى اعتقاد ما يعتقد، وبذلك يكفر مثله. وشاهده من الحديث: "من تشبه بقوم

فهو منهم" .

3 أي: كفرون، إذ فسقوا عند دين الله وخرجوا عنه باليهودية الباطلة، وخرجوا عن الإسلام بالنفاق. فهم كفرة منافقون يهود ملعونون.

(1/663)

المجلد الثاني

تابع سورة المائدة

...

الجزء السابع

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (86)

شرح الكلمات:

عداوة 1 : العداوة: بغض نفسي تجعل صاحبها بعيداً ممن يعاديه فلا يصله بخير، ولا يقربه بمودة، وقد تحمله على إرادة الشر بالعدو.

مودة: المودة: حب نفسي يجعل صاحبه يتقرب إلى من يوده بالخير ودفع الشر.

قسيسين : جمع قسيس: وهو الرئيس الديني لعلمه عند النصارى.

ورهباناً: الرهبان: جمع راهب: مشتق من الرهبة وهو الرجل في النصارى يتبتل وينقطع للعبادة في دير أو صومعة.

ما أنزل إلى الرسول : الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومما أنزل إليه آيات القرآن الكريم الدالة على تشريف عيسى ووالدته مريم عليهما السلام، وأن عيسى عبد الله

1 {عداوة} منصوب على التمييز مبيّناً لنسبة أشد وكذا مودة.

(2/4)

الشاهدين : جمع شاهد: من شهد الله بالوحدانية وللنبي محمد بالرسالة واستقام على ذلك.
الصالحين : جمع صالح: وهو من أدّى حقوق الله تعالى كاملة من الإيمان به وشكره على نعمه
بطاعته، وأدّى حقوق الناس كاملة من الإحسان إليهم، وكف الأذى عنهم.
فأثابهم الله بما قالوا : جزاهم بما قالوا من الإيمان ووفّقوا له من العمل جنات تجري من تحتها
الأنهار.

معنى الآيات:

يخبر تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بعداوة كل من اليهود والمشركين للمؤمنين وأنهم أشد
عداوة من غيرهم، فيقول {لتجدن¹ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا} أما اليهود فلما
توارثوه خَلْفاً عن سلف من إنكار الحق. والوقوف في وجه دعائه، إضافة إلى أن أملمهم في إعادة
مجدهم ودولتهم يتعارض مع الدعوة الإسلامية وأما المشركون فلجهلهم وإسرافهم في المحرمات وما
ألفوه لطول العهد من الخرافات والشرك والضلالات. كما أخبر تعالى أن النصارى هم أقرب مودة
للذين آمنوا فقال: {ولتجدن أقربهم² مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى} وعلل تعالى لهذا القرب
من المودة بقوله: {ذلك...} أي كان ذلك بسبب أن منهم قسّيسين³ ورهباناً فالقسيسون علماء
بالكتاب رؤساء دينيون غالباً ما يؤثرون العدل والرحمة والخير على الظلم والقسوة والشر والرهبان
لانقطاعهم عن الدنيا وعدم رغبتهم فيها ويدل عليه قوله: {وأنهم لا يستكبرون} عن الحق وقبوله
والقول به ولذا لما عمت المادية المجتمعات النصرانية، وانتشر فيها الإلحاد والإباحية قلت تلك
المودة للمؤمنين إن لم تكن قد انقطعت. أما توله تعالى: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى
أعينهم

- 1 اللام في {لتجدن} لام القسم. وهذه الآيات الأربع كالفذلكة لما سبق من الآيات في أهل الكتاب.
- 2 هذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه إذ هاجر إليه المؤمنون الهجرة الأولى والثانية هروبا من
اضطهاد المشركين وأذاهم، ولما بعثت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة بهدايا تطالب برد
المهاجرين إليها دعا النجاشي الرهبان والقسس وأسمعهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم فبكوا حتى
فاضت أعينهم من الدمع فنزلت هذه الآية.
- 3 جمع قسّ ويجمع على قساوسة، والرهبان جمع راهب كراكب وركبان وفعله رهب يرهب رهبا ورهبا
ورهبية إذا خاف والرهبانية والترهب التعبد في صومعة أو دير.

تفيض 1 من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنة فاكثبنا مع الشاهدين { فالمعنيُّ بها من أسلم من النصارى بمجرد أن تُلي عليهم القرآن وسمعه كأصحة النجاشي وجماعة كثيرة ومعنى قولهم {فاكثبنا مع الشاهدين} أنهم بعد ما سمعوا القرآن تأثروا به فبكوا من أجل ما عرفوا من الحق وسألوا الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين ليكونوا معهم في الجنة، والشاهدون هم الذين شهدوا الله تعالى بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، وأطاعوا الله ورسوله من هذه الأمة وقولهم: (ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا 2 مع القوم الصالحين) فإن معناه: أي شيء يمنعنا من الإيمان بالله رباً وإلهاً واحداً لا شريك له ولا ولد ولا والد. وبما جاء من الحق في توحيده تعالى ونبوته رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الطمع في أن يدخلنا ربنا الجنة مع الصالحين من هذه الأمة. ولما قالوا هذا أخبرهم تعالى أنه أثابهم به {جنات 3 تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}، وأخبر تعالى أن ذلك الجزاء الذي جزاهم به هو {جزاء المحسنين} وهم الذين أحسنوا القول والعمل مع سلامة عقائدهم، وطهارة أرواحهم حيث لم يتلوثوا بالشرك والمعاصي ثم أخبر تعالى بأن الذين كفروا 4 بالله إلهاً واحداً ورسوله نبياً ورسولاً، وكذبوا بآياته القرآنية أولئك البعداء هم أصحاب 5 الجحيم الذين لا يفارقونها أبداً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- عظم عداوة اليهود والمشركين للإسلام والمسلمين.

2- قرب النصارى الصادقين في نصرانيتهم من المسلمين.

3- فضيلة التواضع، وقبح الكبر.

1 تفيض أعينهم من الدمع أي بالدمع: وحروف الجرّ تتناوب قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين مني صباية ... على النحر حتى بلّ دمعي محلي
أي غلاف السيف.

2 في الكلام إضمار أي: ونطمع أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الصالحين، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الصادقين الصالحين.

3 دل هذا الجزاء الحسن على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم إذ به أجاب الله سؤالهم وحقق طمعهم ورجاءهم وهكذا كل من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة.

4 في هذا احتراس إذ ما كل النصارى آمنوا لما سمعوا القرآن وبكوا وسألوا الله في صدق وآمنوا وعملوا الصالحات فأتأبهم الله الجنة، لا بل منهم الذين كفروا وكذبوا وهم الأكثرون فجزاؤهم الجحيم يلزمونهم أبداً لظلمة قلوبهم وخبث نفوسهم.

5 يقال: نار جحمة على وزن نجمة أي: شديدة اللمع قال شاعر الحماسة الطائي:

نحن حبسنا بني جديلة في ...
نار من الحرب جمعة الضرم

(2/6)

-
- 4- فضل هذه الأمة وكرامتها على الأمم قبلها.
5- فضل الكتابي إذا أسلم. وحسن إسلامه.
6- بيان مصير الكافرين والمكذابين وهو خلودهم في نار جهنم.
7- استعمال القرآن أسلوب الترغيب والترهيب بذكره الوعيد بعد الوعد.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ
كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

شرح الكلمات:

- لا تحرموا : التحريم: المنع أي لا تمتنعوا.
مما أحل الله لكم: أي ما أباحه لكم وأذن لكم فيه من نكاح وطعام وشراب.
حلالاً طيباً: مباحاً غير مستنقذ ولا مستخبث.
لا يؤاخذكم الله باللغو: لا يعاقبكم الله باللغو الذي هو ما كان بغير قصد اليمين.
عقدتم الأيمان: عزمتم عليها بقلوبكم بأن تفعلوا أو لا تفعلوا.
من أوسط: أغلبه ولا هو من أعلاه، ولا هو من أدناه.
أهلكم: من زوجة وولد.

(2/7)

-
- تحرير رقبة: عتقها من الرق القائم بها.
يبين الله لكم آياته : المتضمنة لأحكام دينه من واجب وحلال وحرام.
معنى الآيات:
الآيات الأولى (87) والثانية (88) نزلتا في بعض الصحابة منهم عبدالله بن مسعود وعثمان بن

مضعون وغيرهما كانوا قد حضروا موعظة وعظهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فزهّدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة. وعزموا على التبتل والانقطاع عن الدنيا فأثّروا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وسألوها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامه فكأنهم تقالّوا ذلك فقال أحدهم: أنا لا آتي النساء، وقال آخر: أنا أصوم لا أفطر الدهر كله وقال آخر: أنا أقوم فلا أنام، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس، وقال: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا وإني وأنا رسول الله لأكل اللحم، وأصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" ونزلت هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم} من طعام وشراب ونساء، {ولا تعتدوا} بمجاورة³ ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم فإن الله تعالى ريمكم {لا يحب المعتدين} {وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً} أما الحرام فلا يكون رزقاً لكم، {واتقوا الله} أي خافوه بترك الغلو والتتبع المفضى بكم إلى الترهّب ولا رهبانية في الإسلام. {الذي أنتم به مؤمنون} أي رباً يشرع فيحطل ويحرم، وإلهاً يطاع ويعبد، هذا ما دلّت عليه الآيتان الأولى والثانية أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم} فقد نزلت لما قال أولئك الرهط من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم: "لقد حلفنا على ما عزمنا عليه من التبتل فماذا نصنع بأيماننا" فبيّن لهم تعالى ما يجب عليهم في أيمانهم لما حنثوا فيها بعدولهم عما حلفوا عليه فقال: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم} وهو ما لا قصد للحلف فيه وإنما جرى لفظ اليمين على اللسان فقط نحو: لا والله أو بلى والله، ومثله أن

1 أخرج البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنما تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له من ذنبه ما تقدّم وما تأخّر، فقال أحدهم أمّا أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال آخر أمّا أنا فأصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أمّا أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبداً فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنّي لأخشاكم لله واتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني".

2 قالت العلماء هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها تردّ على غلاة المترهبين وأهل البطالة من المتصوفين، وقال الطبري لا يجوز لمسلم تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من الطيبات.

3 إذا حرّم العبد على نفسه شيئاً لا يحرم عليه إلاّ امرأته فإنّها تحرم عليه بالطلاق.

يحلف على الشيء يظنه كذا فيظهر على خلاف ما ظن، {ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان} أي قصدتموها عازمين 1 عليها، فمن حنث بعد الحلف فالواجب في حقه خروجاً من الإثم كقارة وهي {إطعام عشرة مساكين} لكل مسكين نصف صاع أي مدان 2 من أعدل {ما تطعمون أهليكم} ما هو بالأجود الغالي، ولا بالأردأ الرخيص، {أو كسوتهم} كقميص وعمامة، أو إزار ورداء، {أو تحرير رقبة} أي عتق رقبة مؤمنة ذكراً كان أو أنثى صغيرة أو كبيرة فهذه الثلاثة المؤمن مخير في التكفير بأيها شاء، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام مفرقة أو متتابعة كما شاء هذا معنى قوله تعالى {فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام}، وقوله {ذلك كفارة أيمانكم} أي هذا الذي بين لكم هو ما تكفرون به ما علق بنفوسكم من إثم الحنث. وقوله {واحفظوا أيمانكم} 3 أي لا تكثروا الحلف فتحنثوا فتأثموا فتجب عليكم الكفارة لذلك. وقوله تعالى: { كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون } معناه مثل هذا التبيين الذي بينه لكم في مسألة الحنث في اليمين والكفارة له يبين لكم آياته المتضمنة لشرائعه وأعلام دينه ليعدكم بذلك لشكره بطاعته بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه، فله الحمد والمنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة تحريم ما أباح الله، كحرمة تحليل ما حرم الله عز وجل.
- 2- بيان مدى حرص الصحابة على طاعة الله خوفاً من عقابه وطمعاً في إنعامه.
- 3- حرمة الغلو في الدين والتتبع فيه.
- 4- بيان كفارة اليمين بالتفصيل.

1 هذا إذا لم يستثن بأن يقول إلا أن يشاء الله أمّا من استثنى فلا كفارة عليه إذ لا إثم مع الاستثناء ولا بد للاستثناء من النطق يقول: إلا أن يشاء الله ولا يتم إلا بتحريك لسانه وشفثيه.

2 وفي الآية وجه آخر ذكره القرطبي وهو أن يبادر إلى إخراج الكفارة إذا حنث وهذا حفظها من النسيان ظاهر.

3 قال العلماء: الأيمان أربعة: يمينان يكفر فيهما إذا حنث ويمينان لا كفارة فيهما فالأولان أن يقول: والله لأفعلن كذا ثم يحنث والثاني أن يقول: والله لا أفعل كذا ويحنث، واللذان لا كفارة فيهما: الأولى: لغو اليمين وهو أن يحلف على الشيء يظنه كذا فيظهر خلافه، والثانية: أن يجري على لسانه الحلف وهو غير قاصد نحو: لا والله، بلى والله، والخامسة: اليمين الغموس، وهو أن يحلف متعمداً الكذب وكفارتها التوبة لا غير وإن كفر مع التوبة فحسن.

- 5- كراهة الإكثار من الحلف. وحرمة الحلف 1 بغير الله تعالى مطلقاً.
- 6- استحباب حنث من 2 حلف على ترك مندوب أو فعل مكروه، وتكفيره على ذلك أما إذا حلف أن يترك واجباً أو يأتي محرماً فإن حنثه واجب وعيه الكفارة.
- 7- الأيمان ثلاثة 3: لغو: يمين لا كفارة لها إذ لا إثم فيها، الغموس 4: وهي أن يحلف متعمداً الكذب ولا كفارة لها إلا التوبة، اليمين المكفّرة: وهي التي يتعمد فيها المؤمن الحلف ويقصده ليفعل أو لا يفعل ثم يحنث فهذه التي ذكر تعالى كفارتها وبينها.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

- 1 لحديث الترمذي: "من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر" وحديث الصحيح: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت" ..
- 2 لقوله صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه".
- 3 هذا العدد مجمل وقد تقدم تفصيله وأن الأيمان خمسة.
- 4 أخرج البخاري "أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله إعرابي قائلاً يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله قال ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين. قال: ثم ماذا؟ قال اليمين الغموس. قلت وما اليمين الغموس؟ قال: التي يفتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب".

(2/10)

شرح الكلمات:

- الخمير والميسر : الخمر 1: كل مسكر كيفما كانت مادته وقلّت أو كثرت، والميسر: القمار. 2
والأنصاب : الأنصاب: جمع نصب. ما ينصب للتقرب به إلى الله أو التبرك به، أو لتعظيمه
كتمائيل الرؤساء والزعماء في العهد الحديث.
الأزلام : جمع زلم: وهي عيدان يستقسمون بها في الجاهلية لمعرفة الخير من الشر والريح من الخسارة، ومثلها قرعة الأنبياء، وخط الرمل، والحساب بالمسبحة.

رجس : الرجس: المستقذر حساً كان أو معنى، إذ المحرمات كلها خبيثة وإن لم تكن مستقذرة.
من عمل الشيطان : أي مما يزيئُه للناس ويحببه إليهم ويرغبهم فيه ليضلهم.
فاجتنبوه: اتركوه جانباً فلا تقبلوا عليه بقلوبكم وابتعدوا عنه بأبدانكم.
تقلحون : تكملون وتسعدون في دنياكم وآخرتكم.
ويصدكم: أي يصرفكم.
فهل أنتم منتهون: أي انتهوا فالاستفهام للأمر لا للاستخبار.
جناح فيما طعموا : أي إثم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من الميسر قبل تحريم ذلك.
معنى الآيات:

لما نهى الله تعالى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله تعالى لهم بيّن لهم ما حرّمه عليهم ودعاهم إلى تركه واجتنابه لضرره بهم، وإفساده لقلوبهم وأرواحهم فقال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا} أي يا من صدقتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً اعلموا {إنما الخمر والميسر

1 صحّ عن عمر رضي الله عنه أنه خطب يوماً فقال: "أيّها الناس ألا إنّه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة: من العنب والتمر، والعسل والحنطة والشعير" والخمر ما خامر العقل أي: ستره وغطّاه فأصبح المرء يهذي ويقول الخطأ والصواب.
2 ما دامت علّة التحريم في الخمر والميسر هي إثارة العداوة بين إخوة الإيمان، والصدّ وهو الإلهاء عن ذكر الله وعن الصلاة فإن كل ما ينشأ عنه إثارة العداوة والصدّ عن الذكر والصلاة فهو حرام.
3 هذه الآية نزلت بعد وقعة أحد وكانت في السنة الثالثة من الهجرة أي في آخرها ولكنها وقعت هنا في سورة المائدة بعد نزولها وهذه الآية هي الناسخة لإباحة الخمر ويروى في سبب نزولها أن ملاحاة كانت بين سعد بن أبي وقاص ورجل من الأنصار سببها شرب خمر في ضيافة لهم.

(2/11)

والأنصاب 1 والأزلام رجس} أي سخط وقذر مما يدعو إليه الشيطان ويزيّنه للنفس ويحسنه لها لترغب فيه، وهو يهدف من وراء ذلك إلى إثارة العداوة والبغضاء بين المسلمين الذين هم كالجسم الواحد. وإلى صدّهم عن ذكر الله الذي هو عصمتهم وعن الصلاة التي هي معراجهم إلى الله ربهم، وأمّرتهم بالمعروف وناهيتهم عن المنكر، ثم أمرهم بأبلغ أمر وأنفذه إلى قلوبهم لخطورة هذه المحرمات الأربع وعظيم أثرها في الفرد والمجتمع بالشر والفساد فقال: {فهل أنتم منتهون؟}! وأمّرتهم بطاعته وطاعة رسوله وحذرهم من مغبة المعصية وآثارها السيئة فقال {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا} مغبة ذلك ثم أعلمهم أنهم إن تولوا عن الحق بعدما عرفوه فالرسول لا يضيره توليهم، إذ ما

عليه إلا البلاغ المبين وقد بَلَّغَ وأما هم فإن جزاءهم على توليهم سيكون جزاء الكافرين وهو الخلود في العذاب المهين. هذا معنى قوله: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأحذروا فإن توليتم فاعلموا3 أنما على رسولنا البلاغ المبين} وقوله تعالى في الآية الأخيرة (93) {ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا4 وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين} فقد نزلت لقول بعض الأصحاب5 لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله ما بال الذين ماتوا من إخواننا وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر؟" أي كيف حالهم فهل يؤخذون أو يعفى عنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية فأعلم أنهم ليس عليهم جناح أي إثم أو مؤاخذه فيما شربوا وأكلوا قبل نزول التحريم بشرط أن يكونوا قد اتقوا الله في محارمه وآمنوا به وبشرائعه، وعملوا الصالحات استجابة لأمره وتقرباً إليه. فكان رفع الحرج عليهم مقيداً بما ذكر. وقوله: {ثم اتقوا...} كما لا جناح6 على الأحياء فيما طعموا وشربوا قبل التحريم

- 1 ذكر الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر المقصود منه تأكيد التحريم وتقويته نظراً لما ألفتة النفوس منهما، والمراد من تحريم الأنصاب تحريم عبادتها وصنعها، وبيعها
- 2 هذه الصيغة تستعمل للحث على الفعل إذا المأمور بدا عليه التراخي أو عدم الاهتمام مما أمر بفعله أو تركه. والفاء في {فهل أنتم} تفریع عن قوله: {إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم..} الآية، والمأمور بالانتهاء عنه هو الخمر والميسر فلذا يقدر عنهما بعد {منتھون}.
- 3 {فاعلموا} جواب الشرط أي فإن توليتم عن طاعة الله والرسول فاعلموا أن توليكم لا يضر الرسول شيئاً إنما على الرسول البلاغ وقد بَلَّغكم.
- 4 جملة: {ثم اتقوا وآمنوا} تأكيد لفظي لجملة: {إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات}.
- 5 يروى أن القائل: أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو سؤال إشفاق ورحمة على من مات وهو يشرب هذا المحرم.
- 6 الجناح، الإثم المترتب عن الجناح الذي هو الميل إلى المعصية وعدم الطاعة.

(2/12)

وبشرط الإيمان، والعمل الصالح والتقوى لسائر المحارم، ودوام الإيمان والتقوى والإحسان في ذلك بالإخلاص فيه لله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- حرمة الخمر والقمار، وتعظيم الأنصاب والاستقسام بالأزلام.

2- وجوب الانتهاء من تعاطي هذه المحرمات فوراً وقول انتهينا يا ربنا كما قال عمر رضي الله عنه.

3- بيان علة تحريم شرب الخمر ولعب الميسر وهي إثارة العداوة والبغضاء بين الشاربين واللاعبيين والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهما قوام حياة المسلم الروحية.

4- وجوب طاعة الله والرسول والحذر من معصيتهما.

5- وجوب التقوى حتى الموت ووجوب الإحسان في المعتقد والقول والعمل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيِّدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ قَلْبُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَالِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مِّسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

(2/13)

شرح الكلمات:

ليبلونكم : ليختبرونكم.

الصيد 1 : ما يصاد. 2

تناله أيديكم 3 : كبيض الطير وفراخه.

ورماحكم : جمع رمح، وما ينال به هو الحيوان على اختلافه.

ليعلم الله من يخافه بالغيب : : ليظهر الله تعالى بذلك الاختبار من يخافه بالغيب فلا يصيد.

فمن اعتدى (بعد التحريم): بأن صاد بعد ما بلغه التحريم.

وأنتم حرم: جمع حرام والحرام: المحرم لحج أو عمرة ويقال رجل حرام وامرأة حرام.

من النعم: النعم: الإبل والبقر والغنم.

ذوا عدل منكم : أي صاحباً عدالة من أهل العلم.

وبال أمره : ثقل جزاء ذنبه حيث صاد والصيد حرام.

وللسيارة : المسافرين يتزودون به في سفرهم. وطعام البحر ما يقذف به إلى الساحل.

معنى الآيات:

ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين ليعلمهم مؤكداً خبره بأنه يبلوهم اختباراً لهم ليظهر 4

المطيع من العاصي فقال: {يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم

ليعلم الله من يخافه بالغيب} فحرم عليهم تعالى الصيد وهم حرم ثم ابتلاهم بوجوده بين أيديهم بحيث تتاله أيديهم ورماحهم بكل يسر وسهولة على نحو ما ابتلى به بني إسرائيل في تحريم الصيد يوم السبت فكان السمك يأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا يأتيهم كذلك بلاهم ربه بما كانوا يفسقون بيد أن المسلمين استجابوا لربه

- 1 أذن للمحرم ولمن في الحرم في قتل ما يؤذي كالحية والعقرب، والغراب والفأرة وكل ما يؤذي كالأسد والنمر والذئب والفهد لقوله صلى الله عليه وسلم: "خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحدأة".
- 2 الصيد مصدر صاد بصيد صيداً وأطلق المصدر على اسم المفعول: المصيد فقالوا: صيدٌ.
- 3 قوله: {تتاله أيديكم} يريد صغار الصيد، وفراخه وببيضه. {ورماحكم} هو كبار الصيد الذي لا يؤخذ باليد ولكن بألة الصيد.
- 4 أي ليظهر ذلك لهم إقامة للحجة عليهم أما هو سبحانه وتعالى فعلمه بذلك أزلي سابق.

(2/14)

وامتثلوا أمره، على خلاف بني إسرائيل فإنهم عصوا وصادوا فمسخهم قردة خاسئين. وقوله تعالى {فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم}، أي فمن صاد بعد هذا التحريم فله عذاب أليم هذا ما دلت عليه الآية الأولى (94). أما الآية الثانية (95) وهي قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم} فأكد لهم تحريم الصيد وبين لهم ما يترتب على ذلك من جزاء فقال {ومن قتله منكم متعمداً} فالحكم الواجب على من قتله جزاءً {مثل ما قتل من النعم} وهي الإبل والبقر والغنم {يحكم به ذوا عدل منكم} فالعدلان ينظران إلى الصيد وما يشبهه من النعم فالنعامة تشبه الجمل وبقرة الوحش تشبه البقرة، والغزال يشبه النيس وهكذا فإن شاء 3 من وجب عليه بغير أو بقرة أو تيس أن يسوقه إلى مكة الفقراء الحرم فليفعل وأن شاء اشترى بثمنه طعاماً وتصدق به، وإن شاء صام بدل كل نصف صاع يوماً لقوله تعالى: {هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً} وقوله تعالى: {ليذوق وبال أمره} أي ثقل جزاء مخالفته وقوله تعالى: {عفا الله عما سلف} أي ترك مؤاخذتكم على ما مضى، وأما مستقبلاً فإنه تعالى يقول: {ومن عاد فينتقم 4 الله منه والله عزيز ذو انتقام} ومعناه أنه يعاقبه على معصيته ولا يحول دون مراده تعالى حائل ألا فاتقوه واحذروا الصيد وأنتم حرم، هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة (96) فقد أخبر تعالى بعد أن حرم على المؤمنين الصيد وهم حرم وواجب الجزاء على من صاد. أخبر أنه امتناناً منه عليهم أحل لهم صيد البحر أي ما يصيدونه من البحر وهم حرم كما أحل لهم طعامه وهو ما يقذفه البحر من حيوانات 5

ميتة على ساحله {متاعا لكم وللسيارة} وهم المسافرون يتزودون به في سفرهم ويحرم عليهم صيد البر ما داموا حراماً، وأمرهم بتقواه أي بالخوف من عقوبته فيلزموا طاعته بفعل ما أوجب وترك ما حرم، وذكرهم بحشرهم جميعاً إليه يوم القيامة للحساب والجزاء فقال: {واتقوا الله الذي إليه تحشرون}.

1 روي أن أبا اليسر عمرو بن مالك الأنصاري قتل حمار وحش وهو محرم بعمره عام الحديبية فنزلت هذه الآية.

2 القتل لغة: إفاتة الروح وهو أنواع منها النحر، والذبح، والخنق، والرضخ وشبهه.

3 قالت العلماء: ما يجزىء من الصيد شيئان دواب وطير فيجزىء ما كان من الدواب بنظيره في الخلقة والصورة ففي النعامة بدنه والطير: القيمة إلا الحمام ففيه شاة.

4 الجمهور أن مَنْ صاد ودفع الجزاء ثم صاد كلما صاد لزمه الفداء، وبعض أهل العلم يرى أنه لا يحكم عليه بشيء ويترك لله تعالى ويقال له: ينتقم الله منك.

5 مذهب مالك حلية ميتة البحر مطلقاً لحديث: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" وحديث العنبر.

(2/15)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- ابتلاء الله تعالى لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية بكثرة الصيد بين أيديهم. وحرم عليهم صيده فامتثلوا أمر الله تعالى ولم يصيدوا فكانوا خيراً من بني إسرائيل وأفضل منهم على عهد أنبيائهم.

2- تحريم الصيد على المحرم إلا صيد البحر فإنه مباح له.

3- بيان جزاء من صاد وهو محرم وأنه جزاء مثل ما قتل من النعم.

4- وجوب التحكيم فيما صاده المحرم، ولا يصح أن يكفر الصائد بنفسه.

5- صيد الحرم حرام على الحرم من الناس والحلال.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَابَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)

شرح الكلمات:

الكعبة : الكعبة كل بناء مربع والمراد بها هنا بيت الله الحرام.

قياماً للناس: يقوم به أمر دينهم بالحج إليه والاعتماد وديناهم بأمن داخله وجبي ثمرات كل شيء إليه.

(2/16)

الشهر الحرام: أي المحرم والمراد به الأشهر الحرم الأربعة رجب والقعدة والحجة ومحرم. الهدى : ما يهدى إلى البيت من أنواع الهدايا. والقلائد : جمع قلادة ما يقلده البعير أو البقرة المهدي إلى الحرم. البلاغ: بلاغ ما أمره بإبلاغه. ما تبذون وما تكتمون : أي ما تظهرون وما تخفون. الخبيث: مقابل الطيب وهو الحرم وهو عام في المحسوسات والمعقولات. أولي الألباب: أصحاب العقول. معنى الآيات:

قوله تعالى: {جعل 1 الله الكعبة البيت الحرام 2 قياماً للناس} المراد من الناس العرب في جاهليتهم قبل الإسلام ومعنى قياماً: أن مصالحهم قائمة على وجود البيت يحج ويعتمر يأمن الآتي إليه والداخل في حرمة، وكذا الشهر 3 الحرم وهي أربعة أشهر القعدة والحجة ومحرم ورجب 4، وكذا الهدى وهو ما يهدى إلى الحرم من الأنعام، وكذا القلائد جمع قلادة وهي ما يقلده الهدى إشعاراً بأنه مهدي إلى الحرم، وكذا ما يقلده الذاهب إلى الحرم نفسه من لِحَاء 5 شجر الحرم إعلماً بأنه آت من الحرم أو ذاهب إليه فهذه الأربعة البيت الحرام والشهر الحرم والهدى والقلائد كانت تقوم مقام السلطان بين العرب فتحقق الأمن والرخاء في ديارهم وخاصة سكان الحرم من قبائل قريش فهذا من تدبير الله تعالى لعباده وهو دال على علمه وقدرته وحكمته ورحمته ولذا قال تعالى: {ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم} أي حقق ذلك الأمن والرخاء في وقت لا دولة لكم فيه ولا نظام ليعلمكم أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض من سائر الكائنات وشتى

- 1 الله الذي أوجد الكعبة إذ أمر خليله ببناها هذا الإيجاد الأخير أمّا الأول فكان على عهد آدم عليه السلام، وجعل هنا بمعني صيرها كذلك أي قياماً للناس الذين هم العرب.
- 2 قياماً وقيماً وهما من نوات الواو فقلبت الواو ياء لأن أصل الفعل قام يقوم قواماً، وقياماً.
- 3 الشهر: اسم جنس ولذا أريد به هنا الأشهر الحرم الأربعة.
- 4 يقال له رجب الأصم لأنه لا يسمع فيه قعقة السلاح ويقال: رجب مضر لأن مضر كانت

تعظمه أكثر من غيره، والأصب حيث يصب فيه الخير صباً.
5 إحاء ككساء : قشر الشجر .

(2/17)

المخلوقات لا يخفى عليه من أمرها شيء، وأنه بكل شيء عليم فهو الإله الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه فاعبدوه، وتوكلوا عليه واتركوا عبادة غيره والنظر إلى سواه، وإن لم تفعلوا فسوف يعاقبكم بذلك أشد العقوبة وأقساها فإنه عز وجل شديد العقاب فاعلموا ذلك واتقوه.
هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (97) والثانية (98) أما الآية الثالثة (99) فقد أكدت مضمون قوله تعالى في الآية الثانية {اعلموا أن الله شديد العقاب} وهو وعيد شديد فقال تعالى {ما على الرسول إلا البلاغ} 1 وقد بلغ، فأندر وأعذر، وبقي الأمر إليكم إن أنبتم إلى ربكم وأطعتموه فإنه يغفر لكم ويرحمكم لأنه غفور رحيم، وإن أعرضتم وعصيتم فإنه يعلم ذلك منكم ويؤاخذكم به ويعاقبكم عليه وهو شديد العقاب وقوله {والله يعلم ما تبون وما تكتُمون} وعد ووعد لأن علمه تعالى بالظواهر والبواطن يترتب عليه الجزاء فإن كان العمل خيراً كان الجزاء خيراً وإن كان العمل شراً كان الجزاء كذلك.

هذا مضمون الآية الثالثة أما الرابعة (100) فإنه تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للناس أيها الناس أنه {لا يستوي الخبيث} 2 من المعتقدات والأقوال والأعمال والرجال والأموال 3، {والطيب} 4 منها، ولو أعجبتمكم أي سرتكم كثرة الخبيث فإن العبرة ليست بالكثرة والقلة وإنما هي بالطيب النافع غير الضار ولو كان قليلاً، وعليه {فاتقوا الله يا أولي الألباب} أي خافوه فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه رجاء حصول الفلاح لكم بالنجاة من المرهوب والحصول على المرغوب المحبوب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان عظيم تدبير الله تعالى لخلقته، إذ آمن مصالحي قريش والعرب فأوجد لهم أمناً

1 أي ليس عليه هداية الناس ولا التوفيق ولا الثواب. وأصل البلاغ: البلوغ وهو الوصول، بلغ المكان يبلغه وصل إليه، وأبلغه الشيء أوصله إليه فعلى الرسول إبلاغ أمر الله ونهيه وأخباره إلى عباده بأسلوب بلاغي يصل به إلى نفوسهم في أطيب لفظ وأحسنه.

2 الخبيث لا يساوي الطيب مقداراً ولا انفاقاً ومكاناً ولا ذهاباً فالطيب يأخذ جهة اليمين، والخبيث يأخذ ذات الشمال، والطيب والطيبون في الجنة، والخبيث والخبيثاء في النار.

3 قالت العلماء: في قوله: {لا يستوي الخبيث} الآية دليل على أن البيع الفاسد يفسخ ويرد الثمن

على المبتاع وشاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ".
4 الخطاب في قوله {ولو أعجبتك كثرة الخبيث} الخطاب صالح لكل من هو أهل للخطاب والانتفاع
به من عقلاء هذه الأمة ولذا قلت في التفسير ولو أعجبتكم ولم أقل: أعجبتك.

(2/18)

واستقراراً وتبع ذلك هناة عيش وطيب حياة بما ألقى في قلوب عباده من احترام وتعظيم للبيت الحرام
والشهر الحرام، والهدي والقلائد، الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله.

2- بيان مسئولية الرسول أزاء الناس وأنها البلاغ لا غير وقد بلغ صلى الله عليه وسلم.

3- تقرير الحكمة الفائلة العبرة بالكيف لا بالكم فمؤمن واحد أنفع من عشرة كفرة ودرهم حلال خير
من عشرة حرام وركعتان متقبلتان خير من عشرة لا تقبل.

4- الأمر بالتقوى رجاء فلاح المتقين. 1

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبُدُّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ
عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) مَا
جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْتَرَهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104)

شرح الكلمات:

إن تبد لكم: تظهر لكم تضركم.

1 من الأحناف من يمنع الحبس، والوقف تعلّقاً واستدلالاً بهذه الآية وهو محجوج بإجماع الصحابة

لحديث عمر في الصحيح إذ قال له الرسول صلى الله عليه وسلم "احبس الأصل وسبّل الثمرة".

2 وذلك إذا نتجت خمسة أبطن فإن كان الخامس ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء وإن كان أنثى

بحروا أذنّها أي شقوها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها، والسائبة، بعير يسيب بنذر ينذره

أحدهم للآلهة إن حصل له كذا سيّب كذا وتترك فلا تمنع من رعي ولا ماء ولا يركبها أحد.

(2/19)

عفا الله عنها : سكت عنها فلم يذكرها أو لم يؤاخذكم بها.

سألها قوم : طلبها غيركم من الأمم السابقة.

ما جعل الله : أي ما شرع.

بحيرة ولا سائبة : البحيرة: الناقة تبحر أذنفا أي تشق، والسائبة: الناقة تسيب.

ولا وصيلة ولا حام: الوصيلة: الناقة يكون أول إنتاجها أنثى، والحام: الجمل يحمى ظهره للآلهة.

ما أنزل الله: من الحق والخير.

ما وجدنا عليه آباءنا: من الباطل والضلال.

معنى الآيات:

لقد أكثر بعض الصحابة من سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تضايق منهم فقام خطيباً فيهم وقال: "لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم". . فقام رجل يدعى عبدالله بن حذافة كان إذا تلامى مع رجل دعاه إلى غير أبيه فقال من أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوك حذافة، وقال أبو هريرة: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ولو قلت نعم، لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، ثم قال: نروني ما تركتكم" فنزلت: {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء 1 إن تبد لكم تسؤكم} أي تظهر لكم جواباً لسؤالكم يحصل لكم بها ما يسؤكم ويضركم، {وإن 2 تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم} أي يبينها رسولنا لكم. أما أن تسألوا عنها قبل نزول القرآن بها فذلك مالا ينبغي لكم لأنه من باب إحقاق رسول الله وأذيته ثم قال تعالى لهم: {عفا الله عنها} أي لم يؤاخذكم بما سألتكم {والله غفور حلِيم}، فتوبوا إليه ينتب 3 عليكم واستغفروه يغفر لكم ويرحمكم فإنه غفور رحيم. وقوله تعالى: {قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين} أي قد سأل أسئلتكم التتطعية

1 ممنوع من الصرف لأنه مشبه بجمراء. في الآية دليل على كراهة السؤال لغير حاجة وفي صحيح

مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعاً وهات، وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال".

2 إن قيل: ما وجه أنه تعالى نهاهم عن السؤال ثم أذن لهم بقوله: {وإن تسألوا عنها..} الخ؟ الجواب:

إن تسألوا عن غيرها مما دعت الحاجة إليه، ففي الكلام حذف مضاف كما قدّمناه فتأمل.

3 بعد انقطاع الوحي من الناس من نزول ما قد يسوء ومع هذا فإن سؤال التتطع والتعنّت مكروه

دائماً وفي الحديث الصحيح: "من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه".

المحرجة هذه قوم من قبلكم {فأصبحوا بها كافرين}1 ، لأنهم كلفوا ما لم يطبقوا وشق عليهم جزاء تعنتهم في أسئلتهم لأنبيائهم فتركوا العمل بها فكفروا. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (101) والثانية (102) وأما الثالثة (103) فقد قال تعالى: {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام} ومن الجائز أن يكون هناك من يسأل الرسول عن البحيرة وما بعدها فأنزل الله تعالى قوله: {ما جعل الله من بحيرة} أي ما بحر الله بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حامياً، ولكن الذين كفروا هم الذين فعلوا ذلك افتراء على الله وكذباً عليه {وأكثرهم لا يعقلون} ، ولو عقلوا ما افتروا على الله وابتدعوا وشرعوا من أنفسهم ونسبوا ذلك إلى الله تعالى، وأول من سيب السوائب وغير دين إسماعيل عليه السلام عمرو بن لحي الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزّ قصبه في النار أي أمعاءه في جهنم. هذا ما تضمنته الآية الثالثة أما الرابعة (104) فقد أخبر تعالى أن المشركين المفترين على الله الكذب بما ابتدعوه من الشرك إذ قيل لهم {تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول} ليبين لكم كذبكم وباطلكم في بحر البحائر وتسييب السوائب، يرفضون الرجوع إلى الحق ويقولون: {حسبنا} أي يكفينا {ما وجدنا عليه آباءنا} فلسنا في حاجة إلى غيره فرد تعالى عليهم منكرًا عليهم قولهم الفاسد {أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً} أي يتبعونهم ويحتجون بباطلهم ولو كان أولئك الآباء جهالاً حمقاً لا يعقلون شيئاً من الحق، {ولا يهتدون} إلى خير أو معروف.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- كراهية الإلحاف في السؤال والتفعر في الأسئلة والتتطع فيها.
- 2- حرمة الابتداع في الدين وأنه سبب وجود الشرك في الناس.
- 3- وجوب رد المختلف فيه إلى الكتاب والسنة والرضا بحكهما.
- 4- حرمة تقليد الجهال واتباعهم في أباطيلهم.

1 من أمثلة ذلك: سؤال قوم صالح الناقة، وقوم عيسى المائدة، وفي الآية تحذير للمؤمنين أن يفعلوا فيما وقع فيه غيرهم فيهلكوا كما هلكوا. وفي صحيح مسلم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم عن المسلمين فحرم من أجل مسألته".

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

شرح الكلمات:

آمنوا : صدقوا الله ورسوله واستجابوا لهما بفعل المأمور وترك المنهي.

عليكم أنفسكم 1 : ألزموا أنفسكم هدايتها وإصلاحها.

إذا اهتديتم : إلى معرفة الحق ولزوم طريقه.

إلى الله مرجعكم جميعا : ضلالاً ومهتدين.

فينبئكم: يخبركم بأعمالكم ويجازيكم بها.

معنى الآية الكريمة :

ينادي الله تعالى عباده المؤمنين فيقول : {يا أيها الذين آمنوا} أي صدقوا بالله ورسوله ووعده الله ووعيده {عليكم أنفسكم}2 ألزموا الهداية والطهارة بالإيمان والعمل الصالح وإبعادها عن الشرك والمعاصي، {لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم}: أي أن ضلال غيركم غير ضار بكم إن كنتم مهتدين إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، كل نفس تجزى بما كسبت لا بما كسب غيرها ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها إلا أن من الاهتداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ترك المؤمنون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعتبرون مهتدين إذ بالسكوت عن المنكر يكثر وينتشر ويؤذي حتماً إلى أن يضل المؤمنون فيفقدون هدايتهم ولذا قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه خطيباً يوماً فقال: "يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم}4.. الخ {وإنكم تضعونها}5 على غير

1 وإن قيل في معنى احفظوا أنفسكم من الوقوع في المعاصي لكان وجيهاً لأنَّ عليكم اسم فعل بمعنى احفظ كذا.

2 في الآية التحذير مما وقع فيه مَنْ تقدّم ذكرهم من التقليد الأعمى والابتداع المضر المهلك وهو وجه المناسبة بين هذه الآية وما سبقها من الآيات.

3 قيل هذه الآية هي الوحيدة التي جمعت بين الناسخ والمنسوخ، فالناسخ فيها قوله: {إذا اهتديتم} والمنسوخ هو {عليكم أنفسكم} إذ من اهتدى لا يضره من ضل ولا تتم الهداية إلا بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

4 أنفسكم منصوب على الإغراء الدال عليه اسم الفعل عليكم.

5 ورد بدل تضعونها... الخ : وتتأولونها على غير تأويلها.

موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب" وقوله تعالى: {إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون} فيه وعد ووعد، وعد لمن أطاع الله ورسوله، ووعد لمن عصاهما.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب إصلاح المؤمن نفسه وتطهيرها من آثار الشرك والمعاصي وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

2- ضلال الناس لا يضر المؤمن إذا أمرهم بالمعروف 1 ونهاهم عن المنكر.

3 تقرير مبدأ البعث الآخر.

4- للعمل أكبر الأثر في سعادة الإنسان أو شقائه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِّن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ازْتَبَيْتُمْ لَا تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَفُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ

1 قالت العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعين متى رُجي القبول والتغيير فإن كان هناك عدم رجاء فلا يجب الأمر والنهي. وكذا يسقط إذا خاف ضرراً يلحقه لا يقوى عليه أو يلحق غيره من المسلمين.

(2/23)

أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ 1 (108)

شرح الكلمات:

شهادة بينكم : الشهادة: قول صادر عن علم حاصل بالبصر أو البصيرة، وبينكم: أي شهادة بعضهم على بعض.

إن أنتم ضربتم في الأرض : أي بأن كنتم مسافرين.

من بعد الصلاة : صلاة العصر .

إن ارتبتم : شككتم في سلامة قولهما وعدالته .

فإن عثر : أي وقف على خيانة منهما فيما عهد به إليهما حفظه .

أدنى : أقرب .

على وجهها2 : أي صحيحة كما هي لا نقص فيها ولا زيادة .

الفاستقنين : الذين لم يلتزموا بطاعة الله ورسوله في الأمر والنهي .

معنى الآيات :

ما زال السياق في إرشاد المؤمنين وتعليمهم وهدايتهم إلى ما يكملهم ويسعدهم ففي هذه الآيات الثلاث (106)، (107)، (108) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: {يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذ حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان نوا عدل منكم} أي ليشهد اثنان {نوا عدل منكم} أي من المسلمين على وصية أحدكم إذا حضرته الوفاة، أو ليشهد اثنان من غيركم أي من غير المسلمين {إن أنتم ضربتم في الأرض} أي كنتم مسافرين ولم يوجد مع من حضره الموت في السفر إلا كافر، فإن ارتبتم في صدق خبرهما وصحة

1 هذه الآية نزلت فيما ذهب إليه أكثر المفسرين: في تميم الداري وعدي بن بداء إذ روى البخاري وغيره أن تميم الداري وابن بداء كانا يختلفان إلى مكة فخرج معهما: فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس فيها مسلم فأوحى إليهما فدفعاً تركته إلى أهله وحبساً جاماً (إناء) من فضة مخصوصاً بالذهب فاستحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما كنتمما ولا أطلعتما" ثم وجد الجام بمكة فقالوا اشتريناه من عدي وتميم فجاء رجالان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الحام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا قال: فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآية.

"لفظ الدار قطني" والظاهر أن استحلاف الرسول صلى الله عليه وسلم لهما: كان بعد نزول الآية مبيّنة طريق الحكم في هذه القضية فاتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم وحكم بينهم بما في الآية نصاً وروحاً والله أعلم.

2 أي غير مشوّه بالتغيير والتبديل والنقص والزيادة، والتعبير بالوجه شائع يقال: جاء بالشيء الفلاني على وجهه أي: من كمال أحواله.

(2/24)

شهادتهما فاحبسوهما أي أوقفوهما بعد صلاة العصر في المسجد ليحلفا لكم فيقسمان بالله فيقولان والله لا نشترى بأيماننا ثمناً قليلاً، ولو كان المقسم عليه أو المشهود عليه ذا قرى أي قرابة، لولا نكتم

شهادة الله، إنا إذاً { أي إذا كنتمنا شهادة الله {لمن الآثمين} {فإن عثر على أنهما استحقا إثماً} أي وإن وجد أن الذين حضرا الوصية وحلفا على صدقتهما فيما وصاهما به من حضره الموت إن وجد عندهما خيانة أو كذب فيما حلفا عليه، {فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان} 1 فيقسمان بالله قائلين والله: لشهادتنا أحق من شهادتهما أي لأيماننا أصدق وأصح من أيمانهما، {وما اعتدينا} أي عليهما باتهام باطل، إذ لو فعلنا ذلك لكننا من الظالمين، فإذا حلفا هذه اليمين استحقا ما حلفا عليه ورد إلى ورثة الميت ما كان قد أخفاه وجده شاهدا الوصية عند الموت، قال تعالى: {ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها} أي أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة عادلة لا حيف فيها ولا جور وقوله {أو يخافوا أن ترد أيمانهم}، أي وأقرب إلى أن يخافوا أن ترد أيمانهم فلا يكذبوا خوف الفضيحة، وقوله تعالى: {واتقوا الله} أي خافوه أيها المؤمنون فلا تخرجوا عن طاعته، {واسمعوا} ما تؤمرون به واستجبوا لله فيه، فإن الله لا يهدي إلى سبيل الخير والكمال الفاسقين الخارجين عن طاعته، فاحذروا الفسق واجتنبوه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الوصية في الحضر والسفر معاً، والحث عليها والترغيب فيها.
- 2- وجوب الإشهاد على الوصية.
- 3- يجوز شهادة غير المسلم 2 على الوصية إذا تعذر وجود مسلم 3.
- 4 - استحباب الحلف بعد صلاة العصر تغليظاً في شأن اليمين.

1 واحد الأوليان: الأولى بمعنى الأجدر والأحق، وعرفا بالآلّم العهدية لأنه معهود للمخاطب ذهنا، والأوليان: الأحقّان بالشهادة لقرابتهما من الميت، قال أهل العلم إن هذه الآية في غاية الصعوبة إعراباً ونظماً وحكماً.

2 هذا بناء على أن الآية غير منسوخة وهو قول الأقلية كأحمد بن حنبل رحمة الله تعالى وهو الراجح والآية دلالتها قوية عليه، وأما التخوف من قوله تعالى: {وأشهدوا ذوي عدل منكم} فلا داعي إليه مع وجود ضرورة السفر وانعدام وجود المسلم، كما لا محذور من تحليف الشاهد إذا حامت حوله ريبة أو شك في عدالته لاسيما في ظروف تقل فيها العدالة لفساد أحوال الناس. ولهذا ذهب في تفسير الآية على أنها محكمة والعمل بها جائز.

3 وممن قال بعدم نسخ هذه الآية وأنها محكمة والعمل بها من الصحابة: أبو موسى الأشعري وقضى بها، وعبدالله بن قيس، وعبدالله بن عباس، ومن التابعين سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي وغيرهم، ومن الأئمة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحم الله الجميع.

5- مشروعية تحليف الشهود إذا ارتاب القاضي فيهم أو شك في صدقهم.
يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111)

شرح الكلمات:

يوم 1 يجمع الله الرسل : أي اذكر يوم يجمع الله الرسل وذلك ليوم القيامة.

الغيوب: جمع غيب: وهو ما غاب عن العيون فلا يدرك بالحواس.

أيدتك : قويتك ونصرتك.

بروح القدس : جبريل عليه السلام.

المهد: سرير الطفل الرضيع.

1 وجه اتصال هذه الآية بسابق

تها ظاهر، إذ أمرهم تعالى في الآية الأولى بالتقوى والسمع والطاعة لأوامره ونواهيها، وذكرهم في هذه الآية بأهوال يوم القيامة ليكرر ذلك حافزاً لهم على التقوى مقوّياً لهم على السمع والطاعة.

(2/26)

الكهل : من تجاوز سن الشباب أي ثلاثين سنة.

الكتاب : الخط والكتابة.

والحكمة : فهم أسرار الشرع، والإصابة في الأمور كلها.

تخلق كهية الطير: أي توجد وتقدر هيئة كصورة الطير.

الأكمه والأبرص: الأكمه: من ولد أعمى، والأبرص: من به مرض البرص.

تخرج الموتى : أي أحياء من قبورهم.

كففت : أي منعت.

الحواريون: جمع حواري: وهو صادق الحب في السر والعلن.

معنى الآيات:

يحذر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين من أهوال البعث الآخر يوم يجمع الرسل عليهم السلام ويسألهم وهو أعلم بهم: {فيقول: ماذا أحببتم؟} أطاعتكم أم عصتكم؟ فيرتج عليهم ويذهلون ويفوضون الأمر إليه تعالى ويقولون: {لا علم لنا: 2: أنك أنت علام الغيوب}، إذا كان هذا حال الرسل فكيف بمن دونهم من الناس ويخص عيسى عليه السلام من بين الرسل بالكلام في هذا الموقف العظيم، لأن أمتين كبيرتين غوت فيه وضلت اليهود ادعوا أنه ساحر وابن زنى، والنصارى ادعوا أنه الله وابن الله، فخاطبه الله تعالى وهم يسمعون: {يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك} فأنت عبدي ورسولي وأمك أمتي، وذكر له أنواع نعمه عليه فقال: {إذ أيدتك 3 بروح القدس}، جبريل عليه السلام {تكلم الناس في المهد} وأنت طفل. إذ قال وهو في مهده {إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً} وقوله {وكهلاً} أي وتكلمهم وأنت كهل أيضاً وفيه بشرى لمريم أن ولدها يكبر ولا يموت صغيراً وقد كلم الناس وهو شاب وسيعود إلى الأرض ويكلم الناس وهو كهل ويعدد نعمه عليه

1 {يوم} منصوب على الظرفية معمول لـ اسمعوا لفعل محذوف يقدر بـ اذكروا، أو اسمعوا، أو احذروا.

2 أي: لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا، وشهد له حديث الصحيح: "يرد على أقوام الحوض فيختلجون فأقول: أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك".

3 أي: قويتك مأخوذ من الأيد الذي هو القوة ومنه قوله تعالى: {والسماء بنيناها بأيدي}.

(2/27)

فيقول: {وإذ علمتكم الكتاب والحكمة}، فكنتم تكتب الخط وتقول وتعمل بالحكمة، وعلمتكم التوراة كتاب موسى عليه السلام والإنجيل الذي أوحاه إليه {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني} فيكون طيراً بإذني أي اذكر لما طالبك بنو إسرائيل بآية على نبوتك فقالوا لك اخلق لنا طيراً فأخذت طيناً وجعلته على صورة طائر وذلك بإذني لك ونفخت فيه بإذني فكان طائراً، واذكر أيضاً {إذ تبرئ الأكمه} وهو الأعمى الذي لا عينين له، {والأبرص بإذني} أي بعوني لك وإقداري لك على ذلك {وإذ تخرج الموتى} من قبورهم أحياء فقد أحيا عليه السلام عدداً من الأموات بإذن الله تعالى ثم قال بنو إسرائيل أحيي لنا سام بن نوح فوقف على قبره وناداه فقام حياً من قبره وهم ينظرون، واذكر {إذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات 1} فكذبوك وهموا بقتلك وصلبك، {فقال الذين كفروا منهم إن هذا

إلا سحر مبين}. واذكر {إذ أوحيت إلى الحواريين 2} على لسانك {أن آمنوا بي وبرسولي} أي بك يا عيسى {قالوا آمنة واشهد بأننا مسلمون} أي متقادون مطيعون لما تأمرنا به من طاعة ربنا وطاعتك. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- شدة هول يوم القيامة وصعوبة الموقف حتى إن الرسل ليذهلون.
 - 2- وجوب الاستعداد لذلك اليوم بتقوى الله تعالى.
 - 3- توبيخ اليهود والنصارى بتفريط اليهود في عيسى وغلو النصارى فيه.
 - 4- بيان إكرام الله تعالى لعيسى وما حباه به من الفضل والإنعام.
 - 5- ثبوت معجزات عيسى عليه السلام وتقريرها.
- إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ

1 أي : الدلالات والمعجزات وهي المذكورة في هذه الآيات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

2 الوحي يكون بمعنى الإلهام لغير الرسول أما الرسول فطرق الوحي إليهم جاءت في آخر سورة الشورى.

(2/28)

مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم فَأَيُّ أَعْدَابِهِ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (115)

شرح الكلمات:

هل يستطيع: هل يطيع ويرضى.

مائدة من السماء : المائدة: الخوان وما يوضع عليه أو الطعام والمراد بها هنا الطعام. وتطمئن قلوبنا : أي تسكن بزيادة اليقين فيها.

ونكون عليها من الشاهدين : أي نشهد أنها نزلت من السماء.

عيداً : أي يوماً يعود علينا كل عام نذكر الله تعالى فيه ونشكره.

آية منك: علامة منك على قدرتك ورحمتك، ونبوة نبيك.

فمن يكفر بعد منكم: : فمن يكفر بعد نزول المائدة منكم أيها السائلون للمائدة.
أحداً من العالمين: أي من الناس أجمعين.

معنى الآيات:

يقول تعالى لعبده ورسوله عيسى واذكر {إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنة
واشهد بأننا مسلمون}، {إذ قال الحواريون}: {هل يستطيع ربك أن ينزل

1 اضطربت نفوس المؤمنين في توجيه هذه العبارة: {هل يستطيع ربك..} كيف يقول هذا أنصار الله
الحواريون وهو دالّ دلالة واضحة على جهل بالله تعالى وعدم معرفة الأدب مع نبيّه عيسى عليه
السلام، فمن قائل: أنّ يستطيع بمعنى: يطيع أي: هل يطيعك ربك في هذا؟ ومن قائل: إن قراءة
(هل يستطيع) بالتاء، وربك معمول أي: هل تقدر على سؤال ربك أن ينزل الخ ومن قائل إنّ هذا
كان منهم في أول أمرهم قبل أن يتعلموا، ومن قائل: أن هذا صدر ممن كان مع الحواريين ولم يكن
من الحواريين، وما ذكرته في التفسير أولى لانسجامه مع السياق إذ قول عيسى لهم: اتقوا الله،
وقولهم: ونعلم أن قد صدقتنا دال على جهلهم بالله ومقام عيسى عليه السلام، وقد يكون أصحاب هذا
القول ليسوا من فضلاء الحواريين ولكن كالذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعل لنا ذات
أنواط وكالذين قالوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة والله أعلم.

(2/29)

علينا مائدة من السماء؟} ولما كان قولهم هذا دالاً على شك في نفوسهم وعدم يقين في قدرة ربهم قال
لهم عيسى عليه السلام {اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} فلا تقولوا مثل هذا القول. فاعتذروا عن قيلهم
الباطل {قالوا: نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين}
أنها نزلت من السماء بسؤالك ربك ذلك وهنا قال عيسى عليه السلام داعياً ربه ضارعاً إليه {اللهم}
أي يا الله {ربنا أنزل علينا مائدة من السماء، تكون لنا عيداً لأولنا} أي للموجودين الآن منا {وآخرنا}
أي ولمن يأتون بعدنا، {وآية منك}، أي وتكون آية منك أي علامة على وحدانيتك وعظيم قدرتك،
وعلى صدقي في إرسالك لي رسولاً إلى بني إسرائيل، {وارزقنا} وأدم علينا رزقك وفضلك {وأنت خير
الرازقين}، فأجابه تعالى قائلًا: {إني منزلها عليكم}، وحقاً قد أنزلها 1، {فمن يكفر بعد منكم} يا بني
إسرائيل السائلين المائدة بأن ينكر توحيدي أو رسالة رسولي، أو عظيم قدرتي {فإني أعذبه عذاباً لا
أعذبه أحداً من العالمين} ، ولذا مسخ من كفروا منهم قرده وخنازير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- جفاء اليهود وغطرستهم وسوء أدبهم مع أنبيائهم إذ قالوا لموسى {أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون} وقالوا لعيسى {هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء}.
- 2- في قول عيسى لهم {اتقوا الله} دال على أنهم قالوا الباطل كما أن قولهم : {ونعلم أن قد صدقتنا} دال على شكهم وارتيابهم.
- 3- مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذكر شكراً لله تعالى وفي الإسلام عيدان: الأضحى والفطر.
- 4- من أشد الناس عذاباً يوم القيامة آل فرعون والمنافقون ومن كفر من أهل المائدة.

1 روى الترمذي عن عمار بن ياسر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً".

(2/30)

وَأَذَقَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنَّكَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

شرح الكلمات:

إلهين : معبودين يعبدان من دوني.

سبحانك : تنزيهاً لك وتقديساً.

ما يكون لي: ما ينبغي لي ولا يتأتى لي ذلك.

شهِيداً: رقيباً.

الرقيب : الحفيظ.

إِنْ تُعَذِّبُهُمْ : أي بنارك فإنهم عبادك تفعل بهم ما تشاء.

وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ : أي تستر عليهم وترحمهم بأن تدخلهم جنتك.

العزیز الحكيم: العزیز: الغالب الذي لا يحال بينه وبين مراده، الحكيم: الذي يضع كل شيء في

موضعه فيدخل المشرك النار، والموحد الجنة.

الصادقين : جمع صادق: وهو من صدق ربه في عبادته وحده.
 ورضوا عنه : لأنه أثابهم بأعمالهم جنات تجري من تحتها الأنهار.
 على كل شيء قدير : أي على فعل أي شيء تعلقت به إرادته وأراد فعله فإنه يفعله ولا يعجزه بحال
 من الأحوال.
 معنى الآيات:

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم واذكر لقومك {إذ قال الله 1} تعالى يوم يجمع
 الرسل ويسألهم ماذا أحببتم، ويسأل عيسى بمفرده توبيحاً للنصارى على شركهم {يا عيسى بن مريم
 أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين} أي معبودين يقرره بذلك فينفي عيسى ذلك على الفور ويقول
 منزهاً ربه تعالى مقدساً {سبحانك 2} ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، ويؤكد تفصيه مما وجه
 إليه توبيحاً لقومه: {إن كنت قلته فقد علمته} يا ربي، إنك {تعلم ما في نفسي} فكيف بقولي وعملي،
 وأنا {لا أعلم ما في نفسك} إلا أن تعلمني شيئاً، لأنك {أنت علام الغيوب} {ما قلت لهم إلا ما
 أمرتني به} أن أقوله لهم وهو {اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً 3} أي رقيباً {فلما توفيتني }
 برفعي إليك {كنت أنت الرقيب عليهم} ترقب أعمالهم وتحفظها لهم لتجزئهم بها. {وأنت على كل
 شيء شهيد} رقيب وحفيظ. {إن تعذبهم} أي من مات منهم على الشرك بأن تصلية نارك فأنت على
 ذلك قدير، {وإن تغفر لهم} أي لمن مات على التوحيد فتدخله جنتك فإنه لذلك أهل فإنك أنت العزيز
 الغالب على أمره الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه فلا ينعم من أشرك به ولا يعذب من
 أطاعه ووحده. فأجابه الرب تبارك وتعالى قائلاً: {هذا يوم 4} ينفع الصادقين صدقهم: صدقوا الله
 تعالى في إيمانهم به فعبده وحده لا شريك له ولم يشركوا

1 هذا مثل أتى أمر الله أتى بصيغة الماضي لتتحقق الوقوع وكذلك هناك {إذ قال} فهو بمعنى يقول:
 اذكر إذ يقول الله يا عيسى .. الخ.

2 أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: "تلقى عيسى حجته ولقاه الله في قوله: {وإذ قال الله
 يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} قال أبو هريرة عن النبي
 صلى الله عليه وسلم فلقاه الله: {سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} الآية.

3 شهيداً: أي رقيباً أراعي أحوالهم وأدعوهم إلى العمل بطاعتك وأنهاهم عن مخالفتك.

4 قال الله {هذا يوم ينفع الصادقين...} الخ كلام مستأنف ختم به الحديث عما يقع يوم يجمع الله
 الرسل فذكر ثواب الصادقين وهو الجنة ورضوان الله وهو الفوز العظيم.

سواه. ونفعه لهم أن أُدْخِلُوا به جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً، مع رضى الله تعالى عنهم ورضاهم عنه بما أنعم به عليهم من نعيم لا يفنى ولا يبديد، {ذلك الفوز العظيم} أنه النجاة من النار ودخول الجنات. وفي الآية الأخيرة (120) يخبر تعالى أن له {ملك السموات والأرض وما فيهن} من سائر المخلوقات والكائنات خلقاً وملكاً وتصرفاً يفعل فيها ما يشاء فيرحم ويعذب {وهو على كل شيء قدير}2 لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- توبيخ النصارى في عرصات القيامة على تأليه عيسى ووالدته عليهما السلام.
- 2- براءة عيسى عليه السلام من مشركي النصارى وأهل الكتاب.
- 3- تعذيب المشركين وتنعيم الموحدين قائم على مبدأ الحكمة الإلهية.
- 4- فضيلة الصدق وأنه نافع في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: "عليكم بالصدق3 فإنه يدعو إلى البر وأن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً".
- 5- سؤال غير الله شيئاً ضرب من الباطل والشرك، لأن غير الله لا يملك شيئاً، ومن لا يملك كيف يعطي ومن أين يعطي؟

- 1 في هذه الآية البرهنة الصحيحة على ألوهية الله تعالى وربوبيته للعالمين وإبطال دعوى النصارى في تأليه عيسى وأمه عليهما السلام.
- 2 فما تعلق إرادته بشيء فأرادته إلا كان كما أراد من سائر الممكنات.
- 3 أخرجه غير واحد من أصحاب الصحاح والسنن.

وآياتها خمس وستون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3)

شرح الكلمات:

الحمد2 : الثناء باللسان على المحمود بصفات الجمال والجلال.

خلق : أنشأ وأوجد.

يعدلون : يسوون به غيره فيعبودونه معه.

الأجل: الوقت المحدد لعمل ما من الأعمال يتم فيه أو ينتهي فيه، والأجل الأول أجل كل إنسان،
والثاني أجل الدنيا.

تمترون : تشكون في البعث الآخر والجزاء: كما تشكون في وجوب توحيد بعبادته وحده دون غيره.
وهو الله في السموات : أي معبود في السموات وفي الأرض.

1 روى الطبراني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة وشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد،
وسميت بالأنعام لذكر لفظ الأنعام فيها ست مرّات نزلت بمكة ليلاً".

2 الحمد لله: تفيد استغراق المحامد لله تعالى إذ ال للاستغراق واللام للاستحقاق فجميع المحامد
مستحقة لله تعالى، والقصر في الحمد لله قصر إضافي دال على إبطال حمد المشركين لألهتهم
الباطلة.

(2/34)

ما تكسبون .: أي من خير وشر، وصلاح فساد.

معنى الآيات:

يخبر تعالى بأنه المستحق للحمد كله وهو الوصف بالجلال والجمال والثناء بهما عليه وضمن ذلك
يأمر عباده أن يحمدوه كأنما قال قولوا الحمد لله، ثم ذكر تعالى موجبات حمده دون غيره فقال:

{الذي خلق السموات 1 والأرض 2 وجعل الظلمات والنور} فالذي أوجد السموات والأرض وما فيهما
وما بينهما من سائر المخلوقات وجعل الظلمات 3 والنور وهما من أقوى عناصر الحياة هو المستحق
للحمد والثناء لا غيره ومع هذا فالذين كفروا من الناس يعدلون به أصناماً وأوثاناً ومخلوقات فيعبودونها

معه يا للعجب!!

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (1) أما الآية الثانية (2) فإنه تعالى يخاطب المشركين موبخاً لهم على جهلهم مندداً بباطلهم فيقول: {هو الذي خلقكم من 4 طين} لأن آدم أباهم خلقه من طين ثم تناسلوا منه فباعتبار أصلهم هم مخلوقون من طين ثم الغذاء الذي هو عنصر حياتهم من طين، ثم قضى لكل أجلاً وهو عمره المحدد له وقضى أجل الحياة كلها الذي تنتهي فيه وهو مسمى عنده معروف له لا يعرفه غيره ولا يطلع عليه سواه ولحكم عالية أخفاه، ثم أنتم أيها المشركون الجهلة تشكّون في وجوب توحيده، وقدرته على إحيائكم بعد موتكم 5 لحسابكم ومجازاتكم على كسبكم خيره وشره، حسنه وسيئه، وفي الآية الثالثة (3) يخبر تعالى أنه هو الله المعبود بحق في السموات 6 وفي الأرض لا إله غيره ولا رب سواه {يعلم

1 {الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور} هاتان الجملتان هما مقتضيات الحمد لله وموجباته له تعالى، إذ من أوجد الكون كلّهُ وهو جواهر وإعراض، فالجواهر السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والأعراض الظلمة والنور هو المستحق للعبادة دون غيره فأبطل بهذا عبادة الأجسام كالأصنام والملائكة والأنبياء، وعبادة الأعراض كالظلمة والنور إلها المانوية.

2 الأرض: اسم جنس، فالمراد بالأرض: الأرضون السبع كالنور اسم جنس والمراد به كل نور.

3 من رشاقة الكلم جعل خلق للأجسام وجعل للأعراض في قوله: {خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور}.

4 قال القرطبي هل في هذه الآية دليل على أنّ الجواهر من جنس واحد؟ الجواب: نعم لأنّه إذا جاز أن ينقلب الطين إنساناً حياً قادراً عليمًا جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر إذ صح انقلاب الجماد إلى حيوان بدلالة هذه الآية.

5 ذكره تعالى أصل خلق الناس من طين فيه إشارة إلى الردّ على منكري البعث المحتجين على عدم إمكان الحياة الآخرة بكونهم بعد الموت يصيرون تراباً، وجعلوا أن صيرورتهم إلى تراب هو دليل إعادتهم إلى خلقهم من جديد إذ عادوا إلى أصل خلقهم ليعودوا إلى حياة أكمل من حياتهم الأولى.

6 قال القرطبي في تفسير هذه الآية: {وهو الله في السموات وفي الأرض} أي: وهو الله المعظم والمعبود في السموات وفي الأرض كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب أي حكمه.

(2/35)

سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون} من خير وشر فهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه ويعلم سر عباده وجهرهم ويعلم أعمالهم وما يكتسبون بجوارحهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا

وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرغبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإجابة إليه وعبادته والتوكل عليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.
- 2- لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.
- 3- التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.
- 4- التعجب من حال من يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.
- 5- صفة العلم لله تعالى وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى.

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6)

(2/36)

شرح الكلمات:

من آية : المراد بالآية هنا آيات القرآن الكريم الدالة على توحيد الله تعالى والإيمان برسوله ولقائه يوم القيامة.

معرضين : غير ملتفتين إليها ولا مفكرين فيها.

الحق : الحق هنا هو النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الدين الحق.

أنباء : أخبار ما كانوا به يستهزئون وهو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

من قرن: أي أهل قرن من الأمم السابقة، والقرن مائة سنة.

مكننا لهم في الأرض : أعطيناهم من القوة المادية ما لم نعط هؤلاء المشركين.

مدراراً : مطراً متواصلاً غزيراً.

بذنوبهم: أي بسبب ذنوبهم وهي معصية الله ورسوله.

وأنشأنا: خلقنا بعد إهلاك الأولين أهل قرن آخرين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أولئك الذين يعدلون بربهم غيره من مخلوقاته فيقول تعالى عنهم: وما

تأتيهم 1 من آية من آيات ربهم التي 2 يوحىها إلى رسوله ويضمها كتابه القرآن الكريم، إلا قابلوها بالإعراض التام، وعدم الالتفات إلى ما تحمله من هدى ونور، وسبب ذلك أنهم قد كذبوا بالحق لما جاءهم وهو الرسول وما معه من الهدى، وبناء على ذلك {فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون} وقد استهزأوا بالوعيد وسينزل بهم العذاب الذي كذبوا به واستهزأوا، وأول عذاب نزل بهم هزيمتهم يوم بدر، ثم القحط سبع سنين، ومن مات منهم على الشرك فسوف يعذب في نار جهنم أبداً، ويقال لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تستهزئون وقوله تعالى: {ألم يروا كم أهلكنا من 3 قبلهم من قرن} أي كثيراً من أهل القرون

1 {من آية من آيات ربهم} من الأولى لاستغراق الجنس، ومن الثانية للتبويض.

2 وجائز أن يراد بالآية أيضاً المعجزة كانشقاق القمر ونحوها.

3 القرد: الأمة من الناس، والجمع: قرون قال الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم ... وخُلِّفَتَ في قرن فأنت غريب.

فالقرن: كل عالم في عصره مأخوذ من الاقتران أي عالم مقترن بعضهم ببعض وفي الحديث: "خير الناس قرني..". ويطلق القرن على المائة سنة، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بر بشر "تعيش قرناً" فعاش مائة سنة وقرن الشاة معروف.

(2/37)

الماضية مكن الله تعالى لهم في الأرض من الدولة والسلطان والمال والرجال ما لم يمكن لهؤلاء المشركين من كفار قريش، وأرسل على أولئك الذين مكن لهم السماء 1 مداراً بغزير 2 المطر وجعل لهم في أرضهم الأنهار تجري من تحت أشجارهم وقصورهم، فلما أنكروا توحيدي وكذبوا رسولي، وعصوا أمري {فأهلكناهم بذنوبهم} ، لا ظلاماً منا ولكن بظلمهم هم لأنفسهم، وأوجدنا بعدهم قوماً آخرين، وكان ذلك علينا يسيراً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- التكذيب بالحق هو سبب الإعراض عنه فلو آمنوا به لأقبلوا عليه.

2- الاستهزاء والسخرية بالدين من موجبات العذاب وقرب وقوعه.

3- العبرة بهلاك الماضين، ومصارع الظالمين.

4- هلاك الأمم كان بسبب ذنوبهم، فما من مصيبة إلا بذنب 3.

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) وَقَالُوا

لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (9) وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (10)

- 1 {وَأرسلنا السماء عليهم مدرارا} عبر عن المطر بالسماء لأنه منها ينزل قال الشاعر:
إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناها وإن كانوا غضابا
- 2مدرارا : بناء دال على الكثرة نحو امرأة مذكر إذا كثر أولادها الذكور وهم مشتق من درت الشاة
إذا أقبل لبنا على الحالب لها بكثرة.
- 3 شاهده من القرآن الكريم : قول تعالى : {وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن
كثير}.

(2/38)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (11)
شرح الكلمات:

- قرطاساً: القرطاس: ما يكتب عليه جلدًا أو كاغداً.
لمسوه بأيديهم : مسوه بأصابعهم ليتأكدوا منه.
ملك : الملك أحد الملائكة.
لقضي الأمر: أي أهلكوا وانتهت حياتهم.
لا ينظرون : لا يمهلون.
ولو جعلناه ملكاً: ولو جعلنا الرسول إليهم ملكاً لإنكارهم البشر.
لبسنا: خلطنا عليهم.
استهزىء: سخر وتهكم واستخف.
حاق بهم : نزل بهم العذاب وأحاط بهم فأهلكوا.
معنى الآيات

ما زال السياق في شأن العادلين بربهم أصنامهم التي يعبدونها ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله يقول
تعالى: {ولو نزلنا عليك} أيها الرسول {كتاباً} أي مكتوباً في ورق جلد أو كاغد ورأوه منزلاً من
السماء 1 ولمسوه بأيديهم ولمسوه بأصابعهم ما آمنوا ولقالوا: {إن هذا إلا سحر مبين}. أي سحر
واضح سحركم به محمد صلى الله عليه وسلم وإلا كيف ينزل الكتاب من السماء، {وقالوا: لولا أنزل 2
عليه ملك} أي هلا أنزل عليه، لم لا ينزل عليه ملك يساعده ويصدقه بأنه نبي الله ورسوله، فقال

تعالى: ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾، وليس من شأن الله أن ينزل الملائكة ولو أنزل ملكاً فكذبوه لأهلكهم، إذ الملائكة لا تنزل إلا لإحقاق الحق وعليه فلو نزل ملك لقضي أمرهم بإهلاكهم وقطع دابرهم وهذا ما لا يريد الله تعالى لهم. وقوله: ﴿ثم لا ينظرون﴾ أي لا يمهلون ولو ساعة ليتوبوا أو يعتذروا مثلاً. وقوله تعالى: ﴿ولو

1 قال ابن عباس: كتاباً معلقاً بين السماء والأرض يشاهدونه. أمّا إنزال الوحي فهو حاصل وأبوا أن يؤمنوا به.

2 هذا اقتراح منهم حملهم عليه الكبر والعناد.

(2/39)

جعلناه ملكاً﴾ أي الرسول ملكاً لقالوا كيف نفهم عن الملك ونحن 1 بشر فيطالبون بأن يكون بشراً وهكذا كما قال تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً، وللبسنا عليهم﴾ خلطنا وشبهنا ما يخلطون على أنفسهم ويشبهون. ثم أخبر تعالى رسوله مسلماً له قائلاً ﴿ولقد استهزئ 2 برسلك من قبلك﴾ كما استهزئ بك فاصبر، فقد حاق بالمستهزئين ما كانوا به يستهزئون، كانوا إذا خوفهم الرسل عذاب الله سخروا منهم واستخفوا بهم وبالعذاب الذي خوفهم به، ثم أمر الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لأولئك المستهزئين بما يعدهم من عذاب ربهم وهم أكابر مجرمي قريش: ﴿قل سيروا 3 في الأرض﴾ جنوباً لتقفوا على ديار عاد أو شمالاً لتقفوا على ديار ثمود، أو غرباً لتقفوا على بحيرة لوط فتعرفوا ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من أمثالكم لعلمكم تحققون من طغيانكم وتكذيبكم فيسهل عليكم الرجوع.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الآيات بمعنى المعجزات والخوارق لا تستلزم الإيمان بل قد تكون سبباً للكفر والعناد، ولذا لم يستجب الله لقريش ولم يعط رسوله ما طالبوه به هن الآيات.
- 2- إنكار رسالة البشر عام في كل الأمم وقالوا ما هذا إلا بشر مثلكم في آيات كثيرة في حين أن إرسال الملائكة لا يتم معه هدف لعدم قدرة الإنسان على التلقي عن الملائكة والتفاهم معهم، ولو أنزل الله ملكاً رسولاً لقالوا نزيده بشراً مثلنا ولحصل الخلط واللبس بذلك.
- 3- الاستهزاء بالرسول والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف ولذا وجب على الرسل والدعاة الصبر على ذلك.
- 4- عاقبة التكذيب والاستهزاء هلاك المكذبين المستهزئين.

5- مشروعية زيارة القبور للوقوف 4 على مصير الإنسان ومآل أمره فإن في ذلك ما يخفف شهوة

- 1 لأنّ سنة الله تعالى في التفاهم أن تكون بين متجانسين كإنسان مع إنسان أو حيوان مع حيوان أمّا ملك مع إنسان أو إنسان مع حيوان فلا لا.
- 2 في هذه الآية تعزية للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له ليصبر على ما يلاقه من قومه من سخرية واستهزاء وعناد ومكابرة.
- 3 قال القرطبي: هذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار، وأقول على شرط أن يدخلوا تلك الديار باكين أو متباكين لا ضاحكين غافلين لاهين بأنواع الطعام والشراب.
- 4 أخذاً من قول تعالى في الآية: {قل سيروا في الأرض} وشاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم في السنة الصحيحة: "كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فروروا فإنها تذكركم الآخرة".

(2/40)

الدنيا والنهم فيها والتكالب عليها وهو سبب الظلم والفساد.

قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)

شرح الكلمات:

كتب على نفسه الرحمة : أي أوجب على نفسه رحمة خلقه.

لا ريب فيه : لا شك في مجيئه وحصوله في أجله المحدد له.

خسروا أنفسهم : حيث لوئثوا بأوضاع الشرك والمعاصي فلم ينتفعوا بها.

وله ما سكن في الليل والنهار : أي ما استقر فيها من ساكن ومتحرك أي له كل شيء.

ولياً: أحبه وأنصره واطلب نصرته ومحبته وولايته.

من يصرف عنه : أي من العذاب بمعنى يبعد عنه.

الفوز المبين : أي الواضح إذ النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم.

معنى الآيات:

مازال السياق في الحديث مع العادلين بربهم غيره من أهل الشرك فيقول تعالى لرسوله

سَلِمَهُ قَائِلاً: {لَمَنْ 1 ما في السموات والأرض} خلقاً وإيجاداً أو ملكاً وتصرفاً وتدبيراً، واسبقهم إلى الجواب فقل لله، إذ ليس لهم من جواب إلا هذا: {الله}، أي هو الله الذي {كتب 2 على نفسه الرحمة} قضى بها وأوجبها على نفسه، ومظاهرها متجلية في الناس: إنهم يكفرونه ويعصونه وهو يطعمهم ويسقيهم ويكلؤهم ويحفظهم، وما حمدوه قط. ومن مظاهر رحمته جمعه الناس ليوم القيامة ليحاسبهم ويجزيهم بعملهم الحسنة بعشر أمثالها أما السيئة فبسيئة مثلها فقط وهو ما دل عليه قوله: {ليجمعنكم 3 إلى يوم القيامة لا ريب فيه} أي الكائن الآتي بلا ريب ولا شك، وقوله تعالى: {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} يخبر تعالى أن الذين كتب خسرانهم أولاً في كتاب المقادير فهم لذلك لا يؤمنون وما كتب أولاً لعلم تام بموقفهم هذا الذي هم وافقوه من الكفر والعناد والشرك والشر والفساد، بذلك استوجبوا الخسران هذا ما دلت عليه الآية الأولى (12) أما الآية الثانية (13) قوله ما سكن في الليل والنهار} وهذا تقرير بأنه رب كل شيء والمالك لكل شيء إذ ما هناك إلا ساكن ومتحرك وهو رب الجميع، وهو السميع لأحوال عباده وسائر مخلوقاته العليم بأفعالهم الظاهرة والباطنة ولذا لا يسأل عما يفعل ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ومن هنا وجب اللجأ إليه والتوكل عليه، والالتقياد لأمره ونهيه. وقوله تعالى في الآية الثالثة (14) {قل أغير 4 الله ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعم} يأمر تعالى رسوله أن يرد على المشركين المطالبين منه أن يوافقهم على شركهم ويعبد معهم آلهتهم فيقول: أفغير الله فاطر السموات والأرض الذي يطعم غيره لافتقاره إليه، ولا يطعم 5 لغناه المطلق أغيره تعالى أتخذ ولياً أعبده كما اتخذتم أنتم أيها المشركون أولياء تعبدونهم. إن هذا لن يكون أبداً كما أمره ربه تعالى أن يقول في صراحة ووضوح، {إني أمرت أن أكون أول من أسلم} أي وجهه لله، وأقبل عليه يعبده

1 هذا حجاج مع المشركين آخر: قل لهم لمن ما في السموات والأرض؟ فإن قالوا: لمن هو؟ قل: لله، ولكن لا يقولون إلا الله، لمعرفتهم أن غير الله لا يخلق ولا يرزق ولا يملك.
2 ولذا لم يعاجلهم بالعقوبة التي يقتضيها كفرهم وعنادهم، روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي".

3 اللآم: للقسم أي: وعزتي وجلالي ليجمعنكم في يوم القيامة الذي كذبتكم به وهو لا شك فيه.

4 الاستفهام إنكاري وقدم المفعول الأول: {أغير الله} لآته هو المقصود بالإنكار.

5 أي يرزق ولا يرزق كقوله تعالى: {ما أريد منهم من رزق ولها أريد أن يطعمون} وقرأ مجاهد

وسعيد بن جبير {وهو يُطعم ولا يطعم} بفتح العين أي إنه يُطعم عباده بالرزق وهو لا يطعم لاستحالة احتياجه إلى الغذاء كما يحتاجه المخلوقون من عباده.

(2/42)

بما شرع له، ونهاني أن أكون من المشركين بقوله: {ولا تكونن من المشركين} الذين يعبدون مع الله غيره من مخلوقاته وأمره في الآية (15) أن يقول للمشركين الراغبين في تركه التوحيد: {إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} وهو عذاب يوم القيامة. انه عذاب أليم لا يطاق من يصرف2 عنه يومئذ فقد رحمه أي أدخله الجنة والنجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم كما قال تعالى {ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز} نعم فاز وأي فوز أكبر من الخلود من العذاب ودخول في دار السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- عموم رحمة الله تعالى.

2- تقرير مبدأ الشقاوة والسعادة في الأزل قبل خلق الخلق.

3- الله رب كل شيء ومليكه.

4- تحريم ولاية غير الله، وتحريم الشرك به تعالى.

5- بيان الفوز الأخروي وهو النجاة من العذاب ودخول الجنة.

وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشفَ له إلا هو وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كل شيءٍ قديرٌ (17) وهو القاهرُ فوق عباده وهو الحكيمُ الخبيرُ (18) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتِكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

1 قوله: {إن عصيت ربي} عوضاً عن اسم الجلالة (الله) فيه إيماء وإشارة إلى أن عصيان الرب قبيح قبحاً أشد من عصيان المعبود، لأن الرب هو المليك المربي المتولي الحافظ الولي فعصيان من يرّبي ويرزق قبيح جداً.

2 أي : من يصرف الله عنه العذاب يوم القيامة فقد رحمه فأدخله جنّته بعد أن نجّاه من النار.

(2/43)

شرح الكلمات:

يمسك : يصبك.

بضر : الضر: ما يؤلم الجسم أو النفس كالمرض والحزن.

بخير: الخير: كل ما يسعد الجسم أو الروح.

القاهر : الغالب المذل المعز.

شهادة: الشهادة: إخبار العالم بالشيء عنه بما لا يخالفه.

لأنذركم به: لأخوفكم بما فيه من وعيد الله لأهل عداوته.

إله واحد : معبود واحد لأنه رب واحد، إذ لا يعبد إلا الرب الخالق الرازق المدبر.

معنى الآيات :

ما زال السياق في توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم وتقوية موقفه من أولئك العادلين بربههم المشركين به فيقول له ربه تعالى: {وإن يمسك الله بضر 1 فلا كاشف له إلا هو} أي إن أصابك الله بما يضرك في بدنك فلا كاشف له عنك بإنجائك منه إلا هو. {وإن يمسك بخير} أي وإن يردك بخير فلا2 راد له {فهو على كل شيء قدير}، والخطاب وإن كان موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم فإنه عام في كل أحد فلا كاشف للضر إلا هو، ولا راد لفضله أحد، ومع كل أحد، وقوله تعالى في الآية الثانية (18) {وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير} تقرير لربوبيته المستلزمة لألوهيته فقهره لكل أحد، وسلطانه على كل أحد مع علو كلمته وعلمه بكل شيء موجب لألوهيته وطاعته وطلب ولايته، وبطلان ولاية غيره وعبادة سواه وقوله تعالى في الآية الثالثة (19) {قل الله شهيد بيني وبينكم} نزلت لما قال المشركون بمكة للرسول صلى الله عليه وسلم إئتنا بمن يشهد لك بالنبوة فإن أهل الكتاب أنكروها فأمره ربه تعالى أن يقول لهم رداً عليهم: أي شيء أكبر شهادة؟ ولما كان لا جواب لهم إلا أن يقولوا الله أمره أن يجيب به: {قل الله شهيد بيني وبينكم}. فشهادة الله تعالى لي بالنبوة إبحاؤه إليّ بهذا القرآن الذي أنذركم به، وأنذر

1 الضر: هو ما يؤلم الإنسان وهو من الشر المنافي للإنسان ويقابله النفع وهو من الخير الملائم للإنسان ولذا فالضر هنا أعم من المرض إذ يتناوله وغيره من سائر ما يضر الإنسان.

2 شاهده حديث ابن عباس عند الترمذي وهو صحيح إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا غلام إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف".

كل من بلغه وسمع به بأن من بلغه 1 ولم يؤمن به ويعمل بما جاء فيه من العفائد والعبادات والشرائع فإنه خاسر لنفسه يوم القيامة. ثم أمره أن ينكر عليهم الشرك بقوله: أنكم 2 لتشهدون مع الله آلهة أخرى، وذلك بإيمانكم بها وعبادتكم لها أما أنا فلا أعترف بها بل أنكرها فضلاً عن أن أشهد بها. ثم أمره بعد إنكار آلهة المشركين أن يقرر ألوهيته الله وحده وأن يتبرأ من آلهتهم المدعاة فقال له قل: {إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون} 3.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب اللجأ إلى الله تعالى دون غيره من سائر خلقه إذ لا يكشف الضر 4 إلا هو.
 - 2- شهادة الله تعالى لرسوله بالنبوة وما أنزل عليه من القرآن وما أعطاه من المعجزات.
 - 3- نذارة الرسول بلغت كل من بلغه القرآن الكريم إلى يوم الدين.
 - 4- تقرير مبدأ التوحيد لا إله إلا الله، ووجوب البراءة من الشرك.
- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَنَتْنُتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)

- 1 في البخاري: "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له، وقال القرطبي: من بلغه القرآن فكأنما خد رأي محمداً صلى الله عليه وسلم وسمع منه.
- 2 الاستفهام للتوبيخ والتقريع مع الإنكار لشهادتهم الباطلة وذلك بتأليهم الأصنام، والأحجار جهلاً وعناداً.

3 أي من الشرك والشركاء معاً.

- 4 آية (يونس) في هذا الباب عظيمة إذ قال مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فإن فعلت فانك إذا من الظالمين، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم".}

شرح الكلمات:

الذين آتيناهم الكتاب: علماء اليهود والنصارى.

يعرفونه: يعرفون محمداً نبياً لله ورسولاً له.

افترى على الله كذباً: اختلق الكذب وزوره في نفسه وقال.

لا يفلح الظالمون : لا ينجون من عذاب الله يوم القيامة.

أين شركاؤكم : استفهام توبيخي لهم.

ترزعون: تدعون أنهم شركاء يشفعون لكم عند الله.

وضل عنهم: غاب عنهم ولم يحضرهم ما كانوا يكذبونه.

معنى الآيات::

قوله تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب} أي علماء اليهود والنصارى {يعرفونه} أي النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أنه نبي الله ورسوله وأن القرآن كتاب الله أوحاه إليه يعرفونه بما ثبت من أخباره ونعوته معرفة كمعرفة آبائهم، رد الله تعالى بهذا على العرب الذين قالوا: لو كنت نبياً لشهد لك بذلك أهل الكتاب ثم أخبر تعالى أن الذين 1 خسروا أنفسهم في قضاء الله وحكمه الأزلي لا يؤمنون، وإن علموا ذلك في كتبهم وفهموه واقتنعوا به، فهذا سر عدم إيمانهم، فلن يكون إذا عدم إيمانهم حجة ودليلاً على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأن غير نبي ولا رسول هذا ما دلت عليه الآية الأولى (20) وفي الآية الثانية نداء الله تعالى يكلّ من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب بقوله {ومن 2 أظلم ممن افترى على الله كذباً} وهم المشركون بزعمهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله ولذا عبدها، أو كذبوا بآياته وهم أهل الكتاب، وأخبر أن الجميع في موقفهم المعادي للتوحيد والإسلام ظالمون، وإن الظالمون لا يفلحون فحكم بخسران الجميع إلا من آمن منهم وعبد الله ووحده وكان من المسلمين وقوله تعالى في الآية الثالثة (22) {ويوم نحشرهم 3 جميعاً} مشركين وأهل كتاب أي لا يفلحون في الدنيا ولا يوم

1 {والذين خسروا أنفسهم} في موضع النعت أو البدلية من قوله: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه}.

2 {ومن أظلم} الاستفهام للنفي والتقريع أي لا أحد أعظم ظلماً ممن افترى على الله الكذب أو كذب بآياته التي هي الآيات القرآنية والمعجزات النبوية.

3 الظرف معمول لفعل محذوف تقديره: واذكر لقومك الوقت الذي يجري فيه الاستنطاق والاستجواب وكيف يكون موقف هؤلاء المشركين الظالمين.

نحشرهم وهو يوم القيامة لأنهم ظالمون، ثم أخبر تعالى بمناسبة ذكر يوم القيامة أنه يسأل المشركين منهم فيقول لهم: {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون} أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم؟ ثم لم تكن نتيجة هذه الفتنة أي الاختبار إلا قولهم: {والله ربنا ما كنا 1 مشركين} ، يكذبون هذا الكذب لأنهم رأوا أن المشركين لا يغفر لهم ولا ينجون من النار. ثم أمر الله رسوله أن يتعجب من موقفهم هذا المخزي لهم فقال له: {أنظر كيف كذبوا على 2 أنفسهم} أما ربهم فهو عليم بهم {وضل عنهم} أي غاب فلم يروه. {ما كانوا يفترون} أي يكذبون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لم يمنع أهل الكتاب من الدخول في الإسلام إلا إيثار الدنيا على الآخرة.
 - 2- سببان في عظم الجريمة الكاذب على الله المفترى والمكذب الجاحد به وبكتاب وبنبيه.
 - 3- تقرير عدم فلاح الظالمين في الحياتين.
 - 4- الشرك لا يغفر لصاحبه إذا لم يتب منه قبل موته.
- وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)

- 1 تبرؤا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوز الله ومغفرته للموحدين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ولا يتعاضم عليه ذنب أن يغفره فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول: والله ربنا ما كنا مشركين.
- 2 وجه كذبهم: أنهم كانوا يقولون في الأصنام تشفع لنا عند الله وتقربنا إليه زلفى. ففي هذا الموقف غاب عنهم الكذب والافتراء وواجهوا الحقيقة المرة كما هي.

(2/47)

بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)

شرح الكلمات:

أكنة: جمع كنان ما يكن فيه الشيء كالغطاء.

وقرأ: ثقلاً وصمماً فهم لا يسمعون.

يجادلونك : يخاصمونك.

أساطير الأولين: جمع أسطورة: ما يكتب ويحكى من أخبار السابقين.

وينأون عنه: أي ويبعدون عنه.

بل بدا لهم : بل ظهر لهم.

إن هي إلا حياتنا : ما هي إلا حياتنا.

مبعوثين : بعد الموت أحياء كما كنا قبل أن نموت.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أولئك العادلين بريهم المشركين به سواء فيخبر تعالى عن بعضهم فيقول {ومنهم من يستمع إليك} حال قراءتك القرآن ولكنه لا يعيه قلبه ولا يفقه ما فيه من أسرار وحكم تجعله يعرف الحق ويؤمن به، وذلك لما جعلنا حسب سنتنا في خلقنا من أكنة 1 على قلوبهم أي أغطية، ومن 2 وقر أي ثقل وصمم في آذانهم، فلذا هم يستمعون ولا يسمعون، ولا يفقهون وتلك الأغطية وذلك الصمم هما نتيجة ما يحملونه من بغض للنبي صلى الله عليه وسلم وكره لما جاء به من التوحيد، ولذا فهم لو يرون كل آية مما يطالبون به من المعجزات كإحياء الموتى ونزول الملائكة عياناً لا يؤمنون بها لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا ولذا قال تعالى:

1 الأكنة: جمع كنان كأسنة جمع سنان، والأعنة جمع عنان، والكنة: امرأة الأب لأنها في كنه، وكذا امرأة الابن والأخ.

2 يقال: وقرت أذنه توقر وقر، إذا صمت، والنخلة موقر وموقرة إذا كانت ذات ثمر كثير.

(2/48)

{وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك} أي في شأن التوحيد وآلهتهم {يقول الذين كفروا 1 إن هذا} أي ما هذا {إلا أساطير الأولين}، أمليت عليك أو طلبت كتابتها فأنت تقصها، وليس لك من نبوة ولا وحي ولا رسالة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (25) أما باقي الآيات فإن الثانية (26) تضمنت إخبار الله تعالى عنهم بأنهم ينهون الناس عن الإيمان بالنبي وبما جاء به وعن متابعتة والدخول في دينه، وينأون هم بأنفسهم أي يبعدون عنه فلا إيمان ولا متابعة. وهذه شر الصفات يصفهم الله تعالى بها وهي البعد عن الحق والخير، وأمر الناس بالبعد عن عنهما ونهيهم عن قريبهما ولذا قال تعالى: {وإن يهلكون إلا 2 أنفسهم} بهذا الموقف الشائن المعادى للرسول والتوحيد، وما يشعرون بذلك إذ لو شعروا لكفوا، والذي أفقدهم الشعور هو حب الباطل والشر الذي حملهم على عداوة الرسول وما جاء به من عبادة الله وتوحيده وها هم أولاً قد حشروا في جهنم، والله

تعالى يقول للرسول: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ولا بد لهم من دخولها والاصطلاء بحرهما والاحتراق بلهبها، فقالوا وهم في وسطها ﴿يا ليتنا نرد﴾ إلى الحياة الدنيا ﴿ولا تكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين﴾، وما هم والله بصادقين وإنما هي تمنيات حمل عليها الإشفاق من العذاب والخوف من نار جهنم، والفضيحة حين ظهر لهم 4 ما كانوا يخفون في الدنيا من جرائم وفواحش وهم يغشونها الليل والنهار قال تعالى وهو العليم الخبير: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وصدق الله لو ردوا لعادوا وفي الآية الأخيرة (29) يسجل الله تعالى عليهم سبب بلائهم ومحنتهم، وإقدامهم في تلك الجرأة الغريبة على الشرك ومحاربة التوحيد، ومحاربة الموحدين بالضرب والقتل والتعذيب إنه كفرهم بالبعث والجزاء إذ قالوا ما أخبر تعالى به عنهم: ﴿إن هي إلا كحياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين﴾.

- 1 قال ابن عباس: قالوا للنضر بن الحارث ما يقول محمد؟ قال: أرى تحريك شفثيه وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدثكم أنا عن القرون الماضية إذ كان النضر صاحب قصص سمعها من ديار العجم إذ كان سافر إليها للتجارة، والأساطير: جمع أسفار وأسطورة نحو: أحاديث وأحداث ومعنى الأساطير: ما كتب وسطر من أخبار الأولين وهو ترهاتهم وأباطيلهم.
- 2 ﴿وإن يهلكون﴾ أي: ما يهلكون فإن بمعنى: ما النافية.
- 3 أي: وهم على الصراط وهي تحتهم أو وقفوا بقربها وهم يعاينونها، وجواب لو محذوف تقديره: لرأيت منظرًا هائلًا ونحوه.
- 4 قوله تعالى ﴿وبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي في دار الدنيا من الكفر والتكذيب والعناد وجائز أن يكون ظهر لهم صدق ما كانوا يعلمون أنه حق من أمر الدين والتوحيد ولكن يخفونه في أنفسهم حتى لا يعلم ذلك إخوانهم في الكفر واتباعهم في الشرك.
- 5 هذا سبب شقائهم هو إنكارهم للبعث والجزاء ومغالطة أنفسهم بأنه لا حياة إلا الحياة الدنيا.

(2/49)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله تعالى في أن العبد إذا كره أحدًا وأبغضه وتعالى في ذلك يصبح لا يسمع ما يقول له، ولا يفهم معنى ما يسمع منه.
- 2- شر دعاة الشر من يعرض عن الهدى ويأمر بالإعراض عنه، وينهى من يقبل عليه.
- 3- سبب الشر في الأرض الكفر بالله، وإنكار البعث والجزاء الآخر.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)

شرح الكلمات:

وقفوا على ربهم: جيء بهم ووقفوا على قضائه وحكمه تعالى فيهم.

بلى وربنا: أي إنه للحق والله.

خسر الذين كذبوا: أي خسروا أنفسهم في جهنم.

الساعة بغتة: ساعة: البعث ليوم القيامة وبغتة: أي فجأة.

يا حسرتنا: الحسرة: التندم والتحسر على ما فات ينادون حسرتهم زيادة في التألم والتحزن.

أوزارهم: أحمال ذنوبهم إذ الوزر الحمل الثقيل.

لعب ولهو: اللعب: العمل الذي لا يجلب درهماً للمعاش، ولا حسنة للمعاد.

واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه مما يكسبه خيراً أو يدفع عنه ضيراً.

(2/50)

معنى الآيات:

لقول تعالى لرسوله: ولو ترى 1 إذ وقف أولئك لمنكرون للبعث القائلون {إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}، لو تراهم وقد حبسوا لقضاء الله وحكمه فيهم وقيل لهم وهم يشاهدون أهوال القيامة وما فيها من حساب وجزاء وعذاب {اليس 2 هذا بالحق} أي الذي كنتم تكذبون فيسارعون بالإجابة قائلين {بلى، وربنا}، فيحلفون بالله تعالى تأكيداً لصحة جوابهم فيقال لهم 3: {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} لا ظلماً منا ولكن بسبب كفركم إذ الكفر منع من طاعة الله ورسوله، والنفس لا تطهر إلا على تلك الطاعة، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (30) أما الآية الثانية (31) فقد أعلن تعالى عن خسارة صفقة الكافرين الذين باعوا الإيمان بالكفر والتوحيد بالشرك، والطاعة بالمعاصي فقال تعالى: {قد خسر الذين كذبوا بقاء الله} 4 أي بالحياة بعد الموت وهذا هو سبب المحنة والكارثة {حتى إذا جاءتكم الساعة} ساعة فناء هذه الحياة وإقبال الحياة الآخرة {بغتة} أي فجأة لم يكونوا يفكرون فيها لكفرهم بها، وعندئذ صاحوا بأعلى أصواتهم معلنين عن تندمهم {يا حسرتنا 5 على ما فرطنا} أي في صفتنا حيث اشترينا الكفر بالإيمان والشرك بالتوحيد قال تعالى: {وهم يحملون أوزارهم} من الجائز أن تصور لهم أعمالهم من الكفر والشرك والظلم والشر والفساد في صورة رجل قبيح أشوه فيحملونه على ظهورهم في عرصات القيامة وقد ورد به خبر. ولذا قال تعالى: {ألا ساء ما يزرُونَ} أي قبح ما

يحملونه! وفي الآية (32) الأخيرة يخبر تعالى مذكراً واعظاً ناصحاً فيقول يا عباد الله: لوما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو {فانتبهوا فلا تغتروا بما فيها من ملذات فإن نعيمها إلى زوال ما شأنها إلا شأن من يلعب أو يلهو، ثم لا يحصل على طائل من لعبة6 ولهوه، أما الدار الآخرة فإنها خير ولكن للذين يتقون الشرك والشر

- 1 جواب لو محذوف تقديره: لعظم شأن الوقوف.
- 2 الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: أليس هذا البعث كائننا موجوداً.
- 3 جازئ أن يكون القائل: الله تعالى، وجزاء أن تكون الملائكة وهو أولى لأنهم ليسوا أهلاً لأن يكلمهم الربّ تبارك وتعالى.
- 4 أي بالبعث بعد الموت والجزاء على العمل في الدنيا هذا كقوله صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" في الصحيح، إلا أنه لا مانع من حمل اللفظ على ظاهره لأن لقاء الله كائن حقاً وكيف وهو الذي يفصل بينهم في ساحة فصل القضاء.
- 5 أي: يا حسرتنا احضري فهذا أوان حضورك، والحسرة: الندم الشديد، والتلف والنداء للندم والتعجب من حالهم وما حلّ بهم.
- 6 هي كما قال الحكيم:
ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذّة ...
فأفنيته هل أنت إلا كحالم

(2/51)

والمعاصي، فما لكم مقبلين غلى الفاني معرضين عن الباقي {أفلا تعقلون؟!}

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ البعث والجزاء بذكر صور ومشاهد له.
- 2- قبح الذنوب وأنها أسوأ حمل يحمله صاحبها يوم القيامة.
- 3- حكم الله تعالى بالخسران على من كذب بلفائه فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً.
- 4- الساعة لا تأتي إلا بغتة، ولا ينافي ذلك ظهور علاماتها، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره.

5- نصيحة القرآن للعقلاء بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا. ويهملوا شأن الآخرة وهي خير للمتقين. قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) شرح الكلمات:

ليحزنك : أي لوقعك في الحزن الذي هو ألم النفس من جراء فقد ما تحب من هدايتهم أو من أجل ما تسمع منهم من كلم الباطل كتكذيبك وأذيتك.

(2/52)

فإنهم لا يكذبونك: أي لا ينسبونك إلى الكذب في بواطنهم ومجالسهم السرية لعلمهم اليقيني أنك صادق.

كذبت رسل : أي كذبتهم أقوامهم وأمهم كروح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. ولا مبدل لكلمات الله: التي تحمل وعده بنصر أوليائه وإهلاك أعدائه.

من نبي المرسلين: أي أخبارهم في دعواتهم مع أمهم.

تبتغي نفقاً: تطلب سرياً تحت الأرض.

أو سلماً في السماء : أي مصعداً تصعد به إلى السماء.

بآية : أي خارقة من خوارق العادات وهي المعجزات.

فلا تكونن من الجاهلين : أي فلا تقف موقف الجاهلين بتدبير الله في خلقه.

معنى الآيات:

هذه الآيات من تربية الله تعالى لرسوله وإرشاده لما يشد من عزمه ويزيد في ثباته على دعوة الحق التي أناط به بلاغها وبيانها فقال له تعالى: {قد نعلم أنه} أي الحال والشأن، {ليحزنك الذي يقولون} أي الكلام الذي يقولون لك وهو تكذيبك واتهامك بالسحر، والتقول على الله، وما إلى ذلك مما هو إساءة لك وفي الحقيقة إنهم لا يكذبونك² لما يعلمون من صدقك وهم يلقبونك قبل إنباتك لهم وإرسالك بالأمين ولكن الظالمين هذا شأنهم فهم يرمون الرجل بالكذب وهم يعلمون أنه صادق ويقرون هذا في مجالسهم الخاصة، ولكن كي يتوصلوا إلى تحقيق أهدافهم في الإبقاء على عاداتهم وما ألفوا من عبادة أوثانهم يقولون بألسنتهم من نسبتك إلى الكذب وهم يعلمون أنك صادق³ غير كاذب فإذا عرفت هذا فلا تحزن لقولهم.

- 1 قد نعلم إنه: كسرت إن في إنه لدخول اللام في {ليحزنك} ولولاها لفتحت نحو أنه يحزنك.
- 2 روي أن أبا جهل وجماعة معه من رجالات قريش مرّوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ما نكذبك وإنا كنا لصادق ولكن نكذب ما جئت به. وهذه الآية شاهد لصحة هذه الرواية، ومعنى يكذبونك ينسبونك إلى الكذب ويردون قولك.
- 3 روى ابن اسحق وغيره أن الأحنس بن شريق أتى أبا جهل فقال له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد إذ كانوا يأتون دار محمد وهو يصلي بالليل يستمعون القرآن فإذا طلع النهار تفرّقوا قال ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: ممّا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك نحن هذه والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه فقام الأحنس وتركه.

(2/53)

هذا أولاً وثانياً فقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا كما كُذبت أنت وأوذيت، وصبروا حتى أتاهم نصرنا فاصبر أنت حتى يأتيك النصر فإنه لا مبدل لكلمات الله التي تحمل وعده لأوليائه ووعيده لأعدائه، ولقد جاءك في هذا الكتاب الذي أوحينا إليك من نبي المرسلين وأخبارهم ما يكون عوناً لك على الصبر حتى النصر فاصبر، وثالثاً {إن كان كبير 1 عليك إعراضهم} عن دعوتك وعدم إيمانهم بها حتى تأتيهم بآية تلجئهم إلى الإيمان بك وبرسالتك كما يطلبون منك ويُلحون عليك وهم كاذبون فإن استطعت أن تطلب لهم آية من تحت الأرض أو من السماء فافعل، وهذا ما لا تطيقه ولا تستطيعه لأنه فوق طاقتك فلا تكلف به وإذا فما عليك إلا بالصبر هذا معنى قوله تعالى: {وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض} أي 2 سرياً، {أو سلماً في السماء} أي مصعداً {فتأتيهم بآية} أي فافعل، وما أنت بقادر فاصبر إذا ورباعاً إن الله قادر على أن يجمعهم كلهم على الإيمان بك وبرسالتك والدخول في دينك، ولكنه لم يشأ ذلك لحكم عالية فلا تطلب أنت ما لا يريدك ربك، فإنك إن فعلت كنت من الجاهلين 3، ولا نريد لك ذلك 4.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ثبوت بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ولذا هو يحزن لفوت محبوب كما يحزن البشر لذلك.
 - 2- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر حتى يأتيه موعود ربه بالنصر.
 - 3- بيان سنة الله في الأمم السابقة.
 - 4- إرشاد الرب تعالى رسوله إلى خير المقامات وأكمل الحالات بإبعاده عن ساحة الجاهلين.
- إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن

رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ

1 {كَبُرَ} ثَقُلَ فَشَقَّ عَلَيْهِ تَحْمَلُهُ لِثِقَلِهِ.

2 أي نفقاً كالأنفاق المعروفة اليوم تحت الأرض، والسلم: الدرج وهو ما يرقى عليه وسمي السلم من السلامة.

3 ولا يليق بمثلك مثله وهذا كله تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتعزية وحمل له على الصبر وهو لكل داعٍ إلى الله تعالى يواجه التكذيب والتعذيب إلى يوم الدين.

4 جازئ أن يكون المعنى: من الجهل الذي هو ضد العلم، والجهل الذي هو ضد الحلم ويناسب الأول قوله {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى} والثاني قوله: {وإن كان كبر عليك إعراضهم..} الآية.

(2/54)

قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَّا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

شرح الكلمات:

إنما يستجيب: أي لدعوة الحق التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤمن ويهتدي. يبعثهم الله: أي يوم القيامة.

لولا نزل عليه آية: هلا أداة تحضيض لا لولا الشرطية.

آية من ربه: آية: خارقة تكون علامة على صدقه.

لا يعلمون: أي ما يترتب على إيتائها مع عدم الإيمان بعدها من هلاك ودمار.

من دابة: الدابة كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان.

في الكتاب: كتاب المقادير أم الكتاب اللوح المحفوظ.

صم وبكم في الظلمات: صم: لا يسمعون وبكم: لا ينطقون في الظلمات لا يبصرون.

صراط مستقيم: هو الدين الإسلامي المفضي بالآخذ به إلى سعادة الدارين.

معنى الآيات:

بعدما سلى الرب تعالى رسوله في الآيات السابقة وحمله على الصبر أعلمه هنا بحقيقة علمية تساعده على الثبات والصبر فأعلمه أن الذين يستجيبون لدعوته صلى الله عليه وسلم هم الذين يسمعون لأن حاسة السمع عندهم سليمة ما أصابها ما يخل بأداء وظيفتها من كره الحق

وبغض أهله والداعين إليه فهؤلاء هم الذين يستجيبون لأنهم أحياء أما الأموات فإنهم لا يسمعون ولذا فهم لا يستجيبون ولكن سيبعثهم الله يوم القيامة أحياء ثم يرجع الجميع إليه من استجاب، لحياة قلبه، ومن لم يستجب لموت قلبه ويجزيهم بما عملوا الجزاء الأوفى وهو على كل شيء قدير، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (36) أما الآية الثانية (37) فقد أخبر تعالى رسوله بقولهم {لولا نزل عليه آية} ، وعلمه أن يقول لهم {إن الله قادر على أن ينزل آية} وهي الخارقة كإحياء الموتى أو تسيير الجبال أو إنزال الملائكة يشاهدونهم عياناً، ولكن لم ينزلها لحكم عالية وتدبير حكيم، {ولكن أكثرهم لا يعلمون} الحكمة في 1 ذلك، ولو علموا أنها إذا نزلت كانت نهاية حياتهم لما سألوها. هذا ما تضمنته الآية الثانية أما الآية الثالثة (38) وهي قوله تعالى: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم} سيقّت هذه الآية لبيان كمال الله تعالى وشمول علمه وعظيم قدرته، وسعة تدبيره تدليلاً على أنه تعالى قادر على إنزال الآيات، ولكن منع ذلك حكمته تعالى في تدبير خلقه فما من دابة تدب في الأرض ولا طائر يطير في السماء إلا أمم مثل الأمة 3 الإنسانية مفتقرة إلى الله تعالى في خلقها ورزقها وتدبير حياتها، والله وحده القائم عليها، وفوق ذلك إحصاء عملها عليها ثم بعثها يوم القيامة ومحاسبتها ومجازاتها، وكل ذلك حواه كتاب المقادير وهو يقع في كل ساعة ولا يخرج شيء عما كتب في كتاب المقادير، اللوح المحفوظ {ما فرطنا في الكتاب من شيء} فهل يعقل مع هذا أن يعجز الله تعالى عن إنزال آية، وكل مخلوقاته دالة على قدرته وعلمه ووحدانيته، ووجوب عبادته وفق مرضاته، وقوله {ثم إلى ربهم يحشرون} 4 كل دابة وكل طائر يموت أحب أم كره، ويبعث 5 أحب أم كره، والله وحده مميتة ومحياه ومجزيه، {ثم إلى ربهم يحشرون} ، ومن هنا كان المكذبون بآيات الله {صم وبكم

1 قال القرطبي: القول بحشر البهائم هو الصحيح، والبهائم وإن كان القلم لا يجري عليها في الأحكام ولكن فيما بينها تؤاخذ به، وروي عن أبي ذرّ قال، انتطحت شاتان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا. قلت: لا، قال: لكن الله تعالى يدري وسيفضي بينهم".

2 من الحكمة في عدم إنزال الآية أنه لو أنزلها ما آمنوا بها، فاستوجبوا الهلاك فأهلكهم، ولكنّه يريد الإبقاء عليهم ليخرج من أصلابهم مؤمنين يعبدونه ويوحدونه.

3 ذكر الجناحين للتأكيد من جهة، وإزالة الإبهام من جهة أخرى لأن العرب تطلق لفظ الطيران على غير الطائر فتقول للرجل، طر في حاجتي أي أسرع في قضائها وطائر الإنسان ما قسم الله له أنزلاً قال تعالى: {وكل إنسان أئتمناه طائره في عنقه}.

4 وهذه المثلية بين الإنسان وبين دواب الأرض وطائر السماء تقتضي ألا يظلم الإنسان الحيوان ولا يؤذيه ولا يتجاوز ما أمر به نحوه، ووجه المثلية في كون كل من الإنسان والحيوان يسبح الله تعالى ويدل على قدرته وعلمه وحكمته.

5 قيل في {يحشرون} أنّ حشرها الموت وهو مروى عن ابن عباس قال: موت البهائم: حشرها وروى عن مجاهد والضحاك أيضاً، وقيل حشرها: هو بعثها يوم القيامة حيّة وهذا أصحّ لحديث: "إنّ الجماء لتقتص من القرآن يوم القيامة".

(2/56)

في الظلمات 1} أموات غير أحياء إذ الأحياء يسمعون وينطقون ويبصرون وهؤلاء صم بكم في الظلمات فهم أموات غير أحياء وما يشعرون. وأخيراً أعلم تعالى عباده أن هدايتهم كإضلالهم بيده فمن شاء هداه ومن شاء أضله، وعليه فمن أراد الهداية فليطلبها في صدق من الله جل جلاله وعظم سلطانه ومن رغب عنها فلن يعطاها.

هداية الآيات

من بداية الآيات:

- 1- الإيمان بالله ورسوله ولفائه حياة والكفر بذلك موت فالمؤمن حي والكافر ميت.
- 2- سبب تأخر الآيات علم الله تعالى بأنهم لو أعطاهم الآيات ما آمنوا وبذلك يستوجبون العذاب.
- 3- تعدد الأمم 2 في الأرض وتعدد أجناسها والكل خاضع لتدبير الله تعالى مرئوب له.
- 4- تقرير ركن القضاء والقدر وإثباته في أم الكتاب.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرِعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا

1 إنها ظلمات الكفر والشرك والمعاصي وما ينتج عن ذلك من القلق والحيرة واضطراب النفس، والخوف، والهم.

2 روى ابن كثير بسنده عن الحافظ أبي يعلى عن جابر بن عبد الله أن الجراد لم يُرْفِي سنة من سني عمر رضي الله عنه التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاعتم لذلك فأرسل ركباً إلى كذا وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل هل روي من الجراد شيء أو لا؟ قال فاتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثلاثاً ثم قال سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول: "خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البرّ وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه. هذه الرواية ذكر بعض أهل العلم بطلانها.

(2/57)

سَوُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَطُغِيَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)

شرح الكلمات:

أرأيتمكم : أخبروني.

الساعة : يوم القيامة.

يكشف : يزيل ويبعد وينجي.

البأساء والضراء: البأساء: الشدائد من الحروب والأمراض، والضراء: الضر.

يتضرعون: يتذللون في الدعاء خاضعون.

بغته: فجأة وعل حين غفلة.

مبلسون : آيسون قنطون متحسرون حزنون.

دابِر القوم : آخرهم أي أهلكوا من أولهم إلى آخرهم.

الحمد لله: الثناء بالجميل والشكر لله دون سواه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية أولئك المشركين العادلين بربهم أصناماً وأحجاراً، فيقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل يا رسولنا لأولئك الذين يعدلون بنا الأصنام {أرأيتمكم} أي أخبروني، {إن أتاكم عذاب الله} اليوم انتقاماً منكم، {أو أتكم الساعة} وفيها عذاب يوم القيامة، {أغير الله تدعون} ليقبلكم العذاب ويصرفه عنكم {إن كنتم صادقين} في أن ألهتكم تنفع وتضره تقي السوء وتجلب الخير؟ والجواب معلوم أنكم لا تدعونها ليأسكم من إجابتها بل الله وحده هو الذي تدعونه فيكشف ما تدعونه له إن شاء، وتتسون عندها ما تشركون به من الأصنام فلا تدعونها ليأسكم من إجابتها لضعفها وحقارتها.

1 قال القرطبي: هذه الآية في محاجة المشركين ممن اعترف أنّ له صناعاً أي: أنتم عند الشدائد

ترجعون إلى الله تعالى وسترجعون إليه يوم القيامة أيضاً، فلم تصرّون على الشرك في حال

الرفاهية؟! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب.

2 {بل إِيَّاهُ تَدْعُونَ} بل: للإِضْرَابِ، إِضْرَابٌ عَنِ الْأَوَّلِ وَهُوَ دَعَاءٌ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِجَابٌ لِلثَّانِي وَهُوَ دَعَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(2/58)

هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (40) والثانية (41) وأما الآيات الأربع بعدهما فإن الله تعالى يخبر رسوله بقوله {ولقد أرسلنا إلى أمم 1 من قبلك} أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم فأمرهم بالإيمان والتوحيد والعبادة فكفروا وعصوا فأخذناهم بالشدائد من حروب ومجاعات وأمراض لعلمهم يتضرعون إلينا فيرجعون إلى الإيمان بعد الكفر والتوحيد بعد الشرك والطاعة بعد العصيان ولما لم يفعلوا وبخهم تعالى بقوله: {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا 2} أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا إلينا {ولكن} حصل العكس حيث {قسى قلوبهم وزين لهم الشيطان} أي حسن لهم {لما كانوا يعملون} من الشرك والمعاصي. وهنا لما نسوا ما ذكرتهم به رسلهم فتركوا العمل به معرضين عنه غير ملتفتين إليه فتح الله تعالى عليهم أبواب كل شيء من 3 الخيرات حتى إذا فرحوا بذلك 4 وسكنوا إليه واطمأنوا ولم يبق بينهم من هو أهل للنجاة. قال تعالى {أخذناهم بغتة} أي فجأة بعذاب من أنواع العذاب الشديدة {فإذا هم مبلسون} 5 آيسون من الخلاص متحسرون {فقطع دابر 6 القوم الذين ظلموا} أي استؤصلوا بالعذاب عن آخرهم. وانتهى أمرهم {والحمد لله رب العالمين} ناصر أوليائه ومهلك أعدائه فاذكر هذا لقومك يا رسولنا لعلمهم يثوبون إلى رشدهم ويعودون إلى الحق الذي تدعوهم إليه وهم معرضون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- من غريب أحوال الإنسان المشرك أنه في حال الشدة الحقيقية يدعو الله وحده ولا يدعو معه الآلهة الباطلة التي كان في حال الرخاء والعافية يدعوها.

1 أي أرسلنا رسلاً. فرسلاً مضمراً وهناك إضمار آخر تقديره: فكذبوهم فأهلكناهم.

2 يتضرعون: يدعون الله ويتذللون له، إذ التضرع مأخوذ من الرضاعة التي هي الذلة، يقال: ضرع إليه فهو ضارع أي: متذلل.

3 أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم وهو استدراج لهم وقد تطول مدة الاستدراج والإمهال عشرين سنة فأكثر.

4 روى أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم

مبلسون}.

- 5 قالوا: المبلس: هو الباهت الحزين الآيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال قال العجاج.
يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً ... قال نعم أعرفه وأبلسا
المكرس: الذي به الكرس وهو أبوال الإبل وأبعارها.
6 الدابر: الآخر يقال: دبر القوم يدبرهم دبراً إذا كان آخرهم. ومعناه أخذهم أجمعين إذ آخر من
يؤخذ هو من كان خلف القوم وآخرهم.

(2/59)

- 2- بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم.
3- إذا رأيت الأمة قد فسقت عن أمر ربها ورسوله فعوقبت فلم تتعظ بالعقوبة واستمرت على فسقها
وبسط الله تعالى لها في الرزق وأغدق عليها الخيرات فاعلم أنها قد استدرجت للهلاك وأنها هالكة لا
محالة.
4- شؤم الظلم هلاك الظالمين.
5- الإرشاد إلى حمد الله تعالى عند نهاية كل عمل، وعاقبة كل أمر.
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ
نُصِّرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ (47) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49)
شرح الكلمات:

أرأيتم: أخبروني وفي هذه الصيغة نوع من التعجب.
أخذ سمعكم وأبصاركم: أي أصمكم وأعماكم.
وخنم على قلوبكم: جعلها لا تعي ولا تفهم.
نصرف الآيات: ننوع الأساليب لزيادة البيان والإيضاح.
يصدفون: يعرضون.
بغته أو جهرة: بدون إعلام ولا علامة سابقة، والجهرة: ما كان بإعلام وعلامة تدل عليه.
هل يهلك: أي ما يهلك.

(2/60)

معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة العادلين بريهم الأصنام والأوثان إلى التوحيد فقال تعالى لنبيه يلقته الحجج التي تبطل باطل المشركين {قل أرايتم} أي أخبروني يا قوم {إن أخذ الله سمعكم} وجعلكم صماً لا تسمعون وأخذ {أبصاركم} فكنتم عمياً لا تبصرون {وختم على قلوبكم} أي طبع عليها فأصبحتم لا تعقلون ولا تفهمون. أي إله غير الله يأتيكم بالذي أخذ الله منكم؟ والجواب لا أحد، إذاً فكيف تتركون عبادة من يملك سمعكم وأبصاركم وقلوبكم ويملك كل شيء فيكم وعندكم، وتعبدون ما لا يملك من ذلك من شيء؟ أي ضلال أبعد من هذا الضلال! ثم قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {انظر} يا رسولنا {كيف} 2 {نصرف الآيات}.

أي نوع أساليبها زيادة في بيانها لإظهار الحجة بها {ثم هم يصدفون} أي يعرضون عادلين بريهم ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً ثم أمره في الآية الثانية (47) أن يقول لهم وقد أقام الحجة عليهم في الآية الأولى (46) قل لهم {أرايتمكم} أي أخبروني 3 {إن أتاكم عذاب الله} وقد استوجبتموه بصدوفكم عن الحق وإعراضكم عنه {بغتة} 4 أي فجأة بدون سابق علامة، {أو جهرة} بعلامة تقدمته تنذركم به أخبروني من يهلك منا ومنكم؟ {هل يهلك إلا القوم الظالمون} 5 بصرف العبادة إلى هن لا يستحقها وترك من وجبت له وهو الله الذي لا إله إلا هو ثم عزى الرحمن جل جلاله رسوله بقوله: {وما نرسل المرسلين إلا مبشرين 6 ومنذرين} أي ما نكلفهم بغير حمل البشارة بالنجاة ودخول الجنة لمن آمن وعمل صالحاً والندارة لمن كفر وعمل سوءاً، فقال تعالى: {فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} {والذين

1 الأخذ: انتزاع الشيء، وتناوله من مقره وهو هنا بمعنى السلب والإعدام.

2 هذا التعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي: انظر كيف نكرها ونلونها من أسلوب إلى آخر تارة نوردها بمقدمات عقلية وأخرى بأسلوب الترغيب والترهيب، والتنبيه والتذكير.

3 وهذا تبيكيت آخر غير الأول لهم.

4 وفُسر بغتة وجهرة بليلاً ونهاراً والكل صالح وصحيح.

5 الاستفهام في قوله: {هل يهلك..} الخ للتقرير وحصر الهلاك في أهل الظلم تسجيلاً عليهم الظلم وإيداناً بأن هلاكهم كان سبب ظلمهم الذي هو وضعهم الشرك موضع التوحيد والكفر موضع الإيمان.

6 {مبشرين ومنذرين} حالان مقدرتان من المرسلين أي ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وإنذارهم وفيهما معنى التعليل للإرسال والتبشير: الأصل فيه الإخبار بالأمر السار، والإنذار: الإخبار بالخبر الضار دنبيوا أو أخروياً. والمراد هنا لكل من البشارة والندارة نعيم الآخرة وعذابها.

كذبوا بآياتنا} التي نرسل نجا المرسلين فلم يؤمنوا ولا يعملوا صالحا {يمسهم العذاب} 1 عذاب النار {بما كانوا يفسقون} بسبب فسقهم عن طاعتنا وطاعة رسلنا الفسق الذي أثمره لهم التكذيب بالآيات، إذ لو آمنوا بآيات الله لما فسقوا عن طاعته وطاعة رسوله فشؤمهم في تكذيبهم، وذلك جزاؤهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- افتقار العبد إلى الله في سمعه وبصره وقلبه وفي كل حياته موجب عليه عبادة الله وحده دون سواه.

2- هلاك الظالمين لا مناص منه عاجلاً أو آجلاً.

3- بيان مهمة الرسل وهي البشارة لمن أطاع والندارة من عصى والهداية والخيرات على الله تعالى.

4- الفسق عن طاعة الله ورسوله ثمرة التكذيب، والطاعة ثمرة الإيمان.

قُلْ لَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

1 أي : العذاب الذي أنذروا به وهو عاجل كعذاب الدنيا أو آجل وهو عذاب الآخرة.

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)

شرح الكلمات:

خزائن: جمع خزانة أو خزينة ما يخزن فيه الشيء ويحفظ.

الغيب: ما غاب عن العيون وكان محصلاً في الصدور وهو نوعان غيب حقيقي وغيب إضافي

والحقيقي ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والإضافي ما يعلمه أحد ويجعله آخر.

أنذر به : خوِّف به أي بالقرآن.

الغداة: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والعشي من صلاة العصر إلى غروب الشمس.

فتنظروهم: أي تبعدهم من مجلسك.

فتنا: ابتلينا بعضهم ببعض الغني بالفقير، والشريف بالوضيع.

من الله علينا: أي أعطاهم الفضل فهداهم إلى الإسلام في دوننا.

بالشاكين: المستوجبين لفضل الله ومنته بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق مع العادلين بربهم الأصنام المنكرين للنبوة المحمدية فأمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم: {لا أقول لكم عندي خزائن الله¹} أي خزائن الأرزاق {ولا أعلم الغيب} أي ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب، {ولا أقول لكم إنني ملك} من الملائكة ما أنا إلا عبد رسول أتبع ما يوحى² إليّ ربي فأقول وأعمل بموجب وحيه إليّ. ثم قال له اسألهم قائلاً {هل

1 هذا ردّ على المشركين في اقتراحاتهم المتعددة المتنوعة فأمر تعالى رسوله أن يرد عليهم بأنه لا يملك خزائن الله التي فيها الأرزاق حتى يعطيهم ما يطلبون ويقترحون، ولا هو يعلم الغيب حتى يخبرهم بموعدهم العذاب الذي ينتظرهم، ولا هو ملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر، وإنما هو بشر يوحى إليه الخبر من ربه فيخبر به ويعمل به ليس غير.

2 هذا غير ناف لاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وكثيرا ما يجتهد وقد يقبس على المنصوص عنه، ولكنه لا يقَرّ على غير الحق وما يرضي الرب عز وجل.

(2/63)

يستوي الأعمى¹ والبصير؟} والجواب لا، فكذا لا يستوي المؤمن والكافر، والمهدي والضال {أفلا تتفكرون} أي مالكم لا تتفكرون فتهتدوا للحق وتعرفوا سبيل النجاة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (50) أما الآية الثانية (51) فإن الله تعالى يأمر رسوله أن ينذر بالقرآن المؤمنين العاصين فقال {وأندر² به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربه} يوم القيامة وهم مذنبون، وليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع³ فهؤلاء ينفعهم إنذارك بالقرآن أما الكفرة المكذبون فهم كالأموات لا يستجيبون وهذا كقوله تعالى من سورة ق {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} فهؤلاء إن أنذرتهم يرجى لهم أن يتقوا معاصي الله ومعاصيك أيها الرسول وهو معنى قوله تعالى: {لعلهم يتقون}. هذا ما تضمنته الآية الثانية (51) أما الآية الثالثة (52) وهي قوله تعالى {ولا تطرد⁴ للذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه} فإن بعض المشركين في مكة اقترحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعد من مجلسه فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب حتى يجلسوا إليه ويسمعوا عنه فهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل رجاء هداية أولئك المشركين فنهاه الله تعالى عن ذلك بقوله {ولا تطرد الذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي} في صلاة الصبح، وصلاة العصر، يريدون وجه الله ليرضى عنهم ويقربهم ويجعلهم من أهل ولايته وكرامته، ومبالغة في الزجر عن هذا الهم قال تعالى: {ما عليك من حسابهم من شيء} أي ما أنت بمسؤول عن خطاياهم إن كانت لهم خطايا، ولا هم بمسئولين عنك فلم تطردهم إذًا؟ {فتطردهم} فتكون من الظالمين} أي فلا تفعل، ولم يفعل صلى الله عليه وسلم وصبر عليهم وحبس نفسه معهم وفي الآية الأخيرة (53) يقول تعالى: {وكذلك فتننا بعضهم ببعض}6

1 في هذا الخطاب الاستفهامي إيماء إلى المفارقة التامة الحاصلة من المؤمنين والكافرين، وأن الكافرين عمي والمؤمنين بصراء، والمؤمنون مهتدون، والكافرون ضالّون، فما لهم لا يتفكرون لعلمهم يخرجون من ظلمة كفرهم.

2 وأنذر به أي: بالقرآن وقيل بيوم القيامة، وكونه القرآن أولى وأصح لقوله تعالى: {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}.

3 في الآية دليل على إبطال شفاعة الأصنام لعابديها، والأولياء للمشركين ممن يذبحون لهم وينذرون كما فيها إبطال لزعم أهل الكتاب القائلين نحن أبناء الله وأحباؤه فسوف يشفع لنا الأب، إذ شرط صحة الشفاعة يوم القيامة أن يأذن الله لمن يشفع وأن يرضى بنجاة المشفوع له.

4 روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم...} الآية.

5 في الآية دليل على عدم جواز تعظيم الرجل لجاهه وثوبه وعدم احتقار الرجل لخموله وراثته ثوبه.

6 الفتنة: الاختبار أي: عاملناهم معاملة المختبر لهم فأغنينا بعضا وأفقروا بعضا واللام في قوله تعالى: {ليقولوا} هي لام العاقبة أي: ليقول أغنياء وأشرف المشركين مشيرين إلى فقراء المؤمنين: هؤلاء من الله عليهم بأن وفقهم لإصابة الحق دوننا، ونحن الرؤساء وهم العبيد.

(2/64)

أي هكذا ابتلينا بعضهم ببعض هذا غني وذاك فقير، وهذا ضيع وذاك شريف، وهذا قوي وذاك ضعيف ليؤول الأمر ويقول الأغنياء الشرفاء للفقراء الضعفاء من المؤمنين استخفافاً بهم واحتقاراً لهم: هؤلاء الذين من الله عليهم بيننا بالهداية والرشد قال تعالى: {أليس الله بأعلم بالشاكرين}. بلى فالشاكرون هم المستحقون لإنعام الله بكل خير وأما الكافرون فلا يعطون ولا يزدون لكفرهم النعم، وعدم شكرهم لها.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تقرير بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم.
 - 2- تقرير مبدأ أن الرسول لا يعلم الغيب، وأنه لا يتصرف في شيء من الكون.
 - 3- نفي مساواة المؤمن والكافر إذ المؤمن مبصر والكافر أعمى.
 - 4- استحباب مجالسة أهل الفاقة وأهل التقوى والإيمان.
 - 5- بيان الحكمة في وجود أغنياء وفقراء وأشرف ووضعاء، وأقوياء وضعفاء وهي الاختبار.
 - 6- الشاكرون مستوجبون لزيادة النعم، والكافرون مستوجبون لنقصانها وذهابها.
- وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعُ

1 قرئ {فأنه غفور} بالفتح أنه وقرئ بكسرها على الاستئناف، أما على الفتح ففي توجيهه رأيان، الأول أن يكون في موضع رفع على الابتداء كأنه قال: فله أنه غفور رحيم أي: فله غفران الله، والثاني: أن يضم مبتدأ تكون أن وما عملت فيه خبره، فأمره غفران الله له، وهذا الأخير أولى من الأول.

(2/65)

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (58) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

شرح الكلمات:

سلام عليكم: دعاء بالسلامة من كل مكروه، وهي تحية المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة في الجنة.
كتب ربكم على نفسه الرحمة: أي أوجب الرحمة على نفسه فلذا لا يعذب إلا بعد الإنذار، ويقبل توبة من تاب.

سوءاً: أي ذنباً أساء به إلى نفسه.

بجهالة: الجهالة أنواع منها: عدم تقدير عاقبة الذنب، ونسيان عظمة الرب.

تستبين: تتضح وتظهر.

نهيت: أي نهاني ربي أي زجرني عن عبادة أصنامكم.

تدعون : تعبدون .

بينة : البينة: الحجة الواضحة العقلية الموجبة للحكم بالفعل أو الترك .

إن الحكم : أي ما الحكم إلا لله .

يقص الحق : أي يخبر بالحق .

خير الفاصلين : الفصل في الشيء: القضاء والحكم فيه، والفاصل في القضية: الحاكم فيها ومنهياها .
معنى الآيات:

يرشد الله تبارك وتعالى رسوله إلى الطريقة المثلى في الدعوة إليه، بعد أن نهاء عن الطريقة التي هم بها وهي طرد المؤمنين من مجلسه ليجلس الكافرون رجاء هدايتهم فقال تعالى:

(2/66)

{وإذا جاءك الذين 1 يؤمنون بآياتنا} أي يصدقون بنبوتك وكتابك وما جئت به من الدين الحق فهؤلاء رحب بهم وقل 2 سلام عليكم ومهما كانت ذنوبهم التي ارتكبوها، وأخبرهم أن ربهم تعالى قد كتب 3 على نفسه الرحمة فلا يخافون ذنوبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى ربهم بالإيمان به وتوطين النفس على طاعته، {أنه من عمل منكم سوءاً 4 بجهالة ثم تاب من بعده} أي أقلع عن الذنب نادماً مستغفراً، وأصلح نفسه بالصلوات فإن ربه غفور رحيم فسيغفر له ويرحمه . هكذا يستقبل كل عبد جاء مؤمناً مستفتياً يسأل عن طريق النجاة يستقبل بالبشر والطلاقة والتحية والسلام لا بالعنف والتفريع والتوبيخ . هذا ما دلت عليه الآية الأولى (54) أما الآية الثانية (55) فإنه تعالى بعد أن نهى رسوله عن الاستجابة لاقتراح المشركين المتكبرين، وعن طرد المؤمنين وعن حكمته في وجود أغنياء وفقراء وأقوياء وضعفاء في الناس وعن الطريقة المثلى في استقبال التائبين المستفتين بعد هذا كله قال تعالى: {وكذلك نفضل الآيات} أي مثل هذا التفصيل نفضل الآيات مستقبلاً لبيان الهداية الإلهية ليهتدي من أراد الله له الهداية وقد طلبها ورجب فيها، ولتستبين 5 وتتضح سبيل المجرمين، فلا تُتبع ويُنهى عن اتباعها، لأنها طريق الهلاك والدمار . هذا ما أفادته الآية الثانية أما الآيات الثالثة والرابعة والخامسة في هذا السياق فهي تحمل الهداية الإلهية للرسول صلى الله عليه وسلم في طريق دعوته إلى ربه فكل آية من تلك الآيات مفتحة بكلمة (قل) أي قل أيها الرسول لأولئك المشركين الذين يدعونك إلى موافقتهم على شركهم وعبادة غيري معهم {أني نهيت} أي نهاني ربي أن أعبد ما تدعون 6 من الأصنام والأوثان، وقل لهم: لا أتبع أهواءكم في عبادة غير الله تعالى الموروثة لكم عن آبائكم الضلال مثلكم إني إن فعلت أكون قد

1 روي عن الفضل بن عباس قول: جاء قوم من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إننا

- قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم فنزلت الآية، وروي عن أنس بن مالك مثله.
- 2 أي: سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: "الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام".
- 3 كتب: بمعنى أوجب ذلك على نفسه بفضلته ورحمته، وكتبه في اللوح المحفوظ فالكتابة على بابها إذاً.
- 4 {سوء} أي خطيئة من غير إرادة تحدي شرع الله وانتهاك حرمانه وإنما ضعفاً منه وعدم قدرة على التغلب على طبعه وشهوته وميل هواه.
- 5 قرىء: {ليستين} بالياء والتاء فقراءة التاء يكون الخطاب فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي: ولتستين يا رسولنا سبيل المجرمين، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته، وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين وقراءة الياء ليستين سبيل المجرمين، فسبيل مرفوع على الفاعلية.
- 6 أطلق لفظ الدعاء وأريد به العبادة، لأنّ الدعاء هو العبادة ومخها أيضاً لما في الدعاء من مظاهر العبودية لله تعالى ومظاهر أسمائه وصفاته عز وجل.

(2/67)

ضللت 1 إذاً وما أنا من المهتدين إلى سبل الفوز والفلاح. وقل: {إني على بينة من ربي} أي على علم يقيني من وجوب الإيمان بالله ووجوب توحيده وطاعته ووجوب الدعوة إلى ذلك، وكذبتم أنتم بهذا كله وبالعباد إذ أنذرتكم به وأنا ما عندي ما تستعجلون به من العذاب، ولو كان عندي لحل بكم وانتهى أمركم، ولكن الحكم لله ليس لأحد غيره وقد قص عليكم أخبار السابقين المطالبين 2 رسلهم بالعذاب ورأيتم كيف حل بهم العذاب، {والله يقص 3 الحق وهو خير الفاصلين} فإذا أراد أن يحكم بيني وبينكم فإنه نعم الحكم والعدل وهو خير الحاكمين. وقل لهم يا رسولنا {لو أن عندي ما تستعجلون به} من العذاب {لقضي الأمر بيني وبينكم} بتدمير الظالم منا، {والله أعلم بالظالمين}، ولا يهلك غيرهم لأنهم المستوجبون للعذاب بظلمهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الرفق والتلطف بالمستفتين وعدم الشدة والغلظة عليهم.
- 2- إتباع أهواء أهل الأهواء والباطل يضل ويهلك.
- 3- على المسلم الداعي إلى ربه أن يكون على علم كاف بالله تعالى وبتوحيده ووعده ووعيده وأحكام شرعه.

4- وجوب الصبر والتحمل مما يلقاه الداعي من أهل الزيغ والضلال من الاقتراحات الفاسدة.
وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59)

1 قرئ {ضَلَّلْتِ} بفتح اللام وكسرها، وهما لغتان، فضللت: بكسر اللام لغة تميم، وافتح لغة الحجاز،
وهي أفصح.

2 إذ أكثر أم الوصل قالوا لرسلم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قالتها عاد لنبيها هود
وقالها قوم نوح لنوح عليه السلام.

3 أي: يقص القصص الحق، قال القرطبي بهذا استدلال من منع المجاز في القرآن، وقرئ نقض
بالضاد من القضاء ويدل عليه قوله بعد: {وهو خير الفاصلين} الفصل: القضاء والحكم.

(2/68)

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ
الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ
الْحَاسِبِينَ (62)

شرح الكلمات:

مفاتيح الغيب: المفاتيح: جمع 1 مفتاح بفتح الميم أي المخزن.

البر والبحر: البر ضد البحر، وهو اليابس من الأرض، والبحر ما يغمره الماء منها.

ورقة: واحدة الورق والورق للشجر كالسعف للنخل.

حبة: واحدة الحب من ذرة أو بر أو شعير أو غيرها.

ولا رطب: الرطب ضد اليابس من كل شيء.

في كتاب مبين: أي في اللوح المحفوظ كتاب المقادير.

يتوفاكم بالليل: أي ينيمكم باستتار الأرواح وحجبها عن الحياة كالموت.

جرحتم: أي كسبتم بجوارحكم من خير وشر.

ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى: أي يوقظكم لتواصلوا العمل إلى نهاية الأجل المسمى لكل.

حفظه: الكرام الكاتبين.

رسلنا: ملك الموت وأعوانه.

1 المفتاح والجمع مفاتيح، والمفتاح: عبارة عن كل ما يحل مغلقاً محسوساً كالقفل للباب، أو معقولاً كالنظر. وفي الحديث: "إنّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر".

(2/69)

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في نهاية الآية السابقة أنه أعلم بالظالمين المستحقين للعقوبة أخبر عز وجل أن الأمر كما قال ودليل ذلك أنه عالم الغيب والشهادة، إذ {عنده مفاتيح الغيب 1} أي خزائن الغيب وهو الغيب الذي استأثر بعلمه فلا يعلمه سواه 2 ويعلم ما في البر والبحر وهذا من عالم الشهادة، إضافة إلى ذلك أن كل شيء كان أو يكون من أحداث العالم قد حواه كتاب له اسمه اللوح المحفوظ، وهو ما دل عليه قوله: {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب 3 ولا يابس إلا في كتاب مبين} وما كتبه قبل وجوده فقد علمه إذاً فهو عالم الغيب والشهادة أحصى كل شيء عدداً وأحاط بكل شيء علماً، فكيف إذا لا يعبد ولا يرغب فيه ولا يرهب منه وأين هو في كماله وجلاله من أولئك الأموات من أصنام وأوثان؟؟ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (59) وأما الآية الثانية (65) فقد قررت ما دلت عليه الآية قبلها من قدرة الله وعلمه وحكمته فقال تعالى مخبراً عن نفسه {وهو الذي يتوفاكم 4 بالليل} حال نومكم إذ روح النائم تقبض ما دام نائماً ثم ترسل إليه عند إرادة الله بعثه من نومه أي يقظته، وقوله {ثم يبعثكم فيه} أي في النهار المقابل لليل، وعلة هذا أن يقضى ويتم الأجل الذي حدده تعالى للإنسان يعيشه وهو مدة عمره طال أو قصرت، وهو معنى قوله {ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى} وقوله تعالى {ثم إليه مرجعكم} لا محالة وذلك بعد نهاية الأجل، {ثم ينبئكم} بعلمه {بما كنتم تعملون} من خير وشر ويجازيكم بذلك وهو خير الفاصلين. وفي الآية الثالثة يخبر تعالى عن نفسه أيضاً تقريراً لعظيم سلطانه الموجب له بالعبادة والرغبة والرهبة إذ قال مخبراً عن نفسه {وهو القاهر فوق عباده}، نو القهر التام

1 روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "من أتى عَرَّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة" والعَرَّاف الحازي والمنجم الذي يدعي علم الغيب، والمهنة: العرافة، وصاحبها عَرَّاف. وفي مسلم عن عائشة أنها قالت سألت رسول الله أناس عن الكهانة فقال: "ليست بشيء". فقالوا يا رسول الله انهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة الحق يخطفها

- الجني فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة".
- 2 روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: {قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله}.
- 3 يطلق لفظ الرطب على الماء وما ينبت والحَيّ، ولسان المؤمن، واليابس على ضد ذلك كالياس والتراب وما لا ينبت، ولسان الكافر لأنه لا يذكر الله تعالى.
- 4 التوفي: استيفاء الشيء، وتوفي الميت: استوفى عدد أيام عمره، والنائم كأنه استوفى حركاته في اليقظة، والوفاة: الموت، واستوفى دينه: أخذه كاملاً.

(2/70)

والسلطان الكامل على الخلق أجمعين {ويرسل عليكم} أيها الناس {حفظة1} بالليل والنهار يكتبون أعمالكم وتحفظ لكم لتجزوا بها {حتى إذا جاء أحدكم الموت} لانقضاء أجله {توفته رسلنا} ملك الموت وأعوانه، {وهم لا يفرطون} أي لا يضيعون ولا يقصرون وأخيراً يقول تعالى مخبراً بالأمر العظيم إنه الوقوف بين يدي الرب تعالى المولى الحق الذي يجب أن يعبد دون سواه، وقد كفره أكثر الناس وعصوه، وفسقوا عن أمره وتركوا طاعته وأدهى من ذلك عبدوا غيره من مخلوقاته فكيف يكون حسابهم والحكم عليهم؟ والله يقول: {ثم ردا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين2}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان مظاهر القدرة والعلم والحكمة لله تعالى.
- 2- استنثار الله تعالى بعلم الغيب.
- 3- كتاب المقادير حوى كل شيء حتى سقوط الورقة من الشجرة وعلم الله بذلك.
- 4- صحة إطلاق الوفاة على النوم، وبهذا فسر قوله تعالى لعيسى إني متوفيك.
- 5 - تقرير مبدأ المعاد والحساب والجزاء.

قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْجَاتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ

1 الحفظة : جمع حافظ كالكتبة جمع كاتب، والمراد هنا: الملائكة الكرام الكاتبون وهم أربعة: ملكان

بالليل، وملكان بالنهار، وخامس لا يفارق أبداً.
2 {أسرع الحاسبين} أي: لا يحتاج إلى فكرة وروية ولا عقد يد.

(71/2)

بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْتَأْذِنَ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لَّكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)
شرح الكلمات:

ينجيكم: يخلصكم مما تخافون.

تضرعاً وخفية: التضرع: الدعاء بتذلل وخفية بدون جهر بالدعاء.
من هذه: أي الهلكة.

من الشاكرين: المعترفين بفضلك الحامدين لك على فعلك.

كرب: الكرب: الشدة الموجبة للحزن وألم الجسم والنفس.

تشركون: أي به تعالى بدعائهم أصنامهم وتقربهم إليها بالذبائح.
من فوقكم: كالصواعق ونحوها.

من تحت أرجلكم: كالزلازل والخسف ونحوها.

أو يلبسكم شيعاً: أي يخط عليكم أمركم فتختلفون شيعاً وأحزاباً.

ويذيق بعضكم بأس بعض: أي يقتل بعضكم بعضاً فتذيق كل طائفة الأخرى ألم الحرب.
يفقهون: معاني ما نقول لهم.

وكذب به قومك: أي قريش.

الوكيل: صن يوكل إليه الشيء أو الأمر يدبره.

لكل نبأ مستقر: المستقر: موضع الاستقرار والنبأ: الخبر العظيم.
معنى الآيات:

ما زال السياق مع المشركين العادلين بريهم فيقول الله تعالى لرسوله قل لهم: لمن ينجيكم من ظلمات البر والبحر { إذا ضل أحدكم طريقه في الصحراء ودخل عليه ظلام الليل، أو

1 ظلمات البر والبحر: كناية عن شتاتهما، يقال: يوم مظلم أي: شديد، ونقول العرب: يوم ذو كواكب وأنشد سيبويه.

بني أسد هل تعلمون بلادنا ... إذا كان يوم ذو كواكب أشنعاً

وجمع الظلمات لتعدها إذ هي ظلمة البر وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغيم.

ركب البحر فغشيته ظلمة السحاب والليل والبحر واضطربت نفسه من الخوف يدعو من؟ إنه يدعو الله وحده لعلمه أنه لا ينجيه إلا هو يدعو ويتضرع إليه جهراً وسراً قائلاً وعزتك لئن أنجيتنا من هذه الهلكة التي حاقت بنا لنكونن من الشاكرين لك. ثم إذا نجاكم استجابة لدعائكم وأمنتكم المخاوف عدتم فجأة إلى الشرك به بدعاء غيره. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (63) {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين}، وفي الآية الثانية (64) يأمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم جواباً لقوله من ينجيكم: {الله ينجيكم منها 1} أي من تلك الحالة التي اضطربت لها نفوسكم وخشيتم فيها الهلاك وينجيكم أيضاً من كل كرب 2، ثم مع هذا يا للعجب أنتم تشركون 3 به تعالى أصنامكم. قل لهم يا رسولنا أن الله الذي ينجيكم من كل كرب هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من السماء فوقكم 4، أو من الأرض تحتكم، أو يخلط عليكم أمركم فتتنازعوا فتحتلفوا فتصبحوا شيعاً وطوائف وفاقاً متعادية يقتل بعضكم بعضاً، فيذيق بعضكم بأس بعض، ثم قال الله تعالى لرسوله انظر يا رسولنا كيف فصل الآيات بتنوع الكلام وتوضيح معانيه رجاء أن يفقهوا معنى ما نقول لهم فيهدتوا إلى الحق فيؤمنوا بالله وحده ويؤمنوا ببقائه ورسوله وما جاء به فيكملوا ويسعدوا وفي الآية (65) يخبر تعالى بواقع القوم: أنهم كذبوا بهذا القرآن وما أخبرهم به من الوعيد الشديد وهو الحق الذي ليس بباطل ولا يأتيه الباطل، ويأمر رسوله أن يقول لهم بعد تكذيبهم له {لست عليكم بوكيل} فأخاف من تبعة عدم إيمانكم وتوحيدكم {لكل نبأ مستقر 5} وقد أنبأتكم بالعذاب على تكذيبكم وشرككم {وسوف تعلمون} ذلك يوم يحل بكم وقد استقر نبأه يوم بدر والحمد لله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- لا برهان أعظم على بطلان الشرك من أن المشركين يخلصون الدعاء لله تعالى في الشدة.

1 قرئ: {ينجيكم} بالتحديد، و {ينجيكم} بالتخفيف، والمعنى واحد والفعل: يقال نجا من كذا وأنجاه من كذا.

2 الكرب: الغم يأخذ النفس ويقال فيه: رجل مكروب، والكربة مأخوذة منه.

3 هذه الجملة تحمل لهم التقريع والتوبيخ أي: ومع هذا الإنجاء الذي يحصل لكم من ربكم إذا أنتم مشركون يا للوقاحة والدناءة، وإلا فهم مشركون من قبل.

- 4 من فوقكم كالحجارة، والطوفان والصواعق ومن تحتكم كالخسف والرجفة.
5 {لكل نبأ} أي: خبر مستقر أي وقت يقع فيه مضمونه فلا يتقدم ولا يتأخر.

(2/73)

- 2- لا منجى من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلا الله سبحانه وتعالى.
3- التحذير من الاختلاف المفضي 1 إلى الانقسام والتكتل.
4- {لكل نبأ مستقر} . أجري مجرى المثل ، وكذا {سوف تعلمون} .
وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

شرح الكلمات:

يخوضون في آياتنا : يتكلمون في القرآن طعناً فيه ونقداً له ولما جاء فيه.
فأعرض عنهم : قم محتجاً على صنيعهم الباطل، غير ملتفت إليهم.
بعد الذكرى : أي بعد التذکر.

1 يحسن ذكر شاهد عظيم على معنى هذه الآية: {ويلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض} روى مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله زوى لي الأرض (أي جمعها) فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال لي يا محمد: إنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإنني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضاً".

(2/74)

ولكن ذكرى : أي موعظة لهم.
وذو الذين : أي اترك الكافرين.
لعباً ولهوا : كونه لعباً لأنه لا يجنون منه فائدة قط، وكونه لهواً لأنهم يتلهون به وشغلهم عن الدين
الحق الذي يكملهم ويسعدهم.
أن تبسل نفس: أي تسلم فتؤخذ فتحبس في جهنم.
كل عدل: العدل هنا: الفداء.
أبسلو: حبسوا في جهنم بما كسبوا من الشرك والمعاصي.
من حميم : الحميم الماء الشديد الحرارة الذي لا يطاق.
وعذاب أليم: أي شديد الألم والإيذاء وهو عذاب النار.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث مع أولئك العادلين المكذبين في! قول الله تعالى لرسوله {وإذا رأيت الذين
يخوضون في آياتنا} يستهزئون بالآيات القرآنية ويسخرون مما دلت عليه من التوحيد والعذاب
للكافرين {فأعرض عنهم} أي فصد عنهم وانصرف {حتى يخوضوا في حديث غيره} وإن أنساك
الشیطان نهينا هذا فجلست ثم ذكرت فقم ولا تقعد مع القوم الظالمين، وقوله تعالى: {وما على الذين
يتقون من حسابهم من شيء} أي وليس على المؤمنين المتقين أنت وأصحابك يا رسولنا من تبعة ولا
مسئولية ولكن إذا خاضوا في الباطل فقوموا ليكون ذلك ذكرى لهم فيكفون عن الخوض في آيات الله
تعالى. وهذا كان بمكة قبل قوة الإسلام، ونزل بالمدينة النهي عن الجلوس مع الكافرين والمنافقين إذا
خاضوا في آيات الله ومن جلس معهم يكون مثلهم وهو أمر عظيم قال تعالى: {وقد نزل عليكم في
الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره
إنكم إذا مثلهم} هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية.

1 الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأمتة داخلة معه في هذا فمتى حصل لمؤمن أو
مؤمنة مثل هذا تعين عليه أن يقوم احتجاجاً وعدم رضا، وفي الآية دليل على أن مجالسة أهل
الكبائر لا تجوز لاسيما في حال تلبسهم بالكبيرة، وهذه أقوال السلف في هذه المسألة قال ابن خويز
مناد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر مؤمناً كان أو كافراً قال القرطبي: منع
أصحابنا الدخول على أرض العدو ودخول كنائسهم ومجالسة الكفار وأهل البدع وألا تعتقد مودتهم
ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم. قال الفضيل بن عياض من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله
وأخرج نور الإيمان من قلبه.

أما الثالثة (70) فإن الله تعالى يأمر رسوله أن يترك الذين اتخذوا دينهم الحق الذي جاءهم به رسول الحق لعباً ولهواً يلعبون به أو يسخرون منه ويستهزئون به وغرتهم الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾ اتركهم فلا يهتك أمرهم وفي هذا تهديد لهم على ما هم عليه من الكفر والسخرية والاستهزاء، وقد أخبر تعالى في سورة الحجر أنه كفاه أمرهم إذ قال ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ ، وقوله تعالى ﴿وذكر به﴾ أي بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ أي كي لا تبسل 2 ﴿بما كسبت﴾ أي كي لا تسلم نفس للعذاب بما كسبت من الشرك والمعاصي، ﴿ليس لها﴾ يوم تسلم للعذاب ﴿من دون الله ولي﴾ يتولى خلاصها، ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لها فينجيها من عذاب النار ﴿وإن تعدل كل 3 عدل لا يؤخذ منها﴾ أي وإن تقدم ما أمكنها حتى ولو كان ملء الأرض ذهباً فداء لها لما نفعها ذلك ولما نجت من النار، ثم قال تعالى: ﴿أولئك الذين أبلسوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم﴾ أبلسوا: أسلموا وأخذوا إلى جهنم بما كسبوا من الذنوب والآثام لهم في جهنم شراب من ماء حميم حار وعذاب موجع اليم. وذلك بسبب كفرهم بالله وآياته ورسوله حيث نتج عن ذلك خبث أرواحهم فما أصبح يلائم وصفهم إلا عذاب النار قال تعالى من هذه السورة سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الجلوس في مجالس يسخر فيها من الإسلام وشرائعه وأحكامه وأهله.
- 2- وجوب القيام احتجاجاً من أي مجلس يعصى فيه الله ورسوله.
- 3- مشروعية الإعراض في حال الضعف عن المستهزئين بالإسلام الذين غرتهم الحياة الدنيا من أهل القوة والسلطان وحسب المؤمن أن يعرض عنهم فلا يفرح بهم ولا يضحك لهم.

1 اختلف في الدين الذي اتخذه المشركون لهواً ولعباً، والظاهر أنه الإسلام الذي جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم به إذ لا دين لله سواه وبعث الله تعالى إليهم رسوله به فهو دينهم ومع الأسف رفضوه واتخذوه لهواً ولعباً يسخرون ويستهزئوا به.

2 قال القرطبي تبسل أي ترتحن وتسلم للهلكة عن مجاهد وقتادة والحسن وعكرمة والإبسال تسليم المرء للهلاك. قال الشاعر:

وابسالي بنيّ بغير جرم ... بعوناه ولا بدم مراق

ومعنى بعوناه جنيناه. والشاهد في قوله وابسالي بني حيث أسلم بنيه للهلاك.

3 العدل الفداء أو الفدية.

4- وجوب التذكير بالقرآن وخاصة المؤمنين الذين يرجى توبتهم.

5- من مات على كفره لم ينج من النار إذ لا يجد فداء ولا شافعياً يخلصه من النار بحال.
قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ انْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

شرح الكلمات:

أدعوا : أي نعبد.

ما لا ينفعنا ولا يضرنا: أي ما لا يقدر على نفعنا ولا على ضررنا لو أراد ذلك لنا.

ونرد على أعقابنا : أي نرجع كفاراً بعد أن كنا مؤمنين.

استهوته الشياطين : أي أضلته في الأرض فهوى فيها تائه حيران لا يدري أين يذهب.

واتقوه: أي اتقوا الله بتوحيده في عبادته وترك معصيته.

ويوم يقول كن فيكون : أي في يوم القيامة.

الصور : بوق كالقرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

الحكيم: في أفعاله الخبير بأحوال عباده.

(2/77)

معنى الآيات:

يدل السياق على أن عرضاً من المشركين كان لبعض المؤمنين لأن يعبدوا معهم آلهتهم فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم عرضهم الرخيص منكراً عليهم ذلك أشد الإنكار {قل أدعوا من دون الله، الاستفهام للإنكار، {ما لا ينفعنا} إن عبدناه، {ولا يضرنا} إن تركنا عبادته وبذلك نصبح وقد رددنا على أعقابنا 1 من التوحيد إلى الشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإيمان به ومعرفته ومعرفة دينه، ويكون حالنا كحال من أضلته الشياطين في الصحراء فتاه فيها فلا يدري أين يذهب ولا أين يجيء، {وله أصحاب يدعونه إلى الهدى انتنا} وهو لا يقدر على إجابتهم ولا الإتيان إليهم لشدة ما فعل استهواء 2 الشياطين في عقله. ثم أمره أن يقول أيضاً قل إن الهدى الحق الذي لا ضلال ولا خسران فيه هدى الله الذي هدانا إليه ألا إنه الإسلام، وقد أمرنا ربنا أن نسلم 3 له قلوبنا ووجوهنا لأنه رب

العالمين فأسلمنا، كما أمرنا أن نقيم الصلاة فأقمناها وأن نتقيه فاتقيناها وأعلمنا أننا سنحشر إليه يوم القيامة فصدقناه في ذلك ثم هدانا فلن نرجع بعد إلى الضلالة. هذا ما تضمنته الآيتان الأولى والثانية أما الثالثة (73) فقد تضمنت تمجيد الرب بذكر مظاهر قدرته وعلمه وعدله فقال تعالى: {وهو} أي الله رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له فأسلمنا {الذي خلق السموات والأرض بالحق} فلم يخلقهما عبثاً وباطلاً بل خلقهما ليذكر فيهما ويشكر، ويوم يقول لما أراد إيجاداً أو إعدامه أو تبديله كن فهو يكون كما أراد في قوله الحق دائماً {وله الملك يوم 5 ينفخ في الصور} 6 نفخة الفناء فلا يبقى شيء إلا هو الواحد القهار فيقول جل ذكره {لمن الملك اليوم} فلا

- 1 أي نرجع من الهدى إلى الضلال. والأعقاب جمع عقب وهي مؤنثه فتصغر على عقبه. ويقال رجع على عقبه إذا أدبر وأصابه من العاقبة والعقبى من ذلك عقب الرجل ومنه العقوبة لأنها تالية للترتيب وتكون نسبية.
- 2 استهوته بمعنى استغوته وزينت له هواه ودعته إليه فهو إذا من هوى يهوى من هوى النفس وليس هو يهوى إلى الشيء إذا أسرع إليه والحيران هو الذي لا يهتدي لجهله.
- 3 الآية وأمرنا لنسلم ومعناها أمرنا بأن نسلم نقول العرب أمرتك لتذهب وبأن تذهب بمعنى واحد واللامات أربع: لام الجر، لام الابتداء، لام التوكيد، ولام الأمر.
- 4 قال القرطبي: ومعنى {بالحق} أي بكلمة الحق يعني قوله {كن} وهو كما قال إلا أن القول أن بالحق بمعنى بحكمة أي لم يخلقها لهواً أو لعباً هذا أوضح وأهم كما هو في التفسير.
- 5 من أخطاء الناس قول من قال الصور جمع صورة ومعناه ينفخ في الصور فتتم الحياة وهذا يتنافى مع الأحاديث الصحاح ومع سياق الآية. إذ قال ثم نفخ فيه أخرى أي مرة أخرى ولم يقل فيها أي في الصور فأين معنى الصورة هنا؟
- 6 الصور القرن والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام والمراد بالنفخة هنا نفخة الفناء والنفخة التالية لها نفخة البعث وهناك نفخة الصعقة وهم في ساحة القضاء ونفخة رابعة وهي التي يقومون فيها لفصل القضاء.

(2/78)

يجيبه أحد فيجيب نفسه بنفسه قائلاً: {الله الواحد القهار} {عالم الغيب والشهادة} أي يعلم ما غاب في خزائن الغيب عن كل أحد، ويعلم الشهادة والحضور لا يخفي عليه أحد وهو الحكيم في تصرفاته وسائر أفعاله وتدابيره لمخلوقاته الخبير ببواطن الأمور وظواهرها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء بهذا كان المعبود الحق الذي لا يجوز أن يعبد سواه بأي عبادة من العبادات التي شرعها

سبحانه وتعالى لِيُعَبِّدَ بِهَا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- قبح الردة وسوء عاقبتها.
- 2- حرمة إجابة أهل الباطل لما يدعون إليه من الباطل.
- 3- لا هدى إلا هدى الله تعالى أي لا دين إلا الإسلام.
- 4- وجوب الإسلام لله تعالى وإقامة الصلاة واتقاء الله تعالى بفعل المأمور وترك المنهي.
- 5- تقرير المعاد والحساب والجزاء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)

(2/79)

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)
شرح الكلمات:

إبراهيم: هو إبراهيم خليل الرحمن بن آزر من أولاد سام بن نوح عليه السلام.

أصناماً: جمع صنم تمثال من حجر.

آلهة: جمع إله بمعنى المعبود.

في ضلال: عدول عن طريق الحق.

ملكوت: ملك.

جن عليه الليل: أظلم.

فلما أفل: أي غاب.

بازعاً: طالعاً والبرزوغ الطلوع.

الضالين: العادلين عن طريق الحق إلى طريق الباطل.

وجهت وجهي: أقبلت بقلبي على ربي وأعرضت عما سواه.

حنيفاً: مائلاً عن الضلال إلى الهدى.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان الهدى للعادلين بريهم أصناماً يعبدونها لعلمهم يهتدون فقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ} 1 أي واذكر لهم قول إبراهيم لأبيه آزر: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} 2 أي أتجعل تماثيل من حجارة آلهة. أرباباً تعبدها أنت وقومك {إِنِّي أَرَاكَ} يا أبت {وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 3 عن طريق الحق الذي ينجو ويفلح سالكه هذا ما دلت عليه الآية الأولى (74) أما الآية الثانية (75) فإن الله تعالى يقول: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ} 4

- 1 قيل لآزر اسم آخر هو تارح فيكون كيعقوب له اسم يعقوب وإسرائيل أما من قال آزر عمه فخلط وخبط حملهم عليه عدم اطاعتهم أن يكون والد رسول في النار وهو غاية الجهل بأسرار الشرع وحكمه وآزر بالرفع على تقدير النداء أي يا آزر.
- 2 الاستفهام للاينكار وأصناماً مفعول أول وآلهة مفعول ثان لأن اتخذ تتصب مفعولين كعلم.
- 3 كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصورون لها أصناماً وهي ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم وكانوا يعبدونها توسلاً وتقرباً بها إلى الله تعالى ولذا فهم مشركون وليسوا ملاحدة.
- 4 نُري هو بمعنى أرينا الماضي.

(2/80)

ملكوت 1 السموات والأرض أي كما أريناه الحق في بطلان عبادة أبيه للأصنام نريه أيضاً مظاهر قدرتنا وعلما وحكمتنا الموجبة لألوهيتنا في ملك السموات والأرض، ليكون بذلك من جملة الموقنين، واليقين من أعلى مراتب الإيمان. هذا ما دلت عليه الآية الثانية وفي الثالثة (76) فصل الله تعالى ما أجمله في قوله {نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فقال تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} أي أظلم {رَأَى كَوْكَبًا} قد يكون الزهرة {قَالَ هَذَا رَبِّي} 2 فلما أفل {أَي غَابَ الْكَوْكَبُ} قال لا أحب الآفلين، {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ} 3 بازغاً {أَي طَالَعًا} قال هذا ربي، فلما أفل {أَي غَابَ} قال لئن لم يهدهني ربي لأكونن من القوم الضالين، في معرفة ربهم الحق. {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً} أي طالعة {قَالَ هَذَا رَبِّي} 4 هذا أكبر {يعني من الكوكب والقمر} فلما أفلت {5} أي غابت بدخول الليل {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}. هكذا واجه إبراهيم قومه عبدة الكواكب التي تمثلها أصنام منحوتة واجههم بالحقيقة التي أراد أن يصل إليها معهم وهي إبطال عبادة غير الله تعالى فقال {إِنِّي وَجْهٌ وَجْهِي لِلذِّي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا} لا كما توجهون أنتم وجوهكم لأصنام نحتوها بأيديكم وعبدتموها بأهوائكم لا بأمر ربكم، وأعلن براءته في وضوح وصراحة: فقال: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 6.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- إنكار الشرك على أهله، وعدم إقرارهم ولو كانوا أقرب الناس إلى المرء.
- 2- فضل الله تعالى وتفضله على من يشاء بالهداية الموصلة إلى أعلى درجاتها.

- 1 الملوك الملك زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة في الصفة، ومثله الرغبوت والرهبوت والجبروت من الرغبة والرهبه والجبر قيل كشف له تعالى عن السموات والأرض حتى رأى العرش وأسفل الأرضين.
- 2 قوله هذا ربي في المواضع كلها في السياق ليس هو على ظاهره أبداً. بل هو تدرج بهم إلى الوصول إلى الحقيقة وهو إنه لا إله إلا الله فقوله: هذا ربي أي على قولكم أو زعمكم وهو كقوله تعالى أين شركائي كما زعمتم أو على قولكم وإلا فالله تعالى يعلم أنه لا شريك له أبداً أو هو على حذف حرف الاستفهام أي أهو ربي؟ نحو أفان مت فهم الخالدون أي أفهم الخالدون؟.
- 3 بزغ القمر إذا بدأ في الطلوع وأصل البزغ الشق فالقمر يشق الظلام بنوره ومن بزغ البيطار الدابة إذا أسال دمها. ومنه البزاع وهو ما يسيل من الفم.
- 4 هذا ربي أي هذا الطالع ربي وإلا فالشمس مؤنثة وقد قال فيها بازغة.
- 5 أفل يأفل أفولاً إذا غاب.
- 6 في أنا ثلاث لغات أن وأنه، وأنا وهي متعينة في الوقف (أنا).

(2/81)

- 3- مطلب اليقين وأنه من أشرف المطالب وأعزها، ويتم بالتفكر والنظر في الآيات.
 - 4- الاستدلال بالحدوث على وجود الصانع الحكيم وهو الله عز وجل.
 - 5- سنة التدرج في التربية والتعليم.
 - 6- وجوب البراءة من الشرك وأهله.
- وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أُنْحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)
- شرح الكلمات:

حاجه قومه : جادلوه وحاولوا غلبة بالحجة، والحجة : البينة والدليل القوي.
أُنْحَاجُونِي فِي اللَّهِ : أتجادلونني في توحيد الله وقد هداني إليه، فكيف أتركه وأنا منه على بينة.
سلطاناً : حجة وبرهاناً.

الأمن 1 : خلاف الخوف.

ولم يلبسوا إيمانهم بظلم: أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

معنى الآيات:

لما أقام إبراهيم الدليل على بطلان عبادة غير الله تعالى وتبرأ من الشرك والمشركين حاجه قومه في ذلك فقال منكراً عليهم ذلك: {أتحاجوني 2 في الله وقد هدان} أي كيف يصح منكم جدال لي في توحيد الله وعبادته، وترك عبادة ما سواه من الآلهة المدعاة وهي لم تخلق شيئاً ولم تنفع ولم تضر، ومع هذا فقد هداني إلى معرفته وتوحيده وأصبحت على بينة منه سبحانه وتعالى، هذا ما دل عليه قوله تعالى: {وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان}. ولا شك أنهم لما تبرأ من آلهتهم خوفوه بها وذكروا له أنها قد تصيبه بمكروه 3 فرد ذلك عليهم قائلاً: {ولا أخاف ما تشركون به} من آلهة أن تصيبني بأذى، {إلا أن يشاء ربي 4 شيئاً} فإنه يكون قطعاً ففد {وسع ربي كل شيء علماً}، ثم وبخهم قائلاً {أفلا تتذكرون} فتذكروا ما أنتم عليه هو الباطل، وأن ما أدعوكم إليه هو الحق، ثم رد القول عليهم قائلاً {وكيف أخاف ما أشركتم} وهي أصنام جامدة لا تنفع ولا تضر لعجزها وحقارتها وضعفها، ولا تخافون أنتم الرب الحق الله الذي لا اله إلا هو المحيي المميت الفعال لما يريد، وقد أشركتم به أصناماً ما أنزل عليكم في عبادتها حجة ولا برهاناً تحتجون به على عبادتها معه سبحانه وتعالى. ثم قال لهم استخلاصاً للحجة وانتزاعاً لها منهم فأى الفريقين أحق بالأمن من الخوف: أنا الموحد للرب، أم أنتم المشركون به؟ والجواب معروف وهو من يعبد رباً واحداً أحق بالأمن ممن يعبد آلهة شتى جمادات لا تسمع ولا تبصر. وحكم الله تعالى بينهم وفصل فقال: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم 5 بظلم} أي ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، {أولئك لهم

1 روي إنهم قالوا له أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لسبك إياها؟

2 قرأ نافع بتخفيف نون أتحاجوني وثقلها غيره وتخفيفها مبني على حذف النون الثانية تخفيفاً ومن ثقلها فقد ادغمها في نون الرفع.

3 أخرج ابن كثير عن ابن مردويه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أعطي فشكر ومنع فصبر. وأذنب فاستغفر وظلم فغفر وسكت فقلنا يا رسول الله ماله؟ قال أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

4 قال هذا احتياطاً منه للتوحيد إذ من الجائز أن بعثر في حجر أو تشوكة شوكة أو يمرض بسبب وآخر فيقولون هذه آلهتنا قد أصابك لأنك تسبها فهذا وجه الاستثناء هنا.

5 روي في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لما نزلت {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}.

(2/83)

الأمن} أي في الدنيا والآخرة {وهم مهتدون} في حياتهم إلى طريق سعادتهم وكمالهم وهو الإسلام الصحيح ثم قال تعالى: {وَتِلْكَ آيَاتُهَا إِبْرَاهِيمَ عَلِّمَهُ} إشارة إلى ما سبق من محاجة إبراهيم قومه ودحض باطلهم وإقامة الحجة عليهم. وقوله {نرفع درجات من نشاء} تقرير لما فضل به إبراهيم على غيره من الإيمان واليقين والعلم المبين. ثم علل تعالى لذلك بقوله: {إن ربك حكيم عليم}. حكيم في تدبيره عليم بخلقه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية جدال المبطلين والمشركين لإقامة الحجة عليهم علمهم يهتدون.
 - 2- بيان ضلال عقول أهل الشرك في كل زمان ومكان.
 - 3- التعجب من حال مذنب لا يخاف عاقبة ذنوبه.
 - 4- أحق العباد بالأمن من الخوف من آمن بالله ولم يشرك به شيئاً.
 - 5- تقرير معنى {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}.
- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَأُولَآئِ هُم مِّن فَضْلِنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِن آبَائِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَنَّبْنَا هُم وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)

1 ما هي تلك الحجة؟ هل هي جميع احتياجاته التي حاجهم بها فغلبهم وهذا هو الظاهر، وقيل هي قوله لهم: أما تخاف أن تخيلك آلهتنا لسبك إياها: قال لهم أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم فيغضب الكبير فيخيلكم.

(2/84)

شرح الكلمات:

وهبنا له : أعطيناه تكمراً منا وإفضالاً.

اسحق ويعقوب : إسحاق بن إبراهيم الخليل ويعقوب ولد إسحاق ويلقب بإسرائيل.

كلا هدينا : أي كل واحد منهما هداة إلى صراطه المستقيم.

ومن ذريته: أي ذرية إبراهيم.

داود وسليمان: داود الوالد وسليمان الولد وكل منهما ملك ورسول.

وزكريا ويحيى: زكريا الوالد ويحيى الولد وكل منهما كان نبياً رسولاً.

على العالمين: أي عالمي زمانهم لا على الإطلاق، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء.

ومن ذرياتهم: أي من بعض الآباء والذرية والإخوة لا الجميع.

اجتبناهم : اخترناهم للنبوّة والرسالة وهديناهم إلى الإسلام.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى ما أتى إبراهيم خليله من قوة الحجة والغلبة على أعدائه ذكر منةً أخرى منّ بها

عليه وهي أنه 1 وهبه اسحق ويعقوب بعد كبر سنه، اسحق الولد ويعقوب الحفيد وأنه تعالى هدى كلاً

منهم الوالد والولد والحفيد، كما أخبر تعالى أنه هدى من قبلهم نوحاً، وهدى من ذريته 2 أي إبراهيم،

وإن كان الكل من ذرية نوح، أي هدى من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى

وهرون 3، وأشار تعالى إلى أنهم كانوا محسنين، فجزاهم جزاء المحسنين والإحسان هو الإخلاص في

العمل وأداؤه على الوجه الذي يرضي الرب تبارك وتعالى مع الإحسان العام لسائر المخلوقات بما

يخالف الإساءة إليهم في القول والعمل. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (84) وأما الآية الثانية (85)

فقد ذكر تعالى أنه هدى كذلك إلى حمل رسالته والدعوة إليه والقيام بواجباته وتكاليف شرعه كلاً من

زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وأخبر أن كل واحد منهم كان من الصالحين الذين يؤدون حقوق الله

كاملة وحقوق

1 أي جزاء صبره وحجابه وبذله نفسه في سبيل نصرّة دين ربه كافأه الله عز وجل بأن وهبه من

الذرية الصالحة.

2 يصح عود الضمير على نوح كما يصح عوده على إبراهيم قاله غير واحد من أهل التفسير لأن

ذكرها قد مرّ معاً.

3 قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان منهم من لم تلحقه ولادة

من جهته لا من جهة الأب ولا الأم لأن لوطاً ابن أخ إبراهيم وعدّ عيسى من ذريته وهو ابن البنت

من هنا ذهب الشافعي وأبو حنيفة إلى أن من وقف وقفاً على ولده وولد دخل فيه ولد بناته لأن

لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى كما يشمل عيسى عليه السلام وهو ولد البنت لا غير.

عباده كذلك كاملة غير ناقصة وكانت المجموعة الأولى داود وسليمان ومن ذكر بعدهما الصفة الغالبة عليهم الإحسان لأنه كان فيهم ملك وسلطان ودولة، والمجموعة الثانية وهي زكريا ويحيى وعيسى والياس الصفة الغالبة عليهم الصلاح لأنهم كانوا أهل زهد في الدنيا وأعراضها، والمجموعة الثالثة والأخيرة في الآية الثالثة (86) وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط لم يغلب عليهم وصف مما وصف به المجموعتان الأولى والثانية، لأنهم وسط بين المجموعتين، فذكر تعالى أن كل واحد منهم فضله على عالمي زمانه، وكفى بذلك شرفاً وكرماً وخيراً. وأما الآية الأخيرة (87) فإن الله تعالى يقول فيها، ومن آباء المذكورين من الأنبياء ومن ذرياتهم 1 وإخوانهم هديناهم أيضاً وإن لم نذكر أسماءهم فهم كثير هديناهم إلى ما هدينا إليه آباءهم من الحق والدين الخالص الذي لا شائبة شرك فيه، واجتبتنا 2 الجميع اخترناهم للنبوة والرسالة 3 {وهديناهم إلى صراط مستقيم} وهو الدين الإسلامي. هداية الآيات

هن هداية الآيات:

1- سعة فضل الله.

2 خير ما يعطى المرء في هذه الحياة الهداية إلى صراط مستقيم.

3- فضيلة كل من الإحسان والصلاح.

4- لا منافاة بين الملك والنبوة أو الإمارة والصلاح.

5- فضيلة الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

1 من للتبعيض أي هدى بعض أبنائهم وبعض ذرياتهم ولم يهد كل أب وكل ولد.

2 الاجتباء مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته فالاجتباء اختيار الشخص وضمه إلى

خاصتك من الناس، والجبا مقصور مصدر جبيت الماء والجابية الحوض.

3 ذكر تعالى في هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً وبقي سبعة ذكروا في سورٍ أخرى وهم إدريس وهود

وصالح وشعيب وذو الكفل وآدم عليهم السلام وقد نظمهم البعض في ثلاثة أبيات من الشعر هي:

حتم على كل ذي التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد عرفوا

في تلك حجبتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر وبقي سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ...

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (90)

شرح الكلمات:

هدى الله : الهدى ضد الضلال، وهدى الله ما يهدى إليه من أحب من عباده وهو الإيمان والاستقامة.

حبط عنهم ما كانوا يعملون : أي بطلت أعمالهم فلم يثابوا عليها بقليل ولا كثير .

الحكم : الفهم للكتاب مع الإصابة في الأمور والسداد فيها.

يكفر بها هؤلاء : يجحد بها أي بدعوتك الإسلامية هؤلاء: أي أهل مكة.

قوما ليسوا بها بكافرين : هم المهاجرون والأنصار بالمدينة النبوية.

أقته: اقتد : أي اتبع وزيدت الهاء للسكت.

عليه أجراً : أي على إبلاغ دعوة الإسلام ثمناً مقابل الإبلاغ.

ذكرى: الذكرى : ما يذكر به الغافل والناسي فيتعظ.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر ما وهب الله تعالى لمن شاء من عباده من هدايات وكمالات لا يقدر على عطائها إلا هو فقال ذلك في الآية الأولى (88) ذلك المشار إليه ما وهبه أولئك الرسل الثمانية عشر رسولاً وهداهم إليه من النبوة والدين الحق هو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده. وقوله تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾^[1] يقرر به حقيقة علمية، وهي أنّ الشرك محبط للعمل فإن أولئك الرسل على كمالهم وعلو درجاتهم لو أشركوا بريهم سواء فعبدوا معه غيره لبطل كل عمل عملوه، وهذا من باب الافتراض، وإلا فالرسل معصومون

1 حبوط العمل بطلانه وقد عصم الله تعالى أنبياءه من الشرك فلذا لم تحبط ولم تبطل أعمالهم.

ولكن ليكون هذا عظة وعبرة للناس. هذا ما دلت عليه الآية الأولى أما الثانية (89) فقد أشاد الله تعالى بأولئك الرسل السابقي الذكر مخبراً أنهم هم الذين آتاهم الكتاب وهي صحف إبراهيم وتوراة

موسى وزيور داوود وإنجيل عيسى والحكم 1 وهو الفهم والإصابة والسداد في الأمور كلها. ثم قال تعالى فإن يكفر بهذه الآيات القرآنية وما تحمله من شرائع وأحكام وهداية الإسلام {إن يكفر بها هؤلاء} من أهل مكة {فقد وكلنا بها قوماً} من قبل وهم الرسل المذكورون في هذا السياق وقوماً هم موجودون وهم المهاجرون والأنصار من أهل المدينة، ومن يأتي بعد من سائر البلاد والأقطار وقوله تعالى: {وأولئك الذين هدى الله فبهداهم 2 اقتده}، يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بأولئك الأنبياء المرسلين 3 في كمالاتهم كلها حتى يجمع صلى الله عليه وسلم كل كمال فيهم فيصبح بذلك أكملهم على الإطلاق. وكذلك كان، وقوله تعالى في ختام الآية الكريمة: {قل لا أسألكم عليه 4 أجرًا} يأمره تعالى أن يقول لأولئك العادلين بريهم الأصنام والأوثان المكذبين بنبوته وكتابه: ما أسألكم على القرآن الذي أمرت أن أقرأه عليكم لهدايتكم أجرًا أي مالاً مقابل تبليغه إياكم {إن هو إلا نكرى للعالمين} أي ما القرآن إلا موعظة للعالمين يتعظون بها إن هم القوا أسمعهم وتجردوا من أهوائهم وأرادوا الهداية ورجبوا فيها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الشرك محبط للعمل كالردة والعياذ بالله تعالى.
- 2- فضل الكتاب الكريم والسنة النبوية.
- 3- وجوب الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم وأهل العلم والصلاح من هذه الأمة.
- 4- حرمة أخذ الأجرة على تبليغ الدعوة الإسلامية.

1 قال القرطبي: والحكم العلم والفقه وهو كذلك إلا أن ما في التفسير أوسع وأولى بالاعتماد عليه.
2 قال القرطبي: الإقتداء طلب موافقة الغير في فعله. وقال: قد احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب إتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص واستدلوا بحديث مسلم في حادثة الربيع إذ أمر الرسول بكسر سننها محتجاً بآية {والسن بالسن} وهو من أحكام بني إسرائيل ولم يوجد في القرآن غيره.

3 روى البخاري عن العوام قال سألت مجاهدًا عن سجدة {ص} فقال سألت ابن عباس عن سجدة {ص} فقال أو تقرأ {ومن ذريته داوود وسليمان} إلى قوله {وأولئك هدى الله فبهداهم اقتده} وكان داوود عليه السلام ممن أمر نبيكم عليه السلام بالإقتداء بهم.

4 أي جعلنا على القرآن.

5- القرآن الكريم ذكرى لكل من يقرأه أو يستمع إليه وهو شهيد حاضر القلب.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ 1 قِرَاطِيْسٍ تُبَدُّونَهَا وَنُحْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)

شرح الكلمات:

وما قدروا الله حق قدره: ما عظموه التعظيم اللائق به ولا عرفوه حق معرفته.

على بشر: أي إنسان من بني آدم.

الكتاب الذي جاء به موسى: التوراة.

قراطيس: جمع قرطاس: وهو ما يكتب عليه من ورق وغيره.

تبدونها: تظهرونها.

قل الله: هذا جواب: من أنزل الكتاب؟

ذرهم: اتركهم.

في خوضهم: أي ما يخوضون فيه من الباطل.

مبارك: أي مبارك فيه فخره لا ينقطع، وبركته لا تزول.

أم القرى: مكة المكرمة.

يحافظون: يؤدونها بطهارة في أوقاتها المحددة لها في جماعة المؤمنين.

معنى الآيتين:

ما زال السياق مع العادلين بربهم أصنامهم وأوثانهم فقد أنكر تعالى عليهم إنكارهم للوحي

1 فسرت الآية على قراءة يجعلونه بالياء وكذلك يبدون ويخفون أما على قراءة تجعلون بالتاء فإن

الخطاب يكون لليهود والسورة مكية فلذا رجح ابن جرير قراءة الياء.

(2/89)

الإلهي وتكذيبهم بالقرآن الكريم إذ قالوا: {ما أنزل الله على بشر من شيء}، ومن هنا قال تعالى {وما قدروا الله حق قدره} أي ما عظموه كما ينبغي تعظيمه لما قالوا: {ما أنزل الله على بشر من شيء} 1، ولقن رسوله الحجة فقال له قل لهم: {من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً} يستضاء به في معرفة الطريق إلى الله تعالى وهدى يهتدى به إلى ذلك وهو التوراة جعلها اليهود قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها حسب أهوائهم وأطماعهم، وقوله: {وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم} أي

وعلمكم الله بهذا القرآن من الحقائق العلمية كتوحيد الله تعالى وأسمائه وصفاته، والدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، وعذاب أليم، ثم أمر الرسول أن يجيب عن السؤال الذي وجهه إليهم تبكيتاً: {قل الله { أي الذي أنزل التوراة على موسى هو الله. {ثم ذرهم} أي اتركهم {في خوضهم} أي في الباطل {يلعبون}2 حيث لا يحصلون من ذلك الخوض في الباطل على أي فائدة تعود عليهم فهم كاللاعبين من الأطفال. هذا ما تضمنته الآية الأولى (91) أما الآية الثانية (92) فقد تضمنت أولاً الرد على قول من قال: {ما أنزل الله على بشر من شيء} أي كيف يقال ما أنزل الله على بشر من شيء وهذا القرآن بين أيديهم يتلى عليهم أنزله الله مباركاً لا ينتهي خيره ولا يقل نفعه، مصداقاً لما سبقه من الكتب كالقريب والبعيدة لينذرهم عاقبة الكفر والضلال فإنها الخسران التام والهلاك الكامل، وثانياً الإخبار بأن الذين يؤمنون بالآخرة أي بالحياة في الدار الآخرة يؤمنون4 بهذا القرآن، وهم على صلاتهم يحافظون وذلك مصداق إيمانهم وثمرته التي يجنيها المؤمنون الصادقون.

- 1 بيان ذلك أنهم لما قالوا ما أنزل الله من شيء كانوا قد نسبوا إلى الله تعالى أنه لا يقيم الحجة على عباده ولا يأمرهم بما فيه صلاحهم ولا ينهاهم عما فيه خسرانهم وبهذا ما قدروا الله حق قدره وما آمنوا أنه على كل شيء قدير.
- 2 أي لاعبين لأنها حال من قوله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون إذ لو لم يكن حالاً لجزم في وجوب الطلب الذي هو ذرهم.
- 3 أم القرى: مكة المكرمة.
- 4 يريد إتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

(2/90)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كل من كذب الله تعالى أو أشرك به أو وصفه بوصف لا يليق بجلاله فإنه لم يقدر الله حق قدره1.
- 2- بيان تلاعب اليهود بكتاب الله في إيداء بعض أخباره وأحكامه وإخفاء بعض آخر وهو تصرف ناتج من الهوى واتباع الشهوات وإيثار الدنيا على الآخرة.
- 3- بيان فضل الله على العرب بإنزال هذا الكتاب العظيم عليهم بلغتهم لهدايتهم.
- 4- تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم كيفية الحجاج والرد على المجادلين والكاذبين.

5- بيان علة ونزول الكتاب وهي الإيمان به وإنذار المكذبين والمشركين.

6- الإيمان بالآخرة سبب لكل خير، والكفر به سبب لكل باطل وشر.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ رَعِمْتُمْ أَتَهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

شرح الكلمات :

افترى على الله كذباً : اختلق على الله كذباً قال عليه ما لم يقل، أو نسب له ما هو منه

1 أي لم يعرفه حق معرفته ولم يعرف جلاله وعظمته ولا رحمته وحكمته فلماذا قال ما قال من الباطل وهو نفيه إنزال الوحي الإلهي على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

(2/91)

براء.

أوحى إلي : الوحي : الإعلام السريع الخفي بواسطة الملك وبغيره.

غمرات الموت : شدائده عند نزع الروح.

باسطوا أيديهم : للضرب وإخراج الروح.

عذاب الهون : أي عذاب الذل والمهانة.

ففرادى : واحداً واحداً ليس مع أحدكم مال ولا رجال.

ما خولناكم : ما أعطيناكم من مال ومتاع.

وراء ظهوركم : أي في دار الدنيا.

وضل عنكم : أي غاب.

تزعمون : تدعون كاذبين.

معنى الآيات :

ما زال السياق مع المشركين والمفترين الكاذبين على الله تعالى بإتخاذ الأنداد والشركاء فقال تعالى : {ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً} بأن ادعى 1 أن الله نبأه وأنه نبيه ورسوله كما ادعى سعد بن أبي سرح بمكة ومسيلمة 3 في بني حنيفة بنجد والعنسى باليمن : اللهم لا أحد هو أظلم منه، وممن قال أوحى إليّ شيء من عند الله، ولم يوح إليه شيء وممن قال : {سأنزل مثل ما أنزل الله} من

الوحي والقرآن، ثم قال تعالى لرسوله: {ولو نرى} يا رسولنا {إذ الظالمون في غمرات الموت} أي في شدائد سكرات الموت، {والملائكة} ملك الموت وأعوانه {بأسطوا أيديهم} بالضرب وإخراج الروح، وهم يقولون لأولئك المحتضرين تعجيزاً

1 قال القرطبي: ومن هذا النمط أي المدعي للوحي ولم يوح إليه من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن فيقول وقع في خاطري كذا أو أخبرني قلبي بكذا أو أخبرني قلبي عن ربي فيحكمون بما وقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفاتها من الأكدار وخلوها عن الأغيار فتتجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيستغنون بذلك عن أحكام الشرع ويقولون هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة وهي زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب.

2 أدعى عبد الله بن سعد الوحي لما كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ولقد خلقنا الإنسان إلى قوله ثم أنشأناه خلقاً آخر فأعجبه تفصيل خلق الله تعالى للإنسان قال فتبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت فشك عبدالله بن سعد حينئذ وارث ولحق بالمشركين وأسلم عام الفتح وحسن إسلامه بشفاعته عثمان له إذ كان أخاً له من الرضاعة وهو فاتح أفريقيا ودعا ربه أن يموت وهو يصلي فمات في صلاة الصبح.

3 كانوا يسمونه رحمان اليمامة والعنسي هو الأسود العنسي ومنهم سجاح امرأة مسيلمة قال ابن عباس وقتادة نزلت هذه الآية في مسيلمة.

(2/92)

وتعديباً لهم: {أخرجوا 1 أنفسكم 2، اليوم تجزون عذاب الهون} بسبب استنكاركم 3 في الأرض بغير الحق إذ الحامل للعدرة وأصله نطفة قدرة، ونهايته جيفة قدرة، استنكاره في الأرض حقاً إنه استنكار باطل لا يصح من فاعله بحال من الأحوال. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (93) أما الآية الثانية (94) فإن الله تعالى يخبر عن حال المشركين المستكبرين يوم القيامة حيث يقول لهم {لقد جئتمونا فرادى 4} أي واحد واحداً {كما خلقناكم} حفاة 5 عراة غزلاً {وتركتم ما خولناكم} أي ما وهبناكم من مال وولد {وراء ظهوركم} أي في دار 6 الدنيا، {وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، وأنتم كاذبون في زعمكم مبطلون في اعتقادكم} {لقد نقطع بينكم} أي انحل حبل الولاء بينكم، {ووصل عنكم ما كنتم تزعمون} أي ما كنتم تكذبون به في الدنيا.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- قبح الكذب على الله تعالى في أي شكل، وأن صاحبه لا أظلم منه قط.
 - 2- تقرير عذاب القبر، وسكرات الموت وشدتها، وفي الحديث: أن للموت سكرات.
 - 3- قبح الاستكبار وعظم جرمه.
 - 4- تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الكسب في الدنيا.
 - 5- انعدام الشفاعة يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء والشهداء بشروط هي: أن يأذن الله للشافع أن يشفع وأن يرضى عن المشفوع له.
- إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ

- 1 الغمرة الشدة وأصلها من غمر الشيء إذا غطاه ومنه غمر الماء.
- 2 يقال لهم هذا توبيخاً لهم وتقريعاً أي خلصوها من هذا العذاب إن أمكنكم.
- 3 تستكبرون أي تتعظمون وتأنفون من قول الحق الذي هو توحيد الله تعالى وعبادته بما شرع لعباده المؤمنين.
- 4 هذا يوم القيامة يوم يحشرون إلى ربهم، وفرادى في موضع نصب على الحال.
- 5 روي أن عائشة رضي الله عنها قرأت قول الله تعالى {ولقد جئتمونا فرادى... الخ} فقالت يا رسول الله واسواتاه الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوءة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض.
- 6 ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأثبتت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.

(2/93)

الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

شرح الكلمات:

فالق الحب والنوى : شاق الحب كحب البر ليخرج منه الزرع، والنوى واحده نواة وشقها ليخرج منها

الفسيلة (النخلة الصغيرة).

يخرج الحي من الميت : الدجاجة من البيضة.

ومخرج الميت من الحي : البيضة من الدجاجة.

فأنى تؤفكون: كيف تصرفون عن توحيد الله الذي هذه قدرته إلى عبادة الجمادات.

فالق الإصباح : الإصباح: بمعنى الصبح وقلقه: شقه ليتفجر منه النور والضياء.

(2/94)

سكنا : يسكن فيه الناس ويخلدون للراحة.

حساباً : أي حساباً بهما تعرف الأوقات الأيام والليالي والشهور والسنون.

تقدير العزيز العليم : إيجاد وتنظيم العزيز الغالب على أمره العليم بأحوال وأفعال عباده.

لتهتدوا بها : أي ليهتدي بها المسافرون في معرفة طرقهم في البر والبحر.

من نفس واحدة : هي آدم أبو البشر عليه السلام.

فمستقر : أي في الأرحام.

ومستودع: أي في أصلاب الرجال.

يفقهون : أسرار الأشياء وعلل الأفعال فيهتدوا لما هو حق وخير.

خضراً: هو أول ما يخرج من الزرع ويقال له القصيل الأخضر.

متراكباً: أي بعضه فوق بعض وهو ظاهر في السنبله.

طلع النخل : زهرها.

قنوان: واحده قنو وهو العذق وهو العُرجون بلغة أهل المغرب.

مشتبهاً وغير متشابهه : في اللون وغير مشتبهه في الطعم.

وينعه: أي نضجه واستوائه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان الدليل على وجوب توحيد الله تعالى وبطالان عبادة غيره فقال تعالى واصفاً

نفسه بأفعاله العظيمة الحكيمة التي تثبت ربوبيته وتقرر ألوهيته وتبطل ربوبية وألوهية غيره مما زعم

المشركون أنها أرباب لهم وآلهة: {إن الله فالق الحب والنوى} أي هو الذي يفلق الحب ويخرج منه

الزرع لا غيره وهو الذي يفلق النوى، ويخرج منه الشجر والنخل لا غيره فهو الإله الحق إذا وما عداه

باطل، وقال: {يخرج الحي من الميت} فيخرج الزرع الحي من الحب الميت {ويخرج الميت} من

الحي {فيخرج الحب من الزرع الحي، والنخلة والشجرة من النواة الميتة ثم يقول: {ذلكم الله} أي

المستحق للإلهية أي العبادة وحده {فأنى

1 أي يخرج النطفة الميتة من الحي وهو الإنسان ويخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة.

(2/95)

تؤفكون} أي فكيف يا للعجب تصرفون عن عبادته وتألبيه إلى تأليه وعبادة غيره. ويقول: {فالق، الإصباح 1} أي هو الله الذي يفلق ظلام الليل فيخرج منه ضياء النهار {وجعل الليل سكناً}: أي ظرف سكن وسكون وراحة تسكن فيه الأحياء من تعب النهار والعمل فيه ليستريحوا، وقوله: {والشمس والقمر 2 حسبنا} أي وجعل الشمس والقمر يدوران في فلكيهما بحساب تقدير لا يقدر عليه إلا هو، وبذلك يعرف الناس الأوقات وما يتوقف عليها من عبادات وأعمال وآجال وحقوق ثم يشير إلى فعله ذلك فيقول: {ذلك تقدير العزيز} الغالب على أمره {العليم} بسائر خلقه وأحوالهم وحاجاتهم وقد فعل ذلك لأجلهم فكيف إذا لا يستحق عبادتهم وتألبيهم؟ عجباً لحال بني آدم ما أضلهم؟! ويقول تعالى في الآية الثالثة (97) {وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر} هذه منة أخرى من مننه على الناس ومظهراً آخر من مظاهر قدرته حيث جعل لنا النجوم لمهتدي به مسافرونا في البر والبحر حتى لا يضلوا طريقهم فيهلكوا فهي نعمة لا يقدر على الإنعام بها إلا الله، فلم إذا يكفر به ويعبد سواه؟ وقوله: {قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون} يخبر به تعالى على نعمة أخرى وهي تفصيله تعالى للآيات وإظهارها لينتفع بها العلماء الذين يميزون بنور العلم بين الحق والباطل والضار والنافع ويقول في الآية الرابعة (98) {وهو الذي أنشأكم - أي خلقكم - من نفس واحدة} هي آدم عليه السلام، فبعضكم مستقر في الأرحام وبعضنا 3 مستودع في الأصلاب وهو مظهر من مظاهر إنعامه وقدرته ولطفه وإحسانه، ويختتم الآية بقوله {قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون} لتقوم لهم الحجة على ألوهيته تعالى دون ألوهية ما عداه من سائر المخلوقات لفهمهم أسرار الكلام وعلل الحديث ومغزاه.

ويقول في الآية (99) {وهو الذي أنزل من السماء ماءً} وهو ماء المطر ويقول {فأخرجنا

1 الإصباح مصدر أصبح يصبح إصباحاً أي يخرج النور من الظلام إذ نور الفجر يشق ظلمة الليل ويخرج عنها الصبح والإصباح أول النهار ويجمع الإصباح على أصباح بفتح الهمزة وقرئ به.
2 حسبنا أي بحساب يتعلق به مصالح العباد، والحسبان جمع حساب مثل شهاب وشهبان أي جعل الله سير الشمس والقمر بحساب ولا يزيد ولا ينقص ويطلق الحسبان على النار كما في قوله تعالى ويرسل عليها حسباناً من السماء أي ناراً.

3 قال عبدالله بن مسعود لها مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها وهذا على قراءة

مستقر بفتح القاف بمعنى لها مستقر وأكثر المفسرين على ما جاء في التفسير أن المستقر ما كان في الرحم والمستودع ما كان في الصلب قال سعيد بن جبير قال لي ابن عباس هل تزوجت فقلت لا. قال فإن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه. أما قوله تعالى ﴿ولكم في الأرض مستقر ومستودع إلي حين﴾ ف المستقر هو القبر مودع فيه الإنسان إلى يوم القيامة.

(2/96)

به نبات كل شيء} أي ينبت أي قابل للإنبات من سائر الزروع والنباتات ويقول فأخرجنا من ذلك النبات خضراً وهو 1 القصيل للقمح والشعير، ومن الخضر 2 يخرج حباً متراكباً في سنابله، ويقول عز وجل: ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾ أي ويخرج بإذن الله تعالى من طلع النخل قنوان جمع قنوة العذق دانية متدلّية وقريبة لا يتكلف مشقة كبيرة من أراد جنيها والحصول عليها 3 وقوله ﴿وجنات من أعناب﴾ يقول وأخرجنا به بساتين من نخيل وأعناب، وأخرجنا به كذلك الزيتون والرمان حال كونه مشتبهاً في اللون وغير متشابه في الطعم، كلوا من ثمره إذا أثمر وينعه ينبت لديكم ذلك التشابه وعدمه، وختم الآية بقوله: إن في ذلكم المذكور كله {آيات} علامات ظاهرات تدل على وجوب ألوهية الله تعالى وبطلان ألوهية غيره {لقوم يؤمنون} لأنهم أحياء يفعلون ويفكرون ويفهمون أما غيرهم من أهل الكفر فهم أموات القلوب لما ران عليها من أضرار الشرك والمعاصي فهم لا يعقلون ولا يفقهون فأنى لهم أن يجدوا في تلك الآيات ما يدلهم على توحيد الله عز وجل؟

هداية الآيات

هن هداية الآيات:

- 1- الله خالق كل شيء فهو رب كل شيء ولذا وجب أن يؤله وحده دون ما سواه.
- 2- تقرير قدرة الله على كل شيء وعلمه بكل شيء وحكمته في كل شيء.
- 3- فائدة خلق النجوم وهي الاهتداء بها في السير في الليل في البر والبحر.
- 4- يتم إدراك ظواهر الأمور وبواطنها بالعقل.
- 5- يتم إدراك أسرار الأشياء بالفقه.
- 6- الإيمان بمثابة الحياة، والكفر بمثابة الموت في إدراك الأمور.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

1 خضر بمعنى أخضر كمطرة بمعنى ماطرة ومنه قولهم: أرنها نمرة أركها مطر أي أرني سحابة كأنها نمرة في شكلها ماطرة يتصيب منها الماء الغزير.

2 قال ابن عباس رضي الله عنه يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز وسائر الحبوب.

3 هذا قصار النخل إذ يجنى ثمارها لمدة عشر سنوات والمرء يتناول منها بيديه هو واقف عندها وبعد ذلك ترتفع وتطول فيرقى إليها.

(2/97)

يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

شرح الكلمات:

شركاء : جمع شريك في عبادته تعالى.

الجن : عالم كعالم الإنس إلا أنهم أجسام خفية لا ترى لنا إلا إذا تشكلت بما يرى.
وخرقوا : اختنقوا وافتاتوا.

يصفون : من صفات العجز بنسبة الولد والشريك إليه.

بديع السموات والأرض : مبدع خلقهما حيث أوجدهما على غير مثال سابق.

أنى يكون له ولد : أي كيف يكون له ولد؟ كما يقول المبطلون.

ولم تكن له صاحبة : أي زوجة.

لا تدركه الأبصار : لا تراه في الدنيا، ولا تحيط به في الآخرة.

وهو يدرك الأبصار : أي محيط علمه بها.

وهو اللطيف: الذي ينفذ علمه إلى بواطن الأمور وخفايا الأسرار فلا يحجبه شيء.

معنى الآيات:

لقد جاء في الآيات السابقة من الأدلة والبراهين العقلية ما يبهر العقول وينلها لقبول التوحيد، وأنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه، ولكن مع هذا فقد جعل الجاهلون لله من

(2/98)

الجن شركاء فأطاعوهم فيما زينوا لهم من عبادة الأصنام والأوثان، وهذا ما أخبر به تعالى في هذه الآية الكريمة (100) إذ قال ﴿وجعلوا لله شركاء الجن 1 وخلقهم 2 وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ ومعنى الآية وجعل العادلون بربهم الأصنام والجن شركاء لله في عبادته، وذلك بطاعتهم فيما زينوا لهم من عبادة الأصنام، والحال أنه قد خلقهم فالكل مخلوق له

العابد والمعبود من الجن والأصنام، وزادوا في ضلالهم شوطاً آخر حيث اختلقوا له البنين والبنات وهذا كله من تزيين الشياطين لهم وإلا فأى معنى في أن يكون لخالق العالم كله بما فيه الإنس والجن والملائكة أبناء وبنات. هذا ما عناه تعالى بقوله: ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فنزه الرب تبارك وتعالى نفسه عما وصفوه به كذباً بحتاً وتخرصاً كاملاً من أن له بنين وبنات وليس لهم على ذلك أي دليل علمي لا عقلي ولا نقلي، وقد شارك في هذا الباطل العرب المشركون حيث قالوا الملائكة بنات الله، واليهود حيث قالوا عزيز ابن الله، والنصارى إذ قالوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقول المبطلون. هذا ما تضمنته الآية الأولى أما الآية الثانية (101) فقد تضمنت إقامة الدليل الذي لا يرد على بطلان هذه الفرية المنكرة فرية نسبة الولد لله سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي خالقهما على غير مثال سابق {أنى 3 يكون له ولد ولم تكن له صاحبة} أي يا للعجب كيف يكون لله ولد ولم تكن له زوجة إذ التوالد يكون بين ذكر وأنثى حاجة إليه لحفظ النوع وكثرة النسل لعمارة الأرض بل ولعبادة الرب تعالى بذكره وشكره، أما الرب تعالى فهو خالق كل شيء ورب كل شيء فأى معنى لاتخاذ ولد له، لولا تزيين الشياطين للباطل حتى يقبله أولياؤهم من الإنس، وقوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ دليل آخر على بطلان ما خرق أولئك الحمقى لله من ولد، إذ لو كان لله ولد لعلمه وكيف لا، وهو بكل شيء عليم. هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة (102)

1 صور اتخاذهم الجن شركاء ثلاث الأولى: أنهم أطاعوا الجن فجعلوهم بطاعتهم لهم شركاء لله إذ المطاع الحق هو الله تعالى:

والثانية: قولهم الملائكة بنات الله مع عبادتهم لهم فذلك معنى جعلوا لله شركاء الجن لأن الملائكة لا يرون كالجن قال تعالى ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ فسمى الملائكة جنّاً لاجتبابهم واستتارهم عن عيون الناس والثالثة: أن الزنادقة قالوا الله خالق الماء والنور والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب.

2 قوله تعالى وخلقهم يصح عود الضمير فيه على العادلين كما في التفسير ويصح عوده على الجن الذين اتخذوهم شركاء لله يعبدونهم معه.

3 أي من أين يكون له ولد والولد لا يكون إلا من صاحبة أي زوجة.

(2/99)

وهي قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ أي ذلكم الله الذي هو بديع السموات والأرض والخالق لكل شيء والعليم بكل شيء هو ربكم الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء

فاعبده ولا تشركوا به سواه. وإنه لكفيل برزقكم وحفظكم ومجازاتكم على أعمالكم وهو على كل شيء قدير. والآية الأخيرة في السياق الكريم (153) يقرر تعالى حقيقة كبرى وهي أن الله تعالى مبين خلقه في ذاته وصفاته ليس كمثل شيء فكيف يشرك به وكيف لكون له ولد، وهو لا تتركه الأبصار² وهو يدركها وهو اللطيف³ الذي ينفذ علمه وقدرته في كل ذرات الكون علويّه وسفليّه الخبير بكل خلقه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهو العزيز الحكيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- أن من الإنس من عبد الجن بطاعتهم وقبول ما يأمرونهم به ويزينونه لهم.
 - 2- تنزه الرب تعالى عن الشريك والصاحبة والولد 3- مباينة الرب تبارك وتعالى لخلقه.
 - 4- استحالة رؤية الرب في الدنيا⁴، وجوازها في الآخرة لأوليائه في دار كرامته.
- قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَن

- 1 هذا أكبر برهان على بطلان نسبة الولد له تعالى إذ كل شيء خلقه فهل من خلق شيئاً يقال لمن خلقه ولده؟ لو صح هذا لقالوا لكل من صنع شيئاً هو أبو والمصنوع ولده ولا قائل بهذا البتة.
- 2 لا تتركه الأبصار بمعنى لا تحيط به ولذا يراه أولياؤه في الجنة رؤية بصرية فينظرون إلى وجهه الكريم وأما رؤيته تعالى فمتعذرة في الحياة الدنيا إذ طلبها موسى ولم ينلها لعجز الإنسان عن رؤية الله تعالى بهذه الأبصار المحدودة القدرة والطاقة.
- 3 روي في الصحيحين ما يفيد تعذر رؤية الله في الدنيا لضعف الإنسان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع الله عمك النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار حجابته النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".
- 4 وفسر اللطيف بالرفيق بعباده واللطيف من أسماء الله تعالى. ولذا هو يلفظ بعباده. كما هو للطفه لا يدرك بالكيفية، واللطيف في الأجسام الذي يدخل في كل شيء.

(2/100)

الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

شرح الكلمات:

بصائر من ريكم: البصائر جمع بصيرة: والمراد بها هنا الآيات المعرفة بالحق المثبتة له بطريق الحجج العقلية فهي في قوة العين المبصرة لصاحبها.
حفيظ: وكيل مسئول.

نصرف الآيات: نجريها في مجاري مختلفة تبيانا للحق وتوضيحا للهدى المطلوب.
وليقولوا درست: أي تعلمت وقرأت لا وحيأ أوحى إليك.
وأعرض عن المشركين: أي لا تلتفت إليهم وامض في طريق دعوتك.
ولو شاء الله ما أشركوا: أي لو شاء أن يحول بينهم وبين الشرك حتى لا يشركوا لفعل وما أشركوا.
معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية المشركين وبيان الطريق لهم ففي هذه الآية يقول {قد جاءكم} أي أيها الناس {بصائر من 1 ريكم} وهي آيات القرآن الموضحة لطريق النجاة {فمن أبصر} بها وهي كالعين المبصرة {فلنفسه} إبصاره إذ هو الذي ينجو ويسعد {ومن عمي} فلم يبصر فعلى نفسه عماه إذ هي التي تهلك وتشقى وقل لهم يا رسولنا {ما أنا عليكم بحفيظ} أي بوكيل مسئول عن هدايتكم، وفي الآية الثانية (105) يقول تعالى: {وكذلك 2 نصرنا الآيات} أي بنحو ما صرفناها من قبل في هذا القرآن نصرنا كذلك لهداية مريدي الهداية والراغبين 3 فيها أما غيرهم فسيقولون درست 4 وتعلمت من غيرك حتى يحرموا الإيمان

1 قد جاءكم بصائر أي حجج وبيانات ووصفها بالمجيء لتضخيم شأنها واكباره.

2 كذلك الكاف في محل نصب أي مثل أي نصرنا الآيات: مثل ذلك التصريف.

3 وهم المذكورون في الآية ولنبينه لقوم يعلمون.

4 قرىء دارست أي ذاكرت أهل الكتاب وتعلمت عنهم ولم يوح إليك شيء واللام في قوله وليقولوا درست هي لام العاقبة كما يقال كتب فلان هذا الكتاب لحقته، وفي القرآن {فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا}.

(2/101)

بك وبرسالته والعياذ بالله تعالى، وفي الآية الثالثة (106) يأمر الله تعالى رسوله باتباع ما يوحى إليه من الحق والهدى، والإعراض عن المشركين المعاندين الذين يقولون درست حتى لا يأخذوا بما آتيتهم به ودعوتهم إليه من آيات القرآن الكريم إذ قال تعالى له: {اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين 1} ، وفي الآية الرابعة (107) يسلي الرب تعالى رسوله ويخفف عنه آلام إعراض المشركين عن دعوته ومحاربتة فيها فيقول له: {ولو شاء الله ما أشركوا} 2 أي لو يشاء

الله عدم إشراكهم لما قدروا على أن يشركوا إذا فلا تحزن عليهم، هذا أولاً، وثانياً لوما جعلناك عليهم
حفيظاً} تراقبهم وتحصي عليهم أعمالهم وتجازيهم بها، وما أرسلناك عليهم وكيلاً تتولى هدايتهم بما
فوق طاقتك {إن عليك إلا البلاغ} وقد بلغت إذاً فلا أسى ولا أسف!!

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- آيات القرآن بصائر من يأخذ بها يبصر طريق الرشاد وينجو ويسعد.
- 2- ينتفع بتصريف الآيات وما تحمله من هدايات العالمون لا الجاهلون وذلك لقوله تعالى في الآية الثانية (105) {ولنبينه لقوم يعلمون}.
- 3- بيان الحكمة في تصريف الآيات وهي هداية من شاء الله هدايته.
- 4- وجوب اتباع الوحي المتمثل في الكتاب والسنة النبوية.
- 5- بيان بطلان مذهب القدرية "نفاة القدر".

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُنَّ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ

1 هذا منسوخ بآية الجهاد.

2 في الآية دليل على إبطال مذهب القدرية وهم نفاة القدر والزاعمون أن أفعال العباد لم تقدر عليهم
وإنما هم الخالقون لها بدون إذن الله وإرادته.

(2/102)

لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلٌّ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ
وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

شرح الكلمات:

ولا تسبوا : ولا تشتموا آلهة المشركين حتى لا يسبوا الله تعالى.

عدواً : ظلماً.

زيننا لكل أمة عملهم: حسناهم خيراً كان أو شراً حتى فعلوه.

جهد أيمانهم : أي غاية اجتهادهم في حلفهم بالله.

آية: معجزة كإحياء الموتى ونحوها.

وما يشعركم: وما يديركم

ونذرهم : نتركهم.

يعمهمون : حيارى يترددون.

معنى الآيات:

عندما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبح يصدع بالدعوة جهراً بعد ما كانت سرّاً أخذ بعض أصحابه يسبون أو ثان المشركين، فغضب لذلك المشركون وأخذوا يسبون الله تعالى إليه المؤمنين وربهم فنهاهم تعالى عن ذلك أي عن سب آلهة المشركين بقوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ أي لا تسبوا آلهتهم {فيسبوا 1 الله عدواً 2} أي ظلماً واعتداءً بغير علم، إذ لو علموا جلال الله وكماله لما سبوه، وقوله تعالى: ﴿وكذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ بيان منه تعالى لسنته في خلقه وهي أن المرء إذا أحب شيئاً ورغب فيه وواصل ذلك الحب وتلك الرغبة يصبح زيناً له ولو كان في الواقع شيئاً ويراها حسناً وإن كان في حقيقة الأمر

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت كفار قريش لأبي طالب إما أن تنتهي محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والغضب منها وإما أن نسب إلهه ونهجه. فنزلت الآية وهذا الحكم باق إلى نهاية الحياة فإن كان سب المؤمن الكافر يؤدي إلى سب الله تعالى أو رسوله فلا يحل للمؤمن أن يسب الكافر أو دينه.

2 وقرىء عدواً بضم العين والدال ومعنى القراءتين واحد وهو الجهل والاعتداء الذي هو الظلم.

(2/103)

قبيحاً، ومن هنا كان دفاع المشركين عن آلهتهم الباطلة من هذا الباب فلذا لم يرضوا أن تسب لهم وهددوا الرسول والمؤمنين بأنهم لو سبوا آلهتهم لسبوا لهم آلهتهم وهو الله تعالى، وقوله تعالى ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ يخبر تعالى أن مرجع الناس المزين لهم أعمالهم خيرها وشرها ورجوعهم بعد نهاية حياتهم إلى الله ربهم فيخبرهم بأعمالهم ويطلعهم عليها ويجزيهم بها الخير بالخير والشر بالشر. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (108) وأما الآيتان الثانية (109) والثالثة (110) فقد أخبر تعالى أن المشركين أقسموا بالله أبلغ إيمانهم وأقصاها أنهم إذا جاءتهم آية كتحويل جبل الصفا إلى ذهب آمنوا عن آخرهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته واتبعوه على دينه الذي جاء به، قال هذا رؤساء المشركين، والله يعلم أنهم إذا جاءتهم الآية لا يؤمنون، فأمر رسوله أن يرد عليهم قائلاً: ﴿إنما الآيات عند الله﴾ هو الذي يأتي بها إن شاء أما أنا فلا أملك ذلك. إلا أن المؤمنين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم رغبوا في مجيء الآية حتى يؤمن المشركون وينتهي الصراع الدائر بين الفريقين فقال تعالى لهم: ﴿وما يشعركم﴾ أيها المؤمنون ﴿أنها إذا جاءت 3 لا يؤمنون﴾ أي وما يدريكم أن الآية لو جاءت لا يؤمن بها المشركون؟ وبين علة عدم

إيمانهم فقال: {ونقلب أفئدتهم } فلا تعي ولا تفهم {وأبصارهم} فلا ترى ولا تبصر . فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة لما دعوا إلى الإيمان به {ونذرهم في طغيانهم يعمهون} أي ونتركهم في شركهم وظلمهم حيارى يترددون لا يعرفون الحق من الباطل ولا الهداية من الضلال.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة قول أو فعل ما يتسبب 4 عنه يسبب الله ورسوله.
- 2- بيان سنة الله في تزيين الأعمال لأصحابها خيراً كانت أو شراً.
- 3- بيان أن الهداية بيد الله تعالى وأن المعجزات قد لا يؤمن عليها من شاهدها.

1 في هذا دليل الموادعة والأخذ بمبدأ سد الذرائع.

2 كان المشركون يحلفون بآلهتهم، وإذا حلفوا بالله كان ذلك أقصى أيمانهم وأشدّها. وهنا مسألة لو قال المرء الأيمان تلزمه ثم حنث فإن عليه إطعام ثلاثين مسكيناً لأن أقل الجمع ثلاثة، وإن لم يكن له مال صام تسعة أيام..

3 الإشعار مصدر أشعره إذا أعلمه بأمر من شأنه أن يخفى ويدق.

4 قرئت إنها بكسر الهمزة على الاستئناف فيكون الكلام قد انتهى عند قوله وما يشعركم ويكون المعنى وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ثم قال إنها إذا جاءت لا يؤمنون. فذكر علة عدم إيمانهم بقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم.

(2/104)

الجزء الثامن

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ (111) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

شرح الكلمات:

الملائكة: أجسام نورانية يعمرن السموات عباد مكرمون لا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يؤمرون لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة.

الموتى : جمع ميت: من فارقت الحياة أي خرجت منه روحه.

حشرنا : جمعنا.

قبلا : معاينة

يجهلون : عظمة الله وقدرته وتدبيره وحكمته.

شياطين : جمع شيطان: وهو من خبث وتمرد من الجن والإنس.

يوحى بعضهم: يعلم بطريق سريع خفي بعضهم بعضاً.

زخرف القول : الكذب المحسن والمزين.

غروراً: للتغريب بالإنسان.

يفترون: يكذبون.

ولتصغى إليه : تميل إليه.

وليقترفوا: وليرتكبوا الذنوب والمعاصي.

(2/105)

معنى الآيات:

ما زال السياق في أولئك العادلين بربهم المطالبين بالآيات الكونية ليؤمنوا إذا شاهدوها فأخبر تعالى في هذه الآيات أنه لو نزل إليهم الملائكة من السماء وأحياى لهم الموتى فكلموهم وقالوا لهم لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحشر علمهم كل شيء² أمامهم يعاينونه معاينة أو تأتيهم المخلوقات قبيلاً بعد قبيل وهم يشاهدونهم ويقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ما كانوا ليؤمنوا بك ويصدقوك ويؤمنوا بما جئت به إلا أن يشاء الله ذلك منهم. ولكن أكثر أولئك العادلين بربهم الأصنام والأوثان يجهلون أن الهداية بيد الله تعالى وليست بأيديهم كما يزعمون وأنهم لو رأوا الآيات آمنوا. هذا ما دلت عليه الآية (111) أما الآية الثانية (112) فإن الله تعالى يقول وكما كان لك يا رسولنا من هؤلاء العادلين أعداء يجادلونك ويحاربونك جعلنا لكل نبي أرسلناه أعداء يجادلونه ويحاربونه {شياطين⁴ الإنس والجن يوحى⁵ بعضهم إلى بعض زخرف القول} أي القول المزين بالباطل المحسن بالكذب {غرورا} أي للتغريب والتضليل، {ولو شاء ربك} أيها الرسول عدم فعل ذلك الإيحاء والوسواس {ما فعلوه} إذا {فذرهم} أي اتركهم {وما يفترون} من الكفر والكذب والباطل. هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الآية الثالثة (113) وهي قوله تعالى: {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون} هذه الآية بجملها الأربع معطوفة على قوله {زخرف القول غرورا} إذ إيحاء شياطين الجن والإنس⁶ كان

1 فرأوهم عياناً.

2 أي شيئاً سألوه وطلبوه.

3 الاستثناء منفصل فهو بمعنى لكن إن شاء الله إيمانهم آمنوا والآية تحمل التسليية والعزاء له صلى الله عليه وسلم.

4 شياطين الإنس والجن بدل من قوله عدوًا ويصح أن يكون نعتاً أيضاً.

5 يوحى بمعنى يلقي إليه الباطل المزين بطريق الوسواس فيفهم عنه إذ الإيحاء الإعلام السريع الخفي وشاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم "ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن، قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم".

6 روي عن مالك بن دينار أنه قال: شياطين الإنس أشد من شياطين الجن، وذلك أي إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً. ويشهد لهذا ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع امرأة تتشد:

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكن يشتهي شم الرياحين

فأجابها عمر رضي الله عنه قائلاً:

إن النساء شياطين خلقن لنا ...

نعوذ بالله من شر الشياطين

(2/106)

للغرور أي ليغتر به المشركون، {ولتصغى إليه} أي تميل {أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة} وهم المشركون العادلون بريهم {وليرضوه} ويقتنعوا به لأنه مموه لهم مزين، ونتيجة لذلك التغير والميل إليه وهو باطل والرضا به والإقناع بفائدته فهم يقتربون من أنواع الكفر وضروب الشرك والمعاصي والإجرام ما يقتربون!.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أبداً، وبهذا تقررت ربوبيته وألوهيته للأولين والآخرين.
- 2- تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم وكل داع إلى الله تعالى بإعلامه أنه ما من نبي ولا داع إلا وله أعداء من الجن والإنس يحاربونه حتى ينصره الله عليهم.
- 3- التحذير من التمويه والتغير فإن أمضى سلاح للشياطين هو التزيين والتغير.
- 4- القلوب الفارغة من الإيمان بالله ووعده وعيده في الدار الآخرة أكثر القلوب ميلاً إلى الباطل والشر والفساد.

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)

(2/107)

شرح الكلمات:

أبتغي : أطلب.

حكماً: الحكم الحاكم ومن يتحاكم إليه الناس.

أنزل إليكم الكتاب: أي أنزله لأجلكم لتهتدوا به فتكملوا عليه وتسعدوا.

مفصلاً : مبيناً لا خفاء فيه ولا غموض.

والذين آتيناهم الكتاب: أي علماء اليهود والنصارى.

الممترين : الشاكين، إذ الامتراء الشك.

صدقاً وعدلاً: صدقاً في الأخبار فكل ما أخبر به القرآن هو صدق، وعدلاً في الأحكام فليس في

القرآن حكم جور وظلم أبداً بل كل أحكامه عادلة.

لا مبدل لكلماته: أي لا مغير لها لا بالزيادة والنقصان، ولا بالتقديم والتأخير.

السميع العليم : السميع لأقوال العباد العليم بأعمالهم ونياتهم وسيجزئهم بذلك.

سبيل الله: الإسلام إذ هو المفضي بالمسلم إلى رضوان الله تعالى والكرامة في جواره.

يخرصون : يكذبون الكذب الناتج عن الحزر والتخمين.

من يضل : بمن يضل.

بالمهتدين: في سيرهم إلى رضوان الله باتباع الإسلام الذي هو سبيل الله.

معنى الآيات:

ما زال السياق مع العادلين بربهم الأصنام والأوثان لقد كان المراد في طلبهم الآية الحكم بها على

صحة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أنه نبي الله وأن القرآن كلام الله وأنه لا إله إلا الله، ولم يكن

هذا منهم إلا من قبيل ما توسوس به الشياطين لهم وتزينه لهم تغريراً بهم وليواصلوا ذنوبهم فلا

يؤمنون ولا يتوبون، ومن هنا أنزل تعال قوله: {أفغير الله أبتغي 1 حكماً}. وهو تعليم لرسول الله صلى

الله عليه وسلم أن يقوله للمشركين أأميل إلى باطلكم وأفتنع به فغير الله أطلب حكماً بيني

1 أفغير منصوب بأبتغي أي أبتغي غير الله؟ وكلما منصوب على الحال أو التمييز المبين لمبهم

الابتغاء.

وبينكم في دعوكم أني غير رسول وأن ما جئت به ليس وحياً من الله؟ ينكر صلى الله عليه وسلم تحكيم غير ربه تعالى وعلى ماذا يكون الحكم والله هو الذي أنزل إليهم الكتاب مفصلاً فأى آية تغلب القرآن وهو آلاف الآيات هذا أولاً وثانياً هل الكتاب من قبلهم وهم علماء اليهود والنصارى مقرون ومعترفون بأن ما ينفيه المشركون هو حق لا مرية فيه إذاً فامض أيها الرسول في طريق دعوتك: لا تكونن لسن الممترين فإنك عما قريب تظهر على المشركين، لقد تمت كلمة 1 ريك أي في هذا القرآن الذي أوحى إليك صدقاً في كل ما تحمله من أخبار ومن ذلك نصرك وهزيمة أعدائك، وعدلاً في أحكامها التي تحملها، ولا يستطيع أحد تبديلها بتغيير 2 لها بإخلاف وعدٍ ولا بإبطال حكم، وريك هو السميع لأقوال عباده العليم بمقاصدهم وأفعالهم فما أقدره وأضعفهم فلذا لن يكون إلا مراده ويبطل جميع إراداتهم. واعلم يا رسولنا أنك {إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله} أي لو أنك تسمع لهم وتأخذ بأرائهم وتستجيب لاقتراحاتهم لأضلوك قطعاً عن سبيل الله، والعلة أن أكثرهم لا بصيرة له ولا علم حق لديه وكل ما يقولونه هو هوى نفس، ووسواس شيطان. إنهم ما يتبعون إلا أقوال الظن وما هم فيما يقولون إلا خارصون 3 كاذبون. وحسبك علم ريك بهم فإنه تعالى هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين:

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة وبطلان التحاكم إلى غير الوحي الإلهي.
- 2- تقرير صحة الدعوة الإسلامية بأمرين الأول: القرآن الكريم، الثاني: شهادة أهل الكتاب ممن أسلموا كعبد الله بن سلام القرظي وأصحمة النجاشي وغيرهم.
- 3- ميزة القرآن الكريم: أن أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
- 4- وعود الله تعالى لا تتخلف أبداً، ولا تتبدل بتقديم ولا تأخير.
- 5- اتباع أكثر الناس يؤدي إلى الضلال فلذا لا يتبع إلا أهل العلم الراسخون فيه لقوله

1 قرأ أهل الكوفة كلمة بالإفراد وقرأها الباقر بالجمع كلمات قال ابن عباس رضي الله عنه في كلمات ريك هي مواعيده تعالى.

2 كما لا يستطيع أحد تبديل كلماتها وحروفها في القرآن الكريم كما بدلت التوراة والإنجيل بتحريف الكلمات وتغييرها.

3 من هذا قيل لمن يقدر كمية التمر في النخل خراص لأنه يقول بدون علم بقيني - وإنما بالحدس والتخمين وأجازه الشارع للضرورة إليه.

(2/109)

تعالى : { ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون }.
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)
شرح الكلمات:

مما ذكر اسم الله عليه : أي قيل عند ذبحه أو نحره بسم الله والله أكبر .
فصل لكم ما حرم عليكم: أي بين لكم ما حرم عليكم مما أحل لكم وذلك في سورة النحل.
إلا ما اضطررتم إليه : أي ألجأتكم الضرورة وهي خوف الضرر من الجوع.
المعتدين: المتجاوزين الحلال إلى الحرام، والحق إلى الباطل.
ذروا ظاهر الإثم: اتركوا: الإثم الظاهر والباطن وهو كل ضار فاسد قبيح .
يقترفون : يكسبون الآثام والذنوب.
وإنه لفسق: أي الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه. فسق عن طاعة الله تعالى.
إلى أوليائهم ليجادلوكم: أي من الإنس ليخاصموكم في ترك الأكل من الميتة.
لمشركون: حيث أحلوا لكم ما حرم عليكم فاعتقدتم حله فكنتم

(2/110)

بذلك عابديهم وعبادة غير الله تعالى شرك.
معنى الآيات:

مما أوحى به شياطين الجن إلى إخوانهم من شياطين الإنس أن قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين: كيف تأكلون ما تقتلونه أنتم وتمتعون عن أكل ما يقتله الله؟ فأنزل الله تعالى قوله {فكلوا
مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين}]. فأمر المؤمنين بعدم الاستجابة لما يقوله

المشركون، وقال ﴿وما لكم 2 ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ أي شيء يمنعكم من الأكل مما ذكر اسم الله عليه؟ ﴿وقد فصل 3 لكم﴾ أي بين لكم غاية التبيين ﴿ما حرم عليكم﴾ من المطاعم ﴿إلا ما اضطرتكم إليه﴾ أي ألجأتكم الضرورة إليه كمن خاف على نفسه الهلاك من شدة الجوع فإنه يأكل مما حرم في حال الإختيار. ثم أعلمهم أن كثيراً من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم 4 بغير علم فيحلون ويحرمون بدون علم وهم في ذلك ظلمة معتدون لأن التحريم والتحليل من حق الرب تعالى لا من حق أي أحد من الناس وتوعدهم بما دل عليه قوله: ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ ولازمه أنه سيجازيهم باعتدائهم وظلمهم بما يستحقون من العذاب على اعتدائهم على حق الله تعالى في التشريع بالتحليل والتحريم. وقوله تعالى في الآية الثالثة: (120) ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ يأمر تعالى عباده بترك ظاهر الإثم كالزنى العلني وسائر المعاصي، وباطن الإثم كالزنى السري وسائر الذنوب الخفية وهو شامل لأعمال القلوب وهي باطنة وأعمال الجوارح وهي ظاهرة، لأن الإثم كل ضار فاسد قبيح كالشرك، والزنى وغيرهما من سائر المحرمات.

ثم توعد الذين لا يمتثلون أمره تعالى بترك ظاهر الإثم وباطنه بقوله. ﴿إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ أي سيجزيهم يوم القيامة بما اكتسبه من الذنوب والآثام ولا ينجو إلا من تاب منهم وصحت توبته وفي الآية الأخيرة في هذا السياق (121) يقول تعالى ناهياً عباده عن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه من ذبائح المشركين

- 1 هذه الآية نص في مشروعية التسمية عند الذبح وعند الأكل والشرب.
- 2 أي ما المانع لكم من أكل ما سميت عليه ربكم وإن قتلتموه بأيديكم؟
- 3 بين تعالى ذلك في آخر سورة النحل المكية وأما البيان التام فهو في سورة المائدة المتأخرة في النزول عن النحل والأنعام معاً.
- 4 إذ قال المشركون للرسول والمؤمنين ما ذبح الله بسكينه خير مما ذبحتم أنتم بسكاكينكم.

(2/111)

والمجوس فقال: ﴿ولا تأكلوا 1 مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ 2 وأخبر أن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه وهو ذبائح المشركين والمجوس فسق خروج عن طاعة الرب تعالى وهو مقتضي للكفر لما فيه من الرضا بذكر اسم الآلهة التي تعبد من دون الله تعالى، ثم أخبرهم تعالى بأن الشياطين وهم المردة من الجن يوحون إلى الأخباث من الإنس من أوليائهم الذين استجابوا لهم في عبادة الأوثان يوحون إليهم بمثل قولهم: كيف تحرمون ما قتل الله وتحلون ما قتلتم أنتم؟ ليجادلوكم بذلك، ويحذر تعالى المؤمنين من طاعتهم وقبول وسواسهم فيقول ﴿وإن أطعموهم﴾ فأكلتم ذبائحهم أو تركتم

أكل ما ذبحتم أنتم وقد ذكرتم عليه اسم الله، {إنكم لمشركون}3 لأنكم استجبتم لما تأمر به الشياطين تاركين ما يأمر به رب العالمين.

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- جلُّ أكل من ذبائح المسلمين.

2- وجوب ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام عند تذكيته .

3- حرمة إتباع الأهواء ووجوب إتباع العلماء.

4- وجوب ترك الإثم ظاهراً كان أو باطناً وسواء كان من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح.

5- حرمة الأكل من ذبائح المشركين والمجوس والملاحدة البلاشفة الشيوعيين.

6- اعتقاد حل طاعة الشياطين شرك والعياذ بالله تعالى.

أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّئِلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ

1 روى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه} قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه فقال الله سبحانه {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه}.

2 إن هذا اللفظ الوارد على سبب معين لا يمنع العموم إذ القاعدة الأصولية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن هنا تعين معرفة ما يلي: أولاً: وجوب التسمية عند الذبح والنحر. ثانياً: إن ترك المسلم التسمية سهواً أكلت ذبيحته، ثالثاً: إن تركها عمداً لم تؤكل ذبيحته، رابعاً: قال بعض الفقهاء ترك المسلم التسمية عمداً لا يحرم ذبيحته إلا أن يكون تركها مستخفاً بها.

3 الآية دليل على أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار به مشركاً وقد حرم الله سبحانه الميتة نصاً فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك. وقال ابن العربي إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً إذا أطاعه في الاعتقاد. أما إن أطاعه في الفعل وعقيدته سليمة مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص غير كافر.

(2/112)

رُئِيَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

يَمْكُرُونَ (124)

شرح الكلمات:

ميتاً: الميت فاقد الروح، والمراد روح الإيمان.

أحييناه: جعلناه حياً بروح الإيمان.

مثله: صفته ونعته امرؤ في الظلمات ليس بخارج منها.

قرية: مدينة كبيرة.

ليمكروا فيها: بفعل المنكرات والدعوة إلى ارتكابها بأسلوب الخديعة والاحتتيال.

وما يمكرون إلا بأنفسهم: لأن عاقبة المكر تعود على الماكر نفسه لآية ﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾.

وإذا جاءتهم آية: أي من القرآن الكريم تدعوهم إلى الحق.

صغار: الصغار: الذل والهران.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في حرب العادلين بربهم الأصنام الذين يزين لهم الشيطان تحريم ما أحل الله

وتحليل ما حرم فقال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ أي

أطاعة هذا العبد الذي كان ميتاً بالشرك والكفر فأحييناه بالإيمان والتوحيد وهو عمر بن الخطاب أو

عمار بن ياسر كطاعة من مثله رجل في الظلمات ظلمات الشرك

(2/113)

والكفر والمعاصي ليس بخارج من تلك الظلمات وهو أبو جهل 1 والجواب لا، إذا كيف أطاع

المشركون أبا جهل وعصوا عمر رضي الله عنه والجواب: أن الكافرين لظلمة نفوسهم وإتباع أهوائهم

لا عقول لهم زين لهم عملهم الباطل حسب سنة الله تعالى في أن من أحب شيئاً وغالى في حبه

على غير هدى ولا بصيرة يصبح في نظره زيناً وهو شينٌ وحسناً وهو قبيح، فلذا قال تعالى: ﴿وكذلك

جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها 2 ليمكروا فيها﴾ فيهلكوا أيضاً. وقوله: ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم

وما يشعرون﴾ هو كما قال: قوله الحق وله الملك، فالماكر من أكابر المجرمين حيث أفسدوا عقائد

الناس وأخلاقهم وصرقوهم عن الهدى بزخرف القول والاحتتيال والخداع، هم في الواقع يمكرون

بأنفسهم إذ سوف تحل بهم العقوبة في الدنيا وفي الآخرة، إذ لا يحق المكر السيئ إلا بأهله ولكنهم

لا يشعرون أي لا يدرون 3 ولا يعلمون أنهم يمكرون بأنفسهم، وقوله تعالى في الآية الثالثة (124)

﴿وإذا جاءتهم آية 4..﴾ أي حجة عقلية مما تحمله آيات القرآن تدعوهم إلى تصديق الرسول والإيمان

بما جاء به ويدعو إليه من التوحيد بدل أن يؤمنوا ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى 5 مثل ما أوتي رسل

الله { أي من المعجزات كعصا موسى وطير عيسى الذي نفخ فيه فكان طائراً بإذن الله فرد الله تعالى عليهم هذا العلو والتكبر قائلاً: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} فإنه يجعلها في القلوب المشرقة والنفوس الزكية، لا في القلوب المظلمة والنفوس الخبيثة، وقوله تعالى {سيعصيب الذين أجرموا} على أنفسهم بالشرك والمعاصي وعلى غيرهم حيث أفسدوا قلوبهم وعقولهم، {صغار6}: أي ذل وهوان {عند الله} يوم يلقونه {وعذاب شديد} قاس لا يطاق {بما كانوا يمكرون}: أي بالناس بتضليلهم وإفساد قلوبهم وعقولهم بالشرك والمعاصي التي كانوا

1 الآية عامة في كل كافر ومؤمن والموت قد يطلق أيضاً على الجهل. فالجاهل ميت وحياته بالعلم كما قال الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرؤاً لم يحيى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

2 في الآية تقديم وتأخير. الأصل جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها والأكابر جمع أكبر وهم

الرؤساء والعظماء وخصوا بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والإفساد من عامة الناس.

3 وذلك لفرط جهلهم لا يعلمون أن وبال مكرهم عائد عليهم.

4 في الآية شيء من بيان جهلهم وعملهم.

5 هذه مقالة بعضهم قال الوليد بن المغيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كانت النبوة حقاً

لكنت أولى بها منك لأنني أكبر سنأ وأكثر منك مالاً. وقال أبو جهل: والله لا نرضى به أبداً ولا نتبعه إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه.

6 الصغار من الصغر ضد الكبر كأن الذل يُصغر إلى المرء نفسه والفعل صغر يصغر من باب

نَصْر، وصغر يصغر من باب علم يعلم. والمصدر الصغر بفتح الصاد والغين معاً والصغار الاسم واسم الفاعل صاعر وهو الراضي بالضم.

(2/114)

يجرئونهم عليها ويغرونهم بها.

هداية الآيات:

من هداية الآيات :

1- الإيمان حياة، والكفر موت، المؤمن يعيش في نور والكافر في ظلمات.

2- بيان سنة الله تعالى في تزيين الأعمال القبيحة.

3- قل ما تخلو مدينة من مجرمين يمكرون فيها.

4- عاقبة المكر عائدة على الماكر نفسه.

5- بيان تعنت المشركين في مكة على عهد نزول القرآن.

6- الرسالة توهب لا تكتسب.

7- بيان عقوبة أهل الإجمام في الأرض

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)

(2/115)

شرح الكلمات:

شرح صدره: شرح الصدر توسعته لقبول الحق وتحمل الوارد عليه من أنوار الإيمان وعلامة ذلك:

الإنبابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله.

حرجاً: ضيقاً لا يتسع لقبول الحق، ولا لنور الإيمان.

كأنما يصعد : يصعب عليه قبول الإيمان حتى كأنه يتكلف الصعود إلى السماء.

الرجس: النجس وما لا خير فيه كالشيطان.

فصلنا الآيات: بينها وأوضحناها غاية البيان والتوضيح.

يذكرون: يذكرون فيتعطون.

دار السلام : الجنة، والسلام اسم من أسماء الله تعالى فهي مضافة إلى الله تعالى.

استكثرتهم: أي من إضلال الإنس وإغوائهم.

استمتع بعضنا ببعض: انتفع كل منّا بصاحبه أي تبادلنا المنافع بينما حتى الموت.

أجلنا الذي أجلت لنا : أي الوقت الذي وقت لنا وهو أجل موتنا فمتنا.

مثواكم: مأواكم ومقر بقائكم وإقامتكم.

حكيم عليم: حكيم في وضع كل شيء في موضعه فلا يخلد أهل الإيمان في النار، ولا يخرج أهل

الكفر منها، عليم بأهل الإيمان وأهل الكفران.

معنى الآيات:

بعد ذلك البيان والتفصيل لطريق الهداية في الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى حكاية عن

المدعويين إلى الحق العادلين به الأصنام إذ قالوا: {لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله}.
أعلم تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء
بعده، وأن لكل من الهداية والإضلال سنناً تتبع في ذلك فمن طلب الهداية ورجب

(2/116)

فيها صادقاً علم تعالى ذلك منه وسهل له طرقها وهياً له أسبابها، ومن ذلك أنه يشرح 1 صدره لقبول
الإيمان وأنواره فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد، ومن طلب الغواية ورجب فيها صادقاً علم الله
تعالى ذلك منه فهياً له أسبابها وفتح له بابها فجعل صدره ضيقاً 2 حرجاً لا يتسع لقبول الإيمان
وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر هذه سنته في الهداية
والإضلال، وقوله تعالى {كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون} أي كذلك الفعل في الهداية
والإضلال يجعل الله الرجس 3 أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك
والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيمان بالله ولقائه.

وقوله تعالى {وهذا صراط ربك مستقيماً} يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى ما
بينه من الهدى وهذا طريق ربك مستقيماً فاسلكه والزمه فإنه يفضي بك إلى كرامة ربك وجواره في
جنات النعيم. وقوله: {قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون} يمتن تعالى وله الحمد والمنة بما أنعم به على
هذه الأمة من تفصيل الآيات حججاً وبراهين وشرائع ليهتدي طالبوا الهدى المشار إليهم بقوله {لقوم
يذكرون} فيذكرون فيؤمنون ويعملون فيكملون ويسعدون في دار السلام إذ قال تعالى {لهم 4 دار
السلام عند ربهم وهو وليهم} أي متوليهم بالنصر والتأييد في الدنيا والإنعام والتكريم في الآخرة {بما
كانوا يعملون} من الصالحات.

هذا ما دلت عليه الآيات الأولى والثانية والثالثة أما الآية الرابعة (128) فقد تضمنت عرضاً سريعاً
ليوم القيامة الذي هو ظرف للجزاء على العمل في دار الدنيا فقال تعالى: {ويوم يحشرهم جميعاً} 5
إنسهم وجنهم ويقول سبحانه وتعالى {يا معشر الجن قد استكثرتم 6 من الإنس} أي في إغوائهم
وإضلالهم، {وقال أولياؤهم من الإنس} أي الذين كانوا

1 الشرح أصله التوسعة وشرح الأمر بيّنه وأوضحه ومنه تشريح اللحم والشريحة منه القطعة. وشرح
الصدر لقبول الحق توسعته لتقبل ما يلقي إليه من الهدى وفي الحديث الصحيح "من يرد الله به خيراً
يفقهه في الدين".

2 الحرج والحرج بالفتح والكسر قراءتان وهو الضيق وكل ضيق حرج والحرجة الغيضة والجمع حروج
وحرجات وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحرج موضع الشجر الملتف فقلب الكافر لضيقه لا

تصل إليه المعرفة كما لا تصل الشاة إلى الشجر الملتف أو تدخل رأسها بين الشجر فيصعب عليها إخراجها فتقع في حرج، والحرج الإثم.

3 أصل الرجس في اللغة النتن وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه فكما يجعل صدر الكافر ضيقاً لا يقبل الهدى يجعل عليه الرجس فيقبل كل خبيث نتن من الأقوال والاعتقادات.

4 دار السلام الجنة والسلام هو الله فدار السلام كبيت الله وهناك معنى آخر وهو أنها دار السلامة من كل أذى ومكروه وآفة.

5 نُصِبَ الظرف بفعل محذوف تقديره يقول يوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن الخ.

6 حذف لفظ الاستمتاع إيجازاً لدلالة السياق وحرف الجر عليه أي قد استكثرتم من الاستمتاع من الإنس.

(2/117)

بوالونهم على الفساد والشر والشرك والكفر {ربنا} أي يا ربنا {استمتع بعضنا ببعض} أي كل منا تمتع بخدمة الآخر له وانتفع بها، يريدون أن الشياطين زينت لهم الشهوات وحسنت لهم القبائح وأغرتهم بالمفاسد فهذا انتفاعهم منهم وأما الجن فقد انتفعوا من الإنس بطاعتهم والاستجابة لهم حيث خبثوا خبثهم وضلوا ضلالهم. وقولهم {وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا} أي واستمر ذلك منا إلى أن انتهينا إلى أجلنا الذي أجلته لنا وهو نهاية الحياة الدنيا وما نحن بين يديك، كأنهم يعتذرون بقولهم هذا فرد الله تبارك وتعالى عليهم بإصدار حكمه فيهم قائلاً: {النار مثواكم} خالدين فيها إلا ما شاء الله {ومعنى مثواكم: مقامكم الذي تقيمون فيه أبداً.

ومعنى قوله {إلا ما شاء الله} هو استثناء 2 لبيان إرادة الله المطلقة التي لا يقيدتها شيء، إذ لو شاء أن يخرجهم من النار لأخرجهم أي ليس هو بعاجز عن ذلك، ومن الجائز أن يكون هذا الاستثناء المراد به من كان منهم من أهل التوحيد ودخل النار بالفسق والفجور وكبير الذنوب بإغواء الشياطين له فإنه يخرج من النار بإيمانه، ويكون معنى (ما) (من) أي إلا من شاء الله. والله أعلم بمراده، وقوله في ختام الآية، {إن ربك حكيم عليم}، ومن مظاهر حكمته وعلمه إدخال أهل الكفر والمعاصي النار أجمعين الإنس والجن سواء.

هداية الآيات

من هداية الآيات .:

1- بيان سنة الله تعالى في الهداية والإضلال.

2- بيان صعوبة وشدة ما يعاني الكافر إذا عرض عليه الإيمان.

3- القلوب الكافرة يلقي فيها كل ما لا خير فيه من الشهوات والشبهات وتكون مقراً للشيطان.

- 4- فضيلة الذكر المنتج للتذكر الذي هو الاتعاظ فالعمل.
5- ثبوت التعاون بين أخبات الإنس والجن على الشر والفساد.
6- إرادة الله مطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا يؤثر فيها شيء.

1 المثوى المقام أي النار موضع مقامكم.

2 ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في هذا الاستثناء وما ذكرته في التفسير أحسن ما يؤول به هذا الاستثناء الإلهي في هذه الآية وفي آية هود.

(2/118)

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)

شرح الكلمات:

نولي بعض الظالمين بعضاً : أي نجعل بعضهم أولياء بعض بجامع كسبهم الشر والفساد.

بما كانوا يكسبون : أي من الظلم والشر والفساد.

ألم يأتكم رسل منكم: الاستفهام للتوبيخ والرسول جمع رسول من أوحى الله تعالى إليه شرعه وأمره بإبلاغه للناس، هذا من الإنس أما من الجن فهم من يتلقون عن الرسل من الإنس ويبلغون ذلك إخوانهم من الجن، ويقال لهم النذُر.

يقصون عليكم آياتي : يخبرونكم بما فيها من الحجج متتبعين ذلك حتى لا يتركوا شيئاً إلا بلغوكم إياه وعرفوكم به.

وينذرونكم لقاء يومكم : أي يخوفونكم بما في يومكم هذا وهو يوم القيامة من العذاب والشقاء.

وأهلها غافلون: لم تبلغهم دعوة تعرفهم بربهم وطاعته، ومالهم عليها من جزاء..

(2/119)

معنى الآيات:

قوله تعالى: {وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون} إخبار منه تعالى بسنته في أهل

الظلم وهي أن يجعل بعضهم أولياء بعض بمعنى يتولاه بالنصرة والمودة بسبب الكسب السيئ الذي يكسبونه على نحو موالاة شياطين الإنس للجن فالجامع بينهم الخبث والشر وهؤلاء الجامع بينهم الظلم والعدوان، ولا مانع من حمل هذا اللفظ على تسليط الظالمين بعضهم على بعض على حد: ولا ظالم إلا سيئلتى بأظلم 1. كما أنه تعالى سيوالي يوم القيامة إدخالهم النار فريقاً بعد فريق وكل هذا حق وصالح لدلالة اللفظ عليه.

وقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس} إخبار منه تعالى بأنه يوم القيامة ينادي الجن والإنس موبخاً لهم فيقول: {ألم يأتكم رسل منكم 2 يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا} أي ألم يأتكم رسل من جنسكم تفهمون عنهم ويفهمون عنكم {يقصون عليكم آياتي} أي يتلونها عليكم ويخبرونكم بما تحمله آياتي من حجج وبراهين لتؤمنوا بي وتعبدوني وحدي دون سائر مخلوقاتي، وينذرونكم أي يخوفونكم، لقاء يومكم هذا الذي أنتم الآن فيه وهو يوم القيامة والعرض على الله تعالى. وما يتم فيه من جزاء على الأعمال خيرها وشرها وأن الكافرين هم أصحاب النار. فأجابوا قائلين: شهدنا على أنفسنا- وقد سبق أن غرتهم 3 الحياة الدنيا فواصلوا الكفر والفسق والظلم- {وشهدوا على أنفسهم 4 أنهم كانوا كافرين}.

هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية أما الثالثة (131) فقد تضمنت الإشارة إلى علة إرسال الرسل إلى الإنس والجن إذ قال تعالى {ذلك 5 أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم 6

1 في هذا المعنى قول الشاعر:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيئلى بظالم

2 قوله منكم فيه تغليب الأثر على الجن في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث إذ الرسل من الإنس لا غير ومن الجن نذر ينذرونهم بما يتلقونه عن الرسل من الإنس كما قال تعالى {فلما فُضي ولوا إلى قومهم منذرين} وشاهد آخر في قوله تعالى {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} ، المراد البحر الملح فقط وفي وصف الرسل بلفظ منكم زيادة في إقامة الحجة عليهم.

3 غرتهم إذ عجلت لهم طبيباتهم فيها فانفردوا بزخارفها وزينتها وطول العمر فيها.

4 قال مقاتل هذا معنى شهدت عليهم الجوارح بالشرك.

5 ذلك في موضع رفع أي الأمر ذلك وإن مخففة من الثقيلة أي المشددة واسمها ضمير الشأن محذوف وذلك لأن هذا الخبر له شأن يجدر أن يعرف والتقدير الأمر ذلك لأنه- أي الشأن- لم يكن ربك مهلك القرى بظلم الخ.

6 الباء في بظلم سببية أي بسبب ظلمهم وجملة وأهلها غافلون حالية.

وأهلها غافلون} أي ذلك الإرسال كان لأجل أنه تعالى لم يكن من شأنه ولا مقتضى حكمته أنه يهلك أهل القرى بظلم منه وما ربك بظلام للعبيد ولا بظلم منهم وهو الشرك والمعاصي وأهلها غافلون لم يؤمروا ولم ينهوا، ولم يعلموا بعاقبة الظلم وما يحل بأهله من عذاب.

وفي الآية الأخيرة (132) أخبر تعالى أن لكل عامل 1 من خير أو شر درجات من عمله إن كان العمل صالحاً فهي درجات في الجنة، وإن كان العمل سيئاً فاسداً فهي درجات في النار، وهذا يتم حسب علم الله تعالى بعمل كل عامل وهو ما دل عليه قوله، {وما ربك بغافل عما يعملون}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله تعالى في أن الأعمال هي سبب الموالاة بين الإنس والجن فذو العمل الصالح يوالي أهل الصلاح، وذو العمل الفاسد يوالي أهل الفساد.

2- التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا.

3- بيان العلة في إرسال الرسل وهي إقامة الحجّة على الناس، وعدم إهلاكهم قبل الإرسال إليهم.

4- الأعمال بحسبها يتم الجزاء فالصالحات تكسب الدرجات، والظلمات تكسب الدرجات.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

1 لكل عامل أي من الإنس والجن.

(2/121)

مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

شرح الكلمات:

الغني: عن كل ما سواه، فغناه تعالى ذاتي ليس بمكتسب كغني غيره.

ذو الرحمة: صاحب الرحمة العامة التي تشمل سائر مخلوقاته والخاصة بالمؤمنين من عباده.

ويستخلف: أي ينشئ خلقاً آخر يخلفون الناس في الدنيا.

إن ما توعدون لآت: إن ما وعد الله تعالى به عباده من نعيم أو جحيم لآت لا محالة.

على مكانتكم: أي على ما أنتم متمكنين منه من حال صالحة أو فاسدة.

عاقبة الدار: أي الدار الدنيا وهي سعادة الآخرة القائمة على الإيمان والعمل الصالح.
إنه لا يفلح الظالمون: أي لا يفوز الظالمون بالنجاة من النار ودخول الجنان لأن ظلمهم يوبقهم في الآخر.

معنى الآيات:

بعد تلك الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده فيها وبيان جزاء من أقام بها، ومن ضيعها في الدار الآخرة.

خاطب الرب تبارك وتعالى رسوله قائلاً: {وربك الغني 1 ذو الرحمة} أي ربك الذي أمر عباده بطاعته ونهاهم عن معصيته هو الغني عنهم وليس في حاجة إليهم، بل هم الفقراء إليه المحتاجون إلى فضله، ورحمته قد شملتهم أولهم وآخرهم ولم تضق عن أحد منهم، ليعلم أولئك العادلون بربهم الأصنام والأوثان أنه تعالى قادر على إزهابهم بإهلاكهم بالمرّة، والإتيان بقوم آخرين أطوع لله تعالى منهم، وأكثر استجابة له منهم: {إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين} وليعلموا أن ما يوعدونه من البعث والحساب والجزاء لآت لا محالة وما أنتم بمعجزين الله تعالى ولا فائنينه بحال

1 الغني هو الذي لا يحتاج إلى غيره وكل غنى من الخلق غناه إضافي غير حقيقي أما غنى الله تعالى فهو حقيقي فقله وربك الغني أي الغني المطلق الذي لا يشاركه فيه غيره ولذا كان في الصيغة قصر الغنى عليه تعالى.

(2/122)

ولذا سوف يجزي كلاً بعمله خيراً كان أو شراً وهو على ذلك قدير.
هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية أما الآية الثالثة (135) فقد تضمنت أمر الله تعالى للرسول أن يقول للمشركين من قومه وهم كفار قريش بمكة {اعملوا 1 على مكانتكم} ما دتم مصرين على الكفر والشرك {إني عامل} على مكانتي فسوف 2 تعلمون من تكون له عاقبة دار 3 الدنيا وهي الجنة دار السلام أنا أم أنتم مع العلم أن الظالمين لا يفلحون بالنجاة من النار ودخول الجنان، ولا شك أنكم أنتم الظالمون بكفركم بالله تعالى وشرككم به.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير غنى الله تعالى المطلق عن سائر خلقه.

2- بيان قدرة الله تعالى على إزهاب الخلق كلهم والإتيان بآخرين غيرهم.

3- صدق وعد الله تعالى وعدم تخلفه.

4- تهديد المشركين بالعذاب إن هم أصروا على الشرك والكفر والذي دل عليه قوله {اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار} الدنيا {إنه لا يفلح الظالمون}.
وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ
فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ

- 1 هذا الأمر للتهديد، والمكانة هي المكان كالدارة والدار والمراد بها الحال التي عليها الإنسان من قوة أو ضعف أو خير أو شر أو إصلاح أو إفساد.
- 2 الجملة تحمل التهديد الشديد وهي تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم واثق من نصره وحسن عاقبته وهو كذلك إذ الله تعالى الذي بيده الأمر هو الذي أمره أن يعلن عن هذا التهديد.
- 3 العاقبة لغة آخر الأمر وأثر عمل العامل، فعاقبة كل شيء هي ما ينجلي عنه الشيء من نتيجة وأثر وتأنيث العاقبة بالنظر إلى تأويلها بالحالة والحالة مؤنثة.

(2/123)

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ (137) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) فَذُ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)

شرح الكلمات:

مما ذرأ: ما خلق.

من الحرث والأنعام: الحرث كل ما يحرث له الأرض من الزروع، والأنعام: الإبل والبقر والغنم.

نصيباً: حظاً وقدرًا معيناً.

لشركائنا: شركاؤهم أوثانهم التي أشركوها في عبادة الخالق عز وجل.

(2/124)

ساء ما يحكمون: قبح حكمهم في ذلك إذ آثروا أوثانهم على الله.

ليردوهم : اللام لام العاقبة ومعنى يردوهم: يهلكوهم.

وليلبسوا : ليخلطوا عليهم دينهم.

حجر: أي ممنوعة على غير من لم يأذنوا له في أكلها.

حرمت ظهورها : أي لا يركبونها ولا يحملون عليها.

افتراء على الله : أي كذباً على الله عز وجل.

على أزواجنا: أي إناثنا.

وإن يكن مية: أي إن ولد ما في بطن الحيوان ميتاً فهم فيه شركاء الذكور والإناث سواء.

سفهأ بغير علم : حمقاً وطيشاً وعدم رشد وذلك لجهلهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في التنديد بأفعال العادلين بربهم أصنامهم وأوثانهم فأخبر تعالى عما كانوا يبتدعونه من البدع ويشرعون من الشرائع بدون علم ولا هدى ولا كتاب مبين فقال تعالى عنهم ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾¹ أي جعل أولئك العادلون بربهم الله تعالى مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً أي قسماً كما جعلوا للآلهة التي يؤلهونها مع الله سبحانه وتعالى نصيباً، ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾²، وهذا لشركائنا. . وقوله تعالى: ﴿بزعمهم﴾ لأنه سبحانه وتعالى ما طلب منهم ذلك ولا شرعه لهم وإنما هم يكذبون على الله تعالى ثم إذا أنبت أو أنتج ما جعلوه لله، ولم ينبت أو ينتج ما جعلوه للشركاء حولوه إلى الشركاء بدعوى أنها فقيرة وأن الله غني، وإذا حصل العكس لم يحولوا ما جعلوه للآلهة لله بنفس الحجة وهي أن الشركاء فقراء، والله غني.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ وهو تحيز ممقوت وتحكم فاسد فلذا قبح تعالى ذلك عليهم فقال ﴿ساء

1 في الكلام أيجاز إذ حذف منه المقابل وهو وجعلوا لآلهتهم نصيباً وحذفه كان لدلالة ما بعده عليه.

2 الزعم بفتح الزاي وقد تضم وتكسر أيضاً لغات والفتح أشهر والزمع الكذب قال شريح القاضي رحمه الله تعالى إن لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا وقد كذب المشركون فيما جعلوه لله تعالى حيث لم يشرع ذلك لهم وإنما هم مفتاتون.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى أما الثانية (137) وهي قوله تعالى ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ يريد وكذلك التحكم الباطل والإدعاء الكاذب في جعل الله شيئاً مما ذرأ من الحرث والأنعام، ثم عدم العدل بين الله تعالى وبين شركائهم زين لكثير من المشركين شركاؤهم وهم شياطينهم من الجن والإنس قتل أولادهم كالمؤودة من البنات خوف العار، وكقتل الأولاد الصغار خوف الفقر، أو لنذرنا للآلهة¹، وفعل الشياطين ذلك من أجل أن يردوهم أي يهلكوهم، ويلبسوا عليهم دينهم² الحق أن يخلطوه لهم بالشرك، وهو معنى قوله تعالى ﴿ليردوهم³ ويلبسوا عليهم دينهم﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ هو كما قال إذ لو أراد تعالى منعهم من ذلك لمنعهم⁴ وهو على كل شيء قدير، إذا فذرهم أيها الرسول وما يفترون من الكذب في هذا التشريع الجاهلي الباطل القبيح.

هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة (138) وهي قوله تعالى: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر⁵ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه﴾. فقد تضمنت هذه الآية ثلاثة ضروب من تشريع الجاهلية وأباطيلهم:

الأول: تحريمهم بعض الأنعام والحرث وجعلها لله وللآلهة التي يعبدونها مع الله.

الثاني: أنعام أي إبل حرموا ركوبها كالسائبة والحام.

الثالث: إبل لا يذكرون اسم الله عليها فلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحال ولا إن حملوا عليها.

- 1 كما نذر عبد المطلب ولده عبدالله للآلهة، ثم فداه بمائة من الإبل.
- 2 فإن قيل: وهل كان لهم دين حق؟ الجواب: نعم كان لهم دين حق وهو ما جاءهم به إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ويطول الزمان وفتنة الشيطان فسد عليهم.
- 3 اللام هنا لام العاقبة والصيرورة.
- 4 في هذا رد على القدرية وفيه تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم وتخفيف عليه.
- 5 في لفظ حجر الفتح والضم والكسر ومعناه المنع وسمي العقل حجراً لأنه يمنع من قول وفعل القبيح وحجر القاضي على المفلس منعه من التصرف في المال وهو مشتق من الحرج بالكسر وهي لغة في الحرج الذي هو الضيق والإثم.

(2/126)

وقوله تعالى في ختام الآية ﴿افتراء عليه﴾ أي كذباً على الله تعالى لأنه تعالى ما حرم ذلك عليهم وإنما حرموه هم بأنفسهم وقالوا حرمه الله علينا، ولذا توعدهم الله تعالى على كذبهم هذا بقوله: ﴿سيجزئهم بما كانوا يفترون﴾ أي سيثيبهم الثواب الملائم لكذبهم وهو العذاب الأخروي.

هذا ما دلت عليه الآية الثالثة أما الآية الرابعة (139) {وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتاً فهم فيه شركاء} فقد تضمنت تشريعاً آخر باطلاً اختلقوه بأنفسهم وزعموا أن الله شرعه لهم وهو أنهم حرّموا ما في بطون بعض الأنعام على الإناث، وجعلوها حلالاً للذكور خالصة لهم دون النساء فلا يشرب النساء من ألبانها ولا يأكلن لحوم أجنتها إن ذبحوها ولا ينتفعن بها بحال، اللهم إلا أن ولد الجنين ميتاً فإنهم لا يحرّمونه على النساء ولا يخصون به الذكور فيحل أكله للنساء والرجال معاً، ولذا توعدهم تعالى بقوله {سيجزئهم وصفهم 1 إنه حكيم عليم} أي سيثيبهم على هذا الكذب بما يستحقون من العذاب إنه حكيم في قضائه عليهم 2 بعباده.

هذا ما دلت عليه الآية الرابعة أما الخامسة (140) فقد أخبر تعالى بخسران أولئك المشرعين وضلالهم وعدم هدايتهم بقوله {قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً} أي جهلاً {بغير 3 علم، وحرّموا ما رزقهم الله} مما سبق ذكره {افتراءً على الله} كذباً {قد ضلوا! وما كانوا مهتدين}.

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الابتداع في الدين والتشريع المنافي لشرع الله تعالى وإن لم ينسب إلى الله تعالى.
- 2- ما ينذر الجهال اليوم من نذور للأولياء وإعطائهم شيئاً من الأنعام والحرث والشجر هو من عمل المشركين زينه الشيطان لجهال المسلمين.
- 3- حرمة قتل النفس لأي سبب كان وتحديد النسل اليوم والزام الأمة به من بعض

1 أي كذبهم وقيل في الوصف كذب لأنهم وصفوا بعض الأجنة بالحرمة وبعضاً آخر بالحلية وهو كقوله تعالى من سورة النحل {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام}.

2 قال القرطبي في الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول مخالفه وإن لم يأخذ به حتى يعرف فساد قوله ويعلم كيف يرد عليه لأن الله تعالى علم نبيه وأصحابه قول من خالفهم في زمانهم ليعرفوا فساد قولهم.

3 في الآية دليل واضح على حرمة القول بدون علم وكذا الاعتقاد والعمل فلا يحل لأحد أن يعتقد أو يقول أو يعمل بدون علم شرعي قد تمكن من معرفته.

(2/127)

الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم كقتل البنات خشية العار والأولاد خشية الفقر.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالرَّيْثُونَ وَالرُّمَّانَ

مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نُبُوْنِي بَعْلِمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ
قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

(2/128)

شرح الكلمات:

أنشأ جنات : خلق جنات جمع جنة وهي البستان.
معروشات: ما يعمل له العريش من العنب، وما لا يعرش له من سائر الأشجار.
مختلفاً أكله: أي ثمره الذي يأكل منه.
متشابهاً: في الورق وغير متشابهه في الحب والطعم.
حقه: ما وجب فيه من الزكاة.
يوم حصاده : يوم حصاده إن كان حباً وجذاذه إن كان نخلاً.
ولا تسرفوا: في إخراجها: أي بأن لا تبقوا لعيالكم منه شيئاً.
حمولة : الحمولة ما يحمل عليها من الإبل.
وفرشا : الفرش الصغار من الحيوان.
خطوات الشيطان : مسالكه في التحريم والتحليل للإضلال والغواية.
أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين: أنثى الضأن وأنثى الماعز ذكراً كان أو أنثى.
نبنوني بعلم : خبروني بأيهما حرم بعلم صحيح لا بوسواس الشياطين.
أم كنتم شهداء: أي حاضرين وقت تحريمه تعالى ذلك عليهم إن كان قد حرمه كما تزعمون.
معنى الآيات:

لما توعد الحق تبارك وتعالى المفترين عليه حيث حرموا وحلوا ما شاءوا ونسبوا ذلك إليه افتراء عليه
تعالى، وما فعلوه ذلك إلا لجهلهم بالله تعالى وعدم معرفتهم بعلمه وقدرته وإلا لما اتخذوا له أنداداً من
الأحجار وقالوا: شركاؤنا، وشفعاؤنا عند الله. ذكر تعالى في هذه الآيات الأربع ظاهر قدرته وعلمه
وحكمته وأمره ونهيه وحجابه في إبطال تحريم المشركين ما أحل الله لعباده فقال تعالى: (وهو الذي
أنشأ جنات 1) أي بساتين وحدائق من العنب

1 الجبّات: جمع جنة وهي البستان وسمي البستان جنة لأنه لكثرة أشجاره يجن أي يستر الكائن فيه، وسمي الجنين في البطن جنيناً لاجتئانه واستتاره ببطن أمه.

(2/129)

معروشات 1 أي محمول شجرها على العروش التي توضع للعنب ليرتفع فوقها وغير معروشات أي غير معرش لها، وأنشأ النخل والزرع مختلفاً ثمرة وطعمه، وأنشأ الزيتون والرمان متشابهاً في الورق، وغير متشابه في الحب والطعم أيضاً. وأذن تعالى في أكله وأباحه وهو مالكة وخالقه فقال: {كلوا من ثمرة إذا أثمر} أي نضج بعض النضج وأمر بإخراج الواجب فيه وهو الزكاة فقال {وآتوا حقه يوم 2 حصاده} أي بعد درسه وتصفيته إذ لا يعطى السنبل، ونهى عن الإسراف وهو تجاوز الحد في إخراج الزكاة غلوا حتى لا يبقوا لمن يعولون ما يكفيهم، فقال: {ولا تسرفوا إنه لا يحب 3 المسرفين} وأنشأ من الأنعام: الإبل والبقر والغنم {حمولة} وهي ما يحمل عليها لكبرها {وفرشاً} وهي الصغار التي لا يحمل عليهما، وأذن مرة أخرى في الأكل مما رزقهم سبحانه وتعالى من الحبوب والثمار واللحوم وشرب الألبان، فقال: {كلوا مما رزقكم الله} ونهى عن اتباع مسالك الشيطان في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم فقال: {ولا تتبعوا خطوات الشيطان} وعلل للنهي فقال: {إنه لكم عدو مبين} ومن عرف عدوه اتقاه ولو بالبعد عنه، وأنشأ {ثمانية أزواج من الضأن اثنين}.
وهما الكبش والنعجة، {ومن المعز اثنين} وهما التيس والنعزة، وأمر رسوله أن يحاج المفترين في التحريم والتحليل فقال له {قل} يا رسولنا لهم {الذكريين 4 حرم} الله عليكم {أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين} أي النعجة والنعزة {نبؤني بعلم إن كنتم صادقين} فإن قلتم حرم الذكريين فلازم ذلك جميع الذكور حرام، وإن قلتم حرم الأنثيين فلازمه أن جميع الإناث حرام وإن قلتم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فكل ما ولد منهما حرام ذكراً كان أو أنثى فكيف إذا حرمتم البعض وحللتم البعض فبأي علم أخذتم نبؤوني به إن كنتم صادقين وقوله تعالى {ومن الإبل اثنين} وهما الناقة والجمال، {ومن البقر اثنين} وهما الثور والبقرة {قل الذكريين 5 حرم أم الأنثيين} أما اشتملت عليه أرحام 6

1 وقيل المعروشات: ما يعني به من الشجر على اختلافه، وغير المعروشات وهو شجر البوادي والجبال وما في التفسير أولى لقوته ودلالة اللفظ عليه.

2 كان قبل فريضة الزكاة يتعين على من حصد أو جد ثمرة وأتاه المساكين أن يعطيهم شيئاً مما بين يديه قل أو كثر ولما فرضت الزكاة وحددت مقاديرها خصص هذا بها حيث بين الحق المجمل هنا.

3 في الآية دليل حرمة الإسراف وهو محرم في كل شيء وهو الخروج عن حد الاعتدال والقصد.

- 4 الاستفهام للإنكار أي ينكر عليهم أن يكون الله حرم ذلك.
- 5 إبطال لما حرموا من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.
- 6 إبطال لقولهم: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا.

(2/130)

{الأنثيين} ، فهل حرم الذكزين أو الأنثيين هذه الأزواج الأربعة فإن حرم الذكزين فسائر الذكور محرمة، وإن حرم الأنثيين فسائر الإناث محرمة، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين وحينئذ يكون كل مولود منهما محرماً ذكراً كان أو أنثى، وبهذا تبين أنكم كاذبون على الله مفترون فالله تعالى لم يحرم من هذه الأزواج الثمانية شيئاً، وإنما حرم الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. وقوله تعالى {أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله} بهذا التحريم فهو تبكييت لهم وتقريع، إذ لم يحرم الله تعالى هذا الذي حرموه، ولم يوصهم بذلك ولم يكونوا حال الوصية حضوراً، وإنما هو الافتراء والكذب على الله تعالى.

وأخيراً سجل عليهم أنهم كذبة ظالمون مضلون وخيرهم بغير علم، وأنهم لا يستحقون الهداية فقال عز وجل: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}.

هداية الآيات.

من هداية الآيات :

- 1- إباحة أكل التمر والعنب والرمان والزيتون.
- 2- وجوب الزكاة في الزيتون والتمر والحبوب إذا بلغت النصاب وهو خمسة أوسق والوسق ستون صاعاً، والصاع أربع حفنات.
- 3- جواز الأكل من الثمر قبل جذاذه وإخراج الزكاة 2 منه.
- 4- حرمة الإسراف في المال بأن ينفقه فيما لا يعنى، أو ينفقه كله ولم يترك لأهله شيئاً.
- 5- إباحة أكل بهيمة الأنعام وهي ثمانية أزواج، ضأن 3 وماعز، وإبل وبقرة وكلها ذكر وأنثى.
- 6- إبطال تشريع الجاهلية في التحريم والتحليل، فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام

1 يدخل في هذه الخطاب دخولاً أولاً عمرو بن لحيّ أذ هو أول من جلب الأصنام للحجاز ويدخل فيه كذلك أول من سيب السوائب الخ..

2 الضأن من ذوات الصوف والمعز من ذوات الشعر.

3 اختلف في زكاة التين والرايح أنه إذا بلغ خمسة أوسق بعد يبسه يزكى لأنه يدخر وبقنات واختلف

في الخرص للتمر والعنب والجمهور على جوازه للحديث الوارد في ذلك وهو "وإنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكي تحصى الزكاة قل أن تؤكل الثمار وتفرق". رواه الدار قطني.

(2/131)

ما حرمه الله رسوله.

7- جواز الجدل والحجاج لإحقاق الحق أو إبطال الباطل.

8- لا أظلم ممن يكذب على الله تعالى، فيشرع لعباده ما لم يشرع لهم.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَیْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

شرح الكلمات:

محرمًا على طاعم يطعمه: محظورًا ممنوعًا على آكل يأكله.

ميتة أو دمًا مسفوحًا: الميتة: ما مات دون تركية، والدم المسفوح؟ المصبوب صبا لا المختلط باللحم والعظام.

رجس: نجس وقذر قبيح محرم.

أو فسقا أهل لغير الله به : الفسق الخروج عن طاعة الله والمراد ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه وإنما ذكر عليه اسم الأصنام أو غيرها، والإهلال

(2/132)

رفع الصوت باسم المذبح له.

فمن اضطر غير باغ ولا عاد : اضطر: ألجأته الضرورة وهي خوف الهلاك، والباغ الظالم، والعادي: المعتدي المجاوز للحد.

هادوا : اليهود.

ذي ظفر : صاحب ظفر وهو الحيوان الذي لا يفرق 1 أصابعه كالإبل والنعام.

ما حملت ظهورها أو الحوايا : أي الشحم العالق بالظهر، والحوايا2: المباعر والمصارين والأمعاء.

أو ما اختلط بعظم : أي عفى لهم عن الشحم المختلط بالعظم كما عفي عن الحوايا والعالق بالظهر.
ببغيتهم : أي بسبب ظلمهم.

ولا يرد بأسه : بطشه وعذابه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحجاج مع أولئك المحرمين ما لم يحرم الله ففي أولى هذه الآيات يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للذين يحرمون افتراءً على الله ما لم يحرم {لا أجد فيما أوحى إلي}- وأنا رسول الله- {محرمًا} أي شيئاً محرماً {على طاعم يطعمه} أي أكل يأكله اللهم {إلا أن يكون ميتة} وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه أي لم يذك الذكاة الشرعية، {أو دمًا مسفوحاً} أي مصبوباً صلباً لا الدم المختلط بالعظم واللحم كالكبد والطحال، {أو لحم خنزير فإنه} أي لحم الخنزير {رجس} أي نجس قدر حرام، {أو فسقاً} أهل لغير الله به {أي ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه أو ذكر اسم الأصنام عليه فهو فسق أي خروج عن طاعة الرب الذي أمر من أراد ذبح بهيمة أن يذكر عليها اسمه ليحل له أكلها.

1 في ذي الظفر تفاسير أرجحها ما في التفسير وهو ما ليس بمنفرج الأصابع وقيل الإبل خاصة، وقيل كل ذي حافر من الدواب.

2 واحد الحوايا حاوية. وحوية والمراد بها ما تحوى من الأمعاء واستدار منها.

3 تقدير الكلام أو أن يكون المراد أكل ما أهل لغير الله به فصار فسقاً لذلك إذ الذبح لغير الله شرك وخروج من الدين، والفسق يطلق على التفصي من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله.

(2/133)

هذا معنى قوله تعالى: {قل لا أجد فيما أوحى إلي مجرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به}.

وقوله تعالى {فمن اضطر غير باغ ولا عاد} أي غير ظالم بأكل الميتة وما ذكر معها وذلك بأن يأكلها تلذذاً بها لا دفعاً لغائلة الموت وهو كاره لأكلها {ولا عاد} أي غير متجاوز القدر الذي أبيح له وهو ما يدفع به غائلة الموت عن نفسه {فإن ربك غفور رحيم} ومن مظاهر مغفرته ورحمته أنه أذن للمضطر بالأكل مما هو حرام في الضرورة.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (145) أما الآية الثانية فبعد أن بين تعالى أنه لم يحرم على المؤمنين غير ما ذكر من الميتة وما ذكر بعدها أخبر أنه حرم على اليهود أكل كل ذي ظفر وهو ما ليس له أصابع مفرقة مثل الإبل والنعام والبط والإوز ومن البقر والغنم حرم عليهم شحومهما وهو الشحم

اللاصق بالكرش والكلى، وأباح لهم من الشحوم ما حملته البقرة أو الشاة على ظهرها، وما كان لاصقاً بالماعز وهي الحوايا جمع حاوية وكذا الشحم المختلط بالعظام كشحم اللية، وشحم الجانب والأذن والعين وما إلى ذلك.

هذا ما تضمنه قوله تعالى من الآية الثانية {وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم} ثم أخبر تعالى بأن هذا التحريم عليهم كان عقوبة لهم بسبب ظلمهم وإجرامهم فقال {ذلك جزيناهم ببغيهم}2 أي ذلك التحريم منا عليهم كان جزاء ظلمهم، وقوله {وانا لصادقون} فيما أخبرنا به عنهم، وهم الكاذبون إذ قالوا إنما حرم هذا على إسرائيل ونحن أتباع له أما نحن فلم يحرم علينا شيء وإنهم لكاذبون. وقوله تعالى {إن كذبوك} 3 أي اليهود فيما أخبرت به عنهم {فقل} لهم {رئكم ذو رحمة واسعة}4 ولذا لم يعالكم بالعقوبة وقد كذبتموه وكذبتم رسوله وافترتيم على رسله، ولكن ليس معنى ذلك أنكم نجوت من

- 1 هل هذه الآية منسوخة بآية المائدة؟ اختلف في ذلك والراجح أنها غير منسوخة إذ هي خبر والأخبار لا تتسخ وآية المائدة ذكرت المنخقة وما بعدها وهي داخلة في حكم الميتة، وما ذبح على النصب داخل في وما أهل به لغير الله إذاً فالآية محكمة.
- 2 من بغيهم قتلهم الأنبياء وأكل الربا وتبرج النساء واستحلال المحرمات بالحيل والفتاوى الفاسدة.
- 3 قيل إن المراد بالمكذبين المشركون، وقيل اليهود وكلاهما مكذب وكافر واللفظ يصدق عليهما معاً.
- 4 من مظاهر رحمته أنه يحلم على العصاة وينظرهم ويمهلهم لعلهم يتوبون فعدم تعجيله العقوبة هو دليل رحمته الواسعة.

(2/134)

العذاب فإن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين1 من أمثالكم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الميتة وأنواعها في سورة المائدة وهي المنخقة والموقودة، والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وحرمة الدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وما ذبح على النصب وحرم بالسنة الحمر2 الأهلية والبغال، وكل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور.
- 2- قد يُحرم العبد بالذنوب من كثير من الطيبات كما حصل لليهود.
- 3- إمهال الله تعالى المجرمين لا يدل على عدم عقوبتهم فإن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُمْ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ الَّذِينَ
يَسْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ

1 في الآية وعيد وتهديد وهو صالح لأن ينزل في الدنيا وفي الآخرة إذ العلة هي الإجماع وهو قائم
فهم متوكلون فيه ولذا لا بد من العقوبة ما لم تحصل توبة صادقة.

2 ذكر القرطبي أن علة تحريم الحمار قد تكون حاجة الناس للحمل عليه والركوب وذكر علة أخرى
وهي كونه نجساً وذكر عن الترمذي في نوادر الأصول أن الحمار أظهر جوهره الخبيث حيث نزا
على ذكره وتلوّط فسمى لذلك رجساً وليس في الدواب من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار والخنزير.

(2/135)

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

شرح الكلمات:

أشركوا: أي جعلوا لله شركاء له يعبدونهم معه.

ولا حرمننا من شيء: أي مما حرّمه من البحائر والسوائب والوصائل والحامات.

ذاقوا بأسنا: أي عذابنا.

تخرصون: تكذبون.

الحجة البالغة: الدليل القاطع للدعوى الباطلة.

هلم شهداءكم: أي أحضروهم.

يعدلون: أي به غيره من الأصنام وسائر المعبودات الباطلة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في رد ترهات وأباطيل العادلين برهبهم المشركين في ألوهيته سواء فذكر تعالى في
الآيتين (148) و(149) شبهة للمشركين يتخذونها مبرراً لشركهم وباطلهم وهي قولهم: {لو شاء الله
ما أشركنا ولا آبائنا ولا حرمننا من شيء} يريدون أن عدم مؤاخذه الله تعالى لنا ونحن نشرك به
ونحرم ما نحرمه دليل على رضا الله بذلك³ وإلا لمنعنا منه وحال دون فعلنا له، فرد الله تعالى هذه
الشبهة وأبطلها بقوله: {كذلك كذب الذين من قبلهم⁴ حتى ذاقوا بأسنا} أي مثل هذا التكذيب الصادر
من هؤلاء العادلين برهبهم من كفار قريش ومشركيها كذب الذين من قبلهم من الأمم، وما زالوا على
تكذيبهم حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلو كان تعالى راضياً بشركهم وشركهم وباطلهم لما أخذهم

فإمهال الله تعالى للناس لعلمهم يتوبون ليس دليلاً على رضاه بالشرك والشر، والحجة أنه متى انتهت فترة الإمهال نزل بالمكذبين العذاب.

- 1 إلى اليوم والغافلون من المسلمين يحتجون بما احتج به المشركون الأولون ويقولون لو شاء الله أن نصلي لصلينا ولو شاء الله أن نترك المحرم لتركناه وهو احتجاج باطل لا وزن له.
- 2 أي من البهيرة والسائبة والوصيلة والحام.
- 3 قولهم هذا دال على جهل مركب منهم بالله تعالى وحكمته وتدبيره وهذا ناتج عن كفرهم وعدم إيمانهم بالله وكتابه ورسوله، فالله أوجد العبادة في هذه الحياة ليبتليهم يجزيهم لا أن يجبرهم على ما يحب نهم.
- 4 في قوله كذلك كذب الذين من قبلهم دلالة على أن المشركين لم يريدوا من قولهم لو شاء الله ما أشركنا إلا رد قول الرسول وتكذيبه فيما جاء به ويدعوهم إليه حتى لكأن كلامهم هذا من باب كلمة حق أريد بها باطل.

(2/136)

وقوله تعالى {قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا} يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للمذنبين العادلين بربهم {هل عندكم من علم فتخرجوه} أي ليس لديكم علم على ما تدعونه فتخرجوه لنا، {إن تتبعون إلا الظن} أي ما تتبعون في دعاويكم الباطلة إلا الظن، {وإن أنتم إلا تخرصون} أي وما أنتم إلا تخرصون أي تقولون بالحزر والخرص فتكذبون، وقوله تعالى {قل فله 2 الحجة البالغة} أي يعلم رسوله أن يقول لهم بعد أن دحض شبهتهم وأبطلها إن لم تكن لكم حجة فله الحجة البالغة، ومع هذا {قلو شاء} هدايتكم {لهداكم أجمعين} وهو على ذلك قدير، وإنما حكمه في عباده وسنته فيهم أن يكلفهم اختباراً لهم ويوضح الطريق لهم ويقيم الحجة عليهم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها. هذا ما دلت عليه الآيات الأولى والثانية وأما الآية الثالثة (150) وهي قوله تعالى: {قل هلم شهداءكم 3 الذين يشهدون أن الله حرم هذا} أي الذين حرمتهم فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بهم "فإن شهدوا فلا نشهد معهم" وإن فرضنا أنهم يأتون بشهداء باطل يشهدون 4 فلا تقرهم أنت أبها الرسول على باطلهم بل بين لهم بطلان ما ادعوه، فإنهم لا يتبعون في دعاويهم إلا الأهواء، وعليه {لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا، والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون} ، وقد جمع هؤلاء المشركون كل هذه العظائم من الذنوب التكذيب بآيات الله، وعدم الإيمان بالآخرة، والشرك بربهم فكيف يجوز اتباعهم وهم مجرمون ضالون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والاستمرار فيها.
- 2- لا حجة إلا في قام على أساس العلم الصحيح.
- 3- الحكمة في عدم هداية الخلق كلهم مع قدرة الله تعالى على ذلك هو التكليف

- 1 إن في الموضوعين نافية بمعنى (ما) كما هي في التفسير.
- 2 فالله الفاء هنا هي الفاء الفصيحة إذ هي مفصحة عن كلام سابق ترتب عليه ما بعدها ترتب الجزاء على الشرط تقديره هنا فإن كان قولكم لمجرد إتباع الظن والحرص والحزر ولا علم لكم فله تعالى الحجة البالغة التي تصل إلى الحقيقة وتؤكد ما تبطل ما عداها.
- 3 الأمر هنا للتعجيز والشهداء جمع شهيد بمعنى شاهد.
- 4 أي كذبهم واعلم بأنهم شهداء زور فقله تعالى فلا تشهد معهم معناه كذبهم ولا تقرهم فإنهم شهداء زور لا غير.

(2/137)

والابتلاء .

- 4 - مشروعية الشهادة وحضور الشهود.
 - 5- عدم إقرار شهادة الباطل وحرمة السكوت عنها.
 - 6 - حرمة اتباع أصحاب الأهواء الذين كذبوا بآيات الله.
- قُلْ تَعَالَوْا أَنلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

شرح الكلمات :

اتل : اقرأ.

(2/138)

من إملاق : من فقر .

الفواحش: جمع فاحشة كل ما قبح واشتد قبحه كالزنى والبخل .

حرم الله : أي حرم قتلها وهي كل نفس إلا نفس الكافر المحارب .

إلا بالحق : وهو النفس بالنفس وزنى المحصن، والردة .

بالتي هي أحسن: أي بالخصلة التي هي أحسن .

أشده: الاحتلام مع سلامة العقل .

بالقسط: أي بالعدل .

إلا وسعها: طاقتها وما تتسع له .

تذكرون: تذكرون فتنعظون .

السبل: جمع سبيل وهي الطريق .

معنى الآيات:

ما زال السياق في إبطال باطل العادلين برهيم المتخذين له شركاء الذين يحرمون بأهوائهم ما لم يحرمه الله تعالى عليهم فقد أمر تعالى رسوله في هذه الآيات الثلاث أن يقول لهم: {أتعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم} لا ما حرمتموه أنتم بأهوائكم وزينه لكم شركاؤكم . ففي الآية الأولى جاء تحريم خمسة أمور وهي: الشرك، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد، وارتكاب الفواحش، وقتل النفس فقال تعالى: {قل تعالوا أتل ما حرم 2 ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً} فإن تفسيرية 3، ولا ناهية وهذا أول محرم وهو الشرك بالله تعالى، {وبالوالدين إحسانا}، وهذا أمر إذ التقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً، والأمر بالشيء نهي عن ضده فالأمر بالإحسان يقتضي تحريم الإساءة والإساءة إلى الوالدين هي عقوقهما، فكان عقوق الوالدين محرماً داخلاً ضمن المحرمات المذكورة في هذه الآيات الثلاث . {ولا تقتلوا

1 أي أقبلوا وتقدموا وما موصولة بمعنى الذي حرم ربكم عليكم وفي الآية دليل على وجوب بيان المحرمات للأمة حتى تتجنبها، والعلماء منوط بهم ذلك .

2 هذه الآيات الثلاثة: قل تعالوا أتل إلى قوله تتقون تضمنت عشرًا من الوصايا قال ابن عباس هي محكمات وأجمعت الشرائع الإلهية على تقريرها والعمل بها .

3 أي فسرت المحرم وهو الشرك بالله تعالى، وهو أول المحرمات وقدم لأنه أخطرها وأضرها بالإنسان .

أولادكم 1 من إملاق نحن نرزقكم وإياهم} فهذا المحرم الثالث وهو قتل الأولاد من الإملاق الذي هو الفقر وهذا السبب غير معتبر إذ لا يجوز قتل الأولاد بحال من الأحوال وإنما ذكر لأن المشركين كانوا يقتلون أطفالهم لأجله وقوله تعالى {نحن نرزقكم وإياهم} تعليل للنهي عن قتل الأولاد من الفقر إذ مادام الله تعالى يرزقكم أنتم أيها الآباء ويرزق أبناءكم فلم تقتلونهم؟ وفي الجملة بشارة للأب الفقير بأن الله تعالى سيرزقه هو وأطفاله فليصبر وليرج، ولا يقتل أطفاله. وقوله تعالى: {ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن}. هذا الأمر الرابع مما حرم الله تعالى، وهو فعل الفاحشة التي هي الزنى وسواء ما كان منه ظاهراً أو باطناً والتحريم شامل لكل خصلة قبيحة قد اشتد قبحها وفحش فأصبح فاحشة قولاً كانت أو فعلاً أو اعتقاداً، وقوله: {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق}2 هذا هو المحرم الخامس وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها وهي كل نفس ما عدا نفس المحارب فإنها مباحة للقتل، والحق الذي تقتل به النفس المحرمة واحد من ثلاثة وهي القود والقصاص فمن قتل نفساً متعمداً جاز قتله بها قصاصاً. والزنى بعد الإحصان فمن زنى وهو محصن وجب قتله رجماً بالحجارة كفارة له، والردة عن الإسلام، وقد بينت هذه الحقوق السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة" وقوله تعالى في ختام الآية {لعلكم تعقلون} أي ليعدكم بترك هذه المحرمات الخمس لأن تكونوا في عداد العقلاء، لأن من يشرك بربه صنماً أو يسيء إلى أبيه أو يقتل أولاده أو يفجر بنساء الناس أو يقتلهم، لا يعتبر عاقلاً أبداً إذ لو كان له عقل ما أقدم على هذه العظائم من الذنوب والآثام.

وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده}3، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان

1 استدل بهذه الآية من قال بتحريم العزل ومثله اليوم استعمال الحبوب لمنع الحمل والجمهور على الجواز للضرورة فقط لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في العزل: "ذلك الوأد الخفي" فإنه ان لم يدل على التحريم دل على الكراهية.

2 قوله تعالى إلا بالحق يخرج به نفس الكافر المحارب فقط فهي التي تقتل بحق الحرب والكفر، وما عداها فكل نفس محرمة القتل ولذا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفس الكافر المعاهد والذمي بقول من قتل معاهداً في غير كنهه أي في غير الحقيقة التي توجب قتله كقضه المعاهدة مثلاً. حرم الله عليه الجنة، والحق الذي تقتل به النفس المحرمة القتل هو قتل النفس. وزنى المحصن والردة والخروج عن إمام المسلمين والمفارقة للجماعة.

3 قيل الأشد مفرد لا جمع له بمنزلة الآنك أي الرصاص. وقيل واحده شدّ نحو فلس وافلس، وهو مأخوذ من شدّ النهار إذا ارتفع.

ذا قري، ويعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون} ففي هذه الآية جاء تحريم أربعة أمور هي: كل مال اليتيم، والتطفيف في الوزن، والجور في الأقوال والأحكام، ونكث العهد. فقوله تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم} أي بما ينقصه أو يفسده إلا بالحالة التي هي أحسن له نماءً وحفظاً وقوله {حتى يبلغ أشده} بيان لزمن اليتيم وهو من ولادته وفوت والده إلى أن يبلغ زمن الأشد وهو البلوغ، والبلوغ يعرف بالاحتلام أو نبات شعر العانة، وفي الجارية بالحيض أو الحمل، وبلوغ الثامنة عشرة من العمر وعلى شرط أن يبلغ اليتيم 1 عاقلاً فإن كان غير عاقل يبقى في كفالة كافله، وقوله تعالى: {وأوفوا الكيل} 2 والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها} أمر بتوفية الكيل والوزن، والأمر بالشيء نهي عن ضده، وبذا حرم بخس الكيل والوزن والتطفيف فيهما وقوله {بالقسط} أي بالعدل بحيث لا يزيد ولا ينقص، وقوله {لا تكلف نفساً إلا وسعها} أي طاقتها رفعاً للحرص عن المسلم في الكيل والوزن إذا هو نقص أو زاد بغير عمد ولا تساهل.

وقوله تعالى {وإذا قلتم فاعدلوا} 3 ولو كان ذا قري} هذا المحرم الثالث وهو قول الزور وشهادة الزور، إذ الأمر بالعدل في القول ولو كان المقول له أو فيه قريباً نهي عن ضده وهو الجور في القول. وقوله تعالى {وبعهد} 4 الله أوفوا} متضمن للمحرم الرابع وهو نكث العهد وخلف الوعد، إذ الأمر بالوفاء بالعهد نهي عن نكثها وعدم الوفاء بها، وقوله تعالى {ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون} إشارة إلى ما تضمنته هذه الآية الثانية مما حرم تعالى على عباده، وقوله {لعلكم تذكرون} أي ليعدكم بذلك لأن تذكروا فتتعضوا فتجتنبوا ما حرم عليكم. وقوله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} هذه هي الآية الثالثة من آيات الوصايا العشر 5 وقد تضمنت

1 لأن الرشد لا يكون إلا مع العقل والله يقول فإن أنستم منهم رشداً والرشد مقابل السفه وهو إساءة التصرف فيما أسند إليه من مال وغيره.

2 رد في التطفيف وعيد شديد قال تعالى ويل للمطففين، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق.

3 الأمر بالعدل في القول يتناول الأحكام والشهادات.

4 هذا الوفاء عام في كل ما عهد الله تعالى به إلى عباده من سائر الفرائض والواجبات وسائر التكاليف كما يتضمن العهود التي تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان.

5 هذه الوصايا العشر موجودة في أول التوراة ومع الأسف أضاعها اليهود لشقائهم.

الأمر بالتزام الإسلام عقائداً وعبادات وأحكاماً وأخلاقاً وآداباً، كما تضمنت النهي عن إتباع غيره من سائر الملل والنحل المعبر عنها بالسبل، ومادام الأمر بالتزام الإسلام يتضمن النهي عن ترك الإسلام فقد تضمنت الآية تحريماً ألا وهو ترك الإسلام وإتباع غيره هذا الذي حرم الله تعالى على عباده لا ما حرمة المشركون بأهوائهم وتزيين شركائهم وقوله تعالى : {ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} إشارة إلى التزام الإسلام وترك ما عداه ليعدكم بذلك للتقوى وهي اتقاء غضب الرب تعالى وعذابه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- هذه الوصايا العشر عليها مدار الإسلام وسعادة الإنسان في الدارين كان عبد الله بن مسعود يقول فيها "من سره أن ينظر إلى وصية رسول الله التي عليها خاتمه فليقرأ الآيات الثلاث من آخر سورة الأنعام: {قل تعالوا.... تتقون}.
 - 2- حرمة الشرك وحقوق الوالدين وقتل الأولاد والزنى واللواط وكل قبيح من قول أو عمل أو اعتقاد وقتل النفس إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وبخس الكيل والوزن، وقول الزور وشهادة الزور، ونكث العهد وخلف الوعد. والردة عن الإسلام، وإتباع المذاهب الباطلة والطرق الضالة.
 - 3- كمال المعقل باجتتاب المحرمات الخمس الأولى.
 - 4- الحصول على ملكة المراقبة باجتتاب المحرمات الأربع الثانية.
 - 5- النجاة من النار والخزي والعار في الدارين بالتزام الإسلام حتى الموت والبراءة من غيره من سائر المذاهب 1 والملل والطرق.
- ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ

1 روى الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطأً ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال هذه سبيلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها. ثم قرأ هذه الآية قل هذه سبيلي. وهذه صورة تقريبية.

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ

الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ

لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ
عَنْهَا سَنَجْرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157)

شرح الكلمات:

الكتاب : التوراة.

وتفصيلاً لكل شيء : تحتاج إليه أمة بني إسرائيل في عقائدها وعباداتها وفضائلها وأحكامها.
وهذا كتاب أنزلناه: القرآن الكريم.

مبارك: خيريته ونفعه وبركته دائمة.

على طائفتين من قبلنا: اليهود والنصارى.

عن دراستهم : أي قراءتهم لكتبهم لأنها بلسانهم ونحن لا نفهم ذلك.

وصدق عنها : أعرض عنها ولم يلتفت إليها.

سوء العذاب: أي سيء العذاب وهو أشده.

معنى الآيات:

هذا الكلام متصل بما قبله، فثم حرف عطف والمعطوف عليه هو قل تعالوا أتت الآيات أي ثم قل
يا رسولنا أتى ربي موسى الكتاب تماماً لنعمه {على الذي أحسن} طاعة ربه وهو

1 قال الزجاج: ثم ها هنا للعطف على معنى التلاوة، فالمعنى أتت ما حرم ربكم عليكم. ثم أتت عليكم
ما أتى الله موسى الخ. فهي إذاً لعطف الجمل وما كان لعطف الجمل فلا يراعى فيه تراخي الزمان.

(2/143)

موسى عليه السلام، {وتفصيلاً لكل شيء} مما تحتاج إليه أمة بني إسرائيل في عقائدها، وعباداتها
وأحكامها العامة والخاصة {وهدي} يتبينون به الحق والصواب، {ورحمة} لهم في دنياهم لما يحمله
من الدعوة إلى العدل والخير رجاء أن يوقنوا ببقاء ربهم.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى وهي قوله تعالى: {ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن
وتفصيلاً لكل شيء وهدي ورحمة لعلهم بقاء ربهم}1 أي بني إسرائيل {يؤمنون} فيعملون الصالحات
ويتخلون عن المفسدات والشور لما تجلبه لهم من غضب الله تعالى وعذابه.
أما الآية الثانية (155) فقد أشاد الله تعالى بالقرآن الكريم ممتناً بإنزاله وما أودع فيه من البركة التي
ينالها كل من يؤمن به ويعمل به ويتلوه تعبدًا وتقرباً وتعلماً.

هذا معنى قوله تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك} وقوله {فاتبعوه2...} أمر للعباد بإتباع ما جاء في
القرآن الكريم من عقائد وعبادات وشرائع وأحكام فإن من اتبعه قاده إلى السعادة والكمال في

الحياتين، وقوله {واتقوا 3 لعلكم ترحمون} أي اتقوا ترك العمل به ليعدكم ذلك الذي هو متابعة القرآن والتقوى للرحمة فترحمون في الدنيا والآخرة.

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} فمعناها: إن الله تعالى أنزل الكتاب على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأمره بتلاوته وإبلاغه الناس لئلا يقول الكافرون من العرب إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا اليهود والنصارى والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل، {وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} إذ لم نعرف لغتهم، ولم نعرف ما يقرأونه في كتابهم، فنقوم الحجة لكم علينا فقطعاً لهذه الحجة أنزلنا الكتاب. وقوله تعالى في الآية الرابعة: {أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} كما قطع تعالى عذرهم بإنزال كتابه الكريم لو قالوا يوم القيامة إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ونحن لم ينزل إلينا شيء فلذا ما عرفنا ربنا ولا عرفنا محابه ومكارهه فنطيعه بفعل محابه وترك مكارهه، قطع كذلك عذرهم لو قالوا

1 أي رجاء أن يؤمنوا ببقاء ربهم.

2 أي اعملوا بما فيه منتبحين ما فيه من أوامر ونوه تفعلون الأمر وتتركون النهي.

3 أي اتقوا تحريفه وتبديله كما فعلت اليهود.

(2/144)

لو أنا أنزل علينا الكتاب الهادي إلى الحق المعرف بالهدى لكننا أهدى من اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب قبلنا، فقال تعالى {فقد جاءكم بينة من ربكم} وهو القرآن الكريم ورسوله المبلغ له {وهدى ورحمة} أي وجاءكم الهدى والرحمة يحملهما القرآن الكريم، فأبي حجة بقيت لكم تحتجون بها عند الله يوم القيامة إنكم إن لم تقبلوا هذه البينة وما تحمله من هدى ورحمة فقد كذبتكم بآيات الله وصدفتم عنها ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، وسيجزىكم بما يجزي به المكذبين بآيات الله الصادقين عنها.

هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (157) {أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ} أي كراهية أن تقولوا. {فقد جاءكم 1 بينة من ربكم وهدى 2 ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان منة الله تعالى على موسى عليه السلام والثناء عليه لإحسانه.

2- تقرير عقيدة البعث والجزاء يوم القيامة.

- الإشادة بالقرآن الكريم، وما أودع الله فيه من البركة والهدى والرحمة والخير .

4- قطع حجة المشركين بإنزال الله تعالى كتابه وإرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

5- التنديد 3 بالظلم، وبيان جزاء الظالمين المكذبين بآيات الله المعرضين عنها.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا

1 أي بطل عذركم بمجيء النبي الأمي صلى الله عليه وسلم لكم وهو البيّنة وسمي بيّنة لكماله الخلفي والخلقى ولما معه من العلوم والمعارف الإلهية وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

2 الهدى والرحمة المراد بهما ما في القرآن الكريم من هدى ورحمة للمؤمنين بقريته. فمن أظلم ممن كذب بآيات الله.

3 وفي الحديث الصحيح: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة". وفي آخر الظلم يذر الديار بلا قع أي فقراً خالية.

(2/145)

إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160)

شرح الكلمات:

بعض آيات ربك : أي علامات الساعة منها طلوع الشمس من مغربها.

كسبت في إيمانها خيراً: من الطاعات والقربات.

فرقوا دينهم .: جعلوه طرائق ومذاهب تتعادي.

وكانوا شيعاً : طوائف وأحزاباً.

من جاء بالحسنة : أي أتى يوم القيامة بالحسنة التي هي الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته والعمل بطاعته وطاعة رسوله.

ومن جاء بالسئية: أي بالشرك بالله ومعاصيه.

معنى الآيات:

بعد ذكر الحجج وإنزال الآيات التي هي أكبر بيّنة على صحة التوحيد وبطلان الشرك، والعادلون

بربهم الأصنام مازلوا في موقفهم المعادي للحق ودعوته ورسوله فأنزل الله تعالى قوله: {هل

ينظرون.... { أي ما ينتظرون {إلا أن تأتيهم الملائكة} لقبض أرواحهم، {أو يأتي ربك} يوم القيامة
لفضل القضاء، {أو يأتي بعض آيات ربك} الدالة على قرب الساعة كطلوع الشمس من مغربها، إن
موقف الإصرار على التكذيب هو موقف المنتظر لما ذكر تعالى من الملائكة ومجيء الرب تعالى
أو مجيء علامات الساعة للفناء. وقوله تعالى {يوم يأتي بعض آيات ربك} الدالة على قرب
الساعة وهي طلوع الشمس من

1 الآيات بمعنى العلامات الدالة على قرب الساعة الكبرى منها عشر جاءت في حديث مسلم إذ
روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن
نتذكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات. طلوع الشمس من
مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم، وخروج الدجال وثلاثة
خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب. وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق
أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا.

(2/146)

مغربها إيداناً بقرب ساعة الفناء في هذه الحال يخبر تعالى أن نفساً لم تكن آمنت قبل ظهوره هذه
الآية لو آمنت بعد ظهورها لا يقبل منها إيمانها ولا تنتفع به لأنه أصبح إيماناً اضطرارياً لا اختيارياً،
كما أن نفساً آمنت به قبل الآية، ولكن لم تكسب في إيمانها خيراً وأرادت أن تكسب الخير فإن ذلك
لا ينفعها فلا تثاب عليه، لأن باب التوبة مفتوح إلى هذا اليوم وهو يوم 1 طلوع الشمس من مغربها
فإنه يغلق.

وقوله تعالى {قل انتظروا إنا منتظرون} يأمر الله رسوله أن يقول لأولئك العادلين بربهم المصرين
على الشرك والتكذيب: مادتم منتظرين انتظروا إنا منتظرون ساعة هلاككم فإنها آتية لا محالة.
هذا ما تضمنته الآية الأولى (158) أما الآيتان بعدها فإن الله تعالى أخبر رسوله بأن الذين فرقوا
دينهم 2 وكانوا شيعاً أي طوائف وأحزاباً وفرقاً مختلفة كاليهود والنصارى، ومن يبتدع من هذه الأمة
بدعاً فيتابع عليها فيصبحون فرقاً وجماعات ومذاهب مختلفة متطاحنة متحاربة هؤلاء الست منهم
في شيء {أي أنت بريء منهم، وهم منك بريئون، وإنما أمرهم إلى الله تعالى هو الذي يتولى جزاءهم
فإنه سيجمعهم يوم القيامة ثم يبينهم بما كانوا يعملون من الشر والخير لمن جاء بالحسنة فله عشر
أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله، وهم لا يظلمون} من قبلنا فلا نقص المحسن منهم
حسنة من حسناته، ولا نضيف إلى سيئاته سيئة ما عملها، هذا حكم الله فيهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- إثبات صفة الإتيان في عرصات القيامة للرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.
- 2- تقرير أشراف الساعة وإن طلوع الشمس منها وأنها متى ظهرت أغلق باب التوبة.
- 3- حرمة الفرقة في الدين وأن اليهود والنصارى فرقوا دينهم وأن أمة الإسلام أصابتها الفرقة كذلك بل وهي أكثر لحديث وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة.

1 روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك لحين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل".

2 قرىء فارقوا دينهم أي تركوه وتخلوا عنه وقراءة الجمهور فرقوا بالتضعيف حيث أصبح لكل فرقة اعتقاد وعمل خاص لها ومن فرق فقد فارق أحب أم كره.

(2/147)

4- براءة الرسول صلى الله عليه وسلم ممن فرقوا دينهم وترك الأمر لله يحكم بينهم بحكمه العادل.

5- مضاعفة الحسنات ، وعدم مضاعفة السيئات عدل من الله ورحمة.

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (165)

شرح الكلمات:

قيماً 1: أي مستقيماً.

ملة إبراهيم : أي دين إبراهيم وهو الإسلام.

حنيفاً: مائلاً عن الضلالة إلى الهدى.

ونسكي : ذبحي تقرباً إلى الله تعالى.

ومحياي : حياتي.

أبغى رباً: أطلب رباً إلهاً معبوداً أعبد.

ولا تزر وازرة : أي لا تحمل نفس وازرة أي آثمة.

وزر أخرى: أي إثم نفس أخرى.

1 قيماً مصدر على وزن شَبَعَ وصف به المنصوب وهو ديناً ومعناه مستقيماً لا عوج فيه وهو الإسلام.

(2/148)

خلائف الأرض: أي يخلف بعضكم بعضاً جيل يموت وآخر يحيا إلى نهاية الحياة. ليبلوكم فيما آتاكم: أي ليختبركم فيما أعطاكم من الصحة والمرض والمال والفقر والعلم والجهل. معنى الآيات:

في هذه الآيات وهي خاتمة هذه السورة التي بلغت آياتها بضعا وستين ومائة آية وكانت كلها في الحجاج مع العادلين بريهم وبيان طريق الهدى لهم لعلهم يؤمنون فيوحدون ويسلمون. في هذه الآيات أمر الله رسوله أن يعلن عن مفاصلته لأولئك المشركين فقال له {قل إن صلاتي ونسكي}1 أي ما أذبحه تقرباً إلى ربي، {ومحياي} أي ما أتية في حياتي {ومماتي} أي ما أموت عليه من 2 الطاعات والصالحات {لله رب العالمين} وحده {لا شريك له وبذلك أمرت} أي أمرني ربي سبحانه وتعالى، {وأنا أول المسلمين} لا يسبقني أحد أبداً. كما أمره أن ينكر على المشركين دعوتهم إليه صلى الله عليه وسلم لأن يعبد معهم آلهتهم، ليعبدوا معه إلهه وقال: {قل أغير الله أبغي ربا} أي أطلب إلهاً، {وهو رب كل شيء} أي ما من كائن في هذه الحياة إلا والله ربه أي خالقه ورازقه، وحافظه، وأعلمه أنه لا تكسب نفس

من خير إلا وهو لها، ولا تكسب من شر إلا عليها، وأنه {ولا تزر وازرة وزر أخرى} أي لا تحمل نفس مذنبه ذنب مذنبه أخرى، وأن مرد الجميع إلى الله تعالى {ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} أي ويقضي بينكم فينجو من ينجو ويهلك من يهلك، كما أخبره أن يقول: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض} أي يخلف بعضكم بعضاً هذا يموت فيورث، وهذا الوارث يموت فيورث، وقوله {ورفع بعضكم فوق بعض درجات} أي هذا غني وهذا فقير، هذا صحيح وهذا ضير هذا عالم وذاك جاهل، ثم علل تعالى لتدبيره فينا بقوله {ليبلوكم} أي يختبركم فيما آتاكم ليرى الشاكر ويرى الكافر ولازم الابتلاء النجاح أو الخيبة فلذا قال {إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم} فيعذب الكافر ويغفر ويرحم الشاكر.

هداية الآيات:

1 قيل المراد من الصلاة هنا صلاة العيد لمناسبة النسك وهو الذبح تقرباً وقيل صلاة نافلة والعموم

أولى. وكذا النسك يطلق على الذبح تقريباً وهو مرادها ويطلق على سائر العبادات من الفرائض والنوافل لأن النسك هو التعبد.

2 وقال القرطبي في الآية وما أوصى به بعد وفاتي وهو حسن ويشهد له قوله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم.

(2/149)

من هداية الآيات.

- 1- ملة إبراهيم عليه السلام هي الإسلام.
- 2- مشروعية قول {إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين} في القيام للصلاة 1.
- 3- لا يصح طلب رب غير الله تعالى لأنه رب كل شيء.
- 4- عدالة الله تعالى تتجلى يوم القيامة.
- 5- عدالة الجزاء يوم القيامة.
- 6- تفاوت الناس في الغنى والفقير والصحة والمرض، والبر والفجور وفي كل شيء مظهر من مظاهر تدبير الله تعالى في خلقه. ينتفع به الذاكرون من غير أصحاب الغفلة والنسيان.

1 لحديث مسلم عن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أقام الصلاة قال وجهت وجهي لله فاطر السموات ... الخ الآية وفيه دعاء ذكره القرطبي عند تفسير هذه الآية.

(2/150)

سورة الأعراف

...

سورة الأعراف

مكية 1

وآياتها خمس ومائتا آية

بسم الله الرحمن الرحيم

المص (1) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (3) وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا

بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)

1 إلاً قوله تعالى: {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر} إلى قوله {وإذ نتقنا الجبل فوقهم}. فإنها مدنيات.

(2/150)

شرح الكلمات:

المص: هذه أحد الحروف المقطعة ويقراً هكذا: ألف لآم ميم صآذ. والله أعلم بمراده بها.
كتاب: أي هذا كتاب.

حرج: ضيق.

وذكرى: تذكرة بها يذكرون الله وما عنده وما لديه فيقبلون على طاعته.

أولياء: رؤساؤهم في الشرك.

ما تذكرون: أي تتعظون فترجعون إلى الحق.

وكم من قرية: أي كثيراً من القرى.

بأسنا بياتا: عذابنا ليلاً وهم نائمون.

أو هم قائلون: أي نائمون بالليل وهم مستريحون.

فما كان دعواهم: أي دعاؤهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين.

معنى الآيات:

{المص} في هذه الحروف إشارة إلى أن هذا القرآن تألف من مثل هذه الحروف المقطعة وقد عجزتم عن تأليف مثله فظهر بذلك أنه كلام الله ووحيه إلى رسوله فأمنوا به وقوله {كتاب} أي هذا كتاب {أنزل إليك} 1 يا رسولنا {فلا يكن في صدرك حرج منه} أي ضيق منه {لتنذر به} قومك عواقب شركهم وضلالهم، وتذكر به المؤمنين منهم ذكرى وقل لهم {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم} من الهدى والنور، {ولا تتبعوا من دونه} أي من غيره {أولياء} 2 لا يأمرونهم إلا بالشرك والشر والفساد، وهم رؤساء الضلال في قريش {قليلاً ما يذكرون} أي تتعظون فترجعون إلى الحق الذي جانبتموه {وكم} 3 من قرية} أي وكثيراً من القرى أهلكتنا أهلها لما جانبوا الحق ولازموا الباطل {فجاءها} 4 {بأسنا} 5 أي عذابنا الشديد

1 جملة: {أنزل إليك} يصح إعرابها في محل نعت لكتاب ويصح إعرابها في محل نصب حالاً من هذا كتاب نحو: (هذا بعلي شيخاً) وإن لم يقدر لفظ هذا تعرب جملة حينئذ في محل رفع خبر كتاب،

ويكون التذكير في كتاب للتعظيم وهو كالوصف فيسوغ الابتداء به وان كان نكرة نحو قولهم: شرُّ أهو ذا ناب.

2 قالت العلماء: كل من رضي مذهبا فأهل ذلك المذهب أولياؤه، ومنع أولياءه من الصرف لأن فيه ألف التأنيث.

3 كم: للتكثير كما أن ذلك للتقليل وهي في موضع رفع على الابتداء، والخبر جملة أهلكتها، والتقدير: وكثير من القرى أهلكتها.

4 {فجاءها} في حرف الفاء هنا إشكال لأن الإهلاك قد تمّ فما معنى مجيء البأس حينئذ؟ وعليه فليكن تقدير الكلام: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا.

5 البأس: العذاب الآتي على النفس.

(2/151)

{بياتاً أو هم قائلون} أي ليلاً أو نهاراً، فما كان دعاءهم يومئذ إلا قولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين فاعترفوا بذنوبهم، ولكن هيهات إن ينفعهم الاعتراف بعد معاينة العذاب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- القرآن الكريم هو مصدر نذارة الرسول صلى الله عليه وسلم وبشارته بما حواه من الوعد والوعيد، والذكرى والبشرى.

2- وجوب إتباع الوحي، وحرمة إتباع ما يدعو إليه أصحاب الأهواء والمبتدعة.

3- الاعتبار بما حل بالأمم الظالمة من خراب ودمار.

4- لا تنفع التوبة عند معاينة الموت أو العذاب.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (10)

شرح الكلمات:

أرسل إليهم : هم الأمم والأقوام.

فلنقصن عليهم بعلم : فلنخبرنهم بأعمالهم منتبعين لها فلا نترك منها شيئاً.

وما كنا غائبين: أي عنهم أيام كانوا يعملون.

الوزن يومئذ الحق: أي العدل.

فمن ثقلت موازينه: أي بالحسنات فأولئك هم المفلحون بدخول الجنة.

خسروا أنفسهم : بدخولهم النار والاصطلاء بها أبداً.
معايش: جمع معيشة بمعنى العيش الذي يعيشه الإنسان.

1 الدعاء والدعوى بمعنى واحد ومنه: وآخر دعواهم أي: دعائهم.

(2/152)

قليلاً ما تشكرون : أي شكراً قليلاً والشكر ذكر النعمة للمنع 1 وطاعته بفعل محابه وترك مكارهه.
معنى الآيات:

قوله تعالى: {فلنساءن الذين أرسل 2 إليهم ولنساءن المرسلين 3 فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين} يخبر تعالى أنه إذا جمع الخلائق لفصل القضاء مؤكداً الخبر بالقسم أنه يسأل كل أمة أو جماعة أو فرد أرسل إليهم رسله يسألهم عن مدى إجابتهم دعوة رسله إليهم، فهل آمنوا بما جاءتهم به الرسل، وأطاعوه فيما بلغوهم من التوحيد والعبادة والطاعة والانقياد، كما يسأل الرسل أيضاً هل بلغوا ما ائتمنهم عليه من رسالته المتضمنة أمر عباده بالإيمان به وتوحيده وطاعته في أمره ونهييه، ثم يقصُّ تعالى على الجميع بعلمه كل ما كان منهم من ظاهر الأعمال وباطنها، ولا يستطيعون إخفاء شيء أبداً، ولم يكن سؤاله لهم أولاً، إلا من باب إقامة الحجة وإظهار عدالته سبحانه وتعالى فيهم، ولتوبيخ من يستحق التوبيخ منهم، وهذا معنى قوله تعالى: {فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين} عنهم حينما كانوا في الدنيا يعملون فكل أعمالهم كانت مكشوفة ظاهرة له تعالى ولا يخفي عليه منها شيء وهو السميع البصير.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (6) والثانية (7) أما الآيتان الثالثة والرابعة فقد أخبر تعالى أنه بعد سؤالهم وتعريفهم بأعمالهم ينصب الميزان وتوزن 4 لهم أعمالهم فمن ثقلت موازين حسناته أفلح بالنجاة من النار ودخول الجنة دار السلام ومن خفَّت لقلته حسناته وكثرت سيئاته 5 خسر نفسه بإلقائه في جهنم ليخلد في عذاب أبدي، وعلل تعالى لهذا الخسران في جهنم

1 وحده والثناء بها عليه.

2 في الآية دليل على أن الكفار يحاسبون وإن لم توزن أعمالهم لقوله تعالى {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً} فمحاسبتهم لإظهار العدالة الإلهية لا لأن لهم أعمالاً صالحة يجزون بها والله أعلم.

3 ويشهد لهذه المسألة قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده".

4 هنا زلت أقدام المعتزلة فأولوا الوزن للأعمال والميزان وقالوا: الأعراض لا توزن ولو اتبعوا لأولوا الميزان بالصراف والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجنّ على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة وهكذا حتى لا يبقى للدين حقيقة والعياذ بالله من فساد القلوب والعقول ومن الجري وراء فلسفة الإغريق واليونان.

5 ورد في السنة الصحيحة إن الأعراض تحوّل إلى أجسام وتوزن كما في حديث: أنّ البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة وكأنهما غمامتان. الحديث، كما توزن صحائف الأعمال لحديث: "قطاشت السجلات وثقلت البطاقة" وحديث: "يؤتى بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة" وبهذا تقرر أن الأعمال توزن وتوزن محالها وفاعلها والله على ذلك قدير.

(2/153)

بقوله {بما كانوا بآياتنا يظلمون} : أي يكذبون ويجحدون، وأطلق الظلم وأريد به التكذيب والجحد لأمرين هما:

أولاً: اكتفاء بحرف الجر الباء إذ لا تدخل على ظلم ولكن على كذب أو جحد يقال كذب به وجحد به ولا يقال ظلم به ولكن ظلمه وهذا من باب التضمين وهو سائغ في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

وثانياً : أنهم بدل أن يؤمنوا بالآيات وهي واضحات كذبوا بها فكانوا كأنهم ظلموا الآيات ظملاً حيث لم يؤمنوا بها وهي بينات.

هذا ما دلت عليه الآيات أما الآية الخامسة (10) فقد تضمنت امتتان الله تعالى على عباده، وكان المفروض أن يشكروا نعمه عليهم بالإيمان به وتوحيده وطاعته، ولكن الذي حصل هو عدم الشكر من أكثرهم قال تعالى {ولقد مكناكم في الأرض} حيث جعلهم متمكنين في الحياة عليها يتصرفون فيها ويمشون في مناكبها، وقوله {وجعلنا لكم فيها معاش} 1 هذه نعمة أخرى وهي أن جعل لهم فيها معاش وأرزاقاً يطلبونها فيها ويحصلون عليها وعليها قامت حياتهم، وقوله {قليلاً ما تشكرون} أي لا تشكرون إلا شكراً يسيراً لا يكاد يذكر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث والسؤال والحساب ووزن الأعمال يوم القيامة.
- 2- صعوبة الموقف حيث تسأل الأمم والرسول عليهم السلام كذلك.
- 3- الفلاح والخسران مبنيان على الكسب في الدنيا فمن كسب خيراً نجا، ومن كسب شراً هلك.
- 4- وجوب شكر النعم بالإيمان والطاعة لله ورسوله.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

1 المعاييش: جمع معيشة، والمعيشة: ما يتوصل به إلى العيش الذي هو الحياة من المطاعم والمشارب. والتمكين في الأرض: معناه جعلها قارة ممهدة لا تضطرب ولا تتحرك فيفسد ما عليها.

(2/154)

لَأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لِّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

شرح الكلمات:

خلقناكم ثم صورناكم : أي خلقنا أباكم آدم أي قدرناه من الطين ثم صورناه على الصورة البشرية الكريمة التي ورثها بنوه من بعده إلى نهاية الوجود الإنساني.

فسجدوا : أي سجدوا تحية لآدم عليه السلام.

إبليس: أبو الشياطين من الجن وكنيته أبو مرة، وهو الشيطان الرجيم.

فاهبط منها : أي من الجنة.

من الصاغرين : جمع صاغر الذليل المهان.

فبما أغويتني: أي فبسبب إضلالك لي.

مذموماً مدحوراً : ممقوتاً مذموماً مطروداً.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تعداد أنعم الله تعالى على عباده تلك النعم الموجبة لشكره تعالى بالإيمان

(2/155)

به وطاعته فقال تعالى {ولقد خلقناكم ثم صورناكم} أي خلقنا أباكم آدم من طين ثم صورناه بالصورة البشرية التي ورثها بنوه عنه، {ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم} وفي هذا إنعام آخر وهو تكريم

أبيكم آدم بأمر الملائكة بالسجود له تحية له وتعظيماً {فسجدوا إلا إبليس 2 لم يكن من الساجدين} أي
أبى وامتنع أن يسجد، فسأله ربه تعالى قائلاً: {ما منعك ألا تسجد 3 إذ أمرتك} أي: أي شيء جعلك
لا تسجد فأجاب إبليس قائلاً: {أنا خير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين} فأنا أشرف منه
فكيف أسجد له، ولم لكن إبليس مصيباً في هذه القياس 4 الفاسد أولاً: ليست النار أشرف من الطين
بل الطين أكثر نفعاً وأقل ضرراً، والنار كلها ضرر، وما فيها من نفع ليس بشيء إلى جانب الضرر
وثانياً: إن الذي أمره بالسجود هو الرب الذي تجب طاعته سواء كان المسجود له فاضلاً أو مفضولاً،
وهنا أمره الرب تعالى أن يهبط من الجنة فقال {هبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك
من الصاغرين} أي الذليلين الحقيرين، ولما وقع إبليس في ورطته، وعرف سبب هلكته وهو عدم
سجوده لآدم قال للرب تبارك وتعالى {انظرنى} أي أمهلى لا تمتني {إلى يوم يبعثون} فأجابه الرب
بقوله {إلى يوم الوقت المعلوم} وهو فناء هذه الدنيا فقط وذلك قبل البعث، جاء هذا الجواب في سورة
الحجر وهنا قال {إنك من المنظرين} ومراد إبليس في الإمهال التمكن من إفساد أكبر عدد من بني
آدم انتقاماً منهم إذ كان آدم هو السبب في طرده من الرحمة، ولما أجابه الرب إلى طلبه قال: {فبما
أغويتني} أي أضللتني {لأقعدن لهم صراطك المستقيم} يريد آدم ونريته، والمراد من الصراط الإسلام
إذ هو الطريق المستقيم والموصل بالسالك له إلى رضوان الله تعالى {ثم لآتينهم من بين أيديهم 5 ومن
خلفهم وعن

1 ويصح أن يقال: خلقناكم نطفاً ثم صورناكم، وما في التفسير أولى بالآية وأصح بدليل قوله: {ثم
قلنا للملائكة اسجدوا لآدم}.

2 استثناء من غير الجنس إذ إبليس من الجنّ ولم يكن من الملائكة.

3 {ما منعك} ما: في موضع رفع بالابتداء فهي اسم استفهام والتقدير أي شيء منعك من السجود،
وأن المصدرية مدغمة في لا الزائدة بدليل عدم زيادتها في {ص} إذ قال: {ما منعك أن تسجد} أي:
من السجود لآدم.

4 قال ابن عباس والحسن: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى
مع إبليس. قال العلماء: من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة ولهذا تاب آدم، ومن جوهر
النار الخفة والحدة والطيش والارتفاع ولذا لم يتب إبليس.

5 معناه: لأصدنهم عن الحق، وأرغبهم في الدنيا وأشكهم في الآخرة وهذا غاية الضلال، وقال
بعضهم: المراد من قوله: {من بين أيديهم} من دنياهم {ومن خلفهم} من آخرتهم، {وعن أيمنهم}
يعني حسناتهم {وعن شمائلهم} يعني سيئاتهم.

أيمانهم وعن شمائلهم} يريد يحيط بهم فيمنعهم سلوك الصراط المستقيم حتى لا ينجوا ويهلكوا كما هلك هو زاده الله هلاكاً، وقوله {ولا تجد أكثرهم شاكرين} هذا قول إبليس للرب تعالى، ولا تجد أكثر أولاد آدم الذي أضللتني بسببه شاكرين لك بالإيمان والتوحيد والطاعات.

وهنا أعاد الله أمره بطرد اللعين فقال {أخرج منها} أي من الجنة {مذموماً مدحوراً} أي ممقوتاً مطروداً {لمن تبعك} 1 منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين} أي فبعزتي لأملأن جهنم منك ومنم اتبعك منهم أجمعين.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- خطر الكبر على الإنسان.

2- ضرر القياس 2 الفاسد.

3- خطر إبليس وذريته على بني آدم، والنجاة منهم بذكر الله تعالى وشكره.

4- الشكر هو الإيمان والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19)
فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)
فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا

1 اللام في {لمن} موطئة للقسم، واللام في {لأملأن} في جواب القسم والتقدير: وعزتي من تبعك منهم لأملأن جهنم منك ومنهم أجمعين.

2 القياس من الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة مشروع محمود لأنه اعتصام بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وإنما المذموم المحرم: القياس على غير أصل من هذه الأصول الثلاثة: الكتاب، السنة، الإجماع، وهذا علي ابن أبي طالب لما قال له أبو بكر رضي الله عنهما أقيلوني بيعتي فقال علي: والله لا ثقيلك ولا نستقيلك رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم على دنيانا أفلا نرضاك لدينا ففاسد الإمامة على الصلاة لله، وقاس أبو بكر الزكاة على الصلاة.

يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ
لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

شرح الكلمات :

وزوجك : هي حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم الأيسر.

الجنة : دار السلام التي دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج.
في الظالمين : أي لأنفسهم.

فوسوس : الوسوسة: الصوت الخفي، وسوسة 1 الشيطان لابن آدم إلقاء معانٍ فاسدة ضارة في صدره
مزينة ليعتقدها أو يقول بها أو يعمل.

ليبيدي 2 لهما ما ووري: ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما.

وقاسمهما : حلف لكل واحد منهما.

فدلاهما بغرور : أي أدناهما شيئاً فشيئاً بخداعه وتغريه حتى أكل من الشجرة.

وطفقا يخصفان : وجعلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما.

معنى الآيات:

ولما طرد الرحمن إبليس من الجنة نادى آدم قائلاً له {يا آدم اسكن أنت وزوجك} أي حواء {الجنة
فكلا من حيث شئتما} يعنى من ثمارها وخيراتها، {ولا تقربا هذه الشجرة} أشار لهما إلى شجرة من
أشجار الجنة معينة، ونهاهما عن الأكل منها، وعلمهما أنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين
المستوجبين للعقاب، واستغل إبليس هذه الفرصة التي أتاحت له فوسوس 3 لهما مزيناً لهما الأكل من
الشجرة قائلاً لهما {ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن

1 الوسواس اسم للشيطان أيضاً قال تعالى: {من شر الوسواس الخناس}.

2 اللام: لام العاقبة والصيرورة.

3 ذهب الأولون مذاهب في تحديد كيفية اتصال إبليس بآدم وحوارهما في الجنة وهو خارج منها
حتى وسوس لهما فأكلا من الشجرة التي لم يأذن الله تعالى لهما في الأكل منها إلا أن المخترعات
الحديثة بيّنت لنا كيفية ذلك الاتصال وبيانه: ان الإنسان في نفسه قابلية لتلقي الوسواس أشبه ما
تكون بجهاز اللاسلكي بواسطتها يتم الاتصال بين الإنسان وعدّوه إبليس وذريته.

(2/158)

تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين} {وقاسمهما} أي حلف لهما أنه ناصح 1 لهما وليس بغاش لهما،
{فدلاهما بغرور} وخداع حتى أكل {فلما ذاقا الشجرة بدت...} أي ظهرت لهما سوءاتهما 2 حيث

انحسر النور 3 الذي كان يغطيها، فجعلنا يشدان من ورق الجنة على أنفسهما ليستر عوراتهما، وهو معنى قوله تعالى {وظفقا يخصفا عليهما من ورق الجنة} وعندئذ ناداهما ربهما سبحانه وتعالى، قائلاً: ألم أنهكما عن هذه الشجرة وهو استفهام تأديب وتأنيب، {وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين} فكيف قبلتما نصحه وهو عدوكما.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- سلاح إبليس الذي يحارب به ابن آدم هو الوسوسة والتزيين لا غير.

2- تقرير عداوة الشيطان للإنسان.

3- النهي يقتضي التحريم إلا أن توجد قرينة تصرف عنه إلى الكراهة.

4- وجوب ستر العورة من الرجال والنساء سواء.

5- جواز الاقسام بالله تعالى، ولكن لا يحلف إلا صادقاً.

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

تُخْرَجُونَ (25)

شرح الكلمات:

ظلمنا أنفسنا: أي بأكلهما من الشجرة.

الخاسرين: الذين خسروا دخول الجنة والعيش فيها.

1 قال قتادة: حلف لهما بالله أنه خلق قبلهما وأنه أعلم منهما وحلف أنه ناصح لهما فانغرا به، على

حد قول العلماء: مَنْ خَدَعْنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ.

2 سُمي الفرجان سواتين وعورة لأن السوءة مشتقة مما يسيء إلى النفس بالألم والعورة هي كل ما

استحيي من كشفه.

3 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تقلص النور الذي كان لباسهما فصار أظفاراً في

الأيدي والأرجل. والله أعلم.

(2/159)

مستقر: مكان استقرار وإقامة..

متاع إلى حين: تمتع بالحياة إلى حين انقضاء آجالكم.

معنى الآيات:

مازال السياق في الحديث عن آدم عليه السلام، أنه لما ذاق آدم وحواء الشجرة وبدت لهما سؤاتهما وعاتبتهما ربهما على ذلك قالوا معلنين عن توبيتهما: {ربنا ظلمنا أنفسنا}1 أي بذوق الشجرة {وإن لم تغفر لنا} أي خطيئتنا هذه {لنكونن من الخاسرين} أي الهالكين، وتابا فتاب الله تعالى عليهما وقال لهم اهبطوا إلى الأرض إذ لم تعد الجنة في السماء داراً لهما بعد ارتكاب المعصية، إن إبليس عصا بامتناعه عن السجود لآدم، وادم وحواء بأكلهما من الشجرة وقوله {بعضكم لبعض عدو} أي اهبطوا إلى الأرض2 حال كون بعضكم لبعض عدواً، إبليس وذريته عدو لآدم ونبيه، وادم وبنوه عدو لإبليس وذريته، {ولكم في الأرض مستقر}، أي مقام استقرار، {ومتاع إلى حين} أي تمتع بالحياة إلى حين انقضاء الآجال وقوله تعالى {فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون}3 يريد من الأرض التي أهبطهم إليها وهي هذه الأرض التي يعيش عليها بنو آدم، والمراد من الخروج، الخروج من القبور إلى البعث والنشور.

هداية الآيات:

من هداية الآيات :

- 1- قول آدم وحواء: {ربنا ظلمنا أنفسنا..} الآية هو الكلمة التي ألقاها تعالى إلى آدم فتلقاها عنه فتاب عليه بها.
- 2- شرط التوبة الاعتراف بالذنب وذلك بالاستغفار أي طلب المغفرة.
- 3- شؤم الخطيئة كان سبب طرد إبليس من الرحمة، وإخراج آدم من الجنة.
- 4- لا تتم حياة للإنسان على غير الأرض، ولا يدفن بعد موته في غيرها لدلالة آية {فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون}.

- 1 أي: يا ربنا، حذف حرف النداء لقربه منهما سبحانه وتعالى إذ يُنادى بحرف النداء البعيد.
- 2 قال ابن كثير: لو كان في تعيين الأماكن التي هبط فيها آدم وحواء وإبليس فائدة تعود على المكلفين في دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى.
- 3 أي: للحساب والجزاء على الكسب في الدنيا من خير وشرّ.

(2/160)

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)

شرح الكلمات:

وريشاً1: لباس الزينة والحاجة.

يواري سوءاتكم : يستر عوراتكم.

لباس التقوى .: خير في حفظ العورات والأجسام والعقول والأخلاق.

من آيات الله : دلائل قدرته.

لا يفتننكم: أي لا يصرفنكم عن طاعة الله الموجبة لرضاه ومجاورته في الملكوت الأعلى.

أبويكم : آدم وحواء.

قبيله: جنوده من الجن.

فاحشه: خصلة قبيحة شديدة القبح كالطواف بالبيت عراة.

1 الريش للطائر ما يستر جسمه، وللإنسان اللباس وجمعه ريش وهو ما كان فاحراً من أنواع الألبسة.

(2/161)

معنى الآيات:

قوله تعالى {يا بني1 آدم قد نزلنا2 عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً} هذا النداء الكريم المقصود منه تذكير للمشركين من قريش بنعم الله وقدرته عليهم لعلمهم يذكرون فيؤمنون ويسلمون بترك الشرك والمعاصي، من نعمه عليهم أن أنزل عليهم لباساً يوارون به سوءاتهم، {وريشاً} لباساً يتجملون به، في أعيادهم ومناسباتهم، ثم أخبر تعالى أن لباس التقوى خير لصاحبه من لباس الثياب، لأن المتقي عبد ملتزم بطاعة الله ورسوله، والله ورسوله يأمران بستر العورات، ودفع الغائلات، والمحافظة على الكرامات، ويأمران بالحياء، والعفة وحسن السمات ونظافة الجسم والثياب فأين لباس الثياب مجردة عن التقوى3 من هذه؟؟.

وقوله تعالى {ذلك من آيات الله} أي من دلائل قدرته الموجبة للإيمان به وطاعته، وقوله {لعلمهم يذكرون} أي رجاء أن يذكروا هذه النعم فيشكروا بالإيمان والطاعة.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (26) وفي الآية الثانية (27) ناداهم مرة ثانية فقال {يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما4 سوءاتهما} يحذرهم من إغواء الشيطان لهم مذكراً إياهم بما صنع مع أبويهما من إخراجهما5 من الجنة بعد نزعه لباسهما عنهما فانكشفت سوءاتهما الأمر الذي سبب إخراجهما من دار السلام، منبهاً لهم على خطورة العدو

من حيث أنه يراهم هو وجنوده، وهم لا يرونهم. ثم أخبر تعالى أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وذلك حسب سنته في خلقه، فالشياطين يمثلون قمة الشر والخبث فالذين لا يؤمنون قلوبهم مظلمة لانعدام نور الإيمان فيها فهي متهية

- 1 ابتداء الخطاب بالنداء بالحكمة منه ليقع إقبال المنادين على ما بعد النداء بكل قلوبهم.
- 2 إنزال اللباس من السماء يعود لأمر منها: أن آدم أول من ستر عورته بورق التين من شجر الجنة ومنها أن آدم نزل مكسواً وورث عنه أولاده ذلك، ومنها أن الماء الذي به النبات ومنه يتخذ اللباس كالقطن مثلاً نزل من السماء وحتى ذوات الصوف والوبر حياتها متوقفة على ماء السماء.
- 3 قال الشاعر في لباس التقوى ما يلي:
إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عريانا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا
- 4 في هذه الآية دليل على حرص الشيطان على أن يكشف الآدمي عورته لما يسبق ذلك من الفسق والفجور الذين يرغب الشيطان في إيقاع الآدمي فيهما.
- 5 تكاد تكون هذه سنة بشرية لا تتخلف إذ ما من أمة تبرج نساؤها فكشفت محاسنهن وأبدن عوراتهن إلاّ أسرع إليها الهلاك بزوال الملك وذهاب السلطان.

(2/162)

لقبول الشياطين وقبول ما يوسوسون به ويوحونه من أنواع المفاسد والشرور كالشرك والمعاصي على اختلافها، وبذلك تتم الولاية بين الشياطين والكافرين، وكبرهان على هذا الولاء بينهم أن المشركين إذا فعلوا فاحشة خصلة ذميمة قبيحة شديدة القبح ونهوا عنها احتجوا على فعلهم بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأن الله تعالى أمرهم بها وهي حجة باطلة لما يلي:
أولاً: فعل آباءهم ليس ديناً ولا شرعاً.

ثانياً: حاشا لله تعالى الحكيم العليم أن يأمر بالفواحش إنما يأمر بالفواحش الذين يأتونها وهم الشياطين وأولياؤهم من الإنس ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: { إن الله لا يأمر بالفحشاء } ووبخهم معنفاً إياهم بقوله: { أتقولون على الله ما لا تعلمون }.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- التذكير بنعم الله تعالى المقتضي للشكر عك ذلك بالإيمان والتقوى.1
- 2- التحذير من الشيطان وقتنته لاسيما وأنه يرى الإنسان والإنسان لا يراه.

3- القلوب الكافرة هي الآثمة، وكذلك تتم الولاية بين الشياطين والكافرين.

4- قبح الفواحش وحرمتها.

5- بطلان الاحتجاج بفعل الناس إذ لا حجة إلا في الوحي الإلهي.

6- تنزه الرب تعالى عن الرضا بالفواحش فضلاً عن الأمر بها.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ (30) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)

1 الإيمان والتقوى بهما تحصل ولاية الرب للعبد، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

(2/163)

شرح الكلمات:

القسط1 : العدل في القول والحكمة والعمل.

أقيموا وجوهكم : أي أخلصوا العبادة لله واستقبلوا بيته.

كما بدأكم تعودون: كما بدأ خلقكم أول مرة يعيدكم بعد الموت أحياء.

أولياء من دون الله : يوالونهم محبة ونصرة وطاعة، من غير الله تعالى.

زينتكم: أي البسوا ثيابكم عند الدخول في الصلاة.

ولا تسرفوا : في أكل ولا شرب، والإسراف مجاوزة الحد المطلوب في كل شيء.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان أخطاء مشركي قريش فقد قالوا في الآيات السابقة محتجين على فعلهم الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم على ذلك وأن الله تعالى أمرهم بها وأكذبهم الله تعالى في ذلك وقال في هذه الآية (29) {قل} يا رسولنا {أمر ربي بالقسط} الذي هو العدل وهو الإيمان بالله ورسوله وتوحيد الله تعالى في عبادته، وليس هو الشرك بالله وفعل الفواحش، والكذب على الله تعالى بأنه حلل كذا وهو لم يحلل، وحرم كذا وهو لم يحرم، وقوله تعالى {وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد} أي وقل لهم يا رسولنا أقيموا وجوهكم عند كل مسجد² أي أخلصوا لله العبادة، واستقبلوا بيته الحرام، {وادعوه} سبحانه وتعالى {مخلصين له الدين} أي ادعوه وحده ولا تدعوا معه أحداً قوله: {كما بدأكم تعودون} يذكرهم بالدار الآخرة والحياة الثانية، فإن من آمن بالحياة بعد الموت والجزاء على كسبه خيراً أو شراً

أمكنه أن يستقيم على العدل والخير طوال الحياة وقوله {فريقاً 3 هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة}4 بيان لعدله وحكمته ومظاهر قدرته فهو المبدئ والمعيد والهادي والمضل، له الملك المطلق والحكم

1 القسط: العدل، وهو وسط بين الشرك والإلحاد. ولذا قال ابن عباس: القسط: لا إله إلا الله أي: بأن يعبد الله وحده.

2 أي: في كل موضع للصلاة من سائر بقاع الأرض إذ موضع السجود هو المسجد وإقامة الرجوه بالذات معناه أن لا يلتفت بقلبه ولا بوجهه إلى غير الله تعالى وهو إخلاص العبادة لله عز وجل.
3 {فريقاً} نصب على الحال من الضمير في تعودون أي: حال كونكم فريقين فريقاً مهدياً سعيداً، وفريقاً وجبت عليه الضلالة فجاء الموقف ضالاً شقيماً، وقال القرطبي: من ابتداء الله خلقه للضلالة صيّرهُ للضلالة ومن ابتداء الله خلقه على الهدى صيّرهُ إلى الهدى، وشاهد قوله هذا آدم وإبليس فأدم مخلوق للهداية وإبليس للضلالة.

4 اخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت المرأة في الجاهلية تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول:

من يعيرني تطواً فجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ...

وما بدا منه فلا أحله

(2/164)

الأوحد، فكيف يعدل به أصنام وأوثان هدى فريقاً من عباده فاهتدوا، وأضل آخرين فضلوا ولكن بسبب رغبتهم عن الهداية ومولاتهم لأهل الغواية، {إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله} فضلوا ضلالاً بعيداً {ويحسبون} لتوغلهم في الظلام والضلال {أنهم مهتدون}.

وقوله تعالى: {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد} أي: البسوا ثيابكم عند الطواف 1 بالبيت فلا تطوفوا عراة، وعند الصلاة فلا تصلوا وأنتم مكشوفوا العورات كما يفعل المشركون المتخذون الشياطين أولياء فأضلتهم حتى زينت لهم الفواحش قولاً وفعلاً واعتقاداً. وقوله: {كلوا واشربوا ولا تسرفوا} 2 أي كلوا مما أحل الله لكم واشربوا، ولا تسرفوا بتحريم ما أحل الله، وشرع ما لم يشرع لكم فالزموا العدل، فإنه تعالى لا يحب المسرفين فاطلبوا حبه بالعدل، واجتنبوا بغضه بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

من هداية الآيات:

1- وجوب العدل في القول وفي الحكم.

2- وجوب إخلاص العبادة صلاةً كانت أو دعاءً لله تعالى.

3- ثبوت القدر.

4- وجوب ستر العورة في الصلاة.

5- حرمة الإسراف في الأكل والشرب وفي كل شيء.

- 1 هذه الآية الكريمة أصل من أصول الدواء، إذ أمرت بالأكل والشرب وهما قوام الحياة وحرمت الإسراف فيهما وهو سبب كافة الأمراض إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فتلت طعامه وتلت لشرايه وتلت لنفسه" وشاهد آخر أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني قال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم أديان وعلم أبدان فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا فقال له ما هي؟ قال: قوله عز وجل {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}.
- 2 روي أن سمرة بن جندب رضي الله عنه سأل عن ابنه فقيل له: بشم البارحة؟ قال: بشم؟ قالوا: نعم قال: أما إنه لو مات ما صليت عليه، وقال العلماء: من الإسراف: الأكل بعد الشبع، وقال لقمان لابنه: يا بني لا تأكل شبعاً فوق شبع فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله.

(2/165)

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

شرح الكلمات :

من حرم زينة الله: التحريم: المنع، والزينة: ما يترين به من ثياب وغيرها.

والطيبات : جمع طيب وهو الحلال غير المستحبث.

خالصة : لا يشاركون فيها الكفار لأنهم في النار.

الفواحش: جمع فاحشة والمراد بها هنا الزنى واللواط السري كالعلني.

والإثم : كل ضار قبيح من الخمر وغيرها من سائر الذنوب.

والبغي بغير الحق: الظلم بغير قصاص ومعاقبة بالمثل.

وأن تشركوا: أي الشرك بالله وهو عبادة غير الله تعالى.

السلطان: الحجة التي تثبت بها الحقوق المختلف فيها أو المتنازع عليها.

أجل : وقت محدد تنتهي إليه.

معنى الآيات:

لما حرم المشركون الطواف بالبيت بالثياب وطافوا بالبيت عراة بدعوى أنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله تعالى فيها، أنكر تعالى ذلك عليهم بقوله: ﴿قل من حرم 1 زينة الله التي

1 الزينة: هنا الملابس الحسن من غير ما حرم كالذهب والحريير على الرجال ويطلق لفظ الزينة أيضاً على مطلق اللباس ولو لم يكن حسناً.

(2/166)

أخرج لعباده والطيبات من الرزق 1} كلحوم ما حرموه من السوائب، فالاستفهام في قوله ﴿قل من حرم زينة الله﴾ للإنكار. ومعنى أخرجها: أنه أخرج النبات من الأرض كالقطن والكتان ومعادن الحديد لأن الدروع من الحديد، وقوله تعالى: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ بالأصالة، لأن المؤمنين علماء فيحسنون العمل والإنتاج والصناعة، والكفار تبع هم في ذلك لجهلهم وكسلهم وعدم بصيرتهم، {خالصة 3 يوم القيامة} أي هي خالصة للمؤمنين يوم القيامة لا يشاركون فيها الكفار ولأنهم في دار الشقاء النار والعياذ بالله تعالى وقوله تعالى {كذلك فصل الآيات لقوم يعلمون} أي كهذا التفصيل والبيان الذي بيناه وفصلناه في هذه الآيات وما زلنا نفصل ونبين ما نزل من آيات القرآن الكريم لقوم يعلمون أما غيرهم من أهل الجهل والضلال فإنهم لا ينتفعون بذلك لأنهم محجوبون بظلمة الكفر والشرك ودخان الأهواء والشهوات والشبهات.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (32) أما الآية الثانية (33) فقد تضمنت بيان أصول المحرمات وأمتهات الذنوب وهي: الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم: وهو سائر المعاصي بترك الواجب أو فعل الحرام والبغي: وهو الاستطالة على الناس والاعتداء عليهم بهضم حقوقهم وأخذ أموالهم وضرب أجسامهم وذلك بغير حق أوجب ذلك الاعتداء وسوغه كأن يعتدي الشخص فيقتص منه ويعاقب بمثل ما جنى وظلم، والشرك بالله تعالى بعبادة غيره، والقول على الله تعالى بدون علم منه وذلك كشرع ما لم يشرع، بتحريم ما لم يحرم، وإيجاب ما لم يوجب.

هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة والأخيرة في هذا السياق (34) فقد أخبر تعالى فيها أن لكل أمة أجلاً محدداً أي وقتاً معيناً يتم هلاكها فيه لا تتقدمه بساعة ولا تتأخر عنه بأخرى. وفي هذا إشارة أفصح من عبارة وهي أن هلاك الأمم والجماعات والأفراد يتم بسبب

1 الطيبات: اسم عام لكل ما طاب كسباً وطعماً وقد أكل الرسول صلى الله عليه وسلم اللحم والعسل

والحلوى والبطيخ والرطب، وإنما الذي يكره الإكثار منها والتكلف في شرائها وإعدادها، وعمر لم ينكر الطيبات وإنما أنكر الكثرة منها، فكاد يرى عدم الجمع بين الطيبات ويكتفي بنوع واحد.

2 في الآية دليل على التجميل بأحسن الثياب وخاصة في الأعياد والجمع وزيارة الإخوان ومقابلة الوفود، وليس من السنة لبس المرقعات والقوط وليس معنى: {ولباس التقوى}: أنه لباس الخشن والمرقعات أبداً وإنما هو تقوى الله بامتثال الأمر واجتتاب النهي، وقد تقدم معناها، وفي الحديث الصحيح: "إن الله جميل يحب الجمال".

3 قرىء: {خالصة} بالرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي خالصة، وقرىء {خالصة} بالنصب على الحال أي: ثابتة لهم في الدنيا حال كونها خالصة لهم يوم القيامة.

(2/167)

انحرافهم عن منهج الحياة، كالمرء يهلك بشرب السم، وبإلقاء نفسه من شاهق، أو إشعال النار في جسمه كذلك ارتكاب أمهات الذنوب وأصول المفساد التي ذكر تعالى في قوله {قل إنما حرم ربي الفواحش.....} من شأنها أن تؤدي بحياة مرتكبيها لا محالة ما لم يتوبوا منها وتصلح حالهم بالعودة إلى منهج الحياة الذي وضع الله في الإيمان والتوحيد والطاعة لله ورسوله بفعل كل أمر وترك كل نهى.

هداية الآيات

هن هداية الآيات :

- 1- الإنكار الشديد على من يحرم ما أحل الله من الطيبات كبعض المتطعين 1.
- 2- المستلذات من الطعام والشراب والمزينات من الثياب وغيرها المؤمنون أولى بها من غيرهم لأنهم يحسنون العمل، ويبدلون الجهد لاستخراجها والانتفاع بها. بخلاف أهل الجهالات فإنهم عمي لا يبصرون ومقعدون لا يتحركون. وإن قيل العكس هو الصحيح فإن أمم الكفر وأوربا وأمريكا هي التي تقدمت صناعياً وتمتعت بما يتمتع به المؤمنون؟ فالجواب: أن المؤمنين صرفوا عن العلم والعمل وأقعدوا عن الإنتاج والاختراع بإفساد أعدائهم لهم عقولهم وعقائدهم، فعوقبهم عن العمل مكرماً بهم وخداعاً لهم. والدليل أن المؤمنين لما كانوا كاملين في إيمانهم كانوا أرقى الأمم وأكملها حضارة وطهارة وقوة وإنتاجاً مع أن الآية تقول {... لقوم يعلمون} فإذا حل الجهل محل العلم فلا إنتاج ولا اختراع ولا حضارة.
- 3- بيان أصول المفساد وهي الفواحش وما ذكر بعدها إلى {..... وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}.
- 4 - ذكرت هذه المفساد بطريق التلويح آخرها أخطرها وهكذا أخفها أولها.
- 5- أجل 2 الأمم كأجل الأفراد يتم الهلاك عند انتظام المرض كامل الأمة أو أكثر أفرادها كما يهلك

الفرد عندما يستشيري المرض في كامل جسمه.

- 1 روى النسائي بسند صحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده" وقال البخاري عن ابن عباس: "كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان، سرف، ومخيلة.
- 2 الأجل: هو الوقت الموقت، فأجل الموت هو: وقت الموت وأجل الدين هو وقت حلوله وكل شيء وقَّت به شيء فهو أجل له.

(2/168)

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36)

شرح الكلمات:

إمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ: أصل إمَّا إن -الشرطية- وما زائدة لتقوية الكلام أدغمت فيها (إن) فصارت إمَّا. يقصون 1 عليكم آياتي: يتلونها عليكم آية بعد آية مبينين لكم ما دلت عليه من أحكام الله وشرائعه، ووعدده ووعدده.

فمن اتقى: أي الشرك فلم يشرك وأصلح نفسه بالأعمال الصالحة.
فلا خوف عليهم: في الدنيا والآخرة.

ولا يحزنون: على ما تركوا وراءهم أو فاتهم الحصول عليه من أمور الدنيا.
معنى الآيتين:

هذا النداء جائز أن يكون نداءً عاماً لكل بني آدم كما هو ظاهر اللفظ وأن البشرية كلها نوديت به على السنة رسلها، وجائز أن يكون خاصاً بمشركي العرب وأن يكون المراد من الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ذكر بصيغة الجمع تعظيماً وتكريماً له، وما نوديت إليه البشرية أو مشركوا العرب هو إخبار الله تعالى لهم بأن من جاءه رسول من جنسه يتلو عليه آيات ربه وهي تحمل العلم بالله وصفاته وبيان محابه ومساخطه، فمن اتقى الله فترك الشرك به، وأصلح ما أفسده قبل العلم من نفسه وخلقه وعقله وذلك بالإيمان والعمل الصالح فهو لاء في حكم الله أنه {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} في الحياتين 2 معاً، أما الذين كذبوا بآيات الله التي جاءت

1 القصص: هو إتباع الحديث بعضه بعضاً.

2 أما في البرزخ وفي يوم القيامة فالأمر ظاهر لا خلاف في أنهم لا يخافون ولا يحزنون ولكن في

الحياة الدنيا يصيبهم الخوف والحزن، ولكن خوفهم وحزنهم لا يكاد يذكر مع خوف وحزن أهل الكفر والشرك.

(2/169)

الرسول بها وقصتها عليهم واستكبروا 1 عن العمل بها كما استكبروا عن الإيمان بها، فأولئك البعداء من كل خير {أصحاب النار} أي أهلها {هم فيها خالدون} لا يخرجون منها بحال من الأحوال. هداية الآيتين من هداية الآيتين :

- 1- قطع حجة بني آدم بإرسال الرسول إليهم.
- 2- أول ما يبدأ به في باب التقوى الشرك بأن يتخلى عنه الإنسان المؤمن أولاً.
- 3- الإصلاح يكون بالأعمال الصالحة التي شرعها الله مزية للنفوس مطهرة لها.
- 4- التكذيب كالاستكبار كلاهما مانع من التقوى والعمل الصالح. ولذا أصحابهما هم أصحاب النار. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا أَيُّنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّونَا فَأَتَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا

1 الاستكبار: المبالغة في التكبر وضمن مع الاستكبار الإعراض، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.

(2/170)

بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك تجزي المجرمين (40) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك تجزي الظالمين (41) شرح الكلمات:

فمن أظلم : الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولذا المشرك ظالم لأنه وضع العبادة في غير

موضعها حيث عبد بها من لا يستحقها.

نصيبيهم: ما قدر لهم في كتاب المقادير.

رسلنا : المراد بهم ملك الموت وأعوانه.

قالوا ضلوا عنا: غابوا عنا فلم نرهم ولم نجدهم.

في أمم : أي في جملة أمم.

اداركو : أي تداركوا ولحق بعضهم بعضا حتى دخلوها كلهم.

أخراهم لأولاهم : الأتباع قالوا للرؤساء في الضلالة وهم المتبوعون.

تكسيون : من الظلم والشر والفساد.

يلج الجمل في سم الخياط: أي يدخل الجمل في ثقب الإبرة.

المجرمين : الذين أجزموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك والمعاصي.

مهاده: فراش يمتهدونه من النار.

غواش : أغشية يغطون بها من النار كذلك.

معنى الآيات:

يخبر تعالى بأنه لا أظلم ولا أجهل ولا أضل ممن يفترى على الله الكذب فيقول اتخذ ولداً أو أمر

بالفواحش، أو حرم كذا وهو لم يحرم، أو كذب بآياته التي جاءت بها رسله فجحدها وعاند في ذلك

وكابر، فهؤلاء المفترزون المكذبون يخبر تعالى أنه {ينالهم نصيبهم من الكتاب}

(2/171)

أي ما كتب لهم في اللوح المحفوظ من خير وشر وسعادة أو شقاء 1 {حتى 2 إذا جاءتهم رسلنا} أي

ملك الموت وأعوانه {يتوفونهم} يقولون لهم {أين ما كنتم تدعون من دون الله} أي تعبدون من أولياء؟

فيجيئون قائلين: {ضلوا عنا} أي غابوا فلم نرهم. قال تعالى: {وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا

كافرين} ويوم القيامة يقال لهم {ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس} في النار،

فيدخلون {كلما دخلت أمة لعنت أختها} فلعن المشركون بعضهم بعضاً، واليهود والنصارى كذلك،

{حتى إذا ادركوا فيها جميعاً} أي تلاحقوا وتم دخولهم النار أخذوا يشتكون {قالت أخراهم لأولاهم

رينا} أي يا رينا {هؤلاء أضلونا} عن صراطك فلم نعبدك {فأتهم عذاباً ضعفاً} أي مضاعفاً {من

النار}، فأجابهم الله تعالى بقوله {لكل ضعف} لكل واحدة منكم ضعف من العذاب {ولكن لا

تعلمون}، إذ الدار دار عذاب فهو يتضاعف على كل من فيها، وحينئذ {قالت أولاهم لأخراهم ما كان

لكم علينا من 3 فضل، فنوقوا 4 العذاب بما كنتم تكسبون} أي من الشرك والافتراء على الله والتكذيب

بآياته، ومجانبة طاعته وطاعة رسوله.

هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث أما الآيتان الرابعة والخامسة فإن الرابعة قررت حكماً عظيماً وهو أن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا 5 عنها فلم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات وعاشوا عاد الشرك والشر والفساد هؤلاء إذا مات أحدهم وعرجت الملائكة بروحه إلى السماء لا تفتح له أبواب السماء 6، ويكون مآلهم النار كما قال تعالى ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فعلق دخولهم الجنة على مستحيل وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة، والمعلق عاد مستحيل مستحيل. قال تعالى: ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ على أنفسهم حيث أفسدوها بالشرك والمعاصي. هذا ما تضمنته الآية الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿إن الذين

- 1 أي: في الدنيا لا في الآخرة فهم أصحاب النار هم فيها خالدون ولا سعادة مع دخول النار.
- 2 حتى هنا: ابتدائية وليست غائية إذ هي بداية خبر المكذبين المستكبرين المعرضين. قال سيبويه: حتى، وإمّا، وألاً لا يُملَن لأنهن حروف وكتبت حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى وحبلَى.
- 3 ﴿من﴾ زائدة لتأكيد نفي الفضل.
- 4 الذوق هنا: مستعمل للإهانة والتشفي والباء في ﴿بما كنتم تكسبون﴾ سببية.
- 5 جملة: ﴿إنّ الدين﴾ الخ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً سيقى لتحقيق خلود الفريقين في النار معاً والفريقان هما أولاهما وأخراهما في الآية إذ كلا الفريقين كان مكذباً مستكبراً.
- 6 القول بأنّ قوله تعالى: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾: كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الجزاءات الإلهية قول باطل لأنّه تأويل يبطل به ما أخبر تعالى به من أنّ للسماء أبواب إذ أيّ مانع إن يكون للسماء أبواب لا يدخل معها ملك ولا جني ولا إنسان إلا بإذن ولكل بناء أبواب بحسبه.

(2/172)

كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط 1 وكذلك نجزي المجرم 2.

أما الخامسة فقد تضمنت الخبر التالي: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ أمم أغطية من النار وكما جرى تعالى هؤلاء المكذبين المستكبرين والمجرمين يجزي بعدله الظالمين لأنفسهم حيث لوثوها وخبثوها بأوضار الذنوب والآثام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- شر الظلم ما كان كذباً على الله وتكذيباً بشرائعه.

2- تقرير فتنة القبر 3 وعذابه.

3- لعن أهل النار بعضهم بعضاً حنفاً على بعضهم بعضاً إذ كان كل واحد سبباً في عذاب الآخرة.

4- بيان جزاء المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها وهو الحرمان من دخول الجنة وكذلك المجرمون والظالمون.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42)
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

1 الخياط : أي المخيط.

2 الإجرام: فعل الجرم، وأجرم إذا فعل الجرم وهو: الذنب والذنب: هو ما يفسد الروح وينجسها، فأجرم معناه: أفسد.

3 أخرج ابن كثير في تفسيره عن أبي داود حديثاً طويلاً أشتمل على بيان قبض روح العبد والعروج بها إلى السماء ثم العودة بها إلى القبر وما يجري في القبر من فتنة وما يتم للعبد الصالح من سعادة وللكافر من شقاوة فليرجع إليه.

(2/173)

شرح الكلمات:

إلا وسعها: طاقتها وما تتحملة وتقدر عليه من العمل.

ونزعنا : أي ألقنا وأخرجنا.

من غل: أي من حقد وعداوة.

هدانا لهذا: أي للعمل الصالح في الدنيا الذي هذا جزاؤه وهو الجنة.

بما كنتم تعملون: أي بسبب أعمالكم الصالحة من صلاة وصيام وصدقات وجهاد.

معنى الآيتين:

لما ذكر تعالى جزاء أهل التكذيب والاستكبار عن الإيمان والعمل الصالح وكان شقاءً وحرماناً ذكر جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح فقال : {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، ولما كان العمل منه الشاق الذي لا يطاق ومنه السهل الذي يقدر عليه قال: {لا نكلف نفساً إلا وسعها} أي ما تقدر عليه من العمل ويكون في استطاعتها، ثم أخبر عن المؤمنين العاملين للصالحات فقال {أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}. كما أخبر في الآية الثانية أنه طهرهم باطناً فنزع ما في صدورهم من غل 1 على بعضهم بعضاً، وأن الأنهار تجري من تحت قصورهم، وأنهم قالوا شاكرين نعم الله عليهم:

{الحمد لله الذي هدانا لهذا} أي لعمل صالح هذا جزاؤه أي الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وقرروا حقيقة وهي أن هدايتهم التي كان جزاؤها الجنة لم يكونوا ليحصلوا عليها لولا أن الله تعالى هو الذي هداهم فقالوا: {وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله}2 ثم قالوا والله {لقد جاءت رسلنا بالحق} فهاهم أهل الكفر والمعاصي في النار، وها نحن أهل الإيمان والطاعات في نعيم الجنة فصدقت الرسل فيما أخبرت به من وعد ووعد، وناداهم ربهم سبحانه وتعالى: {أن تلكم الجنة أورثتموها}3 بما كنتم تعملون {فيزداد بذلك نعيمهم وتعظم سعادتهم.

- 1 الغل: الحقد الكامن في الصدر أي: أذهبنا- في الجنة- ما كان في قلوبهم من الغل في الدنيا ولذا فلا يكون لهم من تحاسد في الجنة على تفاوت درجاتهم في العلو والارتفاع. وقال علي رضي الله عنه: فينا والله أهل بدر نزلت: {ونزعنا ما في صدورهم من غل}.
- 2 روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فيكون له حسرة".
- 3 روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمديني الله برحمة منه وفضل" وعليه فالبااء في قوله: {ربما كنتم تعملون} سببية وليست بباء العرض إذ أعمال العبد لا تعادل موضع سوط في الجنة فالعمل مورث بفضل الله تعالى ورحمته.

(2/174)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- الإيمان والعمل الصالح موجبان لدخول الجنة مقتضى للكرامة في الدارين.
 - 2- لا مشقة لا تحتمل في الدين الصحيح الذي جاءت به الرسل إلا ما كان عقوبة.
 - 3- لا عداوة ولا حسد في الجنة.
 - 4- الهداية هبة من الله فلا تطلب إلا منه، ولا يحصل عليها إلا بطلبها منه تعالى.
 - 5- صدقت الرسل فيما أخبرت به من شأن الغيب وغيره.
- وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) وَبَيَّنَّهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا

أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ
النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47)

شرح الكلمات:

فأذن مؤذن: أي أعلن بأعلى صوته أن لعنة الله على الظالمين.

لعنة الله: أي أمره بطرد الظالمين من الرحمة إلى العذاب.

يصدون عن سبيل الله: سبيل الله هي الإسلام والصد: الصرف فهم صرفوا أنفسهم وصرفوا غيرهم.

ويبغونها عوجاً: يطلبون الشريعة أن تميل مع ميولهم وشهواتهم فتخدم أغراضهم.

وبينهما حجاب. أي باب أهل الجنة وأهل النار حاجز فاصل وهو سور الأعراف.

وعلى الأعراف: سور بين الجنة والنار قال تعالى من سورة الحديد {فضرب بينهم بسور}.

(2/175)

يعرفون كلاً بسيماهم: أي كل من أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم.

صرفت أبصارهم: أي نظروا إلى الجهة التي فيها أصحاب النار.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أصحاب الجنة وأصحاب النار فيخبر تعالى أن أصحاب الجنة نادوا

أصحاب النار قائلين لهم إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا به هن الجنة ونعيمها حقاً، فهل وجدتم أنتم ما

وعدكم ربكم من النار وعذابها حقاً؟ فأجابوهم: نعم إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، وهنا أذن مؤذن

قائلاً: لعنة 3 الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله التي هي الإسلام الموصل إلى رضا الله

تعالى والجنة، ويبغونها عوجاً أي يريدون سبيل الله معوجة تدور معهم حيث داروا في شرورهم

ومفاسدهم، وشهواتهم وأهوائهم، وهم بالآخرة كافرون أيضاً فهؤلاء يلعنونهم: لعنة الله على الظالمين

الذين تلك صفاتهم قال تعالى في الآية الثالثة: {وبينهما} أي بين أهل الجنة وأهل النار {حجاب}

فاصل أي حاجز وهو مكان على مرتفع، وعليه رجال من بني آدم استوت سيئاتهم وحسناتهم فحبسوا

هناك حتى يقضي بين أهل الموقف فيحكم فيهم بدخولهم الجنة إن شاء الله تعالى.

وقوله: {يعرفون كلاً بسيماهم} أي يعرفون أهل الجنة بسيماهم وهي بياض الوجوه ونضرة النعيم،

ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وزرقة العيون.

{ونادوا أصحاب الجنة} أي نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة قائلين: سلام عليكم يتطمعون

بذلك كما قال تعالى {لم يدخلوها وهم يطمعون}. وإذا صرفت أبصارهم تلقاء 4 أصحاب النار {أي

نظروا إلى جهة أهل النار فرأوا أهلها مسودة وجوههم زرق أعينهم يكتنفهم العذاب من فوقهم ومن

تحت أرجلهم، رفعوا أصواتهم قائلين: {ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين} أي أهل النار لأنهم دخلوها

بظلمهم والعياذ بالله.

- 1 هذا سؤال توبيخ وتعيير لا استفهام واستخبار.
- 2 في نعم لغات: فتح النون والعين نعم وكسر العين للفرق بينها وبين النعم التي هي الإبل والبقر والغنم، وهي حرف إجابة وتكون للعدة والتصديق فمثال العدة نحو: أيقوم زيد؟ فتقول: نعم أي الله بقيامه ومثال التصديق قولك: هل جاء زيد؟ فتقول: نعم فتصدقه في مجيئه.
- 3 يروى أن طاووسا دخل على هشام بن عبد الملك فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: {فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} فصعق هشام فقال طاووس: هذا ذلُّ الصفة فكيف ذلُّ المعاينة.
- 4 قال أهل اللغة: لم يأت مصدر على تفعال سوى حرفين: تلقاء وتبيان. وما عداهما فبالفتح نحو تسيار وتذكار وتهمام، أما الأسماء فكثرة نحو تمثال ومفتاح ومصباح ومِعراج.

(2/176)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجود اتصال كامل بين أهل الجنة وأهل النار متى أراد أحدهم ذلك بحيث إذا أراد من في الجنة أن ينظر إلى من في النار ويخاطبه تم له ذلك.
- 2- يجوز إطلاق لفظ الوعد على الوعيد للمشكلة أو التهكم كما في هذه الآيات.
- 3- التنديد بالصد عن سبيل الله، والظلم والكفر بالآخرة وهي أسباب الشقاء في الدار الآخرة.
- 4- تقرير مبدأ ثقل الحسنات ينجي وخفتها تردي، ومن استوت حسناته وسيئاته ينجو آخر من ينجو من دخول النار.
- 5- مشروعية الطمع إذا كان مقتضاه موجوداً.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51)

شرح الكلمات:

بسيماهم : السیما العلامة الدالة على من هی فیہ.
جمعکم: أي للمال وللرجال كالجیوش.

(2/177)

أهؤلاء : إشارة إلى ضعفاء المسلمین وهم فی الجنة.
أو مما رزقکم الله: أي من الطعام والشراب.
حرمهما : منعهما.
معنی الآیات:

مازال السیاق فی الحدیث عن أصحاب الجنة وأصحاب النار قال تعالی: {ونادی أصحاب الأعراف رجالاً} أي من أهل النار یعرفونهم بسیماهم التي هی سیما أصحاب النار من سواد الوجوه وزرقة العیون نادوهم قائلین: {ما أغنی عنکم جمعکم} أي للأموال والرجال للحروب والقتال، كما لم یغن عنکم استنبارکم عن الحق وترفعکم عن قبوله وها أنتم فی أشد ألوان العذاب، ثم یشیرون لهم إلى ضعفة المسلمین الذین یسخرون منهم فی دنیا ویضربونهم ویهینونهم 1 {أهؤلاء الذین أقسمتم} أي حلفتם {لا ینالهم الله برحمة} 2 ثم یقال لأصحاب الأعراف {ادخلوا الجنة لا خوف علیکم ولا أنتم تحزنون}.

وفی الآیة الثالثة یقول تعالی مخبراً عن أصحاب النار وأصحاب الجنة {ونادی أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفیضوا علینا من الماء} 5 وذلك لشدة عطشهم {أو مما رزقکم الله} أي من الطعام وذلك لشدة جوعهم فیقال لهم: {إن الله حرمهما} أي شراب الجنة وطعامها {على الکافرین} فلا ینالهما بحال من الأحوال.

ثم وصف الکافرین ليعرض جرائمهم التي اقتضت حرمانهم وعذابهم لیكون ذلك عظة وعبرة للکفار من قریش ومن سائر الناس فقال وهو ما تضمنته الآیة الرابعة {الذین اتخذوا دینهم لهواً ولعباً وغرتهم الحیاة الدنیا فالیوم ننسأهم كما نسوا لقاء یومهم هذا وما كانوا بآیاتنا یجحدون} أي نتركهم فی عذابهم كما ترکوا یومهم هذا فلم یعملوا له من الإیمان والصالحات، وبسبب جحودهم لآیاتنا الداعیة إلى الإیمان وصالح الأعمال.

1 کبال وعمار وصهبیب وخباب وغیرهم من سائر ضعفة المؤمنین فی کل أمة من الأمم التي وجد فیها مؤمنون مستضعفون.

2 جعل إیواء الله تعالی إیاهم بدار رحمته التي هی الجنة بمنزلة النیل الذي هو حصول الأمر المحبوب المطلوب.

- 3 اختلف في القائل. والراجح أنه الله تعالى، وذلك بعد استقرار أهل الجنة فيها وأهل النار في النار ولم يبق إلا أصحاب الأعراف فيقول لهم الرب تبارك وتعالى: {ادخلوا الجنة}.
- 4 روي عن ابن عباس أنه قال: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا: يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم.. فينادي الرجل أخاه أو قريبه قد احترقت فأعثني فيقول له إن الله حرّمهما على الكافرين.
- 5 في الآية دليل على أفضلية صدقة الماء، وفي الحديث: "أي الصدقة أعجب إليك؟ قال: الماء" وليس أدل من حديث الذي سقى كلباً عطشان فشكر الله له فغفر له.

(2/178)

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- عدم إغناء المال والرجال أيّ إغناء لمن مات كافراً مشركاً من أهل الظلم والفساد.
 - 2- بشرى الضعفة من المسلمين بدخول الجنة وسعادتهم فيها.
 - 3- تحريم اتخاذ شيء من الدين لهواً ولعباً.
 - 4- التحذير من الاغترار بالدنيا حتى ينسى العبد آخرته فلم يعد لها ما ينفعه فيها من الإيمان وصالح الأعمال.
- وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَبَلَّغْنَا لَنَا أَوْ نُرْدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)
- شرح الكلمات:

ولقد جئناهم : أي أهل أولاً ثم سائر الناس.

بكتاب: القرآن العظيم.

فصلناه على علم : بيناه على علم متأ فيينا حلاله وحرماه ووعده ووعيده وقصصه ومواعظه وأمثاله.

(2/179)

تأويله: تأويل ما جاء في الكتاب من وعد ووعد أي عاقبة ما أنذروا به.
وضل عنهم : أي ذهب ولم يعثروا عليه.
في ستة أيام : هي الأحد إلى الجمعة.
يغشي الليل النهار : يغطي كل واحد منهما الآخر عند مجيئه.
حئيئاً: سريعاً بلا انقطاع.
مسخرات : مثللات.
ألا: أداة استفتاح وتنبية (بمنزلة ألو للهاتف).
له الخلق والأمر : أي له المخلوقات والتصرف فيها وحده لا شريك له.
تبارك: أي عظمت قدرته، وجلت عن الحصر خيراته وبركاته.
العالمين: كل ما سوى الله تعالى فهو عالم أي علامة على خالقه وإلهه الحق.
معنى الآيات:

بعد ذلك العرض لأحوال الناس يوم القيامة ومشاهد النعيم والجحيم أخبر تعالى أنه جاء قريشاً لأجل هدايتهم بكتاب عظيم هو القرآن الكريم وفصله تفصيلاً فيبين التوحيد ودلائله، والشرك وعوامله، والطاعة وآثارها الحسنة والمعصية وآثارها السيئة في الحال والمآل وجعل الكتاب هدى أي هادياً ورحمة يهتدي به المؤمنون وبه يرحمون.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (52) وهي قوله تعالى: ﴿ولقد جنّناهم بكتاب فصلّناه على علم 1 هدى 2 ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وأما الآية الثانية (53) فقد استنبط الحق تعالى فيها إيمان أهل مكة الذين جاءهم بالكتاب المفصل المبين فقال: ﴿هل يُنظرون﴾ أي ما ينظرون ﴿إلا تأويله﴾ أي عاقبة ما أخبر به القرآن من القيامة وأهوالها، والنار وعذابها، وعندئذ يؤمنون، وهل ينفع يومئذ الإيمان؟ وهاهم أولاء يقولون ﴿يوم يأتي تأويله﴾ وينكشف الغطاء عما وعد به، ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي قبل وقوعه، وذلك في الحياة الدنيا، نسوه فلم يعملوا بما ينجيهم فيه من العذاب يقولون: ﴿قد جاءت رسلنا بالحق﴾ اعترفوا بما

1 أي: منأ به، فلم يقع فيه سهو ولا غلط وحاشاه تعالى أن يسهو أو يغلط.

2 {هدى ورحمة} منصوبان على الحال، ويصح فيهما الرفع والخفض فالرفع على الابتداء أي: هو هدى ورحمة، والخفض على النعت لكتاب أي: ذي هداية ورحمة، وخص المؤمنون بالهدى والرحمة لأنهم أحياء، وأما الكافرون فهم أموات.

كانوا به يجحدون ويكذبون ثم يتمنون ما لا يتحقق لهم أبداً فيقولون: {فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا؟ أو نردُّ} إلى الدنيا {فنعمل غير الذي كنا نعمل} من الشرك والنشر والفساد. وتذهب تمنياتهم أدراج الرياح، ولم يرعهم إلا الإعلان التالي: {قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون} ، خسروا أنفسهم في جهنم، وضاع منهم كل أمل وغاب عنهم ما كانوا يفترون من أن آلهتهم وأولياءهم يشفعون لهم فينجونهم من النار ويدخلونهم الجنة.

وفي الآية الأخيرة يقول تعالى لأولئك المتباطئين في إيمانهم {إن ربكم} الذي يحب أن تعبدوه وتدعوه وتتقربوا إليه وتطيعوه {الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُعشي الليلَ النَّهارَ يطلبه 3 حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره} هذا هو ربكم الحق والهكم الذي لا إله لكم غيره، ولا ربَّ لكم سواه، أما الأصنام والأوثان فلن تكون رباً ولا إلهاً لأحد أبداً لأنَّها مخلوقة غير خالقة وعاجزة عن نفع نفسها، ودفع الضر عنها فكيف بغيرها؟ إن ربكم ومعبودكم الحق الذي له 4 الخلق كله ملكاً وتصرفاً وله الأمر وحده يتصرف كيف يشاء في الملكوت كله. علويّه وسفليّه فتبارك الله رب العالمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- لا ينفع الإيمان عند معاينة الموت والعذاب كما لا ينفع يوم القيامة.
- 2- يحسن التثبت في الأمر والتأني عند العمل وترك العجلة، فإله قادرٌ على خلق السموات والأرض في ساعة ولكن خلقها في ستة 5 أيام بمقدار أيام الدنيا تعليماً وإرشاداً إلى التثبت في الأمور والتأني فيها.
- 3- صفة من صفات الرب تعالى التي يجب الإيمان بها ويحرم تأويلها أو تكييفها وهي

1 { فهل لنا من شفعاء } ؟ الاستفهام مشوب بالتمني.

2 خسران النفس أكبر خسران إذ هو آخر ما يخسر، فإن من خسِر نفسه فقد خسِر كل شيء قال تعالى : {قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة} ومعنى: خسران المس: عدم الانتفاع بها.

3 أي: يطلبه طلباً حثيثاً أي سريعاً، إذ الحث: الإعجال والسرعة.

4 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله" أخرجه ابن كثير نقلاً عن ابن جرير. وقال ابن عيينة: فرّق الله بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما لقد كفر إذ قال: { ألا له الخلق والأمر} فالخلق غير الأمر فمن قال: الأمر مخلوق فقد كفر.

5 أصل ستة: سدسة فأرادوا إدغام الدال في السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليها فصارت ستة

ولذا تصغر على سديسة وتجمع على أسداس، والجمع والتصغير يردان الأسماء إلى أصولها، ويقال: جاء فلان سادس ستة.

(2/181)

استواؤه تعالى على عرشه. 1

4- انحصار الخلق كل الخلق فيه تعالى فلا خالق إلا هو، والأمر كذلك فلا أمر ولا ناهي غيره. هنا قال عمر: من بقي له شيء فليطلبه إذ لم يبق شيء ما دام الخلق والأمر كلاهما لله. ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (56)

شرح الكلمات:

ادعوا ربكم : سلوه حوائجكم الدنيوية والأخروية فإنه ربكم فلا تستحيوا من سؤاله. تضرعاً وخفية : أي حال كونكم ضارعين متذللين مخفي الدعاء غير رافعين أصواتكم به. المعتدين: أي في الدعاء وغيره والاعتداء في الدعاء أن يسأل الله ما لم تجر سنته بإعطائه أو إيجاده أو تغييره كأن يسأل أن يكون نبياً أو أن يرد طفلاً أو صغيراً، أو يرفع صوته بالدعاء. ولا تفسدوا في الأرض: أي بالشرك والمعاصي بعد إصلاحها بالتوحيد والطاعات. المحسنين : الذين يحسنون أعمالهم ونياتهم، بمراقبتهم الله تعالى في كل أحوالهم. معنى الآيات:

ما عرّف تعالى عباده بنفسه وأنه ربهم الحق وإلههم، وأنه الخالق الأمر المتصرف بيده كل شيء أمرهم إرشاداً لهم أن يدعوه، وبين لهم الحال التي يدعونه عليها، ليستجيب لهم

1 من أحسن ما يؤثر في مسألة الاستواء قول مالك رحمه الله تعالى إذ قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عن هذا بدعة، ويروى مثله عن أم سلمة رضي الله عنها.

(2/182)

فقال: {ادعوا ربكم تضرعاً} أي تنذلاً وخشوعاً {وخفية} 2 أي سرّاً لا جهراً، ونهاهم عن الاعتداء في الدعاء حيث أعلمهم أنه لا يحب المعتدين، والاعتداء في الدعاء أي يدعى غير الله تعالى أو يدعى معه غيره، ومنه طلب ذوات الأسباب بدون إعداد أسبابها، أو سؤال ما لم تجر سنة الله به كسؤال

المرء أن يكون نبياً أو يرد من كهولته إلى شبابه أو من شبابه إلى طفولته. ثم بعد هذا الإرشاد والتوجيه إلى ما يكملهم ويسعدهم نهاهم عن الفساد في الأرض بعد أن أصلحها تعالى والفساد في الأرض يكون بالشرك والمعاصي، والمعاصي تشمل سائر المحرمات كقتل الناس وغصب أموالهم وإفساد زروعهم وإفساد عقولهم بالسحر والمخدرات وأعراضهم بالزنى والموبقات. ومرة أخرى يحضهم على دعائه لأن الدعاء هو العبادة وفي الحديث الصحيح "الدعاء هو العبادة" فقال: ادعوا ربكم أي سلوه حاجاتكم حال كونكم في دعائكم خائفين من عذابه طامعين راجين رحمته وبين لهم أن رحمته قريب 3 من المحسنين الذين يحسنون نيّاتهم وأعمالهم ومن ذلك الدعاء فمن أحسن الدعاء ظفر بالإجابة، فثواب المحسنين قريب الحصول بخلاف المسيئين فإنه لا يستجاب لهم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- وجوب دعاء الله تعالى فإن الدعاء هو العبادة.
- 2- بيان آداب الدعاء وهو: أن يكون الداعي ضارحاً متذللاً، وأن يخفي دعاءه فلا يجهر به، وأن يكون حال الدعاء خائفاً طامعاً 4، وأن لا يعتدي في الدعاء بدعاء غير الله تعالى أو سؤال ما لم تجر سنة الله بإعطائه.
- 3- حرمة الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله تعالى بالإسلام.
- 4- الترغيب في الإحسان مطلقاً خاصاً وعمماً حيث أن الله تعالى يحب أهله.

- 1 اختلف في رفع اليدين في الدعاء والأكثرون على استحبابه لفعله صلى الله عليه وسلم.
- 2 روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي".
- 3 عدم تأنيث قريب مع أنه خبر عن مؤنث، تكلم فيه كثيراً وأحسن ما قيل في مثله أن لفظ قريب ويعيد إذا أطلق على النسب تعين التذكير والتأنيث بحسب المخبر عنه نحو: زيد قريب عمر، وعائشة قريبة بكر مثلاً، وما كان لغير النسب جاز تذكيره وتأنيثه قال تعالى: {وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً} وقال: {وما هي من الظالمين ببعيد} فذكر في الموضعين مع أنّ الوصف عائد على مؤنث.
- 4 ويصح نصب خوفاً وطمعاً مفعولين لأجله أي ادعوه لأجل الخوف منه والطمع فيه، ونصبيهما على الحال كما في التفسير حسن أيضاً.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدِيَّ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ
بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

شرح الكلمات:

الرياح: جمع ريح وهو الهواء المتحرك.

بشيراً 1 : جمع بشير أي مبشرات بقرب نزول المطر، قرىء نشراً أي تنتشر السحاب للأمطار.

رحمته : أي رحمة الله تعالى وهي المطر.

أقلت سحاباً ثقالاً : أي حملت سحاباً ثقالاً مشبعاً ببخار الماء.

ميت : لا نبات به ولا عب ولا كلاً.

كذلك نخرج الموتى : أي كذلك نحیی الموتى ونخرجهم من قبورهم أحياء.

تذكرون: تذكرون فتؤمنون بالبعث والجزاء.

الطيب : أي الطيب التربة.

خبث : أي خبثت تربته بأن كانت سبخة.

إلا نکداً: أي إلا عسراً.

نصرف الآيات: أي ننوعها ونخالف بين أساليبها ونذكر في بعضها ما لم نذكره في بعضها للهداية
والتعليم.

لقوم يشكرون : لأنهم هم الذين ينتفعون بالنعمة بشكرها بصرفها في محاب الله تعالى.

1 كرسل جمع رسول، وسكّن بشراً للتخفيف كما تسكن السنين في رُسُل فيقال: رُسُل على وزن فُعَل.

(2/184)

معنى الآيتين:

مازال السياق الكريم في بيان مظاهر القدرة الربانية والرحمة الإلهية الموجبة لعبادته تعالى وحده دون
سواه قال تعالى {وهو الذي يرسل الرياح بشراً} وهو أي ريكم الحق الذي لا إله إلا هو وبشراً أي
مبشرات 1 ونشراً أي تنتشر الرياح تحمل السحب الثقيل ليسقي الأرض الميتة فتحيا بالزروع والنباتات
لتأكلوا وترعوا أنعامكم، ويمثل هذا التدبير ني إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها يحييكم بعد
موتكم فيخرجكم من قبوركم أحياء ليحاسبكم على كسبكم في هذه الدار ويجزيكم به الخير بالخير
والشر بمتله جزاء عادلاً لا ظلم فيه وهذا الفعل الدال على القدرة والرحمة ولطف التدبير يُريكموه
فترونه بأبصاركم لعلكم به تذكرون أن القادر على إحياء موات الأرض قادر على إحياء موات

الأجسام فتؤمنوا بقاء ربحم وتوقفوا به فتعملوا بمقتضى ما يسعدكم ولا يشقيكم فيه.
هذا ما تضمنته الآية الأولى (57) {وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته} أي المطر {حتى إذا أقلت} أي حملت {سحاباً ثقلاً} أي ببخار الماء {سقناه} بقدرتنا ولطف تدبيرنا {البلد ميت} لا حياة به لا نبات ولا زرع، ولا عشب {فأنزلنا به} أي بالسحاب {الماء} العذب الفرات، {فأخرجنا به من كل الثمرات} المختلفة الألوان والروائح والطعوم {كذلك نخرج الموتى} كهذا الإخراج للنبات من الأرض الميتة نخرج الموتى 3 من قبورهم وعملنا هذا نسمعكم إياه ونريكموه بأبصاركم رجاء أن تذكروا فتذكروا أن القادر على إحياء الأرض قادر على إحياء الموتى رحمة منا بكم وإحساناً منا إليكم.
أما الآية الثانية (58) فقد تضمنت مثلاً ضربه الله تعالى للعبد المؤمن والكافر إثر بيان قدرته على إحياء الناس بعد موتهم فقال تعالى: {والبلد الطيب} أي طيب التربة {يخرج نباته بإذن ربه} وذلك بعد إنزال المطر به، وهذا مثل العبد المؤمن ذي القلب الحي الطيب إذا سمع ما ينزل من الآيات يزداد إيمانه وتكثر أعماله الصالحة {والذي خيب} أي البلد الذي تربته خبيثة سبخة أو حمأة عندما ينزل به المطر لا يخرج نباته إلا نكداً 4 عسراً قليلاً غير

1 قرىء {بُشراً} بضم الباء، وقرىء {نشراً} بالنون المضمومة، وهما قراءتان سبعيتان وفسرت الكلمتان بحسب ما تدلان عليه فتأمل، وفيهما قراءات أخرى من حيث الحركات كضم الباء مع الشين، وبشرى بالألف المقصورة.

2 البلد والبلدة بمعنى ويجمع على بلاد وبلدان.

3 روى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: "ثم يرسل الله أو قال: ينزل الله مطراً كأنه الطلّ فتنبت منه أجساد الناس، ثم قال: أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوه إنهم مسؤولون" الحديث.

4 النكد: العسر الممتنع من إعطاء الخير من الناس، وشبهه به البلد الخبيث التربة كذات الحجارة أو السبخة.

(2/185)

صالح وهذا مثل الكافر عندما يسمع الآيات القرآنية لا يقبل عليها ولا ينتفع بها في خلقه ولا سلوكه فلا يعمل خيراً ولا يترك شراً.

وقوله تعالى: {كذلك نصرف الآيات} أي ببيان مظاهر قدرته تعالى وعلمه وحكمته ورحمته وضرب الأمثال وسوق الشواهد والعبير {لقوم يشكرون} إذ هم المنتفعون بها أما الكافرون الجاحدون فأنى لهم الانتفاع بها وهم لا يعرفون الخير ولا ينكرون الشر.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- تقرير عقيدة البعث والحياة بعد الموت للحساب والجزاء إذ هي من أهم أركان الإيمان.
 - 2- الاستدلال بالحاضر على الغائب وهو من العلوم النافعة.
 - 3- حسن ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.
 - 4- فضيلة الشكر وهو صرف النعمة فيما من أجله وهبها الله تعالى للعبد.
- لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (61) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَيْبُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ نَذْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64)

(2/186)

شرح الكلمات:

نوحاً : هذا أول الرسل هذا العبد الشكور هو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ أي أدريس 1 عليهما السلام، أحد أولى العزم الخمسة من الرسل عاش داعياً وهادياً ومعلماً ألفاً ومائتين وأربعين سنة، ومدة الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بعدها عاشها هادياً ومعلماً وللمؤمنين.

عذاب يوم عظيم : هو عذاب يوم القيامة.

الملا: أشرف القوم ورؤسائهم الذين يملأون العين والمجلس.

وأنصح لكم : أريد لكم الخير لا غير.

أَوْ عَجِبْتُمْ : الاستفهام للإنكار، وعجبتكم الواو عاطفة والمعطوف عليه جملة: هي كذبتكم أي أكذبتكم وعجبتكم.

لينذركم: أي العذاب المترتب على الكفر والمعاصي.

ولتتقوا: أي الله تعالى بالإيمان به وتوحيده وطاعته فترحمون فلا تعذبون.

والذين معه في الفلك: هم المؤمنون من قومه والفلك هي السفينة التي صنعها بأمر الله تعالى وعونه.

عمين : جمع عم2 وهو أعمى البصيرة أما أعمى العينين يقال فيه أعمى.

معنى الآيات:

هذا شروع في ذكر قصص ستة من الرسل وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام والمراد من ذكر هذا القصص هو تنويع أسلوب الدعوة ليشاهد المدعون من كفار قريش صوراً ناطقة ومشاهد حية لأمم سبقت وكيف كانت بدايتها وبم ختمت نهايتها، وهي لا تختلف إلا يسيراً

عما هم يعيشونه من أحداث الدعوة والصراع الدائر بينهم وبين نبيهم لعلمهم يتعظون.، ومع هذا فالقصاص يقرر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إذ لو لم يكن رسولاً يوحى إليه لما تأتى له أن يقص من أخبار الماضين ما بهر العقول كما أن المؤمنين مع نبيهم يكتسبون من العبر ما يحملهم على الثبات والصبر، ويجنبهم القنوط واليأس من حسن العافية والظفر والنصر.

1 الظاهر أن إدريس هنا ليس هو إدريس النبي الرسول عليه السلام- والله أعلم.

2 يقال: رجل عم أي جاهل بكذا.

(2/187)

وهذا أول قصص بقوله تعالى فيه {ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه 1} أي وعزتنا لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه كما أرسلناك أنت يا رسولنا إلى قومك من العرب والعجم، فقال: أي نوح في دعوته: {يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره 2} أي ليس لكم على الحقيقة إله غيره، إذ إله الحق من يخلق ويرزق ويدبر فيحيي ويميت ويعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويسمع ويبصر فأين هذا من آلهة نحتموها بأيديكم، ووضعتموها في بيوتكم عمياء لا تبصر صماء لا تسمع بكماء لا تتطق فكيف يصح أن يطلق عليها اسم الإله وتعبد {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} أنذرهم عذاب يوم القيامة إن هم أصروا على الشرك والعصيان فأجابه الملائكة 3 منهم وهم أهل الحل والعقد في البلاد قائلين: {إنا لنراك في ضلال مبين} بسبب موقفك العدائي هذا لآلهتنا، ولعبادتنا إياها فأجاب عليه السلام قائلاً: {يا قوم ليس بي ضلالة} مجرد ضلالة فكيف بالضلال كله كما تقولون، {ولكني رسول من رب العالمين} أي إليكم {أبلغكم رسالات ربي وأنصح 4 لكم} أي بما هو خير لكم في حالكم ومآلكم، واعلموا أنني {وأعلم من الله ما لا تعلمون} فأنا على علم بما عليه ربي من عظمة وسلطان، وجلال، وجمال، وما عنده من رحمة وإحسان، وما لديه من نكال وعذاب، وأنتم لا تعلمون فاتقوا الله إذا وأطيعوني يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى آجالكم، ولا يعجل بفنائكم وواصل حديثه معهم وقد دام ألف سنة إلا خمسين عاماً قائلاً: أكنتم بما دعوتكم إليه وجئتكم به وعجبتم 5 أن جاءكم ذكر من ربيكم على رجل منكم لينذركم، ولتتقوا الله بتوحيده وعبادته وطاعته رجاء أن ترحموا فلا تعذبوا أمن هذا يتعجب العقلاء؟ وكانت النتيجة لهذه الدعوة المباركة الخيرة أن كذبوه فأنجاه ربه والمؤمنين معه، وأغرق الظالمين المكذبين، لأنهم كانوا قوماً عمين فلا يستحقون البقاء والنجاة قال تعالى {فكذبوه فأنجيناه والذين معه في

1 نوح: هو أول الرسل من حيث أنه حارب الشرك ودعا إلى التوحيد، وهل إدريس من ذريته أو من

آبائه خلاف، أما شيت بن آدم فقطعاً هو من آبائه.

2 غيره: مرفوع على النعت لأنه المرفوع تقديراً، إذ الأصل رفعه، وجُرَّ بحرف الجرِّ الزائد الذي هو مِن.

3 المَلَأُ: هم أشرف القوم ورؤسأؤهم الذين إذا نظر إليهم ملأوا العين وإذا جلسوا ملأوا المجلس، هذا أصل الكلمة.

4 النصح: إخلاص القول والعمل من شوائب الفساد، بمعنى تخليص القول أو العمل مما هو ضار أو غير نافع للمنصوح له، ويقال نصحه ونصح له والمعنى واحد، والاسم النصيحة، والناصح الخالص من العسل مثل الناصح الذي لا شائبة فيه.

5 قوله تعالى: { أو عجبتم } الهمزة للاستفهام، والواو عاطفة على جملة محذوفة كما هي في التفسير.

(2/188)

الفلك 1، وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين 2} لا يبصرون الآيات ولا يرون النذر والشواهد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كنبوة نوح عليه السلام.

2- تقرير وتأكيد التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله.

3- التحذير من عذاب يوم القيامة بالتذكير به.

4- أصحاب المنافع من مراكز وغيرها هم الذين يردون دعوه الحق لمنافاتها للباطل.

5- تقرير مبدأ العقاب للمتقين.

6- عمى القلوب أخطرهن عمى العيون على صاحبه.

وَالِي عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ زُرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69)

1 الفلك يكون واحداً وجمعاً ويذكر ويؤنث.

2 {عمين} أي: عن الحق وعن معرفة الله وقدرته ولطفه، وإحسانه يقال رجلٌ عمٌ بكذا أي: جاهل به لا يعرفه.

(2/189)

شرح الكلمات:

وإلى عاد: أي ولقد أرسلنا إلى عاد وهم قبيلة عاد، وعاد أبو القبيلة وهو عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

أخاهم هوداً: أخاهم في النسب لا في الدين. وهود هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام.

أفلا تتقون: أي أتصرون على الشرك فلا تتقون عذاب الله بالإيمان به وتوحيده، والاستفهام إنكاري أي ينكر عليهم عدم تقواهم لله عز وجل.

في سفاهة: السفاهة كالسّفه وهو خفة العقل، وقلة الإدراك والحلم.

أمين: لا أخونكم ولا أغشكم ولا أكذبكم، كما أنني مأمون على رسالتي لا أفرط في إبلاغها.

بسطة: أي طولاً في الأجسام، إذ كانوا عمالق من عظم ص أجسادهم وطولها.

آلاء الله: نعمه واحدها ألى وإلى وألى وإلى والجمع آلاء.

تقلحون: بالنجاة من النار في الآخرة، والهلاك في الدنيا.

معنى الآيات:

هذا هو القصاص الثاني، قصص هود عليه السلام مع قومه عاد الأولى التي أهلكها الله تعالى بريح

صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام. قوله تعالى {وإلى عاد 1} أي وأرسلنا إلى قبيلة

عاد أخاهم من النسب هوداً فماذا قال لهم {قال يا قوم اعبدوا الله} أي وحدوه في العبادة ولا تعبدوا

معه آلهة أخرى. وقوله: {مالكم من إله غيره} أي ليس لكم أي إله غير الله، إذ الله هو الإله الحق

وما عداه فآلهة باطلة، لأنه تعالى يخلق وهم لا يخلقون. ويرزق وهم لا يرزقون ويدبر الحياة بكل ما

فيها وهم مدبرون لا يملكون نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكيف يكونون آلهة. ثم حضهم

على التقوى وأنكر عليهم تركهم لها فقال عليه السلام لهم: {أفلا تتقون} أي الله ربكم فتركوا الشرك

وتوحدوه؟ فأجاب الملائكة الذين كفروا من قومه، بأسوأ إجابة وذلك لكبريائهم واعتزازهم فقالوا: {إنا لنراك

في

1 عاد: أمة عظيمة كانوا أكثر من عشر قبائل، ومنازلهم كانت ببلاد العرب من حضرموت والشحر

إلى عُمان، وعاد اسم القبيلة وصرف لأته ثلاثي ساكن الوسط كهند ودعد.

سفاهة} أي حمق وطيش وعدم بصيرة بالحياة وإلا كيف تخرج عن إجماع قومك، وتواجههم بعيب ألتهتم وتسفيه أحلامهم، {وإنا لنظنك من الكاذبين} فيما جئت به أي من الرسالة، ودعوت إليه من التوحيد ونبذ الآلهة غير الله تعالى، فأجاب هود عليه السلام راداً شبهتهم فقال: {يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين} أي أنني لست كما تزعمون أن بي سفاهة ولكني أحمل رسالة أبلغكموها، وأنا في ذلك ناصح لكم مريد لكم الخير أمين¹ على وحي الله تعالى إلي، أمين لا أغشكم ولا أخونكم فما أريد لكم إلا الخير. ثم واصل دعوته فقال {أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم} أي أكذبتم برسالاتي وعجبتم من مجيئكم ذكر من ربكم {على رجل منكم لينذركم} أي عواقب كفركم وشرككم، أمن مثل هذا يتعجب العقلاء أم أنتم لا تعقلون؟.

ثم ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم لعلها تُحدث لهم ذكراً في نفوسهم فيتراجعون بعد عنادهم وإصرارهم فقال: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء² من بعد قوم نوح} أي بعد أن أهلكهم بالطوفان لإصرارهم على الشرك {وزادكم في الخلق بسطة³} أي جعل أجسامكم قوية وقاماتكم طويلة هذه نعم الله عليكم {فاذكروا آلاء⁴ الله لعلكم تفلحون} لأنكم إن ذكرتموها بقلوبكم شكرتموها بأقوالكم وأعمالكم، وبذلك يتم الفلاح لكم، وهو نجاتكم من المرهوب وظفركم بالمحبيب وذلك هو الفوز المطلوب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الدعوة إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه وهو معنى لا إله إلا الله.
- 2- مشروعية دفع الإتهام، وتبرئة الإنسان نفسه مما يتهم به من الباطل.
- 3- من وظائف الرسل عليهم السلام البلاغ لما أمروا ببلاغه.

1 الأمين: هو الموصوف بالأمانة، والأمانة أعز أوصاف البشر وفي الحديث "لا إيمان لمن لا أمانة له" ويروى: "لمن لا أمان له".

2 الخلفاء: جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شيء أي: يتولى العمل الذي كان يقوم به الآخر، كما يجمع خليفة على خلائف.

3 ويجوز بسطة: بالصاد أي طولاً في الأجسام قيل كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً، فالزيادة كانت على خلق من قبلهم، وذكر القرطبي أموراً عجباً لا يحسن ذكرها.

4 الآلاء: مفردة إلي ويعرف فيقال الإلي وهو: النعمة وهو على وزن عَنَبَ وأعْناب ونظيره إن أي: الوقت والجمع آناء قال تعالى: {ومن آناء الليل فسبح} الخ.

4- فضيلة النصح وخلق الأمانة.

5- استحسان التذكير بالنعمة فإن ذلك موجب للشكر والطاعة.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَضِرِينَ (71) فَأَنْجِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

شرح الكلمات:

ونذر : أي نترك.

بما تعدنا : أي من العذاب.

رجس : سخطٌ موجبٌ للعذاب.

أتجادلونني: أي أخاصمونني.

من سلطان: أي من حجة ولا برهان يثبت أنها تستحق العبادة.

دابر: دابر القوم آخرهم، لأنه إذا هلك آخر القوم هلك أولهم بلا ريب.

1 {أتجادلونني في أسماء} أي: في الأصنام التي أطلقوا عليها أسماء كالكالات، والعزى ومناة عند قريش ومشركي العرب، فأطلق الاسم وأريد به المسمى.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص هود عليه السلام، فهاهم أولاء يردون على دعوة هود بقول الملائم منهم {أجئتنا 1 لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا} وتهددنا إن نحن لم نترك عبادة الهنتا، {فأتنا بما تعدنا} به من العذاب 2 {إن كنت من الصادقين} في دعواك فرد هود عليه السلام على قولهم هذا قائلاً قد وقع 3 عليكم رجس 4 أي سخط وغضب من الله تعالى وأن عذابكم لذلك أصبح متوقفاً في كل يوم فاضطروا ما سيحلُّ بكم {إني معكم من المنتظرين} قال تعالى {فأنجيناها 5 والذين معه برحمة منّا} أي بعد إنزال العذاب، ومن معه من المؤمنين برحمة منا خاصة لا تتم إلا لمثلهم، {وقطعنا دابر القوم الذين كذبوا بآياتنا، وما كانوا مؤمنين} أهلكتناهم بخارقة ريح تدمر كل شيء بأمر بها فأصبحوا

لا يرى إلا مساكنهم، وكذلك جزاء الظالمين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- احتجاج المشركين على صحّة باطلهم بفعل آبائهم وأجدادهم يكاد يكون سنّة مطرّدة في الأمم والشعوب، وهو التقليد المذموم.
- 2- من حمق الكافرين استعجالهم بالعذاب، ومطالبتهم به.
- 3- آلهة الوثنيين مجرد أسماء لا حقائق لها إذ إطلاق المرء اسم إله على حجر لا يجعله إلهاً ينفع ويضر، ويحيى ويميت.
- 4- قدرة الله تعالى ولطفه تتجلى في إهلاك عاد وإنجاء هود والمؤمنين.

- 1 الاستفهام هنا إنكاري أنكروا على نبي الله هود دعوته إيّاهم إلى التوحيد وكان جوابهم هذا أقل جفوة من السابق الذي اتهموه فيه بالسفاهة والكذب.
- 2 ذكر العذاب في سورة الأحقاف إذ قال تعالى: { واذكر أخطأ عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألاّ تعبدوا إلاّ الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}.
- 3 {قد وقع} بمعنى: وجب، يقال: وقع الحكم أو القول إذا وجب.
- 4 وفسّر الرّجس بالعذاب أو الرّين على القلوب بزيادة الكفر.
- 5 روي أنّ هوداً ومن معه من المؤمنين نزحوا إلى مكة وأقاموا بها بعد هلاك قومهم.

(2/193)

وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (73) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76)

شرح الكلمات:

وإلى ثمود: أي أرسلنا إلى ثمود، وثمرود قبيلة سميت باسم جدّها وهو ثمود 1 بن عابر بن إرم بن سام بن نوح.

أخاهم صالحاً: أي في النسب وصالح هو صالح بن عبيد بن آسف كاشح بن عبيد بن حاذر بن

ثمود.

آية : علامة على صدقي في أني رسول الله إليكم.
وبوأكم في الأرض : أنزلكم فيها منازل تحبون فيها.

1 ثمود: هو أخو جديس.

(2/194)

وتحتون : تتجرون الحجارة في الجبال لتتخذوا منازل لكم لتسكنوها.

آلاء الله : نعم الله تعالى وهي كثيرة.

ولا تعثوا: أي لا تفسدوا في الأرض مفسدين.

استكبروا: عتوا وطمغوا وتكبروا فلم يقبلوا الحق ولم يعترفوا به.

معنى الآيات:

هذا القصة الثالث قصص نبي الله صالح عليه السلام قال تعالى ﴿والى ثمود أخاهم صالحاً﴾ أي وأرسلنا إلا قبيلة ثمود 1 أخاهم صالحاً نبياً أرسلناه بما أرسلنا به أرسلنا من قبله ومن بعده بكلمة التوحيد ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ وهذا مدلول كلمة الإخلاص التي جاء بها خاتم الأنبياء "لا إله إلا الله" ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ تشهد بأنه لا إله إلا هو، وأني رسوله إليكم، هذه البينة 2 ناقة تخرج من صخرة في جبل، ﴿هذه ناقة 3 الله لكم آية﴾ علامة وأية علامة على صدقي في إرسال الله تعالى لي رسولاً إليكم لتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، فذروا هذه الناقة تأكل في أرض 4 الله ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ ، فكانت الناقة ترعى في المرح، وتأتي إلى ماء القوم فتشربه كله، ويتحول في بطنها إلى لبن خالص فيحلبون ما شاءوا وقال لهم يوماً هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم، ووعظهم عليه السلام بقوله: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي بعد هلاكهم، وكانت ديار عاد بحضرموت جنوب الجزيرة العربية وديار ثمود بالحجر شمال الجزيرة بين الحجاز والشام. وقوله ﴿وبوأكم في الأرض﴾ أرض الحجر تتخذون من سهولها قصوراً 5 تسكنونها في الصيف، وتحتون من الجبال بيوتاً تسكنونها في الشتاء، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي نعمه العظيمة لتشكروها بعبادته وحده دون ما اتخذتم من أصنام، وحذرهم من عاقبة الفساد فقال ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي لا تنتشروا الفساد في الأرض بالشرك وارتكاب المعاصي وإزاء هذه الدعوة

1 ثمود: يصرف ولا يصرف فمن صرفه: على أنه اسم للحى، ومن منعه: على أنه علم على القبيلة.

- 2 هذه الناقة هم الذين طالبوا بها لتكون آية على صدق نبوة صالح، ولما جاءتهم كفروا بها.
- 3 إضافة الناقة إلى الله تعالى للتشريف والتخصيص إذ كل ما في الكون هو لله عز وجل.
- 4 أي: ليس عليكم رزقها ومؤنتها.
- 5 استدل بعضهم على جواز بناء القصور للسكن بهذه الآية وحديث: "إن الله إذا أنعم علي عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه" وكره ذلك بعض، لحديث: "وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية" رواه الدار قطني.

(2/195)

الصادقة الهادفة إلى هداية القوم وإصلاحهم لينجوا من عاقبة الشرك والشر والفساد {قال الملأ الذين استكبروا من قومه} أي قوم صالح، قالوا {للذين استضعفوا لمن آمن 1 منهم} أي لمن آمن من ضعفاء القوم: {أتعلمون أن صالحاً مرسلٌ من ربه}، وهو استفهام سخرية واستهزاء دال على صلف القوم وكبريائهم، فأجاب المؤمنون من ضعفة القوم قائلين {إنا بما أرسل به مؤمنون} قالوها واضحة صريحة مُعلنة عن إيمانهم بما جاء به رسول الله صالح غير خائفين، وهنا ردُّ المستكبرون قائلين: {إنا بالذي آمنتم به كافرون} وإمعاناً منهم في الجحود والتكبر، لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون حتى لا يعترفوا بالرسالة ولو في جواب رد الكلام فقالوا {إنا بالذي آمنتم به كافرون}.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- اتحاد دعوة الرسل في الإيمان بالله والكفر بالطاغوت أي في عبادة الله وحده.
 - 2- تقرير إرسال الرسل بالآيات وهي المعجزات وآية صالح أعجب آية وهي الناقة.
 - 3- وجوب التذكير بنعم الله إذ هو الباعث على الشكر، والشكر هو الطاعة.
 - 4- النهي عن الفساد في الأرض والشرك وارتكاب المعاصي.
 - 5- الضعفة هم غالباً أتباع الأنبياء: وذلك لخلوهم من الموانع كالمحافظة على المنصب أو الجاه أو المال، وعدم إنغماسهم في الملاذ والشهوات.
- فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

1 {لمن آمن} بدل من {الذين استضعفوا} بدل بعضٍ من كل.

شرح الكلمات:

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ : نحروها بعد أن عقروا قوائمها أي قطعوها، والناقة هي الآية.

وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ : تمردوا عن الأمر وعصوا فلم يطيعوا.

الرَّجْفَةُ : المرة من رجف إذا اضطرب، وذلك لما سمعوا الصيحة أخذتهم الرجفة.

جَائِثِينَ 1 : باركين على الركب كما يجثم الطير أي هلكى على ركبهم.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ : بعد أن هلكوا نظر إليهم صالح وهم جاثمون وقال راثياً لحالهم {يا قوم لقد أبلغتكم

رسالة ربي} إلى قوله {ولكن لا تحبون الناصحين} ثم أعرض عنهم وانصرف.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص صالح عليه السلام فإنه بعد تلك الدعوة الطويلة العريضة والمستكبرون يردونها بصلف وكبرياء، وطالبوا بالآية لتدل على صدقه وأنه من المرسلين وأوتوا الناقة آية مبصرة ولجوا في الجدل والعناد وأخيراً تمالؤوا على قتل الناقة وعقروها {فقدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها}.

قوله تعالى في الآية الأولى (77) {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} يخبر تعالى أن قوم صالح عقروا الناقة قطعوا أرجلها ثم نحروها وهو العقر، وعتوا بذلك وتكبروا متمردين عن أمر الله تعالى حيث أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء فإذا بهم يعقرونها تحدياً وعناداً، {وقالوا يا صالح} بدل أن يقولوا يا رسول الله أو يا نبي الله {أتنتا بما تعدنا} أي من العذاب إن مسسنا الناقة بسوء فقد نحرناها فأتنتا بالعذاب إن كنت كما تزعم من المرسلين قال تعالى {فأخذتهم الرجفة} وهي هزة عنيفة اضطربت لها القلوب والنفوس نتيجة صيحة لملك عظيم صاح فيهم صباح السبت 3 كما قال تعالى {فأخذتهم الصيحة

1 أصل الجثوم للأرناب وما شابهها وموضع الجثوم يقال لهم: مجثم. قال زهير:

بها العين والأرام يمشين خلفه ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

2 العقر: الجرح أو قطع عضو يؤثر في النفس، يقال: عقر الفرس إذا ضرب قوائمه بالسيف، وقيل للنحر عقر: لأنه بسبب النحر غالباً.

3 هو بداية اليوم الرابع، إذ قال لهم: {تمتعوا في داركم ثلاثة أيام} فكانت الأربعاء والخميس والجمعة والسبت أهلكهم الله تعالى.

مشرقين} ولما هلكوا وقف عليهم صالح كالمودع كما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل القليب ببدر فناداهم يا فلان يا فلان كذلك صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وقف عليهم وهم خامدون وقال كالثاني المتحسر {يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين} وتولى عنهم وانصرف.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حلول نعمة الله تعالى بكل من عتا عن أمره سبحانه وتعالى.
 - 2- مشروعية الرثاء لمن مات أو أصيب بمصائب عظيم.
 - 3- علامة قرب ساعة الهلاك إذا أصبح الناس يكرهون النصيح ولا يحبون الناصحين.
- وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

شرح الكلمات :

ولوطاً : أي وأرسلنا لوطاً و لوط هو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام. ولد في بابل العراق.

الفاحشة : هي الخصلة القبيحة وهي إتيان الرجال في أدبارهم.

1 من الجائز أن يكون قد قال هذا وهم أحياء قبل موتهم كالأيس منهم وكونه قاله بعد موتهم أقرب كما في التفسير.

(2/198)

من العالمين : أي من الناس.

من الغابرين : الباقيين في العذاب.

وأمطرنا. أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالصواعق فأهكتهم.

المجرمين: أي المفسدين للعقائد والأخلاق والأعراض.

معنى الآيات:

هذا هو القصة الرابع قصص نبي الله تعالى لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام فقوله تعالى {ولوطاً 1...} أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه من أهل سدوم، ولم يكن لوط منهم لأنه من أرض بابل العراق هاجر مع عمه إبراهيم وأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم 2 وعمورة قرب 3 بحيرة لوط بالأردن.

وقوله إذ قال لقومه الذين أرسل إليهم منكراً عليهم فعلتهم المنكرة: {أتأتون الفاحشة} وهي إتيان الرجال في أدبارهم {ما سبقكم بها من أحد من العالمين} أي لم يسبقكم إليها أحد من الناس قاطبة، وواصل إنكاره هذا المنكر موبخاً هؤلاء الذين هبطت أخلاقهم إلى درك لم يهبط إليه أحد غيرهم فقال: {إنكم لتأتون الرجال شهوة 4 من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون} وإلا فالشهوة من النساء هي المفطور عليها الإنسان، لا أدبار الرجال، ولكنه الإجماع والتوغل في الشر والفساد والإسراف في ذلك، والإسراف صاحبه لا يقف عند حد.

وبعد هذا الوعظ والإرشاد إلى سبيل النجاة، والخروج من هذه الورطة التي وقع فيها هؤلاء القوم المسرفون ما كان ردهم {إلا أن قالوا أخرجوهم} أي لوطاً والمؤمنين معه {من قريبتكم} أي مدينتكم سدوم، معللين الأمر بإخراجهم من البلاد بأنهم أناس يتطهرون من الخبث الذي هم منغمسون فيه قال تعالى بعد أن بلغ الوضع هذا الحد {فأنجيناه وأهله} من بناته وبعض نسائه {إلا امرأته كانت من الغابرين} حيث أمرهم بالخروج من

- 1 هذا العطف على إرسال نوح كما هو مع هود وصالح من قبل لوط، ولوط: اسم عجمي وليس مشتقاً من لطف الحوض أو من قولهم: هذا أليط بقلبي من هذا.
- 2 هذه الأرض هي أرض الكنعانيين وسكانها خليط جهم كنعانيون.
- 3 هو المعروف بالبحر الميت ويقال له بحيرة لوط.
- 4 {شهوة} منصوب على أنه مفعول لأجله.

(2/199)

البلاد ليلاً قبل حلول العذاب بالقوم فخرجوا، وما إن غادروا المنطقة حتى جعل الله تعالى عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجين فأهلكوا أجمعين.

وقوله تعالى في ختام هذا القصة {فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} فإنه خطاب عام لكل من يسمع هذا القصة ليعتبر به حيث شاهد عاقبة المجرمين دماراً كاملاً وعذاباً أليماً.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- شدة قبح جريمة اللواط.

2- أول من عرف هذه الجريمة القذرة هم قوم لوط 1 عليه السلام.

3- الإسراف وعدم الاعتدال في الأقوال والأفعال يتولد عنه كل شر وفساد.

4- الكفر والإجرام يحل رابطة الأخوة والقرابة بين أصحابه والبراءة منه.

5- من أتى هذه الفاحشة من المحصنين يرمم 2 بالحجارة حتى الموت.

وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ

1 روي أن إبليس هو الذي علّمهم إيّاها في نفسه بعد أن تشكّل بشكل إنسان.

2 الجمهور على أن من أتى هذه الفاحشة من الذكران البالغين أنه يقتل وغير البالغ يضرب، وخالف

أبو حنيفة الجمهور وقال بعدم القتل واكتفى بالتعزير وهو محجوج بعمل الصحابة فقد أحرقوا مَنْ

عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ بِإِجْمَاعِ رَأْيِ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ لِحَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ

وَابْنِ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيِّ أَي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ

فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ" وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ "أَحْصَنَا أَوْ لَمْ يَحْصَنَا" وَاخْتَلَفَ فِي الْفَاعِلِ فِي الْبَهِيمَةِ هَلْ

يُقْتَلُ أَوْ يَعْزَرُ؟ فَالرَّاجِحُ: الْقَتْلُ لِحَدِيثِ: "مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ فَاقْتُلُوهُ وَاقْتُلُوا الْبَهِيمَةَ مَعَهُ".

(2/200)

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبِعُونَهَا عَوْجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87)

شرح الكلمات:

وإلى مدين آخاهم شعيباً : مدين أبو القبيلة وهو مدين بن إبراهيم الخليل وشعيب من أبناء القبيلة فهو

أخوهم في النسب حقيقة إذ هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين.

ولا تبخسوا الناس أشياءهم : أي لا تتقصوا الناس قيم سلعتهم وبضائعهم، إذ كانوا يفعلون ذلك.

صراط توعدون : طريق وتوعدون تخيفون المارة وتأخذون عليهم المكوس أو تسلبونهم أمتعتهم.

وتبعونها عوجاً: أي تريدون سبيل الله -وهي شريعته- معوجةً حتى توافق ميولكم.

المفسدين: هم الذين يعملون بالمعاصي في البلاد.

يحكم بيننا: يفصل بيننا فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

معنى الآيات:

هذا هو القصص الخامس في سورة الأعراف وهو قصص نبي الله شعيب مع قومه أهل مدين، فقوله تعالى: {والى مدين أخاهم شعيباً1} أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً. فماذا قال لهم لما أرسل إليهم؟ {قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره} أي قولوا لا إله إلا الله، ولازم ذلك أن يصدقوا برسول الله شعيب حتى يمكنهم أن يعبدوا الله بما

1 شعيب: تصغير شعب أو شعب ويقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.

(2/201)

يحب أن يعبد به وبما من شأنه أن يكملهم ويسعدهم في الدارين وقوله {قد جاءكم1 بينة من ربكم} أي آية واضحة تشهد لي بالرسالة وبما أن ما أمركم به وأنهاكم عنه هو من عند الله تعالى إذا {فأوفوا الكيل والميزان} أي بالقسط الذي هو العدل، {ولا تبخسوا الناس أشياءهم} بل أعطوهم ما تستحقه بضائعهم من الثمن بحسب جودتها ورداعتها {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} أي في البلاد بعد إصلاحها، وذلك بترك الشرك والذنوب ومن ذلك ترك التلصص وقطع الطرق، وترك التطفيف في الكيل والوزن وعدم بخس سلع الناس وبضائعهم ذلكم الذي دعوتكم إليه من الطاعة وترك المعصية خير لكم حالاً ومالاً إن كنتم مؤمنين وقوله: {ولا تقعدوا بكل صراط2 توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً3} ينهاهم عليه السلام عن أبشع الإجرام وهو أنهم يجلسون في مداخل البلاد، وعلى أفواه السكك، ويتعدون4 المارة بالعذاب إن هم اتصلوا بالنبي شعيب وجلسوا إليه صرفاً للناس عن الإيمان والاستقامة، كما أنهم يقطعون الطرق ويسلبون الناس ثيابهم وأمتعتهم أو يدفعون إليهم ضريبة خاصة.

وقوله {واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم} يذكرهم عليه السلام بنعمة الله تعالى عليهم وهي أنهم أصبحوا شعباً كبيراً بعدما كانوا شعباً صغيراً لا قيمة له ولا وزن بين الشعوب وقوله: {وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين} يعظهم ببيان مصير الظلمة المفسدين من الأمم المجاورة والشعوب حيث حلت بهم نقمة الله ونزل بهم عذابه فهلكوا يعظهم لعلهم يذكرون فيتركوا الشرك والمعاصي، ويعملوا بالتوحيد والطاعة.

وأخيراً يخوفهم بالله تعالى ويهددهم بأن حكماً عدلاً هو الله سيحكم بينهم وعندها يعلمون من هو المحق ومن هو المبطل فقال: {إن كان طائفة منكم} أي جماعة {آمنوا بالذي أرسلت به} من التوحيد والطاعة وترك الشرك والمعاصي، {وطائفة} أخرى {لم يؤمنوا} وبهذا كنا متخاصمين نحتاج إلى من يحكم بيننا إذا {فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير

1 من الجائز أن يكون الله تعالى قد أعطى نبيّه شعيباً آية ولم تذكر في القرآن، والراجح أنّها حجة قوية قهرهم بها ولم يتمكنوا من ردّها.

2 قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعّدون من أراد المجيء إليه ويصدّونه عنه ويقولون: إنّه كذّاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وسلم.

3 قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين عوجاً في المعاني، والفتح عوجاً في الإجمام والذوات.

4 قال أبو هريرة رضي الله عنه هذا نهي عن قطع الطريق وأخذ السلب وكان ذلك من فعلهم.

(2/202)

الجزء التاسع

الحاكمين}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دعوة الرسل واحدة في باب العقيدة إذ كلها تقوم على أساس التوحيد والطاعة.
 - 2- حرمة التطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، ويدخل في ذلك الصناعات وحرف المهن وما إلى ذلك.
 - 3- حرمة الفساد في الأرض بالمعاصي لاسيما البلاد التي طهرها الله بالإسلام وأصلحها بشرائعه.
 - 4- حرمة التلصص وقطع الطرق وتخويف المارة.
 - 5- حرمة الصد عن سبيل الله بمنع الناس من التدين والالتزام بالشرعية ظاهراً وباطناً.
- قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89)

شرح الكلمات:

الملاء: أشرف القوم الذين يملؤون المجلس إذا جلسوا، والعين إذا نظر إليهم.

استكبروا : تكفؤوا الكبر وهم حقيرون، حتى لا يقبلوا الحق.

1 ومثله الضرائب الفادحة التي تضرب على المسلمين في بلادهم والمكوس التي في الأسواق وغيرها مما اقتدى فيه المسلمون بالكافرين.

(2/203)

من قرينتنا: مدينتنا.

في ملتكم : في دينكم.

على الله توكلنا : أي فوضنا أمرنا واعتمدنا في حمايتنا عليه.

رينا افتح بيننا : أي يا رينا احكم بيننا.

وأنت خير الفاتحين : أي وأنت خير الحاكمين.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في قصص شعيب مع قومه أهل مدين فبعد أن أمرهم ونهاهم وذكرهم ووعظهم {قال الملائكة الذين استكبروا من قومه} مهديين موعدين مقسمين {لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قرينتنا أو لتعودن في ملتنا}. هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غلبوا بالحجج والبراهين يفرعون إلى القوة فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل: {لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قرينتنا أو لتعودن 1 في ملتنا} ورد شعيب على هذا التهديد بقوله: {أو لو كنا كارهين 2} أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين لها {قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها 3} ووجه الكذب على الله إن عادوا إلى ملة الباطل هو أن شعيباً أخبرهم أن الله تعالى أمرهم بعبادته وحده وترك عبادة غيره، وأنه تعالى أرسله إليهم رسولاً وأمرهم بطاعته إنقاذاً لهم من الباطل الذي هم فيه فإذا أرتد وعاد هو ومن معه من المؤمنين إلى ملة الشرك كان موقفهم موقف من كذب على الله تعالى بأنه قال كذا وكذا والله عز وجل لم يقل. هذا ثم قال شعيب {وما يكون لنا أن نعود فيها} ليس من الممكن ولا من المتهيء لنا العودة في ملتكم أبداً، اللهم إلا أن يشاء 4 رينا شيئاً فإن مشيئته نافذة في خلقه، وقوله: {وسع رينا كل شيء علماً} فإذا كان قد علم أننا نرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، فسوف يكون ما علمه كما علمه وهو الغالب على أمره.

1 {أو لتعودن}: إما أن يراد به أتباع شعيب المؤمنون إذ كانوا قبل إيمانهم على دين قومهم وإما أن

يراد بكلمة {لتعودن}: لتصيرن إذ تكون عاد بمعنى: صار.

2 الاستفهام للتعجب والاستبعاد.

3 هذا أسلوب الإيثار لهم من العودة إلى دينهم الباطل.

4 هذا الاستثناء كان من شعيب تأديباً مع الله تعالى بتفويض الأمر إلى مشيئته وعودة غيره من أمته ممكنة ولكن عودته هو مستحيلة.

(2/204)

ثم قال عليه السلام بعد أن أعلمهم أن العودة إلى دينهم غير واردة ولا ممكنة بحال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ذلك، وهذا مما لا يشاءه الله تعالى قال: {على الله توكلنا} في الثبات على دينه الحق، والبراءة من الباطل ثم سأل ربه قائلاً: {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق} أي احكم بيننا وبينهم بالحق {وأنت خير 1 الفاتحين} أي الحاكمين، وذلك بإحقاق الحق وإبطال الباطل.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة بشرية وهي أن الظلمة والمتكبرين يجادلون بالباطل حتى إذا أعياهم الجدل وأفحموا بالحجج بدل أن يسلموا بالحق ويعترفوا به ويقبلوه، فيستريحوا ويريحوا يفزعون إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.
- 2- لا يصح من أهل الحق بعد أن عرفوه ودعوا إليه أن يتنكروا ويقبلوا الباطل بدله.
- 3- يستحب الاستثناء في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلاً وإن لم يرده أو حتى يفكر فيه.
- 4- وجوب التوكل على الله عند تهديد العدو وتخويفه، والمضي في سبيل الحق.
- 5- مشروعية الدعاء وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل، لأن الله تعالى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ

1 {إلا أن يشاء الله ربنا} هذا الاستثناء منقطع بمعنى لكن أي: ما يقع منّا العودة إلى الكفر لكن إن شاء الله ذلك كان، والله لا يشاء ذلك فهو إذا كقولك: "لا أكلمك حتى يبيض الغراب" أو {حتى يلج الجمل في سمّ الخياط}.

2 الفتح بمعنى القضاء والحكم وهو لغة: أزد عمان من اليمن أي: أحكم بيننا وبينهم وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر إذ كانوا لا يتحاكمون لغير السيف ويرون أن النصر حكم الله للغالب على المغلوب.

أَبْلَغْتُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَتَصَحَّتْ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)

شرح الكلمات:

لئن اتبعتم شعيباً : أي على ما جاء به من الدين والهدى.

الرجفة : الحركة العنيفة كالزلزلة.

جاثمين : باركين على ركبهم ميئين.

كان لم يغنوا فيها : أي كأن لم يعمروها وقيموا فيها زمناً طويلاً.

الخاسرين : إذ هلكوا في الدنيا وادخلوا النار في الآخرة.

آسى1: أي أحزن أو آسف شديد الأسف.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص شعيب مع أهل مدين فإنه بعد أن هدد الظالمون شعيباً بالإبعاد من مدينتهم هو والمؤمنون معه أو أن يعودوا إلى ملتهم فرد شعيب على التهديد بما أياسهم من العودة إلى دينهم، وفرغ إلى الله يعلن توكله عليه ويطلب حكمه العادل بينه وبين قومه المشركين الظالمين كأن الناس اضطربوا وأن بعضاً قال اتركوا الرجل وما هو عليه، ولا تتعرضوا لما لا تطيقونه من البلاء. هنا قال الملاء الذين استكبروا من قومه مقسمين بألوهة الباطل: {لئن اتبعتم شعيباً} أي على دينه وما جاء به وما يدعو إليه من التوحيد والعدل ورفع الظلم {إنكم إذا لخاسرون} قال تعالى: {فأخذتهم الرجفة} استجابة لدعوة شعيب فأصبحوا2 هلكى جاثمين على الركب. قال تعالى: {الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها}3

1 آسَى كِرْضِي يَأْسَى كِرْضِي يُقَالُ: أَسَيْتَ عَلَى كَذَا أَسَى فَأَنَا آسٍ وَأَسَى فِي الْآيَةِ مُضَارِعُ أَسَى دَخَلَتْ عَلَيْهِ هَمْزَةُ الْمُتَكَلِّمِ فَصَارَتْ أَسَى بِهَمْزَتَيْنِ.

2 في سورة هود: {فأخذتهم الصيحة} وفي سورة الشعراء: {أخذهم عذاب يوم الظلة} وطريقة الجمع. أنهم لما اجتمعوا تحت الظلة وهي سحابة أظلتهم، فَرَعُوا إِلَيْهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ الَّذِي أَصَابَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا تَحْتَهَا زُلْزَلُوا مِنْ تَحْتِهِمْ وَهِيَ الرَّجْفَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الظِّلَّةِ صَاعِقَةٌ وَهِيَ الصَّيْحَةُ فَأَحْرَقَتْهُمْ هَذَا إِنْ قَلْنَا إِنْ مَدِينٍ وَأَصْحَابِ الْاَيْكَةِ هُمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِلَّا فَأَصْحَابِ الْاَيْكَةِ أَخَذُوا بِعَذَابِ الظِّلَّةِ وَأَصْحَابِ مَدِينٍ أَخَذُوا بِالرَّجْفَةِ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَالصَّيْحَةُ مِنْ فَوْفِهِمْ.

3 وفسر القرطبي الغنى: بالمقام يقال: غنى القوم في دارهم أي: طال مقامهم، والمغني: المنزل والجمع المغاني، قال لبيد:

وغنيت سناً قبل مجرى داحسٍ ... لو كان للنفس اللجوج خلود
ومعنى غنيت: أقيمت وهو الشاهد.

(2/206)

أي كأن لم يعمرؤ تلك الديار ويقيموا بها زمناً طويلاً، وأكد هذا الخبر وهو حكمه في المكذبين
الظالمين فقال: {الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين} أما الذين صدقوا شعيباً فهم المفلقون
الفائزون وودعهم شعيب كما ودع صالح قومه قال تعالى: {فتولى عنهم} وهم جاثمون هلكى فقال {يا
قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم} فأبيتم {إلا تكذبي ورد قولي والإصرار على الشرك
والفساد حتى هلكتم} فكيف آسى على قوم كافرين 1} أي لا معنى للحزن والأسف على مثلكم.
هداية الآيات

هن هداية الآيات:

- 1- ثمرة الصبر والثبات النصر العاجل أو الآجل.
 - 2- نهاية الظلم والطغيان والدمار والخسران.
 - 3- لا آسى ولا حزناً على من أهلكه الله تعالى بظلمه وفساده في الأرض.
 - 4- مشروعية توبيخ الظالمين بعد هلاكهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل القليب
وكما فعل صالح وشعيب عليهما السلام.
- وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ
السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95)
- شرح الكلمات:

في قرية : القرية: المدينة الجامعة لأعيان البلاد ورؤسائها وهي المدينة.
بالبأساء : بالشدة كالقحط والجوع والحروب.

1 الاستفهام إنكاري وهو موجه في الظاهر إلى نفس شعيب، والمقصود نهي من معه من المؤمنين
الناجين من العذاب برحمة الله تعالى نهيهم عن الحزن عن قومهم وأقاربهم كأنه لاحظ ذلك فيهم.

(2/207)

والضراء: الحالة المضرة كالأمراض والغلاء وشدة المؤونة.

يضرعون : يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه ليكشف عنهم سوء.

مكان السيئة الحسنة: أي بدل الغلاء الرخاء، وبدل الخوف الأمن، وبدل المرض الصحة.

حتى عفوا : كثرت خيراتهم ونمت أموالهم، وأصبحت حالهم كلها حسنة.

أخذناهم بغتة : أنزلنا بهم العقوبة فجأة.

معنى الآيتين:

على إثر بيان قصص خمسة أنبياء ذكر تعالى سنته في الأمم السابقة ليكون ذلك عظة لكفار قريش، وذكرى للمؤمنين فقال تعالى: {وما أرسلنا في قرية 1} أي في أهل قرية والمراد بالقرية الحاضرة والعاصمة من كبريات المدن حيث الكبراء والرؤساء من نبي من الأنبياء والمرسلين فكذبوه قومه وردوا دعوته مصرين على الشرك والضلال إلا أخذ الله تعالى أهل تلك المدينة بألوان من العذاب التأديبي كالحط والجوع وشطف العيش، والأمراض والحروب المعبر عنه بالبأساء والضراء. رجاء أن يرجعوا إلى الحق بعد النفور منه، وقبوله بعد الإعراض عنه ثم يغير تعالى ما بهم من بأساء وضراء إلى يسر ورخاء، وعافية وهناء فتكثر أموالهم وأولادهم ويعظم سلطانهم، ويقولون عندما يوعظون ويذكرون ليتوبوا فيؤمنوا ويتقوا: {قد مس آباءنا الضراء والسراء 2} أي الخير والشر وما هناك ما تخوفوننا به إنما هي الأيام هكذا دول يوم عسر وآخر يسر وبذلك يحق عليهم العذاب فيأخذهم الجبار عز وجل فجأة 3 {لهم لا يشعرون} فيتم هلاكهم ويمسون حديث عبرة لمن بعدهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- بيان سنة الله تعالى في الأمم السابقة.

1 في الجملة إضمار تقديره: وما أرسلنا في قرية من نبي فكذب أهلها إلا أخذناهم وهو مبسوط في التفسير مبين غاية البيان والجملة معطوفة على جملة: {والى مدين آخاهم شعيباً}.

2 أي: فنحن مثلهم.

3 أي: بغتة ليكون أكثر حسرة.

(2/208)

2- تخويف كفار قريش بما دلت عليه هذه السنة من أخذ الله تعالى المصرين على الكفر المتمردين على الحق.

3- التذكير والوعظ بتاريخ الأمم السابقة المنبىء عن أسباب هلاكهم وخسرانهم ليتجنبها العقلاء، كما قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو تَشَاءُ أَصْبَأْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100)

شرح الكلمات:

آمنوا واتقوا: أي آمنوا بالله ورسوله ووعده الله ووعيده واتقوه تعالى بطاعته وعدم معصيته.
بركات من السماء والأرض: جمع بركة وهي دوام الخير وبقاؤه والعلم والإلهام والمطر من بركات السماء والنبات والخصب والرخاء والأمن والعافية من بركات الأرض.
يكسبون: من الشرك والمعاصي.
بياتاً: أي ليلاً وهم نائمون.
مكر الله: استدراجه تعالى لهم بإغداق النعم عليهم من صحة

(2/209)

الأبدان ورخاء العيش حتى إذا آمنوا مكره تعالى بهم أخذهم بغتة.
أولم يهد لهم: أي أولم يبين لهم بمعنى يتبين لهم.
بذنوبهم: أي بسبب ذنوبهم.
معنى الآيات:

بعدما بين تعالى سنته في الأمم السابقة، وهي أخذ الأمة بعد تكذيبها وعصيائها بالبأساء والضراء، ثم إذا هي لم تتب واستمرت على كفرها وعصيائها أغدق عليها الخيرات حتى عفت بكثرة ما لها وصلاح حالها أخذها بغتة فأهلكها، وتم خسرتها في الدارين، فتح تعالى باب التوبة والرجاء لعباده فقال: {ولو 1 أن أهل القرى 2} المكذبين ككفار مكة والطائف وغيرهما من المدن {آمنوا} أي بالله ورسوله وبلقاء الله ووعده ووعيده، {واتقوا} الله تعالى في الشرك وفي معصيته ومعصية رسوله لفتح عليهم أبواب السماء بالرحمات والبركات، وفتح عليهم كنوز الأرض ورزقهم من الطيبات ولكن أهل القرى الأولين كذبوا فأخذهم بالعذاب بما كانوا يكسبون، وأهل القرى اليوم وهم مكذبون فإما أن يعتبروا بما أصاب أهل القرى الأولين فيؤمنوا ويوحدوا ويطيعوا، وإما أن يصروا على الشرك والتكذيب فينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من عذاب الإبادة والاستئصال، هذا ما دللت عليه الآية الأولى (96)

وهي قوله تعالى ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات 3 من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أما الآيات الثلاث بعدها فإن الله تعالى ينكر على أهل القرى غفلتهم موبخاً لهم على تماديهم وإصرارهم على الباطل معجباً من حالهم فيقول: ﴿أفأمن 4 أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون؟﴾ أي أجهلوا ما نزل بمن قبلهم فأمنوا أن

1 لو: حرف امتناع لا امتناع، امتنع شرطها فامتنع جوابها، وشرطها هنا: الإيمان والتقوى وجوابها فتح البركات على أهل القرى.

2 يقال للمدينة: قرية لاجتماع الناس فيها مأخوذ من التقوى الذي هو التجمع يقال: قريت الماء في الحوض: إذا جمعته، وسمي القرآن قرآناً لاجتماع الحروف والكلمات والجمل والآيات فيه.

3 البركات: جمع بركة، وهي الخير الدائم الصالح الذي لا تبعه فيه في الدنيا ولا في الآخرة. وتكون في العمر والمال وفي كل ما هو خير ونافع غير ضار للإنسان.

4 الاستفهام للإنكار والتعجب معاً، ومكر الله تعالى: إمهالهم وإغداق الخير عليهم مع شركهم وكفرهم، إذ المكر: أن يظهر المرء الإحسان لمن يمكر به ليأخذه فجأة. والأمن من مكر الله تعالى زيادة على أنه كبيرة من كبائر الذنوب فإنه يؤدي بالأمن إلى هلاكه دنياً وأخرى.

(2/210)

يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون؟ ﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا﴾ أي عذابنا ﴿ضحى وهم يلعبون؟﴾ أي أو غفل أهل القرى وأمنوا أن يأتيهم عذابنا ضحى وهم في أعمالهم التي لا تعود عليهم بخير كأنها لعب أطفال يلعبون بها ﴿أفأمنوا مكر الله؟﴾ أي أغرهم إمهالنا لهم واستدراجنا إياهم فأمنوا مكر الله؟ إنهم في ذلك خاسرون إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وقوله تعالى في الآية الخامسة (100) ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ أي عمى الذين يرثون الأرض من بعد أهلها ولم يتبين لهم بعد ولم يعلموا أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا الذين ورثوا ديارهم بذنوبهم ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ أي ونجعل على قلوبهم غشاوة حتى لا يعوا ما يقال لهم ولا يفهموا ما يراد بهم حتى يهلكوا كما هلك الذين من قبلهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- عرض الرحمن تبارك وتعالى رحمته على عباده ولم يطلب منهم أكثر من الإيمان والتقوى.

2- حرمة الغفلة ووجوب الذكر واليقظة.

3- حرمة الأمن من مكر الله تعالى.

4- إذا أمنت الأمة مكر الله تهيأت للخسران وحل بها لا محالة.

5- وجوب الاعتبار بما أصاب الأولين، وذلك بترك ما كان سبباً لهلاكهم.

تِلْكَ الْقَرْىُ نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ
كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لَفَاسِقِينَ (102)

(2/211)

شرح الكلمات:

تلك القرى : الإشارة إلى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

من أنبائها : أي من أخبارها.

بالبينات: بالحجج والبراهين الدالة على توحيد الله وصدق رسله.

من قبل : أي من قبل خلقهم ووجودهم، إذ علم الله تعالى تكذيبهم عليهم في كتاب المقادير.

وما وجدنا لأكثرهم من عهد : أي لم نجد لأكثرهم وفاء بعهودهم التي أخذت عليهم يوم أخذ الميثاق.

معنى الآيتين:

يخاطب الرب تعالى 1 رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم قائلاً {تلك القرى نقص عليك من أنبائها} أي من أخبارها مع أنبيائها كيف دعوتهم رسلم إلى الإيمان والتوحيد والطاعة، وكيف ردت تلك الأمم دعوة الله واستكبرت على عبادته، وكيف كان حكمنا فيهم لعل قومك يذكرون فيؤمنوا ويوحداوا. وقوله

تعالى {ولقد جاءتهم رسلم بالبينات} أي بالحجج الواضحات على صدق دعوتهم، وما جاءتهم به

رسلم من أمر ونهي من ربهم. وقوله {فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من 2 قبل} أي لم يكن أولئك

الهالكون من أهل القرى ليؤمنوا بما كذبوا به في علم الله وقدره إذ علم الله أنهم لا يؤمنون فكتب ذلك

عليهم فلذا هم لا يؤمنون. وقوله تعالى: {كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين} أي كما كتب على

الهالكين من أهل القرى أنهم لا يؤمنون ولم يؤمنوا فعلاً فأهلكهم، يطبع كذلك على قلوب الكافرين فلا

يؤمنون حتى يأخذهم العذاب وهم ظالمون بكفرهم. وهذا الحكم الإلهي قائم على مبدأ أن الله علم من

كل إنسان قبل خلقه ما يرغب فيه وما يؤثره على غيره ويعمله باختياره وإرادته فكتب ذلك عليه فهو

عند خروجه

1 سرّ هذا الخطاب زيادة على التعليم لكمال الهداية فإنه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم مما

يلاقى من صلف المشركين وعنادهم وجحودهم، وهو تسلية لكل مؤمن ومؤمنة يعاني من صلف

المشركين وأذاهم.

2 اختلف في المضاف إليه المحذوف في قوله: {بما كذبوا من قبل} هل المراد: من قبل خروجهم للحياة الدنيا وهم في عالم الأرواح حيث أمروا بالإيمان فكذبوا فكتب الله عليهم ذلك فلن يكون إلا هو أو لو أحييناهم بعد إهلاكهم بذنوبهم لما آمنوا بما كذبوا به فكان سبب هلاكهم، أو سألو المعجزات ليؤمنوا فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا من قبل رؤيتهم المعجزات، والراجح من هذه المقولات ما هو في التفسير إذ هو قول ابن جرير إمام المفسرين.

(2/212)

إلى الدنيا لا يعمل إلا به ليصل إلى ما كتب عليه، وقدر له أزلاً قبل خلق السموات والأرض، وقوله تعالى {وما وجدنا لأكثرهم من عهد1} أي لم نجد لتلك الأمم التي أهلكنا وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. لم نجد لأكثرهم وفاء بعهدهم الذي أخذناه عليهم قبل خلقهم من الإيمان بنا وعبادتنا وطاعتنا وطاعة رسلنا، وما وجدنا2 أكثرهم إلا فاسقين عن أمرنا خارجين عن طاعتنا وطاعة رسلنا، وكذلك أهلكنا بهم نعمتنا وأنزلنا بهم عذابنا فأهلكناهم أجمعين.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- تقرير الوحي الإلهي وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه ما قُصَّ من أنباء الأولين لا يُتَلَقَّى إلا بوحي إلهي ولا يتلقى عن الله تعالى إلا رسول أَعَدَّ لذلك.
- 2- وجود البيئات مهما كانت قوية واضحة غير كاف في إيمان من لم يشأ الله هدايته.
- 3- المؤمن من آمن في الأزل، والكافر من كفر فيه.
- 4- الطبع على قلوب الكافرين سببه اختيارهم للكفر والشر والفساد وإصرارهم على ذلك كيفما كانت الحال.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِنْ كُنْتَ

1 {من عهد} من زائدة لتقوية النفي والدلالة على الجنس أي: جنس العهد، والعهد من الجائز أن يكون ما أخذ عليهم في عالم الذر وهو صحيح قاله ابن عباس وأن يكون ما أخذ عليهم من قبل الأنبياء أن يعبدوا الله وحده ويطيعوه ولا يعصوه.

2 الآية: {وإن وجدنا} وإن: بمعنى ما النافية فلذا اكتفينا في التفسير بما ولم نذكر إن اختصاراً وتقريباً

للفهم.

3 قرأ نافع: (حقيق عليّ) بياء الضمير المشددة وهي بمعنى: واجب عليّ خبر ثانٍ لأنّ في قوله: {إني رسول من ربّ العالمين} وقرأ غيره (علي) حرف جرّ أي: محقّق بأن لا أقول على الله إلّا الحق، فحقيق: فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول.

(2/213)

جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (106) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ (108)

شرح الكلمات:

ثم بعثنا من بعدهم موسى: أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

موسى: هو موسى بن عمران من ذرية يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

بآياتنا: هي تسع آيات: العصا، واليد، والسنون المجذبة، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل،

والضفادع، والطمس على أموال فرعون.

إلى فرعون: أي بعث موسى الرسول إلى فرعون وهو الوليد لق مصعب بن الريان، ملك مصر.

وملئه: أي أشرف قومه وأعيانهم من رؤساء وكبراء.

فظلموا بها: أي ظلموا أنفسهم بالآيات وما تحمله من هدى حيث كفروا بها.

بينة من ربكم: حجة قاطعة وبرهان ساطع على أنني رسول الله إليكم.

ونزع يده: أخرجها بسرعة من جيبه.

معنى الآيات:

قوله تعالى {ثم بعثنا من بعدهم موسى} هذا شروع في ذكر القصص السادس مما اشتملت عليه

سورة الأعراف، وهي قصص موسى عليه السلام مع فرعون وملئه. قال تعالى وهو يقص على نبيه

ليثبت به فؤاده، ويقرر به نبوته، ويعظ أمته، ويذكر به قومه {ثم بعثنا من بعدهم} أي من بعد نوح

وهود وصالح ولوط وشعيب موسى بن عمران إلى فرعون وملئه من رجالات ملكه ودولته، وقوله

بآياتنا. هي تسع آيات لتكون حجة على صدق

(2/214)

رسالته وأحقية دعوته. وقوله تعالى {فظلموا 1 بها} أي جحدوها ولم يعترفوا بها فكفروا بها وبذلك ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم بها، واستمروا على كفرهم وفسادهم حتى أهلكهم الله تعالى بإغراقهم، ثم قال لرسوله {فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} أي دماراً وهلاكاً وهي عاقبة كل مفسد في الأرض بالشرك والكفر والمعاصي. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (103) وأما الآيات بعدها فإنها في تفصيل أحداث هذا القصة العجيب. وأتى موسى فرعون وقال ليا فرعون 2 إني رسول من رب العالمين، حقيق} أي جدير وخليق بي {أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتم ببينة من ربكم} دالة على صدقي شاهدة بصحة ما أقول {فأرسل 3 معي بني إسرائيل} لأذهب بهم إلى أرض الشام التي كتب الله لهم وقد كانت دار آبائهم. وهنا تكلم فرعون وطالب موسى بالآية التي ذكر أنه جاء بها فقال {إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين} أي فيما تدعيه وتقول به وتدعوا إليه. وهنا ألقى موسى عصاه أي أمام فرعون المطالب بالآية {فإذا هي ثعبان مبين} أي حية عظيمة تهتز أمام فرعون ومثله كأنها جان 4، هذه آية وزاده أخرى فأدخل يده في جيبه كما علمه ربه ونزعها {فإذا هي بيضاء للناظرين} بيضاء بياضاً غير معهود مثله في أيدي الناس. هذا ما تضمنته هذه الآيات الخمس في هذا السياق.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان سوء عاقبة المفسدين بالشرك والمعاصي.
- 2- تذكير موسى فرعون بأسلوب لطيف بأنه ليس رباً بل هناك رب العالمين وهو الله رب موسى وهارون والناس أجمعين.

1 {فظلموا بها} أي: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بالآيات، وجائز أن يكون ظلموا بسببها غيرهم ممن منعهم من الإيمان بها إذ هدّوهم بالقتل وجائز أن يضمّن الظلم هنا معنى الكفر أي كفروا بها وهو صحيح المعنى.

2 فرعون: علم جنس لمن يملك مصر في القديم ككسرى: لكل من يملك فارساً وقيصر: لكل من يملك الروم ونمرود: لمن ملك الكنعانيين، والنجاشي: للأحباش، وتبع، لحمير ونداء موسى له بقوله يا فرعون: فيه نوع احترام، إذ ناداه بعنوان الملك والسلطان.

3 الفاء تفرعية أي: ما بعدها متفرّع عما قبلها.

4 الجان: هنا حية أكحل العينين تسكن البيوت لا تؤذى كثيرة النقلب والاهتزاز.

3- تقرير مبدأ الصدق لدى الرسل عليهم السلام.

4- ظهور آيتين لموسى العصا واليد.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (112)

شرح الكلمات

ساحر عليم : أي نو علم بالسحر خبير به ليس مجرد مدّع.

من أرضكم: أي من بلادكم ليستولى عليها ويحكمكم.

فماذا تأمرون : أي أشيروا بما ترون الصواب في حل هذا المشكل.

أرجه : أي أمهله وأخاه لا تعجل عليهما قبل اتخاذ ما يلزم من الاحتياطات.

في المدائن : مدن المملكة الفرعونية.

حاشرين : رجالاً يجمعون السحرة الخبراء في فن السحر للمناظرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تفصيل قصص موسى مع فرعون فبعد أن تقدم موسى بما طلب فرعون منه من الآية فأراه آية العصا، واليد، وشاهد الملاء من قوم فرعون الآيتين العظيمتين قالوا {إن هذا لساحر عليم} وذلك لما بهرتهم الآيتان تحول العصا إلى حية عظيمة واليد بيضاء من غير سوء كالبرص بل بياضها عجب 1 حتى لكأنها فلقة قمر أي قطعة منه، واتهموا موسى فوراً بالسياسة وأنه يريد بهذا إخراجكم من بلادكم ليستولي عليها هو وقومه من بني إسرائيل، وهنا تكلم فرعون وقال: {فماذا تأمرون}2 أي بم تشيرون علي أيها الملاء والحال كما ذكرتم؟ فأجابوه قائلين {أرجه 3 وأخاه} أي أوقفهما عندك {وأرسل في المدائن حاشرين 4}

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ليد موسى نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض.

2 يرى بعضهم أنّ المستفهم غير فرعون، الصحيح أنه فرعون لانهزامه معنوياً.

3 قرأ ورش: {أرجه} بإشباع كسر الهاء، وقرأ الجمهور {أرجه} بإسكان الهاء، وقرأ بضّ بكسر الهاء بدون مدّ.

4 قيل هي صعيد مصر إذ هو مقرّ العلماء بالسحر، والمدائن جمع مدينة وتجمع على مدن واصل اشتقاقها من مدن بالمكان إذا أقام به.

أي رجالاً من الشرط يحشرون أي يجمعون أهل الفن من السحرة من كافة أنحاء الإيالة أي الإقليم المصري، وأجر معه مناظرة فإذا انهزم انتهى أمره وأما من خطره على بلادنا وأوضاعنا. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع في هذا السياق.

هداية الآيات

هن هداية الآيات

- 1- جهل الملأ بالآيات أدى بهم إلى أن قالوا إن موسى ساحر عليم.
 - 2- مكر الملأ وخبثهم إذ اتهموا موسى سياسياً بأنه يريد الملك وهو كذب بحت وإنما يريد إخراج بني إسرائيل من مصر حيث طال استعبادهم وامتهانهم من قبل الأقباط وهم أبناء الأنبياء وأحفاد إسرائيل واسحق وإبراهيم عليهم السلام.
 - 3- فضيحة فرعون حيث نسي دعواه الربوبية، فاستشار الملأ في شأنه، إذ الرب الحق لا يستشير عباده فيما يريد فعله لأنه لا يجهل ما يحدث مستقبلاً.
 - 4- السحر صناعة من الصناعات يتعلم ويبرع فيها المرء، ويتقدم حتى يتفوق على غيره.
 - 5- حرمة السحر وحرمة تعلمه، ووجوب إقامة الحد على من ظهر عليه وعرف به.
- وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)
قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَاسْتَزْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (116)
- شرح الكلمات:

السحرة : جمع ساحر وهو من يتقن فن السحر ويؤثر في أعين الناس بسحره.
إن لنا لأجراً : أي ثواباً من عندك أي أجراً تعطيناها إن نحن غلبنا.

(2/217)

نحن الملقين : لعصيتنا.

سحروا أعين الناس : حيث صار النظارة في الميدان يشاهدون عصي السحر وحبالهم يشاهدونها حيات وثنابين تملأ الساحة.

واستزهبوهم : أي خلوا الرعب والرعب في قلوب الناس من قوة أثر السحر في عيونهم.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام من جهة وبين فرعون وملئه من جهة أخرى، فقد جاء في الآيات السابقة أن الملأ أشاروا على فرعون بأن يحبس موسى وأخاه هارون ويرسل شرطة في المدن يأتون بالخبراء في فن السحر لمناظرة موسى عسى أن يغلبوه، وفعلاً أرسل

فرعون في مدنه حاشرين يجمعون خبراء السحر، وها هم أولاء قد وصلوا قال تعالى لوجاء السحرة فرعون 1 { وعرفوا أن الموقف جد صعب على فرعون فطالبوه بالأجر العظيم إن هم غلبوا موسى وأخاه فوافق فرعون على طلبهم، وهو معنى قوله تعالى: لوجاء السحرة فرعون قالوا إن 2 لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال نعم { وزادهم أيضاً أن يجعلهم من خواصه ورجال قصره فقال لوانكم لمن المقربين { أي لدينا. وهنا تقدموا لموسى وكأنهم على ثقة في قوتهم السحرية وأن الجولة ستكون لهم، تقدموا بإلقاء آلاتهم السحرية أو تقدم موسى عليهم فقالوا ليا موسى 3 إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقين { أي ألق عصاك أو نلقي نحن عصينا فقال لهم موسى {ألقوا} 4 فألقوا فعلاً فسحروا أعين 5 الناس وجاءوا بسحر عظيم كما أخبر تعالى الأمر الذي استرهب النظارة حتى إن موسى عليه السلام أوجس في نفسه خيفة فنهاه ربه تعالى عن ذلك وأعلمه أنه الغالب بإذن الله تعالى جاء هذا الخبر في سورة طه.

- 1 لقد ذكر القرطبي في عدد السحرة أخباراً مثلها لا يصح، إذ جاء في بعضهم أن عددهم كان سبعين ألف ساحر، والأقرب إلى أن يكونوا سبعين رجلاً.
- 2 قرىء في السبع بهمزة الاستفهام {أئن لنا لأجراً} وقرىء بدونها {إن لنا لأجراً}.
- 3 قال القرطبي: تأدّبوا مع موسى إذ استشاروه فيمن يبدأ بالإلقاء فنفعهم الله بأدبهم مع نبيّه فأسلموا وسعدوا برضوان الله تعالى.
- 4 في إذنه لهم بالإلقاء توفيق ربّاني عظيم إذ معناه أنه احتفظ بالضربة الأخيرة وصاحبها يغلب بإذن الله دائماً.
- 5 أي: خيلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها بما يتخيل من التمويه الذي جرى مجرى الشعوذة وخفة اليد.

(2/218)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية طلب الأجرة على العمل الذي يقوم به الإنسان خارجاً عن نطاق العبادة.
 - 2- مشروعية الترقيات الحكومية لذي الخدمة الجلى للدولة.
 - 3- تأثير السحر على أعين الناس حقيقة بحيث يرون الشيء على خلاف ما هو عليه إذ العصي والحبال استحالت في أعين الناس إلى حيات وثعابين.
- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (118) فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122)

شرح الكلمات:

تلقف: تأخذ بسرعة فائقة وخذق عجيب.

ما يأفكون: ما يقلبون بسحرهم وتمويههم.

فوقع الحق: ثبت وظهر.

صاغرين: ذليلين.

ساجدين: ساقطين على وجوههم سجداً لربهم رب العالمين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في المناظرة أو المباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون، فبعد أن ألقى السحرة
حبالهم وعصبيهم في الساحة وانقلبت بالتمويه السحري حيات وثعابين ورهب الناس من الموقف وظن
فرعون وملأه أنهم غالبون أوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقي عصاه فألقاها {فإذا هي تلقف} ما
يأفكون} أي تأخذه وتبتلعه وبذلك وقع الحق أي ظهر وثبت

1 قرىء (تَلَقَّفَ) و(تَلَقَّفَ) بتضعيف القاف، والأصل: تتلقف فحذف إحدى التاءين تخفيفاً، وقرىء في
الشاذ: تلَقَّم بالميم بدل الفاء، ومعنى الكلّ تبتلع بسرعة وتزدرده، وصيغة المضارع في الفعلين
لاستحضار الماضي كأنه حاضر ليكون أوقع في النفس.

(2/219)

واستقر {ويطل ما كانوا يعملون} أي السحر والتمويه وقوله تعالى {فغلبوا} أي فرعون وملأه وقومه
{هنالك} أي في ساحة المباراة والمناظرة {وانقلبوا} إلى ديارهم {صاغرين} أي ذليلين مهزومين. وقوله
تعالى {وألقى السحرة ساجدين} أي إنهم بعد أن شاهدوا الآية الكبرى بهرتهم فخروا ساجدين كأنما
ألقاهم 1 أحد على وجه الأرض لا حراك لهم وهم يقولون 2 {آمنا برب العالمين رب موسى وهارون}
وضمن ذلك فقد كفروا بربوبية فرعون الباطلة، لأن الإيمان بالله سيلزم الكفر بما عداه، ولذا قالوا
{آمنا برب العالمين رب موسى وهارون} تلويحاً بكفرهم بفرعون الطاغية وبكل إله غير الله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنته تعالى في أن الحق والباطل إذا التقيا في أي ميدان فالغلبة للحق دائماً.

2- بطلان السحر وعدم فلاح أهله ولقوله تعالى من سورة طه {ولا يفلح الساحر حيث أتى}.

3- فضل العلم وأنه سبب الهداية فإيمان السحرة كان ثمرة العلم، إذ عرفوا أن ما جاء به موسى ليس سحراً وإنما هو آية له من الله فأمنوا.

4- مظهر من مظاهر القضاء والقدر فالسحرة أصبحوا كافرين وأمسوا مسلمين.
قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا نَتَّقِمُ مِثْلَ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ (126)

1 أي: ألقوا أنفسهم على الأرض، وبنى الفعل للمجهول لظهور الفاعل وهو أنفسهم.

2 قالوا آمنا برب العالمين حال هو يهيم للسجود إعلاماً منهم إنهم ما سجدوا لفرعون كما يفعل الأقباط، وإنما سجدوا لله رب العالمين رب موسى وهارون.

(2/220)

شرح الكلمات:

آمنتم به: أي صدقتموه فيما جاء به ودعا إليه.

مكر مكرتموه: أي حيلة احتلتموها وتواطأتم مع موسى على ذلك.

من خلاف: بأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس.

ثم لأصلبكنم: التصليب: الشد على خشبة حتى الموت.

منقلبون: أي راجعون.

وما نتقم منا: أي وما تكره منا وتتكبر علينا إلا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا.

أفرغ علينا صبراً: أي أفض علينا صبراً قوياً حتى نثبت على ما توعدنا فرعون من العذاب ولا نرتد بعد إيماننا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث قصص موسى وفرعون ففي الآيات قبل هذه تمت المناظرة بين موسى والسحرة بنصر موسى عليه السلام وهزيمة فرعون النكراء حيث سحرته بعد ظهور الحق لهم واضحاً مكشوفاً آمنوا وأسلموا وسجدوا لله رب العالمين. وفي هذه الآيات يخبر تعالى عن محاكمة فرعون للسحرة فقال عز من قائل {قال فرعون} أي للسحرة {آمنتم} به {أي بموسى} {قبل أن آذن لكم} أي في الإيمان به، وهي عبارة فيها رائحة الهزيمة والحق، وإلا فهل الإيمان يتأتي فيه الإذن وعدمه، الإيمان إذعان باطني لا علاقة له بالإذن إلا من الله تعالى، ثم قال لهم {إن هذا لمكر مكرتموه في

المدينة لتخرجوا منها أهلها} أي إن هذا الذي قمتم به من ادعاء الغلب لموسى بعدما أظهرتم الحماس في بداية المباراة ما هو إلا مكرًا وتدبير خفي تم بينكم وبين موسى في المدينة قبل الخروج إلى ساحة المباراة، والهدف منه إخراجكم الناس² من المدينة واستيلائكم عليها. ثم تهددهم وتوعدهم بقوله {فسوف تعلمون} ما أنا صانع بكم. وذكر ما عزم عليه فقال مقسماً {لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف} يريد بقطع من كل واحد منهم يده اليمنى ورجله اليسرى، ثم يربطهم على أخشاب في ساحة معينة ليموتوا كذلك نكالاً وعبرة لغيرهم. هذا ما أعلنه فرعون وصرح به

- 1 الاستفهام هنا للإنكار والتهديد أي: ينكر على السحرة إيمانهم ويهددهم بالبطش بهم والتكيل.
- 2 قد يكون المراد بعض الناس وهم بنو إسرائيل إذ موسى جاء يطالب بهم ليخرج بهم إلى أرض القدس.

(2/221)

للسحرة المؤمنين فما كان جواب السحرة {قالوا إنا إلى ربنا منقلبون} أي راجعون ففتلك إيانا لم يزد على أن قربنا من ربنا ووردنا إليه ونحن في شوق إلى لقاء ربنا، وعليه فحكمك بقتلنا ما هو بضائرتنا، وشيء آخر هو أنك {ما تنقم 1 منا} يا فرعون أي ما تكره منا ولا تنكر علينا إجراماً أجرمناه أو فساداً في الأرض اشعناه إنما تنقم منا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا وهذا شيء لا مذمة فيه علينا، ولا عاراً يلحقنا، فلذا {اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا} ثم أقبلوا على الله ورفعوا أيديهم إليه وقالوا ضارعين سائلين {ربنا أفرغ علينا صبراً} حتى نتحمل العذاب في ذاتك {وتوفنا مسلمين²}، ونفذ فرعون جريمته³ ولكن أحدث ذلك اضطراباً في البلاد ولم يكن فرعون ولا ملاءه يتوقعون دل عليه الآيات التالية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- القلوب المظلمة بالكفر ولجرائم أصحابها لا يتورعون عن الكذب واتهام الأبرياء.
 - 2- فضيلة الاسترجاع أن يقول {إنا لله وإنا إليه راجعون} حيث فزع إليها السحرة لما هددهم فرعون إذ قالوا {إنا إلا ربنا منقلبون} أي راجعون فهان عديهم ما تهددوا به.
 - 3- مشروعية سؤال الصبر على البلاء للثبات على الإيمان.
 - 4- فضل الوفاة على الإسلام وأنه مطلب عال لأهل الإيمان.
- وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْفِلُ آبْنَاءَهُمْ
وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ

1 يقال: نَقَمَ يَنْقُمُ من باب ضرب، نَقَمًا ونَقْمًا على أنه من باب تَعَبٍ تَعَبًا إذا أنكر الفعل وكره صدوره وحقد على فاعله، ويكون بالقول والفعل.

2 كلمة الإسلام معروفة في كل زمان ومكان بين المؤمنين ويعبر عنها كل قوم بلغتهم إذ معناها الانقياد لله مع حبه تعالى وتعظيمه والشوق إليه.

3 لم يرد في القرآن ما يدل على أنّ فرعون نفد وعيده في السحرة أو لم ينفذه، وعدم ذكر القرآن له لأنه خالٍ من الفائدة، وذكر القرطبي بصيغة التمريض فقال: قيل إنّ فرعون أخذ السحر وقطعهم على شاطئ النهر وأنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف والله أعلم.
??

(2/222)

اسْتَعْبَيْنَا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

شرح الكلمات:

قال الملاء: أي لفرعون.

أُتذّر: أي أترك.

وقومه: أي بني إسرائيل.

ليفسدوا في الأرض: أي في البلاد بالدعوة إلى مخالفتك، وترك طاعتك.

والهتك: أصناماً صغاراً وضعها ليعبدها الناس وقال أنا ربكم الأعلى وربها.

نستحيي نساءهم: نبقى على نسائهم لا تدبهن كما تدبج الأطفال الذكور.

ويستخلفكم في الأرض: أي يجعلكم خلفاء فيها تخلفون الظالمين بعد هلاكهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث قصص موسى وفرعون أنه بعد انتصار موسى في المباراة وإيمان السحرة ظهر أمر موسى واتبعه ستمائة ألف من بني إسرائيل، وخاف قوم فرعون من إيمان الناس بموسى ولما جاء به من الحق قالوا لفرعون على وجه التحريض والتحريك له {أُتذّر موسى وقومه} يريدون بني إسرائيل {ليفسدوا في الأرض} أي أرض مصر بإفساد خدمك 1 أو عبيدك {ويذرك وآلهتك} 2 أي ويتركك فلا يخدمك ولا يطيعك ويترك آلهتك فلا

1 وإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل أيضاً.

2 وقرىء {والهتك} أي: عبادتك وعلى هذا فإنه كان يعبد ولا يُعبد والوجه الأول أظهر.

(2/223)

يعبدها إذ كان لفرعون أصنام يدعو الناس لعبادتها لتقريبهم إليه وهو الرب الأعلى للكل. وبعد هذا التحريش والإغراء من رجال فرعون لبيبش بموسى وقومه قال فرعون {سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم} كما كان يفعل قبل عندما أخبر بأن سقوط ملكه سيكون على يد بني إسرائيل {وإنا فوقهم قاهرون} هذه الكلمة من فرعون في هذا الظرف بالذات لا تعد وأن تكون تعويضاً عما فقد من جبروت ورهوت كان له قبل هزيمته في المباراة وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (127) وهي قوله تعالى {وقال الملأ من قوم فرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، ويذكرك وآلهتك}. قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم، وإنا فوقهم قاهرون} وكان رد موسى عليه السلام على هذا التهديد والوعيد الذي أُرعب بني إسرائيل وأخافهم ما جاء في الآية الثانية (128) {وقال موسى لقومه} أي من بني إسرائيل {استعينوا بالله} على ما قد ينالكم من ظلم فرعون، وما قد يصيبكم من أذى انتقاماً لما فقد من علوه وكبريائه {واصبروا} على ذلك، واعلموا {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} فمتى صبرتم على ما يصيبكم فلم تجزعوا فترتدوا، وانقيتم الله ربكم فلم تتركوا طاعته وطاعة رسوله أهلك عدوكم وأورثكم أرضه ودياره، وسبحان الله هذا الذي ذكره موسى لبني إسرائيل قد تم حرفياً بعد فترة صبر فيها بنو إسرائيل وانتقوا كما سيأتي في هذا السياق بعد كذا آية، وهنا قال بنو إسرائيل ما تضمنته الآية الأخيرة (129) {قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا} بما أتيتنا به من الدين والآيات، وذلك عندما كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم للخدمة {ومن بعدما جئتنا} وهذه كلمة الأيس المهزوم نفسياً لطول ما عانوا من الاضطهاد والعذاب من فرعون وقومه الأقباط. فأجابهم موسى عليه السلام قائلاً: محيياً الأمل في نفوسهم وإبصالهم بقوة الله التي لا تقهر {عسى} 2 ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف 3 تعملون} وهذا الذي رجاه موسى ورجاه بني إسرائيل قد تم كاملاً بلا نقصان والحمد لله الكريم المنان.

1 آنس قومه بهذه الجملة من الكلام وأذهب عنهم روح الهزيمة، ولم يقل سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه ولما أصابه من الرعب منه حتى قيل: إنه كان إذا رآه يبول من شدة الخوف منه وهي آية موسى عليه السلام.

2 عسى من الله واجب أي ليست للرجاء فقط بل ما يذكر جمعها يقع لا بد ولا يتخلف، ولذا قد

تحقق ما ذكر معنا هنا كاملاً لا نقص فيه.

3 كيف: ليست للاستفهام هنا وإنما هي دالة على مجرد كيفية أعمالهم هل هي أعمال صالحة أو فاسدة أي: هل يشكرون؟

(2/224)

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

- 1- خطر بطانة السوء على الملوك والرؤساء تجلت في إثارة فرعون ودفعه إلى البطش بقولهم (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض... الخ).
- 2- بيان فضيلة الصبر والتقوى وأنها مفتاح النصر وإكسير الكمال البشري.
- 3- النفوس المريضة علاجها عسير ولكن بالصبر والمثابرة تشفى إن شاء الله تعالى.
- 4- بيان صدق ما رجاه موسى من ربه حيث تحقق بحذافيره.

5- استحسان رفع معنويات المؤمنين بذكر حسن العاقبة والتبشير بوعد الله لأوليائه أهل الإيمان والتقوى.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (133)

شرح الكلمات :

أخذنا آل فرعون بالسنين 1 : أي عاقبناهم بسنيني الجذب والقحط.

1 يقال : أصابتهم سنة أي : جذب وتقديره: جذب سنة وفي الحديث: "اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف" دعاء على قريش.

(2/225)

ونقص من الثمرات.: بالحوائج تصيبها، وبعدم صلاحيتها.

الحسنة : ما يحسن من خصب ورخاء وكثرة رزق وعافية.

سيئة : ضد الحسنه وهي الجذب والغلاء والمرض .

يطيروا بموسى 1: أن يتشاءمون بموسى وقومه.

الطوفان والجراد والقمل والضفادع : الطوفان الفيضانات المغرقة، والجراد معروف بأكل الزرع والثمار، والقمل جائز أن يكون القمل المعروف وجائز أن يكون السوس في الحبوب، والضفادع جمع ضفدعة. حيوان يوجد في المياه والمستنقعات.

والدم: والدم معروف قد يكون دم رعاف أو نزيف، أو تحول الماء ماء الشرب إلى دم عبيط في أوانيهم وأفواههم آية لموسى عليه السلام.

فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين: حيث لم يؤمنوا بهذه الآيات. أي مفسدين حيث حكم بإهلاكهم. معنى الآيات :

ما زال السياق في قصص موسى مع آل فرعون انه لما شاهد فرعون وآله آية العصا وانهمز السحر أمامهم وإيمان السحرة حملهم الكبر على مواصلة الكفر والعناد فأصابهم الرب تعالى بجفاف وقحط سنوات لعلهم يذكرون، ولم يذكروا فحول الله تعالى جذبهم إلى خصب، وبلاءهم إلى عافية فلم يرجعوا وقالوا في الرخاء هذه لنا نحن مستحقوها وجدّيون بها، وقالوا في القحط والبلاء قالوا هذه من شؤم موسى وبنى إسرائيل، قال تعالى {ألا أنما طائروهم عند الله} وذلك لأنه مدبر الأمر وخالق كل شيء وجاعل للحسنة أسبابها وللسيئة أسبابها ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك قالوا اطيننا بموسى ومن معه وأصروا على الكفر ولجوا في المكابرة والعناد حتى قالوا لموسى {مهما 2 تأتتا به من آية

1 أصل الكلمة: يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء لأنّ مخرجهما واحد، والطيير والتطيير مأخوذ من زجر الطيير. إذ كانوا إذا أرادوا عملاً ما سافراً ونحوه يزعجون الطيير فإن تيامن في طيرانه أقدموا على العمل، وإن تشاءم تركوا فهذا أصل اليمين والشؤم كان في الجاهلية وأبطله الإسلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطييرة شرك ثلاثاً" وما منا إلا، ولكن الله يذهب بالتوكل وعلمهم أن يقولوا: "اللهم لا طيير إلا طيورك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك".

2 أصل مهما: ما. ما الأولى شرطية والثانية زائدة توكيداً للجزاء فكروها حرفين من جنس واحد متجاورين فأبدلوا الألف هاء ففصلت بين الميمين.

(2/226)

لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين} ولو علموا ما أصروا على الكفر ولما قالوا ما قالوا فأسباب الحسنه الإيمان والتقوى، وأسباب السيئة الكفر والمعاصي، إذ المراد بالحسنة والسيئة هنا: الخير والشر. وهنا وبعد هذا الإصرار والعناد والمكابرة رفع موسى يديه إلى ربه يدعوه فقال: يا رب إن

عبدك فرعون علا في الأرض ويغا وعتا، وأن قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم
نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم آية، فاستجاب الله تعالى دعاءه فأرسل عليهم الطوفان والجراد
والقمل والضفادع 1 والدم فأخذهم الطوفان أولاً فكادوا يهلكون بالغرق فجاؤا موسى وطلبوا منه أن
يدعو ربه ليرفع عنهم هذا العذاب فإن رفعه عنهم آمنوا وأرسلوا معه بني إسرائيل فدعا ربه واستجاب
الله تعالى فأخذوا شهراً في عافية فطلب منهم موسى ما وعده به فتنكروا لوعدهم وأصروا على كفرهم
فأرسل الله تعالى عليهم الجراد 2 فأكل زروعهم وأشجارهم وثمارهم حتى ضجوا وصاحوا وأتوا موسى
وأعطوه وعودهم إن رفع الله عنهم هذا العذاب آمنوا وأرسلوا معه بني إسرائيل فرفع الله عنهم ذلك
فلبثوا مدة آمنين من هذه العاهة وطالبهم موسى بعودهم فتنكروا له، وهكذا حتى تمت الآيات الخمس
مفصلات ما بين كل آية وأخرى مدة تقصر وتطول فاستكبروا عن الإيمان والطاعة وكانوا قوماً
مجرمين مفسدين لا خير فيهم ولا عهد لهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- من تدبير الله تعالى أخذه عباده بالشدائد لعلمهم يذكرون فيتعظون ويتوبون.
- 2- بطلان التطير مطلقاً، وإنما الشؤم في المعاصي بمخالفة شرع الله فيترتب على الفسق والعصيان
البلاء والعذاب.
- 3- الجهل سبب الكفر والمعاصي وسوء الأخلاق وفساد الأحوال.
- 4- عدم إيمان آل فرعون مع توارد الآيات عليهم دال على أن إيمانهم لم يسبق به القدر. كما هو
دال على أن الآيات المعجزات لا تستلزم الإيمان بالضرورة.
- 5- التنديد بالإجرام وهو إفساد النفس بالشرك والمعاصي.

1 صح النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم "عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد" من رواية
أبي داود وأحمد وابن ماجه.

2 اختلف في قتل الجراد، وأجمعوا أنه إذا أفسد جاز قتله. وأجمعوا على جواز أكله بأكل الرسول
صلى الله عليه وسلم منه هو وأصحابه في بعض الغزوات.
??

(2/227)

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (135)

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)

شرح الكلمات:

الرجز : العذاب وهو الخمسة المذكورة في آية (133) الآتفة الذكر.
إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون : المراد من الأجل أنهم كانوا إذا سألوا موسى أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب ويعدونه بالإيمان وإرسال بني إسرائيل معه فيرفع الله عنهم العذاب فيمكثون زمنا ثم يطالبهم موسى بالإيمان وإرسال بني إسرائيل فيأبون عليه ذلك وينكثون عهدهم.
فانقمنا منهم: أي أنزلنا بهم نقمتنا فأغرقناهم في اليم الذي هو البحر.

(2/228)

الذين كانوا يستضعفون .: هم بنو إسرائيل.
مشارق الأرض ومغاربها : هي أرض مصر والشام.
وتمت كلمة ربك الحسنى : هي وعده تعالى لهم في قوله {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين} من سورة القصص.
وما كانوا يعرشون 1: أي يرفعون من مباني الدور والقصور العالية.
معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص موسى مع فرعون وقومه، وهذه هي الآيات الأخيرة في هذا القصص إنه لما وقع عليهم الرجز وهو العذاب المفصل 2 الطوفان فالجراد، فالقمل، فالضفادع، فالدم {قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك} 3 أي من كشف العذاب عنا إن نحن آمننا بك وبما جئت به وبما تطالب به من إرسال بني إسرائيل معك وحلفوا وقالوا {لئن كشفت عنا الرجز} {لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل} قال تعالى: {فلما كشف عنهم الرجز} أي العذاب {إلى أجل هم بالغوه} إلى وقت ينتهون إليه {إذ هم ينكثون} 4 عهودهم ولم يؤمنوا ولم يرسلوا بني إسرائيل وكان هذا ما بين كل آية وآية حتى كانت الخمس الآيات، ودقت ساعة هلاكهم قال تعالى {فأغرقناهم في اليم} وهو البحر الملح أي أغرق فرعون وجنده ورجال دولته وأشراف بلاده، ثم ذكر تعالى علة هذا الهلاك الذي حاق بهم ليكون عبرة لغيرهم وخاصة قريش التي ما زالت مصرّة على الشرك والتكذيب، فقال تعالى {بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين} كما هي الحال في

1 {ما عهد عندك} الباء لتعدية فعل الدعاء، وما موصولة مبهم أي: ادعه بما علمك ربك من وسائل

إجابة دعائك عنده ليكشف عنا الرّجز.

- 2 أصل النكت: هو نقض المقول من حبل وغزل واستعير لعدم الوفاء بالعهد.
- 3 شبه البناء العالي الرفيع بالعرش يقال: عرش يعرش عرشاً: إذا رفع البناء أو السرير والعنب والدوالي يعرش لها بناء من خشب ليرفعها عليه.
- 4 وقيل إنه طاعون قتل منهم سبعين ألف نسمة إذ لفظ الرجز دالّ على مرض الطاعون لقوله تعالى: {فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون}.

(2/229)

قريش ومشركي العرب وكفارهم. وختم تعالى هذا القصص قصص موسى مع فرعون بقوله {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون} وهم بنو إسرائيل حيث استعبدهم فرعون الظالم وآله زمناً غير قصير {مشارك الأرض ومغاريها1} وهي أرض مصر والشام إذ الكل مما بارك الله تعالى فيه إلا أن أرض الشام أولاً ثم أرض مصر ثانياً، إذ دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بعد وفاة موسى وهارون حيث غزا بهم يوشع بن نون العمالقة في أرض فلسطين وفتح البلاد وسكنها بنو إسرائيل وقوله تعالى {وتمت كلمة ربك الحسني على بنى إسرائيل بما صبروا} والمراد من كلمة الله قوله في سورة القصص {ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون} وقوله تعالى {وودمنا ما كان يصنع فرعون وقومه} من سلاح وعتاد ومبان شداد، وقصور ربيعة البنيان، {وما كانوا يعرشون} ويرفعون ويعلون من صروح عالية، وحدائق أعناب زاهية زاهرة وأورث أرضهم وديارهم وأموالهم قوماً آخرين غيرهم، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. إلى هنا انتهى قصص موسى عليه السلام مع فرعون وملائه وكانت العاقبة له والحمد لله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ضعف الإنسان يظهر عند نزول البلاء به حيث يفزع إلى الله تعالى يدعوه ويضرع إليه وعند رفعه حيث ينسى ما نزل به ويعود إلى عاداته وما كان عليه من الشرك والمعاصي إلا من آمن وعمل صالحاً فإنه يخرج من دائرة الضعف حيث يصبر عند البلاء ويشكر عند النعماء.
- 2- سبب العذاب في الدنيا والآخرة التكذيب بآيات الله بعدم الإيمان والعمل بها، والغفلة عنها حيث لا يتدبّر ولا يفكر فيها وفي ما نزلت لأجله.
- 3- مظاهر قدرة الله، وصادق وعده، وعظيم منته على خلقه، وحسن تدبيره فيهم فسبحانه من إله عليم حكيم رؤوف رحيم.

1 كما يصدق هذا على أرض الشام إذ لها مشارق ومغارب، ومن بينها الأرض المقدسة أرض فلسطين يصدق أيضاً على أرض مصر وغيرها إذ مملكة بني إسرائيل على عهد سليمان كانت قد انتظمت المعمورة كلها.

(2/230)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٍ (141)

شرح الكلمات:

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر: أي قطعنا بهم فاجتازوه إلى ساحله.
يعكفون على أصنام لهم: يجلسون إلى تماثيل بقر منحوتة من حجر.
اجعل لنا إلهاً: أي معبوداً يريدون تمثالاً كالذي شاهدوا.
تجهلون: أي أن العباداة لا تكون إلا لله تعالى.
متبرما هم فيه: هالك خاسر لا يكسبهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.
وإذ نجيناكم: أي واذكروا نعم الله عليكم بإنجائه إياكم من آل فرعون.
يسومونكم سوء العذاب: يوردونكم موارد الردى والهلاك بما يصيبونكم به من عذاب.
بلاء من ريبكم: أي اختبار وامتحان قاسٍ شديد.
معنى الآيات:

هذا بداية قصص جديد لنبي الله تعالى موسى مع قومه من بني إسرائيل إنه بعد هلاك فرعون وجنوده في اليم، انتهى الكلام على دعوة موسى لفرعون وملئه، وبذلك استقبل موسى وأخوه هارون مشاكل جديدة مع قومهما أنه بعد أن جاوز تعالى ببني إسرائيل البحر

(2/231)

ونزلوا على شاطئه سالمين مروا بأناس يعكفون 1 على تماثيل لهم وهي عبارة عن أبقار حجرية منحوتة نحتاً يعبدونها وهم عاكفون عليها وما إن رأى بنو إسرائيل هؤلاء العاكفين على الأصنام حتى

قالوا لموسى يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهؤلاء آلهة، وهي كلمة دالة على جهلٍ بالله تعالى وآياته، فما كان من موسى عليه السلام حتى جابههم بقوله: {إنكم قوم تجهلون} وواصل تأنيبه لهم وإنكاره الشديد عليهم فقال {إن هؤلاء} أي العاكفين على الأصنام والذين غرتكم حالهم {متبر 2 ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون} أي إنهم وما هم عليه من حال في هلاك وخسار، ثم قال لهم منكرًا متعجباً {أغير الله أبغيكم إلهاً} أي غير ربي عز وجل أطلب لكم إلهاً تعبدونه دون الله ما لكم أين يذهب بعقولكم، وهو سبحانه وتعالى فضلكم على العالمين وشرفكم على سائر سكان المعمورة 3 أهكذا يكون شكركم له بطلب إلى غيره، وهل هناك من يستحق العبادة غيره؟ وقوله تعالى في الآية الأخيرة (141) {وإذ أنجبناكم 4 من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب} أي واذكروا يا من قلتم اجعل لنا إلهاً كما للمشركين آلهة اذكروا فضل الله عليكم بإنجائه إياكم من فرعون وآله وهم الذين كانوا على منهجه في الظلم والكفر من رجال حكمه وأفراد شرطه وجيوشه {يسومونكم سوء العذاب: يقتلون أبناءكم} حتى لا تكثروا، {ويستحيون نساءكم} للامتهان والخدمة، وفي هذا التعذيب والإنجاء منه {بلاء من ربكم عظيم} يتطلب شكركم لا كفركم، فكيف تريدون أن تعبدوا غيره، وتشركوا به أصناماً لا تنفع ولا تضر، إن أمركم لجد مستعرب وعجب فاتقوا الله وتوبوا إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه دال على جهل

1 قرىء {يعكفون} بكسر الكاف وضمها سبعيتان، والعكوف: الإقامة على الشيء وملازمته، ومنه العكوف في المساجد وهو الإقامة بها وملازمتها مدّة للعبادة.

2 متبر: مهلك، والتبار: الهلاك، وكل إناء منكسر فهو متبر.

3 هذا التفضيل خاص بزمانهم الذي كانوا فيه مع أنبيائهم وهم صالحون.

4 بعد أن أنكر عليهم طلبهم إلهاً غير الله في قوله {أغير الله أبغيكم إلهاً} ذكرهم بنعمة الله عليهم وهي: إنجائهم من آل فرعون فهل يليق بمن ينعم الله عليه بنعمة عظيمة أن ينساه ويطلب إلهاً غيره يعبده بدله أو معه؟

(2/232)

تام في بني إسرائيل ولذا قال لهم موسى {إنكم قوم تجهلون} فالعلة في هذا الطلب العجيب هي الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته، يشهد لهذا أن مسلمة الفتح لما خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين مروا بسدرة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أجعلها لنا ذات أنواط ننيط بها

أسلحتنا، كما للمشركين نظيرها ينيطون بها أسلحتهم لينتصروا في القتال على أعدائهم فعجب الرسول من قولهم وقال "سبحان الله ما زدتم أن قلتكم كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" فجعل القائلين هو الذي سهل عليهم أن يقولوا مثل هذا القول، ويشهد لذلك أن آلاف الأشجار والمزارات في بلاد المسلمين تزار ويتبرك بها وتقدم لها القرابين ولا علة لذلك سوى جهل المسلمين بربهم عز وجل.

2- إنكار المنكر عند وجوده والعتور عليه بالأسلوب الذي يغيره.

3- استحباب التذكير بأيام الله خيرها وشرها لاستجلاب الموعدة للناس لعلهم يتوبون.

4- الرب تعالى يبتلى بالخير والغير، وفي كل ذلك خير لمن صبر وشكر.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعَقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَا

(2/233)

لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)

شرح الكلمات:

مِيقَات: المِيقَاتِ الوقت المعين.

أخلفني في قومي: أي كن خليفتي فيهم.

المفسدين: الذين يعملون بالمعاصي.

استقر مكانه: ثبت ولم يتحول.

خر: سقط على الأرض.

أفاق: ذهب عنه الإغماء وعاد إليه وعيه.

اصطفيتك: أخترتك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر أحداث موسى مع بني إسرائيل انه لما نجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون وملئه، وحدثت حادثة طلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما للمشركين إلهاً وقد أنبأهم موسى وأدبهم عن قولهم الباطل واعد الله تعالى موسى أن يناجيه بجبل الطور وجعل له

الموعد الذي يلقاه فيه شهراً ثلاثين يوماً وكانت شهر القعدة وزادها عشرًا من أول الحجة فتم الميقات أربعين 2 ليلة. وعند خروجه عليه السلام استخلف في بني إسرائيل أخاه هارون 3 وأوصاه بالإصلاح، ونهاه عن إتباع آراء المفسدين هذا معنى قوله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ وكان

1 في الحديث الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تخيروا بين الأنبياء فإنّ الناس يصعقون يوم القيامة فأرفع رأسي فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور".

2 ذكر ابن عباس ومجاهد ومسروق في سبب زيادة العشرة أيام: أن موسى لما أكمل صيام الثلاثين يوماً أنكر خلوف فمه فاستاك. فقالت له الملائكة: "إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزيد فيه عشر ليال فتم له بذلك أربعون يوماً. في الحديث الصحيح " خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك".

3 في الآية دليل على استخلاف المرء أخاه لينوب عنه في حفظ ورعاية ما كلفه به، ومن العجب أن الروافض استدلوا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي وقد استخلفه في إحدى غزواته "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي" إنّ الأصحاب كفروا لتركهم النص في خلافة علي واجتهدوا واستخلفوا أبا بكر، ومنهم من كفر علياً لأنه لم يطالب بالخلافة وما دروا أنّ الرسول استخلف غير واحد ومنهم ابن أمّ مكتوم فهل دلّ ذلك على استخلافه على أمته بعد موته؟ فما أضلّ القوم وأعظم جهلهم!

(2/234)

ذلك من أجل أن يأتي بني إسرائيل بكتاب من ربهم يتضمن شريعة كاملة يساسون بها وتحكمهم ليكملوا وشجعوا عليها.

وقوله تعالى ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ 1 أي في الموعد الذي واعدنا والوقت الذي حددنا وكلمه ربه بلا واسطة بينهما بل كان يسمع كلامه ولا يرى ذاته، تأقت نفس موسى لرؤية ربه تعالى، فطلب ذلك فقال ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ فأجابه ربه تعالى بقوله إنك لن تراني أي رؤيتك لي غير ممكنة لك، ولكن إذا أردت أن تتأكد من أن رؤيتك لي في هذه الحياة غير ممكنة فانظر إلى الجبل "جبل الطور" فإن استقر مكانه بعد أن أتجلى له، فسوف لراني ﴿فلما تجلّى 2 للجبل جعله دكا وخر موسى﴾ عند رؤية الجبل ﴿صعقا﴾ أي مغشيا عليه ﴿فلما أفاق﴾ مما اعتراه من الصعق ﴿قال سبحانك﴾ أي

تنزيهاً لك وتقديساً {تبت إليك}3 فلم أسألك بعد مثل هذا السؤال {وأنا أول المؤمنين} بك وبجلاك وعظيم سلطانتك وأنا عبدك عاجز عن رؤيتك في هذه الدار دار التكليف والعمل.
وهنا أجابه ربه تعالى قائلاً {يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك}
من هذا الكمال4 والخير العظيم {وكن من الشاكرين} أي على إنعامي لأزيدك وذلك بطاعتي والتقرب إلى بفعل محابي وترك مكارهي. وقوله تعالى {وكتبنا له في الألواح5 من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء} أي كتبت له في ألواحه من كل شيء

- 1 في الآية دليل على مشروعية المواعدة والتوقيت وأن التاريخ يكون بالليالي لا بالأيام، قال ابن العربي: حساب الشمس للمنافع وحساب القمر للمناسك.
- 2 تجلّى معناه ظهر، واندكاك الجبل على قوة بنيته وعظيم جسمه كان لعجزه عن رؤية الربّ تبارك وتعالى وهذا كقوله تعالى: {ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله}.
- 3 الإجماع على أنّ توبة موسى هذه لم تكن من ذنب وإنما هي بمعنى الإنابة إلى الله تعالى وعدم طلب مثل هذا الذي طلب.
- 4 فيه الدعوة إلى القناعة وهي خير ما يؤتى المرء في الحياة.
- 5 اختلف في أيهما كان أولاً الألواح أو التوراة، والظاهر أن الألواح كانت أولاً ثم أوحيت التوراة عليها فصارت كتاباً واحداً هو التوراة.

(2/235)

من أمور الدين والدنيا موعظة لقومه من أمر ونهي وترغيب وترهيب، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إلى بيانه وتفصيله. وقوله {فخذها بقوة} أي وقلنا له خذها بقوة أي بعزم وجد وذلك بالعمل بحلالها وحرامها فعلاً وتركاً، {وأمر قومك} أيضاً {يأخذوا بأحسنها} أي بما هو عزائم فيها وليس برخص تربية لهم وتعويداً لهم على تحمل العظام لما لازمهم من الضعف والخور دهنراً طويلاً. وقوله تعالى {سأريكم دار الفاسقين 1} يتضمن النهي لبني إسرائيل عن ترك ما جاء في الألواح من الشرائع والأحكام فإنهم متى تركوا ذلك أو شيئاً منه يعتبرون فاسقين، وللناسقين نار جهنم هي جزاؤهم يوم يلقون ربهم، وسيربهم إياها، فهذه الجملة تحمل غاية الوعيد والتهديد للذين يفسقون عن شرائع الله تعالى بإهمالها وعدم العمل بها، فليحذر المؤمنون هذا فإنه أمر عظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- المحافظة على المواعيد أمر محبوب للشارع مرغّب فيه وهو من سمات الصادقين.

- 2- جواز الاستخلاف في الأرض في مهام الأمور فضلاً عما هو دون ذلك.
- 3- مشروعية الوصية للخلفاء بما هو خير .
- 4- امكان رؤية الله تعالى وهي ثابتة في الآخرة لأهل الجنة.
- 5- استحالة رؤية الله تعالى في الدنيا لضعف الإنسان على ذلك.
- 6- وجود الأمة القابلة لأحكام الله قبل وجود الشرع الذي يحكمها.
- سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

1 وجائز أن يُراد بدار الفاسقين: بلاد القدس والشام إذ سكانها كانوا فاسقين فواعد الله بني إسرائيل بدخول تلك البلاد والانتصار على أهلها الفاسقين.

(2/236)

وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147)

شرح الكلمات:

سأصرف : سأبعد.

يتكبرون: يعلون ويترفعون فيمنعون الحقوق ويحتقرون الناس.

سبيل الرشد: طريق الحق القائم على الإيمان والتقوى.

سبيل الغي : طريق الضلال القائم على الشرك والمعاصي.

وكانوا عنها غافلين: لا يلتفتون إليها ولا ينظرون فيها ولا يتفكرون فيما تدل عليه وتهدي إليه.

حبطت أعمالهم: فسدت فلا ينتفعون بها لأنها أعمال مشرك والشرك محبط للعمل.

معنى الآيتين الكريمتين:

هاتان الآيتان تحملان تعليلاً صحيحاً صائباً لكل انحراف وفساد وظلم وشر وقع في الأرض ويقع إلى نهاية هذه الحياة وهذا التعليل الصحيح هو التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، وسواء كان الحامل على التكذيب الكبر أو الظلم، أو التقليد أو العناد، إلا أن الكبر أقوى عوامل الصرف عن آيات الله تعالى لقوله عز وجل في مطلع الآية الأولى (146) سأصرف 1 عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق {ومن صرفه الله حسب سنته في صرف العباد لا يقبل ولا يرجع أبداً}، وقوله {وإن يروا سبيل الرشد 2 لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً} هذا بيان لعامل من عوامل الصرف عن آيات الله. وهو أن يعرض على العبد سبيل الرشد فيرفضه، ويرى سبيل الغي

فيتبعه ويتخذه سبيلاً،

1 قال قتادة: سأمنعهم فهم كتابي وقال سفيان: سأصرفهم عن الإيمان بها وذلك مجازاة لهم على تكبرهم. وما ذكرناه في التفسير لا يتنافى مع هذا.

2 الرشد: ضد السفه والخيبة وقرىء بالضم وقرىء بفتح الراء والشين الرشد، وقرىء يُروا بضم الياء.

(2/237)

وقوله تعالى {ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا} التي جاءت بها رسلنا {وكانوا عنها غافلين} غير مبالين بها ولا ملتفتين 1 إليها هذا هو التعليل الصحيح الذي نبهنا إليه فليتأمل، وقوله تعالى في الآية الثانية (147) {والذين كذبوا بآياتنا 2 ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم} تقرير المراد به تأكيد سران أولئك المصروفين عن آيات الله تعالى، إذ أعمالهم لم تقم على أساس العدل والحق بل قامت على أساس الظلم والباطل فلذا هي باطلة من جهة فلا تكسبهم خيراً، ومن جهة أخرى فهي أعمال سوء سوف يجزون بها سوءاً في دار الجزاء وهو عذاب الجحيم، ولذا قال تعالى {هل يجزون إلا ما كانوا يعملون} أي ما يجزون إلا ما كانوا يعملون من سوء، وعدالة الله تعالى أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله تعالى في صرف العباد عن آيات الله حتى يهلكوا كما هلك فرعون وآله.

2- من أقوى عوامل الصرف عن آيات الله الكبر.

3- التكذيب بآيات الله والغفلة عنها هما سبب كل ضلال وشر وظلم وفساد.

4- بطلان كل عمل لم يسلك فيه صاحبه سبيل الرشد التي هي سبيل الله التي تحدد الآيات القرآنية وتبين معالمها، وترفع أعلامها.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا

1 مع ما تحمله من الوعد والوعيد، وبيان الهدى والضلال، والخير والشر والباطل فغفلتهم

الناشئة عن مرض قلوبهم بسبب الكبر والتكذيب هي التي حالت دون تذكرهم وتدبرهم.

2 الآيات في الآية السابقة عامة في المعجزات الكونية في الأنفس والأفاق، والتنزيل القرآنية، وفي

هذه الآية المراد بها: القرآنية بقرينة التكذيب بها ويوم القيامة.

رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)

شرح الكلمات:

من حليهم : جمع حلى 1 وهو ما تتحلى به المرأة لزوجها من أساور ونحوها من ذهب.

عجلاً جسداً: العجل ولد البقرة والجسد أي ذاتا لا مجرد صورة على ورق أو جدار.

له خوار : الخوار صوت البقر كالرغاء 2 صوت الإبل.

ولما سقط في أيديهم : أي ندموا على عبادته لأنها عبادة باطلة.

معنى الآيات:

هذا عود إلى قصص موسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل، فقد كان السياق مع موسى في جبل الطور وطلبه الرؤية وتوبته من ذلك ثم اعترض السياق ببيان القاعدة العظيمة في تعليل هلاك العباد وبيان سببه وهو التكذيب بآيات الله المنزلة والغفلة عنها، ثم عاد السياق لقصص موسى مع بني إسرائيل فقال تعالى {واتخذ قوم موسى من بعده} أي من بعد غيبته في جبل الطور لمناجاة ربه وليأتي بالكتاب الحاوي للشريعة التي سيسوسهم بها موسى ويحكمهم بموجبها ومقتضى قوانينها اتخذوا {من حليهم} أي حلي نسائهم {عجلاً جسداً له خوار 3} وذلك أن السامري 4 طلب من نسائهم حليهم بحجة واهية: أن هذا الحلي مستعار من نساء الأقباط ولا يحل تملكه فاحتال عليهم وكان صائغاً فصهره وأخرج لهم منه {عجلاً 5 جسداً} أي ذاتاً {له خوار} أي صوت كصوت البقر، وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه ولم يقل وإله هارون لأن هارون كان معهم خليفة

1 الحلي: يجمع على حُلِيٍّ وحِلِيٍّ كثندي يجمع على ثُدِيٍّ بضم الياء وثُدِيٍّ بكسرها.

2 والثغاء. صوت الشاة، والمواء: صوت القط، والعراء: صوت الذئب، واليعار: صوت المعز.

3 الخوار: صوت العجل، والجوار: مثله، وفعل الخوار خار يخور خواراً، وفعل الجوار جار يجار

جواراً، وأما خور يخور خوراً فمعناه: جبن وضعف.

4 نسبة إلى قرية نسمى: سامرة، واسمه: موسى بن ظفر، ولد عام قتل الأبناء كموسى عليه السلام.

5 العجل ولد البقرة كالحوار: ولد الناقة والمهر: ولد الفرس، والجحش: ولد الأتان والحمل: ولد الشاة،

والجسد: الجثة.

فخاف أن يكذبه هارون فلم ينسبه إليه، وقوله تعالى {ألم يروا أنه لا يكلمهم} ولا يهديهم سبيلاً {
توبيخ لهم وتقريع على غباوتهم وجهلهم، وإلا كيف يعتقدون إلهاً وهو لا يتكلم فيكلمهم ولا يُعقل
فيهديهم سبيل الرشدة إن ضلوا وقد ضلوا بالفعل ثم قال تعالى {اتخذوه} أي إلهاً {وكانوا ظالمين} في
ذلك، لأن الله رب موسى وهارون والعالمين لم يكن عاجلاً ولا مخلوقاً كائناً من كان فما أجهل القوم
وما أسوأ فهمهم وحالهم. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (148) وأما الآية الثانية (149) فقد أخبر
تعالى عن حالهم بعد انكشاف الأمر لهم، وبيان خطئهم فقال تعالى {ولما سقط2 في أيديهم} أي
ندموا ندماً شديداً ورأوا أنهم بشركهم هذا قد ضلوا الطريق الحق والرشدة، صاحوا معلنين توبتهم {لئن
لم يرحمنا ربنا ويغفر3 لنا} أي هذا الذنب العظيم {لنكونن من الخاسرين} في الدار الآخرة فنكون من
أصحاب الجحيم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

1- بيان سنة من سنن الكون وهي أن المرء يتأثر بما يرى ويسمع، والرؤية أكثر تأثيراً في النفس من
السمع فإن بني إسرائيل رؤيتهم للأبقار الآلهة التي مروا بأهل قرية يعكفون عليها وطلبوا من موسى
أن يجعل لهم إلهاً مثلها هو الذي جعلهم يقبلون عجل السامري الذي صنعه لهم، ومن هذا كان
منظر الأشياء في التلفاز وشاشات الفيديو مؤثراً جداً وكم أفسد من عقول ولوث من نفوس، وأفسد
من أخلاق.

2- تقبيح الغباء والجمود في الفكر، وذلك لقول الله تعالى {ألم يروا أنه لا يكلمهم}.

3- إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه التوبة بعد المعصية فندم واستغفر.

1 إذ الربّ وهو المربي والمصلح والمعبود المشرّع للعبادات يجب أن يكون متكلماً يهديهم سبل
كمالهم وسعادتهم.

2 سُقط بضم السين، وأسقط بضم الهمزة بالبناء للمفعول، يقال للنادم المتحير: سقط في يده وأسقط
في يده، وقرىء: سقط بالبناء للفاعل، أي: سقط الندم في يده، والندم يكون في القلب، وإنما ذكروا
اليد هنا تشبيهاً بمن سقط شيء في يده وهو مثل: عض يده من الندم.

3 أي: عادوا إلى الحق فتضرعوا إلى الله تعالى ودعوه معترفين بخطئهم مستغفرين ربهم رجاء أن
ينجيهم من الخسران.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى
الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ
الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سِبْغًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ (153) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ (154)

شرح الكلمات:

ولما رجع موسى : أي من جبل الطور بعد مرور أكثر من أربعين يوماً.

أسفًا : أي حزينا شديدا الحزن والغضب.

أعجلتم أمر ربكم : أي استعجلتم.

برأس أخيه : أي هارون شقيقه.

قال ابن أم : أصلها يا ابن أُمِّي فقلبت الياء ألفاً نحو يا غلاماً، ثم حذف هارون شقيق موسى وإنما ناداه بأمه لأنه أكثر عطفاً وحناناً.

(2/241)

فلا تشمت بي الأعداء : أي لا تجعل الأعداء يفرحون بإهانتك أو ضربك لي.
اتخذوا العجل : أي إليها عبده.

المفترين : الكاذبين على الله تعالى بالشرك به أي يجعل شريك له.

ولما سكت عن موسى الغضب: زال غضبه وسكنت نفسه من القلق والاضطراب.

أخذ الألواح : أي من الأرض بعد أن طرحها فتكسرت.

وفي نسختها : أي وفي ما نسخه منها بعد تكسرها نسخة فيها هدى ورحمة.

يرهبون : يخافون ربهم ويخشون عقابه فلا يعصونه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث قصص موسى مع بني إسرائيل ففي هذا السياق الكريم يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاته وقد أخبره ربه تعالى أنه قد فتن قومه من بعده وأن السامري قد أضلهم فلذا رجع {غضبنا أسفًا} أي شديد الغضب² والحزن، وما إن واجههم حتى قال {بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم؟} أي استعجلتم فلم تنتموا ميعاد ربكم أربعين يوماً فقلتم مات موسى وبدلتم دينه فعبدتم العجل {وألقي الألواح} أي طرحها فتكسرت {وأخذ بلحية} هارون

ورأسه يؤنبه على تفريطه في مهام الخلافة فاعتذر هارون فقال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي،
إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي هذا وارد في سورة طه وأما السياق هنا
فقد قال ليا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني³ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع
القوم الظالمين} وهم الذين ظلموا بعبادة العجل، ومعنى {لا تشمت بي

- 1 غضبان شديد الغضب ومؤنثه غضبي غير مصروف لزيادة الألف والنون، وأسفاً: معناه شديد
الغضب قال أبو الدرداء، الأسف منزلة وراء الغضب أشد منه والأسيف: الحزين.
- 2 الغضب من طباع البشر وقد أرشد الرسول صلى الله عليه وسلم من غضب وهو قائم أن يجلس
فإن ذهب عنه الغضب وإلا اضطجع فقد روى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال: "وإن الغضب
من الشيطان، وإن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ".
- 3 في الآية دليل على أن من خاف على نفسه القتل أن يسكت عن المنكر ولا يغيره بيده ولا بلسانه
ولكن بقلبه.

(2/242)

{الأعداء} لا تؤذني بضرب ولا بغيره إذ ذاك يفرح أعداؤنا من هؤلاء الجهلة الظالمين، وهنا رق له
موسى وعطف عليه فقال لرب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين} توسل إلى
الله تعالى في قبول دعائه بقوله {وأنت أرحم الراحمين} هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (150) والثانية
(151) أما الآية الثالثة فقد أخبر تعالى بأن الذين اتخذوا العجل أي إلهاً سينا لهم غضب من ربه
وذلة في الحياة الدنيا} وكما جزاهم بالغضب المستوجب للعذاب والذلة المستلزمة للإهانة يجزي تعالى
المفترين عليه الكاذبين باتخاذ الشريك له وهو بريء من الشركاء والمشركين، هذا ما دلت عليه الآية
الثالثة (151) أما الآية الرابعة فقد تضمنت فتح باب الله تعالى لمن أراد أن يتوب إليه إذ قال تعالى
{والذين عملوا السيئات} جمع سيئة وهي هنا سيئة الشرك {ثم تابوا من بعدها} أي تركوا عبادة غير
الله تعالى وآمنوا إيماناً صادقاً فإن الله تعالى يقبل توبتهم ويغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم فيدخلهم جنته
مع الصالحين من عباده، هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (153) أما الآية الخامسة (154) فقد
تضمنت الأخبار عن موسى عليه السلام

وانه لما سكت عنه الغضب أي ذهب أخذ الألواح التي ألقاها من شدة الغضب وأخبر تعالى أن في
نسخة¹ تلك الألواح {هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون} وهم المؤمنون المتقون وخصوصاً بالذكر
لأنهم الذين يجدون الهدى والرحمة في نسخة الألواح، لأنهم يقرأون ويفهمون ويعلمون وذلك لإيمانهم
وتقواهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- الغضب من طباع البشر فلا يلام عليه المرء ومهما بلغ من الكمال كالأنبياء، ولكن أهل الكمال لا يخرج بهم الغضب إلى حد أن يقولوا أو يعملوا ما ليس بخير وصلاح.
- 2- مشروعية الاعتذار وقبول العذر من أهل المروءات.
- 3- مشروعية التوسل بأسماء الله وصفاته.

1 النسخة: بمعنى المنوسخ، والنسخ: النقل للمكتوب في لوح أو غيره، ويسمى المنوسخ نسخة.

(2/243)

- 4- كل وعيد لله تعالى توعده به عبداً من عباده مقيد بعدم توبة المتوعد.
 - 5- كل رحمة وهدى ونور في كتاب الله لا ينتفع به إلا أهل الإيمان والتقوى.
- وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَكُنْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهُمَا لِلَّذِينَ يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

شرح الكلمات:

واختار موسى قومه سبعين رجلاً : أي أخذ خيار قومه وهم سبعون رجلاً.

(2/244)

لميقاتنا: أي للوقت الذي حددناه له ليأتينا مع سبعين رجلاً.
أخذتهم الرجفة: الصاعقة التي رجفت لها القلوب.
السفهاء : جمع سفيه: وهو الذي لا رشد له في سائر تصرفاته.

إن هي إلا ففتنتك : أي ما هي إلا ففتنتك أي اختبارك لأهل الطاعة من عبادك.

أنت ولينا: أي المتولي أمرنا وليس لنا من ولي سواك.

هدنا إليك: أي رجعنا إليك وتبنا.

الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب.

المعروف، والمنكر: ما عرفه الشرع والمنكر: ما أنكره الشرع.

ويحرم عليهم الخبائث: أي بإذن الله والخبائث جمع خبيثة: كالميتة مثلاً.

ويضع عنهم إصرهم والأغلال : الإصر: العهد والأغلال: الشدائد في الدين.

عزروه : أي وقروه وعظموه.

واتبعوا النور الذي أنزل معه : القرآن الكريم.

هم المفلحون : الفائزون أي الناجون من النار الداخلون الجنة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث موسى مع بني إسرائيل فإنه بعد الحدث الجلل الذي حصل في غيبة

موسى وذلك هو عبادة جل بني إسرائيل العجل واتخاذهم له إلهاً فإن الله تعالى وقت لموسى وقتاً

يأتيه فيه مع خيار بني إسرائيل يطلب لهم التوبة من الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى {واختار 1 موسى قومه سبعين رجلاً} ولما انتهى بهم إلى جبل الطور وغشيت الجبل

غمامة وأخذ موسى يناجي ربه تعالى وهم يسمعون قالوا لموسى لن نؤمن لك بأن

1 اختار مزيد من خار: إذا طلب ما هو خير من غيره، وقومه منصوب على نزع الخافض إذ

الأصل من قومه، ومنه قول الشاعر:

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم ... واختل من كان يُرجى عنده السؤل

السؤل بمعنى السؤل أي الطلب

(2/245)

الذي كان يكلمك الرب تعالى حتى نرى الله جهرة أي عياناً وهنا غضب الله تعالى عليهم فأخذتهم

صيحة رجفت لها قلوبهم والأرض من تحتهم فماتوا كلهم، وهو معنى قوله تعالى {فأخذتهم الرجفة}

وهنا أسف موسى عليه السلام لموت السبعين رجلاً وقد اختارهم الخير فالخير فإذا بهم يموتون

أجمعون فخاطب ربه قائلاً {رب لو شئت أهلكتهم من قبل} أي من قبل مجيئنا إليك {وإياي} وذلك

في منزل بني إسرائيل حيث عبدوا العجل {أتهلكنا بما فعل السفهاء منا} أي بسبب فعل السفهاء

الذين لا رشد لهم، وهم من عبدوا العجل كمن سألوا رؤية الله تعالى، وقوله عليه السلام {إن هي إلا

فتنتك} أي إلا اختبارك وبليتك {تضل بها من نشاء وتهدي من نشاء، أنت ولينا} فليس لنا سواك {فاغفر لنا} أي ذنوبنا {وارحمنا} برفع العذاب عنا {وأنت خير الغافرين} {واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة} بأن توفقنا لعمل الصالحات وتتقبلها منا، {وفي الآخرة} تغفر ذنوبنا وتدخلنا جنتك مع سائر عبادك الصالحين، وقوله {إنا هدنا إليك} أي إنا قد تبنا إليك فأجابه الرب تعالى بقوله {عذابي أصيب به من أشاء} أي من عبادي وهم الذين يفسقون عن أمري ويخرجون عن طاعتي {ورحمتي وسعت 2 كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} وبهذا القيد الوصفي، وبما بعده خرج إبليس واليهود وسائر أهل الملل ودخلت أمة الإسلام وحدها إلا من آمن من أهل الكتاب واستقام على دين الله وهو الإسلام. وقوله {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي} هو محمد صلى الله عليه وسلم {الذي يجدونه 3 مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل} وذلك بذكر صفاته والثناء عليه وعلى أمته، وقوله {يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات} أي التي كانت قد حرمت عليهم بظلمهم {ويحرم عليهم الخبائث} الخمر ولحم الخنزير والربا وسائر المحرمات في الإسلام، وقوله {ويضع عنهم إصرهم} أي ويحط عنهم تبعة العهد الذي أخذ عليهم بالعمل فيما في التوراة والإنجيل بأن يعملوا بكل ما جاء في

1 الاستفهام هنا للتحجج والجحد إي إنك لا تفعل ذلك، وهو كما قال الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

2 أي لم تضق عن مخلوق من المخلوقات التي أراد الله رحمتها. يحكى أن إبليس عليه لعائن الله لما سمع هذه الآية قال: أنا شيء فقال الله تعالى: سأكتبها للذين يتقون فقالت اليهود والنصارى نحن: متقون فقال تعالى: الذين يتبعون الرسول النبي صلى الله عليه وسلم فخرجوا وبقيت لهذه الأمة وحدها.

3 قال كعب في ذكر صفاته صلى الله عليه وسلم في التوراة: مولده مكة وهجرته بطابة وملكه بالشام، وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال.. إلى أن قال: يصلون حيثما أدركتهم الصلاة، صفهم في الصلاة كصفهم في القتال.

(2/246)

التوراة والإنجيل، وقوله {والأغلال 1 التي كانت عليهم} أي الشدائد المفروض عليهم القيام بها وذلك كقتل النفس بالنفس إذ لا عفو ولا دية وكقطع الثوب للنجاسة تصيبه وغير ذلك من التكاليف الشاقة كل هذا يوضع عليهم إذا أسلموا بدخولهم في الإسلام وقوله تعالى {فالذين آمنوا به} أي بمحمد صلى الله عليه وسلم {وعزروه 2} أي وقروه وعظموه {ونصروه} على أعدائه من المشركين والكافرين

والمناققين {واتبعوا النور الذي أنزل معه} وهو القرآن الكريم {أولئك هم المفلحون} أي وحدهم دون سواهم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب التوبة من كل ذنب، ومشروعية صلاة ركعتين وسؤال الله تعالى عقيبها أن يقبل توبة التائب ويغفر ذنبه.
- 2- كل سلوك ينافي الشرع فهو من السفه المذموم، وصاحبه قد يوصف بأنه سقيه.
- 3- الهداية والإضلال كلاهما بيد الله تعالى فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله تعالى ويسأله أن لا يضلّه.
- 4- رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا تتال اليهود ولا النصرارى ولا غيرهم.
- 5- بيان شرف النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمته.
- 6- بيان فضل تركية النفس بعمل الصالحات وإبعادها عن المدسيات من الذنوب.
- 7- بيان فضل التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- 8- وجوب توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ونصرته وإتباع الكتاب الذي جاء به والسنن التي سنّها لأمته.

1 تقدّم لفظ الإصر وهو دال على جمع لأته مصدر يقع على الواحد والجمع ولذا عطف عليه الأغلال، وجمع الإصر: آصار، ومعناه الثقل الذي يصعب معه التحرك والأغلال جمع غلّ، وهو إطار من حديد يجعل في عنق الأسير، والمراد من الآصار والأغلال التكاليف الشرعية الشاقة التي اشتملت عليها التوراة منها: ترك العمل يوم السبت قيل: ومن أشدّها عدم مشروعية التوبة من الذنوب، وعدم استنابة المجرم.

2 عزّروه: أيّدوه مع توقيره وتعظيمه.

(2/247)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَقَطَعْنَا لَهُمْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)

(2/248)

شرح الكلمات:

لا إله إلا هو : أي لا معبود بحق إلا الله.

النبي الأمي: المنبئ عن الله والمنبأ من قبل الله تعالى، والأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب. نسبة إلى
الأم لأنه ما زال لم يفارق أمه فلم يتعلم بعد.

يؤمن بالله وكلماته : الذي يؤمن بالله رباً وإلهاً، وبكلماته التشريعية والكونية القدرية.

تهتدون: ترشدون إلى طريق كمالكم وسعادتكم في الحياتين.

أمة يهدون بالحق: أي جماعة يهدون أنفسهم وغيرهم بالدين الحق وبه يعدلون في قضائهم وحكمهم
على أنفسهم وعلى غيرهم إنصافاً وعدلاً لا جور ولا ظلم.

أسباطاً : جمع سبط: وهو بمعنى القبيلة عند العرب.

استسقاء قومه : أي طلبوا منه الماء لعطشهم.

فانفجرت: فانفجرت.

المن والسلوى: المن: حلوى كالعسل تنزل على أوراق الأشجار، والسلوى: طائر لذيذ لحمه.

اسكنوا هذه القرية : هي حاضرة فلسطين.

وقولوا حطة": أي احطط عنا خطايانا بمعنى الإعلان عن توبتهم.

رجزاً من السماء : أي عذاباً من عند الله تعالى.

معنى الآيات:

بعد الإشادة بالنبي الأمي وبأمرته، وقصر الفلاح في الدارين على الذين آمنوا به وعزروه ونصروه
وانتبعوا النور الذي أنزل معه قد يظن ظان أن هذا النبي شأنه شأن سائر الأنبياء قبله هو نبي قومه
خاصة وما ذكر من الكمال لا يتعدى قومه فرفع هذا الوهم بهذه الآية (158) حيث أمر الله تعالى
رسوله أن يعلن عن عموم رسالته بما لا مجال للشك فيه فقال

(2/249)

{قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً} وقوله {الذي له ملك السموات والأرض} وصف الله تعالى وقوله {لا إله إلا هو} تقرير لألوهية الله تعالى بعد ذكر قدرته وسلطانه وملكه وتدبيره لذا وجب أن لا يكون معبود إلا هو وهو كذلك إذ كل معبود غيره هو معبود عن جهل وعناد وظلم. وقوله {فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي} أمر الإله الحق إلى الناس كافة بالإيمان به تعالى رباً وإلهاً، ورسوله النبي الأمي نبياً ورسولاً، وقوله {الذي يؤمن بالله وكلماته} صفة للنبي الأمي إذ من صفات النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم أنه يؤمن بالله حق الإيمان وأوفاه ويؤمن بكلماته أي بكلمات الرب التشريعية¹ وهي آيات القرآن الكريم، والكونية التي يُكوّن الله بها ما شاء من الأكوان إذ بها يقول للشيء كن فيكون كما قال لعيسى بتلك الكلمة كن فكان عيسى عليه السلام وقوله {واتبعوه لعلمكم تهتدون} هذا أمر الله إلى الناس كافة بعد الأمر بالإيمان به ورسوله النبي الأمي أمر بإتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم رجاء هداية² من يتبعه فيما جاء به فيهدى إلى سبيل الفوز في الدارين هذا ما تضمنته الآية الأولى (158) أما الآية الثانية (159) فقد تضمنت الإخبار الإلهي بأن قوم موسى وإن ضلوا أو أجزموا وفسقوا ليس معنى ذلك أنه لم يكن فيهم أو بينهم من هم على هدى الله فهذه الآية كانت كالاختلاس من مثل هذا الفهم، إذ أخبر تعالى أن {من قوم موسى أمة} أي جماعة تكثر أو تقل {يهدون بالحق³} أي يعملون بالحق في عقائدهم وعباداتهم ويدعون إلى ذلك وبالحق يعدلون فيما بينهم وبين غيرهم فهم يعيشون على الإنصاف والعدل، ولم يذكر تعالى أين هم ولا متى كانوا هم؟ فلا يبحث ذلك، إذ لا فائدة فيه، ثم عاد السياق إلى قوم موسى يذكر أحداثهم للعتة والاعتبار وتقرير الحق في توحيد الله تعالى وإثبات نبوة رسوله وتقرير عقيدة البعث والجزاء أو اليوم الآخر.

فقال تعالى في الآية الثالثة (160) {وقطعناهم⁴} أي بني إسرائيل {اثنتي عشرة أسباطاً

1 وبكلماته التنزيلية كالتوراة والإنجيل والزيور.

2 هذا الرجاء بالنسبة إلى المأمورين بالإتباع لا إلى الله تعالى، لأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير.

3 يهدون إلى الله تعالى عباده بواسطة ما شرع لهم وهداهم به من الوحي الذي أنزل على رسله وأنزل به كتبه.

4 التقطيع: الشدة في القطع والمراد به التقسيم إلى اثنتي عشرة فرقة كل فرقة بمنزلة القبيلة العربية حيث تنتسب إلى أبيها الأعلى أي الأول.

أمماً{1 أصل السبط ابن البنت وأريد به هنا أولاد كل سبط من أولاد يعقوب عليه السلام. فالأسباط في بني إسرائيل كالقبايل في العرب كل قبيلة تنتسب إلى أبيها الأول، وأتت لفظ اثنتي عشرة لأن معنى الأسباط الفرق والفرقة مؤنثة، وقوله: { وأوحينا إلى موسى إذا استسقاها قومه} أعلمناه بطريق الوحي وهو الإعلام الخفي السريع، ومعنى {استسقاها} طلبوا منه السقيا لأنهم عطشوا لقلّة الماء في صحراء سينا. {أن اضرب بعصاك الحجر} هذا الموحى به، فضرب {فانبجست}2 أي انفجرت {منه اثنتا عشرة عيناً} ليثرب كل سبط من عينه الخاصة حتى لا يقع اصطدام أو تدافع فينجم عنه الأذى وقوله تعالى {قد علم كل أناس مشربهم} يريد عرف كل جماعة ماءهم الخاص بهم وقوله تعالى {وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى} هذا ذكر لإنعامه تعالى على بني إسرائيل وهم في معية موسى وهارون في حادثة التيه، حيث أرسل تعالى الغمام وهو سحب أبيض بارد يظلمهم من الشمس حتى لا تلتفحهم، وأنزل عليهم المن3 وهي حلوى كالعسل سقط ليلاً كالطل على الأشجار، وسخر لهم طائراً لذيذ اللحم يقال له السلوى وهو طائر السمانى المعروف وقلنا لهم {كلوا من طبيبات ما رزقناكم} وقوله تعالى {وما ظلمونا} بتمردهم على أنبيائهم وعدم طاعتهم4 لربهم حتى نزل بهم ما نزل من البلاء، {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}5 هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الآية الثالثة (161) فقد تضمنت حادثة بعد أحداث التيه في صحراء سينا وذلك أن يوشع بن نون بعد أن تولى قيادة بني إسرائيل بعد وفاة موسى وهارون وانقضاء مدة التيه وكانت أربعين سنة غزا يوشع ببني إسرائيل العمالة في أرض القدس وفتح الله تعالى عليه فقال لبني إسرائيل ادخلوا باب المدينة ساجدين أي منحنين خضوعاً لله وشكراً على نعمة الفتح بعد النصر والنجاة من

1 {أمماً} بدل من {أسباطاً} وفائدته: الأخبار بأنهم باركهم الله تعالى فأصبح أهل كل سبط أمة كاملة والسبط أصله شجر يقال له السبط تعلقه الإبل.

2 أصل الفعل بجس يقال: بجسته أي: شققته فانجس مطواع بجس الشيء إذا شقق.

3 المنّ: مادة بيضاء تنزل من السماء كالطل حلوة الطعم تشبه العسل، وإذ جفت كانت الصمغ، والسلوى: طائر معروف يقال له السمانى بضم السين وفتح النون على وزن حُبَارَى.

4 ويعدم شكرهم لهذه النعم أيضاً إذا كفران النعم يسبب زوالها بعقوبة تنزل بمن لم يشكر نعم الله تعالى عليه.

5 أي ظلموا أنفسهم فعرضوها للبلاء، أمّا الله تعالى فمحال أن يبلغ العبد ظلمه أو ضرّه. روى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "إنّ الله تعالى قال: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

التيه، وقوله إثناء دخولكم الباب كلمة {حطة} الدالة على توبتكم واستغفاركم ربكم لذنوبكم فإن الله تعالى يغفر لكم خطيئاتكم، وسيزيد الله المحسنين منكم الإنعام والخير الكثير مع رضاه عنكم وإدخالكم الجنة، هذا معنى قوله تعالى {وَإِذ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ} أي مدينة فلسطين 1 {وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ} لما فيها من الخيرات {وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}. أما الآية الرابعة (162) فهي قد تضمنت الإخبار عن الذين ظلموا من بني إسرائيل الذين أمروا بدخول القرية ودخول الباب سجداً. حيث بدلوا {قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} فبدل حطة قالوا حنطة، وبدل الدخول منحنين ساجدين دخلوا يزحفون على أستاههم، فلما رأى تعالى ذلك التمرد والعصيان وعدم الشكر أنزل عليهم وباء من السماء كاد يقضي على آخرهم هذا معنى قوله تعالى {قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عموم رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لكافة الناس عريهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم 2.
- 2- هداية الإنسان فرداً أو جماعة أو أمة إلى الكمال والإسعاد متوقفة على إتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
- 3- إنصاف القرآن للأمم والجماعات فقد صرح أن في بني إسرائيل أمة قائمة على الحق، وذلك بعد فساد بني إسرائيل، وقبل مبعث النبي الخاتم أما بعد البعثة المحمدية فلم يبق أحد على الحق، إلا من آمن به واتبعه لنسخ سائر الشرائع بشريعته.
- 4 إذا أنعم الله على عبد أو أمة نعمة ثم لم يشكرها تسلب منه أحب أم كره وكائناً من كان.

1 اسم القرية: أريحا، وكلمة فلسطين عامة في القطر كله.

2 عموم الرسالة المحمدية يستوجب القيام بها ودعوة الناس إليها، والمسلمون هم المطالبون بذلك وإلا فهم آمنون بتفريطهم وتقصيرهم.

(2/252)

وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا
عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)

شرح الكلمات:

حاضرة البحر : أي على شاطئه وهي مدينة من مدن أرض القدس.

يعدون في السبت : أي يعتدون وذلك بالصيد المحرم عليهم فيه.

يوم سبتهم : أي يوم راحتهم من أعمال الدنيا وهو يوم السبت.

شرعاً : جمع شارع أي ظاهرة بارزة تعريهم بنفسها.

كذلك نبلوهم : أي نمتحنهم ونختبرهم.

بما كانوا يفسقون : أي بسبب ما أعلنوه من الفسق وهو العصيان.

م عذرة إلى ربحم : أي ننهاهم فإن انتهوا فذاك وإلا فنهينا يكون عذراً لنا عند ربنا.

فلما نسوا ما ذكروا به : أي أهملوه وتركوه فلم يمتثلوا ما أمروا به ولا ما نهوا عنه.

عن السوء : السوء هو كل ما يسيء إلى النفس من سائر الذنوب والآثام.

بعذاب بئيس : أي ذا بأس شديد.

(2/253)

فلما عتوا عما نهوا عنه : أي ترفعوا وطفخوا فلم يبالوا بالنهي.

قردة خاسئين : القردة جمع قرد معروف وخاسئين ذليلين حقيرين اخساء.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بني إسرائيل إلا أنه هنا مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ويهود المدينة

فالله تعالى يقول لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام أسألهم 1 أي اليهود {عن القرية 2 التي كانت

حاضرة البحر} أي قريبة منه على شاطئه وهي مدينة من مدن أرض القدس والشام 3، أي أسألهم عن

أهلها كيف كان عاقبة أمرهم، أنهم مسخوا قردة وخنازير جزاء فسقهم عن أمر ربهم، وفصل له

الحادث تفصيلاً للعبارة والاعتاظ فقال {إذ يعدون في السبت 4} أي يعتدون ما أذن لهم فيه إلى ما حرم

عليهم، أذن لهم أن يصيدوا ما شاءوا إلا يوم السبت فإنه يوم عبادة ليس يوم لهو وصيد وطرب، {إذ

تأتيهم حيثانهم} أي أسماكهم {يوم سبتهم شرعاً} ظاهرة على سطح الماء تعريهم بنفسها {ويوم لا

يسبتون} أي في باقي أيام الأسبوع {لا تأتيهم} إذا هم مبتلون، قال تعالى {كذلك} أي كهذا الابتلاء

والاختبار {نبلوهم بما كانوا يفسقون} أي بسبب فسقهم عن طاعة ربهم ورسوله، إذ ما من معصية إلا

بذنوب هكذا سنة الله تعالى في الناس. هذا ما تضمنته الآية الأولى (163) وهي قوله تعالى {وأسألهم

عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم 5 حيثانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم

لا يسيئون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم6 بما كانوا يفسقون}.
وأما الآية الثانية (164) فالله تعالى يقول لرسوله اذكر لهم أيضاً إذ قالت طائفة منهم أي من أهل القرية لطائفة أخرى كانت تعظ المعتدين في السبت أي تنهاهم عنه لأنه

- 1 هذا سؤال توبيخ وتقرير، إذ كانوا يتبخحون بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم من سبط خليل الرحمن إبراهيم، ومن سبط إسرائيل، فالسؤال عن القرية السؤال عن أهلها.
- 2 هذه القرية هي أيلة، والمسماة اليوم بالعقبة وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر.
- 3 وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر.
- 4 السبت: اليوم الذي بين الجمعة والأحد، ويجمع السبت على أسبت وسبوت وأسبات.
- 5 قيل للحسين بن الفضل: هل تجد في كتاب الله تعالى أن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً إن الحرام يأتيك جزفاً جزفاً يعني: بكثرة كاثرة قال: نعم في قصة داود وأيلة {إذ تأتيهم حينانهم} الآية.
- 6 {نبلوهم}: أي بالتشديد عليهم فيما يشرع لهم عقوبة لهم.

(2/254)

معصية وتحذرهم من مغبة الاعتداء على شرع الله تعالى قالت {لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً} وهذا القول من هذه الطائفة دال على بأسهم من رجوع إخوانهم عن فسقهم وباطلهم، فأجابتهم الطائفة الواعظة {معذرة} إلى ربحم ولعلمهم يتقون} أي وعظنا لهم هو معذرة لنا عند الله تعالى من جهة ومن جهة أخرى {لعلمهم يتقون} فيتوبوا ويتركوا هذا الاعتداء، قال تعالى {فلما نسوا ما ذكروا به} وخوفوا منه وهو تحريم الله تعالى عليهم الصيد يوم السبت، ومعنى نسوا تركوا ولم يلتفتوا إلى وعظ إخوانهم لهم وواصلوا اعتداءهم وفسقهم، قال تعالى {أنجينا الذين ينهون عن السوء} وهم الواعظون لهم من ملأوا وينسوا فتركوا وعظهم، وممن واصلوا نهيمهم ووعظهم {وأخذنا الذين ظلموا} بعباب بئيس} أي شديد البأس {بما كانوا يفسقون} عن طاعة الله ربحم، إذ قال تعالى لهم {كونوا قردة خاسئين} فكانوا قردة خاسئين ذليلين صاغرين حقيرين، ثم لم يلبثوا (مسخاً) 4 إلا ثلاثة أيام وماتوا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير الوحي والنبوة لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إذ مثل هذا القصص الذي يذكر لبني إسرائيل لن يتم إلا عن طريق الوحي، وإلا فكيف علمه وذكر به اليهود أصحابه وأهله، وقد مضى عليه زمن طويل.

- 2- إذا أنعم الله على أمة نعمة ثم أعرضت عن شكرها تعرضت للبلاء أولاً ثم العذاب ثانياً.
- 3- جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد نجى الله تعالى الناهيين عن المنكر وأهلك الذين باشره ولم ينتهوا منه دون غيرهم.

1 المعذرة: مصدر ميمي فعله اعتذر على غير قياس، والعدر: السبب الذي تبطل به المؤاخذة بسبب ذنب أو تقصير.

2 اختلف في هل الفرقة القائلة: لم تعظونا قوماً.. الخ نجت من العذاب أولاً؟ وقد روي أن ابن عباس كان يرى أنها لم ننج حتى أقنعه تلميذه عكرمة فقال بنجاتها مع الفرقة الناهية، لأن ترك النهي من الفرقة التي لم تنه كان لياسهم من استجابة الظالمين.

3 يقال: خسأته فحسا أي، باعدته وطردته، وفي هذا دليل على أن المعاصي سبب النقم كما أن الطاعات سبب النعم.

4 أي لم يلبثوا ممسوخين حتى هلكوا والعياذ بالله.

(2/255)

4 - إطلاق لفظ سوء على المعصية مؤذن بأن المعصية مهما كانت صغيرة تحدث سوء في نفس فاعلمها.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ نُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَقْلًا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

شرح الكلمات :

تأذن 1 : أعلم وأعلن.

ليبعثن : أي ليسلطن.

من يسومهم سوء العذاب : أي يذيقهم ويوليهم سوء العذاب كالذلة والمسكنة.

وقطعناهم : أي فرقناهم جماعات جماعات.

بلوناهم بالحسنات والسيئات : اخترناهم بالخير والشر أو النعم والنقم.

1 آذن وأذن بمعنى واحد، وهو أعلم ومنه قول الشاعر:

فقلت تعلم إن للصيد غرة ...

فإلاً تضيّعها فإنك قاتله

(2/256)

فخلف من بعدهم خلف : الخلف بإسكان اللام خلف سوء وبالتحريك خلف خير .

ورثوا الكتاب : أي التوراة.

عرض هذا الأدنى: أي حطام الدنيا الفاني وهو المال.

يتمسكون بالكتاب : أي يتمسكون بما في التوراة فيحطون ما أحل الله فيها ويحرمون ما حرم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في شأن اليهود فقد أمر تعالى رسوله أن يذكر إعلامه تعالى بأنه سيبعث بكل تأكيد على اليهود إلى يوم القيامة من يذلهم ويضطهدهم عقوبة منه تعالى لهم على خبث طواياهم وسوء أفعالهم، وهذا الإطلاق في هذا الوعيد الشديد يقيد بأحد أمرين الأول بتوبة من تاب منهم ويدل على هذا القيد قوله تعالى في آخر هذه الآية {إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} أي لمن تاب والثاني بجوار دولة قوية لهم وحمائيتها وهذا مفهوم قوله تعالى من سورة آل عمران {ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله} وهو الإسلام {وحبل من الناس}، وهو ما ذكرناه آنفاً. هذا ما دلت عليه الآية الأولى في هذا السياق (167) وهي قوله تعالى {واذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} وأما الآية الثانية (168) فقد تضمنت بيان فضل الله تعالى على اليهود وهو أن الله تعالى قد فرقهم في الأرض جماعات جماعات، وأن منهم الصالحين، وأن منهم دون ذلك وأنه اختبرهم بالحسنات وهي النعم، والسيئات وهي النقم تهيئة لهم وإعداداً للتوبة إن آثروا التوبة على الاستمرار في الإجرام والشر والفساد. هذا ما تضمنته الآية الثانية وهي قوله تعالى {وقطعناهم في الأرض أما منهم الصالحون} ومن دون ذلك، وبلوناهم بالحسنات

1 يسومهم سوء العذاب: يجعل أسوأ العذاب وأشدّه كالقيمة لهم إذ هو حظهم المفروض عليهم، أول من تسلط عليهم فسامهم سوء العذاب بختنصر البابلي.

2 أي شنتناهم في البلاد بعد تسلط البابليين عليهم وتمزيق ملكهم فعاشوا مشتتين فلم ينتظم ملكهم مدة طويلة وهم إذ ذاك ما بين صالح وفساد وانتظم أمرهم مرة أخرى ثم فسقوا فسلب عليهم أطيوس

الروماني فتفرقوا مرة أخرى وما زالوا مفرقين إلى هذه الأيام، باجتماعهم في فلسطين وتكوينهم دولة إسرائيل وعمّا قريب تزول.

(2/257)

والسيئات لعلمهم يرجعون} وأما الآية الثالثة (169) فقد أخبر تعالى أنه قد خلف من بعد تلك الأمة خلف سوء 1 ورثوا الكتاب الذي هو التوراة ورثوه عن أسلافهم ولم يتلزموا بما أخذ عليهم فيه من عهود على الرغم من قراءتهم له فقد آثروا الدنيا على الآخرة فاستباحوا الربا والرشا وسائر المحرمات، ويدعون أنهم سيغفر لهم، وكلما آتاهم مال حرام أخذوه ومنوا أنفسهم بالمغفرة 2 كذباً على الله تعالى قال تعالى موبخاً لهم {ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق} وقد قرأوا هذا في الكتاب وفهموه ومع هذا يجترئون على الله ويكذبون عليه بأنه سيغفر لهم، ثم يواجههم تعالى بالخطاب مذكراً لهم واعظاً فيقول {والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون؟} ويفتح الله تعالى باب الرجاء لهم في الآية الرابعة في هذا السياق فيقول {والذين يمسكون بالكتاب 3} أي يعملون بحرص وشدّة بما فيه من الأحكام والشرائع ولا يفرطون في شيء من ذلك {وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين}، ومعنى هذا أنهم مصلحون إن تمسكوا بالكتاب وأقاموا الصلاة، وإن الله تعالى سيجزيهم على إصلاحهم لأنفسهم ولغيرهم أعظم الجزاء وأوفره، لأنه تعالى لا يضيع أجر المصلحين.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان موجز لتوبيخ اليهود في هذه الآيات الأربع.
- 2- من أهل الكتاب الصالحون، ومنهم دون ذلك.
- 3- التثديد بإيثار الدنيا على الآخرة، ويتمني المغفرة مع الإصرار على الإجرام.
- 4- تفضيل الآخرة على الدنيا بالنسبة للمتقين.
- 5- الحث على التمسك بالكتاب قراءة وتعلماً وعملاً بإحلال حلاله وتحريم حرامه.

1 الخلف بسكون اللّام: الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء والخلف: لفتح اللام البَدَل ولداً كان أو غيره، وقيل الخلف بالفتح: الصالح وبالجزم: الطالح قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجر

2 روى الدارمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه الرواية التالية وهي منطبقة على واقعنا اليوم ومن قبل اليوم قال: سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت يقرأونه لا يجدون له شهوة ولا لذة يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصرّوا قالوا سنبلع

وان أساءوا قالوا: سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً.
3 مسك وتمسك بمعنى واحد.

(2/258)

6- فضل اقام الصلاة.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

شرح الكلمات:

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ : أي رفعناه من أصله فوق رؤوسهم.

واقِعٌ بهم : أي ساقط عليهم.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ : أي التزموا بالقيام بما عهد إليكم من أحكام التوراة بقوة.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ : أي لا تتسوا ما التزمت به من النهوض بأحكام التوراة .

من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ : أي أخذهم من ظهر آدم عليه السلام بأرض نعمان 1 من عرفات.

أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ : أي بالله تعالى ربهم وإلاهم ولا رب لهم غيره ولا إله لهم سواه.

المبطلون: العاملون بالشرك والمعاصي إذ كلها باطل لا حق فيه.

نَفْصَلُ الْآيَاتِ : نبينها ونوضحها بتنويع الأساليب وتكرار الحجج وضرب الأمثال وذكر القصص

1 قال ابن عباس: ببطن نعمان واد إلى جنب عرفة.

(2/259)

معنى الآيات:

الآية الأولى في هذا السياق هي خاتمة الحديث على اليهود إذ قال تعالى لرسوله {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ 1} أي اذكر لهم أيها الرسول إذ نتقنا أي رفعنا فوقهم جبل الطور من أصله وصار فوقهم كأنه ظلة {وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} أي ساقط عليهم وقلنا لهم {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ 2} والمراد مما آتاهم أحكام التوراة وما تحمل من الشرائع وأخذها العمل بها والالتزام بكل ما أمرت به ونهت عنه

وقوله تعالى ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي في الذي آتيناكم من الأوامر والنواهي، ولا تتسوه فإن ذكره من شأنه أن يعدكم للعمل به فتحصل لكم بذلك تقوى الله عز وجل، هذا ما دلت عليه الآية الأولى وهي خاتمة سياق الحديث عن اليهود.

أما الآية الثانية (172) وهي قوله تعالى ﴿واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ فإنها حادثة جديرة بالذكر والاهتمام لما فيها من الاعتبار، إن الله تعالى أخرج من صلب آدم ذريته فأنطقها بقدرته التي لا يعجزها شيء فنطقت وعقلت الخطاب واستشهدا فشهدت، وخاطبها ففهمت وأمرها فالتزمت وهذا العهد العام الذي أخذ على بني آدم، وسوف يطالبون به يوم القيامة، وهو معنى قوله تعالى ﴿وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا﴾ أي أنك ربنا ﴿أن تقولوا﴾ يوم القيامة ﴿إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾، أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟ والعبرة من هذا أن الإنسان سرعان ما ينسى، ويعاهد ولا يفي، وما وجد من بني إسرائيل من عدم الوفاء هو عائد إلى أصل الإنسان، وهناك عبرة أعظم وهي أن التوحيد أخذ به العهد على كل آدمي، ومع الأسف أكثر بني آدم ينكرونه، ويشركون بربهم وقوله تعالى ﴿وكذلك فصل الآيات لعلمهم يرجعون﴾ وكهذا التفصيل الوارد في هذه السورة وهذا

1 أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظلّ.

2 أي: بجدّ وعزم.

3 الآثار والأحاديث المثبتة لاستخراج الرب تعالى الذرية من ظهر آدم كثيرة منها في الموطأ والسنن ونكتفي برواية الشيخين الآتية: قال صلى الله عليه وسلم: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكننت مفدياً؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك".

4 ووجه نظم الآية هكذا: وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم ولم يذكر ظهر آدم عليه السلام لأنه من المعلوم أن كل بني آدم منه وأخرجوا يوم الميثاق من ظهره. وقوله: ظهورهم: بدل اشتمال من بين آدم.

5 في الآية دليل على أنه لا عذر لأحد في تقليده آباءه وأجداده وأهل بلاده في الشرك والمعاصي كما لا عذر بالجهل أيضاً.

(2/260)

السياق وهو تفصيل عجيب لفصل الآيات تذكيراً للناس وتعليماً ولعلمهم يرجعون إلى الحق بعد إعراضهم عنه، وإلى الإيمان والتوحيد بعد انصرافهم عنهما تقليداً وإتباعاً لشياطين الجن والإنس.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان نفسيات اليهود وأنها نفسية غريبة وإلا كيف وهم بين يدي الله يتمردون عليه ويعصونه برفضهم الالتزام بما عهد إليهم من أحكام حتى يرفع فوقهم الطور تهديداً لهم، وعندئذ التزموا ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى نقضوا عهدهم وعصوا ربهم.

2- عجب تدبير الله تعالى في خلقه.

3- الكافر كفر مرتين كفر بالعهد الذي أخذ عليه وهو في عالم الذر 1 وكفر بالله وهو في عالم الشهادة، والمؤمن آمن مرتين، فلذا يضاعف للأول العذاب ويضاعف للثاني الثواب.

4- تقرير مبدأ الخليفة، ومبدأ المعاد الآخر.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ

1 لقد حاول كثيرون التخلص من قضية أخذ الرب تعالى من ظهر آدم ذريته وإشهادهم على أنفسهم، ونطق الأرواح وشهادتها، ولا داعي لهذا أبداً ما دامت الأحاديث والآثار كثيرة وقدرة الله صالحة لكل شيء ولا يعجزها شيء ما هي النملة؟ وقد أنطقها الله فنطقت وأفصحت. إن الحيوان المنوي الذي منه تكون الذرية قال العلماء لو جمعت الحيوانات المنوية كلها من آدم إلى اليوم ووضعت في فنجان ما ملأته. أمع هذا يحاول إبطال الأحاديث وتأويل الآية على غير ظاهرها رجل من أهل العلم؟

(2/261)

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)

شرح الكلمات

واتل عليهم نبأ: اقرأ عليهم.

فانسلك منها: كفر بها وتركها وراء ظهره مبتعداً عنها.

فاتبعه الشيطان: لحقه وأدركه.

من العاوين: من الضالين غير المهتدين الهالكين غير الناجين.

أخلد إلى الأرض: مال إلى الدنيا وركن إليها وأصبح لا هم له إلا الدنيا.

يلهث: اللهث: التنفس الشديد مع إخراج اللسان من التعب والإعياء.

ساء: قبح.

مثلاً: أي صفة.

معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {واتل عليهم} أي اقرأ على قومك وعلى كل من يبلغه هذا الكتاب من سائر الناس {نباً الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها} أي خبر الرجل 1 الذي أعطينا آياتنا تحمل الأدلة والحجج والشرائع والأحكام والآداب فتركها وابتعد عنها فلم يتلها ولم يفكر فيها ولم يعمل بها لا استدلالاً ولا تطبيقاً {فأتبعه الشيطان} أي لحقه وأدركه وتمكن منه إبليس، لأنه بتخليه عن الآيات وجد الشيطان له طريقاً إليه {فكان من الغاوين} أي الضالين الفاسدين الهالكين {ولو شئنا لرفعناه بها} 2 أي بالآيات إلى قمم

1 ذكر أهل التفسير ثلاثة رجال قيل إنها نزلت في واحد منهم وهم: بلعم بن باعوراء الكنعاني وكان على زمن موسى، وقيل إنها نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وقيل في أبي عامر بن صيفي، وأقرب الأقوال إنها نزلت في أمية بن أبي الصلت إذ هو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "أمن شعرة وكفر قلبه" إذ شعره كان يفيض بالإيمانيات من عقيدة البعث والجزاء، والتوحيد، والعدل والرحمة ومن شعره قوله:

كل دين يوم القيامة عند الله ... إلا دين الحنيفية زور

2 أي أن تلك الآيات التي أعطاه الله إياها من شأنها أن تكون سبباً للهداية، وهذا شأن آيات الله فإنها ترفع كل من يؤمن بها ويعمل بما فيها ترفعه في الدنيا والآخرة فهي آلة الرفع الحقيقية لا المذاهب والنظريات المادية.

(2/262)

المجد والكمال، وإلى الدرجات العلا في الدار الآخرة، {ولكنه أخذ إلى الأرض} أي مال إليها وركن فأكب على الشهوات والسرف في الملذات، وأصبح لا هم له إلا تحصيل ذلك {واتبع هواه} وترك عقله ووحى ربه عنده، فصار مثله أي صفته الملائمة له {كمثل الكلب} أي في اللهث والإعياء، والتبعية وعدم الاستقلال الذاتي {إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث} فحيرته وتعبه لا ينقطعان أبداً. وقوله تعالى {ذلك مثل القوم الذي كذبوا بآياتنا} أي هذا المثل الذي ضربناه لذلك الرجل الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها وكان من أمره ما قصصنا عليك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا في كل زمان ومكان، وعليه {فاقصص} يا رسولنا {القصص لعلمهم يتفكرون} أي لعل قريشاً تتفكر فتعتبر وترجع إلى الحق فتكمل وتسعد، وقوله تعالى {ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون} أي

قبح مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فجددوا بها حتى لا يوحدوا الله تعالى ولا يسلموا إليه، لوأنفسهم كانوا يظلمون} بتدنيستها بآثار الشرك والمعاصي وقوله تعالى {من يهد الله فهو المهتدي} أي من وفقه الله تعالى للهداية 1 فأمن وأسلم واستقام على منهاج الحق فهو المهتدي بحق ومن خذله الله لشدة إعراضه عن الحق وتكبره عنه فضل بإضلال الله تعالى له فأولئك هم الخاسرون الخسران الحق المبين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- خطر شأن هذا الخبر الذي أمر تعالى رسوله أن يتلوه على الناس.
- 2- ترك القرآن الكريم بعدم تلاوته والتدبر فيه، وترك العمل به مفض بالعبد إلى أن يكون هو صاحب المثل في هذه الآية، فأولاً يتمكن منه الشيطان فيصبح من الغواة وثانياً يخلد إلى الأرض كما هو حال الكثيرين فلا يكون لأحدهم هم إلا الدنيا. ثم يتبع هواه لا عقله ولا شرع الله، فإذا به صورة لكلب يلهث لا تتقطع حيرته واتباعه لغيره كالكلب سواء بسواء وهذه حال من أعرضوا عن كتاب الله تعالى في هذه الآية فليتأملها العاقل.
- 3- لا رفعة ولا سعادة ولا كمال إلا بالعمل بالقرآن فهي الآية الرافعة لقوله تعالى {ولو شئنا

1 الهداية: هي إبانة الطريق الموصل إلى السعادة والكمال.

(2/263)

لرفعناه بها} أي بالآيات 1 التي انسلخ منها والعياذ بالله.

4- الهداية بيد الله ألا فليطلبها من أَرادها من الله بصدق القلب وإخلاص النية فإن الله تعالى لا يجرمه منها، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

شرح الكلمات:

ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ: خلقنا لجهنم أي للتعذيب بها والاستقرار فيها.

لا يفقهون بها : كلام الله ولا كلام رسوله.

لا يبصرون بها: آيات الله في الكون.

لا يسمعون بها: الحق والمعروف.
كالأنعام : البهائم في عدم الانتفاع بقلوبهم وأبصارهم وأسماعهم.
الغافلون: أي عن آيات الله، وما خُلقوا له وما يراد لهم وبهم.
ولله الأسماء الحسنى: الأسماء جمع اسم والحسنى مؤنث الأحسن، والأسماء الحسنى لله خاصة دون غيره فلا يشاركه فيها أحد من مخلوقاته.

1 لقد جرب أتباع أتاتورك العثماني العلمانية وجرب العرب القومية ثم جربوا الاشتراكية حتى قال قائلهم: اشتراكيّتنا نوالي، من يواليها ونعادي من يعاديهها، وجرب بعضهم الشيوعية فهل غنوا هل عزّوا هل كملوا هل شعبوا؟ اللهم لا، لا، لا فلم إذن لا يعملون بالقرآن.

(2/264)

وذروا : اتركوا.
يلحدون : يميلون بها إلى الباطل.
وممن خلقنا : أي من الناس.
معنى الآيات:
على إثر ذكر الهدى والضلال وإن المهتدي من هداه الله، والضال من أضله الله أخبر تعالى أنه قد خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس، علماً منه تعالى بأنهم يرفضون هدايته ويتكبرون عن عبادته، ويحاربون أنبياءه ورسله، وإن رفضهم للهداية وتكبرهم عن العبادة عطل حواسهم فلا القلب يفقه ما يقال له، ولا العين تبصر ما تراه، ولا الأذن تسمع ما تخبر به وتحدث عنه فأصبحوا كالأنعام¹ بل هم أضل لأن الأنعام ما خرجت عن الطريق الذي سيقت له وخلقنا لأجله²، وأما أولئك فقد خرجوا عن الطريق الذي امروا بسلوكه، وخلقوا له ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له لينجوا من العذاب ويسعدوا في دار النعيم، وقوله تعالى {أولئك هم الغافلون} تقرير لحقيقة وهي أن استمرارهم في الضلال كان نتيجة غفلتهم عن آيات الله الكونية فلا يتأملوها فيعرفوا أن المعبود الحق هو الله وحده ويعبدوه وعن آيات الله التنزيلية فلا يتدبروها فيعلموا أن الله هو الحق المبين فيعبده وحده بما شرع لهم في كتابه وسنة نبيه. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (179) وأما الآية الثانية في هذا السياق (180) وهي قوله تعالى {ولله الأسماء الحسنى فادعوه³ بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون} فقد أخبر تعالى فيها بأن الأسماء الحسنى له تعالى خاصة لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مائة اسم⁴ إلا اسماً أي تسعة وتسعون اسماً ووردت مفرقة في القرآن الكريم، وأمر تعالى عباده أن

- 1 قال عطاء: الأنعام تعرف الله والكافر لا يعرفه، وقيل: الأنعام مطيعة الله، والكافر غير مطيع.
- 2 أي: لا همّة لهم إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح، وهم أضل من الأنعام لأن الأنعام تبصر مضارها ومنافعها وتتبع مالکها وهم على خلاف ذلك.
- 3 روى أحمد رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزم فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همّي إلا أذهب الله حزنه وهمّه وأبدل مكانه فرحاً".
- 4 روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر".

(2/265)

يدعوه 1 بها يا الله، يا رحمن يا رحيم يا رب، يا حي يا قيوم، وذلك عند سؤالهم إياه وطلبهم منه ما لا يقدر عليه 2، كما أمرهم أن يتركوا أهل الزيغ والضلال الذين يلحدون في أسماء الله فيؤولونها، أو يعطلونها، أو يشبهونها، أمر عباده المؤمنين به أن يتركوا هؤلاء له ليجزيهم الجزاء العادل على ما كانوا يقولون ويعملون. لأن جدالهم غير نافع فيهم ولا مجد للمؤمنين ولا لهم.

هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة (181) وهي قوله تعالى {وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون} إنه لما ذكر أنه خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس ذكر هنا أنه خلق للجنة خلقاً آخر من الإنس والجن فذكر صفاتهم التي يستوجبون بها الجنة كما ذكر صفات أهل جهنم التي استوجبوا بها جهنم، فقال {وممن خلقنا} من الناس {أمة} كبيرة {يهدون} أنفسهم وغيرهم {بالحق} الذي هو هدى الله ورسوله وبالحق يعدلون في قضائهم وأحكامهم فينصفون ويعدلون ولا يجورون، ومن هذه الأمة كل صالح في أمة الإسلام يعيش على الكتاب والسنة اعتقاداً وقولاً وعملاً وحكماً وقضاءً وأدباً وخلقاً جعلنا الذي منهم وحشرنا في زمريهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تقرير مبدأ أن السعادة والشقاء سبق بها قلم القضاء والقدر فكل ميسر لما خلق له.
- 2- هبوط الأدمي إلى درك أهبط من درك الحيوان، وذلك عندما يكفر بربه ويعطل حواسه عن الانتفاع بها، ويقصر همه على الحياة الدنيا.

3- بيان أن البلاء كامن في الغفلة عن آيات الله والإعراض عنها.

4- الأمر بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى نحو يا رب يا رحمن، يا عزيز يا جبار.

1 ذكر أهل العلم كيفية الدعاء بها وهي: أن يسأل باسم الله ما يناسب حاجته فيقول مثلاً: يا رحمن ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا حكيم احكم لي، يا قوي يا قدير. قوتي واقدرني على كذا.. يا لطيف ألطف بي، يا عليم علمني وانفعني بما تعلمني وهكذا.

2 قال مقاتل وغيره في سبب نزول هذه الآية {ولله الأسماء الحسنى} الخ أن مشركاً سمع مسلماً يدعو: يا رحمن يا رحيم فقال: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً؟ فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فأنزل الله تعالى {ولله الأسماء الحسنى} الخ.

(2/266)

5- حرمة تأويل أسماء الله وصفاته وتحريفها كما قال المشركون في الله، اللات، وفي العزيز العزى سموها بها ألتهنم الباطلة، وهو الإلحاد الذي توعده الله أهله بالجزاء عليه.

6- أهل الجنة الذين خلقوا لها هم الذين يهدون بالكتاب والسنة ويقضون بهما. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (184) أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

شرح الكلمات:

كذبوا بآياتنا: أي بآيات القرآن الكريم.

سنستدرجهم2: أي نستميلهم وهم هابطون إلى هوة العذاب درجة بعد درجة حتى ينتهوا إلى العذاب، وذلك بإدراج النعم عليهم مع تماديهم في التكذيب والعصيان حتى يبلغوا الأجل المحدد لهم ثم يؤخذوا أخذة واحدة.

1 الإلحاد لغة: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه والإلحاد للميت دفنه في جانب القبر وكان من إلحاد العرب في أسماء الله تعالى أن اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله، ومناة من المنان فألحدوا في أسماء الله تعالى، ومن الإلحاد في أسماء الله تعالى ما يفعله جهال المتصوفة من وضع أسماء لله تعالى لا توجد في كتاب ولا سنة.

2 الاستدراج: هو الأخذ بالترجيح منزلة بعد منزلة، والدُّرَج: لف الشيء ومنه إدراج الميت في كفنه

أي: لفه فيه. واستدراج الله تعالى لأهل الغواية كلما جددوا لله معصية جدد لهم نعمة حتى يأخذهم بذنوبهم وهم لا يشعرون وأحسن من أنشد:
أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسُنْتَ ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ...
وعند صفر الليالي يحدث الكدر

(2/267)

وأملى لهم إن كيدي متين : أي أمهلهم فلا أعجل بعقوبتهم حتى ينتهوا إليها بأعمالهم الباطلة وهذا هو الكيد لهم وهو كيد متين شديد.
ما بصاحبهم من جنة: صاحبهم هو محمد صلى الله عليه وسلم، والجنة الجنون والمتحدث عنهم كفار قريش.
ملكوت السموات: أي ملك السموات إلا أن لفظ الملكوت أعظم من لفظة الملك.
فبأي حديث بعده: أي بعد القرآن العظيم.
ونذرهم في طغيانهم : أي نتركهم في كفرهم وظلمهم.
يعمهمون : حيارى يترددون لا يعرفون مخرجاً ولا سبيلاً للنجاة.
معنى الآيات:

يخبر تعالى أن الذين كذبوا بآياته التي أرسل بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا بها وأصروا على الشرك والضلال معرضين عن التوحيد والهدى يخبر تعالى أنه سيستدرجهم بالأخذ شيئاً فشيئاً ودرجة بعد درجة حتى يحق عليهم العذاب فينزلهم بهم فيهلكون ويخبر أنه يملئ لهم أيضاً كيداً بهم ومكرًا، أي يزيدهم في الوقت ويطول لهم زمن كفرهم وضلالهم فلا يعاجلهم بالعقوبة بل إنه يزيد في إرزاقهم وأموالهم حتى يفقدوا الاستعداد للتوبة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولذا قال {وأملئهم إن كيدي متين}2 أي قوي شديد. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (183) أما الثانية فإنه تعالى يوبخهم على إعراضهم عن التفكير والتعقل فيقول {أو لم يتفكروا} في سلوك الرسول3 صلى الله عليه وسلم وتصرفاته الرشيدة الحكيمة فيعلموا أنه ما به من جنة وجنون كما يزعمون، وإنما هو نذير لهم من عذاب يوم أليم إن هم استمروا على سلوك درب الباطل والشر من الشرك والمعاصي، ونذارته بينه لا لبس فيها ولا غموض لو كانوا يتفكرون. وفي الآية الثالثة (185) يوبخهم

1 قيل نزلت هذه الآية: {سنستدرجهم} إلى قوله: {متين} نزلت في المستهزئين من قريش وقد أخذوا بعد الإملاء لهم زمناً زاد على العشر سنين، أخذهم في بدر وألقوا في القلب ووبخهم صلى الله عليه

وسلم بما هم أهله من الخزي والهوان.

2 المتين: مأخوذ من المتن وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب أي: الظهر.

3 هو المراد بالصاحب في قوله: {ما بصاحبكم من جنّة} وهي الجنون، دعا الله تعالى قريشاً للتفكر.

(2/268)

على عدم نظرهم 1 في ملكوت السموات والأرض وفي ما خلق الله من شيء وفي أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، إذ لو نظروا في ملكوت السموات والأرض وما في ذلك من مظاهر القدرة والعلم والحكمة لعلموا أن المستحق للعبادة هو خالق هذا الملكوت، لا الأصنام والتماثيل، كما أنهم لو نظروا فيما خلق الله من شيء من النملة إلى النخلة ومن الحبة إلى القبة لأدركوا أن الله هو الحق وأن ما يدعون هو الباطل كما أنه حرى بهم أن ينظروا في ما مضى من أعمارهم فيدركوا أنه من الجائز أن يكون قد اقترب أجلهم، وقد اقترب فعلاً فليعجلوا بالتوبة حتى لا يؤخذوا وهم كفار أشرار فيهلكون ويخسرون خسراناً كاملاً. ثم قال تعالى في ختام الآية {فبأي حديث 2} بعد القرآن يؤمنون فالذي لا يؤمن بالقرآن وكله حجج وشواهد وبراهين وأدلة واضحة على وجوب توحيد الله والإيمان بكتابه ورسوله ولقائه ووعده ووعيده فبأي كلام يؤمن، اللهم لا شيء، فالقوم إذاً أضلهم الله، ومن أضله الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون حيارى يترددون لا يدرون ما يقولون، ولا أين يتجهون حتى يهلكوا كما هلك من قبلهم. وما ربك بظلام للعبيد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عظم خطر التكذيب بالقرآن الكريم حتى أن المكذب ليستدرج حتى يهلك وهو لا يعلم.
- 2- أكبر موعظة وهي أن على الإنسان أن يذكر دائماً أن أجله قد يكون قريباً وهو لا يدري فيأخذ بالحذر والحيطه حتى لا يؤخذ على غير توبة فيخسر.
- 3- من لا يتعظ بالقرآن وبما فيه من الزواجر، والعظات والعبر، لا يتعظ بغيره.
- 4- من أعرض عن كتاب الله مكذباً بما فيه من الهدى فضل، لا ترجى له هداية أبداً.

1 استدل العلماء بهذه الآية: {أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض} ونظائر هذه الآية وهي كثيرة على وجوب النظر في الآيات والاعتبار بالمخلوقات وهو كذلك، واختلف العلماء في: هل الإيمان يثبت بالتقليد أو لا بد من النظر حتى يؤمن، والصحيح: أن الإيمان يصح بالتقليد المفيد لليقين كإيمان عوام المسلمين، وأفضل منه ما كان عن نظر واستدلال وهو إيمان العالمين.

2 قوله: {قبأى حديث} الخ: الاستفهام لتوقيفهم على ما يجب أن يفكروا فيه وينظروا إليه وتوبيخهم على ترك ذلك.

(2/269)

1 يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

شرح الكلمات:

الساعة: أي الساعة بمعنى الوقت الذي تنتهي فيه الحياة الدنيا بالفناء التام.

أيان مرساها 2: أي متى وقت قيامها.

لا يجلبها لوقتها: أي لا يظهرها في وقتها المحدد لها إلا هو سبحانه وتعالى.

بغته: أي فجأة بدون توقع أو انتظار.

حفي عنها: أي ملحف مبالغ في السؤال عنها حتى أصبحت تعرف وقت مجيئها.

الغيب : الغيب ما غاب عن حواسنا وعن عقولنا فلم يدرك بحاسة ولا بعقل. والمراد به هنا ما

سيحدث في المستقبل القريب أو البعيد.

السوء: كل ما يسوء العبد في روحه أو بدنه.

إن أنا إلا نذير : أي ما أنا إلا نذير وبشير فلست بإله يدبر الأمر ويعلم الغيب.

1 السائلون النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة كثيرون بعضهم مشركون يسألون للتعجيز

وبعضهم يهود يسألون اختباراً وامتحاناً.

2 اسم يسأل به عن الزمان لا غير، قال الراجز:

أيان تقضي حاجتي أيان ...

أما ترى لنججها أرانا

(2/270)

معنى الآيات:

لا شك أن أفراداً من قريش أو من غيرهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة متى قيامها فأخبره تعالى بسؤالهم وعلمه الجواب فقال عز وجل وهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم {يسألونك عن الساعة أيان مرساها1} أي متى وقت وقوعها وقيامها؟ قل لهم {إنما علمها عند ربي} أي علم وقت قيامها عند ربي خاصة {لا يجليها لوقتها} أي لا يظهرها لأول وقتها إلا هو {تقلت في السموات والأرض} أي ثقل أمر علمها عند أهل السموات والأرض {لا تأتاكم إلا بغتة} أي فجأة، ثم قال له يسألونك هؤلاء الجهال عن الساعة {كأنك حفي عنها} أي كأنك ملحف في السؤال مبالغ في طلب معرفتها حتى عرفتها، قل لهم {إنما علمها2 عند الله} خاصة، {ولكن أكثر الناس لا يعلمون}، ولذا هم يسألونه، إذ إخفاؤه لحكم عالية لو عرفها الناس ما سألوا ولن يسألوا ولكن الجهل هو الذي ورطهم في مثل هذه الأسئلة وهذا ما دلت عليه الآية الأولى (187) أما الآية الثانية (188) فقد أمر تعالى رسوله أن يقول لأولئك السائلين عن الساعة متى وقت مجيئها {لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً} خيراً ولا شراً {إلا ما شاء الله} شيئاً من ذلك فإنه يُعيني على جلبه أو على دفعه فكيف إذا أعلم وقت مجيء الساعة حتى تسألوني عنها {ولو كنت أعلم الغيب3} كما تظنون لاستكثرت من الخيرات وما مسني سوء. وذلك أنني إذا عرفت متى الخصب ومتى الجذب، ومتى الغلاء ومتى الرخاء يمكنني بسهولة أن استكثر من الخير عند وجوده، وأتوقى الشر وأدفعه قبل حصوله، يا قوم إنما أنا نذير بعواقب الشرك والمعاصي بشير بنتائج الإيمان والتوحيد والعمل الصالح فلست بإله أعلم الغيب، ووظيفتي هذه صراحة هي البشارة والندارة ينتفع بها المؤمنون خاصة وهو معنى قوله تعالى {إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون}.

1 {أيان مرساها}: مرساها مبتدأ، والخبر أيان، وقدّم لأنه اسم استفهام له الصدارة ومعنى مرساها: مثبتها، من قولهم أرسى كذا إذا أثبته، أي: متى وقوعها.

2 أي علم الساعة إذ إخفاء علم الساعة كان لحكم عالية لو عرفها السائلون عن الساعة ما سألوا ولكنهم لجهلهم يسألون.

3 الغيب: قسمان، حقيقي: وهو ما استأثر الله تعالى به ومن علمه تعالى منه شيئاً علمه. وإضافي: يعلمه بعض ويخفي عن بعض، ومن ادعى علم الغيب فقد كذب الله ونازعه فيما استأثر به فهو بذلك كافر.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مرد علم الساعة إلى الله وحده فكل مسؤول عنها غير الله ليس أعلم من السائل 1.
 - 2- للساعة أشرط بعضها في الكتاب وبعضها في السنة وليس معنى ذلك أنه تحديد لوقتها وإنما هي مقدمات تدل على قربها فقط.
 - 3- استأثر الله بعلم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله، ومن علمه الله شيئاً منه علم كما علم نبيه صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات، والمعلم بالشيء لا يقال فيه يعلم الغيب وإنما يقال علمه ربه غيب كذا وكذا فعلمه:
 - 4- إذا كان الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً فكيف يطلب منه ذلك وإذ كان الرسول لا يملك فهل من دونه من العباد يملك؟ إذا عرفت هذا ظهر لك ضلال أقوام يدعون الموتى سائلين ضارعين عند قبورهم ويقولون أنهم لا يدعونهم ولكن يتوسلون بهم فقط.
- هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) وَلَا يَسْتَضِيْعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَنْبَغُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193)

1 لحديث مسلم: فقد سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان فبين له ذلك فصدقه جبريل وسأله عن الساعة فقال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

(2/272)

شرح الكلمات:

- من نفس واحدة: هي نفس آدم عليه السلام.
- وجعل منها زوجها: أي خلق منها زوجها وهي حواء خلقها من ضلع آدم الأيسر.
- ليسكن إليها: أي ليألفها ويأنس بها لكونها من جنسه.
- فلما تغشاها: أي وطئها.
- فمرت به: أي ذاهبة جائية تقضى حوائجها لحفت الحمل في الأشهر الأولى.
- فلما أثقلت 1: أي أصبح الحمل ثقيلاً في بطنها.
- لئن أتيتنا صالحاً: أي ولداً صالحاً ليس حيواناً بل إنساناً.

جعلاً له شركاء : أي سموه عبد الحارث وهو عبد الله جل جلاله.
فتعالى الله عما يشركون : أي أهل مكة حيث أشركوا في عبادة الله أصناماً.
وإن تدعوهم إلى الهدى : أي الأصنام لا يتبعوكم.
معنى الآيات:

يقول تعالى لأولئك السائلين عن الساعة عناداً ومكابرة من أهل الشرك هو أي الله {الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها} الإله المستحق للعبادة لا الأصنام والأوثان، فالخالق لكم من نفس واحدة وهي آدم وخلق منها زوجها حواء هو المستحق للتأليه والعبادة. دون غيره من سائر خلقه.
وقوله {ليسكن إليها}: علة لخلقه زوجها منها، إذ لو كانت من جنس آخر لما حصلت الألفة والأنس بينهما وقوله {فلما تغشاها} أي للوطء ووطئها {حملت 2 حملاً خفيفاً فمرت 3 به} لخفته {فلما أثقلت} أي أثقلها الحمل

- 1 قال الفقهاء كمالك: إذا بلغ الحمل ستة أشهر أصبحت الحامل مريضة فلا يصح لها أن تهب من مالها أكثر من الثلث، ومثلها من دخل معركة القتال، وكذا المريض الشديد المرض، والمحبوس للقتل ليس لهم من هبة إلا ما كان الثلث فأقل.
- 2 كل ما كان في البطن أو على رأس النخلة أو الشجرة فهو حمل بفتح الحاء وكل ما كان على رأس أو ظهر إنسان أو حيوان فهو حمل بكسر الحاء.
- 3 فمرت به لخفته فلم تنقطن له ولم تفكر في شأنه ومعنى أثقلت أي صارت ذات ثقل من أثقل المريض فهو مثقل فأثقلت صارت مثقلة.

(2/273)

{دعوا الله} أي آدم 1 وحواء ربهما تعالى أي سألاه قائلين {لئن آتيتنا صالحاً} أي غلاماً صالحاً {لنكونن من الشاكرين} أي لك. واستجاب الرب تعالى لهما وآتاها صالحاً. وقوله تعالى {فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها} حيث سمته حواء عبدالحارث بتغريير من إبليس، إذ اقترح عليهما هذه التسمية، وهي من الشرك الخفي المعفو عنه نحو لولا الطبيب هلك فلان، وقوله {فتعالى الله عما يشركون} عائد إلى كفار قريش الذين يشركون في عبادة الله أصنامهم وأوثانهم، بدليل قوله بعد {أيشركون ما لا يخلق شيئاً} أي من المخلوقات {وهم} أي الأوثان وعبادها {يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصراً} إذا طلبوا منهم ذلك. {ولا أنفسهم ينصرون} لأنهم جمادات لا حياة بها ولا قدرة لها وقوله {وإن تدعوهم} أي وإن تدعوا أولئك الأصنام {إلى الهدى} وقد ضلوا الطريق {لا يتبعوكم} 2 لأنهم لا يعقلون الرشد من الضلال ولذا فسواء عليكم {أدعوتموهم أم أنتم صامتون} أي لم تدعوهم فإنهم لا

يتبعونكم ومن هذه حاله وهذا واقعه فهل يصح أن يعبد فتقرب له القرابين ويحلف به، ويعكف عنده، وينادى ويستغاث به؟؟ اللهم لا، ولكن المشركين لا يعقلون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أصل خلق البشر وهو آدم وحواء عليهما السلام.
- 2- بيان السر في كون الزوج من جنس الزوج وهو الألفة والأنس والتعاون.
- 3- بيان خداع إبليس وتضليله للإنسان حيث زين لحواء تسمية ولدها بعبد الحارث وهو عبد الله.
- 4- الشرك في التسمية³ شرك خفي معفو عنه وتركه أولى.
- 5- التنديد بالشرك والمشركين، وبيان جهل المشركين وسفههم إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب ولا يتبع.

1 ما ذهب إليه في التفسير هو ما ذا إليه إمام المفسرين ابن جرير الطبري وهو مؤيد بقراءة تشركون بالتاء وبحديث خدعها مرتين خدعها في الجنة وخدعها في الأرض وذهب آخرون إلى أن الكلام على جنس الآدميين تبيناً لحال المشركين من ذرية آدم ودل على قولهم قراءة يشركون بالياء والله أعلم.

2 يقول بعضهم: اتبعه: إذا شيء وراءه ولم يدركه، واتبعه مشددا إذا مشى وراءه وأدركه.

3 نحو: عبد النبي، وعبد الرسول، وعبد الضيف كما قال حاتم الطائي:

واني لعبد الضيف ما دام ثاويا ...

وما في إلا تيك من شيمة العبد

(2/274)

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ
أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطُّشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ (195) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى
الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ
تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)

شرح الكلمات:

عباد أمثالكم: أي مملوكون مخلوقون أمثالكم لمالك واحد هو الله رب العالمين.

شركاءكم: أصنامكم التي تشركون بها.

ثم كيدون: بما استطعتم من أنواع الكيد.
فلا تنتظرون: أي فلا تمهلون لأنني لا أبالى بكم.
إن وليي الله: أي المتولي أموري وحمائتي ونصرتي الله الذي نزل القرآن.
وتراهم ينظرون: أي وترى الأصنام المنحوتة على شكل رجال ينظرون إليك وهم لا يبصرون.
معنى الآيات:
هذه الآيات الخمس في سياق ما قبلها جاءت مقرة لمبدأ التوحيد مؤكدة له منددة

(2/275)

بالشرك مقبحة له، ولأهله فقله تعالى {إن الذين تدعون 1} أي دعاء عبادة أيها المشركين هم {عباد أمثالكم 2} أي مملوكون لله، الله مالكم كما أنتم مملوكون لله مريبون. فكيف يصح منكم عبادتهم وهم مملوكون مثلكم لا يملكون لكم ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، وإن شككتهم في صحة هذا فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم آلهة يستحقون العبادة. إنكم لو دعوتموهم ما استجابوا، وكيف يستجيبون وهم جماد ولا حياة لهم {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها، أم لهم أذان يسمعون بها} إنه لا شيء لهم من ذلك فكيف إذا يستجيبون، وبأي حق يعبدون فيدعون ويرجون وهم فاقدوا آثار القدرة والحياة بالمرة.
ثم أمر الله تعالى رسوله أن يعلن لهم أنه لا يخافهم ولا يعدهم شيئاً إذا كانوا هم يعبدونهم ويخافونهم فقال له قل لهؤلاء المشركين {ادعوا شركاءكم ثم كيدون 4} أنتم وإياهم {فلا تنتظرون} أي لا تمهلوني ساعة، وذلك لأن {وليي 5} الله الذي نزل الكتاب {أي القرآن} وهو يتولى الصالحين {فهو ينصرتي منكم ويحميني من كيدكم إنه ولي ولي المؤمنين}. أما أنتم {والذين تدعون من دونه} أي من دون الله من هذه الأوثان {لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون} وشيء آخر وهو أنكم {إن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون} فضلاً عن إن تدعوهم إلى الضلال فكيف تصح عبادة من لا يجيب داعية في الرخاء ولا في الشدة. وأخيراً يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، {وتراهم} أي ترى أولئك الآلهة وهي تماثيل من حجارة {ينظرون إليك 6} إذا قابلتهم لأن أعينهم مفتوحة دائماً، والحال أنهم لا يبصرون، وهل تبصر الصور والتماثيل؟.

1 تدعون: بمعنى تعبدون لأن الدعاء هو العبادة أو تدعون: بمعنى تدعونها عبادة فحذف المفعول ليشمل التعبير المعنيين وهو من بلاغة القرآن.

2 أطلق لفظ عباد على الأوثان لأنها مملوكة لله تعالى كعابديها مخلوقة كما هم مخلوقون، ولما اعتقد المشركون أن أصنامهم تنفع وتضر عاملها معاملة المقلد فقال: عباد أمثالكم وقال:

{فادعوهم} بدل فادعوهم.

3 اليد والرجل والأذن مؤنثات ولذا يصغرن بالهاء ويقال: يُدِيَةٌ ورُجُلِيَةٌ وأذينة وشَدَدَتِ الهاء من: يديَّة لأنَّ الياء المحذوفة من يد، رَدَّتْ في التصغير.

4 أصل كيدون: كيدوني بالياء فحذفت تخفيفاً، والكيد:.. المكر، والحرب أيضاً يقال: غزا فلم يلق كيداً أي: حرباً.

5 وليّ الشيء: هو الذي يحفظه ويمنع الضرر عنه وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا إن آل فلان ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين".

6 النظر: فتح العينين إلى المنظور إليه، وجملة وتراهم مستأنفة وينظرون في محل نصب على الحال وجائز أن يكون المراد ب تراهم ينظرون إليك المشركون أنفسهم وكونهم لا يبصرون لأنهم لم ينتفعوا بأبصارهم.

(2/276)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- إقامة الحجة على المشركين بالكشف عن حقيقة ما يدعون أنها آلهة فإذا بها أصنام لا تسمع ولا تجيب لا أيد لها ولا أرجل ولا آذان ولا أعين.

2- وجوب التوكل على الله تعالى، وطرد الخوف من النفس والوقوف أمام الباطل وأهله في شجاعة وصبر وثبات اعتماداً على الله تعالى وولايته إذ هو يتولى الصالحين.

3- جواز المبالغة في التنفير من الباطل والشر بذكر العيوب والنقائص.

حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202)

شرح الكلمات:

العفو: ما كان سهلاً لا كلفة فيه وهو ما يأتي بدون تكلف.

بالعرف: أي المعروف في الشرع بالأمر به أو الندب إليه.

وأعرض عن الجاهلين : الجاهلون: هم الذين لم تستتر قلوبهم بنور العلم والتقوى، والإعراض عنهم بعدم مؤاخذتهم على سوء قولهم أو فعلهم.

نزغ الشيطان: أي وسوسته بالشر.

فاستعذ بالله : أي قل أعوذ بالله يدفعه عنك إنه أي الله سميع عليم.
اتقوا: أي الشرك والمعاصي.

(2/277)

طائف من الشيطان : أي ألم بهم شيء من وسوسته.

وإخوانهم يمدونهم في الغي : أي إخوان الشياطين من أهل الشرك والمعاصي يمدونهم في الغي.
ثم لا يقصرون : أي لا يكفون عن الغي الذي هو الضلال والشر والفساد.
معنى الآيات:

لما علم تعالى رسوله كيف يحاج المشركين لإبطال باطلهم في عبادة غير الله تعالى والإشراك به عز وجل علمه في هذه الآية أسمى الآداب وأرفعها، وأفضل الأخلاق وأكملها فقال له: {خذ العفو1 وأمر بالعرف2 وأعرض عن الجاهلين} أي خذ من أخلاق الناس ما سهل عليهم قوله وتيسر لهم فعله، ولا تطالبهم بما لا يملكون أو بما لا يعلمون وأمرهم بالمعروف، وأعرض3 عن الجاهلين منهم فلا تعنفهم ولا تغلظ القول لهم فقد سأل صلى الله عليه وسلم عن معنى هذه الآية جبريل عليه السلام فقال له: "تعفو عن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك4" وقوله {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ5} أي أثار غضبك حتى لا تلتزم بهذا الأدب الذي أمرت به {فاستعذ بالله} بدفعه عنك إنه سميع لأقوالك عليم بأحوالك. ثم قال تعالى مقررًا حكم الاستعاذة مبينًا جدواها ونفعها لمن يأخذ بها. {إن الذين اتقوا} أي ربهم فلم يشركوا به أحداً ولم يفرطوا في الواجبات ولم يغيثوا المحرمات هؤلاء {إذا مسهم طائف6 من الشيطان} بأن نزغهم بإثارة الغضب أو الشهوة فيهم تذكروا

1 قال ابن الزبير هذه الآية: {خذ العفو..} الخ ما أنزلها الله تعالى إلا في أخلاق الناس، وقال جعفر الصادق أمر الله رسوله بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

2 العرف: المعروف وقرىء العرف: العرف بضم العين والراء مثل: الحلم والعرف: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس: قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

3 الإعراض عن الجاهلين يكون بعد دعوتهم إلى الحق وإقامة الحجة عليهم فان لم يستجيبوا يعرض عنهم آذوه أو لم يؤذوه.

4 من أحاديث مكارم الأخلاق قوله صلى الله عليه وسلم "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعون منكم بسط الوجه وحسن الخلق".

5 النزع، والنغز والهمز والوسوسة بمعنى واحد، والنزع: الإفساد والإغراء والإغراء وعلاج الوسوسة، الاستعاذة بالله تعالى.

6 الطيف، والطائف، بمعنى، وقيل: الطيف: الخيال، والطائف: الشيطان. وهو صحيح أيضاً.

(2/278)

أمر الله ونهيه ووعدته ووعدته {فإذا هم مبصرون} يرون قبح المعصية وسوء عاقبة فاعلموا فكفوا عنها ولم يرتكبوها. وقوله تعالى: {وإخوانهم} أي إخوان الشياطين من أهل الشرك والمعاصي {يهدونهم} أي الشياطين {في الغي} أي في المعاصي والضلالات ويزيدونهم في تزيينها لهم وحملهم عليها، ثم لا يقصرون} عن فعلها ويكفون عن ارتكابها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- الأمر بالتزام الآداب والتحلي بأكمل 1 الأخلاق ومن أرقاها العفو عن ظلم وإعطاء من حرم، وصلة من قطع.

2- وجوب الاستعاذة بالله عند 2 الشعور بالوسوسة أو الغضب أو تزيين الباطل 3.

3- فضيلة التقوى وهي فعل الفرائض وترك المحرمات.

4- شؤم أخوة الشياطين حيث لا يقصر صاحبها بمد الشياطين له عن الغي الذي هو الشر والفساد. وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآنُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) وَادْكُرْ رَبَّكَ

1 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عن ظلمي وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرة".

2 روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته" فقله: فليستعذ: الأمر للوجوب إذ لا يدفع الشيطان إلا الله تعالى فهو الذي ينجي منه ويجير.

3 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت آية {خذ العفو} الآية قال صلى الله عليه وسلم: " كيف يا رب والغضب" فنزلت: {وإما ينزغنك...} الخ.

(2/279)

فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205) إِنَّ
الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

شرح الكلمات:

قالوا لولا اجتبيتها: أي اخترعتها واختلفتها من نفسك وأتيتها بها.

هذا بصائر من ربكم: أي هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة على ما جننت به وادعوكم إليه فهو أقوى
حجة من الآية التي تطالبون بها.

فاستمعوا له وانصتوا: أي اطلبوا سماعه وتكلفوا له، وانصتوا عند ذلك أي اسكتوا حتى تسمعوا سماعاً
ينفعكم.

وخيفة: أي خوفاً.

بالغدو والآصال: الغدو: أول النهار، والآصال: أواخره.

من الغافلين: أي عن ذكر الله تعالى.

إن الذين عند ربك: أي الملائكة.

يسبحونه: ينزهونه بألسنتهم بنحو سبحان الله وبحمده.

معنى الآيات:

ما زال السياق في توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه الرد على المشركين خصومه فقال
تعالى عن المشركين من أهل مكة {وإذا لم تأتيتهم} يا رسولنا {بآية} 1 كما طلبوا {قالوا} لك {لولا} أي
هلا {اجتبيتها} أي اخترعتها وأنشأتها من نفسك ما دام ربك لم يعطها قل لهم إنما أنا عبد الله ورسوله
لا أفتات عليه {وإنما اتبع ما يوحى إلي من ربي} وهذا القرآن الذي يوحى إلي بصائر 2 من حجج
وبراهين على صدق دعواي وإثبات رسالتي،

1 وجائز أن يكون المراد من الآية: آية قرآنية يمدحهم فيها ويمدح أصنامهم ولولا هنا أداة تحضيض
مثل هلاً ولا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً.

2 البصائر: جمع بصيرة وهي ما به يتضح الحق، وفي هذا تنويه بشأن القرآن العظيم وأنه: أعظم
من الآيات أي: الخوارق التي يطالبون بها في الدلالة على الحق الذي ضلوا عنه.

وصحة ما أدعوكم إليه من الإيمان والتوحيد وترك الشرك والمعاصي، فهلا آمنتم واتبعتم أم الآيات الواحدة تؤمنون عليها والآيات الكثيرة لا تؤمنون عليها أين يذهب بعقولكم؟ وعلى ذكر بيان حجج القرآن وأنواره أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا قرئ عليهم القرآن أن يستمعوا وينصتوا وسواء كان يوم الجمعة على المنبر أو كان في غير ذلك 1 فقال تعالى {فإذا قرئ القرآن فاستمعوا له { أي تكلفوا السماع وتعمدوه {وانصتوا} بترك الكلام {لعلكم ترحمون} أي رجاء أن ينالكم من هدى القرآن رحمته فتهتدوا وترحموا لأن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين.

ثم أمر تعالى رسوله وأمته تابعة له في هذا الكمال فقال تعالى {واذكر ربك في نفسك} أي سرّاً {تضرعاً} أي تذلاً وخشوعاً، {وخيفة} 2 أي وخوفاً وخشية {ودون الجهر من القول} وهو السر بأن يسمع نفسه فقط أو من يليه لا غير وقوله {بالغزو والآصال} أي أوائل النهار وأواخره، ونهاه عن ترك الذكر وهو الغفلة فقال {ولا تكن من الغافلين} وذكر له تسبيح 3 الملائكة وعبادتهم ليتأسى بهم، فيواصل العبادة والذكر ليل نهار فقال {إن الذين عند ربك} وهم الملائكة في الملكوت الأعلى {لا يستكبرون عن عبادته} أي طاعته بما كلفهم به ووظفهم فيه {ويسبحونه وله يسجدون} 4 فتأس بهم ولا تكن من الغافلين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- القرآن أكبر آية بل هو أعظم من كل الآيات التي أعطيتها الرسل عليهم السلام.
- 2- وجوب الإنصات عند تلاوة القرآن وخاصة في خطبة الجمعة على المنبر وعند قراءة الإمام في الصلاة الجهرية.

1 أي: كيومي العيدين مثلاً، وهذا الأمر بالاستماع والانصات للقرآن عام يشمل المشركين إذ كانوا يأمرهم بعدم الاستماع إليه كما قال تعالى: {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن...} كما يشمل المؤمنين، إذ سماع القرآن سبيل الهداية، والإنصات: سماع مع عدم التكلم حال الاستماع.

2 الخيفة: أصلها خوفاً فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهي مصدر خاف المرء يخاف خوفاً وخيفة ومخافة فهو خائف.

3 تسبيح الملائكة معناه: تعظيمهم لله تعالى وتزويجهم له عزاً وجلّ عن الشريك والولد.

4 صيغة المضارع في {يسبحون} و{يسجدون} لحصر السجود في الله تعالى وعدم جوازه لغيره عز وجلّ.

3- وجوب ذكر الله بالغدو والآصال.

4- بيان آداب الذكر وهي:

1- السرية.

2- التضرع والتذلل.

3- الخوف والخشية.

4- الإسرار به وعدم رفع الصوت به، لا كما يفعل المتصوفة.

5- مشروعية الأنتساء بالصالحين والإقتداء بهم في فعل الخيرات وترك المنكرات.

6- عزيمة السجود عند قوله {وله يسجدون} وهذه أول سجدة القرآن ويسجد القارىء والمستمع له، أما السامع فليس عليه سجود، ويستقبل بها القبلة ويكبر عند السجود وعند الرفع منه ولا يسلم وكونه متوضئاً أفضل.

1 ولو سلم منها في غير الصلاة جاز فقد روي عن بعض السلف، ويستحب لمن سجد أن يقول: "اللهم احطط عني بها وزراً واكتب لي بها أجراً واجعلها لي عندك ذخراً" رواه ابن ماجه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(2/282)

سورة الأنفال

...

سورة الأنفال

مدنية

وآياتها خمس وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا دَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

(2/282)

يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

شرح الكلمات:

الأنفال: جمع نفل 1 بتحريك الفاء: ما يعطيه الإمام لأفراد الجيش تشجيعاً لهم.
ذات بينكم: أي حقيقة بينكم، والبين الوصلة والرابطة التي تربط بعضكم ببعض من المودة والإخاء .
إنما المؤمنون: أي الكاملون في إيمانهم.
وجلت قلوبهم: أي خافت إذ الوجل 2: هو الخوف لاسيما عند ذكر وعيده ووعده.
وعلى ربهم يتوكلون: على الله وحده يعتمدون وله أمرهم يفوضون.
ومما رزقناهم : أي أعطيناهم.
أولئك: أي الموصوفون بالصفات الخمس السابقة.
لهم درجات: منازل عالية في الجنة.
ورزق كريم: أي عطاء عظيم من سائر وجوه النعيم في الجنة.
معنى الآيات:

هذه الآيات نزلت في غزوة بدر وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نفل 3 بعض المجاهدين لبلاتهم

1 النفل: بسكون الفاء: اليمين وفي الحديث: "فتبرئكم يهود بنفل خمسين منهم" وهو أيضاً الانتقاء من الشيء وفي الحديث: "فانتقل من ولدها" والنفل: نبت معروف، والنفل: الزيادة على الفرائض في الصلاة.

2 قيل لبعضهم: متى تعرف أنه استجيب دعائك؟ قال: إذا اقتصر جلدي ووجل قلبي، وفاضت عيناى بالدموع، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما الوجل في القلب إلا كضرمة السعفة، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك.

3 هذا ما ذهب إليه ابن جرير ورجحه محتجاً عليه بشواهد اللغة والتاريخ والجمهور على أن المراد بالأنفال هنا غنائم بدر، والكل محتمل إذ حصل النفل، وحصلت الغنيمة، ولما اختلفوا ردت إلى الله ورسوله ثم حكم الله تعالى فيها بقوله: {واعلموا أنما غنمتم من شيء...} الآية.

(2/283)

وتخلف آخرون فحصلت تساؤلات بين المجاهدين لم يعطي هذا ولم لا يعطي ذلك فسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى {يسألونك 1 عن الأنفال؟} 2 فأخبرهم أنها {لله والرسول} فإله يحكم فيها بما يشاء والرسول يقسمها بينكم كما يأمره ربه 3 وعليه فاتقوا الله تعالى بترك النزاع

والشقاق، {وأصلحوا} ذات بينكم بتوثيق عرى المحبة بينكم وتصفية قلوبكم من كل ضغن أو حقد نشأ من جراء هذه الأنفال واختلافكم في قسمتها، {وأطيعوا الله ورسوله} في كل ما يأمرانكم به وينهيانكم عنه {إن كنتم مؤمنين} حقاً فامتثلوا الأمر واجتنبوا النهي. وقوله تعالى {إنما المؤمنون} أي الكاملون في إيمانهم الذين يستحقون هذا الوصف وصف المؤمنين هم {الذين إذا ذكر الله} أي اسمه أو وعده أو وعيده {ووجلّت قلوبهم} أي خافت فأقلعت عن المعصية، وأسرعت إلى الطاعة، {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً} أي قوي إيمانهم وعظم يقينهم، {وعلى ربهم} لا على غيره {يتوكلون} وفيه تعالى يثقون. وإليه تعالى أمورهم يفوضون، {الذين يقيمون الصلاة} بأدائها بكامل شروطها وكافة أركانها وسائر سننها وآدابها، {ومما رزقناهم} أي أعطيناهم {ينفقون} من مال وعلم، وجاء وصحة بدن من كل هذا ينفقون في سبيل الله {وأولئك} الموصوفون بهذه الصفات الخمس {هم المؤمنون حقاً} وصدقاً، {لهم درجات عند ربهم} أي منازل عالية متفاوتة العلو والارتفاع في الجنة، ولهم قبل ذلك {مغفرة} كاملة لذنوبهم، {ورزق كريم} 5 طيب واسع لا تنقيص فيه ولا تكدير، وذلك في الجنة دار المتقين.

- 1 السؤال معناه: الطلب فإن عدي بعن: كان لطلب معرفة شيء نحو: {يسألونك عن الأنفال} وإن عدي بنفسه نحو: "سأله ما لا فهو: لطلب إعطاء الشيء المطلوب".
- 2 الأنفال: جمع نفلٌ بفتح النون والفاء معاً كَعَمَلٌ وهو مشتق من النافلة التي هي الزيادة في العطاء، وقد أطلق العرب لفظ النفل على الغنائم في الحرب اعتباراً منهم لها على أنها زيادة عن المقصود الأهم الذي هو إبادة العدو، ولذا كان بعض صناديدهم لا يأخذونها وهذا عنتره يقول:
يخبرك من شهد الواقعة أنني ... أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم
- 3 اختلف في النفل هل يكون من الخمس أو هو خمس الخمس من الغنيمة؟ والصحيح أنه ما يعطيه الإمام من شاء من المقاتلين لبلائه من الخمس.
- 4 وجل: كضرب، يوجل كيضرب ويجل كيلد بإسقاط فاء الكلمة والمصدر: الوجل كالعسل، وموجل كموعد.
- 5 لفظ (الكريم) يصف به العرب كل شيء حسن في بابه لا قبح فيه ولا شكوى منه.

(2/284)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الأمر بتقوى الله عز وجل وإصلاح ذات البين.
- 2- الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

3- من المؤمنين من هو كامل الإيمان، ومنهم من هو ناقصه.

4- من صفات أهل الإيمان الكامل ما ورد في الآية الثانية من هذه السورة 2 وما بعدها.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ 3 وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُِونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

شرح الكلمات:

من بيتك: أي المدينة المنورة.

لكارهون: أي الخروج للقتال.

إحدى الطائفتين: العير "القافلة" أو النفير: نفير قريش وجيشها.

1 أسأل الحسن البصري فليل له: يا أبا سعيد أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملاتكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله تعالى: {إنما المؤمنون الذين ذكر الله وجلت قلوبهم} إلى قوله: {أولئك هم المؤمنون حقا} فوالله ما أدري أنا منهم أم لا؟

2 وهما الآية الثالثة والرابعة.

3 الباء للمصاحبة أي: أخرجه إخراجاً مصاحباً للحق ليس فيه من الباطل شيء قط.

(2/285)

الشوكة 1: السلاح في الحرب.

يبطل الباطل: أي يظهر بطلانه بقمع أهله وكسر شوكتهم وهزيمتهم.

ولو كره المجرمون: كفار قريش المشركون.

معنى الآيات:

قوله تعالى {كما أخرجك ربك} أيها الرسول {من بيتك} بالمدينة {بالحق} متلبساً به حيث خرجت بإذن الله {وان فريقاً 2 من المؤمنين لكارهون} لما علموا بخروج قريش لقتالهم، وكانت العاقبة خيراً عظيماً، هذه الحال مثل حالهم لما كرهوا نزع الغنائم من أيديهم وتوليك قسمتها بإذننا، على عدل قسمة وأصحتها وأنفعها فهذا الكلام في هذه الآية (5) تضمنت تشبيه حال حاضرة بحال ماضيه حصلت في كل واحدة كراهة بعض المؤمنين، وكانت العاقبة في كل منهما خيراً والحمد لله، وقوله تعالى {يجادلونك في الحق بعدما تبين} أي يجادلونك في القتال بعدما أتضح لهم أن العير 3 نجت وأنه لم

يبقى إلا النفير 4 ولا بد من قتالها. وقوله تعالى {كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون} أي إلى الموت عياناً يشاهدونه أمامهم وذلك من شدة كراهيتهم لقتال لم يستعدوا له ولم يوطنوا أنفسهم لخوض معاركه. وقوله تعالى {وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين} أي اذكر يا رسولنا لهم الوقت الذي يعدكم الله تعالى فيه إحدى الطائفتين العير والنفير، وهذا في المدينة وعند السير أيضاً {أنها لكم} أي تظفرون بها، {وتودون} أي تحبون أن تكون {غير ذات الشوكة} وهي عير أبي سفيان {تكون لكم}، وذلك لأنها مغنم بلا مغرم لقلّة عددها وعددها، والله يريد {أن يحق الحق} أي يظهره بنصر أوليائه وهزيمة أعدائه، وقوله {بكلماته} أي التي تتضمن أمره تعالى إياكم بقتال الكافرين، وأمره الملائكة بالقتال معكم، وقوله {ويقطع دابر الكافرين} أي بتسليطكم عليهم فتقتلوهم حتى لا

1 وكلّ نبت له حدّ يقال له: شرك واحده: شوكة.

2 هذه الجملة حالية: والعامل فيها: أخرجك ربك.

3 هي قافلة أبي سفيان التجارية التي يصحبها زهاء ثلاثين رجلاً من قريش.

4 النفير: جيش قوى الذي استنفرت فيه قرابة ألف مقاتل.

(2/286)

تبعوا منهم غير من فر وهرب، وقوله {ليحق الحق} أي لينصره ويقرره وهو الإسلام {ويبطل الباطل} وهو الشرك {ولو كره} ذلك {المجرمون} أي المشركون الذين أجزموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك، وعلى غيرهم أيضاً حيث منعوهم من قبول الإسلام وصرفوهم عنه بشتى الوسائل.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- تقرير قاعدة {عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم} وذكر نبذة عن غزوة بدر الكبرى وبيان ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن عيراً لقريش تحمل تجارة قادمة من الشام في طريقها إلى مكة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب فانتدب النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه للخروج إليها عسى الله تعالى أن يغنمهم إياها، لأن قريشاً صادرت أموال بعضهم وبعضهم ترك ماله بمكة وهاجر. فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأثناء مسيره أخبرهم أن الله تعالى وعدهم إحدى الطائفتين، لا على التعيين جائز أن تكون العير، وجائز أن تكون النفير الذي خرج من مكة للذبح عن العير ودفع الرسول وأصحابه عنها حتى لا يستولوا عليها، فلما بلغ الرسول نبأ نجاته العير 1 وقدم النفير استشار أصحابه فوافقوا على قتال المشركين ببدر وكره بعضهم ذلك، وقالوا: إنا لم نستعد للقتال فأنزل الله تعالى هذه الآيات {يجادلونك في الحق بعد ما تبين} إلى قوله {... ولو كره

المجرمون}.

2- بيان ضعف الإنسان في رغبته في كل مالا كلفة فيه ولا مشقة.

3- إنجاز الله تعالى وعده للمؤمنين إذ أغنهم طائفة النفير وأعزهم بنصر لم يكونوا مستعدين له.

1 لأنّ أبا سفيان لما بلغه بواسطة بعض الركبان أنّ محمداً قد خرج برجاله يطلب غيره استأجر ضمضم الغفاري فبعثه إلى أهل مكة يخبرهم بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمرهم أن ينفروا لإنقاذ قافلته، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فإنهم لما بلغوا في مسيرهم وادي ذفران وخرجوا منه أتاهم نبأ خروج قريش ليمنعوا قافلته فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فقام أبو بكر وقال فأحسن ثم قال عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله: امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: {اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون} ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دون حتى نبغته فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس، وهو يريد الأنصار فقال له سعد بن معاذ: كأنك تعيننا يا رسول الله قال: أجل، فقال سعد كلمة سرت النبي صلى الله عليه وسلم وعندها قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين.

(2/287)

4- ذكر نبذة عن وقعة بدر وهي من أشهر الوقائع وأفضلها وأهلها من أفضل الصحابة وخيارهم إذ كانت في حال ضعف المسلمين حيث وقعت في السنة الثانية من الهجرة وهم أقلية والعرب كلهم أعداء لهم وخصوم.

إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَکُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

شرح الكلمات:

تستغيثون 1: أي تطلبون الغوث من الله تعالى وهو النصر على

1 روى مسلم عن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم بدر نظر إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم ائتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض" فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم...} الآية.

(2/288)

أعدائكم

مردفين: أي متتابعين بعضهم ردف بعض أي متلاحقين.

وما جعله الله إلا بشرى: أي الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم بالنصر.

إذ يغشيكم النعاس: أي يغطيكم به والنعاس: نوم خفيف جداً.

أمنة: أي أمناً من الخوف الذي أصابكم لقتلكم وكثرة عدوكم.

منه: أي من الله تعالى.

رجز الشيطان: وسواسه لكم بما يؤلمكم ويحزنكم.

وليربط على قلوبكم: أي يشد عليها بالصبر واليقين.

ويثبت به الأقدام: أي بالمطر أقدامكم حتى لا تسوخ في الرمال.

الرعب: الخوف والفرع.

فاضربوا كل بنان: أي أطراف اليدين والرجلين حتى يعوقهم عن الضرب والمشي.

شاقوا الله ورسوله: أي خالفوه في مراده منهم فلم يطيعوه وخالفوا رسوله.

ذلكم فذوقوه: أي العذاب فذوقوه.

عذاب النار: أي في الآخرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة بدر، وبيان ممن الله تعالى على رسوله والمؤمنين إذ يقول تعالى لرسوله {إذ تستغيثون ربكم} أي اذكر يا رسولنا حالكم لما كنتم خائفين لقتلكم وكثرة عدوكم فاستغثتم ربكم قائلين: اللهم نصرك، اللهم أنجز لي ما وعدتني {فاستجاب لكم أي ممدكم بألف من الملائكة مردفين} أي متتالين يتبع بعضهم بعضاً {وما جعله الله إلا بشرى} أي لم يجعل ذلك الإمداد إلا مجرد بشرى لكم بالنصر على عدوكم {ولتطمئنن به قلوبكم} أي تسكن ويذهب منها القلق والاضطراب، أما

النصر فمن عند الله، {إن الله عزيز حكيم} عزيز غالب لا يحال بينه وبين ما يريد، حكيم بنصر من هو أهل للنصر، هذه نعمة، وثانية: اذكروا {إذ يغشاكم} ربكم

(2/289)

{النعاس أمانة منه 1} أي أماناً منه تعالى لكم فإن العبد إذا خامره النعاس هدأ وسكن وذهب الخوف محنه، وثبت في ميدان المعركة لا يفر ولا يهرب ولا يهرب، {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان} وهذه نعمة أخرى، فقد كانت الأرض رملية تسوح فيها أقدامهم لا يستطيعون عليها كراً ولا فرأ، وقل ماؤهم فصاروا ظمأ عطاشاً، محدثين، لا يجدون ما يشربون ولا ما يتطهرون به من أحداثهم ووسوس الشيطان لبعضهم بمثل قوله: تقاتلون محدثين كيف تنصرون، تقاتلون وأنتم عطاش وعدوكم ريان إلى أمثال هذه الوسوسة، فأنزل الله تعالى على معسكرهم خاصة مطراً غزيراً شربوا وتطهروا وتلبدت به التربة فأصبحت صالحة للقتال عليها، هذا معنى قوله تعالى {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان} أي وسواسه {وليربط على قلوبكم} أي يشد عليها بما أفرغ عليها من الصبر وما جعل فيها من اليقين لها {ويثبت 2 به الأقدام} ونعمة أخرى واذكر {إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم} بتأييدي ونصري {فثبتوا الذين آمنوا} أي قولوا لهم من الكلام تشجيعاً لهم ما يجعلهم يثبتون في المعركة {سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} أي الخوف أيها المؤمنون {فاضربوا فوق 3 الأعناق} أي اضربوا المذابح {واضربوا منهم كل بنان 4} أي أطراف اليدين والرجلين حتى لا يستطيعوا ضرباً بالسيف، ولا فراراً بالأرجل وقوله تعالى {ذلك 5 بأنهم شاقوا الله ورسوله} أي عادوهما وحاربوهما {ومن يشاقق الله ورسوله} ينتقم منه ويبطش به {فإن الله شديد العقاب} ، وقوله تعالى {ذلكم فذوقوه} أي ذلكم العذاب القتل والهزيمة فذوقوه في الدنيا وأما الآخرة فلکم فيها عذاب النار.

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

- 1 أمانة: مصدر أمن أمانة وأمناً وأماناً وهو منصوب على الحال، أو المصدرية.
- 2 هذا عائد على الماء الذي شدّ دهن أرض الوادي، ويصح أن يكون عائداً إلى ربط القلوب، فيكون تشبيته الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في الحرب.
- 3 هذا الأمر إرشادي للملائكة وللمؤمنين معاً.
- 4 واحد البنان: بنانة، والمراد بها هتا الأصابع الممسكة بالسيف والرمح حتى تعجز عن قتال المسلمين وضربهم.

5 ذلك: مبتدأ والخبر محذوف تقدير الكلام: الأمر ذلك، والجملة تعليلية لأنّ الباء في قوله: {بأنهم} سببية.

(2/290)

- 1- مشروعية الاستغاثة بالله تعالى وهي عبادة فلا يصح أن يستغاث بغير الله تعالى.
 - 2- تقرير عقيدة أن الملائكة عباد لله يسخرهم في فعل ما يشاء، وقد سخرهم للقتال مع المؤمنين فقاتلوا، ونصروا وثبتوا وذلك بأمر الله تعالى لهم بذلك.
 - 3- تعداد نعم الله تعالى على المؤمنين في غزوة بدر وهي كثيرة.
 - 4- مشاققة 1 الله ورسوله كفر يستوجب صاحبها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.
 - 5- تعليم الله تعالى عباده كيف يقاتلون ويضربون أعداءهم، وهذا شرف كبير للمؤمنين.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ الْكَافِرِينَ (18) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كُنْتُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)
- شرح الكلمات:

زحفاً2: أي زاحفين لكثرتهم ولبطيء سيرهم كأنهم يزحفون على

- 1 أصل المشاققة: العداوة بعصيان وعناد، مشتقة من الشق بكسر السين الذي هو الجانب، فالمشاق يقف عن مشاقه موقف العداة والعصيان، والتمرد في جانب لا يلتقي معه.
- 2 الزحف: الدنو قليلاً قليلاً، وأصله، الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماشٍ إلى حرب آخر زاحفاً، وازدحف القوم: إذا مشى بعضهم إلى بعض والزحاف: من علل الشعر وهو: أن يسقط من الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر.

(2/291)

الأرض.

لا تولوا الأدبار: أي لا تنهزموا فتفروا أمامهم فتولونهم أدباركم.

متحرفاً لقتال: أي مائلاً من جهة إلى أخرى ليتمكن من ضرب العدو وقتاله.
أو متحيزاً إلى فئة: أي يريد الانحياز إلى جماعة من المؤمنين تقاتل.
فقد باء بغضب: أي رجع من المعركة مصحوباً بغضب من الله تعالى لمعصيته إياه.
وليلي: أي لينعم عليهم بنعمة النصر والظفر على قلة عددهم فيشكروا.
فنتكم: مقاتلتكم من رجالكم الكثيرين.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن غزوة بدر وما فيها من جلائل النعم وخفى الحكم ففي أولى هذه الآيات ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين فيقول {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً} أي وأنتم وإياهم زحفون إلى بعضكم البعض {فلا تولوهم الأدبار}2} أي لا تنهزموا أمامهم فتعطوهم أدباركم فتمكنوهم من قتلكم، إنكم أحق بالنصر منهم، وأولى بالظفر والغلب إنكم مؤمنون وهم كافرون فلا يصح منكم انهزام أبداً {ومن يولهم يومئذ دبره} اللهم {إلا متحرفاً لقتال} أي مائلاً من جهة إلى أخرى ليكون ذلك أمكن له في القتال {أو متحيزاً إلى فئة} أي منحازاً إلى جماعة من المؤمنين تقاتل فيقاتل معها ليقويها أو يقوى بها، من ولى الكافرين دبره في غير هاتين الحالتين {فقد باء بغضب من الله} أي رجع من جهاده مصحوباً بغضب من الله {ومأواه جهنم وبئس المصير}3

1 هذه الجملة اعتراضية بين قوله تعالى: {إذ يوحى ربك} وبين قوله: {فلم تقتلوهم} ومن فوائدها تدريب المؤمنين على الشجاعة، والإقدام والثبات عند اللقاء، وهي خطة محمودة عند العرب فزادها الإسلام تقوية، قال شاعرهم وهو الحصين بن الحمام:
تأخرت أستبقي الحياة فلم ... أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
3 {فلا تولوهم الأدبار} فيه استبشاع الهزيمة بذكر لفظ الدبر، وهو كذلك.
3 الحمد لله أنه لم يقل خالداً فيها بل قال: {مأواه جهنم} ولذا ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد قرّر من الزحف".

(2/292)

وذلك بعد موته وانتقاله إلى الآخرة، وقوله تعالى {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم} يخبر تعالى عباده المؤمنين الذين حرم عليهم التولي ساعة الزحف وتوعدهم بالغضب وعذاب النار يوم القيامة أنهم لم يقتلوا المشركين على الحقيقة وإنما الذي قتلهم هو الله فهو الذي أمرهم وقدرهم وأعانهم، ولولاه ما قتل أحد ولا مات فليعرفوا هذا حتى لا يخطر ببالهم أنهم هم المقاتلون وحدهم. وحتى رمي رسوله المشركين بتلك التي وصلت إلى جل أعين المشركين في المعركة فأذهلتهم وحيرتهم بل وعوقبتهم عن

القتال وسببت هزيمتهم كان الله تعالى هو الرامي الذي أوصل التراب إلى أعين المشركين، إذ لو ترك الرسول صلى الله عليه وسلم لا لقوته لما وصلت حثية التراب إلى أعين الصف الأول من المقاتلين المشركين، ولذا قال تعالى {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}1 وقوله تعالى {وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً} أي فعل تعالى ذلك القتل بالمشركين والرمي بإيصال التراب إلى أعينهم ليذل الكافرين ويكسر شوكتهم {وليبلي 2 المؤمنين} أي ولينعم عليهم الأنعام الحسن بنصرهم وتأبيدهم في الدنيا وإدخالهم الجنة في الآخرة. وقوله تعالى {إن الله سميع عليم} بمقتضى هاتين الصفتين كان الإبلاء الحسن، فقد سمع تعالى أقوال المؤمنين واستغاثتهم به، وعلم ضعفهم وحاجتهم فأيدهم ونصرهم فكان ذلك منه إبلاء حسناً، وقوله تعالى {ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين} أي ذلكم القتل والرمي والإبلاء كله حق واقع بقدرة الله تعالى {وأن الله موهن} أي مضعف {كيد الكافرين} فكما كادوا كيداً بأوليائهم وأهل طاعته أضعفه وأبطل مفعوله، وله الحمد والمنة. وقوله تعالى {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، وإن تنتهوا فهو خير لكم} هذا خطاب للمشركين حيث قال أبو جهل وغيره من رؤساء المشركين 3 "اللهم أينما كان أفجر لك واقطع للرحم فأحنه اليوم، اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة" أي أهلكه الغداة يوم بدر فأنزل الله تعالى {إن

- 1 حصل الرمي من الرسول صلى الله عليه وسلم عدّة مرات منها يوم حنين ومنها يوم أحد ومنها يوم خيبر إذ رمى سهمًا في حصن فسقط السهم على ابن أبي الحقيق فقتله وهو نائم في فراشه، ومنها يوم بدر، وهو المراد هنا إذ السورة مدنية ولم يسبق هذا الرمي إلا الذي رمى به الواقفين على بابهم في مكة يريدون انفاذ القتل الذي حكمت به قريش عليه صلى الله عليه وسلم فقد روي أنه رماهم بحثية من تراب، فاشتغلوا بمسح أعينهم من التراب حتى نجا منهم صلى الله عليه وسلم.
- 2 {وليبلي}، الجملة متعلّقة بمحذوف تقديره: فعل ذلك أي النصر، والهزيمة للكفار ليبلي المؤمنين... الخ.
- 3 قالوا هذا وهم يتجهّزون للقتال في مكة، وقالوه في ساحة بدر قبل القتال.

(2/293)

تستفتحوا} أي تطلبوا الفتح وهو القضاء بينكم وبين نبينا محمد {فقد جاءكم الفتح} وهي هزيمتهم في بدر {وإن تنتهوا} تكفوا عن الحرب والقتال وتنقادوا لحكم الله تعالى فتسلموا {فهو خير لكم وإن تعودوا} للحرب والكفر {نعد} فنسلط عليكم رسولنا والمؤمنين لنذيقكم على أيديهم الذل والهزيمة {ولن تغني عنكم فنتكم شيئاً ولو كثرت} وبلغ تعداد المقاتلين منكم عشرات الآلاف، هذا وأن الله دوماً مع المؤمنين فلن يتخلى عن تأبيدهم ونصرتهم ما استقاموا على طاعة ربهم ظاهراً وباطناً.

هداية الآيات

هن هداية الآيات:

- 1- حرمة الفرار من العدو الكافر عند اللقاء لما توعد الله تعالى عليه من الغضب والعذاب ولعد الرسول له من الموبقات السبع في حديث مسلم "والتولي يوم الزحف".
 - 2- تقرير مبدأ أن الله تعالى خالق كل شيء وأنه خلق العبد وخلق فعله، إذ لما كان العبد مخلوقاً وقدرته مخلوقة، ومأموراً ومنهياً ولا يصدر منه فعل ولا قول إلا بإقدار الله تعالى له كان الفاعل الحقيقي هو الله، وما للعبد إلا الكسب بجوارحه² وبذلك يجزى الخير بالخير والشر بمثله. عدل الله ورحمته.
 - 3- آية وصول حثية التراب من كف الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أغلب عيون المشركين في المعركة.
 - 4- إكرام الله تعالى وإبلاؤه لأوليائه بالبلاء الحسن فله الحمد وله المنة.
 - 5- ولاية الله للمؤمنين الصادقين هي أسباب نصرهم وكمالهم وإسعادهم
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ

- 1 هذا التحريم مقيد بما في آخر السورة من أن ما زاد على المتئين يجوز الفرار معه كالواحد مع أكثر من اثنين، والمائة مع أكثر من مائتين، وألفين مع أكثر من أربعة آلاف.
- 2 مع ما وهبه الله من حرية الإرادة والقدرة على الاختيار ومع هذا فإنه لا يريد إلا ما أَرَادَهُ اللهُ وَلَا يَقَعُ اخْتِيَارُهُ إِلَّا عَلَى مَا كَتَبَهُ اللهُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ وَقَضَى بِهِ أَزْلاً وَهَذَا تَجَلَّى عِظْمَةُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(2/294)

وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (23)

شرح الكلمات:

- ولا تولوا عنه : أي لا تعرضوا عن طاعته إذا أمركم أو نهاكم كأنكم لا تسمعون.
- إن شر الدواب: أي شر ما يدب على الأرض الكافرون.
- لأسمعهم: لجعلهم يسمعون أو لرفع المانع عنهم فسمعوا واستجابوا.
- معنى الآيات:

ينادي الله تعالى عباده المؤمنين¹ الذين آمنوا به وبرسوله وصدقوا بوعدده ووعيده يوم لقائه فيأمرهم

بطاعته وطاعة رسوله، وينهاهم عن الإعراض عنه وهم يسمعون الآيات تتلى والعظات تتوالى في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن نصركم وتأييدكم كان ثمرة لإيمانكم وطاعتكم فإن أنتم أعرضتم وعصيتم فتركتم كل ولاية لله تعالى لكم أصبحتم كغيركم من أهل الكفر والعصيان هذا معنى قوله {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون} وقوله {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون} ينهاهم عز وجل أن يسلكوا مسلك الكافرين المشركين² في التصامم عن سماع الآيات الحاملة للحق والداعية إليه، والتعامي عن رؤية آيات الله الدالة على توحيده الذين قالوا إنا عما يقوله محمد في صمم، وفيما يذكر ويشير إليه في عمى، فهم يقولون سمعنا بأذاننا وهم لا يسمعون بقلوبهم لأنهم لا يتدبرون ولا يفكرون فلذا هم في سماعهم كمن لم يسمع إذ العبرة بالسماع الانتفاع³ به لا مجرد سماع صوت وقوله تعالى {إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون} يعني بهم المشركين وكانوا شر الدواب لأنهم كفروا بربهم وأشركوا به فعبدوا غيره، وضلوا عن سبيله ففسقوا وظلموا وأجرموا الأمر الذي جعلهم حقاً شر الدواب في الأرض فهذا تنديد بالمشركين، وفي نفس الوقت هو تحذير للمؤمنين من

- 1 لا يجب الالتفات لمن قال: هذا الخطاب هو للمنافقين كأنما قال: يا من آمنتم بألسنتكم ولم تؤمن قلوبكم، إذ الآية في المؤمنين الصادقين بلا شك ولا ريب.
- 2 واليهود والمنافقين أيضاً، إذ الكل كان هذا موقفهم مما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 3 في الآية دليل على أن المؤمن إذ أمر أو نهى فقال سمعاً وطاعةً أي: سمعت وأطعت ولم يفعل ولم يترك لا وزن ولا عبرة بقوله بل لا بد من الفعل والترك.
- 4 شرّ أصلها: أشر اسم تفضيل، ولكثرة الاستعمال اكتفوا بلفظ شرّ لأنه أخف على اللسان بنقص حرف الهمزة.

(2/295)

معصية الله ورسوله والإعراض عن كتابه وهدى نبيه صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى {ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم} أي لجعلهم يسمعون آيات الله وما تحمله من بشارة ونذارة وهذا من باب الفرض لقوله تعالى {ولو أسمعهم لتولوا عنه وهم معرضون} هؤلاء طائفة من المشركين¹؟ توغلوا في الشر والفساد والظلم والكبر والعناد فحرموا لذلك هداية الله تعالى فقد هلك بعضهم في بدر وبعض في أحد ولم يؤمنوا لعلم الله تعالى أنه لا خير فيهم وكيف لا وهو خالقهم وخالق طباعهم، {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيتهما، وحرمة معصيتهما.
 - 2- حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال وفي كل شيء من سلوكهم.
 - 3- بيان أن من الناس من هو شر من الكلاب والخنازير فضلاً عن الإبل والبقر والغنم أولئك البعض كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

1 في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : { إنَّ شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون } قال: هم نفر من بني عبد الدار، والآية عامة في مَنْ تلك حالهم.

(2/296)

شرح الكلمات:

استجيبوا 1: اسمعوا وأطيعوا.

لما يحييكم 2: أي لما فيه حياتكم ولما هو سبب في حياتكم كالإيمان والعمل الصالح والجهاد. فتنة: أي عذاباً تقتنون به كالحق أو المرض أو تسلط عدو. مستضعفون: أي ضعفاء أمام أعدائكم يرونكم ضعفاء فينالون منكم. ورزقكم من الطيبات: جمع طيب من سائر المحللات من المطاعم والمشارب وغيرها. لعلكم تشكرون: رجاء أن تشكروه تعالى بصرف النعمة في مرضاته.

معنى الآيات:

هذا هو النداء الثالث بالكرامة للمؤمنين الرب تعالى يشرفهم بنداؤه ليكرمهم بما يأمرهم به أو ينهاهم عنه تربية لهم وإعداداً لهم لسعادة الدارين وكرامتهما فيقول يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} وهو بمعنى النداء الأول أطيعوا الله ورسوله. وقوله {لما يحييكم} إشعار بأن أوامر الله تعالى ورسوله كنواهيتهما لا تخلوا أبداً مما يحيي المؤمنين 3 أو يزيد في حياتهم أو يحفظها عليهم، ولذا وجب أن يطاع الله ورسوله ما أمكنت طاعتهما. وقوله {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} تنبيه عظيم للمؤمنين إذا سنحت لهم فرصة للخير ينبغي أن يفترصوها قبل الفوات لاسيما إذا كانت دعوة من الله أو رسوله، لأن الله تعالى قادر على أن يحول بين المرء وما يشتهي وبين المرء

وقلبه 4 فيقلب القلب ويوجهه إلى وجهة أخرى فيكره فيها الخير ويرغب في الشر قوله لوأنه إليه

1 هذا بمعنى أجبوا: الإجابة معناها: إعطاء المطلوب، وإن كانت أمراً ونهياً فهو الطاعة بفعل الأمر وترك النهي، ويعبر عنهما بالسمع والطاعة، وفعل استجاب: يُعَدَى باللام يقال: استجاب له، وفعل أجاب: يتعدى بنفسه، يقال: أجابه، إلا أن استجاب قد يتعدى بنفسه ولكن بقلة ومنه قول الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذلك مجيب

2 {يحييكم} أصلها يحييكم بضم الياء الثانية إلا أن حركتها حذف فسكنت تخفيفاً.

3 في الآية دليل على أن الكفر والجهل موت معنوي للإنسان، إذ بالإيمان والعلم تكون الحياة وبضدهما تكون الممات.

4 روى غير واحد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" وروى مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك".

(2/297)

تحشرون} فالذي يعلم أنه سيحشر رغم أنفه إلى الله تعالى كيف يسرع له عقله أن يسمع نداءه بأمره فيه أو ينهاه فيعرض عنه، وقوله {واتقوا فتنة} 1 لا تصيبين 2 الذين ظلموا منكم خاصة} تحذير آخر عظيم للمؤمنين من أن يتركوا طاعة الله ورسوله، ويتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فينتشر الشر ويعم الفساد، وينزل البلاء فيعم الصالح والطالح، والبار والفاجر 3، والظالم والعاقل، وقوله {واعلموا أن الله شديد العقاب}. وهو تأكيد للتحذير بكونه تعالى إذا عاقب بالذنوب والمعصية فعقابه قاس شديد لا يطاق فليحذر المؤمنون ذلك بلزوم طاعة الله ورسوله. وقوله تعالى: {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلمكم تشكرون} هذه موعظة ربانية لأولئك المؤمنين الذين عايشوا الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى بذكرهم ربهم بما كانوا عليه من قلة وضعف يخافون أن يتخطفهم الناس لقلتهم وضعفهم، فأواهم عز وجل إلى مدينة نبيه المنورة ونصرهم بجنده فعزوا بعد ذلة واستغنوا بعد عيلة وفاقة، ورزقهم من الطيبات من مطعم ومشرب وملبس ومركب، ورزقهم من الطيبات إكراماً لهم، ليعدهم بذلك للشكر إذ يشكر النعمة من عاشها ولابسها، والشكر حمد المنعم والثناء عليه وطاعته ومحبته وصرف النعمة في سبيل مرضاته، والله يعلم أنهم قد شكروا فرضي الله عنهم وأرضاهم وألحقنا بهم صابرين شاكرين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1 قال ابن عباس في هذه الآية أمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم العذاب، وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون قال: نعم إذا كثرت الخبث.

2 إعراب هذه الجملة مشكل نكتفي بعرض صورتين: الأولى أنها كقوله: {ادخلوا مساكنكم لا يحطمتكم} أي: إن تدخلوا لا يحطمتكم فيكون معنى الآية: إن تتقوا... لا تصيبن فدخلت نون التوكيد لما في التركيب من معنى الجزاء، والثانية: تكون على حذف القول أي: اتقوا فتنة مقول فيها: لا تصيبن الذين ظلموا... كقول الشاعر:

حتى إذا جنّ الظلام واختلط ... جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

أي مقول فيه: هل رأيت.. الخ فقوله فتنة موصوف بجملة مقول فيها: لا تصيبن.

3 روى أحمد عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا ظهرت المعاصي في أمي عمهم الله بعذاب من عنده قالت. قلت: يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون؟ قال بلى. قالت: كيف يصنع أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان".

(2/298)

- 1- وجب الاستجابة. لندا الله ورسوله 1 بفعل الأمر وترك النهي لما في ذلك من حياة الفرد المسلم.
- 2- تعيين اغتنام فرصة الخير قبل فواتها فمتى سنحت للمؤمن تعيين عليه اغتنامها.
- 3- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انقاء للفتن العامة التي يهلك فيها العادل والظالم.
- 4- وجوب ذكر النعم لشكرها بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- 5- وجوب شكر النعم بحمد الله تعالى والثناء عليه والاعتراف بالنعمة له والتصرف فيها حسب مرضاته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

شرح الكلمات:

- لا تخونوا الله والرسول: أي بإظهار الإيمان والطاعة ومخالفتها في الباطن.
- وتخونوا أماناتكم: أي ولا تخونوا أماناتكم التي يأتين عليها بعضكم بعضاً.
- إنما أموالكم وأولادكم فتنة: أي الاشتغال بذلك يفتنكم عن طاعة الله ورسوله.
- إن تتقوا الله: أي بامتنال أمره واجتناب نهيه في المعتمد والقول والعمل.

1 روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيتته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال ألم يقل الله عز وجل {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}؟ وذكر الحديث. قال العلماء. في هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في الصلاة لا تبطل.

(2/299)

يجعل لكم فرقاناً : نوراً في بصائرکم تفرقون به بين النافع والضار والصالح والفساد.
ويكفر عنكم سيئاتكم : أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم التي بينكم وبينه.
ويغفر لكم ذنوبكم: أي يغطيها فيسترها عليكم فلا يفضحكم بها ولا يؤاخذكم عليها.
معنى الآيات:

هذا نداء رباني آخر يوجه إلى المؤمنين {يا أيها الذين آمنوا} أي يا من آمنتم بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً. {لا تخونوا الله والرسول} بأن يظهر أحدكم الطاعة لله ورسوله، ويستتر المعصية، ولا تخونوا أماناتكم التي يأتين بعضكم بعضاً عليها {وأنتم تعلمون} عظيم جريمة الخيانة وآثارها السيئة على النفس والمجتمع، هذا ما دلت عليه الآية الأولى في هذا السياق {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون} وقوله تعالى {واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم} فيه إشارة إلى السبب الحامل على الخيانة غالباً وهو المال والأولاد فأخبرهم تعالى أن أموالهم وأولادهم فتنة تصرفهم عن الأمانة والطاعة، وأن ما يرجوه من مال أو ولد ليس بشيء بالنسبة إلى ما عند الله تعالى إن الله تعالى عنده أجر عظيم لمن أطاعه واتقاه وحافظ على أمانته مع الله ورسوله ومع عباد الله وقوله تعالى في الآية الثالثة {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله 3 يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم} هذا حض على التقوى وترغيب فيها بذكر أعظم النتائج لها وهي أولاً إعطاء الفرقان وهو النصر والفصل بين كل مشتبه، والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع، والصحيح والفساد، وثانياً تكفير السيئات، وثالثاً مغفرة الذنوب ورابعاً الأجر العظيم الذي هو الجنة ونعيمها إذ قال تعالى

1 لفظ الآية عام في كل ذنب صغير وكبير، وما روي أنها نزلت في أبي لبابة حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح لا ينافيه.

2 وهذه الآية عامة أيضاً وإن قيل إنها نزلت في أبي لبابة إذ كان له مال وولد في بني قريظة فلا

يُتَّهَمُونَ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

3 قال بعضهم واصفاً للتقوى المورثة للفرقان فقال: هي امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات وشحن القلب بالنية الخالصة، والجوارح بالأعمال الصالحة، والتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر.

(2/300)

في ختام الآية {والله ذو الفضل العظيم} إشارة إلى ما يعطيه الله تعالى أهل التقوى في الآخرة وهو الجنة ورضوانه على أهلها، ولنعم الأجر الذي من أجله يعمل العاملون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تحريم الخيانة مطلقاً وأسوأها ما كان خيانة الله ورسوله.

2- في المال والأولاد فتنة قد تحمل على خيانة الله ورسوله، فيلحذرها المؤمن.

3- من ثمرات التقوى تكفير السيئات وغفران الذنوب، والفرقان وهو نور في القلب يفرق به المتقى

بين الأمور المتشابهات والتي خفي فيها وجه الحق والخير.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ (30) وَإِذَا تَنَزَّلْنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأُولَئِينَ (31)

شرح الكلمات:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ : أي يبيتون لك ما يضرك.

لِيُثْبِتُوكَ : أي ليحبسوك مثبتاً بوفاق حتى لا تفر من الحبس.

أَوْ يُخْرِجُوكَ : أي ينفوك بعيداً عن ديارهم.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ: أي يدبرون لك السوء ويبيتون لك المكروه، والله تعالى يدبر لهم ما يضرهم

أَيْضاً وَيَبِيْتُ لَهُمْ مَا يَسُوءُهُمْ.

آيَاتُنَا: آيات القرآن الكريم.

أساطير الأولين: الأساطير جمع أسطورة ما يدبرن ويسطر من أخبار الأولين.

(2/301)

معنى الآيات :

يذكر تعالى رسوله والمؤمنين بنعمة من نعمه تعالى عليهم فيقول لرسوله واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا {ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك} إذا اجتمعت قريش في دار الندوة وأتمرت في شأن النبي صلى الله عليه وسلم وفكرت ومكرت فأصدروا 1 حكماً بقتله صلى الله عليه وسلم وبعثوا من ينفذ جريمة القتل فطوقوا منزلة فخرج النبي 2 صلى الله عليه وسلم بعد أن رماهم بحثية من تراب قاتلاً شامت الوجوه، فلم يره أحد ونفذ وهاجر إلى المدينة وهذا معنى {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} فكان في نجاته صلى الله عليه وسلم من يد قريش نعمة عظيمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سائر المؤمنين والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى في الآية الثانية { وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا 3 مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين } هذا الخبر تنديد بموقف المشركين ذكر بعد ذكر مؤامراتهم الدنية ومكرهم الخبيث حيث قرروا قتله صلى الله عليه وسلم يخبر تعالى أنهم إذا قرأ عليهم الرسول آيات الله المبينة للحق والمقررة للإيمان به ورسالته بذكر قصص الأولين قالوا {سمعنا} ما تقرأ علينا، { ولو شئنا لقلنا مثل هذا } أي الذي تقول { إن هذا إلا أساطير الأولين } أي أخبار السابقين من الأمم سطرت وكتبت فهي تملى عليك فتحفظها وتقرأها علينا وكان قائل هذه المقالة الكاذبة النضر بن الحارث عليه لعائن الله إذ مات كافراً.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- التذكير بنعم الله تعالى على البعد ليجد العبد في نفسه داعية الشكر فيشكر.
- 2- بيان مدى ما قاومت به قريش دعوة الإسلام حتى إنها أصدرت حكمها بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 3- بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية، وأنهم بذلوا كل جهد في سبيل إنهاؤها والقضاء عليها.

1 كان حكم القتل باقتراح إبليس إذ جاءهم وهم يتشاورون في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فأشار عليهم وهو في صورة شيخ نجدى فقبلوا ما أشار به عليهم من القتل فأخذوا برأيه وتركوا ما أشار به بعضهم من النفي والحبس.

2 بعد أن ترك علياً نائماً على فراشه مسجياً ببرد أخضر للنبي صلى الله عليه وسلم .

3 من بين القائلين: النضر بن الحارث إذ كان قد خرج إلى الحيرة في تجارة فاشترى أحاديث قليلة ودمنة وكسرى، وقيصر، وأخذ يقص تلك الأخبار ويقول: هذه مثل الذي يقص محمد من أخبار الماضين. وكذب فأين ما يقصه القرآن وما يوسوس به الشيطان.

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

شرح الكلمات:

اللهم: أي يا الله حذفت ياء النداء من أوله و عوض عنها الميم من آخره.

إن كان هذا : أي الذي جاء به محمد ويخبر به.

فأمطر: أنزل علينا حجارة.

يصدون عن المسجد الحرام: يمنعون الناس من الدخول إليه للاعتمار.

مكاء وتصدية : المكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق.

معنى الآيات:

ما زال السياق في التنديد ببعض أقوال المشركين وأفعالهم فهذا النصر 1 بن الحارث القائل في الآيات السابقة {لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين} يخبر تعالى عنه أنه قال {اللهم إن كان هذا} أي القرآن {هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من

1 وقاله أيضاً أبو جهل وهو دال على مدى عناد المشركين في مكة ومكابرتهم وحسداهم أيضاً.

السماء} فنهلك بها، ولا نرى محمداً ينتصر 1 دينه بيننا. {أو ائتنا بعذاب أليم} حتى نتخلص من وجودنا. فقال تعالى {وما كان الله ليعذبهم 2 وأنت فيهم 3} فوجودك بينهم أمان لهم {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} إذ كانوا إذا طافوا يقول بعضهم غفرانك ربنا غفرانك، ثم قال تعالى {وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام} أي أي شيء يصرف العذاب عنهم وهم يرتكبون أشنع جريمة وهي صدهم الناس عن دخول المسجد الحرام للطواف بالبيت الحرام، فقد كانوا يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت والصلاة في المسجد الحرام 4. وقوله تعالى {وما كانوا أولياءه} رد على مزاعمهم بأنهم ولاية الحرم والقائمون عليه فلذا لهم أن يمنعوا من شاعوا ويأذنوا لمن شاعوا فقال تعالى رداً عليهم {وما كانوا أولياءه} أي أولياء المسجد الحرام، كما لم يكونوا أيضاً أولياء الله إنما أولياء الله

والمسجد الحرام المتقون الذين يتقون الشرك والمعاصي {ولكن أكثرهم لا يعلمون} هذا لجهل بعضهم وعناد آخرين. وقوله {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} إذ كان بعضهم إذا طافوا يصفقون ويصفرون كما يفعل بعض دعاة التصوف حيث يرقصون وهم يصفقون ويصفرون ويعدون هذا حضرة أولياء الله، والعياذ بالله من الجهل والضلال وقوله تعالى {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} أذاقهموه يوم بدر إذ أنزلهم فيه وأخزاهم وقتل رؤساءهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان ما كان عليه المشركون في مكة من بغض للحق وكراهية له حتى سألوا العذاب العام ولا يرون راية الحق تظهر ودين الله ينتصر.

1 ذكر القرطبي الحكاية التالية قال: حكي أن ابن عباس لقيه يهودي فقال له من أنت؟ قال: من قريش. فقال أنت من القوم الذين قالوا: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء...} الآية فهلاً عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له إن هؤلاء قوم يجهلون قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وانجى موسى وقومه حتى قالوا: {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة} فقال لهم موسى أنكم قوم تجهلون {فأطرق اليهودي ملجماً.

2 روى مسلم انه لما قال أبو جهل. اللهم إن كان هذا هو الحق.. الآية نزلت هذه الآية: {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم}.

3 دليله إنهم لما خرج من بينهم صلى الله عليه وسلم عذبهم الله بالقتل في بدر وسني القحط الجذب.

4 أي أنهم مستحقون العذاب ولكن لكل أجل كتاب فإذا حان أوانه عذبوا.

(2/304)

2- النبي صلى الله عليه وسلم أمان أمته من العذاب فلم تُصب هذه الأمة بعذاب الاستئصال والإبادة الشاملة.

3- فضيلة الاستغفار وأنه ينجي من عذاب الدنيا والآخرة.

4- بيان عظم جرم من يصد عن المسجد الحرام للعبادة الشرعية فيه.

5- بيان أولياء الله تعالى والذين يحق لهم أن يلوا المسجد الحرام وهو المتقون.

6- كراهية الصفير 1 والتصفيق، وبطلان الرقص في التعبد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)
شرح الكلمات:

إن الذين كفروا: أي كذبوا بآيات الله ورسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من قريش
ثم تكون عليهم حسرة: أي شدة ندامة.
ثم يغلبون: أي يهزمون.
ليميز: أي ليميز كل صنف من الصنف الآخر.
الخبيث: هم أهل الشرك والمعاصي.
من الطيب: هم أهل التوحيد والأعمال الصالحة.
فيركمه: أي يجعل بعضه فوق بعض في جهنم.

1 الصفير: تفسير للمكاء في الآية وهو مأخوذ من صوت طائر يسمى المكاء قال الشاعر:
إذا غرّد المكاء في غير روضة ...
فويل لأهل الشاء والحُمُرَات

(2/305)

معنى الآية الكريمة:

ما زال السياق في التنديد بالمشركين وأعمالهم الخاسرة يخبر تعالى {إن الذين كفروا} وهم أهل مكة من زعماء قريش {ينفقون أموالهم} في 1 حرب رسول الله والمؤمنين للصد عن الإسلام المعبر عنه بسبيل الله يقول تعالى (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة)2 أي ندامة شديدة لسوء العاقبة التي كانت لهم في بدر وأحد والخندق إذ أنفقوا على هذه الحملات الثلاث من الأموال ما الله به عليم، ثم خابوا فيها وخسروا وبالتالي غلبوا وانتهى سلطانهم الكافر وفتح الله على رسوله والمؤمنين مكة وقوله تعالى {والذين كفروا} أي من مات منهم على الكفر {إلى جهنم يحشرون} أي يجمعون، وعلّة هذا الجمع أن يميز الله تعالى الخبيث من الطيب فالطيبون وهم المؤمنون الصالحون يعبرون الصراط إلى الجنة دار النعيم، وأما الخبيث وهم فريق المشركين فيجعل بعضه إلى بعض فيركمه جميعاً كوماً واحداً فيجعله في جهنم. وقوله تعالى {أولئك هم الخاسرون} إشارة إلى الذين أنفقوا أموالهم للصد عن سبيل الله وماتوا على الكفر فحشروا إلى جهنم وجعل بعضهم إلى بعض ثم صيروا كوماً واحداً ثم جعلوا في نار جهنم هم الخاسرون بحق حيث خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم وكل شيء وأمساوا في قعر جهنم مبلسين والعياذ بالله من الخسران المبين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- كل نفقة ينفقها العبد للصد عن سبيل الله بأي وجه من الوجوه تكون عليه حسرة عظيمة يوم القيامة.

2- كل كافر خبيث وكل مؤمن طيب.

3- صدق وعد الله تعالى لرسوله والمؤمنين بهزيمة المشركين وغلبتهم وحسرتهم على ما أنفقوا في حرب الإسلام وضياع ذلك كله وخيبتهم فيه.

- 1 لما هزمت قريش في بدر قام أبو سفيان بحملة جمع فيها الأموال لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتقام لمن مات من صناديد قريش فجمع المال وشنّ حرباً أهدى الألبان وأحارباً وخسراً كما أخبر تعالى: ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون.
- 2 والآية يدخل فيها المطعمون ببدر إذ كانوا اثني عشر رجلاً فكان الواحد منهم يطعم جيش قريش عشرة من الإبل يومياً طيلة ما هم في بدر، فخابوا في نفقاتهم وهلكوا.

(2/306)

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

شرح الكلمات:

إن ينتهوا: عن الكفر بالله ورسوله وحرب الرسول والمؤمنين.

ما قد سلف: أي مضى من ذنوبهم من الشرك وحرب الرسول والمؤمنين.

مضت سنة الأولين: في إهلاك الظالمين.

لا تكون فتنة: أي شرك بالله واضطهاد وتعذيب في سبيل الله.

ويكون الدين كله لله: أي حتى لا يعبد غير الله.

مولاكم: متولي أمركم بالنصر والتأييد.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان الإجراءات الواجب اتخاذها إزاء الكافرين فيقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {قل للذين كفروا} 1 مبلغاً عنا {إن ينتهوا} أي عن الشرك والكفر والعصيان وترك حرب الإسلام وأهله {يغفر لهم ما قد سلف} يغفر الله لهم ما قد مضى 2 من ذنوبهم العظام وهي

الشرك والظلم، وهذا وعد صدق ممن لا يخلف الوعد سبحانه وتعالى. {وإن يعودوا} إلى الظلم والاضطهاد والحرب فسوف يحل بهم ما حل بالأمم السابقة قبلهم لما ظلموا فكذبوا الرسل وآذوا المؤمنين وهو معنى قوله تعالى {فقد مضت سنة

- 1 نزلت في أبي سفيان ورجاله المشركين في مكة قبل الفتح.
- 2 في الصحيح: "الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها".

(2/307)

الأولين} أي سنة الله والطريقة المتبعة فيهم وهي أخذهم 1 بعد الإنذار والإعذار. ثم في الآية الثانية من هذا السياق يأمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بقتال المشركين قتالاً يتواصل بلا انقطاع إلى غاية هي: أن لا تبقى فتنة أي شرك ولا اضطهاد لمؤمن 2 أو مؤمنة من أجل دينه ، وحتى يكون الدين كله لله فلا يعبد 3 مع الله أحد سواه {فإن انتهوا} أي عن الشرك والظلم فكفوا عنهم وإن انتهوا في الظاهر ولم ينتهوا في الباطل فلا يضرركم ذلك {فإن الله بما يعملون بصير} وسيظهرهم لكم ويسلطكم عليهم. وقوله في ختام السياق {وإن تولوا} أي نكثوا العهد وعادوا إلى حركم بعد الكف عنهم فقاتلوهم ينصركم الله عليهم واعلموا أن الله مولاكم فلا يسلمهم عليكم، بل ينصركم عليهم إنه {نعم المولى} لمن يتولى {ونعم النصير} لمن ينصر.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان سعة فضل الله ورحمته.
- 2- الإسلام يجبّ أي يقطع ما قبله، فيغفر لمن أسلم كل ذنب قارفه من الكفر وغيره.
- 3- بيان سنة الله في الظالمين وهي إهلاكهم وإن طالّت مدة الإملاء والإنظار.
- 4- وجوب قتال المشركين على المسلمين ما بقي في الأرض مشرك.
- 5- نعم المولى الله جل جلاله لمن تولاه، ونعم النصير لمن نصره.

- 1 أخذهم: أي بالعذاب العاجل والعقوبة الشديدة.
- 2 الاضطهاد: هو فتنة قريش للمؤمنين حيث فتنّوهم حتى هاجروا إلى الحبشة وفتنّوهم حتى هاجروا إلى المدينة ومعنى: فتنّوهم. عدّبوهم ليردّوهم إلى الشرك والكفر.
- 3 يشهد له قوله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله عز وجل" في الصحيحين.

الجزء العاشر

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ (41) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافُنَّ فِي
 الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
 لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّنِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ
 لِيُقْضَىٰ لِلَّهِ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

شرح الكلمات :

أنما غنمتم من شيء : أي ما أخذتموه من مال الكافر قهراً لهم وغلبة قليلاً كان أو كثيراً.
 فإن لله خمسه : أي خمس الخمسة أقسام، يكون لله والرسول ومن ذكر بعدهما.
 ولذی القری : هم قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب.
 وما أنزلنا على عبدنا : أي من الملائكة والآيات.

يوم الفرقان : أي يوم بدر وهو السابع عشر من رمضان، إذ فرق الله فيه بين الحق والباطل.
 التقى الجمعان.: جمع المؤمنين وجمع الكافرين ببدر.
 العدو الدنيا: العدو حافة الوادي، وجانبه والدنيا أي القريبة إلى المدينة.
 بالعدو القصوى : أي البعيد من المدينة إذ هي حافة الوادي من الجهة الأخرى.
 والركب أسفل منكم : أي ركب أبي سفيان وهي العير التي خرجوا من أجلها. أسفل منكم مما يلي
 البحر.

عن بيينة: أي حجة ظاهرة.

لتنازعتم في الأمر :أي اختلفتم.

ويقللكم في أعينهم : هذا قبل الالتحام أما بعد فقد رأوهم مثليهم حتى تتم الهزيمة لهم.

معنى الآيات:

هذه الآيات لا شك أنها نزلت في بيان قسمة الغنائم بعدما حصل فيها من نزاع فافتكها الله تعالى

منهم ثم قسمها عليهم فقال الأنفال لله وللرسول في أول الآية ثم قال هنا {واعلموا} أيها المسلمون {أنما غنمتم 1 من شيء 2} حتى الخيط والمخييط، ومعنى غنمتم أخذتموه من المال من أيدي الكفار المحاربين لكم غلبة وقهراً لهم فقسمته هي أن {لله خمسها وللرسول ولذي القربى 3 واليتامى والمساكين وابن السبيل} والأربعة أخماس 4 الباقية هي لكم أيها المجاهدون للراجل قسمة وللفراس قسمان لما له من تأثير

1 الغنيمة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي وهو قتال الكافرين لغرض هدايتهم إلى الإسلام ليكملوا ويسعدوا، قال الشاعر:

وقد طوّفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

2 الإجماع على أن هذا الحكم ليس على عمومه بل هو مخصص بقول الإمام: مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ، وكذا الرقاب، فالإمام مخير فيها بين القتل والفداء والمَنْ وليس هذا للغانمين، وكذا السلب فإن من سلب مقاتلاً شيئاً كسلاحه وفرسه فهو له أيضاً.

3 المراد بذي القربى: قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم بنو هاشم، وهو مذهب مالك، وزاد الشافعي وأحمد: بني المطلب لأن بني هاشم وبني المطلب شيء واحد، ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذي القربى بين بني هاشم وبين عبدالمطلب قال: "إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبّك بين أصابعه" رواه البخاري.

4 من باب الإطلاع لا غير أذكر أنّ بعضاً قال: الغنيمة خمسها لله والأربعة أخماس للإمام إن شاء حبسها وإن شاء قسمها على الغانمين وهو قول مخالف لما عليه جمهور الفقهاء.

(2/310)

في الحرب، ولأن فرسه يحتاج إلى نفقة علف. والمراد من قسمة الله أنها تنفق في المصالح العامة ولو أنفقت على بيوته لكان أولى وهي الكعبة وسائر المساجد، وما للرسول فإنه ينفقه على عائلته، وما لذي القربى فإنه ينفق على قرابة الرسول الذين يحرم عليهم أخذ الزكاة لشرفهم وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وما لليتامى ينفق على فقراء المسلمين، وما لابن السبيل ينفق على المسافرين المنقطعين عن بلادهم إذا كانوا محتاجين إلى ذلك في سفرهم وقوله تعالى {إن كنتم آمنتم بالله} أي رباً {وما أنزلنا على عبدنا} أي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم {يوم الفرقان يوم التقى الجمعان} وهو يوم بدر حيث التقى المسلمون بالمشركين، والمراد بما أنزل تعالى على عبده ورسوله الملائكة والآيات منها الرمية التي رمى بها المشركين فوصلت إلى أكثرهم فسببت هزيمتهم. وقوله {والله على كل شيء قدير} أي كما قدر على نصركم على قتلكم وقدر على هزيمة عدوكم على

كثرتهم هو قادر على كل شيء يريدته وقوله تعالى ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم﴾ تذكير لهم بساحة المعركة التي تجلت فيها آيات الله وظهر فيها إنعامه عليهم ليتهيئوا للشكر. وقوله تعالى ﴿ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد﴾ أي لو تواعدتم أنتم والمشركون على اللقاء في بدر للقتال لاختلقتم لأسباب تقتضي ذلك منها أنكم قلة وهم كثرة لولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً أي محكوماً به في قضاء الله وقدره، وهو نصركم وهزيمة عدوكم. وجمعكم من غير تواعد ولا اتفاق سابق. وقوله تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ هذا تعليل لفعل الله تعالى يجمعكم في وادي بدر للقتال وهو فعل ذلك ليحيا بالإيمان من حيى على بينة وعلم أن الله حق والإسلام حق والرسول حق والدار الآخرة حق حيث أراهم الله الآيات الدالة على ذلك، ويهلك من هلك بالكفر على بينة إذ أتضح له أن ما عليه المشركون كفر وباطل وضلال ثم رضي به واستمر عليه. وقوله تعالى ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ تقرير لما سبق وتأكيد له حيث أخبر تعالى أنه سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم فما أخبر به وقرره هو كما أخبر وقرر. وقوله تعالى ﴿وإذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ أي فأخبرت أصحابك ففرحوا بذلك

1 ركب أبي سفيان، ولفظ الركب لا يطلق إلا على الراكبين، والركب مبتدأ، والخبر متعلق أسفل الظرف أي: كائن أسفل منكم.

(2/311)

وسرُّوا ووطنوا أنفسهم للقتال، وقوله: ﴿ولو أراهم كثيراً﴾ أي في منامك وأخبرت به أصحابك لفشلتهم أي جبنتم عن قتالهم، ولتنازعتهم في أمر قتالهم ﴿ولكن الله سَلَمٌ﴾ من ذلك فلم يريكهم كثيراً إنه تعالى عليم بذات الصدور ففعل ذلك لعلمه بما يترتب عليه من خير وشر. وقوله تعالى ﴿وإذ يريكهم﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكهم الله الكافرين عند التناقض بهم قليلاً في أعينكم كأنهم سبعون رجلاً أو مائة مثلاً ويقللكم سبحانه وتعالى في أعينهم حتى لا يهابوكم. وهذا كان عند المواجهة وقبل الالتحام أما بعد الالتحام فقد أرى الله تعالى الكافرين أراهم المؤمنين ضعفيهم في الكثرة وبذلك انهزموا كما جاء ذلك في سورة آل عمران في قوله ﴿يرونهم مثليهم﴾ وقوله تعالى ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ تعليل لتلك التدابير الإلهية لأوليائه لنصرتهم وإعزازهم وهزيمة أعدائهم وإذلالهم وقوله تعالى ﴿إلى الله ترجع الأمور﴾ إخبار منه تعالى بأن الأمور كلها تصير إليه فما شاء منها كان وما لم يشأ لم يكن خبيراً كان أو غيراً.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- بيان قسمة الغنائم على الوجه الذي رضي به الله تعالى.
 - 2- التذكير بالإيمان، إذ هو الطاقة الموجهة باعتبار أن المؤمن حي بإيمانه يقدر على الفعل والترك، والكافر ميت فلا يكلف.
 - 3- فضيلة غزوة بدر وفضل أهلها.
 - 4- بيان تدبير الله تعالى في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.
 - 5- بيان أن مرد الأمور نجاحاً وخيبة لله تعالى ليس لأحد فيها تأثير إلا بإذنه.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45)

1 قال أبو جهل: إنهم أكلة جزور خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعين الكفار وكثروا حتى أنهم يرونهم مثليهم.

(2/312)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَازَعُوا فَنفَشُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَءَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

شرح الكلمات:

فئة: طائفة مقاتلة.

فاثبتوا : لقاتلها واصمدوا.

واذكروا لله كثيراً : مهللين مكبرين راجين النصر طامعين فيه سائلين الله تعالى ذلك.

تفلقون: تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة في الدنيا والنار في الآخرة.

ولا تتازعوا.: أي لا تختلفوا وأنتم في مواجهة العدو أبداً.

وتذهب ريحكم 1 : أي قوتكم بسبب الخلاف.

1 يرى بعضهم أن الريح ريح الصبا التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم "تصرت بالصبا، واهلكت عاد بالدبور" يريد أنهم بعدم طاعتهم يحرمون الريح التي بها نصرهم وهو معنى لا بأس به.

خرجوا من ديارهم بطراً : أي للبطر الذي هو دفع الحق ومنعه.
وقال إني جار لكم : أي مجير لكم ومعين على عدوكم.
تراعت الفئتان : أي التقتا ورأت كل منهما عدوها.
نكص على عقبيه: أي رجع إلى الوراء هارباً، لأنه جاءهم في صورة سراقة بن مالك.
إني أرى ما لا ترون : من الملائكة.
والذين في قلوبهم مرض: أي ضعف في إيمانهم وخلل في اعتقادهم.
معنى الآيات:

هذا النداء الكريم موجه إلى المؤمنين وقد أذن لهم في قتال الكافرين، وبدأ بسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وثى بهذه الغزوة بدر الكبرى فلذا هم في حاجة إلى تعليم رباني وهداية إلهية يعرفون بموجبها كيف يخوضون المعارك وينتصرون فيها وفي هذه الآيات الأربع تعليم عال جداً لخوض المعارك والانتصار فيها وهذا بيانها:

- 1- الثبات في وجه العدو والصمود في القتال حتى لكان المجاهدين جبل شامخ لا يتحرك ليا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة} أي جماعة مقاتلة {فانثبوا}.
- 2- ذكر الله تعالى تهليلاً وتكبيراً وتسييحاً ودعاء 1 وضراعة ووعداً ووعيداً. {واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون} أي تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة والمذلة في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة.
- 3- طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما ومنه طاعة قائد المعركة ومديرها وهذا من أكبر عوامل النصر حسب سنة الله تعالى في الكون {وأطيعوا الله ورسوله}.
- 4- عدم التنازع والخلاف عند التدبير للمعركة وعند دخولها وأثناء خوضها.
- 5- بيان نتائج التنازع والخلاف وإنها: الفشل الذريع، وذهاب القوة المعبر عنها بالريح

1 الذكر المطلوب هو: ما كان باللسان والقلب معاً، في الآية دليل على أنّ ذكر الله تعالى لا يترك في حال إلا في حال التغوط، قال محمد القرطبي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لذكركم إذ قال له تعالى: {ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً} ولرخص لرجل في الحرب لقوله تعالى: {إذا لقيتم فئة فانثبوا واذكروا الله كثيراً} وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً إلا أن يكون في بداية الحملة بصوت واحد: الله أكبر فإن ذلك محمود لأنه يربح العدو ويفت في أعضاده.

{ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} 1.

6- الصبر على مواصلة القتال والإعداد له وتوطين النفس وإعدادها لذلك. {واصبروا إن الله مع الصابرين}.

7- الإخلاص في القتال والخروج له لله تعالى فلا ينبغي أن يكون لأي اعتبار سوى مرضاة الله تعالى {ولا تكونوا كالذين 2 خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط}.

هذه عوامل النصر وشروط الجهاد في سبيل الله تضمنتها ثلاث آيات من هذه الآيات الخمس وقوله تعالى في الآية الرابعة (48) {واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب} يذكر تعالى المؤمنين بحادثة حدثت يوم بدر من أغرب الحوادث لتكون عبرة وموعظة للمؤمنين فيقول عز وجل واذكروا إذ زين الشيطان للمشركين الذين نهيتكم أن تتشبها بهم في سيرهم وقتالهم وفي كل حياتهم، فقال لهم: أقدموا على قتال محمد والمؤمنين، ولا ترهبوا ولا تخافوا إنه لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم أي مجير لكم وناصر ومعين. وكان الشيطان في هذه الساعة في صورة رجل من أشراف قبيلته يقال له سراقة بن مالك 3 فلما تراءت الفئتان لبعضهما البعض وتقدموا للقتال رأى الشيطان جبريل في صفوف الملائكة، فنكص على عقبيه، وكان آخذاً بيد الحارث بن هشام يحدثه يعده ويمنيه بعد ما زين لهم خوض المعركة وشجعهم على ذلك، وولى هارباً فقال له الحارث: ما بك ما أصابك تعال فقال وهو هارب {إني أرى ما لا ترون} يعني الملائكة {إني أخاف 4 الله والله شديد العقاب}

1 المراد بالريح هنا: القوة والنصر، كما يقال. الريح لفلان إذا كان غالباً في أمره ومنه قول الشاعر:
إذا هبت رياحك فاغتمها ... فإن لكل خافته سكون
جملة: لكل خافته سكون: خبر إن واسمها: ضمير شأن.
2 هم أبو جهل وأصحابه الخارجون يوم بدر لنصرة العير حيث خرجوا بالقينات والمغنيات والمعازف.

3 هو سراقة بن مالك بن جعشم من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف س بني بكر أن يأتوهم من ورائهم لأنهم قتلوا رجلاً منهم فلما تمثل لهم الشيطان في صورة سراقة سكنوا لذلك.
4 قيل: إن الشيطان خاف أن يكون يوم بدر هو اليوم الذي انظر إليه، وقيل: كذب وهو كذوب.

وصدق وهو كذوب وقوله تعالى في نهاية الآية (49) {إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض
غر هؤلاء دينهم} أي واذكروا أيها المؤمنون للعبرة والاتعاظ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم 1
مرض أي ضعف في الإيمان وتخلخل في العقيدة: غر هؤلاء دينهم وإلا لما خرجوا لقتال قريش وهي
تفوقهم عدداً وعدة، ومثل هذا الكلام يعتبر عادياً من ضعاف الإيمان والمنافقين المستترين بزيف
إيمانهم، فاذكروا هذا، ولا يفت في اعضاءكم مثل هذا الكلام، وتوكلوا على الله واثقين في نصره فإنه
ينصركم لأنه عزيز لا يغالب ولا يمانع في ما يريد أبدأً. حكيم يضع النصر في المتأهلين له
بالإيمان والصبر والطاعة له ولرسوله، والإخلاص له في العمل والطاعة.
هداية الآيات.

من هداية الآيات:

- 1- بيان أسباب النصر وعوامله ووجوب الأخذ بها في كل معركة وهي: الثبات وذكر الله تعالى،
وطاعة الله ورسوله وطاعة القيادة وترك النزاع والاختلاف والصبر والإخلاص.
- 2- بيان عوامل الفشل والخيبة وهي النزاع والاختلاف والبطر والرياء والاعتزاز.
- 3- بيان عمل الشيطان في نفوس الكافرين بتزيينه لهم الحرب ووعده وتمنيته لهم.
- 4- بيان حال المنافقين وضعفة الإيمان عند وجود القتال ونشوب الحروب.
- 5- وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه مهما كانت دعاوى المبطلين والمثبطين والمنهزمين.
وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (51)

-
- 1 لقد اختلف في المراد بالمنافقين هنا، وكذا الذين في قلوبهم مرض إذ يبعد أن يكون في المشركين
منافقون، كما يبعد أن يكون في أهل بدر منافقون، والذي يدو أنه الراجح: أن القائلين هذه المقالة هم
منافقون وضعفة إيمان بالمدينة لما رأوا خروج الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بدر قالوا
هذه القولة القبيحة ويكون الظرف "إذ" متعلق بشديد العقاب لا بزین".
 - 2 لا يتعارض هذا القول مع ما رجحناه من أن القائلين هذه المقولة هم منافقون وضعاف إيمان
بالمدينة، إذ هذه الحال تنطبق عليهم.

كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (53) كَدَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)

شرح الكلمات:

إذ يتوفى.: أي يقبض أرواحهم لإماتتهم.

وجوههم وأدبارهم : أي يضربونهم من أمامهم ومن خلفهم.

بظلام للعبيد: أي ليس بذئ ظلم للعبيد كقوله {ولا يظلم ربك أحداً}.

كدأب آل فرعون : أي دأب كفار قريش كدأب آل فرعون في الكفر والتكذيب والدأب العادة.

لم يك مغيراً نعمة: تغيير النعمة تبديلها بنقمة بالسلب لها أو تعذيب أهلها.

آل فرعون: هم كل من كان على دينه من الأقباط مشاركاً له في ظلمه وكفره.

معنى الآيات:

ما زال السياق مع كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس فيقول تعالى لرسوله {ولو
ترى إذ يتوفى الذين 1 كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم}2 وهم يقولون لهم {وذاقوا عذاب
الحريق} وجواب لولا محذوف تقديره {لرأيت أمراً فظيماً} وقوله تعالى

1 جائز أن يكون المراد من هؤلاء قتلى بدر المشركين وجائز أن يكونوا ممن لم يقتلوا ببدر، وماتوا
بمكة وغيرها.

2 قال الحس البصري: المراد من أدبارهم: ظهورهم وقال: "إن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه
وسلم: يا رسول الله: إنني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشرك "أي: سير النعل"؟ قال: ذلك ضرب
الملائكة".

3 يقال لهم عند قبض أرواحهم، إذ بمجرد أن تقبض الروح يلقي بها في جهنم، كما يقال لهم يوم
القيامة ذلك من قبل الملائكة.

(2/317)

{ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظالم للعبيد} هو قول الملائكة لمن يتوفونهم من الذين كفروا.
أي ذلك الضرب والتعذيب بسبب ما قدمت أيديكم من الكفر والظلم والشر والفساد وأن الله تعالى
ليس بظالم لكم فإنه تعالى لا يظلم أحداً وقوله تعالى {كدأب آل فرعون 1 والذين من قبلهم} أي دأب
هؤلاء المشركين من كفار قريش في كفرهم وتكذيبهم كدأب آل فرعون والذين هن قبلهم {كفروا بآيات

الله فأخذهم الله بذنوبهم} وكفر هؤلاء فأخذهم الله بذنوبهم، وقوله {إن الله قوي شديد العقاب} يشهد له فعله بآل فرعون والذين من قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات وأخيراً أخذه تعالى كفار قريش في بدر أخذ العزيز المقتدر، وقوله تعالى {ذلك بأن الله 2 لم يك 3 مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} إشارة إلى ما أنزله من عذاب على الأمم المكذبة الكافرة الظالمة، وإلى بيان سنته في عباده وهي أنه تعالى لم يكن من شأنه أن يغير نعمة أنعمها على قوم كالأمن والرخاء، أو الطهر والصفاء حتى يغيروا هم ما بأنفسهم بأن يكفروا ويكذبوا، ويظلموا أو يفسقوا ويفجروا، وعندئذ يغير تلك النعم بنقم فيحل محل الأمن والرخاء والخوف والغلاء ومحل الطهر والصفاء الخبث والشر والفساد. هذا إن لم يأخذهم بالإبادة الشاملة والاستئصال التام. وقوله تعالى {وأن الله سميع عليم} أي لأقوال عباده وأفعالهم فلذا يتم الجزاء عادلاً لا ظلم فيه. وقوله تعالى {كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا 5} آيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين} هذه الآية تشبه الآية السابقة إلا أنها تخالفها فيما يلي: في الأولى الذنب الذي أخذ به الهالكون كان الكفر، وفي هذه: كان التكذيب، في الأولى: لم يذكر نوع العذاب، وفي الثانية انه الإغراق، في الأولى لم يسجل عليهم سوى الكفر فهو ذنبهم لا غير وفي الثانية سجل على الكل ذنباً آخر وهو الظلم إذ قال {وكل كانوا ظالمين} أي بكفرهم وتكذيبهم، وصددهم عن سبيل الله وفسقهم عن طاعة الله ورسوله مع زيادة التأكيد

- 1 الباء في قوله: {ذلك بأن الله} سببية والجملة مسوقة للتعليل.
- 2 {لم يك} أي: لم ينبغ له، ولم يصحّ منه لبالغ حكمته وعدله ورحمته.
- 3 {كذاب} خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دأب هؤلاء كذاب آل فرعون، والدأب: العادة المستمرة.
- 4 {كذبوا} الخ.. تفسير دأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم.
- 5 وجائز أن يكون المراد: كذاب آل فرعون أي: في تعذيبهم عند قبض أرواحهم، وفي قبورهم ويوم القيامة.

(2/318)

والتقرير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عذاب القبر بتقرير العذاب عند النزاع.
- 2- هذه الآية نظيرها آية الأنعام {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم

أي بالضرب.

3- تنزه الخالق عز وجل عن الظلم لأحد 1.

4- سنة الله تعالى في أخذ الظالمين وإبدال النعم بالنقم.

5- لم يكن من سنة الله تعالى في الخلق تغيير ما عليه الناس من خير أو شر حتى يكونوا هم البادئين.

6- التنديد بالظلم وأهله، وأنه الذنب الذي يطلق على سائر الذنوب.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِذَا تَتَفَقَّهُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ (57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ (59)

شرح الكلمات:

شر الدواب: 2: من إنسان أو حيوان الذين ذكر الله وصفهم وهم بنو قريظة.

1 شاهده حديث مسلم عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".
2 الدواب: كل ما يدب على وجه الأرض من حيوان، و{عند الله}: أي: في علمه وحكمه.

(2/319)

فهم لا يؤمنون: لما علم الله تعالى من حالهم أخبر أنهم يموتون على الكفر.

ينقضون عهدهم: أي يحلونه ويخرجون منه فلا يلتزموا بما فيه.

في كل مرة: أي عاهدوا فيها.

فإما تتفقتهم: أي أن تجدتهم، وما مزيدة أدغمت في إن الشرطية.

فشرد: أي فرق وشتت.

يذكرون: أي يتعظون.

فانبذ إليهم: أي اطرح عهدهم.

على سواء 1: أي على حال من العلم تكون أنت وإياهم فيها سواء، أي كل منكم عالم بنقض المعاهدة.

الخائنين: الغادرين بعهودهم.

سبقوا: أي فاتوا الله ولم يتمكن منهم.

معنى الآيات:

بمناسبة ذكر خصوم الدعوة الإسلامية والقائم عليها وهو النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تعالى خصوصاً لها آخرين غير المشركين من كفار قريش وهم بنو 2 قريظة من اليهود. فأخبر تعالى عنهم أنهم شر الدواب من الإنسان والحيوان ووصفهم محدداً لهم ليعرفوا، وأخبر أنهم لا يؤمنون لتوغلهم في الشر والفساد، فقال: {إن شر الدواب عند الله} أي في حكمه وعلمه. {الذين كفروا فهم لا يؤمنون} وخصصهم بوصف آخر خاص بهم فقال: {الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون} وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عاهدهم أول مرة على أن لا يحاربوه ولا يعينوا أحداً على حربه فإذا بهم يعينون قريشاً بالسلاح، ولما انكشف أمرهم اعتذروا معترفين بخطيئهم، وعاهدوا مرة أخرى على أن لا يحاربوا الرسول ولا يعينوا من يحاربه فإذا بهم ينقضون عهدهم مرة أخرى ويدخلون في حرب ضده حيث انضموا إلى الأحزاب في غزوة الخندق هذا ما دل عليه قوله تعالى {إن شر

1 أي: جهراً لا سراً حتى يكونوا وأنتم بالعلم بنبذ المعاهدة على حد سواء.

2 وبنو النضير كذلك إذ أعانوا قريشاً بالسلاح ثم لما انكشف أمرهم اعتذروا، وأما قريظة، فقد نقضوا عهدهم مرتين إذ انضموا إلى الأحزاب في حربهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

(2/320)

الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل 1 مرة؛ أي يعاهدون فيها. {وهم لا يتقون} أي لا يخافون عاقبة نقض المعاهدات والتلاعب بها حسب أهوائهم. وقوله تعالى. {فإما تتقنهم في الحرب فشرد بهم} 2 من خلفهم لعلهم يذكرون} يرشد رسوله أمراً إياه بما يجب أن يتخذه إزاء هؤلاء الناكثين للعهد المنغمسين في الكفر. بحيث لا يخرجون منه بحال من الأحوال، ويشهد لهذه الحقيقة أنهم لما حوصروا في حصونهم ونزلوا منها مستسلمين كان يعرض على أحدهم الإسلام حتى لا يقتل فيؤثر باختياره القتل على الإسلام وماتوا كافرين وصدق الله إذ قال {فهم لا يؤمنون} فهؤلاء إن تقنهم في حرب أي وجدتهم متمكناً منهم فاضربهم بعنف وشدة وبلا هوادة حتى تشرد أي تفرق بهم من خلفهم من أعداء الإسلام المتريبين بك الدوائر من كفار قريش وغيرهم لعلهم يذكرون أي يتعظون فلا يفكروا في حربك وقتالك بعد، وقوله {وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين} هذا إرشاد آخر للرسول صلى الله عليه وسلم يتعلق بالخطط الحربية الناجحة وهو أنه صلى الله عليه وسلم إن خاف من قوم معاهدين له خيانة

ظهرت أماراتها وتأكد لديك علاماتها فاطرح تلك المعاهدة ملغياً لها معلناً ذلك لتكون وإياهم على علم تام بإلغائها، وذلك حتى لا يتهموك بالغدر والخيانة، والله لا يحب الخائنين. وقاتلهم مستعيناً بالله عليهم وستكون الدائرة على الناكث الخائن، وهذا ضرب من الحزم وصحة العزم إذ ما دام قد عزم العدو على النقص فقد نقص فليبادر لافتكاك عنصر المباغته من يده، وهو عنصر مهم في الحروب. وقوله تعالى {ولا يحسن الذين كفروا} وهم من هرب من بدر من كفار قريش {سبقوا} أي فاتوا فلم يقدر الله تعالى عليهم {إنهم لا يعجزون} أي إنهم لا يعجزون الله بحال فإنه

- 1 سبحان الله، هذا الوصف الخسيس ما زال ملازماً لليهود إلى اليوم فلا يوفون بعهد ولا ذمة أبداً، وصدق الله العظيم إذ قال عنهم. {كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم}.
- 2 يقال: شرد البعير أو الدابة إن فارقت صاحبها، وشرده إذا عمل على تشريده بسبب، وشردت بني فلان: إذا حملتهم على مفارقة منازلهم قال الشاعر:
أطوف ني الأباطح كل يوم ... مخافة أن يُشرد بي حكيم
- 3 غشا ونقضاً للعهد والآية عامة، فهي مبدأ حربي يأخذ به المسلمون إلى يوم القيامة، ولا وجه لذكر الخلاف هل هي في بني قريظة أو بني النضير؟ وخوف الخيانة ها معناه: الظن الغالب وذلك بظهور علامات خيانة العدو واضحة.
- 4 أي: من أقلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة، وقوله تعالى: {إنهم لا يعجزون} أي: في الدنيا حتى يظفرك الله بهم.

(2/321)

تعالى لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن شر الدواب هم الكفار من أهل الكتاب والمشركين بل هم شر البرية.
- 2- سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد يُحرم التوبة فلا يموت إلا كافراً.
- 3- من السياسة الحربية النافعة أن يضرب القائد عدوه بعنف وشدة ليكون نكالا لغيره من الأعداء.
- 4- حرمة الغدر والخيانة.
- 5- جواز إعلان إلغاء المعاهدة وضرب العدو فوراً إن بدرت منه بوادر واضحة بأنه عازم على نقض المعاهدة [وذلك لتفويت عنصر المباغته عليه.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا

تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَحُوا
لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ
هُوَ الَّذِي أَبَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

1 روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل غادر لواء يوم
القيامة يرفع له بقدر غدرته ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" وروى أبو داود والترمذي أن
معاوية رضي الله عنه كان بينه وبين الروم عهد، فلما قارب تاريخ العهد الانقضاء سار إليهم بجيشه
فجاء عمرو بن عبسة فقال له سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان بينه وبين قوم
عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء" فرجع معاوية بالناس.

(2/322)

شرح الكلمات:

أعدوا : هيئوا وأحضروا.

ما استطعتم: ما قدرتم عليه.

من قوة : أي حربية من سلاح على اختلاف أنواعه.

يوفَّ إليكم : أي أجره وثوابه.

وإن جنحوا للسلم : أي مالوا إلى عدم الحرب ورجعوا في ذلك.

فإن حسبك الله : أي يكفيك شرهم، وينصرك عليهم.

ألف بين قلوبهم : أي جمع بين القلوب الأنصار بعدما كانت متنافرة مختلفة.

إنه عزيز حكيم: أي غالب على أمره، حكيم في فعله وتدبير أمور خلقه.

معنى الآيات:

بمناسبة انتهاء معركة بدر وهزيمة المشركين فيها، وعودتهم إلى مكة وكلهم تغيظ على المؤمنين
وفعلًا أخذ أبو سفيان يعد العدة للانتقام. وما كانت غزوة أحد إلا نتيجة لذلك هنا أمر الله تعالى
رسوله والمؤمنين بإعداد القوة وبذل ما في الوسع والطاقة لذلك فقال تعالى لواعدوا لهم 1 ما استطعتم
من قوة} وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي بقوله "ألا إن القوة 2 الرمي" قالها ثلاثاً
وقوله تعالى لومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله
يعلمهم} يخبر تعالى عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بإعداد القوة على اختلافها بأن رباطهم للخيل
وحبسها أمام دورهم معدة للغزو والجهاد عليها يرهب أعداء الله من الكافرين والمنافقين أي يخوفهم

حتى لا يفكروا في غزو المسلمين وقتالهم، وهذا ما يعرف بالسلم المسلح، وهو أن الأمة إذا كانت مسلحة قادرة على القتال يرهبها أعداؤها فلا يحاربونها، وإن رأوها لا عدة لها ولا عتاد ولا قدرة على رد أعدائها أغراهم ذلك بقتالها فقاتلوا. وقوله تعالى {وآخرين من دونهم} أي من دون كفار

1 روى مسلم عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: "واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي" وعن عقبة أيضاً قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجزه أحدكم أن يلهو بأسهمه" وقال صلى الله عليه وسلم: "كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه.. وملاعبته أهله فإنه من الحق".

2 ومما يدل على فضل الرمي في سبيل الله قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي داود والترمذي والنسائي: "إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي ومُنْبَلُهُ".

(2/323)

قريش، وقوله {لا تعلمونهم الله يعلمهم} من الجائز أن يكونوا اليهود أو المجوس أو المنافقين، وأن يكونوا الجن أيضاً، وما دام الله عز وجل لم يُسمهم فلا يجوز أن يقال هم كذا.. بصيغة الجزم، غير أنا نعلم أن أعداء المسلمين كل أهل الأرض من أهل الشرك والكفر من الإنس والجن، وقوله تعالى {وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون} إخبار منه تعالى أن ما ينفقه المسلمون من نفقة قلت أو كثرت في سبيل الله التي هي الجهاد يوفّهم الله تعالى إياها كاملة ولا ينقصهم منها شيئاً فجملة {وأنتم لا تظلمون} جملة خالية ومعناها لا يظلمكم الله تعالى بنقص ثواب نفقاتكم في سبيله هذا ما دلت عليه الآية الأولى (60) أما الآية الثانية وهي قوله تعالى {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم} فإن الله تعالى يأمر رسوله وهو قائد الجهاد يومئذ بقبول السلم متى طلبها 2 أعداؤه ومالوا إليها ورغبوا بصدق فيها، لأنه صلى الله عليه وسلم رسول رحمة لا رسول عذاب، وأمره أن يتوكل على الله في ذلك أي يطيعه في قبول السلم ويفوض أمره إليه ويعتمد عليه فإنه تعالى يكفيه شرّ أعدائه لأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم وأحوالهم لا يخفى عليه من أمرهم شيء فلذا سوف يكفي رسوله شرّ خداعهم إن أرادوا خداعه بطلب السلم والمسالمة، وهذا معنى قوله تعالى في الآيتين (62) و (63) {وإن يريدوا أن يخدعوك} أي بالميل إلى السلم والجنوح 3 إليها {فإن حسبك الله} أي كافيك إنه {هو الذي أيدك بنصره} أي في بدر {وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم} أي جمع بين تلك القلوب المتنافرة المنطوية على الإحن والعداوات

ولأقل الأسباب وأتقها، لقد كان الأنصار يعيشون على عداوة عظيمة فيما بينهم حتى إن حرباً وقعت بينهم مائة وعشرين سنة فلما دخلوا في الإسلام اصطلحوا وزالت كل آثار العداوة والبغضاء وأصبحوا جسماً واحداً مَنْ فعل هذا سوى الله تعالى؟ اللهم لا أحد، ولذا قال تعالى لرسوله ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً﴾ أي من مال

1 {جئناكم}: مالوا، والجنوح: الميل أي: إذا مالوا إلى المسالمة التي هي الصلح فمِل إليها، اختلف هل هذه الآية منسوخة بآية: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} والصحيح، والذي به العمل أن الآية محكمة غير منسوخة، وأن المسلمين إذا كانوا في حالة ضعف يحتاجون فيها إلى تقوية بعقد هدنة أو مصالحة لدفع ضرر أو تحصيل نفع ظاهر وهم في حاجة إلى ذلك فإن لهم أن يجنحوا للسلام وإن كانوا أقوياء قادرين فلا يحلّ لهم إلاّ إنفاذ أمر الله تعالى بقتال العدو حتى يسلم أو يستسلم لحكم الإسلام.

2 السلم: مؤنثه ولذا عاد الضمير إليها مؤنثاً في قوله: {فاجنح لها}.

3 وهم يضمرون في نفوسهم نية الغدر بك والمكر ليخدعوك بذلك فامض في صلحك والله حسبك.

(2/324)

صامت وناطق {ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب إعداد القوة وهي في كل زمان بحسبه إن كانت في الماضي الرمح والسيف ورباط الخيل فهي اليوم النفاثة المقاتلة والصاروخ، والهدوجين والدبابة والغواصة، والبارجة.

2- تقرير مبدأ: السلم المسلح، إرجع إلى شرح الآيات.

3- لا يخلو المسلمون من أعداء ما داموا بحق مسلمين، لأن قوى الشر من إنس وجن كلها عدو لهم.

4- نفقة الجهاد خير نفقة وهي مضمونة التضعيف.

5- جواز قبول السلم في ظروف معينه، وعدم قبوله في أخرى وذلك بحسب حال المسلمين قوة وضعفاً.

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ حَقَّقَ اللَّهُ عَنَّكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتِينَ وَإِنْ

يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

1 المراد بالسلم: المهادنة، والموادعة، والصلح المؤقت، وقد تقدم بيانه، والإمام الشافعي يرى أن لا تزيد مدة المسالمة على عشر سنين قياساً على صلح الحديبية إذ كانت المدة عشر سنين لا غير.

(2/325)

شرح الكلمات:

حسبك الله 1 : أي كافيك الله كل ما يهكم من شأن أعدائك وغيرهم.

ومن اتبعك من المؤمنين : أي الله حسبهم كذلك أي كافيهم ما يههم من أمر أعدائهم.

حرض المؤمنين على القتال : أي حثهم على القتال مرغباً لهم مرهباً.

صابرون: أي على القتال فلا يضعفون ولا ينهزمون بل يثبتون ويقاتلون.

لا يفقهون.: أي لا يعرفون أسرار القتال ونتائجه بعد فنونه وحقق أساليبه.

معنى الآيات:

ينادي الرب تبارك وتعالى رسوله بعنوان النبوة التي شرفه الله بها على سائر الناس فيقول {يا أيها النبي} ويخبره بنعم الخبر مطمئناً إياه وأتباعه من المؤمنين بأنه كافيهم أمر أعدائهم فما عليهم إلا أن يقاتلوهما ما دام الله تعالى ناصرهم ومؤيدهم عليهم، فيقول: {حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين} ثم يُناديه ثانية قائلاً {يا أيها النبي} ليأمره بالأخذ بالأسباب الموجبة للنصر بإذن الله تعالى وهي تحريض المؤمنين على القتال وحثهم عليه وترغيبهم فيه فيقول {حرض 2 المؤمنين على القتال} ويخبره أمراً له ولأتباعه المؤمنين بأنه {إن يكن} أي يوجد منهم في المعركة {عشرون 3 صابرون يغلبوا مائتين}، وإن يكن منهم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الكافرين، ويعلل لذلك فيقول {بأنهم قوم لا يفقهون} أي لا يفقهون أسرار القتال وهي أن يعبد الله تعالى ويرفع الظلم من الأرض ويتخذ الله من المؤمنين شهداء فينزلهم منازل الشهداء عنده، فالكافرون لا يفقهون هذا فلذا

1 {حسبك} خبر مقدم ولفظ الجلالة مبتدأ أي: الله حسبك بمعنى كافيك: {ومن اتبعك} يصح أن يكون في موضع نصب عطفاً على الكاف في (حسبك)، والصواب أنها في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف والتقدير: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله أيضاً.

2 يقال: حرضه على كذا: حثه وحضّه وحارّض على الأمر وواظب وواصب وأكب بمعنى، والحارّض: الذي أشرف على الهلاك ومنه: (حتى تكون حرضاً) أي: تنوب عما فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين.

3 {إن يكن منكم عشرون صابرون ...} الخ لفظ مضمّن وعداً إلهياً مشروط بشرط الصبر، إذ تقدير الكلام: إن يصبر منكم عشرون صابرون الخ.

(2/326)

هم لا يصبرون على القتال لأنهم يقاثلون لأجل حياتهم فقط فإذا خافوا عنها تركوا القتال طلباً للحياة زيادة على ذلك أنهم جهال لا يعرفون أساليب الحرب ولا وسائلها الناجعة بخلاف المؤمنين فإنهم علماء، علماء بكل شيء هذا هو المفروض، وإن ضَعُفَ الإيمان ضعف تبعاً له الفقه والعلم وحل الجهل والضعف كما هو مشاهد اليوم في المسلمين وقوله تعالى {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً} فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين} الآن بعد علمه تعالى بضعفكم حيث لا يقوى الواحد على قتال عشرة، ولا العشرة على قتال مائة ولا المائة على قتال الألف خفف تعالى رحمة بكم ومنة عليكم، فنسخ 3 الحكم الأول بالثاني الذي هو قتال الواحد للثنتين، والعشرة للعشرين والمائة للمائتين، والألف للألفين، ومفاده أن المؤمن لا يجوز له أن يفر من وجه اثنين ولكن يجوز له أن يفر إذا كانوا أكثر من اثنين وهكذا سائر النسب فالعشرة يحرم عليهم أن يفر من عشرين ولكن يجوز لهم أن يفر من ثلاثين أو أربعين مثلاً. وهذا من باب رفع الحرج فقط وإلا فإنه يجوز للمؤمن أن يقاثل عشرة أو أكثر، فقد قاتل ثلاثة آلاف صحابي يوم مؤتة مائة وخمسين ألفاً من الروم والعرب المنتصرة وقوله تعالى {بإذن الله} أي بمعونته وتأييده إذ لا نصر بدون عون من الله تعالى وإذن، وقوله {والله مع الصابرين} أي بالتأييد والنصر والصبر شرط في تأييد الله وعونه فمن لم يصبر على القتال فليس له على الله وعد في نصره وتأييده.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا كافي إلا الله تعالى، ومن زعم أن هناك من يكفي سوى الله تعالى فقد أشرك.
- 2- وجوب تحريض. المؤمنين على الجهاد وحثهم عليه في كل زمان ومكان.
- 3- حرمة هزيمة الواحد من الواحد والواحد من الاثنين، ويجوز ما فوق ذلك.

1 لما شق على المؤمنين ثبات العشرة للمائة والعشرين للمائتين وثبات المائة للألف، خفف الله تعالى عنهم وأنزل قوله: {الآن خفف الله عنكم..} فرخّص للواحد أن يفر من أكثر من اثنين وهكذا إن شاء فإنه لا حرج.

2 قرىء ضعفاً بفتح الضاد وضمها، وقيل إن الفتح في ضعف العقول والضم في ضعف الأجسام،

والصحيح أنهما لغتان فصيحتان.

3 لا بأس أن يسمى هذا نسخاً لأنه حكم جديد غير الأول ويسمى تخفيفاً وهو حسن أيضاً.

(2/327)

4- وجوب تثقيف المجاهدين عقلاً وروحاً وصناعة.

5- وجوب الصبر في ساحة المعارك ويحرم الهزيمة إذا كان عدد المؤمنين اثني عشر ألف مقاتل أو أكثر إذ هذا العدد لا يغلب 1 من قلة بإذن الله تعالى.

6- معية الله بالعلم والتأييد والنصر للصابرين دون الجزعين.

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (69)

شرح الكلمات:

أسرى: جمع أسير وهو من أخذ في الحرب يشد عادة بإسار وهو قيد من جلد فأطلق لفظ الأسير 2 على كل من أخذ في الحرب.

حتى ينخن في الأرض: أي تكون له قوة وشدة يرهب بها العدو.

عرض الدنيا: أي المال لأنه عارض ويزول فلا يبقى.

لولا كتاب من الله سبق: وهو كتاب المقادير بأن الله تعالى أحل لنبي هذه الأمة الغنائم.

فيما أخذتم: أي بسبب ما أخذتم من فداء أسرى بدر.

حلالاً طيباً: الحلال هو الطيب فكلمة طيباً تأكيداً لحليّة اقتضاها المقام.

واتقوا الله: أي بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة بدر من ذلك أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلا عمر وسعد

1 روى احمد وأبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة" والمراد أن يغلب إن حصل لن يكون سببه قلة العدد وإنما يكون لأمر آخر كعدم الصبر أو عدم الأخذ بأسباب النصر التي يتم بها النصر حسب سنة الله.

2 أسير: كقتيل وجريح، ويجمع على أسرى كقتلى وجرحى، وعلى أسارى بضم الهمزة وفتحها، والضم أشهر.

(2/328)

بن معاذ رضي الله عنهما رغبوا في مفاداة الأسرى بالمال للظروف المعاشية القاسية التي كانوا يعيشونها، وكانت رغبتهم في الفداء بدون علم من الله تعالى بإحلالها أو تحريمها أما عمر فكان لا يعثر على أسير إلا قتله وأما سعد فقد قال (الاثخان في القتال أولى من استبقاء الرجال) ولما تم الفداء نزلت هذه الآية الكريمة تعاتبهم أشد العتاب فيقول تعالى {ما كان لنبي 1} أي ما صح منه ولا كان ينبغي له أن يكون له أسرى حرب يبيقهم ليفاديهم أو يمن عليهم مجاناً {حتى يثخن 2 في الأرض} أرض العدو قتلاً وتشريداً فإذا عرف بالبأس والشدة وهابه الأعداء جاز له الأسر أي الإبقاء على الأسرى أحياء ليمن عليهم بلا مقابل أو ليفاديهم بالمال، وقوله تعالى {تريدون عرض الدنيا} هذا من 3 عتابه تعالى لهم، إذ ما فادوا الأسرى إلا لأنهم يريدون حطام الدنيا وهو المال، وقوله {والله يريد الآخرة} فشتان ما بين مرادكم ومراد ربه لكم تريدون العرض الفاني والله يريد لكم النعيم الباقي، وقوله تعالى {والله عزيز حكيم} أي غالب على أمره ينصر من توكل عليه وفوض أمره إليه، حكيم في تصرفاته فلا يخذل أوليائه وينصر أعداءه فعليكم أيها المؤمنون بطلب مرضاته بترك ما تريدون لما يريد هو سبحانه وتعالى، وقوله تعالى {لولا كتاب 4 من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} أي لولا أنه مضى علم الله تعالى بحلية الغنائم لهذه الأمة وكتب ذلك في اللوح المحفوظ لكان ينالكم جزاء رضاكم بالمفاداة وأخذ الفدية عذاب عظيم.

وقوله تعالى {فكلوا مما غنمتم 5 حلالاً طيباً} إذن منه تعالى لأهل بدر أن يأكلوا مما

1 هذه الآية دلت يوم بدر عتاباً من الله تعالى لأصحاب نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم إذ لم يثخنوا في قتل المشركين حتى يوجد منهم أسرى رغبوا في مفاداتهم منا بالمال.

2 الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه والمراد به هنا: المبالغة في قتل المشركين حتى لا يبقى منهم أسير في ساحة المعركة.

3 روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه ومن بينهم أبو بكر وعمر (ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن يؤخذ منهم فدية فنكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال. لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكّن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكني من فلان فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر

وصناديده فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد
جئت وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان.. إلى أن قال: وأنزل الله عز
وجل: {ما كان لنبي} إلى قوله: {حلالاً طيباً}.
4 من ذلك أن الله تعالى لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون.
5 هذا الإذن واقع بعد تخميس الغنيمة لا على إطلاقه.

(2/329)

غنموا، وحتى ما فادوا به الأسرى وهي منة منه سبحانه وتعالى، وقوله تعالى {واتقوا الله} أمر منه
عز وجل لهم بتقواه بفعل أوامره وأوامر رسوله وترك نواهيها، وقوله {إن الله غفور رحيم} إخبار منه
تعالى أنه غفور لمن تاب من عباده رحيم بالمؤمنين منهم، وتجلي ذلك في رفع العذاب عنهم حيث
غفر لهم وأباح لهم ما رغبوا فيه وأرادوه. وفي الحديث: "لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا
ما شئتم فقد غفر لكم".

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- إرشاد الله تعالى لقادة الأمة الإسلامية في الجهاد أن لا يفادوا الأسرى وأن لا يمنوا عليهما
بإطلاقهم إلا بعد أن يخنثوا في أرض العدو قتلاً وتشريداً فإذا خافهم العدو ورهبهم عندئذ يمكنهم أن
يفادوا الأسرى أو يمنوا عليهم.
- 2- التزهيد في الرغبة في الدنيا لحقارتها، والترغيب في الآخرة لعظم أجرها.
- 3- إباحة الغنائم.

4 ب وجوب تقوى الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (70) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (71)

شرح الكلمات:

من الأسرى : أسرى بدر الذين أخذ منهم الفداء كالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.
إن يعلم الله في قلوبكم خيراً : أي إيماناً صادقاً وإخلاصاً تاماً.
مما أخذ منكم : من مال الفداء.

(2/330)

وإن يريدوا خيانتك..: أي الأسرى.

فقد خانوا الله من قبل: أي من قبل وقوعهم في الأسر وذلك بكفرهم في مكة.

فأمكن منهم: أي أمكنكم أنتم أيها المؤمنون منهم فقتلتموهم وأسرتموهم.

والله عليم حكيم : عليم بخلقهم حكيم في صنعه وتدبيره.

معنى الآيتين:

هذه الآية الكريمة نزلت في العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه إذ كان يقول هذه الآية نزلت في ذلك أنه بعد أن وقع في الأسر 1 أسلم وأظهر إسلامه وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد عليه ما أخذ منه من فدية فأبى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فأنزل الله تعالى قوله ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ أي إسلاماً حقيقياً ﴿يؤتكم خيراً﴾ أي مالاً خيراً ﴿مما أخذ منكم﴾ 2، ويغفر لكم ﴿ذنوبكم التي كانت كفراً بالله ورسوله، ثم حرباً على الله ورسوله، ﴿والله غفور﴾ يغفر ذنوب عباده التائبين ﴿رحيم﴾ بعباده المؤمنين فلا يؤاخذهم بعد التوبة عليها بل يرحمهم برحمته في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى ﴿وإن يريدوا 3 خيانتك﴾ أي وإن يُرد هؤلاء الأسرى الذين أخذ منهم الفداء ونطقوا بالشهادتين مظهرين إسلامهم خيانتك والغدر بك بإظهار إسلامهم ثم إذا عادوا إلى ديارهم عادوا إلى كفرهم، فلا تبال 4 بهم ولا تهرب جانبهم فإنهم قد خانوا الله من قبل بكفرهم وشركهم ﴿فأمكن منهم﴾ المؤمنين وجعلهم في قبضتهم وتحت إمّرتهم، ولو عادوا لعاد الله تعالى فسلطكم عليهم وأمكنكم منهم وقوله تعالى ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بنيات القوم وتحركاتهم حكيم فيما يحكم به عليهم ألا فليتقوه عزّ وجل وليحسنوا

1 أسره رضي الله عنه أبو اليسر كعب بن عمرو آخر بني سلمة، وكان رجلاً قصيراً والعباس رضي الله عنه ضخماً طويلاً فلما جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "لقد أعانك عليه ملك" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم للعباس: "أفد نفسك فقال: لقد كنت مسلماً يا رسول الله فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "والله أعلم بإسلامك فإن تكن كما تقول فإله يجزيك بذلك، فأما ظاهر أمرك فكان علينا فأفد نفسك وابني أخويك نوفل وعقيل" ففعل وفيه نزلت هذه الآية ﴿يا أيها النبي قل... الخ.

2 روى مسلم أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال من البحرين قال له العباس إني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم "خذ فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله، وقال: هذا خير مما أخذ مني وأنا أرجو أن يغفر الله لي".

3 في هذه الآية تطمين لنفس الرسول صلى الله عليه وسلم وليبلغ مضمونه إلى الأسرى فيعلموا أنهم

لا يغلبون الله ورسوله. والخيانة : نقض العهد، وما في معنى العهد كالأمانة ونحوها.
4 هذا هو جواب إن الشرطية المحذوف، وقد دلّ عليه؟ : {فقد خانوا الله من قبل}.

(2/331)

إسلامهم ويصدقوا في إيمانهم فذلك خير لهم.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- فضل العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنزول الآية في حقه وشأنه.

2- فضل إضمار الخير والنيات الصالحة.

3- إطلاق لفظ الخير على الإسلام والقرآن وحقاً هما الخير والخير كله.

4- ماترك عبداً شيئاً لله إلا عوضه خيراً منه.

5- الله جل جلاله: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ألا فليتنق وليتوكل عليه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ
فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا
مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

(2/332)

شرح الكلمات:

آمنوا: صدقوا الله ورسوله وآمنوا بقاء الله وصدقوا بوعدده ووعيده.

وهاجروا : أي تركوا ديارهم والتحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة.

في سبيل الله: أي من أجل أن يعبد الله ولا يعبد معه غيره وهو الإسلام.

آووا: أي آووا المهاجرين فضموهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم.

وإن استنصروكم: أي طلبوا منكم نصرتهم على أعدائهم.

ميثاق : عهد أي معاهدة سلم وعدم اعتداء.

إلا تفعلوه : أي إن لم توالوا المسلمين، وتقاطعوا الكافرين تكن فتنة 1.

أولوا الأرحام: أي الأقارب من ذوي النسب.

بعضهم أولى ببعض : في التوارث أي يرث بعضهم بعضاً.

معنى الآيات:

بمناسبة انتهاء الحديث عن أحداث غزوة بدر الكبرى ذكر تعالى حال المؤمنين في تلك الفترة من الزمن وأنهم مختلفون في الكمال، فقال وقوله الحق {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم} فهذا صنف: جمع أهله بين الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفوس، والصنف الثاني في قوله تعالى {والذين آووا ونصروا}2 أي آووا الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين في ديارهم ونصروهم. فهذان صنفا المهاجرين والأنصار وهما أكمل المؤمنين وأعلام درجة، وسيذكرون في آخر السياق مرة أخرى ليذكر لهم جزاؤهم عند ربهم، وقوله تعالى فيهم {أولئك بعضهم أولياء بعض} أي في النصر والموالات والتوارث إلا أن التوارث نسخ بقوله تعالى في آخر آية من هذا السياق {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} والصنف الثالث من أصناف المؤمنين المذكور في قوله تعالى {والذين آمنوا ولم يهاجروا} أي آمنوا بالله ورسوله والدار الآخرة ثم رضوا بالبقاء بين

1 محنة الحرب وما يتبع ذلك من الغارات والجلاء والأسر، وما إلى ذلك من ويلات الحروب، والفساد الكبير: هو ظهور الشرك.

2 قوله: {والذين آووا ونصروا} معطوف على اسم إن والخبر: جملة {أولئك بعضهم أولياء بعض}.

(2/333)

ظهراني الكافرين فلم يهجروا ديارهم وأموالهم ويلتحقوا بدار الهجرة بالمدينة النبوية، فهؤلاء الناقصون في إيمانهم بتركهم الهجرة، يقول تعالى فيهم لرسوله والمؤمنين {مالكم من ولايتهم من شيء} 1 فلا توارث ولا موالات تقتضي النصر والمحبة حتى يهاجروا إليكم ويلتحقوا بكم، ويستثني تعالى حالة خاصة لهم وهي أنهم إذا طلبوا نصره المؤمنين في دينهم فإن على المؤمنين أن ينصروهم وبشرط أن لا يكون الذي اعتدى عليهم وآذاهم فطلبوا النصره لأجله أن لا يكون بينه وبين المؤمنين معاهدة سلم وترك الحرب ففي هذه الحال على المؤمنين أن يوفوا بعهدهم ولا يغدروا فينصروا أولئك القاعدين عن الهجرة هذا ما دل عليه قوله تعالى { وإن استصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير} ذيل الكلام بهذه الجملة لإعلام المؤمنين الكاملين كالناقصين بأن الله مطلع على سلوكهم خبير بأعمالهم وأحوالهم فليراقبوه في ذلك حتى لا يخرجوا عن طاعته

وقوله تعالى في الآية (73) {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض} 2 يتناصرون ويتوارثون. وبناء على هذا يقول تعالى {إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} أي إن لا تفعلوا ما أمرتم به من مولاة المؤمنين محبة ونصرة وولاء، ومن معاداة الكافرين بغضا وخذلاناً لهم وحرماً عليهم تكن فتنة عظيمة لا يقادر قدرها وفساد كبير لا يعرف مداه، والفتنة الشرك والفساد المعاصي وقوله تعالى في الآية (74) {والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا} هذا هو الصنف الأول أعيد ذكره ليذكر له جزاؤه عند ربه بعد تقرير إيمانهم وتأكيده فقال تعالى فيهم {أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة} أي لذنوبهم بسترتها وعدم المؤاخذة عليها {ورزق كريم} ألا وهو نعيم الجنة في جوار ربهم سبحانه وتعالى والصنف الرابع من أصناف المؤمنين ذكره تعالى بقوله {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم} فهذا الصنف أكمل من الصنف الثالث ودون الأول والثاني، إذ الأول والثاني فازوا بالسبق، وهؤلاء جاءوا من بعدهم ولكن لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم ألحقهم الله تعالى

- 1 الولاية: بكسر الواو وفتحها لغتان، وقرئ بهما معاً وهي هنا بمعنى النسب والنصرة، وتكون الولاية بالكسرة والفتح أيضاً بمعنى الإمارة وفي الآية دليل على أن المسلم لا يلي عقد نكاح أخته الكافرة لانعدام المولاة بينهما، والكافر لا يلي عقد نكاح أخته المسلمة.
- 2 روى الترمذي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير قالها ثلاثاً" وقال الترمذي هو حديث غريب.

(2/334)

بالسابقين فقال {فأولئك منكم} وقوله تعالى {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} أي في الارث وبها نسخ التوارث بالهجرة والمعاقدة، واستقر الإرث بالمصاهرة والولاء، والنسب إلى يوم القيامة، وقوله تعالى {في كتاب الله} أي في حكمه وقضائه المدون في اللوح المحفوظ، وقوله {إن الله بكل شيء عليم} هذه الجملة تحمل الوعد والوعيد الوعد لأهل الإيمان والطاعة، والوعيد لأهل الشرك والمعاصي.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان تفاوت المؤمنين في كمالاتهم وعلو درجاتهم عند ربهم.
- 2- أكمل المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والهجرة والجهاد وسبقوا لذلك وهم المهاجرون الأولون والذين جمعوا بين الإيمان والإيواء والنصرة والجهاد وهم الأنصار.

- 3- دون ذلك من آمنوا وهاجروا وجاهدوا ولكن بعد صلح الحديبية.
- 4- وأدنى أصناف المؤمنين من آمنوا ولم يهاجروا وهؤلاء على خطر عظيم.
- 5- وجوب نصرته المؤمنين بمولاتهم ومحبتهم ووجوب معاداة الكافرين وخذلانهم وبغضهم.
- 6- نسخ التوارث بغير المصاهرة والنسب والولاء.

1 أولوا: واحدها نو، والرحم مؤنثة والجمع أرحام وهي مقر الولد في البطن والمراد بأولي الأرحام هنا: العصابات كالأبَاء والأبنَاء والإخوة والأعمام وأصحاب الفروض وهم الجد والأب والأم والبنات والأخت والزوجة يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "ألقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر" أما أولوا الأرحام المختلف في إرثهم فهم: أولاد البنات وأولاد الاخوات وبنات الأخ، والعمة والخالة والعم أخو الأب لأم والجد أبر الأم والجدة أم الأم. هذا ومن أهل العلم كابن كثير وغيره من أبقى اللفظ على ظاهره فجعل المراد من أولي الأرحام: القرابة الناشئة عن الأمومة على خلاف ما قدمناه عن القرطبي من أنّ المراد بأولي الأرحام العصابات دون المولودين بالرحم، وعلى رأي ابن كثير أن الآية ليست واردة في التوارث كما هو رأي مالك وإنما هي في المولاة والنصرة.

(2/335)

سورة التوبة

...

سورة التوبة

مدنية

وآياتها مائة وثلاثون آية

بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (1)

(2/335)

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوْ فَاتَمَّوْا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

المُتَّقِينَ (4)

شرح الكلمات:

براءة 1 : أي هذه براءة بمعنى تبرؤ وتباعد وتخلص.

عاهدتم: أي جعلتم بينكم وبينهم عهداً وميثاقاً.

فسيحوا في الأرض 2 : أي سيروا في الأرض طالبين لكم الخلاص.

مخزي الكافرين : مدل الكافرين ومهينهم.

وأذان من الله : إعلام منه تعالى.

يوم الحج الأكبر: أي يوم عيد النحر.

لم ينقصوكم شيئاً : أي من شروط المعاهدة وبنود الاتفاقية.

ولم يظاهروا عليكم أحداً : أي لم يعينوا عليكم أحداً.

1 يقال: برئت من الشيء ابرأ براءة فأنا بريء منه إذا أزلته عن نفسي وقطعت سبب ما بيني وبينه.

وبراءة هنا: مبتدأ، وجوّز الابتداء به وهو نكرة: الوصف. والخبر {إلى الذين} ويصح أن تكون براءة خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هذه براءة.

2 أي قل لهم: سيحوا في الأرض أي: سيروا في الأرض آمنين غير خائفين، يقال: ساح يسيح

سياحة، وسيوحاً وسيحاناً ومنه السّيح في الماء الجاري المنبسط.

(2/336)

معنى الآيات.:

هذه السورة القرآنية الوحيدة التي خلت 1 من البسمة لأنها مفتحة بآيات عذاب فتتأفي معها ذكر الرحمة، وهذه السورة من آخر ما نزل من سور القرآن الكريم وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وبعض الصحابة في حج سنة تسع يقرأون هذه الآيات في الموسم، وهي تعلم المشركين أن من كان له عهد مطلق بلا حد شهر أو سنة مثلاً أو كان له عهد دون أربعة أشهر، أو كان له عهد فوق أربعة أشهر ونقضه تُعْلِمُهُم بأن عليهم أن يسيحوا في الأرض بأمان كامل مدة أربعة أشهر فإن أسلموا فهو خير لهم وإن خرجوا من الجزيرة فإن لهم ذلك وإن بقوا كافرين فسوف يؤخذون ويقتلون حيثما وجدوا في ديار الجزيرة التي أصبحت دار إسلام بفتح مكة ودخول أهل الطائف في الإسلام هذا معنى قوله تعالى {براءة من الله ورسوله} أي واصلة {إلى الذين عاهدتم} من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر} تبدأ من يوم الإعلان عن ذلك وهو يوم العيد عيد الأضحى. وقوله تعالى (واعلموا أنكم غير معجزي الله) أي غير فائتيه ولا هاربين من قهره وسلطانه عليكم هذا أولاً،

وثانياً (وأن الله مخزي الكافرين) أي مثلهم وقوله تعالى {وأذان من الله ورسوله} أي محمد صلى الله عليه وسلم والأذان الإعلان والإعلام، {إلى الناس} وهم المشركون {يوم الحج 3 الأكبر 4} أي يوم عيد الأضحى حيث تفرغ الحجاج للإقامة بمنى للراحة والاستجمام قبل العودة إلى ديارهم، وصورة الإعلان عن تلك البراءة هي قوله تعالى، {أن الله بريء من المشركين ورسوله} أي كذلك بريء من المشركين وعليه {فإن تبتم} أيها المشركون إلى الله تعالى بتوحيده والإيمان برسوله وطاعته وطاعة رسوله {فهو خير لكم} من الإصرار على الشرك

- 1 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت علياً رضي الله عنه: لِمَ لَمْ يكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان. هذا أحد خمسة أوجه في عدم كتابة البسمة في براءة وهو أوجهها، وهو ما ذكرناه في التفسير.
- 2 نسبت المعاهدة إلى المؤمنين كافة، والمعاهد هو الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه المتولي لها ولسائر العقود. وكان رضاهم لها واجباً عليهم فلذا نسبت إليهم.
- 3 وقيل إنه يوم عرفة، والصحيح ما ذكرناه في التفسير وأنه يوم النحر لحديث ابن عمر عن أبي داود إذ قال: "وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر في الحجة التي حجّ فيها فقال: أي يوم هذا؟ فقالوا: يوم النحر فقال: هذا يوم الحج الأكبر".
- 4 اختلف في العلة في تسمية الحج بالأكبر، وأحسن الأقوال أنه قيل فيه الأكبر: لأنه حج حضره الرسول صلى الله عليه وسلم وحضرت فيه أمة الإسلام التي وجدت في تلك السنة فحج أكبر عدد في ذلك العام.
- 5 قالت العلماء: في الآية بيان جواز تطع المعاهدة بين المسلمين والكافرين لأحد أمرين: الأول: أن تتقضي المدة المعاهد عليها فنعلمهم بانقضائها وبال حرب عليهم. والثاني: أن نخاف غدرهم لظهور علامات تدلّ عليه.

(2/337)

والكفر والعصيان، {وإن توليتم} أي عرضتم عن الإيمان والطاعة {فاعلموا أنكم غير معجزى الله} بحال من الأحوال فلن تقوتوه ولن تهربوا من سلطانه فإن الله تعالى لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب ثم قال تعالى لرسوله {ويشرك الذين كفروا بعذاب أليم} أي أخبرهم به فإنه واقع بهم لا محالة إلا أن يتوبوا وقوله تعالى في الآية الرابعة (4) {إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم} من شروط المعاهدة {شيئاً ولم يظاهروا} أي لم يعاونوا {عليكم أحداً} لا برجال ولا بسلاح ولا حتى بمشورة ورأي فهؤلاء لم يبرأ الله تعالى منهم ولا رسوله، وعليه {فأتوا إليهم عهدهم 1 إلى مدتهم} أي مدة أجلهم

المحدد بزمان معين فوفوا لهم ولا تنقضوا لهم عهداً إلى أن ينقضوه هم بأنفسهم، أو تنتهي مدتهم
وحينئذ إما الإسلام وإما السيف إذ لم يبق مجال لبقاء الشرك في دار الإسلام وقبته.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- جواز عقد المعاهدات بين المسلمين والكافرين إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققاً كذلك.
- 2- تحريم الغدر والخيانة، ولذا كان إلغاء المعاهدات علنياً وإمداد أصحابها بمدة تلت سنة يفكرون في أمرهم ويطلبون الأصلاح لهم.
- 3- وجوب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها إلا أن ينقضها المعاهدون.
- 4- فضل التقوى وأهلها وهو اتقاء سخط الله بفعل المحبوب له تعالى وترك المكروه.
فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)

1 في الآية إشارة أن هناك من خاس بعهده أي : نقضه ، ومنهم من ثبت عليه.

(2/338)

وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ

شرح الكلمات:

فإذا انسلك الأشهر 1 الحرم : انقضت وخرجت الأشهر الأربعة التي أمنت فيها المشركين.

حيث وجدتموهم: أي في أي مكان لقيتموهم في الحل أو الحرم.

وخذوهم : أي أسرى.

وأحصروهم : أي حاصروهم حتى يسلموا أنفسهم.

واقعدوا لهم كل مرصد2: أي اقعدهم لهم في طرقاتهم وارصدوا تحركاتهم.

فإن تابوا : أي آمنوا بالله ورسوله.

فخلوا سبيلهم : أي اتركوهم فلا حصار ولا مطاردة ولا قتال.

استجارك: أي طلب جوارك أي حمايتك.

مأمنه : أي المكان الذي يأمن فيه.
فما استقاموا لكم : أي لم ينقضوا عهدهم ولم يخلوا بالاتفاقية.

- 1 انسلخ: مطاوع سلخ، وهو مأخوذ من سلخ الجلد: إذا أزاله عن لحم الحيوان.
- 2 المرصد: مكان الرصد والرصد: المراقبة وتتبع النظر، قال الشاعر:
ولقد علمت وما إخالك ناسيا ...
أن المنية للفتى بالمرصد

(2/339)

وإن يظهروا عليكم : أي يغلبوكم.
لا يرقبوا فيكم : أي لا يراعوا فيكم ولا يحترموا.
إلا ولا ذمة : أي لا قرابة، ولا عهداً فالإلّ: القرابة والذمة: العهد.
معنى الآيات:

ما زال السياق في إعلان الحرب العامة على المشركين تطهيراً لأرض الجزيرة التي هي دار الإسلام وحوزته من بقايا الشرك والمشركين، فقال تعالى لرسوله والمؤمنين {فإذا انسلخ الأشهر الحرم 1} أي إذا انقضت وخرجت الأشهر الحرم التي أمنت فيها المشركين الذين لا عهد لهم أو لهم عهد ولكن دون أربعة أشهر أو فوقها وبدون حد محدود {فاقتلوا المشركين 2} حيث وجدتموهم {في الحل والحرم سواء {وخذوهم} أسرى {واحصروهم} حتى يستسلموا، {واقعدوا لهم كل مرصد} أي سدوا عليهم الطرق حتى يقدموا أنفسهم مسلمين أو مستسلمين وقوله تعالى {فإن تابوا} أي من الشرك وحريكم {وأقاموا الصلاة 3} وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم 4} إذ أصبحوا مسلمين مثلكم. وقوله {إن الله غفور رحيم} أي أن الله سيغفر لهم ويرحمهم بعد إسلامهم، لأنه تعالى غفور رحيم، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (5) أما الآية الثانية (6) فقد أمر تعالى رسوله أن يجير من طلب جواره من المشركين حتى يسمع كلام الله منه صلى الله عليه وسلم وينفهم دعوة الإسلام ثم هو بالخيار إن شاء أسلم وذلك خير له وإن لم يسلم رده 5 رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكان يأمن فيه من المسلمين أن يقتلوه.

1 ليس المراد بالأشهر الحرم الثلاثة السرد، والواحد الفرد التي هي القعدة والحجة والمحرم ورجب بل المراد منها ما هو مبين في التفسير ومعنى كونها حرماً أنه يحرم قتال المشركين فيها والتعرض لهم بالسوء والأذى.

2 لفظ المشركين عام في كل مشرك وهو مخصوص بالسنة إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن قتل المرأة والصبي والراهب.

3 شاهده حديث الصحاح: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" وقال أبو بكر: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال".

4 مالك والشافعي وأحمد على أن تارك الصلاة استحلالاً لها أو غير استحلال يؤخر إلى أن يبقى من الوقت الضروري قدر ما يصلي ركعة قبل خروج الوقت ويقتل، وأبو حنيفة والظاهرية يقولون: يسجن ويضرب حتى يصلي ولا يقتل.

5 إمام المسلمين هو الذي يتولى أمر التأمين لمن طلب ذلك من المشركين إذ هو نائب عن سائر المسلمين، ويجوز للمسلم ذكراً كان أو أنثى أن يؤمن شخصاً ما لما له من حرمة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المسلمون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم". وخالف بعضهم في المرأة فقالوا: لا بد من موافقة الإمام لها على تأمينها وخالف أبو حنيفة في العبد.

(2/340)

وهو معنى قوله تعالى {وإن أحد من 1 المشركين استجارك فأجره حتى يسمع 2 كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون} فلذا قبل منهم ما طلبوه من الجوار حتى يسمعوا كلام الله تعالى إذ لو علموا ما رغبوا عن التوحيد إلى الشرك. وقوله تعالى في الآية الثالثة (7) {كيف 3 يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله} هذا الاستفهام للنفي مع التعجب أي ليس لهم عهد أبداً وهم كافرون غادرون، وقوله تعالى {إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين} هؤلاء بعض بني بكر بن كنانة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام صلح الحديبية وهم عند الحرم فهؤلاء لهم عهد وذمة ما استقاموا على عهدهم فلم ينقضوه. فإن استقاموا استقام لهم المسلمون ولم يقتلوهم وفاء بعهدهم وتقوى الله تعالى لأنه تعالى يكره الغدر ويحب المتقين لذلك. وقوله تعالى {كيف إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة} الاستفهام للتعجب أي كيف يكون للمشركين عهد يفون به لكم وهم إن يظهروا عليكم يغلبوكم في معركة، {لا يرقبوا فيكم} أي لا يراعوا الله تعالى ولا القرابة ولا الذمة بل يقتلوكم قتلاً ذريعاً، وقوله تعالى {يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم} إخبار من الله تعالى عن أولئك المشركين الناكثين للعهد الغادرين بأنهم يحاولون إرضاء المؤمنين بالكذب بأفواههم، وقلوبهم الكافرة تأبى ذلك الذي يقولون بألسنتهم أي فلا تعتقدوه ولا تقروه، {وأكثرهم فاسقون} لا يعرفون الطاعة ولا الالتزام لا بعهد ولا دين، والجملة فيها تهيج للمسلمين على قتال المشركين ومحاصرتهم وأخذهم تطهيراً لأرض الجزيرة منهم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- وجوب الوفاء بالعهود ما لم ينقضها المعاهدون.

- 1 أحد، مرفوع بفعل محذوف يفسره ما بعده والتقدير: وإن استجارك أحد المشركين فأجره.
- 2 الآية دليل على أن ما يسمع من صوت القارئ للقرآن هو كلام الله تعالى فيقول العبد: سمعت كلام الله حقاً وصدقاً.
- 3 {كيف يكون} الخ كيف: للتعجب نحو قولك: كيف يسبقني فلان؟! في الآية إضمار كلمة غدر أي كيف يكون لهم عهد مع إضمارهم الغدر بكم.

(2/341)

- 2- تقرير مبدأ الحزم في القتال والضرب بشدة.
 - 3- وجوب تطهير الجزيرة من كل شرك وكفر لأنها دار الإسلام.
 - 4- إقام الصلاة شرط في صحة الإيمان فمن تركها فهو كافر غير مؤمن.
 - 5- احترام الجوار، والإقرار به، وتأمين السفراء والممثلين لدولة كافرة.
 - 6- قبول طلب كل من طلب من الكافرين الإذن له بدخول بلاد الإسلام ليتعلم الدين الإسلامي.
 - 7- القرآن كلام الله تعالى حقاً بحروفه ومعانيه لقوله {حتى يسمع كلام الله} الذي يتلوه عليه صلى الله عليه وسلم.
 - 8- وجوب مراقبة الله تعالى ومراعاة القرابة واحترام العهود.
- اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِيمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ
لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)

شرح الكلمات:

اشترؤا بآيات الله 1: أي باعوا آيات الله وأخذوا بدلها الكفر.

فصدوا عن سبيله: أي عرضوا عن سبيل الله التي هي الإسلام كما صدوا غيرهم أيضاً .

- 1 روي أنهم نقضوا عهدهم من أجل أكلة أطعمهم إيّاها أبو سفيان ومالٍ صرفه لهم ليقفوا معه ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

ساء : أي قبيح.
لا يرقبون: أي لا يراعون.
الإل: الإل: الله، والقرابة والعهد وكلها صالحة هنا.
فإن تابوا: أي من الشرك والمحاربة.
نكثوا : أي نقضوا وغدروا.
وطعنوا في دينكم 1 : أي انتقدوا الإسلام في عقائده أو عاداته ومعاملاته.
أئمة الكفر : أي رؤساء الكفر المتبعين والمقلدين في الشرك والشر والفساد.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن المشركين، وبيان ما يلزم اتخاذهم حيالهم فأخبر تعالى عنهم بقوله في الآية (9) {اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً} أي باعوا الإيمان بالكفر فصدوا أنفسهم كما صدوا غيرهم من أتباعهم عن الإسلام الذي هو منهج حياتهم وطريق سعادتهم وكمالهم. فلذا قال تعالى مُقْبِحاً سلوكهم {إنهم ساء ما كانوا يعملون} كما أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يراعون في أي مؤمن يتمكنون منه الله عز وجل ولا قرابة بينه وبينهم، ولا معاهدة تربطهم مع قومه، فقال تعالى {لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون} ووصفه تعالى إياهم بالاعتداء دال على أنهم لا يحترمون عهداً ولا يتقون الله تعالى في شيء، وذلك لظلمة نفوسهم من جراء الكفر والعصيان، فلذا على المسلمين قتلهم حيث وجدوهم وأخذهم أسرى وحصارهم وسد الطرق عنهم حتى يلقوا السلاح ويسلموا لله، أو يستسلموا للمؤمنين اللهم إلا أن يتوبوا بالإيمان والدخول في الإسلام كما قال تعالى {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين} وقوله تعالى

- 1 الطعن في الدين هو: استنقاصه، وأصل الطعن: الضرب في الجسم بالرمح لإفساده، واستعمل في الانتقاص للشخص والدين لإفساده. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طُعن في إمارة أسامة لصغر سنه: "إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة" في الصحيح والطاعنون: المنافقون، واستدل بهذه الآية على كفر من طعن في الدين، ووجوب قتله وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد، وأنّ الذمي إذا طعن في الدين انتقض عهده ووجب قتله هذا مذهب الجمهور، وأبو حنيفة يرى استنابته فإن تاب وإلا قُتل.
- 2 من فرّق بين ثلاثة فرّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة. من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول فإن الله تعالى قال: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} ومن قال: أقيم الصلاة ولا أوتي الزكاة والله يقول:

{أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} ومن قال: أشكر الله ولا أشكر لوالدي فإن الله قال: {أن أشكر لي ولوالديك}.

(2/343)

{ونفصل لآيات لقوم يعلمون} أي نبيين! الآيات القرآنية المشتملة على الحجج والبراهين على توحيد الله تعالى وتقرير نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى الأحكام الشرعية في الحرب والسلام كما في هذا السياق وقوله {لقوم يعلمون} لأن الذين لا يعلمون من أهل الجهالات لا ينتفعون بها لظلمة نفوسهم وفساد عقولهم بضلال الشرك والأهواء وقوله تعالى في الآية الرابعة (12) {وإن نكثوا أيمانهم} من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم} يريد تعالى أولئك المعاهدين من المشركين إذ هم نكثوا أيمانهم التي أكدوا بها عهودهم فحلوا ما أبرموا ونقضوا ما أحكموا من عهد وميثاق وعابوا الإسلام وطعنوا فيه فهم إذاً أئمة الكفر ورؤساء الكافرين فقاتلوهم بلا هوادة، ولا تراعوا لهم أيماناً حلفوها لكم فإنهم لا أيمان لهم. قاتلوهم رجاء أن ينتهوا من الكفر والخيانة والغدر فيوحدوا ويسلموا ويصبحوا2 مثلكم أولياء الله لا أعداءه.

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

- 1- ذم سلوك الكافرين وتصرفاتهم في الحياة وحسبهم أن باعوا الحق س بالباطل، واشتروا الضلالة بالهدى.
- 2- من كان الاعتداء وصفاً له لا يؤمن على شيء، ولا يوثق فيه في شيء، لفساد ملكته النفسية.
- 3- أخوة الإسلام تثبت بثلاثة أمور التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة3.
- 4- الطعن في الدين ردة وكفر موجب للقتل والقتال.

1 النكت: النقض وأصله في كل ما فتل أو أبرم ثم حل، واستعملت في الأيمان والعهود، قال الشاعر:

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها

فليس لمخضوب البنان يمين

2 نعم ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا ثلاثة، ولم يبق من المنافقين إلا أربعة: روى البخاري عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية يعني: {فقاتلوا أئمة الكفر..} إلا ثلاثة ولا يبقى من المنافقين إلا أربعة فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبرون أخباراً لا ندري ما هي؟ تزعمون إلا منافق إلا أربعة، فما بال هؤلاء الذين يبقرون

بيوتنا ويسرقون أعلافنا- نفائس أموالنا- قال حذيفة رضي الله عنه: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده، أي: لذهاب شهوته وفساد معدته.

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية حرّمت دماء أهل القبلة يعني قوله تعالى {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين}.

(2/344)

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَنْتَحَسِنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْسُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)

شرح الكلمات:

ألا: : أداة تحضيض.

نكثوا أيمانهم : نقضوها وحلوها فلم يلتزموا بها.

هموا بإخراج الرسول : من دار الندوة إذ عزموا على واحدة من ثلاث الحبس أو النفي أو القتل.

أول مرة : أي في بدر أو في ماء الهجير 1 حيث أعانت قريش بني بكر على خزاعة.

ويخزهم: أي يذلهم ويهينهم.

ويشف صدور: أي يذهب الغيظ الذي كان بها على المشركين الظالمين.

ان تتركوا: أي بدون امتحان بالتكاليف كالجهد.

1 حوض من ماء واسع كبير يسقون منه تقاتلت عنده خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم،

وبنو بكر حلفاء قريش وأعانت قريش حلفاءها بني بكر وبذلك نقضت عهدها مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم، وفي هذا يقول الخزاعي وافد الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيئونا بالهجير هجدا ...

وقتلونا ركعاً وسجداً

(2/345)

وليجه : أي دخيله وهي الرجل يدخل في القوم وهو ليس منهم ويطلعونه على أسرارهم وبواطن أمورهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن المشركين وما يلزم إزاءهم من إجراءات فإنه بعد أن أعطاهم المدة المذكورة وأمنهم فيها وهي أربعة أشهر، وقد انسلخت فلم يبق إلا قتالهم وأخذهم وإنهاء عصبية المشركين وأثارها في ديار الله فقال تعالى حاضاً المؤمنين مهيجاً لهم {ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم} وهذه خطيئة كافية في وجوب قتالهم، وثانية همهم بإخراج الرسول من بين أظهرهم من مكة وثالثة بدوهم إياكم بالقتال في بدر، إذ عيرهم نجت وأبوا إلا أن يقاتلوكم، إذاً فلم لا تقاتلونهم؟ أنتركون قتالهم خشية منهم وخوفاً إن كان هذا {فإنه أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين}، لأن ما لدى الله تعالى من العذاب ليس لدى المشركين فالله أحق أن يخشى، هذا ما تضمنته الآية الأولى (13) وهي قوله تعالى {ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوؤكم أول مرة أتخسونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين} وفي الآية الثانية (14) يقول تعالى: {قاتلوهم} وهو أمر صريح بالقتال، ويذكر الجزاء المترتب على قتالهم فيقول {يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين} وهم خزاعة تشفى صدورهم من الغيظ على بني بكر الذين قاتلوهم وأعانتهم قريش عليهم بعد صلح الحديبية²، وقوله تعالى: {ويتوب الله على من يشاء} هذه وإن لم تكن جزاء للأمر بالقتال كالأربعة التي قبلها. ولكن سنة الله تعالى أن الناس إذا رأوا انتصار أعدائهم عليهم في كل معركة يميلون إليهم ويقبلون دينهم وما هم عليه من صفات فقتال المؤمنين للكافرين وانتصارهم عليهم يتيح الفرصة لكثير من الكافرين فيسلمون وهو معنى قوله تعالى {ويتوب الله على من يشاء} ، وقوله {والله عليم حكيم} تقرير للأمر بالقتال والنتائج الطيبة المترتبة عليه آخرها أن يتوب الله عدى من يشاء. وقوله تعالى في الآية (16) الأخيرة {أم

1 إذ كانوا السبب في خروجه من مكة مهاجراً كما أخرجوه من المدينة لقتالهم في بدر وفتح مكة كما هموا بإخراجه من المدينة هو وأصحابه في أحد والخندق وغير ذلك.

2 إذ قريش أعانت بني بكر على خزاعة التي هي حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن رجلاً من بني بكر أشد شعراً في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له بعض رجال خزاعة لئن أعدته لأكسرنّ فمك فأعاده فكسم فمه، واندلعت الحرب بينهم فأعانت قريش بني بكر فجاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب النصرة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم برجاله وكان فتح مكة.

حسبتم 1 أن تتركوا} أي بدون امتحان. وأنتم خليط منكم المؤمن الصادق ومنكم المنافق الكاذب، من جملة ما كان يوحى به المنافقون التشبيط عن القتال بحجة ان مكة فتحت وأن الإسلام عز فما هناك حاجة إلى مطاردة فلول المشركين، وهم يعلمون أن تكتلات يقودها الساخطون على الإسلام حتى من رجالات قريش يريدون الانقضاض على المسلمين وإهدار كل نصر تحقق لهم، وهذا المعنى ظاهر من سياق الآية {أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة} 2 إذ هناك من اتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة يطلعونها على أمور المسلمين، ويستترون عليهم وهي بينهم دخلية، ويقرر هذه الجملة التي ختمت بها الآية وهي قوله تعالى {والله خبير بما تعملون}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية استعمال أسلوب التهييج والإثارة للجهاد.
 - 2- وجوب خشية الله تعالى بطاعته وترك معصيته.
 - 3- لازم الإيمان الشجاعة فمن ضعفت شجاعته ضعف إيمانه.
 - 4- من ثمرات القتال دخول الناس في دين الله تعالى.
 - 5- الجهاد عملية تصفية وتطهير لصفوف المؤمنين وقلوبهم أيضاً.
- مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17)

1 {أم حسبتم} أم : هي المنقطعة بمعنى بل إضرابا عما سبق من الكلام وانتقالا إلى آخر، والاستفهام للإنكار، والحسبان بمعنى الظن والمعنى كيف تظنون أنكم تتركون بعد فتح مكة دون جهاد لأعداء الله ورسوله، وهم ما زالوا يتآمرون ويتجمعون لقتالكم.

2 الوليجة: البطانة من الولوج في الشيء وهو الدخول فيه، والمراد من هذا الرجل يتخذ من أعداء الإسلام صديقاً يدخل عليه ويدخله عليه فيطلع عليه على أسرار المسلمين للنكاية بهم والتسلط عليهم لإضرارهم وإفسادهم وهلاكهم.

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)

شرح الكلمات:

ما كان للمشركين : أي ليس من شأنهم أو مما يتأتى لهم.
حبطت أعمالهم : أي بطلت فلا يثابون عليها ولا ينجحون فيها.
يعمروا مساجد الله : أي بالعبادة فيها، وصيانتها وتطهيرها.
ولم يخش إلا الله: أي لم يخف أحداً غير الله تعالى.
فعسى : عسى من الله تعالى كما هي هنا تفيد التحقيق أي هدايتهم محققة.
المهتدين: أي إلى سبيل النجاة من الخسران والظفر بالجنان.
معنى الآيتين:

لا شك أن هناك من المشركين من ادعى أنه يعمر المسجد الحرام بالسدانة والحجاجة والسقاية وسواء كان المدعى هذا العباس يوم بدر أو كان غيره فإن الله تعالى أبطل هذا الادعاء وقال لهما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله¹ أي لا ينبغي لهم ذلك ولا يصح منهم، وكيف وهم كفار شاهدون² على أنفسهم بالكفر، وهل الكافر بالله يعمر بيته وبماذا يعمره؟ وإذا سألت اليهودي ما أنت؟ يقول يهودي، وإذا سألت النصراني، ما أنت؟ يقول نصراني، وإذا سألت الوثني ما أنت؟ يقول مشرك فهذه شهادتهم على أنفسهم³ بالكفر، وقوله تعالى {أولئك} أي البعداء في الكفر والضلال {حبطت أعمالهم} ، أي

- 1 قيل: إنَّ العباس لما أسر في بدر عُيِّرَ بالكفر وقطيعة الرحم قال لمن عيَّره، تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا! فقال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني فنزلت هذه الآية رداً عليه. فوجب على المسلمين تولى أحكام المساجد.
- 2 قيل الأصل: وهم شاهدون فحذف {وهم} فنصب {شاهدين} على الحال.
- 3 قال ابن عباس: شهادتهم بالكفر هي: سجودهم للأصنام مع إقرارهم بأنها مخلوقة والله خالقها.

(2/348)

بطلت وضاعت لفقدها الإخلاص فيها لله تعالى {وفي النار هم خالدون} لا يخرجون منها متى دخلها أبداً، إذ ليس لهم من العمل ما يشفع لهم بالخروج منها. ثم قرر تعالى الحقيقة وهي أن الذين يعمرون¹ مساجد الله حقاً وصدقاً هم المؤمنون الموحدون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويخشون الله تعالى ولا يخشون سواه هؤلاء هم الجديرون بعمارة المساجد بالصلاة والذكر والتعلم للعلم

الشرعي فيها زيادة على بنائها وتطهيرها وصيانتها هؤلاء جديرون بالهداية لكل كمال وخير يشهد لهذا قوله تعالى {فَعَسَىٰ أَوْلَتْكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} إلى ما هو الحق والصواب، وإلى سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة دخول الكافر المساجد إلا لحاجة وبإذن من المسلمين.
 - 2- فضيلة عمارة المساجد بالعبادة فيها وتطهيرها وصيانتها.
 - 3- فضيلة المسلم وشرفه، إذ كل من يسأل عن دينه يجيب بجواب هو الكفر إلا المسلم فإنه يقول: مسلم أي الله تعالى فهو إذا المؤمن وغيره الكافر.
 - 4- وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية من 3 الله تعالى.
 - 5- أهل الأمن والنجاة من النار هم أصحاب الصفات الأربع المذكورة في الآية.
- أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

1 وردت أحاديث في فضل عمارة المساجد منها القوي ومنها الضعيف مجموعها يدل على المراد منها وهو حسن الظن بمن يعمر مساجد الله وأظهر حديث "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان".

2 قالت العلماء: "عسى من الله واجبة أي: ما يرجى بها واجب الوقوع، وقيل: هي هنا بمعنى: خليق أي: فخليق أن يكونوا من المهتدين.

3 تسأل البعض وقالوا: قوله تعالى: {وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} دال على أن المؤمن الكامل الإيمان لا يخشى إلا الله وإذا بالواقع أن الأنبياء يخشون الأعداء فضلا عن غيرهم فقال بعضهم معناه: أنهم لا يخشون إلا الله مما يُعبد، وقال بعضهم:

أي لم يخف إلا الله في باب الدين. والجواب الصحيح أن الإنسان نبيا كان أو غيره من المؤمنين العاملين لا يخشون إلا الله تعالى فإذا خافوا عدواً، ليس معناه أنهم خافوه لذاته وإنما خافوا من الله أن يكون سلطة عليهم فخوفهم عائد في الحقيقة إلى الله تعالى فهو الذي بيده الأمر، والخوف منه لا من غيره.

(2/349)

وَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَتْكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ
(22)

شرح الكلمات:

سقاية الحاج: مكان يوضع فيه الماء في المسجد الحرام ويسقى منه الحجاج مجاناً.
عمارة المسجد الحرام : هنا عبارة عن بنائه وصيانته وسدانة البيت فيه.
لا يستونون عند الله: إذ عمارة المسجد الحرام مع الشرك والكفر لا تساوى شيئاً.
والله لا يهدي القوم الظالمين: أي المشركين لا يهديهم لما فيه كمالهم وسعادتهم.
ورضوان : أي رضا الله عز وجل عنهم.
نعيم مقيم: أي دائم لا يزول ولا ينقطع.
معاني الآيات:

ما زال السياق في الرد على من رأى تفضيل عمارة المسجد الحرام بالسقاية والحجاجة

1 روي عن السدي أنه قال: افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلي بالإسلام والجهاد فصدق الله علياً وكذبهما أي بهذه الآية: {أجعلتم سقاية الحاج...} الخ فأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة.
وقيل أيضاً: إن المشركين سألوا اليهود وقالوا: نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟

فقال لهم اليهود مكرماً وعناداً: أنتم أفضل وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أعمار المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته عما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل: {أجعلتم ..} الآية. وحل الإشكال في هذه الأخبار: أن الآية تذكر دليلاً لا أنها نزلت في ذلك الوقت.

(2/350)

والسدانة على الإيمان والفجرة والجهاد فقال تعالى موبخاً لهم {أجعلتم 1 سقاية الحاج 2 وعمارة 3 المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستونون} في حكم الله وقضائه بحال من الأحوال، والمشركون ظالمون كيف يكون لعمارتهم للمسجد الحرام وزن أو قيمة تذكر {والله لا يهدي القوم الظالمين} بعد هذا التوبيخ والبيان للحال أخبر تعالى أن {الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا

في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم { هم {أعظم درجة} ممن آمنوا ولم يستكملوا هذه الصفات الأربع، وأخبر تعالى أنهم هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة، وأعظم من هذا، جاء في قوله {يبشروهم ربهم برحمة منه} وهي الجنة {ورضوان} منه تعالى وهو أكبر نعيم {وجنات} أي بساتين في الملكوت الأعلى {لهم فيها نعيم مقيم} لا يحول ولا يزول وأنهم خالدون فيها لا يخرجون منها أبداً، وإن الله عنده أجر عظيم} لا يقادر قدره جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زميرتهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة، لح وأقربهم من الله منزلة من جمع الصفات الثلاث المذكورة في الآية (20) وهي الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.
 - 2- فضل الهجرة والجهاد.
 - 3- تفاوت أهل الجنة في علو درجاتهم.
 - 4- حرمان الظالمين المتوغلين في الظلم من هداية الله تعالى.
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ

- 1 أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج، أو أصحاب سقاية الحاج، إذ حذف المضاف وهو: أهل أو أصحاب وبقي المضاف إليه وهو: سقاية فنصب انتصابه.
- 2 الحاج: اسم جنس ناب مناب الحجاج جمع حاج.
- 3 وقرىء: سقاة بضم السين جمع ساقٍ وعمرة: جمع عامر ككتبة جمع كاتب.

(2/351)

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

شرح الكلمات:

أولياء: جمع وليّ وهو من تتولاه بالمحبة والنصرة ويتولاك بمثل ذلك.
استحبوا: أي أحبوا الكفر على الإيمان.
الظالمون: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أحب من لا تجوز محبته فقد وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم.
وعشيرتكم : أي قرابتكم من النسب كالأعمام الأباعد وأبنائهم.

اقترفتموها: أي اكتسبتموها.

كساده: بوارها وعدم رواجها.

فترصوا: أي انتظروا.

حتى يأتي الله بأمره: أي بعقوبة هذه المعصية يوم فتح مكة.

معنى الآيتين:

هذا إنذار الله تعالى للمؤمنين بينها فيهم عن اتخاذ من كفر من آبائهم وإخوانهم أولياء لهم يوادونهم ويناصرونهم ويطلعونهم على أسرار المسلمين وبواطن أمورهم. فيقول تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} أي بالله ورسوله ولقاء الله ووعده ووعيده {لا تتخذوا آباءكم

1 هذه الآية ما تضمنته من حكم حرمة موالاة الكافرين ولو كانوا من اقرب الأقرباء وهو عام في الأمة إلى يوم القيامة؟ وإن فهم منها بعضهم أنها للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها يدعوهم إلى الهجرة والتخلي عن بلاد الكفر.

(2/352)

وإخوانكم 1 أولياء إن استحبوا 2 الكفر على الإيمان} أي اثروا الكفر والإصرار عليه على الإيمان بالله ورسوله ثم يهددهم إن لم يمتثلوا أمره ويفاصلوا آباءهم وإخوانهم المستحبين للكفر على الإيمان فيقول {ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون 3} ووجه الظلم ظاهر وهو أنهم وضعوا المحبة موضع البغضاء، والنصرة موضع الخذلان. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. ثم أمر تعالى رسوله أن يقول لهم، وفي هذا العدول عن خطابهم مباشرة إلى الوساطة ما يشعر بالغضب وعدم الرضى، والتهديد والوعيد {قل إن كان 4 آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادهها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله} فتركتم الهجرة والجهاد لذلك {فترصوا حتى يأتي الله بأمره} أي انتظروا أمر الله وهو فتح مكة عليكم وإنزال العقوبة بكم، {والله لا لهدى القوم الفاسقين} أي لا يوفقهم لسبل نجاتهم وسعادتهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء يوادون ولو كانوا من أقرب الأقرباء كالأب والابن والأخ.
- 2- من الظلم الفظيع موالاة من عادى الله ورسوله والمؤمنين.
- 3- فرضية محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ومحبة سائر محاب الله تعالى وكره سائر مكاره الله تعالى من العقائد والأحوال والأعمال والذوات والصفات.

4- حرمان أهل الفسق المتوغلين فيه من هداية الله تعالى إلى ما يكملهم ويسعدهم.
لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

- 1 لم يذكر الأبناء لأنَّ العادة أنَّ الأبناء تبع لآبائهم وذكر الآباء والإخوان ذكر لأقوى القرابة.
- 2 استحباوا: بمعنى أحبوا نحو: استحباب بمعنى: أجاب.
- 3 قال ابن عباس: من تولاهم هو مشرك مثلهم لأنَّ الرضا بالشرك شرك ويستثنى من هذه المقاطعة الإحسان والهبة للأقارب الكفرة لحديث أسماء إذ قالت: يا رسول الله إنَّ أُمِّي قدمت عليَّ راغبة وهي شركة أفصلها؟ قال: صلي أمك. رواه البخاري.
- 4 هذه الآية نزلت في الذين تخلفوا عن الهجرة إلى المدينة إيثاراً لما ذكر تعالى على حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله تعالى إذ توعدهم تعالى بقوله: {فتربصوا} أي انتظروا ما سيحل بكم إن لم تتوبوا فتهاجروا وتجاهدوا.

(2/353)

تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) ثُمَّ يَنْتُهِبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28)

شرح الكلمات:

في مواطن : المواطن جمع موطن بمعنى الوطن وهو محل إقامة الإنسان.
حنين : وادٍ على بعد أميال يسيرة من الطائف.
إذ أعجبتكم كثرتكم: أي كثرة عددكم حتى قال من قال: لن نغلب اليوم من قلة.
فلم تغن عنكم شيئاً: أي لم تجز عنكم شيئاً من الأجزاء إذ انهزمت في أول اللقاء.
وضاقت عليكم الأرض : أي لم تعرفوا أين تذهبون، وكيف تتصرفون كأنكم محصورون في مكان ضيق.

بما رحبت: أي على رحابتها وسعتها.

أنزل الله سكينته : أي الطمأنينة في نفوسهم، فذهب القلق والاضطراب.
وأنزل جنوداً.: أي من الملائكة.

نجس: أي ذوو نجس وذلك لخبث أرواحهم بالشرك.
بعد عامهم هذا : عام تسعة من الهجرة.

(2/354)

عيلة: أي فقراً وفاقه وحاجة.

معنى الآيات:

لما حرم الله على المؤمنين موالاة الكافرين ولو كانوا أقرباءهم وحذرهم من القعود عن الهجرة والجهاد، وكان الغالب فيمن يقعد عن ذلك إنما كان لجبنه وخوفه أخبرهم تعالى في هذه الآيات الثلاث أنه ناصرهم ومؤيدهم فلا يقعد بهم الجبن والخوف عن أداء الواجب من الهجرة والجهاد فقال تعالى {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة}1 كَبَدَرَ والنضير وقريظة والفتح وغيرها {ويوم حنين} 2 حين قاتلوا قبيلة هوازن مذكراً إياهم بهزيمة أصابت المؤمنين نتيجة خطأ من بعضهم وهو الاغترار بكثرة العدد إذ قال من قال منهم: لن نغلب اليوم عن قلة إذ كانوا اثني عشر 3 ألفاً وكان عدوهم أربعة آلاف فقط، إنهم ما إن توغلوا بين جنبتي الوادي حتى رماهم العدو بوابل من النبل والسهام فلم يعرفوا كيف يتصرفون حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين هاربين ولم يثبت إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان على بغلته البيضاء المسماة (بالذُّدُل) والعباس إلى جنبه وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عمه، ثم نادى منادي رسول الله: أن يا أصحاب البقرة هلموا أصحاب السمرة (شجره بيعة الرضوان) هلموا. فترجعوا إلى المعركة ودارت رحاها و {أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً} تلامس القلوب وتتفخ فيها روح الشجاعة والصبر والثبات، فصبروا وقاتلوا وما هي إلا ساعة وإذا بالعدو سبي بين أيديهم ولم يحصل لهم أن غنموا يوماً مثل ما غنموا هذا اليوم إذ بلغ عدد الإبل اثني عشر ألف بعير، ومن الغنم ما لا يحصى ولا يعد. بهذا جاء قوله تعالى: {ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين}4 {أي هاربين من العدو} ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً {أي من الملائكة} {لم تروها} {وعذب الذين كفروا} {أي هوازن} {وذلك} أي القتل والسبي {جزاء الكافرين} بالله ورسوله.

1 المواطن: جمع موطن وهو مكان التوطن أي: الإقامة ويطلق على موضع الحرب وموقعها.

2 خص يوم حنين بالذكر لما وقع فيه من الهزيمة في أول المعركة.

3 عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمة الفتح وهم الطلقاء وهزموا من أجل قول

بعضهم: لن نغلب اليوم عن قلة وهو ما يسمى بالعجب وهو محبط للعمل.

4 روى مسلم عن ابن اسحق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمار؟ فقال: أشهد على نبي الله صلى الله عليه وسلم ما ولى ولكنه انطلق أخفاءً من الناس وحسّر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب اللهم نزل نصرك" قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به.

(2/355)

وقوله تعالى {ثم يتوب الله على من يشاء}1 أي بعد قتالكم للكافرين وقتلكم من تقتلون يتوب الله على من يشاء ممن بقوا أحياء بعد الحرب {والله غفور رحيم} فيغفر لمن يتوب عليه من المشركين ماضي ذنوبه من الشرك وسائر الذنوب ويرحمه بأن يدخله الجنة مع من يشاء من المؤمنين الصادقين في إيمانهم هذا ما دللت عليه الآيات الثلاث. أما الآية الرابعة {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس}2 فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}3 فإنه تعالى أمر المؤمنين بأن يمنعوا من دخول المسجد الحرام كل مشرك ومشركة لأن المشرك نجس الظاهر والباطن فلا يحل دخولهم إلى المسجد الحرام كل مشرك ومشركة لأن المشرك نجس الظاهر والباطن فلا يحل دخولهم إلى المسجد الحرام وهو مكة والحرم حولها، ومن يومئذ لم يدخل مكة مشرك، وقوله تعالى {وإن خفتم عليه}4 أي فقرأ لأجل انقطاع المشركين عن الموسم حيث كانوا يحلبون التجارة يبيعون ويشتررون فيحصل نفع للمسلمين {فسوف يغنيكم الله من فضله} فامنعوا المشركين ولا تخافوا الفقر وقوله تعالى {إن شاء إن الله عليم حكيم} استثناء منه تعالى حتى تبقى قلوب المؤمنين متعلقة به سبحانه وتعالى راجية خائفة غير مطمئنة غافلة، وكونه تعالى عليمًا حكيمًا يرشح المعنى المذكور فإن ذا العلم والحكمة لا يضع شيئاً إلا في موضعه فلا بد لمن أراد رحمة الله أو فضل الله أن يجتهد أن يكون أهلاً لذلك، بالإيمان والطاعة العامة والخاصة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة العجب بالنفس والعمل إذ هو أي العجب من العوائق الكبيرة عن النجاح.
- 2- بيان إفضال الله تعالى وإكرامه لعباده المؤمنين.
- 3- بيان الحكمة من القتال في سبيل الله تعالى.
- 4- تقرير نجاسة الكافر المعنوية.

1 كمالك بن عوف النصري رئيس حنين ومن أسلم معه من قومه.

2 قيل: وصف المشرك بالنجس: لأنه جنب لا يغتسل من جنابة غسلًا شرعياً فهو لذلك نجس، وقيل: الشرك هو الذي جعله نجساً إذ لو أسلم زال عنه الوصف.

3 هو عام حجة الوداع وليس عام تسعة كما قال بعضهم .

4 قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل
يقال : عال يعيل عيلة : إذا افتقر .

5 في الآية على مشروعية الأخذ بالأسباب إذ قال صلى الله عليه وسلم: " اعقلها وتوكل " قال بعضهم: الأسباب التي يطلب بها الرزق هي الجهاد وأكل الرجل من عمل يده التجارة، الحرث، والغرس، التعليم للعلوم بالأجرة، الاستدانة بنية رد الدين.

(2/356)

5- منع دخول المشرك الحرم المكي كائناً من كان بخلاف باقي المساجد فقد يؤذن للكافر لمصلحة أن يدخل بإذن المسلمين.

6- لا يمنع المؤمن من امتثال أمر ربه الخوف من الفاقة والفقر فإن الله تعالى تعهد بالإغناء إن شاء .

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)

شرح الكلمات:

لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر: أي إيماناً صحيحاً برضاه الله تعالى لموافقة الحق والواقع.

ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله: أي كالخمر والربا وسائر المحرمات.

ولا يدينون دين الحق: أي الإسلام إذ هو الدين الذي لا يقبل ديناً سواه.

من الذين أوتوا الكتاب: أي اليهود والنصارى.

الجزية: أي الخراج المعلوم الذي يدفعه الذمي كل سنة.

عن يد وهم صاغرون 1: أي يقدمونه بأيديهم لا ينيبون فيه غيرهم، وهم صاغرون: أي أذلاء

منقادون لحكم الإسلام هذا.

معنى الآية الكريمة:

لما أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بقتال المشركين حتى يتوبوا من الشرك ويوحدوا ويعبدوا الله تعالى

بما شرع أمر رسوله في هذه الآية والمؤمنين بقتال أهل الكتاب وهم

1 وفسّر قوله: {عن يد} بالقوة على دفع الجزية بأن يكون المطالب بها قادراً على أدائها لغناه وعدم فقره. وهو تفسير حق لأنّ الفقير منهم لا يطالب بالجزية في حال فقره، وما في التفسير أصحّ.

(2/357)

اليهود والنصارى إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وجعل إعطاء الجزية غايةً لنهاية القتال، لا الإسلام، لأن الإسلام يعرض أولاً على أهل الكتاب فإن قبلوه فذاك وإن رفضوه يطلب منهم الدخول في ذمة المسلمين وحمايتهم تحت شعار الجزية وهي رمز دال على قبولهم حماية المسلمين وحكمهم بشرع الله تعالى فإذا أعطوها حقنوا دماءهم وحافظوا أموالهم، وأمّنوا في حياتهم المادية والروحية، هذا ما تضمنته الآية الكريمة: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب} حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون { وإن قيل لليهود والنصارى يؤمنون بالله وباليوم الآخر فكيف نفت الآية عنهم ذلك؟ والجواب أن اليهود في إيمانهم بالله مشبهة مجسمة يصفون الله تعالى بصفات تعالى الله عنها علواً كبيراً، والنصارى يعتقدون أن الله حلّ في المسيح، وإن الله ثالث ثلاثة والله ليس كذلك فهم إذاً لا يؤمنون بالله تعالى كما هو الله الإله الحق، فلذا إيمانهم باطل وليس بإيمان يضاف إلى ذلك أنهم لو آمنوا بالله لآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولو آمنوا باليوم الآخر لأطاعوا الله ورسوله لينجوا من عذاب اليوم الآخر وليسعدوا فيه بدخول الجنة فلما لم يؤمنوا ولم يعملوا كانوا حقاً كافرين غير مؤمنين، وصدق الله العظيم حيث نفى عنهم الإيمان به وباليوم الآخر، والله أعلم بخلقهم من أنفسهم.

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة:

1- وجوب قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يدخلوا في حكم الإسلام وذلك من أجل إعدادهم للإسلام ليكملوا عليه ويسعدوا به.

2- الإيمان غير الصحيح لا يعتبر إيماناً منجياً ولا مسعداً.

3- استباحة ما حرم الله من المطاعم والمشارب والمناكح كفر صريح.

1 الآية صريحة في عدم اعتبار إيمان اليهود والنصارى بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً يزكى النفس ويؤهل لدخول الجنة، وهذا لأمرين: الأول: لما داخل إيمانهم من التحريف والتغيير فلم يكن إيمانهم بركني الإيمان العظيمين الإيمان بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً مقبولاً شرعاً فلذا عدّ كلا إيمان. والثاني: لأنهم لو آمنوا بالله ولفائه حق الإيمان لآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبما

جاء به من الهدى، ولاستقاموا على شرع الله فأحلوا ما أحل وحرّموا ما حرّم.
2 المجوس والصابئة لم يذكر في الآية، والذي به العمل عند عامة الفقهاء أنهم يسنّ بهم سنة أهل الكتاب في قبول الجزية منهم وإدخالهم في ذمة المسلمين.

(2/358)

4- مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب وهي مقدّرة 1 في كتب الفقه مبينة وهي بحسب غنى المرء وفقره وسعته وضيّقه.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنْمِثَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)

شرح الكلمات:

عزير: هو الذي أماته الله مائة عام ثم بعثته، واليهود يسمونه: عزرا.

المسيح: هو عيسى بن مريم عليهما السلام.

يضاهئون: أي يشابهون.

قول الذين كفروا: أي من آبائهم وأجدادهم الماضين.

قاتلهم الله: أي لعنهم الله لأجل كفرهم.

أنى يؤفكون: أي كيف يصرفون عن الحق.

1 تقدّر بدينار من الذهب، وإن صالحهم الإمام عن أكثر فهم على ما صالحهم عليه.

(2/359)

أحبارهم ورهبانهم: الأحبار جمع حبر: علماء واليهود، والرهبان جمع راهب عابد النصارى.
أرباباً من دون الله: أي آلهة يشرعون لهم فيعملون بشرائعهم من حلال وحرّام.
نور الله: أي الإسلام لأنه هاد إلى الإسعاد والكمال في الدارين.
بأفواههم: أي بالكذب عليه والطعن فيه وصرف الناس عنه.

رسوله: محمداً صلى الله عليه وسلم.

معنى الآيات:

لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب لكفرهم وعدم إيمانهم بالإيمان الحق المنجي من النار ذكر في هذه الآيات الثلاث ما هو مقرر لكفرهم ومؤكد له فقال {وقالت اليهود عزير 1 ابن الله} ونسبة الولد إلى الله تعالى كفر بجلاله وكماله {وقالت النصارى المسيح ابن 2 الله} ونسبه الولد إليه تعالى كفر به عز وجل وبماله من جلال وكمال وقوله تعالى: {ذلك قولهم بأفواههم} أي ليس له من الواقع شيء إذ ليس لله تعالى ولد، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة، وإنما ذلك قولهم بأفواههم فقط ليضاهئون به 3} أي يشابهون به {قول الذين كفروا من قبل} 4 وهم اليهود الأولون وغيرهم وقوله تعالى {قاتلهم الله أنى يؤفكون} دعاء عليهم باللعن والطرده من رحمة الله تعالى وقوله {أنى يؤفكون} أي كيف يصرفون عن الحق ويبعدون عنه بهذه الصورة العجيبة وقوله {اتخذوا أحبارهم 5 ورهبانهم أرباباً من دون الله} 6 هذا دليل آخر على كفرهم وشركهم إذ قبولهم قول علمائهم وعبادهم والإذعان

1 قرأ عاصم {عزير} بالتثنية، وقرأ نافع بغير تنوين، وقوله تعالى {وقالت اليهود} هو كقوله تعالى: {الذين قال لهم الناس..} فهو لفظ عام، والمراد به الخصوص إذ ما كل اليهود قالوا بهذه القولة ولا كل الناس وإنما بعضهم.

2 في الآية دليل على أن حاكمي الكفر، وهو منكر له بقلبه ولسانه لا يكفر.

3 يقال: امرأة ضهياً: للتي لا تحيض ولا تدي لها كأنها أشبهت الرجل.

4 أي: شابه قولهم قول الكافرين من قبلهم وهم أسلافهم الذين قلدوهم أو قول العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن البنات والولد علواً كبيراً.

5 الحبر بكسر الحاء. المداد، وبفتحها العالم، والرهبان: جمع راهب مأخوذ من الرهبة، والراهب الحق. هو من حمله خوف الله على أن يخلص له النية في القول والعمل ويجعل زمانه له وعمله له وأنسه به.

6 روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: "ما هذا يا عدي أطرح عنك هذا الوثن" وسمعتة يقرأ {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم} وسئل حذيفة رضي الله عنه عن قول الله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} هل عبدوهم؟ قال: لا ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه.

له والتسليم به حتى أنهم ليحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه، شرك وكفر والعياذ بالله. وقوله {والمسيح 1 ابن مريم} أي اتخذته النصرارى رباً وإلهاً، وقوله تعالى {وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً} أي لم يأمرهم أنبيأؤهم كموسى وعيسى وغيرهما إلا بعبادة الله تعالى وحده لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله {سبحانه عما يشركون} نزه تعالى نفسه عن شركهم. وقوله تعالى {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم} أي يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله الذي هو الإسلام بأفواههم بالكذب والافتراء، والعيب والانتقاص، {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} 2، وقد فعل فله الحمد وله المنة، وأصبح الإسلام الظاهر على الأديان كلها، هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث أما الآية الرابعة (33) فقد أخبر تعالى أنه {هو الذي أرسل رسوله} أي محمداً {بإلهدى} وهو القرآن {ودين الحق} الذي هو الإسلام. وقوله {ليظهره} أي الدين الحق الذي هو الإسلام {على الدين كله ولو كره المشركون} 3 وقد فعل فالإسلام ظاهر في الأرض كلها سمع به أهل الشرق والغرب ودان به أهل الشرق والغرب وسيأتي يوم يسود فيه المسلمون أهل الدنيا قاطبة بإذن الله تعالى

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير كفر اليهود والنصارى بذكر عقائدهم الكفرية.
- 2- طاعة العلماء ورجال الدين طاعة عمياء حتى يحلوا ويحرموا فيتبعوا شرك.
- 3- بيان عداء اليهود والنصارى للإسلام وتعاونهم على إفساده وإفساد أهله.
- 4- بشرى المسلمين بأنهم سيسودون العالم في يوم من الأيام ويصبح الإسلام هو الدين الذي يعبد الله به في الأرض لا غيره، ويشهد لهذا آية {ويكون الدين كله لله} فلو لم يعلم الله أن ذلك كائن لم يجعله غاية وطالب بالوصول إليها.

1 يطلق لفظ المسيح على العرق لأنه إذا سال يُمسح من الجبين قال أحدهم شعراً:

افرح فسوف تألف الأحزاننا ... إذا شهدت الحشر والميزانا

وسال من جبينك المسيح ... كأنه جداول تسيح

2 صحّ دخول "إلا" على الإثبات هنا لأنّ أبى يحذف معها الكلام فيقال: يأبى فلان كل شيء إلا أن يطاع مثلاً. فمعنى الآية: يأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره.

3 شاهده: رواية أحمد: عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو بذل ذليل إمّا يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها وإمّا يذلهم فيدينون لها".

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى
عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَنُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْنِزُونَ (35)

شرح الكلمات:

بالباطل: أي بدون حق أباح لهم أكلها.

ويصدون عن سبيل الله: أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الإسلام الذي هو السبيل؟ المفضي بالعبد
إلى رضوان الله تعالى.

يكنزون: يجمعون المال ويدفونونه حفاظاً عليه ولا يؤدون حقه.

الذهب والفضة: هما النقدان المعروفان.

في سبيل الله: أي حيث رضا الله كالجهاد وإطعام الفقراء والمساكين.

فبشرهم: أي أخبرهم بعذاب أليم: أي موجع.

يحمى عليها: لأنها تحول إلى صفائح ويحمى عليها ثم تكوى بها جباههم.

هذا ما كنزتم: أي يقال لهم عند كيهيم بها: هذا ما كنزتم لأنفسكم توبيخاً لهم وتقريعاً.

معنى الآيتين:

بمناسبة ذكر عداة اليهود والنصارى للإسلام والمسلمين، وأنهم يريدون دوماً وأبداً

(2/362)

إطفاء نور الله بأفواههم، ذكر تعالى ما هو إشارة واضحة إلى أنهم ماديون لا هم لهم إلا المال
والرئاسة فأخبر المسلمين فقال {يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار} 1 وهم علماء اليهود
{والرهبان} وهم رجال الكنائس من النصارى {ليأكلون أموال الناس بالباطل} كالرشوة، وكتابة صكوك
الغفران يبيعونها للسفلة منهم، إلى غير ذلك من الحيل باسم 2 الدين، وقوله تعالى عنهم {ويصدون
عن 3 سبيل الله} دليل واضح على أنهم يحاربون الإسلام باستمرار للإبقاء على مناصبهم الدينية
يعيشون عليها يتراسون بها على السفلة والعوام من اليهود والنصارى، وقوله تعالى {والذين يكنزون
الذهب والفضة} 4 لفظ 5 عام يشمل الأحبار والرهبان وغيرهم من سائر الناس من المسلمين ومن أهل
الكتاب إلا أن الرهبان والأحبار يتناولهم اللفظ أولاً، لأن من يأكل أموال الناس بالباطل ويصد عن
سبيل الله أقرب إلى أن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، وقوله تعالى لرسوله {فبشرهم

بعذاب أليم} أي أخبرهم معجلاً لهم الخبر في صورة بشارية، وبين نوع العذاب الأليم بقوله ليوم يحمى عليها} أي صفائح الذهب والفضة بعد تحويلها إلى صفائح {في نار جهنم} فنكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم} أي من كل الجهات الأربع من أمام ومن خلف وعن يمين وعن شمال ويقال لهم تهكماً بهم وازدراء لهم وهو نوع عذاب أشد على النفس من عذاب الجسم (هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون).

1 الآية نزلت في أهل الكتاب كشفاً عن عوراتهم المادية، وأما قوله تعالى {والذين يكنزون الذهب والفضة ..} الخ فهو حكم عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب.

2 قيل كانوا يأخذون من غلات أتباعهم ومن أموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقلدهم الروافض، فإن أئمتهم يأخذون منهم ضرائب هي خمس دخل كل فرد من أي جهة كان هذا الدخل أخبرني بهذا أحد رجالهم في الكويت.

3 من صدّهم عن سبيل الله إنهم كانوا يمنعون أتباعهم من الدخول في الإسلام ومن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

4 دلت الآية على زكاة العين: الذهب والفضة وهي تجب بأربعة شروط الحرية، والإسلام، والحوال، والنصاب السليم من الدين، والنصاب مائتا درهم فضة أو عشرون ديناراً من الذهب، ويكمل أحدهما من الآخر، ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم "ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول" رواه أبو داود. وقوله صلى الله عليه وسلم: "ليس في أقل من مائتي درهم زكاة، وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة" في الصحيح.

5 روى أبو داود عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية {والذين يكنزون الذهب والفضة} قال كبير ذلك على المسلمين فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق قال: يا نبي الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: "إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث في أموالكم لتكون لمن بعدكم فكبر عمر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته".

(2/363)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين :

1- بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى، وهي أنهم ماديون باعوا آخرتهم بدنياهم يحاربون الإسلام ويصدون عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام.

2- حرمة أكل أموال الناس بالباطل.

3- حرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه.

4- المال الذي تؤدي زكاته كل حول لا يقال له كنز ولو دفن تحت الأرض.

5- بيان عقوبة من يكثر المال ولا ينفق منه في سبيل الله وهي عقوبة شديدة.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجْلُؤُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)

شرح الكلمات:

عدة : أي عدد.

(2/364)

الشهور 1 : جمع شهر والشهر تسعة وعشرون يوماً، أو ثلاثون يوماً

في كتاب الله : أي كتاب المقادير : اللوح المحفوظ.

أربعة حرم : هي رجب، والقعدة، والحجة، ومحرم، الواحد منها حرام والجمع حرم.

الدين القيم 2: أي الشرع المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

فلا تظلموا فيهن أنفسكم: أي لا ترتكبوا في الأشهر الحرم المعاصي فإنها أشد حرمة.

كافة : أي جميعاً وفي كل الشهور حلالها وحرامها.

مع المتقين: أي بالتأييد والنصر، والمنقون هم الذين لا يعصون الله تعالى.

إنما النسيء: أي تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر.

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً : أي النسيء عاماً يحلونه وعاماً يحرمونه.

ليواطئوا عدة ما حرم الله: أي ليوافقوا عدد الشهور المحرمة وهي أربعة.

زين لهم سوء عملهم: أي زين لهم الشيطان هذا التأخير للشهر الحرام وهو عمل سيء لأنه إفتيات

على الشارع واحتتيال على تحليل الحرام.

معنى الآيتين:

عاد السياق للحديث على المشركين بعد ذلك الاعتراض الذي كان للحديث عن أهل الكتاب فقال

تعالى {إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً} لا تزيد ولا تنقص، وأنها هكذا في اللوح المحفوظ

{يوم خلق السموات والأرض}3 . وأن منها أربعة أشهر حرم أي محرّمات وهي رجب، والقعدة

والحجة ومحرم، وحرّمها الله تعالى أي حرم القتال فيها لتكون هدنة يتمكن العرب معها من السفر

للتجارة وللحج والعمرة ولا يخافون أحداً، ولما

1 المراد بالشهور: ما تتألف منه السنة القمرية، واحدها: شهر، مشتق من الشهرة سميت به الأيام من أول ظهور الهلال إلى سراره.

2 أي: الصحيح، والإشارة في قوله: {ذلك الدين القيم} إلى عدة الشهور، وتقسيمها إلى حُرْم وغيرها وإلى عدم ارتكاب الذنوب فيها.

3 قوله: {يوم خلق السموات والأرض..} قاله ليبين أن قضاء وقدره كان قبل ذلك وأنه سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسمّاها بأسمائها يوم خلق السموات والأرض.

(2/365)

جاء الإسلام وأعز الله أهله، نسخ حرمة القتال فيها. وقوله تعالى (ذلك الدين القيم) أي تحريم هذه الأشهر واحترامها بعدم القتال فيها هو الشرع المستقيم وقوله تعالى {فلا تظلموا فيهن أنفسكم} أي لا ترتكبوا الذنوب والمعاصي في الأشهر الحرم فإن ذلك يوجب غضب الله تعالى وسخطه عليكم فلا تعرضوا أنفسكم له، وقوله تعالى {وقاتلوا المشركين} هذا خطاب للمؤمنين يأمرهم تعالى بقتال المشركين بعد انتهاء المدة التي جعلت لهم وهي أربعة أشهر وقوله {كافة}1 أي جميعاً لا يتأخر منكم أحد كما هم يقاتلونكم مجتمعين على قتالكم فاجتمعوا أنتم على قتالهم، وقوله {واعلموا أن الله مع المتقين} وهم الذين اتقوا الشرك والمعاصي ومعناه أن الله معكم بنصره وتأييده على المشركين العصاة وقوله عز وجل {إنما النسيء2 زيادة في الكفر} أي إنما تأخير حرمة محرم إلى صفر كما يفعل أهل الجاهلية ليستبجوا القتال في الشهر الحرام بهذه الفتيا الشيطانية هذا التأخير زيادة في كفر الكافرين3، لأنه محاربة لشرع الله وهي كفر قطعاً لقوله تعالى {يضل به الذين كفروا} أي بالنسيء يزدادون ضلالاً فوق ضلالهم. وقوله {يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً} يعني النسيء وهو الشهر الذي أخروه أي أخروا حرمة إلى الشهر الذي بعده ليتمكنوا من القتال في الشهر الحرام، فعاماً يحلون وعاماً يحرمون حتى يوافقوا عدة الأشهر الحُرْم، بلا زيادة ولا نقصان، ظناً منهم أنهم ما عصوا مستترين بهذه الفتيا الإبلسية كما قال تعالى {زين لهم سوء أعمالهم} والمزين للباطل قطعاً هو الشيطان. وقوله تعالى {والله لا يهدي القوم الكافرين} يخبر تعالى أنه عز وجل لا يهدي القوم الكافرين لما هو الحق والخير وذلك عقوبة لهم على كفرهم به ورسوله، وإصرارهم على ذلك.

1 كافة: معناه جميعاً، وهو مصدر في موضع الحال أي: محيطين بهم ومجتمعين. قالوا: نظير كافة: في كونه لا يبني ولا يجمع: عاقبة وعامة وخاصة.

2 قرأ الجمهور: {النسيء} مهموزاً وقرأ ورش: {النسيء} بالياء المشددة، وهو فعيل بمعنى مفعول في قولك: نسأت الشيء أنسأه إذا أخرته، فنقل من منسوء إلى نسيء كما نقل مفتول إلى فتيل لأنه أخف، وأصل هذا التشريع الجاهلي: أن العرب قبل الإسلام كانوا أهل حروب فإذا احتاجوا إلى القتال في الشهر الحرام طلبوا من زعيمهم أن ينسيء المحرم أي: يؤخره إلى صفر حتى يمكنهم الحرب في المحرم بعد الحج وما زالوا يؤخرون ويقدمون حتى اختلطت الشهور وأصبح رجب جمادى ورمضان شوال وهكذا، ودارت الشهور دورتها، وفي عام حجة الوداع أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" يريد أن الشهور قد رجعت إلى مواضعها، وأصبح كل شهر في موضعه فوق حج النبي صلى الله عليه وسلم في موضعه. 3 إذ كفروا بالشرك وإنكار المعاد وتكذيب الرسل، ونسبة الولد لله تعالى ثم بالنسيء ازدادوا كفراً.

(2/366)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان أن شهور السنة الهجرية اثنا عشر شهراً 1 وأيامها ثلثمائة 2 وخمسة وخمسون يوماً.
- 2- بيان أن الأشهر الحرم أربعة وقد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي رجب، والقعدة والحجة ومحرم.
- 3- حرمة الأشهر الحرم، ومضاعفة السيئات فيها أي قبح الذنوب فيها.
- 4- صفة المعية لله تعالى وهي معية خاصة بالنصر والتأييد لأهل تقواه.
- 5- حرمة الاحتيال على 3 الشرع بالفتاوى الباطلة لإحلال الحرم، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة في الإثم.
- 6- تزيين الباطل وتحسين المنكر من الشيطان.

7- حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله تعالى وتوفيقه لما هو حق وخير حالاً ومآلاً.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)

1 وهي: محرم ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر ويجمع على أصفار وربيع الأول ويجمع على أربعة وربيع الثاني وجمادى الأولى ويجمع على جماديات وتذكر وتؤنث فيقال: الأولى والأول، وجمادى الآخرة والآخر، ورجب ويجمع على أرجاب ورجاب، وشعبان ويجمع على شعابين وشعبانات، ورمضان ويجمع على رمضانات، ورماضين وأرمضة وشوال ويجمع على شواول

وشواويل وشوالات، القعدة ويجمع على ذوات القعدة والحجة بكسر الحاء وفتحها ويجمع على ذوات الحجة.

2 وهي: الأحد ويجمع على آحاد وأوحد ووحيد، والاثني ويجمع على اثنين، والثلاثاء يذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث والأربعاء ويجمع على أربعاوات وأربيع، والخميس ويجمع على خمسة وأخامس، والجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها ويجمع على جمع وجمعات، والسبت ويجمع على سبوت كفتح وفتوح وأسبات كقمع وأقماع.

3 اختلف فيمن كان أول من نسا فقيلا عمرو بن لحي، وقيل: رجل من كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم:

ومنا ناسىء الشهر القلمس

وقال الكمي:

ألسنا الناسئين على معد ...

شهور الحل نجعلها حراما

(2/367)

إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)
إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى
وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

شرح الكلمات:

مالك؟ 1: أي أي شيء ثبت لكم من الأعداء.

انفروا: أي اخرجوا مستعجلين مندفعين.

اتأقلمتم: أي تباطأتم كأنكم تحملون أثقالاً.

إلا تنصروه: أي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثاني اثنين: أي هو وأبو بكر رضي الله عنه.

في الغار: غار ثور أي في جبل يقال له ثور بمكة.

لصاحبه: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

سكينته: أي طمأنينته.

كلمة الذين كفروا: هي الدعوة إلى الشرك.

السفلى: أي مغلوبة هابطة لا يسمع لها صوت.

وكلمة الله هي العليا: أي دعوة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" هي العليا الغالبة الظاهرة.

1 (ما): حرف استفهام ومعناه التقرير والتوبيخ.

(2/368)

معنى الآيات:

هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن هرقل ملك الروم قد جمع جموعه لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم التعبئة العامة، وكان الزمن صيفاً حاراً وبالبلاد جرب ومجاعة، وكان ذلك في شوال من سنة تسع، وسميت هذه الغزوة بغزوة العسرة فاستحثَّ الربُّ تبارك وتعالى المؤمنين ليخرجوا مع نبيهم لقتال أعدائه الذين عزموا على غزوه في عقر داره فأَنْزَلَ تعالى قوله {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله} والقائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم {انفروا في سبيل الله} أي اخرجوا للجهاد {في سبيل الله} أي لأجل رضاه سبحانه وتعالى وما عنده من نعيم مقيم. وقوله {مالكم} أي أي شيء يجعلكم لا تتفرون؟ وأنتم المؤمنون طلاب الكمال والإسعاد في الدارين. وقوله {اثاقلتم إلى الأرض} 1 أي تباطأتم عن الخروج راضين ببفائكم في دوركم وبلادكم. {أرضيتم بالحياة الدنيا من 2 الآخرة؟} ينكر تعالى على من هذه حاله منهم، ثم يقول لهم {فما متاع الحياة الدنيا} أي ما كل ما يوجد فيها من متع على اختلافها بالنسبة إلى ما في الآخرة من نعيم مقيم في جوار رب العالمين {إلا قليل} تافه لا قيمة له؛ فكيف تؤثرون القليل على الكثير والفاني على الباقي. ثم قال لهم {إلا تتفروا} أي إن تخليتم عن نصرته صلى الله عليه وسلم وتركتموه يخرج إلى قتال الروم وحده {يُعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم} 3 ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير}. وفي هذا الخبر وعيد شديد اهتزت له قلوب المؤمنين.

وقوله تعالى {إلا تتصروه} 4 أي إن خذلتموه ولم تخرجوا معه في هذا الظرف الصعب فقد نصره الله تعالى في ظرف أصعب منه نصره في الوقت الذي أخرجه الذين كفروا {ثاني اثنين} 5 أي هو وأبو بكر لا غير، {إذ هما في الغار} أي غار ثور، {إذ يقول

1 أصل {اثاقلتم}: ثناقلتم فأدغمت التاء في الثاء لقرب مخرجهما وزيدت همزة الوصل للتوصل إلى

النطق بالساكن ومثله: اداركوا واداراتم، واطيرنا، وازينت.

2 أي: أرضيتم بنعيم الدنيا وراحتها بدلاً من نعيم الآخرة وسعادتها.

3 أي: لا يفعدون عند استنفارهم للجهاد والخروج معه، وأنتم بتخلفكم لا تضرونه شيئاً، في الآية دليل

على حرمة التناقل عن الجهاد إذا كان مع كراهته ولا حرمة مع عدم الكراهة إلا أن يعينه الإمام فيجب.

4 أصلها إن الشرطية أدمت فيها لا النافية، والآية تحمل عتاباً شديداً، ومعنى الآية: إن تركتم نصرته فقد تكفل الله بها.

5 أي: أحد اثنين كالثلاثة وثلاثة ورابع أربعة.

(2/369)

لصاحبه: لما قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا يا رسول الله، {لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه} فسكنت نفسه واطمأن وذهب الخوف من قلبه 1، {وأيدته بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا} وهي دعوتهم إلى الشرك جعلها {السفلى} مغلوبة هابطة {وكلمة الله} كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله {هي العليا} الغالبة الظاهرة {والله عزيز} غالب 2 لا يغالب {حكيم} في تصرفه وتدبيره، ينصر من أراد نصره بلا ممانع ويهزم من أراد هزيمته بلا مغالب.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام.

2- يجب أن يكون النفير في سبيل الله لا في سبيل غير سبيله تعالى.

3- بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة.

4- وجوب نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم في دينه في أمته في سنته.

5- شرف أبي بكر الصديق وبيان فضله.

6- الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَ لَكَ الَّذِينَ

1 أي: قلب أبي بكر رضي الله عنه.

2 إذ أحبط تعالى أعمال قريش في طلبها الرسول صلى الله عليه وسلم لتقتله حيث جعلت مائة ناقة لمن يأتيها برأسه وأنجى الله رسوله منهم وانتهى إلى المدينة ونصره عليهم.

صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ (43)

شرح الكلمات:

خفافاً وثقالاً: الخفاف جمع خفيف: وهو الشاب القوي البدن ذا الجدة من زاد ومركوب. والثقال جمع ثقيل: وهو الشيخ الكبير والمريض والفقير الذي لا جدة عنده.
 ذلكم: أي الجهاد بالمال والنفس خير من التثاقل إلى الأرض وترك الجهاد حالاً ومآلاً.
 عرضاً قريباً: غنيمة في مكان قريب غير بعيد.
 أو سفراً قاصداً: أيما معتدلاً لا مشقة فيه.
 الشقة: الطريق الطويل الذي لا يقطع إلا بمشقة وعناء.
 عفا الله عنك: لم يؤاخذك.
 معنى الآيات:

ما زال السياق في الحث على الخروج إلى قتال الروم بالشام ففي هذه الآيات يأمر تعالى المؤمنين بالخروج إلى الجهاد على أي حال كان الخروج من قوة وضعف فليخرج الشاب القوي كالكبير العاجز الضعيف والغني كالفقير فقال تعالى {انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا¹ بأموالكم وأنفسكم} أعداء الله الكافرين به وبرسوله حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية ويقبلوا أحكام الإسلام {ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} أي نفوركم للجهاد وقاتلكم الكافرين إلى الانتهاء بهم إلى إحدى الغايتين خير لكم من الخلود إلى الأرض والرضا بالحياة الدنيا وهي متاع قليل، إن كنتم تعلمون ذلك، وقوله تعالى {لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة³} يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم لو كان

1 الآية محكمة ولم تتسخ، والمراد منها: أن الإمام إذا أعلن عن النفير العام، وجب الإسراع إلى الخروج معه على أي حال من كبر وصغر وغنى وفقر.

2 العرض: ما يعرض من منافع الدنيا، والمراد به هنا: الغنيمة أي: لو كان الذي دعوا إليه عرضاً قريباً أو كان الذي دعوا إليه سفراً قاصداً أي: سهلاً معلوم الطرق لاتبعوك.

3 الشقة: بالضم: السفر إلى أرض بعيدة وهي هنا تبوك، نظير هذه الآية من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "لو يعلم أحدهم أنه يحد عظماً سميناً أو مرامتين حسنتين لشهد العشاء.." المرمأة: ظلف الشاة.

أولئك المتخلفون عن الجهاد من المنافقين وضعفة الإيمان قد دعوتهم إلى عرض قريب أي غنيمة حاضرة أو إلى سفر سهل قاصد معتدل لا تتبعوك وخرجوا معك، ولكن دعوتهم إلى تبوك وفي زمن الحر والحاجة فبعدت عليهم الشقة فانتحلوا الأعدار إليك وتخلفوا. وقوله تعالى {وسيحلفون بالله} أي لكم قائلين: لو استطعنا أي الخروج لخرجنا معكم.

قال تعالى {يهلكون أنفسهم} حيث يجلبون لها سخط 1 الله وعقابه {والله يعلم إنهم لكاذبون} في كل ما اعتذروا به. هذا ما دلت عليه الآيات الأولى والثانية (41-42) وأما الآية الثالثة فقد تضمنت عتاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث أذن لمن طلب منه التخلف عن النفور والنهوض إلى تبوك وكان من السياسة الرشيدة عدم الإذن لأحد حتى يتميز بذلك الصادق من الكاذب قال تعالى {عفا الله عنك} 2 أي تجاوز عنك ولم يؤأخذك وقدّم هذا اللفظ على العتاب الذي تضمنه الاستفهام {لم أذنت لهم} تعجيلاً للمسرة للنبي صلى الله عليه وسلم إذ لو أخر عن جملة العتاب لأوجد خوفاً وحرزاً، وقوله تعالى {حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين} علة للعتاب على الإذن للمنافقين 3 بالتخلف عن الخروج إلى تبوك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إذا أعلن الإمام التعبئة العامة يحرم التخلف عن الجهاد ولا يقعد أحد، إلا بإذن لأجل علة قامت به فاستأذن فأذن له.
- 2- الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال وهو خيرٌ من تركه حالاً ومالاً.
- 3- الأيمان الكاذبة لإبطال حق أو إحقاق باطل توجب سخط الله تعالى وعذابه.
- 4- مشروعية العتاب للمحب.
- 5- جواز مخالفة الأولى على النبي صلى الله عليه وسلم لعدم علمه ما لم يعلمه الله تعالى.

1 بسبب كذبهم ونفاقهم وأيمانهم الكاذبة.

2 أخبره بالعفو قبل العتاب رحمة به وإكراماً له، إذ لو قال له لِمَ أذنت لهم أولاً لكان يطير قلبه صلى الله عليه وسلم من الفرق أي: الخوف.

3 هؤلاء قوم منافقون قالوا نستأذنه في القعود فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا. أمّا غير هؤلاء فقد رخص له في الإذن لمن شاء في قوله: {فأذن لمن شئت منهم} من سورة النور.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44)
إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ
أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46)
شرح الكلمات:

لا يستأذنتك : أي لا يطلبون منك إذناً بالتخلف عن الجهاد.
وارتابت قلوبهم: أي شككت في صحة ما تدعو إليه من الدين الحق.
في ربهم : أي في شكهم.

يترددون : حيارى لا يثبتون على شيء.

لأعدوا له عدة: لهيأوا له ما يلزم من سلاح وزاد ومركوب.

انبعاثهم: أي خروجهم معكم.

فثبطهم: ألقى في نفوسهم الرغبة في التخلف وحببه إليهم فكسلوا ولم يخرجوا

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن غزوة تبوك وأحوال المأمورين بالنفير فيها فبعد أن عاتب الله تعالى رسوله في إذنه للمتخلفين أخبره أنه لا يستأذنه¹ المؤمنون الصادقون في أن يتخلفوا عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم وإنما يستأذنه {الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر

1 لا يستأذنه المؤمنون لا في القعود ولا في الخروج وإنما هم مع مراده صلى الله عليه وسلم فإذا أمر بأمر ابتدروه طاعة ومحبة ورغبة في رضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(2/373)

وارتابت قلوبهم} في الإيمان بالله ورسوله ووعده ووعيدته، فهم حيارى مترددون لا يدرون أين يتجهون وهي حالة المزعزع العقيدة كسائر المنافقين، وأخبره تعالى أنهم كاذبون في اعتذارا تم إذ لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته أي احضروا له أهبتة من سلاح وزاد وراحلة ولكنهم كانوا عازمين على عدم الخروج بحال من الأحوال، ولو لم تأذن لهم بالتخلف لتخلفوا مخالفين قصدك متحدين أمرك. وهذا عائد إلى أن الله تعالى كره خروجهم لما فيه من الضرر والخطر فثبطهم بما ألقى في قلوبهم من الفشل رفي أجسامهم من الكسل كأنما قيل لهم اقعدوا مع القاعدین هذا ما دلت عليه الآية (44) {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ولكن كره الله انبعاثهم¹ فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین 2} وقوله تعالى في ختام الآية الأولى (44) {والله عليم بالمتقين}3 فيه تقرير لعلمه تعالى بأحوال ونفوس عباده فما أخبر به هو الحق والواقع، فالمؤمنون الصادقون لا يطلبون التخلف عن الجهاد لإيمانهم

وتقواهم، والمنافقون هم الذين يطلبون التخلف لشكهم وفجورهم والله أعلم بهم، ولا ينبئك مثل خبير.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبهما لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال.

2- خطر الشك في العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد، وصاحبه لا يقدر على أن يجاهد بمال ولا نفس.

3- سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير.

1 {انبعاثهم}: أي: خروجهم معك، ومعنى تَبَطَّهْم: حبسهم عنك وخذلهم لأنهم قالوا: إن لم يأذن لنا في القعود أفسدنا بين صفوف المؤمنين.

2 القاعدون: هم أولو الضرر، والعميان والزمنى، والنساء والأطفال. والقائل لهم اقعدوا هو الرسول صلى الله عليه وسلم لما طلبوا منه الإذن بالقعود وجائز أن يكون قاله بعضهم لبعض أو قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حال غضبه عليهم، أو هو تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود في قلوبهم حتى لا يخرجوا فيفسدوا.

3 فيه شهادة للمؤمنين الصادقين بالتقوى وهي دعامة الولاية الحققة لله تعالى، فالإيمان والتقوى بهما تثبت ولاية الله للعبد ومن والاه الله فلا خوف عليه ولا حزن.

(2/374)

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَارِهِونَ (48)

شرح الكلمات:

لو خرجوا فيكم: أي مندسين بين رجالكم.

إلا خبالاً: الفساد في الرأي والتدبير.

ولأوضعوا خلاككم: أي لأسرعوا بينكم بالتميمة والتحريش والإثارة لإبقتكم في الفتنة.

وفيكم سماعون لهم: أي بينكم من يكثر السماع لهم والتأثر بأقوالهم المثيرة الفاسدة.

من قبل: أي عند مجيئك المدينة مهاجراً.

وقلَّبوا لك الأمور: بالكيد والمكر والاتصال باليهود والمشركين والتعاون معهم.

وظهر أمر الله: بأن فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهم كارهون: أي لمجيء الحق وظهور أمر الله بانتصار دينه.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في فضح نوايا المنافقين وكشف الستار عنهم فقال تعالى ﴿لو خرجوا فيكم﴾¹ أيها الرسول والمؤمنون أي إلى غزوة تبوك ﴿ما زادكم إلا خبالاً﴾² أي ضرراً وفساداً وبلبلة لأفكار المؤمنين بما ينفثونه من سموم القول للتخذيل والتفشيل،

1 في هذا الإخبار الإلهي تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أجل تخلف المنافقين عنهم.

2 الاستثناء منقطع أي: ما زادكم قوة ولكن طلبوا الخبال لكم. والعادة: أن الاستثناء المنقطع يكون: بمعنى لكن إذ ليس هو جزء من المستثنى منه.

(2/375)

﴿ولأوضعوا﴾¹ أي أسرعوا ركائبهم ﴿خلالكم﴾ أي بين صفوفكم بكلمات التخذيل والتثبيط ﴿يبغونكم﴾ بذلك ﴿الفتنة﴾ وهي تفريق جمعكم وإثارة العداوة بينكم بما يحسنه المنافقون في كل زمان ومكان من خبيث القول وفساده وقوله تعالى ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي وبينكم أيها المؤمنون ضعاف الإيمان يسمعون منكم وينقلون لهم أخبار أسراركم كما أن منكم من يسمع لهم ويطيعهم ولذا وغيره كره الله انبعاثهم وثبثهم فقعوا مع القاعدين من النساء والأطفال والعجز والمرضى، وقوله تعالى ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين يعملون على إبطال دينه وهزيمة أوليائه. فلذا صرفهم عن الخروج معكم إلى قتال أعدائكم من الروم والعرب المنتصرة بالشام. وقوله تعالى في الآية الثانية (48) ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ بل من يوم هاجرت إلى المدينة ووجد بها الإسلام وهم يثيرون الفتن بين أصحابك للإيقاع بهم، وفي أحد رجوع ابن أبي بنثلث الجيش وهم بنو سلمة وبنو حارثة بالرجوع عن القتال لولا أن الله سلم ﴿وقلبوا لك الأمور﴾² وصرفوها في وجوه شتى بقصد القضاء على دعوتك فظاهروا المشركين واليهود في مواطن كثيرة وكان هذا دأبهم ﴿حتى جاء الحق﴾ بفتح مكة ﴿وظهر أمر الله﴾ بدخول أكثر العرب في دين الله ﴿وهم كارهون﴾ لذلك بل أسفون حزنون، ولذا فلا تأسفوا على عدم خروجهم معكم، ولا تحفلوا به أو تهتموا له، فإن الله رحمة بكم ونصراً لكم صرفهم عن الخروج معكم. فاحمدوا الله وأثنوا عليه بما هو أهله، والله الحمد والمنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- وجود منافقين في صفوف المؤمنين خطر عليهم وضرر كبير لهم فلذا ينبغي أن لا يُشركوا في

أمر، وأن لا يعول عليهم في مهمة.

2- وجوب الأخذ بالحيطه في الأمور ذات البال والأثر على حياة الإسلام والمسلمين.

1 الإيضاح: سرعة السير، يقال: أوضع يوضع إيضاعاً إذا أسرع في سيره. قال دريد بن الصمة:

يا ليتني فيها جذع ... أخبّ فيها وأضع

2 الأمور: جمع أمر وهو اسم مبهم كشيء، قال الشاعر:

ولكن مقادير جرت وأمور

والألف واللام للجنس: أي: أمور تعرفونها وأمور تتكرونها، وحتى: غائية لتقليبهم الأمور.

(2/376)

3- المنافق يسوءه عزة الإسلام والمسلمين ويحزن لذلك.

4- تدبير الله تعالى لأوليائه خير تدبير فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) إِنْ تُصِيبَكَ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَبِتَوْلَأَوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ
يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا
إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ
مُتَرَبِّصُونَ (52)

شرح الكلمات:

ومنهم : أي من المنافقين وهو الجد بن قيس.

إذن لي : أي في التخلف عن الجهاد.

ولا تفتني : أي لا توقعني في الفتنة بدعوى أنه إذا رأى نساء الروم لا يملك نفسه.

حسنة تسؤهم: الحسنة كل ما يحسن من نصر وغنيمة وعافية ومعنى تسؤهم أي يكرهون لها ويحزنون.

قد أخذنا أمرنا من قبل : أي احتطنا للأمر ولذا لم نخرج معهم.

إحدى الحسينين: الأولى الظفر بالعدو والانتصار عليه والثانية الشهادة المورثة للجنة.

(2/377)

فتربصوا : أي انتظروا فإننا معكم من المنتظرين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك فيقول تعالى ﴿ومنهم من يقول
أذن لي﴾ أي في التخلف عن الجهاد، ﴿ولا تفتني﴾ بالزامك لي بالخروج أي لا توقعني في الفتنة، فقد
روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له. هل لك في 1 بلاد بني الأصفر؟ فقال إني مغرم بالنساء
وأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر 2 (وهم الروم) لا أصبر عنهن فأفتن، والقائل هذا هو الجد بن
قيس أحد زعماء المنافقين في المدينة فقال تعالى دعاء عليه ورداً لباطله: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ وأي
فتنة أعظم من الشرك والنفاق؟ ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ به وبأمثاله من أهل الكفر والنفاق، هذا
ما دلت عليه الآية الأولى أما الآية الثانية (50) فقد تضمنت الكشف عما يقوله المنافقون في أنفسهم
أنه إن تصب الرسول والمؤمنين حسنة من نصر أو غنيمة وكل حال حسنة يسؤهم ذلك أي يكرههم
ويحزنهم، وإن تصبهم سيئة من هزيمة أو قتل وموت يقولوا فيما بينهم ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أي احتطنا
للأمر فلم نخرج معهم ﴿ويتولوا﴾ راجعين إلى بيوتهم وأهليهم ﴿وهم فرحون﴾. هذا ما تضمنته الآية التي
هي قوله تعالى ﴿إن تصبك حسنة 3 تسؤهم، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا
وهم فرحون﴾ 4 أما الآيتان الثالثة والرابعة (51 - 52) فقد علم الله سبحانه وتعالى رسوله ما يقوله
إغاظه لأولئك المنافقين وإخباراً لهم بما يسؤهم فقال ﴿قل لن يصيبنا﴾ أي من حسنة أو سيئة إلا ما
كتب الله 5 لنا وما يكتبه ربنا لنا لن يكون إلا خيراً لأنه مولانا ﴿وعلى الله فيلتوكل المؤمنون﴾ ونحن
مؤمنون وعلى

1 في رواية ياجدٌ هل لك في جلاذ بني الأصفر لتتخذ منهم سراري ووصفاء فقال الجد الخ.

2 قيل: سمي الروم بني الأصفر: لأن الحبشة غزتهم وسببتهم فنشأ جيل أصفر اللون بين البياض
والسواد، وهو اللون الأصفر.

3 ﴿إن تصبك حسنة﴾ جملة شرطية وجملة ﴿تسؤهم﴾ جواب وجزاء لها كما أن جملة ﴿وان تصبهم﴾
شرط، والجزاء ﴿يقولوا﴾ الخ.

4 ﴿ويتولوا﴾ أي: راجعين إلى بيوتهم ومجالسهم وهم كافرون، فهم متولون في الحقيقة عن الإيمان
﴿فرحون﴾ أي: معجبون بنجاحهم المؤقت.

5 أي: في اللوح المحفوظ الذي هو كتاب المقادير، أو هو ما أخبرنا به كتابه القرآن الكريم من أننا
إمّا نظفر فيكون الظفر حسنى لنا وإمّا أن نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا.

ربنا متوكلون، وقال له: {قل هل تریصون بنا} 1 أي هل تنتظرون بنا إلا إحدی الحسنین: 2 النصر والظهور على أهل الشرك والكفر والنفاق أو الاستشهاد في سبیل الله، ثم النعيم المقيم في جوار رب العالمین وعليه {فتریصوا إنا معكم متریصون} 3، وسوف لا نشاهد إلا ما یسرنا ویسوءكم.

هدایة الآیات

من هدایة الآیات:

- 1- فضیحة الجد بن قیس وتسجیل اللعنة علیه وتبشیره بجهنم.
 - 2- بیان فرح المنافقین والکافرین بما یسوء المسلمین، وبیان استیائهم لما یفرح المسلمین وهي علامة النفاق البارزة في كل منافق.
 - 3- وجوب التوکل على الله وعدم الاهتمام بأقوال المنافقین.
 - 4- بیان أن المؤمنین بین خيارین في جهادهم: النصر أو الشهادة.
 - 5- مشروعیة القول الذي یغیط العدو ویحزنه.
- قُلْ أَنْفُسُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)

1 التریص : الانتظار، والاستفهام للتوبيخ.

2 الحسنیان: هما الغنیمة والشهادة.

3 {فتریصوا} هذا الأمر للتهديد والوعید، كأنما یقول لهم: انتظروا مواعد الشیطان فإننا مُنتظرون مواعد الرحمن، وشتان بین ما ننتظر وما تنتظرون!!

(2/379)

شرح الكلمات:

طوعاً أو كرهاً .: أي وأنتم طائعون أو أنتم مكرهون على الإنفاق.

إنكم كنتم قوماً فاسقين: الجملة علة لعدم قبول نفقاتهم.

كسالى: متناقلون لعدم إيمانهم في الباطن بفائدة الصلاة.

فلا تعجبك أموالهم: أي لا تستحسنوا أيها المسلمون ما عند المنافقين من مال وولد.

وتزهق أنفسهم: أي تفيض وتخرج من أجسامهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تعليم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يرد على المنافقين فقال له قل

لهم أيها الرسول {انفقوا} 1 حال كونكم طائعين أو مكرهين {لن يتقبل منكم}، أي أخبرهم أن ما ينفقونه في هذا الخروج إلى تبوك وفي غيره سواء أنفقوه باختيارهم أو كانوا مكرهين عليه لن يتقبله الله منهم لأنهم 2 كانوا قوماً فاسقين بكفرهم بالله وبرسوله وخروجهم عن طاعتها. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (53) أما الآية الثانية (54) فقد أخبر تعالى عن الأسباب الرئيسية التي حالت دون قبول نفقاتهم وهي أولاً الكفر بالله وبرسوله، وثانياً إتيانهم الصلاة وهم كسالى كارهون، وثالثاً كراهيتهم الشديدة لما ينفقونه قال تعالى {وما منعهم} 3 أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى 4 ولا ينفقون إلا وهم كارهون} 5 هذا ما تضمنته الآية الثانية أما الآية الثالثة (55) فإن الله تعالى ينهى رسوله والمؤمنين عن أن تعجبهم أموالهم وأولادهم مهما بلغت في الكثرة والحسن فيقول {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم} أي لا تستحسنوها ولا تخبروهم بذلك. وبين تعالى لرسوله

1 روي أن هذه الآية نزلت في الجد بن قيس إذ هو الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم إنذن لي في القعود عن الخروج إلى قتال الروم وهذا مالي أعينك به والأمر في قوله: {انفقوا} للتسوية أي: انفقوا أولاً وتتفقوا فكل الأمرين سواء، في عدم قبول ما تنفقون.

2 الجملة تعليلية أي: قوله: {لن يتقبل منكم} الخ ذكرت تعليلاً لعدم قبول ما ينفقون.

3 هذا بيان للتعليل السابق في عدم قبول نفقاتهم مع ذكر أسباب أخرى حالت دون قبول ما ينفقون. 4 قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا كان في جماعة صلى وإذا انفرد لم يصل. أي: المناقق لأنه لا يرجو على الصلاة ثواباً، ولا يخشى على تركها عقاباً وهذا منشأ الكسل في الصلاة وغيرها من سائر العبادات.

5 هنا مسألتان: الأولى: أن من مات على الكفر لا ينفعه ما عمله في الدنيا من خير إلا أنه يخفف عنه العذاب لحديث أبي طالب، وأنه في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه. كما أنه قد يكون سبباً في سعة رزقه في الدنيا للحديث، وأما الكافر فيطعم. الثانية أن من أسلم منهم يثاب على ما عمله من الخير أيام كفره.

(2/380)

علة إعطائهم ذلك وتكثيره لهم فقال {إنما يريد الله ليغضبهم} 1 بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون} ووجه تعذيبهم بها في الحياة الدنيا أن ما ينفقونه من المال في الزكاة والجهاد يشعرون معه بألم لا نظير له لأنه إنفاق يعتبرونه ضدهم وليس في صالحهم إذ لا يريدون نصر الإسلام ولا ظهوره، وأما أولادهم فالتعذيب بهم هو أنهم يشاهدونهم يدخلون في الإسلام ويعملون به ولا

يستطيعون أن يردوهم عن ذلك، أيّ ألمّ نفسي أكبر من أن يكفر ولد الرجل بدينه ويدين بآخر من شروطه أن يبغض الكافر به ولو كان أباً أو أمّاً أو أختاً أو أقرب قريب؟ وزيادة على هذا يموتون وهم كافرون فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد، وبهذا سلى الرب تعالى رسوله والمؤمنين بيان علة ما أعطى المنافقين من مال وولد ليعذبهم بذلك لا ليسعدهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ أن الرياء مبطلّة للعمل كالشرك محبب للعمل 2.
 - 2- إطلاق الفسق على الكفر فكل كافر فاسق على الإطلاق.
 - 3- حرمة التكاثر في الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين.
 - 4- وجوب رضا النفس بما ينفق العبد في سبيل الله زكاة أو غيرها.
 - 5- كراهية استحسان المسلم لما عند أهل الفسق والنفاق من مال ومتاع.
- وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ

1 فعل الإرادة يعني بنفسه تقول: أردت خيراً، وعدي هنا بلام لأجل التعليل كقول الشاعر:

أريد لأنسي حبها فكأنما ... تمثل لي ليلي بكل مكان

2 لقوله تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك} الآية، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في عبدالله بن جدعان وقد قالت له عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: "لا ينفعه لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" رواه مسلم.

(2/381)

فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59)

شرح الكلمات:

وما هم منكم: أي في باطن الأمر لأنهم كافرون ووجوههم وقلوبهم مع الكافرين.

يفرقون: أي يخافون خوفاً شديداً منكم.

ملجأ: أي مكاناً حصيناً يلجأون إليه.

أو مغارات: جمع مغارة وهي الغار في الجبل.

أو مدخلاً: أي سرياً في الأرض يستتر فيه الخائف الهارب.
يجمعون: يسرعون سرعة تتعذر مقاومتها وإيقافها.
يلمذك : أي يعيبك في شأن توزيعها ويطعن فيك.
إذا هم يسخطون : أي غير راضين.
حسبنا الله : أي كافينا الله كل ما يهمننا.
إلى الله راغبون: إلى الله وحده راغبون أي طامعون راجون.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هنك أستار المنافقين وإظهار عيوبهم وكشف عوراتهم ليتوب منهم من أكرمه الله بالتوبة فقال تعالى عنهم {ويحلفون بالله إنهم لمنكم}1 أي من أهل ملتكم ودينكم، لوما هم منكم} أي في واقع الأمر إذ هم كفار منافقون {ولكنهم قوم يفرقون} أي يخافون منكم خوفاً شديداً فلذا يحلفون لكم إنهم منكم لتؤمنوهم على أرواحهم وأموالهم، وليبان شدة فرقتهم منكم وخوفهم من سيوفكم قال تعالى: {لو يجدون

1 لأنهم يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية يتقون بها ما يخافونه من بطش المؤمنين بهم إذا عرفوا أنهم كافرون كما قال تعالى من سورتهم {اتخذوا أيمانهم جنة}.

(2/382)

ملجأ}1 أي حصناً {أو مغارات} أي غيراناً في جبال {أو مدخلاً}2 أي سرياً في الأرض {لولوا} أي أدبروا إليها {وهم يجمعون}3 أي مسرعين ليتمنعوا منكم. هذا ما دلت عليه الآية الأولى والثانية أما الآية الثالثة والرابعة (58-59) فقد أخبر تعالى أن من المنافقين من يلمز الرسول صلى الله عليه وسلم أي يطعن فيه ويعيبه في شأن قسمة الصدقات وتوزيعها فيتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لا يعدل في القسمة فقال تعالى {ومنهم من يلمذك4 في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا} أي عن الرسول وقسمته {وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} هذا ما تضمنته الآية (58) وأما الآية الأخيرة (59) فقد أرشدهم الله تعالى إلى ما كان ينبغي أن يكونوا عليه فقال عز وجل {ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله}، أي من الصدقات {وقالوا حسبنا الله} أي كافينا الله {سيؤتينا الله من فضله} الواسع العظيم ورسوله بما يقسم علينا ويوزعه بيننا {إنا إلى الله وحده} {راغبون} طامعون راجعون أي لكان خيراً لهم وأدرك حاجتهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:..

- 1- الأيمان الكاذب شعار المنافقين وفي الحديث آية المنافق ثلاث: (إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان).
- 2- الجبن والخور والضعف والخوف من لوازم الكفر والنفاق.
- 3- عيب الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد قلوب ونيات من يفعل ذلك.
- 4- مظاهر الرحمة الإلهية تتجلى في إرشاد المنافقين إلى أحسن ما يكونوا عليه ليكملوا

1 الملجأ مكان اللجأ يقال لجأت إلى كذا: إذا أويت إليه واعتصمت به وألجأت أمري إليه أي: أسندته.

2 المدخل: مفتعل اسم كان للإدخال الذي هو افتعال من الدخول قلبت فيه تاء الافتعال دالاً لوقوعها بعد الدال فصارت مدخلاً بدل متدخل، ونظيره. إِدَانُ أصلها إِتْدَانٌ، وقرأها يعقوب وحده أو مدخلاً بفتح الميم وإسكان الدال اسم مكان هي دخل.

3 الجموح: نفور في إسراع.

4 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى بعض رعاة الغنم شيئاً لفقيرهم فطعن أبو الحواظ المنافق فقال: ما هو بالعدل كيف يضع صدقاتكم في رعاء الغنم إعانة لهم. كما أن ذا الخويصرة التميمي واسمه حرفوص بن زهير وهو أصل الخوارج قال للرسول صلى الله عليه وسلم: اعدل يا رسول الله فقال له: "ويلك ومن يعدل إذا لم اعدل" فنزلت الآية وقال عمر دعني أضرب عنقه يا رسول الله فقال رسول الله: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي".

5 جواب لو محذوف تقديره: لكان خيراً لهم، وهو مذكور في التفسير في آخر الحديث.

(2/383)

ويسعدوا في الدارين.

5- لا كافي إلا الله، ووجوب انحصار الرغبة فيه تعالى وحده دون سواه.

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَّاتِ فُلُوهُنَّ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

شرح الكلمات:

الصدقات: جمع صدقة وهي هنا الزكاة المفروضة في الأموال.

للفقراء: جمع فقير وهو من ليس له ما يكفيه من القوت ولا يسأل الناس.

والمساكين: جمع مسكين وهو فقير ليس له ما يكفيه ويسأل الناس ويدل نفسه السؤال.

والعاملين عليها: أي على جمعها وجابتها وهم الموظفون لها.

والمؤلفة قلوبهم : هم أناس يرجى إسلامهم أو بقاءهم عليه إن كانوا قد أسلموا وهم ذوو شأن وخطر
ينفع الله بهم إن أسلموا وحسن إسلامهم.

وفي الرقاب : أي في فك الرقاب أي تحريرها من الرق، فيعطى المكاتبون ما يسدون به نجوم أو
أقساط كتابتهم.

وفي سبيل الله: أي الجهاد لإعداد العدة وتزويد المجاهدين بما يلزمهم من نفقة.

وابن السبيل : أي المسافر المنقطع عن بلاده ولو كان غنياً ببلاده.

فريضة من الله: أي فرضها أدته تعالى فريضة على عباده المؤمنين.

معنى الآية الكريمة:

بمناسبة لمز المنافقين الرسول صلى الله عليه وسلم والظعن في قسمته الصدقات بين تعالى في هذه
الآية الكريمة أهل الصدقات المختصين بها والمراد بالصدقات الزكوات وصدقة التطوع

(2/384)

فقال عز وجل {إنما الصدقات} محصورة في الأصناف الثمانية التي تذكر وهم:

(1) الفقراء 1 وهم المؤمنون الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم الضرورية من طعام وشراب وكساء
وماوى.

(2) المساكين 2 وهم الفقراء الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم ولم يتعففوا 3 فكانوا يسألون الناس
ويظهرون المسكنة 4 لهم والحاجة.

(3) الموظفين فيها من سعاة جباة وأمناء وكتاب وموزعين يعطون على عملهم فيها أجره أمثالهم في
العمل الحكومي.

(4) المؤلفة قلوبهم وهم من يرجى نفعهم للإسلام والمسلمين لمناصبهم وشوكتهم في أقوامهم،
فيعطون من الزكاة تأليفاً أي جمعاً لقلوبهم على الإسلام ومحبته ونصرته ونصرة أهله، وقد يكون
أحدهم يسلم بعد فيعطى ترغيباً له في الإسلام، وقد يكون مسلماً لكنه ضعيف الإسلام فيعطى تثبيتاً
له وتقوية على الإسلام.

(5) في الرقاب وهو مساعدة المكاتبين على تسديد أقساطهم ليتحرروا أما شراء عبد بالزكاة وتحريره
فلا يجوز لأنه يعود بالنفع على دافع الزكاة لأن ولاء المعتوق له.

(6) الغارمين جمع غارم وهو من ترتبت عليه ديون بسبب ما أنفقه في طاعة الله تعالى على نفسه
وعائلته، ولم يكن لديه مال لا نقد ولا عرض يسدد به ديونه.

(7) في سبيل الله وهو تجهيز الغزاة والإنفاق عليهم تسليحاً وإركاباً وطعاماً ولباساً.

(8) ابن السبيل وهم المسافرون ينزلون ببلد وتنتهي نفقتهم فيحتاجون فيعطون من الزكاة

1 قيل: الفقير هو صفة مشبهة من الفقر أي المتصف بالفقر وهو: عدم امتلاك ما به الكفاية لحاجته المعاشية وضده الغنى، والمسكين: ذو المسكنة وهي المذلة التي تحصل بسبب الفقر، والفقير والمسكين يغني ذكر أحدهما عن الآخر، أما إذا ذكراً معاً فلكل واحد حقيقة كما تقدم، وفي أيهما أشد فقراً خلاف، وأحسن ما قيل هو أن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين: الذي لا شيء له.

2 قال القرطبي: فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين فمن قال هما صنف واحد يكون الثلث الموصى به نصفه لفلان ونصفه الآخر للفقراء، ومن قال: هما صنفان يقسم الثلث الموصى به بينهم أثلاثاً.

3 اختلف في حالة الفقر التي يصح للفقير أن يأخذ معها الزكاة، فمن قائل إن لم يكن له مائتا درهم جاز له أخذ الزكاة، ومن قائل: خمسون درهماً ومن قائل: أربعون درهماً. ومن قائل: من كان قوياً على الكسب لقوة بدنه فلا يعطى الزكاة لحديث: "لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مزة سوي".

4 ورد الوعيد الشديد فيمن يطلب الصدقة وهو غني عنها من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار" رواه أبو داود. قالت العلماء: إن الذي له شبع يوم وليلة لا يحل له أن يسأل. اختلف في نقل الزكاة من بلد إلى بلد، والراجح: الجواز لضرورة الفقر وشدته.

(2/385)

ولو كانوا أغنياء ببلادهم.

وقوله تعالى {فريضة من الله} 1 أي هذه الصدقات وقسمتها على هذا النحو جعله الله تعالى فريضة لازمة على عباده المؤمنين. وقوله {والله عليم} أي بخلقه وأحوالهم {حكيم} في شرعه وقسمته، فلذا لا يجوز أبداً مخالفة هذه القسمة فلا يدخل أحد فيعطى من الزكاة وهو غير مذكور في هذه الآية وليس شرطاً أن يعطى كل الأصناف فقد يعطى المرء زكاته كلها في الجهاد أو في الفقراء والمساكين، أو في الغارمين أو المكاتبين وتجزئة وإن كان الأولى أن يقسمها بين الأصناف المذكورة من وجد منها، إذ قد لا توجد كلها في وقت واحد.

هداية الآية

من هداية الآية.:

1- تقرير فرضية الزكاة.

2- بيان مصارف الزكاة.

3- وجوب التسليم لله تعالى في قسمته بعدم محاولة الخروج عنها.

4- إثبات صفات الله تعالى وهي هنا: العلم والحكمة، ومتى كان الله تعالى عليماً بخلقه وحاجاتهم حكيماً في تصرفه وشرعه وجب التسليم لأمره والخضوع له بالطاعة والانتقياد. وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ

1 {فريضة} منصوب على المصدر المؤكد إذ تقدير الكلام: إنما فرض الله الصدقات للفقراء والمساكين الخ.. فريضة منه تعالى وهو العليم بخلقه الحكيم في تدبيره وصنعه.

(2/386)

مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)
شرح الكلمات.

يؤدون النبي : أي الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم، والأذى المكروه يصيب الإنسان كثيراً أو يسيراً.

هو أذن : أي يسمع من كل من يقول له ويحدثه وهذا من الأذى.

قل أذن خير لكم: أي هو يسمع من كل من يقول له لا يتكبر ولكن لا يقر إلا الحق ولا يقبل إلا الخير والمعروف فهو إذن خير لكم لا إذن شر مثلكم أيها المنافقون.

ويؤمن للمؤمنين: أي يصدق المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار أما غيرهم فإنه وإن يسمع منهم لا يصدقهم لأنهم كذبة فجرة.

والله..: أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه.

من يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ : أي يعاديهما، ويقف دائماً في حدّ وهما في حد فلا ولاء ولا موالاتة أي لا محبة ولا نصره.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هتك أستار المنافقين وبيان فضائحهم قال تعالى: {ومنهم 1 الذين يؤدون النبي} أي من المنافقين أفراد يؤدون النبي بالطعن فيه وعيبه بما هو براء منه، ويبين تعالى بعض ذلك الأذى فقال {ويقولون هو أذن} أي يسمع كل ما يقال له، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يقر سماع الباطل أو الشر أو الفساد، وإنما يسمع ما كان خيراً ولو كان من منافق يكذب ويحسن القول. وأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم بقوله {قل أذن خير 2 لكم} يسمع ما فيه خير لكم، ولا يسمع ما هو شر لكم. إنه لما كان لا يواجههم بسوء صنيعهم،

-
- 1 قيل هذه الآية نزلت في عتاب بن قشير إذ قال: إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له. وقيل: نزلت في نبتل بن الحارث الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "من أراد أن ينظر إلى الشيطان فليُنظر إلى نبتل بن الحارث" وكان ماكرًا خبيثًا مشوّه الخلقة.
- 2 قرىء بالرفع والتنوين {أذن خير لكم} قرأ الجمهور بالإضافة {أذن خير}.

(2/387)

وقبح أعمالهم حملهم هذا الجميل والإحسان على أن قالوا: {هو أذن} طعنًا فيه صلى الله عليه وسلم وعيبًا له. وقوله تعالى {يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} هذا من جملة ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمنافقين ردًا على باطلهم. أنه صلى الله عليه وسلم يؤمن بالله ربًا والها، {ويؤمن للمؤمنين} أي بصدقهم فيما يقولون وهذا من خيريته صلى الله عليه وسلم وقوله {ورحمة} للذين آمنوا منكم} أيضًا من خيريته فهو صلى الله عليه وسلم رحمة لمن آمن به واتبع النور الذي جاء به فكمّل عليه وسعد به في حياته. وقوله تعالى {والذين يؤذون رسول الله} أي بأي نوع من الأذى قل أو كثر توعدهم الله تعالى بقوله {لهم عذاب أليم} وهو لا محالة نازل بهم وهم ذائقوه حتمًا هذا ما دلت عليه الآية الأولى (61) أما الآية الثانية (62) فقد أخبر تعالى عن المنافقين أنهم يحلفون للمؤمنين بأنهم ما طعنوا في الرسول ولا قالوا فيه شيئًا يريدون بذلك إرضاء المؤمنين حتى لا يبطشوا بهم انتقامًا لكرامة نبيهم قال تعالى {يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين} أي فبدل أن يرضوا المؤمنين كان الواجب أن يرضوا الله تعالى بالتوبة إليه ويرضوا الرسول بالإيمان ومتابعته إن كانوا كما يزعمون أنهم مؤمنون.

وقوله في الآية الثالثة (63) {ألم يعلموا} أنه من يحادد الله ورسوله} أي يشاقهما ويعاديهما فإن له جزاء عدائه ومحاربتة نار جهنم خالدًا فيها {ذلك الخزي العظيم} أي كونه في نار جهنم خالدًا فيها لا يخرج منها هو الخزي العظيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

-
- 1 أي: وهو رحمة. على أنّ رحمة: خبر لمبتدأ محذوف وقرىء: ورحمة بالجر عطفًا على {خير لكم} وفيه بُعد كبير.
- 2 روي أنّ نفرًا من المنافقين منهم الجلاس بين سويد ووديعة بن ثابت فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقًا لنحن شرّ من الحمير وبينهم غلام فغضب لقولهم هذا وأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم

فكذبوه في قوله فأنزل الله تعالى هذه الآية: {سيعلفون بالله لكم.. الخ.
3 قال سيبويه: تقدير الكلام، والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ثم حذف طلباً للإيجاز
كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأي مختلف
والحامل على هذا التقدير لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرض بقول الرجل: ما شاء الله وشئت
فقال له: "قل ما شاء الله وحده" لأن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب.

4 الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: ألم تعلموا شأناً عظيماً هو من يجادل الله ورسوله له نار
جهنم، والسحادة، المعادة والمشاقة كأن كل واحد واقف في حد لا يتصل بالآخر، والفاء في {فإن
له} لربط جواب شرط {من} وأعيدت أن في الجواب لتوكيد أن المذكورة قبل الشرط توكيداً لفظياً.

(2/388)

- 1- حرمة أذية رسول الله بأي وجه من الوجوه.
 - 2- كون النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين دعوة للإيمان والإسلام.
 - 3- توعده الله تعالى من يؤذي رسوله بالعذاب الأليم دليل على كفر من يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 - 4- بيان كذب المنافقين وجبنهم حيث يحلفون للمؤمنين أنهم ما طعنوا في الرسول وقد طعنوا بالفعل، وإنما حلفهم الكاذب يدفعون به غضب المؤمنين والانتقام منهم.
 - 5- وجوب طلب رضا الله تعالى بفعل محابه وترك مساخطه.
 - 6- ترعد من يحادد الله ورسوله بالعذاب الأليم.
- يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا اللَّهَ مَخْرِجَ مَا
تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلِ ابَاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا
مُجْرِمِينَ (66)

شرح الكلمات:

يحذر المنافقون: أي يخافون ويحترسون.

تنزل عليهم سورة: أي في شأنهم فتفضحهم بإظهار عيبهم.

1 في الآية دليل جواز الحلف بالله وعدم جواز الحلف بغيره لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "من حلف فليحلف بالله أو ليصمت ومن حلف له فليصدق".

تنبَّههم بما في قلوبهم : أي تخبرهم بما يضمرونه في نفوسهم.
قل استهزئوا : الأمر هنا للتهديد.

مخرج ما تحذرون : أي مخرجه من نفوسكم مظهره للناس أجمعين.
نخوض ونلعب : أي نخوض في الحديث على عادتنا ونلعب لا نريد سباً ولا طعناً.
تستهزئون : أي تسخرون وتحترقون.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن المنافقين لكشف الستار عنهم وإظهارهم على حقيقتهم ليتوب منهم من تاب الله عليه قال تعالى مخبراً عنهم {يحذر 1 المنافقون أن تنزل عليهم 2 سورة تنبئهم بما في قلوبهم} أي يخشى المنافقون أن تنزل في شأنهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم {سورة تنبئهم} أي تخبرهم بما في قلوبهم فتفضحهم، ولذا سميت هذه السورة بالفاضحة 3 وقوله تعالى لرسوله {قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون} يهددهم تعالى بأن الله مخرج ما يحذرون إخراجاً وظهوره مما يقولونه في خلواتهم من الطعن في الإسلام وأهله. وقوله تعالى {ولئن سألتهم} أي عما قالوا من الباطل. لقالوا {إنما كنا نخوض ونلعب 4} لا غير. قل لهم يا رسولنا {أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون} وذلك أن نفرًا من المنافقين في غزوة تبوك قالوا في مجلس لهم: ما رأينا مثل قراننا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أهدب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء! فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآيات: وجاءوا يعتذرون لرسوله الله فأنزل الله { لا تعتذروا 5 قد كفرتم بعد إيمانكم} أي الذي كنتم تدعون، لأن الاستهزاء بالله والرسول والكتاب كفر مخرج من الملة، وقوله تعالى {إن

1 يروى أن أحد المنافقين قال: والله وددت لو أنني قُدمت فجلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا فنزلت الآية: {يحذر المنافقون..} وهي خبر وإن قال بعضهم هي إنشاء بمعنى: ليحذر المنافقون.
2 معلوم أن القرآن ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله: {عليهم} بمعنى المؤمنين لأنهم والرسول في جانب والمنافقون في آخر، فصَحَّ أن يقال: تنزل على المؤمنين، والرسول معهم، وهو المختص بالوحي.

3 وسميت أيضاً: المثيرة، والمبعثرة، والحفارة لأنها أثارت كامن المنافقين وبعثرته وحفرت ما في قلوبهم وأخرجته.

4 ذكر الطبري أنّ قائل هذه المقالة: وديعة بن ثابت قال ابن عمر: رأيت معلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشىها والحجارة تتكبه وهو يقول: إنّما كنا نخوض ونلعب والرسول صلى الله

عليه وسلم يقول: أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون.

5 {لا تعتذروا} نهاهم عن الاعتذار لأنه غير نافع لهم ولا مجدٍ واعتذر بمعنى: أعذر أي صار ذا عذر، والاعتذار محو أثر الموجدة أو هو القطع، أي قطع ما في القلب من الموجدة، ومنه قيل: عدرة الغلام: وهو ما يقطع منه عند الختان.

(2/390)

نعف عن طائفة منكم} لأنهم يتوبون كمخشي بن حمير 1، {نعذب طائفة} أخرى لأنهم لا يتوبون وقوله تعالى {بأنهم كانوا مجرمين} علة للحكم بعذابهم وهو إجرامهم بالكفر والاستهزاء بالمؤمنين إذ من جملة ما قالوه: قولهم في الرسول صلى الله عليه وسلم يظن هذا يشيرون إلى النبي وهم سائرون يفتح قصور الشام وحصونها فأطلع الله نبيه عليهم فدعاهم فجاءوا واعتذروا بقولهم إنا كنا نخوض 2 أي في الحديث ونلعب تقصيراً للوقت، ودفعاً للملل عنا والسامة فأنزل تعالى {قل أبا لله} الآية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الكشف عن مدى ما كان يعيش عليه المنافقون من الحذر والخوف.
 - 2- كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله.
 - 3- لا يقبل اعتذار 3من كفر بأي وجه وإنما التوبة أو السيف فيقتل كفراً.
 - 4- مصداق ما أخبر به تعالى من أنه سيعذب طائفة فقد هلك عشرة بداء الدبيلة "خارج يخرج من الظهر وينفذ ألمه إلى الصدر فيهلك صاحبه حتماً".
- الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ

1 هو مخشي بن حمير الأشجعي وقد تاب عند سماعه هذه الآية وحسن إسلامه.

2 الخوص: الدخول في الماء، نم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذى.

3 اختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال لا يلزم مطلقاً، يلزم مطلقاً، التفرقة بين البيع وغيره، وهذا الراجح، لأنَّ النكاح والطلاق والعناق ورد فيها النص من السنة لحديث الترمذي وحسنه مع وصفه بالغرابة وبه العمل عد جماهير الصحابة والتابعين والفقهاء وهو: "ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة" وحديث الموطأ: "ثلاث ليس فيهن لعب: النكاح والطلاق والعنق".

فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

شرح الكلمات:

المنافقون : أي الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم ويستترون الكفر في قلوبهم.

بعضهم هن بعض 1: أي متشابهون في اعتقادهم وقولهم وعملهم فأمرهم واحد.

بالمنكر: أي ما ينكره الشرع لضرره أو قبحه وهو الكفر بالله ورسوله.

عن المعروف: أي ما عرفه الشرع نافعاً فأمر به من الإيمان والعمل الصالح.

يقبضون أيديهم: أي يمسكونها عن الإنفاق في سبيل الله.

نسوا الله فنسيهم: أي تركوا الله فلم يؤمنوا به ورسوله فتركهم وحرّمهم من توفيقه وهدايته.

عذاب مقيم: أي دائم لا يزول ولا يبيد.

1 {بعضهم من بعض}: أي: هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين، أو هم متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

بخلاقهم : أي بنصيبيهم وحظهم من الدنيا.

وخضتم : أي في الكذب والباطل.

والمؤتفكات : أي المنقلبات حيث صار عاليها سافلها وهي ثلاث مدن 1.

بالبيئات : الآيات الدالة على صدقهم في رسالاتهم إليهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في هتك استار المنافقين وبيان فضائحهم لعلمهم يتوبون. قال تعالى {المنافقون

والمنافات بعضهم من بعض} أي كأبعض الشيء الواحد وذلك لأن أمرهم واحد لا يختلف بعضهم

عن بعض في المعتقد والقول والعمل بين تعالى حالهم بقوله {يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف}

وهذا دليل على انتكاسهم وفساد قلوبهم وعقولهم، إذ هذا عكس ما يأمر به العقلاء، والمراد من المنكر الذي يأمر به هو الكفر والعصيان، والمعروف الذي ينهون عنه هو الإيمان بالله ورسوله وطاعتها. وقوله تعالى {ويقبضون أيديهم} كناية عن الإمساك وعدم البذل في الإنفاق في سبيل الله 2. وقوله {نسوا الله} فلم يؤمنوا به ولم يؤمنوا برسوله ولم يطيعوا الله ورسوله {فنسيهم} الله بأن تركهم محرومين من كل هداية ورحمة ولطف. وقوله {إن المنافقين هم الفاسقون} تقرير لمعنى {نسوا الله فنسيهم}، إذ كفرهم بالله وبرسوله هو الذي حرّمهم هداية الله تعالى ففسقوا سائر أنواع الفسق فكانوا هم الفاسقين الجديرين بهذا الوصف وهو الفسق والتوغل فيه. وقوله تعالى في الآية (68) {وعد3 الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم} 4 أي كافيتهم {ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم} أي دائم لا يزول ولا يبيد ولا يفنى فقد حملت هذه الآية أشد وعيد لأهل النفاق والكفر إذ توعدهم الرب تعالى بنار جهنم خالدين فيها وبالعذاب المقيم الذي لا يبارحهم ولا يتركهم لحظة أبد الأبد وذلك بعد أن لعنهم الله فأبعدهم وأسحقهم من كل رحمة وخير. وفي الآية الثالثة (69) يأمر

1 هي: سدوم، وعمورة، وأرمة، وكانت مدناً متاخمة بعضها قريب من بعض.

2 أي: وصفهم بالبخل والشح كما قال تعالى: {أشحة على الخير} كما أن امتناعهم عن الخروج إلى الجهاد يعتبر قبضاً لأيديهم.

3 الأصل أن الوعد يكون في الخير والإيعاد يكون في الشر، وإطلاق الوعد على الوعيد كما هو هنا تهكم بهم.

4 {هي حسبهم} مبتدأ وخبر ومعناه: أنها كافية ووفاء لجزاء أعمالهم.

(2/393)

تعالى رسوله أن يقول للمنافقين المستهزئين بالله وآياته ورسوله؟ أنتم أيها المنافقون كأولئك الذين كانوا من قبلكم في الاغترار بالمال والولد والكفر بالله والتكذيب لرسله حتى نزل بهم عذاب الله ومضت فيهم سنته في إهلاكهم هذا ما تضمنته الآية الكريمة إذ قال تعالى {كالذين من قبلكم 1 كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلافهم} أي بنصيبيهم الذي كتب لهم في الدنيا {فأستمتعتم بخلافكم} أي بما كتب لكم في هذه الحياة الدنيا {كما استمتع الذين من قبلكم} أي سواء بسواء {وخضتم} في الباطل والشر والكفر والتكذيب {كالذي خاضوا} 2 أي كخوضهم سواء بسواء أولئك الهالكون {حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة} أي تلاشت وذهبت ولم ينتفعوا منها بشيء، {وأولئك هم الخاسرون}. وبما أنكم أيها المنافقون تسيرون على منهجهم في الكفر والتكذيب والاغترار بالمال والولد فسوف يكون مصيركم كمصيرهم وهو الخسران المبين. وقوله تعالى في الآية الرابعة

(70) {ألم يأتيهم 3 نبياً الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم 4 رسلهم بالبينات} أي الآيات الدالة على توحيد الله وصدق رسوله وسلامة دعوتهم كما جاءكم أيها المنافقون رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبينات فكذبتم كما كذب الذين من قبلكم فنزل بهم عذاب الله فهلك قوم نوح بالطوفان وعاد بالريح العاتية، وثمود بالصاعقة، وقوم إبراهيم 5 بسلب النعم وحلول النقم، وأصحاب مدين بالرجفة وعذاب الظلمة، والمؤتفكات 6 بالمطر والإتفك أي القلب بأن أصبح أعالي مدنهم الثلاث 7 أسافلها، وأسافلها أعاليها، وما ظلمهم الله تعالى بما أنزل عليهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأنتم أيها المنافقون إن لم تتوبوا إلى ربكم سيحل بكم ما حل بمن قبلكم أو أشد لأنكم لم تعتبروا بما سبق.

1 الكاف: في محل نصب أي: وعدكم الله أيها المنافقون والمنافقات كما وعد الذين من قبلكم نار جهنم تخلصون فيها.

2 الكاف: في محل نصب نعت لمصدر محذوف أي: وخضتم خوضاً كالذي خاضوا أي: في الباطل والشر والفساد. والذي بمعنى الجمع، ويحوز أن يكون الذين محذوف النون على لغة هذيل قال شاعرهم:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

3 الاستفهام للتقرير، والتحذير بمعنى: ألم يسمعوا بإهلاكنا الكفار من قبلهم؟

4 أي بدلائل الحق والصدق، والجملة تعليلية.

5 هم نمرود بن كنعان وقومه.

6 قوم لوط عليه السلام.

7 تقدمت أسماء هذه المدن قريباً.

(2/394)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إن المنافقين لما كان مرضهم واحد وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابهاً.
- 2- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر وانتكاس الفطرة.
- 3- الاغترار بالمال والولد من عوامل عدم قبول الحق والإذعان له والتسليم به.
- 4- تشابه حال البشر وإتباع بعضهم لبعض في الباطل والفساد والشر.
- 5- حبوط الأعمال بالباطل وهلاك أهلها أمر مقضى به لا يتخلف.

6- وجوب الاعتبار بأحوال السابقين والاعتناظ بما لاقاه أهل الكفر منهم من عذاب. والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (71) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم (72)

شرح الكلمات:

والمؤمنون : أي الصادقون في إيمانهم بالله ورسوله ووعده الله ووعيده. أولياء بعض: أي يتولى بعضهم بعضاً في النصرة والحماية والمحبة والتأييد. ويطيعون الصلاة". أي يؤدونها في خشوع وافية الشروط والأركان والسنن والآداب. ويؤتون الزكاة: أي يخرجون زكاة أموالهم الصامته كالدرهم والدنانير والمعشرات، والناطقة كالأنعام الإبل والبقر والغنم.

(2/395)

في جنات عدن : أي إقامة دائمة لا يخرجون منها ولا يتحولون 1 عنها. ورضوان من الله أكبر: أي رضوان الله الذي يحله عليهم أكبر من كل نعيم في الجنة. معنى الآيتين:

بمناسبة ذكر المنافقين وبيان سلوكهم ونهاية أمرهم ذكر تعالى المؤمنين وسلوكهم الحسن ومصيرهم السعيد فقال {والمؤمنون والمؤمنات} أي المؤمنون بالله ورسوله ووعده ووعيده والمؤمنات بذلك {بعضهم أولياء بعض} أي يوالي بعضهم بعضاً محبة 2 ونصرة وتعاوناً وتأيداً {يأمرون بالمعروف} وهو ما عرفه الشرع حقاً وخيراً من الإيمان وصالح الأعمال، {وينهون عن المنكر} وهو ما عرفه الشرع باطلاً ضاراً فاسداً من الشرك وسائر الجرائم فالمؤمنون والمؤمنات على عكس المنافقين والمنافقات في هذا الأمر وقوله تعالى {ويقيمون 3 الصلاة ويؤتون الزكاة} والمنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى فهم مضيعون لها غير مقيمين لها، ويقبضون أيديهم فلا ينفقون، والمؤمنون يطيعون الله ورسوله 4، والمنافقون يعصون الله ورسوله، المؤمنون سيرحمهم الله 5، والمنافقون سيعذبهم الله، {إن الله عزيز} غالب سينجز وعده ووعيده {حكيم} يضع كل شيء في موضعه اللائق به فلا يعذب المؤمنين وينعم المنافقين بل ينعم المؤمنين ويعذب المنافقين.

وقوله تعالى في الآية الثانية (72) {وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار} أي من خلال قصورها وأشجارها {خالدين فيها ومساكن} أي قصوراً طيبة في غاية النظافة وطيب الرائحة {في جنات عدن 6} أي إقامة، وقوله {ورضوان من الله}

-
- 1 قال تعالى من سورة الكهف: {لا يبيغون عنها حولاً} أي: تحولاً لأنّ نعيمها لا يُمل ولا تتشوق النفس لغيره أبداً.
- 2 شاهده من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" وشبّك بين أصابعه وقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر".
- 3 يشمل اللفظ: الصلوات الخمس والنوافل كما شمل الزكوات المفروضة والصدقات إذ المدح يحصل بهما معاً فرضاً ونفلاً.
- 4 أي: يؤدون الفرائض والسنن فعلاً ويجتنبون المنهيات والمكروهات تركاً.
- 5 السين في {سيرحهم} للتأكيد وتحمل معنى الخوف والرجاء وهما جناح المؤمن لا يطيرون في سماء الكمالات إلا بهما.
- 6 شاهده في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن" وقوله أيضاً في الصحيح: "إنّ للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً".

(2/396)

أي يحله عليهم أكبر من الجنات والقصور وسائر أنواع النعيم. وقوله {ذلك هو الفوز العظيم} ذلك المذكور من الجنة ونعيمها ورضوان الله فيها هو الفوز العظيم. والفوز هو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب. هذا الوعد الإلهي الصادق للمؤمنين والمؤمنات يقابله وعيد الله تعالى للمنافقين والكفار في الآيات السابقة، ونصه {وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم}.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- بيان صفات المؤمنين والمؤمنات والتي هي مظاهر إيمانهم وأدلته.
- 2- أهمية صفات أهل الإيمان وهي الولاء لبعضهم بعضاً، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، طاعة الله ورسوله.
- 3- بيان جزاء أهل الإيمان في الدار الآخرة وهو النعيم المقيم في دار الإسلام.
- 4- أفضلية رضا الله تعالى على سائر النعيم.

5- بيان معنى الفوز وهو النجاة من النار، ودخول الجنة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمْ

1 أخرج الشيخان البخاري ومسلم، ومالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً"

(2/397)

اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)
شرح الكلمات:

جاهد الكفار: ابذل غاية جهدك في قتال الكفار والمنافقين.

واغلظ عليهم: أي في القول والفعل أي شدد عليهم ولا تثن لهم.

كلمة الكفر: أي كلمة يكفر بها من قالها وهي قول الجلاس بن سويد: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من الحمير.

وهما بما لم ينالوا : أي هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم في مؤامرة دنيئة¹ وهم عائدون من تبوك.

وما نقموا إلا أن أغناهم : أي ما أنكروا أو كرهوا من الإسلام ورسوله إلا أن أغناهم الله بعد فقر أعلى مثل هذا يهمون بقتل رسول الله؟
معنى الآيتين:

يأمر تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين فيقول ليا أيها النبي² جاهد الكفار والمنافقين {وجهاد الكفار يكون بالسلاح وجهاد المنافقين يكون باللسان،³ وقوله تعالى {واغلظ عليهم⁴} أي شدد عملك وقولك، فلا هوادة مع من كفر بالله ورسوله، ومع من نافق الرسول والمؤمنين فأظهر الإيمان وأسر الكفر وقوله تعالى {ومأواهم جهنم وبئس المصير} أي جهنم يريد ابذل ما في وسعك في جهادهم قتلاً وتأديباً هذا لهم في الدنيا، وفي الآخرة مأواهم جهنم وبئس المصير، وقوله تعالى في الآية الثانية (74) {يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم

وهما بما لم ينالوا} هذا الكلام علة للأمر بجهادهم والإغلاظ عليهم لقول الجلاس بن سويد المنافق:
لئن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من الحمير سمعه منه أحد المؤمنين فبلغه رسول الله صلى
الله عليه وسلم فجاء

- 1 اقرأ نصها في التفسير فإنها واضحة ومختصرة.
- 2 يدخل في هذا الخطاب أمته صلى الله عليه وسلم.
- 3 بأن يقول لهم الكدمة الغليظة الشديدة ويكفر في وجوههم أي: يعبس ولا يبسط وجهه فيهم.
- 4 هذه الآية نسخت كل شيء من العفو، والصفح الذين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمر بهما
إزاء المشركين والمنافقين.

(2/398)

الجلاس يعتذر ويحلف بالله ما قال الذي قال فأكذبه الله تعالى في قوله في هذه الآية {يحلفون بالله
ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم} والسياق دال على تكرار مثل هذا القول الخبيث
وهو كذلك. وقوله تعالى {وهما بما لم ينالوا} يعني المنافقين الذين تأمروا على قتل النبي صلى الله
عليه وسلم عند عودته من تبوك في عقبة في الطريق إلا أن الله فضحهم وخيب مسعاهم ونجى
رسوله منهم حيث بعث عمار بن ياسر يضرب وجوه الرواحل لما غشوه فردوا وتفرقوا بعد أن عزموا
على أن لزاحموا رسول الله وهو على ناقته بنوقهم حتى يسقط منها فيهلك أهلهم الله. وقوله تعالى
{وما نقموا} 2 أي وما كرهوا من رسول الله ولا من الإسلام شيئاً إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله
وهل الغنى بعد الفقر مما ينقم منه، والجواب لا ولكنه الكفر والنفاق يفسد الذوق والفطرة والعقل
أيضاً.

ومع هذا الذي قاموا به من الكفر والشر والفساد يفتح الرب الرحيم تبارك وتعالى باب التوبة في
وجوههم ويقول {فإن يتوبوا} 3 من هذا الكفر والنفاق والشر والفساد 4 يك ذلك {خيراً لهم} حالاً ومآلاً
أي في الدنيا والآخرة، {وإن يتولوا} عن هذا العرض ويرفضوه فيصرون على الكفر والنفاق {يعذبهم
الله عذاباً أليماً} أي موجعاً في الدنيا بالقتل والخزي، وفي الآخرة بعذاب النار، {ومالهم في الأرض
من ولي} 5 يتولاهم ولا ناصر ينصرهم، أي وليس لهم في الدنيا من ولي يدفع عنهم ما أراد الله أن
ينزله بهم من الخزي والعذاب وما لهم من ناصر ينصرهم بعد أن يخذلهم الله سبحانه وتعالى.

- 1 أخرج مسلم عن حذيفة: "أن اثني عشر رجلاً سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعدهم حذيفة
واحداً واحداً قال قلت: يا رسول الله ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن يقول العرب لما ظفر

بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيهم الله بالدبلة" وهي خراج يظهر في الظهر وينصب على الصدر يقتل صاحبه فوراً.

2 أي: ليس بنقمون شيئاً إلا أنهم كانوا فقراء فأغناهم الله بما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الغنائم، قيل لأحدهم: هل تجد في القرآن نظير قولهم اتق شر من أحسنت إليه؟ قال: نعم هو قوله تعالى: {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}.

3 هذه الجملة متفرعة عن الكلام السابق وهي باب ذكر الوعد بعد الوعيد والترغيب بعد التهيب، وهو أسلوب القرآن الكريم.

4 حذفت نون {يك} تخفيفاً إذ الأصل يكن.

5 هذه الجملة معطوفة على جملة: {يعذلم الله} وهي وإن كانت اسمية لا يمتنع أن تكون جواباً ثانياً معطوفاً على جملة الجزاء، لأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، فالجزاء جزاءان، الأول: تعذيبهم والثاني: انعدام الولي والنصير لهم في الأرض كلها.

(2/399)

هداية الآيتين.

من هداية الآيتين:

1- بيان آية السيف 1 وهي {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين}.

2- تقرير مبدأ الردة وهي أن يقول المسلم كلمة الكفر فيكفر بها وذلك كالطعن في الإسلام أو سب الله أو رسوله صلى الله عليه وسلم أو التكذيب بما أمر الله تعالى بالإيمان به والتصديق بوضه أي بما أمر الله بتكذيبه.

3- تقرير مبدأ التوبة من كل الذنوب، وأن من تاب تقبل توبته.

4- الوعيد الشديد لمن يصر على الكفر ويموت عليه.

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِئَانِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)

شرح الكلمات:

ومنهم : أي من المنافقين.

لئن آتانا من فضله : أي مالا كثيراً.

بخلوا به : أي منعه فلم يودوا حقه من زكاة وغيرها.

فأعقبهم نفاقاً: أي فأورثهم البخل نفاقاً ملازماً لقلوبهم لا يفارقها إلى يوم يلقون

1 يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: سيوف الله أربعة: واحد على المشركين قال تعالى: {فاقتلوا المشركين..} وثان على الكافرين قال تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر..} وثالث على المنافقين: قال تعالى: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين..} ورابع على البغاة. قال تعالى: {فاقتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله}.

(2/400)

الله تعالى.

بما أخلفوا الله.: أي بسبب إخلافهم ما وعدوا الله تعالى به.
سرهم ونجواهم: أي ما يسرونه في نفوسهم ويخفونه، وما يتتاجون به فيما بينهم.
علام الغيوب : يعلم كل غيب في الأرض أو في السماء.
معنى الآيات:

ما زال السياق في المنافقين وهم أصناف وهذا صنف 1 آخر منهم قد عاهد الله تعالى لئن أغناهم من فضله وأصبحوا ذوي ثروة ومال كثير ليصدقن منه ولينفقن في طريق البر والخير، فلما أعطاهم الله ما سألوا وكثر مالهم شحوا به وبخلوا، وتولوا عما تعهدوا به وما كانوا عليه من تقوى وصلاح، وهم معرضون. فأورثهم هذا البخل وخلف الوعد والكذب {نفاقاً في قلوبهم 2} لا يفارقهم حتى يلقوا ربهم. هذا ما دل عليه قوله تعالى {ومنهم من 3 عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم 4 من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون} . أما الآية الأخيرة (78) وهي قوله تعالى {الم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب؟؟} فإنها تضمنت توبيخ الله تعالى للمنافقين الذين عاهدوا الله وأخلفوه بموقفهم الشائن كأنهم لا يعلمون أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأنه تعالى علام الغيوب، وإلا كيف يعدونه ويحلفون له أم يحسبون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم فموقفهم هذا موقف مخز لهم شائن، وويل لهم حيث لازمهم ثمرته وهو النفاق حتى الموت وبهذا أغلق باب التوبة في وجوههم وهلكوا مع الهالكين.

1 قال قتادة: هذا رجل من الأنصار قال: لئن رزقني الله شيئاً لأدين فيه حقه ولأتصدقن فلما آتاه الله ذلك فعل ما فُصّ عليكم فاحذروا الكذب فإنه يؤدي إلى الفجور.

2 {نفاقاً} نكرة أي: نفاقاً ما من نوع من أنواع النفاق وليس هو نفاق الكفر إنما هو نفاق العمل.

3 الآية صريحة ودلالاتها واضحة في أن أحد أفراد المؤمنين سأل الله المال سواء بواسطة الرسول

صلى الله عليه وسلم كأن قال له ادع الله لي، أو سأل بنفسه وقطع عهداً لربه بما ذكر في الآية، ولما أخلف ما عاهد الله عليه أصيب بمرض النفاق في قلبه- والعياذ بالله تعالى- وهل هو ثعلبة بن حاطب أو غيره أما ثعلبة فقد شهد بدرًا، وأهل بدر ذُكر لهم وعد عظيم، فلا يصح أن يكون أحدهم وتعد في هذه الفتنة وإن كان غيره فهو حق، وجائز أن يكون هذا الغير اسمه ثعلبة فتشابه الاسم بالاسم فظن أنه البدرى وليس هو والله اعلم. هذا والله إنني لخائف من هذه الآية أن تنطبق عليّ فاللهم عفوك وغفرانك لي.

4 صيغة الجمع تدل على أن من عاهد الله لم يكن فرداً واحداً بل كان جماعة ولذا قال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين: نبتل بن الحارث والجد بن قيس ومتعب بن قشير إلا أن قوله تعالى: {فأعقبهم نفاقاً} يتنافى مع كونهم منافقين، إلا أن يقال: زادهم نفاقاً خُلفهم هذا على نفاقهم الأول. والله أعلم.

(2/401)

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- وجوب الوفاء بالعهود وخاصة عهود الله تعالى.

2- ذم البخل وأهله.

3- تقرير مبدأ أن السيئة يتولد عنها سيئة.

4- جواز تقييد وتأييد أهل الباطل.

5- وجوب مراقبة الله تعالى إذ لو راقب هؤلاء المنافقون الله تعالى لما خرجوا عن طاعته.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)

شرح الكلمات:

يلمزون: أي يعيبون ويطعنون

1 اختلاف في نية الطلاق أو الصدقة بدون أن يلفظ هل يلزمه ما نواه بقلبه أو لا يلزمه، الراجح: أنه لا يلزمه ما لم يتلفظ به والدليل في قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به" رواه الترمذي وقال فيه حسن صحيح، والشاهد في قوله: "أو تتكلم به" والعمل بهذا عند أهل العلم.

2 جاء في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان" ولي حديث آخر: "أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا أؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر" واختلف العلماء في تأويل هذين الحديثين، وقسموا النفاق إلى اعتقادي وعملي، فالاعتقادي: ما كان صاحبه كافراً بالله ورسوله مكذباً لهما، والعملي: ما كان صاحبه مؤمناً مصدقاً ولكن يأتي منه المحظورات جهلاً وفسقاً. وهذا صحيح. ولكن يتأتى لعبد يؤمن بالله ورسوله أن يعتمد الكذب على المسلمين وإخلاف الوعد لهم، والغدر بهم، وخيانتهم في أماناتهم والفجور في التخاصم معهم، ومن هنا كان المطلوب إجراء الخبر على ظاهره ما دام العبد يعتمد هذه المحظورات نكايّة بالمسلمين وبغضا لهم وعدم اعتراف بحقوقهم وظلماً واعتداء عليهم، إذ مثل هذا لا يكون معه إيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(2/402)

المطوعين : أي المتصدقين بأموالهم زيادة على الفريضة.

إلا جهدهم: إلا طاقتهم وما يقدرون عليه فيأتون به.

فيسخرن منهم: أي يستهزئون بهم احتقاراً لهم.

استغفر لهم: أي اطلب لهم المغفرة أو لا تطلب.

لا يهدي القوم الفاسقين: أي إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وذلك لتوغلهم في العصيان.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في التنديد بالمنافقين وكشف عوراتهم فقد أخبر تعالى أن {الذين يلمزون 1 المطوعين 2

من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم 3 فيسخرن منهم سخر الله منهم ولهم عذاب

أليم}. أخبر تعالى أنه سخر منهم جزاء سخريتهم بالمتصدقين وتوعدهم بالعذاب الأليم. وكيفية لمزهم

المتطوعين أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الصدقة فإذا جاء الرجل بمال كثير لمزوه وقالوا

مراء، وإذا جاء الرجل بالقليل لمزوه وقالوا: الله غني عن صاعك هذا فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية

فضحهم وسخر منهم وتوعدهم بأليم العذاب وأخبر نبيه أن استغفاره لهم وعدمه سواء فقال {استغفر

لهم 4 أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم } وبين علة ذلك بقوله {ذلك

بأنهم كفروا بالله ورسوله}، وهذه العلة كافية في عدم المغفرة لهم لأنها الكفر والكافر مخلد في النار.

وأخبر تعالى أنه حرمهم الهداية فلا يتوبوا فقال {والله لا يهدي القوم الفاسقين} لأن الفسق قد أصبح

وصفاً لازماً لهم فلذا هم لا يتوبون، وبذلك حرموا هداية الله تعالى.

- 1 أخرج مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أمرنا بالصدقة فكنا نحامل على ظهورنا فتصدق أبو عقيل بنصف صاع، قال: وجاء إنسان بشيء أكبر منه فقال المنافقون إن الله لغني عن صدقة هؤلاء وما فعل هذا الآخر إلا رياء فنزلت: {الذين يلمزون المطوعين ..} الآية.
- 2 أصل المطوعين: المتطوعين أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما وهم: الذين يفعلون الشيء تبرعاً من غير أن يجب عليهم.
- 3 الجهد: شيء قليل يعيش به المقل والجهد والجهد بالفتح أيضاً: الطاقة والسخرية: الاستهزاء، وعاملهم الله تعالى بالمثل فسخر منهم وهم لا يشعرون.
- 4 بيد أنه لما نزلت الآيات الفاضحة للمنافقين جاء بعضهم يعتذرون ويطلبون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم فاستغفر لهم رحمة بهم فأعلمه ربّه تعالى أن استغفاره لهؤلاء المنافقين مهما بلغ من الكثرة لا ينفعهم وذلك لكفرهم ونفاقهم وفسقهم.

(2/403)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- حرمة لمز المؤمن والطعن فيه.
 - 2- حرمة السخرية بالمؤمن.
 - 3- غيرة الله على أوليائه حيث سخر الله ممن سخر من المطوعين.
 - 4- من مات على الكفر لا ينفعه الاستغفار له، بل ولا يجوز الاستغفار له.
 - 5- التوغل في الفسق أو الكفر أو الظلم يحرم صاحبه الهداية.
- فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83)

شرح الكلمات:

فرح المخلفون : أي سرّ الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقالوا: لا تنفروا في الحر: أي قال المنافقون لبعضهم بعضاً لا تخرجوا للغزو في الحر.
لو كانوا يفقهون : أي لو كانوا يفقهون أسرار الأمور وعواقبها ونتائجها لما قالوا: لا تنفروا في الحر ولكنهم لا يفقهون.
فليضحكوا قليلاً وليبكوا : أي في الدنيا، وليبكوا كثيراً في الدار الآخرة.

فإن رجعت الله إلى طائفة منهم : أي من المنافقين.

فاقعدوا مع الخالفين: أي المتخلفين عن تبوك من النساء والأطفال وأصحاب الأعداء.
معنى الآيات:.

ما زال السياق في الحديث عن المنافقين فقال تعالى مخبراً عنهم {فرح المخلفون}1 أي سر المتخلفون {يمقدهم خلاف}2 رسول الله {أي بقعودهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة {وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم} في سبيله، وكرههم هذا للجهد هو ثمرة نفاقهم وكفرهم وقولهم {لا تتفروا في الحر} لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر، قالوا هذا لبعضهم بعضاً وهنا أمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم قولهم هذا فقال {قل نار جهنم أشد حراً} فلماذا لا يتقونها بالخروج في سبيل الله كما يتقون الحر بعدم الخروج، وقوله تعالى {لو كانوا يفقهون} أي لما تخلفوا عن الجهاد لأن نار جهنم أشد حراً، ولكنهم لا يفقهون وقوله تعالى {فليضحكوا قليلاً} أي3 في هذه الحياة الدنيا بما يحصل لهم من المسرات {وليبكوا كثيراً} أي يوم القيامة لما ينالهم من الحرمان والعذاب، وذلك كان {جزءاً بما كانوا يكسبون} من الشر والفساد ، وقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {فإن رجعت الله إلى طائفة منهم}4 أي فإن ردتك الله سالماً من تبوك إلى المدينة إلى طائفة من المنافقين {فاستأذنونك للخروج} معك لغزو وجهاد {فقل لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدواً} وعلّة ذلك {أنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين}5 أي من النساء

- 1 {المخلفون} هم المتركون في المدينة تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون لأنهم غير أهل لصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذاكره الله انبعائهم فثبّطهم أما هم فإنهم فرحوا بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفاقهم وفسقهم.
- 2 {خلاف} لغة في خلف، واختير لفظ خلاف إشارة إلى أن المنافقين يحبّون مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وقعودهم وإن كان بإذن فإنه مخالف لإرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بالنفير العام وجاءوا هم يستأذنون في القعود.
- 3 {فليضحكوا} أمر، ومعناه التهديد أي: فليضحكوا في الدنيا قليلاً وليبكوا في الآخرة كثيراً، أو هو أمر بمعنى الخير وهو صحيح إذ هذا هو حالهم ومنتهى أمرهم.
- 4 قوله : {إلى طائفة} دليل على أن من المتخلفين ما كانوا منافقون ككعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع العامري.
- 5 {الخالفين} جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين في ديارهم، واختيار لفظ الخالفين يحمل سباً لهم

وعيباً، إذ الخالفون النساء، وخلف الشيء إذا فسد، ومنه خلوف فم الصائم، ومنه خلف اللين: إذا قد بطول المكث في الإناء، وفي هذا دليل على أن استصحاب المخذل الفاسد في الغزوات لا يليق.

(2/405)

والأطفال فإن هذا يزيد في همهم ويعظم حسرتهم جزاء تخلفهم عن رسول الله وكراهيتهم الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

هداية الآلات

من هداية الآيات :

1- من علامات النفاق الفرح بترك طاعة الله ورسوله.

2- من علامات النفاق كراهية طاعة الله ورسوله.

3- كراهية الضحك والإكثار منه 1.

4- تعمد ترك الطاعة قد يسبب الحرمان منها.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84)
وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85)

شرح الكلمات:

ولا تصل على أحد : أي صلاة الجنازة.

ولا تقم على قبره: أي لا تتول دفنه والدعاء له كما تفعل مع المؤمنين.

وماتوا وهم فاسقون.: أي خارجون عن طاعة الله ورسوله.

وتزهق أنفسهم: أي تخرج أرواحهم بالموت وهم كافرون.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في شأن المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك، وإن كانت هذه الآية

1 صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ تجأرون إلى الله تعالى" وورد أن كثرة الضحك تميمت القلب وكان النبي صلى الله عليه وسلم جل ضحكه الابتسام.

(2/406)

نزلت في 1 شأن عبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين وذلك أنه لما مات طلب ولده الحباب الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله وقال له الحباب اسم الشيطان وسماه عبدالله جاءه فقال يا رسول الله إن أبي قد مات فأعطني قميصك 2 أكفنه فيه، "رجاء بركته" وصل عليه واستغفر له يا رسول الله فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص وقال له إذا فرغتم فأذنوني فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر وقال له: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال بل خيرني فقالوا استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . فصلى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية {ولا تصل على أحد منهم 3 فات أبداً، ولا تقم على قبره} أي لا تتول دفنه والدعاء له بالثبوت عند المسألة. وعلل تعالى لهذا الحكم بقوله {إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون} ، وقوله {ولا تعجبك أموالهم وأولادهم} أي لا تصل 4 على أحد منهم مات يا رسول الله {ولا تعجبك أموالهم وأولادهم} فتصلي عليهم. إني إنما أعطيتهم ذلك لا كرامة لهم وإنما لأعذبهم بها في الدنيا بالغموم والهموم {وتزهق أنفسهم} أي ويموتوا {وهم كافرون} فسينقلون إلى عذاب أبدي لا يخرجون منه، وذلك جزاء من كفر بالله ورسوله.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- حرمة الصلاة على الكافر مطلقاً.

2- حرمة غسل الكافر والقيام على دفنه والدعاء له.

1 روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: {ولا تصل على أحد منهم مات أبداً} وما في التفسير من خبر ابن أبي رواه مسلم.

2 فإن قيل: كيف يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه رئيس المنافقين وكيف صلى عليه واستغفر له وهو يعلم أنه منافق؟ والجواب: أما اعطائه ثوبه ليكفن فيه فقد سبق أن أعطى عبدالله بن أبي ثوباً للعباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم فحفظ له هذه اليد فأعطاه ثوبه وأما الصلاة عليه فقد كانت قبل نهي الله تعالى عنها، وأما الاستغفار فقد خير فيه بقوله {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم} فرأى صلى الله عليه وسلم في استغفاره استتلافاً للقلوب ففعل.

3 في الآية دليل على فرضية الصلاة على أموات المسلمين، ولا خلاف في هذا بين أهل العلم، وفي الآية إحدى موافقات عمر رضي الله عنه إذ أنزل الله تعالى هذا الحكم وهو ترك الصلاة على المنافقين بعد أن قال عمر: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين، فالصلاة هنا هي الدعاء والاستغفار فلما صلى عليه نزلت الآية {ولا تصل على أحد ..} الخ فترك الصلاة على المنافقين.

4 صلاة الجنازة هي: أن يكبر ثم يقرأ الفاتحة ثم يكبر ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يكبر ويدعو للميت، ثم يكبر الرابعة ويسلم لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وقوله: " إذا صليتم

على الميت فأخلصوا له الدعاء" رواه أبو داود، ويستحب أن يقف الإمام عند رأس الرجل، وعجيزة المرأة ، لورود الحديث بذلك في مسلم وأبي داود.

(2/407)

3- كراهة الصلاة على أهل الفسق دون الكفر.

4- حرمة الإعجاب بأحوال الكافرين المادية.

وَإِذَا أَنْزِلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90)

شرح الكلمات:

استأذنتك : أي طلبوا إذنك لهم بالتخلف.

أولو الطول منهم : أي أولو الثروة والغنى.

ذرنا نكن مع القاعدين : أي اتركنا مع المتخلفين من العجزة والمرضى والأطفال والنساء.

مع الخوالف: أي مع النساء جمع خالفة المرأة تخلف الرجل في البيت إذا غاب.

(2/408)

طبع على قلوبهم: أي توالى ذنوبهم على قلوبهم فأصبحت طابعاً عليها فحجبتها المعرفة.

لهم الخيرات : أي في الدنيا بالنصر والغنيمة. وفي الآخرة بالجنة والكرامة فيها.

وأولئك هم المفلحون : أي الفائزون بالسلامة من المخوف والظفر بالمحبوب.

المعذرون: أي المعتذرون.

وقعد الذين كذبوا الله: أي ولم يأت إلى طلب الإذن بالقعود عن الجهاد منافقوا الأعراب.

معنى الآيات:.

ما زال السياق في كشف عورات المنافقين وبيان أحوالهم فقال تعالى {وإذا أنزلت 1 سورة} أي قطعة

من القرآن آية أو آيات {أن آمنوا بالله وجاهدوا مع 2 رسوله} أي تأمر بالإيمان بالله والجهاد مع

رسوله {استأذنتك أولو الطول منهم 3} أي من المنافقين {وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين} أي المتخلفين

عن الجهاد للعجز كالمرضى والنساء والأطفال قال تعالى: في عيبيهم وتأنبيهم {رضوا بأن يكونوا مع الخوالف} أي مع النساء وذلك لجبنهم وهزيمتهم النفسية وقوله تعالى {وطبع على قلوبهم} أي طبع الله على قلوبهم بآثار ذنوبهم التي رانت على قلوبهم فلذا هم لا يفقهون معنى الكلام وإلا لما رضوا بوصمة العار وهي أن يكونوا في البيوت مع النساء هذه حال المنافقين وتلك فضائحهم إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد يأتون في غير حياء ولا كرامة يستأذنون في البقاء مع النساء (لكن 4 الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ولم يستأذنوا ففازوا بكرامة الدنيا

1 السورة. طائفة من آيات القرآن لها مبدأ ومختم، والمراد بالسورة هنا: هذه السورة (التوبة) أو بعض آياتها الآمرة بالجهاد والإيمان.

2 {أن آمنوا} أن: تفسيرية فسرت مضمون السورة وهو الإيمان والجهاد.

3 أي: في القعود والتخلف عن الجهاد وهم أصحاب القدرة على الجهاد لصحة أجسامهم وكثرة أموالهم أما العجزة فإنهم غير مأمورين بالجهاد، والطول معنا: الغنى والقدرة المالية.

4 قوله: {لكن} الخ استدرار بين فيه تعالى حال الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأنها أكمل الأحوال بعد ذكر حال المنافقين وما هم عليه من صفات النقص آذ أخبر أنهم لجبنهم يطلبون القعود عن الجهاد وأنهم لما ران على قلوبهم من أضرار الكفر والفسق لا يفقهون الكلام ولا يعرفون ما يضرهم ولا ما ينفعهم بخلاف الرسول والمؤمنين فقد ذكر صفاتهم الكمالية، وهي الجهاد بالمال والنفس وما فازوا به من عظيم الخيرات، وما آلا إليه من الفلاح وهو النجاة من المرهوب والظفر بالمحبيب.

(2/409)

والآخرة قال تعالى {وأولئك لهم الخيرات} 1 أي في الدنيا بالانتصارات والغنائم وفي الآخرة بالجنة ونعيمها ورضوان الله فيها. وقال {وأولئك هم المفلحون} أي الفائزون بالسلامة من كل مرهوب وبالظفر بكل مرغوب وفسر تعالى تلك الخيرات وذلك الفلاح بقوله في الآية (89) فقال {أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} وأخبر عما أعد لهم من ذلك النعيم المقيم بأنه الفوز فقال {ذلك الفوز العظيم}. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع أما الآية الخامسة (90) فقد تضمنت إخبار الله تعالى عن منافقي الأعراب أي البادية، فقال تعالى {وجاء المعذرون} 2 أي المعذرون أدغمت التاء في الذال فصارت المعذرون من الأعراب أي من سكان البادية كأسد وغطفان ورهط عامر بن الطفيل جاءوا يطلبون الإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف بدعوى الجهد والمخمة، وقد يكونون معذورين حقاً وقد لا يكونون كذلك. وقوله {وقعد الذين كذبوا الله ورسوله}

في دعوى الإيمان بالله ورسوله وما هم بمؤمنين بل هم كافرون منافقون، فلذا مال تعالى فيهم
{سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم} في الدنيا وفي الآخرة، إن ماتوا على كفرهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- القرآن هو مصدر التشريع الإلهي الأول والسنة الثاني.
- 2- مشروعية الاستئذان للحاجة الملحة.
- 3- حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه.
- 4- حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام.
- 5- فضل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.
- 6- بيان عظم الأجر وعظيم الجزاء لأهل الإيمان والجهاد.

1 الخيرات: جمع خير على غير قياس كسرادقات، وحمامات جمع سرادق وحمام.

2 {المعذرون} هذا اللفظ صالح لأن يكون المراد به المعتذرون لعل قامت بهم وصالح لأن يكون المراد به المعذرون وهم الذين لا عذر لهم ويعتذرون بغير حق موجب للعذر يقال: عذر فلان: إذا قصر في الواجب واعتذر بدون عذر قام به. وهذا من بلاغة القرآن، اللفظ الواحد منه يحتمل وجهين وكلاهما حق ومراد.

(2/410)

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ
لَا أُجِدُّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92)

شرح الكلمات :

على الضعفاء: أي كالشيوخ.

ولا على المرضى: كالعمى والزمنى.

حرج: أي إثم على التخلف.

إذا نصحو الله ورسوله: أي لا حرج عليهم في التخلف إذا نصحو الله ورسوله وذلك بطاعتهم الله

ورسوله مع تركهم الإرجاف والتثييط.

ما على المحسنين من سبيل: أي من طريق إلى مؤاخذتهم.

لتحملهم: أي على رواحل يركبونها.

تولوا": أي رجعوا إلى بيوتهم.

تقيض من الدمع : أي تسيل بالدموع الغزيرة حزناً على عدم الخروج.
معنى الآيتين:

لما ندد تعالى بالمتخلفين وتوعد بالعذاب الأليم الذين لم يعتذروا منهم ذكر في هذه الآيات أنه لا حرج على أصحاب الأعدار وهم الضعفاء، كالشيوخ والمرضى والعميان وذوو العرج¹ والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ولكن بشرط نصحهم الله ورسوله فقال عز

1 شاهده في سورة الفتح: {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج} وقوله تعالى: {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها}.

(2/411)

وجل {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج} أي إثم {إذا نصحوا الله ورسوله} 1 ومعنى النصح لله ورسوله طاعتهما في الأمر والنهي وترك الإرجاف والتنشيط والدعاية المضادة لله ورسوله والمؤمنين والجهاد في سبيل الله وقوله تعالى {ما على المحسنين من سبيل} أي ليس على من أحسنوا في تخلفهم لأنه أولاً بعذر شرعي² وثانياً هم مطيعون لله ورسوله وثالثاً قلوبهم ووجوههم مع الله ورسوله وإن تخلفوا بأجسادهم للعذر فهؤلاء ما عليهم من طريق إلى انتقاصهم أو أذيتهم بحال من الأحوال، كما ليس من سبيل {على الذين إذا ما أتوك لتحملهم} إلى الجهاد معك في سيرك {قلنت} معتذراً إليهم {لا أجد ما أحملك عليه تولوا} أي رجعوا إلى منازلهم وهم سيكون والدموع تقيض من أعينهم³ حزناً {ألا يجدوا ما ينفقون} في سيرهم معكم وهم نفر منهم العرياص بن سارية وبنو مقرن وهم بطن من مزينة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

1- لا حرج على أصحاب الأعدار الذين ذكر الله تعالى في قوله {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج} وفي هذه الآية {ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون} حرج وبشرط طاعة الله والرسول فيما يستطيعون والنصح⁴ لله والرسول بالقول والعمل وترك التنشيط والتخذيل والإرجاف من الإشاعات المضادة للإسلام والمسلمين.

1 قال القرطبي: {نصحو الله ورسوله} إذا عرفوا الحق وأحبوا أوليائه وأبغضوا أعداءه، ومع قبول أعدار أصحاب الأعدار فقد خرج ابن أم مكتوم إلى أحد وهو رجل أعمى، وطلب أن يعطى الراية

- ليحملها، وخرج عمرو بن الجموح وهو أعرج خرج إلى أحد فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد عذرك" فقال: والله لأحفرن بعرجتي هذه في الجنة.
- 2 روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتهم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر؟"
- 3 {حزناً} منصوب على أنه مفعول لأجله، وجملة: {وأعينهم}: حال من {تولوا}.
- 4 النصح: إخلاص العمل من الغش يقال: نصح الشيء: إذا خلص، ونصح له القول: أي أخلصه له. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدين النصحية- ثلاثاً- قلنا لمن يا رسول الله قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" ذكر القرطبي معاني هذه النصائح بالتفصيل عند تفسير هذه الآية فليرجع إليها من طلب ذلك.

(2/412)

- 2- مظاهر الكمال المحمدي في تواضعه ورحمته وبره وإحسانه إلى المؤمنين.
- 3- بيان ما كان عليه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار من الإيمان واليقين والسمع والطاعة والمحبة والولاء ورقة القلوب وصفاء الأرواح.
- اللهم إنا نحبهم بحبك فأحببنا كما أحببتهم واجمعنا معهم في دار كرامتك.

(2/413)

الجزء الحادي عشر

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)

شرح الكلمات:

إنما السبيل: أي الطريق إلى المعاقبة.

أغنياء: واجدون لأهبة الجهاد مع سلامة أبدانهم.

الخوالف : أي النساء والأطفال والعجزة.

إذا رجعت إليهم: أي إذا عدتم إليهم من تبوك، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً.

لن نؤمن لكم : أي لن نصدقكم فيما تقولون.

ثم تُردون : أي يوم القيامة.

إذا انقلبتم : أي رجعت من تبوك.

(2/414)

لُتعرضوا عنهم : أي لا تعاقبواهم.

رجس: أي نجس لخبث بواطنهم.

معنى الآيات:.

ما زال السياق الكريم في المُخَلَّفِينَ من المنافقين وغير المنافقين فقال تعالى { إنما السبيل } أي الطريق إلى عقاب المخلفين على الذين يستأذنونك في التخلف عن الغزو وهم أغنياء أي ذوو فُدرة² على النفقة والسير {رضوا بأن يكونوا مع الخوالف} أي النساء {وطبع الله على قلوبهم} بسبب ذنوبهم فهم لذلك لا يعلمون أن تخلفهم عن رسول الله لا يُجديهم نفعاً وأنه يجزُّ عليهم البلاء الذي لا يطيقونه. هؤلاء هم الذين لكم سبيل على عقابهم ومؤاخذتهم، لا على الذين لا يجدون ما ينفقون، وطلبوا منك حملاناً فلم تجد ما تحملهم عليه فرجعوا إلى منازلهم وهم يبكون حزناً. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (93) أما الآيات الثلاث بعدها فهي في المخلفين من المنافقين يخبر تعالى عنهم فيقول {يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم} يطلبون العذر منكم إذا رجعت إلى المدينة من غزوكم. قل لهم يا رسولنا لا تعتذروا لأننا لا نؤمن لكم أي لا نصدقكم فيما تقولونه، لأن الله تعالى قد نبأنا من أخباركم³ وسيرى الله عملكم⁴ ورسوله. إن أنتم تبتم فأخلصتم دينكم لله، أو أصررتم على كفركم ونفاقكم، وستردون بعد موتكم إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله تعالى فينبئكم يوم القيامة بعد بعثكم بما كنتم تعملون من حسنات أو سيئات ويجزيكم بذلك الجزاء العادل. وقوله تعالى {سيحلفون⁵ بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم} يخبر تعالى رسوله والمؤمنين فيقول سيحلف لكم هؤلاء المخلفون إذا رجعت إليهم أي إلى المدينة من أجل أن تعرضوا عنهم فأعرضوا⁶ عنهم أي لا تؤاخذوهم ولا تلتقوا إليهم إنهم رجس أي نجس، ومأواهم جهنم جزاء لهم بما كانوا يكسبون من

1 أي: العقوبة والإثم.

2 هؤلاء هم المنافقون تردد ذكرهم تنديداً بهم وكشفاً لحالهم وتحذيراً من سلوكهم.

- 3 أي: أطلعنا على سرائركم وما تخفي نفوسكم.
- 4 أي: ما تستأنفونه من أعمال بعد اليوم صالحة أو طالحة.
- 5 أي: بأنهم ما قدروا على الخروج لأعذار لهم يدعونها كذباً لتصفحوا عنهم، وتتركوا لومهم وعتابهم.
- 6 الفاء تفرعية أي: إذا كانوا يريدون الإعراض عنكم فأعرضوا عنهم وجملة: {إنهم رجس}: تعليلية أي علة للإذن لهم بالإعراض عنهم يريد: إنهم ذوو رجس.

(2/415)

الكفر والنفاق والمعاصي.. وقوله تعالى {يلحفون لكم} 1 معتذرين بأنواع من المعاذير لترضوا عنهم فإن رضوا عنهم فلن ينفعم رضاكم شيئاً لأنهم فاسقون والله لا يرضى عن القوم الفاسقين وما دام لا يرضى عنهم فهو ساخط عليهم، ومن سخط الله عليه أهلكه وعذبه فلذا رضاكم عنهم وعدمه سواء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا سبيل إلى أديّة المؤمنين الصادقين إذا تخلفوا فإنهم ما تخلفوا إلا لعذر. وإنما السبيل على الأغنياء القادرين على السير إلى الجهاد وقعدوا عنه لنفاقهم.
- 2- مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المؤمن صادقاً في اعتذاره.
- 3- المنافقون كالمشركين رجس أي نجس لأن بواطنهم خبيثة بالشرك والكفر وأعمالهم الباطنة خبيثة أيضاً إذ كلها تأمر على المسلمين ومكر بهم وكيد لهم.
- 4- حرمة الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه، إذ يجب بَعْضُهُ فكيف يُرضى عنه ويُحب؟
- الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)
- شرح الكلمات :

1 المراد به: عبدالله بن أبيّ إذ حلف أن لا يتخلف بعد اليوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب أن يرضى عنه.

(2/416)

الأعراب 1 : جمع أعرابي وهو من سكن البادية.

أشد كفراً ونفاقاً: أي من كفار ومنافقي الحاضرة.

وأجدر 2: أي أحق وأولى.

حدود ما أنزل الله : أي بشرائع الإسلام.

مغرمًا: أي غرامة وخسرانًا.

ويتريص: أي ينتظر.

الدوائر: جمع دائرة: ما يحيط بالإنسان من مصيبة أو نكبة.

دائرة السوء: أي المصيبة التي تسوءهم ولا تسرههم وهي الهلاك.

قربات: جمع قرية وهي المنزلة المحمودة.

وصلوات الرسول: أي دعاؤه لهم بالخير.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الكشف عن المنافقين وإعدادهم للتوبة أو للقضاء عليهم ففي الآية الأولى

(97) يخبر تعالى أن الأعراب 3 وهم سكان البادية من العرب أشد كفراً ونفاقاً من كفار الحَضْرَ

ومنافقيهم. وإنهم أجدر أي أخلق وأحق أي بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله أي من

الأحكام 4 والسنن وذلك لبعدهم عن الاتصال بأهل الحاضرة وقوله تعالى {والله عليم حكيم} أي عليم

بخلقه حكيم في شرعه فما أخبر به هو الحق الواقع، وما قضى به هو العدل الواجب. وقوله تعالى

في الآية الثانية (98) {ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا} 5 أي من بعض الأعراب من يجعل

ما ينفقه في الجهاد غرامة لزمته وخسارة لحقته في ماله وذلك لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب الأخروي

1 والعرب: جيل من الناس واحد هم عربي وهم أهل الأمصار، والعرب العاربة: هم الخالص،

والمستعربة هم الذين ليسوا بخلص كأولاد إسماعيل عليه السلام، ويعرب بن قحطان هو أول من تكلم

بالعربية وهو أبو اليمن كلها.

2 {أجدر} مأخوذ من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء.

3 لمَّا ذكر تعالى حال منافقي الحضر ذكر هنا حال منافقي البادية ليُعرف الجميع.

4 وكذلك لا يعلمون حجج الله تعالى في ألوهيته وبعثة رسوله لقلَّة نظرهم وسوء فهمهم، ولذا لا حق

لهم في الفياء، والغنيمية إلا أن يجاهدوا أو يتحولوا إلى الحواضر ويتركوا البادية لحديث مسلم.

واختلف في صحة شهادة البادي على الحاضر، والراجح أنها تصح إذا كان عدلاً. وتكره إمامتهم

لأهل الحضر عند مالك، وذلك لجهلهم بالشرعية وتركهم الجمعة.

5 أي غرماً وخسراناً، وأصله لزوم الشيء، ومنه {إن عذابها كان غراماً} أي: لازماً.

لأنه كافر بالله ولقاء الله تعالى. وقوله عز وجل {ويتريص بكم الدوائر} أي وينتظر بكم أيها المسلمون الدوائر متى تنزل بكم فيتخلص منكم ومن الإنفاق لكم والدوائر جمع دائرة المصيبة والنازلة من الأحداث وقوله تعالى {عليهم دائرة السوء}1 هذه الجملة دعاء عليهم. جزاء ما يتربصون بالمؤمنين. وقوله {والله سميع عليم} أي سميع لأقوالهم عليم بنيانهم فلذا دعا عليهم بما يستحقون. وقوله تعالى في الآية الثالثة (99) {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر 2 ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول}3 إخبار منه تعالى بأن الأعراب ليسوا سواء بل منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر، فلذا هو يتخذ ما ينفق من نفقة في الجهاد قربات عند الله أي قريباً يتقرب بها إلى الله تعالى، ووسيلة للحصول على دعاء الرسول له، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه المؤمن بركاته أو صدقته يدعو له بخير، كقوله لعبد الله بن أبي أوفى: اللهم صل على آل أبي أوفى، وقوله تعالى {ألا إنها قرية لهم} إخبار منه تعالى بأنه تقبلها منهم صارت قرية4 لهم عنده تعالى، وقوله تعالى {سيدخلهم الله في رحمته} بشرى لهم بدخول الجنة، وقوله {إن الله غفور رحيم} يؤكد وعد الله تعالى لهم بإدخالهم في رحمته التي هي الجنة فإنه يغفر ذنوبهم أولاً، ويدخلهم الجنة ثانياً هذه سنته تعالى في أوليائه، يطهرهم ثم ينعم عليهم بجواره.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن سكان البادية يُحرمون من كثير عن الآداب والمعارف فلذا سكن البادية غير محمود إلا إذا كان فراراً من الفتن.
- 2- من الأعراب المؤمن والكافر والبر والتقي والعاصي والفاجر كسكان المدن إلا أن كفار البادية ومناقبيها أشد كفراً ونفاقاً لتأثير البيئة.
- 3- فضل النفقة في سبيل الله والإخلاص فيها لله تعالى.

- 1 قرىء {السوء} بالفتح والضم إلا قوله: {وما كان أبوك امرأ سوء}، فإنه بالفتح لا غير، إذ السوء بالضم: المكروه، والسوء بالفتح: الفساد. امرؤ سوء: أي: فاسد.
- 2 قيل: هم بنو مُقرن من مزينة.
- 3 صلوات الرسول هي استغفاره ودعاؤه لهم بالخير والبركة.
- 4 أي: تقربهم من الله تعالى.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ
الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) وَأَخْرُوجُ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (102)

شرح الكلمات:

والسابقون : أي إلى الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد.

اتبعوهم بإحسان: أي في أعمالهم الصالحة.

رضي الله عنهم : بسبب طاعتهم له وإنابتهم إليه وخشيتهم منه ورغبتهم فيما لديه.

ورضوا عنه: بما أنعم عليهم من جلائل النعم وعظائم المنن.

وممن حولكم: أي حول المدينة من قبائل العرب.

مردوا : مرقوا وحذقوه وعتوا فيه.

سنعذبهم مرتين : الأولى قد تكون فضيحتهم بين المسلمين والثانية عذاب القبر.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {والسابقون 1 الأولون من المهاجرين والأنصار} 2 وهم الذين سبقوا غيرهم.

1 {السابقون} هم الذين صلوا إلى القبلتين وأفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقيون من المبشرين
بالجنة ثم أهل بدر ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوات بالحديبية، وأفضلهم أبو بكر على
الإطلاق.

2 {الأنصار}: هم من أسلم من الأوس والخزرج بالمدينة ولم يعرفوا في الجاهلية بهذا الاسم وإنما
سماهم الله تعالى به في الإسلام.

(2/419)

إلى الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد، والذين اتبعوهم 1 في ذلك وأحسنوا أعمالهم فكانت موافقة لما
شرع الله وبين رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الجميع رضي الله عنهم بإيمانهم وصالح أعمالهم،
ورضوا عنه بما أنالهم من إنعام وتكريم، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً
أي وبشرهم بما أعد لهم من جنات وقوله {ذلك الفوز العظيم} أي ذلك المذكور من رضاه تعالى
عنهم ورضاهم عنه وإعداد الجنة لهم هو الفوز العظيم، والفوز السلامة من المرهوب والظفر
بالمرغوب فالنجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (100)

وأما الآية الثانية فقد تضمنت الإخبار بوجود منافقين في الأعراب 2 حول المدينة، ومنافقين في داخل المدينة، إلا أنهم لتمرسهم وتمردهم في النفاق أصبحوا لا يُعرفون، لكن الله تعالى يعلمهم هذا معنى قوله تعالى {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا 3 على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم}، وقوله تعالى {سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم} وعيد لهم نافذ فيهم لا محالة وهو أنه تعالى سيعذبهم في الدنيا مرتين مرة بفضحهم أو بما شاء من عذاب ومرة في قبورهم، ثم بعد البعث يردهم إلى عذاب النار وهو العذاب العظيم، وقوله تعالى في الآية الثالثة (102) {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً} 4 هؤلاء أناس آخرون تخلفوا عن الجهاد بغير عذر وهم أبو لبابة ونفر معه ستة أو سبعة أنفار ربطوا أنفسهم في سواري المسجد لما سمعوا ما نزل في المتخلفين وقالوا لن نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خلطوا عملاً صالحاً وهو إيمانهم وجهادهم وإسلامهم وعملاً سيئاً وهو تخلفهم عن غزوة تبوك بغير عذر، فقوله تعالى {عسى الله أن يتوب عليهم} إعلامهم بتوبة الله تعالى عليهم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحل رباطهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها واستغفر لنا فقال ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً.

1 التابعون: جمع تابع أو تابعي، وهم الذين صحبوا الصحابة، وأكبر التابعين: الفقهاء السبعة وهم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وأبو سلمة بن عبدالرحمن، وعبدالله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار. وكلهم من المدينة النبوية وأفضل نساء التابعين حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبدالرحمن وأم الدرداء.

2 الأحياء الذين كانوا حول المدينة هم: مزينة وجهينة وأسلم، وغفار وأشجع ولحيان وعصية وكان منهم منافقون.

3 يقال: مرد على الأمر: إذا مرن عليه ودرب به، ومنه الشيطان المارد سئل حذيفة عن المنافقين فأخبر أنهم اثنا عشر، ستة ماتوا بالديلة وأربعة ماتوا موتاً عادياً.

4 {خلطوا} يريد خلطوا حسنات أعمالهم الصالحة بسيئات التخلف عن الغزو والإنفاق في الجهاد والسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك. وعسى: فعل رجاء وهي في كلام الله تعالى كناية عن وقوع المرجو لا محالة.

(2/420)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضل السبق للخير والفوز بالأولية فيه.
 - 2- فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على غيرهم ممن جاء بعدهم.
 - 3- فضل التابعين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحسنوا المتابعة.
 - 4- علم ما في القلوب إلى الله تعالى فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله عز وجل.
 - 5- الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً بأن يغفر الله لهم ويرحمهم.
- خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَأَخْرَجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَنْتَوِبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

شرح الكلمات:

صدقة : مالا يتقرب به إلى الله تعالى.

تطهرهم وتزكئهم بها : أي تطهرهم من ذنوبهم، وتزكئهم أنت أيها الرسول بها بدعائك لهم وثنائك عليهم.

وصل عليهم : أي ادع لهم بالخير.

إن صلاتك سكن لهم : أي دعائك رحمة.

ويأخذ الصدقات : يتقبلها.

(2/421)

مرجون لأمر الله: مؤخرون لحكم الله وقضائه.

عليم حكيم : أي بخلقه نيات وأموالاً وأعمالاً حكيم في قضائه وشرعه.

معنى الآيات:

لقد تقدم في الآية قبل هذه أن المتخلفين التائبين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم هذه أموالنا 1 التي

تخلفنا بسببها صدقة فخذها يا رسول الله فقال لهم إني لم أؤمر بذلك فأُنزل الله تعالى هذه الآية

{خذ 2 من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكئهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليم}

فأمر تعالى رسوله أن يأخذ صدقة هؤلاء التائبين لأنها تطهرهم من ذنوبهم ومن أضرار الشح في

نفوسهم وتزكئهم أيها الرسول بها بقبولك لها وصل عليهم أي ادع لهم بخير، إن صلاتك سكن 3 لهم

أي رحمة وطمأنينة في نفوسهم والله سميع لأقوالهم لما قدموا صدقتهم وقالوا خذها يا رسول الله عليم

بنياتهم وبواعث نفوسهم فهم تائبون توبة صدق وحق. وقوله تعالى {ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة

عن عباده} الاستفهام للتقرير أي هم يعلمون ذلك قطعاً، ويأخذ الصدقات 4 أي يقبلها، وأن الله هو التواب أي كثير قبول التوبة من التائبين الرحيم بعباده المؤمنين ثم أمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم حاضاً لهم على العمل الصالح تطهيراً لهم وتزكية لنفوسهم {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} 5 فيشكر لكم ويثني به عليكم {وستردون إلى عالم الغيب والشهادة} وهو الله عز وجل {فإنبئكم بما كنتم تعملون} ويجزيكم به الحسن بالحسن والسيء بمثله. وقوله تعالى {وآخرين مرجون} لأمر الله. إما يعذبهم وإما يتوب

- 1 المال في فصيح اللغة: هو كل ما تمول وتملك فهو مال. والمراد من قولهم هذه أموالنا يعنون ما لديهم من سائر أنواع المال. وأما في الزكوات فإنها خاصة بالعين المواشي والثمار والحبوب بشروطها التي هي النصاب والحول في العين والحصاد في الحبوب والتمر بلوغ خمسة أوسق، والوسق ستون صاعاً والصاع أربعة أمداد.
- 2 هذه الآية وإن نزلت في الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فإنها عامة في الأمة فعلى ولاية أمور المسلمين أن يجبو الزكوات ويأخذوها من الأمة فريضة الله تعالى على المسلمين للقيام بمصالح المسلمين، والذين قدّموا أموالهم كلها أخذ منها الرسول صلى الله عليه وسلم الثلث، وردّ عليهم الباقي. فقال مالك من تصدق بجميع ماله يجزئه منه الثلث أخذاً من هذه الحادثة.
- 3 معناه أنه إذا دعا لهم سكنت قلوبهم وفرحوا، واختلف هل هذه الصلاة على المتصدق باقية أو انتهت بوفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحيح أنها باقية. فمن أخذ صدقة متصدق يصلي عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 4 أخرج مسلم: "لا يتصدق أحد بصدقة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فتربو في كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل".
- 5 روى أبو داود وأحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموال فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتانا".

(2/422)

عليهم} هذا هو الصنف الثالث من أصناف المتخلفين فالأول هم المنافقون والثاني هم التائبون والثالث هو المقصود بهذه الآية وهم ثلاثة أنفار كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية فهؤلاء لم يأتوا الرسول صلى الله عليه وسلم ليعتذروا إليه كما فعل التائبون المتصدقون بأموالهم منهم أبو لبابة حيث ربطوا أنفسهم في سواري المسجد فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمقاطعتهم 1 حتى

يحكم الله فيهم، وهو معنى قوله تعالى {مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم} فإن عذبهم أو تاب عليهم فذلك لعلمه وحكمته. وبقوا كذلك حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ثم تاب الله تعالى عليهم كما جاء ذلك بعد كذا آية من آخر هذه السورة {إن الله هو التواب الرحيم}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الصدقة تكفر الذنوب ونظهر الأرواح من رذيلة الشح والبخل..
 - 2- يستحب لمن يأخذ صدقة امرئ مسلم أن يدعو له بمثل: آجرك الله 2 على ما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت.
 - 3- ينبغي للتائب من الذنب الكبير أن يكثر بعده من الصالحات كالصدقات والصلوات ونحوها.
 - 4- فضيلة الخوف والرجاء فالخوف يحمل على ترك المعاصي والرجاء يعمل على الإكثار من الصالحات.
- وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى النَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلٍ

1 هؤلاء هم : كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع.

2 هو معنى : {وصل عليهم} إذ الصلاة الدعاء لغة.

(2/423)

يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (108) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارٌ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

شرح الكلمات:

ضراراً: أي لأجل الإضرار.

وإرصاداً: انتظاراً وترقباً.

إلا الحسنى : أي إلا الخير والحال الأحسن.

لا تقم فيه أبداً : أي لا تقم فيه للصلاة أبداً.

أسس على التقوى : أي بني على التقوى وهو مسجد قبا.

فيه رجال : هم بنو عمرو بن عوف.

على تقوى من الله: أي على خوف.

ورضوان: أي رجاء رضوان الله تعالى.

على شفا جرف هار: أي على طرف جرف مشرف على السقوط، وهو مسجد الضرار.

ريبة في قلوبهم: أي شكاً في نفوسهم.

إلا أن تقطع قلوبهم: أي تُفصل من صدورهم فيموتوا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في فضح المنافقين وإغلاق أبواب النفاق في وجوههم حتى يتوبوا إلى الله تعالى أو

يهلكوا وهم كافرون فقال تعالى ذاكراً فريقاً منهم {والذين اتخذوا مسجداً 1

1 روي أن رأس الفتنة كان أبا عامر الراهب الذي ذهب يستعدي الروم على رسول الله صلى الله

عليه وسلم وأصحابه.

(2/424)

ضراراً وكفراً وتفريقاً 1 بين المؤمنين وإرصاداً لمن 2 حارب الله ورسوله من قبل { إن المراد من هؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة كانوا قد أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاخص إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً للعاجز منا والمريض والليلية المطيرة فصل لنا فيه فقال لهم صلى الله عليه وسلم أنا الآن على جناح سفر وإن عدنا نصلي لكم فيه إن شاء الله أو كما قال. فلما عاد صلى الله عليه وسلم من تبوك ووصل إلى مكان قريب من المدينة يقال له ذواوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار نزل عليه الوحي بشأن مسجد الضرار فبعث مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصماً أخا بني العجلان فقال انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال لمعن أنظرني حتى أخرج إليك بنار فخرج بسعف نخل قد أضرم فيه النار وأتيا المسجد وأهله فيه فأضرما فيه النار وهدماه وتفرق أهله ونزل فيهم قوله تعالى: {والذين اتخذوا مسجداً ضراراً} أي لأجل الإضرار المسجد النبوي ومسجد قباء حتى يأتيهما أهل الحي وقوله {كفراً} أي لأجل الكفر بالله ورسوله وقوله {وتفريقاً بين المؤمنين} علة الثالثة لبناء مسجد الضرار إذ كان أهل الحي مجتمعين في مسجد قباء فأرادوا تفرقتهم في مسجدين حتى يجد هؤلاء المنافقون مجالاً للتشكيك والطنع وتفريق صفوف المؤمنين على قاعدة: (فرق تسد) وإرصاداً

لمن حارب الله ورسوله من قبل} وهو أبو عامر الراهب الفاسق لأنه عليه لعائن الله هو الذي أمرهم أن يبنوه ليكون وكراً للتأمر والكيد وهذا الفاسق قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما وجدت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فكان مع المشركين في حروبهم كلها إلى أن أنهزم المشركون في هوازن وأيس اللعين ذهب إلى بلاد الروم يستعديهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا أمر المنافقين ببناء مسجد الضرار ليكون كما ذكر تعالى حتى ينزل به مع جيوش الروم التي قد خرج يستعديها ويؤلبها إلا أنه خاب في مسعاه وهلك بالشام إلى جهنم وبئس المصير فهذا معنى قوله تعالى {وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل} أي قبل بناء مسجد الضرار الذي هُدم وحُرق وأصبح موضع قمامة تلقى فيه الجيف والقمام.

- 1 {ضراراً} مفعول لأجله أي: لأجل مضارة أهل الإسلام بتفرقة المسلمين وإيجاد عداوات بينهم.
- 2 هو أبو عامر الراهب، وسمي الراهب: لأنه تنصّر وتعبّد على دين النصارى ولما انهزمت ثقيف التحق بالروم ومات كافراً نالته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

(2/425)

وقوله تعالى {وليلحفن إن أردنا إلا الحسنى} هذا قولهم لما حرق عليهم المسجد وهدم وانفضح أمرهم حلفوا ما أرادوا ببنائه إلا الحالة التي هي حسنى لا سوء فيها إذ قالوا ببنائه لأجل ذي العلة ولليلة المطيرة. وقوله تعالى {والله يشهد إنهم لكاذبون} تفيد لقولهم وتقرير لكذبهم. وقوله تعالى {لا تقم فيه أبداً} 1 نهي للرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلى لهم فيه كما واعدهم وهو ذاهب إلى تبوك. وقوله تعالى {المسجد أسس 2 على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه} وهو مسجده صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء إذ كل منهما أسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان أي على خوف من الله وطلب رضاه، وقوله تعالى {فيه رجال يحبون أن يطهروا والله يحب المطهرين} ثناء على أهل قباء بخير وإخبار أنهم يحبون أن ينظفروا 3 من الخبث الحسّي والمعنوي فكانوا يجمعون في الاستتجاء بين الحجارة والماء فأثنى الله تعالى عليهم بذلك، وقوله تعالى {أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان} أي على مخافة من الله وطلب لرضاه خير أمن أسس بنيانه على شفا أي طرف جرف هار أي مشرف على السقوط، والجرف 4 ما يكون في حافة الوادي من أرض يجرف السيل من تحتها التراب وتبقى قائمة ولكنها مشرفة على السقوط، وقوله تعالى {فانهار به في نار جهنم} أي سقط به ذلك الجرف في نار جهنم والعياذ بالله تعالى، هذا حال أولئك المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار. وقوله تعالى {والله لا يهدي القوم الظالمين} أي لا يهديهم إلى ما يكملون به ويسعدون أي يحرمهم هدايته فيخسرون دنيا وأخرى وقوله تعالى {لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم} 5 أي شكاً

واضطراباً في نفوسهم {إلا أن تقطع 6 قلوبهم} فيهلكوا والشك في قلوبهم أي فكان هذا البناء الظالم سبباً في تأصل النفاق

- 1 أي: {لا تقم فيه} للصلاة. يقال: فلان قائم يصلي. و {أبدأ}، معناه في أي وقت من الأوقات مطلقاً. فأبدأ: لفظ يفيد التأييد المطلق.
- 2 {أسس} أي: وضعت أسسه وبنيت جدره ورفعت قواعده إذ الأس: أصل البناء، وكذلك الأساس، والجمع أسس وأساس جمع إساس. قال الشاعر:
أصح الملك ثابت الآساس ... في البهاليل من بني العباس
- 3 لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهل قباء إن الله سبحانه قد أحسن الثناء عليكم في التطهر فما تصنعون؟ قالوا: إننا نغسل أثر الغائط والبول بالماء". رواه أبو داود. فكانوا يجمعون بين الاستجمار والاستجاء مبالغة في التطهر، إن كان الاستجمار مجزئاً تخفيفاً على الأمة المسلمة.
- 4 الحرف: بالضم والإسكان كالرسل والرسل، وأصله من الجرف والإجتراف وهو اقتلاع الشيء من أصله.
- 5 وقيل: الريبة هنا: الحسرة والندامة، وحزازة وغيظاً والكل صالح لدلالة اللفظ عليه.
- 6 أي: إلى أن تقطع قلوبهم بالموت أي: إلا أن يموتوا.

(2/426)

والكفر في قلوبهم حتى يموتوا كافرين وقوله {والله عليم حكيم} تذييل للكلام بما يقرر مضمونه ويثبته فكونه تعالى علمياً حكيماً يستلزم حرمان أولئك الظلمة المنافقين من الهداية حتى يموتوا وهم كافرون إلى جهنم وذلك لتوغلهم في الظلم والشر والفساد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أكبر مؤامرة ضد الإسلام قام بها المنافقون بإرشاد الفاسق أبي عامر الراهب.
- 2- بيان أن تنازع الشرف هو سبب البلاء كل البلاء فابن أبي حارب الإسلام لأنه كان يؤمّل في السُلطة على أهل المدينة فحرمها بالإسلام. وأبو عامر الراهب ترهّب لأجل الشرف على أهل المدينة والسلطان الروحي فلذا لما فقدها حارب من كان سبب حرمانه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قال له مواجهة: ما قاتلك قوم إلا قاتلتك معهم. بل ذهب إلى الروم يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم واليهود ما حاربوا الإسلام إلا من أجل المحافظة على أممهم في مملكة إسرائيل.

- 3- لا يصح الاغترار بأقوال أهل النفاق فإنها كذب كلها.
- 4- أيما مسجد بُني للإضرار والتفرقة بن المسلمين إلا ويجب هدمه وتحريم الصلاة فيه.
- 5- فضل التطهر والمبالغة في الطهارتين الروحية والبدنية.
- 6- التحذير من الظلم والإسراف فيه فإنه يحرم صاحبه هداية الله فيهلك وهو ظالم فيخسر دنيا وأخرى.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(111) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ

(2/427)

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ(112)

شرح الكلمات:

- الجنة: هي دار السلام التي أعدها الله تعالى للمتقين.
- يقاتلون: أي الكفار والمشركين.
- عداً : أي وعدهم وعداً حقاً.
- في التوراة : أي مذكوراً في التوراة والإنجيل والقرآن.
- ومن أوفى بعهده : أي لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى.
- ذلك هو الفوز العظيم: أي ذلك البيع هو الفوز العظيم.
- التائبون: أي من الشرك والنفاق والمعاصي.
- العابدون: أي المطيعون لله في تذلل وخشوع مع حبهم لله وتعظيمهم له.
- السائحون: أي الصائمون والخارجون في سبيل الله لطلب علم أو تعليمه أو جهاد أعدائه.
- الأمرون بالمعروف: أي بعبادة الله تعالى وتوحيده فيها.
- الناهون عن المنكر: أي عن الشرك والمعاصي.
- والحافظون لحدود الله : أي القائمون عليها العاملون بها.
- وبشر المؤمنين: أي بالجنة دار السلام.
- معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال المتخلفين عن الجهاد ذكر فضل الجهاد ترغيباً فيه وفيما أعد لأهله

فقال {إن الله اشترى 1 من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن 2 لهم الجنة} وهذا هو المئمن الذي أعطى الله تعالى فيه الثمن وهو الجنة، وقوله {يقاتلون في سبيل الله فيقتلون} أي أعداء الله المشركين {ويقتلون} 3 أي يستشهدون في معارك القتال وقوله {وعداً عليه حقاً 4 في التوراة والإنجيل والقرآن} أي وعدهم بذلك وعداً وأحقه حقاً أي أثبتته في الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن تقريراً له وتثبيتاً وقوله {ومن أوفى بعهده من الله} استفهام بمعنى النفي أي لا أحد مطلقاً أوفى بعهده إذا عاهد من الله تعالى وقوله {فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به} فبناء على ذلك فاستبشروا 5 أيها المؤمنون ببيعكم الذي بايعتم الله تعالى به أي فسروا 6 بذلك وافرحوا وذلك البيع والاستبشار هو الفوز العظيم الذي لا فوز خير ولا أعظم منه.

وقوله {التائبون} 7 قوله: {والحافظون لحدود الله} هو ذكر لأوصاف أهل البيع وتحديد لهم فهم الموصوفون بتسع صفات الأولى التائبون أي من الشرك والمعاصي والثانية العابدون وهم المطيعون لله طاعة ملؤها المحبة لله تعالى والتعظيم له والرغبة منه والثالثة الحامدون لله تعالى في السراء والضراء وعلى كل حال والرابعة السائحون وهم الصائمون كما في الحديث 8 والذين يخرجون في سبيل الله لطلب علم أو غزو أو تعليم أو دعوة إلى الله تعالى ليُعبد ويوحَّد ويُطاع في أمره ونهيه والخامسة والسادسة الراكعون الساجدون أي المقيمون الصلاة المكثرون من نوافلها كأنهم دائماً في ركوع وسجود والسابعة والثامنة الآمرون بالمعروف وهو الإيمان بالله وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله

1 حصل هذا لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة، إذ قال عبدالله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم "اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اشترط لربي أن تعبدته ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا: فإذا فمنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل".

2 الباء في الشراء تدخل على الثمن تقول: بعتك الدار بكذا ألفاً، ولذا قال هنا: {بأن لهم الجنة} فالجنة هي الثمن المشتري به الأنفس والأموال.

3 قوله تعالى {يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون} بيّن فيه مكان تسليم البضاعة المشتراه وهي الأنفس.

4 {وعداً} و{حقاً} مصدران مؤكدان.

5 أي: أظهروا السرور على بشرة وجوهكم.

6 فسروا: أي أظهروا السرور.

7 {التائبون} هم الراجعون من الحالة المذمومة إلى الحالة المحمودة والتائب: الراجع، والراجع إلى الطاعة أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين.

8 روى الطبراني عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، ورواه أبو هريرة مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "سياحة أمتي الصيام" وروي أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم: "إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله".

(2/429)

والناهون عن المنكر وهو الكفر به تعالى والشرك في عبادته ومعصية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والتاسعة الحافظون لحدود الله بالقيام عليها 1 وعملها بعد العلم بها وقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾ وهم أهل الإيمان الصادق الكامل المستحقون لبشرى الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر والتأييد في الدنيا والنجاة من النار ودخول الجنة يوم القيامة اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل الله تعالى ومننه على عباده المؤمنين حيث وهبهم أرواحهم وأموالهم واشتراها منهم.
- 2- فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.
- 3- على المؤمن أن يشعر نفسه أن بدنه وماله لله تعالى وأن عليه رعايتهما وحفظهما حتى ترفع راية الجهاد ويطلب إمام المسلمين بالنفس والمال فيقدم نفسه وماله إذ هما وديعة الله تعالى عنده.
- 4- على المؤمن أن لا يدخل الضرر على نفسه ولا على ماله بحكم أنهما لله تعالى.
- 5- على المؤمن أن يتعاهد نفسه ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولاً فإن رأى نقصاً كمله وإن رأى كمالاً حمد الله تعالى عليه وحفظه وحافظ عليه.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ

1 أي: القائمون بما أمر الله به، والمنتهون عما نهى عنه فحدود الله شرعه وهو فعل وترك، ففعل الأمر وترك النهي هو الحفظ.

(2/430)

يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)

شرح الكلمات:

أن يستغفروا للمشركين: أي يسألون الله تعالى لهم المغفرة.

أولي قري: أصحاب قرابة كالأبوة والبنوة والأخوة.

موعدة: أي وعدٌ وعده به.

تبراً منه: أي قال: إني بريء منك.

أواه حلیم: الأواه: كثير الدعاء والشكوى إلى الله تعالى والحليم الذي لا يغضب ولا يؤاخذ بالذنب.

ما يتقون: أي ما يتقون الله تعالى فيه فلا يفعلوه أو لا يتركوه.

من ولي: الولي من يتولى أمرك فيحفظك ويعينك.

معنى الآيات:

لما مات أبو طالب¹ على الشرك بعد أن عرض عليه الرسول كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فأبى أن يقولها وقال هو على ملة عبد المطلب قال له النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عن ذلك، واستغفر بعض المؤمنين أيضاً لأقربائهم الذين ماتوا على الشرك، أنزل الله تعالى قوله لما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قري من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} إذ ماتوا على الشرك ومن مات على الشرك قضى الله تعالى بأنه في النار أي ما صح ولا انبغى² للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا أي ما صح

1 روى مسلم أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم يا عم قل "لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبدالمطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما تكلم به: هو على ملة عبدالمطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك".

2 فإن قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" وهو طلب مغفرة، وطلب المغفرة هو الاستغفار. فالجواب: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما قاله على سبيل الحكاية لا غير. إذ ذكر البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نبيا قبله شجه قومه فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخبر عنه بأنه قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

ولا انبغى استغفارهم. ولما قال بعضُ إن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك قال تعالى جواباً ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ وهي قوله: ﴿سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيماً﴾ لكنه عليه السلام لما تبين له أن أباه عدو لله أي مات على الشرك تبرأ منه ولم يستغفر له، وقوله ﴿إن إبراهيم لأواه حلیم﴾¹ تعليل لموعدة إبراهيم أباه بالاستغفار له لأن إبراهيم كان كثير الدعاء والتضرع والتأسف والتحسر فلذا واعد أباه، بالاستغفار له وقوله تعالى ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ هذه الآية نزلت رداً على تساؤلات الذين قالوا متندمين لقد كنا استغفرونا لأقاربنا المشركين فخافوا فأخبرهم تعالى أنه ليس من شأنه تعالى أن يضل قوماً بعد إذ هداهم إلى الصراط المستقيم حتى يبين لهم ما يتقون وأنتم استغفرتم لأقربائكم قبل أن يبين لكم أنه حرام. ولكن إذا أراد الله أن يضل قوماً² بيّن لهم ما يجب أن يتقوه فيه فإذا لم يتقوه أضلهم. وقوله تعالى ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلا يضل إلا من يستحق الضلال كما أنه يهدي من يستحق الهداية وذلك لعلمه بكل شيء وقوله تعالى ﴿له ملك السموات والأرض﴾ أي خلقاً وملكاً وتصرفاً فهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء يحيى ويميت يحيى بالإيمان ويميت بالكفر ويحيى الأموات ويميت الأحياء لكامل قدرته وعظيم سلطانه وقوله ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لكم من يتولاكم إذا تخلى عنكم وليس لكم من ينصركم إذا خذلكم فلذا وجبت طاعته والالتكال عليه، وحرمة الالتفات إلى غيره من سائر خلقه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الاستغفار لمن مات على الشرك لأن الله لا يغفر أن يشرك به فلذا لا يطلب منه شيء أخبر أنه لا يفعله.
- 2- وجوب الوفاء بالوعود والعهود.

1 ذكروا لكلمة أواه عشرة تأويلات وما ذكر في التفسير أولى بها كلها ولو قلنا إن الأواه كثير قول: أواه تأسفا وتحسرا وشفقة ورحمة لكان أولى بدلالة اللفظ عليه.

2 شاهد هذا قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول﴾: فإنه يأمرهم أولاً وبيناهم فإن لم يمتثلوا استحقوا العذاب.

3- ليس من سنة الله تعالى في الناس أن يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه.

4- ليس للعبد من دون الله من ولي يتولاه ولا نصير ينصره ولذا وجبت ولاية الله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه.

النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)

شرح الكلمات:

المهاجرين: الذين هجروا ديارهم من مكة وغيرها ولحقوا برسول الله بالمدينة.

الأنصار: هم سكان المدينة من الأوس والخزرج آمنوا ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ساعة العسرة 1: هي أيام الخروج إلى تبوك لشدة الحر والجوع والعطش.

يزيغ قلوب: أي تميل عن الحق لشدة الحال وصعوبة الموقف.

الثلاثة الذين خلفوا: هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية.

1 لفظ الساعة يطلق على ظرف الزمان يطول ويقصر فقد أطلق على يوم القيامة وأطلق على سنتين دقيقة، والمراد بالساعة: أيام غزوة تبوك.

(2/433)

بما رحبت: أي على اتساعها ورحابتها.

أن لا ملجأ: أي إذ لا مكان للجوء فيه والهرب إليه.

الصادقين: في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم والصدق ضد الكذب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في أحداث غزوة تبوك وفي هذه الآيات الثلاث إعلان عن شرف وكرامة

الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه البررة من الأنصار والمهاجرة إذ قال تعالى {لقد تاب الله

على النبي والمهاجرين والأنصار} أي أدامها (التوبة) وقبلها وقوله {الذين اتبعوه في ساعة العسرة} 2

أي عند خروجه إلى تبوك في الحر الشديد والفاقة الشديدة وقوله {من بعد ما كاد يزيغ قلوبك} 3 فريق

منهم} وذلك لصعوبة الحال وشدة الموقف لقد عطشوا يوماً كما قال عمر رضي الله عنه كان أحدنا

يذبح بعيره ويعصر فرثه فيشرب ماءه ويضع بعضه على كبده فخطر ببعض القوم خواطر كادت

القلوب تزيغ أي تميل عن الحق ولكن الله تعالى ثبتهم فلم يقولوا سوءاً ولم يعملوه لأجل هذا أعلن الله تعالى في هذه الآيات عن كرامتهم وعلو مقامهم ثم تاب عليهم إنه هو التواب الرحيم وقوله ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ومعنى خلفوا أرجئوا في البت في توبتهم إذ تقدم قوله تعالى ﴿وآخرين مرجون لأمر الله﴾ فقد تخلفت توبتهم خمسين يوماً حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت⁴ وضاقت عليهم أنفسهم⁵ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ فصبروا على شدة ألم النفس من جراء المقاطعة التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم انتظاراً لحكم الله لأنهم تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ولم يكن لهم عذر، فلذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم تقدم المخلفون فاعتذروا فقبل منهم رسول الله وتاب الله على المؤمنين منهم ولم يتقدم هؤلاء الثلاثة ليعتذروا خوفاً من الكذب فأثروا جانب

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم لأجل إذنه للمنافقين في القعود دليله قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم؟﴾ وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه.

2 (العسرة) صعوبة الأمر، قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر أي: (المركوب) وعسرة الزاد وعسرة الماء قال ابن عرفة: سمي جيش غزوة تبوك جيش العسرة: لأن النبي صلى الله عليه وسلم ندب الناس إلى الغزو في حمارة الغيظ فغلظ عليهم وعسر.

3 تدارك قلوبهم حتى لم ترغ، وتلك سنته مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب أمطر عليهم سحائب رحمته فأحيا قلوبهم.

4 ﴿رحبت﴾ بمعنى: اتسعت، وما: مصدرية، أي ضاقت عليهم الأرض برحبها: أي: على رحبها لأنهم كانوا مهجورين لا يكلمون ولا يعاملون حتى من أقرب الناس إليهم، وفي هذا دليل على مشروعية هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا.

5 أي: ضاقت صدورهم بالهمّ.

(2/434)

الصدق فأذاقهم الله ألم المقاطعة ثم تاب عليهم وجعلهم مثلاً للصدق فدعا المؤمنين أن يكونوا معهم فقال ليا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي اتقوا الله بإتباع أوامره واجتنب نواهيه وكونوا من الصادقين¹ في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم تكونوا مع الصادقين في الآخرة مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وسائر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 2- بيان فضل غزوة العسرة على غيرها من الغزوات "وهي غزوة تبوك" .
- 3- بيان فضل الله على المؤمنين بعصمة قلوبهم من الزيغ في حال الشدة.
- 4- بيان فضل كعب بن مالك وصاحبيه في صبرهم وصدقهم ولجؤهم إلى الله تعالى حتى فرج عليهم وتاب عليهم وكانوا مثالا للصدق.

5- وجوب التقوى والصدق في النيات والأقوال والأحوال والأعمال.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

1 فسر (الصادقين): بأنهم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم قال ابن العربي : هذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى.

(2/435)

وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

شرح الكلمات:

ومن حولهم من الأعراب: وهم مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم.

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه: أي يطلبون لأنفسهم الراحة ولنفس رسول الله التعب والمشقة.
ظماً .. أي عطش.

ولا نصب : أي ولا تعب.

ولا مخمصة : أي مجاعة شديدة.

يغيب الكفار : أي يصيبهم بغيب في نفوسهم يحزنهم.

نيلاً: أي منالاً من أسر أو قتل أو هزيمة للعدو.

واديًا: الوادي: مسيل الماء بين جبلين أو مرتفعين.

لينفروا كافة: أي يخرجوا للغزو والجهاد جميعاً.

طائفة: أي جماعة معدودة.

ليتفقوا في الدين: أي ليعلموا أحكام الدين وأسرار شرائعه.
ولينذروا قومهم : أي ليخوفوهم عذاب النار بتارك العمل بشرع الله.
لعلهم يحذرون : أي عذاب الله تعالى بالعلم والعمل.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في آثار أحداث غزوة تبوك فقال تعالى {ما كان لأهل المدينة}1

1 هذه الآية نزلت تحمل العتاب للمؤمنين أهل المدينة والأحياء المجاورة لها كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك.

(2/436)

أي سكانها من المهاجرين والأنصار {ومن حولهم من الأعراب} أي ومن النازلين حول المدينة من الأعراب كمزينة وجهينة وغفار وأشجع وأسلم {أن يتخلفوا عن رسول الله} إذا خرج إلى جهاد ودعا بالنفير العام وفي هذا عتاب ولوم شديد لمن تخلفوا عن غزوة تبوك وقوله {ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه} أي بأن يطلبوا لأنفسهم الراحة دون نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله {ذلك} أي النهي الدال عليه بصيغة ما كان لأهل المدينة وهي أبلغ من النهي بأداته (لا) لأنه نفي للشأن أي هذا مما لا ينبغي أن يكون أبداً. وقوله {يأنهم لا يصيبهم} بسبب أنهم لا يصيبهم {ظماً} أي عطش {ولا نصب} أي تعب {ولا مخصصة}1 أي جوع شديد في سبيل الله أي في جهاد أهل الكفر لإعلاء كلمة الإسلام التي هي كلمة الله {ولا يطأون موطناً يغيظ الكفار} أي ولا يطأون أرضاً من أرض العدو يغتازلها العدو الكافر ويحزن {ولا ينالون من عدو}2 أي الله تعالى {نيلاً} أي منالاً أي أسرى أو قتلى أو غنيمة منه أو هزيمة له {إلا كتب لهم به عمل صالح} فلهذا لا ينبغي لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يفوتهم هذا الأجر العظيم. وقوله {إن الله لا يضيع أجر المحسنين} تعليل لتقرير الأجر وإثباته لهم إن هم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسنوا الصحبة والعمل وقول تعالى {ولا ينفقون نفقة} أي في سبيل الله الذي هو هنا الجهاد {صغيرة ولا كبيرة} أي قليلة ولا كثيرة {ولا يقطعون وادياً} ذاهبين إلى العدو أو راجعين {إلا كتب لهم}3 أي ذلك المذكور من النفقة والسير4 في سبيل الله. وقوله تعالى {ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون} أي جزاء أحسن عمل كانوا يعملونه قبل خروجهم في سبيل الله. وقوله تعالى {فلولا نفر من كل فرقة}5 أي قبيلة منهم طائفة أي جماعة {ليتفقوا في الدين} بما

1 أصل المخصصة: ضمور البطن يقال: رجل خصم الباطن أي: ضامره وامرأة خصمانه.

2 يقال: نال الشيء يناله: إذا أصابه، فينالون: بمعنى يصيبون.

3 قال ابن عباس بكل روعة تنالهم في سبيل الله سبعون ألف حسنة. وجاء في الصحيح في شأن الخيل وفيه: "وأما التي هي له أجر فرجلٌ ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كتب عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات".

4 روى مسلم وأبو داود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتهم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم في المدينة؟ قال حبسهم العذر".

5 هذه الآية دليل على أن الجهاد فرض كفاية ولا يتعين إلا إذا عيّنت الإمام أو هاجم العدو دار قوم مؤمنين فيجب عليهم قتاله كافة كما هي نص في وجوب طلب العلم وهو بالرحلة الطويلة إليه. وفي الحديث "طلب العلم فريضة على كل مسلم" وهذا الحديث دليل على أن طلب العلم يكون فرض عين ويكون فرض كفاية.

(2/437)

يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعلمونه منه {ولينذروا قومهم} عواقب الشرك والشرك والفساد {لعلهم يحذرون} ذلك فينجون من خزي الدنيا وعذاب الآخرة هذه الآية نزلت لما سمع المسلمون ورأوا نتائج التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لن نتخلف بعد اليوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً ولا نتخلف عن غزو ما حيينا فأنزل الله تعالى هذه الآية يرشدهم إلى ما هو خير وأمثل فقال {فلولا} أي فهلا نفر من كل فرقة منهم أي قبيلة أو حي من أحيائهم طائفة فقط وتبقى طائفة منهم بدل أن يخرجوا كلهم ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فإن خروجهم على هذا النظام أنفع لهم فالذين يبقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يخرجون معه إذا خرج يتفقهون في الدين لصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والباقيون هم في مهام دينهم أيضاً ودنياهم فإذا رجع أولئك المتفقهون علموا إخوانهم ما فاتهم من العلم وأسرار الشرع كما أن الذين ينفرون إلى الجهاد قد يشاهدون من نصر الله لأولياته وهزيمته لأعدائه ويشاهدون أيضاً ضعف الكفار وفساد قلوبهم وأخلاقهم وسوء حياتهم فيعودون إلى إخوانهم فينذرونهم ما عليه أهل الكفر والفساد فيحذرون منه ويتجنبونه وفي هذا خير للجميع وهو معنى قوله تعالى {ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}.

هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- وجوب إيثار رسول الله صلى الله عليه وسلم على النفس بكل خير بل بالحياة كلها.

2- بيان فضل السير في سبيل الله، وما فيه من الأجر العظيم.

3- فضل الإحسان وأهله.

4- تساوي فضل طلب العلم والجهاد على شرط النية الصالحة في الكل وطالب العلم لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان يتعلم ليعلم فيعمل فيعلم مجاناً في سبيل الله والمجاهد لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان لإعلاء كلمة الله خاصة.

5- حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

(2/438)

شرح الكلمات:

آمنوا: أي بالله ورسوله ووعده الله ووعده.

الذين يلونكم: أي يلون بلادكم وحدودها.

من الكفار: من: بيانية، أي الكافرين.

وليجدوا فيكم غلظة: أي قوة بأس وشدة مراس ليرهبوكم وينهزموا أمامكم.

مع المتقين: أي بنصره وتأييده والمتقون هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والخروج عن السنن الإلهية في النصر والهزيمة.

معنى الآية الكريمة:

لما ظهرت الجزيرة من الشرك وأصبحت دار إسلام وهذا في أخريات حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بعد غزوة تبوك أمر الله تعالى المؤمنين بأن يواصلوا الجهاد في سبيله بعد وفاة نبيه وأرشدهم إلى الطريقة التي يجب أن يتبعوها في ذلك وهي: أن يبدأوا بدعوة وقتال أقرب كافر منهم والمراد به الكافر المتأخم لحدودهم كالأردن أو الشام أو العراق مثلاً فيعسكروا على مقربة منهم ويدعونهم إلى خصلة من ثلاث: الدخول في دين الله الإسلام أو قبول حماية المسلمين لهم بدخولهم البلاد وضرب الجزية على القادرين منهم مقابل حمايتهم وتعليمهم وحكمهم بالعدل والرحمة الإسلامية أو القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم فإذا ضمت أرض هذا العدو إلى بلادهم وأصبحت لهم حدود أخرى فعلوا كما فعلوا أولاً وهكذا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فتسعد البشرية في دنياها وأخرتها. وأمرهم أن يعلموا أن الله ما كلفهم بالجهاد إلا وهو معهم وناصرهم ولكن على شرط أن يتقوه في أمره ونهيه فهذا ما دلت عليه الآية الكريمة لئلا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار

وليجدوا فيكم غلظة}2 أي قوة بأس وشدة مراس في الحرب {واعلموا3 أن الله مع المتقين} أي بنصره وتأبيده.

1 توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي صلى الله عليه وسلم فيه إيماء إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يغزو الله بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب، وفعلاً فإنه صلى الله عليه وسلم ما غزا بعد تبوك وإنما حجّ حجة الوداع وبعدها بواحد وثمانين يوماً استأثر الله تعالى بروحه الطاهرة الشريفة.
2 {غلظة} مثلثة الغين غلظة الكسر لغة الحجاز، والضم لغة بني تميم، والمراد الجرأة على القتال والصبر عليه مع العنف. والشدة في القتل والقصد من هذا إلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يخشوا قتال المسلمين.

3 افتتاح الجملة بـ اعلموا: للاهتمام بما يراد العلم به، وفي الجملة تسلية للمؤمنين بعد فقد نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأن الله معهم بالنصر والتأييد فانقوه بلزوم طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في أمرهما ونهيهما في السلم والحرب.

(2/439)

هداية الآية الكريمة

من هداية الآية الكريمة

1- وجوب الجهاد واستمراره إلى أن لا تبقى فتنة أو شرك أو اضطهاد لمؤمن ويكون الدين والحكم كلاهما لله تعالى.

2- مشروعية البداية في الجهاد بأقرب الكفار إلى بلاد المسلمين من باب (الأقربون أولى بالمعروف).

3- إذا اتسعت بلاد الإسلام تعين على أهل كل ناحية قتال من يليهم الأقرب فالأقرب.

4- وعد الله بالنصر والتأييد لأهل التقوى العامة والخاصة.

وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً تَنْظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)

شرح الكلمات :

سورة : أي قطعة من القرآن وسواء كانت آيات من سورة أو سورة بكاملها وحدها.

زادته إيماناً : أي السورة قَوَّتْ إيمانه وزادت فيه لأنها كالغيث النافع.
يستبشرون : فرحين بفضل الله تعالى عليهم.

(2/440)

في قلوبهم مرض: أي شك ونفاق وشرك.
فزادتهم رجساً: أي نجساً إلى نجس قلوبهم ونفوسهم.
يفتنون: أي يمتحنون.
ولا هم يذكرون : أي لا يتعظون لموات قلوبهم.
صرف الله قلوبهم: دعاء عليهم بأن لا يرجعوا إلى الحق بعد انصرافهم عنه.
لا يفقهون: أي لا يفهمون أسرار الخطاب لظلمة قلوبهم وخبث نفوسهم.
معنى الآيات..

هذا آخر حديث عن المنافقين في سورة براءة الفاضحة للمنافقين يقول تعالى {وإذا ما أنزلت سورة}1
أي من سور القرآن التي بلغت 114 سورة نزلت وتليت وهم غائبون عن المجلس الذي تليت فيه،
فمنهم أي من المنافقين من يقول: {أيكم زادته هذه إيماناً}2 وقولهم هذا تهكم منهم وازدراء قال تعالى
{فأما الذين آمنوا} بحق وصدق {فزادتهم إيماناً} لأنها نزلت بأحكام أو أخبار لم تكن عندهم فأمنوا بها
لما نزلت فزاد بذلك إيمانهم وكثر كما كان أن إيمانهم يقوى حتى يكون يقيناً بما ينتزل من الآيات
وقوله { وهم يستبشرون } أي فرحون مسرورون بالخبر الذي نزل والقرآن كله خير كما هم أيضاً
فرحون بإيمانهم وزيادة يقينهم {وأما الذين في قلوبهم مرض} أي شك ونفاق {فزادتهم رجساً} 3 أي
شكاً ونفاقاً {إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون}. وقوله تعالى {أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة
أو مرتين}4 أي أيسر هؤلاء المرضى بالنفاق على نفاقهم ولا يرون أنهم يفتنون أي من أجل نفاقهم
مرة أو مرتين أي يختبرون بالتكاليف والفضائح وغيرها {ثم لا يتوبون} من نفاقهم {ولا هم يذكرون}
فيتعظون فيتوبون هذا ما دلت عليه الآيات الأولى (124) والثانية (125) والثالثة (126) أما الآية
الرابعة (127) فقد تضمنت سوء حال هؤلاء المنافقين وقبح سلوكهم فسجلت عليهم وصمة عار
وخزي إلى يوم القيامة إذ قال

1 {ما} صلة لتقوية الكلام حسب الأسلوب العربي البليغ.

2 الإيمان لغة: التصديق. وشرعاً: تصديق الله ورسوله في كل ما أخبرا به وأركانه ستة ويزيد
بالطاعة وينقص بالعصيان.

3 شكاً إلى شكهم، وكفراً إلى كفرهم، وإثماً إلى إثمهم إذ الشك والكفر من أعظم الآثام.

4 قال قتادة والحسن ومجاهد: بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ويرون ما وعد الله من النصر يُريد يتحقق أمامهم وكأنهم لا يعقلون.

(2/441)

تعالى {وإذا ما أنزلت سورة}1 أي وهم في المجلس وقرئت على الجالسين وهم من بينهم. {نظر بعضهم إلى بعض} وقال في سرية ومُخَافَتَه هيا نقوم من هذا المجلس الذي نعير فيه ونشتم {هل يراكم من أحد} أي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإن كان الجواب: لا يرانا أحد انصرفوا متسللين لوأذاً قال تعالى في دعاء عليهم: {صرف الله قلوبهم}2 أي عن الهدى {بأنهم قوم لا يفقهون} أي لا يفقهون أسرار الآيات وما تهدي إليه، فعلتهم سوء فهمهم وعلّة سوء فهمهم ظلمة قلوبهم وعلّة تلك الظلمة الشك والشرك والنفاق والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير مبدأ زيادة الإيمان ونقصانه زيادته بالطاعة ونقصانه بالعصيان.
- 2- جواز الفرح بالإيمان وصالح الأعمال.
- 3- مريض القلب يزداد مرضاً وصحيحه يزداد صحة سنة من سنن الله في العباد.
- 4- كشف أغوار المنافقين وفضيحتهم في آخر آية من سورة التوبة تتحدث عنهم.
- 5- يستحب أن لا يقال انصرفنا3 من الصلاة أو الدرس ولكن يقال انقضت الصلاة أو انقضى الدرس ونحو ذلك.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (128) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

1 {ما} صلة لتقوية الكلام.

2 هذه الجملة خبرية أخبر تعالى أنه جزاهم على انصرفهم من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم بصرف قلوبهم عن الهدى فهم لا يهتدون إذاً أبداً وضمّن الخبر الدعاء عليهم، وقد تحقق معناه وهو صرف قلوبهم.

3 لأنّ الله ذمّ المنافقين لانصرفهم ودعا عليهم بصرف قلوبهم وصرفها ولو قيل انقلبنا من الصلاة أو من الجنّاة كان خيراً لقوله تعالى: {فانقلبوا برحمة من الله وفضل} الآية من سورة آل عمران.

(2/442)

شرح الكلمات:

رسول من أنفسكم: أي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم من جنسكم عربي.

عزيز عليه: أي شاق صعب.

ما عنتم: أي ما يشق عليكم ويصعب تحمله.

حريص عليكم: أي حريص على هدايتكم وما فيه خيركم وسعادتكم.

رؤوف: شفيق.

رحيم: برق ويعطف ويرحم.

فإن تولوا: أي أعرضوا عن دين الله وما جئت به من الهدى.

حسبي الله: أي كافي الله.

لا إله إلا هو: أي لا معبود بحق إلا هو.

توكلت: أي فوضت أمري إليه واعتمدت عليه.

رب العرش العظيم: عرش الله تعالى لا أعظم منه إلا خالقه عز وجل إذ كرسيه تعالى وسع السموات

والأرض ونسبة الكرسي إلى العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة.

معنى الآيتين الكريمتين:

في ختام سورة التوبة يقول الله تعالى لكافة العرب: {لقد جاءكم رسول} 1 أي كريم عظيم لمن

أنفسكم} 2 عدناني قرشي هاشمي مُطَّئِلي تعرفون نسبه وصدقه وأمانته. {عزيز عليه ما عنتم} 3 أي

يشق عليه ما يشق عليكم ويؤلمه ما يؤلمكم لأنه منكم ينصح لكم نصح القومي لقومه. {حريص

عليكم} أي على هدايتكم وإكمالكم وإسعادكم

1 روي عن أبي أنه قال: هاتان الآيتان أقرب القرآن بالسماء عهدا وهذا لا ينافي أن آخر ما نزل من

القرآن: {واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله}.

2 قرىء: {من أنفسكم} أي: أشرفكم وأفضلكم إذ هو من النفاسة وهي تعلق نفوس البشر بما هو

أجمل وأكمل. وقراءة الجمهور أولى وهي الضم أي: من أنفسكم إذ ما من قبيلة من قبائل العرب إلا

وولدت النبي صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وشاهده قوله صلى الله عليه

وسلم في رواية مسلم: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى

من قريش بني هاشم " وفي لفظ: "فأنا خيار من خيار" وهو صلى الله عليه وسلم كذلك.

3 {ما} مصدرية تُسبِكُ مع الفعل بمصدر فيكون الكلام عزيز عليه ما عنتم والعنت: التعب، وهو

مصدر عنت يعنت عنتا. كأنه يشير إلى أن ما لاقاه أصحابه من عنت أيام كانوا يحاربون أهلهم،

وذويهم وما نالهم من الغربة والفاقة، والحرب كل ذلك كان يعزّ عليه صلى الله عليه وسلم ويألم له
فصلى الله وسلم عليه ما أرحمه وأوفاه!!

(2/443)

{بالمؤمنين} منكم ومن غيركم من سائر الناس {رؤوف رحيم} أي شفوق عطوف يحب رحمتهم
وإيصال الخير لهم. إذا فأمنوا به واتبعوا النور الذي جاء به تهتدوا وتسعدوا ولا تكفروا فتضلوا وتشقوا.
وقوله تعالى {فإن تولوا} أي أعرضوا عن دعوتك فلا تأسّ وقل حسبي الله أي يكفيني ربي كل ما
يهمني {لا إله إلا هو} أي لا معبود بحق سواه لذا فإني أعبده وأدعو إلى عبادته، {عليه توكلت}1
أي في شأني كله {وهو رب العرش العظيم} ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء
قدير.
هداية الآيتين.

من هداية الآيتين:

- 1- بيان منه الله تعالى على العرب خاصة وعلى البشرية عامة ببعثه خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم.
- 2- بيان كمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم.
- 3- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في كل شيء يقوم به العبد.
- 4- عظمة عرش الرحمن عز وجل.

1 عن أبي الدرداء أنّ من قال: إذا أصبح وإذا أمسى : "حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو
رب العرش العظيم: سبع مرات كفاه الله ما أهمّه صادقاً كان أو كاذباً"

(2/444)

سورة يونس

...

سورة يونس

مكية 1

وآياتها مائة وتسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (2)

1 ذكر بعضهم أن منها آيات قليلة مدنية، والظاهر أنها كلها مكية ومن تدبر آياتها من أوله إلى آخره لم ير ما يدعو إلى خلافه.

(2/444)

شرح الكلمات:

الر: هذه السورة الرابعة من السور المفتحة بالحروف المقطعة نكتب الر وتقرأ ألف. لام. را.

الكتاب: أي القرآن العظيم.

الحكيم: القائل بالحكمة والقرآن مشتمل على الحكيم وهو حكيم ومحكم أيضاً.

عجباً: العجب ما يتعجب منه.

رجل منهم: هو محمد صلى الله عليه وسلم.

قدم صدق: أي أجراً حسناً بما قدموا في حياتهم من الإيمان وصالح الأعمال.

إن هذا: أي القرآن.

لسحر 1 مبين: أي بين ظاهر لا خفاء فيه في كذبهم وادعائهم الباطل.

معنى الآيتين:

مما تعالجه السور المكية قضايا التوحيد والوحي والبعث الآخر وسورة يونس افتتحت بقضية الوحي

أي إثباته وتقريره من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى {الر تلك آيات 2 الكتاب

الحكيم} 3 أي هذه آيات القرآن الكريم المحكم آياته المشتمل على الحكم الكثيرة حتى لكأنه الحكيم

الذي يضع كل شيء في موضعه وقوله تعالى {أكان للناس 4 عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم} أي

أكان ايحاًؤنا إلى محمد عبدنا ورسولنا وهو رجل من قريش عجباً لأهل مكة يتعجبون منه؟ والموحى

به هو: {أن أنذر الناس}، أي خوفهم عاقبة الشرك والكفر والعصيان {وبشر الذين آمنوا} أي بأن لهم

قدم 5 صدق عند ربهم وهو

1 هذه قراءة نافع.

2 يذكر المفسرون عن السلف توجيهات عدة لهذه الحروف منها: ما رووه عن ابن عباس أن الر:

معناها. أنا الله.. وكل ما ذكروه قول بالظن وإن الظن أكذب الحديث، ومن الخير تفويض أمر

- معناها إلى من أنزلها وقد ذكرنا في التفسير، فائدتين عظيمتين فلنكتف بهما.
- 3 قال مقاتل: الحكيم بمعنى: المحكم من الباطل لا يدخله ففعل بمعنى مُفعل واستشهد بقول الأعشى بذكر قصيدته التي قالها:
- وغريبة تأتي الملوك حكيمة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها
- 4 {أكان للناس عجباً}: الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وعجباً: خبر كان والاسم: أن أوحينا، والتقدير: أكان عجباً للناس إبحاؤونا.
- 5 ذكر القرطبي في تفسير {قدم صدق} أقوالاً متعددة منها: سبق السعادة في الأزل، ومنها: أجر حسن، ومنها: منزل صدق، ومنها: ولد صالح قدموه ومنها: يؤثر ذلك عن السلف، وما في التفسير هو الراجح إذ رجّحه إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى.

(2/445)

الجزاء الحسن لما قدموا من الإيمان وصالح الأعمال يتلقونه يوم يلقون ربهم في الدار الآخرة فلما أنذر وبشر صلى الله عليه وسلم قال الكافرون هذا سحر مبين ومرة قالوا: ساحر مبين وقولهم هذا لمجرد دفع الحق وعدم قبوله لا أن ما أنذر به وبشر هو سحر، ولا المنذر المبشر هو ساحر وإنما هو المجاهدة والعناد والمكابرة من أهل الشرك والكفر والباطل والشر والفساد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة الوحي بشهادة الكتاب الموحى به.
 - 2- إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتقريرها بالوحي إليه.
 - 3- بيان مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي النذارة والبشارة.
 - 4- بشرى أهل الإيمان والعمل الصالح، بما أعد لهم عند ربهم.
 - 5- عدم تورع أهل الكفر عن الكذب والتضليل.
- إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ

اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

شرح الكلمات:

إن ربكم الله : أي معبودكم الحق الذي يجب أن تعبدوه وحده هو الله.
 خلق السموات والأرض: أي أوجدها من العدم حيث كانت عدماً فأصبحت عوالم.
 في ستة أيام : هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، والجمعة.
 ثم استوى على العرش: أي استوى استواء يليق به عز وجل فلا يقال كيف؟
 ما من شفيع إلا من بعد إذنه : أي لا يشفع أحد يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له.
 أفلا تذكرون: أي أتستمرون في جحودكم وعنادكم فلا تذكرون.
 ثم يعيده: أي بعد الفناء والبلى وذلك يوم القيامة.
 شراب من حميم: أي من ماء أحمى عليه وغلى¹ حتى أصبح حميماً يشوي الوجوه.
 جعل الشمس ضياءً 2: أي جعلها تضيء على الأرض.
 والقمر نوراً: أي جعل القمر بنور الأرض وهو الذي خلق ضوء الشمس ونور القمر.
 وقدره منازل: أي قدر القمر منازل والشمس كذلك.
 لتعلموا: أي قدرهما منازل ليعلم الناس عدد السنين والحساب.
 يتقون: أي مسأخ الله وعذابه وذلك بطاعته وطاعة رسوله.
 معنى الآيات:

هذه الآيات في تقرير الألوهية بعد تقرير الوحي وإثباته في الآيتين السابقتين فقوله تعالى {إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر} إخبار منه تعالى أنه عز وجل هو رب أي معبود أولئك المشركين به آلهة أصناماً

1 غلى الماء يغلي غليانا إذا اشتدت حرارته ففار دخاناً.

2 الضياء: نور ساطع يضيء للرأي الأشياء وهو اسم مشتق من الضوء فالضياء أقوى من الضوء.

يعبدونها معه وهي لم تخلق شيئاً أما الله فإنه الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام بمقدار أيامنا هذه إذ لم تكن يوماً كأيام الدنيا هذه، ثم استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله يدبر¹

أمر السماء والأرض. هذا هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد ويتقرب إليه. وقوله: {ما من شفيع إلا من بعد إذنه} أي وأنه لعظمته وعزة سلطانه لا يقدر أحد أن يشفع لآخر إلا بعد إذنه له فكيف إذا تعبد هذه الأصنام رجاء شفاعتها لعبديها، والله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؟ وقوله تعالى {ذلكم الله ربكم فاعبدوه} أي هذا الموصوف بهذه الصفات المعرف بهذه النعوت من الجلال والكمال هو ربكم الحق فاعبدوه بما شرع لكم من أنواع العبادات تكملوا وتسعدوا وقوله {أفلا تذكرون} هر توبيخ للمشركين لهم لم لا تتعظون بعد سماع الحق. وقوله تعالى {إليه مرجعكم بعد موتكم جميعاً وعد الله حقاً}3 تقرير لمبدأ البعث الآخر أي إلى الله تعالى ربكم الحق مرجعكم بعد موتكم جميعاً إذ وعدكم وعد الحق بالرجوع إليه والوقوف بين يديه وقوله {ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط} 4 أي بالعدل: بيان لعلة الحياة بعد الموت إذ هذه الدار دار عمل والآخرة دار جزاء على هذا العمل فلذا كان البعث واجباً حتماً لا بد منه ولا معنى لإنكاره لأن القادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى وقوله تعالى {والذين كفروا لهم شراب من حميم} أي ماء حار قد بلغ المنتهى في حرارته وعذاب أليم أي موجه إخبار منه تعالى بجزاء أهل الكفر يوم القيامة وهو علة أيضاً للحياة بعد الموت والبعث بعد الفناء وبهذا تقرر مبدأ البعث كما تقرر قبله مبدأ التوحيد ومن قبل مبدأ الوحي إذ على هذه القضايا تدور السور المكية وقوله تعالى {هو الذي جعل الشمس ضياء} أي ذات ضياء والقمر نوراً ذا نور وقدر القمر منازل5 وهي ثمانية وعشرون منزلة ينتقل فيها القمر، فعل ذلك {لتعلموا عدد السنين والحساب}6 فتعرفون

- 1 قال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده، وقيل: يأمر به وبمضيه. قال القرطبي: والمعنى متقارب.
- 2 {ما من شفيع} أي: لا شفيع يشفع إلا بعد إذنه له بالشفاعة.
- 3 {وعدا} و{حقاً}: مصدران بمعنى وعدكم وعدا وأحقه حقاً. أي: صدقا لا خلف فيه.
- 4 الجملة: {انه يبدؤ الخلق}: واقعة موقع الدليل على إنجاز وعده تعالى لأن الذي خلق من تراب وماء قادر على البعث والجزاء.
- 5 المنازل: جمع منزل، وهو مكان النزول والمراد بها سُموتُ بلوغ القمر فيها للناس كل ليلة في سمت منها كأنه ينزل بها، وللشمس منازل تسمى بروجاً وهي اثنا عشر برجاً تحل فيها الشمس في فصول السنة لكل برج منزلتان وثلاث.
- 6 {الحساب} مصدر حُسب يحسب لضم السين حساباً بمدد عدّ أما حسب بكسر السين فهو بمعنى ظن ومضارعه يحسب بفتح السين وكسرهما لغتان فصيحتان. وبهما قرىء: أيحسب الإنسان وكل يحسب بمعنى يظن.

عدد السنوات والشهور والأيام والساعات إذ حياتكم تحتاج إلى ذلك فهذا الرب القادر على هذا الخلق والتدبير هو المعبود الحق الذي يجب أن تعبدوه ولا تعبدوا سواه فهذا تقرير للتوحيد وتأكيد له. وقريبه {ما خلق الله ذلك إلا بالحق} أي لم يخلق هذه الحياة الدنيا وهذه العوالم فيها عبثاً فتقنى وتبلى بعد حين ولا شيء وراء ذلك بل ما خلق ذلك إلا بالحق أي من أجل أن يأمر وينهى ثم يجزي المطيع بطاعته والمعاصي بعصيانه وفي هذا تأكيد لقضية البعث والجزاء أيضاً وقوله {يفصل الآيات} أي هذا التفصيل المشاهد في هذا السياق {لقوم يعلمون} إذ هم الذين ينتفعون به أما الجهلة فلا ينتفعون بهذا التفصيل والبيان وقوله تعالى في الآية الأخيرة {إن في اختلاف الليل والنهار} أي بالطول والقصر والضيء والظلام {وما خلق الله في السموات والأرض} 1 من أفلاك وكواكب ورياح وأمطار وما خلق في الأرض من إنسان وحيوان وبر وبحر وأنهار وأشجار وجبال ووَهاد {لآيات} أي علامات واضحة دالة على الخالق المعبود بحق وعلى جلاله وجماله وكماله وعظيم قدرته وقوة سلطانه فيُعبد لذلك بحبه غاية الحب وبتعظيمه غاية التعظيم وبرهنته والخشية منه غاية الرهبة والخشية ويذكر فلا يُنسى ويشكر فلا يُكفر ويطاع فلا يُعصى وقوله تعالى {لقوم يتقون} 2 خص أهل التقوى بالآيات فيما ذكر من مظاهر خلقه وقدرته لأنهم هم الذين حقاً يبصرون ذلك ويشاهدونه لصفاء أرواحهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم أما أهل الشرك والمعاصي فهم في ظلمة لا يشاهدون معها شيئاً والعياذ بالله.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير ألوهية الله تعالى وأنه الإله الحق.
- 2 - تقرير عقيدة البعث والجزاء في الدار الآخرة.
- 3- بيان الحكمة في خلق الشمس والقمر وتقدير منازلهما.
- 4- مشروعية تعلم الحساب وعلم الفلك لما هو نافع للمسلمين؟

1 قوله: {وما خلق الله في السموات والأرض} شمل الأجسام والأحوال معاً أي: الذوات والصفات، والأقوال والأعمال أيضاً إذ قال تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}.

2 خصهم بالآيات لأنهم هم الذين ينتفعون بها أما أهل الشرك والفجور والمعاصي فلا ينتفعون بها فهي إذاً ليست لهم بل هي لغيرهم ممن ينتفعون بها.

5- فضل العلم والتقوى وأهلها من المؤمنين.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)

شرح الكلمات:

لا يرجون لقاءنا : أي لا ينتظرون ولا يؤملون في لقاء الله تعالى يوم القيامة.

ورضوا بالحياة الدنيا: أي بدلاً عن الآخرة فلم يفكروا في الدار الآخرة.

واطمأننوا بها: أي سكنوا إليها وركنوا فلم يروا غيرها حياة يُعمل لها.

غافلون: لا ينظرون إليها ولا يفكرون فيها.

ماوَاهم النار : أي النار هي المأوى الذي يأوون إليه وليس لهم سواها.

يهديهم ربهم بإيمانهم 1: أي بأن يجعل لهم بإيمانهم نوراً يهتدون به إلى الجنة.

دعواهم فيها سبحانك اللهم 2: أي يطلبون ما شاءوا بكلمة سبحانك اللهم.

وآخر دعواهم أن الحمد لله : أي آخر دعائهم: الحمد لله رب العالمين.

معنى الآيات:

بعد تقرير الوحي والألوهية في الآيات السابقة ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث

1 قال مجاهد: {يهديهم ربهم} بالنور على الصراط إلى الجنة بأن يجعل لهم نوراً يمشون به، وشاهده قوله تعالى: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات الخ}.

2 الدعوى هنا: بمعنى الدعاء يقال: دعوة بالهاء ودعوى بألف التانيث وسبحان: مصدر بمعنى التسييح الذي هو التنزيه.

(2/450)

الكريمة بيان جزاء كل ممن كذب بلقاء الله فلم يرحُ ثواباً ولم يخشَ عقاباً ورضيَ بالحياة الدنيا واطمأن بها، وممن آمن بالله ولقائه ووعدته ووعدته فآمن بذلك وعمل صالحاً فقال تعالى {إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها} 2 أي سكنت نفوسهم إليها وركنوا فعلاً إليها {والذين هم عن آياتنا غافلون} أي آياته الكونية في الآفاق والقرآنية وهي حُجج الله تعالى وأدلتها الدالة على وجوده وتوحيده ووحيه وشرعه غافلون عنها لا ينظرون فيها ولا يفكرون فيما تدل لإنهماكهم في الدنيا

حيث أقبلوا عليها وأعطوها قلوبهم ووجوههم وكل جوارحهم. هؤلاء يقول تعالى في جزائهم {أولئك مأوهم النار بما كانوا يكسبون} أي من الظلم والشر والفساد. ويقول تعالى في جزاء من آمن بقلائه ورجا ما عنده {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم} أي إلى طريق الجنة {بإيمانهم} أي بنور إيمانهم فيدخلونها {تجري من تحتهم} 3 الأنهار في جنات النعيم}. ونعيم الجنة روحاني وجسماني فالجسماني يحصلون عليه بقولهم: سبحانك اللهم، فإذا قال أحدهم هذه الجملة "سبحانك اللهم" 4 حضر لديه كل مُشتهى له. والروحاني يحصلون عليه بسلام الله تعالى عليهم وملائكته وتحتيتهم فيها سلام} وإذا فرغوا من المآكل والمشارب قالوا: الحمد لله رب العالمين. وهذا معنى قوله {دعواهم فيها سبحانك اللهم} أي دعواؤهم أي صيغة طلبهم {وتحتيتهم فيها سلام وآخر دعواهم} أي دعائهم {أن} أي أنه: {الحمد لله رب العالمين} 5

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- التحذير من نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا والجري وراء زخارفها.

1 {لا يرجون لقاءنا} معناه أنهم لا يطلبونه ولا يتوقعونه، ولازم ذلك أنهم لا يخافون عقاباً أخروبياً ولا ثواباً.

2 أي: سكنت نفوسهم إليها وصرقوا كل همهم لها طلباً لتحصيل منافعها فلم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الآخرة لأنهم سكنوا إلى الدنيا، والساكن لا يتحرك ووصف بأنه لها يرضى لها يغضب ولها يفرح ولها يهتم ويحزن.

3 {من تحتهم} من تحت بساتنهم ومن تحت أسرّتهم كذلك وهو أحسن في النزهة والفرجة.

4 إنه ثناء مسوق للتعرض إلى إفاضة النعيم من طعام وشراب وهو كما قال ابن أبي الصلت: إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرّضه الثناء

5 في الآية دليل على إطلاق لفظ التسييح على الدعاء وشاهده: دعوة ذي النون: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} وفيها دليل على مشروعية بل سنية بدء الطعام والشراب ببسم الله. وإنهائه بحمد الله تعالى كما هي السنة في ذلك.

(2/451)

2- التحذير من الغفلة بعدم التفكير بالآيات الكونية والقرآنية إذ هذا التفكير هو سبيل الهداية والنجاة من الغواية.

3- الإيمان والعمل الصالح مفتاح الجنة والطريق الهادي إليها.

4- نعيم الجنة روحاني وجسماني وهو حاصل ثلاث كلمات هي:

سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

شرح الكلمات:

الشر : كل ما فيه ضرر في العقل أو الجسم أو المال والولد، والخير عكسه: ما فيه نفع يعود على الجسم أو المال أو الولد.

لقضي إليهم أجلهم : لهلكوا وماتوا.

فنذر : أي نترك.

في طغيانهم يعمهون: أي في ظلمهم وكفرهم يترددون لا يخرجون منه كالعميان.

الضر : المرض وكل ما يضر في جسمه، أو ماله أو ولده.

(2/452)

مر كأن لم يدعنا: مضى في كفره وباطله كأن لم يكن ذلك الذي دعا بكشف ضره.

كذلك زين 1 : مثل ذلك النسيان بسرعة لما كان يدعو لكشفه، زين للمسرفين إسرافهم في الظلم والشر.

القرون: أي أهل القرون.

بالبيّنات: بالحجج والآيات على صدقهم في دعوتهم.

خلائف: أي لهم، تخلفونهم بعد هلاكهم.

معنى الآيات:

هذه الفترة التي كانت تنزل فيها هذه السورة المكية كان المشركون في مكة في هيجان واضطراب كبيرين حتى إنهم كانوا يطالبون بنزول العذاب عليهم إذ ذكر تعالى ذلك عنهم في غير آية من كتابه منها {سأل سائل بعذاب واقع} ومنها {ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب} وفي هذا الشأن نزل قوله تعالى {ولو يعجل الله للناس الشر} 2 أي عند سؤالهم إياه 3، أو فعلهم ما يقتضيه كاستعجاله الخير لهم {لقضي إليهم أجلهم} أي لهلكوا الهلاك العام وانتهى أجلهم في هذه الحياة، وقوله تعالى {فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون} أي لم نجل لهم العذاب فنذر الذين

لا يرجون لقاءنا أي لا يؤمنون بلقائنا وما عندنا من نعيم وجحيم نتركهم في طغيانهم في الكفر والظلم والشر والفساد يعمهون حيارى يترددون لا يعرفون مُتجهاً ولا مخرجاً لما هم فيه من الضلال والعمى.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (11) أما الآية الثانية (12) فقد تضمنت بيان حقيقة وهي أن الإنسان الذي يعيش في ظلمة الكفر ولم يستتر بنور الإيمان إذا مسه الضر وهو

1 قال القرطبي وهو صادق، كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء زين للمسرفين في الشرك والمعاصي أعمالهم في ذلك.

2 فسّر الشرّ بالعقوبة إذ الشر كل ما يلحق الضرر بالإنسان عاجلاً أو آجلاً، والعقوبة كلها شر إذ هي عذاب انتقام ينزل بصاحبه.

3 قال مجاهد: هذه الآية نزلت في الرجل يدع على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب. اللهم أهلكه اللهم لا تبارك فيه اللهم العنه فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضى إليهم أجلهم. ولا أحسب أنّ الآية نزلت في هذا وإنما هي شاهد لما قال فقط، وشاهد آخر رواه البزار وأبو داود وهو قوله صلى الله عليه وسلم " لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم".

(2/453)

المرض والفقر وكل ما يضر دعا ربه على الفور لجنبه أو قاعداً أو قائماً يا رياه يا رياه فإذا استجاب الله له وكشف ما به من ضررٍ كأن لم يكن مرض ولا دعا واستجيب له واستمر في كفره وظلمه وغية. وقوله تعالى {كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون} أي كما أن الإنسان الكافر سرعان ما ينسى ربه الذي دعاه ففرج ما به كذلك حال المسرفين في الظلم والشر فإنهم يرون ما هم عليه هو العدل والخير ولذا يستمرون في ظلمهم وشرهم وفسادهم. هذا ما دل عليه قوله تعالى {كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون}.

وقوله تعالى في الآية الثالثة {ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا} هذا خطاب لأهل مكة يخبرهم تعالى مهدداً إياهم بامضاء سنته فيهم بأنه أهلك أهل القرون من قبلهم لما ظلموا أي أشركوا وجاءتهم رسلم بالبينات 1 أي بالآيات والحجج، وأبوا أن يؤمنوا لِمَا أَلْفُوا مِنَ الشَّرِكِ وَالْمَعَاصِي فَأَهْلَكَهُمْ كَعَادٍ وَثَمُودٍ وَأَصْحَابِ مَدْيَنٍ وَقَوْلُهُ تَعَالَى {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} أي مثل ذلك الجزاء بالإهلاك العام نجزي القوم المجرمين في كل زمان ومكان إن لم يؤمنوا ويستقيموا. وقوله تعالى {ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون} أي يقول لمشركي العرب من أهل مكة وغيرها، ثم

جعلناكم خلائف 2 في الأرض بعد إهلاك من قبلكم لننظر 3 كيف تعملون فإن كان عملكم خيراً
جزيناكم به وإن كان سوءاً جزيناكم به وتلك سنتنا في عبادنا وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مظاهر رحمة الله بعباده إذ لو عجل لهم ما يطلبون من العذاب كما يعجل لهم الخير عندما يطلبونه لأهلكهم وقضى إليهم أجلهم فماتوا.
- 2- يعصي الله العصاة ويكفر به الكافرون ويتركهم في باطلهم وشرهم فلا يعجل لهم العذاب لعلمهم يرجعون.

1 أي: بالمعجزات الواضحات كالتي أتى بها موسى وعيسى عليهما السلام.

2 الخلائف: جمع خليفة وحرّف ثم مؤذن ببعده ما بين الزمانين، والأرض: هي أرض العرب إذ هم الذين خلفوا عاداً وثموداً وقبلهما طسماً وجديساً.

3 هذا التعليل كقوله تعالى: {هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً} إذ علّة الوجود هي أن يذكر الله ويشكر، فمن ذكره وشكره أكرمه وأسعده ومن كفره ونسأه عذبه وأشقاه.

(2/454)

3- بيان أن الإنسان الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويبصرع إليه فإذا نجاه عاد إلى الكفر به كأن لم يكن يعرفه.

4- استمرار المشركين على إسرافهم في الكفر والشر والفساد مُزين لهم 1 حسب سنة الله تعالى. فمثلهم مثل الكافر يدعو عند الشدة وينسى عند الفرج.

5- وعيد الله لأهل الإجمام بالعذاب العاجل أو الأجل إن لم يتوبوا.

6- كل الناس أفراداً وأماماً مُمهّلون مُراقبون في أعمالهم وسلوكهم ومجزيون بأعمالهم خيرها وشرها لا محالة.

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بُرْزَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)
قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

1 شاهده قوله تعالى : {كذلك زيننا لكلّ أمة عملهم} من سورة الأنعام.

(2/455)

شرح الكلمات:

لا يرجون لقاءنا : أي لا يؤمنون بالبعث والدار الآخرة.

من تلقاء نفسي : أي من جهة نفسي.

ولا أدراكم به : أي لا أعلمكم به.

عمراً من قبله : أي أربعين سنة قبل أن يوحى إليّ.

المجرمون: المفسدون لأنفسهم بالشرك والمعاصي.

ما لا يضرهم : أي إن لم يعبدوه.

وما لا ينفعهم: أي إن عبده.

أتنبئون: أي أتعلمون وتخبرون الله.

سبحانه: أي تنزيها له.

عما يشركون: أي به معه من الأصنام.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير قضايا أصول الدين الثلاث: التوحيد والوحي والبعث فقوله تعالى {وإذا نتلى

عليهم آياتنا} أي إذا قرئت عليهم آيات الله عز وجل {قال الذين لا يرجون لقاءنا} 1 وهم المنكرون

للبعث إذ به يتم اللقاء مع الله تعالى للحساب والجزاء. {إئت بقرآن غير هذا} أي بأن يكون خالياً من

عيب آلهتنا وانتقاصها. أو أبقه ولكن بدل كلماته بما لا يسوعنا فاجعل مكان آية فيها ما يسوعنا آية

أخرى لا إساءة فيها لنا وقولهم هذا إما أن يكون من باب التحدي أو الاستهزاء والسخرية² ولكن الله

تعالى علّم رسوله طريقة الرد عليهم بناء على ظاهر قولهم فقال له {قل ما يكون لي أن أبدله من

تلقاء نفسي} أي إنه لا يتأتى لي بحال أن أبدله من جهة نفسي لأنني عبدالله ورسوله ما اتبع إلا ما

يوحي

1 عن مجاهد: أن المطالبين بهذا هم خمسة أنفار: عبدالله بن أمية والوليد بن المغيرة، ومكرز بن

حفص، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس والعاصي بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إئت

بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللآت والعزى ومناة وهبل وليس فيه عيبها.

2 وإما أن يكون من باب توهمهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأتي به من تلقاء نفسه إلا أن هذا الاحتمال ضعيف.

(2/456)

إلى {إني 1 أخاف إن عصيت ربي} بتبديل كلامه {عذاب يوم عظيم} أي عذاب يوم القيامة وقوله {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به} أي قل لهم رداً على طلبهم: لو شاء الله أن لا أتله عليكم ما تلوته عليكم، ولا أدراكم هو به أي ولا أعلمكم فالأمر أمره وأنا لا أعصيه ويدل لكم على صحة ما أقول: إني لبثت فيكم عمراً 2 أي أربعين سنة قبل أن أتاكم به {أفلا تعقلون}: معنى ما أقول لكم من الكلام وما أذكر لكم من الحجج؟.

هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية (15-16) أما الآية الثالثة فقد تضمنت التنديد بالمجرمين الذين يكذبون على الله تعالى بنسبة الشريك إليه ويكذبون بآياته ويجحدونها فقال تعالى {فمن أظلم ممن افتري على الله كذباً} 3 أي لا أحد أظلم منه {أو كذب بآياته} بعدما جاءته أي لا أحد أظلم من الاثنين، وقوله تعالى {إنه لا يفلح المجرمون} دل أولاً على أن المذكورين مجرمون وأنهم لا يفلحون شأنهم شأن كل المجرمين. وإذا لم يفلحوا فقد خابوا وخسروا. وقوله تعالى في الآية الرابعة {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم} أي من الأصنام {ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} 4 وهم في ذلك كاذبون مفترون فلذا أمر الله أن يرد عليهم بقوله {قل أنتبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض} إذ لو كان هناك من يشفع عنده لعلمهم وأخبر عنهم فلم الكذب على الله والافتراء عليه ثم نزه الله تعالى نفسه عن الشرك به والشركاء له فقال {سبحانه وتعالى عما يشركون}.

هداية الآلات

من هداية الآيات

1- من الدعوة إلى الله تعالى تلاوة آياته القرآنية على الناس تذكيراً وتعليماً.

1 جملة: {إني أخاف} جملة تعليلية لجملة: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي}.

2 العمر: الحياة مشتق من العمران، لأن مدة الحياة يعمر بها الحي العالم الأرضي، ويطلق العمر على المدة الطويلة التي لو عاش الإنسان مقدارها لكان أخذ حظه من البقاء. والمراد من قوله {عمراً} أي: لبثت بينكم مدة عمر كامل. إذ هي أربعون سنة.

3 في هذه الآية زيادة رداً على المطالبين بتبديل القرآن إذ تبدلته ظلم والزيادة فيه كذب على الله تعالى ولا أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب، فكيف يسوغ لي أن افتري على الله الكذب أو أبدل كلامه.

4 إن قولهم: هؤلاء {شفعاؤنا} لأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر هو غاية الجهل، ومرادهم من شفاعتها أنها تشفع لهم عند الله في إصلاح معاشهم في الدنيا.

(2/457)

- 2- بيان ما كان عليه المشركون من تعنت وجحود ومكابرة.
 - 3- كون النبي صلى الله عليه وسلم عاش أربعين سنة لم يعرف فيها علماً ولا معرفة ثم برز في شيء من العلوم والمعارف فتفوق وفاق كل أحد دليل على أنه نبي يوحى إليه قطعاً.
 - 4 - لا أحد أظلم من أحد رجلين رجل يكذب على الله تعالى وآخر يكذب الله تعالى.
 - 5- إبطال دعوى المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله يوم القيامة.
 - 6- بيان سبب عبادة المشركين لآلهتهم وهو رجاؤهم شفاعتها لهم.
- وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)
وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)
- شرح الكلمات:

أمة واحدة : أي على دين واحد هو الإسلام.

فاختلفوا: أي تفرقوا بأن بقى بعض على التوحيد وبعض على الشرك.

كلمة سبقت: بإبقائهم إلى آجالهم ومجازاتهم يوم القيامة.

آية: خارقة كناقاة صالح عليه السلام.

إنما الغيب لله: أي إن علم الآية متى تأتي من الغيب والغيب لله وحده فلا أنا ولا أنتم تعلمون إذاً فانظروا إنا معكم من المنتظرين.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى رسوله بحقيقة علمية تاريخية من شأن العلم بها المساعدة على الصبر والتحمل فيقول {وما كان الناس إلا أمة واحدة} أي في زمن سابق أمة واحدة على دين التوحيد دين الفطرة ثم حدث أن أحدثت لهم شياطين الجن والإنس البدع والأهواء

(2/458)

والشرك فاختلّفوا فمنهم من ثبت على الإيمان والتوحيد ومنهم من كفر بالشرك والضلال. وقوله تعالى {ولولا كلمة سبقت من ربك} وهي أنه لا يعجل العذاب للأمم والأفراد بكفرهم وإنما يؤخرهم إلى

آجالهم ليجزيهم في دار الجزاء بعذاب النار يوم القيامة لولا كلمته والتي هي {الأمْلَأْن جَهَنَّمَ مِنْكُمْ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} لعجل لهم العذاب فحكم بينهم بأن أهلك الكافر وأنجى المؤمن. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (19) أما الآية الثانية (20) فيخبر تعالى عن المشركين أنهم قالوا {لولا أنزل عليه آية من ربه} 2 أي هلاً أنزل على محمد آية خارقة من ربه لنعلم ونستدل بها على أنه رسول الله وقد يريدون بالآية عذاباً فلذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله {إنما الغيب لله} فهو وحده يعلم متى يأتيكم العذاب وعليه {فانتظروا إني معكم 3 من المنتظرين} ولم تطل مدة الانتظار ونزل بهم العذاب ببدر فهلك رؤسائهم وأكابر المستهزئين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- الأصل هو التوحيد والشرك طارئ.
- 2- الشر والشرك هما اللذان يحدثان الخلاف في الأمة والتفرق فيها أما التوحيد والخير فلا يترتب عليهما خلاف ولا حرب ولا فرقة.
- 3- بيان علة بقاء أهل الظلم والشرك يظلمون ويفسدون إلى آجالهم.
- 4- الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله ومن علمه الله شيئاً منه وهذا خاص بالرسول لإقامة الحجة على أممهم.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَنَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ

- 1 في الآية إشارة إلى القضاء والقدر أي: لولا ما سق في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة.
- 2 يريدون معجزة كمعجزات صالح وموسى وعيسى عليهم السلام أو آية غير القرآن كأن يحيي لهم الموتى أو يجعل الجبل ذهباً أو يكون له بيت من زخرف.
- 3 في الجملة تعريض بتهديدهم على جراتهم على الله ومطالبتهم بالآيات، والآيات القرآنية معرضون عنها وهي أعظم مما يطلبون.

(2/459)

(21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)
شرح الكلمات:

رحمة: أي مطر بعد قحط أو صحة بعد مرض أو غنى بعد فاقة.

ضراء: حالة من الضر بالمرض والجذب والفقير.

مكر في آياتنا : أي استهزاء بها وتكذيب.

إن رسلنا: أي الحفظة من الملائكة.

يسيركم 1 : أي يجعلكم تسيرون بما حولكم من مراكب وما يسر لكم من أسباب.

بريح طيبة.: أي مناسبة لسير السفن موافقة لغرضهم.

ريح عاصف : أي شديدة تعصف بالشجر فتقتلعه والبناء فتهدمه.

وأحيط بهم: أي أحرق بهم الهلاك من كل جهة.

يبغون بغير الحق 2: أي يظلمون مجانين للحق والاعتدال.

معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة أهل مكة إلى توحيد الله والإيمان برسوله والدار الآخرة فيقول

1 قرأ ابن عامر ينشركم بالنون والشين أي يبتكم ويفرقكم والفلك: يطلق على الواحد والجمع ويؤنث.

2 البغي: الاعتداء والظلم مأخوذ من بعا الجرح إذا فسد فهو من الفساد.

(2/460)

تعالى {وإذا أذقنا الناس} أي كفار مكة {رحمة من بعد ضراء مستهم} أي أذقناهم طعم الرحمة التي هي المطر بعد الجفاف والغنى بعد الفاقة والصحة بعد المرض وهي الضراء التي مستهم فترة من الزمن. يفاجئونك 1 بالمكر بآيات الله وهو استهزؤهم بها والتكذيب بها ويمن أنزلت عليه. وقوله تعالى {قل الله أسرع مكرًا} أي قل يا رسولنا لهؤلاء الماكرين من المشركين الله عز وجل أسرع مكرًا منكم فسوف يريكم عاقبة مكره بكم وهي إذلالكم وخزيكم في الدنيا وعذابكم في الآخرة إن متم على كفركم وقوله {إن رسلنا يكتبون ما تمكرون} تقرير لما أعلمهم به من مكر الله تعالى بهم إذ كتابة الملائكة ما يمكرون دليل على تبييت الله تعالى لهم المكروه الذي يريد أن يجازيهم به على مكرهم.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (21) أما الآية الثانية (22) فهي تُري المشركين ضعفهم وعجزهم وحاجتهم إلى الله تعالى، ومن كان كذلك فكيف يستهزئ بربه ويسخر من آياته ويكذب رسوله إن أمرهم لعجب فيقول تعالى هو أي الله الذي تمكرون بآياته الذي يسيركم في البر بما خلق لكم من

الظهر الإبل والخيل والحمير، وفي البحر بما سخر لكم من الفلك تجري في البحر بأمره. حتى إذا كنتم في البحر وجرين 2 أي السفن بهم أي بالمشركين بريح طيبة مناسبة لسير السفن وفرحوا بها على عادة ركاب 3 البحر يفرحون بالريح المناسبة لسلامتهم من الميّدان 4 والقلق والاضطراب. جاءت أي السفن ربح عاصف أي شديدة الهبوب تضطرب لها السفن ويخاف ركابها الغرق، وجاءهم أي الكفار الراكبين عليها الموج من كل مكان من جهات البحر والموج هو ارتفاع ماء البحر وتموجه كزوابع العُبور في البر. وظنوا أي أيقنوا أو كادوا أنهم أحيط بهم أي هلكوا لدعوا الله مخلصين

1 قيل: إنّ أبا سفيان قال: قحطنا بدعائك فإن سقيتنا صدّقناك فسُقوا باستسقائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا وهذا من مكربهم.

2 وجرين بهم: فيه خروج من الخطاب إلى الغيبة وهو ضرب من الأساليب البلاغية وهو في القرآن كثير، وكذا في أشعار العرب قال النابغة:
لا دار مية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد
ويقال له: التفات من كذا إلى كذا.

3 في الآية دليل على جواز ركوب البحر مطلقاً، وشاهده من السنة حديث: "إنّا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فقال: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" وحديث أم حرام يدلّ على جواز ركوبه في الغزو.

4 الميدان: دوّار أو غشيان بصيب راكب البحر.

(2/461)

له الدين} أي الدعاء يا رب يا رب 1 نجنا ويعدونه قائلين {لئن أنجيتنا من هذه} أي الهلكة {لنكونن من الشاكرين} لك أي المطيعين المعترفين بنعمتك علينا الموحدين لك بترك الآلهة لعبادتك وحدك لا شريك لك. فلما أنجاهم من تلك الشدة يفاجئونك بغيهم في الأرض بغير الحق شركاً وكفراً وظلماً وفساداً فعادوا لما كانوا وإنهم لكاذبون وقوله تعالى {يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا} يخبرهم تعالى بقوله يا أيها الناس الباغون في الأرض بغير الحق في أي زمان كنتم وفي أي مكان وجدتم إنما بغيكم 2 أي عوائده عائدة على أنفسكم إذ هي التي تتأثم وتخبت في الدنيا وتفسد وتصبح أهلاً لعذاب الله يوم القيامة وقوله {متاع الحياة الدنيا} أي ذلك متاع 3 الحياة الدنيا شقاء كان أو سعادة {ثم إلينا مرجعكم} أي لا إلى غيرنا وذلك بعد الموت يوم القيامة {فتنبئكم بما كنتم تعملون} من خير وشر ونجزيكم به الجزاء العادل في دار الجزاء.

هداية الآيات

من هداية الآيات

- 1- من مكر مكر الله به والله أسرع مكرًا وأكبر أثرًا وضررًا.
- 2- بيان ضعف الإنسان و فقره إلى الله وحاجته إليه عز وجل في حفظ حياته وبقائه إلى أجله.
- 3- إخلاص العبد الدعاء في حال الشدة آية أن التوحيد أصل والشرك طارئ.
- 4- المشركون الأولون أحسن حالاً من جهلة هذه الأمة إذ يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة أما جهال المسلمين اليوم فشرکهم دائم في الرخاء والشدة على السواء.
- 5- بَغْيُ الإنسان عائد على نفسه كمكره ونكته وفي الحديث "ثلاث على أصحابها رواجع: البغي والمكر والنكت".
- 6- تقرير مبدأ البعث والجزاء يوم القيامة.

1 روي أنهم قالوا في دعائهم هذا يا حي يا قيوم.

- 2 مصداقه من الحديث الشريف: "ما من ذنب أحق أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم".
- 3 المتاع: ما يتمتع به انتفاعاً غير دائم.

(2/462)

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

شرح الكلمات:

مثل الحياة الدنيا: أي صفتها المنطبقة عليها المتفوقة معها.

ماء: أي مطر.

فاختلط 1 به: أي بسببه نبات الأرض أي اشتبك بعضه ببعض.

مما يأكل الناس: كالبر وسائر الحبوب والفواكه والخضر.

والأنعام: أي من الكلاً والعشب عادة والإلا قد يعلف الحيوان الشعير.

زخرفها 2: أي نصرتها وبهجتها.

وازيبت 3: أي تجملت بالزهور.

وظن أهلها أنهم قادرون عليها: أي متمكنون من تحصيل حاصلاتها الزراعية.

أناها أمرنا: أي قضاؤنا بإهلاكها وتدميرها عقوبة لأصحابها.
حصيداً: أي كأنها محصودة بالمنجل ليس فيها شيء قائم.

1 أي: اختلط النبات بالمطر أي: شرب منه فتدى وحسن واخضر والاختلاط هو: تداخل الشيء في الشيء.

2 الزخرف: اسم للذهب، ويطلق على كل ما يزين به مما فيه ذب وتلوين من الثياب والحلي وأنواع الزينة.

3 {وازينت} أصلها: تزينت فقلبت ألتاء زايا وأدغمت في الزاء لقرب مخرجيهما وجلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.

(2/463)

كأن لم تغن بالأمس 1: أي كان لم تكن موجودة غانية بالأمس.
ن فصل الآيات : أي نبينها.

والله يدعو إلى دار السلام 2 : دار السلام. الجنة والله يدعو إليها عباده ليأخذوا بالأهبة لدخولها وهي الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي.
معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم يعرض الهدايا الإلهية على الناس لعلمهم يهتدون ففي هذه الآية يضرب تعالى 3 مثلاً للحياة الدنيا التي يتكالب الغافلون عليها ويبيعون آخرتهم بها فيكذبون ويظلمون من أجلها إنما مثلها في نضارتها الغارة بها وجمالها الخادعة به كمثل ماء نزل من السماء فاختلف بالماء نبات الأرض فسقى به ونما وازدهر وأورق وأثمر وفرح به أهله وغلب على ظنهم أنهم منتفعون به فائزون به وإذا بقضاء الله فيه تأتية فجأة في ساعة من ليل أو نهار فإذا هو حصيد ليس فيه ما هو قائم على ساق، هشيم تذروه الرياح كأن لم يغن بالأمس أي كأن لم يكن موجوداً أمس قائماً يعمر مكانه أتاه أمر الله لأن أهله ظلموا فعاقبهم بجائحة أفسدت عليهم زرعهم فأمسوا يائسين حزينين. هذه الصورة المثالية للحياة الدنيا فهلا يتنبه الغافلون أمثالي!! أو هلا يستيقظ النائمون من حالهم كحالي؟؟

وقوله تعالى في الآية الثانية (25) {والله يدعو إلى دار السلام} 4 أي بترك الشرك والمعاصي والإقبال على الطاعات والصالحات ودار السلام الجنة إذ هي الخالية من الكدر والتنغيص فلا مرض ولا هرم، ولا موت ولا حزن. ودعاة الضلالة يدعون إلى الدنيا

1 كأن لم تكن عامرة يقال غني بالمكان إذا قام به وعمره والمغاني النازل التي يعمرها الناس قال لبيد
وغنيت سبتاً قبل مجرى داحس ... لو كان للنفس اللجوج خلود

2 وقبل المعنى والله يدعو إلى دار السلام إذ السلام والسلامة بمعنى كالرضاعة والرضاع، قال
الشاعر:

تحيي بالسلامة أم بكر ... وهل لك بعد قومك في سلام

3 المثل الصفة وعليه فصفة الحياة الدنيا المنطبقة عليها أنها في سرعة انقضائها وزوال نعيمها بعد
البهجة والنضرة الحسنة كنبات أخضر وازدهر ثم يبس فصار هشياً تذروه الرياح.

4 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوماً على أصحابه فقال: "رأيت في المنام كأن جبريل
عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال له اسمع سمعت أذنك
واعقل عقل عقلك إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم
بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فإله الملك والدار
الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام
دخل الجنة ثم تلا: {والله يدعو إلى دار السلام} إلى قوله {مستقيم}.

(2/464)

والتي صورتها ومآلها. أنها دار الكدر والتتغيص والهم والحزن فأى الدعوتين تجاب؟ لويهدي من
يشاء إلى صراط مستقيم} فلتطلب هدايته بصدق فإنه لا يهدي إلا هو والصراط المستقيم هو الإسلام
طريق الجنة وسلم الوصول إليها رزقنا الله تعالى السير فيه والثبات عليه.
هداية الآيتين.

من هداية الآيتين:

1- بيان الصورة الحقيقية للحياة الدنيا في نضرتها وسرعة زوالها.

2- التحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها.

3- التحذير من الذنوب فإنها سبب الشقاء وسلب النعم.

4- فضيلة التفكير وأهله.

5- فضل الله على عباده ورحمته بهم إذ يدعوهم إلى داره لإكرامهم والإنعام عليهم.

لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا
أُعْشِبَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا

تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (29)

1 القول بأن الزيادة هما النظر إلى وجه الله الكريم هو قول أنس بن مالك وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وحذيفة وابن عباس وعامة الصحابة روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل".

(2/465)

هُنَالِكَ تَتْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)

شرح الكلمات:

الحسنى وزيادة: الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم.

ولا يرهق وجوههم: أي لا يغطي وجوههم.

قتر: عبرة من الكآبة والحزن.

السيئات: جمع سيئة ما يُسيء إلى النفس من ذنوب الشرك والمعاصي.

مكانكم: أي الزموا مكانكم لا تفارقوه.

فزيلنا بينهم: فرقنا بينهم.

هنالك: أي ثم.

تبلو كل نفس: أي تختبر.

ما أسلفت: أي ما قدمت.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: أي غاب عنهم ما كانوا يكذبون.

معنى الآيات:.

بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أنه يدعو إلى دار السلام نكر جزاء من أجاب الدعوة ومن لم يجبها فقال للذين أحسنوا فآمنوا وعبدوا الله بما شرع ووحده تعالى في عبادته وربوبيته وأسمائه وصفاته فهؤلاء جزاؤهم الحسنى وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم في دار السلام، وأنهم إذا بعثوا لا يرهق 1 وجوههم قتر ولا ذلة كما يكون ذلك لمن لم يجب دعوة الله تعالى، وقرر جزاءهم ووضحه بقوله: {أولئك أصحاب الجنة هم 2 فيها خالدون} وذكر جزاء من أعرض عن الدعوة ورفضها فأصر على الكفر والشرك والعصيان

- 1 الرهق: الغشيان، يقال رهقه يرهقه رهقاً: إذا غشيه من باب خرج.
- 2 اسم الإشارة عائد إلى الذين أحسنوا.

(2/466)

فقال {والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها} فالذين كسبوا سيئات الشرك 1 والمعاصي فأساء ذلك إلى نفوسهم ففسادها وخبثها جزاؤهم جهنم وترهقهم ذلة في عرصات القيامة وليس لهم من الله من عاصم يعصمهم من عذاب الله. كأنما وجوههم لسوادها قد أغشيت قطعاً من 2 الليل مظلماً وقوله تعالى {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} تقرير لمصيرهم والعياذ بالله وهو ملازمة النار وعدم الخروج منها بخلودهم فيها.

هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (26) والثانية (27) أما الآيات الثالثة والرابعة والخامسة فإنها تضمنت عرضاً سريعاً لحشر الناس يوم القيامة، والمراد بذلك تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر فقال تعالى: {ويوم نحشرهم جميعاً} 3 أي في عرصات القيامة {ثم نقول للذين أشركوا} أي بنا آلهة عبدها دوننا {مكانكم} أي قفوا لا تبرحوا مكانكم {أنتم وشركاؤكم}، ثم يزايل الله تعالى أي يفرق بينهم وهو معنى قوله تعالى {فزيلنا بينهم} ولا شك أنهم يقولون ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين ندعو من دونك فلذا ذكر تعالى ردهم عليهم في قوله {وقال شركاؤهم} 4 ما كنتم إيانا تعبدون {أي لأننا ما كنا نسمعكم ولا نبصركم ولا أمرناكم بعبادتنا وهذا قول كل من عبد من دون الله من سائر الأجناس {فكفى بالله شهيداً} بيننا وبينكم إن كنا} أي والله {إن كنا عن عبادتكم لغافلين} غير شاعرين بحال من الأحوال بعبادتكم. قال تعالى {هنالك} أي في ذلك الموقف الرهيب {تبلو كل نفس ما أسلفت} أي تختبر ما قدمت في دنياها وتعرفه هل هو ضارٌّ بها أو نافع لها {وردوا إلى الله مولاهم} 5 الحق 6 وضل عنهم ما كانوا يفترون} هكذا يجدون أنفسهم أمام مولاهم ومالك

1 ذكرنا في التفسير: كسبوا الشرك والمعاصي لأن الشرك هو الموجب للخلود في النار لا المعاصي، بدليل الحكم عليهم بالخلود في النار في آخر السياق.

2 جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء فهي فعلة بمعنى مفعولة إذ هي مقطوعة من شيء كامل. والمظلم: الإظلام لا كواكب فيه ولا قمر.

3 أي: سعداء وأشقياء أهل الحسن وأهل الذلة، إذ الحشر يكون لسائر الخلائق لا يتخلف أحد من الخلق.

4 الشركاء: يكونون من الأصنام والأوثان والملائكة والإنس والجنّ والتبرؤ حاصل إذ ليس هناك من يقوى على الاعتراف بجريمة الشرك، إمّا الملائكة والأنبياء والصالحون فإنهم لم يكونوا راضين بعبادة

المشركين لهم فتنبروهم صحيح، وأمّا الأصنام والأوثان فإنها لم تأمر بعبادتها وإنما الذي أمر بعبادتها الشياطين فتنبروها صحيح.

5 مولايم: الخالق، الرازق، المدير لأمرهم وشؤون حياتهم والمستوجب لعبادتهم هو الله جل جلاله، فهو مولايم الحق، لا الذي اختلقوه كذبا وعبدوه من دون الله فذاك مولى باطل وإله مكذوب.

6 الحق: هو الموافق للواقع والصدق، فالمولوية الحقّة لله تعالى لا لمخلوقاته، وكلها مخلوقة له مربية.

(2/467)

أمرهم ومعبودهم الحق والذي طالما كفروا به وتنكروا له وجحدوا آياته ورسله وضلّ 1 أي غاب عنهم ما كانوا يفترونه من الأكاذيب والترهات والأباطيل من تلك الأصنام التي سموها آلهة وعبدوها وندموا يوم لا ينفع الندم وجزاهم بما لم يكونوا يحتسبون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى.
- 2- بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجبه من خسران.
- 3- تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق وأضح له.
- 4- تبرؤ ما عبّد من دون الله من عابديه وسواء كان المعبود ملكاً أو إنساناً أو جاناً أو شجراً أو حجراً الكل يتبرأ من عابديه ويستشهد الله تعالى عليه.
- 5- في عرصات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بما تعرف؟.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)

شرح الكلمات:

من السماء : أي بالغيث والمطر .

والأرض : أي بالنبات والحبوب والثمار .

1 ضلّ : بمعنى ضاع وغاب ولم يجدوه ولم ينتفعوا به، فما كانوا يخلقونه من الآلهة الباطلة وما كانوا يقدّمونه لها من أنواع العبادات قد ضاع وغاب عنهم فلم يروه.

أمن يملك السمع والأبصار: أي يملك أسمعكم وأبصاركم إن شاء أبقاها لكم وإن شاء سلبها منكم.
ومن يخرج الحي من الميت: أي الجسم الحي من جسم ميت والعكس كذلك.
ومن يدبر الأمر: أي أمر الخلائق كلها بالحياة والموت والصحة والمرض والعطاء والمنع.
أفلا تتقون: أي الله فلا تشركوا به شيئاً ولا تعصوه في أمره ونهيه.
فأنى تصرفون: أي كيف تصرفون عن الحق بعد معرفته والحق هو أنه لا اله إلا الله.
حقت: أي وجبت.
أنهم لا يؤمنون: وذلك لبلوغهم حداً لا يتمكنون معه من التوبة البتة.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة التوحيد فيقول تعالى لرسوله {قل} يا رسولنا لأولئك المشركين مستقهماً إياهم {من يرزقكم من السماء والأرض} بإنزال المطر وبانبات الحبوب والثمار والفواكه والخضر التي ترزقونها، وقل لهم {أم من يملك السمع والأبصار} أي أسمعكم وأبصاركم بحيث إن شاء أبقاها لكم وأمتعكم بها، وإن شاء أخذها منكم وسلبكم إياها فأنتم عمي لا تبصرون وضم لا تسمعون {ومن يخرج الحي من الميت} كالفرخ من البيضة {ويخرج الميت من الحي} كالبيضة من الدجاجة، والنخلة من النواة، والنواة من 1 النخلة. {ومن يدبر الأمر} في السماء والأرض كتعاقب الليل والنهار ونزول الأمطار، وكالحياة والموت والغنى والفقر والحرب والسلام والصحة والمرض إلى غير ذلك مما هو من مظاهر التدبير الإلهي في الكون. {فسيقولون الله}، إذ لا جواب لهم إلا هذا إذاً فما دام الله هو الذي يفعل هذا ويقدر عليه دون غيره كيف لا يُتقى عز وجل بتوحيده وعدم الإشراك به، فلم لا تتقونه؟ 2

1 وكالنطفة من الإنسان، والإنسان من النطفة، ومثلها نطفة الحيوان مخرجها من حيوان حي، ومن الحيوان الحي تخرج نطفة ميتة.
2 أي: فقل لهم يا رسولنا: أفلا تتقون: أي: أفلا تخافون عقابه ونقمه في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى {فذلکم الله ربکم الحق} 1 أي فذلکم الذي يرزقکم من السماء والأرض ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر هو ربکم 2 الحق الذي لا رب لكم سواه إذاً فماذا بعد

الحق إلا الضلال، 3 فأنى تصرفون} أي كيف يصرفون عن الحق بعد معرفته إلى الضلال؟ إنه أمر يدعو إلى الاستغراب والتعجب!

وقوله تعالى {كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون} أي مثل ذلك الصرف الذي يصرفه المشركون عن الحق بعد معرفته إلى الضلال أي كما حق ذلك حقت كلمة ربك وهي أن الله لا يهدي القوم الفاسقين فهم لا يهتدون، وذلك أن العبد إذا توغل في الشر والفساد بالإدمان والاستمرار عليه يبلغ حداً لا يتأتى له الرجوع منه والخروج بحال فهلك على فسقه لتحقق عليه كلمة العذاب وهي {لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين}.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشركوا العرب كانوا يشركون في الألوهية ويوحدون في الربوبية.
 - 2- وليس بنافع أن يوحد العبد في الربوبية ويشرك في الألوهية.
 - 3- ليس بعد الحق 4 إلا الضلال فلا واسطة بينهما فمن لم يكن على حق فهو على ضلال.
 - 4- التوغل في الشر والفساد يصبح طبعاً لصاحبه فلا يخرج منه حتى يهلك به.
- قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ

- 1 في الصحيح من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم إذا قام من جوف الليل يقول "اللهم أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق.." في حديث طويل هذا من وسطه، والشاهد في قوله: "أنت الحق".
- 2 أي: إلهكم ومعبودكم الحق لا ما تعبدون من أصنام وأوثان فإذا عرفتم إلهكم الحق فإن ما بعده من آلهة هو الضلال.
- 3 روي عن مالك في قوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال} قال: اللعب بالشطرنج والنرد: هو الضلال، وسئل عن الغناء فقال: هل هو حق؟ قالوا: لا. قال فما بعد الحق إلا الضلال. وفي صحيح مسلم: "من لعب بالنرد شير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه".
- 4 روي عن عمر رضي الله عنه أنه رخص فيما كان فيه دربة على الحرب من أنواع اللعب، إذ الغرض صحيح، وهو تعلم فنون الحرب، وحذق أساليبها.

(2/470)

يُنَبِّعُ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)

شرح الكلمات:

من شركائكم 1 : جمع شريك وهو من أشركوه في عبادة الله تعالى.

من يبدأ الخلق: أي ينشئ الإنسان والحيوان أول ما ينشئه فذلك بدء خلقه.

فأنى تؤفكون: أي كيف تصرفون عن الحق بعد معرفته.

أمن لا يهدي: أي لا يهتدي.

كيف تحكمون: أي هذا الحكم الفاسد وهو إتباع من لا يصح اتباعه لأنه لا يهدي.

معنى الآيات:

ما زال السياق في حجاج المشركين لبيان الحق لهم ودعوتهم إلى اتباعه فيقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء المشركين {قل هل من شركائكم 2 من يبدأ الخلق ثم يعيده؟} أي هل يوجد من بين آلهتكم التي تعبدونها من يبدأ خلق إنسان من العدم ثم يميتة، ثم يعيده؟ وجوابهم معروف وهو لا يوجد إذا فكيف تؤفكون أي تصرفون عن الحق بعد معرفته والإقرار به؟ وقل لهم أيضاً {قل هل 3 من شركائكم من يهدي إلى الحق} أي يوجد من آلهتكم من يهدي إلى الحق؟ والجواب لا يوجد لأنها لا تتكلم ولا تعلم إذا فقل لهم الله يهدي إلى الحق أي بواسطة نبيه ووحيه وآياته. وقل لهم {أمن يهدي إلى 4 الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي} 5 والجواب معروف الذي يهدي إلى الحق أحق بأن يتبع ممن لا يهتدي إلا أن يهدي، إذا لم لا تتقون

1 أي: آلهتكم ومجوداتكم من الأصنام والأوثان.

2 يقول لهم: (هل) على جهة التوبيخ والتقرير، فان أجابوك فذاك وإلا فقل الله يبدأ الخلق.

3 هذا الاستفهام كالأول للتوبيخ والتقرير فان أجابوا فذاك المطلوب لهان لم يجيبوا فأجب أنت بقولك: الله يبدأ الخلق.

4 هذا الاستفهام؟ كسابقه للتوبيخ والتقرير ثم إقامة الحجة.

5 في: {أمن لا يهدي} قراءات منها: (لا يهدي)، بالتخفيف. (لا يهدي) بتشديد الدال، وفتح الهاء وهي قراءة ورش، و (لا يهدي) بكسر الهاء، وتشديد الدال وهي قراءة حفص.

(2/471)

الله فتوحده وتؤمنوا برسوله وكتابه فتهتدوا، وتتركوا آلهتكم التي لا تهدي إلى الحق؟ {فما لكم} أي أي شيء ثبت لديكم في ترك عبادة الله لعبادة غيره من هذه الأوثان، {كيف تحكمون} أي حكم هذا تحكمون به وهو اتباع من لا يهدي وترك عبادة من يهدي إلى الحق. وقوله تعالى {وما يتبع أكثرهم إلا ظناً} 1 أي أن أكثر هؤلاء المشركين لا يتبعون في عبادة أصنامهم إلا الظن فلا يقين عندهم في

أنها حقاً آلهة تستحق العبادة، {إن الظن لا يغني من الحق شيئاً} أي إن الظن لا يكفي عن العلم ولا يغني عنه أي شيء من الإغناء، والمطلوب في العقيدة العلم لا الظن 2. وقوله تعالى {إن الله عليم بما يفعلون} هذه الجملة تحمل الوعيد الشديد لهم على إصرارهم على الباطل وعنادهم على الحق فسيجزئهم بذلك الجزاء المناسب لظلمهم وعنادهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد بإبطال الآلهة المزعومة حيث اعترف عابدها بأنها لا تبدأ خلقاً ولا تعيده بعد موته، ولا تهدي إلى الحق، والله يبدأ الخلق ثم يعيده ويهدي إلى الحق.
 - 2- إبطال الأحكام الفاسدة وعدم إقرارها ووجوب تصحيحها.
 - 3- لا يقبل الظن في العقائد بل لا بد من العلم اليقيني فيها.
 - 4- كراهية القول بالظن والعمل به وفي الحديث (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث).
- وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ

1 في الآية دليل على أن عابدي غير الله تعالى ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادتها بل أكثرهم لا يتبعون في عبادتها إلا مجرد الظن، والبعض الآخر القليل لا اعتقاد لهم إلا اتباع غيرهم وتقليد سواهم من رؤسائهم، وأهل الكلمة فيهم، فكلا الفريقين هالك.

2 الظن يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا شك فيه كقوله تعالى: {إني ظننت أني ملاق حسابه} ويطلق على الاعتقاد المشكوك فيه كقول قوم نوح لنوح: {إنا لنظنك من الكاذبين} ويطلق على الاعتقاد المخطيء كآية: {إن بعض الظن إثم} وحديث: {إن الظن أكذب الحديث}.

(2/472)

مَثَلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)

شرح الكلمات:

أن يفترى من دون الله : أي افتراء أي لم يكن هذا القرآن افتراء.
وتفصيل الكتاب: أي بيان ما فرض الله تعالى على هذه الأمة وما أحل لها وما حرم.
أم يقولون افتراه.: أي اختلقه من نفسه وتَقَوْلُهُ من عنده.

بما لم يحيطوا بعلمه : أي بما توعدهم الله تعالى به من العذاب.
ولما يأتهم تأويله : أي ولما يأتهم بعد ما يؤول إليه ذلك الوعيد من العذاب.
كذلك كذب الذين من قبلهم: أي كتكذيب هؤلاء بوعد الله لهم كذب الذين من قبلهم.
معنى الآيات:

هذه الآيات في تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى: {وما كان هذا القرآن} أي لم يكن من شأن هذا القرآن العظيم {أن يفترى من دون الله} أي يُخْتَلَق من غير الله تعالى من سائر خلقه، {ولكن تصديق الذي بين يديه}2 أي ولكنه كلام الله ووحيه أوحاه إلى رسوله وأنزله تصديق الذي بين يديه أي من الكتب التي سبقت نزوله وهي التوراة والإنجيل {وتفصيل الكتاب} الذي كتبه الله تعالى على أمة الإسلام من الفرائض والشرائع والأحكام. وقوله تعالى {لا ريب فيه} أي لا شك في أنه وحي الله وكلامه نزل من رب العالمين، وهو الله مربي الخلائق أجساماً وعقولاً وأخلاقاً وأرواحاً ومن مقتضى ربوبيته إنزال كتاب فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه العبد في تربيته وكماله البدني والروحي والعقلي والخلقي.

1 علم الله تعالى أنّ غيره تعالى لا يتأتى له الإتيان بمثل هذا القرآن كما قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً}.
2 أي: أنزله مصداقاً لما بين يديه أي: لما تقدمه من الكتب الإلهية. هذا كقوله تعالى: {نزل عليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه}. ونصب (تصديق) على أنه اسم كان، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي.

(2/473)

وقوله تعالى في الآية الثانية (38) {أم يقولون افتراه} 1 أي بل يقول هؤلاء المشركون المجاهدون وهو قول في غاية السخف والقباحة يقولون القرآن افتراه محمد ولم يكن بوحى أنزل عليه، قل يا رسولنا متحدياً إياهم أن يأتوا بسورة مثله2. فإنهم لا يستطيعون وبذلك تبطل دعواهم، وقل لهم ادعوا لمعونتكم على الإتيان بسورة مثل سور القرآن من استطعتم الحصول على معونتهم إن كنتم صادقين في دعواكم أن القرآن لم يكن وحياً من الله، وإنما هو اختلاق اختلقه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه}3 ولما يأتهم تأويله} أي إن القضية ليست قضية أنهم ما استطاعوا أن يدركوا أن القرآن كلام الله، وإنما القضية هي أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه من وعيد الله تعالى لهم بالعذاب، ولما يأتهم بعد ما يؤول إليه الوعيد إذ لو رأوا العذاب ما كذبوا، ولذا قال تعالى: {كذلك كذب الذين من قبلهم} أي {حتى ذاقوا بأسنا} كما في آية الأنعام. وهو قال تعالى:

{فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} فقد أهلك تعالى الظلمة من قوم نوح بالغرق ومن قوم هود بريح صرصر ومن قوم صالح بالصيحة ومن قوم شعيب بالرجفة ومن أمم أخرى بما شاء من أنواع العذاب فهؤلاء إن لم يتوبوا واستمروا في تكذيبهم فسوف يحل بهم ما حل بغيرهم { وما الله بغافل عما يعمل الظالمون}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
- 2- من أدلة أن القرآن كلام الله تصديقه للكتب السالفة وعدم التناقض معها إذ هما من مصدر واحد وهو الله رب العالمين.
- 3- من أدلة القرآن على أنه وحي الله تحدي الله العرب بالإتيان بسورة واحدة في فصاحته.

1 {أم يقولون} أم هنا: هي المنقطعة التي تفسر ببل، والهمزة: أي بل أيقول افتراه، والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ.

2 هذا دليل على أن القرآن الكريم معجز، وهو كذلك معجز بألفاظه ومعانيه معاً.

3 {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله}. هذا الكلام الإلهي يحتمل معنيين صحيحين. الأول: هو ما في التفسير، والثاني: المراد بما لم يحيطوا بعلمه: القرآن الكريم، فهم لم يتدبروه، ولم يفهموا ما يدعو إليه وكذبوا به عن جهل مع العناد والمكابرة فما في قوله: { بما لم يحيطوا بعلمه} اسم موصول المراد به: القرآن الكريم أمّا على المعنى الأول فإن المراد به العذاب الذي كذبوا به، ولم يحل بهم بعد.

(2/474)

وبلاغته وإعجازه وعجزهم عن ذلك.

4- استمرار المشركين في العناد والمجاددة علته أنهم لم ينوقوا ما توعدهم الله به من العذاب إذ لو ذاقوا لآمنوا ولكن لا ينفعهم حينئذ الإيمان.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّةَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

شرح الكلمات :

ومنهم من يؤمن به: أي من أهل مكة المكذبين بالقرآن من يؤمن به مستقبلاً.
وربك أعلم بالمفسدين: وهم دعاة الضلالة الذين يفسدون العقول والقلوب والجملة تهديد لهم.
وإن كذبوك: أي استمروا على تكذيبك.
ومنهم من يستمعون إليك: أي إذا قرأت القرآن.
ومنهم من ينظر إليك: أي يبصر ويشاهد آيات النبوة وأعلام صدقك، ولا يهتدي إلى معرفة أنك
رسول الله لأن الله تعالى حرمه ذلك.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى في خطاب رسوله لئسليه ويصبره
على عدم إيمان قومه مع ظهور الأدلة وقوة البراهين {ومنهم من يؤمن به} أي بالقرآن وبالنبي

(2/475)

أيضاً إذ الإيمان بواحد يستلزم الإيمان بالثاني، {ومنهم من لا يؤمن به} 1، وهذا إخبار غيب فتم كما
أخبر تعالى فقد آمن من المشركين عدد كبير ولم يؤمن عدد آخر. وقوله {وربك أعلم بالمفسدين} أي
الذين لا يؤمنون وفي الجملة تهديد لأولئك الذين يصرفون الناس ويصدونهم عن الإيمان والتوحيد.
وقوله تعالى: {وإن كذبوك} أي استمروا في تكذيبهم لك فلا تحفل بهم وقل {لي عملي} 2 ولكم عملكم
أنتم بريئون مما أعمل، وأنا بريء مما تعملون} فإذا كان هناك عقاب دنيوي فإنك تسلم منه ويهلكون
هم به.

وقوله تعالى في الآية (42) {ومنهم من يستمعون إليك} 3 إلى قراءتك القرآن وإلى قولك إذا قلت
داعياً أو أمراً أو ناهياً، ومع هذا فلا يفهم ولا ينتفع بما يسمع، ولا لوم عليك في ذلك لأنك لا تسمع
الصم، وهؤلاء صم لا يسمعون، ومنهم من ينظر إليك بأعين مفتحة ويرى علامات النبوة وآيات
الرسالة ظاهرة في حالك ومقالك ومع هذا لا يهتدي ولا لوم عليك فإنك لا تهدي العمى ولو كانوا لا
يبصرون. 4. وقوله تعالى {إن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون} بيان لسنة الله
تعالى في أولئك الذين يسمعون ولا ينتفعون بسماعهم، ويبصرون ولا ينتفعون بما يبصرون، وهي أن
من توغل في البغض والكراهية لشيء يصبح غير قادر على الانتفاع بما يسمع منه ولا بما يبصر
فيه. ولذا قيل حبك الشيء يُعمي ويُصم، والبغض كذلك كما أن الاسترسال في الشر والفساد مدة من
الزمن يحرم صاحبه التوبة إلى الخير والصلاح، ومن هنا قال تعالى {إن الله لا يظلم5 الناس شيئاً،
ولكن الناس أنفسهم يظلمون}.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك.
2- تقرير معنى آية { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور }.

- 1 كأبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وغيرهم.
2 أي لي ثواب عملي على التبليغ والطاعة لله تعالى ولكم جزاء عملكم الذي هو الشرك والكفر والتكذيب.
3 أي : في ظواهرهم أما قلوبهم فلا تعي شيئاً مما تقول من الحق وتتلوه من القرآن.
4 أي : ولو انظمت إلى عدم البصر عدم البصيرة.
5 في هذا إشارة إلى أنّ عدم هدايتهم يكن خارجاً عن إرادتهم ولكن كان باستحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم للدنيا على الآخرة.

(2/476)

- 3- تعليم رسول الله طريق الحجاج والرد على الخصوم المشركين.
4- انتفاء الظلم عن الله تعالى، وإثباته للإنسان لنفسه.
وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48)

شرح الكلمات:

- يحشرهم: أي نبعثهم من قبورهم ونجمعهم لساحة فصل القضاء.
كأن لم يلبثوا: أي في الدنيا أحياء في دورهم وأمواتاً في قبورهم.
أو نتوفينك: أي نميتك قبل ذلك.
فإذا جاء رسولهم: أي في عرصات القيامة.
بالقسط: أي بالعدل.
متى هذا الوعد: أي بالعذاب يوم القيامة.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى {ويوم يحشرهم} أي اذكر لهم يوم نحشرهم من قبورهم بعد بعثهم أحياء {كأن لم يلبثوا} 1 في الدنيا أحياء في دورهم وأمواتاً في قبورهم. {إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم} 2 أي ليرى بعضهم بعضاً

1 أصلها: كأنهم ثم خفت: أي كأنهم لم يلبثوا في قبورهم.
2 الجملة في موضع نصب على الحال. وتعارفهم هذا في عرصات القيامة إنما هو تعارف توبيخ وافتضاح فيقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وحملتني على الكفر، ثم تنقطع المعرفة عند معاينتهم العذاب يوم القيامة.

(2/477)

ساعة ثم يحول بينهم هول الموقف، وقوله تعالى {قد خسر الذين كذبوا بقاء الله} وما كانوا مهتدين { يخبر تعالى أن الذين كذبوا بالبعث الآخر والحساب والجزاء الأخروي فلم يرجوا لقاء الله فيعملوا بمحابه وترك مساخطه قد خسروا في ذلك اليوم أنفسهم وأهليهم في جهنم، وقوله {وما كانوا مهتدين} أي في حياتهم حيث انتهوا إلى خسران وعذاب أليم.
وقوله تعالى {وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك} 2 أي إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل ذلك فعلى كل حال مرجعهم إلينا جميعاً بعد موتهم، فنحاسبهم ونجازيهم بحسب سلوكهم في الدنيا الخير بالخير والشر بمثله، وقوله تعالى {ثم الله شهيد على ما يفعلون} 3 تقرير وتأكيد لمجازاتهم يوم القيامة لأن علم الله تعالى بأعمالهم وشهادته عليها كافٍ في وجوب تعذيبهم. وقوله تعالى {ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون} أي ولكل أمة من الأمم رسول أرسل إليها وبلغها فأطاع من أطاع وعصى من عصى فإذا جاء رسولها في عرصات القيامة قضي بينهم أي حوسبوا أو جوزوا بالقسط أي بالعدل وهم لا يظلمون بنقص حسنات المحسنين ولا بزيادة سيئات المسيئين. وقوله تعالى {ويقولون} أي المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، {متى هذا الوعد} 4 أي بالعذاب يوم القيامة. {إن كنتم صادقين} يقولون هذا استعجالاً للعذاب لأنهم لا يؤمنون به. والجواب في الآية التالية.
هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة.
- 2- الإعلان عن خسران منكري البعث يوم القيامة.

1 أي: يوم العرض عليه بين الخلائق.
2 وإما أصلها إن الشرطة وما الزائدة لتقوية الكلام و {بعض الذي نعدهم} هو عذاب الدنيا كما هو إظهار الدين ونصرته صلى الله عليه وسلم.

- 3 أي: بعد وفاتك، فانه عز وجل خليفتك فيهم وسوف يجزيهم بحسب كسبهم خيراً وشرّاً.
4 أي: متى العذاب، أو متى القيامة التي يعدنا بها محمد صلى الله عليه وسلم.

(2/478)

3- تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر حتى يؤدي رسالته بإعلامه بأنه سيعذب أعداءه.

4- بيان كيفية الحساب يوم القيامة بأن يأتي الرسول وأمه ثم يجزي الحساب بينهم فينجي الله المؤمنين ويعذب الكافرين.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَيَسْتَتَبُّونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53)

شرح الكلمات:

لنفسي ضرّاً: أي لا أقدر على دفع الضر إذا لم يُعني الله تعالى.

ولا نفعاً: أي لا أقدر على أن أجلب لنفسي نفعاً إذا لم يُرده الله تعالى لي.

لكل أمة أجل: أي وقت معين لهلاكها.

فلا يستأخرون ساعة: أي عن ذلك الأجل.

ولا يستقدمون: أي عليه ساعة.

قل أرايتم: أي قل لهم أخبروني.

أنتم إذا ما وقع: أي حل العذاب.

عذاب الخلد: أي الذي يخلدون فيه فلا يخرجون منه.

ويستتبونك: أي ويستخبرونك.

قل إي: أي نعم.

وما أنتم بمعجزين: أي بفاتنين العذاب ولا ناجين منه.

(2/479)

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الرد على المشركين فقد طالبوا في الآيات السابقة بالعذاب فقالوا {متى هذا الوعد} أي بالعذب {إن كنتم صادقين} فأمر الله تعالى رسوله في هذه الآيات أن يقول لهم إني {لا أملك لنفسي ضراً} أي لا أملك دفع الضر عني، ولا جلب النفع لي إذا لم يشأ الله تعالى ذلك، فكيف أعلم الغيب وأعرف متى يأتيكم العذاب كما لا أقدر على تعجيله إن كان الله يريد تأجيله، واعلموا أنه لكل أمة من الأمم أجل أي وقت محدد لهلاكها وموتها فيه، فلا يتأخرون عنه ساعة ولا يتقدمون عليه بأخرى فلذا لا معنى لمطالبتكم بالعذاب. وشيء آخر رأيتم أي أخبروني إن أتاكم العذاب الذي تستعجلونه بيئاتاً 1 أي ليلاً أو نهاراً أنطبقونه وتقذرون على تحمله إذاً فماذا تستعجلون منه أيها المجرمون 2 إنكم تستعجلون أمراً عظيماً. وقوله تعالى {أنتم إذا ما وقع آمنتم به؟} 3 أي اتستمرون على التكذيب والعناد، ثم إذا وقع آمنتم به، وهل ينفعكم إيمانكم يومئذ؟ فقد يقال لكم توبيخاً وتقريعاً الآن مؤمنون به، وقد كنتم به تستعجلون.

وقوله تعالى {ثم 4 قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون؟} يخبر تعالى أنه إذا دخل المجرمون النار وهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ذوقوا - تهكماً بهم - عذاب الخلد أي العذاب الخالد الذي لا يفني ولا يبيد إنكم ما تجزون أي ما تتأبون إلا بما كنتم تكسبون من الشرك والمعاصي. وقوله تعالى: {ويستنبئونك أحق هو؟} أي ويستخبرك المشركون المعاندون قائلين لك أحق ما تعدنا به من العذاب يوم القيامة؟ أجبهم بقولك {قل إي وربي 5 إنه لحق، وما أنتم بمعجزين} الله ولا فائتيه بل لا بد وأن يلجئكم إلى العذاب إجماعاً، ويذيقكموه عذاباً أليماً دائماً وأنتم صاغرون.

1 البيئات: اسم مصدر ليلاً كالسلام للتسليم.

2 المجرمون: أصحاب الجرم الذي هو الشرك والقائلون متى هذا الوعد من كفار مكة.

3 {أنتم} الهمزة للاستفهام وقدمت على ثم العاطفة، لأن لها حق الصدارة والتقدير: ثم إذا وقع، والمستفهم عنه هو حصول الإيمان في وقت وقوع العذاب، وهو غير نافع لصاحبه فكيف ترضونه أنتم لأنفسكم.

4 {ثم}: حرف عطف، وهي هنا للتراخي الرتبي فهذا يقال للمشركين عند دخولهم النار وهو من باب التهكم بهم والتقريع لهم، وإعلامهم بما لا يستطيعون دفعه بحال: {هل تجزون إلا ما كنتم تعملون} والقائلون هم خزنة جهنم.

5 {إي}: كلمة تحقيق وإيجاب، وتأکید هي بمعنى (نعم) {وربي} قسم جوابه: {إنه لحق} أي: هو كائن لا شك فيه ولا محالة من وقوعه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا يملك أحد من الخلق لنفسه فضلاً عن غيره ضراً يدفعه ولا نفعاً يجلبه إلا بإذن الله تعالى ومشيئته، وخاب الذين يُعولون على الأولياء في جلب النفع لهم ودفع الشر عنهم.
- 2- الآجال محدودة لا تتقدم ولا تتأخر فلذا لا معنى للجبن من العبد.
- 3- لا ينفع الإيمان ولا التوبة عند معاينة العذاب أو ملك الموت.
- 4- جواز الحلف بالله إذا أريد تأكيد الخبر.
- 5- إي حرف إجابة وتقرن دائماً بالقسم نحو إي والله، إي وربّي.
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْفِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَالْيَهُ تُرْجَعُونَ (56) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58)

شرح الكلمات:

لافتدت به : لقدمته فداء لها.

وأسروا الندامة : أخفوها في أنفسهم على ترك الإيمان والعمل الصالح.

وقضي بينهم بالقسط : أي حكم الله بينهم بالعدل.

وعد الله حق: أي ما يعدهم الله به هو كائن حقاً.

(2/481)

موعظة من ربكم : أي وصية من ربكم بالحق والخير، وباجتناب الشرك والشر.

وهدى : أي بيان لطريق الحق والخير من طريق الباطل والشر.

فضل الله ورحمته: ما هداهم إليه من الإيمان والعمل الصالح، واجتناب الشرك والمعاصي.

فبذلك فليفرحوا: أي فبالإيمان والعمل الصالح بعد العلم والتقوى فليسرروا وليستبشروا.

هو خير مما يجمعون : أي من المال والحطام الفاني.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان أن ما وعد الله تعالى به المشركين من العذاب هو آت لا محالة إن لم يؤمنوا

وانه عذاب لا يطاق فقال تعالى {ولو أن لكل نفس ظلمت} أي نفسها بالشرك والمعاصي، لو أن لها ما في الأرض من مال صامت وناطق وقبل منها لقدمته فداء 1 لها من العذاب، وذلك لشدة العذاب. وقال تعالى عن الكافرين وهم في عرصات القيامة وقد رأوا النار {وأسروا الندامة لما رأوا العذاب} 2 أي أخفوها في صدورهم ولم ينطقوا بها وهي ندمهم الشديد على عدم إيمانهم وإتباعهم للرسول صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى {وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون} أي وقضى الله تعالى أي حكم بين الموحدين والمشركين والظالمين والمظلومين 3 بالقسط الذي هو العدل الإلهي والحال أنهم لا يظلمون بأن يؤخذوا بما لم يكتسبوا. وقوله تعالى {ألا إن الله ما في السموات والأرض} أي انتبهوا واسمعوا أيها المشركون إن الله ما في السموات والأرض من سائر المخلوقات ملكاً حقيقياً لا يملك معه أحد شيئاً من ذلك فهو يتصرف في ملكه كما يشاء يعذب ويرحم يشقي ويسعد لا اعتراض عليه إلا أن وعد الله حق أي تنبهوا مرة أخرى واسمعوا إن وعد الله أي ما وعدكم به من العذاب حق ثابت لا يتخلف. وقوله تعالى: {ولكن أكثرهم لا يعلمون}.

1 ولكن لا يقبل منها كما قال تعالى: {إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به}.

2 إسراهم الندامة كان عند معاينة العذاب، وقبل الدخول فيه، والندامة: الحسرة على وقوع مكروه أو فوات محبوب.

3 وبين الرؤساء والمرؤوسين، أي: بين المتبوعين والتابعين لهم.

4 {ألا}: كلمة استفتاح وتنبية يؤتى بها في أول الكلام، معناها: انتبهوا لما أقول لكم.

(2/482)

إذ لو علموا أن العذاب كائن لا محالة وعلموا مقدار هذا العذاب ما كفروا به وقوله تعالى {هو يحيي ويميت وإليه ترجعون} يخبر تعالى عن نفسه أنه يحيي ويميت ومن كان قادراً على الإحياء والإماتة فهو قادر على كل شيء، ومن ذلك إحياء الكافرين بعد موتهم وحشرهم إليه ومجازاتهم على ما كسبوا من شر وفساد وقوله {إليه ترجعون} تقرير مبدأ المعاد الآخر. بغد هذه التقارير لقضايا العقيدة الثلاث: التوحيد، والنبوة، والبعث والجزاء نادى الله تعالى العرب والعجم سواء قائلاً لها أيها الناس قد جاءتكم موعظة 1 من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين} وكل من الموعظة التي هي الأمر والنهي بأسلوب الترغيب والترهيب والشفاء والهدى والرحمة قد حواها القرآن الكريم كأنه قال يا أيها الناس وفيكم الجاهل والفاسق والمريض بالشرك والكفر والضال عن الحق، والمعذب في جسمه ونفسه قد جاءكم القرآن يحمل كل ذلك لكم فأمنوا به واتبعوا النور الذي يحمله وتداواوا به

واهتدوا بنوره تشفوا وتكملوا عقلاً وخلقاً وروحاً وتسعدوا في الحياتين معاً.
وقوله تعالى {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك² فليفرحوا هو خير مما يجمعون} أي بلّغهم يا رسولنا
أمراً إياهم بأن يفرحوا³ بالإسلام وشرائعه والقرآن وعلومه فإن ذلك خير مما يجمعون من حطام الدنيا
الفاني، وما يعقب من آثار سيئة لا تحتل ولا تطاق.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عظم عذاب يوم القيامة حتى إن الكافر ليود أن يفندى منه بما في الأرض جميعاً.
- 2- تقرير ربوبية الله تعالى لسائر المخلوقات في العالمين العلوي والسفلي.
- 3- الإشادة بفضل القرآن وعظمته لما يحمله من المواعظ والهدى والرحمة والشفاء.
- 4- يستحب الفرح بالدين ويكره الفرح بالدنيا.

1 المراد بالموعظة وما بعدما من الصفات القرآن الكريم إذ هو الجامع لكل ما ذكر، وإنما عطف
المذكورات لتأكيد المدح. كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

2 قال أبو سعيد الخدري وابن عباس: فضل الله: القرآن، ورحمته الإسلام، وصحت الإشارة بذلك إلى
الاثنتين لأنّ العرب تشير بذلك إلى المفرد والتمثي والجمع.

3 روي أن من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكها الفاقة (الفقر) كتب الله الفقر بين عينيه إلى
يوم يلقاه ثم تلا: {قل بفضل الله} الآية.

(2/483)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَمْ أَذِّنْ لَكُمْ أَنْ عَلَى اللَّهِ
تَقَرُّونَ (59) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)

شرح الكلمات:

أرأيتم: أي أخبروني.

ما أنزل الله لكم من رزق: أي الذي خلق لكم من رزق كلحوم الأنعام.

ءالله أذن لكم: أي في التحريم حيث حرمت البحيرة والسائبة وفي التحليل حيث أحللت الميتة.

يفترون على الله الكذب : أي يختلقون الكذب تزويراً له وتقديراً في أنفسهم.

وما تكون في شأن: أي في أمر عظيم.

شهوداً إذ تفيضون فيه: أي تأخذون في القول أو العمل فيه.

وما يعزب عن ربك : أي يغيب.

من مثقال ذرة: أي وزن ذرة والذرة أصغر نملة.

إلا في كتاب مبين: أي اللوح المحفوظ ومبين أي واضح.

معنى الآيات:

سياق الآيات في تقرير الوحي وإلزام المنكرين له من المشركين بالدليل العقلي قال

(2/484)

تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء المشركين 1 {أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق} أي أخبروني عما خلق الله لكم من نبات وطعام وحرث فجعلتم منه حراماً كالبحيرة والسائبة والثياب التي تحرمون الطواف بها والحرث الذي جعلتموه لالهتكم، وحلال كالميتة التي تستبيحونها {ءالله أذن لكم} 2 في هذا التشريع بوحي منه {أم على الله تفترون} فإن قلتم الله أذن لنا بوحي فلم تتكروا الوحي وتكذبون به، وإن قلتم لا وحي ولكننا نكذب على الله فموقفكم إذاً شر موقف إذ تفترون على الله الكذب والله تعالى يقول: {وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة} أي إذا هم وقفوا بين يديه سبحانه وتعالى ما ظنهم أيغفر لهم ويعفى عنهم لا بل يلعنون وفي النار هم خالدون وقوله تعالى {إن الله لنو فضل على الناس} في كونه لا يعجل لهم العقوبة وهم يكذبون عليه ويشركون به ويعصونه ويعصون رسوله، {ولكن أكثرهم لا يشكرون} 3 وذلك لجهلهم وسوء التربية الفاسدة فيهم، وإلا العهد بالإنسان أن يشكر لأقل معروف وأتفه فضل.

وقوله تعالى {وما تكون في شأن} 4 وما تتلو منه من قرآن} أي وما تكون يا رسولنا في أمر من أمور الهامة وما تتلو من القرآن من آية أو آيات في شأن ذلك الأمر {إلا كنا} أي نحن رب العزة والجلال {عليكم شهوداً} أي حضوراً {إذ تفيضون فيه} 5 أي في الوقت الذي تأخذون فيه، وقوله تعالى {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة} 6 في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} يخبر تعالى عن سعة علمه تعالى وإحاطته بسائر مخلوقاته بحيث لا يعزب أي لا يغيب عن علمه تعالى مثقال ذرة أي وزن ذرة وهي النملة الصغيرة وسواء كانت في الأرض أو في السماء، وسواء كانت أصغر من النملة أو

- 2 الاستفهام تقريرى مشوب بالإنكار عليهم أيضاً. وعبر عن إعطائهم الرزق بإنزاله لهم، لأنّ أرزاقهم من حبوب وثمار وأنعام كلها متوفقة على المطر النازل من السماء حتى سمي العرب ببني ماء السماء. وشاهده قوله تعالى {فليُنظر الإنسان إلى طعامه أتأ صبينا الماء صباً..} الآية.
- 3 بذكره وعبادته وحده بما شرع أن يعبد به، وعلّة عدم الشكر، انظرها في التفسير.
- 4 الشأن والجمع شؤون: الخطب والأمر الهام، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والأمة معه وقدم صلى الله عليه وسلم لعلو شأنه وسمو مقامه صلى الله عليه وسلم.
- 5 الإفاضة في العمل: الشروع والدخول فيه.
- 6 الذرة: النملة الصغيرة، أو الهبأة التي تُرى في ضوء الشمس.

(2/485)

أكبر منها. بالإضافة إلى أن ذلك كله في كتاب مبين أي في اللوح المحفوظ. لهذا العلم والقدرة والرحمة استوجب التأليه والعبادة دون سائر خلقه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير الوحي وإثباته للنبي صلى الله عليه وسلم.
 - 2- التحريم والتحليل من حق الله تعالى دون سائر خلقه.
 - 3- حرمة الكذب على الله، وإن صاحبه مستوجب للعذاب.
 - 4- ما أعظم نعم الله تعالى على العباد ومع هذا فهم لا يشكرون إلا القليل منهم
 - 5- وجوب مراقبة الله تعالى، وحرمة الغفلة في ذلك.
 - 6- إثبات اللوح المحفوظ وتقريره كما صرحت به الآيات والأحاديث.
- أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

شرح الكلمات:

ألا : أداة استفتاح وتنبيه.

إن أولياء الله : جمع وليّ وهو المؤمن النقي بشرط أن يكون إيمانه وتقواه على نور من الله.
لا خوف عليهم : أي لا يخافون عند الموت ولا بعده، ولا هم يحزنون على ما تركوا بعد موتهم.
آمنوا : أي صدقوا بالله وبما جاء عن الله ورسول الله وبما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ينقون: أي ما يسخط الله تعالى من ترك واجب أو فعل حرام.

لهم البشرى: أي بالجنة في القرآن الكريم وعند الموت وبالرؤيا الصالحة يراها أو ترى له.
لا تبديل لكلمات الله: أي لوعده الذي يعده عباده الصالحين، لأن الوعد بالكلمة وكلمه الله لا تبدل.
الفوز: النجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآيات:

يخبر تعالى مؤكداً الخبر بأداة التنبيه {ألا} وأداة التوكيد {إن} فيقول: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} أي لا يخافون عند الموت ولا في البرزخ ولا يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما يتركون وراءهم بعد موتهم ولا في الدار الآخرة وبين تعالى أولياءه وعرف بهم فقال: {الذين آمنوا وكانوا يتقون}2 أي آمنوا به وبرسوله وبكل ما جاء به رسوله عن ربه، وكانوا يتقون طوال حياتهم وسائر ساعاتهم سخط الله تعالى فلا يتركون واجباً هم قادرون على القيام به، ولا يعشون محرماً لم يُكرهوا عليه. وقوله تعالى: {لهم البشرى} في الحياة الدنيا3 وفي الآخرة: أي لهم بشرى ربهم في كتابه برضوانه ودخول الجنة ولهم البشرى بذلك عند الاحتضار تبشرهم الملائكة برضوان الله ورجته وفي الآخرة عند قيامهم من قبورهم تتلقاهم الملائكة بالبشرى.

وقوله تعالى: {لا تبديل لكلمات الله}4 وهو تأكيد لما بشرهم، إذ تلك البشرى كانت بكلمات الله وكلمات الله لا تتبدل فوعد الله إذاً لا يتخلف.

1 الولي: مشتق من الولي بسكون اللام الذي هو القرب، ومتى زكت نفس المؤمن بالإيمان والعمل الصالح، وتخليها عن الشرك، والمعاصي قُرب من الله تعالى فوالاه، ومن آيات الولاية: استجابة الدعاء وهرمن الكرامات التي يكرم الله تعالى بها أولياءه وفي الحديث: "الذين يُدَكِّرُ الله برؤيتهم" وفي لفظ. "الذين إذا رُؤوا ذُكر الله" وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء، والشهداء. قيل من هم يا رسول الله؟ لنا نحبهم؟ قال: هم قوم تخابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ: {ألا إن أولياء الله} الآية.

2 الجملة مستأنفة استئنفاً بيانياً أي: كأنما سائل قال: مَنْ هم أولياء الله؟ فأجيب: الذين آمنوا وكانوا يتقون."

3 لحديث: "انقطع الوحي ولم يبق إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها البد المؤمن أو تُرى له."

4 كلمات الله هي: التي بها مواعيده ولذا فما يباشر الله تعالى به أوليائه هو كائن لا محالة إذ مواعيده لا تتبدل ووعوده لا تخلف.

(2/487)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- ولاية الله تعالى بطاعته وموافقته في محابه ومكارهه فمن آمن إيماناً يرضاه الله، واتقى الله في أداء الفرائض واجتنب المناهي فقد صار ولي الله والله وليه.
- 2- البشرى هي ما يكرم الله به برؤياصالحة يراها الولي أو ترى له.
- 3- الأولياء هم أهل الإيمان والتقوى فالكافر والفاجر لا يكون ولياً أبداً، إلا إذا آمن الكافر، وبرّ الفاجر بفعل الصالحات وترك المنهيات.
- 4- صدق إخبار الله تعالى وعدالة أحكامه، وسر ولايته إذ هي تدور على موافقة الرب تعالى فيما يجب من الاعتقادات والأعمال والأقوال والذوات والصفات وفيما يكره من ذلك فمن وافق ربه فقد والاه ومن خالفه فقد عاداه.

وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

شرح الكلمات:

لا يحزنك : أي لا يجعلك قولهم تحزن.

إن العزة لله : العزة الغلبة والقهر.

شركاء : أي شركاء بحق يملكون مع الله لعابديهم خيراً أو يدفعون عنهم ضرراً.

إلا الظن: الظن أضعف الشك.

(2/488)

يخرسون: أي يحزرون ويكذبون.

لتسكنوا فيه: أي تخلدوا فيه إلى الراحة والسكون عن الحركة.

مبصراً: أي مضيئاً ترى فيه الأشياء كلها.

في ذلك: أي من جَعَلَهُ تعالى الليل سكناً والنهار مبصراً لآيات.
يسمعون: أي سماع إجابة وقبول.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير قضايا التوحيد الثلاث التوحيد والنبوة والبعث قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم {ولا يحزنك قولهم} أي لا يجعلك قول المشركين المفترين {لست مرسلًا} وأنتك {شاعر مجنون} تحزن فإن قولهم هذا ينتج لهم إلا سوء العاقبة والهزيمة المحتممة، {إن العزة لله جميعاً}1 فربك القوى القادر سيهزمهم وينصرك عليهم. إذا فاصبر على ما يقولون ولا تأس ولا تحزن. إنه تعالى هو السميع لأقوال عباده العليم بأعمالهم وأحوالهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم. {ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض} خلقاً وملكاً وتصرفاً، كل شيء في قبضته وتحت سلطانه وقهره فكيف تبالي بهم يا رسولنا فتحزن لأقوالهم {وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء} أي آلهة حقاً بحيث تستحق العبادة لكونها تملك نفعاً أو ضرراً، موتاً أو حياة لا بل ما هم في عبادتها متبعين إلا الظن {وإن هم إلا يخرصون} أي يتقولون ويكذبون. وقوله تعالى {هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً} أي الإله الحق الذي يجب أن يدعى ويعبد الله الذي جعل لكم أيها الناس ليلاً مظلماً لتسكنوا فيه فتستريحوا من عناء العمل في النهار. وجعل لكم النهار مبصراً أي مضيئاً لتتمكنوا من العمل فيه فتوفروا لأنفسكم ما تحتاجون إليه في حياتكم من غذاء وكساء وليست تلك الآلهة من أصنام وأوثان بالتي تستحق الألوهية فتُدعى وتُعبَد. وقوله {إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون}4 أي إن فيما

1 أي: القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، والقدرة التامة لله وحده، والعزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، والقوي الذي لا يُحال بينه وبين مراده. و{جميعاً} منصوب على الحال، وعزة المؤمنين هي بعزة الله فلا منافاة إذاً.

2 من الآية استدلال على عزته تعالى وملكه لكل شيء وقدرته وتصرفه في كل شيء وهو ما أوجب له العبادة دون ما سواه.

3 يقال أبصر النهار، إذا صار ضياءً، وأظلم الليل إذا صار ظلاماً.

4 الجملة المستأنفة، والآيات: الدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، والدلالة تكون مرئية ومسموعة ومعقولة، وعليه فالأعمى والأصم وغير العاقل لا يستفيدون منها فهذه علة عدم استفادة المشركين من الآيات لفقدهم آلات العقل والسمع والبصر، إذ فسدت بالجهل والتقليد والعناد والمكابرة والجحود.

ذكر تعالى من كماله وعزته وقدرته وتدبيره لأمر خلقه آيات علامات واضحة على أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره، ولكن يرى تلك الآيات من يسمع سماع قبول واستجابة لا من يسمع الصوت ولا يفكر فيه ولا يتدبر عانيه فإن مثله أعمى لا يبصر وأصم لا يسمع.
هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- على المؤمن الداعي إلى الله تعالى أن لا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا ينقطع عن دعوته، وليعلم أن العزة لله جميعاً وسوف يعزه بها، وبذل أعداءه.

2- ما يُعبد من دون الله لم يقم عليه عابده أي دليل ولا يملكون له حجة وإنما هم مقلدون يتبعون الظنون والأوهام.

3- مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والتدبير كافية في إثبات العبادة له ونفيها عما سواه.
قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا
أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي
الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

شرح الكلمات:

سبحانه : أي تنزهه عن النقص وتعالى أن يكون له ولد.

الغنيُّ : أي الغنى المطلق بحيث لا يفتقر إلى شيء.

إن عندكم من سلطان : أي ما عندكم من حجة ولا برهان.

بهذا : أي الذي تقولونه وهو نسبة الولد إليه تعالى.

متاع في الدنيا : أي ما هم فيه اليوم هو متاع لا غير وسوف يموتون ويخسرون.

(2/490)

كل شيء.

يكفرون : أي بنسبة الولد إلى الله تعالى، وعبادتهم غير الله. سبحانه وتعالى.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تحقيق التوحيد وتقريره بإبطال الشرك وشبهه فقال تعالى: {قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه} أي قال المشركون أن الملائكة بنات الله 1 وهو قول مؤسف محزن للرسول صلى الله عليه وسلم كقولهم له {لست مرسلًا}، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الحزن من جراء أقوال المشركين

الفاصلة الباطلة. ونزه الله تعالى نفسه عن هذا الكذب فقال سبحانه، وأقام الحجة على بطلان قول المشركين بأنه هو العَنَى العَنَى الذاتي الذي لا يفنقر معه إلى غيره فكيف إذاً يحتاج إلى ولد أو بنت فيستغني به وهو الغني الحميد، وبرهان آخر على غناه أن له ما في السموات وما في الأرض الجميع خلقه وملكه فهل يعقل أن يتخذ السيد المالك عبداً من عبيده ولداً له. وحجة أخرى هل لدى الزاعمين بأن الله ولداً حجة تثبت ذلك والجواب لا، لا. قال تعالى مكدباً إياهم : {إن عندكم من سلطان بهذا}2 أي ما عندكم من حجة ولا برهان بهذا الذي تقولون ثم وبخهم وقرعهم بقوله: {أتقولون على3 الله ما لا تعلمون؟} وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول معلناً عن خيبة الكاذبين وخسرانهم: {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون}4 إن قيل كيف لا يفلحون وهم يتمتعون بالأموال والأولاد والجاه والسلطة أحياناً فالجواب في قوله تعالى {متاع في الدنيا}5 أي ذلك متاع في الدنيا، يتمتعون به إلى نهاية أعمارهم، ثم إلى الله تعالى مرجعهم جميعاً، ثم يذيقهم العذاب الشديد الذي ينسون معه كل ما تمتعوا به في الحياة الدنيا، وعلل

- 1 وقال اليهود: عزيز بن الله وقال النصارى عيسى بن الله والكل مفتر كذاب، ولا شك أن الشيطان هو الذي زين لهم هذا الباطل ليغويهم فيضلهم ويهلكهم.
- 2 إن نافية بمعنى: (ما) كما هي في التفسير أي: ما عندكم من حجة تثبت ما ادعيتموه وتلزم به لقوتها كقوة ذي السلطان.
- 3 الاستفهام للتوبيخ والتفريع بجهلهم وكذبهم إذ الولد يتطلب المجانسة والمشابهة بينه وبين من ينسب إليه وأين ذلك؟ والله ليس كمثلته شيء إذ هو خالق كل شيء.
- 4 الفلاح: الفوز، والفوز هي السلامة من المرهوب والظهر بالمحبوب المرغوب، والمفترون على الله الكذب لا ينجون من النار ولا يدخلون الجنة فهم إذا خسروا غير مفلحين.
- 5 هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها جواب سؤال هو: كيف لا يفلحون وهم في عزة وقدرة وسلطان فيجاب السائل: بأن هذا متاع في الدنيا زائل لا قيمة له، بالمقابلة بالفلاح المنتقي عنهم وهو فلاح الآخرة.

(2/491)

تعالى ذلك العذاب الشديد الذي أذاقهم بكفرهم فقال: {بما كانوا يكفرون} 1 أي يجحدون كمال الله وغناه فنسبوا إليه الولد والشريك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- كفر من ينسب إلى الله تعالى أي نقص كالولد والشريك أو العجز مطلقاً.
- 2- كل دعوى لا يقيم لها صاحبها برهاناً قاطعاً وحجة واضحة فلا قيمة لها ولا يحفل بها.
- 3- أهل الكذب على الله كالدجالين والسحرة وأهل البدع والخرافات لا يفلحون ونهايتهم الخسران.
- 4- لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بما يرى عليه أهل الباطل والشر من المتع وسعة الرزق وصحة البدن فإن ذلك متاع الحياة الدنيا، ثم يؤول أمرهم إلى خسران دائم.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73)

شرح الكلمات:

واتل عليهم نبأ نوح: أي اقرأ على المشركين نبأ نوح أي خبره العظيم الخطير.

1 الباء في {بما كانوا يكفرون} للتعليل الذي هو السببية أي : بسبب كفرهم، إذ الكفر خبث نفوسهم فاستوجبوا النار وعذابها.

(2/492)

كبر عليكم مقامي : أي عظم عليكم مقامي بينكم أدعو إلى ربي.

فأجمعوا أمركم : أي اعزموا عزمًا أكيدًا.

غمّة: أي خفاء ولبسًا لا تهتدون منه إلى ما تريدون.

ثم اقضوا إلي: أي انفذوا أمركم.

ولا تنظرون: أي ولا تمهلون رحمة بي أو شفقة علي.

فإن توليتم : أي أعرضتم عما أدعوكم إليه من التوحيد.

في الفلك: أي في السفينة.

خلائف: أي يخلف الآخر الأول جيلًا بعد جيل.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية المشركين بالرد على دعاوهم وبيان الحق لهم وفي هذه الآيات يأمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليهم طرفاً من قصة نوح مع قومه المشركين الذين كانت حالهم كحال مشركي العرب سواء بسواء وفي قراءة هذا القصص فائدتان الأولى تسليّة

الرسول وحمله على الصبر، والثانية تنبيه المشركين إلى خطيئهم، وتحذيرهم من الاستمرار على الشرك والعصيان فيحل بهم من العذاب ما حل بغيرهم قال تعالى: {واتل عليهم نبأ نوح} 1 أي خبره العظيم الشأن وهو قوله لهم {يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي} 2 أي عظم وشق عليكم وجودي بينكم أدعوكم إلى الله، وتذكيري إياكم بآيات الله، فإني 3 توكلت على الله فأجمعوا أمركم أي اعزموا أكيداً وادعوا أيضاً شركاءكم للاستعانة بهم، ثم أحذركم أن يكون أمركم عليكم غمة أي 4 خفياً ملتبساً عليكم فيجعلكم تترددون في إنفاذ ما عزمتم عليه، ثم اقضوا 5 إلي ما تريدون من قتلي أو نفعي ولا

1 {اتل} فعل أمر حذفته منه الواو لبنائه على حذفها إذ ماضيه تلا ومضارعه يتلو، والأمر: اتل بمعنى اقرأ، والتلاوة: موالاة الكلمات والقراءة جمعها.

2 المقام: بفتح القاف، موضع القيام، والمقام بالضم الإقامة، ومعنى كبر: ثقل وعظم.

3 هذه الجملة {فعلى الله توكلت} هي جواب الشرط الذي هو: فان كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله التي هي دلائل فضله ودلائل وحدانيته تعالى.

4 الغمة والغم بمعنى واحد، ومعناه التغطية والستر ومنه: غم الهلال إذا استتر، قال الشاعر:

لعمرك ما أمري عليّ بغمّة ... نهاري ولا ليالي عليّ بسرمد

وأصل الغم: مشتق من الغمامة، وكل أمر مبهم ملتبس فهو غمة.

5 أي: أنفذوا ما حكتم به عليّ من قتلي إن أردتم ذلك.

(2/493)

تتظرون أي لا تؤخروني أي تأخير. وقوله تعالى: {فإن توليتم} أي عرضتم عن دعوتي وتذكيري ولم تقبلوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، فما سألتكم عليه من أجر أي ثواب، حتى تتولوا. إن أجري إلا على ربي الذي أرسلني وكلفني. وقد أمرني أن أكون من المسلمين له قلوبهم ووجوههم وكل أعمالهم فأنا كذلك كل عملي له فلا أطلب أجراً من غيره قال تعالى: {فكذبوه} أي دعاهم واستمر في دعائهم إلى الله زماناً غير قصير وكانت النهاية: أن كذبوه، ودعانا لنصرته فنجيناها ومن معه من المؤمنين في السفينة وجعلناهم خلائف 1 لبعضهم بعضاً أي يخلف الآخر الأول، وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها عبدنا نوحاً فانظر يا رسولنا كيف كان عاقبة المنذرين الذين لم يقبلوا النصح ولم يستجيبوا للحق إنها عاقبة وخيمة إذ كانت إغراقاً في طوفان وناراً في جهنم وخسراناً قال تعالى في سورة نوح: {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تسليية الدعاة بمثل موقف نوح العظيم إذ قال لقومه: أجمعوا أمركم ونفدوا ما تريدون إني توكلت على الله.

2- ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة.

3- دعوة الله لا ينبغي أن يأخذ الداعي عليها أجراً إلا للضرورة.

4- بيان سوء عاقبة المكذبين بعد إنذارهم وتحذيرهم.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75)

1 جمع خليفة وهو اسم لمن يخلف غيره.

(2/494)

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (78)

شرح الكلمات:

بالبيئات : أي بالحجج الواضحات على صدق دعوتهم، وما يدعون إليه من توحيد الله تعالى.

نطبع: الطبع على القلب عبارة عن تراكم الذنوب على القلب حتى لا يجد الإيمان إليه طريقاً.

المعتدين : الذين تجاوزوا الحد في الظلم والاعتداء على حدود الشرع.

الحق: .: الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام وهي تسع.

لتلفتنا: لتصرفنا وتحول وجوهنا عما وجدنا عليه آبائنا.

الكبرياء: أي العلو والسيادة والملك على الناس.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة نوح عليه السلام وأبرز فيها مظهر التوكل على الله تعالى من نوح ليقنتى به، ومظهر نصره الله تعالى لأولياته وهزيمته أعدائه ذكر هنا سنة من سننه في خلقه وهي أنه بعث من بعد نوح رسلاً كثيرين 1 إلى أممهم فجاءوهم بالبيئات أي بالحجج والبراهين على صدقهم وصحة ما جاءوا به ودعوا إليه من توحيد الله، فما كان أولئك الأقسام ليؤمنوا بما كذب به من سبقهم من أمة نوح. قال تعالى: {كذلك نطبع على 2

- 1 كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم.
- 2 {نطبع} نختم، إذ الختم والطبع واحد، والطبع يكون بالخاتم.

(2/495)

قلوب المعتدين} هذا بيان سنة الله تعالى في البشر وهي أن العبد إذا أذنب وواصل الذنب بدون توبة يصبح الذنب طبعاً من طباعه لا يمكنه أن يتخلى عنه، وما الذنب إلا اعتداء على حدود الشارع فمن اعتدى واعتدى وواصل الاعتداء حصل له الطبع وكان الختم على القلب فيصبح لا يقبل الإيمان ولا يعرف المعروف ولا ينكر المنكر. وقوله تعالى: {ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون} 1 أي من بعد الأمم الهالكة بعثنا رسولينا موسى وهرون ابني عمران إلى فرعون وملئه بآياتنا المتضمنة الدليل على صحة مطلب رسولينا وهو توحيد الله وإرسال بني إسرائيل معهما، {فاستكبروا} أي فرعون وملؤه {وكانوا قوماً مجرمين} حيث أفسدوا القلوب 2 والعقول وسفكوا الدماء وعذبوا الضعفاء يقول تعالى عنهم {فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين} أي لما بهرتهم المعجزات وهي آيات موسى وأبطلت إفكهم قالوا إن هذا لسحر مبين تخلصاً من الهزيمة التي لحقتهم، فرد موسى عليهم بقوله {أتقولون للحق لما جاءكم} هذا سحر 3 ثم بعد توبيخهم استدل على بطلان قولهم بكونه انتصر عليهم فأفلق بينهم وفاز عليهم فقال: {أسحر هذا ولا يفلق الساحرون} فلو كان ما جئت به سحراً فكيف أفلحت في إبطال سحرهم وهزيمة سحرهم. فلما أفحمهم بالحجة قالوا مراوغين: {أجئتنا لتفتتنا} أي تصرفنا {عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء في الأرض} أي وتكون لكما السيادة والملك في أرض مصر فسلخوا مسلك الاتهام السياسي. وقالوا {وما نحن لكما بمؤمنين} أي بمصدقين ولا متبعين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان سنة الله في البشر وهي أن التوغل في الشر والفساد والظلم يوجب الختم على

1 أي: من بعد الرسول والأمم إذ لكل أمة رسول.

2 أفسدوا القلوب بالشرك والكفر والعقول بالسحر والأباطيل وسفكوا الدماء بقتل ذكران بني إسرائيل الصغار (المواليد).

3 مفعول {أتقولون} محذوف لدلالة الكلام عليه وهو: إن هذا لسحر مبين وتقدير الكلام أنهم لما قالوا في الآيات لسحر مبين رد عليهم موسى بقوله: أتقولون للحق لما جاءكم هذا. أسحر هذا؟ أي كيف يكون هذا الذي جئتمكم به من الآيات سحراً؟ والساحر لا يفلق وقد أفلحت فبطل أن يكون ما جئتمكم به

من الآيات سحراً للحق: اللام يسميهم بعضهم لام المجاوزة فهي بمعنى عن أي: تقولون عن الحق كذا. والظاهر أنها لام التعليل.

(2/496)

القلوب فيحرم العبد الإيمان والهداية.

2- ذم الاستبكار وأنه سبب كثير من الإجرام.

3- تقرير أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب.

4- الاتهامات الكاذبة من شأن أهل الباطل والظلم والفساد.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80)
فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ
اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

شرح الكلمات:

ساحر عليم: أي ذو سحر حقيقي له تأثير عليم بالفن.

ألقوا: أي ارموا في الميدان ما تريدون إلقاءه من ضروب السحر.

إن الله سيبيطله: أي يظهر بطلانه أمام النظارة من الناس.

ويحق الله الحق: أي يقرر الحق ويثبته.

بكلماته: أي بأمره إذ يقول للشيء كن فيكون.

المجرمون: أهل الإجرام على أنفسهم وعلى غيرهم وهم الظلمة المفسدون.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر قصة موسى بعد قصة نوح عليهما السلام في الآيات السابقة لما غلب موسى فرعون وملأه بالحجة اتهم فرعون موسى وأخاه هارون بأنهما سياسيان يريدان الملك والسيادة على البلاد لا همّ لهما إلا ذلك وكذب فرعون وهو من الكاذبين وهنا أمر

(2/497)

رجال دولته أن يحضروا له علماء السحر 1 ليبارى موسى في السحر فجمع سحرته فقال لهم موسى {ألقوا ما أنتم ملقون} 2 فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فنظر إليه موسى

وقال: { ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله 4 إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق

بكلماته ولوكره المجرمون}5 وألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- للسحر طرق يتعلم بها وله علماء به وتعلمه حرام واستعماله حرام.
 - 2- حد الساحر القتل لأنه إفساد في الأرض.
 - 3- جواز المبارزة للعدو والمباراة له إظهاراً للحق وإبطالاً للباطل.
 - 4- عاقبة الفساد وعمل أصحابه الخراب والدمار.
 - 5- متى قاوم الحق الباطل انهزم الباطل وانتصر الحق بأمر الله تعالى ووعد الصديق.
- فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) قَالُوا عَلَى اللَّهِ

1 طلب فرعون بإتيانه بالسحرة إذ قال: أئتوني بكل ساحر عليم قال هذا لما شاهد العصا واليد البيضاء فاعتقد أنها سحر فأراد أن يقابله بسحر قومه.

2 أي: اطرحوا ما معكم من حبالكم وعصايكم.

3 أي: ما أظهرتموه لنا من هذه الحبال والعصي، وقد تراعت وكأنها حيّات ووثعابين هو السحر وعلل لذلك. بقوله إن الله سيبطله وعلّة أخرى وهو أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وإظهار اسم الجلالة في التعليلين: {إن الله سيبطله} {إن الله لا يصلح عمله المفسدين} لإلقاء الروح وتربية المهابة في النفوس.

4 قال ابن عباس رضي الله عنه من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية. { ما جئتكم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين} لم يضره كيد ساحر.

5 أراد بالمجرمين: فرعون وملأه، وفي الكلام تعريض بهم، وعدل عن وصفهم بالإجرام لأنه مأمور أن يقول قولاً ليناً فاستغنى بالتعريض بدل التصريح.

(2/498)

تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

شرح الكلمات:

فما آمن لموسى : أي لم يَنقُذْ له ويتبعه.
إلا ذرية : أي طائفة قليلة من أولاد بني إسرائيل.
وملائهم: أي أشرفهم ورؤسائهم.
أن يفتنهم: أن يضطهدهم ويعذبهم.
لعال في الأرض: قاهر مُستبَدِّ.
مسلمين : مدعين منقادين لأمره ونهيه.
فتنة للقوم الظالمين : أي لا تفتنهم بنا بأن تتصرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا كفراً.
أن تبوءاً : اتخذوا لقومكما بمصر بيوتاً تبوعون إليها وترجعون.
قبلة: أي مساجد تصلون فيها.
معنى الآيات:

بعد ذلك الانتصار الباهر الذي تم لموسى على السحرة، والهزيمة المرة التي لحقت فرعون ولم يؤمن لموسى ويتابعه إلا ذرية من بني إسرائيل، وعدد قليل من آل فرعون كامراته ومؤمن آل فرعون والماشطة قال تعالى: {فما آمن لموسى إلا ذرية¹ من قومه على خوف من فرعون} أي مع خوف من فرعون أن يفتنهم وقوله: {وملائهم} عائد إلى مؤمنى آل فرعون أي مع خوف من ملائهم أي رؤسائهم وأشرفهم أن يفتنهم أيضاً، وقوله تعالى {وإن فرعون لعال في الأرض} أي إنه قاهر متسلط مستبد ظالم، {وإنه لمن

1 المراد بالذرية أولاد بني إسرائيل الشبان الذين آمنوا عند مشاهدة المباراة وانتصار موسى فيها.

(2/499)

المسرفين}1 في الظلم فلذا خافوه لما آمنوا، ولما ظهر الخوف علي بني إسرائيل قال لهم موسى {يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين}2 ففوضوا أمركم إليه إن كنتم حقاً مسلمين لله منقادين لأمره ونهيه، فأجابوا قائلين: {على الله توكلنا} وسألوا الله تعالى أن لا يفتن قوم فرعون بهم بأن ينصرهم عليهم فيزدادوا كفراً وظلماً، وضمن ذلك أن لا تسلط الظالمين علينا فيفتنونا في ديننا بصرفنا عنه بقوة التعذيب {ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين} وهذا حسن توسل منهم إذا قالوا برحمتك فتوسلوا إلى الله برحمته ليستجيب دعاءهم، والمراد من القوم الكافرين هنا فرعون وملاه. وقوله تعالى: {وأوحينا إلى موسى وأخيه} أي هارون {أن تبوءا لقومكما} 3 أي من بني إسرائيل {بمصر} أي بأرض مصر 4 {بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قبلة}5 أي متقابلة ومساجد 6 تصلون فيها {واقموا الصلاة} على الوجه الذي شرع لكم. وهذا بناء على أن بني إسرائيل

بعد الانتصار على فرعون أخذوا ينحازون من مجتمع فرعون فأمرُوا أن يكونوا حياً مستقلاً استعداداً للخروج من أرض مصر فأمرهم الرب تبارك وتعالى أن يجعلوا بيوتهم قبلة أي متقابلة ليعرفوا من يدخل عليهم ومن يخرج منهم وليصلوا فيها كالمساجد حيث منعوا من المساجد إما بتخريبها وإما بمنعهم منها ظلماً وعدواناً وقوله تعالى {وبشر المؤمنين} أي وبشر يا رسولنا 7 المؤمنين الصادقين في إيمانهم الكاملين فيه بحسن العاقبة بكرامة الدنيا وسعادة الآخرة بدخول دار السلام.

- 1 {المسرفين}: أي المجاوزين الحد في الكفر لأنه كان عبداً فادعى الربوبية.
- 2 كرر جملة الشرط تأكيداً، مبيّناً أن كمال الإيمان يقتضي التوكل على الله تعالى.
- 3 أي: اتخذها، يقال: بؤاه الدار: انزله إيّاها وأسكنه فيها. وفي الحديث "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" أي: فلينزله ملازماً له.
- 4 قيل: المراد بمصر: الأسكندرية.
- 5 في الآية دليل علي جواز صلاة الخائف المكتوبة في بيته، أمّا الناظفة فهي في البيوت أفضل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "فعلّيكُم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة".
- 6 في هذا جمع بين رأيين الأول: أن المراد من كلمة قبلة: أنها مساجد والثاني: أنها متقابلة ليتم لهم بذلك حمايتهم من عدوهم بعد أن استقلوا عنه.
- 7 هو موسى عليه السلام، بدليل السياق الكريم.

(2/500)

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أراه كيف انتصر موسى بالمعجزات ومع ذلك لم يتابعه إلا القليل من قومه.
- 2- التنديد بالعلو في الأرض والإسراف في الشر والفساد وبأهلها.
- 30- وجوب التوكل على الله تعالى لتحمل عبء الدعوة إلى الله تعالى والقيام بطاعته.
- 4- مشروعية الدعاء والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته.
- 5- اتخاذ المساجد في المنازل للصلاة فيها عند الخوف.
- 6- وجوب إقام الصلاة.
- 7- بشرى الله تعالى للمؤمنين والمقيمين للصلاة بحسن العاقبة في الدارين.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا
اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَت
دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89)

شرح الكلمات:

زينة : أي حلياً وحللاً ورياشاً ومتاعاً.

أموالاً : أي كثيرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث.

اطمس : أي أزل أثرها من بينهم بإذهابها.

واشدد على قلوبهم : اربط عليها حتى لا يدخلها إيمان ليهلكوا وهم كافرون.

(2/501)

أجيبت دعوتكما .: أي استجابها الله تعالى.

فاستقيما: على طاعة الله بأداء رسالته والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه.

سبيل الذين لا يعلمون: أي طريق الجهلة الذي لا يعرفون محاب الله ومساخطه ولا يعلمون شرائع الله التي أنزل لعباده.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في قصة موسى مع فرعون وبنو إسرائيل فبعد أن لج فرعون في العناد والمكابرة بعد هزيمته سأل موسى ربه قائلاً {ربنا إنك آتيت فرعون وملأه} أي أعطيتهم {زينة} أي ما يتزين به من الملابس والفرش والأثاث وأنواع الحلي والحلل وقوله {وأموالاً} 1 أي الذهب والفضة والأنعام والحرث {في الحياة الدنيا} أي في هذه الحياة الدنيا وقوله: {ربنا ليضلوا عن سبيلك} 2 أي فيسبب ذلك لهم الضلال إذا {ربنا اطمس} 3 على أموالهم} أي أذهب أثرها بمسحها وجعلها غير صالحة للانتفاع بها، {واشدد على} 4 قلوبهم} أي اطبع على قلوبهم واستوثق منها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الموجه أشد الإيذاء، قال تعالى: {قد أجيبت دعوتكما، فاستقيما} 5 على طاعتنا بالدعوة إلينا وأداء عبادتنا والنصح لعبادنا والعمل على إنقاذ عبادنا من ظلم الظالمين، {ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون} أي فنستعجلا وقوع العذاب فإن الذين لا يعلمون ما لله من حكم وتدابير وقضاء وقدر يستعجلون الله تعالى في وعده لهم فلا تكونوا مثلهم بل انتظروا وعدنا واصبروا حتى يأتي وعد الله وما الله بمخلف وعده.

1 قيل: إنه كان لهم من فسطاط مصر إلى ارض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزربرج والزمرد، والياقوت.

- 2 في هذه اللام أقوال: أصحها: أنها لام العاقبة، والصورورة. أي: يا رب إنك آتيت فرعون وقومه أموالاً ليؤول أمرهم بسبب تلك الأموال إلى ضلالهم.
- 3 أي: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. وفعلاً أصبحت حجارة لا ينتفع لها وكان ذلك عقوبة منه تعالى لهم على كفرهم وعنادهم.
- 4 قد استشكل العلماء وجه دعاء موسى على فرعون وقومه بالهلاك إذ المفروض أن يدعو لهم بالهداية. وأجيب بأنه قد علم بإعلام الله تعالى له أنهم لا يؤمنون فلذا دعا عليهم، كما أعلم الله تعالى نوحاً بعدم إيمان قومه فلذا دعا عليهم، إذ قال له ربّه: {إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن} وهنا دعا عليهم قائلاً: {ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً}.
- 5 كان موسى يدعو، وهارون يؤمن أي: يقول: آمين فاعتبر داعياً مع أخيه. لأنّ قول آمين معناه: اللهم استجب دعاءنا.

(2/502)

هداية الآيتين

من هداية الآيتين:

- 1- مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم.
 - 2- كثرة المال وأنواع الزينة، والانغماس في ذلك والتلهي به يسبب الضلال لصاحبه.
 - 3- الذين بلغوا حداً من الشر والفساد فطبع على قلوبهم لا يموتون إلا على الكفر فيخسرون.
 - 4- المؤمن داع فهو شريك في الدعاء 1 فلذا أهل المسجد يؤمنون على دعاء الإمام في الخطبة فتحصل الإجابة للجميع، ومن هنا يخطيء الذين يطوفون أو يزورون إذ يدعون بدعاء المطوف ولا يؤمنون.
 - 5- حرمة إتباع طرق أهل الضلال، وتقليد الجهال والسير وراءهم.
- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)
- شرح الكلمات:
- وجاوزنا ببني إسرائيل : أي قطعنا بهم البحر حتى تجاوزوه.
- البحر : بحر القلزم.

1 روى الترمذي الحكيم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله قد أعطى أمتي ثلاثاً لم تعط

أحدًا قبلهم: السلام، وهي تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون" وعلى هذا فموسى كان يدعو وهارون يؤمن فاعتبر داعياً.

(2/503)

بغيا وعدوا 1: أي بغيا على موسى وهرون واعتداء عليهما.

الآن : أي أفي هذا الوقت تقر بالوحدانية وتتعترف له بالذلة؟!.

بيدتك : أي بجسدك لا روح فيه.

آية: علامة على أنك عبد وليس برب فيعتبروا بذلك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصة موسى وهرون مع فرعون وبني إسرائيل قال تعالى: {وجاوزنا 2 ببني إسرائيل البحر} وذلك بداية استجابة الله تعالى دعوة موسى وهرون ومعنى {جاوزنا} أي قطعنا بهم البحر حتى تجاوزوه، وذلك بأن أمر موسى أن يضرب بعصاه البحر فضرب فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم وببست الأرض ودخل موسى مع بني إسرائيل يتقدمهم جبريل عليه السلام على فرس حتى تجاوزوا البحر إلى الشاطئ، وجاء فرعون على فرسه ومعه ألوف 3 الجنود فتبعوا موسى 4 وبني إسرائيل فدخلوا البحر فلما توسطوه أطبق 5 الله تعالى عليهم البحر فغرقوا أجمعين إلا ما كان من فرعون فإنه لما أدركه الغرق أي لحقه ووصل الماء إلى عنقه أعلن عن توبته فقال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل} وكبريائه لم يقل لا إله إلا الله ولو قالها لتاب الله عليه فأنجاه بل قال: {لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل} وهو يعرف أنه الله. وقوله: {وأنا من المسلمين} مبالغة في طلب النجاة من الغرق بالتوبة حيث أعلن أنه من المسلمين أي المستسلمين المنقادين لأمره. فرد الله تعالى بقوله: {الآن} أي وقت التوبة 6 والإسلام بعد الإيمان،

1 {بغياً} منصوب على الحال. و{عدوا} معطوف عليه، وكان اتباع فرعون بني إسرائيل بغياً وعدوا لأنه ليس له شائبة حق في منعهم من الخروج من بلاده إلى بلادهم.

2 جاوزنا وجوزنا: بمعنى واحد.

3 قال القرطبي: كان بنو إسرائيل ستمائة وعشرين ألفاً، وكان جيش فرعون ألفي ألف وستمائة ألف. أي مليونين ونصفاً وزيادة.

4 تبع واتبع بمعنى واحد إذا لحقه وأدركه، وأما اتبع بالتشديد فإن معناه: سار خلفه.

5 روى الترمذي وحسنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لما أغرق الله فرعون قال: آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من وحل البحر فأدسه

في فيه مخافة أن تدركه الرحمة" وحل البحر: الطين الأسود الذي يكون في أسفله، ومعنى تدركه الرحمة: أي يقول لا إله إلا الله.
6 لأنَّ التوبة تقبل من العبد ما لم يرَ علامات الموت بمشاهدة الملائكة، وفي الحديث الصحيح: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرر".

(2/504)

{وقد عصيت قبل} وتمردت على الله وشرعه وكفرت به وبرسوله {وكننت من المفسدين} للبلاد والعباد بالظلم والشر والفساد، {فالיום ننجيك} أي نجعلك على نجوة من الأرض أي مرتفع منها {ببدنك} أي بجسمك دون روحك، وبذلك {لتكون لمن خلفك} أو بعده من الناس {آية} أي علامة على أنك عبد مريب وليس كما زعمت أنك رب وإله معبود، وتكون عبرة لغيرك فلا يطغى طغيانك ولا يكفر كفرانك فيهلك كما هلكت، وقوله تعالى: {وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون} إخبار منه بواقع الناس ومن أولئك الغافلين عن آيات الله وهي تتلى عليهم أهل مكة من كفار قريش وما سبق هذا القصص إلا لأجل هدايتهم. لو كانوا يهتدون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب وفي الحديث "تقبل توبة العبد ما لم يغرر".
- 2- أكمل الأديان وأفضلها الإسلام ولهذا أهل اليقين يسألون الله تعالى أن يتوفاهم مسلمين ولما أيقن فرعون بالهلاك زعم أنه من المسلمين.
- 3- فضل لا إله إلا الله فقد ورد أن جبريل كان يحول بين فرعون وبين أن يقول: لا إله إلا الله فينجو فلم يقلها فغرق وكان من الهالكين.
- 4- تقرير حقيقة وهي أن أكثر الناس في هذه الحياة غافلون عما يراد بهم ولهم ولم ينتبهوا حتى يهلكوا.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

شرح الكلمات:

مبوءاً صدق: أي أنزلناهم منزلاً صالحاً طيباً مرضياً.
من الطيبات: أي من أنواع الأرزاق الطيبة الحلال.

(2/505)

حتى جاءهم العلم : وهو معرفتهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبي المنتظر وأنه المنجي.
يقضي بينهم: يحكم بينهم.

فيما كانوا في يختلفون : وأي في الذي اختلفوا من الحق فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار.
معنى الآية الكريمة:

هذه خاتمة الحديث عن موسى وبني إسرائيل بعد أن نجاهم الله من عدوهم بإهلاكه في اليم قال تعالى: {ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعوثاً صدقاً} أي أنزلناهم مبعوثاً صالحاً طيباً وهو بلاد فلسطين من أرض الشام المباركة¹، وذلك بعد نجاتهم من التيه ودخولهم فلسطين بصحبة نبي الله يوشع بن نون عليه السلام، وقوله {ورزقناهم من الطيبات} إذ أرض الشام أرض العسل والسمن والحبوب والثمار واللحم والفحم وذكر هذا إظهار لنعم الله تعالى ليشكروها. وقوله: {فما اختلفوا حتى جاءهم العلم} يريد أن بني إسرائيل الذين أكرمهم ذلك الإكرام العظيم كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم متفقين على دين واحد منتظرين النبي المنتظر المبشر به في التوراة الذي سينقذ بني إسرائيل مما حل بهم من العذاب والاضطهاد على أيدي أعدائهم الروم، فلما جاءهم وهو العلم وهو القرآن والمنزل عليه محمد صلى الله عليه وسلم اختلفوا فمنهم من آمن به²، ومنهم من كفر. وقوله تعالى في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم: {إن ربك يقضي³ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون} من أمر الإيمان لك واتباعك واتباع ما جئت به من الهدى ودين الحق، فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكفار النار.

هداية الآية الكريمة:

من هداية الآية الكريمة:

1- بيان إكرام الله تعالى لبني إسرائيل.

1 وروي ان ابن عباس رضي الله عنهما قال: في المبعوث الصدق: هو بنو قريظة وبنو النضير، وأهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم بقريظة: {فما اختلفوا حتى جاءهم العلم} الذي هو القرآن يحمله محمد صلى الله عليه وسلم وقريظة ما في التفسير هي أنّ الحديث كان في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك فرعون وهو يناسبه أن يكون المبعوث: أرض فلسطين والشام.

2 كعبد الله بن سلام وأمثاله.

3 يقضي: معناه يحكم، فيحكم لأهل الإيمان والاستقامة بدخول الجنة ويحكم لأهل الكفر والضلال النار.

-
- 2- الرزق الطيب هو ما كان حلالاً لا ما كان حراماً.
- 3- إذا أراد الله هلاك أمة اختلف بسبب العلم الذي هو في الأصل سبب الوحدة الوثام.
- 4- حرمة الاختلاف في الدين إذ كان يؤدي إلى 1 الانقسام والتعادي والتحارب.
- 5- يوم القيامة هو يوم الفصل الذي يقضي الله تعالى فيه بين المختلفين بحكمه العادل.
- فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97)

شرح الكلمات:

شك:.. ما قابل التصديق فالشاك غير المصدق.

مما أنزلنا إليك: أي في أن بني إسرائيل لم يختلفوا إلا من 2 بعد ما جاءهم العلم.

الكتاب: أي التوراة والإنجيل.

فلا تكونن من الممترين: أي لا تكونن من الشاكين.

حققت عليهم: أي وجبت لهم النار بحكم الله بذلك في اللوح المحفوظ.

حتى يروا العذاب: أي يستمرون على تكذيبهم حتى يروا العذاب يؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان 3.

1 مثال الاختلاف الذي لا يؤدي إلى الانقسام والتعادي والتحارب: الخلاف الفقهي بين الأئمة الأربعة، ومثال الخلاف المفضي إلى التعادي والتحارب الخلاف بين أهل السنة والفرق الضالة كالخوارج والروافض وأمثالهما.

2 هذا وجه من جملة أوجه فسرت بها الآية.

3 لا خلاف في أن الإيمان كالتوبة لا يقبلان عند معاينة الموت ففي سورة النساء قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَّارٌ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

(2/507)

معنى الآيات:

يقرر تعالى نبوة رسوله {فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} أخبار اليهود ورهبان النصراني فإنهم يعرفون نعتك وصفاتك في التوراة والإنجيل وإنك النبي الخاتم

والمنقذ وأن من آمن بك نجا ومن كفر هلك وهذا من باب الفرض وليكون تهييجاً للغير ليؤمن وإلا فهو صلى الله عليه وسلم قد قال: {لا أشك ولا أسأل} وقوله {لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين}، يقسم تعالى لرسوله بأنه قد جاءه الحق من ربه وهو الحديث الثابت بالوحي الحق وبينها أن يكون من الممترين أي الشاكين في صحة الإسلام، وأنه الدين الحق الذي يأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وقوله {ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين} أي وبينها أيضاً أن يكون من الذين كذبوا بوحي الله وشرعه ورسوله المعبر عنها بالآيات لأنها حاملة لها داعية إليها، فتكونن من الخاسرين يوم القيامة. وهذا كله من باب ("إياك أعني واسمعي يا جاره") وإلا فمن غير الجائز أن يشك الرسول أو يكذب بما أنزل عليه من الآيات الحاملة من الشرائع والأحكام. وقوله تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية} هو كما أخبر عز وجل فالذين قضى2 الله بعذابهم يوم القيامة فكتب ذلك في كتاب المقادير عنده هؤلاء لا يؤمنون أبداً مهما بذل في سبيل إيمانهم من جهد في تبين الحق وإقامة الأدلة وإظهار الحجج عليهم وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من جراء ما يآلم له ويحزن من إعراض كفار قريش وعدم استجابتهم وقوله {ولو جاءتهم كل آية} تأكيد للحكم السابق وهو أن الذي حكم الله بدخولهم النار لا يؤمنون ولا يموتون إلا كافرين لينجز الله ما وعد ويمضي ما قضى وحكم. وقوله: {حتى يروا العذاب الأليم} أي يستمرون على كفرهم بك وبما جئت به حتى يشاهدوا العذاب الأليم وحينئذ يؤمنون كما آمن فرعون عندما أدركه الغرق ولكن لم ينفعه إيمانه فكذلك هؤلاء المشركون من

1 لا حاجة إلى طلب حلول بعيدة لحلّ ما في ظاهر الآية من إشكال، إذ لهذه الآية نظير وهو قوله تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين} معنى الآية: أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله، وأحبّ الخلق إليه ليكون غيره من باب أولى ألف مرة ومرة وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشك ولا يسأل وكيف يشك ويسأل وهو يتلقى الوحي من ربه؟ وقد قال وقت ما نزلت الآية: "لا أشك ولا أسأل" ، وتوجيهنا للآية في التفسير في غاية الوضوح، والحمد لله.

2 إن قيل: كيف يعذبهم لمجرد أن كتب ذلك عليهم؟ قلنا في الجواب إنه ما كتب شقوة نفس أو سعادة أخرى حتى علم ما ستفعله النفس باختيارها من كفر أو إيمان أو خير أو شر.

(2/508)

قومك الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم وعندئذ لا ينفعهم إيمانهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 2- سؤال من لا يعلم من يعلم.
- 3- التكذيب بآيات الله كفر وصاحبه من الخاسرين.
- 4- الشك والافتراء في أصول الدين وفروعه كفر.
- 5- تقرير عقيدة القضاء والقدر، وإن الشقي من شقي في كتاب المقادير I والسعيد من سعد فيه.
- 6- عدم قبول توبة من عاين العذاب في الدنيا بأن رأى ملك الموت وفي الآخرة بعد أن يبعث ويشاهد أهوال القيامة.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (98) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100)

شرح الكلمات:

فلو لا : أداة تحضيض هنا بمعنى هلاً وفيها معنى التوبيخ والنفي.

1 طالع النهر، فقد أوردنا سؤالاً عن هذه المسألة وأجبنا عنه تحت رقم (3) بما يكفي ويغني بإذن الله تعالى.

(509/2)

قرية آمنت: أي أهل قرية آمنوا.

يونس: هو يونس بن مئى نبي الله ورسوله 1.

إلى حين : أي إلى وقت انقضاء آجالهم.

أفأنت تكره الناس : أي إنك لا تستطيع ذلك.

إلا بإذن الله.: أي بإرادته وقضائه.

الرجس : أي العذاب

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الخسران لازم لمن كذب بآيات الله، وأن الذين وجب لهم العذاب لإحاطة ذنوبهم بهم لا يؤمنون لفقدهم الاستعداد للإيمان ذكر هنا ما يحض به أهل مكة على الإيمان وعدم الإصرار على الكفر والتكذيب فقال: {فلولا 2 كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها} أي فهلا أهل قرية آمنوا فانتفخوا بإيمانهم فنجوا من العذاب اللازم لمن لم يؤمن أي لم لا يؤمنون وما المانع

من إيمانهم وهذا توبيخ لهم.

وقوله {إلا قوم 3 يونس 4 لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا} فلم نهلكهم بعذاب استئصال وإبادة شاملة لأنهم لما رأوا أمارات العذاب بادروا إلى التوبة قبل نزوله بهم فكشف الله تعالى عنهم العذاب، ومتعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم فما لأهل أم القرى لا يتوبون كما تاب أهل نينوى من أرض الموصل وهم قوم يونس عليه السلام.

وقوله تعالى: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً} يحمل دلالتين الأولى أن عرض الله تعالى الإيمان على أهل مكة وحضهم عليه وتوبيخهم على تركه لا ينبغي

1 احد أنبياء بني إسرائيل.

2 لو لا حرت الأصل فيها أنها للتخصيص، وهو طلب الفعل بحثاً، ولكن إذا دخلت على ماض لم تصبح للتخصيص قطعاً بل للتغليب والتنديم والتوبيخ، وهي هنا لتغليب أهل مكة وتوبيخهم وتنديمهم على إصرارهم على الكفر وعدم توبيتهم كما تاب قوم يونس حتى ينجوا من العذاب كما نجوا.

3 كان هؤلاء القوم خليطاً من الأشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر، وكانت بعثة يونس عليه السلام إليهم في بداية القرن الثامن قبل المسيح عليه السلام.

4 إن قوم يونس كانوا بقرية تسمى نينوي من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، أقام في قومه يدعوهم إلى التوحيد وترك الشرك تسع سنين فبئس من إيمانهم فتوعدهم بالعذاب وخرج من بين أظهرهم وتركهم فلما رأوا ذلك خافوا نزول العذاب بهم فجأروا إلى الله تعالى بالاستغفار والدعاء والضراعة يا حي حين لا حي يا حي محيي الموتى يا حي لا إله إلا أنت ارفع عنا العذاب وقد ظهرت أماراته، فكشف الله عنهم العذاب كما قال تعالى: {إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين}.

(2/510)

أن يفهم منه أن الله تعالى عاجز عن جعلهم يؤمنون بل لو شاء إيمانهم لآمنوا كما لو شاء إيمان أهل الأرض جميعاً لآمنوا والثانية تسلية الرسول والتخفيف عنه من ألم وحزن عدم إيمان قومه وهو يدعوهم بجد وحرص ليل نهار فأعلمه ربه أنه لو شاء إيمان كل من في الأرض لآمنوا، ولكنه التكليف المترتب عليه الجزاء فيعرض الإيمان على الناس عرضاً لا إجبار معه فمن آمن نجا، ومن لم يؤمن هلك وبدل على هذا قوله له {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} أي إن هذا ليس لك، ولا كلفت به، وقوله تعالى: {وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله} تقرير وتأكيد لما تضمنه الكلام السابق من أن الإيمان لا يتم لأحد إلا بإرادة الله وقضائه، وقوله تعالى: {ويجعل الرجس 2 على الذين

لا يعقلون} أي إلا أنه تعالى يدعو الناس إلى الإيمان مبيناً لهم ثمراته الطيبة ويحذّرهم من التكذيب مبيناً لهم آثاره السيئة فمن آمن نجاه وأسعده ومن لم يؤمن جعل الرجس الذي هو العذاب عليه محيطاً به جزاء له لأنه لا يعقل إذ لو عقل لما كذب ربه وكفر به وعصاه وتمرد عليه وهو خالقه ومالك أمره.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده دعوته إياهم إلى الإيمان به وحضهم عليه.
- 2- قبول التوبة قبل معاينة العذاب، ورؤية العلامات لا تمنع من التوبة.
- 3- إرادة الله الكونية التي يكون بها الأشياء لا تتخلف أبداً، وإرادته الشرعية التكاليفية جائزة التخلف. لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه فلذا لا ينبغي للداعي أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا لأن الله تعالى كتب عذابهم أولاً وقضى به.

- 1 الاستفهام: إنكاري ينكر تعالى على رسوله شدة حرصه على إيمان قومه، حتى لكانه يريد إكراههم على الإيمان به وبما جاء به من التوحيد.
- 2 الرجس: بضم الراء وكسرهما: العذاب.

(2/511)

قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (103)

شرح الكلمات:

ماذا في السموات والأرض: أي من عجائب المخلوقات، وباهر الآيات.
وما تغني الآيات والنذر: أي ما تغني أي إغناء إذا كان القوم لا يؤمنون.
فهل ينتظرون: أي ما ينتظرون.

خلوا من قبلهم: أي مضوا من قبلهم من الأمم السابقة.

قل فانظروا: أي العذاب.

ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا: أي من العذاب المنتظر.

كذلك: أي كذلك الإنجاء ننج المؤمنين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة قريش إلى الإيمان والتوحيد والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم فقد أمر تعالى رسوله أن يقول لهم: {قل انظروا 1 ماذا في السموات والأرض} من سائر المخلوقات وما فيها من عجائب الصنعة، ومظاهر الحكمة والرحمة والقدرة فإنها تدعو إلى الإيمان بالله رباً وإلهاً لا إله غيره ولا رب سواه، وتنفذ دعوى ألوهية الأصنام والأحجار.

ثم قال تعالى: {وما تغني الآيات والنذر} أي الرسل في هداية قوم قضى الله تعالى أزلاً

1 الفاء للتفريع فالكلام متفرع على جملة ما تغني الآيات والنذر. والاستفهام إنكاري تهكمي، وفيه معنى النفي أيضاً، والنكات لا تتزاحم.

(2/512)

أنهم لا يؤمنون حتى ينتهوا إلى ما قدر لهم وما حكم به عليهم من عذاب الدنيا والآخرة ولكن لما كان علم ذلك إلى الله تعالى فعلى النذر أن تدعو وتبلغ جهدها والأمر لله من قبل ومن بعد. وقوله: {فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين 1 خلوا من قبلهم} أي إنهم ما ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلفوا من قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم دعوتهم رسلهم وبلغتهم دعوة ربهم إليهم إلى الإيمان والتوحيد والطاعة فاعرضوا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب.

ثم أمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم {فانتظروا 2} أي ما كتب عليكم من العذاب إن لم تتوبوا إليه وتسلموا {إني معكم من المنتظرين} فإن كان العذاب فإن سنة الله فيه أن يهلك الظالمين المشركين المكذبين وينجي رسله والمؤمنين وهو معنى قوله تعالى 3 في الآية الأخيرة (103) {ثم ننجي 4 رسلنا والذين آمنوا، كذلك} أي الإنجاء {حقاً علينا 5 ننج المؤمنين}.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا تنتفع الموعظة مهما بولغ فيها عبداً كُتِبَ أزلاً أنه من أهل النار.
 - 2- ما ينتظر الظلمة في كل زمان ومكان إلا ما حل بمن ظلم من قبلهم من الخزي والعذاب.
 - 3- وعد الله تعالى ثابت لأوليائه بإنجائهم من الهلاك عند إهلاكه الظلمة المشركين.
- قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمُ وَأُمِرْتُ

1 المراد من الأيام: العذاب الذي يقع فيها، ويقال فيها الوقائع وهو نحو قولهم: أيام العرب، فلان عالم بأيام العرب أي: ما جرى فيها من أحداث ومنه قوله تعالى: {وذكرهم بأيام الله} أي: بالعذاب

الذي وقع فيها.

2 الجملة مستأنفة استئنفاً بيانياً لأنها واقعة موقع جواب سؤال تقديره: نحن أولاء منتظرون وأنت ماذا تفعل؟

3 {حقاً علينا} جملة معترضة لأن المصدر يدل على الفعل، والتقدير أي: حق ذلك علينا حقاً أي: أحققناه حقاً علينا.

4 {ننجي} قرىء بالتخفيف، والتشديد، والمعنى واحد، وفي المصحف ننج بدون ياء لالتقاء الساكنين.

5 إن انتظار العذاب منذر بنزوله قريباً بديارهم والرسول معهم فمن هنا عطف جملة {ثم ننجي رسلنا} فأعلمهم بنجاة الرسل فكانت بشرى للرسول والمؤمنين.

(2/513)

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مَنَّ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

شرح الكلمات:

من ديني : أي الإسلام في أنه حق.

يتوفاكم: أي يقبض أرواحكم فيميتكم.

وأن أقم وجهك للدين حنيفاً : أي أمرني ربي أن أقم وجهي للدين الإسلامي حنيفاً أي مائلاً عن كل الأدبان إليه دون غيره.

ملا ينفعك ولا يضررك : أي آلهة لا تنفع ولا تضر وهي أصنام المشركين وأوثانهم.

إنك إذا من الظالمين: أي أنك إذا دعوتها من المشركين الظالمين لأنفسهم.

فلا كاشف له إلا هو: أي لا مزيل للضرر ومبعده عن أصابه إلا هو عز وجل.

يصيب به: أي بالفضل والرحمة.

وهو الغفور الرحيم: أي لذنوب عباده التائبين الرحيم بعباده المؤمنين.

معنى الآيات :

بعد أن بين تعالى طريق الهدى وطريق الضلال وأنذر وحذر وواعد وأوعد في الآيات السابقة بما لا

مزيد عليه أمر رسوله هنا أن يواجه المشركين من أهل مكة وغيرهم بالتقرير التالي فقال: {قل يا أيها

الناس} أي مشركي مكة والعرب من حولهم {إن كنتم في شك} وريب 1 في صحة ديني الإسلام الذي

أنا عليه وأدعو إليه، {فلا أعبد الذين تعبدون من

1 أي: إن كنتم في شك من صحة ديني فأنا غير شاك في صحته وبطلان دينكم فلذا لا أعبد الذين تعبدون. من دون الله.

(2/514)

دون الله { فمجرد شككم في صحة ديني لا يجعلني أعبد أوثاناً وأصناماً لا تتفع ولا تضر، {ولكن أعبد الله} الذي ينفع ويضر، يحيى ويميت، الله الذي يتوفاكم أي يميتكم بقبض أرواحكم فهو الذي يجب أن يعبد ويخاف ويهرب {وأمرت أن أكون من المؤمنين} أي أمرني ربي أن أومن به فأكون من المؤمنين فأمنت وأنا من المؤمنين. وقوله تعالى: {وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين} أي وأوحى إليّ ربي أمراً إياي بأن أقيم وجهي لدينه 1 الحق فلا ألتفت إلى غيره من الأديان الباطلة، ونهاني مشدداً عليّ أن أكون من المشركين الذين يعبدون معه آلهة أخرى بعد هذا الإعلان العظيم والمفاصلة الكاملة والتعريض الواضح بما عليه أهل مكة من الضلال والخطأ الفاحش، واجه الله تعالى رسوله بالخطاب وهو من باب "إياك أعنى واسمعي يا جاره" فنهاه بصريح القول أن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره وهو كل المعبودات ما سوى الله عز وجل فقال: {ولا تدع من دون ما لا ينفعك} أي لا يجلب لك نفعاً ولا يدفع عنك ضرراً، ولا يضرك بمنع خير عنك، ولا بإنزال شركك فإن فعلت بأن دعوت غير الله فإنك إذاً من الظالمين، ولما كان دعاء النبي غير الله ممتنعاً بالكلام إذاً تعريضاً للمشركين وتحذيراً للمؤمنين، وقوله تعالى: في خطاب رسوله: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له} 2 عنك {إلا هو} عز وجل، {وإن يردك بخير} من الخيور عافية وصحة رخاء ونصر {فلا راد لفضله} أي ليس هناك من يرده عنك بحال من الأحوال، وقوله: {يصيب} 3 أي بالفضل والخير والنعمة {من يشاء من عباده} إذ هو الفاعل المختار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقوله: {وهو الغفور الرحيم} بيان لصفات الجلال والكمال فيه فإنه تعالى يغفر ذنوب التائبين إليه مهما بلغت في العظم، ويرحم عباده المؤمنين مهما كثروا في العدد، وبهذا استوجب العبادة بالمحبة والتعظيم والطاعة والتسليم.

هداية الآيات

من هداية الآيات

1- على المؤمن أن لا يترك الحق مهما شك وشكك فيه الناس.

1 الأمر بإقامة الوجه لله كناية عن توجه النفس والإقبال بها على الله تعالى فلا تلتفت رغبة ولا راهبة إلى غير الله تعالى، وهذا كإسلام الوجه لله تعالى في آية: {ومن يسلم وجهه إلى الله وهو

- محسن} ولازمه ترك كل دين إلى دين الله عز وجل.
- 2 تتكبير ضرر، كتتكبير خير يُراد به النوعية الصالحة للقلّة والكثرة.
- 3 يقال: أصابه بكذا: إذا أوردته عليه ومسه به.

(2/515)

2- تحريم الشرك ووجوب تركه وترك أهله..

3- دعاء غير الله مهما كان المدعو شرك محرم فلا يحل أبداً، وإن سموه توسلاً.

4- لا يؤمن عبد حتى يوقن أن ما أَرادَه اللهُ له من خير أو شر لا يستطيع أحد دفعه ولا تحويله بحال من الأحوال، وهو معنى حديث 1: "ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك".
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)

شرح الكلمات:

يا أيها الناس : أي يا أهل مكة.

قد جاء الحق: أي الرسول يتلو القرآن ويبين الدين الحق.

من اهتدى: أي آمن بالله ورسوله وعبد الله تعالى موحداً له.

ومن ضل : أي أبى إلا الإصرار على الشرك والتكذيب والعصيان.

فعلينا: أي وبال الضلال على نفس الضال كما أن ثواب الهداية لنفس المهتدي.

وما أنا عليكم بوكيل : أي بمجبر لكم على الهداية وإنما أنا مبلغ ونذير.

واصبر حتى يحكم الله: أي في المشركين بأمره.

خير الحاكمين: أي رحمة وعدلاً وإنفاذاً لما يحكم به لعظيم قدرته.

معنى الآيتين:

هذا الإعلان الأخير في هذه السورة يأمر الله تعالى رسوله أن ينادى المشركين بقوله:

1 هذا الكلام مستأنف يحمل إعلاناً عظيماً لأهل مكة أولاً، وللناس كافة ثانياً مفاده: مجيئهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالحق من ربهم وهو الدين الإسلامي فمن دخل فيه اهتدى إلى طريق سعادته ومن أعرض عنه ضل طريق نجاته وسعادته.

(2/516)

{لها أيها الناس} وهو نداء عام يشمل البشرية كلها وإن أريد به ابتداء أهل مكة {قد جاءكم الحق من ربكم} وهو القرآن ينثوه رسول الله وفيه بيان الدين الحق الذي لا كمال للإنسان له إلا بالإيمان به والأخذ الصادق بما تضمنه من هدى. وبعد فمن اهتدى بالإيمان والاتباع فإنما ثواب هدايته لنفسه إذ هي التي تزكو وتطهر وتتأهل لسعادة الدارين، ومن ضل بالإصرار على الشرك والكفر والتكذيب فإنما ضلله أي جزاء ضلاله عائد على نفسه إذ هي التي تتدسّى وتخبث وتتأهل لمقت الله وغضبه وأليم عقابه. وما على الرسول المبلغ من ذلك شيء، إذ لم يوكل إليه ربه هداية الناس بل أمره أن يصرح لهم بأنه ليس عليهم بوكيل {وما أنا عليكم بوكيل}1 وقوله تعالى: {واتبع ما يوحى إليك}2 أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالالتزام الحق باتباع ما يوحى إليه من الأوامر والنواهي وعدم التفریط في شيء من ذلك، ولازم هذا وهو عدم اتباع ما لا يوحى إليه به ربه وقوله: {واصبر حتى يحكم الله}3 وهو خير الحاكمين {أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على اتباع الوحي والثبات على الدعوة وتحمل الأذى من المشركين إلى غاية أن يحكم الله فيهم وقد حكم فأمره بقتالهم فقتلهم في بدر وواصل قتالهم حتى دانوا لله بالإسلام والله الحمد والمئة، وقوله {وهو خير الحاكمين}4 ثناء على الله تعالى بأنه خير من يحكم وأعدل من يقضي لكمال علمه وحكمته، وعظيم قدرته، وواسع رحمته.

هداية الآيات

من هداية الآيات

1- تقرير أن القرآن والرسول حق والإسلام حق.

- 1 هذه الجملة داخلة ضمن الإعلان، وهي أن يعلم أهل مكة والناس من حولهم أن الرسول المبلغ الإسلام لهم غير موكل بهدايتهم وأنّ أمر ذلك متروك لهم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضلّ، وما عليه إلا البلاغ. وقد بلّغ.
- 2 هذا إرشاد للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يلزم المنهج الذي وضعه له بطريق الوحي ولا يخرج عنه بحال فإنه سبيل نجاته ونجاة المؤمنين معه.
- 3 هذا إرشاد آخر له صلى الله عليه وسلم بالصبر على إبلاغ أهل مكة ومن حولهم دعوة الله حتى يحكم الله بينه وبينهم بنصر رسوله والمؤمنين، وخذلان الكفر والكافرين.
- 4 خير هنا بمعنى أخير اسم تفضيل، وإنما عدل عن أخير إلى خير لكثرة الاستعمال كاسم شرّ أيضاً، وقد يأتي لفظ شر وخير لغير تفضيل.

- 2- تقرير مبدأ أن المرء يشفى ويسعد بكسبه لا بسكب غيره. 1
3- وجوب اتباع الوحي الإلهي الذي تضمنه القرآن والسنة الصحيحة.
4- فضيلة الصبر وانتظار الفرج من الله تعالى.

(2/518)

سورة هود

...

سورة هود

مكية 2

وآياتها مائة وثلاث وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ (2) وَأَنْ اسْتَغْوِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوِّأُ إِلَيْهِ يَمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ
فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (4) أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتِغُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٌ يَسْتَعْشِرُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5)

شرح الكلمات

الر: هذا أحد الحروف المقطعة: يكتب الر ويقرأ ألف، لام، را.

- 1 شواهد هذه الحقيقة في المراد كثيرة منها: {من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها} ومنها: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} ومنها: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت}.
- 2 واستثنى منها بعضهم آية: {وأقم الصلاة طرفي النهار..} الآية فإنها مدنية وروي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "شبيبتني هود وأخواتها" ويذكر القرطبي فيقول: قال أبو عبد الله: فالفرع يورث الشيب، وذلك أن الفرع يذهل النفر فينشف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع ومنه يعرق فإذا نشف الفرع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فايبيض، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه فإذا ذهب سقاؤه يبس فايبيض، وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده.

(2/518)

أحكمت: أي نظمت نظماً متقناً ورفصفت ترصيفاً لا خلل فيه.
فصلت: أي ببيان الأحكام، والقصاص والمواظ، وأنواع الهدايات.
من لدن: أي من عند حكيم خبير وهو الله جل جلاله.
متاعاً حسناً: أي بطيب العيش وسعة الرزق.
إلى أجل مسمى: أي موت الإنسان لأجله الذي كتب له.
ويؤت كل ذي فضل: أي ويعط كل ذي عمل صالح فاضل جزاءه الفاضل.
عذاب يوم كبير: هو عذاب يوم القيامة.
يثنون صدورهم: أي يطأطئون رؤوسهم فوق صدورهم ليستتروا عن الله في زعمهم.
يستغشون ثيابهم: يغطون رؤوسهم ووجوههم حتى لا يراهم الله في نظرهم الباطل.
معنى الآيات:

قوله تعالى {الر} هذا الحرف مما هو متشابه ويحسن تفويض معناه إلى الله فيقال: الله أعلم بمراده بذلك. وإن أفاد فائدتين الأولى: أن القرآن الكريم الذي تحداهم الله بالإتيان بمثله أو بسورة من مثله قد تألف من مثل هذه الحروف: ألم، آلر، طه، طس حم، ق، ن، فألفوا مثله فإن عجزتم فاعلموا أنه كتاب الله ووحيه وأن محمداً عبده ورسوله فآمنوا به، والثانية أنهم لما كانوا لا يريدون سماع القرآن بل أمروا باللغو عند قراءته، 1 ومنعوا الاستعلان به جاءت هذه الحروف على خلاف ما ألفوه في لغتهم واعتادوه في لهجاتهم العربية فاضطرتهم إلى سماعه فإذا سمعوا تأثروا به وآمنوا ولنعم الفائدة أفادتها هذه الحروف المقطعة.

وقوله تعالى {كتاب 2 أحكمت آياته} أي المؤلف من هذه الحروف كتاب عظيم أحكمت آياته أي رفصفت ترصيفاً ونظمت تنظيمياً متقناً لا خلل فيها ولا في تركيبها ولا معانيها، وقوله: {ثم فصلت} أي بين ما تحمله من أحكام وشرائع، ومواظ وعقائد

1 شاهده في قوله تعالى من سورة (فصلت): {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون}.

2 التتكير في {كتاب} للتفخيم والتعظيم، والأحكام أصله: إتقان الصنعة مشتق من الحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه ء فأحكام الآيات: سلامتها من الأخلال: التي تعرض لنوعها كمخالفة الواقع، والأخلال في اللفظ أو في المعنى.

وآداب وأخلاق بما لا نظير له في أي كتاب سبق، وقوله: {من لدن حكيم خبير} أي تولى تفصيلها حكيم خبير، حكيم في تدبيره وتصرفه، حكيم في شرعه وتربيته وحكمه وقضائه، خبير بأحوال عباده وشؤون خلقه، فلا يكون كتابه ولا أحكامه ولا تفصيله إلا المثل الأعلى في كل ذلك.

وقوله: {ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير} أي أنزل الكتاب وأحكم آيةً وفصل أحكامه وأنواع هدايته بأن 1 لا تعبدوا إلا الله إذ لا معبود حق إلا هو ولا عبادة تنفع إلا عبادته. وقوله {إنني لكم منه نذير وبشير} هذا قول رسوله المبلغ عنه يقول أيها الناس إنني لكم منه أي من ربكم الحكيم العليم نذير بين يدي عذاب شديد إن لم تتوبوا فتؤمنوا وتوحدوا. وبشير أي أبشر من آمن ووحد وعمل صالحاً بالجنة في الآخرة {وأن استغفروا} 2 ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى} أي وبأن تستغفروا ربكم باعترافكم بخطأكم بعبادة غيره، ثم تتوبوا إليه أي ترجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله ووعده ووعيدته وطاعته في أمره ونهيه، ولكم جزاء على ذلك وهو أن يمتعكم في هذه الحياة متاعاً حسناً بالنعم الوفيرة والخيرات الكثيرة إلى نهاية آجالكم المسماة لكل واحد منكم. وقوله {ويؤت كل ذي فضل فضله} 3 أي ويعط سبحانه وتعالى كل صاحب فضل في الدنيا من بر وصدقة وإحسان فضله تعالى يوم القيامة في دار الكرامة الجنة دار الأبرار. وقوله: {وإن تولوا} أي تعرضوا عن هذه الدعوة فتبوقوا على شرككم وكفركم {فإنني أخاف عليكم عذاب يوم كبير} وهو عذاب يوم القيامة. وقوله تعالى: {إلى الله مرجعكم} يخبرهم تعالى بعد أن أذنبهم عذاب يوم القيامة بأن مرجعهم إليه تعالى لا محالة فسوف يحييهم بعد موتهم ويجمعهم عنده ويجزيهم بعدله ورحمته {وهو على كل شيء قدير} ومن ذلك إحيائهم بعد موتهم ومجازاتهم السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها وهذا هو العدل والرحمة اللذان لا نظير لهما.

1 فالباء سببية، وأن: تفسيرية، إذ لو سأل سائل فقال: لم أحكمت الآيات ثم فصلت؟ لكان الجواب: بأن لا يعبد إلا الله وأن يُستغفر وإن يتاب إليه تعالى.

2 إن قيل: لم قدم الاستغفار عن التوبة؟ فالجواب: بأن العبد لا يستغفر إلا إذا علم أنه أذنب، ولا يتوب العبد حتى يعلم أنه مذنب وعندها يتوب فهذا سرّ تقديم الاستغفار عن التوبة.

3 هذا كقوله تعالى: {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله} فالفضل الأول من العبد، وهو العمل الصالح، والفضل الثاني من الرب وهو دخول الجنة.

(2/520)

وقوله تعالى: {ألا إنهم يثنون 1 صدورهم ليستخفوا منه} هذا النوع من السلوك الشائن الغبي كان بعضهم يثني صدره أي يطأطئ رأسه ويميله على صدره حتى لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم،

وبعضهم يفعل ذلك ظناً منه أنه يخفي نفسه عن الله تعالى وهذا نهاية الجهل، وبعضهم يفعل ذلك بغضاً للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يراه فرد تعالى هذا بقوله: {ألا حين يستغشون ثيابهم} أي يتغطون بها {يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور} فلا معنى لاستغشاء الثياب استتاراً بها عن الله تعالى فإن الله يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما تخفي صدورهم وإن كانوا يفعلون ذلك بغضاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فبئس ما صنعوا وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم. هداية الآيات.

من هداية الآيات:

1- مظهر من مظاهر إعجاز القرآن وهو أنه مؤلف من الحروف المقطعة ولم تستطع العرب الإتيان بسورة مثله.

2- بيان العلة في إنزال الكتاب وأحكام آية وتفصيلها وهي أن يعبد الله تعالى وحده وأن تستغفره المشركون ثم يتوبون إليه ليكملوا ويسعدوا في الدنيا والآخرة.

3- وجوب التخلي عن الشرك أولاً، ثم العبادة الخالصة ثانياً.

4- المعروف لا يضيع عند الله تعالى إذا كان صاحبه من أهل التوحيد {ويؤت 3 كل ذي فضل فضله} .

5- بيان جهل المشركين الذين كانوا يستترون عن الله برؤوسهم وثيابهم4.

6- مرجع الناس إلى ربهم شاعوا أم أبوا والجزاء عادل ولا يهلك على الله إلا هالك.

1 روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة ويظهرون خلافه، ونزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنطق يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي له بقلبه على ما يسوء، وقيل نزلت في بعض المنافقين كان أحدهم إذا مرّ به الرسول صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأ رأسه وغطّى وجهه كي لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان.

2 لا مانع من توجيه الآية إلى هذا إذ مازال الناس إلى اليوم، إذا كرهوا الداعية إلى الله تعالى لا يحبون أن يروه أو يسمعوا صوته وقد يثنون صدورهم ويغطون وجوههم حتى لا يروه بغضاً له وكرهاً. والله عليم خبير.

3 الثني : الطيّ، طوى الثوب إذ ثناء، وهو مأخوذ من جعل الواحد اثنين.

4 أي: يطأطئون رؤوسهم على صدورهم ويتغطون بثيابهم إذ روي أن المشرك كان يدخل بيته ويرخي الستر عليه، ويستعشي ثوبه ويحنى ظهره ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك لجهلهم بعظمة الله تعالى وقدرته وعلمه.

الجزء الثاني عشر

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8)

شرح الكلمات:

من دابة : أي حيّ يدبّ على الأرض أي يمشي من إنسان وحيوان.

مستقرها : أي مكان استمرارها من الأرض.

ومستودعها : أي مكان استيادها قبل استقرارها كأصلاّب الرجال وأرحام النساء.

في كتاب مبيّن : أي اللوح المحفوظ.

في ستة أيام: أي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة.

وكان عرشه على الماء: إذ لم يكن قد خلق شيئاً من المخلوقات سواه، والماء على الهواء.

ليبلوكم: أي ليختبركم ليرى أيكم أحسن عملاً.

إلى أمة معدودة: أي طائفة من الزمن معدودة.

وحاق بهم: أي نزل وأحاط بهم.

(2/522)

معنى الآيات:

لما أخبر تعالى في الآية السابقة انه عليم بذات الصدور ذكر في هذه مظاهر علمه وقدرته تقريراً لما

تضمنته الآية السابقة فقال عز وجل {وما من دابة في الأرض} 1 من إنسان يمشي على الأرض أو

حيوان يمشي عليها زاحفاً أو يمشي على رجلين أو أكثر أو يطير في السماء إلا وقد تكفل الله برزقها

أي خلقه وإيجاده لها وبتعليمها كيف تطلبه وتحصل عليه، وهو تعالى يعلم كذلك مستقرها أي مكان

استقرار تلك الدابة في الأرض، كما يعلم أيضاً مستودعها بعد موتها إلى أن تبعث بيوم القيامة.

وقوله تعالى {كل في كتاب مبيّن} أي من الدابة ورزقها ومستقرها ومستودعها قد دون قبل خلقه في

كتاب المقادير اللوح المحفوظ، وقوله تعالى في الآية (7) {وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة

أيام وكان عرشه على الماء} أي أوجد السموات السبع والأرض وما فيها في ظرف ستة أيام وجائز

أن تكون كأيام الدنيا، وجائز أن تكون كالأيام التي عنده وهي ألف سنة لقوله في سورة الحج {وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون} وقوله {وكان عرشه على الماء} 2 أي خلق العرش قبل خلق السموات والأرض، والعرش: سرير المُلْك ومنه يتم تدبير كل شيء في هذه الحياة، وقوله {على الماء} إذ لم يكن أرض ولا سماء فلم يكن إلا الماء كالهواء. وقوله تعالى {لبيلوكم أيكم أحسن عملاً} أي خلقكم وخلق كل شيء لأجلكم، ليختبركم أيكم أطوع له وأحسن عملاً أي بإخلاصة لله تعالى وحده وبفعله على نحو ما شرعه الله وبيّنه رسوله.

هذه مظاهر علمه تعالى وقدرته وبها استوجب العبادة وحده دون سواه وبها علم أنه لا يخفى عليه من أمر عباده شيء فكيف يحاول الجهلة إخفاء ما في صدورهم وما تقوم به جوارحهم بثني صدورهم واستغشاء ثيابهم ألا ساء ما يعملون.

وقوله تعالى {ولئن قلت}- أي أيها الرسول للمشركين- إنكم مبعوثون من بعد الموت،

1 {وما من دابة} ما: نافية، ومن: مزيدة لتقوية النفي ليكون أكثر شمولاً، والتقدير: وما دابة في الأرض إلا على الله رزقها أي: تكفل الله برزقها فضلاً منه ومنة.

2 روى البخاري في حديث منه: قوله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء".

3 قال مقاتل: أيكم اتقى الله، وقال ابن عباس رضي الله عنه أيكم أعمل بطاعة الله عزّ وجلّ، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا {أيكم أحسن عملاً} قال: أيكم أحسن عملاً وأروع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله، ولو صحّ هذا الخبر لكان أتمّ وأجمع، وقال الفضيل: أحسن العمل: أخلصه وأصوبه. وهو كما قال.

(2/523)

أي مخلوقون خلقاً جديداً ومبعوثون من قبوركم لمحاسبتكم ومجازاتكم بحسب أعمالكم في هذه الحياة الدنيا {ليقولن الذين كفروا} أي عند سماع أخبار الحياة الثانية وما فيها من نعيم مقيم، وعذاب مهين {إن هذا إلا سحر مبين} أي ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الكلام ما هو إلا سحر مبين يريد به صرف الناس عن ملذاتهم، وجمعهم حوله ليتراأس عليهم ويخدموه، وهو كلام باطل وظن كاذب وهذا شأن الكافر، وقوله تعالى في الآية (8) {ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة} 1 أي ولئن أخرجنا أي أرجأنا ما توعدناهم به من عذاب ألى أوقات زمانية معدودة الساعات والأيام والشهور والأعوام {ليقولن ما يحبسهم} أي شيء حبس العذاب يقولون هذا إنكاراً منهم واستخفافاً قال تعالى {ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم} أي ليس هناك من يصرفه ويدفعه عنهم

بحال من الأحوال، {وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} أي ونزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون بقولهم: ما يحبسه!!؟

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- سعة علم الله تعالى وتكفله بأرزاق 2 مخلوقاته من إنسان وحيوان.

2- بيان خلق الأكوان، وعلّة الخلق.

3- تقرير مبدأ البعث الآخر بعد تقرير الألوهية لله تعالى.

4- لا ينبغي الاعتراض بإمهال الله تعالى لأهل معصيته، فإنه قد يأخذهم فجأة وهم لا يشعرون.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ

1 (إلى أمة): أي: إلى أجل محدود وحين معلوم، فالأمة هنا: المدّة، ولفظ الأمة يطلق على معانٍ منها: الجماعة، وسميت مجموعة السنين أمة لاجتماعها. والأمة: أتباع أحد الأنبياء والأمة، الملة والدين، والأمة: الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به.

2 قيل لحاتم الأصمّ: من أين تأكل؟ فقال من عند الله، فقيل له: الله ينزل لك دنائير ودرهم من السماء؟ فقال: كأنّ ماله إلاّ السماء! يا هذا: الأرض له والسماء له، فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض، وأنشد يقول:

وكيف أخاف الفقر والله رازقي ... ورازق هذا الخلق في العسر واليسر
تكفل بالأرزاق للخلق كلهم ...

وللضب في البيداء وللحوت في البحر

(2/524)

مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

شرح الكلمات:

أذقنا الإنسان: أي أئلناه رحمة أي غنى وصحة.

ثم نزعناها منه : أي سلبناها منه.

يؤوس كفور: أي كثير اليأس أي القنوط شديد الكفر.

نعماء بعد ضراء : أي خيراً بعد شر.

السيئات: جمع سيئة وهي ما يسوء من المصائب.

فرح فخور : كثير الفرح والسرور والبطر .

صبروا : أي على الضراء والمكاره .

مغفرة : أي لذنوبهم .

وأجر كبير : أي الجنة دار الأبرار .

معنى الآيات:

يخبر تعالى أن الإنسان 1 الذي لم يستتر بنور الإيمان ولم يتحل بصالح الأعمال إن أذاقه الله تعالى رحمة منه برحاء وسعة عيش وصحة بدن، ثم نزعها منه لأمر أراه الله تعالى {إنه} أي ذلك الإنسان {ليؤوس} 2 أي كثير اليأس والقنوط {كفور} لربه الذي أنعم عليه جحود لما كان قد أنعم به عليه . وقوله {ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء} أي أذقناه طعم نعمة ولذاذة رخاء وسعة عيش وصحة بدن بعد ضراء كانت قد أصابته من فقر ومرض {ليقولن} بدل أن يحمد الله ويشكره على إبعاده بعد شقاء وإغنائه بعد فقر وصحة بعد مرض يقول متبجحاً {ذهب السيئات عني

1 الإنسان هنا: اسم جنس يشمل كل إنسان كافر، وإن قيل: إن الآية في كافر معين، وهو الوليد بن المغيرة، أو عبدالله بن أبي أمية، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

2 هو من باب: فحل بفعل يئس يئس بأساً فهو آيس، وللمبالغة: يؤوس أي: كثير اليأس الذي هو: القنوط بانقطاع الرجاء، وجمله: {إنه ليؤوس كفور}: جواب القسم في قوله: {ولئن أذقنا الإنسان} الخ .

(2/525)

إنه لفرح} أي كثير السرور {فخور} كثير الفخر والمباهاة، وهذا علته ظلمة النفس بسبب الكفر والمعاصي، أما الإنسان المؤمن المطيع لله ورسوله فعلى العكس من ذلك إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وذلك لما في قلبه من نور الإيمان وفي نفسه من زكاة الأعمال . هذا ما تضمنه قوله تعالى {إلا الذين 1 صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة} 2 أي لذنوبهم {وأجر كبير} عند ربهم وهو الجنة دار السلام .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- أن الإنسان قبل أن يطهر بالإيمان والعمل الصالح يكون في غاية الضعف والانحطاط النفسي .
- 2- ذم اليأس والقنوط 3 وحرمتها .
- 3- ذم الفرح بالدنيا والفخر بها .
- 4- بيان كمال المؤمن الروحي المتمثل في الصبر والشكر وبيان جزائه بالمغفرة والجنة .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ
اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ (14)

- 1 يعني المؤمنين مدحهم بالصبر على الشدائد وهو استثناء من لفظ الإنسان الذي هو بمعنى الناس، فالاستثناء متصل وليس بمنقطع.
- 2 {أولئك لهم مغفرة} مبتدأ وخبر، {وأجر كبير} {أجر: معطوف، وكبير: نعت.
- 3 لقول الله تعالى: {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}.

(2/526)

شرح الكلمات:

فلعلك: للاستفهام الإنكاري أي لا يقع منك ترك ولا يضيق صدرك.

ضائق به صدرك: أي بتلاوته عليهم كراهية أن يقولوا كذا وكذا.

كنز: مال كثير تتفق منه على نفسك وعلى أتباعك.

وكيل: أي رقيب حفيظ.

افتراه: اختلقه وكذبه.

من استطعتم: من قدرتم على دعائهم لإعانتكم.

فهل أنتم مسلمون: أي أسلموا لله بمعنى انقادوا لأمره وأذعنوا له.

معنى الآيات:

بعد أن كثرت مطالبات المشركين الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يحول لهم جبال مكة ذهباً في اقتراحات منها لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {فلعلك نارك بعض ما يوحى إليك} 1 أي لا تتلوه على المشركين ولا تبلغهم إياه لتهاونهم به وإعراضهم عنه {وضائق به صدرك} أي بالقرآن، كراهة أن تواجههم به فيقولوا {لولا أنزل عليه كنز} 2 أي مال كثير يعيش عليه فيبدل ذلك على إرسال الله له {أو جاء معه ملك} يدعو بدعوته ويصدقها فيها ويشهد له بها فلا ينبغي أن يكون ذلك منك أي فيبلغ ولا يضيق صدرك {إنما أنت نذير} 3 أي محذر عواقب الشرك والكفر والمعاصي، والله الوكيل على كل شيء أي الرقيب الحفيظ أما أنت فليس عليك من ذلك شيء.

وقوله تعالى {أم يقولون افتراه} أي بك يقولون افتراه أي افترى القرآن وقاله من نفسه بدون ما أوحى

إليه، قل في الرد عليهم {فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم}4 دعوتهم لإعانتكم {إن كنتم صادقين} في دعوكم أني افتريته، فإن لم تستطيعوا ولن

- 1 {فلعلك..} الخ كلام معناه: الاستفهام أي: هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ إذ ورد أنهم قالوا له: لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك.
- 2 أي: هلا فهي للتخصيص وليست للامتناع.
- 3 القصر هنا إضافي إذ معناه أنه مقصور على الإنذار وليس عليه هداية القلوب.
- 4 أي: كالكهنة والأعوان والأصنام إذ يعتقدون أنها تتصرهم وتدفع عنهم وإلا لما عدوها مع الله تعالى.

(2/527)

تستطيعوا فتوبوا إلى ربكم وأسلموا له.

وقوله {فإن لم يستجيبوا لكم}1 أي قل لهم يا رسولنا فإن لم يستجب لنصرتكم من دعوتهم وعجزتم {فاعلموا أنما أنزل بعلم الله}2 أي أنزل القرآن متلبساً بعلم الله وذلك أقوى برهان على أنه وحيه وتنزيله {وأن لا إله إلا هو}3 أي وأنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه، وأخيراً {فهل أنتم مسلمون} أي أسلموا بعد قيام الحجة عليكم بعجزكم، وذلك خير لكم.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان ولاية الله لرسوله وتسديده له وتأيينه.
- 2- بيان ما كان عليه المشركون من عناد في الحق ومكابرة.
- 3- بيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكلف هداية الناس وإنما كلف إنذارهم عاقبة كفرهم وعصيانهم، وعلى الله تعالى بعد ذلك مجازاتهم.
- 4- تحدي الله تعالى منكري النبوة والتوحيد بالإتيان بعشر سور من مثل القرآن فعجزوا وقامت عليهم الحجة وثبت أن القرآن كلام الله ووحيه وأن محمداً عبده ورسوله وأن الله لا إله إلا هو.
مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ4

1 الاستجابة هنا: بمعنى الإجابة والسين والتاء فيه للتأكيد.

- 2 العلم : الاعتقاد اليقيني، أي : فأيقنوا أنّ القرآن ما أنزل إلاّ بعلم الله أي : ملابساً له.
- 3 معطوف على جملة : {فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله} أي : واعلموا أيضاً موقنين أنه لا إله إلا الله.
- حيث قامت الحجة عليهم بعجز آلهتهم عن الإتيان بعشر سور من مثل القرآن.
- 4 روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار".

(2/528)

مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17)

شرح الكلمات:

زينة الحياة الدنيا: المال والولد وأنواع اللباس والطعام والشراب.

توفّ إليهم : نعطهم نتاج أعمالهم وافيأً.

لا يبخسون : أي لا ينقصون ثمرة أعمالهم.

وحبط: أي بطل وفسد.

على بينة من ربه.: أي على علم يقيني.

ويتلوه شاهد منه : أي يتبعه.

كتاب موسى : أي التوراة.

ومن يكفر به : أي بالقرآن.

فالنار موعده : أي مكان وعد به فهو لا محالة نازل به.

في مرية منه : أي في شك منه.

معنى الآيات:

لما أقام الله تعالى الحجة على المكذبين بعجزهم عن الإتيان بعشر سور من مثل القرآن مفتريات حيث ادعوا أن القرآن مفترى وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افتراه ولم يبق إلا أن يختار المرء أحد الطريقين طريق الدنيا أو الآخرة الجنة أو النار فقال تعالى {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها} من مال وولد وجاه وسلطان وفاخر اللباس والرياش . {توفّ إليهم أعمالهم فيها} 3 نعطهم نتاج عملهم فيها وافيأً غير منقوص فعلى قدر جهدهم وكسبهم فيها يعطون ولا يبخسهم عملهم لكفرهم وتركهم، ثم هم بعد ذلك إن لم يتوبوا

1 أي: ممن رفضوا الإسلام وأبوه بعد قيام الحجة على بطلان ما هم عليه من الكفر ورضوا بالكفر بإرادة الحياة الدنيا.

2 التوفية: إعطاء الشيء وافياً، وعُدي نوف: بإلى لأنه مضمن معنى: نوصل.
3 لفظ {أعمالهم} يشمل الأعمال الخيرية والأعمال الدنيوية فالأعمال الخيرية كصلة الرحم، وقرى الضيف، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، فهذه لا يحرمها الكافر بل يجد جزاءها في الدنيا: بركة في ماله وولده وحياته، وأمّا الأعمال الدنيوية كالصناعة والزراعة والتجارة فهذه يوفى قدر جهده فيها، فبقدر ما يبذل من طاقة يحصل له من الكسب والريح والإنتاج فكفره لا يمنعه نتاج عمله بقدر ما يبذل فيه.

(2/529)

إلى ربه. هلكوا كافرين ليس لهم إلا النار {وحبط ما صنعوا}1 في هذه الدار من أعمال وبطل ما كانوا يعملون.
هذا ما دلت عليه الآية الأولى (15 والثانية 16) وهو قوله تعالى {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون} وقوله تعالى في الآية الثالثة (17) {أفمن كان على بينة من ربه}2 بما أوحى إليه من القرآن وما حواه من الأدلة والبراهين على توحيد الله ونبوة رسوله، وعلى المعاد الآخر، وقوله {ويتلوه شاهد منه} أي ويتبع ذلك الدليل دليل آخر وهو لسان الصدق الذي ينطق به وكلماته الخُفِيَّة والروحية حيث نظر إليه إعرابي فقال والله ما هو بوجه كذاب، ودليل ثالث في قوله {ومن قبله كتاب موسى} أي التوراة {إماماً ورحمة} شاهد له حيث حمل نعوت الرسول وصفاته ونعوت أمته وصفاتها في غير موضع منه أفمن هو على هذه البيّنات والدلائل والبراهين من صحة دينه، كمن لا دليل له ولا برهان إلا التقليد للضلال والمشركين، وقوله {أولئك يؤمنون به} أي أولئك الذين ثبتت لديهم تلك البيّنات والحجج والبراهين {يؤمنون به} أي بالقرآن الحق والنبي الحق والدين الحق. وقوله تعالى {ومن يكفر به} أي بالقرآن ونبيه ودينه من الأحزاب3 أي من سائر الطوائف والأمم والشعوب فالنار موعده، وحسبه جهنم وبئس المصير4
وقوله تعالى {فلا تك في مرية منه}5 أي فلا تك في شك منه أي في أن موعده من يكفر به من الأحزاب النار. وقوله {إنه الحق من ربك} أي6 القرآن الذي كذب به المكذبون وما تضمنه من الوعد والوعيد، والدين الحق كل ذلك هو الحق الثابت من ربك، إلا أن {أكثر الناس لا يؤمنون}7 وإن ظهرت الأدلة ولاحت الأعلام وقويت البراهين.

1 أعمال الكفار في الدنيا خيرية كانت أو دنيوية تذهب في الدار الآخرة هباء كقوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً}.

- 2 اختلف في عود الضمائر في هذه الآية اختلافاً كثيراً، وقد اخترنا في التفسير عودها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا مانع من عودها على كل مؤمن صادق الإيمان، بقريظة الخبر وهو قوله: {أولئك يؤمنون به} وهم الفريق الذين أسلموا لما شاهدوا الحجج والبراهين.
- 3 أظهرهم: المشركون واليهود، والنصارى والصابئة والمجوس.
- 4 لأنهم لم يذكروا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح فلذا فلا مأوى لهم إلا النار.
- 5 الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مؤمن أي: لا يشكّن مؤمن في أن القرآن حق وأن ما أخبر به عن الكافرين من أن مأواهم النار حق.
- 6 جملة: {إنه الحق من ربك} ، مستأنفة مؤكدة لجملة: {فلا تك في مرية منه}.
- 7 لما سبق في علم الله وما قضى به قوله: {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}.

(2/530)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- بيان حقيقة وهي أن الكفر غير مانع من أن ينتج الكافر بحسب جهده من كسب يده فيحصل إذ زرع، ويربح إذا اتجر، وينتج إذا صنع.
- 2- بيان أن الكافر لا ينتفع من عمله في الدنيا ولو كان صالحاً وأن الخسران لازم له.
- 3- المسلمون على بيعة من دينهم، وسائر أهل الأديان الأخرى لا بيعة لهم وهم في ظلام التقليد وضلال الكفر والجهل.
- 5- بيان سنة الله في الناس وهي أن أكثرهم لا يؤمنون.
- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20)

شرح الكلمات:

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً : أي لا أحد فالاستفهام للنفي.

يعرضون على ربهم : أي يوم القيامة.

الأشهاد : جمع شاهد وهم هنا الملائكة.

لعنة الله : أي طرده وإبعاده.

على الظالمين : أي المشركين.

سبيل الله : أي الإسلام.

عوجاً : أي معوجة.

معجزين في الأرض : أي الله عز وجل أي فائتين بل هو قادر على أخذهم في أية لحظة.

من أولياء : أي أنصار يمنعونهم من عذاب الله.

وما كانوا يبصرون: ذلك لفرط كراهيتهم للحق فلا يستطيعون سماعه، ولا رؤيته.

معنى الآيات:

بعد أن قرر تعالى مصير المكذبين بالقرآن ومن نزل عليه وما نزل به من الشرائع ذكر نوعاً من إجرام المجرمين الذين استوجبوا به النار فقال عز وجل {ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً} أي لا أحد في الناس أعظم ظلماً من أحد افترى على الله كذباً ما من أنواع 1 الكذب وإن قل وقوله {أولئك يعرضون على ربهم} أي أولئك الكذبة يعرضون يوم القيامة على ربهم جل جلاله في عرصات القيامة، ويقول الأشهاد من الملائكة شاهدين 2 عليهم {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم} ثم يُعْلَنُ مُعْلِنٌ قائلاً {ألا لعنة الله على 3 الظالمين} أي ألا بعداً لهم من الجنة وطرداً لهم منها إلى نار جهنم. ثم وضح تعالى نوع جنایاتهم التي استوجبوا بها النار فقال {الذين يصدون عن سبيل الله} 4 أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الدين الإسلامي، {ويبغونها} أي سبيل الله {عوجاً} أي معوجة كما يهون ويشتهون فهم يريدون الإسلام أن يبيح لهم المحرمات من الربا والزنى والسفور، ويريدون من الإسلام أن يأذن لهم في عبادة القبور والأشجار والأحجار إلى غير ذلك، ويضاف إلى هذا ذنب أعظم وهو كفرهم بالدار الآخرة. قال تعالى {أولئك} أي المذكورون {لم يكونوا معجزين في الأرض} أي لم يكن من شأنهم

1 من أنواع كذبهم على الله تعالى: زعمهم أن له شريكاً وولداً، وقولهم في الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وتحريمهم ما أحل الله ونسبة ذلك إليه تعالى.

2 ومن الأشهاد: الأنبياء والعلماء والمبلغون لدعوة الله تعالى لعباده وفي صحيح مسلم. "وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم".

3 لعنة الله: أي: بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

4 يجوز أن يكون: {الذين} مجروراً لمحل نعتاً للظالمين، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر، والمبتدأ محذوف. أي: هم الذين يصدون.

ومهما رأوا أنفسهم أقوى أن يعجزوا الله تعالى في الأرض فإنه مدركهم مهما حاولوا الهرب 1 ومنزل بهم عذابه متى أراد ذلك لهم، وليس لهم من دون الله من أولياء أي أنصار يمنعونهم من العذاب متى أنزله بهم، وقوله تعالى {يضاعف لهم العذاب} إخبار منه بأن هؤلاء الظالمين يضاعف لهم العذاب يوم القيامة لأنهم صدوا غيرهم عن سبيل الله فيعذبون بصددهم أنفسهم عن الإسلام، وبصد غيرهم عنه، وهذا هو العدل وقوله تعالى فيهم {ما كانوا يستطيعون} 2 السمع وما كانوا يبصرون { إخبار بحالهم في الدنيا أنهم كانوا لشدة كراهيتهم للحق ولأهله من الداعين إليه لا يستطيعون سماعه ولا رؤيته ولا رؤية أهله القائمين عليه والداعين إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- عظم ذنب من يكذب على الله تعالى بنسبة الولد أو الشريك إليه أو بالقول عليه بدون علم منه.
 - 2- عظم جرم من يصد عن الإسلام بلسانه أو بحاله، أو سلطانه.
 - 3- عظم ذنب من يريد إخضاع الشريعة الإسلامية لهواه وشهواته بالتأويلات الباطلة والفتاوى غير المسؤولة ممن باعوا آخرتهم بدنياهم.
 - 4- بيان أن من كره قولاً أو شخصاً لا يستطيع رؤيته ولا سماعه 3.
- أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْأَخْسَرُونَ (22) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

1 قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يعجزوني أن آمر الأرض فتتخسف بهم، وفي سورة سبأ {أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء}.

2 {ما كانوا يستطيعون السمع..} قال القرطبي ما: في موضع نصب على أن يكون المعنى بما كانوا يستطيعون السمع. يريد أن الباء المحذوفة سببية أي: يُضاعف لهم العذاب بسبب أنهم كانوا لا يستطيعون السمع لما ران على قلوبهم من الآثام فحجب الإثم أسماعهم وأبصارهم، وفي المثل: حبك الشيء يعمي ويصم، فحبهم للكفر والشرك والآثام عطل حواسهم.

3 أقول: ما كنت أدرك المعنى الحقيقي لقوله تعالى: {ما كانوا يستطيعون السمع} حتى كان صوت العرب على عهد بطل الاشتراكية "عبد الناصر" وأخذ يسبّ ويشتم ويعيّر ويقبح سلوك كل من لم يوال الاشتراكيين فكنت -والله- لا أستطيع سماع ما يذيعه، وثمّ فهمت معنى الآية على حقيقته.

الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى
وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24)

شرح الكلمات:

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ : أي غاب عنهم ما كانوا يدعون من شركاء الله تعالى.

لا جرم : أي حقاً وصدقاً أنهم في الآخرة هم الأَخْسَرُونَ.

وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ: أي تطامنوا أو خشعوا لربهم بطاعته وخشيته.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ: أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ : أي تتعظون، فتستغفروا ربكم ثم تتوبوا إليه؟

معنى الآيات:

ما زال السياق في تحديد المجرمين وبيان حالهم في الآخرة فقال تعالى {أولئك} أي البعداء {الذين خسروا أنفسهم} حيث استقروا في دار الشقاء فخسروا كل شيء حتى أنفسهم، {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمون أن لهم شركاء، وأنهم يشفعون لهم وينصرونهم قال تعالى: {لا جرم}1 أي حقاً {أنهم في الآخرة} أي في دار الآخرة {هم الأَخْسَرُونَ} أي الأكثر خسراناً من غيرهم لأنهم أضافوا إلى جريمة كفرهم جريمة تكفير غيرهم ممن كانوا يدعونهم إلى الضلال، ويصدونهم عن الإسلام سبيل الهدى والنجاة من النار. ولما ذكر تعالى حال الكافرين وملاً انتهوا إليه من خسران. ذكر تعالى حال المؤمنين فقال {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات}2 أي آمنوا بالله وبوعده ووعيده. وآمنوا برسول الله وبما جاء به، وعملوا الصالحات التي شرعها الله

1 {لا جرم} كلمة: جزم ويقين، واختلف في تركيبها وأظهر أقوالهم فيها: أن تكون لا: حرف نفي، وجزم: بمعنى محالة. ويصح معنى الكلمة. لا محالة أو: لا بد أن يكون كذا وكذا، أو لنفسر بحقاً، ولا محالة ولا بد، إذ جرم مأخوذ من الجرم الذي هو القطع.

2 الموصول: اسم إن، وآمنوا: صلة {وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم} معطوفان على الاسم، والخبر: {أولئك أصحاب الجنة} وجملة {هم فيها خالدون} جملة بيانية أي مبينة لحال أهل الجنة.

(2/534)

تعالى لهم من صلاة وزكاة {وأخبتوا إلى ربهم} أي أسلموا له وجوههم وقلوبهم وانقادوا له بجوارحهم فتظامنوا وخشعوا أولئك أي السامون أصحاب الجنة أي أهلها {هم فيها خالدون} أي لا يبرحون منها

ولا يتحولون عنها، هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث أما الآية الرابعة (24) وهي قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى ۖ وَالْأَصْمِ وَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ ۗ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟﴾ فقد ذكر تعالى مقارنة بين أهل الشرك وأهل التوحيد توضيحاً للمعنى وتقريباً للحكم فقال ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي صفة الفريقين الموضحة لهما هي كالأعمى والأصم وهذا فريق الكفر والظلم والسميع والبصير. وهذا فريق أهل الإيمان والتوحيد فهل يستويان مثلاً أي صفة الجواب لا، لأن بين الأعمى والبصير تبايناً كما بين الأصم والسميع تبايناً فأني عاقل يرضى أن يكون العمى والصمم وصفاً له ولا يكون البصر والسمع وصفاً له؟ والجواب لا أحد إذاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون بهذا المثل 2 وتتوبوا إلى ربكم فتؤمنوا به وتوحدا وتؤمنوا برسوله وتتبعوه، ويكتابه وتعملوا بما فيه؟

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- استحسان المقارنات بين الأشياء المتضادة للعبارة والاتعاض.
- 2- الكافر ميت موتاً معنوياً فلذا هو لا يسمع ولا يبصر، والمسلم حيٌّ فلذا هو سميع بصير.
- 3- بيان وريثة دار النعيم وهم أهل الإيمان والطاعة، وورثة دار الخسران وهم أهل الكفر والظلم. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي

1 فريق الإيمان وفريق الكفر والشرك.

2 المثل الذي كشف الحقيقة وبيّن أنّ الكفار عمي صم، وأنّ المؤمنين يبصرون ويسمعون، فأني عاقل يرضى أسوأ الوصفين!؟

(2/535)

الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَانِيزِينَ (27)

شرح الكلمات:

- نوحا : هو العبد الشكور أبو البشرية الثاني نوح عليه السلام.
إني لكم نذير مبين: أي مخوف لكم من عذاب الله بيّن النذارة.
عذاب يوم أليم: هو عذابه يوم القيامة.
الملا: الأشراف وأهل الحل والعقد في البلاد.
أرادلنا 1: جمع أرذل وهو الأكبر خسة ودناءة.

بادي الرأي: أي ظاهر الرأي، لا عمق عندك في التفكير والتصور للأشياء.
معنى الآيات:

هذه بداية قصة نوح عليه السلام وهي بداية لخمس قصص 2 جاءت في هذه السورة سورة هود عليه السلام قال تعالى {ولقد أرسلنا نوحاً 3 إلى قومه إنني لكم نذير مبين 4 مبين} أي قال لهم إنني لكم نذير مبين أي بين النذارة أي أخوفكم عاقبة كفركم بالله وبرسوله وشرككم في عبادة ريكم الأوثان والأصنام. وقوله {أن لا تعبدوا 5 إلا الله} أي نذير لكم بأن لا تعبدوا إلا الله، وتتركوا عبادة غيره من الأصنام والأوثان وقوله {إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم} علل لهم أمرهم بالتوحيد ونهيه عن الشرك بأنه يخاف عليهم إن أصروا على كفرهم وتركهم عذاب يوم أليم 6 وهو عذاب يوم القيامة {فقال الملائ الذين كفروا من قومه} أي فرد على نوح ملاً قومه اشرافهم وأهل الحل والعقد فيهم ممن كفروا بالله ورسوله فقالوا {ما نراك إلا بشراً مثلاًنا} 7 أي لا فضل لك علينا فكيف تكون رسولاً لنا ونحن مثلك هذا

1 الأردل: اسم تفضيل والمفضل عنه يقال له: رذل ككلب ويجمع على أردل كأكلب.

2 هذا العطف من باب عطف قصة على قصة: الواو: تسمى الواو الابتدائية.

3 كُسرت: إنَّ لأنَّ الإرسال فيه معنى القول وإن تكسر بعد القول.

4 القصة: بكسر القاف والجمع: قصص كحجة وحجج: الخبر يروى وتنتبج أجزأه بعناية، والقصاص بفتح القاف: مصدر قص الحديث يقصه قصاً.

5 هذه الجملة مفسرة لجملة {أرسلنا نوحاً} أو لقوله: {إنني لكم نذير مبين}.

6 وجائز أن يكون {عذاب يوم أليم} في الدنيا وهو عذاب الطوفان وقد كان.

7 مثلاًنا: منصوب على الحال.

(2/536)

أولاً وثانياً {وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا} أي سفلتنا من 1 أهل المهن المحترقة كالحياكة والحجامة والجزارة ونحوها وقولهم 2 بادي الرأي أي ظاهر الرأي لا عمق في التفكير ولا سلامة في التصور عندك وقولهم {وما نرى لكم علينا من فضل} أي وما نرى لكم علينا من أي فضل تستحقون به أن نصبح أتباعاً لكم فنترك ديننا ونتبعكم على دينكم بل نظنكم كاذبين فيما تقولون.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- إن نوحاً واسمه عبدالغفار أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشركوا بربهم وعبدوا غيره من الأوثان والآلهة الباطلة.

2- قوله أن لا تعبدوا إلا الله هو معنى لا إله إلا الله

3- التذكير بعذاب يوم القيامة.

4- اتباع الرسل هم الفقراء والضعفاء وخصومتهم الأغنياء والأشراف والكبراء.

5- احتقار أهل الكبر لمن دونهم. وفي الحديث "الكبر 3 بطر الحق وغمط الناس".

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا

1 قال القرطبي : اختلف في السفلة فقيل: هم الذين يتقلسون ويأتون أبواب القضاء والسلطين يطلبون الشهادات، وقال مالك: السفلة: الذين يسبون الصحابة. وقال آخر: الذين يأكلون على حساب دينهم.

2 ومنه البادية وهي الأراضي الظاهرة لا تحوطها مبانٍ ولا بساتين ولا مصانع.

3 الحديث في الصحيح فقد قال صلى الله عليه وسلم "إنَّ الله لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" فسئل عن الكبر فقال: الكبر: بطر الحق وغمط الناس" وبطر الحق : عدم قبوله ، وغمط الناس : احتقارهم.

(2/537)

أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

شرح الكلمات:

أرأيتم : أي أخبروني.

على بينة من ربي : أي على علم علمنيه الله فعلمت أنه لا إله إلا الله.

فعميت عليكم: أي خفيت عليكم فلم تروها.

أنزلمكموها: أي أجبركم على قبولها.

بطارد الذين آمنوا : أي بمبعدهم عني ومن حولي.

خزائن الله : التي فيها الفضل والمال.

تزدري أعينكم : تحتقر أعينكم.

معنى الآيات:

مازال السياق في قصة نوح مع قومه فأخبر تعالى أن نوحاً قال لقومه أرى أنتم أي أخبروني إن كنت على بينة من ربي أي على علم يقيني تعالى وبصفاته وبما أمرني به من عبادته وتوحيده والدعوة إلى ذلك. وقوله {وأتاني رحمة من عنده} وهي الوحي والنبوة والتوفيق لعبادته. {فعميت عليكم} أنتم 1 فلم تروها. فماذا أصنع معكم {أنلزمكموها} أي 2 أنجبركم أنا ومن آمن بي على رؤيتها والإيمان بها والعمل بها، {وانتم لها كارهون} 3 أي والحال أنكم كارهون لها والكاره للشيء لا يكاد يراه ولا يسمعه، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (27) أما الآية الثانية فإن الله تعالى يخبر أيضاً عن قيل نوح لقومه: {ويا قوم لا أسألكم عليه مالا} أي لا أطلب منكم أجراً على إبلاغكم هذه الرحمة التي عميت عليكم فلم تروها. {إن أجري إلا على الله} أي ما أجري إلا على الله إذ هو الذي كلفني

- 1 قرىء: {عميت} بتشديد الميم، وقرأ ورش بتخفيفها، ومعناه: إن الرسالة عميت عليكم فلم تفهموها. يقال: عميت عن كذا، وعمي عليّ كذا: أي: لم أفهمه.
- 2 {أنلزمكموها} أي: الرحمة التي هي عبادة الله وحده وترك عبادة سواه والاستفهام إنكاري. أي: ما كان لي ذلك والحال أنكم كارهون لها.
- 3 قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه. ولكنّه لم يملك ذلك.

(2/538)

بالعمل بها والدعوة إليها وواعدني بالأجر عليها. وقوله {وما أنا بطارد المؤمنين} أي وما أنا بمطيعكم في طرد المؤمنين من حولي كما اقترحتم عليّ، إنهم ملائقو رهيم، ومحاسبهم ومجازيهم على أعمالهم فكيف يصح مني ابعادهم عن سماع الحق وتعلمه والأخذ به ليكملوا ويسعدوا إذ العبرة بزكاة النفوس وطهارة الأرواح بواسطة الإيمان والعمل الصالح لا بالشرف والمال والجاه كما تتصورون ولذا فإنني أراكم قوما تجهلون هذا ما دلت عليه الآية الثانية (28) ثم قال لهم في الآية الثالثة {ويا قوم من ينصرتني 1 من الله إن طردتهم} أي من هو الذي يرد عنى عذاب الله ويمنعني منه إن أنا عصيته فطردت أي أقصيت وأبعدت عباده المؤمنين عن سماع الهدى وتعلم الخير ولا علة لذلك إلا لأنهم فقراء ضعفاء تزديهم أعينكم المريضة التي لا تقدر على رؤية الحق وأهله والداعين إليه. ثم قال لهم {أفلا تذكرون} 2 أي تتفكرون فتعلمون خطأكم وجهلكم فثوبوا إلى رشدكم. وتثوبوا إلى ربكم فتؤمنوا به ويرسوله وتعبدوه وحده لا شريك له ثم قال لهم في الآية الأخيرة (31) {ولا أقول لكم عندي خزائن الله} 3 رداً على قولهم: {وما نرى لكم علينا من فضل} {ولا أعلم الغيب} فأعرف ما تخفيه صدور الناس فأطرد هذا وأبقي هذا، ولا أقول إنني ملك حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا {ولا أقول للذين تزدي أعينكم} 4 لفقركم وضعفهم {لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم} أي من صدق أو

نفاق ومن حب لي أو بغض كأنهم طعنوا في المؤمنين واتهموهم بأنهم ينافقون أولهم أغراض فاسدة أو أطماع مادية من أجلها التفوا حول نوح، وقوله {إني إذا لمن الظالمين} أي إني إذا قلت للمؤمنين من الضعفاء لن يؤتاكم الله خيراً كنت بعد ذلك من الظالمين 5 الذين يعتدون على الناس بهضمهم حقوقهم وامتهان كرامتهم.
هداية الآيات:

- 1 أي: مَنْ يرد عني عذابه أن استوجبه بطرد عباده المؤمنين؟ والجواب: لا أحد فكيف إذا يسوغ لي أن أطردهم كما ترغبون.
- 2 {أفلا تذكرون} قرىء: تذكرون بحذف إحدى التائين وقرىء تذكرون: بتشديد الال، بإدغام إحدى التائين في الأخرى. والاستفهام للإنكار أي: ينكر عليهم غفلتهم وجهلهم وعدم تذكرهم ليتعظوا.
- 3 اخبر عليه السلام بتذلل الله وتواضعه لربه عز وجل فنفى عن نفسه القدرة على امتلاك خزائن الفضل والمال كما نفي عن نفسه علم الغيب وأن يكون ملكاً من الملائكة.
- 4 أي: تحتقر أعينكم. والأصل: تزديهم، حذف الهاء والميم لطول الاسم، والازدراء: افتعال من الزري الذي هو الاحتقار، والصاق العيب فالازدراء أصله الازتراء فقلبت فيه التاء دالاً فصار: الازدراء كما قلبت في: الازدياد.
- 5 في قوله: {من الظالمين}: تعريض بقومه، فوصفهم بالظلم من حيث لا يشعرون.

(2/539)

من هداية الآيات:

- 1 كره الشيء يجعل صاحبه لا يراه ولا يسمعه ولا يفهم ما يقال له فيه.
 - 2 كراهية أخذ الأجرة على الدعوة والتربية والتعليم الديني.
 - 3 وجوب احترام الضعفاء وإكرامهم وحرمة احتقارهم وازدراءهم.
 - 4 علم الغيب استأثر الله تعالى به دون سائر خلقه إلا من علمه الله شيئاً منه فإنه يعلمه.
 - 5 حرمة غمط الناس وازدراءهم والسخرية منهم
- قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)
- شرح الكلمات:

جادلتنا: أي خاصمتنا تريد إسقاطنا وعدم اعتبارنا في ديننا وما نحن عليه.

بما تعدنا : أي من العذاب إن لم نؤمن بما تدعونا إليه.
إن كنت من الصادقين : أي في دعواك النبوة والإخبار عن الله عز وجل.
بمعجزين : أي بغالبين ولا فائتين الله تعالى متى أراد الله عذابكم.
نصيحي : أي بتخويفي إياكم عذاب ربكم إن بقيتم على الكفر به وبلقائه ورسوله.
أن يغويكم: أي يوقعكم في الضلال ويبقيكم فيه فلا يهديكم أبدا.
معنى الآيات:
ما زال السياق في قصة نوح عليه السلام مع قومه فأخبر تعالى عن قول قوم نوح له عليه

(2/540)

السلام: فقال: {قالوا يا نوح قد جادلتنا 1} أي خاصمتنا وأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين أي فعجل العذاب وأنزله علينا إن كنت من الصادقين فيما تقول وتدعو وتعد. فأخبر تعالى عن قول نوح لهم ردا على مقالته وهو ما علمه ربه تعالى أن يقوله: فقال {قل إنما يأتيكم به الله} أي بالعذاب الله إن شاء ذلك. {وما أنتم بمعجزين} أي فائتين الله ولا هاربيين منه. وقوله: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم 2 هو ربكم واليه ترجعون}. أي إن نصحي لا شفعمكم بمعنى أنكم لا تقبلونه مهما أردت ذلك وبالغت فيه إن كان الله جل جلاله يريد أن يغويكم لما فرط منكم وما أنتم عليه من عناد وكفر ومجادة ومكابرة إذ مثل هؤلاء لا يستحقون هداية الله تعالى بل الأولى بهم الضلالة حتى 3 يهلكوا ضالين فيشقوا في الدار الآخرة. وقوله تعالى: {هو ربكم واليه ترجعون} أي فالأمر له أستم عبيده وهو ربكم إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم وإن كانت حكمته تنفي أن يعذب الصالحين ويرحم الغواة الظالمين.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية الجدل لإحقاق الحق وإبطال الباطل بشرط الأسلوب الحسن.
- 2- إرادة الله تعالى قبل كل إرادة وما شاءه الله يكون وما لم يشأه لم يكن.
- 3- لا ينفع نصح الناصحين ما لم يرد الله الخير للمنصوح له.
- 4- ينبغي عدم إصدار حكم على عبد لم يمت فيعرف بالموت مآله. إلا قول الله أعلم به.
أَمْ يَقُولُونَ 4 افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ (35)

1 {جادلتنا} أي: خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها، والجدل في لغة العرب: المبالغة في الخصومة. مأخوذ من الجدل: الذي هو شدة الفتل، وقالوا في الصقر أجدل: لشدته في الطيران.

- 2 فيه الرد على بطلان مذهب المعتزلة، والقدرية إذ زعموا أن الله لا يريد أن يعصي العاصي ولا أن يكفر الكافر ولا أن يغوي الغاوي وتجاهلوا أنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، ولا يقع شيء إلا بإذنه فهو الهادي لمن شاء هدايته، والمضل لمن شاء إضلاله، ولكن كلاً من هدايته وإضلاله يتمان حسب سنته في الهداية والإضلال فلم يظلم ربك أحداً.
- 3 ومن فسّر {أن يغويكم} : يهلككم : أراد أن الهلاك سبب للإغواء، فمن أغواه أهلكه، إذ لا يُهلك إلا الغاوي.
- 4 شرح هذه الآية في (ص 545) وأخرت على أنها معترضة لقصة نوح عليه السلام.

(2/541)

وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنِّي تَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39)

شرح الكلمات:

- وأوحى إلى نوح : أي اعلم بطريق الوحي الذي هو الإعلام السريع الخفي.
- فلا تبتئس : لا تحزن ولا يشتد بك الحزن فإني منجيك ومهلكهم.
- الفلك : أي السفينة التي أمرناك بصنعها لحمل المؤمنين عليها.
- سخرها منه : أي استهزئوا به كقولهم: تحمل هذا الفلك إلى البحر أو تحمل البحر إليه.
- يخزيه : أي يذله ويهينه.
- ويحل عليه عذاب مقيم : أي وينزل به عذاب النار يوم القيامة فلا يفارقه.

معنى الآيات:

عاد السياق بعد الاعتراض بالآية (35) إلى الحديث عن نوح وقومه فقال تعالى {وأوحى إلى نوح أنه 1 لن يؤمن من قومك إلا من 2 قد آمن}. وهذا بعد دعوة دامت قرابة ألف سنة إلا

- 1 {أنه} في موضع رفع نائب فاعل لأوحي أي: أوحى إلى نوح عدم إيمان قومه ومعنى الكلام: الإيأس من إيمانهم، واستدامة كفرهم تحقيقاً للوعيد بنزول العذاب بهم.
- 2 روي أن رجلاً من قوم نوح مرّ بنوح وهو يحمل طفله فلما رأى الطفل نوحاً قال لأبيه ناولني حجراً فناوله إياها فرمى بها نوحاً فأدماه، فأوحى الله تعالى إلى نوح: {أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن..}.

خمسین عاماً أي فلم يؤمن بعد اليوم أحد من قومك وعليه فلا تبتئس 1 أي لا تغتم ولا تحزن بسبب ما كانوا يفعلون من الشر والفساد والكفر والمعاصي فإني منجيك ومن معك من المؤمنين ومهلكهم بالغرق. وقوله تعالى في الآية الثانية (37) {واصنع الفلك بأعيننا ووحينا} أي وأمرناه أن يصنع الفلك أي السفينة تحت بصرنا وبتوجيهنا وتعليمنا. إذ لم يكن يعرف السفن ولا كيفية صنعها وقوله {ولا تخاطبني في الذين ظلموا} أي لا تسألني لهم صرف العذاب ولا تشفع لهم في تخفيفه عليهم، لأننا قضينا بإهلاكهم بالطوفان فهم لا محالة مغرقون قوله تعالى {واصنع الفلك 2 وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه} يخبر تعالى عن حال نوح وهو يصنع الفلك بقطع الخشب ونجره وتركيبه وقومه يَمرون عليه وكلما مرّ عليه أشرف القوم وعليتهم يسخرون منه كقولهم يا نوح أصبحت نجاراً أو وهل تنتقل البحر إليها، أو تنقلها إلى البحر فيرد عليهم نوح عليه السلام بقوله {إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون} أي منا فسوف تعلمون أي مستقبلاً من يأتيه عذاب يخزيه أي يذله ويهينه ويكسر أنف كبريائه، ويحل 3 عليه عذاب مقيم وهو عذاب النار يوم القيامة وهو عذاب دائم لا ينتهي أبداً.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- كراهية الحزن والأسى والأسف على ما يقوم به أهل الباطل والشر والفساد.
 - 2- بيان تاريخ صنع السفن وانها بتعليم الله لنوح عليه السلام.
 - 3- بيان سنة البشر في الاستهزاء والسخرية بأهل الحق ودعائه لظلمة نفوسهم بالكفر والمعاصي.
 - 4- بيان صدق وعد الله رسله.
- حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا

1 الابتئاس: افتعال من البؤس الذي هو الهم والحزن. قال الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رزأته

فلم ابتئس والرزء فيه جليل

2 اختلفت الأقوال في مدّة صنع السفينة، أكثرها أنها: أربعون سنة. وجائز أن تكون أكثر، لأن عمل فرد واحد في صنع سفينة يتطلب وقتاً طويلاً أمّا حجمها فيدل على كبره ما حمل فيها، إذ حمل فيها كل مؤمن ومؤمنة ومن كل زوجين اثنين، فحجمها لا شك أنه واسع كبير، وقيل: كانت السفينة ثلاث طبقات: السفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. والله اعلم، والحديث عن طول

السفينة وعرضها ومادتها كله من باب علم لا ينفع وجهالة لا تضر.
3 أي: يجب عليه وينزل به.

(2/543)

من كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ
ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ
وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ
يَعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُعْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

شرح الكلمات:

فار التنور: أي خرج الماء وارتفع من التنور وهو مكان طبخ الخبز.

زوجين اثنين: أي من كل ذكر وأنثى من سائر أنواع المخلوقات اثنين.

وأهلك: أي زوجتك وأولادك.

مجريها ومرساها: أي إجراؤها وإرساؤها.

في موج كالجبال: الموج ارتفاع ماء البحر وكونه كالجبال أي في الارتفاع.

يعصمني من الماء: يمنعني من الماء أن يغرقني.

وغيض الماء: أي نقص بنضوبه في الأرض.

على الجودي: أي فوق جبل الجودي وهو جبل بالجزيرة غرب الموصل.

بعدا للقوم الظالمين: أي هلاكاً لهم.

(2/544)

شرح الكلمات:.

أم يقولون: أي بل يقولون افتراه.

افتراه: أي اختلقه وقال من نفسه ولم يوح به إليه.

فعلى إجرامي 1: أي عاقبة الكذب الذي هو الإجمام تعود علي لا على غيري.

وأنا بريء: أي أتبرأ وأتصل من إجرامكم فلا أتحمل مسؤوليته.

مما تجرمون: أي على أنفسكم بإفسادها بالشرك والكفر والعصيان.
معنى الآية:

هذه الآية الكريمة أوقعها الله مُنزلها سبحانه وتعالى بين أجزاء الحديث عن نوح وقومه، وحسن موقعها هنا لأن الحديث عن نوح وقومه لا يتأتى لأحد إلا لنبي يوحى إليه، وذلك لبعده في التاريخ فَقَصُّ النبي له اليوم دليل على أنه نبي يُوحى إليه، فلذا قال أم يقولون افتراه² أي يقولون افتري القرآن وكذبه ولم يوح إليه قل إن افتريته كما زعمتم فعليّ إجرامي أي أثم كذبي وأنا بريء مما تجرمون أنتم بتكذيبكم إياي وكفركم بربكم ورسوله ووعده ووعيده.
هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- جواز الاعتراض في الكلام إذا حسن موقعه لإقامته حجة أو إبطال باطل أو تنبيه على أمر مهم.

1- قص القصص أكبر دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة ودعوته إلى الله تعالى.

3- تقرير مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله وأن لا تزر وازرة وزر أخرى.

1 الإجماع: مصدر أجم يجمع إجماعاً: إذا اختلفت السيئات وجرم الثلاثي كأجرم الرباعي، قال الشاعر وهو أحد لصوص بني سعد:

طريد عشيرة ورهين جرم

بما جرمت يدي وجنى لساني

2 فسرت الآية في التفسير بالقول الراجح وهو: أنّ المراد بمن يقول افتراه: النبي صلى الله عليه وسلم والآية معترضة أحاديث قصة نوح وذهب بعضهم نقلاً عن ابن عباس أنها من محاوره نوح عليه السلام مع قومه: واستظهروها من أجل السياق السابق واللاحق والله أعلم.

(2/545)

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن نوح وقومه قال تعالى {حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور} أي واصل صنع السفينة حتى إذا جاء أمرنا أي بإهلاك المشركين، وفار¹ التنور أي خرج الماء من داخل التنور وفار وتلك علامة بداية الطوفان فاحمل فيها أي في السفينة التي صنعت من كل زوجين² اثنين أي من كل نوع من أنواع الحيوانات زوجين أي ذكراً وأنثى. وأهلك أي واحمل أهلك من زوجة

وولد كسام وحام ويافت إلا من سبق عليه القول أي بالإهلاك كامرأته واعلة وولده كنعان. ومن آمن 3
أي واحمل من آمن من سائر الناس، {وما آمن معه إلا قليل} أي نحو من ثمانين رجلاً وامرأة هذا ما
دلت عليه الآية الأولى (40) أما الثانية فقد أخبر تعالى فيها أن نوحاً قال لجماعة المؤمنين {اركبوا
فيها} أي في السفينة {باسم الله مجراها 4 ومرساها} أي باسم الله تجري وباسم الله ترسو أي تقف {إن
ربي لغفور رحيم} 5 أي فهو لا يهلكنا بما قد يكون لنا من ذنب ویرحمنا فينجينا ويكرمنا. وقوله تعالى
في الآية الثالثة (42) {وهي تجري بهم في موج كالجبال} وصف للسفينة وهي تغالب الماء وتمخر
عبابه وأمواج الماء ترتفع حتى تكون كالجبال في ارتفاعها وقبلها نادى نوح ابنه كنعان، وهو في هذه
الساعة في معزل 6 أي من السفينة حيث رفض الركوب فيها لعقوقه وكفره 7 فقال له {يا بني اركب 8
معنا ولا تكن مع الكافرين} فتغرق كما يغرقون فأجاب الولد قائلاً

- 1 الفوران: غليان القدر، ويطلق على نبع الماء بشدة تشبيهاً بفوران ماء في القدر إذا غلى، والتنور:
اسم لموقد النار للخبز.
- 2 قرأ حفص { من كلٍ } بتنوين كل فالتنوين عوض عن مضاف إليه أي: من كل المخلوقات، و
{زوجين} مفعول لـ (احمل)، واثنين: نعت له وقرأ الجمهور بإضافة كل إلى زوجين، والمراد بالزوجين
هنا: الذكر والأنثى من كل نوع من أنواع الحيوانات.
- 3 ومن آمن: أي: كل المؤمنين.
- 4 جائز أن يكون القائل: {اركبوها} الله جلّ جلاله، وجائز أن يكون نوحاً عليه السلام والركوب:
العلو على ظهر شيء، وقال: فيها، ولم يقل عليها لأنها ظرفٌ لهم يدخلون فيها.
- 5 قرأ الجمهور بضم الميم في كل من مجراها، ومرساها، وهما مصدران من: أجرى وأرسى، وقرأ
عاصم بفتح ميم مجراها، وضم ميم مرساها كالجهور، ولم يفتح ميم مرساها لاشتباهاه. حينئذ
المرسى مكان الرسو، وقرىء مجريها، ومرسيها باسم الفاعل أي: بسم الله مجريها ومرسيها.
- 6 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله
الرحمن الرحيم" {وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات
بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون.} بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم.
- 7 وقيل: في معزل أي: من دين أبيه.
- 8 قرأ حفص: {يا بني} بفتح الياء المشددة وكسرهما غير عاصم.

في حب يوسف. وواصلت العير سيرها وبعد أيام وصلت وجاء يهودا يحمل القميص فألقاه على وجه يعقوب فارتد بصيراً كما أخبر يوسف إخوته بمصر. وهنا واجه أبناءه بالخطاب الذي أخبر تعالى به في قوله: {قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون} أي أعلم من لطف الله وحسن تدبيره ورحمته وإفضاله ما لا تعلمون. وهنا طلبوا من والدهم أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ربهم فقالوا ما أخبر تعالى به: {قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين، قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم}.

أجلّ لهم طلب المغفرة إلى ساعة الاستجابة كآخر الليل وقت السحر أو يوم الجمعة. وتتفيداً لأمر يوسف إخوته بأن يأتوه بأهلهم أجمعين تحملت الأسرة بسائر أفرادها مهاجرين إلى مصر. وكان يوسف وملك مصر وألوف من رجال الدولة وأعيان البلاد في استقبالهم، وكان يوسف قد ضربت له خيمة أو فسطاط، ووصلت المهاجرة إلى مشارف الديار المصرية وكان يوسف في فسطاطه {قلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه} أي ضمّهما إلى موكبه {وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين} ولما انتهوا إلى القصر ودخلوا {ورفع} يوسف {أبويه} أمه وأباه {على العرش} سرير الملك {وخروا له سجداً} تحية وتشريفاً¹. وهنا قال يوسف {يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً} إذ رأى في صباه أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأهم له ساجدين. وقوله {وقد أحسن بي إذ أخرجني² من السجن وجاء بكم من البدو³ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي} هذا ثناء على الله بنعمه وتذكير للحاضرين، بالحادثة والطف الله تعالى فيها. ومن كرم نفس يوسف وسمو آدابه لم يقل قد أحسن بي إذ أخرجني من الجب فيذكرهم بما يؤلمهم بل قال من السجن. ويعني بقوله وجاء بكم من البدو أي من أرض كنعان. ونسب الإساءة التي كانت من إخوته إلى الشيطان تلطيفاً للجو ومبالغة في إذهاب الهم من نفس إخوته، وختم حديث النعمة في أعظم فرحة {إن ربي⁴ لطيف لما يشاء انه هو العليم} أي بخلقه

1 على عادة أهل ذلك الزمان، وهو سجود تحية لا عبادة.

2 أحسن بي وإليّ بمني واحد أي قدم أي صنع إليّ معروفاً. بجلب خير أو دفع ضر.

3 أي: البادية، والبدو ضد الحضر، والاسم مشتق من البدوّ الذي هو الظهور والنزغ عبارة عن إدخال الفساد في النفس، شبه بنزغ الراكب الدابة وهو يريدتها تسرع.

4 اللطف: التدبير الملائم، واللطيف: صاحب اللطف.

المجلد الثالث

سورة الرعد

...

سورة الرعد

مكية وآياتها ثلاث وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي
رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا لِئَلَّا تُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ
يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

شرح الكلمات:

المر : هذه الحروف المقطعة تكتب المر وتقرأ ألف لَامٍ مِيمٍ را. والله أعلم بمراده بها.
بغير عمد ترونها: العمد جمع عمود أي مرئية لكم إذ الجملة نعت.

(3/5)

ثم استوى على العرش1: استواء يليق به عز وجل.

وسخر الشمس والقمر: أي ذللها بمواصلته دورانها لبقاء الحياة إلى أجلها.

هو الذي مد الأرض: أي بسطها للحياة فوقها.

رواسي: أي جبال ثوابت.

زوجين اثنين: أي نوعين وضربين كالحلو والحامض والأصفر والأسود مثلاً.

يغشى الليل النهار: أي يغطيه حتى لا يبقى له وجود بالضياء.

لآيات: أي دلالات على وحدانية الله تعالى.

قطع متجاورات: أي بقاع متلاصقات.

ونخيل صنوان: أي عدة نخلات في أصل واحد يجمعها، والصنو الواحد والجمع صنوان.

في الأكل: أي في الطعام هذا حلو وهذا مرّ وهذا حامض، وهذا لذيق وهذا خلاقه.

معنى الآيات:

قوله تعالى {المَرَّ} الله أعلم بمراده به. وقوله {تلك آيات الكتاب} الإشارة إلى ما جاء من قصص سورة يوسف، فالمراد بالكتاب التوراة والإنجيل فمن جملة آياتها ما قص الله تعالى على رسوله. وقوله: {والذي 2 أنزل إليك من ربك} 3 وهو القرآن العظيم {الحق} أي هو الحق الثابت. وقوله {ولكن أكثر الناس لا يؤمنون} أي مع أن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق فإن أكثر الناس من قومك وغيرهم لا يؤمنون بأنه وحى الله وتنزيله فيعملوا به فيكملوا ويسعدوا. وقوله تعالى: {الله الذي رفع السموات والأرض بغير عمد} 4

1 عقيدة السلف في هذه الصفة: وجوب الإيمان بها وإمرارها كما ذكرها تعالى بلا تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وكذا سائر صفاته عز وجل.

2 يصح أن تكون الواو عاطفة صفة على أخرى، أي: عطفت الذي على الكتاب فالموصول في محل جر نعت للكتاب، وهو نظير قول الشاعرة

إلى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتيبة في المزدحم

ويكون المعنى: تلك آيات الكتاب الذي أنزل إليك من ربك والحق: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الحق. وما في التفسير واضح قال به مجاهد وقتاده.

3 قال مقاتل: نزلت هذه الآية رداً على المشركين القائلين: أن محمداً صلى الله عليه وسلم يأتي بالقرآن من تلقاء نفسه.

4 في الآيات استدلال بقدرة الله وعلمه وحكمته على أن القرآن الكريم وحيه أوحاه إلى رسوله وتنزيله أنزله عليه ليس كما يدعي المشركون.

(3/6)

ترونها}: أي أن إلهكم الحق الذي يجب أن تؤمنوا به وتعبده وتوحدوه الله الذي رفع السموات على الأرض بغير عمد مرئية لكم ولكن رفعها بقدرته وبما شاء من سنن. وقوله: {ثم استوى على العرش} أي خلق السموات والأرض ثم استوى على عرشه استواء يليق بذاته وجلاله يدبر أمر الملكوت وقوله: {وسخر الشمس والقمر} أي ذللها بعد خلقهما يسيران في فلكهما سيراً منتظماً إلى نهاية الحياة، وقوله {كل يجري} أي في فلكه فالشمس تقطع فلكها في سنة كاملة والقمر في شهر كامل وهما يجريان هكذا إلى نهاية الحياة الدنيا فيخسف القمر وتنكدر الشمس وقوله: {يدبر الأمر} أي يقضي ما يشاء في السموات والأرض ويدبر أمر مخلوقاته بالإماتة والإحياء والمنع والإعطاء كيف

يشاء وحده لا شريك له في ذلك. وقوله: {يفصل الآيات} أي القرآنية بذكر القصص وضرب الأمثال وبيان الحلال والحرام كل ذلك ليهيئكم ويعدكم للإيمان بقاء ربحكم فتؤمنوا به وتعبدوا الله وتوحدوه في عبادته فتكملوا في أرواحكم وأخلاقكم وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم. وقوله تعالى: {وهو الذي مد الأرض} 1 أي بسطها {وجعل فيها رواسي} أي جبلاً ثوابت {وأنهاراً} أي وأجرى فيها أنهاراً {ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين} أي نوعين وضربين فالرمان منه الحلو ومنه الحامض والزيتون منه الأصفر والأسود، والتين منه الأبيض والأحمر وقوله: {يغشى الليل النهار} أي يغطي سبحانه وتعالى النهار بالليل لفائدتكم لتناموا وتستريح أبدانكم من عناء النهار وقوله: {إن في ذلك} أي المذكور في هذه الآية الكريمة من مد الأرض وجعل الرواسي فيها وإجراء الأنهار، وخلق أنواع الثمار واغشاء الليل النهار، في كل هذا المذكور {آيات} أي علامات ودلائل واضحة على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته وحكمته وعلى وجوب عبادته وتوحيده وعلى الإيمان بوعده ووعدته، ولقائه وما أعد من نعيم لأوليائه وعذاب لأعدائه، وقوله تعالى: {وفي الأرض قطع متجاورات} 2 أي بقاع من الأرض بعضها إلى جنب بعض متلاحقات هذه تربتها طيبة وهذه تربتها خبيثة ملح سبخة وفي الأرض أيضاً جنات أي بساتين من

1 لما ذكر تعالى آياته الكونية في السماء ذكر آياته الكونية في الأرض استدلالاً بها على قدرته وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده وعبادته دون سواه.
2 أي: وأخرى غير متجاورات فحذفت على حدّ قوله: {سرابيل تقيكم الحرّ} حيث حذف المقابل وهو: تقيكم البرد.

(3/7)

أعنان وفيها زرع ونخيل {صنوان} 1 النخلتان والثلاث في أصل واحد، {وغير صنوان} كل نخلة قائمة على أصلها، وقوله: {تسقى} أي تلك الأعنان والزرع والنخيل {بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل} 2 وهو ما يؤكل منها فهذا حلو وهذا حامض وهذا لذيذ وهذا سمج، وقوله: {إن في ذلك} أي المذكور من القطع المتجاورات مع اختلاف الطيب وعدمه وجات الأعنان والنخيل وسقيها بماء واحد واختلاف طعمها وروائحها وفوائدها {آيات} 3 علامات ودلائل باهرات على وجوب الإيمان بالله وتوحيده ولقائه، ولكن {لقوم يعقلون} أما الذين فقدوا عقولهم لاستيلاء المادة عليها واستحكام الشهوة فيها فإنهم لا يدركون ولا يفهمون شيئاً فكيف إذا يرون دلائل وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته فيؤمنون به ويعبدونه ويتقربون إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة الوحي الإلهي ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

2- تقرير عقيدة التوحيد وأنه لا إله إلا الله.

3- تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الكسب في الدنيا.

4- فضيلة التفكير في الآيات الكونية.

5- فضيلة العقل للاهتداء به إلى معرفة الحق واتباعه للإسعاد والإكمال.

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ

1 الصنو: المثل، ومنه الحديث: "عم الرجل صنو أبيه" ولا فرق بين التثنية والجمع في: (صنوان) إلا

بكسر نون المثني، وتثوين نون الجمع، فتقول: هذان صنوان وهؤلاء صنوان.

2 كالدقل والحلو والحامض، وبنو آدم كذلك الأصل واحد والخلاف قائم هذا مؤمن وهذا كافر، هذا

صالح وهذا فاسد، كما قال الشاعر:

الناس كالنبت والنبت ألوان

منها شجر الصندل والكافور والبان

ومنها شجر ينضح طول الدهر قطران

3 في هذه الآيات دلائل الوجدانية وعظم الصمدية والإرشاد لمن ضل عن معرفته حيث نبه تعالى

بقوله: {متجاورات} ومع تجاورها قطعة عذبة وأخرى ملحة، قطعة طيبة وأخرى خبيثة كما أن التربة

واحدة، وتسقى بماء واحد وتختلف طعوم الثمار وألوانه وخصائصه ومنافعه فهذا لن يكون صادراً إلا

عن ذي قدرة لا تُحدَّ وعلم لا ينتهي وحكمة لا يخلو منها شيء، وهو الله تعالى، وأين الطبيعة

العمياء الصماء التي لا علم لها ولا إرادة من الله خالق كل شيء العليم بكل شيء؟

(3/8)

جَدِيدِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

هَادٍ (7) اللَّهُ يَعْلمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)

شرح الكلمات:

وإن تعجب: أي يأخذك العجب من إنكارهم نبوتك والتوحيد.

فَعَجِب: أي فأعجب منه إنكارهم للبعث والحياة الثانية مع وضوح الأدلة وقوة الحجج.
لفي خلق جديد: أي نرجع كما كنا بشراً أحياء.
الأغلال في أعناقهم: أي موانع من الإيمان والاهتداء في الدنيا، وأغلال تشد بها أيديهم إلى أعناقهم في الآخر.
بالسيئة: أي بالعذاب.
قبل الحسنة: أي الرحمة وما يحسن بهم من العقابة والرخاء والخصب.
المثلاث: أي العقوبات واحدها مثله التي قد أصابت المكذبين في الأمم الماضية.
لولا أنزل عليه: أي هلاً أنزل، ولولا أداة تحضيض كهلاً.

(3/9)

آية من ربه: أي معجزة كعصا موسى وناقاة صالح مثلاً.
ولكل قوم هاد: أي نبي يدعوهم إلى ربهم ليعبدوه وحده ولا يشركون به غيره.
ما تحمل كل أنثى: أي من ذكر أو أنثى واحداً أو أكثر أبيض أو أسمر.
وما تغيض الأرحام: أي تنقص من دم الحيض، وما تزداد منه.
معنى الآيات:
ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى الإيمان بالتوحيد والنبوة المحمدية والبعث يوم القيامة للحساب والجزاء، فقوله تعالى في الآية الأولى (5) {وإن تعجب} 1 يا نبينا من عدم إيمانهم برسالتك وتوحيد ربك فعجب أكبر هو عدم إيمانهم بالبعث الآخر، إذ قالوا في إنكار وتعجب: {أنذا متنا 2 وكنا تراباً أننا لفي خلق جديد} أي يحصل لنا بعد الفناء والبلى؟ قال تعالى مشيراً إليهم مسجلاً الكفر عليهم ولازمه وهو العذاب {وأولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال 3 في أعناقهم} وهي في الدنيا موانع الهداية كالتقليد الأعمى والكبر والمجاددة والعناد، وفي الآخرة أغلال توضع في أعناقهم من حديد تشد بها أيديهم إلى أعناقهم، {وأولئك أصحاب النار} أي أهلها {هم فيها خالدون} أي ما كئون أبداً لا يخرجون منها بحال من الأحوال.
وقوله تعالى في الآية الثانية (6) {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة} يخبر تعالى رسوله مقررماً ما قال أولئك الكافرون بربهم ولقائه ونبي الله وما جاء به، ما قالوه استخفافاً واستعجالاً وهو طلبهم العذاب الدنيوي، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخوفهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فهم يطالبون به كقول بعضهم: {فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم}، قبل طلبهم الحسنة وهذا لجهلهم وكفرهم، وإلا لطالبوا بالحسنة التي هي العافية والرخاء والخصب قبل السيئة التي هي الدمار والعذاب.

1 أصل التعجب: تغير النفس بما تخفي أسبابه، والمخاطب في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تابعون له.

2 مثل هذا الاستفهام وقع في تسع سور من القرآن في أحد عشر موضعاً ومن القراء من استفهم في الموضوعين أنذا كنا تريباً أننا لمبعوثون ومنهم من استفهم في موضع واحد، فمن استفهم في الأول والثاني قصد المبالغة في الإنكار فأتى به في الجملة الأولى وأعادها في الثانية تأكيداً له ومن أتى به مرة واحدة لحصول المقصود به لأن كل جملة مرتبطة بالثانية فإذا أنكر في إحداها حصل الإنكار في الأخرى (أفاده الجمل).

3 الأغلال: جمع غل وهو طوق من حديد تشدّ به اليد إلى العنق.

(3/10)

وقوله تعالى: {وقد خلت من قبلهم المثلثات}1 أي والحال أن العقوبات قد مضت في الأمم من قبلهم كعقوبة الله لعاد وثمود وأصحاب الأيكة والمؤتفكات فما لهم يطالبون بها استبعاداً لها واستخفافاً بها أين ذهبت عقولهم؟ وقوله تعالى: {وان ربك لذو مغفرة للناس}2 على ظلمهم وهو ظاهر مشاهد إذ لو كان يؤاخذ بالظلم لمجرد وقوعه فلم يغفر لأصحابه لما ترك على الأرض من دابة، وقوله: {وان ربك لشديد العقاب} أي على من عصاه بعد أن أذره وبين له ما يتقي فلم يتق ما يوجب له العذاب من الشرك والمعاصي.

وقوله تعالى في الآية الثالثة (7) {ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه! يخبر تعالى رسوله والمؤمنين عن قيل الكافرين بالتوحيد والبعث والنبوة: {لولا} أي هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية من ربه كعصا موسى وناقاة صالح، حتى نؤمن بنبوته ونصدق برسالته، فيرد تعالى عليهم بقوله: {إنما أنت منذر} والمنذر المخوف من العذاب وليس لازماً أن تنزل معه الآيات، وعليه فلا تلتفت إلى ما يطالبون به من الآيات، واستمر على دعوتك فإن لكل قوم 3 هادياً وأنت هادي هذه الأمة، وداعيتها إلى ربه فادع واصبر.

وقوله تعالى في الآية الرابعة (8) {الله يعلم ما تحمل كل أنثى}4 أي من ذكر أو أنثى واحداً أو اثنتين أبيض أو أسمر سعيداً أو شقيماً، وقوله: {وما تغيض}5 الأرحام وما تزداد أي ويعلم ما تغيض الأرحام من دماء الحيض 6 وما تزداد منها إذ غيضاها ينقص من مدة الحمل وازديادها يزيد في مدة الحمل فقد تبلغ السنة أو أكثر، وقوله: {وكل شيء عنده بمقدار} أي وكل شيء في حكمه وقضائه وتدبيره بمقدار معين لا يزيد ولا ينقص في ذات ولا صفة

- 1 المثالات: جمع مثلة، وهي العقوبة نحو: صدقة وصدقات، وتضم الميم وتسكن التاء مثله كغرفة والجمع مثل كُفرب وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثلاً تمثل بها العقوبات.
- 2 قال ابن عباس رضي الله عنه هذه أرجى آية في كتاب الله، قال سعيد بن المسيب، لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحداً عيشه ولولا عقابه ووعيده وعذابه لا تكل كل أحد".
- 3 هادي كل أمة رسولها الذي بعث فيها وخلفاء الأنبياء وحواريهم هداة يهدون من بعدهم والله يهدي من يشاء.
- 4 قال القرطبي: من ذكر أو أنثى: صَبِيحٌ أو قَبِيحٌ صالح أو طالح. وقوله: {كل أنثى} يفيد عموم كل أنثى في الإنسان والحيوان، وهو كذلك.
- 5 العادة أن انحباس الحيض دال على العلق أي: الحمل، وفيضان الدم دال على عدم الحمل، وتفسير الآية بهذا حسن، فالله تعالى يعلم ما تغيض الأرحام من الدم، لانشغال الرحم بالعلقة ثم بالجنين، وما تزداد من الدم حتى يفيض عنها، ويخرج، وهو دم من لا حمل لها. وما في التفسير وجه وهذا الوجه أوضح.
- 6 استدل بالآية من قال: الحامل لا تحيض وهو أبو حنيفة. والجمهور على أنها تحيض كما استدل بها كل من قال: الحمل تزيد مدته إلى أربع سنوات، وهو الجمهور، وخالف الظاهرية في ذلك.

(3/11)

ولا حال، ولا زمان ولا مكان، وقوله: {عالم الغيب والشهادة} أي كل ما غاب عن الخلق، وما لم يرغب عنهم مما يشاهدونه أي العليم بكل شيء، وقوله: {الكبير المتعال} أي الذي لا أكبر منه وكل كبير أمامه صغير المتعال على خلقه المنزه عن الشريك والشبيهة والصاحبة والولد هذا هو الله وهذه صفاته فهل يليق بعاقل أن ينكر استحقاقه للعبادة دون سواه؟ فهل يليق بعاقل أن ينكر عليه أن يوحى بما شاء على من شاء من عباده؟ فهل يليق بعاقل أن ينكر على من هذه قدرته وعلمه أن يحيي العباد بعد أن يميتهم ليسألهم عن كسبهم ويحاسبهم عليه ويجزيهم به؟ اللهم لا إذا فالمنكرون على الله ما دعاهم إلى الإيمان به لا يعتبرون عقلاء وإن طاروا في السماء وغاصوا في الماء.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير أصول العقيدة الثلاثة: التوحيد والنبوة البعث والجزاء الآخر.
- 2- صوارف الإيمان والتي هي كالأغلال ير التقليد الأعمى، والكبر والعناد.
- 3- عظيم قدرة الله تعالى وسعة علمه.

4-تقرير عقيدة القضاء والقدر.

سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

(3/12)

وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)
شرح الكلمات:

وسارب بالنهار: أي ظاهر في سره أي طريقه.

له معقبات: أي ملائكة تتعقبه بالليل والنهار.

من أمر الله: أي بأمر الله تعالى وعن إذنه وأمره.

لا يغير ما بقوم: أي من عافية ونعمة إلى بلاء وعذاب.

ما بأنفسهم: من طهر وصفاء بالإيمان والطاعات إلى الذنوب والآثام.

وما لهم من دونه من وال: أي وليس لهم من دون الله من يلي أمرهم فيدفع عنهم العذاب.

من خيفته: أي من الخوف منه وهيبته وجلاله.

وهو شديد المحال: أي القوة والمماحلة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر جلال الله وعظيم قدرته وسعة علمه، قال تعالى في هذه الآية: {سواء منكم 1 من أسر القول ومن جهر به} فالله يعلم السر والجهر وأخفى {ومن هو مستخف بالليل} يمشى في ظلامه ومن هو {سارب بالنهار} أي يمشى في سره 2 وطر يقه مكشوفاً معلوماً لله تعالى، وقوله تعالى: {له معقبات 3 من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من

1 هذه الآية كالنتيجة لما تقدم من الدلائل على علم الله وقدرته وحكمته الموجبة لألوهيته وفيها

تعريض بالمشركين المتأمرين على قتل النبي صلى الله عليه وسلم أو أذيته، وسواء: بمعنى مستو، وهو اسم يكون بين شيئين كالسر هنا والجهر أي: مستوى عنده السر والجهر.

2 السَّرْب: بفتح السين وسكون الراء: الطريق، والسارب: اسم فاعل من سرب إذا ذهب.

3 جمع معقبة وهو مأخوذ من العقب الذي هو مؤخر الرجل فكل من اتبع آخر فقد تعقبه فهو متعقب

له، وعقبه يعقبه فهو عاقب له: إذا جاء بعده، والمعقبات هنا: الملائكة لحديث "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" إذا سعدت ملائكة النهار أعقبتها ملائكة الليل وهكذا.

(3/13)

أمر الله {جائز أن يعود الضمير في "له" على من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، فيكون المراد من المعقبات الحرس والجلالزة الذين يحرسون السلطان من أمر الله تعالى في نظرهم، ولكن إذا أراد الله بسوء فلا مرد له وما له من دون الله من وال يتولى حمايته والدفاع عنه، وجائز أن يعود على الله تعالى ويكون المراد من المعقبات الملائكة الحفظة¹ والكتب للحسنات والسيئات ويكون معنى من أمر الله² أي بأمره تعالى وإذنه، والمعنى صحيح في التوجيهين للآية وإلى الأول ذهب ابن جرير وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين، وقوله تعالى: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} يخبر تعالى عن سنة من سننه في خلقه ماضية فيهم وهي أنه تعالى لا يزيل نعمة أنعم بها على قوم من عافية وأمن ورخاء بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من طهارة وصفاء بسبب ارتكابهم للذنوب وغشيانهم للمعاصي نتيجة الإعراض عن كتاب الله وإهمال شرعه وتعطيل حدوده والانغماس في الشهوات والضرب في سبيل الضلالات، وقوله تعالى: {وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال} هذا إخبار منه تعالى بأنه إذا أراد بقوم أو فرد أو جماعة سوءاً ما أي ما يسوءهم من بلاء وعذاب فلا مرد له بحال من الأحوال بل لا بد وأن يمسه، ولا يجدون من دون الله من وال يتولى صرف العذاب عنهم، أما من الله تعالى فإنهم إذا أنابوا إليه واستغفروه وتابوا إليه فإنه تعالى يكشف عنهم سوءهم ويصرف عنهم العذاب، وقوله تعالى: {هو الذي يريكم البرق خوفاً من الصواعق من جهة وطمعاً في المطر من جهة أخرى} وينشئ السحاب الثقال {أي وهو الذي ينشئ³ أي يبدئ السحاب الثقال الذي يحمل الأمطار {ويسبح الرعد بحمده}4 أي وهو الذي يسبح الرعد بحمده وهو ملك موكل بالسحاب يقول:

1 الحفظة: جمع حافظ: ملائكة موكلون بالعبد يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من الجن، والشياطين، فإذا جاء أمر الله أي: قدره تخلوا عنه والكتابة: جمع كاتب: ملك يكتب الحسنات وآخر يكتب السيئات.

2 ذكر القرطبي: أن العلماء رحمهم الله تعالى ذكروا أن الله سبحانه وتعالى جعل أوامره على وجهين. أحدهما: قضي وقوعه وحلوله بصاحبه فهذا لا يدفعه أحد، والثاني: قضي محيئه ولم يقض حلوه ووقوعه بل قضي صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة.

3 إنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمع سحاباً، والسحاب اسم جمع لسحابة،

وسميت سحابة لأنها تسحب من مكان إلى مكان.
4 الباء للملابسة: أي يسبح الله تسييحاً ملابساً لحمده، والتسييح، التنزيه.

(3/14)

سبحان الله وبحمده، وقوله: {والملائكة 1 من خيفته} 2 أي خيفة الله وهيبته وجلاله فهي لذلك تسبحه أي تنزهه عن الشريك والشبيه والولد بألفاظ يعلمها الله تعالى، وقوله تعالى: {ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله} 3 أي في وجوده وصفاته وتوحيده وطاعته {وهو شديد المحال} 4 هذه الآية نزلت فعلاً في رجل 5 بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يدعو إلى الإسلام فقال الرجل الكافر لمن جاء من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رسول الله؟ وما الله أمن ذهب هو أم من فضة أم من نحاس؟ فنزلت عليه صاعقة أثناء كلامه فذهبت بقحف رأسه، ومعنى شديد المحال أي القوة والأخذ والبطش.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- سعة علم الله تعالى.

2- الحرس والجلوزة لمن يستخدمهم لحفظه من أمر الله تعالى لن يغنوا عنه من أمر الله شيئاً.

3- تقرير عقيدة أن لكل فرد ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار منهم الكرام الكاتبون، ومنهم الحفظة للإنسان من الشياطين والجان.

4- بيان سنة أن النعم لا تزول إلا بالمعاصي.

5- استحباب قول سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته عند سماع الرعد لورود ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختلفة.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا

1 والملائكة تسبح أيضاً من خوف الله تعالى.

2 {من خيفته} من: تعليلية أي: لأجل الخوف منه تعالى.

3 {يجادلون}: المفعول محذوف تقديره: يجادلونك وأتباعك المؤمنين في شأن توحيد الله تعالى ولقائه ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم.

4 (المحال) إن كان من الحول والميم زائدة فهو بمعنى شديد القوى، وإن كانت الميم أصلية فالمحال: بكسر الميم: فهو فعال بمعنى الكيد، وفعله محل وتمحل إذا تحيل، إذ المجادلون كانوا يتحيلون في أسئلتهم، فأعلمهم الله أنه أقوى منهم، وأشد كيداً منهم.

5 قيل: نزلت في يهودي، وقيل: في أريد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وقد هلك أريد بصاعقة نزلت به، وهلك عامر بغدة نبتت في جسمه فمات منها وهو في بيت امرأة من بني سلول.

(3/15)

كَبَّاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)

شرح الكلمات:

له دعوة الحق : أي الله تعالى الدعوة الحق أي فهو الإله الحق الذي لا إله إلا هو.
ليبلغ فاه : أي الماء فمه.

إلا في ضلال : أي في ضياع لا حصول منه على طائل.

بالغدو والآصال: أي البُكر جمع بكرة، والعشايا جمع عشية.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة التوحيد بالأدلة والبراهين، قال تعالى: {له دعوة الحق} أي الله سبحانه وتعالى الدعوة الحق وهي أنه الإله الحق الذي لا إله إلا هو، أما غيره فإطلاق لفظ الإله إطلاق باطل، فالأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله إطلاق لفظ إله عليه إطلاق باطل، والدعوة إلى عبادته باطلة، أما الدعوة الحق فإنها لله وحده.

وقوله تعالى: {والذين يدعون من دونه} أي من دون الله من سائر المعبودات {لا يستجيبون لهم

بشيء} أي لا يجيبونهم بإعطائهم شيئاً مما يطلبون منهم {إلا كباسط

1 أي: الدعوة الصادق لله تعالى لأنه هو الذي يستجيب ويعطي السؤال وأما دعوة الأصنام، فإنها دعوة كذب وباطل، فإطلاق الإله على الله إطلاق حق وصدق، وإطلاق إله على صنم أو مخلوق فهو إطلاق كذب وباطل.

(3/16)

كفيه إلى الماء}1 أي إلا كاستجابة2 من بسط يديه أي فتحهما ومدهما إلى الماء والماء في قعر البئر فلا كفاه تصل إلى الماء ولا الماء يصل إلى كفيه وهو عطشان ويظل كذلك حتى يهلك عطشاً، هذا مثل من يعبد غير الله تعالى بدعاء أو ذبح أو نذر أو خوف أو رجاء فهو محروم الاستجابة خائب في مسعاه ولن تكون له عاقبة إلا النار والخسران وهو معنى قوله تعالى ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾3 أي بطلان وخسران، وقوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات﴾ أي الملائكة ﴿والأرض﴾ أي من مؤمن يسجد طوعاً، ومنافق أي يسجد كرها، 4 ﴿وظلالهم﴾ تسجد أيضاً ﴿بالغدر﴾ أوائل النهار، ﴿والأصاال﴾5 أواخر النهار.

ومعنى الآية الكريمة: إذا لم يسجد الكافرون أي لم ينقادوا لعبادة الله وحده تعالى فإنَّ الله يسجد من في السموات من الملائكة، ومن في الأرض من الجن والإنس المؤمنون يسجدون طائعين والكافرون يسجدون إذا أكرهوا على السجود والمنافقون يسجدون مكرهين، وظلالهم تسجد في البكر والعشايا كما أنهم منقادون لقضاء الله تعالى وحكمه فيهم لا يستطيعون الخروج عنه بحال فهو الذي خلقهم وصورهم كما شاء ورزقهم ما شاء وبميتهم متى شاء فأى سجود وخضوع وركوع أظهر من هذا؟ وقوله تعالى: ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي من خالقهما ومالكهما ومدبر الأمر فيهما؟ وأمر رسوله أن يسبقهم إلى الجواب ﴿قل الله﴾ إذ لا جواب لهم إلا هو، وبعد أن أقرروا بأن الرب الحق هو الله، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم موبخاً مقرعاً ﴿أفأنتخذتم من دونه أولياء﴾6، أي شركاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن يملكو لكم نفعاً أو يدفعون عنكم ضراً فأين يذهب بعقولكم أيها المشركون، ومبالغة في البيان وإقامة للحجة والبرهان على وجوب التوحيد وبطلان الشرك والتنديد أمر رسوله أن يقول لهم: ﴿هل يستوى الأعمى

1 ضرب الله تعالى هذا المثل المائي لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد، قال الشاعر:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها
من الودِّ مثل القابض الماء باليد

2 هذا التفسير مروى عن علي رضي الله عنه.

3 الضلال: التالف والضياع، والجملة. بيان لخبية المشركين في عبادة أصنامهم ودعائها وتقرير لخسرانهم.

4 وكافر يسجد بخضوعه لأحكام الله تعالى الجارية عليه ولا يقدر على ردّها من غنى وفقر، وصحة ومرض وسعادة وشقاوة.

5 الأصاال: جمع أصل: وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وجمع الجمع أصائل، قال الشاعر:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله

(3/17)

والبصير، أم هل تستوي الظلمات والنور [1]؟ والجواب قطعاً لا إذا فكيف يستوي المؤمن والكافر، وكيف يستوي الهدى والضلال، فالمؤمن يعبد الله على بصيرة على علم أنه خالقه ورازقه يعلم سره ونجواه يجيبه إذا دعاه أرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه، والكافر المشرك يعبد مخلوقاً من مخلوقات الله لا تملك لنفسها فضلاً عن عابديها نفعاً ولا ضرراً لا تسمع نداءً ولا تجيب دعاء، المؤمن يعبد الله بما شرع له من عبادات وبما طلب منه من طاعات وقربات، والكافر المشرك يعبد الباطل بهواه، ويسلك سبيل الغي في الحياة.

وقوله: {أم جعلوا 2 الله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم} أي بل جعلوا الله شركاء فخلقت تلك الشركاء مخلوقات كخلق الله فتشابه الخلق على المشركين فعبدها ظناً منهم أنها خلقت كخلق الله؟ والجواب لا فإنها لم تخلق ولا تستطيع خلق ذبابة فضلاً عن غيرها إذا فكيف تصح عبادتها وهي لم تخلق شيئاً، وقوله تعالى: {قل الله خالق كل 3 شيء وهو الواحد القهار} أي قل أيها الرسول للمشركين عند اعترافهم بأن آلهتهم لم تخلق شيئاً قل لهم: الله خالق كل شيء وهو الواحد الذي لا شريك له ولا ند ولا مثل، القهار لكل جبار والمذل لكل معاند كفار، هو المستحق للعبادة الواجب له الطاعة، الإيمان به هدى والكفر به ضلال.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دعوة الحق لله وحده فهو المعبود بحق لا إله غيره ولا رب سواه.
- 2- حرمان المشركين من دعائهم وسائر عباداتهم.
- 3- الخلق كلهم يسجدون لله طوعاً أو كرهاً إذ الكل خانع خاضع لحكم الله وتدبيره فيه.

1 أم: للإضراب الانتقالي من قضية إلى أخرى واختيار العمى والبصر والنور والظلمات لبيان أن حال المؤمنين وحال الكافرين في تضاد فالمؤمنون مبصرون يمشون في النور، والكافرون عمى يمشون في الظلمات.

2 هذا من تمام الاحتجاج والاستفهام للإضراب الانتقالي، وهو للتهكم بالمشركين، فالمعنى: لو جعلوا الله شركاء يخلقون فخلقوا كما يخلق الله فتشابه الخلق عليهم لكانوا معذورين ولكنهم لم يخلقوا ولن يخلقوا.

3 في الآية رد على الملاحدة الشبوعيين الذين يكرون وجود الله جل جلاله ورد على القدرية الذين يزعمون أنهم يخلقون أفعالهم والله يقول: {والله خالق كل شيء} فلا يخرج شيء عن كونه مخلوقاً لله تعالى.

(3/18)

- 4- مشروعية السجود للقارئ والمستمع إذا بلغ هذه الآية {وظلالهم بالغدو والآصال} ويستحب أن يكون ظاهراً مستقبلاً القبلة، ويكبر عند الخفض والرفع ولا يسلم.
- 5- بطلان الشرك إذ لا دليل عليه من عقل ولا نقل 1.
- 6- وجوب العبادة لله تعالى.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعِ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)

شرح الكلمات:.

فسالت أودية بقدرها: أي بمقدار مائها الذي يجري فيها.

زبداً رابياً: أي غشاء عالياً إذ الزبد هو وضر غليان الماء أو جريانه في الأنهار.

ومما يوقدون عليه في النار: أي كالذهب والفضة والنحاس.

ابتغاء حلية أو متاع 2: أي طلباً لحلية من ذهب أو فضة أو متاع من الأواني.

زيد مثله: أي مثل زيد السيل.

فأما الزبد: أي زيد السبل أو زيد ما أوقد عليه النار.

- 1 إذ الحقل لا يُجيز عبادة مخلوق مريب لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره موتاً ولا حياة بل ولا ضراً ولا نفعاً والنقل حرم الشرك بجميع أنواعه الأكبر والأصغر والخفي والجلي قال تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً} من الشرك والشركاء.
- 2 {ابتغاء}: مفعول لأجله، والحلية: ما يتحلى به، أي يتزين، والمتاع ما يتمتع به وينتفع.

(3/19)

فيذهب جفاء 1 : أي باطلاً مرمياً به بعيداً إذ هو غثاء ووضر لا خير فيه.
فيمكث في الأرض: أي يبقى في الأرض زمناً ينتفع به الناس.
للذين استجابوا لربهم الحسنی : أي للذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة.
لم يستجيبوا: أي لم يؤمنوا به ولم يطيعوه.
لافتدوا به: أي من العذاب.
سوء المهاد: وهي المؤاخذة بكل ذنب عملوه لا يغفر لهم منه شيء.
وبئس المهاد: أي الفراش الذي أعدوه لأنفسهم وهو جهنم.
معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد والتنديد بالكفر والشرك في هذه الآية الكريمة ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل، للحق في بقاءه، والباطل في اضمحلاله وتلاشيهِ فقال: {أنزل} أي الله {من السماء ماءً فسالَت أوديةً بقدرها}2 أي بحسب كبرها وصغرها لأن الوادي قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً، فاحتل السيل أي حمل سيل الماء في الوادي زبداً رابياً أي غثاء ووضراً عالياً على سطح الماء، هذا مثل مائي، ومثل ناري قال فيه عز وجل: {ومما يوقدون عليه في النار}3 أي ومما يوقد عليه الصاغة والحدادون {ابتغاء حلية} أي طلباً للحلية ، {أو متاع} أي طلباً لمتاع يتمتع به كالأواني إذ الصائغ أو الحداد يضع الذهب أو الفضة أو النحاس في البوتقة وينفخ عليها بالكبير فيعلو ما كان فاسداً غير صالح على صورة الزبد4 وما كان صالحاً يبقى في البوتقة وهو الذي يصنع منه الحلية والمتاع، وقوله تعالى: {كذلك} أي المذكور من الأمور الأربعة مثلي الحق وهما الماء والجوهر ومثلي الباطل وهما زيد الماء وزيد الجوهر {فأما الزيد فيذهب جفاء} أي باطلاً

1 الجفاء: ما أجفاه الوادي أي: رمى به.

2 {أودية} جمع واد، والوادي اسم للماء السائل هنا إذ الوادي وهو أخدود بين مرتفعين لا يسيل وإنما يسيل الماء فيه، ومعنى: {يقدرها}: أي: بقدر ملئها.

3 هذا المثل الثاني والأول هو مثل الماء السائل في الوادي وما يحمل من زيد عالٍ.

4 هو معنى قوله تعالى: {زيد مثله} أي زيد ما يعلو الذهب والفضة والحديد كزيد ما يعلو ماء السيل.

(3/20)

مرمياً به يرميه السيل إلى ساحل الوادي فيعلق بالأشجار والأحجار ويرميه الصائغ عن بوتقته، وأما ما ينفع الناس من الماء للسقي والري فيمكث في الأرض، وكذا ما ينفع من الحلي والمتاع يبقى في

بوتقة الصائغ 1 والحداد وقوله تعالى: {كذلك يضرب الله الأمثال} أي مثل هذا المثل الذي ضربه للحق في بقاءه والباطل في ذهابه وتلاشيه وإن علا وطغا في بعض الأوقات، {يضرب} أي بين الأمثال، ليعلموا فيؤمنوا ويهتدوا فيكملوا ويسعدوا.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (17) وأما الآية الثانية (18) فقد أخبر تعالى بوعد له ووعد أما وعده فلأهل طاعته بأن لهم الحسنى 2 الجنة وأما وعده فلأهل معصيته وهو أسوأ وعيد وأشده، 3 فقال تعالى في وعده: {للذين استجابوا لربهم الحسنى} وقال في وعيده: {والذين لم يستجيبوا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً أي من مال ومتاع {ومثله معه} أيضاً لافتدوا به من العذاب الذي تضمنه هذا الوعد الشديد، ويعلن عن الوعد فيقول: {أولئك} أي الأشقياء {لهم سوء الحساب} وهو أن يحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة في أعمالهم ولا يغفر لهم منها شيء {ومأواهم جهنم} أي مقرهم ومكان إيوائهم {ويؤس المهاد} أي الفراش جهنم لهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.
- 2- ثبات الحق، واضمحلال الباطل سنة من سنن الله تعالى.
- 3- بيان وعد الله للمستجيبين له بالإيمان والطاعة وهي الجنة.
- 4- بيان وعيد الله لمن يستجب له بالإيمان والطاعة.

1 هذا مثل للحق والباطل إذا اجتمعا فإنه لإثبات للباطل ولا دوام له مثل الزيد مع الماء أو مع الحلية لا يبقى بل يذهب ويتلاشى ويضمحل والمراد من الحق والباطل: الإيمان والكفر، واليقين بذلك.

2 ومن الحسنى: النصر في الدنيا والتمكين فيها لأهل التوحيد.

3 وهو النار ويؤس المهاد.

(3/21)

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى

الدَّارِ (24)

شرح الكلمات:

كمن هو أعمى : أي لا يرى الحق ولا يعلمه ولا يؤمن به.

أولوا الألباب : أي أصحاب العقول.

يصلون ما أمر الله به أن يوصل : أي من الإيمان والتوحيد والأرحام.

ويدرعون بالحسنة: أي يدفعون بالحلم الجهل، وبالصبر الأذى.

عقبى الدار: أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة.

جنات عدن : أي جنات إقامة دائمة.

معنى الآيات:

لقد تضمنت هذه الآيات مقارنة ومفاضلة بين شخصيتين: الأولى شخصية مؤمن صالح كحمزة بن

عبدالمطلب والثانية شخصية كافر فاسد كأبي جهل المخزومي وبين ما

(3/22)

لهما من جزاء في الدار الآخرة، مع ذكر صفات كل منهما، تلك الصفات المقتضية لجزائهما في الدار الآخرة قال تعالى: {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق} فيؤمن به بعد العلم ويستقيم على منهجه في عقيدته وعبادته ومعاملاته وسلوكه كله. هذه الشخصية الأولى {كمن هو أعمى} لم يعلم الحق ولم يؤمن به ولم يعمل بما أنزل إلى الرسول من الشرع..

والجواب قطعاً أنهما لا يستويان ولا يكونان في ميزان العدل والحق متساويين وقوله تعالى: {إنما يتذكر أولو الألباب} أي يتعظ بمثل هذه المقارنة أصحاب العقول المدركة للحقائق والمفرقة بين المتضادات كالحق والباطل والخير والشر والنافع والضار. وقوله تعالى: {الذين يوفون} هذا مشروع في بيان صفاتهم المقتضية إنعامهم وإكرامهم نذكر لهم ثماني صفات هي كالتالي: (1) الوفاء بالعهود وعدم نقضها: {الذين يوفون بعهودهم 2 الله ولا ينقضون الميثاق} 3 إذ لا دين لمن لا عهد له. (2) وصل ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان والإسلام والإحسان والأرحام: {والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل}. (3) خشية الله المقتضية لطاعته: {ويخشون ربهم}. (4) الخوف من سوء الحساب يوم القيامة المقتضي لمحاسبة النفس على الصغيرة والكبيرة: {ويخافون سوء الحساب}. (5) الصبر طلباً لمرضاة الله على الطاعات وعن المعاصي، وعلى البلاء: {والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم}. (6) إقامة الصلاة وهي أداؤها في أوقاتها جماعة بكامل الشروط والأركان والسنن والآداب: {وأقاموا الصلاة}. (7) الإنفاق مما رزقهم الله في الزكاة والصدقات الواجبة والمنذوبة: {وأنفقوا مما رزقناهم}. (8) دفع السيئة بالحسنة فيدفعون سيئة الجهل عليهم بحسنة العلم، وسيئة الأذى بحسنة 4

الصبر .

وقوله تعالى: {أولئك لهم عقبي الدار} أي العاقبة المحمودة وفسرها بقوله (جنات عدن) أي إقامة لا ظعن منها يدخلونها هم {ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم}

1 المراد من العمى هنا : عمى القلب لا عمى البصر، والجهل هو سبب العمى.

2 العهد هنا: اسم جنس إذ المراد الوفاء بكافة عهود الله تعالى وهي أوامره ونواهيه التي وصي بها عباده.

3 الميثاق هنا: أيضاً اسم جنس يدخل فيه كل المواثيق أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: ورد النهي عن نقض الميثاق في بضع وعشرين آية.

4 وسيئة المعصية بالتوبة منها. واللفظ العام الشامل هو أنهم يدفعون بالعمل الصالح كل عمل فاسد.

(3/23)

والصلاح هنا الإيمان والعمل الصالح. وقوله: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب} هذا عند دخولهم الجنة تدخل عليهم الملائكة تهنئهم بسلامة الوصول وتحقيق المأمول وتسلم عليهم قائلة: {سلام عليكم بما صبرتم} أي بسبب صبركم والإيمان والطاعة {فنعم عقبي الدار} 1 . هذه تهنئة الملائكة لهم وأعظم بها تهنئة وأبرك بها بركة اللهم اجعلني منهم ووالدي وأهل بيتي والمسلمين أجمعين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- المؤمن حيّ يبصر ويعلم ويعمل والكافر ميت أعمى لا يعلم ولا يعمل.
- 2- الاتعاظ بالمواعظ يحصل لذي عقل راجح سليم.
- 3- فضل هذه الصفات الثمانية المذكورة في هذه الآيات. أولها الوفاء بعهد الله وأخرها درء السيئة بالحسنة.

4- تفسير عقبي الدار 2 وأنها الجنة.

5- بيان أن الملائكة تهنئ أهل الجنة عند دخولهم وتسلم عليهم.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ

- 1 جائز أن يكون معنى عقبي الدار: الجنسية وجائز أن يكون عقبي الدار: دار الدنيا إذ عقباها الدار الآخرة وفيها الجنة، إذا كانوا في دار الدنيا يعملون الصالحات فورثهم الله الجنة فكانت عقبي الدنيا إذ عقبي الدار بمعنى عاقبتها.
- 2 أي: فعقبى دار الدنيا الجنة هذا كقوله والعاقبة للتقوى، وقوله {ولنعم دار المتقين} أي الجنة.

(3/24)

فَأُولَئِكَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ الْأَبْرَارِ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

شرح الكلمات:

- والذين ينقضون عهد الله: أي يحلونه ولا يلتزمون به فلم يعبدوا ربهم وحده.
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: أي من الإيمان والأرحام.
ويفسدون في الأرض: أي بترك الصلاة ومنع الزكاة، وبارتكاب السيئات وترك الحسنات.
لهم اللعنة: أي البعد من رحمة الله تعالى.
ولهم سوء الدار: أي جهنم وبئس المهاد.
ويقدر: أي يضيق ويقتصر.
إلا متاع: قدر يسير يتمتع به زماناً ثم ينقضي.
طوبى لهم وحسن مآب: أي لهم طوبى شجرة في الجنة وحسن منقلب وهو دار السلام.
معنى الآيات:.

قوله تعالى: {والذين ينقضون} الآيات، هذا هو الطرف المقابل أو الشخصية الثانية وهو من لم يعلم ولم يؤمن كأبي جهل المقابل لحمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ذكر تعالى هنا صفاته الموجبة لعذابه وحرمانه فذكر له ولمن على شاكلته الصفات التالية:

- (1) نقض العهد فلم يعبدوا الله ولم يوحدوه وهو العهد الذي أخذ عليهم في عالم الأرواح: {والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه}.
- (2) قطع ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان 1 وصلة الأرحام: {ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل}.

1 أي بسائر الأنبياء فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كاليهود والنصارى.

(3) الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي: {ويفسدون في الأرض 1}، بهذه الصفات استوجبوا هذا الجزاء، قال تعالى: {أولئك لهم اللعنة} أي البعد من الرحمة {ولهم سوء 2 الدار} أي جهنم وبئس المهاد، وقوله تعالى: {الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع} يخبر تعالى عن سنة من سننه في خلقه وهي أنه يبسط الرزق أي يوسعه على من يشاء امتحاناً هل يشكر أم يكفر ويضيق ويقتّر على من يشاء ابتلاء هل يصبر أو يجزع، وقد يبسط الرزق لبعض إذ لا يصلحهم إلا ذاك، وقد يضيق على بعض إذ لا يصلحهم إلا ذاك، فلن يكون الغنى دالاً على رضى الله، ولا الفقر دالاً على سخطه تعالى على عباده، وقوله: {وفرحوا بالحياة الدنيا} أي فرح أولئك الكافرون بالحياة الدنيا لجهلهم بمقدارها وعاقبتها وسوء آثارها وما الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وهم أهل الإيمان به وطاعته إلا متاع قليل ككفّ التمر أو قرص الخبز يعطاه الراعي غداء له طول النهار ثم ينفد، وقوله تعالى في الآية (27): {ويقول الذين كفروا لولا أنزل 3 عليه آية من ربه} فقد تقدم مثل هذا الطلب من المشركين وهو مطالبة المشركين النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون له آية كناقاة صالح أو عصا موسى ليؤمنوا به وهم في ذلك كاذبون فلم يحملهم على هذا الطلب إلا الاستخفاف والعناد وإلا آيات القرآن أعظم من آية الناقة والعصا، فلذا قال تعالى لرسوله: {قل إن الله يضل من يشاء} إضلاله ولو رأى وشاهد ألوف الآيات {ويهدي إليه من أناب} لو لم ير آية واحدة إلا أنه أناب إلى الله فهداه إليه وقبله وجعله من أهل ولايته، وقوله تعالى في الآية (28) {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله} أولئك الذين أنابوا إليه تعالى إيماناً وتوحيداً فهداهم إليه صراطاً مستقيماً هؤلاء تطمئن قلوبهم أي تسكن وتستأنس بذكر الله وذكر وعده وذكر صالحى عباده محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقوله تعالى: {ألا بذكر الله تطمئن

1 أي بالشرك وارتكاب المعاصي.

2 أي سوء المنقلب وهو جهنم.. قال سعد ابن أبي وقاص: والله الذي لا إله إلا هو أنهم الحرورية: بمعنى الخوارج.

3 المطالبون بالآيات المقترحون لها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. من بينهم عبدالله بن أمية وأصحابه.

4 الضمير في قوله: {ويهدي إليه من أناب}: يعود على الحق أو الإسلام أو الله عز وجل. أي يهدي إلى جنته وطاعته من رجع إليه بقلبه والكل صالح ومراد.

5 الذين: في محل نصب لأنه مفعول يهدي، وتصح أن يكون بدلاً من قوله: {أناب} وذكر الله هو

ذكره بأسنتهم وبقلوبهم وهو يشمل ذكر الوعد والوعيد وكمال الله كما يشمل قراءة كتابه وتلاوة آياته قال مجاهد: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحقاً هم ومن يأتي بعدهم يهيج نهجهم في الإيمان والتقوى.

(3/26)

{القلوب} أي قلوب المؤمنين أما قلوب الكافرين فإنها تطمئن لذكر الدنيا وملاذها وقلوب المشركين تطمئن لذكر أصنامهم، وقوله تعالى: {الذين آمنوا 1 وعملوا الصالحات طوبى 2 لهم وحسن مآب} إخبار من الله تعالى بما أعد لأهل الإيمان والعمل الصالح وهو طوبى حال من الحسن الطيب يعجز البيان عن وصفها أو شجرة في الجنة وحسن منقلب وهو الجنة دار السلام والنعيم المقيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- حرمة الاتصاف بصفات أهل الشقاء وهي نقض العهد، وقطع ما أمر الله به أن يوصل والإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي.

2- بيان أن الغنى والفقر يتمان حسب علم الله تعالى امتحاناً وابتلاءً فلا يدلان على رضا الله ولا على سخطه.

3- حقايرة الدنيا وضالة ما فيها من المتاع.

4- فضل ذكر الله وسكون القلب إليه.

5- وعد الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح بطوبى وحسن المآب.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِنَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ (30) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّم

1 الذين آمنوا، هذا مبتدأ ، والخبر: طوبى لهم وحسن مآب يعطف عليه، وطوبى ورد أنها شجرة في

الجنة، ففي البخاري: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها".

2 {طوبى} مصدر طاب يطيب طيباً إذا أحسن وهي بوزن البشرى، والزلفى قلبت ياؤها واواً لمناسبة الضمة قبلها أي: الخير الكامل لأنهم اطمانت قلوبهم بذكر الله فهم في طيب حال.

(3/27)

بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (32) وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (33)

شرح الكلمات.:

كذلك أرسلناك: أي مثل ذلك الإرسال الذي أرسلنا به رسلنا أرسلناك.

لنتلو عليهم: أي لتقرأ عليهم القرآن تذكيراً وتعليماً وندارة وبشارة.

وهم يكفرون بالرحمن: إذ قالوا وما الرحمن وقالوا لا رحمن إلا رحمان اليمامة.

سيرت به الجبال: أي نقلت من أماكنها.

أو قطعت به الأرض: أي شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً.

أو كلم به الموتى: أي أحيوا وتكلموا.

أفلم يبيأس: أي يعلم.

قارعة: أي داهية تفرغ قلوبهم بالخوف والحزن وتهلكهم وتستأصلهم.

أو تحل قريباً من دارهم: أي القارعة أو الجيش الإسلامي.

فأمليت: أي أمهلت وأخرت مدة طويلة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير أصول العقائد: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء الآخر ففي الآية الأولى من هذا السياق وهي توله تعالى {كذلك أرسلناك} فقرر نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم

(3/28)

بقوله كذلك أي الإرسال 1 الذي أرسلنا من قبلك أرسلناك أنت إلى أمة قد خلت من قبلها أمم، وبين فائدة الإرسال فقال: {لنتلو عليهم الذي أوحينا إليك} وهو الرحمة والهدى والشفاء {وهم يكفرون بالرحمن} الرحمن 2 الذي أرسلك لهم بالهدى ودين الحق لإكمالهم وإسعادهم يكفرون به، إذاً فقل أنت أيها الرسول هو ربي لا إله إلا هو أي لا معبود بحق إلا هو عليه توكلت وإليه متاب أي تويتي ورجوعي فقرر بذلك مبدأ التوحيد بأصدق عبارة وقوله تعالى في الآية الثانية (31) {ولو أن قرآنا} لخ.. لا شك أن مشركي مكة كانوا طالبوه 3 بما ذكر في هذه الآية إذ قالوا إن كنت رسولاً فادع لنا ربك فيسر عنا هذه الجبال التي تكتنف وادينا فنتسع أرضنا للزراعة والحراثة وقطع أرضنا فأخرج لنا منها العيون والأنهار وأحي لنا فلاناً وفلاناً حتى نكلمهم ونسألهم عن صحة ما تقول وتدعي بأنك نبي فقال تعالى: {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى} أي لكان هذا القرآن، ولكن ليست الآيات 4 هي التي تهدي بل الله الأمر جميعاً يهدي من يشاء ويضل من

يشاء، ولما صرفهم الله تعالى عن الآيات الكونية لعلمه تعالى أنهم لو أعطاهم إياها لما آمنوا عليها فيحق عليهم عذاب الإبادة كالأمم السابقة، وكان من المؤمنين من يود الآيات الكونية ظناً منه أن المشركين لو شاهدوا آمنوا وانتهت المعركة الدائرة بين الشرك والتوحيد قال تعالى: {أفلم ييأس 5 الذين آمنوا} أي يعلموا {أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً} بالآيات وبدونها فليترك الأمر له سبحانه وتعالى يفعل ما لشاء ويحكم ما يريد، وقوله تعالى: {ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا} أي من الشرك والمعاصي {قارعة} أي داهية تفرع قلوبهم بالخوف والفرع ونفوسهم بالهم والحزن وذلك كالجدب والمرض والقتل والأسر {أو تحل قريباً من دارهم} أي يحل الرسول بجيشه الإسلامي ليفتح مكة حتى يأتي وعد الله بنصرك أيها الرسول عليهم والآية

1 هذا تشبيهه في الإنعام أي: شبه الإنعام على من أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله.

2 قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن، والآية وإن لم تنزل بخصوص دعوى المشركين إلا أنها تحمل رداً عليهم في دعواهم الباطلة.

3 تقدّم أن من بين المطالبين أبا جهل، وعبدالله بن أمية المخزوميين إذ قالوا له صلى الله عليه وسلم، إن سرّك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن فاذهبها عنا.. الخ.

4 أي: فليس ما تطلبونه مما يكون بالقرآن، وإنما يكون بأمر الله تعالى.

5 يئس ييأس بمعنى: علم يعلم الله النخع، والقرآن نزل بلغات العرب، وقيل: لغة هوازن قال شاعرهم: أقول لهم بالشعب إذ يأسروني ألم تياسوا أني ابن فارس زهدم

(3/29)

عامة فيمن بعد قريش ويكون الوعيد متناولاً أمم الكفر عامة وها هي ذي الحروب تفرعهم كل قرن مرة ومرتين والحرب الذرية على أبوابهم ولا يزال أمرهم كذلك حتى يحل الجيش الإسلامي قريباً دارهم ليدخلوا في دين الله أو يهلكوا، {إن الله لا يخلف الميعاد} وقد أنجز ما وعد قريشاً، في الآية الأخيرة (32) يخبر تعالى رسوله مسلماً إياه عما يجد تعب وألم من صلف المشركين وعنادهم فيقول له: {ولقد استهزىء 1 برسلك من قبلك} أي كما استهزىء بك فصبروا فاصبر أنت، {فأملت للذين كفروا} أي أهملتهم وأنصرتهم حتى قامت الحجة عليهم ثم أخذتهم فلم أبق منهم أحداً {فكيف 2 كان عقاب} أي كان شديداً عاماً واقعاً موقعه، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك يا رسولنا إذا لم يتوبوا ويسلموا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير التوحيد.

2- لا توكل إلا على الله، ولا توبة لأحد إلا إليه.

3- عظمة القرآن الكريم وبيان فضله.

4- إطلاق لفظ اليأس 3 المراد به العلم.

5- توعدهم الرب تعالى الكافرين بالقوارع في الدنيا إلى يوم القيامة.

6 - الله جل جلاله يملي ويمهل ولكن لا يهمل بل يؤاخذ ويعاقب.

أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زِينٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ

1 أي: سخر بهم أزرى عليهم، وذلك كما سخرت قوم نوح بنوح، وعاد بهود وثمود بصالح ومدين يشعيب.

2 الاستفهام للعجب.

3 في لغة النخع أو هوازن.

(3/30)

الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)

شرح الكلمات:

أفمن هو قائم 1 على كل نفس بما كسبت: أي حافظها ورزقها وعالم بها وبما كسبت و يجازيها بعملها.

قل سموهم.: أي صِفُوهم له مَنْ هُمْ؟

أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ: أي أتخبرونه بما لا يعلمه؟

بظاهر من القول : أي بظن باطل لا حقيقة له في الواقع.

أشق: أي أشد.

واق : أي مانع يمنعهم من العذاب.

مثل الجنة: أي صفتها التي نقصها عليك.

أكلها دائم وظلها: أي ما يؤكل فيها دائم لا يفنى وظلها دائم لا ينسخ.
معنى الآيات.

ما زال السياق في تقرير التوحيد وإبطال التنديد بقوله تعالى. {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}2 أي حافظها ورازقها وعالم بها وبما كسبت من خير وشر ومجازيها كمن لا يحفظ ولا يرزق ولا يعلم ولا يجزي وهو الأصنام، إذاً فبطل تأليها ولم يبق إلا الإله الحق الله الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، وقوله تعالى: {وجعلوا لله شركاء} أي

-
- 1 ليس القيام هنا ضد القعود بل هو التولّي لأمر الخلق بالحفظ والتدبير.
 - 2 الجواب محذوف في الآية، وقد ذكر في التفسير.

(3/31)

يعبدونهم معه {قل سموهم}1 أي قل لهم يا رسولنا سمو لنا تلك الشركاء صفوهم بينوا من هم؟ {أم تتبئونه بما لا يعلم}2 في الأرض {أي أتتبعون الله بما لا يعلم في الأرض؟ {أم بظاهر من القول} أي بل بظاهر}3 من القول أي بظن باطل لا حقيقة له في الواقع.
وقوله تعالى: {بل زين للذين كفروا مكرهم} أي قولهم الكاذب وافترأؤهم الماكر فبذلك4 صدوا عن السبيل سبيل الحق وصرفوا عنه فلم يهتدوا إليه، {ومن يضل الله فما له من هاد} وقوله تعالى: {لهم عذاب في الحياة الدنيا} بالقتل والأسر، {ولعذاب الآخرة أشق} أي أشد من عذاب الدنيا مهما كان {وما لهم من الله من واق}5 أي وليس لهم من دون الله من يقيهم فيصرفه عنهم ويدفعه حتى لا يذوقوه، وقوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} أي لما ذكر عذاب الآخرة لأهل الكفر والفجور ذكر نعيم الآخرة لأهل الإيمان والتقوى، فقال: {مثل}6 الجنة التي وعد المتقون {أي صفة الجنة ووصفها بقوله: {تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم}7 وظلها دائم كذلك فطعامها لا ينفد، وظلها لا يزول ولا ينسخ بشمس كظل الدنيا، وقوله: {تلك} أي الجنة {عقبى الذين اتقوا} أي ربهم فأمنوا به وعبدوه ووحده وأطاعوه في أمره ونهيه، {وعقبى}8 الكافرين النار {والعقبى بمعنى العاقبة في الخير والشر.

-
- 1 سموهم شركاء فإنهم ليس لهم حظ من ذلك إلا التسمية فيكون الأمر للإباحة كناية عن عدم المبالاة بادعائهم أنهم شركاء، وذكر هذا المعنى صاحب التحرير، وهو معنى جميل.
 - 2 أم هي المنقطعة ودلت على أنّ ما بعدها استفهام إنكاري توبيخي، وقوله، {بما لا يعلم في الأرض} وما لا يعلمه الله فليس بموجود إذ الله خالق كل شيء.

- 3 بل بظاهر من القول ليس بظاهر من الظهور بل هو بمعنى الزوال والبطلان وشاهده قول الشاعر، وتلك شكاة ظاهر عليك عارها. أي: باطل زائل.
- 4 إن بعض المشركين زين للمشركين عبادة الأصنام، ورغبهم في عبادتها مكرًا بهم فانخدعوا له، وحسبوه زينًا وذلك كعمرو بن لحيّ إذ هو أول من دعا إلى عبادة الأصنام في بلاد العرب.
- 5 واق، وقاض ووال: يوقف عليها بدون ياء، إلا إذا نودي نحو: يا قاضي يا والي فإنه يوقف عليه بالياء ومن: صلة لتقوية الكلام.
- 6 {مثل الجنة}: الخ: مبتدأ والخبر محذوف تقديره فيما يتلى عليكم: مثل الجنة، وقيل الخبر: تجري من تحتها الأنهار. والأول أولى.
- 7 في الآية ردّ على الجهمية القائلين بفناء نعيم الجنة.
- 8 أي: عاقبة أمر المكذابين وأخرتهم النار يدخلونها.

(3/32)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير التوحيد إذ الأصنام لا تحفظ ولا ترزق ولا تحاسب ولا تجزي، والله هو القائم على كل نفس فهو الإله الحق وما عداه فآلهة باطلة لا حقيقة لها إلا مجرد أسماء.
- 2- استمرار الكفار على كفرهم هو نتيجة تزيين الشيطان لهم ذلك فصدّهم عن السبيل.
- 3- ميزة القرآن الكريم في الجمع بين الوعد والوعيد إذ بهما تمكن هداية الناس.
- وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٍ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (38) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39)

شرح الكلمات:

- والذين آتيناهم الكتاب : أي كعبد الله بن سلام ومن آمن من اليهود.
- يفرحون بما أنزل إليك : أي يسرون به لأنهم مؤمنون صادقون ولأنه موافق لما عندهم.
- ومن الأحزاب : أي من اليهود والمشركين.
- من ينكر بعضه : أي بعض القرآن فالمشركون أنكروا لفظ الرحمن وقالوا لا رحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب.

وكذلك أنزلناه حكماً عربياً : أي بلسان العرب لتحكم به بينهم.
لكل أجل كتاب : أي لكل مدة كتاب كتبت فيه المدة المحددة.
يمحو الله ما يشاء: أي يمحو من الأحكام وغيرها ويثبت ما يشاء فما محاه هو المنسوخ وما أبقاه هو المحكم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير أصول العقيدة: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، فقوله تعالى: {والذين آتيناهم الكتاب} كعبد الله بن 1 سلام يفرحون بما أنزل إليك وهو القرآن وفي هذا تقرير للوحي وإثبات له، وقوله: {ومن الأحزاب} ككفار أهل الكتاب 2 والمشركون {من ينكر بعضه} فاليهود أنكروا أغلب ما في القرآن من الأحكام ولم يصدقوا إلا بالقصص، والمشركون أنكروا "الرحمن" وقالوا لا رحمن إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب عليه لعائن الله، وقوله تعالى: {قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به} أي أمرني ربي أن أعبده ولا أشرك به، إليه تعالى أدعو الناس أي إلى الإيمان به وإلى توحيد وطاعته، {واليه مآب 3} أي رجوعي وإيابي وفي هذا تقرير للتوحيد، وقوله تعالى: {وكذلك أنزلناه حكماً عربياً 4} أي وكهذا الإنزال للقرآن أنزلناه بلسان العرب لتحكم بينهم به، وفي هذا تقرير للوحي الإلهي والنبوة المحمدية، وقوله: {ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم} بأن وافقتهم على ملهم وباطلهم في اعتقاداتهم، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وإنما الخطاب من باب.. إياك أعني واسمعي يا جارة.. {مالك من الله من ولي ولا واق} أي ليس لك من دون الله من ولي يتولى أمر نصرتك وحفظك، ولا واق يقيك عذاب الله إذا أرادك بك لإتباعك أهل الباطل 5 وترتك الحق وأهله، وقوله تعالى: {ولقد أرسلنا

1 اللفظ عام والمراد به الخصوص، ويدخل فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فهم يفرحون بنزول القرآن قاله قتادة. وهو كما قال فقد كانوا يفرحون بكل ما ينزل من وحي.

2 لفظ أهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى معاً، لفظ البعض عام في القلة والكثرة ولذا فاليهود كالنصارى كالمشركين كالمجوس ينكرون من القرآن ما يتعارض مع معتقداتهم الباطلة ولا ينكرون ما لا يتعارض معها.

3 أي: أرجع في أموري كلها إليه دون غيره، وفي هذا معنى الاعتماد على الله والتوكل عليه في الأمر كله.

4 {حكماً عربياً}: حالان من أنزلناه، وقيل: المراد من {حكماً} الحكمة كقوله: {وآتيناها الحكم صبياً}

أي: الحكمة، فالقرآن يحوي الحكم المعبر عنها بالعربية وكونه من الحكم أولى لأنه يحكم به في الأمور كلها.

5 في الآية إنذار وتحذير عظيم لمن يترك أوامر الله تعالى أو يغشى محارمه موافقة لأهل الباطل طلباً لرضاهم أو خوفاً من غضبهم.

(3/34)

رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية} فلا معنى لما يقوله المبطلون 1: لم يتخذ محمد أزواجاً ولم يكون له ذرية؟ وهو يقول أنه نبي الله ورسوله، فإن الرسل قبلك من نوح وإبراهيم إلى موسى وداوود وسليمان الكل كان لهم أزواج وذرية 2، ولما قالوا {لولا أنزل عليه آية} رد الله تعالى عليهم بقوله: {وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله} فالرسل كلهم مربوبون لله مقهورون لا يملكون مع الله شيئاً فهو المالك المتصرف إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وقوله: {لكل أجل كتاب} أي لكل وقت محدد يعطي الله تعالى فيه أو يمنع كتاب كتب فيه ذلك الأجل وعيّن فلا فوضى ولا أنف 3، وقوله: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} ردّ على قولهم لم يثبت الشيء ثم يبطله كاستقبال بيت المقدس ثم الكعبة وكالعدة من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام فأعلمهم أن الله تعالى ذو إرادة ومشية لا تخضعان لإرادة الناس ومشياتهم فهو تعالى يمحو ما يشاء من الشرائع والأحكام بحسب حاجة عباده ويثبت كذلك ما هو صالح لهم نافع، {وعنده أم الكتاب} أي الذي حوى كل المقادير فلا يدخله تبديل ولا تغيير كالموت والحياة والسعادة والشقاء، وفي الحديث: "رفعت الأقلام وجفت الصحف" رواه مسلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة الوحي والنبوة.

2- تقرير عقيدة التوحيد.

3- تقرير أن القضاء والحكم في الإسلام مصدره الأول القرآن الكريم ثم السنة لبيانها للقرآن، ثم

القياس المأذون فيه فإجماع الأمة لاستحالة اجتماعها على غير ما يحب الله

1 قيل: إن اليهود هم الذين عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأزواج وعيروه بذلك فقالوا ما

نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وعليه فالآية مدنية.

2 في الآية: الترغيب في النكاح والحض عليه، وهو كذلك فقد جاء في السنة قوله صلى الله عليه

وسلم: "تزوجوا الولود الودود فإني مكائر بكم الأمم يوم القيامة" وفي الموطأ: "من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة: ما بين لحييه وما بين رجليه".

3 أي: ولا بداء، والبداء: أن يبدو له الشيء بعد أن لم يكن يعلمه.

4 صح قوله صلى الله عليه وسلم: "من سرّ أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه" فهذا الحديث يفسر قوله تعالى: {يُمحوا الله ما يشاء ويثبت} أي: ما يشاء، وقد تكلم العلماء في هذا بشيء كثير وما أراه يوضح هذا هو أن الله تعالى لما كتب في اللوح المحفوظ كتب أن فلاناً يصل رحمه فيكون رزقه كذا سعة ويكون أجله كذا طولاً، فصلة الرحم سبب في توسعة الرزق وطول العمر.

(3/35)

تعالى ويرضى به.

4- التحذير من اتباع أصحاب البدع والأهواء والملل والنحل الباطلة.

5- تقرير عقيدة القضاء والقدر.

6- بيان النسخ في الأحكام بالكتاب والسنة.

وَأَنْ مَّا تُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْتْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)

شرح الكلمات:

نعدهم: أي من العذاب.

أو نتوفيتك: أي قبل ذلك.

ننقصها من أطرافها: أي بلداً بعد بلد بالفتح ودخول الإسلام فيها وانتهاء الشرك منها.

لا معقب لحكمه: أي لا راد له بحيث لا يتعقب حكمه فيبطل.

ومن عنده علم الكتاب: من مؤمني اليهود والنصارى.

معنى الآيات:

(3/36)

قوله تعالى: {وإما نرينك 1 بعض الذي نعدهم أو نتوفينك} أي إن أرينك بعض الذي نعد قومك من العذاب فذاك، وإن توفيتك قبل ذلك فليس عليك إلا البلاغ 2 فقد بلغت وعلينا الحساب فسوف نجزيهم بما كانوا يكسبون، فلا تأس أيها الرسول ولا تضق ذرعاً بما يمكرون، وقوله: {أو لم يروا} أي المشركون الجاحدون الماكرون المطالبون بالآيات على صدق نبوة نبينا {أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها 3} أي نفتحها للإسلام بلداً بعد بلد أليس ذلك آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة دعوته، وقوله: {والله يحكم ولا معقب لحكمه} أي والله جل جلاله يحكم في خلقه بما يشاء فيعز ويزل ويعطي ويمنع وينصر ويهزم، ولا معقب لحكمه أي ليس هناك من يعقب على حكمه فيبطله فإذا حكم بظهور الإسلام وإدبار الكفر فمن يرد ذلك على الله، وقوله: {وهو سريع الحساب} إذا حاسب على كسب فحسابه سريع يجزي الكاسب بما يستحق دون ببطء ولا تراخ وقوله تعالى: {وقد مكر الذين من قبلهم} أي وقد مكرت أقوام قبل قريش وكفار مكة فكيف كان عاقبة مكربهم؟ إنها دمارهم أجمعين، أما يخشى رؤساء الكفر في مكة من عاقبة كهذه؟ وقوله: {فلله المكر جميعاً} أي إذا فلا عبرة بمكربهم ولا قيمة له فلا يرهب ولا يلتفت إليه وقوله: {يعلم ما تكسب كل نفس} من خير وشر فأين مكر من لا يعلم من مكر من يعلم كل شيء فسوف يصل بالممكور به إلى حافة الهلاك وهو لا يشعر، أفلا يعي هذا كفار قريش فيكفوا عن مكربهم برسول الله ودعوته؟ وقوله تعالى: {وسيعلم الكفار لمن 4 عقبى الدار} أي سيعلم المشركون خصوم التوحيد يوم القيامة لمن عقبى الدار أي العاقبة الحميدة لمن دخل الجنة وهو محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه أو لمن دخل النار وهم دعاة الشرك والكفر واتباعهم، وقوله تعالى: {ويقول الذين كفروا لست برسلاً} أي يواجهونك بالإتكار عليك والجحود لنبوتك ورسالتك قل لهم يا رسولنا الله شهيد بيني

1 {ما} زائدة لتقوية الكلام والأصل وإن نرينك.

2 {البلاغ}: التبليغ و {الحساب}: الجزاء والعقوبة.

3 فسر بعضهم الأطراف بالأشراف، وقال: المراد موت العلماء، وهو تفسير بعيد جداً، وما في التفسير أقرب وأوضح إلى معنى الآية الكريمة، ورد قول من قال هو نقصان الأرض بقول أحدهم لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك أي: مكان قضاء حاجتك.

4 قرأ نافع {الكافر}: بالإنفراد، وهو اسم جنس بمعنى الجمع، وقرأ الجمهور {الكفار} وقيل المراد بالكافر هنا. أبو جهل، والله أعلم، وفي الآية وعيد وتهديد للكفار مطلقاً.

وبينكم وقد شهد لي بالرسالة وأقسم لي عليها مرات في كلامه مثل ليس القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين} وكفى بشهادة الله شهادة، {ومن عنده علم الكتاب} الأول التوراة والإنجيل وهم مؤمنوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى كعبد 1 الله بن سلام وسلمان الفارسي والنجاشي وتميم الداري وغيرهم 2. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- انتصار الإسلام وانتشاره في ظرف ربع قرن أكبر دليل على أنه حق.
- 2- أحكام الله تعالى لا ترد، ولا يجوز طلب الاستئناف على حكم من أحكام الله تعالى في كتابه أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- 3- شهادة الله أعظم شهادة، فلا تطلب بعدها شهادة إذا كان الخصام بين مؤمنين.
- 4- فضل العالم على الجاهل، إذ شهادة مؤمني أهل الكتاب تقوم بها الحجة على من لا علم لهم من المشركين.

(3/38)

سورة إبراهيم

...

سورة إبراهيم

مكية

وآياتها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)

1 عبدالله بن سلام كان اسمه في الجاهلية: حصين فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله.

(3/38)

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمِ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

شرح الكلمات:

الر : هذا أحد الحروف المقطعة تكتب آلر وتقرأ ألف لأم رآ والتفويض فيها أسلم وهو قول الله أعلم بمراده بذلك 1.

كتاب: أي هذا كتاب عظيم.

أنزلناه إليك: يا محمد صلى الله عليه وسلم.

من الظلمات : أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

العزیز الحميد: أي المحمود بآلائه.

عن سبيل الله : أي الإسلام.

عوجاً : أي معوجّة.

بآياتنا: أي المعجزات التسع: العصا، اليد، الطوفان، الجراد، القمل،

1 هذا مذهب السلف وهو: تفويض لهم معناها إلى الله تعالى منزلها ويعدونها من المنتشابه الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل. وهو أسلم من القول بالإجهاد الفكري.

(3/39)

الضفادع، الدم، والطمس والسنين ونقص الثمرات.

وذكرهم بآيات الله: أي ببلائه ونعمائه.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {الر} الله أعلم بمراده وقوله: {كتاب أنزلناه} أي هذا كتاب عظم القدر أنزلناه إليك يا رسولنا لتخرج الناس 1 من الظلمات أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم الشرعي، وذلك {بإذن ربهم} أي بتوقيفه ومعونته {إلى صراط العزيز الحميد} أي إلى طريق العزيز 2 الغالب الحميد أي المحمود بآلائه وفضالاته على عباده وسائر مخلوقاته {الله 3 الذي له ما في السموات وما في الأرض} خلقا وملكا وتصريفا وتدبيراً، هذا هو الله صاحب الصراط الموصل إلى الإسعاد والإكمال البشرى، والكافرون معرضون بل ويصدون عنه فويل لهم من عذاب شديد، الكافرون {الذين يستحبون الحياة الدنيا} 4 أي يفضلون الحياة الدنيا فيعملون للدنيا ويتركون العمل للآخرة لعدم إيمانهم بها {ويصدون} أنفسهم وغيرهم أيضاً {عن سبيل الله} أي الإسلام {ويبغونها عوجاً} أي معوجة إنهم يريدون من الإسلام أن يوافقهم في أهوائهم وما يشتهون حتى يقبلوه ويرضوا به دينا قال

تعالى: {أولئك في ضلال بعيد} إنهم بهذا السلوك المتمثل في إثارة الدنيا على الآخرة والصد عن الإسلام، ومحاولة تسخير الإسلام لتحقيق أطماعهم وشهواتهم في ضلال بعيد لا يمكن لصاحبه أن يرجع منه إلى الهدى، وقوله تعالى في الآية (4) من هذا السياق {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} أي بلغتهم التي يتخاطبون بها ويتفاهمون لحكمة أن يبين لهم، والله بعد ذلك يضل من يشاء إضلاله

- 1 لتخرج الناس: أي: بالقرآن العظيم الذي أنزلناه عليك.
- 2 الطريق هو الإسلام دين الله الذي لا يقل ديناً غيره.
- 3 قرأ نافع برفع اسم الجلالة، وقرأ الجمهور بالجر، واستجب بعضهم بالجر إذا وصل والرفع إذا وقف وهو حسن ومن وصل وقف على وما في الأرض.
- 4 قال ابن عباس وغيره: كل من آثر الدنيا وزهرتها واستحب البقاء في نعيمها على نعيم الآخرة وصد عن سبيل الله أي: صرف نفسه وغيره عن طاعة الله ورسوله فهو داخل في هذه الآية، وهي ذات وعيد شديد.
- 5 لا حجة لغير العرب في هذه الآية إذ كل من ترجم له الإسلام بلغته وجب عليه الدخول فيه والحمل بشرائعه ليكمل ويسعد، وقد استعمرت بريطانيا نصف العالم فتكلم الناس بلغتها وتعاملوا بها وهي لغة دنيا لا غير. فالواجب على غير العربي أن يتعلم لغة الإسلام ما أمكنه ذلك.

(3/40)

حسب سنته في الإضلال ويهدي من يشاء كذلك {وهو العزيز} الغالب الذي لا يمانع في شيء أرادته {الحكيم} الذي يضع كل شيء في موضعه فلذا هو لا يضل إلا من رغب في الإضلال وتكلف له وأحبه وآثره، وتكرر للهدى وحارب المهتدين والداعين إلى الهدى، وليس من حكمته تعالى أن يضل من يطلب الهدى ويسعى إليه ويلتزم طريقه. ويحبه ويحب أهله، وقوله تعالى: {ولقد أرسلنا موسى} أي موسى نبي بني إسرائيل {بآياتنا} أي بحججنا وأدلتنا الدالة على رسالته والهادية إلى ما يدعو إليه وهي تسع آيات منها اليد والعصى {أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور} 2 أي أخرج قومك من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، {وذكرهم بأيام الله} 3 أي وقلنا له: ذكرهم بأيام الله وهي بلاؤه ونعمه إذ أنجاهم من عذاب آل فرعون وأنعم عليهم بمثل المن والسلوى، وذلك ليحملهم على الشكر لله بطاعته وطاعة رسوله، وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} أي إن في ذلك التذكير بالبلاء والنعماء لدلالات يستدل بها على إفضال الله وإنعامه الموجب للشكر، ولكن الذين يجدون تلك الدلالات في التذكير هم أهل الصبر والشكر بل هم الكثيرون الصبر 4 والشكر، وأما

غيرهم فلا يرى في ذلك دلالة ولا علامة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إقامة الحجة على المكذبين بالقرآن الكريم، إذ هو مؤلف من الحروف المقطعة مثل آلر وطسم وآلم وحم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله بل بسورة مثله.
- 2- بيان أن الكفر ظلام والإيمان نور.
- 3- بيان الحكمة في إرسال الله تعالى الرسل بلغات أقوامهم.

- 1 من مظاهر حكمته أنه ختم الرسالة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وواجب على البشرية كلها الإيمان به وبما جاء به ومن أبى دخل النار، فقد روى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". فوحد بذلك البشرية توحيداً روحياً واجتماعياً وسياسياً لو أنها آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخذت بهدايته لحصل لها من الكمال والإسعاد ما لم يخطر على بال.
- 2 أن: تفسيرية فسرت الإرسال لأنه فيه معنى القول.
- 3 التذكير إزالة نسيان شيء، ويكون بتعليم مجهول كان شأنه أن يعلم، ولما ضمن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدي بالباء أي: ذكرهم تذكير عظة بأيام الله.
- 4 الصبر مع البلاء، والشكر مع الرخاء، وخير الناس من إذا ابتلى صبر وإذا أعطي شكر ولا يكون كذلك إلا ذو علم وبصيرة.

(3/41)

- 4- تقرير أن الذي يخلق الهداية هو الله وأما العبد فليس له أكثر من الكسب.
 - 5- فضيلة التذكير بالخير والشر ليشكر الله ويتقى.
 - 6- فضيلة الصبر والشكر.
- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبُّوْنَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

شرح الكلمات:

وإذ قال موسى : أي اذكر إذ قال موسى.

يسومونكم: يذيقونكم.

ويستحيون نساءكم: أي يستبقونهنَّ.

(3/42)

بلاء من ريكم عظيم: أي ابتلاء واختبار، ويكون بالخير والشر.

وإذ تأذن ريكم: أي أعلم ريكم.

بالبيئات: بالحجج الواضحة على صدقهم في دعوة النبوة والتوحيد والبعث الآخر.

فردوا أيديهم في أفواههم: أي فرد الأمم أيديهم في أفواههم أي أشاروا إليهم أن اسكتوا.

مريب: موقع في الريبة.

معنى الآيات:

{وإذ قال موسى لقومه} أي اذكر يا رسولنا إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل {اذكروا نعمة الله عليكم} أي لتشكروها بتوحيده وطاعته، فإن من ذكر شكر وبين لهم نوع النعمة وهي إنجاؤهم من فرعون وملائته إذ كانوا يعذبونهم بالاضطهاد والاستعباد، فقال: {يسومونكم سوء العذاب} أي يذيقونكم سوء العذاب وهو أسوأ وأشده، {ويذبون أبناءكم} أي الأطفال المولودين، لأن الكهنة أو رجال السياسة قالوا لفرعون: لا يبعد أن يسقط عرشك وتزول دولتك على أيدي رجل من بني إسرائيل قامر بقتل المواليد فور ولادتهم فيقتلون الذكور ويستبقون الإناث للخدمة ولعدم الخوف منهن وهو معنى قوله: {ويستحيون نساءكم} وقوله تعالى: {وفي ذلك بلاء من ريكم عظيم} فهو بالنظر إلى كونه عذاباً بلاء بالشر، وفي كونه نجاة منه، بلاء بالخير، وقوله تعالى: {وإذ تأذن 1 ريكم} هذا من قول موسى لبني إسرائيل أي أذكر لهم إذ أعلم ريكم مقسماً لكم {لئن شكرتم} 2 نعمي بعبادتي وتوحيدي فيها وطاعتي وطاعة رسولي بامتثال الأوامر واجتتاب النواهي {لأزيدنكم} في الإنعام والإسعاد {ولئن كفرتم} فلم تشكروا نعمي فعصيتموني وعصيتم رسولي أي لأسلبنها منكم وأعذبكم بسلبها من أيديكم {إن عذابي

1 أي: تكلم تكلماً علناً وهو يناجي موسى عليه السلام بجبل الطور وأذن وتأذن أعلم، ومنه الأذان

للصلاة، قال الشاعر:

فلم نشعر بضوء الصبح حتى

سمعنا في مجالسنا الأذينا

2 سئل بعض الصالحين عن الشكر لله تعالى فقال: ألا تتقوى بنعمه على معاصيه وحكي أن داود عليه السلام أنه قال: أي ربي كيف أشكرك وشكري لك نعمة متجددة منك عليّ؟ قال: "يا داود: الآن شكرتني"، وعيه فالشكر الاعتراف بالنعمة للمنع ولا يصرفها في غير طاعته.

(3/43)

لشديد} فاحذروه واحشوني فيه، وقوله تعالى: {وقال موسى} أي لبني إسرائيل {إن تكفروا أنتم} نعم الله فلم تشكروها بطاعته {ومن في الأرض جميعاً} وكفرها من في الأرض جميعاً {فإن الله لغني} عن سائر خلقه لا يفتقر إلى أحد منهم 1 {حميد} أي محمود بنعمه على سائر خلقه، وقوله: {ألم يأتكم} هذا قول موسى لقومه وهو يعظهم ويذكرهم : {ألم يأتكم} نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم} أي لا يعلم عددهم ولا يحصيهم 3 {إلا الله} {جاءتهم رسلاً بالبينات} أي بالحجج والبراهين على صدق دعوتهم وما جاء به من الدين الحق ليعبد الله وحده ويطاع وتطاع رسله فيكمل الناس بذلك ويسعدوا، وقوله: {فردوا أيديهم} أي ردت الأمم المرسل إليهم أيديهم إلى أفواههم تغيظاً على أنبيائهم وحنقاً، أو أشاروا إليهم بالسكوت فأسكتوهم رداً لدعوة الحق التي جاؤوا بها، وقالوا لهم: {إنا كفرنا بما أرسلتم به} أي بما جئتم به من الدين الإسلامي والدعوة إليه، {وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب} أي موقع في الريبة التي هي قلق النفس واضطرابها لعدم سكونها للخير الذي يلقي إليها، هذا وما زال السياق طويلاً وينتهي بقوله تعالى: {واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد}.
هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- مشروعية التذكير بنعم الله لنشكر ولا نكفر.
- 2- وعد الله تعالى بالمزيد من النعم لمن شكر نعم الله عليه.
- 3- كفر النعم سبب زوالها.
- 4- بيان غنى الله تعالى المطلق على سائر خلقه فالناس إن شكروا شكروا لأنفسهم وإن كفروا كفروا على أنفسهم أي شكرهم ككفرهم عائد على أنفسهم.
- 5- التذكير بقصص السابقين وأحوال الغابرين مشروع وفيه فوائد عظيمة.

1 أي: لا يلحقه نقص بكفر الناس ولو كفروا أجمعون.

2 صالح لأن يكون من قول موسى عليه السلام، ومن قول الله تعالى تعليماً لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

3 ولا يعرف أنسابهم كذلك إلا الله وفي الحديث: " كذب النسابون إن الله يقول لا يعلمهم إلا الله " قاله لما زاد النسابون على معد بن عدنان، وقال: "لا ترفعوني فوق عدنان".

(3/44)

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا آدَبْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14)

شرح الكلمات:

أفي الله شك: أي لا شك في وجود الله ولا في توحيده، إذ الاستفهام إنكاري.

إلى أجل مسمى : أي إلى أجل الموت.

بسُلطان ميين : بحجة ظاهرة تدل على صدقكم.

(3/45)

يمن على من يشاء: أي بالنبوة والرسالة على من يشاء لذلك.

وقد هدانا سبلنا: أي طريقه التي عرفناه بها وعرفنا عظيم قدرته وعز سلطانه.

لنخرجنكم من أرضنا: أي من ديارنا أو لتعودون في ديننا.

لمن خاف مقامي: أي وقوفه بين يدي يوم القيامة للحساب الجزاء.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ما ذكر به موسى قومه بقوله: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح....} فقوله

تعالى: {قالت رسلهم} أي قالت الرسل إلى أولئك الأمم الكافرة {أفي الله شك}؟ أي كيف يكون في

توحيد الله شك وهو فاطر السموات والأرض، فخالق السموات والأرض وحده لا يعقل أن يكون له

شريك في عبادته، انه لا إله إلا هو وقوله : {يدعوكم} إلى الإيمان والعمل الصالح الخالي من

الشرك {ليغفر لكم من 3 ذنوبكم} وهو كل ذنب بينكم وبين ربكم من كبائر الذنوب وصغائرها أما

مظالم الناس فردوها إليهم تغفر لكم وقوله: {ويؤخركم إلى أجل مسمى} أي يؤخر العذاب عنكم لتموتوا بأجالكم المقدره لكم، وقوله: {قالوا} أي قالت الأمم الكافرة لرسلمهم {إن أنتم إلا بشر مثلنا} أي4 ما أنتم إلا بشر مثلنا، {تريدون أن تصدونا} أي تصرفونا {عما كان يعبد آباؤنا} من آلهتنا أي أصنامهم وأوثانهم التي يدعون أنها آلهة، وقولهم: {فأتونا بسلطان مبين} قال الكافرون للرسل ائتونا بسلطان مبين أي بحجة ظاهرة تدل على صدقكم أنكم رسل الله إلينا فأجابت الرسل قائلة ما أخبر تعالى به عنهم بقوله: {قالت لهم رسلمهم إن نحن إلا بشر مثلكم} أي ما نحن إلا بشر مثلكم فما لا تستطيعونه أنتم لا نستطيعه نحن {ولكن الله يمن على من يشاء} أي إلا أن الله يمن على من يشاء بالنبوة

- 1 الاستفهام إنكاري أي: لا شك في الله، أي في وجوده، وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة لألوهيته، وهي عبادته وحده لا شريك له.
- 2 هذا الوصف الكامل لله وهو مقتضى وجوده وألوهيته عز وجل.
- 3 على ما في التفسير (من) للتبويض، ويصح أن تكون زائدة، والمغفرة لكل الذنوب لأن الإسلام يجب ما قبله من سائر الذنوب.
- 4 أي: في الهيئة تأكلون كما نأكل وتشربون كما نشرب، وتمرضون، وتصحون مثلنا ولستم ملائكة.
- 5 ومما من الله به عليهم، الحكمة والمعرفة والهداية إلى ما يوجب رضاه ومحبتة؟ وقيل: إن أعظم ما يمن به الله تعالى على عبده ذكره بأسمائه وصفاته.

(3/46)

فمن علينا بها فنحن ننبئكم بما أمرنا الله ربنا وربكم أن ننبئكم به كما نأمركم وندعوكم لا من تلقاء أنفسنا ولكن بما أمرنا أن نأمركم به وندعوكم إليه، {وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله} أي بإرادته وقدرته فهو ذو الإرادة التي لا تحد والقدرة التي لا يعجزها شيء ولذا توكلنا عليه وحده وعليه {فليتوكل المؤمنون} فإنه يكفيهم كل ما يهمهم، ثم قالت الرسل وهي تعظ أقوامها بما تقدم: {وما لنا ألا نتوكل 1 على الله وقد هدانا سبلنا} أي طرقتنا التي عرفنا بها وعرفنا عظمتها وعزة سلطانه فأني شيء يجعلنا لا نتوكل عليه وهو القوي العزيز {ولنصبرن على ما آديتمونا} بألسنتكم وأيديكم متوكلين على الله حتى ينتقم الله تعالى لنا منكم، {وعلى الله فليتوكل المتوكلون} إذ هو الكافل لكل من يثق فيه ويفوض أمره إليه متوكلا عليه وحده دون سواه، وقوله تعالى: {وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا} هذا إخبار منه تعالى على ما قالت الأمم الكافرة لرسلمها: قالوا موعدين مهديين بالنفي والإبعاد من البلاد لكل من يرغب عن دينهم ويعبد غير آلهتهم:

{نخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا} أي ديننا الذي نحن عليه وهنا أوحى الله تعالى إلى رسله بما أخبر تعالى به: {فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم} قال لنهلكن الظالمين ولم يقل لنهلكنهم إشارة إلى علة الهلاك وهي الظلم الذي هو الشرك والإفساد ليكون ذلك عظة للعالمين، وقوله تعالى: {ذلك} أي الإنجاء للمؤمنين والإهلاك للظالمين جزاءً 2 {لمن خاف مقامي} 3 أي الوقوف بين يدي يوم القيامة {وخاص وعيد} على السنة رسلي بالعذاب لمن كفر بي وأشرك في عبادتي ومات على غير توبة إلى من كفره وشركه وظلمه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بطلان الشرك في وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ووجوب عبادته وحده وذلك لكثرة

1 وما: اسم استفهام مبتدأ، وما بعدها في موضع الحال، والتقدير: أي شيء لنا في ترك التوكل على الله؟ والاستفهام إنكاري.

2 وإسكان الصالحين الأرض بعد إهلاك الظالمين.

3 المقام: مصدر ميمي وقوله {مقامي}: أي قيامه بين يديّ للحساب، والوعيد هو عذاب النار، وقيل: مقامي: أي قيامي عليه، ومراقبتي له والمعنى إذا خافني وراقبني، وهو معنى صحيح، والخوف من الله ومراقبته موجبة للصلاح المورث للأرض والدولة لقوله تعالى: {إن الأرض يرثها عبادي الصالحون}.

(3/47)

الأدلة وقوة الحجج، وسطوع البراهين.

2- بيان ما كان أهل الكفر يقابلون به رسل الله والدعاة إليه سبحانه وتعالى وما كانت الرسل ترد به عليهم.

3- وجوب التوكل على الله تعالى، وعدم صحة التوكل على غيره إذ لا كافي إلا الله.

4- وجوب الصبر على الأذى في سبيل الله وانتظار الفرج بأخذ الظالمين.

5- عاقبة الظلم وهي الخسران والدمار لا تتبدل ولا تتخلف وإن طال الزمن.

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)

شرح الكلمات:

واستفتحو : أي طلب الرسل الفتح لهم أي النصر على أقوامهم الظالمين.
وخاب: أي خسر وهلك.

(3/48)

كل جبار عنيد: أي ظالم يجبر الناس على مراده عنيد كثير العناد.
من ماء صديد: أي هو ما يخرج سائلاً من أجواف أهل النار مختلطاً من قيح ودم وعرق.
يتجرعه ولا يكاد يسيغه: أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته ولا يقارب ازدراده لقبحه ومراراته.
ويأتيه الموت من كل مكان : أي لشدة ما يحيط به من العذاب فكل أسباب الموت حاصلة ولكن لا يموت.

أعمالهم كرماد: أي الصالحة منها كصلة الرحم وبر الوالدين وإقراء الضيف وفك الأسير والفاصلة
كعبادة الأصنام بالذبح لها والنذر والحلف والعكوف حولها كرماد.
لا يقدرون مما كسبوا على شيء: أي لا يحصلون من أعمالهم التي كسبوا على ثواب وإن قل لأنها باطلة بالشرك.
وما ذلك على الله بعزیز: أي بصعب ممتنع عليه.
معنى الآيات:

هذا آخر حديث ما ذكر به موسى قومه من أنباء الأمم السابقة على بنى إسرائيل، قال تعالى في الإخبار عنهم: {واستفتحو وخاب كل جبار عنيد} أي واستفتح الرسل أي طلبوا من الله تعالى أن يفتح عليهم 1 بنصر على أعدائه وأعدائهم واستجاب الله لهم، {وخاب كل جبار عنيد 1} أي خسر وهلك كل ظالم طاغ معاند للحق وأهله، وقوله 2: {من ورائه جهنم 3} أي أمامه جهنم تنتظره سيدخلها بعد هلاكه ويعطش ويطلب الماء

1 كقولهم: {ربنا افتح بينا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين} قالها شعيب والمؤمنون معه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو طالباً نصره وهزيمة أعدائه.

2 العنيد: المعاند للحق، والجبار: المتعاضم الشديد التكبر، وقيل هو من يجبر الناس على مراده، وهو وصف مذموم لغير الله تعالى.

3 لفظ وراء يطلق على ما كان خلفاً وما كان أماماً، لأن كل ما ووري أي: استتر فهو وراء. وقوله: {من ورائه جهنم}: صفة لجبار عنيد، والوراء مستعمل في معنى ما ينتظره ويحل به من بعد، قال

الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه

يكون وراءه فرج قريب

أي بعده.

(3/49)

فتسقيه الزبانية {من ماء صديد1} أي وهو صديد أهل النار وهو ما يخرج من قيح ودم وعرق،
{يتجرعه} أي يبتلعه جرعة بعد أخرى لمرارته2 {ولا يكاد يسيغه} أي يدخله جوفه الملهب عطشاً
لقبحه ونتاجه ومرارته وحرارته، وقوله تعالى: {وبأنته الموت من كل مكان وما هو بميت} أي ويأتي
هذا الجبار العنيد والذي هو في جهنم يقتله الظمأ فيسقى بالماء الصديد يأتيه الموت لوجود أسبابه
وتوفرها من كل مكان إذ العذاب محيط به من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت
لأن الله تعالى لم يشأ ذلك قال تعالى: {لا يموت فيها ولا يحيا} وقال: {لا يقضى عليهم فيموتوا ولا
يخفف عنهم من عذابها} ومن وراء ذلك العذاب الذي هو فيه {عذاب} أي لون آخر من العذاب
{غليظ} أي شديد لا يطاق، وقوله تعالى: {مثل3 الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد4 اشتدت به الريح
في يوم عاصف} أي من شديد هبوب الريح فيه {لا يقدرن مما كسبوا} أي من أعمال في الدنيا
{على شيء} أي من الثواب والجزاء الحسن عليها، هذا مثل أعمالهم الصالحة كأنواع الخير والبر
والطالحة كالشرك والكفر وعبادة غير الله مما كانوا يرجون نفعه، الكل يذهب ذهاب رماد حملته الريح
وذهبت به، مشتدة في يوم عاصف شديد هبوب الريح فيه.
وقوله تعالى: {ذلك هو الضلال البعيد} أي ذلك الذي دل عليه المثل هو الضلال البعيد لمن وقع فيه
إذ ذهب كل عمله سدى بغير طائل فلم ينتفع بشيء منه وأصبح من الخاسرين.
وقوله تعالى: {ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق} أي ألم تعلم أيها الرسول أن الله خلق
السموات والأرض بالحق أي من أجل الإنسان ليذكر الله تعالى ويشكره فإذا تكبر لربه فكفر به
وأشرك غيره في عبادته عذبه بالعذاب الأليم الذي تقدم

1 الصديد: المهلة، أي مثل الماء يسيل من الدم ونحوه والتجرع: تكلف الجرع والجرع: بلع الماء.

2 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قوله تعالى {يسقى من ماء صديد يتجرعه..} قال: "يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره.. الخ رواه الترمذي واستغربه.

3 المثل: الحال العجيبة أي حال أعمالهم كرماد.

- 4 الرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم، ضرب الله في هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف.
- 5 الرؤية هنا: رؤية القلب وهي العلمية.

(3/50)

وصفه في هذا السياق لأن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض عبثاً وباطلاً بل خلقهما وخلق ما فيهما من أجل أن يذكر فيهما ويشكر فمن ترك الذكر والشكر عذبه أشد العذاب وأدومه وأبقاه، وقوله تعالى: {إن يشأ يذهبكم} أيها الناس المتمردون على طاعته المشركون به {ويأت بخلق جديد} غيركم يعبدونه ويوحدونه {وما ذلك على الله بعزيز} أي بممتنع ولا متعذر لأن الله على كل شيء قدير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إنجاز وعد الله لرسله في قوله: {فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين} الآية.
- 2- خيبة وخسران عامة أهل الشرك والكفر والظلم.
- 3- عظم عذاب يوم القيامة وشدته.
- 4- بطلان أعمال المشركين والكافرين وخببتهم فيها إذ لا ينتفعون بشيء منها.
- 5- عذاب أهل الكفر والشرك والظلم لازم لأنهم لم يذكروا ولم يشكروا والذكر والشكر علة الوجود كله فلما عبثوا بالحياة استحقوا عذاباً أبدياً.

وَيَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (21) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا

1 أي: أفضل منكم وأطوع وما في التفسير أدل على المقصود.

(3/51)

بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)
وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيُّهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ (23)

شرح الكلمات:

وبرزوا لله جميعاً 1 : أي برزت الخلائق كلها لله وذلك يوم القيامة.

إنا كنا لكم تبعاً: أي تابعين لكم فيما تعتقدون وتعملون.

فهل أنتم مغنون عنا: أي دافعون عنا بعض العذاب.

ما لنا من محيص: أي من ملجأ ومهرب أو منجأ.

لما قضي الأمر: بإدخال أهل الجنة، الجنة وأهل النار النار.

ما أنا بمصرخكم: أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب والكره.

تجري من تحتها الأنهار: أي من تحت قصورها وأشجارها الأنهار الأربعة: الماء واللبن والخمر
والعسل.

معنى الآيات:

في هذه الآيات عرض سريع للموقف وما بعده من استقرار أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة
يقرر مبدأ الوحي والتوحيد والبعث الآخر بأدلة لا ترد، قال تعالى : {وبرزوا لله جميعاً} أي خرجت
البشرية من قبورها مؤمنوها وكافروها صالحوها وفاسدوها {فقال الضعفاء} أي الأتباع {للذين
استكبروا} أي الرؤساء والموجهون للناس بما لديهم من قوة وسلطان {إنا كنا لكم تبعاً} أي أتباعاً في
عقائدكم وما تدينون به، {فهل

1 البروز: الظهور، وهو هنا الخروج من القبور والظهور خارجها للحشر حيث فصل القضاء، ومن
هذا قولهم: امرأة برزة أي تظهر للناس.

2 {تبعاً}: يصح أن يكون مصدراً أي: ذوي. تبع، ويجوز أن يكون جمع تابع مثل: حرس وحارس،
وخدم وخادم.

(3/52)

أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟ أي فهل يمكنكم أن ترفعوا عنا بعض العذاب بحكم
تبعيتنا لكم فأجابوهم بما أخبر تعالى به عنهم؟ {قالوا لو هدانا الله لهديناكم} 1 اعترفوا الآن أن الهداية
بيد الله وأقروا بذلك، ولكننا ضللنا فأضلناكم {سواء علينا أجزعنا} اليوم {أم صبرنا مالنا من محيص} 2
أي من مخرج من هذا العذاب ولا مهرب، وهنا يقوم إبليس خطيباً فيهم 3 بما أخبر تعالى عنه بقوله:

{وقال الشيطان} أي إبليس عدو بني آدم {لما قضي الأمر} بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأدخل أهل النار النار {إن الله وعدكم عد الحق}4 بأن مم آمن وعمل صالحاً مبتعداً عن الشرك والمعاصي أدخله جنته وأكرمه في جواره، وأن من كفر وأشرك وعصى أدخله النار وعذبه عذاب الهون في دار البوار {ووعدتكم} بأن وعد الله ووعده ليس بحق ولا واقع {فأخلفتم} فيما وعدتكم به، وكنت في ذلك كاذباً عليكم مغرراً بكم، {وما كان لي عليكم من سلطان} أي من قوة مادية أكرهتكم بها على اتباعي ولا معنوية ذات تأثير خارق للعادة أجبرتكم بها على قبول دعوتي {إلا أن دعوتكم} أي لكن دعوتكم {فاستجبتم لي} إذاً {فلا تلوْموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم} أي بمزِيل صراخكم بما أغيثكم به من نصر وخلص من هذا العذاب {وما أنتم} أيضاً {بمصرخي}5، أي بمغيثي {إني كُفرت بما أشركتمون من قبل}6 إذ كل عابد لغير الله في الواقع هو عابد للشيطان إذ هو الذي زين له ذلك ودعاه إليه، و {إن الظالمين لهم عذاب أليم} أي المشركين لهم عذاب أليم موجع، وقوله تعالى: {وأدخل7 الذين آمنوا} أي وأدخل الله الذين آمنوا أي صدّقوا بالله وبرسوله وبما جاء به رسوله {وعمِلوا الصالحات} وهي العبادات التي تَعَبَّدَ اللهُ بها عباده فشرعها

- 1 أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه أو لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها.
- 2 المحيص: مصدر ميمي كالمغيث والمشيبي من غاب وشاب، وكذلك حاص يحيص حيصاً عن كذا: هرب ونجا، ويجوز أن يكون المحيص هنا اسم مكان أي: ما لنا من مكان نلجأ إليه وننجو فيه.
- 3 أي: على منبر من نار.
- 4 {وعد الحق}: يعني البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي. فصدقكم وعده، ووعدتكم ألا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب. فأخلفتم.
- 5 (الصارخ): والمستصرخ هو الذي يطلب النصر والمعونة، المصرخ هو المغيث قال الشاعر:
ولا تجزعوا إني لكم غير مصرخ
وليس لكم عندي غناء ولا نصر
- 6 {بما أشركتمون}: الميم مصدرية والتقدير كُفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى.
- 7 لَمَّا أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة وهو أسلوب الترغيب والترهيب الذي امتاز به القرآن الكريم لأته كتاب هداية وإصلاح.

في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم {جنات} 1 بساتين {تجري من تحتها الأنهار} أي من خلال قصورها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل {خالدين فيها} لا يخرجون منها ولا يبيغون عنها حولاً، وقوله تعالى: {بإذن ربهم} 2 أي أن ربهم هو الذي أذن لهم بدخولها والبقاء فيها أبداً، وقوله: {تحيتهم فيها سلام} أي السلام عليكم يحييهم ربهم وتحية الملائكة يحيى بعضهم بعضاً بالسلام وهي كلمة دعاء بالسلامة من كل العاهات والمنغصات وتحية بطلب الحياة الأبدية. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أن التقليد والتبعية لا تكون عذراً لصاحبها عند الله تعالى.
- 2- بيان أن الشيطان هو المعبود من دون الله تعالى إذ هو الذي دعا إلى عبادة غير الله وزينها للناس.
- 3- تقرير لعلم الله بما لم يكن كيف يكون إذ ما جاء في الآيات من حوار لم يكن بعد ولكنه في علم الله كائن كما هو وسوف يكون كما جاء في الآيات لا يتخلف منه حرف واحد.
- 4- وعيد الظالمين بأليم العذاب.
- 5- العمل لا يدخل الجنة إلا بوصفه سبباً لا غير، وإلا فدخل الجنة يكون بإذن الله تعالى ورضاه. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24)

- 1 {جنات}: جمع جنة، وجنات: منصوب على نزع الخافض أي: في جنات لأن دخل كخرج لا يتعدى إلا بحرف الجر.
- 2 أي: بمشيئته وتيسيره.

(3/54)

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30)

شرح الكلمات:

كلمة طيبة: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كشجرة طيبة: هي النخلة.

كلمة خبيثة : هي كلمة الكفر .

كشجرة خبيثة : هي الحنظل .

اجتثت: أي اقتلعت جنتها أي جسمها وذاتها .

بالقول الثابت : هو لا إله إلا الله .

وفي الآخرة : أي في القبر فيجيب الملكين عما يسألانه عنه حيث يسألانه عن ربه ودينه ونبيه .

بدلوا نعمة الله كفوراً : أي بدلوا التوحيد والإسلام بالجحود والشرك .

دار البوار : أي جهنم .

وجعلوا لله أندادا: أي شركاء .

(3/55)

معنى الآيات:

الآيات في تقرير التوحيد والبعث والجزاء، قوله تعالى: {ألم تر} أيها الرسول أي ألم تعلم {كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة}1 هي كلمة الإيمان يقولها المؤمن {كشجرة طيبة} وهي النخلة2 {أصلها ثابت} في الأرض {وفرعها} عال {في السماء}، {تؤتي أكلها} تعطي أكلها أي ثمرها الذي يؤكل منها كل حين بلحا وبسراً ومنصفاً ورطباً وتمراً وفي الصباح والمساء {بإذن ربها} أي بقدرته وتسخيره فكلمة الإيمان لا إله إلا الله محمد رسول الله تثمر للعبد أعمالاً صالحة كل حين فهي في قلبه والأعمال الصالحة الناتجة عنها ترفع إلى الله عز وجل، وقوله تعالى: {ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون} أي كما ضرب هذا المثل للمؤمن والكافر في هذا السياق يضرب الأمثال للناس مؤمنهم وكافرهم لعلهم يتذكرون أي رجاء أن يتذكروا فيتعضوا فيؤمنوا ويعملوا الصالحات فينجوا من عذاب الله، وقوله: {ومثل كلمة خبيثة} هي كلمة الكفر في قلب الكافر {كشجرة خبيثة} هي الحنظل مرة ولا خير فيها ولا أصل لها ثابت ولا فرع لها في السماء {اجتثت} أي اقتلعت واستوصلت {من فوق الأرض مالها من قرار} أي لا ثبات لها ولا تثمر إلا ما فيها من مرارة وسوء طعم وعدم بركة وقوله تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} هذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين بأنه يثبتهم على الإيمان مهما كانت الفتن والمحن حتى يموتوا على الإيمان {وفي الآخرة} أي في القبر إذ هو عتبة الدار الآخرة عندما يسألهم3 الملكان عن الله وعن الدين والنبى من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبتهم بالقول الثابت وهو الإيمان وأصله لا إله إلا الله محمد رسول الله والعمل الصالح الذي هو الإسلام وقوله تعالى: {ويضل الله الظالمين} مقابل هداية المؤمنين فلا يوفقه للقول الثابت حتى يموتوا على الكفر فيهلكوا ويخسروا، وذلك

1 الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي المؤمن، والشجرة المضروب بها المثل في النخلة، وفي الحديث الصحيح: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي؟ قال: هي النخلة" وورد: "مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبتة نفعك، دان جالسته نفعك، وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به".

2 وورد أكرموا عمتكم النخلة، ومن وجه شبهها بالمؤمن أنها برأسها تبقى ويقلبها تحيا وفي اللقاح ورائحة طلع ذكرها كرائحة المنى، وقيل: إنها خلقت من فضلة طينة آدم التي خلق منها، فهي لذا عمه بني آدم.

3 روى النسائي عن البراء قال: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} نزلت في عذاب القبر، يقال: من ريك فيقول ربي الله وديني دين محمد صلى الله عليه وسلم.

(3/56)

لإصرارهم على الشرك ودعوتهم إليه وظلم المؤمنين وأذيتهم من أجل إيمانهم، وقوله تعالى: {ويفعل الله ما يشاء} تقرير لإرادته الحرة فهو عز وجل يثبت من يشاء ويضل من يشاء فلا اعتراض عليه ولا نكير مع العلم أنه يهدي ويضل بحكم عالية تجعل هدايته كإضلاله رحمة وعدلاً. وقوله تعالى: {ألم تر} أي ألم ينته إلى علمك أيها الرسول {إلى الذين بدلوا نعمة الله} التي هي الإسلام الذي جاءهم به رسول الله بما فيه من الهدى والخير فكذبوا رسول الله وكذبوا بما جاء به ورضوا بالكفر وأنزلوا بذلك قومهم الذين يحثونهم على الكفر ويشجعونهم على التكذيب أنزلوهم 1 {دار البوار} 2 {فهلك من هلك في بدر كافراً إلى جهنم، ودار البوار هي جهنم يصلونها أي يحترقون بحرها ولهيبها} {وبئس القرار} أي المقر الذي أحلوا قومهم فيه، وقوله تعالى: {وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله} أي جعل أولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً وهم كفار مكة الله أنداداً أي شركاء عبودها وهي اللات والعزى وهبل ومناة وغيرها من آلهتهم الباطلة، جعلوا هذه الأنداد ودعوا إلى عبادتها ليضلوا ويضلوا غيرهم عن سبيل الله التي هي الإسلام الموصل إلى رضا الله تعالى وجواره الكريم، وقوله تعالى: {قل تمتعوا} 3 أي بما أنتم فيه من متاع الحياة الدنيا {فإن مصيركم} أي نهاية أمركم {إلى النار} حيث تصيرون إليها بعد موتكم إن أصررتم على الشرك والكفر حتى متم على ذلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

2- المقارنة بين الإيمان والكفر، وكلمة التوحيد وكلمة الكفر وما يثمره كل واحد من هذه الأصناف من خير وشر.

1 هذه الآية نزلت في قريش، وقيل: في هلكى بدر، وقيل: في متصرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه، والظاهر أنها عامة في كل من كفر بالله ورسوله وحاد عن سبيلهما، وقال الحسن: إنها عامة في جميع المشركين.

2 {البوار}: الهلاك.

3 الأمر للتهديد والوعيد، وفي اللفظ إشارة إلى قلة ما في الدنيا من ملاذ مع سرعة زوالها ولزوم انقطاعها.

(3/57)

3- بشرى المؤمن بتثبيت الله تعالى له على إيمانه حتى يموت مؤمناً وبالنجاة من عذاب القبر حيث يجيب منكرًا ونكيرًا على سؤالهما إياه بتثبيت الله تعالى له.

4- الأمر في قوله تعالى تمتعوا ليس للإباحة ولا للوجوب وإنما هو للتهديد والوعيد.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ (31) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

شرح الكلمات:

لا بيع فيه ولا خلال: هذا يوم القيامة لا بيع فيه ولا فداء ولا مخالفة تنفع ولا صداقة.

الملك: أي السفن فلفظ الملك دال على متعدد ويذكر ويؤنث.

دائبين: جاربين في فلكهما لا يفتران أبداً حتى نهاية الحياة الدنيا.

لظلم كفار: كثير الظلم لنفسه ولغيره، كفار عظيم الكفر هذا ما لم يؤمن ويهتد فإن آمن واهتدى سلب هذا الوصف منه.

معنى الآيات:

لما أمر تعالى رسوله أن يقول لأولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً {قل تمتعوا فإن

(3/58)

مصيركم إلى النار} أمر رسوله أيضاً أن يقول للمؤمنين أن يقيموا الصلاة وينفقوا من أموالهم سراً وعلانية لينفقوا بذلك عذاب يوم القيامة الذي توعد به الكافرين فقال: {قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة}1 أي يؤدوها على الوجه الذي شرعت عليه فيتموا ركوعها وسجودها ويؤدوها في أوقاتها المعينة لها وفي جماعة وعلى طهارة كاملة مستقبلين بها القبلة حتى تثمر لهم زكاة أنفسهم وطهارة أرواحهم، {وينفقوا}2 ويوالوا الإنفاق في كل الأحيان {سراً وعلانية}، {من قبل أن يأتي يوم} وهو يوم القيامة {لا بيع فيه ولا خلال}3 لا شراء فيحصل المرء على ما يفدي به نفسه من طريق البيع، ولا خلة أي صداقة تنفعه ولا شفاعة إلا بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: {الله الذي خلق السماوات والأرض} أي انشأهما وابتدأ خلقهما {وأنزل من السماء ماء} هو ماء الأمطار {فأخرج به من الثمرات} والحبوب {رزقاً لكم}5 تعيشون به وتتم حياتكم عليه {وسخر لكم الفلك}6 أي السفن {لتجري في البحر بأمره} أي بإذنه وتسخيره تحملون عليها البضائع والسلع من إقليم إلى إقليم وتركبونها كذلك {وسخر لكم الأنهار} الجارية بالمياه العذبة لتشربوا وتسقوا مزارعكم وحقولكم {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين}7 لا يفتران أبداً في جريهما وتقلهما في بروجهما لمنافعكم التي لا تتم إلا على ضوء الشمس وحرارتها ونور القمر وتقله في منازلهم {وسخر لكم الليل والنهار} الليل لتسكنوا فيه وتستريحوا والنهار لتعملوا فيه وتكسبوا أرزاقكم {وآتاكم من كل ما سألتموه}8 مما أنتم في حاجة إليه لقوام حياتكم، هذا هو الله المستحق لعبادتكم

- 1 هي الصلوات الخمس: الصبح، الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.
- 2 هي الزكاة ويدخل معها صدقة التطوع، إذ الكل أنفاق، والسرية غالباً هي صدقة التطوع والعلانية هي الزكاة المفروضة.
- 3 {الخلال} جمع خلة كقطة وقلال، وهي المودة والصداقة والمنفي هنا هو آثارها بالنفع بالإفراد والإسعاف بالثواب.
- 4 هذا استتفاف واقع موقع الاستدلال على بطلان الشرك ووجوب التوحيد وما يترتب على ذلك من سعادة الموحدين وشقاء المشركين.
- 5 الرزق: القوت، وهو كل ما يقتات به من أنواع الحبوب والخضر والفواكه واللحوم.
- 6 التسخير هو التذليل والتطويع، وهو كناية عن كون الشيء قابلاً للتصرف فيه.
- 7 الدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية لا تختلف وفعله: دأب يدأب دؤوباً على الشر: إذا استمر عليه ولم يقطعه.
- 8 {من كل ما سألتموه} أي: من كل مسؤل سألتموه شيئاً فحذف مسؤل لدلالة الكلام عليه، والمقابل محذوف أي: ومن كل ما لم تسألوه، فإن هناك أشياء لم يسألها الإنسان، وأعطاه الله تعالى إياها، وهذا الحذف كقوله: {سراييل تقيكم الحر..} وسراييل تقيكم البرد: فحذف.

رغبة فيه ورهبة منه، هذا هو المعبود الحق الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له وليس تلك الأصنام والأوثان التي تعبدونها وتدعون إلى عبادتها حتى حملكم ذلك على الكفر والعناد بل والظلم والشر والفساد.

وقوله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} أي بعد أن عدد الكثير من نعمه أخبر أنه لا يمكن للإنسان أن يعد نعم الله عليه ولا أن يحصيها عدداً بحال من الأحوال، وقرر حقيقة في آخر هذه الموعظة والذكرى وهي أن الإنسان إذا حرم الإيمان والهداية الربانية {ظلم} أي كثير الظلم كفور كثير الكفر عظيمه، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإكثار من الصدقات لاتقاء عذاب النار.
 - 2- جواز صدقة العن كصدقة السر وإن كانت الأخيرة أفضل.
 - 3- التعريف بالله عز وجل إذ معرفة الله تعالى هي التي تثمر الخشية منه تعالى.
 - 4- وجوب عبادة الله تعالى وبطلان عبادة غيره.
 - 5- وصف الإنسان بالظلم والكفر وشدتهما ما لم يؤمن ويستقيم على منهج الإسلام.
- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ

تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)

شرح الكلمات:

هذا البلد آمنا : أي اجعل مكة بلداً آمناً يأمن كل من دخله.

واجنبني: بعدني.

أن نعبد الأصنام: عن أن نعبد الأصنام.
أضلن كثيراً من الناس: أي بعبادتهم لها.
من تبغني فإنه مني: أي من اتبعني على التوحيد فهو من أهل ملتي وديني.
من ذريتي: أي من بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر.
بواد غير ذي زرع: أي مكة إذ لا مزارع فيها ولا حولها يومئذ.
تهوي إليهم: تحن إليهم وتميل رغبة في الحج والعمرة.
على الكبر إسماعيل واسحق: أي مع الكبر إذ كانت سنة يومئذ تسعاً وتسعين سنة وولد له إسحق
وسنة مائة واثنان عشرة سنة.
ولوالدي: هذا قبل أن يعرف موت والده على الشرك.
يوم يقوم الحساب: أي يوم يقوم الناس للحساب.
معنى الآيات:
مازال السياق في تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء وقد تضمنت هذه الآيات ذلك،

(3/61)

فقله تعالى: {وإذ قال إبراهيم} أي اذكر إذ قال إبراهيم فكيف يذكر ما لم يوح الله تعالى إليه بذلك
فسر هذا نبوة رسول الله ونزول الوحي إليه، وقوله: {رب اجعل هذا البلد آمناً} أي ذا أمن فيأمن من
دخله على نفسه وماله والمراد من البلد مكة.
وقوله: {واجنبني} وبنني أن نعبد الأصنام {فيه تقرير للتوحيد الذي هو عبادة الله وحده ومعنى
أجنبني أبعدني أنا وأولادي وأحفادي وقد استجاب الله تعالى له فلم يكن في أولاده وأولاد أولاده مشرك،
وقوله: {رب إنهن أضللن كثيراً من الناس} 2 تعليل لسؤاله ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها، وإضلال
الناس كان بعبادتهم لها فضلوا في أودية الشرك، وقوله: {فمن تبغني} أي من أولادي {فإنه مني} أي
على ملتي وديني، {ومن عصاني} فلم يتبعني على ملة الإسلام إن تعذبه فذاك وإن تغفر له ولم
تعذبه {فإنك غفور رحيم}، وقوله: {ربنا إني اسكنت من ذريتي} 4 أي من بعض ذريتي وهو
إسماعيل مع أمه هاجر {بواد غير ذي زرع} هو مكة إذ ليس فيها ولا حولها زراعة يومئذ وإلى أماد
بعيدة وأزمنة عديدة {عند بيتك المحرم} قال هذا بإعلام من الله تعالى له أنه سيكون له بيت في هذا
الوادي ومعنى المحرم أي الحرام وقد حرمه تعالى فمكة حرام إلى يوم القيامة لا يُصَاد صيدها ولا
يُخْتَلَى خلاها ولا تُسْفَك فيها دماء ولا يحل فيها قتال، وقوله: {ربنا ليقموا الصلاة} 5 فاجعل أفئدة من
الناس تهوى إليهم} هذا دعاء بأن يبسر الله تعالى عيش سكان مكة ليعبدوا الله تعالى فيها بإقام
الصلاة، فإن قلوب بعض الناس عندما تهفوا إلى مكة وتميل إلى الحج والعمرة تكون سبباً في نقل

الأرزاق والخيرات إلى مكة، وقوله: {وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون} دعاء آخر بأن يرزق الله بنبيه من الثمرات ليشكروا الله تعالى على ذلك فوجود الأرزاق والثمرات موجبة للشكر، إذ النعم تقتضي

- 1 أي: اجعلني جانباً عن عبادتها، وبنيه من صلبه وكانوا ثمانية: فما عبد منهم أحد صنماً قط. كان إبراهيم التيمي يقول: من يأمن البلاء بعد الخليل حتى يقول: واجنبنني وبنني أن نعبد الأصنام.
- 2 نسب الإضلال إليهن وهن جمادات لا يفعلن شيئاً: لأنهن السبب في الإضلال.
- 3 فَوْض الأمر لربه إن شاء غفر لمن عصاه رحمة، وإن شاء عذَّبه. وقيل: قال إبراهيم هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك لأصحابه.
- 4 ذكر البخاري قصة إسكان إبراهيم عليه السلام هاجر مكة، بالتفصيل فليرجع إليها ومن في قوله: {من ذريتي} للتبعيض إذ لم يسكن مكة إلا إسماعيل وباقي أولاده كانوا بالشام.
- 5 خص الصلاة بالذكر لأنها العبادة التي تشتمل على الذكر والشكر، وهي علة الحياة وسر هذا الوجود والكلام في قوله {ليقيموا الصلاة} لام كي: التعليلية والفعل متعلق بأسكنت أي: أسكنتهم بمكة ليقيموا الصلاة فيها.

(3/62)

شكراً، وقوله: {ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء} أراد به أن ما سأل ربه فيه من كل ما سأل إنما هو من باب إظهار العبودية لله والتخشع لعظمته والتذلل لعزته والافتقار إلى ما عنده، وإلا فانه أعلم بحاله وما يصلحه هو وبنيه، وما هم في حاجة إليه لأنه تعالى يعلم كل شيء ولا يخفي 1 عنه شيء في الأرض ولا في السماء.. وقوله: {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر 2 إسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء} أراد به حمد الله وشكره على ما أنعم به عليه حيث رزقه إسماعيل واسحق على كبر سنه، والإعلام بأن الله تعالى سميع دعاء من يدعوه وينيب إليه، وقوله: {رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي} أيضاً من يقيم الصلاة، لأن الصلاة هي علة الحياة كلها إذ هي الذكر والشكر فمتى أقام العبد الصلاة فأداها بشروطها وأركانها كان من الذاكرين الشاكرين، ومتى تركها العبد كان من الناسين الغافلين وكان من الكافرين، وأخيراً ألحَّ على ربه في قبول دعائه وسأل المغفرة له ولوالديه 3 وللمؤمنين يوم يقوم 4 الناس للحساب وذلك يوم القيامة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- فضل مكة وشرفها وأنها حرم آمن أي ذو أمن.
- 2- الخوف من الشرك لخطره وسؤال الله تعالى الحفظ من ذلك.
- 3- علاقة الإيمان والتوحيد أولى من علاقة الرحم والنسب.
- 4- أهمية إقام الصلاة وأن من لم يرد أن يصلي لا حق له في الغذاء ولذا يعدم إن أصر على ترك الصلاة.

- 1 قال ابن عباس في قوله تعالى: {إنك تعلم ما نخفي وما نعلن} أي: من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذي زرع، والوجد: الحزن.
- 2 قيل: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.
- 3 استغفر عليه السلام لوالديه قبل أن يتبين له عداوة أبيه آزر الله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، كما تقدم في سورة التوبة، كما جاء فيها: {فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه} فلذا لا يجوز الاستغفار لمن مات مشركاً، كما لا يجوز الصلاة عليه إذا مات إجماعاً.
- 4 نسبة القيام إلى الحساب كقولهم: قامت الحرب على ساق: يعنون اشتداد الأمر، وصعوبة الحال.

(3/63)

- 5- بيان استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام فيما سال ربه تعالى فيه.
 - 6- وجوب حمد الله وشكره على ما ينعم به على عبده.
 - 7- مشروعية الاستغفار للنفس وللمؤمنين والمؤمنات.
 - 8- تقرير عقيدة البعث والحساب والجزاء.
- وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءَ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن رَّوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46)
- شرح الكلمات:

عما يعمل الظالمون : أي المشركون من أهل مكة وغيرهم.
 ليوم تشخص فيه الأبصار : أي تتفتح فلا تغمض لشدة ما ترى من الأهوال.
 مهطعين مقنعي رؤوسهم: أي مسرعين إلى الداعي الذي دعاهم إلى الحشر، رافعي رؤوسهم.

وأفندتهم هواء : أي فارغة من العقل لشدة الخوف والفرع.
 نجب دعوتك.: أي على لسان رسولك فنعبدك ونوحدك ونتبع الرسل.
 ما لكم من زوال : أي عن الدنيا إلى الآخرة.
 وقد مكروا مكروهم: أي مكرت قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث أرادوا قتله أو حبسه أو نفيه.
 وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال: أي لم يكن مكروهم بالذي تزول منه الجبال فإنه تافه لا قيمة له
 فلا تعباً به ولا تلتفت إليه.
 معنى الآيات:

في هذا السياق الكريم تقوية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر ليواصل دعوته إلى ربه إلى أن ينصرها الله تعالى وتبلغ المدى المحدد لها والأيام كانت صعبة على رسول الله وأصحابه لتكالب المشركين على أذاهم، وازدياد ظلمهم لهم فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} من قومك إنه إن لم ينزل بهم نقمته ولم يحل عذابه إنما يريد أن يؤخرهم {اليوم تشخص 1 فيه الأبصار} أي تتفتح فلا تغمض ولا تطرف لشدة الأهوال وصعوبة الأحوال، {مهطعين 2} أي مسرعين {مقنعي رؤوسهم 3} أي حال كونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم أي رافعين رؤوسهم مسرعين للداعي الذي دعاهم إلى المحشر، قال تعالى: {واستمع يوم يناد المنادي من مكان قريب} {لا يريد إليهم طرفهم 4} أي لا تغمض أعينهم من الخوف {وأفندتهم} أي قلوبهم {هواء} أي 5

- 1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يرمضون، وفعل الشخوص: شخص يشخص البصر: إذا سما وطمح من الخوف.
- 2 {مهطعين} اسم فاعل من أهطع يهطع إهطاعاً فهو مهطع إذا أسرع ومنه قوله تعالى: {مهطعين إلى الداع} أي: مسرعين، قال الشاعر:
 بدجلة دارهم ولقد أراهم
 بدجلة مهطعين إلى السماع
 والمهطع أيضاً من ينظر في ذل وخشوع.
- 3 {مقنعي} الإقناع: رفع الرأس ومنه الإقناع في الصلاة وهو مكروه وقد يطلق الإقناع أيضاً على تنكيس الرأس، يقال: أقنع رأسه: إذا طأطأه أو رفعه، واللفظ يحتمل الوجهين.
- 4 الطرف: العين، قال الشاعر:

وأغمض طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يوارى جارتي ماواها

يقال: طرف يطرف طرفاً إذا أطبق جفنه على الآخر، ولم يطرف: إذا فتح عينه ولم يغمضها.

5 هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدة الهول، والهواء: الخلاء.

(3/65)

فارغة من الوعي والإدراك لما أصابها من الفزع والخوف ثم أمر تعالى رسوله في الآية (44) بإنذار الناس مخوفاً لهم من عاقبة أمرهم إذا استمروا على الشرك بالله والكفر برسوله وشرعه، ليوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا {أي أشركوا بربهم، وآذوا عباده المؤمنين} ربنا أخرجنا إلى أجل قريب {أي يطلبون الإنظار والإمهال} نجب دعوتك {أي نوحك ونطيعك ونطيع رسولك، فيقال لهم: توبيخاً وتقريعاً وتكذيباً لهم: {أو لم تكونوا أقسمتم} أي حلفتم {من قبل ما لكم من زوال} أي أطلبتم الآن التأخير ولم تطلبوه عندما قلتم ما لنا من زوال ولا ارتحال من الدنيا إلى الآخرة، {وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم} بالشرك والمعاصي {وتبين لكم} أي عرفتم {كيف فعلنا بهم} أي بإهلاكنا لهم وضرينا لكم الأمثال في كتبنا وعلى ألسنة رسلنا فيؤبخون هذا التوبيخ ولا يجابون لطلبهم ويقذفون في الجحيم، وقوله تعالى: {وقد مكروا مكروهم} أي وقد مكر كفار قريش برسول الله في حيث قرروا حبسه مغلاً في السجن حتى الموت أو قتله، أو نفيه وعزموا على القتل ولم يستطيعوه {وعند الله مكروهم} أي علمه وما أرادوا به، وجزأؤهم عليه، وقوله: {وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال} أي ولم يكن مكروهم لتزول منه الجبال فإنه تافه لا وزن له ولا اعتبار فلا تحفل به أيها الرسول ولا تلتفت، فإنه لا يحدث منه شيء، وفعلاً قد خابوا فيه أشد الخيبة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تأخير العذاب عن الظلمة في كل زمان ومكان لم يكن غفلة عنهم، وإنما هو تأخيرهم إلى يوم القيامة أو إلى أن يحين الوقت المحدد لأخذهم.
- 2- بيان أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه حتى يتمنى الظالمون الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا ويوحدوا ربهم في عبادته.
- 3- التنديد بالظلم وبيان عقاب الظالمين بذكر أحوالهم.

1 قرىء: {لتزول} بفتح اللام الأولى وضم الآخرة لتزول، وإن مخففة من الثقيلة، واللام لام الابتداء، ومعنى الآية. استعظام مكروهم حتى لتكاد الجبال تزول منه، وما في التفسير من قراءة وتوجيه هو

الذي رجّحه ابن جرير الطبري. هنا ذكر القرطبي بإسهاب قصّة النمرود الجبار الذي حاج إبراهيم عليه السلام، ولا طائل تحتها.

(3/66)

4 - تقرير جريمة قريش في ائتمارها على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فَلَآ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)

شرح الكلمات:

إن الله عزيز : أي غالب لا يحال بينه وبين مراده بحال هن الأحوال.

ذو انتقام : أي صاحب انتقام ممن عصاه وعصى رسوله.

يوم تبدل الأرض: أي اذكر يا رسولنا للظالمين يوم تبدل الأرض.

وبرزوا لله: أي خرجوا من القبور لله ليحاسبهم ويجزيهم.

مقرنين: أي مشدودة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم.

في الأصفاذ : الأصفاذ جمع صفاذ وهو الوثاق من حبل وغيره.

سرابيلهم : أي قمصهم التي يلبسونها من قطران.

هذا بلاغ: أي هذا القرآن بلاغ للناس.

أولوا الألباب : أصحاب العقول.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهم يعانون من صلف المشركين

(3/67)

وظلمهم وطمغيانهم فيقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله}1 إنه كما لم يخلف رسله الأولين لا يخلفك أنت، إنه لا بد منجز لك ما وعدك من النصر على أعدائك فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم. {إن الله عزيز}2 أي غالب لا يغلب غالب على أمره ما يريد لا بد واقع {ذو انتقام} شديد ممن عصاه وتمرد على طاعته وحارب أولياءه،

واذكر {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات}3 كذلك {ويرزوا} أي ظهروا بعد خروجهم من قبورهم في طريقهم إلى المحشر إجابة منهم لدعوة الداعي وقد برزوا {لله الواحد القهار}، {وترى المجرمين يومئذ} يا رسولنا تراهم {مقرنين في الأصفاد}4 مشدودة أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم، هؤلاء هم المجرمون اليوم بالشرك والظلم والشر والفساد أجرموا على أنفسهم أولاً ثم على غيرهم ثانياً سواء ممن ظلموهم وآذوهم أو ممن دعوهم إلى الشرك وحملوهم عليه، الجميع قد أجرموا في حقهم، {سراييلهم}5 قمصانهم التي على أجسامهم {من قطران} وهو ما تدهن به الإبل: مادة سوداء محرقة للجسم أو من نحاس إذ قرئ من قطران أي من نحاس أحمي عليه حتى بلغ المنتهى في الحرارة {وتغشى وجوههم النار} أي وتغطي وجوههم النار بلهبها، هؤلاء هم المجرمون في الدنيا بالشرك والمعاصي، وهذا هو جزاؤهم يوم القيامة، فعل تعالى هذا بهم {ليجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب} فما بين أن وجدوا في الدنيا وبين أن انتهوا إلى نار جهنم واستقروا في أتون جحيمها إلا كمن دخل

1 {مخلف} مفعول ثان لحسب، ووعده: مجرور بالإضافة، ورسله: معمول لمخلف مؤخر، والأصل: مخلف رسله. ووعده، وقدم الوعد للاهتمام به.

2 جملة تعليلية للنهي عن حسابان خلف وعده تعالى.

3 الآية نص صريح في كون الأرض والسماوات تتبدل في ذاتها وسائر صفاتها وتزول تماماً ويخلق الله تعالى أرضاً غير ذي وسماء غير هذه، وفي الحديثين الآتيين ما يقرر ذلك: أ- حديث مسلم، وفيه: "إنَّ يهوديا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: في الظلمة دون الجسر".

ب- حديث ابن ماجه بإسناد مسلم قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات} فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: على الصراط".

4 الأصفاد: جمع صفة بفتح كل من الصاد والفاء، وهو الغلّ والقيد يشد به ويربط الجاني قال الشاعر:

فأبوا بالنهاب وبالسبايا
وأبنا بالملوك مصفدين

5 واحد السراييل: سرايل، وهو القميص، يقال: تسريل، إذا لبس السريال وكونها من قطران لشدة حرارتها، واشتعال النار فيها.

مع باب وخرج مع آخر، وأخيراً يقول تعالى: {هذا بلاغ للناس 1 وليذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب} أي هذا القرآن بلاغ للناس من رب الناس قد بلغه إليهم رسول رب الناس {وليذروا به} أي بما فيه من العظات والعبر والعرض لألوان العذاب وصنوف الشقاء لأهل الإجمام والنشر والفساد، {وليعلموا} أي بما فيه من الحجج والدلائل والبراهين {أنما هو إله واحد} أي معبود واحد لا ثاني له وهو الله جل جلاله، فلا يعبدوا معه غيره إذ هو وحده الرب والإله الحق، وما عداه فباطل، {وليذكر أولوا الألباب} أي وليتعض بهذا القرآن أصحاب العقول المدركة الواعية فيعملوا على إنجاء أنفسهم من غضب الله وعذابه، وليفوزوا برحمته ورضوانه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان صدق وعد الله من وعدهم من رسله وأوليائه.
- 2- بيان أحوال المجرمين في العرض وفي جهنم.
- 3- بيان العلة في المعاد الآخر وهو الجزاء على الكسب في الدنيا.
- 4- قوله تعالى في آخر آية من هذه السورة: {هذا بلاغ للناس وليذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب} هذه الآية صالحة لأن تكون عنواناً 2 للقرآن الكريم إذ دلت على مضمونه كاملاً مع وجازة اللفظ وجمال العبارة، والحمد لله أولاً وآخراً.

1 {بلاغ} أي: تبليغ للناس يقوم به الرسول صلى الله عليه وسلم.

2 قال هذا: العلامة الشيخ، البشير الإبراهيمي الجزائري، وظننا أنه إلهام من الله تعالى له، د إذا بنا نعثر في كلام الأولين على من قاله، وسبق به وجائز أن يكون الشيخ ألهمه والآخر كذلك، وتوارد الخواطر معروف ولا مانع من النقل والسكوت على من نقل عنه، إذ العلم مشاع كالماء والهواء لا غنى لأحد عنهما، ولذا فلا بأس أن ينقل العلم ولا ينسب إلى قائله لكن لا ينسب إلى غير قائله، فتلك سرقة ممنوعة.

(3/69)

سورة الحجر

...

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

مكية

وآياتها تسع وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (1) رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5)

شرح الكلمات:

آلر: الله أعلم بمراده بذلك، تُكتب آلر. ويقرأ: أَلِفٌ، لَامٌ، رَا.

تلك آيات الكتاب: الآيات المؤلفة مثل هذه الحروف المقطعة تلك آيات الكتاب أي القرآن.
يود: يحب ويرغب متمنياً أن لو كان من المسلمين.

ويتمتعوا: أي بالملذات الشهوات.

ويلهمهم الأمل: أي بطول العمر وبلوغ الأوطار وإدراك الرغائب الدنيوية.

إلا ولها كتاب معلوم: أي أجل محدود لإهلاكها.

ما تسبق من أمة أجلها: أي لا يتقدم أجلها المحدد لها ومن زائدة للتأكيد.

معنى الآيات:

بما أن السورة مكية فإنها تعالج قضايا العقيدة وأعضها التوحيد والنبوة والبعث. قوله تعالى: {آلر}:

الله أعلم بمراده به، ومن فوائد هذه الحروف المقطعة تنبيه السامع وشده بما يسمع من التلاوة، إذ
كانوا يمتنعون سماعه خشية التأثير به، فكانت هذه الفواتح التي لم يألفوا مثلها في كلامهم تشدهم إلى
سماع ما بعدها من القرآن. وقوله: {تلك آيات

(3/70)

الكتاب} 1 من الجائز القول. الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف الر، ألم، طس، حم عسق. (تلك
آيات الكتاب وقرآن مبين} المبين: المبين للحق والباطل والهدى والضلال وقوله تعالى: {ربما يود
الذين كفروا لو كانوا مسلمين}: يخبر تعالى أن يوماً سيأتي هو يوم القيامة عندما يرى الكافر
المسلمين يدخلون الجنة ويدخل هو النار يود يومئذ متمنياً أن لو كان من 3 المسلمين. وقد يحدث الله
تعالى ظروفاً في الدنيا وأموراً يتمنى الكافر فيها لو كان من المسلمين. وقوله تعالى: {ذرهم يأكلوا
ويتمتعوا ويلهمهم الأمل فسوف يعلمون} أي اتركهم يا رسولنا، أي اترك الكافرين يأكلوا ما شاءوا من
الأطعمة، ويتمتعوا بما حصل لهم من الشهوات والملذات، ويلهمهم الأمل عن التفكير في عاقبة
أمرهم. إذ همهم طول أعمارهم، وتحقيق أوطارهم، فسوف يعلمون إذا رُدوا إلى الله مولاهم الحق
وضل عنهم ما كانوا يفترون أنهم كانوا في الدنيا مخطئين بإعراضهم عن الحق ودعوة الحق والدين

الحق وقوله: {وما أهلكنا من 4 قرية} أي من أهل قرية بعذاب الإبادة والاستئصال {إلا ولها كتاب}، أي لها أجل مكتوب في كتابٍ محدد اليوم والساعة. وقوله: {.. ما تسبق من أمةٍ أجلها وما يستأخرون} أي بناءً على كتاب المقادير فإن أمة كتب الله هلاكها لا يمكن أن يتقدم هلاكها قبل ميقاته المحدد، ولا أن يستأخر عنه ولو ساعة. وفي هذا تهديدٌ وتخويفٌ لأهل مكة وهم يحاربون دعوة الحق ورسول الحق لعل قريتهم قد كتب لها كتابٌ وحدد لها أجل وهم لا يشعرون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- القرآن الكريم مبيّن لكل ما يحتاج إليه في إسعاد الإنسان وإكماله.

- 1 لفظ الكتاب الذي هو القرآن أصبح علماً بالغلبة على القرآن العظيم الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وسمي بالكتاب لأنه مأمور بكتابه وحفظه فسمي بالكتاب قبل أن يكتب للأمر بذلك، والقرآن: اسم ثان للكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم والكتاب مشتق من الكتب الذي هو الجمع، والقرآن من القرء الذي هو الجمع أيضاً فهو تجمع حروفه وكلماته.
- 2 ربّ: حرف جرّ يدخل على الأسماء، وإن أريد إدخالها على الأفعال لحقت بها (ما) كما في الآية. وقرأ نافع {رَبِّمَا} بالتخفيف، وشدّدها غيره في هذه الآية {ربما يودّ الذين كفروا..} الخ وأصل استعمالها في التقليل، وقد تستعمل في الكثير.
- 3 وقد ورد أنه لما يرى الكافرون وهم في النار أهل التوحيد يخرجون منها يودون لو كانوا موحدين، والكل وارد ولا مانع منه.
- 4 {من}: صلة لتقوية النفي وتأكيد الخبر.

(3/71)

2- إنذار الكافرين وتحذيرهم من مواصلة كفرهم وحربهم للإسلام فإن يوماً سيأتي يتمنون فيه أن لو كانوا مسلمين.

3- تقرير عقيدة القضاء والقدر فما من شيء إلا وسبق به علم الله وكتبه عنده في كتاب المقادير الحياة كالموت، والريح كالخسارة، والسعادة كالشقاء، جميع ما كان وما هو كائنٌ وما سكون سبق به علم الله وكتب في اللوح المحفوظ.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11)

شرح الكلمات :

نزل عليه الذكر.: أي القرآن الكريم.

لو ما تأتينا بالملائكة: أي هلا تأتينا بالملائكة تشهد لك أنك نبي الله.

وما كانوا إذاً منظرين: أي مهملين، بل يأخذهم العذاب فور نزول الملائكة.

إنا نحن نزلنا الذكر: أي القرآن.

في شيع الأولين: أي في فرق وطوائف الأولين.

معنى الآيات:

قوله تعالى {وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر} أي قال الكافرون المنكرون للوحي والنبوة {إنك

لمجنون} أي غير عاقل وإلا لما ادعيت النبوة. وفي قولهم هذا استهزاء

(3/72)

ظاهر بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو ثمرة ظلمة الكفر التي في قلوبهم وقوله: {لوما تأتينا 1 بالملائكة} لو ما هنا بمعنى هلا التحضيضيه أي هلا تأتينا بالملائكة نراهم عياناً يشهدون لك بأنك رسول الله {إن كنت من الصادقين} في دعواك النبوة والرسالة فأت بالملائكة تشهد لك. قال تعالى {لوما ننزل 2 الملائكة إلا بالحق} أي نزولاً ملتبساً بالحق. أي لا تنزل الملائكة إلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل لا لمجرد تشهي الناس ورغبتهم ولو نزلت الملائكة ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب فوراً {لوما كانوا إذاً منظرين 3} أي مهملين بل يهلكون في الحال. وقوله تعالى في الآية (9) {إنا نحن نزلنا الذكر} أي القرآن {وإننا له لحافظون} أي من الضياع ومن الزيادة والنقصان لأنه حجتنا على 4 خلقنا إلى يوم القيامة. أنزلنا الذكر هدى ورحمه وشفاء ونوراً. هم يريدون العذاب والله يريد الرحمة. مع أن القرآن نزلت به الملائكة، والملائكة إن نزلت ستعود إلى السماء ولم يبق ما يدل على الرسالة إلا القرآن ولكن القوم لا يريدون أن يؤمنوا وليسوا في ذلك الكفر والعناد وحدهم بل سبقتهم طوائف وأمم أرسل فيهم فكذبوا وجاحدوا وهو قوله تعالى: {ولقد 5 أرسلنا من قبلك في شيع 6 الأولين} أي في فرقهم وأممهم {لوما يأتيهم من رسول إلا كانوا به 7 يستهزئون} لأن علة المرض واحدة إذاً فلا تياس يا رسول الله ولا تحزن بل اصبر وانتظر وعد الله لك بالنصر فإن وعده حق: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز}.

1 {لوما} كلولا وهلا: حرف تحضيض على الفعل نحو: لو ما أكرمت عمراً ولولا أكرمت زيداً وهلا

كذلك، وتأتي مع الخبر فلا يراد بها التحضيض نحو: لو ما خوف الله لقلت فيك كذا وكذا، قال

الشاعر:

- لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما
ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري
- 2 قرأ حفص: {ما ننزل الملائكة} وقرأ بعضهم {ما تنزل} وقرأ ورش عن نافع {ما تُنزل} بحذف إحدى التائين نخفيفاً، إذ الأصل: تنتزل.
- 3 أصل: إذا: إذ أن، ومعناها حينئذ أي: تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما كانوا حينئذ منظرين أي. ممهلين ساعة من الزمن.
- 4 قالت العلماء: لما وكل الله تعالى حفظ التوراة والإنجيل إلى أهل الكتاب في قوله {يما استحفظوا من كتاب الله} أضاعوه فزادوا فيه ونقصوا منه، ولما تولى الله تعالى حفظ القرآن، حفظه فلم يرد فيه حرف ولم ينقص منه حرف.
- 5 {ولقد أرسلنا} الخ.. هذه الجملة إبطال لاستهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم على طريقة التمثيل بأشياءهم من الأمم السابقة.
- 6 الشيع: جمع شيعة، وهي الفرقة المتألفة المتفقة الكلمة، وفيه قوله تعالى {أو يلبسكم شيعا} أي: فرقة كل فرقة تتألف مع أفرادها، وتحارب عن مبادئها وأفكارها وما هي عليه من دين وعادة.
- 7 تقديم الجار والمجرور (به) على فعل يستهزئون: لإفادة القصر للمبالغة أي: كأنهم لفساد قلوبهم لا شغل لهم إلا الاستهزاء برسول الله عز وجل.

(3/73)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان ما كان يلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من استهزاء وسخرية من المشركين.
 - 2- مظهر من مظاهر رحمة الله بالإنسان، يطلب نزول العذاب والله ينزل الرحمة.
 - 3- بيان حفظ الله تعالى للقرآن الكريم من الزيادة والنقصان ومن الضياع.
 - 4- بيان سنة الله تعالى في الأمم والشعوب وهي أنهم ما يأتيهم من رسول ينكر عليهم مألوفهم ويدعوهم إلى جديد من الخير والهدى إلا وينكرون ويستهزئون.
- كَذَلِكَ نَسَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (15) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (18)

شرح الكلمات:

كذلك نسلكه : أي التكذيب بالقرآن أو النبي صلى الله عليه وسلم.
وقد خلت سنة الأولين: أي مضت سنة الأمم السابقة.
فظلوا فيه يعرجون : أي يصعدون.
إنما سُكِّرَتْ : أي سدت كما يُسَكَّرُ النهر أو الباب.
في السماء بروجاً : أي كواكب ينزلها الشمس والقمر.
شيطان رجيم : أي مرجوم بالشهب.
شهاب مبین: كوكب يُرجم به الشيطان يحرقه أو يمزقه أو يُخْبَلُهُ أي يفسده.

(3/74)

معنى الآيات:

ما زال السياق في المكذبين للنبي المطالبين بنزول الملائكة لتشهد للرسول بنبوته حتى يؤمنوا بها.
قال تعالى: {كذلك نسلكه 1} أي التكذيب في قلوب المجرمين من قومك، كما سلكناه حسب سنتنا في قلوب من كذبوا الرسل من قبلك فسلكه {في قلوب المجرمين} من قومك فلا يؤمنون بك ولا بالذكر الذي أنزل عليك. وقوله تعالى: {وقد خلت سنة الأولين 2} أي مضت وهي تعذيب المكذبين للرسل المستهزئين بهم لأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم. وقوله تعالى: {ولو فتحنا عليهم 3 باباً من السماء فظلوا} أي الملائكة أو المكذبون {فيه} أي في ذلك الباب {يعرجون} أي يصعدون طوال النهار طالعين هابطين وقلوا في المساء {إنما سكرت أبصارنا} أي منعت من النظر الحقيقي فلم نر الملائكة ولم نرى السماء {بل نحن 4 قوم مسحورون} فأصبحنا نرى أشياء لا حقيقة لها، وقوله تعالى: {ولقد جعلنا 5 في السماء بروجاً} أي كواكب 6 هي منازل للشمس والقمر ينزلان بها وعلى مقتضاها يعرف عدد السنين والحساب. وقوله: {زيناهما} أي السماء بالنجوم {لنناظرين} فيها من الناس. وقوله: {وحفظناها} أي السماء الدنيا {من كل شيطان رجيم} أي مرجوم ملعون. وقوله: {إلا من أسترق السمع} إلا مارد من الشياطين طلع إلى السماء لاستراق السمع من الملائكة لينزل بالخبر إلى وليه من الكهان من الناس {فاتبعه شهاب} من نار {مبين} أي يبين أثره في الشيطان إما بإخباله وإفساده وإما بإحراقه. هذه الآيات وهي قوله تعالى: {ولقد جعلنا

1 عود الضمير في {نسلكه} على القرآن أولى إذ السياق تابع لقوله: {إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون} وقوله تعالى: {ولقد أرسلنا من قبلك من شيع الأولين} أي: أرسل فيهم رسلاً وكانوا ينزل عليهم آياتنا ولم ينتفعوا لإعراضهم عنها فلا تعيها قلوبهم ولا تتركها فهو مُهم، ولا يتأثرون بها لوجود حرائل حالت دون ذلك، وهي الكبر والحسد والعناد وكذلك المسلك الذي سلكناه في قلوب الأولين

نسلكه اليوم في قلوب المجرمين فيدخل القرآن عند سماعه إلى قلوبهم ولا يلامسها ولا يباشرها فلا تتأثر به وذلك لحوائل منها الحسد والعناد والكبر، وتلك سنة الله تعالى في أمثالهم، وأصل السلك: إدخال الشيء في آخر.

2 في الآية تعريض للمجرمين بالهلاك.

3 هذه الآية كقوله تعالى: {ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين}.

4 أي: أضربوا عن القول الأول. وهو قولهم: إنما سكرت أبصارنا إلى قلوبهم بل نحن قوم مسحورون. أي ما رأينا شيئاً ثم أقرّوا بأنهم رأوا ولكن ما رأوه إنما هو تخيلات المسحور لا غير.
5 هذا شروع في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيد والمقررة للبعث والجزاء.
6 هذا كقوله تعالى: {تبارك الذي جعل في الماء بروجا} أي: كواكب.

(3/75)

في السماء بروجا} إلى آخر ما جاء في هذا السياق الطويل، القصد منه إظهار قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته وكلها مقتضية لإرسال الرسول وإنزال الكتاب لهداية الناس إلى عبادة ربهم وحده عبادة يكملون عليها ويسعدون في الدنيا والآخرة، ولكن المكذبين لا يعلمون.
هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- بيان سنة الله تعالى في المكذبين المعاندين وهي أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.
- 2- مطالبة المكذبين المجرمين بالآيات كروية الملائكة لا معنى لها إذ القرآن أكبر آية ولم يؤمنوا به فلذا لو فتح باب من السماء فظلوا فيه يعرجون لما آمنوا.
- 3- بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته فيما حملت الآيات من مظاهر لذلك، بدءاً من قوله: {ولقد جعلنا في السماء بروجا} إلى الآية السابعة والعشرين من هذا السياق الكريم.
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

1 البروج : جمع برج وهو في الأصل البناء الكبير المحكم البناء الذي يظهر من بعيد قال تعالى: {ولو كنتم في بروج مشيدة} أي: قصور ظاهرة، ومنه: المرأة تتبرج بزینتها: أي تظهرها، والمراد من البروج في الآية: كواكب ثابتة غير سيارة هي منازل الشمس والقمر، وسمى هذه البروج العرب

بأسماء تخيلوا أشكالها في السماء وهي: برج الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، ابتداء من فصل الربيع وانتهاء بفصل الشتاء.

(3/76)

بِخَازِينٍ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)
شرح الكلمات:

والأرض مددناها : أي بسطانها.

وألقينا فيها رواسي: أي جبالا ثوابت لئلا تتحرك الأرض.

موزون: أي مقدر معلوم المقدار الله تعالى.

معايش : جمع معيشة أي ما يعيش عليه الإنسان من الأغذية.

ومن لستم له برازقين: كالعبيد والإماء والبهائم.

وما ننزله إلا بقدر معلوم: أي المطر.

وأرسلنا الرياح لواقح: أي تفتح السحاب فيمتلئ ماءً كما تنقل مادة اللقاح من ذكر الشجر إلى أنثاه.

وما أنتم له بخازنين: أي لا تملكون خزائنه. فتمنعونه أو تعطونه من تشاءون.

المستقدمين منكم والمستأخرين : أي من هلكوا من بني آدم إلى يومكم هذا والمستأخرين ممن هم

أحياء وممن لم يوجدوا بعد إلى يوم القيامة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وهي موجبات الإيمان به وعبادته

وتوحيده والتقرب إليه بفعل محابه وترك مساخطه¹. قوله تعالى: {والأرض 2 مددناها} أي بسطانها

{وألقينا فيها رواسي} أي جبالا ثوابت تثبت الأرض حتى لا

1 وموجبة أيضاً للبعث الآخر والوحي الإلهي.

2 هنا انتقال من عرض آيات الله في السماء إلى آياته في الأرض.

(3/77)

تتحرك أو تميد بأهلها فيهلكوا، {وأنبئتنا فيها في كل شيء موزون 1} أي مقدر معلوم المقدر الله تعالى. وقوله: {وجعلنا لكم فيها معاش 2} عليها تعيشون وهي أنواع الحبوب والثمار وغيرها، وقوله: {ومن لستم له برازقين 3} بل الله تعالى هو الذي يرزقه وإياكم من العبيد والإماء والبهائم. وقوله: {وإن من شيء 4 إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} أي ما من شيء نافع للبشرية هي في حاجة إليه لقوام حياتها عليه إلا عند الله خزائنه، ومن ذلك الأمطار، لكن ينزله بقدر معلوم حسب حاجة المخلوقات وما تتوقف عليه مصالحها، وهو كقوله: {بيده الخير وهو على كل شيء قدير} وكقوله: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما شاء الله إنه بعباده خبير بصير} وقوله: {وأرسلنا الرياح لواقح 5} أي تلتح السحاب فتمتلئ ماء، {فأنزلنا من السماء ماء} بقدرتنا وتديبرنا {فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين} أي لا تملكون خزائنه فتمنعونه من تشاءون وتعطونه من تشاءون بل الله تعالى هو المالك لذلك، فينزله على أرض قوم ويمنعه آخرين وقوله: {إنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون، ولقد علمنا المستقدمين 6 منكم} أي الذين ماتوا من لدن آدم {ولقد علمنا المستأخرين} ممن هم أحياء ومن لم يوجدوا وسيوجدون ويموتون إلى يوم القيامة، الجميع علمهم الله، وغيره لا يعلم فلذا استحق العبادة وغيره لا يستحقها. وقوله {وإن ربك} أيها الرسول {هو يحشرهم} أي إليه يوم القيامة ليحاسبهم ويجازيهم، وهذا متوقف على القدرة والحكمة والعلم، والذي أحياهم ثم أماتهم قادر على إحيائهم مرة أخرى والذي علمهم قبل خلقهم وعلمهم بعد خلقهم

-
- 1 قال: {موزون}: لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء، والموزون من الكلام وغير الخالي من النقص والزيادة، والمراد أن ما أنبته الله تعالى في الأرض من سائر النباتات والمعادن من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يكال ويوزن.
 - 2 واحد المعاش: معيشة، وهي المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أيضاً، إذ كل هذا يدخل تحت العيش حتى قيل: المعاش: إنها التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة.
 - 3 الرزق: بفتح الراء مصدر رزقه يرزقه رزقاً، والرّزق بكسر الراء فهو الاسم وهو القوت.
 - 4 أي: نافع للناس لا مطلق الأشياء التي لا نفع للناس فيها.
 - 5 في قوله: {وأرسلنا الرياح لواقح} استدلال بظاهرة كرة الهواء بين السماء والأرض بعد الاستدلال بالسماء والأرض، ولواقح حال من الرياح ولواقح صالح لأن يكون جمع لاقح، وهي الناقة الحبلى أو ملقح وهو الذي يجعل غير لاقحاً.
 - 6 ويدخل في معنى الآية المستقدمين في الطاعة والخير، والمستأخرين في المعصية والشر كما يدخل أيضاً المستقدمين في صفوف الحرب والصلاة، والمستأخرين في ذلك، والآية دليل على فضل السبق في الخير وعلى فضل الصف الأول في القتال والصلاة، وفي الحديث الصحيح: "لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا".

قادرٌ على حشرهم والحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه لا يخلقهم عبثاً بل خلقهم ليبلوهم ثم ليحاسبهم ويجزيهم إنه هو الحكيم العليم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته المتجلية فيما يلي:

أ- خلق الأرض ومدّها والقاء الجبال فيها. إرسال الرياح لواقح للسحب.

ب- إنبات النباتات بموازين دقيقة. إحياء المخلوقات ثم إماتتها.

ج- إنزال المطر بمقادير معينة. علمه تعالى بمن مات ومن سيموت.

2- تقرير التوحيد أن من هذه آثار قدرته هو الواجب أن يعبد وحده دون سواه.

3- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

4- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هذا الكلام كلام الله أوحاه إليه صلى الله عليه وسلم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ (27)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ

السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ

صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (33)

شرح الكلمات:

ولقد خلقنا الإنسان : أي آدم عليه السلام.

من صلصال من حمأ مسنون: أي طين يابس له صلصلة من حمأ أي طين أسود متغير .

من نار السموم: . نار لا دخان لها تنفذ في المسام وهي ثقب الجلد البشري.

فإذا سويته : أي أتممت خلقه.

فقعوا له ساجدين: أي خروا له ساجدين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته. قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان}

أي آدم {من صلصال} أي طين يابس يسمع له صوت صلصلة. {من حمأ مسنون 1} أي طين أسود متغير الريح، هذا مظهر من مظاهر القدرة والعلم. وقوله: {والجان خلقناه من قبل} من قبل خلق آدم والجان هو 2 أبو الجن خلقناه {من نار السموم} ونار السموم نار لا دخان لها تنفذ في مسام الجسم.. وقوله: {وإذ قال ربك} أي اذكر يا رسولنا إذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم أي سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة لآدم، إذ المعبود هو الأمر المطاع وهو الله تعالى. فسجدوا {إلا إبليس 3 أبي} أي امتنع أن يكون مع الساجدين. وقوله: {قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين} أي أي شيء حصل لك حتى امتنعت أن تكون من جملة الساجدين من الملائكة؟ فأظهر اللعين سبب امتناعه وهو حسده لآدم واستكباره، فقال {لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمأ مسنون} وفي الآيات التالية جواب الله تعالى وردة عليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أصل خلق الإنسان وهو الطين، والجان وهو لهب النار.
- 2- فضل السجود، إذ أمر تعالى به الملائكة فسجدوا أجمعون إلا إبليس.

1 ترتيب طينة آدم التي خلق منها كما في الآية هكذا: تراب بلّ بالماء فصار طينا ثم ترك حتى أنتن فصار حمأ مسنوناً أي: متغيراً ثم يابس فصار صلصالا والمسنون: المتغير، بسبب مكثه مدة كسنة مثلا.

2 وفي صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارح من نار، وخلق آدم مما وصف لكم".

3 قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجان: أبو الجن وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس، والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر فآدم أبو الإنس، والجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين.

(3/80)

3- ذم الحسد وأنه شر الذنوب وأكثرها ضرراً.

4- ذم الكبر وأنه عائق لصاحبه عن الكمال في الدنيا والسعادة في الآخرة.

5- فصل الطين على النار لأن من الطين خلق آدم ومن النار خلق إبليس.

قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَاثَكَ رَجِيمًا (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْأُغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّفْسُومٌ (44)

شرح الكلمات:

قال فاخرج منها: أي من الجنة.

فإنك رجيم: أي مرجوم مطرود ملعون.

إلى يوم الوقت المعلوم: أي وقت النفخة الأولى التي تموت فيها الخلائق كلها.

بما أغويتني: أي بسبب إغوائك لي أي إضلالك وإفسادك لي.

المخلصين: أي الذين استخلصتهم لطاعتك فإن كيدي لا يعمل فيهم.

هذا صراط علي مستقيم: أي هذا طريق مستقيم موصل إليّ وعليّ مراعاته وحفظه.

لها سبعة أبواب: أي أبواب طبقاتها السبع التي هي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم

سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

(3/81)

معنى الآيات:

قوله تعالى: {فاخرج منها} هذا جواب عن قول إبليس، {لم أكن لأسجد لبشر}. الآية إذا فاخرج منها أي من الجنة {فإنك رجيم} أي مرجوم مطرود مبعود، {وإن عليك} لعنتي أي غضبي وإبعادي لك من السموات {إلى يوم الدين} أي إلى يوم القيامة وهو يوم الجزاء. فقال اللعين ما أخبر تعالى به عنه: {قال رب فانظرنى} أي أمهلني لا تمتني {إلى يوم يبعثون} 1 {فأجاب الرب تعالى بقوله: {فإنك من المنظرين} أي الممهلين {إلى يوم الوقت المعلوم} 2 وهو فناء بني آدم حيث لم يبق منهم أحد وذلك عند النفخة الأولى. فلما سمع اللعين ما حكم به الرب تعالى عليه قال ما أخبر الله عنه بقوله: {قال رب بما أغويتني} أي بسبب إغوائك {لأزينن لهم في الأرض} 3 {أي الكفر والشرك وكبائر الذنوب، و {لأغوينهم} أي لأضلنهم {أجمعين} إلا عبادك منهم المخلصين} فاستثنى اللعين من استخلصهم الله تعالى لطاعته وأكرمهم بولايته وهم الذين لا يستبد بهم غضب ولا تتحكم فيهم شهوة ولا هوى. وقوله تعالى: {قال هذا صراط علي مستقيم} أي هذا طريق مستقيم إليّ أراعاه وأحفظه وهو {إن عبادي} ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين} 5 {وإن جهنم} لموعدك وموعدهم أتباعك الغاوين أجمعين {لها سبعة أبواب} إذ هي سبع طبقات لكل طبقة باب فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة، وهو معنى قوله تعالى: {لكل باب منهم جزء مقسوم} أي نصيب معين وطبقاتها هي: جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمان إبليس من التوبة لاستمرار غضب الله عليه إلى يوم القيامة.
- 2- استجاب الله لشر خلقه وهو إبليس فمن الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريد بها الله تعالى.

- 1 أراد اللعين بسؤاله إلى يوم يبعثون ألا يموت، لأنّ يوم البعث لا موت فيه ولا بعده أيضاً.
- 2 قال ابن عباس: أراد به النفخة الأولى أي: حين تموت الخلائق.
- 3 التزيين: يشمل أمرين. الأول: تزيين المعاصي والثاني: شغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعات.
- 4 أي: ليس له سلطان على قلوبهم، وقال ابن عيينة، أي: في أن يلقيهم في ذنب.
- 5 الغاوين: الفاسدين بالشرك والمعاصي.

(3/82)

- 3- أي سلاح يغوي به إبليس بني آدم هو التزيين للأشياء حتى ولو كانت دميمة قبيحة يصيرها بوسواسه زينة حسنة حتى يأتيها الآدمي.
- 4- عصمة الرسل وحفظ الله للأولياء حتى لا يتلوثوا بأوضار الذنوب.
- 5- طريق الله مستقيم إلى الله تعالى يسلكه الناس حتى ينتهوا إلى الله سبحانه فيحاسبهم ويجزيهم بكسبهم الخير بالخير والشر بالشر.
- 6- بيان أن لجهنم طبقات واحدة فوق أخرى ولكل طبقة بابها فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة لا غير.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي (54) قَالُوا بِشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56)

شرح الكلمات:

إن المتقين : أي الذين خافوا ربهم فعبدهه وحده بما شرع لهم من العبادات.

ونزعنا ما في صدورهم من غل : أي حقد وحسد وعداوة وبغضاء.
على سرر متقابلين : أي ينظر بعضهم إلى بعض ما داموا جالسين وإذا انصرفوا دارت بهم الأسرة
فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.
لا يمسهم فيها نصب: أي تعب.
العذاب الأليم: أي الموجه شديد الإيذاء.
ضيف إبراهيم : هم ملائكة نزلوا عليه وهم في طريقهم إلى قوم لوط لإهلاكهم كان من بينهم جبريل
وكانوا في صورة شباب من الناس.
إنا منكم وجلون: أي خائفون وذلك لما رفضوا أن يأكلوا.
بغلام عليم .: أي بولد ذي علم كثير هو إسحق عليه السلام.
فبم تبشرون: أي تَعَجَّبَ من بشارتهم مع كبره بولد.
من القانطين : أي الأيسين.
معنى الآيات:

لما ذكر تعالى جزاء اتباع إبليس الغاوين، ناسب ذكر جزاء عباد الرحمن أهل التقوى والإيمان فقال
تعالى مخبراً عما أعد لهم من نعيم مقيم: {إن المتقين 1} أي الله بترك الشرك والمعاصي {في جنات
وعيون 2} يقال لهم {ادخلوها 3} بسلام آمنين {أي حال كونكم مصحوبين بالسلام آمنين من الخوف
والفرع. وقوله: {ونزعنا ما في صدورهم من غل 4} أي لم يُبقِ الله تعالى في صدور أهل الجنة ما
يبغضُ نعيمها، أو يكدر صفوها كحقدٍ أو حسدٍ أو عداوةٍ أو شحناء. وقوله: {إخواناً على سررٍ
متقابلين} لما طهر صدورهم مما

1 روي أن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما سمع هذه الآية: {إن جهنم لموعدهم أجمعين} قرّ ثلاثة
أيام من الخوف فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه
الآية: {إن جهنم..} الخ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي فأنزل الله تعالى: {إن المتقين في جنات
وعيون}.

2 هي الأنهار الأربعة: ماء، وخمر، ولبن، وعسل المذكورة في سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

3 بسلامة من كل داء وآفة، وقيل: بتحية من الله تعالى آمنين من الموت والعذاب.

4 قال ابن عباس: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين

فيذهب الله ما في قلوبهم من غل ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم وتجري عليهم نضرة النعيم.

(3/84)

من شأنه أن ينغص أو يكدر،. أصبحوا في المحبة لبعضهم بعضاً إخوانا يضمهم مجلس واحد يجلسون فيه على سررٍ متقابلين وجهاً لوجه، وإذا أرادوا الانصراف إلى قصورهم تدور بهم الأسرة فلا ينظر أحدهم إلى قفا أخيه. وقوله تعالى: {لا يمسه فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين} فيه الإخبار بنعيمين: نعيم الراحة الأبدية إذ لا نصب ولا تعب في الجنة ونعيم البقاء والخلد فيها إذ هم لا يخرجون منها أبداً. وفي هذا تقرير لمُعْتَقِدِ البعث والجزاء بأبلغ عبارة وأوضحها. وقوله تعالى: {نبيء عبادي 1 أني أنا الغفور الرحيم} أي خبر يا رسولنا عبادنا المؤمنين الموحدون أن ربهم غفور لهم إن عصوه وتابوا من معصيتهم. رحيم بهم فلا يعذبهم. {وأن عذابي هو العذاب الأليم} ونبئهم أيضاً أن عذابي هو العذاب الأليم فليحذروا معصيتي بالشرك بي، أو مخالفة أوامري وغشيان محارمي. وقوله تعالى: {ونبئهم عن ضيف إبراهيم 2. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً} أي سلموا عليه فرد عليهم السلام وقدم لهم قَرَى الضيف وكان عجلًا حنيذًا، كما تقدم في هود وعرض عليهم الأكل فامتنعوا وهنا قال: {إنا منكم وجلون 3} أي خائفون، وكانوا جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة لشباب حسان. فلما أخبرهم بخوفه منهم، لأن العادة أن النازل على الإنسان إذا لم يأكل طعامه دل ذلك على أنه يريد به سوءً. {قالوا لا توجل} أي لا تخف، {إنا نبشرك بغلامٍ عليم} أي بولدٍ ذي علم كثير. فرد إبراهيم قائلاً بما أخبر تعالى عنه بقوله: {قال أبشركموني على أن مسني 4 الكبر فبم 5 تبشرون} أي هذه البشارة بالولد على كبر سني أمر عجيب، فلما تعجب من البشارة وظهرت عليه علامات الشك والتردد في صحة الخبر قالوا له: {بشركناك 6 بالحق فلا تكن من القانطين 7} أي

1 شاهد هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد".

2 هم الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام. والضيف: لفظ يطلق على الواحد والاثنين والجماعة.

3 قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل المشوي ليأكلوا فلم يأكلوا.

4 أن: مصدرية، والتقدير: على من الكبر إياي وزوجتي.

5 الاستفهام للتعجب أو هو على حقيقة.

6 أي: بما لا خلف فيه، وأن الولد لا بدّ منه.

7 قراءة العامة: {القانطين} ، وقرىء القنطين بدون ألف، ويكون الفعل حينئذ من قنط يقنط كفرح يفرح فهو فرح، وعلى قراءة الجمهور فهو من باب فعل يفعل كضرب يضرب فهو ضارب.

(85/3)

الآيسين. وهنا رد عليهم م قائلاً نافيةً القنوط عنه لأن القنوط حرام. لومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} أي الكافرون بقدرة الله ورحمته لجهلهم بربهم وصفاته المتجلية في رحمته لهم وإنعامه عليهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير نعيم الجنة، وأن نعيمها جسماني روحاني معاً دائم أبداً.
 - 2- صفاء نعيم الجنة من كل ما ينغسه أو يكدره.
 - 3- وعد الله بالمغفرة لمن تاب من أهل الإيمان والتقوى من موحيه.
 - 4- وعيده لأهل معاصيه إذا لم يتوبوا إليه قبل موتهم.
 - 5- مشروعية الضيافة وأنها من خلال البر والكرم.
 - 6- حرمة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى.
- قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60) فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُؤا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (66)

(3/86)

شرح الكلمات:

قال فما خطبكم: أي ما شأنكم؟

إلى قوم مجرمين: هم قوم لوط عليه السلام.

إننا لمنجؤهم أجمعين: أي لإيمانهم وصالح أعمالهم.

الغابرين: أي الباقيين في العذاب.

قوم منكرون : أي لا أعرفكم.

بما كانوا فيه يمترون : أي بالعذاب الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم.

حيث تؤمرون : أي إلى الشام حيث أمروا بالخروج إليه.

وقضينا إليه ذلك الأمر: أي فرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن ضيف إبراهيم، وها هو ذا قد سألهم بما أخبر به تعالى عنه بقوله: {قال فما خطبكم} أيها المرسلون {أي ما شأنكم أيها المرسلون من قبل الله تعالى إذ هم ملائكته {قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين}2 {أي على أنفسهم، وعلى غيرهم وهم اللوطيون لعنهم الله. قوله تعالى: {إلا آل لوط} آل بيته والمؤمنين معه، {إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا} أي قضينا3 {إنها لمن الغابرين} أي الباقين في العذاب، أي قضى الله وحكم بإهلاكها في جملة من يهلك لأنها كافرة مثلهم. إلى هنا انتهى الحديث مع إبراهيم وانتقلوا إلى مدينة لوط عليه السلام قال تعالى {فلما جاء آل لوط المرسلون} أي انتهوا إليهم ودخلوا عليهم الدار قال لوط عليه السلام لهم {إنكم قوم منكرون} أي لا أعرفكم وأجابوه قائلين: نحن رسل ربك جنناك بما كان قومك فيه يمترون أي يشكون وهو عذابهم العاجل جزاء كفرهم وإجرامهم، {وأنتيناك بالحق} الثابت الذي لا شك فيه {وإننا لصادقون} فيما أخبرناك به وهو عذاب قومهم المجرمين.

1 الخطب: الأمر الخطير والشأن العظيم.

2 في الكلام إضمار جملة {لنهلكهم} فلذا كان الاستثناء إلا آل لوط، وهم أتباعه وأهل بيته.

3 وكتبنا في كتاب المقادير.

(3/87)

وعليه {فاسر بأهلك بقطع من الليل} أي أسر بهم في جزء من الليل، و {اتبع أدبارهم} أي امش وراءهم1 وهم أمامك {ولا يلتفت منكم أحد} بأن ينظر وراءه، أي حتى2 لا يرى ما يسوءه عند نزول العذاب بالمجرمين، وقوله {وامضوا حيث تؤمرون} أي يأمركم ربكم وقد أمروا بالذهاب إلى الشام. وقوله تعالى: {وقضينا3 إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين}4 أي وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، أي أنهم مهلكون عن آخرهم في الصباح الباكر ما أن يطلع الصباح حتى تُقلب بهم الأرض ويهلكوا عن آخرهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- التنديد بالإجرام وبيان عقوبة المجرمين.
- 2- لا قيمة للنسب ولا للمصاهرة ولا عبرة بالقرابة إذا فصل الكفر والإجرام بين الأنساب والأقرباء فامرأة لوط هلكت مع الهالكين ولم يشفع لها أنها زوجة نبي ورسول عليه السلام.
- 3- مشروعية المشي بالليل لقطع المسافات البعيدة.
- 4- مشروعية مشي المسئول وكبير القوم وراء الجيش والقافلة لتفقد أحوالهم، والإطلاع على من يتخلف منهم لأمر، وكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل.
- 5- كراهية الإشفاق على الظلمة الهالكين، لقوله: ولا يلتفت منكم أحد أي: بقلبه. وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا

1 لئلا يتخلف منهم أحد فيهلك مع الهالكين.

2 أو نهوا عن الالتفات ليجدوا في السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح موعد هلاك القوم.

- 3 قضينا: قدرنا، وضمن معنى أوحينا فعدي بالي، والقدير: وقضينا ذلك الأمر فأوحينا إليه بما قضينا، وجملة: {أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين}. مفسرة لذلك الأمر والإشارة للتحويل.
- 4 {مصبحين} أي: داخلين في الصباح، ومثله، مشرقين أي: داخلين في وقت الإشراق.

(3/88)

اللَّهُ وَلَا تَخْزُونِ (69) قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (76) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (79)

شرح الكلمات:

وجاء أهل المدينة يستبشرون : أي مدينة سدوم، أي فرحين بإتيانهم الفاحشة.

واتقوا الله ولا تخزون : أي لا تذلون في انتهاك حرمة ضيفي.

أولم نهك عن العالمين: أي عن إجارتك لهم واستضافتك.

لفي سكرتهم يعمهون: أي غوايتهم، وشدة غلّمتهم التي أزلت عقولهم، يترددون.

مشركين: أي وقت شروق الشمس.

من سجيل : أي طين طبخ بالنار.

لآيات للمتوسمين: أي الناظرين المعترين.

لبسبيل مقيم: أي طريق قریش إلى الشام مقيم دائم ثابت.

أصحاب الأيكة: أي قوم شعيب عليه السلام، والأيكة غيضة شجر بقرب مدين.

وإنهما لبإمام مبین: أي قوم لوط، وأصحاب الأيكة لبطريق مبین واضح.

معنى الآيات:

مازال السياق مع لوط عليه السلام وضيغه من الملائكة من جهة، وقوم لوط من جهة

1 الغلطة: شدة الشهوة الجنسية.

(89/3)

قال تعالى: {وجاء أهل المدينة} أي مدينة سدوم وأهلها سكانها من اللوطيين، وقوله {يستبشرون} أي فرحين مسرورين لطعمهم في إتيان الفاحشة. فقال لهم لوط ما أخبر الله تعالى به: {قال إن هؤلاء} يشير إلى الملائكة {ضيغي فلا تقضون} أي فيه أي بطلبكم إلى فاحشة، {واتقوا الله} أي خافوه {ولا تخزون} أي تهينوني وتذلوني. فأجابوا بما أخبر تعالى به عنهم: {قالوا أولم ننهك عن العالمين} أي أنقول ما تقول ولم تذكر أنا نهيناك عن استضافة أحد من الناس أو تجيره، فأجابهم لوط عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه: {قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين} أي هؤلاء بناتي فتزوجوهن إن كنتم فاعلين ما أمركم به أو أرشدكم إليه. وقوله تعالى: {لعمرك إنهم} لفي سكرتهم يعمهون} أي وحياتك يا رسولنا، إنهم أي قوم لوط {لفي سكرتهم} غوايتهم التي أذهبت عقولهم فهبطوا إلى درك أسفل من درك الحيوان، {يعمهون} أي حيارى يترددون. {فأخذتهم الصيحة مشرقين} أي صيحة جبريل عليه السلام مشرقين مع إشراق الشمس. وقوله تعالى {فجعلنا عاليها سافلها} أي جعلنا عالي المدن سافلها وهو قلبها ظهراً على بطن، {وأمطرنا عليهم} فوق ذلك {حجارة من سجيل} أي من طين مطبوخ بالنار. وقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين}2} أي إن في ذلك المذكور من تدمير مدن كاملة بما فيها لآيات وعبر وعظات للمتوسمين أي الناظرين نظر تفكر وتأمل لمعرفة الأشياء بسماتها وعلاماتها. وقوله تعالى: {وإنها لسبيل مقيم} أي وإن تلك القرى الهالكة لبطريق ثابت باق يمر به أهل مكة في أسفارهم إلى الشام. وقوله {إن في ذلك لآية للمؤمنين} أي لعبرة للمؤمنين فلا يقدمون على محارم الله، ولا يرتكبون معاصيه. وقوله تعالى: {وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين}. هذه إشارة خاطفة إلى قصة شعيب عليه السلام مع قومه أصحاب الأيكة، والأيكة الفيضة من الشجر الملتف.. وكانت منازلهم

1 هذا الإقسام بحياة النبي صلى الله عليه وسلم تشريفاً له، وأصل عمرك بضم العين وفتحت لكثرة الاستعمال، وجائز أن يكون القسم بحياة لوط أيضاً، وليس لأحد أن يجيز القسم بغير الله محتجاً بهذا القسم الإلهي فان الله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، فقد أقسم بالشمس وضحاها، وأقسم بالسماء والليل وغيرها من مخلوقاته ولا اعتراض عليه وأما العباد فقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عن حرمة الحلف بغير الله فقد قال: "من حلف بغير الله فقد أشرك" رواه الترمذي.

2 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر المتوسمين بالمتفرسين إذ قال: "انقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين}" رواه الترمذي واستغربه، وقيل: للناظرين كما قال الشاعر:

أو كلما وردت عكاظ قبلية

بعثوا إليّ عريفهم يتوسّم

وأصل التوسم: النظر بثنيت وتفكر وعليه فما ورد في التوسم من النظر والتفرس كله متقارب المعنى.

(3/90)

بها وكانوا مشركين وهو الظلم في قوله {وإن كان أصحاب الأيكة} لظالمين {لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى، وقوله تعالى: {فانقمنا منهم} أي أهلكناهم بحر شديد يوم الظلة وسيأتي الحديث عنهم في سورة الشعراء قال تعالى هناك فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. وقوله: {وإنهما لبإمام مبين} الإمام الطريق لأن الناس يمشون فيه وهو أمامهم، ومبين واضح. والضمير في قوله وإنهما عائد على قوم لوط، وقوم شعيب وهم أصحاب الأيكة لا أصحاب مدين لأنه أرسل إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين، والطريق طريق قريش إلى الشام، والقصد من ذكر هذا وعظ قريش وتذكركم، فهل يتعظون ويتذكرون؟

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إهلاك قوم لوط.
- 2- إنكار الفاحشة وأنها أقبح فاحشة تعرفها الإنسانية هي إتيان الذكور.
- 3- بيان دفاع لوط عليه السلام عن ضيفه حتى فداهم بيناته.
- 4- شرف النبي صلى الله عليه وسلم حيث أقسم الله تعالى بحياته في قوله {العمرك}.
- 5- الحث على نظر التفكير والاعتبار والتفرس فإنه أنفع للعقل البشري.
- 6- بيان نقمة الله تعالى من الظالمين للاعتبار والاتعاظ.
- 7- تقرير نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ مثل هذه الأخبار لن تكون إلا عن وحي إلهي.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ
مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84)

1 جمع الأيكة وهي جماعة الشجر الأيكة، أو سميت القرية بالأيكة باعتبار الأصل.

(3/91)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمِثَالِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا
مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)

شرح الكلمات:

أصحاب الحجر: هم قوم صالح ومنازلهم بين المدينة النبوية والشام.

وأتيناهم آياتنا: أي في الناقة وهي أعظم آية.

ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون: من بناء الحصون وجمع الأموال.

الصفح الجميل: أي أعرض عنهم إعراضاً لا جزع فيه وهذا قبل الأمر بقتالهم.

سبعاً من المثالي: هي آيات سورة الفاتحة السبع.

أزواجاً منهم: أي أصنافاً من الكفار.

واخفض جناحك: أي ألن جانبك للمؤمنين.

معنى الآيات:

هذا شروع في موجز قصة أخرى هي قصة أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح، قال تعالى: ﴿ولقد

كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ وفي هذا موعظة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كذبه قومه

من أهل مكة فليصبر على تكذيبهم فقد كذبت قبلهم أقوام. وقال تعالى ﴿المرسلين﴾ ولم يكذبوا إلا

صالحاً باعتبار أن من كذب رسولا فقد كذب عامة الرسل، لأن دعوة الرسل واحدة وهي أن يعبد الله

وحده بما شرع لإكمال الإنسان وإسعاده في

1 لفظ الحجر يطلق على أمور عدة منها العقل {الذي حجر} والحرام: {حجراً محجوراً} والفرس الانثى

وحجر القميص، والفتح فيه أولى، وحجر إسماعيل إزاء الكعبة وديار ثمود: وهو المراد هنا.

(3/92)

الحالتين. وقوله {وأتيناهم 1 آياتنا فكانوا عنها معرضين} إن المراد من الآيات القائمة بالناقة منها أنها خرجت من صخرة، وأنها تشرب ماء البلد يوماً، وأنها تقف أمام كل بيت ليحلب أهله منها ما شاءوا، وإعراضهم عنها، عدم إيمانهم وتوبتهم إلى الله تعالى بعد أن آتاهم ما طلبوا من الآيات. وقوله {وكانوا ينحتون 2 من الجبال بيوتاً} أي كانوا يتخذون بالنحت بيوتاً داخل الجبال يسكنوها شتاءً آمنين من أن تسقط عليهم لقوتها وست أن ينالهم برد أو حر لوقايتها لهم، وقوله تعالى {فأخذتهم الصيحة مصبحين 3} وذلك صيحة اليوم الرابع وهو يوم السبت فهلكوا أجمعين، {فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} من المال والعتاد وبناء الحصون بل 4 هلكوا ولم ينج منهم أحد إلا من آمن وعمل صالحاً فقد نجاه الله تعالى مع نبيه صالح عليه السلام. وقوله تعالى: {وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق} أي إلا من أجل أن أذكر وأشكر، فلذا من كفر بي فلم يذكرني وعصاني فلم يشكرني أهلكته. لأنني لم أخلق عدا الخلق العظيم لهواً وباطلاً وعبثاً. وقوله: {وإن الساعة لآتية 5} أي حتماً لا محالة وثم يُجزى كلُّ بما كسب فلا تحزن على قومك ولا تجزع منهم فإن جزاءهم لازم وآت لا بد، فاصبر واصفح عنهم وهو معنى قوله تعالى {فاصفح الصفح الجميل 6} أي الذي لا جزع معه. وقوله {إن ربك هو الخلاق العليم} خلق كل شيء وعلم بما خلق فعلى كثرة المخلوقات يعلم نياتها، وأعمالها، وأحوالها، ولا يخفى عليه شيء من أمرها وسيعيدها كما بدأها ويحاسبها ويجزيها بما كسبت. وهذا من شأنه أن يساعد الرسول صلى الله عليه وسلم على الصبر والثبات على دعوته حتى ينصرها الله تعالى

1 المراد بالآيات: الناقة لأنها تشمل على عدة آيات، وجائز أن يكون هناك آيات أخرى أعطيتها صالح غير الناقة.

2 النحت: البري والنجر، يقال نحته ينحته نحتاً إذا براه، والنحاته: البراية كالنجارة والخشاعة، والمنحت: آلة النحت، وقوله: {آمنين} أي: من أن تسقط عليهم أو تخرب فلا تصلح للسكن فيها.

3 {مصبحين}: حال من أخذتهم الصيحة أي: حال كونهم داخلين في الصباح وهو أول النهار، فالأيام الثلاثة التي قيل لهم: {تمتعوا فيها} هي الأربعاء والخميس والجمعة، وصبيحة السبت كان هلاكهم والعياذ بالله من حال الهالكين.

4 صحَّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، وأمر بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز منه لأجل أنه ماء سخط فلا يجوز الانتفاع به فراراً من سخط الله تعالى وقال: اعلفوه الإبل ففعلوا".

5 لآتية: جائية إذ الأيام تنصرم يوماً فيوماً إلى آخر يوم فالساعة الأخيرة لهذه الحياة آتية، وهي في طريقها.

6 هذا كان قبل الأمر بالجهاد إذ السورة مكية والجهاد فرض في المدينة فالآية منسوخة بمثل قوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} الآية من التوبة المدنية.

في الوقت الذي حدده لها. وقوله تعالى: {ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم} أي أعطيناك سورة الفاتحة 1 أم القرآن وأعطيناك القرآن العظيم وهو خير عظيم لا يقادر قدره. إذاً {لا تمدن عينيك} 2 متطلعاً {إلى ما متعنا به أزواجاً منهم} أي أصنافاً من رجالات قريش، فما آتيناك خير مما هم عليه من المال والحال التي يتمتعون فيها بلذيق الطعام والشراب. وقوله: {ولا تخزن عليهم} إن هم لم يؤمنوا بك ولم يتابعوك على ما جئت به، فإن أمرهم إلى الله تعالى، وأمره تعالى أن يلين جانبه لأصحابه المؤمنين فقال: {واخفض جناحك للمؤمنين} فحسبك ولاية الله لك فذر المكذبين أولي النعمة، وتعايش مع المؤمنين، ولين جانبك لهم، واعطف عليهم فإن الخير فيهم وليس في أولئك الأغنياء الأثرياء الكفرة الفجرة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- إذا أراد الله هلاك أمة فإن قوتها المادية لا تغني عنها شيئاً.
- 2- لم يخلق الله الخلق عبثاً بل خلقه ليعبد بالذكر والشكر، فمن عبده نجا، ومن أعرض عن ذكره وترك عبادته أذاقه عذاب الخزي في الدنيا والآخرة أو في الآخرة وهو أشد وأخزى.
- 3- بيان أن الصفح الجميل هو الذي لا جزع معه.
- 4- بيان أن ممن أتى القرآن لم يؤت أحد مثلها من الخير قط.
- 5- فضل الفاتحة إذ هي السبع المثاني.
- 6- على الدعاة إلى الله أدت لا يلتفتوا إلى ما في أيدي الناس من مالٍ ومتاع، فإن ما آتاهم الله من الإيمان والعلم والتقوى خير مما آتى أولئك من المال والمتاع.
- 7- استحباب لين الجانب للمؤمنين والعطف عليهم والرحمة لهم.

1 كون الفاتحة هي السبع المثاني هو قول عليّ وأبي هريرة والحسن وغيرهم ويشهد له الحديث الصحيح: "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني". روي عن ابن عباس أنه قال: هي السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معاً.

2 هذه الآية تدعو إلى الإعراض عن زخارف الدنيا وعدم الإقبال عليها، والاكتفاء فيها بما أحل الله عمّا حرم وبما تيسر عما تعسر، وفيها: أن من أعطاه الله القرآن وجب عليه أن يشعر بالغنى وعدم الفقر لحديث "ليس منّا من لم يتغن بالقرآن" أي: لم يستغن به عن طلب غيره.

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)
فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
(94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ
يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ (99)

شرح الكلمات:

الذير المبين : البين النذارة

على المقتسمين : أي الذين قسموا كتاب الله فقالوا فيه شعر، وقالوا سحر، وقالوا كهانة.
جعلوا القرآن عضين : هم المقسمون للقرآن وجعلوا عضين جمع عضة وهي القطعة والجزء من الشيء.

فاصدع بما تؤمر : أي اجهر به وأعرضه كما أمرك ربك.

يضيق صدرك بما يقولون : أي من الاستهزاء بك والتكذيب لك.

حتى يأتيتك اليقين : أي الموت، أي إلى أن تتوفى وأنت تعبد ربك.

معنى الآيات:.

ما زال السياق في إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه ما ينبغي أن يكون عليه فأمره تعالى

(3/95)

بقوله: {وقل إني أنا النذير المبين 1} أي أعلن لقومك بأنك النذير البين النذارة لكم يا قوم أن ينزل بكم عذاب الله إن أصررتم على الشرك والعناد والكفر، وقوله: {كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين 2} أنذركم عذاباً كالذي أنزله الله وينزله على المقتسمين الذين قسموا التوراة والإنجيل فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وهم اليهود والنصارى، والمقتسمين الذين تقاسموا أن يبيتوا صالحاً فأنزل الله بهم عقوبته والمقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين أي أجزاء فقالوا فيه شعر وسحر وكهانة، المقتسمين الذين قسموا طرق مكة وجعلوها نقاط تفتيش يصدون عن سبيل الله كل من جاء يريد الإسلام وهؤلاء كلهم مقتسمون وحل بهم عذاب الله ونقمته. وقوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون} 3 يقسم الجبار تبارك وتعالى لرسوله أنه ليسألنهم يوم القيامة عما كانوا يعملون ويجزيهم به فلذا لا يهولنك أمرهم واصبر على أذاهم. وقوله {فاصدع 4 بما تؤمر} أي اجهر بدعوة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما تؤمر ببيانه والدعوة إليه أو التنفير منه، {وأعرض عن المشركين}

ولا تبال بهم، وقوله: {إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون} والمراد بهؤلاء المستهزئين الذين واعد تعالى بكفاية رسوله شرهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث كلهم ماتوا بأفات مختلفة في أمدٍ يسير، عليهم لعائن الله تعالى. وقوله تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون} أي من الاستهزاء بك والسخرية، ومن المبالغة في الكفر والعناد فنرشدك إلى ما يخفف عنك الألم النفسي {فسبح بحمد ربك} أي قل سبحان الله وبحمده أي أكثر من هذا الذكر {وكن من الساجدين} أي المصلين إذ لا سجود إلا في الصلاة أو تلاوة القرآن 5 إذا فافزع عند الضيق إلى الصلاة

1 في الكلام حذف، وهو لفظ عذاباً. فحذت المفعول لدلالة لفظ النذير عليه أو لكون الكاف في قوله {كما أنزلنا} زائدة ويصح التقدير هكذا:

أنا النذير المبين ما أنزلنا على المقتسمين أي: من العذاب.

2 واحد: (عضين) عضه من عضيت الشيء تعضيه أي: فرقته وكل فرقة عضه، وقيل: أصلها عضوة، فسقطت الواو، ولذا جمعت على عضين كعزين، إذ واحداً عزوة، وذلك أنهم فرقوا كلام الله فجعلوا بعضه سحراً وبعضه شعراً .. و..

3 وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: في قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم ..} إلى قوله {يعلمون} قال: "عن قول لا إله إلا الله، إذ أبوا أن يقولوها فتمادوا في الكفر والشر والفساد ولو قالوا لما كان لهم سوى الخير والصالح.

4 قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من الزمن مستخفياً هو وأصحابه في دار الأرقم حتى نزلت فيه الآية: {فاصدع بما تؤمر} فخرج صلى الله عليه وسلم وأعلن الإسلام ودعا إليه جهره.

5 قيل: إن هذه سجدة من سجدة القرآن، والجمهور على أنها ليست سجدة وإنما أرشد الله تعالى رسوله لتفريح همّه وتوسعة صدره مما يسمع ويقال له أمره بالتسبيح والصلاة وفعلاً كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

(3/96)

فلذا كان صلى الله عليه وسلم أحزنه أمر فزع إلى الصلاة. وقوله: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} أي واصل العبادة وهي الطاعة في غاية الذل والخضوع لله تعالى حتى يأتيك اليقين الذي هو الموت فإن القبر أول عتبة الآخرة ويموت الإنسان ودخوله في الدار الآخرة أصبح إيمانه يقيناً محضاً. هداية الآيات.

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الاختلاف في كتاب الله تعالى على نحو ما اختلف فيه أهل الكتاب.
- 2- مشروعية الجهر بالحق وبيانه لاسيما إذا لم يكن هناك اضطهاد.
- 3- فضل التسبيح بجملة: سبحان الله وبحمده ومن قالها مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وهذا مروى في الصحيح 1.
- 4- مشروعية صلاة الحاجة فمن حزنه أمر أو ضاق به فليصل صلاة يفرج الله تعالى بها ما به أو يقضي حاجته إن شاء وهو العليم الحكيم.

1 رواه مسلم.

(3/97)

سورة النحل

...

سورة النحل 1

مكية

وآياتها مائة وثمان وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَانْقُوتُوا (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ

1 وتسمى أيضاً سورة النعم، لما عدد تعالى فيها من نعمه على عباده.

(3/97)

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا أُنْفِثَ الْبَشِقُّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ (7)

شرح الكلمات:

أتى أمر الله : أي دنا وقرب أمر الله بعدابكم أيها المشركون فلا تستعجلون.

ينزل الملائكة بالروح: أي بالوحي الذي به حياة الأرواح والمراد من الملائكة جبريل.

خلق الإنسان من نطفة: أي قطرة من المنى.

دفع ومنافع: أي ما تستدفنون به، ومنافع من العسل واللبن واللحم والركوب.

حين تريحون: أي حين تردونها من مراحها.

وحين تسرحون: أي وحين إخراجها من مراحها إلى مسارحها أي الأماكن التي تسرح فيها.

إلا بشق الأنفس: أي بجهد الأنفس ومشقة عظيمة.

معنى الآيات:

لقد استعجل المشركون بمكة العذاب وطالبوا به غير مرة فأنزل الله تعالى قوله: {أتى أمر الله} أي بعذابكم أيها المستعجلون له. لقد دنا منكم وقرب فالنضر بن الحارث القائل: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} ، جاءه بعد سُنَيَات قلائل فهلك ببدر صَبْرًا، إلى جهنم، وَعَذَابُ يوم القيامة لمن استعجله قد قرب وقته ولذا عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه وقرب مجيئه فلا معنى لاستعجاله فلذا قال الله تعالى: {فلا تستعجلوه} وقوله {سبحانه وتعالى عما يشركون}.

1 من الجائز أن يراد ب {أتى أمر الله} القيامة لقول الله تعالى: {اقترب للناس حسابهم} وقوله:

{اقتربت الساعة} وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه".

(3/98)

أي تنزه وتقدس عما يشركون به من الآلهة الباطلة إذ لا إله حق إلا هو. وقوله {ينزل الملائكة بالروح} من أمره {أي بإرادته وإذنه} على من يشاء من عباده. أي ينزل جبريل عليه السلام بالوحي على من يشاء من عباده وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقوله {أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} أي بأن انذروا3 أي خوفوا المشركين عاقبة شركهم فإن شركهم باطل سيجر عليهم عذاباً لا طاقة لهم به، لأنه لا إله إلا الله، وكل الآلهة دونه باطلة. إذ فاتقوا الله بترك الشرك والمعاصي وإلا تعرضتم للعذاب الأليم. في هاتين الآيتين تقرير للوحي والنبوة للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير التوحيد أيضاً وقوله تعالى في الآيات التالية: {خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون} استدلال على وجوب التوحيد وبطلان الشرك فالذي خلق السموات والأرض بقدرته وعلمه وحده دون ما مُعِين له ولا مساعد حُقَّ أن يعبد، لا تلك الآلهة الميتة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتطرق {تعالى عما يشركون} أي تنزه وتقدس تعالى عما يشركون به من أصنام وأوثان. وقوله: {خلق الإنسان من نطفة} أي من أضعف شيء وأحقره قطرة المنى خلقه في ظلمات ثلاث وأخرجه من بطن أمه لا يعلم

شيئاً حتى إذا رياه وأصبح رجلاً إذا هو خصم لله يجادل ويعانده4، ويقول من يحيي العظام وهي رميم. وقوله تعالى {والأنعام خلقها لكم فيها دفء5 ومنافع ومنها تأكلون} فهذه مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة والرحمة وهي الموجبة لعبادته تعالى وترك عبادة ما سواه. فالأنعام وهي الإبل والبقر والغنم خلقها الله تعالى لبني آدم ولم يخلقها لغيرهم، لهم فيها دفء إذ يصنعون الملابس والفرش والأغطية من صوف الغنم ووبر الإبل ولهم فيها منافع كاللبن والزبدة والسمن والجبن والنسل حيث تلد كل سنة فينتفعون بأولادها. ومنها يأكلون اللحوم المختلفة فالمنعم بهذه النعم هو الواجب العبادة دون غيره من سائر

- 1 بالروح، أي بالوحي بالنبوة نظيره قوله تعالى: {يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده}.
- 2 أي: من الأنبياء ومحمد صلى الله عليه وسلم إمامهم وخاتمهم وقوله: {أن أنذروا}: تفسير لقوله: {ينزل الملائكة بالروح}.
- 3 أمر الله الأنبياء الذين أوحى إليهم بشرعه أن يندروا المشركين عاقبة الشرك ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح بعد نبذ الشرك والعمل الفاسد.
- 4 هذا الإنسان الخصيم هو أبي بن خلف الجمحي، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال: أتري يحيي الله هذا بعد ما قد رمّ؟ وفيه نزل: {أو لم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة..} الخ من سورة يس.
- 5 الدفاء: الشيء الذي يدفء الإنسان، والجمع: ادفاء، ويقال: دفاء دفاة ككره كراهة.

(3/99)

مخلوقاته وقوله: {ولكم فيها جمال}1 أي منظر حسن جميل حين تريحونها عشية من المرعى إلى المراح {وحيث تسرحون} أي تخرجونها صباحاً من مراحتها إلى مراعيها، فهذه لذة روحية ببهجة المنظر. وقوله {وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق2 الأنفس} أي إلا بجهد النفس والمشقة العظيمة. فالإبل في الصحراء كالسفن في البحر تحمل الأثقال من بلدٍ إلى بلدٍ وقد تكون المسافة بعيدة لا يصلها الإنسان إلا بشق الأنفس وبذل الجهد والطاقة، لولا الإبل سفن الصحراء ومثل الإبل الخيل والبغال والحمير في حمل3 الأثقال. فالخالق لهذه الأنعام هو ريكم لا إله إلا هو فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وقوله تعالى: {إن ريكم} أي خالفكم ورازقكم ومريكم وإلهكم الحق الذي لا إله لكم غيره لرؤوف رحيم، ومظاهر رحمته ورأفته ظاهره في كل حياة الإنسان فلولا لطف الله بالإنسان ورحمته له لما عاش ساعة في الحياة الدنيا فله الحمد وله المنة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- قرب يوم القيامة فلا معنى لاستعجاله فإنه آتٍ لا محالة، وكل آتٍ قريب.
- 2- تسمية الوحي بالروح من أجل أنه يحيى القلوب، كما يحيى الأجسام الأرواح.
- 3- تقرير التوحيد والنبوة والبعث الآخر بذكر مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة والرأفة والرحمة. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ

- 1 الجمال يكون في الصورة، وهو تناسب أجزائها، ويكون في الأخلاق بأن يكون المرء على صفات محمودة كالعدل والعلم والحكمة وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد وجمال الأفعال يكون بملاءمتها لمصالح الخلق نافعة لهم غير ضارة بهم.
- 2 شق النفس: مشقتها، وغاية جهدها وعليه فالشق المشقة، والشق: الجانب من كل شيء.
- 3 في الآية دليل على جواز ركوب الإبل، والحمل عليها لكن لا تحمل أكثر مما تطيق فقد ضرب عمر حمالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق. وكان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون يقول له: يا دمون لا تخاصمني عند ربك.

(3/100)

شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)

شرح الكلمات:

- ويخلق ما لا تعلمون: من سائر الحيوانات ومن ذلك السيارات والطائرات والقطر.
- وعلى الله قصد السبيل: أي تفضلاً منه وامتثالاً ببيان السبيل القاصدة وهي الإسلام.
- ومنها جائر: أي عادل عن القصد وهو سائر الملل كاليهودية والنصرانية.
- ومنه شجر: أي وبسببه يكون الشجر وهو هنا عام في سائر النباتات.
- فيه تسيمون: ترعون مواشيكم.

مسخراتٍ بأمره: أي بإذنه وقدرته.

وما ذرأ لكم في الأرض: أي خلق لكم في الأرض من الحيوان والنباتات المختلفة.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في تقرير التوحيد بذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته إذ قال تعالى:
{والخيل 1 والبغال والحمير} أي خلقها وهو خالق كل شيء لعله ركوبهم

1 قيل: واحد الخيل: خائل، وقيل: هو اسم جنس لا واحد له، وهذه الثلاثة: الخيل والبغال والحمير لم
تدخل في لفظ الأنعام، ونصب: (والخيل) على تقدير: (وخلق الخيل).

(3/101)

إياها إذ قال: {لتركيوها وزينة 1} أي ولأجل أن تكون زينة لكم في حياتكم وقوله {ويخلق ما لا تعلمون}
أي مما هو مركوب وغير مركوب من مخلوقات عجيبة ومن المركوب هذه السيارات على اختلافها
والطائرات والقطر السريعة والبطيئة هذا كله إفضاله وإنعامه على عباده فهل يليق بهم أن يكفروه ولا
يشكروه؟ وهل يليق بهم أن يشركوا في عبادته سواه. وقوله {وعلى الله قصد السبيل 2} ومن إفضاله
وإنعامه الموجب لشكره ولعبادته دون غيره أن بين السبيل القاصد الموصل إلى رضاه وهو الإسلام،
في حين إن ما عدا الإسلام من سائر الملل كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها سبل جائره عن
العدل والقصد سالكوها ضالون غير مهتدين إلى كمال ولا إلى إسعاد هذا معنى قوله تعالى {وعلى
الله قصد السبيل} وقوله {ولو شاء لهداكم أجمعين} أي لو تعلق ببارادته هداية الناس أجمعين لهداهم
أجمعين وذلك لكمال قدرته وعلمه، إلا أن حكمته لم تقتض هداية لكل الناس فهدي من رغب في
الهداية وأضل من رغب في الضلال. ومن مظاهر ربوبيته الموجبة لألوهيته أي عبادته ما جاء في
الآيات التالية (10، 11، 12، 13، 14، 15) إذ قال تعالى: {هو الذي أنزل من السماء ماء لكم
منه شراب 3} تشربون منه وتنظفون، {ومنه} أي من الماء الذي أنزل من السماء شجر 4 لأن
الشجرة والمراد به هنا سائر النباتات يتوقف وجوده على الماء وقوله {فيه تسيمون 5} أي في ذلك
النبات ترعون مواشيكم. يقال سام الماشية أي ساقها إلى المرعى ترعى وسامت الماشية أي رعت
بنفسها. وقوله تعالى: {ينبت لكم به} أي بما أنزل من السماء من ماء {الزرع والزيتون والنخيل
والأعنان ومن كل الثمرات} كالفواكه والخضر على اختلافها إذ كلها متوقفة على الماء. وقوله {إن
في ذلك} أي المذكور من نزول الماء وحصول المنافع الكثيرة به

1 أخذ مالك من قوله تعالى: {لتركيوها وزينة}: {لتركيوها وزينة}: حرمة أكل لحوم الخيل وواقفه أبو حنيفة، وأجاز
الجمهور أكلها لأن الآية لم تحرم شيئاً وإنما ذكرت فائدة من فوائدها وهي الركوب، ومن أدلة
الجمهور: الحديث الصحيح من ذلك قول الصحابي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر
عن لحوم الحمر الأهلية وأذن لنا في لحوم الخيل". وقال جابر رضي الله عنه: "كنا نأكل لحوم

- الخيـل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم" وحديث مسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: "فجزرنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة وأكلناه".
- 2 أي: على الله بيان قصد السبيل، والسبيل هو الإسلام، أي: بيان شرائعه وأحكامه وحكمه ومواعظه بواسطة كتبه ورسله. وقصد السبيل: استقامته كما أن جائر السبيل: هو الحائد عن الاستقامة.
- 3 الشراب: اسم لما يشرب وذكر للماء النازل من السماء فائدتين. الأولى: الشراب والثانية: إنبات النبات وهما نعمتان.
- 4 لفظ الشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة ويطلق على مطلق العشب والكلأ تغليياً.
- 5 الإسامة: إطلاق الإبل للسموم وهو الرعي يقال: سامت الماشية إذا رعت وأسامها: إذا رعاها.

(3/102)

{الآية} أي علامة واضحة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي مقتضية لعبادته وترك عبادة غيره. ولكن {لقوم يتفكرون} فيتعظون. أما أشباه البهائم الذين لا يفكرون في شيء فلا يجدون آية ولا شبهة آية في الكون كله وهم يعيشون فيه. وقوله تعالى: {وسخر لكم الليل والنهار} الليل للسكون الراحة، والنهار للعمل ابتغاء الرزق وتسخيرهما كونهما موجودين باستمرار لا يفترقان أبداً إلى أن يأذن الله بانتهائهما وقوله: {والشمس والقمر} أي سخرهما كذلك للانتفاع بضوء الشمس وحرارتها، وضوء القمر لمعرفة عدد السنين والحساب، وقوله: {والنجوم مسخرات 1 بأمره} كذلك ومن فوائد النجوم الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر وكونها زينة وجمالاً للسماء التي هي سقف دارنا هذه.. وقوله {إن في ذلك} المذكور من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم {آيات} عدة يستدل بها على الخالق وعلى وجوب عبادته وعلى توحيده فيها، ولكن {لقوم يعقلون} أي الذين يستخدمون طاقة عقولهم في فهم الأشياء وإدراك أسرارها وحقائقها أما أشباه البهائم والمجانين الذين لا يفكرون ولا يتفكرون ولا يعقلون، فليس لهم في الكون كله آية واحدة يستدلون بها على ربه ورحمته بهم وواجب شكره عليهم وقوله تعالى: {وما 2 ذراً لكم في الأرض} أي وما خلق لكم في الأرض من إنسان وحيوان ونبات {مختلفاً ألوانه} 3 وخصائصه وشيانه ومنافعه وآثاره {إن في ذلك} الخلق العجيب {الآية} أي في دلالة واضحة على وجود الخالق عز وجل ووجوب عبادته وترك عبادة غيره ولكن {لقوم يذكرون} فيتعظون فينتبهون إلى ربه فيعبده وحده بامتنال أمره واجتناب نهيه فيكملون على ذلك ويسعدون في الحياتين.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- كون الخيل 4 والبغال والحمير خلقت للركوب والزينة لا ينفي منفعة أخرى فيها وهي أكل

-
- 1 {مسخرات}: أي: مذللّت لمعرفة الأوقات ونضح الثمار، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.
 - 2 الذرة: الخلق بالتناسل والتولّد بالحمل والتفريخ فليس الإنبات فقط.
 - 3 المخلوقات قسمان: قسم منها مسخر مذل كالدواب والأنعام والأشجار، وقسم غير مذل ولا مسخر، وشاهد هذا: قول كعب الأحبار: لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهود حماراً فقيل له وما هن؟ قال: أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم من شرّ ما خلق وذراً وبرأ.
 - 4 ما في الآية: {والخيل والبيغال والحمير} ما يدلّ على وجوب الزكاة فيها، وفي الحديث الصحيح: "ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة" رواه مالك.

(3/103)

-
- لحوم الخيل لثبوت السنة بإباحة لحوم الخيل، ومنع لحوم البيغال والحمير كما في الصحيحين.
 - 2- الإسلام هو السبيل التي بينها الله تعالى فضلاً منه ورحمة وما عداه فهي سبل جائرة عن العدل والحق.
 - 3- فضيلة التفكير والتذكر والتعقل وذم أصدادها لأن الآيات الكونية كالآيات القرآنية إذا لم يتفكر فيها العبد لا يهتدي إلى معرفة الحق المنشود وهو معرفة الله تعالى ليعبده بالذكر والشكر وحده دون سواه.
 - وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَاللّٰهُ فِي الْاَرْضِ رَواْسِيْ اَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَاَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُوْنَ (16) اَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ اَفَلَا تَتَذَكَّرُوْنَ (17) وَاِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللّٰهِ لَا تُحْصُوْهَا اِنَّ اللّٰهَ لَعَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ (18) وَاللّٰهُ يَعْلمُ مَا تُسْرُوْنَ وَمَا تُعْلِنُوْنَ (19)
- شرح الكلمات.
- حلبة تلبسونها: هي اللؤلؤ والمرجان.
- مواخر فيه: أي تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة بريح واحدة وبالبحار اليوم.

-
- 1 تسخير البحر: هو تمكين البشر من التصرف فيه، وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره وهي نعمة إذ لو شاء الله لسلط البحر على العباد لأغرقهم.

(3/104)

من فضله: أي من فضل الله تعالى بالتجارة.
أن تميد بكم: أي تميل وتتحرك فيخرب ما عليها ويسقط.
لا تحسوها : أي عدأ فتضبطوها فضلاً عن شكرها للمنعم بها عز وجل.
ما تسرون وما تعلنون: من المكر بالنبى صلى الله عليه وسلم ومن أذاه علانية هذا بالنسبة إلى أهل مكة، إذ الخطاب يتناولهم أولاً ثم اللفظ عام فالله يعلم كل سرٍ وعلانية في أي أحد.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته تلك المظاهر الموجبة لتوحيده وعبادته وشكره وذكره قال تعالى: {وهو الذي سخر لكم البحر} وهو كل ماء غمر كثير عذباً كان أو ملحاً وتسخيره تيسير الغوص فيه وجرى السفن عليه. وقوله {لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها} بيان لعدة تسخير البحر وهي ليعصيد الناس منه السمك يأكلونه، ويستخرجون اللؤلؤ والمرجان حلية لنسائهم². وقوله: {وترى الفلك مواخر فيه} أي وترى أيها الناظر إلى البحر ترى السفن تمخر الماء أي تشقه ذاهبة وجائية. وقوله: {ولتبتغوا} أي سخر البحر والفلك لتطلبوا الرزق بالتجارة بنقل البضائع والسلع من إقليم إلى إقليم وذلك كله من فضل الله وقوله {لعلكم تشكرون} أي كي تشكروا الله تعالى. أي سخر لكم ذلك لتحصلوا على الرزق من فضل الله فتأكلوا وتشكروا الله على ذلك والشكر يكون بحمد الله والاعتراف بنعمته وصرافها في مرضاته وقوله: {وألقي في الأرض رواسي³} أي ألقى في الأرض جبلاً ثوابت {أن تميد بكم} كي لا تميد بكم، وميدانها ميلها وحركتها إذ لو كانت تتحرك لما استقام العيش عليها والحياة فيها. وقوله: {وأنهاراً} أي وأجرى لكم أنهاراً في الأرض كالنيل والفرات

1 قسم مالك اللحم ثلاثة أقسام وهي: لحم ذوات الأربع، ولحم ذوات الريش، ولحم ذوات الماء، ومنع بيع الجنس الواحد بجنسه متفاضلاً أو نسيئة.

2 الإجماع على جواز تختم الرجل بخاتم الفضة للأحاديث الثابتة وذلك منها حديث البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه محمد رسول الله" ولذا جاز للقضاة وغيرهم أن ينقشوا أسماءهم على خواتمهم.

3 في هذه الآية دليل على استعمال الأسباب إذ كان الله قادراً على سكونها دون الجبال، ومع هذا أرساها، وسكنها بالجبال تعليماً لعباده للأخذ بالأسباب، و {رواسي} جمع راس، على غير قياس، كفوارس، وعواذل جمع فارس وعاذل.

وغيرهما {وسبلاً} أي وشق لكم طرقاً {لعلكم تهتدون} إلى منازلكم في بلادكم وقوله {وعلامات} أي وجعل لكم علامات للطرق وأمارات كالهضاب والأودية والأشجار وكل ما يستدل به على الطريق والناحية، وقوله {وبالنجم} أي وبالنجوم 1 {هم يهتدون} فركاب البحر لا يعرفون وجهة سيرهم في الليل إلا بالنجوم وكذا المسافرون في الصحارى والوهاد لا يعرفون وجهة سفرهم إلا بالنجوم وذلك قبل وجود آلة البوصلة البحرية ولم توجد إلا على ضوء النجم وهدايته وقوله في الآية (17) {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون} هذا تأنيب عظيم لأولئك الذين يصرون على عبادة الأصنام ويجادلون عليها ويجادلون فهل عبادة من يخلق ويرزق ويدبر حياة الإنسان وهو الله رب العالمين كعبادة من لا يخلق ولا يرزق ولا يدير؟ فمن يسوي من العقلاء بين الحي المحيي الفعال لما يريد واهب الحياة كلها وبين الأحجار والأوثان؟ فلذا وبخهم بقوله {أفلا تذكرون} فتذكرون فتعرفون أن عبادة الأصنام باطلة وأن عبادة الله حق فنتوبوا إلى ربكم وتسلموا له قبل أن يأتيكم العذاب. وقوله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} بعدما عدد في هذه الآيات من النعم الكثيرة أخبر أن الناس لو أرادوا أن يعدوا نعم الله ما استطاعوا عدّها فضلاً عن شكرها، ولذا قال: {إن الله لغفور رحيم} ولولا أنه كذلك ليؤاخذهم على تقصيرهم في شكر نعمه عليهم ولسلبها منهم عند كفرها وعدم الاعتراف بالمنعم بها عز وجل وقوله تعالى: {والله يعلم ما تسرون وما تعلنون} هذه آخر مظاهر القدرة والعلم والحكمة والنعمة في هذا السياق الكريم فالله وحده يعلم سر الناس وجهرهم فهو يعلم إذا حاجاتهم وما تتطلبه حياتهم، فإذا عادوه وكفروا به فكيف يأمنون على حياتهم ولما كان الخطاب في سياق دعوة مشركي مكة إلى الإيمان والتوحيد فالآية إخطار لهم بأن الله عليهم بمكرهم برسوله وتبييت الشر له وأذاهم له بالنهار. فهي تحمل التهديد والوعيد لكفار مكة.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- بيان العلة في الرزق وأنها الشكر فالله سبحانه وتعالى يرزق ليُشكر.

1 وقد يراد بالنجم: الجدي خاصة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن النجم فقال له: "هو الجدي عليه قبلتكم وبه تهتدون في برّكم وبحركم" وكون المراد بالنجم النجوم لقوله تعالى: {وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر}.

2- إباحة أكل الحوت وكل دواب البحر .

3- لا زكاة في اللؤلؤ والمرجان لأنه من حلية النساء.

4- المقارنة بين الحي الخلاق العليم، وبين الأصنام الميتة المخلوقة لتقرير بطلان عبادة غير الله تعالى لأن من يَخْلُق ليس كمن لا يَخْلُق.

5- عجز الإنسان عن شكر نعم الله تعالى يتطلب منه أن يشكر ما يمكنه منها وكلمة (الحمد لله) تعد رأس الشكر والاعتراف بالعجز عن الشكر من الشكر، والشكر صرف النعم فيما من أجله أنعم الله تعالى بها.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25)

شرح الكلمات:

وهم يخلقون: أي يصورون من الحجارة وغيرها.

وما يشعرون أيان يبعثون : أي وما تشعر الأصنام ولا تعلم الوقت الذي تبعث فيه وهو يوم القيامة. ولا يبعث فيه عابدها من دون الله.

(3/107)

قلوبهم منكرة : أي جاحدة للوحدانية والنبوة والبعث والجزاء.

وهم مستكبرون : لظلمة قلوبهم بالكفر يتكبرون.

لا جرم : أي حقاً.

أساطير الأولين : أي أكاذيب الأولين.

ليحملوا أوزارهم : أي ذنوبهم يوم القيامة.

ألا ساء ما يزرعون : أي بنس ما يحملون من الأوزار.

معنى الآيات:

في هذا السياق مواجهة صريحة للمشركين بعد تقدم الأدلة على اشراكهم وضلالهم فقوله تعالى: {والذين يدعون من دُونِ اللَّهِ} أي تعبدونهم أيها المشركون {أموات غير أحياء} أي هم أموات إذ لا حياة لهم ودليل ذلك أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون، وقوله {وما يشعرون أيان يبعثون} أي لا يعلمون متى يبعثون كما أنكم أنتم أيها العابدون لهم لا تشعرون متى تبعثون. فكيف تصح

عبادتهم وهم أموات ولا يعلمون متى يبعثون للاستتطاق والاستجواب والجزاء على الكسب في هذه الحياة، وقوله {إلهمك إله واحد} هذه النتيجة العقلية التي لا ينكرها العقلاء وهي أن المعبود واحد لا شريك له، وهو الله جل جلاله، إذ هو الخالق الرزق المدبر المحي المميت ذو الصفات العلاء والأسماء الحسنى، وما عداه فلا يخلق ولا يرزق ولا يُدبّر ولا يحيى ولا يميت فتأليهه سفه وضلال، وبعد تقرير ألوهية الله تعالى وإثباتها بالمنطق السليم قال تعالى: {فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون} ذكر علة الكفر لدى الكافرين والفساد عند المفسدين وهي تكذيبهم بالبعث الآخر إذ لا يستقيم عبد على منهج الحق والخير وهو لا يؤمن باليوم الآخر يوم الجزاء على العمل في الحياة الدنيا، فأخبر تعالى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة لكل ما يسمعون من الحق الذي يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبه آيات القرآن الكريم، وهم مع إنكار قلوبهم لما يسمعون من الحق مستكبرون عن

1 قرأ عامة القراء {يدعون} بالتاء لأن ما قبله خطاب، وقرىء عن عاصم وحفص بالياء، وهي قراءة يعقوب أيضاً.

2 روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرؤون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار.

3 عبّر عنهم بصيغة من يعقل لأن المشركين يزعمون أنها تعقل عنهم وتشفع لهم عند الله تعالى، وتقربهم إلى الله زلفى.

(3/108)

قبول الحق والإذعان له. وقوله تعالى: {لا جرم} أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين} أي حقاً أن الله يعلم ما يسر أولئك المكذوبين بالآخرة وما يعلنون وسيحصى ذلك عليهم ويجزيهم به لا محالة في يوم كانوا به يكذبون.. ويا للحسرة ويا للندامة!! وهذا الجزاء كان بعذاب النار متسبب عن بغض الله للمستكبرين وعدم حبه لهم، وقوله تعالى: {وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين}3 يخبر تعالى عن أولئك المنكرة قلوبهم للوحي الإلهي وما جاء به رسول الله هؤلاء المستكبرون كانوا إذا سئلوا عن القرآن من قبل من يريد أن يعرف ممن سمع بالدعوة المحمدية فجاء من بلاد يتعرف عليها قالوا: {أساطير الأولين}4 أخبار كاذبة عن الأولين مسطره عند الناس فهو يحكيها ويقول بها، وبذلك يصرفون عن الإسلام ويصدون عن سبيل الله، قال تعالى: {ليحملوا أوزارهم} أي تبعه آثامهم وتبعه آثام من صدوهم عن سبيل الله كاملة غير منقوصة يوم القيامة، وهم لا يعلمون ذلك ولكن الحقيقة هي: أن من دعا إلى ضلالة كان عليه وزر من عمل بها من غير أن

ينقص من أوزار من عملها شيء، وكذا من دعا إلى 5 هدى فله أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجر العامل به شيء. وقوله تعالى: {ألا ساء ما يزرُونَ} أي فُبح الوزر الذي يزرونه فإنه قاندهم إلى النار موبقهم في نار جهنم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بطلان الشرك وتقرير التوحيد.
- 2- التكذيب باليوم الآخر والبعث والجزاء هو سبب كل شر وفساد يأتيه العبد.

1 {لا جرم}: كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً، يقال: فعلوا كذا وكذا فيجاب بكلمة لا جرم أنهم سيندمون.

2 أي: فهو لا يثيبهم ولا يثني عليهم خيراً، وفي الحديث الصحيح: "إن المستكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة يطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم". قالت العلماء: كل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر، وهو أصل العصيان كله.

3 قيل: إن الآية نزلت في النضر بن الحارث وهو القائل: أساطير الأولين. والآية تشملته وغيره ممن قال ويقول هذه الكلمات الكاذبة الباطلة.

4 الأساطير: الأباطيل، والترهات، و {أساطير الأولين}: خبر والمبتدأ الذي أنزله أي: الذي أنزله أساطير الأولين.

5 وفي الصحيح شاهد هذا فقد روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً".

(3/109)

3- التنديد بجريمة الاستكبار عن الحق والإذعان له.

4- بيان إثم وتبعة من يصد عن سبيل الله بصرف الناس عن الإسلام.

5- بيان تبعة من يدعو إلى ضلالة فإنه يتحمل وزر كل من عمل بها.

فَدَّ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَّنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلْمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ

(3/110)

أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33)
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34)

شرح الكلمات:

من قبلهم: أي من قبل كفار قريش بمكة كالنمرود وغيره.

فأتى الله بنيانهم : أي قصد إليه ليدمره فسلط عليه الريح والزلزلة فسقط من أسسه.

وخر عليهم السقف: أي سقط لتداعي القواعد وسقوطها.

كنتم تتشاقون فيهم: أي تخالفون المؤمنين فيهم بعبادتهم إياهم وجدالكم عنه، وتشاقون الله بمخالفتكم إياه بترك عبادته وعبادتهم إياها.

وقال الذين أوتوا العلم : أي الأنبياء والمؤمنون.

ظالمي أنفسهم: بالشرك والمعاصي.

فألقوا السلم: أي استسلموا وانقادوا.

فلبئس مَثْوَى المتكبرين: مَثْوَى المتكبرين: أي قبح منزل المتكبرين في جهنم مثلاً.

وقيل للذين اتقوا: أي اتقوا الشرك والمعاصي.

للذين أحسنوا: أي أعمالهم وأقوالهم ونياتهم فأتوا بها وفق مراد الله تعالى.

حسنة: أي الحياة الطيبة حياة العز والكرامة.

ولنعيم دار المتقين: أي الجنة دار السلام.

طيبين: أي الأرواح بما زكوها به من الإيمان والعمل الصالح. وبما أبعدها عنه من الشرك والمعاصي.

يقولون سلام عليكم: أي يقول لهم ملك الموت "عزرائيل" وأعوانه.

هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة: أي لقبض أرواحهم وعند ذلك يؤمنون.

أو يأتي أمر ربك: أي بالعذاب أو بقيام الساعة وحشرهم إلى الله عز وجل.

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون : أي نزل بهم العذاب وأحاط بهم وقد كانوا به يستهزئون.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم مع كفار قريش في تذكيرهم وتبصرهم بما هم فيه من الجهالة والضلالة. فيقول تعالى: {قد مكر الذين من قبلهم} أي من قبل مكر كفار قريش وذلك كالنمرود وفرعون وغيرهم من الجبابرة الذين تناولوا على الله عز وجل ومكروا برسلمهم، فالنمرود ألقى بإبراهيم في النار، وفرعون قال ذروني اقتل موسى وليدع ربه.. وقوله: {فأتى الله بنيانهم من القواعد} أي أتاه أمر الله بهدمه وإسقاطه على الظلمة الطغاة {فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون} [1]. وذهب باطلهم وزال مكرهم. ألم يتعظ بهذا كفر قريش وهم يمكرون بنبيهم وبيئتهم له السوء بالقتل أو النفي أو الحبس؟ وقوله تعالى: {ثم يوم القيامة يخزيهم} أي يهينهم ويدلهم ويوبخهم بقوله: {أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم} [2] أي أصنامكم وأوثانكم الذين كنتم تخالفوني بعبادتكم إياهم دوني كما تشاقون أوليائي المؤمنين أي تخالفونهم بذلك وتحاربونهم فيه. وهنا يقول الأَشْهَاد والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الرِّبَانِيِّينَ: {إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين} أي إن الذل والهون والدون على الكافرين. وقوله تعالى: {الذين تتوفاهم} الملائكة ظالمي أنفسهم {بالشرك والمعاصي ومن جملة المعاصي ترك الهجرة والبقاء بين ظهراي الكافرين والفساق المجرمين حيث لا يتمكن المؤمن من عبادة الله تعالى بترك المعاصي والقيام بالعبادات. وقوله {فألقوا السلم} أي عند معاينتهم ملك الموت وأعوانه أي استسلموا وانقادوا وحاولوا الاعتذار بالكذب وقالوا {ما كنا نعمل من سوء} فترد عليهم الملائكة قائلين: {بلى} أي كنتم تعملون السوء {إن الله عليم بما كنتم تعملون} ويقال لهم أيضاً {فادخلوا أبواب جهنم} أي أبواب طبقاتها {خالدين فيها فلبئس} جهنم {مثنوى} أي مقاماً ومنزلاً {للمتكبرين} عن عبادة الله وحده. وقوله تعالى: {وقيل للذين اتقوا} أي ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه في أمره ولا نهييه وأطاعوا رسوله كذلك: {ماذا أنزل ريكم} أي إذا سألهم من أتى مكة يتعرف على ما بلغه من

1 أي: من حيث ظنوا أنهم في أمان، وقال ابن عباس يعني البعوضة التي أهلك الله تعالى بها النمرود الكنعاني.

2 قرىء {تشاقون} بفتح النون وبكسرهما على الإضافة، كما قرأ شركائي ابن كثير: شركاي بفتح الياء وبدون همزة.

3 قيل: الآية نزلت في الذين تركوا الهجرة إلى المدينة وبقوا في مكة يزاولون أعمال الشرك خوفاً من المشركين، ومن بينهم الذين لمَّا رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى الشرك.

دعوة الإسلام فيقولون له: {خيراً} أي أنزل خيراً لأن القرآن خير وبالخير نزل بخلاف تلاميذ المشركين يقولون أساطير الأولين كما تقدم في هذا السياق.

كما ذكر تعالى جزاء الكافرين وما يلقونه من العذاب في نار جهنم وهم الذين أساءوا في هذه الحياة الدنيا إلى أنفسهم بشركهم بالله ومكرهم وظلمهم للمؤمنين، ذكر جزاء المحسنين. فقال: {للذين أحسنوا} أي آمنوا وعملوا الصالحات متبعين شرع الله في ذلك فأخلصوا عبادتهم لله تعالى ودعوا الناس إلى عبادة الله وحثوهم على ذلك فكانوا بذلك محسنين لأنفسهم ولغيرهم لهؤلاء الذين أحسنوا في الدنيا {حسنة} وهي الحياة الطيبة حياة الطهر والعزة والكرامة¹، ولدار الآخرة خيراً لهم من دار الدنيا مع ما فيها من حسنة وقوله تعالى: {ولنعيم دار المتقين} ثناء ومدح لتلك الدار الآخرة لما فيها من النعيم المقيم وإضافتها إلى المتقين باعتبار أنهم أهلها الجديرون بها إذ هي خاصة بهم ورثوها بإيمانهم وصالح أعمالهم بتركهم الشرك والمعاصي.

وقوله تعالى: {جنات} عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون} هو وصف وبيان لدار المتقين فأخبر أنها جنات جمع جنة وهي البستان المشتمل على الأشجار والأنهار والقصور وما لذ وطاب من المطاعم والمشارب والملابس والمناكب والمرائب وقوله تعالى: {لهم فيها ما يشاءون} هذا نهاية لإكرام والإنعام إذ كون العبد يجد كل ما يشتهي ويطلب هو نعيم لا مزيد عليه وقوله تعالى: {كذلك يجزي الله المتقين} أي كهذا الجزاء الحسن العظيم يجزي الله المتقين في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين}3 أي طاهري الأرواح لأرواحهم ریح طيبة ثمرة إيمانهم وصالح أعمالهم ونتيجة بعدهم عما يندس أنفسهم من أوضاع الشرك وعفن المعاصي.

وقوله: {يقولون} أي تقول لهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه {سلام عليكم}4 تحييتهم وفي ذلك بشارة لهم برضا ربهم وجواره الكريم. {ادخلوا الجنة} بأرواحهم اليوم

1 مع الفتح والنصر والغنائم أيضاً إذ الكل حسنة عظيمة.

2 {جنات عدن}: بدل من قوله: {دار المتقين}.

3 طيبين بإيمانهم وعملهم الصالح وبعدهم عن الشرك والمعاصي ووفاتهم أيضاً طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم بخلاف ما تقبض به أرواح أهل الكفر والشرك والفساد.

4 قال ابن المبارك: إذا استقنعت نفس العبد المؤمن "أي: اجتمعت في فيه تريد الخروج" جاءه ملك الموت فقال له: السلام عليك وليّ الله الله يقرأ عليك السلام، ثم قرأ هذه الآية: {الذين تتوفاهم

الملائكة} الخ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

(3/113)

وبأجسامهم غداً يوم القيامة. وقوله {بما كنتم تعملون} أي بسبب ما كنتم تعملونه من الطاعات والمسابقة في الخيرات بعد عمل قلوبكم بالإيمان واليقين والحب في الله والبغض فيه عز وجل والرغبة والتوكل عليه. هذا ما تضمنته الآيات (31، 32) وأما الآيات بعد ذلك فيقول الله مستبطناً إيمان قريش وتوبتهم بعد تلك الحجج والبراهين والدلائل والبيانات على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى وجوب التوحيد وبطالان الشرك وعلى الإيمان باليوم الآخر. {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة} أي ما ينظرون بعد هذا إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم {أو يأتي أمر ربك} بإبادتهم واستئصالهم، إذ لم يبق ما ينتظرونه إلا أحد هذين الأمرين وكلاهما مر وشر لهم. وقوله تعالى: {كذلك فعل الذين من قبلهم} من كفار الأمم السابقة فحلت بهم نقمة الله ونزل بهم عذابه فأهلكهم. {وما ظلمهم الله} تعالى في ذلك أبداً {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} بإصرارهم على الشرك والعناد والمجاددة والمكابرة {فأصابهم سيئات} أي جزاء سيئات {ما عملوا} من الكفر والظلم {وحاق بهم} أي نزل بهم وأحاط بهم {ما كانوا به يستهزئون} إذ كانت رسلم إذا خوفتهم من عذاب الله سخروا منهم واستهزأوا بالعذاب واستخفوا به حتى نزل بهم والعياذ بالله تعالى. من هداية الآيات:

- 1- سوء عاقبه المكر وأنه يحيق بأهله لا محالة والمراد به المكر السيء.
- 2- بيان خزي الله تعالى يوم القيامة لأهل الشرك به والمعاصي له ورسوله.
- 3- فضل أهل العلم إذ يتخذ منهم شهداء يوم القيامة ويشمتون بأهل النار.
- 4- بان استسلام الظلمة عند الموت وانهمامهم وكذبهم.
- 5- تقرير معتقد البعث والحياة الآخرة بأروع أسلوب وأحكمه وأمتته.
- آ- إطلاق لفظ خير على القرآن وهو حق خير فالذي أوتي القرآن أوتي الخير كله، فلا ينبغي أن يرى أحداً من أهل الدنيا خيراً منه وإلا سخط نعمة الله تعالى عليه.
- 7- سعادة الدارين لأهل الإحسان وهم أهل الإيمان والإسلام والإحسان في إيمانهم بالإخلاص وفي إسلامهم بمواقفه الشرع ومراقبة الله تعالى في ذلك.

(3/114)

8- بشرى أهل الإيمان والتقوى عند الموت، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

9- إعمال القلوب والجوارح سبب في دخول الجنة وليست ثمناً لها لغلائها، وإنما الأعمال تزكي النفس وتطهر الروح وبذلك يتأهل العبد لدخول الجنة.

10- ما ينتظر المحرمون بإصرارهم على الظلم والشر والفساد إلا العذاب، عاجلاً أو آجلاً فهو نازل بهم حتماً مقضياً إن لم يبادروا إلى التوبة الصادقة.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (36) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

(3/115)

شرح الكلمات:

وقال الذين أشركوا : هم كفار قريش ومشركوها.

ولا حرماناً من دونه من شيء: كالسوائب والبجائر والوصائل والحامات.

فهل على الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ: أي ما على الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ فالاستفهام للنفي.

واجتنبوا الطَّاغُوتَ : أي عبادة الأصنام والأوثان.

حققت عليه الضلالة: أي وجبت في علم الله أزلاً.

جهد أيمانهم: أي غايتها حيث بذلوا جهدهم فيها مبالغة منهم.

بلى وعداً عليه حقاً: أي بلى يبعث من يموت وقد وعد به وعداً وأحقه حقاً. فهو كائن لا محالة.

يختلفون فيه : أي بين المؤمنين من التوحيد والشرك.

انهم كانوا كاذبين : أي في قولهم "لا نبعث بعد الموت".

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحجاج مع مشركي قريش فيقول تعالى مُخْبِرًا عنهم {وقال الذين أشركوا} أي مع الله آلهةً أخرى وهي أصنامهم كهبل واللات والعزى وقالوا لو شاء الله عدم إشراكنا به ما أشركنا نحن ولا آبائنا، ولا حرماناً من دون تحريمه شيئاً فهل قالوا هذا إيماناً بمشيئة الله تعالى، أو قالوه استهزاء

وسخرية دفاعاً عن شركهم وشرعهم الباطل في التحريم والتحليل بالهوى، والأمران محتملان. والرد عليهم بأمرين أولهما ما دام الله قد نهاهم عن الشرك والتشريع فإن ذلك أكبر دليل على تحريمه تعالى لشركهم ومحرماتهم من السوائب والبائس وغيرها وثانيهما كونه لم يعذبهم عليها بعد ليس دليلاً على رضاه بها بدليل أن من سبقهم من الأمم والشعوب الكافرة قالوا قولتهم هذه محتجين به على باطلهم فلم يلبثوا حتى أخذهم الله، فدل ذلك قطعاً على عدم رضاه بشركهم وشرعهم إذ قال تعالى في سورة الأنعام رداً على هذه الشبهة كذلك قال الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا أي عذاب انتقامنا منهم لما كذبوا رسلنا وافتروا علينا. وقوله تعالى: {كذلك فعل الذين 1}

1 الإشارة بذلك إلى الإشراك وتحريمهم أشياء من تلقاء أنفسهم أي: كفعل هؤلاء فعل الذين من قبلهم ممن مكروا برسولهم وأهلكم الله جل جلاله.

(3/116)

من قبلهم} من الأمم السابقة قالوا قول هؤلاء لرسولهم وفعلوا فعلهم حتى أخذهم الله بالعذاب. وقوله {فهل 1 على الرسل 2 إلا البلاغ المبين} أي ليس على الرسول إكراه المشركين على ترك الشرك ولا إلزامهم بالشرع وإنما عليه أن يبلغهم أمر الله تعالى ونهيه لا غير.. فلذا كان في الجملة تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمله على الصبر حتى يبلغ دعوة ربه وينصره على أعدائه. هذا ما دلت عليه الآية الأولى في هذا السياق (35) وقوله في الآية الثانية (36) {ولقد بعثنا 3 في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} فأخبر تعالى بأنه ما أخلق أمة من الأمم من إرسال رسول إليها لهدايتها وبيان سبيل نجاتها وتحذيرها من طرق غوايتها وهلاكها. كما أخبر عن وحدة الدعوة بين الرسل وهي لا إله إلا الله المفسره بعبادة الله تعالى وحده، واجتناب الطاغوت وهو كل ما عبد من دون الله مما دعا الشيطان إلى عبادته بالتزيين والتحسين عن طريق الوسواس من جهة ومن طريق أوليائه من 4 الناس من جهة أخرى.

وقوله تعالى: {فمنهم} أي من الأمم المرسل إليهم {من هدى الله} فعرف الحق واعتقده وعمل به فنجوا وسعد، {ومنهم من حقت عليه الضلالة 5} أزلماً في كتاب المقادير لأنه أصر على الضلال وجادل عنه وحارب من أجله باختياره وحرسته فحرمه الله لذلك التوفيق فضلاً ضلالاً لا أمل في هدايته. وقوله تعالى: {فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} أمرٌ لكفار قريش المجادلين بالباطل المحتجين على شركهم وشرعهم الباطل أمرٌ لهم أن يسيروا في الأرض جنوباً أو شمالاً فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين أمثالهم من أمة عاد في الجنوب وثمود في الشمال، ومدين ولوط وفرعون في الغرب. وقوله تعالى في تسليية رسوله والتخفيف من الهمم عنه: {إن تحرص} يا رسولنا

- 1 الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذا جاء الإسلام بعده أي: ما على الرسل إلا البلاغ، أي: ليس عليهم هداية الخلق إذ لا يملكون ذلك ولم يكلفوا به وإنما كلفوا بالبلاغ والبيان.
- 2 في الآية: {فهل على الرسل...} تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتعليم وفيها أيضاً التحريض بإبلاغ المشركين.
- 3 هذا الكلام معطوف على قوله: {كذلك فعل الذين من قبلهم} متضمن بياناً لسنة الله تعالى في إرسال الرسل لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونصر المؤمنين، وهلاك الكافرين المكذبين.
- 4 أولياء الشيطان: هم الكهان ودعاة الضلال الذين يصدّون عن سبيل الله بتزيين الباطل وتحسين الشرك والخرافة.
- 5 في هذا ردّ على القدرية نفاة القدر إذ معنى: {حققت}: وجبت له أزلاً في كتاب المقادير.

(3/117)

{على هداهم} أي هدايتهم إلى الحق {فإن الله لا يهدي من يضل} 1 فخفف على نفسك وهون عليها فلا تأسف ولا تحزن وادع إلى ربك في غير حرص يضر بك وقوله {لا يهدي من يضل} أي لا يقدر أحد أن يهدي من أضله الله، لأن اضلال الله تعالى يكون على سنن خاصة لا تقبل التبديل ولا التغيير لقوة سلطانه وسعة عمله. وقوله {وما لهم من ناصرين} أي وليس لأولئك الضلال الذين أضلهم الله حسب سنته من ناصرين ينصرونهم على ما سينزل بهم من العذاب وما سيحل بهم من خسرانٍ وحرمان. وقوله تعالى في الآية (38) {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت} اخبار عن قول المشركين والمكذبين باليوم الآخر أصحاب القلوب المنكرة، ومعنى {أقسموا بالله جهد أيمانهم} 3 أي حلفوا أشد الإيمان إذ كانوا في الأمور التافهة يحلفون بألتهم وأبائهم. وإذا كان الأمر ذا خطر وشأن أقسموا بالله وبالغوا في الإقسام حتى يبلغوا جهد أيمانهم والمحلوف عليه هو أنهم إذا ماتوا لا يبعثون أحياء فيحاسبون ويجزون فرد الله تعالى عليهم بقوله {بلى} أي تبعثون وعد الله حقاً فلا بد ناجز {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} 4 فلذا ينفون البعث وينكرونه لجهلهم بأسرار الكون والحياة وعلل الوجود والعمل فيه فلذا أشار الله تعالى إلى بعض تلك العلل في قوله: {ليبين لهم الذي يختلفون فيه} فلولا البعث الآخر ما عرف الموحق من المبطل في هذه الحياة والخلاف سائد ودائم بين الناس. هذا أولاً. وثانياً: {وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين} 5 في اعتقاداتهم وأعمالهم ونفيهم الحياة الثانية للجزاء على العمل في دار العمل هذه أما استبعادهم البعث بعد الموت نظراً إلى وسائلهم ووسائطهم الخاصة بهم فقد أخبرهم تعالى بأن الأمر ليس كما تقدرون أنتم وتفكرون: إنه مجرد ما تتعلق إرادتنا بشيء نريد أن يكون، نقول له كن

1 قرىء في السبع {يهدي} بضم الياء مبنياً للمجهول وقرىء: {يهدي} بفتح الياء مبنياً للمعلوم وقرءة لا يهدي هي التي فسر بها في التفسير. وقرءة يهدي، أي: أن الله إذا كتب على عبد شقاء لا يهديه للخلاص منه.

2 روي أن رجلاً من المسلمين كان له دين على مشرك فقاضاه منه وقال في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت، أنه لكذا وكذا فأقسم المشرك بالله: لا يبعث الله من يموت، فنزلت الآية.

3 ذكر القرطبي عن قتادة أن رجلاً قال لابن عباس: إن ناسا يزعمون أن علياً مبعوث بعد الموت قبل الساعة يتأولون هذه الآية فقال ابن عباس: كذب أولئك إنما هذه الآية عامة للناس فلو كان علي مبعوثاً قبل يوم القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه.

4 روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله تعالى كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك".

5 أي: في نفيهم البعث وإقسامهم على عدم وقوعه، وفي إنكارهم التوحيد والنبوة أيضاً.

(3/118)

فيكون فوراً، والبعث الآخر من ذلك. هذا ما دل عليه قوله في الآية (40) {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون}1 ولا يقولن قائل كيف يخاطب غير الموجود فيأمره ليجد فإن الله تعالى إذا أراد شيئاً علمه أولاً ثم قال له كن فهو يكون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- الرد على شبهة المشركين في احتجاجهم بالمشيئة الإلهية.

2- تفسير لا إله إلا الله.

3- التحذير من تعمد الضلال وطلبه والحرص عليه فإن من طلب ذلك وأضله الله لا ترجى هدايته.

4- بيان بعض الحكم في البعث الآخر.

5- لا يستعظم على الله خلق شيء وإيجاده، لأنه يوجد بكلمة التكوين فقط.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَلْجُزُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

شرح الكلمات:

والذين هاجروا في الله : أي خرجوا من مكة في سبيل الله نصرتهً لدينه وإقامته بين الناس.

1 قال أهل العلم في الآية دليل على عدم خلق القرآن إذ لو كان مخلوقاً لكان قوله: {كن} مخلوقاً، ولا يحتاج إلى قول ثانٍ، والثاني يحتاج إلى ثالث وتسلسل وهذا محال وفيها دليل على أن الله يريد لجميع الحوادث خيراً وشرها نافعها وضارها، والدليل أن من رأى في سلطانه ما يكرهه ولا يريد فلاحاً شيين إما لكونه جاهلاً لا يدري وإما لكونه مغلوباً لا يطيق وهذا محال في حقه سبحانه وتعالى وبذلك تأكد أن الله يريد لكل ما يجري من أحداث في الملكوت وحكمته لا يخلو منها شيء.

(3/119)

لنبوتهم في الدنيا حسنة: أي لننزلهم داراً حسنة هي المدينة النبوية هذا بالنسبة لمن نزلت فيهم الآية.

الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون : أي على أذى المشركين وهاجروا متوكلين على ربهم في دار هجرتهم.

فاسألوا أهل الذكر: أي أيها الشاكون فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فاسألوا أهل التوراة والإنجيل لإزالة شككم ووقوفكم على الحقيقة وأن ما جاء به محمد حق وأن الرسل قبله كلهم كانوا بشراً مثله.

بالبينات والزرير: أي أرسلناهم بشراً بالبينات والزرير 1 لهداية الناس.

وأنزلنا إليك الذكر : أي القرآن.

لتبين للناس ما نزل إليهم: علة لإنزال الذكر إذ وظيفة الرسل، البيان.

معنى الآيات:

إنه بعد اشتداد الأذى على المؤمنين لعناد المشركين وطغيانهم، أذن الله تعالى على لسان رسوله للمؤمنين بالهجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة فهاجر رجال ونساء فذكر تعالى ثناء عليهم وتشجيعاً على الهجرة من دار الكفر فقال عز وجل {والذين هاجروا 2 في الله} أي في ذات الله ومن أجل عبادة الله ونصرة دينه {من بعد ما ظلموا} أي من قبل المشركين {لنبوتهم} أي لننزلهم ولنسكنهم {في الدنيا حسنة} وهي المدينة النبوية ولنرزقهم فيها رزقاً حسناً هذا بالنسبة لمن نزلت 3 فيهم الآية، وإلا فكل من هاجر في الله ينجز له الرب هذا الوعد كما قال تعالى: {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة} أي في العيش والرزق {ولأجر الآخرة} المعد لمن هاجر في سبيل

1 {الزير}: الكتب.

2 أي: تركوا الوطن، والأهل، والقراية كما تركوا السيئات. ومعنى: في الله أي: لأجل الله إذ بدار الكفر لا يتمكنون من عبادة الله تعالى فإذا هاجروا تمكنوا فكانت هجرتهم إذا لله أي لعبادته التي خلقهم من أجلها.

3 قيل: نزلت الآية في صهيب وبلال وعمار، وخبّاب إذ عذبهم المشركون أشد العذاب حتى هاجروا، ويدخل في هذا أيضاً أبو جنبل وغيره.

(3/120)

الله {أكبر لو كانوا يعلمون}1. هذا ترغيب في الهجرة وتشجيع للمتباطئين على الهجرة وقوله: {الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون} 2 بيان لحالهم وثناء عليهم بخير لأنهم صبروا أولاً على الأذى في مكة ثم لما أذن لهم بالهجرة هاجروا متوكلين على الله تعالى مفوضين أمورهم إليه، واثقين في وعده. هذا ما دلت عليه الآيتان (41)، (42). وأما الآية الثالثة (43) والرابعة من هذا السياق فهما تقرير حقيقة علمية بعد إبطال شبهة المشركين القائلين كيف يرسل الله محمداً رسولاً وهو بشر مثلنا لم لا يرسل ملكاً.. وهو ما أخبر الله تعالى في قوله {وما أرسلنا من قبلك} أي من الرسل {إلا رجالاً} لا ملائكة {نوحى إليهم} بأمرنا وقوله: {فاسألوا} أيها المشركون المنكرون أن يكون الرسول بشراً، اسألوا أهل الذكر وهو الكتاب 3 الأول أي أسألوا علماء أهل الكتاب اليهود والنصارى هل كان الله تعالى يرسل الرسل من غير البشر {إن كنتم لا تعلمون} فإنهم يخبرونكم وما موسى ولا عيسى إلا بشر، وقوله: {بالبينات والزير} أي أرسلنا أولئك الرسل من البشر بالبينات أي الحجج والدلائل الدالة على وجوب عبادتنا وترك عبادة من سوانا. والزير أي الكتب. ثم يقول تعالى لرسوله: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} وفي هذا تقرير لنبوته وقوله: {ولعلمهم يتفكرون} فيعرفون صدق ما جئتكم به فيؤمنوا. ويتوبوا إلى ربهم فينجوا ويسعدوا.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- فضل الهجرة ووجوبها عند اضطهاد المؤمن وعدم تمكنه من عبادة الله تعالى.

2- وجوب سؤال أهل العلم على كل من لا يعلم أمور دينه من عقيدة وعبادة وحكم.

3- السنة لا غنى عنها لأنها المبينة لمجمل القرآن والموضحة لمعانيه.

1 هذا صالح لكل من المؤمنين ومعذبيهم، غير أنه في المؤمنين أظهر إذ كان عمر رضي الله عنه إذا أعطى المهاجرين العطاء قال: هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادخر لكم في الآخرة أكثر ثم يتلو

هذه الآية: {ولأجر الآخرة خير لو كانوا يعلمون}.

2 قال العلماء: خيارُ المؤمنين من إذا نابه أمر صبر وإذا عجز عن أمر توكل وهو المراد من قوله تعالى: {الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون}.

3 يدخل في أهل الذكر أهل القرآن، وهم علماء هذه الأمة، وبهذا أمر الله تعالى غير العالمين أن يسألوا أهل العلم، وأمر العالمين أن يعلموا ويبينوا ومن كتم منهم عُدب.

(3/121)

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45)
أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوْ
لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيًا ضَلَالَةٌ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ
يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ
فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)

شرح الكلمات:

مكروا السيئات: أي مكروا المكرات السيئات فالسيئات وصف للمكرات التي مكروها.

في تقليبهم: أي في البلاد مسافرين للتجارة وغيرها.

على تخوف: أي تنقص.

ينفياً ضلاله: أي تتميل من جهة إلى جهة.

سجداً لله: أي خضعاً لله كما أراد منهم.

داخرون: أي صاغرون ذليلون.

من فوقهم: من أعلى منهم إذ هو تعالى فوق كل شيء ذاتاً وسلطاناً وقهراً.

ها يؤمرون: أي ما يأمرهم ربهم تعالى به.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تخويف المشركين وتذكيرهم لعلمهم يرجعون بالتوبة من الشرك والجحود للنبوة

والبعث والجزاء. قال تعالى: {أفأمن الذين مكروا}1 المكرات

1 هذا وعيد للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام.

(3/122)

{السيئات} من محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم والشرك والتكذيب بالنبوة والبعث وظلم المؤمنين وتعذيب بعضهم، أفأمنوا {أن يخسف الله بهم الأرض} من تحتهم فيقرون في أعمالها، {أو يأتبهم العذاب من حيث لا يشعرون}1 ولا يتوقعون من ريح عاصف تعصف بهم أو وباء يشملهم أو قحط يذهب بما لهم. وقوله تعالى: {أو يأخذهم في تقلبهم} أي في تجارتهم وأسفارهم ذاهبين آيين من بلدٍ إلى بلد. {فما هم بمعجزين} 2 له تعالى لو أراد أخذهم وإهلاكهم. وقوله تعالى: {أو يأخذهم على تخوف} أي 3 تنقص 4 بأن يهلكهم واحداً بعد واحد أو جماعة بعد جماعة حتى لا يبقى منهم أحداً، وقد أخذ منهم ببدنٍ من أخذ وفي أحد. وقوله تعالى: {فإن ركم لرؤوف رحيم} تذكير لهم برأفته ورحمته إذ لو لا هما لأنزل بهم نعمته وأذاقهم عذابه بدون إنظار لتوبةٍ أو إمهال لرجوع إلى الحق، وقوله تعالى: {أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء} 5 من شجرٍ وجبلٍ وإنسانٍ وحيوانٍ {يتقيوا ظلاله} بالصباح والمساء {عن اليمين والشمال} " جمع شمال " {سجداً لله} خضعاً بظلالهم {وهم داخرون} 6 أي صاغرون ذليلون. أما يكفيهم ذلك دلالة على خضوعهم لله وذلتهم بين يديه، فيؤمنوا به ويعبدونه ويوحده فينجوا من عذابه ويفوزوا برحمته. وقوله تعالى: {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة} أي والله لا لغيره يسجد بمعنى يخضع وينقاد لما يريد الله تعالى من إحياء أو إماتة أو صحة أو مرض أو خير أو غيره من دابةٍ أي من كل ما يدب من كائن على هذه الأرض {والملائكة} 7

1 وقد تمّ لهم وذاقوا مُرّاً يوم بدر بقتل صناديدهم وأسراهم.

2 أي: بسابقين الله ولا فائتيه.

3 التخوف: مصدر لفاعل تخوّف إذا حاف، ومصدر لتخوّف المتعدي الذي بمعنى تنقص، وهو لغة هذيل، فلأية معنيان. الأول: أن يكون المعنى: يأخذهم العذاب وهم في حالة توقع بنزول العذاب لوجود أماراته كالرعد والبرق مثلاً. والثاني: أن يكون المعنى بأن يأخذهم وهم في حالة تنقص بأن يأخذ القرية فتخاف القرية الأخرى وهو واضح المعنى في التفسير.

4 ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير التخوّف: بأن يعاقب أو يتجاوز، ويشهد له الجملة التعليلية وهي {فإن ركم لرؤوف رحيم} فهو لا يعاجل بالعقوبة.

5 أي: من أي جسم قائم له ظل كشجرة أو جبل ومعنى تقيء الظلال: ميلانه من جانب إلى جانب ومنه سمي الظل بالعشي فيء: لأنه فاء من المشرق إلى المغرب أي. رجع، والفيء: الغنائم التي ترجع إلى المسلمين من الكافرين لأنهم أحق بها فرجعت إليهم.

6 أي: خاضعون، والدخور: الصغار والذل يقال: دخر الرجل فهو داخر وأدخره الله. قال ذو الرمة:
فلم يبق إلا داخر في مخيس

ومنجر في غير أرضك في حجر

والشاهد في قوله داخر أي خاضع ذليل والمخيس بناء من مدر يسجن فيه

7 قيل: المراد بالملائكة: ملائكة الأرض، وخضعهم بالذكر وهم داخلون في عموم ما في السموات وما في الأرض لشرف منزلتهم عند ربهم جلّ جلاله، والملائكة يطرون ولا يدبون، فلذا أخرجوا أيضاً بالذكر.

(3/123)

على شرفهم يسجدون {وهم لا يستكبرون} عن عبادة ربهم {ويخافون ربهم من فوقهم} إذ هو العلي الأعلى وكل الخلق تحته. {ويفعلون ما يؤمرون} فلا يعصون ربهم ما أمرهم. إذا كان هذا حال الملائكة فما بال هؤلاء المشركين يلجون في الفساد والاستكبار والجحود والمكابرة وهم أحقر سائر المخلوقات، وشر البريات إن بقوا على كفرهم وشركهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة الأمن من مكر الله.
 - 2- كل شيء ساجد لله، أي خاضع لما يريد منكم، إلا أن السجود الطوعي الاختياري هو الذي يثاب عليه العبد، أما الطاعة اللا إرادية فلا ثواب فيها ولا عقاب.
 - 3- فضل السجود الطوعي الاختياري.
 - 4- مشروعية السجود عند هذه الآية: إذا قرأ القارئ أو المستمع: {ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون}، عليه أن يسجد إن كان متطهراً إلى القبلة إن أمكن ويسبح في السجود ويكبر في الخفض والرفع ولا يسلم، ولا يسجد عند طلوع الشمس ولا عند غروبها.
- وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلِهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ قَالَئِهِ نَبِّئُوا (53) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ

1 جائز أن يكون سكان شرق الجزيرة من العرب قد انتقلت إليهم عقيدة المجوس المبنية على إله الخير وهو يزدان وإله الشر الذي هو أهرمن وذلك لمجاورتهم لحكومة المجوس الممتدة إلى العراق، ويكون النهي في الآية موجهاً إليهم.

(3/124)

لَمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسَأَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْتَرُونَ (56)

شرح الكلمات:

لا تتخذوا إلهين: أي تعبدونها إذ ليس لكم إلا إله واحد.

وله ما في السموات والأرض: أي خلقاً وملكاً، إذ ما تعبدونه مع الله هو الله ولم يأذن بعبادته.

وله الدين واصباً: أي خالصاً دائماً واجباً.

فإليه تجأرون: أي ترفعون أصواتكم بدعائه طالبين الشفاء منه.

فتمتعوا فسوف تعلمون: تهديداً على كفرهم وشركهم ونسيانهم دعاء الله تعالى.

ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً: أي يجعلون لآلهتهم نصيباً من الحرث والأنعام.

عما كنتم تفترون: أي تخلقون بالكذب وتفترون على الله عز وجل.

معنى الآيات:

بعد إقامة الحجج على التوحيد وبطلان الشرك أخبرهم أن الله ربهم رب كل شيء قد قال لهم: أيها الناس {لا تتخذوا إلهين اثنين} فلفظ اثنين توكيد للفظ إلهين أي لا تعبدوا إلهين بل اعبدوا إلهاً واحداً وهو الله إذ ليس من إله إلا هو فكيف تتخذون إلهين والحال انه {إله واحد} لا غير وهو الله الخالق الرازق المالك، ومن عداه من مخلوقاته كيف سُوءى به وتُعبَد معه؟ وقوله تعالى: {فإياي فارهبون} أي ارهبوني وحدي ولا ترهبوا سواي إن بيدي كل شيء، وليس لغيري شيء فأنا المحيي المميت، الضار النافع، يوبخهم على رهبتهم غيره سبحانه وتعالى من لا يستحق أن يُرهب لعجزه وعدم قدرته على أن ينفع أو يضر. وقوله تعالى: {وله ما في السموات والأرض} 2 برهان على بطلان رهبة غيره أو

1 الرهبة: الخوف، فمعنى {فارهبون}: خافوني ولا تخافوا سواي، وتقديم المفعول: {فإياي} مؤذن بحصر الرهبة في الله تعالى ونفيها عن سواه.

2 في الآية تقرير وحدانية الله تعالى إذ ما في السموات له، وما في الأرض له فهو إذ إله واحد وبطل التعدد الذي يراه المجوس.

(3/125)

الرغبة في سواه ما دام له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً. وقوله {وله الدين واصباً} 1 أي العبادة والطاعة دائماً ثابتاً واجباً، ألا لله الدين الخالص. وقوله تعالى: {أفغير الله تتقون} يوبخهم على خوف سواه وهو الذي يجب أن يرهب ويخاف لأنه الملك الحق القادر على إعطاء النعم وسلبها، فكيف يُتقى من لا يملك ضراً ولا نفعاً ويُعصى من بيده كل شيء وإليه مرد كل شيء، وما

شاءه كان وما لم يشأه لم يكن. وقوله: {وما بكم من نعمة فمن الله}2 يخبرهم تعالى بالواقع الذي يتكرونها له فيخبرهم أنه ما بهم من نعمة جلت أو صغرت من صحة أو مالٍ أو ولد فهي من الله تعالى خالقهم وواهبهم حياتهم، وليست من أحدٍ غيره، ودلل على ذلك شعورهم الفطري وهو أنهم إذا مسهم الضر من فقرٍ أو مرضٍ أو تغير حالٍ كخوف غرقٍ في البحر فإنهم يرفعون أصواتهم إلى أعلاها مستغيثين بالله سائلينه أن يكشف ضرهم أو ينجيهم من هلكتهم المتوقعة لهم فقال عز وجل: {ثم إذا مسكم الضر فإليه} دون غيره {تجأرون} برفع أصواتكم بالدعاء والاستغاثة به سبحانه وتعالى وقوله. {ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريقٌ كبير} {منكم بربهم يشركون} فيعبدون غيره بأنواع العبادات متناسين الله الذي كشف ضرهم وأنجاهم من هلكتهم.

وقوله: {ليكفروا بما آتيناكم}3 أي ليؤول أمرهم إلى كفران ونسيان ما آتاهم الله من نعمٍ وما أنجاهم من محن. أفهكذا يكون الجزاء؟ أينعم بكل أنواع النعم وينجي من كل كرب ثم ينسى له ذلك كله، ويعبد غيره؟ بل ويحارب دينه ورسوله؟ إذا {فتمتعوا}4 أيها الكافرون {فسوف تعلمون} عاقبة كفركم وإعراضكم عن طاعة الله وذكره وشكره. وقوله تعالى: {ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم} وهذا ذكرٌ لعيب آخر من عيوبهم وباطلٍ من باطلهم أنهم يجعلون لأوثانهم التي لا يعلمون عنها شيئاً من نفعٍ أو ضرٍ أو اعطاءٍ أو منعٍ أو إماتةٍ أو إحياءٍ يجعلونها لها طاعةً للشيطان نصيباً وحظاً من أموالهم

- 1 لفظ الدين هنا: صالح لأن يكون الطاعة يقال: دان فلان للملك: أطاعه وصالح لأن يكون الجزاء وقوله: {مالك يوم الدين} وصالح لأن يكون الديانة والكل لله. لا شريك له، فالطاعة واجبة له والجزاء هو الذي يملكه والديانة هو شارعها فهي له دون سواه.
- 2 فيه إشارة إلى بطلان إله الخير الذي يدين له المجوس الذين يقولون الخير من إله الخير، والشر من إله الشر.
- 3 وجائز أن تكون اللام: لام كي التعليلية.
- 4 الأمر للتهديد.

(3/126)

يتقربون به إليها فسيبوا لها السوائب، وبحروا لها البحائر من الأنعام، وجعلوا لها من الحرث والغرس كذلك كما جاء ذلك في سورة الأنعام والمائدة قبلها: وقوله تعالى: {تالله لتسئلن إنا عما كنتم تفترون} أقسم الجبار لهم تهديداً لهم وتوعداً أنهم سيسألون يوم القيامة عما كانوا يفترون أي من هذا التشريع الباطل حيث يحرمون ويحطلون ويعطون آلهتهم ما شاءوا وسوف يوبخهم عليه ويجزيهم به جهنم

ويؤس المهاد.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- تقرير التوحيد بعبادة الله تعالى وحده. 2- وجوب الرهبة من الله دون سواه.
 - 3- وجوب الدين لله إذ هو الإله الحق دون غيره.
 - 4- كل نعمة بالعبد صغرت أو كبرت فهي من الله سبحانه وتعالى.
 - 5- تهديد المشركين إن أصروا على شركهم وعدم توبتهم.
 - 6- التنديد بالمشركين وتشريعهم الباطل بالتحليل والتحريم والإعطاء والمنع.
- وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ

1 هذا سؤال توبيخ ويتم في عرصات القيامة أو في النار.

(3/127)

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (62)

شرح الكلمات:

ويجعلون لله البنات : إذ قالوا الملائكة بنات الله.

ولهم ما يشتهون: أي الذكور من الأولاد.

ظل وجهه مسوداً: أي متغيراً بالسواد لما عليه من كرب.

وهو كظيم: أي ممتلىء بالغم.

أم يدسه في التراب : أي يدفن تلك المولودة حية وهو الواد.

مثل السوء : أي الصفة القبيحة.

ولله المثل الأعلى: أي الصفة العليا وهي لا إله إلا الله.

أن لهم الحسنى : أي الجنة إذ قال بعضهم ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى.

وأنهم مفرطون: أي مقدمون إلى جهنم متروكون فيها.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان أخطاء المشركين في اعتقاداتهم وسلوكهم فقال تعالى: {ويجعلون 1 الله البنات- سبحانه- ولهم ما يشتهون2} وهذا من سوء أقوالهم وأقبح اعتقادهم حيث ينسبون إلى الله تعالى البنات، إذ قالوا الملائكة بنات الله في الوقت الذي يكرهون نسبة البنات إليهم، حتى إذا بشر أحدهم بأنثى بأن أخبر بأنه ولدت له بنت ظل نهاره كاملاً في غم وكره {وجهه مسوداً وهو كظيم}3 ممثليء بالغم والهم. {يتوارى} أي يستتر ويختفي عن أعين الناس خوفاً من المعرفة، وذلك {من سوء ما بشر به} وهو البنت وهو في ذلك بين أمرين إزاء هذا المبشّر به: إما أن يمسه. أن يبقيه في بيته بين

1 هذه الآية نزلت في خزاعة وكنانة إذ زعموا أنّ الملائكة بنات الله، وكانوا يقولون: ألحقوا البنات بالبنات.

2 (ما) موصولة، وهو وصلته مبتدأ في محل رفع، والخبر متعلق الجار والمجرور أي: ثابت لهم.
3 الكظيم: مشتق من الكظامه وهو شدّ فم القرية، إذا الكظيم هو المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغمّ.

(3/128)

أولاده {على هون} أي مذلة وهوان، وإما أن {يدسه في التراب}1 أي يدفنه حياً وهو الواد المعروف عندهم. قال تعالى مندداً بهذا الإجماع: {ألا ساء ما يحكمون} في حكمهم هذا من جهة نسبة البنات لله وتبرئهم منها، ومن جهة وأد البنات2 أو إذلالهن، قبح حكمهم الجاهلي هذا من حكم. هذا ما دللت عليه الآية الأولى (57) وهي قوله: {ويجعلون لله البنات} حيث قالوا الملائكة بنات الله {سبحانه} أي نزه تعالى نفسه عن الولد والصاحبة فلا ينبغي أن يكون له ولد ذكراً كان أو أنثى لأنه رب كل شيء ومليكه فما الحاجة إلى الولد إذا؟ والآية الثانية (58) وهي قوله تعالى: {وإذا بشر أحدهم بالأنثى}3 ظل وجهه مسوداً} أي أقام النهار كله مسود الوجه من الغم {وهو كظيم} أي ممثليء بالغم والهم، {يتوارى من القوم من سوء ما بشر به} أي من البنت {أيمسه على هون} أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون} وقوله تعالى: {للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء} يخبر تعالى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم منكروا البعث الآخر لهم المثل السوء4 أي الصفة السوء وذلك لجهلهم وظلمة نفوسهم لأنهم لا يعملون خيراً ولا يتركون شراً، لعدم إيمانهم بالحساب والجزاء فهؤلاء لهم الصفة السوأى في كل شيء، {ولله المثل 5 الأعلى} أي الصفة الحسنى وهو أنه لا إله إلا الله منزّه عن النقائص رب كل شيء ومالكة، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا شريك له ولا ند له ولا ولد وقوله: {وهو العزيز الحكيم} ثناء على نفسه بأعظم وصف العزة والقهر والغلبة لكل شيء والحكمة العليا في تدبيره

وتصرفه شؤون عبادته، وحكمه وقضائه لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله تعالى في الآية (61)
﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليهما﴾ أي على الأرض

1 دسّها: إخفاؤها في التراب عن الناس حتى لا تعرف، وفي الحديث: "من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار يوم القيامة".

2 كانت مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدّهم في هذا تميم زعموا خوف القهر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن وكان صعصع بن ناجية عمّ الفرزدق إذا أحسّ بشيء من ذلك وجّه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك، قال الفرزدق يفتخر:

وعمّي الذي منع الوائدات

فأحیی الوئيد فلم يوأد

3 تكرر شرح هذه الآية في التفسير سهواً وهو غير ضار.

4 أي: صفة السوء من الجهل والكفر.

5 إن قيل: كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه عزّ وجلّ وقد قال ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ فالجواب: إنّ قوله: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ معناه الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص أي: لا تضربوا له مثلاً يقتضي نقصاً وتشبيهاً بالخلق والمثل الأعلى هو وصفه تعالى بما لا شبيه له ولا نظير.

6 قال ابن مسعود رضي الله عنه وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان في جحرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فماتت الدواب ولكن الله يأخذ بالعرفو والفضل كما قال ﴿وبعفو من كثير﴾.

(3/129)

﴿من دابة﴾ أي نسمة تدب على الأرض من إنسانٍ أو حيوان فهذه علة عدم مؤاخذه الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يفسدون ويجرمون وهذا الإهمال تابع لحكم عالية أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ولوكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ أي وقت معين محدد قد يكون نهاية عمر كل أحد، وقد يكون نهاية الحياة كلها فإذا جاء ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه أخرى ثم يجزيهم بأعمالهم السيئة بمثلها وما هو عز وجل بظلام للعبيد.

وآخر آية في هذا السياق (62) تضمنت التنديد بسوء حال الذين لا يؤمنون بالآخرة وذلك أنهم لجهلهم بالله وقبح تصورهم لظلمه نفوسهم أنهم يجعلون الله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء وسب الرسول وازدرائه، ومع هذا يتبجحون بالكذب بأن لهم الحسنی أي الجنة يوم القيامة. فرد تعالى على هذا الافتراء والهراء السخيف بقوله: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً وصدقاً ولا محالة ﴿أن لهم

النار} بدل الجنة {وأنهم مفرطون}1 إليها مقدمون متروكون فيها أبداً. هذا ما تضمنته الآية في قوله تعالى: {ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون}2 وإن قرئ مفرطون باسم الفاعل فهم حقاً مفرطون في الشر والفساد والكفر والضلال والانحطاط إلى أبعد حد.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان الحال الاجتماعية التي كان عليها المشركون وهي كراهيتهم للبنات خوف العار.
- 2- بيان جهلهم بالرب تعالى فهم يؤمنون به ويجهلون صفاته حتى نسبوا إليه الولد والشريك.
- 3- بيان العلة في ترك الظلمة يتمادون زمناً في الظلم والشر والفساد.
- 4- بيان سوء اعتقاد الذين لا يؤمنون بالآخرة وهو أنهم ينسبون إلى نفوسهم الحسنى ويجعلون لله ما يكرهون من البنات والشركاء وسب الرسل وامتهانهم.

1 أفرط يفرط: إذا تقدّم لطلب الماء فهو مفرط وهم مفرطون، وعليه فقوله تعالى: {مُفْرَطُونَ} معناه يتقدّمون غيرهم إلى النار وهي قراءة ورش عن نافع وقرأ حفص مُفْرَطُونَ باسم المفعول ومعناه متروكون في النار منسيون فيها.

2 مفرطون: اسم فاعل من فرط المضاعف إذا ضيّع الحقوق الواجبة عليه.

(3/130)

تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئِن لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهَوَّ وَّلِيَّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)
وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) وَاللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأُحْيِيَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66)

شرح الكلمات:

تالله: أي والله.

أرسلنا إلى أمم من قبلك: أي رسلاً.

فزين لهم الشيطان أعمالهم: فكذبوا لذلك الرسل.

فهو وليهم اليوم: أي الشيطان هو وليهم اليوم أي في الدنيا.

إن في ذلك لآية: أي دلالة واضحة على صحة عقيدة البعث الآخر.

لاية لقوم يسمعون: أي سماع تدبر وتفهم.

لعبرةً : أي دلالة قوية يعبر بها من الجهل إلى العلم لأن العبرة من العبور .
من بين فرثٍ: أي نَقَلَ الكِرْش، أي الرُّوث الموجود في الكرش .
لبناً خالصاً : أي ليس فيه شيء من الفرث ولا الدم، لا لونه ولا رائحته ولا طعمه .
معنى الآيات:

يقسم الله تعالى بنفسه لرسوله فيقول بالله يا رسولنا {لقد أرسلنا} رسلاً {إلى أمم من قبلك} كانوا
مشركين كافرين كأممك {فزين لهم الشيطان أعمالهم} فقاوموا رسولنا

(3/131)

وحاربوهم وأصروا على الشرك والكفر فتولاهم الشيطان، لذلك {فهو وليهم اليوم} ! أي في الدنيا
{لولهم} في الآخرة {عذابٌ أليم}، والسياق الكريم في تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذا قال
تعالى في الآية الثانية: {وما أنزلنا علمك الكتاب} أي لإرهاقك وتعذيبك ولكن لأجل أن تبين للناس
الذي اختلفوا فيه من التوحيد والشرك والهدى والضلال. كما أنزلنا الكتاب هدىً يهتدى به المؤمنون
إلى سبل سعادتهم ونجاحهم، ورحمةً تحصل لهم بالعمل به عقيدةً وعبادةً وخلقاً وأدباً وحكماً،
فيعيشون متراحمين تسودهم الأخوة والمحبة وتعشاهم الرحمة والسلام.

بعد هذه التسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عاد السياق إلى الدعوة إلى التوحيد وعقيدة البعث
والجزاء بعد تقرير النبوة المحمدية بقوله تعالى: {تالله لقد أرسلنا} الآية فقال تعالى: {والله أنزل من
السماء ماء فأحيا بها الأرض بعد موتها} الماء هو ماء المطر وحياء الأرض بالنبات والزرع بعدما
كانت ميتة لا نبات فيها وقوله {إن في ذلك} المذكور من إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد
موتها {لآية} واضحة الدلالة قاطعة على وجوده تعالى وقدرته، وعلمه ورحمته كما هو آية على
البعث بعد الموت من باب أولى. وقوله تعالى: {وإن لكم في الأنعام} 3 لعبرة} 4 أي حالاً تعبرون بها
عن الجهل إلى العلم.. من الجهل بقدرة الله ورحمته ووجوب عبادته بذكره وشكره إلى العلم بذلك
والمعرفة به فتؤمنوا وتوحدوا وتطيعوا. وبين وجه العبرة العظيمة فقال: {نسقيكم مما في بطونه} 5 أي
بطون المذكور من الأنعام {من 6 بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين} فسبحان ذي القدرة
العجيبة والعلم الواسع والحكمة التي لا يقادر قدرها.. اللبن يقع بين الفرث والدم

1 الشيطان الذي ريّن للذين كفروا أعمالهم حتى ضلوا وهلكوا هو وليّ الذين كفروا اليوم يزيّن لهم
أعمالهم ليضلّهم فيهلكوا كما هلك من قبلهم، وفي الآية تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم .
2 كون المسند فعلاً وهو: أنزل من السماء ماء أفاد التخصيص أي: الله وحده الذي أنزل من السماء
ماء والمراد من السماء: السحاب.

3 هناك مناسبة ظاهرة بين الآيتين وهي: كما أنّ الأرض تحيي بماء السماء كذلك الإنسان يحيى بالألبان.

- 4 اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز والعبر: ما يتعظ به ويعتبر.
- 5 البطون: جمع بطن وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كلّه من معدة وكبد وأمعاء.
- 6 {من} زائدة لتوكيد التوسط أي: يفرز في حالة بين حالتي الفرث والدم وموقع: {من بين فرث ودم} موقع الصفة والموصوف: لبناً وقدمت للاهتمام بها.
- 6 مفرطون: اسم فاعل من فرط المضاعف إذا ضيّع الحقوق الواجبة عليه.

(3/132)

فينتقل الدم إلى الكبد فتوزعه على العروق لبقاء حياة الحيوان، واللبن يساق إلى الضرع، والفرث يبقى أسفل الكرش، ويخرج اللبن خالصاً من شائبة الدم وشائبة الفرث فلا يرى ذلك في لون اللبن ولا يشم في رائحته ولا يوجد في طعمه بدليل أنه سائغ للشاربين، فلا يغص به شارب ولا يشرق به، حقاً! انها عبرة من أجل العبر تنقل صاحبها إلى نور العلم والمعرفة بالله في جلاله وكماله، فتورثه محبة الله وتدفعه إلى طاعته والتقرب إليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان ان الله يقسم بنفسه وبما شاء من 1 خلقه.
- 2- بيان أن الله أرسل رسلاً إلى أمم سبقت وأن الشيطان زين لها أعمالها فخذلها.
- 3- تقرير النبوة وتسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم من جراء ما يلقاه من المشركين.
- 4- بيان مهمة رسول الله وأنها بيان ما أنزل الله تعالى لعباده من وحيه في كتابه.
- 5- بيان كون القرآن الكريم هدىً ورحمة للمؤمنين الذين يعملون به.
- 6- دليل البعث والحياة الثانية إحياء الأرض بعد موتها فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات بعد فنائهم وبلاهم.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)
وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)

1 نحو : {والفجر} ، {والنبتين} وما إلى ذلك إلا أن بعض أهل العلم كمالك يرون أن المقسم به محذوف تقديره: وربّ الفجر، وربّ النبتين وهكذا.

(3/133)

شرح الكلمات:

ومن ثمرات النخيل والأعناب : أي ومن بعض ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون 1 منه سكرًا أي خمرا وورزقًا حسنًا أي والتمر والزبيب والخل والدبس الرزق الحسن.
وأوحى ربك إلى النحل: أي ألهمها أن تفعل ما تفعله بإلهام منه تعالى.
ومما يعرشون: أي يبنون لها.
سبل ربك ذللاً: أي طرق ربك مذلةً فلا يعسر عليك السير فيها ولا تضلين عنها.
شراب : أي عسل.

فيه شفاء للناس : أي من الأمراض إن شرب بنية الشفاء، أش بضميمته إلى عقار آخر.
إلى أرذل العمر: أي أحسّه من الهرم والخرف، والخرف فساد العقل.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لعبادته وحده والمقررة لعقيدة النبوة والبعث الآخر. قال تعالى في معرض بيان ذلك بأسلوب الامتتان المقتضي للشكر {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا} وورزقًا حسنًا أي ومن بعض ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه سكرًا أي شراباً مسكرًا. وهذا كان قبل تحريم 2 الخمر {ورزقًا حسنًا} وهو الزبيب والخل من العنب والتمر والدبس العسل من النخل وقوله {إن في ذلك لآية لقوم يعقلون} أي أن فيما ذكرنا لكم لآية أي دلالة واضحة على قدرتنا وعلمنا ورحمتنا لقوم يعقلون الأمور ويدركون نتائج المقدمات، فذو القدرة والعلم والرحمة هو الذي يستحق التأليه والعبادة.. وقوله: {وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون} هذا مظهر آخر عظيم من مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته يتجلى بإعلامه حشرة

1 قال ابن عباس رضي الله عنهما: السكر ما حرم من ثمرتيهما والرزق الحسن، ما أحل من ثمرتيهما، وليست الخمر مقصورة على العنب والتمر فقد خطب عمر وقال: "أيها الناس إن الله قد حرّم الخمر وهي من خمسة، من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير". والإجماع على أن كل مسكر حرام.

2 إن قيل: هذا خبر، والنسخ لا يكون في الأخبار؟ فالجواب: إن تضمن الخبر حكماً شرعياً جاز نسخه، ومن أدلة ذلك هذا الخبر ونسخه.

(3/134)

النحل كيف تلد العسل وتقدمه للإنسان فيه دواء من كل داء. فقوله {وأوحى ربك} أيها الرسول {إلى النحل} 1 {بأن ألهمها} {أن اتخذني من الجبال بيوتاً ومن الشجر} أيضاً بيوتاً، {ومما يعرشون} 2 {أي مما يعرش الناس لك أي يبنون لك، اتخذني من ذلك بيوتاً لك إذ النحلة تتخذ لها بيتاً داخل العريش الذي يعرش لها تبنيه بما تفرزه من الشمع وقوله تعالى: {ثم كلي من كل الثمرات} أي ألهمها أن تأكل من كل ما تحصل عليه من الثمرات من الأشجار والنباتات أي من أزهارها ونوارها وقوله لها {فاسلكي سبل ربك ذللاً} 3 بالهام منه تسلك ما سخر لها وذلك من الطرق فتنقل من مكان إلى آخر تطلب غذاءها ثم تعود إلى بيوتها لا تعجز ولا تضل وذلك بتذليل الله تعالى وتسخيره لها تلك الطرق فلا تجد فيها وعورة ولا تنساها فتخطئها. وقوله تعالى {يخرج من 4 بطونها} أي بطون النحل {شراب} أي عسل يشرب {مختلف 5 ألوانه} ما بين أبيض وأحمر وأسود، أو أبيض مشرب بحمرة أو يضرب إلى صفرة. وقوله تعالى: {فيه شفاء للناس} أي من الأدوية، هذا التذكير في قوله شفاء دال على بعض دون بعض جائز هذا حتى يضم إليه بعض الأدوية أو العقاير الأخرى، أمّا مع النية أي أن يشرب بنية الشفاء من المؤمن فإنه شفاء لكل داء وبدون ضميمة أي شيء آخر له. وفي حديث الصحيح وخلصته أن رجلاً شكاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم استطلق بطن أخيه أي مشي بطنه عليه فقال له اسقه العسل، فسقاه فعاد فقال ما أراه زاده إلا استطلاقاً فعاد فقالت مثل ما قال أولاً ثلاث مرات وفي الرابعة أو الثالثة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه العسل فسقاه فقام كأنما نشط من عقال. وقوله تعالى: {إن في ذلك} أي المذكور من إلهام الله تعالى للنحل وتعليمها كيف تصنع العسل ليخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس لدلالة واضحة على

1 قيل: سمي النحل نحلاً: لأن الله تعالى نحل العسل الذي خرج منه.

2 بيوت النحل في ثلاثة، في الجبال وكواها، ومتجوف الأشجار، وما يعرش لها من الأجاج والخلايا والحيطان، وعرش يعرش: إذا بنى عريشاً من الأغصان والخشب، ومن عجيب ما ألهم الله النحل أنه يجعل بيوته مسدسة الشكل.

3 اللفظ صالح لأن يكون لفظ ذللاً المراد به النحلة نفسها وذلك جمع ذلول وهي المنقادة المطيعة المسخرة، وصالح أن يكون المراد به الطرق التي تسلكها النحلة كما في التفسير.

4 روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقير الدنيا: أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة وأشرف شرابه فيها رجيع نحلة.

5 بحسب تنوع الغذاء كما أن الطعم يختلف باختلاف المراعي ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها جرت نحله العرفط حين شبهت رائحته برائحة المغافير والعرفط شجر الطلح له صمغ كريحه الرائحة.

(3/135)

علم الله وقدرته ورحمته وحكمته المقتضية لعبادته وحده وتأليهه دون سواه ولكن لقوم يتفكرون في الأشياء وتكوينها وأسبابها ونتائجها فيهتدون إلى المطلوب منهم وهو أن يذكروا فيتعظوا فيتوبوا إلى خالقهم ويسلموا له بعبادته وحده دون سواه وقوله تعالى في الآية الأخرى (70) {والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً} هذه آية أخرى أجل وأعظم في الدلالة على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته، وهي موجبة لعبادته وحده وملزمة بالإيمان بالبعث الآخر فخلق الله تعالى لنا وحده وهو واحد ونحن لا يحصى لنا عد، ثم إمامته لنا موتاً حقيقياً بقبض أرواحنا ولا يستطيع أحد أن لا يموت ولا يتوفى أبداً ثم من مظاهر الحكمة أن يتوفانا من أجال مختلفة اقتضتها الحكمة لبقاء النوع واستمرار الحياة إلى نهايتها. فمن الناس من يموت طفلاً ومنهم من يموت شاباً، وكلها حسب حكمة الابتلاء والتربية الإلهية، وآية أخرى أن منا من يرد إلى أرذل عمره، أي أرداه وأخسه فيهرم ويخرف فيفقد ما كان له من قوة بدنٍ وعقل ولا يستطيع أحد أن يخلصه من ذلك إلا الله، مظهر قدرة ورحمة أرايتم لو شاء الله أن يرد الناس كلهم إلى أرذل العمر ولو في قرنٍ أو قرنين من السنين فكيف تصبح حياة الناس يومئذ؟ وقوله: {إن الله عليم قدير} تقرير لعلمه وقدرته، إذ ما نتج وما كان ما ذكره من خلقنا ووفاتنا ورد بعضنا إلى أرذل العمر إلا بقدرة قادر وعلم عالم وهو الله العليم القدير.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان منة الله تعالى على العباد بذكر بعض أرزاقهم لهم ليشكروا الله على نعمه.
- 2- بيان آيات الله تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته في خلق شراب الإنسان وغذائه ودوائه.
- 3- فضيلة العقل والتعقل والفكر والتفكير.
- 4- تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر الدال عليه القدرة والعلم الإلهيين، إذ من خلق وأمات لا يستتكر منه أن يخلق مرة أخرى ولا يميت.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي

رَزَقَهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَضِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74)

شرح الكلمات

فضل بعضكم على بعض في الرزق: أي فمنكم الغني ومنكم الفقير، ومنكم المالك ومنكم المملوك. برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم: أي بجاعلي ما رزقناهم شركة بينهم وبين مماليتهم من العبيد. والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً: إذ حواء خلقت من آدم وسائر النساء من نطف الرجال. وحفدة: أي خدماً من زوجه وولد وولد وولد وخادم وختن. أقبالباطل يؤمنون: أي بعبادة الأصنام يؤمنون. رزقاً من السموات والأرض: أي بانزال المطر من السماء، وإنبات النبات من الأرض. معنى الآيات:

ما زال السياق العظيم في تقرير التوحيد وإبطال التنديد. فقله تعالى: {والله فضل

بعضكم على [بعض في الرزق] فمنكم من أغناه ومنكم من أفقره أيها الناس، 2 وقد يكون لأحدكم أيها الأغنياء عبيد مملوكين له، لم لا يرضى أن يشرك عبيده في أمواله حتى يكونوا فيها سواء لا فضل لأحدهما على الآخر؟ والجواب أنكم تقولون في استنكار عجيب كيف أسوي مملوكي في رزقي فأصبح وإياه سواء؟ هذا لا يعقل أبداً! إذا كيف جوزتم إشرارك آلهتكم في عبادة ربحم وهي مملوكة له تعالى إذ هو خالقها وخالقكم ومالك جميعكم؟ فأين يذهب بعقولكم أيها المشركون؟ وقله تعالى {أفبنيعة الله يجحدون}؟ حقاً إنهم جحدوا نعمة العقل أولاً فلم يعترفوا بها فلذا لم يفكروا بعقولهم، ثم جحدوا نعمة الله عليهم في خلقهم ورزقهم فلم يعبدوه بذكره وشكره وعبدوا غيره من أصنام وأوثان لا تملك ولا تضر ولا تنفع. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (71) أما الآية الثانية فيقول تعالى فيها مقررأ إنعامه تعالى على المشركين بعد توبيخهم على إهمال عقولهم في الآية الأولى وكفرهم بنعم ربحم فيقول: {والله} أي وحده {جعل لكم من 3 أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات} أي جعل لكم من أنفسكم 4 أزواجاً أي بشرىات من جنسكم تسكنون إليهن وتتفاهمون

معهن وتتعاونون بحكم الجنسية الآدمية وهي نعمة عظيمة، وجعل لكم من أولئك الأزواج بنين بطريق التناسل والولادة وحفدة أيضاً والمراد من الحفدة كل من يحفد أي يسرع في خدمتك وقضاء حاجتك من زوجتك وولدك وولدك ولدك وختتك أي صهرك، وخادمك إذ الكل يحفدون لك أي يسارعون في خدمتك بتسخير الله تعالى لك، وثالثاً {ورزقكم من الطيبات} أي حلال الطعام والشراب على اختلافه وتنوع مذاقه وطعمه ولذته. هذا هو الله الذي تُدعون إلى عبادته وحده فتكفرون فأصبحتم بذلك تؤمنون بالباطل وهي الأصنام

1 هذا استدلال على قدرة الله وتدبيره وقهره لعباده إذ فضل بعضهم على بعض في الرزق تفضيلاً عجبياً هذا غني، وهذا فقير، هذا موسر، وهذا معسر فقد يفتقر الذكي القوي ويستغني البليد الضعيف كما قيل:

ومن الدليل على القضاء وكونه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

والآية متضمنة مثلاً ضربه لعبادة الأصنام، ونظير هذه المثل في سورة الروم في قوله تعالى: {ضرب لكم مثلاً من أنفسكم..} الخ.

2 يريد أن أغنياءهم لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه فكيف يرضون الله ما لا يرضونه لأنفسهم كما في قوله: {ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون} أي: البنون.

3 أي: من نوعكم، ومنّ للابتداء ومنّ في قوله تعالى: {وجعل لكم من أزواجكم} للتبعيض.

4 الأزواج: جمع زوج وهو ما يُكوّن مع آخر اثنين.

(3/138)

وعبادتها، وتكفرون بالمنعم ونعمه ولذا استحقوا التوبيخ والتفريع فقال تعالى: {أفبالباطل يؤمنون وينعمة الله هم يكفرون}؟ إذ عدم عبادتهم للمنعم عز وجل هو عين كفرانهم بنعمة الله تعالى. وقوله {ويعبدون من دون الله} أي أصناماً لا تملك لهم {رزقاً من السماء} بإنزال المطر، {والأرض} بإنبات الزروع والثمار شيئاً ولو قلّ ولا يستطيعون شيئاً من ذلك لعجزهم القائم بهم لأنهم تماثيل منحوتة من حجر أو خشب وفي هذا من التنبيه لهم على خطأهم ما لا يقادر قدره. وقوله تعالى: {فلا تضربوا الله الأمثال إن 2 الله 3 يعلم وأنتم لا تعلمون} أي ينهاهم تعالى عن ضرب الأمثال لله باتخاذ الأصنام آلهة بإطلاق لفظ إله عليها، والله لا مثل له، وباعتقاد أنها شافعة لهم عند الله وأنها تقربهم إليه تعالى، وأنها واسطة بمثابة الوزير للأمير إلى غير ذلك، فنهاهم عن ضرب هذه الأمثال لله تعالى لأنه عز وجل يعلم أنه لا مثل له ولا مثال، بل هو الله الذي لا إله إلا هو تعالى عن الشبيه والمثيل والنظير،

وهم لا يعلمون فلذا هم متحيرون متخبطون في ظلمات الشرك وأودية الضلال.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- قطع دابر الشرك في المثل الذي حوته الآية الأولى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾.

2- وجوب شكر الله تعالى على نعمه وذلك بذكره وشكره وإخلاص ذلك له.

3- قبح كفر النعم وتجاهل المنعم بترك شكره عليها.

4- التنديد بمن يضربون الله الأمثال وهم لا يعلمون باتخاذ وسائل له تشبيهاً لله تعالى بعباده فهم يتوسطون بالأولياء والأنبياء بدعائهم والاستغاثة بهم بوصفهم مقربين إلى الله تعالى يستجيب لهم، ولا يستجيب لغيرهم.

1 الباطل: ضد الحق لأن ما لا يخلق لا يعبد، فإن عبد فقد عبد بالباطل، والجملة تحمل توبيخاً كبيراً للمشركين.

2 الأمثال: جمع مثل بفتحيتين بمعنى المماثل كشيء بمعنى مشابه، ومعنى. ضربهم الأمثال لله تعالى: هو أنهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبهوها بالخالق عز وجل حيث عبدوها بالندى لها وبالذبح والدعاء والإقسام بها والعكوف حولها.

3 جملة: {إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون} تعليلية لنهايم عن ضرب الأمثال لله تعالى. فنهيه تعالى لهم عن ضرب الأمثال لعلمه عز وجل أنه لا مثل له، وأن ما يضربونه له باطل، وهو تعالى منزّه عنه.

(3/139)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

شرح الكلمات:

ضرب الله مثلاً: أي هو عبداً مملوكاً الخ..

عبداً مملوكاً: أي ليس بحُرِّ بل هو عبد مملوك لغيره.

هل يستون: أي العبيد العجزة والخُر المتصرف، والجواب: لا يستون قطعاً.
وضرب الله مثلاً: أي هو رجلين الخ..
أبكم: أي ولد أخرس وأصم لا يسمع.
لا يقدر على شيء: أي لا يفهم ولا يفهم غيره.
ولله غيب السموات والأرض: أي ما غاب فيهما.
وما أمر الساعة: أي أمر قيامها، وذلك بإماتة الأحياء وإحيائهم مع من مات قبل وتبديل صور
الأكوان كلها.

(3/140)

الأفئدة: أي القلوب.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد والدعوة إليه وإبطال الشرك والتفجير منه وقد تقدم أن الله تعالى جهل
المشركين في ضرب الأمثال له وهو لا مثل له ولا نظير، وفي هذا السياق ضرب تعالى مثلين وهو
العليم الخبير.. فالأول قال فيه: {ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً} أي غير حر من أحرار الناس، {لا
يقدر على شيء} إذ هو مملوك لاحق له في التصرف في مال سيده إلا بإذنه¹، فلذا فهو لا يقدر
على إعطاء أو منع شيء، هذا طرف المثل، والثاني {ومن رزقناه منا رزقاً حسناً} صالحاً واسعاً
{فهو ينفق منه سراً وجهراً} ليلاً ونهاراً لأنه حر التصرف بوصفه مالكاً {هل يستون²}؟ الجواب لا
يستويان.. إذا {الحمد لله بل أكثرهم³ لا يعلمون} والمثل مضروب للمؤمن والكافر، فالكافر أسير
للأصنام عبداً لها لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، لا يعمل في سبيل الله ولا ينفق لأنه لا يؤمن
بالدار الآخرة، والجزاء فيها، وأما المؤمن فهو حر يعمل بطاعة الله فينفق في سبيل الله سراً وجهراً
يبتغي الآخرة والثبوة من الله، ذا علم وإرادة، لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا هو سبحانه وتعالى.
وقوله: {وضرب الله مثلاً رجلين} هو المثال الثاني في هذا السياق وقد حوته الآية الثانية (76) فقال
تعالى فيه {وضرب الله مثلاً} هو {رجلين أحدهما 4 أبكم} ولفظ الأبكم قد يدل على الصمم فالغالب
أن الأبكم لا يسمع {لا يقدر على شيء} فلا يفهم غيره لأنه أصم ولا يفهم غيره لأنه أبكم، {وهو كلُّ
على 5 مولاة} أي ابن عمه أو من يتولاه من أقربائه يقومون بإعاشته ورعايته لعجزه وضعفه وعدم
قدرته على شيء. وقوله: {أينما يوجهه لا يأت بخير} أي أينما يوجهه مولاة وابن عمه ليأتي بشيء

1 هذه الآية منزع الفقهاء في ملكية العبد وعدمها، فذهب مالك إلى أن العبد يملك بإذن سيده، وهو
ناقص الملك، وقال أبو حنيفة والشافعي في الجديد: العبد لا يملك شيئاً، وقالوا: الرق ينافي الملك،

- وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من أعتق عبداً وله مال" شاهد لمن قال يملك ملكاً ناقصاً.
2 لم يقل يستويان لأنَّ مَنْ صالحه للواحد والجماعة.
3 لا يعلمون أن الله هو المستحق للحمد دون آلهتهم لأن الله تعالى هو المنعم بالخلق والرزق،
والأصنام لا تخلق ولا ترزق فلذا الحمد له وحده.
4 هذا مثل آخر ضربه تعالى لنفسه وللمؤمن. قاله قتادة وغيره.
5 أي: ثقل على وليه وقرابته ووبال على صاحبه وابن عمه.

(3/141)

لا يأتي بخير، وقد يأتي بشر، أمّا النفع والخير فلا يحصل منه شيء.
وهذا مثل الأصنام التي تعبد من دون الله إذ هي لا تسمع ولا تبصر فلا تفهم ما يقال لها، ولا تفهم عابديها شيئاً وهي محتاجة إليهم في صنْعها ووضعها وحملها وحمايتها. وقوله تعالى {هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم} وهو الله تعالى يأمر بالعدل أي بالتوحيد والاستقامة في كل شيء، وهو قائم على كل شيء، وهو على صراطٍ مستقيم يدعو الناس إلى سلوكه لينجوا ويسعدوا في الدارين، فالجواب، لا يستويان بحال، فكيف يرضى المشركون بعبادة وولاية الأَبكم الذي لا يقدر على شيء ويتركون عبادة السميع البصير، القوي، القدير، الذي يدعوهم إلى كمالهم وسعادتهم في كلتا حياتهم، أمر يحمل على العجب، ولكن لا عجب مع أقدار الله وتدبير الحكيم العليم. وقوله تعالى في الآية (77) {لله غيب السموات 1 والأرض} وحده يعلم ما غاب عنا فيهما فهو يعلم من كتبت له السعادة ومن حُكم عليه بالشقاوة، ومن يهتدي ومن لا يهتدي، والجزاء آت بإتيان الساعة {وما أمر الساعة 2} أي إتيانها {إلا كلمح 3 البصر أو هو أقرب 4} إذ لا يتوقف أمرها إلا على كلمة {كن} فقط فتنتهي هذه الحياة بكل ما فيها، وتأتي الحياة الأخرى وقد تبدلت صور الأشياء كلها {إن الله على كل شيء قدير} ومن ذلك قيام القيامة، ومجيء الساعة. وقوله تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا 5 تعلمون 6 شيئاً} حقيقة لا تُتكر، الله الذي أخرجنا من بطون أمهاتنا بعد أن صورنا في الأرحام ونمانا حتى صرنا بشراً ثم أذن بإخراجنا، فأخرجنا، وخرجنا لا نعلم شيئاً قط، هذه آية القدرة الإلهية والعلم الإلهي والتدبير الإلهي، فهل للأصنام شيء من ذلك، والجواب لا، لا وثانياً جعل الله تعالى لنا الأسماع والأبصار والأفئدة نعمة أخرى، إذ لو لا ذلك ما سمعنا ولا أبصرنا ولا عقلنا وما قيمة حياتنا يومئذٍ، إذ العدم خيرٌ منها. وقوله:

1 {لله غيب السموات والأرض}: اللام لام الملك، والغيب مصدر بمعنى اسم الفاعل أي: الأشياء الغائبة، والغيب ما غاب عن أعين الناس.

2 الساعة: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة.

3 اللّمح: النظر بسرعة يقال لمحّه لمحاً ولمحاناً.

4 ليس (أو) للشك وإنما هي بمعنى بل الانتقالية من شيء إلى آخر كقوله {فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون} أي: بل يزيدون.

5 البطنون: جمع بطن وهو ما بين ضلوع الصدر إلى العانة، وفيه الأمعاء والمعدة والكبد والرحم.

6 الشكر: الاعتراف بالنعمة لله وحمده عليها وصرفها فيما يرضيه تعالى.

(3/142)

{لعلكم تشكرون} كشف كامل عن سر هذه النعمة وهي أنه جعلنا نسمع ونبصر ونعقل ليكلفنا فإمرنا وبينها فنطبعه بامثال أوامره واجتناب نواهيه، وذلك شكره منا مع ما في ذلك الشكر من خير.. إنه إعداد للسعادة في الدارين. فهل من متذكر يا عباد الله!؟

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- استحسان ضرب الأمثال وهو تشبيه حال بحال على أن يكون ضارب المثل عالماً.

2- بيان مثل المؤمن في كماله والكافر في نقصانه.

أ- بيان مثل الأصنام في جمودها وتعبدتها عليها في الحماية وعدم انتفاعهم بها. ومثل الرب تبارك وتعالى في عدله، ودعوته إلى الإسلام وقيامه على ذلك مع استجابة دعاء أوليائه، ورعايتهم، وعلمه بهم وسمعه لدعائهم ونصرتهم في حياتهم وإكرامهم والإنعام عليهم في كلتا حياتهم. والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْنَافِهَا أَكْثَابًا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ

(3/143)

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83)

شرح الكلمات:

مسخراتٍ في جو السماء : أي مذلات في الفضاء بين السماء والأرض وهو الهواء.
ما يمسهن: أي عند قبض أجنحتها وبسطها إلا الله تعالى بقدرته وسننه في خلقه.
من بيوتكم سكننا: أي مكاناً تسكنون فيه وتخلدون للراحة.
من جلود الأنعام بيوتاً: أي خياماً وقباباً.
يوم ظعنكم: أي ارتحالكم في أسفاركم.
أثاثاً ومتاعاً إلي حين : كبُسط وأكسية تبلى وتتمزق وتُرمى.
ظلالاً ومن الجبال أكناناً : أي ما تستظلون به من حر الشمس، وما تسكنون به في غيران الجبال.
وسرابيل: أي قمصاناً تقيكم الحر والبرد.
وسرابيل تقيكم بأسكم: أي دروعاً تقيكم الضرب والطعان في الحرب.
لعلكم تسلمون : أي رجاء أن تسلموا له قلوبكم ووجوهكم فتعبده وحده.
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والدعوة إليه وإبطال الشرك وتركه فيقول تعالى: { ألم يروا إلى الطير مسخرات² في جو السماء ما يمسهن³ إلا الله } فإن في خلق الطير على اختلاف أنواعه وكثرة أفرادها، وفي طيرانه في جو⁴ السماء، أي في الهواء وكيف يقبض جناحيه وكيف يبسطها ولا يقع على الأرض فمن يمسه غير الله بما شاء من تدبيره في خلقه وأكوانه إن في ذلك المذكور لآياتٍ عدة تدل على الخالق وقدرته وعلمه وتوجب معرفته

1 قرىء بالتاء: { ألم تروا } وقرىء بالياء وهي قراءة الأكثر.

2 { مسخرات } : أي: مذلات لأمر الله تعالى، ومذلات لمنافعكم أيضاً.

3 { ما يمسهن } أي: في جال القبض والبسط والاصطفاف إلا الله عز وجل.

4 { جو السماء } هو الفضاء الذي بين السماء والأرض، وإضافته إلى السماء لأنه يبدو متصلاً بالقبة الزرقاء فيما يخال الناظر.

(3/144)

والتقرب إليه وطاعته بعبادته وحده، كما تدل على بطلان تأليه غيره وعبادة سواه، وكون الآيات لقوم يؤمنون هو باعتبار أنهم أحياء القلوب يدركون ويفهمون بخلاف الكافرين فإنهم أموات القلوب فلا إدراك ولا فهم لهم، فلم يكن لهم في ذلك آية.. وقوله: { والله جعل لكم من بيوتكم سكناً } أي موضع

سكونٍ وراحة، {وجعل لكم 2 من جلود الأنعام} الإبل والبقر والغنم {بيوتاً} أي خياماً وقباباً {تستخفونها} أي تجدونها خفيفة المحمل {يوم ظعنكم} أي ارتحالكم في أسفاركم وتتفلاتكم {ويوم إقامتكم} في مكان واحد كذلك. وقوله: {ومن أوصافها وأوبارها وأشعارها} أي جعل لكم منه {أثاثاً} كالبيسط الفرش والأكسية (متاعاً) أي تتمتعون بها إلى حين بلاها وتمزقها 3 وقوله: {والله جعل لكم مما خلق} من أشياء كثيرة {ظلالاً} تستظلون بها من حر الشمس {وجعل لكم من الجبال أكناناً} 4 تكون فيها أنفوسكم من المطر والبرد أو الحر وهي غيران وكهوف في الجبال {وجعل لكم سراويل} قمصان {تقيكم الحر} والبرد {وسراويل} هي الدروع {تقيكم بأسكم} في الحرب تتقون بها ضرب السيوف وطعن الرماح. أليس الذي جعل لكم هذه كلها أحق بعبادتكم وطاعتكم، وهكذا {يتم نعمته عليكم} فبعث إليكم رسوله وأنزل عليكم كتابه ليُعدكم للإسلام فتسلموا. وهنا وبعد هذا البيان الواضح والتذكير البليغ يقول لرسوله {فإن تولوا} أي أعرضوا عما ذكرتهم به فلا تحزن ولا تأسف إذ ليس عليك هداهم {فإنما عليك البلاغ المبين} وقد بلغت وبينت. فلا عليك بعد شيء من التبعة والمسؤولية. وقوله: {يعرفون نعمت الله} أي نعمة الله عليهم كما ذكرناهم بها {ثم ينكرونها} فيعبدون غير المُنعم بها {وأكثرهم الكافرون} أي الجاحدون المكذبون بنبوتك ورسالتك والإسلام الذي جئت به.

- 1 {جعل}: بمعنى أوجد وهذا شروع في تعداد النعم التي أنعم بها الخالق عزّ وجلّ على العباد، والسكن: مصدر والمنة في كونه تعالى جعل الإنسان يسكن ويتحرك ولو شاء لجعله متحركاً دائماً كالأفلاك في السماء أو جعله كالأرض ساكناً أبداً.
- 2 بعد أن ذكر تعالى السكن في الدور ذكر السكن في البيوت المتنقلة وهي الخيام والقباب.
- 3 في الآية دليل على حليلة جلود الميتة ولكن بعد دبعها لحديث: "أيما إهاب دبغ فقد طهر".
- 4 الأكنان: جمع كن وهو: ما يكن عن الحرّ والريح والبرد وهو الغار في الجبل.

(3/145)

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون لحياة قلوبهم، أما الكافرون فهم في ظلمة الكفر لا يرون شيئاً من الآيات ولا يبصرون.
- 2- مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته ونعمه تتجلى في هذه الآيات الأربع ومن العجب أن المشركين كالكافرين عمي لا يبصرون شيئاً منها وأكثرهم الكافرون.
- 3- مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست هداية القلوب وإنما هي بيان الطريق بالبلاغ المبين.

وَيَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَا لَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) وَيَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89)

(3/146)

شرح الكلمات:

ويوم نبعث: أي اذكر يوم نبعث.

شهيذاً: هو نبيها.

لا يؤذن للذين كفروا: أي بالاعتذار فيعتذرون.

ولا هم يستعتبون: أي لا يطلب منهم العتبي أي الرجوع إلى اعتقاد وقول وعمل ما يرضي الله عنهم.

وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم: أي الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كالأصنام والشياطين.

فألقوا إليهم القول: أي ردوا عليهم قائلين لهم إنكم لكاذبون.

وألقوا إلى الله يومئذ السلم: أي نزلوا له وخضعوا لحكمه واستسلموا.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وتتجيبهم من عذابه، ومعنى ضل غاب.

عذاباً فوق العذاب: أنه عقارب وحيات كالنخل الطوال والبغال الموكفة.

ونزلنا عليك الكتاب: أي القرآن.

تبيناً لكل شيء: أي لكل ما بالأمة من حاجة إليه في معرفة الحلال والحرام والحق والباطل والثواب والعقاب.

معنى الآيات:

انحصر السياق !لكريم في هذه الآيات الست في تقرير البعث والجزاء مع النبوة فقوله تعالى: {يوم

نبعث}1 أي اذكر يا رسولنا محمد يوم نبعث {من كل أمة} من الأمم {شهيذاً} هو نبيها الذي نبيء

فيها وأرسل إليها {ثم لا يؤذن للذين كفروا} أي بالاعتذار فيعتذرون {ولا هم يستعتبون}2 أي لا يطلب

منهم العتبي3 أي الرجوع إلى اعتقاد وقول وعمل يرضي الله عنهم أي اذكر هذا لقومك، علمهم

يذكرون فيتعظون، فيتوبون، فينجون

- 1 نظير هذه الآية آية النساء: {كيف إذا جننا من كل أمة بشهيد..} الآية.
- 2 أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا يمكنون من الرجوع إلى الدنيا فيتوبون.
- 3 العتبي: الرضا، والفعل: عتب يعتب عليه إذا وجد عليه في نفسه وأعتبه: إذا أزال الموجدة ورجع إلى مسرته وفي الحديث: "لك العتبي حتى ترضى" والعتبي: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب وهو المراد في الحديث.

(3/147)

ويسعدون. وقوله في الآية الثانية (85) {وإذا رأى الذين ظلموا العذاب} أي يوم القيامة {فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون} أي يمهلون. اذكر هذا أيضاً تذكيراً وتعليماً، واذكر لهم {إذا رأى الذين أشركوا شركاءهم} في عرصات القيامة أو في جهنم صاحوا قائلين {ربنا} أي يا ربنا {هؤلاء 2 شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك} أي نعبدهم بدعائهم والاستغاثة بهم، {فألقوا إليهم القول} فوراً {إنكم لكانبون}. {وألقوا إلى الله يومئذ السلم} أي الاستسلام فذلوا لحكمه {وضل عنهم ما كانوا يفترون} في الدنيا من ألوان الكذب والترهات كقولهم هؤلاء شفاعونا عند الله، وأنهم ينجون من النار بشفاعتهم، وأنهم وسيلتهم إلى الله كل ذلك ضل أي غاب عنهم ولم يعثروا منه على شيء. وقوله تعالى: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله} غيرهم بالدعوة إلى الكفر وأسبابه والحمل عليه أحياناً بالترهيب والترغيب {زدناهم عذاباً فوق العذاب} الذي استوجبه بكفرهم. ورد أن هذه الزيادة من العذاب أنها عقارب كالبالغال الدهم، وأنها حيات كالنخل الطوال والعياذ بالله تعالى من النار وما فيها من أنواع العذاب، وقوله تعالى: {ويوم نبعث} أي اذكر يا رسولنا يوم نبعث {في كل أمة شهيداً} أي يوم القيامة {عليهم من أنفسهم 3} وبتنا بك شهيداً على هؤلاء} أي على من أرسلت إليهم من أمتك. فكيف يكون الموقف إذ تشهد على أهل الإيمان بالإيمان وعلى أهل الكفر بالكفر. وعلى أهل التوحيد بالتوحيد، وعلى أهل الشرك بالشرك إنه لموقف صعب تعظم فيه الحسرة وتشتد الندامة.. وقوله تعالى في خطاب رسوله مقررًا نبوته والوحي إليه {ونزلنا عليك الكتاب} أي القرآن {تبياناً 4 لكل شيء} الأمة في حاجة إلى معرفته من الحلال والحرام والأحكام والأدلة {وهدى} من كل ضلال {ورحمته} خاصة بالذين يعملون به ويطبقونه على أنفسهم وحياتهم فيكون

- 1 أي: عذاب جهنم بالدخول فيها.
- 2 أي: أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، وذلك لأن الله تعالى يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم

النار، روى مسلم: "من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت..". الحديث، وفي الترمذي: " فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون".

3 الشهداء: هم الأنبياء والعلماء، فالنبي يشهد على أمته والعالم يشهد على من أمره ونهاه ودلّ هذا على أنه لم تخل فترة من وجود داع إلى الله تقوم به الحجة لله تعالى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل "يبعث امة وحده". ومثل زيد قس وورقة وسطيح.

4 التبيان: مصدر دال على المبالغة في المصدرية وأريد به هنا اسم الفاعل أي: المبيّن لكل شيء.

(3/148)

رحمة عامة بينهم {بشرى للمسلمين}1 أي المنقادين لله في أمره ونهيه بشرى لهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل يوم القيامة، وبالنصر والفوز والكرامة في هذه الدار. وبعد إنزالنا عليك هذا الكتاب فلم يبق من عذر لمن يريد أن يعتذر يوم القيامة ولذا ستكون شهادتك على أمتك أعظم شهادة وأكثرها أثراً على نجات الناجين وهلاك الهالكين ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- تقرير عقيدة البعث الآخر بما لا مزيد عليه لكثرة ألوان العرض لما يجري في ذلك اليوم.
- 2- براءة الشياطين والأصنام الذين أشركهم الناس في عبادة الله من المشركين بهم والتبرؤ منهم وتكذيبهم.
- 3- زيادة العذاب لمن دعا إلى الشرك والكفر وحمل الناس على ذلك.

4- لا عذر لأحد بعد أن أنزل الله تعالى القرآن تبيناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا

1 حُصَّ المسلمون دون غيرهم لأنَّ غيرهم أعرضوا عنه فحرموا الهدى والرحمة والبشرى في الدارين.

(3/149)

بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

شرح الكلمات:

العدل: الإنصاف ومنه التوحيد.

الإحسان: أداء الفرائض وترك المحارم مع مراقبة الله تعالى.

وايتاء ذوي القربى: أي إعطاء ذي القربى حقوقهم من الصلة والبر.

عن الفحشاء: الزنا.

يعظكم: أي يأمركم وينهاكم.

تذكرون: أي تتعظون.

توكيدها: أي تغليظها.

نقضت غزلها: أي أفسدت غزلها بعد ما غزلته.

من بعد قوة: أي أحكام له وبرم.

أنكاثاً: جمع نكت وهو ما ينكت ويحل بعد الإبرام.

كالتي نقضت غزلها: هي حمقاء مكة وتدعى رَيْطَةَ بنت سعد بن تيم القرشية.

دخلاً بينكم: الدخل ما يدخل في الشيء وهو ليس منه للإفساد والخديعة.

أربى من أمة: أي أكثر منها عدداً وقوة.

معنى الآيات:

قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل} أي أن الله يأمر في الكتاب الذي أنزله تبيانياً لكل شيء، يأمر

بالعدل وهو الإنصاف ومن ذلك أن يعبد الله بذكره وشكره لأنه الخالق المنعم

1 ورد في فضل هذه الآية أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: ما أسلمت ابتداء إلا حياءً من

رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أخاه من الرضاعة حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر

الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي أعد فأعدت فقال: والله إن له

لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أصله لمورق وأعلاه لمنثر وما هو بقول بشر.

(3/150)

وتترك عبادة غيره لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم بشيء. ولذا فسر هذا اللفظ بلا إله إلا الله،

{والإحسان} وهو أداء الفرائض واجتناب المحرمات مع مراقبة الله تعالى في ذلك حتى يكون الأداء

على الوجه المطلوب إتقاناً وجودة والاجتناب خوفاً من الله حياءً منه، وقوله {وإيتاء ذي القربى} أي ذوي القربى حقوقهم من البر والصلة. هذا مما أمر الله تعالى به في كتابه، ومما ينهى عنه الفحشاء وهو الزنا واللواط وكل قبيح اشتد قبحه وفحش حتى البخل {والمنكر} وهو كل ما أنكر الشرع وانكرته الفطر السليمة والعقول الراجحة السديدة، وينهى عن البغي² وهو الظلم والاعتداء ومجاوزة الحد في الأمور كلها، وقوله {لعلكم تذكرون} أي أمر بهذا في كتابه رجاء أن تذكروا فتتعضوا فتمتثلوا الأمر وتجتنبوا النهي. وبذلك تكملون وتسعدون. ولذا ورد أن هذه الآية: {أن الله يأمر بالعدل³ والإحسان⁴} إلى {تذكرون} هي أجمع آية في كتاب الله للخير والشر. وهي كذلك فما من خير إلا وأمرت به ولا من شرٍ إلا ونهت عنه. وقوله تعالى {وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم} أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالوفاء بالعهود فعلى كل مؤمن بايع إماماً أو عاهد أحداً على شيء أن يفي له بالعهد ولا ينقض. "إذ لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" كما في الحديث الشريف.. وقوله تعالى {ولا تنقضوا⁵ الإيمان بعد توكيدها} الإيمان جمع يمين وهو الحلف بالله وتوكيدها تغليظها بالألفاظ الزائدة {وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً} أي وكَيْلاً، أي أثناء حلفكم به تعالى، فقد جعلتموه وكَيْلاً، فهذه الآية حرمت نقض الإيمان وهو نكثها وعدم الالتزام بها بالحنث فيها لمصالح مادية⁶. وقوله

1 الإحسان مصدر أحسن إحساناً وهو متعدّ بنفسه نحو: أحسنت كذا إذا أتقنته وحسنته وجودته، ومتعدّ بحرف الجرّ نحو: أحسنت إلى فلان أي أوصلت إليه ما ينفعه أو دفعت عنه ما يضرّه، وكلا المعنيين مراد في الآية وما في حديث جبريل يتناول الأول لأن من راقب الله تعالى أتقن عمله وحسنه.

2 ورد في البغي: لا ذنب أسرع عقوبة من البغي، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب، والباغي مصروع وقد وعد الله من بُغي عليه بالنصر في قوله: {ومن عاقب بمثل ما عوقب ثمّ بغى عليه لينصرنه الله}.

3 قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية: أجمع آية في القرآن لخير يمتثل ولشرّ يجتنب. 4 روي أن جماعة رفعت شكوى بعاملها إلى أبي جعفر المنصور فحاجّها العامل فغلبها حيث لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور في شيء، فقام فتى منهم وقال يا أمير المؤمنين: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} وإنه عدل ولم يحسن فعجب أبو جعفر المنصور من إصابته، وعزل العامل.

5 هذا في الإيمان المؤكّد بها الحلف في الجاهلية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم "لا حلف في الإسلام وأيّما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة وأبطل صلى الله عليه وسلم الحلف في الإسلام، لأن الإسلام جاء بنصرة المظلوم وأخذ الحق له من الظالم كما هو مبين في شريعته.

6 أمّا إذا حلف العبد يميناً فرأى غيرها خيراً منها فإنه ينقض يمينه ويكفر كفارة يمين لقوله صلى الله

عليه وسلم: "إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني".

(3/151)

تعالى {إن الله يعلم ما تفعلون} فيه وعيد شديد لمن ينقض أيمانه بعد توكيدها. وقول تعالى {ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها}، وهي امرأة بمكة حمقاء 2 تغزل ثم تنكث 3 غزلها وتفسده بعد إبرامه وإحكامه فهى الله تعالى المؤمنين أن ينقضوا أيمانهم بعد توكيدها فتكون حالهم كحال هذه الحمقاء. وقوله تعالى: {تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم} أي إفساداً وخديعة كأن تحالفوا جماعة وتعاهدوها، ثم تنتقضون عهدكم وتحلون ما أبرمتم من عهد وميثاق وتعاهدون جماعة أخرى لأنها أقوى وتتنفعون بها أكثر. هذا معنى قوله تعالى {أن تكون أمة هي أرى من أمة} أي جماعة أكثر من جماعة رجالاً وسلاحاً أو مالاً ومنافع. وقوله تعالى: {إنما يبلوكم الله به} أي يختبركم فتعرض لكم هذه الأحوال وتجدون أنفسكم تميل إليها، ثم تذكرون نهي ربكم عن نقض الإيمان والعهد فتتركوا ذلك طاعة لربكم أولاً تفعلوا إيثاراً للدنيا عن الآخرة، {وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون} ثم يحكم بينكم ويجزيكم، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.. وقوله تعالى {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة} على التوحيد والهداية لفعل.. ولكن اقتضت حكمته العالية أن يهدي من يشاء هدايته لأنه رغب فيها وطلبها، ويضل من يشاء إضلاله لأنه رغب في الضلال وطلبه وأصر عليه بعد النهي عنه. وقوله تعالى: {لتسألن} أي 4 سؤال توبيخ وتأنيب {عما كنتم تعملون} من سوء وباطل، ولازم ذلك الجزاء العادل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بمثلها وهم لا يظلمون. هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان أجمع آية للخير والشر في القرآن وهي آية {إن الله يأمر بالعدل والإحسان..} الآية (90).
- 2- وجوب العدل والإحسان وإعطاء ذوي القربى حقوقهم الواجبة من البر والصلة.

1 هذه الجملة ذكرت علةً لتحريم نقض العهد فهي تحمل وعيداً شديداً وتهديداً كبيراً لمن ينقض العهد.

2 يقال لها ربطة بنت عمر وكانت تغزل طول النهار، وفي المساء إذا غضبت لحمقها تحل ما أبرمته من غزلها، فهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كهذه الحمقاء فيحلون ما يبرمون من عقود وعهود.

- 3 النكت والجمع أنكاث: وهو النقض والحل بعد الإبرام.
4 اللام دالة على قسم محذوف نحو: {والله لتسألن}.

(3/152)

- 3- تحريم الزنا واللواط وكل قبيح اشتد قبحه من الفواحش الظاهرة والباطنة.
4- لحريم البغي وهو الظلم بجميع صورته وأشكاله.
5- وجوب الوفاء بالعهود وحرمة نقضها.
6- حرمة نقض الإيمان بعد توكيدها وتوطين النفس عليها لتخرج لغو اليمين.
7- من بايع أميراً أو عاهد أحداً يجب عليه الوفاء ولا يجوز النقض والنكت لمنافع دنيوية أبداً.
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)

شرح الكلمات:

دخلاً بينكم: أي لأجل الإفساد والخديعة.

وتذوقوا السوء: أي العذاب.

ما عندكم ينفد: يفنى وينتهي.

وهو مؤمن: أي والحال أنه عندما عمل صالحاً كان مؤمناً، إذ بدون إيمان لا عمل يقبل.

حياة طيبة: في الدنيا بالقناعة والرزق الحلال وفي الآخرة هي حياة الجنة.

بأحسن ما كانوا يعملون: أي يجزيهم على كل أعمالهم حسناتها وأحسنها بحسب الأحسن فيها.

(3/153)

معنى الآيات:

ما زال السياق في تربية المؤمنين أهل القرآن الذي هو تبيان كل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. وقال تعالى لهم {ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً} أي خديعة {بينكم} لتتوصلوا بالإيمان إلى غرضٍ دنيوي سافل، {فتزل قدم 1 بعد ثبوتها} بأن يقع أحدكم في كبيرة من هذا النوع، يحلف بالله

بقصد الخداع والتضليل فتذوقوا السوء في الدنيا بسبب صدكم عن سبيل الله من تعاهدونهم أو تبايعونهم وتعطونهم أيمانكم وعهودكم ثم تنتقضوها فهؤلاء ينصرفون عن الإسلام ويعرضون عنه بسبب ما رأوا منكم من النقض والنكث، وتحملون وزر ذلك، ويكون لكم العذاب العظيم يوم القيامة. فإياكم والوقوع في مثل هذه الورطة، فاحذروا أن تزل قدم أحدكم عن الإسلام بعد أن رسخت فيه. وقوله: {ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً} وكل ما في الدنيا قليل وقوله تعالى إنما عند الله هو خير لكم قطعاً، لأن ما عندكم من مالٍ أو متاعٍ ينفد أي يفنى، {وما عند الله باق} لا نفاذ له، فاذكروا هذا ولا تبيعوا الغالي بالرخيص والباقي بالفاني، وقوله تعالى: {ولنجزين الذين صبروا} على عهودهم {أجرهم} على صبرهم {بأحسن ما كانوا يعملون} أي يضاعف لهم الأجر فيعطيهم سائر أعمالهم حسنها وأحسنها بحسب أفضلها وأكملها حتى يكون أجر النافلة، كأجر الفريضة وهذا وعد من الله تعالى لمن يصبر على إيمانه وإسلامه ولا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، ووعدٌ ثانٍ في قوله: {من عمل صالحاً من ذكرٍ وأنتى وهو مؤمن فلنجزيه} حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} إلا أن أصحاب هذا الوعد هم أهل الإيمان والعمل الصالح، الإيمان الحق الذي يدفع إلى العمل الصالح، ولازم ذلك أنهم تخلوا عن الشرك والمعاصي، هؤلاء وعدهم ربهم بأنه يحييهم في الدنيا حياة طيبة لا خبث فيها قناعة وطيب طعام⁴ وشراب ورضا، هذا في

1 هذه الجملة دلت على المبالغة في النهي اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة، إذ مَنْ وقع في ورطة يقال: زلت قدمه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر.

2 نهى تعالى المؤمنين عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد أي: لا تنتقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا. روي أن امرؤ القيس بن عابس الكندي اختصم مع ابن أسوع في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وقرأ لخصمه بالأرض.

3 اختلف في معنى الحياة الطيبة فقال بعضهم: هي الرزق الحلال، وقيل: هي القناعة وقيل: التوفيق إلى الطاعة الموجبة لرضوان الله تعالى، وقيل: هي حلاوة الطاعة، وقيل هي المعرفة بالله وصدق المقام بين يدي الله.

4 روى مسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه".

(3/154)

الدنيا وفي الآخرة الجنة والجزاء يكون بحسب أحسن عمل عملوه من كل نوع، من الصلاة كأفضل صلاة وفي الصدقات بأفضل صدقة وهكذا. {ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمريهم وآتنا ما وعدتهم إنك برّ رحيم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- حرمة اتخاذ الإيمان طريقاً إلى الغش والخديعة والإفساد.
 - 2- ما عند الله خير مما يحصل عليه الإنسان بمعصيته الرحمن من حطام الدنيا.
 - 3- عظم أجر الصبر على طاعة الله تعالى فعلاً وتركاً.
 - 4- وعد الصدق لمن آمن وعمل صالحاً من ذكر وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.
- فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

شرح الكلمات:

فإذا قرأت القرآن : أي أردت أن تقرأ القرآن.

فاستعذ بالله من الشيطان: أي قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لحمايتك منه وسواسه.

إنه ليس له سلطان: أي قوة وتسلط على إفساد الذين آمنوا وإضلالهم، ما داموا

(3/155)

متوكلين على الله.

وإذا بدلنا آية مكان آية : أي بنسخها وإنزاله آية أخرى غيرها لمصلحة العباد.

قل نزله روح القدس: أي جبريل عليه السلام.

ليثبت الذين آمنوا : أي على إيمانهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هداية المسلمين وتكميلهم، فقوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن} يا محمد أنت أو أحد من المؤمنين أتباعك {فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} أي إذا كنت قارئاً عازماً على القراءة فقل أعوذ بالله 1 من الشيطان الرجيم، فإن ذلك يقينك من وسواسه الذي قد يفسد عليك تلاوتك 2، وقوله: {إنه ليس له سلطان} أي للشيطان {سلطان} يعني تسلط وغلبة وقهر {على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون} وهذه بشرى خير للمؤمنين {إنما سلطانه على الذين يتولونه} 3 بطاعته والعمل بتزيينه للشر والباطل 4، {والذين هم به 5 مشركون}. هؤلاء هم الذين يتسلط الشيطان عليهم فيغيبهم ويضلهم حتى يهلكهم. وقوله تعالى: {وإذا بدلنا آية مكان آية} أي نسخنا حكماً بحكم آخر بأية أخرى قال المشركون المكذبون بالوحي الإلهي {إنما أنت} يا محمد {مفتري} تقول بالكذب والخرص، أي يقول اليوم شيئاً

ويقول غداً خلاقه. وقوله تعالى: {والله أعلم بما ينزل} فإنه ينزله لمصلحة عباده فينسخ ويثبت لأجل مصالح المؤمنين. وعلم الله تعالى رسوله كيف يرد على هذه الشبهة وقال له {قل نزله روح القدس} من ربك بالحق} فلست أنت الذي تقول ما تشاء وإنما هو وحي الله وكلامه ينزل به جبريل عليه السلام من عند ربك بالحق الثابت عند الله الذي لا يتبدل ولا يتغير، وذلك لفائدة تثبيت الذين آمنوا على إيمانهم وإسلامهم.

- 1 هذه كآية الوضوء: {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا..} أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم على غير وضوء فاغسلوا وجوهكم أي: توضعوا.
- 2 لقد صحت الأحاديث الكثيرة في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة روي أن بعض السلف كان يتعوذ بعد القراءة أخذاً بهذه الآية.
- 3 فائدة الاستعاذة قبل القراءة أن يحفظ المرء من أن يلبس عليه إبليس قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر.
- 4 قيل في قوله تعالى: {إنه ليس له سلطان}: أي أنه لا يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه.
- 5 الضمير في {به} عائد إلى الشيطان ويصح عوده على الله تعالى.
- 6 روح القدس: جبريل عليه السلام: "فقد نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه ما عدا الفاتحة فقد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قط" رواه مسلم.

(3/156)

فكلما نزل قرآن ازداد المؤمنون إيماناً فهو كالغيث ينزل على الأرض كلما نزل ازدادت حياتها نضرة وبهجة فكذا نزل القرآن تحيا به قلوب المؤمنين، وهو أي القرآن هدى من كل ضلالة. وبشرى لكل المسلمين بفلاح الدنيا وفوز الآخرة.

هداية الآيات
من هداية الآيات:

- 1- استحباب الاستعاذة عند قراءة القرآن بلفظ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- 2- بيان أنه لا تسلط للشيطان على المؤمنين المتوكلين على ربهم.
- 3- بيان أن سلطان الشيطان على أوليائه العاملين بطاعته المشركين بريهم.
- 4- بيان أن القرآن فيه الناسخ والمنسوخ.
- 5- بيان فائدة نزول القرآن بالناسخ والمنسوخ وهي تثبيت الذين آمنوا على إيمانهم وهدى من الضلالة وبشرى للمسلمين بالفوز والفلاح في الدارين.

وَأَقْدَ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ

(3/157)

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109)

شرح الكلمات:

بشر : يعنون قيناً (حداداً) نصرانياً في مكة.

لسان الذي يلحدون إليه: أي يميلون إليه.

وهذا لسان عربي: أي القرآن فكيف يعلمه أعجمي.

إلا من أكره: أي على التلغظ بالكفر فتلفظ به.

ولكن من شرح بالكفر صدرا: أي فتح صدره الكفر وشرحه له فطابت نفسه له.

وأولئك هم الغافلون : أي عما يراد بهم.

لا جرم: أي حقاً.

هم الخاسرون : أي لمصيرهم 1 إلى النار خالدين فيها أبداً.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الرد على المشركين الذين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالافتراء فقال

تعالى: {ولقد نعلم2 أنهم يقولون إنما يعلمه بشر} أي يعلم محمداً بشر أي إنسان من الناس، لا أنه

وحي يتلقاه من الله. قال تعالى في الرد على هذه الفرية وإبطالها {لسان الذي يلحدون إليه} أي

يميلون إليه بأنه هو الذي يعلم محمد لسانه {أعجمي3} لأنه عبد رومي، {وهذا} أي القرآن {لسان

عربي مبين} ذو فصاحة وبلاغة وبيان فكيف

1 أي: لكون مصيرهم إلى النار وأي خسران أعظم من خسران من دخل النار فخر نفسه وأهله قال

تعالى فيه: {ألا ذلك هو الخسران المبين}.

2 اختلف في تعيين هذا الرجل فقيل: اسمه جبر ويكنى بأبي فكيهة، وقيل: اسمه عيش، وقيل:

اسمه يعيش وكان رومياً وكان صيقلياً يشد السيوف ويحليها وكان يجلس إليه النبي صلى الله عليه

وسلم أحياناً فقالوا قولتهم هذه.

3 العجمة: الإخفاء وضد البيان ورجل أعجم وامرأة عجماء أي لا يفصح ولا يبين ومنه عجب الذنب لاستتاره والعجماء البهيمة والأعجمى من لا يتكلم العربية.

(3/158)

يتفق هذا مع ما يقولون انهم يكذبون لا غير، وقوله تعالى {إن الذين لا يؤمنون بآيات الله} وهي نورٌ وهدى وحججٌ قواطع، وبرهان ساطع {لا يهديهم الله} إلى معرفة الحق وسبيل الرشد لأنهم أعرضوا عن طريق الهداية وصدوا عن سبيل العرفان وقوله {ولهم عذاب أليم} أي جزاء كفرهم بآيات الله. وقوله {إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون} أي إنما يخلق الكذب ويكذب فعلاً الكافر بآيات الله لأنه لا يرجو ثواب الله ولا يخاف عقابه، فلذا لا يمنعه شيء عن الكذب، أما المؤمن فإنه يرجو ثواب الصدق ويخاف عقاب الكذب فلذا هو لا يكذب أبداً، وبذا تعين أن النبي لم يفتري الكذب وإنما يفتري الكذب أولئك المكذبون بآيات الله وهم حقاً الكاذبون. وقوله تعالى: {من كفر 2 بالله من بعد إيمانه إلا من أكره} 3 على التلغظ بالكفر {وقلبه مطمئن بالإيمان} لا يخامر شك ولا يجد اضطراباً ولا قلقاً فقال كلمة الكفر لفظاً فقط، فهذا كعمار بن ياسر كانت قريش تكرهه على كلمة الكفر فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم في قولها بلسانه ولكن المستحق للوعيد الآتي {من شرح بالكفر صدرًا} أي رضي بالكفر وطابت نفسه وهذا وأمثاله {فعلبيهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم} أي باعوا بغضب الله وسخطه ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وعلل تعالى لهذا الجزاء العظيم بقوله {ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة} بكفرهم بالله وعدم إيمانهم به لما في ذلك من التحرر من العبادات، فلا طاعة ولا حلال ولا حرام. وقوله تعالى: {وإن الله لا يهدي القوم الكافرين} هذا وعيد منه تعالى سبق به علمه وأن القوم الكافرين يحرمهم التوفيق للهداية عقوبة لهم على اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه. وقوله تعالى: {وأولئك الذين طبع الله على قلوبهم} وعلى سمعهم وأبصارهم أولئك الذين توعدهم الله بعدم هدايتهم هم الذين طبع على قلوبهم فهم لا يفهمون {وسمعهم} فهم لا يسمعون المواعظ ودعاء الدعاة إلى

1 هذا جواب وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب فأعلم تعالى أن الذي يفتري الكذب هو الكافر بآيات الله الكاذب الذي لا يعرف الصدق أبداً.

2 قوله: {من كفر بالله بعد إيمانه}: عائد إلى قوله: {إنما يفتري الكذب الذي لا يؤمنون بآيات الله}. وقوله: {إلا من أكره}: نزلت في عمار بن ياسر في قول أهل التفسير لأنه قارب أن يقول بعض ما طلبوه منه فرفع تعالى عنه الحرج وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم "أعطهم يا عمار" وهو تحت

العذاب وقال صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" واستثنى أهل العلم من أكره على قتل مؤمن أنه لا يقتله، وليكن المقتول ولا يقتل فلا يفد نفسه بأخيه حتى مجرد الضرب لا يضربه.

3 أهل العلم على أن المكره على الطلاق وعلى الحلف وعلى الحنث أنه لا شيء فيه.

(3/159)

الله تعالى {وأبصارهم} فهم لا يبصرون آيات الله وحججه في الكون، وما حصل لهم من هذه الحال سببه الإعراض المتعمد وإيثار الحياة الدنيا، والعناد، والمكابرة، والوقوف في وجه دعوة الحق والصد عنها. وقوله {وأولئك هم الغافلون} أي عمًا خلقوا له، وعمًا يراد لهم من نكال في الآخرة وعذاب أليم. وقوله تعالى {لا جرم} أي حقاً {أنهم في الآخرة هم الخاسرون} المغبونون حيث وجدوا أنفسهم في عذاب أليم دائم لا يخرجون منه ولا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- دفاع الله تعالى عن رسوله ودرء كل تهمة توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 2- المكذبون بآيات الله يحرمون هداية الله، لأن طريق الهداية هو الإيمان بالقرآن. فلما كفروا به فعلى أي شيء يهتدون.
- 3- المؤمنون لا يكذبون لإيمانهم بثواب الصدق وعقاب الكذب، ولكن الكافرين هم الذين يكذبون لعدم ما يمنعهم من الكذب إذ لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً.
- 4- الرخصة 1 في كلمة الكفر في حال التعذيب بشرط اطمئنان القلب إلى الإيمان وعدم انشراح الصدر بكلمة الكفر.

5- إيثار الدنيا على الآخرة طريق الكفر وسبيل الضلال والهلاك.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (110)
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ

1 وكذلك الرخصة في العتاق والطلاق والنكاح والحلف والحنث ما دام مكرهاً فلا يلزمه شيء لحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" الحديث، وكذا من أكره على تسليم زوجته فلا شيء عليه إذ أكره إبراهيم على ذلك وعصمه الله تعالى ومن صبر على ما أكره به من الضرب والتعذيب فله ذلك فقد صبر عبد الله بن حذافة السهمي على ألوان من التعذيب والتهديد على يد ملك الروم حيث أسر مع جمع من المسلمين فعذب ما شاء الله أن يعذب ثم أطلق الأسرى،

وقبِلَ عمر رضي الله عنه رأسه إكراماً له واعترافاً بفضلِهِ لأنَّ ملكَ الروم أخذ ما أكرهه عليه تقبيل رأسه فقتله.

(3/160)

نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)

شرح الكلمات،:

هاجروا : أي إلى المدينة.

من بعدما فتنوا : أي فتنهم المشركون بمكة فعذبوهم حتى قالوا كلمة الكفر مكرهين.

إن ربك من بعدها: أي من بعد الهجرة والجهاد والصبر على الإيمان والجهاد.

لغفور رحيم : أي غفورٌ لهم رحيم بهم.

يوم تأتي: أي اذكر يا محمد يوم تأتي كل نفسٍ تجادل عن نفسها.

مثلاً قرية: هي مكة.

رزقها رغداً : أي واسعاً.

فكفرت بأنعم الله: أي بالرسول والقرآن والأمن ورغد العيش.

فأذاقها الله لباس الجوع : أي بسبب قحطٍ أصابهم حتى أكلوا العهن لمدة سبع سنين.

والخوف : حيث أصبحت سرايا الإسلام تغزوهم وتقطع عنهم سبل تجارتهم.

معنى الآيات:

بعدما ذكر الله تعالى رخصة كلمة الكفر عند الإكراه وبشرط عدم انتشار الصدر بالكفر ذكر مخبراً عن بعض المؤمنين، تخلفوا عن الهجرة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أرادوا الهجرة منعهم قريش وعذبتهم حتى قالوا كلمة الكفر، ثم تمكنوا من الهجرة فهاجروا وجاهدوا

(3/161)

وصبروا فأخبر الله تعالى عنهم بأنه لهم مغفرته ورحمته، فلا يخافون ولا يحزنون فقال تعالى {ثم إن

[ربك] أيها الرسول {للذين هاجروا 2 من بعدما فتنوا} أي عذبوا {ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من 3

بعدها لغفور رحيم} أي غفورٌ لهم رحيمٌ بهم.

وقوله تعالى: {يوم 4 تأتي كل نفس تجادل عن نفسها} أي اذكر ذلك واعظاً به المؤمنين أي تخاصم طالبة النجاة لنفسها {وتوفى كل نفس ما عملت} أي من خير أو شر {وهم لا يظلمون} لأن الله عدلٌ لا يجور في الحكم ولا يظلم. وقوله تعالى: {وضرب الله مثلاً قرية 5} أي مكة {كانت آمنة} من غارات الأعداء {مطمئنة} لا ينتابها فرغٌ ولا خوف، لما جعل الله تعالى في قلوب العرب من تعظيم الحرم وسكانه، {يأتيتها رزقها رغداً} أي واسعاً {من كل 6 مكان} حيث يأتيها من الشام واليمن في رحلتيهما في الصيف والشتاء {فكفرت بأنعم الله} وهي تكذيبها برسول الله صلى الله عليه وسلم وإنكارها للتوحيد، وإصرارها على الشرك وحرب الإسلام {فأذاقها الله لباس الجوع} فدعا عليهم الرسول اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف السبع الشداد، فأصابهم القحط سبع سنوات فجاجوا حتى أكلوا الحيف والعهن، وأذاقها لباس الخوف إذ أصبحت سرايا الإسلام تعترض طريق تجارتها بل تغزوها في عقر دارها، وقوله تعالى {بما كانوا يصنعون 7} أي جزاهم الله بالجوع والخوف بسبب صنيعهم الفاسد وهو اضطهاد المؤمنين بعد كفرهم وشركهم وإصرارهم على ذلك. وقوله تعالى: {ولقد جاءهم رسولٌ منهم} هو محمد صلى الله عليه وسلم {فكذبوه} أي جحدوا رسالته وانكروا نبوته وحاربوا دعوته {فأخذهم العذاب} عذاب الجوع والخوف والحال أنهم {ظالمون} أي مشركون وظالمون لأنفسهم حيث عرضوها

- 1 لما كانت الهجرة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم قرن الله تعالى اسمه مع اسم نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: {ثم إن ربك} أي بمغفرته ورحمته للذين هاجروا.
- 2 هاجروا أولاً إلى الحبشة ثم إلى المدينة النبوية.
- 3 أي: من بعد الحال التي كانت أيام تعذيبهم وفتنتهم على يد المشركين.
- 4 جائز أن يكون الظرف متعلقاً بقوله: {لغفور رحيم} وجائز أن يكون معمولاً لفعل محذوف تقديره: اذكر ومعنى تجادل: تخاصم وتحتاج عن نفسها وفي الحديث: "أن كل نفس يوم القيامة تقول: نفسي نفسي" لشدة الهول.
- 5 هي مكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا على أهلها فقال: "اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف" فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام.
- 6 من البرّ والبحر، هذا كقوله تعالى: {يجبى إليه ثمرات كل شيء}.
- 7 وقيل: إنّ القرية هذه هي المدينة قالت هذا حفصة وعائشة زوجتا الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لما قتل عثمان واشتد البلاء بأهل المدينة وعموم الآية ظاهر، وكونها مكة أظهر.

بكفرهم إلى عذاب الجوع والخوف.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

- 1- فضل الهجرة والجهاد والصبر، وما تكفر هذه العبادات من الذنوب وما تمحو من خطايا،،
- 2- وجوب التذكير باليوم الآخر وما يتم فيه من ثوابٍ وعقابٍ للتجافي عن الدنيا والإقبال على الآخرة.
- 3- استحسان ضرب الأمثال من أهل العلم.
- 4- كفر النعم بسبب زوالها والانتقام من أهلها.
- 5- تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم في ما جاء به، ولو بالإعراض عنه وعدم العمل به يجزى البلاء والعذاب.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118)

(3/163)

شرح الكلمات:

فكلوا : أي أيها الناس.

حلالاً طيباً : أي غير حرام ولا مستقذر.

واشكروا نعمة الله عليكم : أي بعبادته وحده وبالانتهاه إلى ما أحل لكم عما حرمه عليكم.

إن كنتم إياه تعبدون: أي إن كنتم تعبدونه وحده فامتثلوا أمره، فكلوا مما أحل لكم وذروا ما حرم عليكم.

الميتة: أي ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير تذكية شرعية.

والدم : أي الدم المسفوح السائل لا المختلط باللحم والعظم.

وما أهل لغير الله به : أي ما ذكر عليه غير اسم الله تعالى.

غير باغٍ ولا عادٍ : أي غير باغٍ على أحد، ولا عادٍ أي متجاوز حد الضرورة.

ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب: أي لا تحلوا ولا تحرموا بألسنتكم كذباً على الله فتقولوا هذا

حلال وهذا حرام بدون تحليل ولا تحريم من الله تعالى.

وعلى الذين هادوا: أي اليهود.

حرمنا ما قصصنا عليك من قبل : أي في سورة الأنعام.

معنى الآيات:

امتن الله عز وجل على عباده، فأذن لهم أن يأكلوا مما رزقهم من الحلال الطيب ويشكروه على ذلك بعبادته وحده وهذا شأن من يعبد الله تعالى وحده، فإنه يشكره على ما أنعم به عليه، وقوله تعالى: {إنما حرم 1 عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به} فلا تحرموا ما لم يحرم عليكم كالسائبة والبحيرة والوصيلة التي حرمها المشركون افتراء على الله وكذباً. وقوله {فمن اضطر} منكم أي خاف على نفسه ضرر الهلاك بالموت لشدة الجوع وكان {غير باغ} على أحد ولا معتدٍ ما أحل له إلى ما حرم عليه.

1 هذه الجملة بيان لمضمون جملة: {فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً} لتمييز الطيب من الخبيث وذكر تعالى هنا أربع محرمات وهي عشر جاءت في سورة المائدة إلا أن هذه الأربعة هي الأصول وما دونها تابع لها: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب فالخمسة الأولى تابعة للميتة والسادسة تابعة لما أهل به لغير الله.

(3/164)

فليأكل ما يدفع به غائلة الجوع ولا إثم عليه {فإن الله غفور رحيم} فيغفر للمضطر كما يغفر للتائب ويرحم المضطر فيأذن له في الأكل دفعاً للضرر رحمة به كما يرحم من أناب إليه. وقوله: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب 1 هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب} أي ينهاهم عن التحريم والتحليل من تلقاء أنفسهم بأن يسموا الشيء بأنه حلال أو حرام لمجرد قولهم بألسنتهم الكذب: هذا حلال وهذا حرام كما يفعل المشركون فحللوا وحرموا بدون وحي إلهي ولا شرع سماوي. ليؤول قولهم وصنيعهم ذلك إلى الافتراء على الله والكذب عليه. مع أن الكاذب على الله لا يفلح أبداً لقوله {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل}2 وإن تمتعوا قليلاً في الدنيا بمال أو ولد أو عزة وسلطان فإن ذلك متاع قليل جداً ولا يعتبر صاحبه مفلحاً ولا فائزاً. فإن وراء ذلك العذاب الآخروي الأليم الدائم الذي لا ينقطع. وقوله تعالى: {وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل} يخاطب الله تعالى رسوله فيقول: كما حرمنا على هذه الأمة المسلمة الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، حرمنا على اليهود ما قصصنا عليك من قبل في سورة الأنعام. إذ قال تعالى {وعلى الذين 3 هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم}. وحرم هذا الذي حرم عليهم بسبب ظلم

منهم فعاقبهم الله فحرم عليهم هذه الطيبات التي أحلها لعباده المؤمنين. ولذا قال تعالى لوما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}.

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- يجب مقابلة النعيم بالشكر فمن غير العدل أن يكفر العبد نعم الله تعالى عليه فلا يشكره عليها بذكره وحمده وطاعته بفعل محابه وترك مساخطه.

1 {الكذب} منصوب على المفعولية المطلقة أي: مطلق الكذب.

2 جملة: {متاع قليل} جملة بيانية في جواب قول من قال: كيف لا يفلحون وهم يمتعون بالطعام والشراب والنساء والأموال؟ فأجيب بأن هذا متاع قليل جداً بالنظر إلى ما في الآخرة.

3 تقديم الجار والمجرور: {وعلى الذين هادوا حرمنا} للاهتمام وللإشارة إلى أن ذلك التحريم كان انتقاماً منهم ولم يكن شرعاً لإكمالهم وإسعادهم.

(3/165)

2- بيان المحرمات من المطاعم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله.

3- بيان الرخصة في الأكل من المحرمات المذكورة لدفع غائلة الموت.

4- حرمة التحريم والتحليل بغير دليل شرعي قطعي لا ظني إلا ما غلب على الظن تحريمه.

5- حرمة الكذب على الله وأن الكاذب على الله لا يفلح في الآخرة وفلاحه في الدنيا جزئياً قليل لا قيمة له.. هذا إن أفلح.

6- قد يحرم العبد النعم بسبب ظلمه فكم حرمت أمة الإسلام من نعم بسبب ظلمها في عصور انحطاطها.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)

شرح الكلمات:

ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة : أي ثم إن ربك غفور رحيم للذين عملوا السوء بجهالة ثم

تابوا.

من بعدها : أي من بعد الجهالة والتوبة.

(3/166)

إن إبراهيم كان أمة : أي إماماً جامعاً لخصال الخير كلها قدوة يقتدى به في ذلك.
الله حنيفاً: أي مطيعاً لله حنيفاً: مانئلاً إلى الدين القيم الذي هو الإسلام.
اجتباه : أي ربه اصطفاه للخلة بعد الرسالة والنبوة.
وآتيناه في الدنيا حسنة : هي الثناء الحسن من كل أهل الأديان السماوية.
إنما جعل السبب على الذين اختلفوا فيه : أن اليهود أمروا بتعظيم الجمعة فرفضوا وأبوا إلا السبب
ففرض الله عليهم ذلك وشدد لهم فيه عقوبة لهم.
معنى الآيات:

بعدما نددت الآيات في سياق طويل بالشرك وإنكار البعث والنبوة من قبل المشركين الجاحدين
المعاندين، وقد أوشك سياق السورة على الانتهاء فتح الله تعالى باب التوبة لهم وقال: {ثم إن ربك}
أي بالمغفرة والرحمة {للذين عملوا السوء بجهالة¹} فأشركوا بالله غيره وأنكروا وحيه وكذبوا بلفظه {ثم
تابوا من بعد ذلك} فوحده تعالى بعبادته وأقروا بنبوة رسوله وآمنوا بلفظه واستعدوا له بالصالحات
{وأصلحوا} ما كانوا قد أفسدوه من قلوبهم وأعمالهم وأحوالهم {إن ربك من بعدها} من بعد هذه التوبة²
والأوبة الصحيحة {لغفور رحيم} بهم فكانت بشرى لهم على لسان كتاب ربهم. وقوله تعالى: {إن
إبراهيم³ كان أمة⁴ قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط
مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع⁵ ملة إبراهيم
حنيفاً وما كان من المشركين} إنه لما كان من شبه المشركين أنهم على دين أبيهم إبراهيم باني البيت
وشارع المناسك ومحرم الحرم، واليهود والنصارى كذلك يدعون أنهم على ملة إبراهيم فأصر الجميع
على أنه متبع لملة إبراهيم وأنه على دينه ورفضوا الإسلام بدعوى ما هم عليه هو دين الله الذي جاء
به إبراهيم أبو الأنبياء عليه

1 الجهالة: انتقاء العلم بما يجب أن يعلم، والمراد بجهالتهم: جهالتهم بأدلة الشرع المحرمة للشرك
والكفر والفساد، والموجبة للتوحيد وطاعة الله ورسوله. والباء: في {بجهالة}: للملابسة وهي في
موضع الحال من ضمير عملوا.

2 وجائز أن يعود الضمير على الجهالة أيضاً كما جائز أن يعود على التوبة.

3 {إن إبراهيم}؛ هذه الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لغرض التنويه بدين الإسلام الذي هو دين

إبراهيم من قبل.

4 الأمة : الجامع للخير، والقانت: المطيع لله تعالى، والحنيف: المائل إلى الحق المجانب للباطل.
5 في الآية الدليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول ولا تبعة على الفاضل أي: لا غضاضة عليه ولا مساس بمقامه.

(3/167)

السلام، ومن باب إبطال الباطل وإزاحة ستار الشبه وتفتية الحق لدعوة الحي والدين الحق ذكر تعالى جملةً من حياة إبراهيم الروحية والدينية كمثال حي ناطق لكل عاقل إذا نظر إليه عرف هل هو متبع لإبراهيم يعيش على ملته أو هو على غير ذلك. فقال تعالى {إن إبراهيم كان إماماً صالحاً جامعاً لخصال الخير، يقتدي به كل راغب في الخير. هذا أولاً وثانياً أنه كان قانتاً أي مطيعاً لربه فلا يعصي له أمراً ولا نهياً ثالثاً لم يك من المشركين بحال من الأحوال بل هو بريء من الشرك وأهله، ورابعاً كان شاكراً لأنعم الله تعالى عليه أي صارفاً نعم الله عليه فيما يرضي الله، خامساً اجتنابه ربه أي اصطفاه لرسالته وخلته لأنه أحب الله أكثر من كل شيء فتخلل حب الله قلبه فلم يبق لغيره في قلبه مكان. فخاله الله أي بادلته خلة بخلة فكان خليل الرحمن. سادساً وهداه إلى صراط مستقيم الذي هو الإسلام، سابعاً وآتاه في الدنيا حسنة وهي الثناء الحسن والذكر الجميل من جميع أهل الأديان الإلهية الأصل. ثامناً وأنه في الآخرة لمن الصالحين الذين قال الله تعالى فيهم: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي منزلة من أشرف المنازل وأسماها. تاسعاً مع جلالة قدر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورفعة مكانته أمره الله تعالى أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

هذا هو إبراهيم فمن أحق بالنسبة إليه، المشركون؟ لا! اليهود؟ لا، النصراني؟ لا! المسلمون الموحدون؟ نعم نعم اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرةهم وأكرمنا يوم تكرمهم. وقوله تعالى: {إنما جعل السبت 2 على الذين اختلفوا فيه} فيه دليل على بطلان دعوى اليهود أنهم على ملة إبراهيم ودينه العظيم، إذ تعظيم السبت لم يكن من دين إبراهيم،

1 قال مالك: بلغني أنّ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: يرحم الله معاذً كان أمةً قانتاً فقيل له: يا أبا عبدالرحمن إنّما ذكر الله عزّ وجلّ بهذا إبراهيم عليه السلام فقال عبدالله: "إن الأمة الذي يعلم الناس الخير وإن القانت: هو المطيع".

2 أي: لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه، إذ كان. دين إبراهيم سمحاً لا تغليظ فيه والسبت تغليظ على اليهود في ترك الأعمال وترك التبسّط في المعاش بسبب اختلافهم فيه أي: اختلفوا في يوم

الجمعة بعدما أمروا بتعظيمه فأبى اليهود إلا السببت بدعوى أن الله فرغ من الخلق فيه. واختار النصرى الأحد: لأن الله ابتداء الخلق فيه، وهدى الله أمة الإسلام ليوم الجمعة الذي اختلفوا فيه ففي البخاري يقول صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له (يوم الجمعة)".

(3/168)

وإنما سببه أن الله تعالى أوحى إلى أحد أنبيائهم أن يأمر بني إسرائيل بتعظيم الجمعة فاختلفوا في ذلك وآثروا السبت عناداً ومكابرة فكتب الله عليهم تعظيم السبت. وقوله ﴿وَإِنْ رِبْكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه وعيد لهم وأنه سيجزيهم سوءاً على تمردهم على أنبيائهم واختلافهم عليهم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- باب التوبة مفتوح لكل ذي ذنب عظيم أو صغر على شرط صدق التوبة بالإقلاع الفوري والندم والاستغفار الدائم وإصلاح المفاسد.

2- تقرير التوحيد والإعلان عن شان إبراهيم عليه السلام وبيان كمالاته وإنعام الله عليه.

3- بيان أن سببت اليهود هو من نقم الله عليهم لا من نعمه وفضاله عليهم.

أدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

شرح الكلمات:

إلى سبيل ربك : أي طاعته إذ طاعة الله موصلة إلى رضوانه وإنعامه فهي سبيل الله.

بالحكمة : أي بالقرآن والمقالة المحكمة الصحيحة ذات الدليل الموضح للحق.

والموعظة الحسنة: هي مواظب القرآن، والقول الرقيق الحسن.

(3/169)

وجادلهم بالتي هي أحسن: أي بالمجادلة التي هي أحسن من غيرها.

لهو خيرٌ للصابرين: أي خيرٌ من الانتقام عاقبةً.

ولا تك في ضيق مما يمكرون : أي لا تهتم بمكرهم، ولا يضيق صدرك به.

مع الذين اتقوا: أي اتقوا الشرك والمعاصي.

والذين هم محسنون: أي في طاعة الله، ومعصيته تعالى هي نصره وتأييده لهم في الدنيا.

معنى الآيات:

يخاطب الرب تعالى رسوله تشريفاً وتكليفاً: {ادع إلى سبيل ربك}1 أي إلى دينه وهو الإسلام سائر الناس، وليكن دعاؤك {بالحكمة} التي هي القرآن الكريم الحكيم {والموعظة الحسنة} وهي مواظب القرآن وقصصه وأمثاله، وترغيبه وترهيبه، {وجادلهم بالتي هي أحسن} أي خاصمهم بالمخاصمة التي هي أحسن وهي الخالية من السب والشتم والتعريض بالسوء، فإن ذلك أدعى لقبول الخصم الحق وما يدعي إليه، وقوله تعالى: {إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله} من الناس {وهو أعلم بالمهتدين} وسيجزيه المهتدي بهداه، والضال بضلاله، كما هو أعلم بمن ضل واهتدى أزلماً. فهون على نفسك ولا تشطط في دعوتك فتضر بنفسك، والأمر ليس إليك. بل لربك يهدي من يشاء ويضل من يشاء وما عليك إلا الدعوة بالوصف الذي وصف لك، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وقوله تعالى {وإن عاقبتهم 2 فعاتبوا بمثل ما عوقبتهم به} لا أكثر، {ولئن صيرتم} وتركتم المعاقبة {لهو} أي صبركم {خيرٌ} لكم من المعاقبة على الذنب والجناية، وقوله تعالى: {واصبر} على ترك ما عزمت عليه أيها الرسول من التمثيل بالمشركين جزاء تمثيلهم بعمك حمزه، فأمره بالصبر ولازمه ترك المعاقبة والتمثيل معاً، وقوله: {وما صبرك إلا بالله} أي إلا بتوفيقه وعونه، فكن مع ربك

1 قال القرطبي: هذه الآية نزلت بمكة في وقت مهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وعنف، وهكذا ينبغي أن يدعو المسلمون إلى يوم القيامة.

2 جمهور المفسرين على أن هذه الآية: {وإن عاقبتهم فعاتبوا...} الخ نزلت بالمدينة في شأن قتل حمزة والتمثيل به رضي الله عنه وأرضاه يوم أحد ذكر ذلك البخاري وغيره وفي الآية دليل على وجوب المماثلة في القصاص وبحرم عدمها. وفي الآية دليل لمن قال بجواز أخذ مال من أخذ مال غيره إذا لم يتمكن منه بعلمه ورضاه على شرط أن لا يأخذ أكثر مما أخذ.

{مما يمكرون} بك فإن الله تعالى كافيك مكرهم وشركهم إنه معك فلا تخف ولا تحزن لأنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأنت منهم. وقوله: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} يخبر تعالى رسوله والمؤمنين أنه عز وجل بنصره وتأييده ومعونته وتوفيقه مع الذين اتقوا الشرك والمعاصي فلم يتركوا فرائض دينه، ولم يغشوا محارمه والذين هم محسنون في طاعة ربهم إخلاصاً في النية والقصد، وأداءً على نحوه، شرع الله وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- وجوب الدعوة إلى الله تعالى أي إلى الإسلام وهو واجب كفاً، إذا قامت به جماعة أجزأ ذلك عنهم.
- 2- بيان أسلوب الدعوة وهو أن يكون بالكتاب والسنة وأن يكون خالياً من العنف والغلظة والشدة، وأن تكون المجادلة بالتي هي أحسن من غيرها.
- 3- جواز المعاقبة بالأخذ بقدر ما أخذ من المرء، وتركها صبراً واحتساباً أفضل.
- !- معية الله تعالى ثابتة لأهل التقوى والإحسان، وهي معية نصرٍ وتأييدٍ وتسديدٍ.

-
- 1 الضيق والضيق: بالكسر والفتح، يقال: في صدره ضيق وضيق بالكسر والفتح، وقيل: الضيق بالفتح في الصدر، والضيق بالكسر في الدار والثوب ونحوهما.
 - 2 قيل: لهرم بن حبان عند موته: أوصنا فقال: أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل: {ادع إلى سبيل ربك ..} إلى {محسنون}.

(3/171)

سورة الإسراء

...

الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء

مكية

وآياتها عشر ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

شرح الكلمات:

سبحان: أي تنزه وتقدس عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وهو الله جل جلاله.

بعبده: أي بعبدته ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

من المسجد الحرام: أي الذي بمكة.

إلى المسجد الأقصى: أي الذي بيت المقدس.

من آياتنا: أي من عجائب قدرتنا ومظاهرها في الملكوت الأعلى.

معنى الآية الكريمة:

نزه الرب تبارك وتعالى نفسه عما نسب إليه المشركون من الشركاء والبنات وصفات المحدثين، فقال:

{سبحان 1 الذي أسرى بعبدته 2} أي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي العدناني

{ليلاً من المسجد الحرام} أي بالليل من المسجد الحرام بمكة إذ أخرج من بيت أم هانئ

1 روي أن طلحة بن عبيد الله الفيّاض أحد العشر المبشرين بالجنة سأل رسول الله صلى الله عليه

وسلم عن معنى سبحان الله فقال: "تنزيه الله عن كل سوء" وأسرى: فيها لغتان: أسرى وسرى

فصيحتان، وجمع اللغتين في بيت واحد هو:

حيّ النضيرة ربة الخدر

أسرت إليّ ولم تكن تسري

وقيل: أسرى من أول الليل، وسرى من آخره، والإسراء، والسرى: سير الليل.

2 قالت العلماء: لو كان هناك اسم للنبي صلى الله عليه وسلم أشرف من اسم عبد لسمّاه به في هذه

الحال العلية، وفي معناه قال الشاعر:

يا قوم قلبي عند زهراء

يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلاّ بعبدها

فإنه أشرف أسمائي

(3/172)

وغسل قلبه بماء زمزم وحشي إيماناً وحكمة، ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بيت المقدس، وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه جمع الله تعالى له الأنبياء في المسجد الأقصى وصلى بهم إماماً فكان بذلك إمام الأنبياء وخاتمهم ثم عرج به إلى السماء سماء بعد سماء يجد في كل سماء مقربها إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ثم عرج به إلى أن انتهى إلى مستوى

سمع فيه صرير الأقدام وقوله تعالى: {الذي باركنا حوله} أي حول المسجد الأقصى¹ معنى حوله خارجه وذلك بالأشجار والأنهار والثمار أما داخله فالبركة الدينية بمضاعفة الصلاة فيه أي أجرها إذ الصلاة فيه بخمسائة صلاة أجراً ومثوبة وقوله تعالى {لنريه من آياتنا} تعليل للإسراء والمعراج وهو أنه تعالى أسرى بعبده وعرج به ليريه من عجائب صنعه في مخلوقاته في الملكوت الأعلى، وليكون ما علمه من طريق الوحي قد علمه بالرؤية والمشاهدة. وقوله تعالى {إنه هو السميع البصير} يعني تعالى نفسه بأنه هو السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فاقتضت حكمته هذا الإسراء العجب ليزداد الذين آمنوا إيماناً وليرتاب المرتابون ويزدادون كفرًا وعناداً.

هداية الآية الكريمة:

من هداية الآية الكريمة:

- 1- تقرير عقيدة الإسراء والمعراج بالنبي صلى الله عليه وسلم بالروح والجسد² معاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم إلى السماوات العلى، إلى مستوى سمع فيه صرير الأقدام وأوحى إليه تعالى ما أوحى وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس.
- 2- شرف المساجد الثلاثة: الحرام، ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم، والمسجد الأقصى أما المسجدان الحرام والأقصى فقد ذكرا بالنص وأما مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ذكر بالإشارة³ والإيماء إذ قول الأقصى يقتضي قصياً، فالقصي هو المسجد النبوي والأقصى هو مسجد بيت المقدس.
- 3- بيان الحكمة في الإسراء والمعراج وهي أن يرى الرسول صلى الله عليه وسلم بعيني رأسه ما كان آمن به وعلمه من طريق الوحي فأصبح الغيب لدى رسول الله شهادة.

1 المسجد الحرام: أول مسجد بني في الأرض، ويليه المسجد الأقصى والزمن بينهما أربعون سنة، والمسجد النبوي بني بعدهما بقرون طويلة، فهذه الثلاثة أشرف المساجد على الإطلاق وعليه فمن نذر صلاة فيها وجب عليه الوفاء بالصلاة فيها، ومن نذر الصلاة في مسجدٍ غيرها جاز أن يصلي في أي مسجد آخر.

2 لا قيمة للقول بأن الإسراء كان بالروح فقط إذ لو كان بالروح لكان من المنام، ولما قال تعالى: {أسرى بعده ليلاً} ولما قالت أم هانئ: لا تحدّث الناس فيكذبوك، ولا فضّل أبو بكر بقلب الصديق ولا ما أمكن قريشا التشنيع والتكذيب، ولما ارتد أفراد عن الإسلام بتشنيع قريش، وأما إطلاق لفظ الرؤيا على المنام خاصة فليس بذاك إذ قد يطلق لفظ الرؤيا على الرؤية في اليقظة، وأعظم دليل في قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى} أي: رأي الرسول جبريل مرّة أخرى في الجنة في السماء ليلة الإسراء والمعراج كما رآه أول مرّة في حياض بمكة.

3 حدثنا شيخنا الطيب العقبي خريج المسجد النبوي الشريف: أنه ألقى كلمة في الروضة بالمسجد

النبوي ففتح الله تعالى عليه فذكر أن المسجد النبوي أشير إليه في آية الإسراء فهو إذاً مذكور في القرآن بالإيماء كما ذكرت في التفسير.

(3/173)

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)

شرح الكلمات:

وأتينا موسى الكتاب : أي التوراة.

وجعلناه هدى: أي جعلنا الكتاب أو موسى هدى أي هادياً لبني إسرائيل.

وكيلاً: أي حفيظاً أو شريكاً.

من حملنا: أي في السفينة.

وقضينا: أي أعلمناهم قضاء نافيهم.

في الكتاب : أي التوراة.

علواً كبيراً: أي بغياً عظيماً.

أولاهما : أي أولى المرتين.

فجاسوا خلال : أي ترددوا جائين ذاهبين وسط الديار يقتلون ويفسدون.

وعداً مفعولاً : أي منجزاً لم يتخلف.

معنى الآيات:

يخبر تعالى أنه هو الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأنه هو الذي

أتى موسى الكتاب أي التوراة فهو تعالى المتفضل على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته

بالإسراء به والمعراج

(3/174)

وعلى موسى بإعطائه الكتاب ليكون هدى وبياناً لبني إسرائيل فهو متفضل أيضاً على بني إسرائيل

فله الحمد وله المنة.

وقوله: {جعلناه} أي الكتاب {هدى} أي بياناً لبني إسرائيل يهتدون إلى سبل الكمال والإسعاد وقوله: {ألا تتخذوا من دوني وكيلاً} أي آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل من أجل ألا يتخذوا من غيري حفيظاً لهم يشركونه بي بالتوكل عليه وتفويض أمرهم إليه ناسين لي وأنا ربهم وولي نعمتهم. وقوله تعالى: {ذرية من حملنا مع نوح} أي يا ذرية 1 من حملنا مع نوح اشكروني كما شكرني نوح على انجائي إياه في السفينة مع أصحابه فيها، إنه أي نوحاً {كان عبداً 2 شكوراً} فكونوا أنتم مثله فاشكروني بعبادتي ووحدوني ولا تتركوا طاعتي ولا تشركوا بي سِوَايَ وقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدون في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً) يخبر تعالى بأنه أعلم بني إسرائيل بقضائه فيهم وذلك في كتابهم التوراة أنهم يفسدون في الأرض بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب، ويعلمون في الأرض بالجرأة على الله وظلم الناس {علواً كبيراً} أي عظيماً. ولا بد أن ما قضاه واقع وقوله تعالى: {فإذا جاء وعد أولهما} أي وقت المرة الأولى {بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس 3 شديد} أي قوة وبطش في الحرب شديد، وتم هذا لما أفسدوا وظلموا بانتهاك حدود الشرع والإعراض عن طاعة الله تعالى حتى قتلوا نبيهم "أرميا" عليه السلام وكان هذا على يد الطاغية جالوت فغزاهم من أرض الجزيرة ففعل بهم مع جيوشه ما أخبر تعالى به في قوله: {فجاسوا 4 خلال الديار} ذاهبين جائنين قتلاً وفتكاً وإفساداً نقمة الله على بني إسرائيل لإفسادهم وبغيهم البغي العظيم. وقوله تعالى: {وكان وعداً مفعولاً} أي ما حصل لهم في المرة الأولى 5 من الخراب والدمار ومن

1 قرىء ذرية بفتح الذال، وقرىء ذرية بكسر الذال أيضاً فهي إذا مثلثة واللفظ مشتق من الذرة، الذي هو الخلق، فيقال: ذراً يذراً ذراً: إذا خلق وفي الآية تذكير بني إسرائيل بواجب الشكر أي أشكروا كما شكر نوح، وفيها تعريض لهم بأنهم إذا لم يشكروا يؤخذوا كما أخذ قوم نوح.

2 أتتى تعالى على عبده نوح بكثرة الشكر لأنّ شكور: من صيغ المبالغة معناه كثيرالشكر روي أنه كان إذا أكل قال الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء لأجاعني، د إذا شرب قال: الحمد لله الذي أرواني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني.

3 قال: {عباداً لنا} ولم يقل: عبادي لأنهم أهل كفر وشرك وفسق فلم يشرفهم بالإضافة إليه ووصفهم بأنهم من ملكه فسخرهم لتأديب عباده الذين فسقوا عن أمره وخرجوا عن طاعته.

4 الجوس: وهو مصدر جاس يجوس جوساً معناه: التخلل في البلاد وطرقها ذهاباً وإياباً لتتبع ما فيها، والمراد به تتبع المقاتلة لقتالهم.

5 في هذه الآيات ذكر مجمل لتاريخ بني إسرائيل بدءاً من دولة يوشع بن نون بعد فتحه لبلاد القدس، وطرد العمالقة منها، وإقامة دولة فيها لأول مرة وختاماً بطردهم على أيدي الرومان وذلك سنة مائة وخمس وثلاثين بعد ميلاد عيسى عليه السلام، وقسمت الآيات هذا التاريخ قسمين معبرة عنه بالمرتين: الأولى بدءاً من دولة يوشع بن نون واستمرت إلى أن عاثوا في الأرض وفسدوا فيها بالفسق والفجور فسلط عليه البابليين فأسقطوا دولتهم، ومزّقوا ملكهم واستمروا مشتتين إلى أن ملكوا

طالوت وقاتلوا معه على عهد نبي الله حزقييل فهزموا جالوت البابلي، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ إذ تكونت لهم دولة عظيمة على عهد كل من طالوت وداود وسليمان واستمرت حتي فسقوا وفجروا فاستحقوا العذاب فسلب الله عليهم بختنصر البابلي أيضاً فأحرق هيكل سليمان، ودمر أورشليم فتركها خراباً ودماراً، وهذه هي المرة الآخرة ثم أنجز لهم الله تعالى ما وعدهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رِيكُم أَن يَرْحَمَكُم﴾ فاجتمعوا وصلحوا وعاد لهم ملكهم فترة من الزمن، وعادوا إلى الفسق والعصيان فعاد الله تعالى عليهم فسلب عليهم الرومان سنة 135 بعد الميلاد فاحتلوا بلادهم وشردهم في الأرض.

(3/175)

أسبابه كان بوعده من الله تعالى منجزاً فوفاه لهم، لأنه قضاه وأعلمهم به في كتابهم. وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد سنين طويلة وبنو إسرائيل مضطهدون مشردون نبتت منهم نابتة وطالبت بأن يعين لهم ملكاً يقودهم إلى الجهاد وكان ذلك كما تقدم في سورة البقرة جاهدوا وقتل داود جالوت وهذا معنى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي رجالاً في الحروب وكثرت أموالهم وأولادهم وتكونت لهم دولة سادت العالم على عهد داود وسليمان عليهما السلام.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان إفضال الله تعالى على الأمتين الإسلامية والإسرائيلية.
 - !- بيان سر إنزال الكتب وهو هداية الناس عبادة الله تعالى وتوحيده فيها.
 - 3- وجوب شكر الله تعالى على نعمه إذ كان نوح عليه السلام إذا أكل الأكلة قال الحمد لله، وإذا شرب الشربة قال الحمد لله، وإذا لبس حذاءه قال الحمد لله وإذا قضى حاجة قال الحمد لله فسمي عبداً شكوراً وكذا كان رسول الله والصالحون من أمته إلى اليوم.
 - 4- ما قضاه الله تعالى كائن، وما وعد به ناجز، والإيمان بذلك واجب.
 - 5- التنديد بالإفساد والظلم والعلو في الأرض، وبيان سوء عاقبتها.
- إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَبُذِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) عَسَىٰ رِيكُم أَن يَرْحَمَكُم وَإِنْ عُدتُّم عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

(3/176)

شرح الكلمات:

إن أحسنتم: أي طاعة الله وطاعة رسوله بالإخلاص فيها وبأدائها على الوجه المشروع لها.
أحسنتم لأنفسكم: أي أن الأجر والثوبة والجزاء الحسن يعود عليكم لا على غيركم.
وإن أسأتم: أي في الطاعة فإلى أنفسكم سوء عاقبة الإساءة.
وعد الآخرة: أي المرة الآخرة المقابلة للأولى وقد تقدمت.
ليسوءوا وجوهكم: أي يقبحوها بالكرب واسوداد الحزن وهم الذل.
وليدخلوا المسجد: أي بيت المقدس.

وليتبروا ما علو تنبيرا: أي وليدمروا ما غلبوا عليه من ديار بني إسرائيل تدميراً.
وإن عدتم عدنا: أي وإن رجعتم إلى الفساد والمعاصي عدنا بالتسليط عليكم.
حصيراً: أي محبساً وسجنأً وفرشاً يجلسون عليها فهي من فوقهم ومن تحتهم.
معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن بني إسرائيل فبعد أن أخبرهم تعالى بما حكم به عليهم في كتابهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً. وأنه إذا جاء ميقات أولى المرتين بعث عليهم عبداً أشداء أقوياء وهم جالوت وجنوده فقتلوهم وسبوهم، أنه تعالى رد لهم الكرة عليهم فانتصروا عليهم وقتل داود جالوت وتكونت لهم دولة عظيمة كانت أكثر الدول رجلاً وأوسعها سلطاناً وذلك لرجوعهم إلى الله تعالى بتطبيق كتابه والتزام شرائعه وهناك قال تعالى لهم: {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم} أي إن أحسنتم بإتباع الحق والتزام الطاعة لله ورسوله بفعل الأمور واجتتاب المنهيات والأخذ بسنن الله تعالى في الإصلاح البشري وإن أسأتم تعطيل الشريعة والانغماس في الملاذ والشهوات فإن نتائج ذلك عائدة على أنفسكم حسب سنة الله تعالى: {من يعمل سوءاً يجزيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً} وقوله تعالى: {فإذا جاء وعد الآخرة} أي وقتها المعين لها، وهي المرة الآخرة بعد الأولى بعث أيضاً عليهم عبداً له وهم بختنصر وجنوده بعثهم عليهم ليسودوا وجوههم بما يصيبونهم به من الهم والحزن والمهانة والذل {وليدخلوا المسجد} أي بيت المقدس كما دخلوه أول مرة {وليتبروا} أي يدمروا ما علوا أي ما غلبوا عليه من ديارهم {تنبيراً} أي تدميراً كاملاً وتحطيماً تاماً وحصل لهم هذا لما قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام وكثيراً من العلماء وبعد أن ظهر فيهم الفسق وفي نساتهم التبرج والفجور واتخاذ الكعب العالي. كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: {عسى ريكم أن 1 نرحمكم} فهذا خير عظيم لهم لو طلبوه بصدق لفاضوا به ولكنهم أعرضوا عنه وعاشوا على التمرد على الشرع والعصيان لله ورسوله. وقوله وإن عدتم عدنا أي وإن عدتم إلى الفسق والفجور عدنا بتسليط من نشاء من عبادنا فأنجزهم الله تعالى ما وعدهم فسلط عليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فأجلى بني قينقاع وبني النضير من المدينة وقتل بني قريظة كما سلط عليهم ملوك أوروبا فطاردهم وساموهم الخسف وأذاقوهم سؤ العذاب في قرون طويلة وقوله تعالى: {وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً}2 أي إن كان عذاب الدنيا بالتسلط على الظالمين وسلبهم حريتهم وإذاقتهم عذاب القتل والأسر والتشريد فإن عذاب الآخرة هو الحبس والسجن في جهنم تكون حصيراً للكافرين لا يخرجون منها للكافرين أي الذين يكفرون شرائع الله ونعمه عليهم بتعطيل الأحكام وتضييع الفرائض وإهمال السنن والانغماس في الملاذ والشهوات.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

- 1- صدق وعد الله تعالى.
 - 2- تقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم إذ مثل هذه الأنباء لا يقصها إلا نبي يوحى إليه.
 - 3- تقرير قاعدة {من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها}.
 - 4- وجوب الرجاء في الله وهو انتظار الفرج والخير منه وإن طال الزمن.
 - 5- قد يجمع الله تعالى للكافرين بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وكذا الفاسقون من المؤمنين.
- إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّيْلِ هِيَ أَفْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11)

1 تقدم أن الله تعالى أنجز لهم وعده في قوله {عسى ريكم أن يرحمكم} وأنه رحمهم فصلحوا واستقاموا، وأعادوا بناء دولتهم وسعدوا فيها زمناً ثم عادوا إلى الفسق والفجور فعاد تعالى عليهم فسلط الرومان فنقلوهم وشردوهم وذلك سنة 135 بعد الميلاد، ومن يومئذ انتهى ملك اليهود، واستمرت أورشليم تحت يد الرومان إلى الفتح الإسلامي حيث فتحت على يد عمر رضي الله عنه سنة 16 سالماً مع أهلها وهي تسمى يومئذ (إلياء).

2 الحصار المكان الذي يحصر فيه فلا يستطيع الخروج منه ففعيل (حصير) إمّا أن يكون بمعنى فاعل أي: حاصر أو بمعنى مفعول أي: محصور فيه، وفسر في التفسير بالسجن وهو كذلك إذ السجن يحصر من فيه فلا يقدر على الخروج منه.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبَيَّنُّوا فَضُلًّا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا فِي تَفْصِيلًا (12)

شرح الكلمات:

للتّي هي أقوم: أي للطريقة التي هي أعدل وأصوب.

أن لهم أجراً كبيراً: إنه الجنة دار السلام.

أعدنا لهم عذاباً أليماً: انه عذاب النار يوم القيامة.

ويدع الإنسان بالشر : أي على نفسه وأهله إذا هو ضجر وغضب.

وكان الإنسان عجولاً: أي سريع التأثر بما يخطر على باله فلا يتروى ولا يتأمل.

آيتين: أي علامتين دالتين على وجود الله وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته.

فمحونا آية الليل : أي طمسنا نورها بالظلام الذي يعقب غياب الشمس.

مبصرة: أي يبصر الإنسان بها أي بسبب ضوء النهار فيها.

عدد السنين والحساب: . أي عدد السنين وانقضائها وابتداء دخولها وحساب ساعات النهار والليل

وأوقاتها كالأيام والأسابيع والشهور .

معنى الآيات:

يخبر تعالى أن هذا القرآن الكريم 1 الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى يهدي بما فيه من الدلائل والحجج والشرائع والمواعظ للطريقة والسبيل التي هي أقوم 2 أي أعدل واقصد من سائر الطرق والسبيل إنها الدين القيم الإسلام سبيل السعادة والكمال في الدارين، {ويبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات} أي ويبشر القرآن الذين آمنوا بالله ورسوله ولقاء الله ووعده ووعيدته وعملوا الصالحات وهي الفرائض والنوافل بعد تركهم الكبائر والمعاصي بأن لهم أجراً كبيراً ألا وهو الجنة، كما يخبر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن الله تعالى

1 قوله: {هذا القرآن} الإشارة بهذا إلى القرآن الحاضر بين أيدي الناس المحفوظ في الصدور

المكتوب في السطور، وفي الإشارة إليه تنويه بشأنه وعلو مقامه بين الكتب الإلهية.

2 {أقوم} اسم تفضيل من القويم، وأقوم: صفة لمحدوف وهو الطريق أي: الطريق التي هي أقوم من

هدي كتاب بني إسرائيل إذ قال فيه: {وجعلناه هدى لبني إسرائيل} فالقرآن أكثر هداية إلى السبيل

الأقوم من التوراة.

أعد أي هيا لهم عذاباً أليماً في جهنم.

وقوله تعالى {ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير 1} يخبر تعالى عن الإنسان في ضعفه وقلة إدراكه لعواقب الأمور من أنه إذا ضجر أو غضب يدعو على نفسه وأهله بالشر غير مفكر في عاقبة دعائه لو استجاب الله تعالى له. يدعو بالشر دعاءه بالخير أي كدعائه بالخير، وقوله: {وكان الإنسان عجولاً 2} أي كثير العجلة يستعجل في الأمور كلها هذا طبعه ما لم يتأدب بآداب القرآن ويتخلق بأخلاقه فإن هو استقام على منهج القرآن تبدل طبعه وأصبح ذا توأدة وحلم وصبر وأناة، وقوله تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين} أي علامتين على وجودنا وقدرتنا وعلمنا وحكمتنا، وقوله {فمحنونا 3 آية الليل} أي بطمس نورها، وجعلنا آية النهار مبصرة أي مضيئة وبين علة ذلك بقوله: {لنبتغوا فضلاً من ربكم} أي لتطلبوا رزقكم بالسعي والكسب في النهار. هذا من جهة ومن جهة أخرى {لتعلموا عدد السنين والحساب} أي عدد السنين وانقضائها وابتداء دخولها وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها كالأيام والأسابيع والشهور. لتوقف مصالحكم الدينية 4 والدنيوية على ذلك. وقوله تعالى: {وكل شيء فصلناه تفصيلاً} أي وكل شيء يحتاج إليه في كمال الإنسان وسعادته بيناه تبييناً أي في هذا الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

- 1- بيان فضل القرآن الكريم، بهدأيته إلى الإسلام الذي هو سبيل السعادة للإنسان.
- 2- الوعد والوعيد بشاره المؤمنين العاملين للصالحات، ونذارة الكافرين باليوم الآخر.
- 3- بيان طبع الإنسان قبل تهذيبه بالآداب القرآنية والأخلاق النبوية.
- 4- كون الليل والنهار آيتين على الله تعالى وتقرران علمه وقدرته وتدبيره.
- 5- مشروعية علم الحساب وتعلمه.

1 قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما يحب ألا يستجاب له: اللهم أهلكهم ونحوه. وحذفت الواو من {يدع} كما حذفت من {سندع الزبانية} و {يمح الله الباطل}: لأنه لا ينطق بها لأصلها الساكن.

2 روي أن آدم عليه السلام لما نفخ الله تعالى فيه الروح فانتهت الروح إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر فذلك قوله تعالى: {وكان الإنسان عجولاً} قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومن مظاهر عجلة الإنسان انه يؤثر العاجل وإن قل على الآجل وإن كثر.

3 قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقتادة رحمه الله: المراد بالمحو: اللطخة السوداء في القمر ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز الليل من النهار وما في التفسير أولى أي: جعل الله

الليل مظلماً، والنهار مضيئاً لما يترتب على ذلك من مصالح العباد.
4 كمعرفة أوقات الصلاة، وشهر الصيام، والحج، وما إلى ذلك من آجال الديون ونحوها كالعدد للنساء.

(3/180)

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) أَفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
وِازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ حَبِيرًا بَصِيرًا (17)

شرح الكلمات:

طائره: أي عمله وما قدر له من سعادة وشقاء.

في عنقه: أي ملازم له لا يفارقه حتى يفرغ منه.

عليك حسيبا: أي كفى نفسك حاسباً عليك.

ولا تزر وازرة وزر أخرى: أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى.

مترفيها: منعميها من أغنياء ورؤساء.

فحق عليها القول: أي بالعذاب.

وكم أهلكنا: أي أهلكنا كثيراً.

من القرون: أي من أهل القرون السابقة.

خبيراً بصيراً: أي عليمًا بصيراً بذنوب العباد.

معنى الآيات:

يخبر تعالى أنه عز وجل لعظيم قدرته، وسعة علمه، وحكمته في تدبيره ألزم كل إنسان ما قضى به له من عمل وما يترتب على العمل من سعادة أو شقاء في الدارين، الزمه ذلك بحيث لا يخالفه ولا

(3/181)

يتأخر عنه بحال حتى كأنه مربوط بعنقه. هذا معنى قوله تعالى: {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه}. وقوله تعالى: {ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً}2 أي وفي يوم القيامة يخرج الله تعالى

لكل إنسان كتاب عمله فيلقاه منشوراً أي مفتوحاً أمامه. ويقال له: إقرأ كتابك الذي أحصى لك عملك كله فلم يغادر منه صغيرة ولا كبيرة. وقوله {كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً} أي يكفيك نفسك حاسباً لأعمالك محصياً لها عليك أيها الإنسان. وقوله تعالى: {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه} ، أي بعد هذا الإعلام والبيان ينبغي أن يعلم أن من اهتدى اليوم فأمن بالله ورسوله، ولقاء الله، ووعدته ووعدته وعمل صالحاً وتخلّى عن الشرك والمعاصي فإنما عائد ذلك له، هو الذي ينجو من العذاب، ويسعد في دار السعادة، وإن من ضل طريق الهدى فكذب ولم يؤمن، وأشرك ولم يوحد، وعصى ولم يطع فإن ذلك الضلال عائد عليه، هو الذي يشقى به ويعذب في جهنم دار العذاب والشقاء. وقوله {ولا تزرر وزر3 أخرى} الوزر الإثم والذنب والوازية الحاملة له لتؤخذ به ومعنى الكلام ولا تحمل يوم القيامة نفس أثمة إثم نفس أخرى، بل كل نفس تتحمل مسئوليتها بنفسها4، والكلام تقرير لقوله: {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها}. وقوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا5} أي لم يكن من شأن الله تعالى وهو العدل الرحيم أن يهلك أمة بعذاب إبادة واستئصال قبل أن يبعث فيها رسولاً يعرفها بربها وبمحابه ومساخطه، ويأمرها بفعل المحاب وترك المساخط التي هي الشرك والمعاصي. وقوله تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية} أي أهل قرية {أمرنا مترفياً} أي أمرنا من أغنياء ورؤساء وأشرف من أهل الحل والعقد أمرناهم بطاعتنا بإقامة الشرع وأداء الفرائض والسنن واجتتاب كبائر الإثم والفواحش فلم يستجيبوا للأمر ولا النهي وهو معنى {ففسقوا6} فيها فحق عليها القول {أي وجب عليها العذاب {فقدمناها تدميراً} أي أهلكتنا إهلاكاً كاملاً، وهذا الكلام بيان لقوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث

1 قال الزجاج ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق، وقال ابن عباس طائره: عمله وما قدر عليه من خير وشر وهو ملازمه أينما كان.

2 قالوا في علة: نشره أنه تعجيل للبشرى بالحسنات والتوبيخ بالسيئات.

3 قيل في هذه الآية {ولا تزرر وزر...} نزلت في الوليد بن المغيرة إذ قال لأهل مكة اتبعوني واكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم. وإن لم تنزل فيه فهي شاملة لكل من يقول بقوله تضليلاً وباطلاً.

4 استدلّت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على بطلان حديث ابن عمر إذ قال: إن الميت يعذب ببكاء أهله، وردّ اعتراضها بأن الميت إذا أوصى بالبكاء كان ذلك من وزره لا من وزر غيره، وقد كانوا يوصون بذلك، قال طرفة بن العبد:

إذا مت فأتبعيني بما أنا أهله

وشقّي عليّ الحبيب يا بنت معبد

ومن الجائر أن يعذب وإن لم يوص، إذا هو أهمل تأديب أهله.

5 أول المعتزلة الرسول (رسولاً) بالعقل، وقالوا: العقل يحسن ويقبح ويبيح ويحظر، وهو تأويل باطل

لا يتفق مع اللغة ولا مع الشرع.

6 شاهده حديث زينب في الصحيح: "أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث".

(3/182)

رسولاً} إذ الرسول يأمر وينهى بإذن الله تعالى فإن لم يُطع استوجب الناس العذاب فعذبوا. وقوله تعالى: {وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح} هو تقرير لهذا الحكم أيضاً إذ علمنا تعالى أن ما أخبر به كان واقعاً بالفعل فكثيراً من الأمم أهلكها من بعد هلاك قوم نوح كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وآل فرعون.. وقوله: {وكفى بريك بذنوب عباده خبيراً بصيراً}: فإن القول وإن تضمن علم الله تعالى بذنوب عباده فإن معناه الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، فإنه تعالى لا يرضى باستمرار الجرائم والآثام إنه يمهل لعل القوم يستفيقون، لعل الفساق يكفون، ثم إذا استمروا بعد الإعلام إليهم والتنديد بذنوبهم والتخويف بظلمهم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ألا فليحذر ذلك المصرور على الشرك والمعاصي!!

هداية الآيات

من هداية الآيات:

1- تقرير عقيدة القضاء والقدر.

2- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

3- تقرير العدالة الإلهية يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً.

4- بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم غير أنها لا تهلك إلا بعد الإنذار والإعذار إليها.

5- التحذير من كثرة التمتع والترف فإنه يؤدي إلى الفسق بترك الطاعة ثم يؤدي الفسق إلى الهلاك والدمار.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ

1 تجلّت عدالة الله تبارك وتعالى في أنه عز وجل لا يعذب أمة من الأمم عذاب إبادة واستئصال إلا بعد أن يبعث إليها رسوله ينذرها ويبشرها، فإذا أصرت على الكفر والتكذيب عذبها. ومنا يرد موضوع أهل الفترة بين الرسل فهل يعذبون ولم تبلغهم دعوة الله أولاً يعذبون فيكون حالهم أحسن ممن جاءتهم الرسل؟ والجواب على هذا الإشكال هو: فيما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وصح: " أن أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول يا رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول رب قد جاء الصبيان

يقذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربّ قد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربّ ما أتاني لك رسول فيأخذ موثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن: ادخلوا النار فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً. ومن لم يدخلها يسحب إليها" فظاهر الحديث أن من كان من أهل الجنة يطيع يوم القيامة ويدخل النار ثم لا يعذب بها ويدخل الجنة، ومن كان من أهل النار يعصى يوم القيامة ويدخل النار يخلد فيها، والطاعة والعصيان في هذا الامتحان دالان على حال أهلها في الدنيا لو توفرت لهم شروط التكليف التي هي: البلوغ، والعقل، والسمع، والبصر، وبلوغ الدعوة. فأولاد المشركين يدخلون ضمن هؤلاء الأربعة أيضاً.

(3/183)

الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (22)

شرح الكلمات

العاجلة : أي الدنيا لسرعة انقضائها.

يصلها مذبوما مدحورا: أي يدخلها ملوما مبعداً من الجنة.

وسعى لها سعيها : أي عمل لها العمل المطلوب لدخولها وهو الإيمان والعمل الصالح.

كان سعيهم مشكوراً: أي عملهم مقبولاً مثاباً عليه من قبل الله تعالى.

كلا نمد هؤلاء وهؤلاء : أي كل فريق من الفريقين نعطي.

وما كان عطاء ربك محظورا : أي لم يكن عطاء الله في الدنيا محظوراً أي ممنوعاً عن أحد.

كيف فضلنا بعضهم على بعض : أي في الرزق والجاه.

لا تجعل مع الله إلهاً آخر: أي لا تعبد مع الله تعالى غيره من سائر المعبودات الباطلة.

فتقعد ملوماً مخذولاً : أي فتصير مذبوماً من الملائكة والمؤمنين مخذولاً من الله تعالى.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في أخبار الله تعالى الصادقة والمتضمنة لأنواع من الهدايا الإلهية التي لا يحرمها إلا هالك، فقال تعالى في الآية الأولى (18) {من كان يريد العاجلة} أي الدنيا {عجلنا له فيها ما نشاء}، لا ما يشاؤه العبد، وقوله {لمن نريد} لا من يريد غيرنا فالأمر كله لنا، {ثم} بعد ذلك {جعلنا له جهنم يصلها مذبوماً} أي ملوماً {مدحوراً} أي مطروداً من رحمتنا التي هي الجنة دار الأبرار أي المطيعين الصادقين. وقوله تعالى في الآية الثانية (19) {ومن أراد الآخرة} يخبر

1 قال القرطبي: {مذموماً مدحوراً} أي: مطروداً مبعداً من رحمة الله، وهذه صفة المنافقين الفاسقين والمرائين والمدّاحين يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم.

(3/184)

تعالى أن من أراد الآخرة أي سعادة الآخرة {وسعى لها سعيها} أي عمل، لها عملها اللائق بها وهو الإيمان الصحيح والعمل الصالح الموافق لما شرع الله في كتابه وعلى لسان رسوله، واجتنب الشرك والمعاصي وقوله {وهو مؤمن} قيد في صحة العمل الصالح أي لا يقبل من العبد صلاة ولا جهاد إلا بعد إيمانه بالله وبرسوله وبكل ما جاء به رسوله وأخبر به من الغيب.

وقوله {فأولئك} أي المذكورون بالإيمان والعمل الصالح {كان سعيهم مشكوراً} أي كان عملهم متقبلاً يثابون عليه بالجنة ورضوان الله تعالى. وقوله تعالى: {كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً} أي أن كلا من مريدي الدنيا ومريدي الآخرة يمد الله هؤلاء وهؤلاء من عطائه أي فضله الواسع فالكل يأكل ويشرب ويكتسي بحسب ما قدر له من الضيق والوسع ثم يموت وتَمَّ يقع التفاضل بحسب السعي الفاسد أو الصالح وقوله {وما كان عطاء ربك محظوراً}2 يعني أن من أراد الله إعطائه شيئاً لا يمكن لأحد أن يصرفه منه ويحرمه منه بحال من الأحوال وقوله تعالى: {انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض} أي انظر يا رسولنا ومن يفهم خطابنا كيف فضلنا بعض الناس على بعض في الرزق الذي شمل الصحة والعافية والمال والذرية والجاه، فإذا عرفت هذا فاعرف أن الآخرة أكبر درجات 3 وأكبر تفضيلاً وذلك عائد إلى فضل الله أولاً ثم إلى الكسب صلاحاً وفساداً وكثرة وقلّة كما هي الحال أيضاً في الدنيا فبقدر كسب الإنسان الصالح للدنيا يحصل عليها ولو كان كافراً لقوله تعالى من سورة هود 4 {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون} أي لا ينقصون ثمرات عملهم لكونهم كافراً مشركين.

وقوله تعالى: {لا تجعل مع 5 الله إلهاً آخر} أي لا تجعل يا رسولنا مع الله إلهاً آخر تؤمن به وتعبده وتقرر إلهيته دوننا فإنك إن فعلت - وحاشاه أن يفعل لأن الله لا يريد له ذلك {فتقع في جهنم مذموماً} أي ملوماً يلومك المؤمنون والملائكة مخذولاً من قبل ربك لا ناصر لك والسياق وإن كان في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فإن المراد به كل إنسان فالله تعالى ينهي عبده أن يعبد معه غيره فيترتب على ذلك شقاؤه والعياذ بالله تعالى.

1 وجائز أن يكون مضاعفاً أي تضاعف لهم الحسنات إلى عشر إلى سبعين إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، فقد قيل لأبي هريرة، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله ليجزى

على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة؟ قال: سمعته يقول: "إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة".

2 لفظ الحظر لغة: المنع، محظوراً أي ممنوعاً يقال: حظره كذا يحظره حظراً وحظاراً: إذا حبسه عنه ومنعه منه.

3 ورد أن أهل الجنة يتفاوتون في درجاتهم إذ الجنة مائة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، وفي الصحيح: "أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء".

4 آية 15.

5 الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته.

(3/185)

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

1- كلا الدارين السعادة فيها أو الشقاء متوقف على الكسب والعمل هذه سنة الله تعالى في العباد.

2- سعى الدنيا التجارة والفلاحة والصناعة.

3- سعى الآخرة الإيمان وصالح الأعمال والتخلية عن الشرك والمعاصي.

4- يعطي الله تعالى الدنيا من يحب ومن لا يحب وعطاؤه قائم على سنن له في الحياة يجب معرفتها والعمل بمقتضاها لمن أراد الدنيا والآخرة.

5- ما أعطاه الله لا يمنعه أحد فوجب التوكل على الله والإعراض عما سواه.

6- تحريم الشرك والوعيد عليه بالخلود في نار جهنم.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ

لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ

عَفْوَراً (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبْتَدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ

الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27)

شرح الكلمات:

وقضى ربك : أي أمر وأوصى.

وبالوالدين إحساناً : أي وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً وذلك ببرورهما.

فلا تقل لهما أف : أي تباً أو قبحاً أو خسراناً.

ولا تنهرهما: أي ولا تزجرهما بالكلمة القاسية.
قولاً كريماً: جميلاً ليناً.

جناح الذل: أي ألن لهما جانبك وتواضع لهما.

كان للأوابين: أي الرجاعين إلى الطاعة بعد المعصية.

وأت ذا القربى: أي أعط أصحاب القربيات حقوقهم من البر والصلة.

ولا تبذر تبذيراً: أي ولا تنفق المال في غير طاعة الله ورسوله.

لربه كفوراً: أي كثير الكفر كَبِيرُهُ لنعم ربه تعالى، فكَذَلِكَ المَبْدَرُ أخوه.

معنى الآيات:

لما حرم الله تعالى الشرك ونهى عنه رسوله بقوله {ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فنقعد مذموماً مخذولاً} أمر بالتوحيد فقال: {وقضى 1 ربك} أي حكم وأمر ووصى {ألا تعبدوا إلا إياه} أي بأن لا تعبدوا إلا الله عز وجل، وقوله تعالى: {وبالوالدين إحساناً 2} أي وأوصى بالوالدين وهما الأم والأب إحساناً وهو برهما وذلك بإيصال الخير إليهما وكف الأذى عنهما، وطاعتها في 3 غير معصية الله تعالى. وقوله تعالى: {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما 4} أي إن يبلغ سن الكبر عندك واحد منهما الأب أو الأم أو يكبران معاً وأنت حي موجود بينهما في هذه الحال يجب أن تخدمهما خدمتهما لك وأنت طفل فتغسل بولهما وتطهر نجاستهما وتقدم لهما ما يحتاجان إليه ولا تتضجر أو تتأفف من خدمتهما كما كانا هما يفعلان ذلك معك وأنت طفل تبول وتخرأ وهما يغسلان وينظفان ولا يتضجران أو يتأففان، وقوله: {ولا تنهرهما} أي لا تزجرهما بالكلمة العالية النابية {وقل لهما قولاً كريماً 5} أي جميلاً سهلاً لينا يشعران معه بالكرامة والإكرام لهما وقوله تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة 6} أي ألن لهما وتطامن وتعطف عليهما وترحم. وادع لهما طوال

1 فعل قضي يكون لمعان عدة منها قضي بمعنى: أمر كما هنا، وقضى بمعنى: فرغ كقوله تعالى: {فإذا قضيت مناسككم} أي فرغتم منها، ويكون بمعنى حكم نحو: {فاقض ما أنت قاض} وبمعنى العهد نحو: {إذ قضينا إلى موسى الأمر} ويكون بمعنى الخلق نحو: {فقضاهن سبع سموات} أي: خلقهن.

2 هذه الآية نص في برّ الوالدين وحرمة عقوقهما، وشاهد ذلك من السنة قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال: "بر الوالدين" وقال: "إن من الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسبّ الرجل أبا الرجل فيسبّ أباه ويسبّ أمّه فيسبّ

أمه".

3 من شواهد الطاعة أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عبدالله بن عمر طلق امرأتك" ولأم ثلاثة أرباع الطاعة ولأب الربع لحديث الصحيح: رواه الترمذي وصححه: "من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك قال: ثم من قال أمك. قال: ثم من قال أمك. قال: ثم قال: أبوك".

4 أي: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم وعدم رضا، وأف: اسم فعل كصه ومه منون وفيه لغات. 5 الكريم من كل شيء أرفعه في نوعه.

6 ال: في الرحمة نابت عن المضاف، إذ التقدير: من رحمتك إياهما.

(3/187)

حياتك بالمغفرة والرحمة إن كانا موحدين وماتا على ذلك لقوله تعالى: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى} وهو معنى قوله تعالى: {وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً}، وقوله تعالى: {ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين 1 فإنه كان للأوابين غفوراً}. يخبر تعالى بأنه أعلم بنا من أنفسنا فمن كان يظمر عدم الرضا عن والديه والسخط عليهما فانه يعلمه منه، ومن كان يظمر حبهما واحترامهما والرضا بهما وعنهما فانه تعالى يعلمه ويجزيه به فالمحسن يجزيه بالإحسان والمسيء يجزيه بالإساءة، وقوله: {إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين 2 غفوراً} بحكم ضعف الإنسان فإنه قد يظمر مرة السوء لوالديه أو تبدر منه البادرة السيئة من قول أو عمل وهو صالح مؤدٍ لحقوق الله تعالى وحقوق والديه وحقوق الناس فهذا العبد الصالح يخبر تعالى أنه غفور له متى أب إلى الله تعالى مستغفراً مما صدر منه نادماً عليه.

وقوله تعالى: {وأت ذا القربى 3 حقه والمسكين وابن السبيل} هذا أمر الله للعبد المؤمن بإيتاء قرابته حقوقهم من البر والصلة وكذا المساكين وهم الفقراء الذي مسكنتهم الفاقة وأذلهم الفقر فهؤلاء أمر تعالى المؤمن بإعطائهم حقهم من الإحسان إليهم بالكساء أو الغذاء والكلمة الطيبة، وكذا ابن السبيل وهو المسافر يعطي حقه من الضيافة والمساعدة على سفره إن احتاج إلى ذلك مع تأمينه وإرشاده إلى طريقه. وقوله تعالى {ولا تبذر 4 تبذيراً} أي ولا تنفق مالك ولا تفرقه في غير طاعة الله تعالى.

وقوله {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين} لأنهم بتبذيرهم المال في المعاصي كانوا عصاة لله فاسقين عن أمره وهذه حال الشياطين فتشابهوا فكانوا إخواناً، وقوله إن الشيطان كان لربه كفوراً لأنه عصى الله تعالى وكفر نعمه عليه ولم يشكره بطاعته فالمبذر للمال في المعاصي فسق عن أمر ربه ولم يشكر نعمه عليه فهو إذاً شيطان فهل يرضى عبد الله المسلم أن يكون شيطانا؟

هداية الآيات

من هداية الآيات :

1- وجوب عبادة الله تعالى وحده ووجوب بر الوالدين، وهو الإحسان بهما، وكف الأذى عنهما، وطاعتها في المعروف.

1 {صالحين}: أي: مؤدين لحقوق الله تعالى وافية وحقوق عباده كذلك.

2 الأواب: الذي كلما أذنب تاب. والأواب، الحفيظ: الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربّه. وصلاة الأوابين: صلاة الضحى حين ترمض الفصائل أي تحترق أخفافها من الرمضاء فتبرك من شدة الحر.

3 هم قرابة المرء من قبل أبيه وأمه معاً. قاله ابن عباس والحسن.

4 قال مجاهد: لو أنفق ماله كله في حق ما كان مبدراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبدراً.

(3/188)

2- وجوب الدعاء للوالدين بالمغفرة والرحمة. 1

3- وجوب مراقبة الله تعالى وعدم إضرار أي سوء في النفس.

4- من كان صالحاً وبدرت منه البادرة وتاب منها فإن الله يغفر له ذلك.

5- وجوب إعطاء ذوي القربى حقوقهم من البر والصلة، وكذا المساكين وابن السبيل.

6- حرمة التبذير وحقيقته إنفاق المال في المعاصي والمحرمات.

وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً اِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّئَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33)

شرح الكلمات:

وإما تعرضن عنهم: أي عن المذكورين من ذي القربى والمساكين وابن السبيل فلم تعطهم شيئاً. ابتغاء رحمة من ربك ترجوها: أي طلباً لرزق ترجو من الله تعالى.

1 روى أبو داود وغيره أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا

رسول الله: "هل بقي من برّ والدي من بعد موتها شيء أبرهما به؟ قال: نعم الصلاة عليهما

والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقيهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك" وفي الصحيح عن ابن عمر قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي".

(3/189)

قولاً ميسوراً : أي ليناً سهلاً بأن تعدهم بالعتاء عند وجود الرزق .
مغلولة إلى عنقك: أي لا تمسك عن النفقة كأن يدك مربوطة إلى عنقك فلا تستطيع أن تعطي شيئاً .
ولا تبسطها كل البسط : أي ولا تنفق كل ما بيدك ولم تبق شيئاً .
فتتعد ملوماً: أي يلومك من حرمتهم من الإنفاق .
محسوراً: أي منقطعاً عن سيرك في الحياة إذ لم تبق لك شيئاً .
و يبسط الرزق ويقدر : أي يوسع، ويقدر أي يضيقه امتحانا وابتلاء .
خشية إملاق : أي خوف الفقر وشدته .
خطئاً كبيراً: أي إثماً عظيماً .
فاحشة وساء سبيلاً : أي خصلة قبيحة شديدة القبح، وسبيلاً بسئ السبيل .
لوليه سلطان: أي لوارثه تسلطاً على القاتل .
فلا يسرف في القتل : أي لا يقتل غير القاتل .
معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في وصايا الرب تبارك تعالى والتي هي حكم أوحاها الله تعالى إلى رسوله للاهتداء بها، والكمال والإسعاد عليها. فقوله تعالى: {وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً} أي إن أعرضت عن قرابتك أو عن مسكين سألك أو ابن سبيل احتاج إليك ولم تجد ما تعطيه فأعرضت عنهم بوجهك أيها الرسول {فقل لهم قولاً ميسوراً}1 أي سهلاً ليناً وهو العدة الحسنة كقولك إن رزقني الله سأعطيك أو عما قريب سيحصل لي كذا وأعطيك وما أشبه ذلك من الوعد الحسن، فيكون ذلك عطاء منك عاجلاً لهم يسرون به، ولا يحزنون. وقوله تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك} أي لا تبخل بما آتاك الله فتمنع ذوي الحقوق حقوقهم كأن يدك مشدودة إلى عنقك فلا تستطيع أن تنفق، وقوله: {ولا تبسطها كل البسط} أي تفتح يديك بالعتاء فتخرج كل ما بجيبك أو خزانتك فلا تبق شيئاً لك ولأهلك. وقوله: {فتتعد ملوماً محسوراً} أي إن أنت أمسكت ولم تنفق لامك سائلوك إذ لم تعطهم، وإن أنت أنفقت كل

1 روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سئل وليس عنده ما يعطي سكت انتظاراً للرزق يأتي

من الله تعالى كراهة الردّ فنزلت هذه الآية. فكان صلى الله عليه وسلم: إذا سئل وليس عنده ما يعطى قال: "يرزقنا الله وإياكم من فضله" فالرحمة في الآية: الرزق المنتظر ولقد أحسن مَنْ قال:
إلّا تكن ورق يوماً أجود بها
للسائلين فإني لئن العودِ
لا يعدم السائلون الخير من خلقي
إمّا نوالي وإمّا حسن مردودي

(3/190)
